

مجموع كلام الإمام الحداد

الذي جمعه تلميذه ومريده

الشيخ العلامة أحمد بن عبد الكريم الشجار الأحسائي

مع تعليقاته عليه، وسماه

تثبيت الفؤاد

بذكر كلام مجالس سيدي شيخ الإسلام قطب الدعوة والإرشاد

الحبيب عبد الله بن علوي بن محمد الحداد

رحمه الله تعالى

المجلد الثالث

تَنبِيهٌ

هُناكَ أربَعُ مجمُوعاتٍ استُخلِصَت مِن هَٰذا المَجمُوع وَطُبِعَت مُستَقِلَّة لِتعمِيمِ الفائِدةِ ، وهِيَ :

أولاً : كِتابُ تثبيتِ الفُؤاد الذي استَخلَصَهُ الإمامُ العلَّامةُ الحبيبُ أحمد بن حَسَن الحدَّاد مِن هَٰذَا المجموع وَسمَّاهُ بِهٰذا الاسم

ثانياً : كِتابُ مَجالِس الإمام الحدَّادِ الذِي لَخَّصَهُ الشَّيخُ العلَّامةُ أبُو بكر بن محمَّد بن عُمر المُلَّا الأحسَائي

ثالثاً : كِتابُ تَعليقَات الإمام الحدَّادِ على رَسَائِلِهِ الثَّلاث المُرِيد والمُذاكَرة والمُعاونَة

رابعاً : كِتابُ تَوضِيحَات الإمام الحدَّاد لِبعضِ مَعَاني أحادِيثِ خَيرِ العِبَاد

وَسَوفَ يَجِدُها القَارئ ضِمنَ هَٰذَا المجمُوع في أماكِنَ مُتَفَرِّقَة مِنهُ

واللهُ مِن ورَاء القَصد

يُطبعُ لأوَّلِ مرَّة

دار الحاوي

مجموع كلام الإمام الحداد

الذي جمعه تلميذه ومريده

الشيخ العلامة أحمد بن عبد الكريم الشجار الأحسائي

مع تعليقاته عليه، وسماه

تثبيت الفؤاد

بذكر كلام مجالس سيدي شيخ الإسلام قطب الدعوة والإرشاد

الحبيب عبد الله بن علوي بن محمد الحداد

رحمه الله تعالى



٣



إله الورى سهِّل على كل من قرا ... تصانيف حداد العُلا ما تعسَّرا

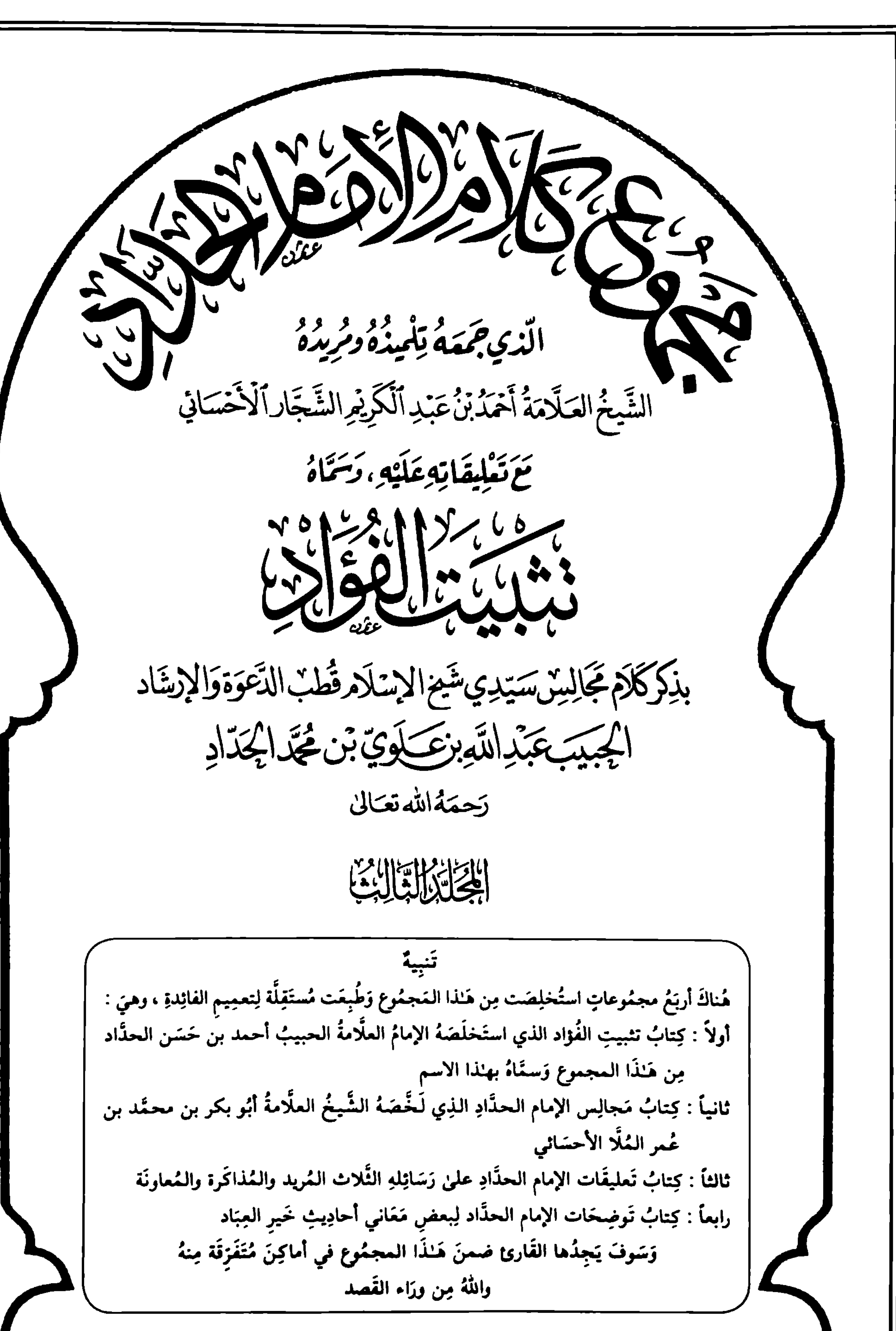
وأصلِح له كلَّ الشؤون وجُدْ له ... بعافيةٍ كبرى وأحسِنْ له القِرى

وجدِّد له في كلِّ حين كرامةً ... وفضلاً وأنعشْهُ إذا ما تعثَّرا

وهب يا وليَّ الخير أنساً وراحةً ... ورزقاً حلالاً واسعاً ومُيَسَّرَا

الأبيات الثلاثة الأولى
في ديوان الحبيب أحمد بن عمر بن سميط
والبيت الرابع
منسوب للحبيب طاهر بن عمر الحداد

الطبعة الأولى
١٤٤٢



مجموع كلام الإمام الحداد

الذي جمعه تلميذه ومريده

الشيخ العلامة أحمد بن عبد الكريم الشجار الأحسائي

مع تعليقاته عليه، وسماه

تثبيت الفؤاد

بذكر كلام مجالس سيدي شيخ الإسلام قطب الدعوة والإرشاد

الحبيب عبد الله بن علوي بن محمد الحداد

رحمه الله تعالى

المجلد الثالث

تنبيه

هُناكَ أربعُ مجمُوعاتٍ استُخلِصَت مِن هَـٰذا المَجمُوعِ وَطُبِعَت مُستَقِلَّةً لِتعميمِ الفائِدةِ ، وهيَ :

أولاً : كِتابُ تثبيتِ الفُؤاد الذي استخلَصَهُ الإمامُ العلَّامةُ الحبيبُ أحمد بن حَسَن الحدَّاد مِن هَـٰذَا المجموع وَسمَّاهُ بهذا الاسم

ثانياً : كِتابُ مَجالِس الإمام الحدَّادِ الذِي لَخَّصَهُ الشَّيخُ العلَّامةُ أبُو بكر بن محمَّد بن عُمر المُلَّا الأحسَائي

ثالثاً : كِتابُ تَعليقَات الإمام الحدَّادِ علىٰ رَسائِلهِ الثَّلاث المُريد والمُذاكَرة والمُعاونَة

رابعاً : كِتابُ تَوضِحَات الإمام الحدَّاد لِبعضِ مَعَاني أحادِيثِ خَيرِ العِبَاد

وَسَوفَ يَجِدُها القَارئ ضِمنَ هَـٰذَا المجمُوع في أماكِنَ مُتَفَرِّقَةٍ مِنهُ

واللهُ مِن وراء القَصد

يُطبع لأول مرة

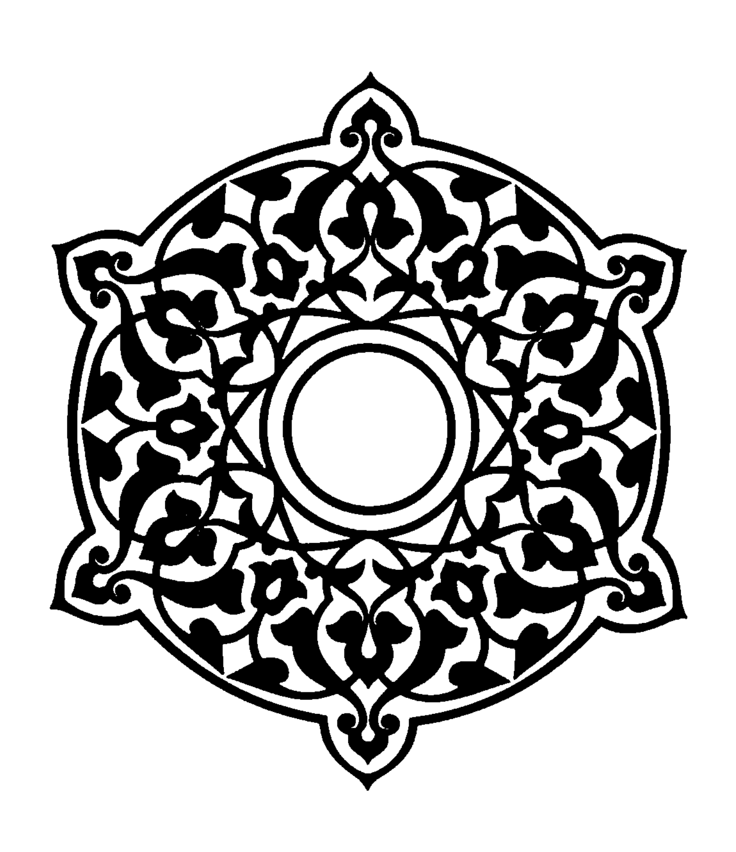
دار الحاوي

مواضيع المجلد الثالث (٣)

قصة الحية التي حضرت في مجلس الإمام الحداد • كلام الإمام الحداد عن الذين تخلفوا عن القتال في صفين مع الإمام علي كرم الله وجهه • الإرادة الأزلية والإرادة الشرعية • كلامه عن الغزل في النظم وذكر أوصاف النساء • تفسير الإمام لرؤيا الأحسائي أنه يسبح في نهر • ذكر من بنى مسجد الهجيرة • ذكر خادمه حيمد بن دامس الذي بنى بيت الإمام الحداد • قرابة السيد أحمد بن زين الحبشي من الإمام الحداد • قصة الراعية التي مرَّ عليها سيدنا عيسى ابن مريم • النهي عن الأكل إذا كان غيره ينظر إليه ولا يطعمه • صفة الغضب وصفة ضيق الصدر • معنى قوله : (من ربيناه يفوق غيره لأنَّا نربيه تربية لا يعلم بها) • الكلام على نظم ابن الفارض وابن عربي • الإشارة إلى حديث الغرانيق • تأويل كلام أبي يزيد وقول الغزالي فيه • الفرق بين اللسانين وكلام الحالَين • قصة الأحسائي عندما أصابه رمد في عينه وتفل عليه الإمام أحمد بن عمر الهندوان بأمر من الإمام الحداد • كلامه على كتاب (كشف الران عن أسئلة الجان) للشعراني • معنى قول الإمام المحضار : (لو صحَّت لي تهليلة لعشيت أهل تريم) • قصة الشيخ أحمد باجحدب مع المعلم باجابر • معنى قول الإمام في الراتب : (الخير والشر بمشيئة الله) والكلام على الإرادة الأزلية والإرادة الشرعية • قصة الرجل الذي قتل عمه ورؤية الإمام الحداد للشيخ عمر المحضار والشيخ علي بن أبي بكر وتأويله لتلك الرؤيا • رؤيا الأحسائي للإمام العدني وهو متقشف • كلامه مع خطيب سيئون عن الخطبة بدون بكاء • رؤية الحساوي لصبي أرسله إليه رجل من دمون وتأويل الإمام أحمد بن زين الحبشي لها • الأشياء الثلاثة التي نهى الإمام الحداد أن يقتدى به فيها • رؤيا بعض مشايخ اليمن أن القيامة قامت وأن الله دعى بالأئمة الأربعة للحساب • كيف هجم الوارد الشعري على الإمام عند ركوبه فرجع إلى البيت • الإمام الحداد لا ينظم الشعر في شهر رمضان • حديث الأحسائي مع رجل من أهل سقطرى • الكلام على السماع وأصله وضرب العود عند كثير من الأئمة • رؤيا الأحسائي في مسجد الجوهر • قصة الشيخ أحمد بن حجر مع السماع • ترتيب الإمام الحداد للأذكار حسب صحتها وترتيبه للنوافل • خروجه إلى الضيقة بعد أن يصلي سنة الفجر في الغيلة أو في السطح • إنكاره على الإمام في الصلاة إذا بقي مستدبر الجماعة بعد السلام • أنواع السماع التي سمعها الإمام العيدروس الأكبر • آخر مجلس سماع جلسه الإمام الحداد • كيف كانت عادة الإمام إذا كُلِّم بكلام ولم يرد أن يجيبه ؟ • رؤيا الإمام عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه للأحسائي في جبل النعير • من المسائل التي كان يسأل عنها : كيف كانت صلاة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الأيام التي لم يخرج فيها إلى المسجد وهي ١٧ يوماً • كلامه عن كتاب الغنية للشيخ عبدالقادر الجيلاني • الكلام المدسوس على الإمام الشعراني في بعض كتبه • بحث طويل ونقاش علمي مع من قال بأن كلام الله حرف وصوت والرد على ذلك • قصة ابن علوان وكيف حصلت

له الجذبة الإلهية • كلامه عن الخلفاء الراشدين والقضاء والقدر • الكلام عن وقعة الجمل وصفين • ذكر السقيفة • كلامه عن الزيدية والرافضة والإباضية • قصة هارون الرشيد مع ضراب الرمل • خروج سيدنا أبي بكر الصديق إلى اليمن قبل البعثة • قصة الإمام زيد بن علي بن الحسين مع هشام بن عبدالملك وسبب تسمية الروافض • قصة سليمان بن مهران مع الجني المسلم • مدة عبادة إبليس في السماء • الكلام عن سبب تسمية الزيدية • حديث الإفك ورجوع سيدتنا عائشة عن موقفها من سيدنا علي • إثبات نسبة العلويين وكتابة الشجرة • قبائل من العلويين في اليمن اندرسوا • بلغ عدد قبائل العلويين ١٤٠ قبيلة • آل عظمة خان بالهند • الشيخ باعباد يبني مسجد الخوقة لإزالة آثار الإباضية • الكلام عن مقتل الإمام الحسين • القضاء المعلق والقضاء المحتوم • قصيدة الإمام العدني في ذِكْر النسب • ذِكْر نسبة السادة الرفاعية • الإمام الحداد يمنع مريده من زيارة أحد المشايخ • الكلام على القيلولة والغيلولة والعيلولة • خاصية الفصول الأربعة من السَّنة • كلام مهم عن الحجامة • أنواع الجنون والجذب • الصيام لغير المكلفين لا ينبغي • لا ينبغي تقديم الصغار في الصفوف الأولى في الصلاة • الحث على كتابة تاريخ ميلاد الأولاد وتسجيلها • وصف دروسه في السبير وخروجه إليه يوم الأحد • الضواون لا تأكل لحماً يوم عرفة • الرجل الذي قال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم : (عليك وعلى أمك) • حال الإمام الحداد في الخروج للصلاة بعد مرضه وصلاته مأموماً جالساً • خروجه من الحاوي إلى بيت آل فقيه لقضاء أيام التشريق عندهم • معنى كلمة (قدُه) • ذكريات الإمام الحداد عن الحسارة التي كانت شرقي مسجد أحمد بن الفقيه • الفرق بين القهوة والدخون • الإختلاف في رؤية الهلال وموقف الإمام الحداد منه • الخنثى المشكل وما يتعلق به من الأحكام وذِكر القصص الواردة في ذلك • ذِكر أنساب بعض القبائل آل باشيخ وآل باسالم وغيرهم • قصة اللصوص الذين نهبوا القافلة • العزيمة التي أقامها له ابن أخيه السيد عمر بن علي الحداد • ذكر بعض من حجَّ من الشيوخ وهو في التسعين من عمره • ذكر دخول الإمام الحداد للدرع في بيته بعد مدة طويلة • قصة خادمه عوض مع الأحسائي في دخول وقت صلاة الظهر • قصة السيد أحمد بن زين الحبشي عندما جاء إلى الإمام الحداد مع زوجته وبشارته لهم بابنهم جعفر • كلامه لعبود بن إسحاق ، وذكر الأنبياء : إسماعيل وإسحاق • ذكر مقام إبراهيم وتأثير أقدامه في الحجر • ذكر أول قراءة وقعت بعد انقطاعها بسبب مرضه • التحذير من اللحن في الإنشاء والقراءة • عزيمة الحُمَّى التي كان يعملها الأحسائي للناس وموقف الإمام الحداد منها • مطالعة السيد زين العابدين في البخاري والإحياء مع الأحسائي • الدعاء الذي كان يقرأه الإمام الحداد في مجالسه • رجل استأذن الإمام أن يفعل بركة بمكان (الغبرة) • أبناء الشيخ باجبير وتعلقهما بالإمام الحداد • ذِكْر الشيخ محمد بن صالح بن دوغان • قصة خادمه الذي كان يتوعَّده الإمام بقوله : (ما لك ألّا وادي الدواسر) • رؤيا الأحسائي للإمام الحداد

عام ١١٧٣ وهو بالأحساء • معنى : (إذا هاجت الفتن فعليكم باليمن) • الوسوسة من العين • قصة الشخص الذي يتردد بمتاعه إلى السوق ولا يباع لكساده • مناقب حسنة لأهل تريم • قصة الجماعة الذين وفدوا على أحد الملوك وفيهم عرب وعجم • قصة الحبيب أحمد بن عمر الهندوان مع باحميد في فاتحة الصلاة • كلامه للأحسائي وهو حامل المروحة يروح عليه • هل من الجن أشراف ومشايخ ؟ • كلامه في حالة الغداء مع أولاده عن الأدب والكرم عند العرب والعجم • كلامه وهو في فسحة في غرفة آل فقيه في الصالح عن أهل شبام وبيوتهم • زيارة آل شهاب وآل الشيخ أبي بكر لنبي الله هود عليه السلام • كلامه للسيد عمر البار وهو ماسك بيده عن العلماء في دوعن ووادي عمد • قصة الشريف التاجر مع رجل فقير من آل بافضل • صلاة الصبح في مسجد باعلوي ليلة الختم • كلامه عن الشيخ العمودي والشيخ حسين بافضل • تاريخ إقامته للذِّكر (الحضرة) في ليلة الجمعة أول محرم ١٠٧٢ وترك زيارة التربة المعتادة في ذلك الوقت • ذكر بعض أسماء حارات تريم القديمة وانتقال العلويين إليها • قصة الكيسَيْن من الدنانير أرسلها الحاكم العباسي إلى الشيخ عبدالقادر الجيلاني • ذكر الإمام الغزالي والشيخ عبدالقادر ومقاميهما • ذِكْر ابتداء مرض وفاته • إخبار الناس بوفاته وأثره فيهم • لحظة خروج الجنازة • ما نقل عن ابنه الحبيب علوي بن عبدالله • تفضيل الصيف على الشتاء • كيفية المشابكة والتلقين • معرفة الرجل الأحمق من الرجل العاقل • الفرق بين التذكير والتذكر والذكرى • ذِكْر كلمات ذكرها في (رسالة المريد) و (رسالة المذاكرة) و (رسالة المعاونة) ثم تكلم عليها في مجلس القراءة • ذِكْر شيء مما وقع في جهة الحساء والقطيف • وغير ذلك كثير .



قال رضي الله عنه : « ما عاد مجالستنا لأهل الزمان ومداراتنا لهم إلا كمداوي الجرحى ، والمداراة هي التي نسميها المراعاة ، ولكنها إذا كانت بالدين لأجل الدنيا فهي المداهنة ، ولكن التودد إلى الناس بحسن الخلق من المداراة ، والتُّؤَدَة التثبت في الأمر حتى يتبين رشده ، فإذا تبين فالتأخر تَوانٍ وهو مذموم ، والمحمود التأني فيه حتى يأتي به على الوجه المطلوب . وينبغي أن يداري الناس بحسن الخلق، وهذا لمن خالط الناس وعرف طبقاتهم وأحوالهم » .

قال : « ينبغي أن يأخذ الإنسان من الأعمال على قدر ضعفه وضعف زمانه ، ولا يَدَّعي القوة في غير موضعها ، لأن أمور الدين كالمسك ، كلما ازْدَدْتَ له شَمًّا نقصت رائحته عندك » ، أي في شمِّك .

وقال له رجل : « إعطوني طريقة ساداتنا آل باعلوي » ، فقال : « انظروا إلى الأعمال ولا تنظروا إلى الأقوال ، ومن أرادها ينظر إلى أفعالهم وأقوالهم ، ومن رآنا ظن أنَّا على الطريق الخاصة طريقة المقربين، وليس كذلك ، إنما نحن على الطريق العامة ، وهي طريقة أصحاب اليمين ظاهر الكتاب والسنة » .

أقول : ومعنى قوله هذا أن مقامه مقام الدعوة العامة إلى الله تعالى لعموم الخلق وأن يقتدوا به فيها في سيرته وشمائله ، من أعماله وأقواله وأخلاقه ، عبادةً وعادةً . وهذه هي طريقة أصحاب اليمين، وهي الطريقة الموصلة إلى الطريق الخاصة طريقة المقربين ، ولا يصلها حتى يُحكِم العامة أولاً ، كما قال: « ولا يصل إلى الطريق الخاصة حتى يُحكِم الطريق العامة ولو عاش عمر نوح » ، ولا ينبغي أن يسير الداعي فيما بين الخلق إلا على الطريق العامة ، فيدعوهم إلى الإقتداء به فيها ، ليسلكوها ويسيروا عليها، وهذا هو شأن الأنبياء وكُمَّل ورثتهم ونوابهم من الدعاة إلى الله ، سيرة عامة ظاهرة لعموم الخلق ، ومن له نصيب في الطريق الخاصة بَلَّغَهُ الله إليه منها .

وشأن سيدنا عبدالله وحقيقة أمره الخاص به فيما بينه وبين ربه ، فهو شأن معلوم وطريق مخصوص على أكمل حال وأعلى مقام ، لا يسلكه إلا خصوص الخصوص من المقربين السابقين ، فإذا كانت هذه سيرته في الظاهر بين الناس ، وهو الواجب على أهل الدعوة إلى الله من الكُمَّل ، أن يدعو الخلق إلى الله على هذه الطريقة ، إذ ما كَلَّفَ الله الخلق بطريق الخصوص ، ولا كَلَّفَ الدعاة أن يدعوا الخلق إليها ، ولكن الله سبحانه له خواص من عباده ، ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾، وإذا اتفق له من هؤلاء المخصوصين أحدٌ من أهل طريقة المقربين ، رقَّاه إليها وأوصله وجمعه عليها ، فهذان مقاماه في الدعوة للخلق على طبقاتهم ، الخاص بخصوصه والعام بعمومه ، ولكن لما كان الأكثر من أهل دائرة الإسلام على هذه الطريقة العامة - وإنما أهل طريقة الخواص فيها كالنقطة من البحر - كان الظاهر من أهل مقام الدعوة إلى الله التظاهر بالطريقة العامة لعموم الخلق .

والجاهل بالحال وبهذا الأمر على هذا الوجه يظن خلاف ذلك ، ومن سمع ظاهر كلام سيدنا هذا المذكور هنا ، يظن أنه في الحالين على ما فهم مما ذكر ، وإنما الأمر تحقيقاً على ما بَيَّنَّا كما ذَكَرْنا ، كما أن من سمع قوله : « **أنا متحسف على ثلاثة أشياء** » - كما تقدم ذِكْرها - : « **التشفيع في رمضان ، واعتكاف العشر الأخيرة منه ، وصلاة الصبح بوضوء العشاء** » ، فيظن أنه لم يفعلها قط وأنه يتمناها ، وليس كذلك ، بل كما بَيَّنَّا أنه فعلها في ابتداء أمره وأول عمره ، فلما كان آخر عمره تعذرت عليه لشغله بكمال دعوة الخلق الخاص والعام ، ولذلك قال : « **كان ذلك والبصيرة إذ ذاك كليلة والقوة قوية ، والقوة الآن كليلة والبصيرة قوية** » ، أو كما قال . ومراده بكلامه هنا وهناك معان يعرفها هو ، ولم يعرفها إلا الكُمَّل ، ومن معاني ذلك طلب الستر والخمول والرغبة في تغطي أحواله عن الخلق .

ويكفيك في هذا إشارةً ما ذَكَرْتُ عنه من قصة رؤياي أني أسْبَحُ في ماء ، وتكررت الرؤيا نحو ستين مرة ، فسألته عنها فسألني : « **الماء عذب ؟** » ، قلت : نعم ، قال : « **وأنت تحسن السباحة ؟** » ، قلت : نعم . ثم سكت ، فقلت : أوِّلُوها لي لأعرف تأويلها . فلم يتكلم ، فقلت : ما تُأوِّلُونها ؟ فلم يَرُدَّ عَلَيَّ بحرف ، فاستحييت منه لتكريري عليه ، فسكتَ وسكَتُّ . وكان ذلك في الطريق وهو سائر إلى السبير ، فلما رجعنا منه بعد زام طويل ، خطر لي أنظر كلمة في كتاب « حياة الحيوان » ، ففتحت الخزانة وتناولته ، فحين فتَحْتُهُ قابلني فيه بخط أحمر قوله : « التعبير : من رأى أنه يَسْبَحُ في ماء والماء عذب وهو يحسن السباحة ، فإنه يخالط رجلاً من الأكابر » .

فانظر إلى هذا - كما هو عادته - العجب العجيب أنه سألني عن الأمرين ، كون الماء عذباً وكوني أحسن السباحة ، فعرف التأويل فلم ينطق لي به ، مع ترددادي له بالكلام ، لعلمه أنه المشار إليه بأني أخالط رجلاً من الأكابر ، فما لي بأحد هناك مخالطة سواه ، فما استحسن ذكر ذلك لذلك ، وإنما هو تعبير رؤيا لا عليه منه . وكان الإمام الدميري شاهداً لسيدنا أنه من الأكابر ، ونِعم الشاهد وكفى به ، وفي هذه القصة عبرة وأي عبرة ، وفيها دليل واضح على ما منح الله سيدنا من كمال التصرف ، حيث أنه كان راغباً في اطلاعي على تعبير الرؤيا من غيره لا منه ، ولهذا امتنع من ذكر التعبير لي ، مع معالجتي له فيه ، فساقتني المقادير إلى فتح ذلك الكتاب ووقوفي على التعبير في أول نظرة نظرت إليه ، ولو أنني عالم بذلك وفتحته لأراه ما وَقَفْتُ عليه في أول نظرة حتى أتعب في تصفحه وتقليب أوراقه .

فافهم واعتبر في هذا ، مما يدل على عظيم تصرفه ، ودقة أمره وشؤونه ، وافهم معنى سَوْق المقادير العبد إلى ما يريده الله منه ، وجَرِّه إليه بتلك الكلاليب المتقدم ذِكْرها .

وتقدم في أول هذا النقل قوله لعبدالله باسعيد العمودي : « **كم أَلْسِنَةُ الدعوة ؟** » ، فقال : « الله أعلم وأنتم » ، فقال : « **خمس** » ، ومر هناك تفصيلها كما ذَكَرها .

ثم أقول : وَمَن نَزَلَ عن المَقَامَيْنِ المبيَّنَيْن في الحديث ، مقام الرضا : مقام عباد الله المقربين السابقين الخصوص ، ومقام الصبر : مقام الأبرار أصحاب اليمين عامة المؤمنين ، نزل إلى المقام الثالث من جملة الآدميين الخارجين عن الدين ، مقام أصحاب الشمال ، إذ الخلق جملتهم ثلاثة أصناف لا فوقها ، كما قال تعالى : ﴿وَكُنتُمْ أَزْوَاجًا ثَلَاثَةً ۝﴾ ، ثم فَصَّلَها .

وقلت لسيدي يوماً : ما لنا بعد رسول الله ﷺ إلى الله وسيلة سوى رؤيتكم والإتصال بكم والإنتساب إليكم ، *فقال* : « **إن فضل الله إنما يجيء من باب واحد** » هـ .

أقول : لعل مراده يعني إنما يصل من الله إلى عبد من عبيده ، بواسطة النبي ﷺ ، أو من ينوب عنه في كل زمان ، وهو واحد . وأن سيدنا واحد زمانه .

قال : « **وجاءتنا أوراق من أناس من أهل الحساء يُسَلِّمون عليك ، وذكروا إن أردتم حاجة أو شيئاً قولوا لنا ، ونحن لكم في الخدمة . أوَ نحن تجار حتى نحتاج إليهم ؟ ما حاجتنا إليهم إلا أنهم يتقون الله ، ويؤدون ما عليهم من حقوق الله وحقوق عباده ، فهذه حاجتنا التي نطلب منهم ، لأن هذه هي حاجتنا من أنفسنا نطلبها منها فنحتاج إليهم فيها ونطلبها منهم أيضاً** » ، أو كما قال .

وجاءه كتاب من الشيخ حسين العدساني قاضي الحساء ، *فقال لي* : « **جاءنا من الشيخ حسين كتاب، وهو يسلِّم عليك** » ، فقلت : وعليكم وعليه السلام ، وإذا كتبتم إليه فسَلِّموا مني عليه .

ثم بعد أيام ، *قال* : « **كتبنا للشيخ حسين كتاباً ، وسَلَّمْنا منك عليه . فقلنا : يسلم عليك الشيخ أحمد بن عبدالكريم . فسميناك شيخاً تفاؤلاً بأن تحصل لك رتبة المشيخة** » ، وهذا من جملة مزاحه معي ومباسطته لي ، كما قد ذَكَرْتُ من ذلك عنه كثيراً في هذا النقل .

فقلت له بعد قوله لي ذلك : ما مقصدي إلا أن أكون مرضياً عند الله وعندكم ، *فقال رضي الله عنه* : « **اتبع رضا الله ورسوله ولا عليك ، فالباقي تَبَعٌ له ، والإنسان لا يقطع بحسن العاقبة لأحد إلاّ لمن ورد فيه نصٌّ كالعشرة من الصحابة ، فَسَلِّمْ ما فيه القطع ودع عنك غير ذلك ، فلو قيل لك : إن فلاناً من المشايخ السابقين ، هل تقطع بأنه في الجنة ؟ لقلتَ : لا** » .

فقلت له : لكن بعض الناس يقع في الخاطر أنه كاليقين أنه من أهل الجنة ، *فقال* : « **لا ، إنما هذا عيش النفس ، فلو قوَّمَك - أي تقديراً - من مجلسٍ أنتَ فيه جالس إلى مكان آخر تَغَيَّرتَ عن تلك الحال ، وإنما ذلك ما دمتَ راضياً** » .

فقلت له : فالعمر يمضي على هذا التلبيس من النفس ، ولم يعرف الصواب ، **فقال** : « لا ، إلْزَمْ الطريقة المثلى والمحجة البيضاء ، ولا عليك من هذا ، فكل شيء يرجع إليها » .

فقلت له : فهل هذا التلبيس من النفس يكون لبعض الناس أو لكلهم ؟ ، **فقال** : « لبعضهم ، وبعضهم يكشف اللهُ لهم الحق ويقيمهم عليه من غير تَعَمُّلٍ منهم ، مثل الذي يتكلم من غير لحن ، وهو لا يعرف نحواً وإعراباً ، وآخر يعرف أحكام النحو وهو كثير اللحن » .

فقلت : فعسى ببركتكم يحصل التوفيق لطرح الأشياء على من هي عليه ويستريح الخاطر ، **فقال** : « نعم ، هذا هو الصواب ، إلا أن الله يقيم الناس على درجات ، كما يريد ، ولا يُمَكِّن الإنسان ولا يثبت له أن يقيم نفسه في شيء ، ولهذا كانت الجنة درجات والنار دركات ، فلو كان مع إنسان عشرة أعبد، هل كل واحد يقيم نفسه فيما يريد أو سيدهم هو الذي يقيمهم ؟ بل هو ، فيجعل واحداً على الباب مثلاً ، وآخر في الضيقة - أي الدهليز - وواحداً في الرقاد - أي الدرجة - وواحداً عنده في الغيلة - أي الغرفة - ونحو ذلك ، ويوعد كل واحد بما أراد إذا قام بما أمره به ، وكلٌّ منهم فايزٌ إذا قام بما عليه ، وإن اختلفت درجاتهم ، وَوَعْدُه لهم حاصل ، إذ لا يُخْلِف . وأما العبد السوء فيبقى متعلقاً بالوعد ، حتى إنه يطلب أجرته قبل العمل ، درهماً إذا وعده عليه بدرهم ، وإنما المطلوب أن يكون متعلقاً بالخدمة لا بالأجرة ، وما وعده لا يفوته ، وفي هذا اختلفت درجات العباد » .

انتهى ما حصل في هذا المجلس المبارك الأنيس ، وهذا ومثل هذا يكون من التبسط معه في أوقات البسط والفسحة وكل أوقاته أوقات بَسْطٍ وأُنسٍ كما قال القائل :

أُوَيْقَاتُ وَصْلٍ لَوْ تُبَاعُ شَرَيْتُهَا ... بِرُوحِي وَلَكِنْ لَا تُبَاعُ وَلَا تُشْرَى

فرضي الله عنه ، ونفعنا ببركاته وأسراره في الدنيا والآخرة . وكان مجلسه هذا مجلس ضحوة يوم الأحد بالسبير ، كما هي عادته الخروج إليه يوم الأحد .

أقول : « الضيقة » : هو الدهليز ، و « الرقاد » : الدرجة ، و « الغيلة » : الغرفة كذا في لغة حضرموت .

وقوله : « بعضهم يكشف الله لهم الحق ويقيمهم عليه من غير تَعَمُّلٍ » ، وتمثيله بمن سجيته الإعراب بلا معرفة نحو ، وبمن طبيعته اللحن مع معرفة أحكام النحو كل ذلك دليل على ما تقدم أن لا عمل يسعد أو يشقي ، ولا سعادة ولا شقاوة إلا بما اقتضته الإرادة الأزلية ليس إلا ، ودع عنك كل شيء غير ذلك .

ومما يناسب للكلام المتقدم، من تمثيله بالأعبد العشرة، أني رأيت ليلة ٢١ ربيع آخر من سنة ١١٢٥ رؤيا ملخصها : كأن سيدي يقول لي : نريدك تسافر إلى بلادك ، فقلت : تفضلوا عليَّ بالمقام عندكم ، فقال : « سر إلى بلادك أحسن لك » ، فطلبت الجلوس ، وأعتذر إليه ، هكذا وقع ثلاث مرات، إذ لا طاقة لي بفراقه ، كما لم أطق الجلوس بعده ، فلما أكد علي في المسير ، وأنا أطلب منه الجلوس، ولا قَبِلَ لي عذراً ، فقلت له : أروح بماذا ؟ أريد أن تظهر عليَّ ثمرة مقامي عندكم ، أتريدون أن أروح كما جئت؟ لا يكون ذلك أبداً . فلما علم ما أردت ، سكت ساعة متبسماً ، كما هي عادته ذلك يقظة ومناماً . وكذلك ومثل ذلك حصل لي في مرائي مراراً متعددة حصلت بعد وفاته .

ثم إنه في الرؤيا أراد أن يجيبني بكلام ، وخاف أن يَثْقُلَ ذلك عليَّ ، ويشتغل منه خاطري ، فضرب لي مثالاً فَهِمْتُ منه ما أراد ، فالله المستعان . وهو أنه قال : « **إن واحداً له عبدان ، أحدهما صادقٌ في خدمة سيده ومخلصٌ فيها بظاهره وباطنه كما يحب سيده ، وسواء كان بحضرة السيد وفي غير حضرته والسيد يحبه لذلك كثيراً . والآخر ليس كذلك ، لا في خدمة السيد ولا في محبته صادق كالآخر ، بل إذا كان في مرأى من السيد تكلف أن يكون مثل الآخر ، وإذا خلي منه لا يبالي ، ولو ضيع حق سيده، فاتفق أن كانا يوماً بمحضر من سيدهما ، فقال السيد لذلك الصادق : نعم العبد أنت يا فلان . فلما سمعه الآخر غار ، فزاد في التكلف في حضرة سيده وتطاول ، طامعاً أن يثني عليه كما أثنى على صاحبه ، فاتفق أن قال له السيد وصاحبه الصادق يسمع : يا فلان ، ولو تكلفت ما عسى أن تتكلف من خدمتنا ، ما أنت إلا بئس العبد** » .

قال الرائي : فغلبني البكاء كثيراً ، حيث فَهِمْتُ أنه أراد أنك مثل هذا العبد المقصر الناقص ، وأنت تطلب أن تكون عند سيدك مثل ذلك الصادق الكامل ، وشتان ما بينكما .

وانظر ما أشبه تمثيله بالأعبد في اليقظة والمنام ، والأعبد العشرة إنما يقيمهم سيدهم لا يقيمون أنفسهم ، فإذا أقام واحداً في مقام أعلى من مقام الآخر ، كان الأعلى أحب عنده ، وليس ذلك بتعمل من العبد ، فليس الذي أقامه السيد في الضيقة عند السيد كالذي أقامه عنده في الغيلة ، فكذلك أحد الاثنين في تمثيل المنام الذي أقامه في مقام الصدق ليس عنده كالآخر ، بل هذا الصادق أحب ، وما نفع الآخر الذي دونه تَكَلُّفَهُ وَتَعَمُّلَهُ ، بل قال له : « بئس العبد أنت » .

وهذا مثالٌ لوصف هذَيْن العبدَيْن الصالح والطالح ، ومقامَيْهما من الفريقَيْن الخاصة المقربين القائمين بكل ما طُلِبَ منهم على أكمل وجه ، مخلصين لله امتثالاً لأمر الله ، وللعامة المخلِّينَ بالحقوق اللازمة ، الذين أحسنُ أحوالهم أن يكونوا من أصحاب اليمين ، على ما ذكر سيدنا من وصفهم كما تقدم ذِكْره .

وشتان ما بينهما ، لكن الإنسان من طبعه - وإن كان معدوداً في درجة أهل أسفل سافلين - يريد ويتمنى أن يكون في درجة أهل أعلى عليين ، فليخس ولا يتعد طَوْرَهُ ، فليس له إلا ما كَتَبَ اللهُ له ، كما تقرر هنا ، وربما ادَّعى الناقص عن ذلك الشأو أنه من أهله ، لكن إن ساعده التوفيق وسبقت له العناية وانتهض ، والتحق بمن رام اللحوق بهم فكان منهم ، وإلا باء بالخيبة والخسران . والمثال يبيِّن قوله المتقدم ، ومن هو متعلق بالخدمة أو بالأجرة ، ويدل على قوله : « **لا تقطع بحسن العاقبة لكل أحد ، إلا لمن ورد فيه النص** » .

وإن عُلُوَّ المنزلة عند الله مطلوبة بالشرع ، وإنما تكون بإرادة الله لا بإرادة العبد ، وإذا مَنَّ الله بها على عبد كان عمله عند الله أرجح من عمل غيره ، ويُفهَم أن الناس في العبادة وفي العبودية على قسمين: الخواص المقربون وخواصهم ، والعامة أصحاب اليمين على درجاتهم . وقد بَيَّن النبي ﷺ مقامَي الفريقين بقوله : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » . ويفهم أيضاً قول القائل :

إنَّ السَّعَادَةَ شَيْءٌ لَيْسَ يُدْرِكُهُ صِنْفٌ مِنَ النَّاسِ إلا بِالمَقَادِيرِ
مَمْنُوعَةٌ مِنْ أُنَاسٍ طَالِبِينَ لها وَقَدْ تُسَاقُ إلى قَوْمٍ بِتَيْسِيرِ

وأن من سبقت له من الله السعادة لا يضره ما عمل من سوء ، فآخره يرجع إلى ما سُبِقَ له من التوبة وفعل الخير من العمل الصالح ، ثم القدوم على الخير ، ومن سُبِقَ له ضد ذلك لا ينفعه ما عمل من حَسَن ، فآخره يرجع إلى ما سُبِقَ له من فعل الشر والقدوم عليه ، فالله سبحانه يفعل ما يشاء ، ويحكم ما يريد ، أسعد من أسعد لا بوسيلة منه سابقة ، وأشقى من أشقى لا بجريمة منه متقدمة ، بل ذلك بمحض الإرادة منه سبحانه ، سَبَقَ منه السعادة لطليحة بن خويلد الأسدي ، فَخَتَمَ له بحسن الخاتمة بعدما صدر منه من الإرتداد عن الإسلام ، وكِذْبه بدعوى النبوة ، وقَتْل عكاشة الذي قال له النبي ﷺ : « أنت منهم » ، يعني من السبعين الألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب . وأشقى شيخاً من مشايخ الصوفية الـمُسَلِّكين ، له تلامذة ومريدون ، فمات على النصرانية ، ذكره في كتاب « الحريفيش » .

وأن المحبوب خطاياه محمولة ، وسيئاته مغفورة ، وأن المبغوض طاعاته غير مقبولة ولا مشكورة ، كما أشار إلى ذلك سيدي أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه في حزب البر ، حيث يقول : « اللهم اجعل سيئاتي سيئات من أحببت ، ولا تجعل حسناتي حسنات من أبغضت ، فالإحسان لا ينفع مع البغض منك ، والإساءة لا تضر مع الحب منك ، وقد أَبْهَمْتَ الأمر علينا لنرجو ونخاف ، فأَمِّن خوفنا ولا تُخَيِّب رجانا » ، وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه :

فَـمَا شِـئْـتَ كَانَ وَإِنْ لم أَشَـأْ وَمَـا شِـئْـتُ إِنْ لم تشـأ لم يَكُـنْ
خَلَقْـتَ العِبَـادَ لما قَـدْ عَلِمْتَ فَفَـي العِلْـمِ يَجْرِي الفَتَـى وَالمسِنْ
عَلَى ذَا مَنَنْـتَ وَهَـذَا خَذَلْـتَ وَهَـذَا أَعَنْـتَ وَذَا لم تُعِـنْ
فَمِنْهُـمْ شَـقِيٌّ وَمِنْهُـمْ سَـعِيدٌ وَمِنْهُـمْ قَبِيْـحٌ وَمِنْهُـمْ حَسَـنْ

وقَسَّم الناس في هذه الأبيات أربعة أقسام فقال :

أَرْبَعَـةٌ يُعْجَـبُ مِـنْ شَـأْنِهِمْ فَالعَيْنُ مِـنْ فِكْرَتِهِـمْ سَـاهِرَةْ
فَوَاحِـدٌ دُنْيَـاهُ مَبْسُـوطَةٌ ليسـت لَـهُ مِـنْ بَعْدِهَـا آخِـرَةْ
وثـانٍ دُنْيَـاهُ منقوصـةٌ وآخـرُ آخِـرَةٍ وَافِـرَةْ
وثالـث قـد نـال كِلْتَيْهِـما فَأُعْطِـيَ دنْيَـا مَـعَ الآخِـرَةْ
ورابـع أُخْـرِمَ كِلْتَيْهِـما فَـرَاحَ لا دُنْيَـا وَلَا آخِـرَةْ

والكل من تصريف الله وتدبيره في خلقه بمقتضى إرادته الأزلية ، وما أحسن ما قاله الشيخ عبدالغني النابلسي في المعنى ، فإن مشرب أهل الحق كلهم واحد ، وعباراتهم كلهم فيه متحدة ، وهو هذا :

رُبَّ شَـخْصٍ تَقُـودُهُ الأَقْـدَارُ لِلْمَعَـالي وَمَـا لِـذَاكَ اخْتِيَـارُ
غَافِـلٌ وَالسَّـعَادَةُ احْتَضَنَتْـهُ وَهْـوَ مِنْهَـا مُسْـتَوْحِشٌ نَفَّـارُ
يَتَعَاطَـى القَبِيْـحَ عَمْـداً فَيلْقَـاهُ جَمِيـلاً وَفِلْسُـهُ دِينَـارُ
كُلَّـما قَـارَفَ الذُّنُـوبَ أَتَتْـهُ تَوْبَـةٌ طَهَّرَتْـهُ وَاسْـتِغْفَارُ
وَعَلَيْـهِ إِنْ زَلَّ عَـيْنٌ مِـنَ اللهِ تَقِيْـهِ وَيَسْـتُرُ السَّـتَّارُ
فَهْـوَ بِـالله دَائِـماً يَتَرَقَّـى لا بِـهِ حَيْـثُ تُشْرِقُ الأَنْـوَارُ
وَفَتـىً كَابَـدَ العِبَـادَةَ حَتَّـى مِنْـهُ قَـدْ مَـلَّ لَيْلُـهُ وَالنَّهَـارُ
يَتَسَامَى بِالذِّكْرِ وَالفِكْرِ قَصْداً وَهْـوَ نَـاءٍ وَعَنْـهُ شَـطَّ المزَارُ
يَفْعَـلُ الخَـيرَ ثُـمَّ يَلْقَـاهُ شَراً وَإِذَا رَامَ جَنَّـةً فَهْـيَ نَـارُ

حِكَـمٌ حَـارَتِ البَرِيَّـةُ فِيهَـا وَحَقِيـقٌ بِأَنَّهَـا تَحْتَـارُ

وَعَطَايَـا مِـنَ المُهَيْمِـنِ دَلَّـتْ أَنَّـهُ اللهُ فَاعِـلٌ مُخْتَـارُ

انتهى . وأود أن لو قصصتُ الرؤيا على سيدي عبدالله وكان يمكنني أن أقصها عليه وأسمع ما كان يقول فيها ، كما قد قصصت عليه غيرها ، وذَكَرْتُ ما قال فيها ، كما تقدم أول هذا النقل وفي أثناه، وإنما منعني من ذلك أنه عالجني ولَزَّمَ عليَّ فيها في السفر إلى بلدي ثلاث مرات ، وأنا أعتذر وأطلب إذنه في الإقامة عنده ، فخِفتُ أنه إذا سمع ذلك أن يجعل الرؤيا يقظة ، ولا يعذرني في الجلوس ، والمثال حقيقة ، فهذا هو الذي منعني ، وبعد ذلك وددتُ أن قد فعلت ، وأبقى في ذلك بين الخوف والرجاء ، ولعل ما خِفْتُهُ أن لا يكون ، ولعل ما رجوتُه أن يكون ، كما قيل :

فَلَعَـلَّ مَا تَخْشَاهُ لَيْسَ بِكَائِنٍ وَلَعَلَّ مَا تَرْجُوهُ سَوْفَ يَكُونُ

ولكن ما أراد الله إلا ما قد كان . وفي أمثال هذه المعاني يكون شدة الخوف والرجاء ، فمرة يعتدلان ، ومرة يترجح أحدهما بمقتضياته وأسبابه ، ولسان حال الخائف يقول : فيا ليت شعري من أي الفريقين أنا ؟ ممن لا تضرهم سيئاتهم أم ممن لا تنفعهم حسناتهم ؟ نسأل الله اللطف والعافية وكمال التوفيق .

وتكلم في الكلمة التي تقال أربعاً صباحاً ومساء : « اللهم إني أَصْبَحْتُ أُشْهِدُكَ .. إلخ » ، وفيه: من قالها مرة أعتق الله رُبْعَه من النار ، ومرتين نصفه ، وثلاثاً ثلاثة أرباعه ، وأربعاً كله ، **ثم قال** : **« هذا عِتقُ اليوم والليلة مما يصيبه في أحدهما من الذنوب ، فإن قالها مرة صباحاً أو مساء أعتق عنه ربع سيئاته التي أصابها في ذلك اليوم أو في تلك الليلة ، ومرتين نصفها وثلاثاً ثلاثة أرباعها ، أو أربعاً فكلها. ولكلٍّ من العتق على قدره ، خصوص لخصوص وعموم لعموم »** ، أو كما قال هـ .

أقول : عموم إطلاق الغفران في هذا الحديث قَيَّده في الصغائر بالخصوص في حديث : « الصلاة إلى الصلاة مُكَفِّرٌ لما بينهما إذا اجتنبت الكبائر » ، وذكر مثل ذلك في بقية أركان الإسلام من الزكاة إلى الزكاة ، ومن رمضان إلى رمضان ، ومن الحج إلى الحج . والكبير من الذنوب ما رتب عليه الحدود على اختلافها ، باختلاف الكبائر ، من الـجَلْدِ والرَّجْمِ والنَّفْس بالنَّفْس ، لا تُكَفَّر تلك الذنوب إلا بإقامة تلك الحدود ، أو العفو عن القتل بالدية ، أو عفو مستحقها عنها ، هذا في هذه الشريعة المطهرة ، ولا يبعد في الشرائع قبلها إذا صحت النية أن تُقْبَل التوبة مع إسقاط الحد ، كصحة توبة قاتل المائة نفس .

وقد قلتُ لسيدنا لما مر حديثه في الدرس : كيف صَحَّتْ توبته وكل تلك النفوس في ذمته ؟ فقال:

« صَحَّتْ » ، وما زادني على ذلك ، ولعل مراده بهذا هو مراده بقوله : « **خصوص لخصوص وعموم لعموم** » ، أي عموم وخصوص تلك الأمم ، لخصوصها وعمومها ، مع إقامة الحد أو سقوطه ، أو المعنى خصوص وعموم هذه الأمة فيما ليس فيه حد مع خصوصها وعمومها ، والله أعلم .

وكما ثبت في هذه الكلمة وأمثالها من الأقوال والأعمال ما هو مكفر للسيئات ، كذلك ورد في بعض الأقوال والأفعال ما هو دافع للسوء والبلاء ، أو جالب للنفع والآلاء ، كما ورد : « من قال صباحاً ومساء تلك الكلمة التي تقال خمساً وعشرين : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو الرحمن الرحيم .. إلخ » ، أنه لا يرى ما يكره في نفسه ولا في أهله ، إلى آخر ما ذكر ، فهذا متوقف على أي النوعين من القضاء ، فإن كان من المحتوم وقوعه وقع لا محالة ، أو دفعه اندفع لا محالة ، بسبب ظاهر أو غير ظاهر فيكون وقوعه إذ ذاك مُعَلَّقاً ، فاندفع كما تندفع الأمراض بالأدوية التي عَيَّنَها الله لبرئها وحضر وقتها، أي وقت برئها بسببها المعين لذلك . فافهم هذه الدقائق ، وكذلك ورد : « إن من الذنوب ذنوباً لا تكفرها الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج ، ويكفرها الهم بالمعيشة » .

فاعجب للخواص التي جعلها الله في بعض الأعمال تخصيصاً لها بمحض المشيئة ، كما خصص بعض الأشخاص ببعض الأعمال ، وفاوَتَ بين تلك الأعمال في التقرب بها إليه ، فتفاوت من أقامهم فيها في القرب منه بتفاوتها ، وبحسب ذلك تفاوتت درجاتهم عنده ، كما أفهم ذلك تمثيله بالأعبد الذين أقام سيدهم بعضهم في الدهليز ، وبعضهم في الدرجة ، وبعضهم عنده في الغرفة ، فهذا أعلاهم عملاً ودرجةً وقرباً منه ، ثم الذي في الدرجة ، ثم الذي في الدهليز ، وقس على ذلك .

وربما أن بعض الأعمال ولو فيه مزية لا يلزم أن القائم فيه أفضل من القائم بعَمَلٍ ليس فيه تلك المزية كما في هذا ، فلا يلزم من ذلك أن المهتم بمعاشه أفضل من القائم بتلك الوظائف ، بل فيه مزية إن قصد بالمعاش الإستعانة به على العبادة . والعمل بتلك الوظائف أفضل منه ، وتكفر ذنوباً أعظم من الذنوب التي يكفرها بالمعيشة ، وهذا ورد حثًّا على طلب معيشة الحلال ، فإنَّ أَمْرَ ذلك مهم جداً عند أهل الدين المتقين .

وقال في حديث : « **إن الله حمى أمتي عن أن تجتمع على ضلالة** » ، *قال* : « **يعني إنهم لا يجتمعون كلهم عليها ، بل لا بد من قائم على الحق ولو قليل ، وما ورد أنهم السواد الأعظم لعله لم يصح ، لأنه لم يبق في زمن بني العباس من لم يَقُل بخلق القرآن إلا القليل ، أحد يظهره ويدين به ، وأحد يظهره خوفاً وإن لم يكن كذلك ، وربما يبقى الإنسان مُصِرًّا على ذلك وإن كان ظاهره خلافه ، وظهوره وخفاه بحسب ملوكهم ، فالناس على دين ملوكهم** » .

قال في معناه : « يعني يُظهِرون ما يكون عليه ملوكهم ، إما إنه كذلك ، وإما تَقِيَّة وخوفاً » .

أقول : قوله : « وما ورد أنها السواد الأعظم .. إلخ » ، يقال لمن هو على الحق : السواد الأعظم ، ولو كان قليلاً ، ولو واحداً ، كما يقال له : أُمَّة ، كما قال تعالى في حق إبراهيم عليه السلام : ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾ .

والقول بخلق القرآن أول من قال به وأظهره الخليفة المأمون العباسي ابن هارون الرشيد ، محتجاً بقوله تعالى : ﴿مَا يَأْتِيهِم مِّن ذِكْرٍ مِّن رَّبِّهِم مُّحْدَثٍ﴾، ففهم من قول : ﴿مُّحْدَثٍ﴾، أنه مخلوق . وكان شديد الذهن والحذاقة والفطنة والفهم ، لكن الشيء إذا تَعَدَّى حده رجع إلى ضده ، فأخطأ في فهم ذلك ، وادَّعى أنه الصواب والحق وخلافه الباطل ، ودعا الناس إليه وقَهَرهم على اتِّباعه ، وامتحن الإمام أحمد على أن يقول به ، حيث إنه إمام مُتَّبَع ، وإذا قال به تبعه الناس ، وحبسه وأقام في الحبس مدة ، وعالجه في ذلك فأبى ، ورأى الخضر يقول له : « تَثَبَّتْ ، لا تَقُلْ ذلك ، فإن قُلْتَ به لا يبقى أحد إلا قال به » ، فَثَبَّتَهُ الله مع شدة ما هو فيه من المحنة ، وأوصى المأمون الخليفة بعده – وهو أخوه المعتصم – أن يلازم الإمام أحمد على القول به ، وأوصى المعتصم به الخليفة بعده الواثق ، وبقي في الحبس مدة ثلاثة خلفاء ، حتى كانت خلافة المتوكل ، فأطلق الإمام أحمد وأكرمه وأراح الناس من تلك المحنة . لكن دَبَّ إليه أيضاً الداء الدفين البدعة الكبرى ، وهي بغض أهل البيت النبوي وذلك لعزة تمام الكمال والتوفيق لأحد ، فحفر قبر الحسين ، وأجرى عليه الماء ، وأكثر الأذى في أهل البيت أذىً شديداً وامتحنهم . ومن شأنهم الامتحان في الدنيا في كل زمان ، كما تقدم من قول سيدنا ما معناه: « **أرى في هذه السنين المتقاربة وقعت بلايا ومحن مختصة بأهل البيت خاصة** » ، انتهى .

وسبب ذلك أن آخرتهم متوفرة لهم بكمال السعادة والخير ، وإذا توفرت الآخرة تنكدت الدنيا ، كما ورد : « مُرَّةُ الدنيا حُلوةُ الآخرة ، وحُلوةُ الدنيا مُرَّةُ الآخرة » ، يعني إذا حَلَت الدنيا لعبد مَرَّتْ عليه الآخرة ، وإذا مَرَّت الدنيا لعبدٍ حَلَتْ له الآخرة ، وهكذا دائماً ، كما ورد : « من أوتي حظًّا من الدنيا نقص عليه بقدره من حظه في الآخرة ، ولو كان له عند الله منزلة عالية » ، ولذلك زهد فيها الأنبياء والصالحون ، حتى كان رسول الله ﷺ تراوده الجبال وتعالجه أن تنقلب له ذهباً ، وهو يأباها ويَصُدُّ عنها ، ومع ذلك يبيت مع أهله الليالي الكثيرة المتتابعة طاوين لا يذوقون العَشاء ، ولو أخذها ذهباً لما نقصه ذلك من حظه في الآخرة ، وهذا له خاصة دون غيره ، ولكن أباها تَعَفُّفاً وتنزُّهاً عنها ، وتشبُّهاً بغيره من المرسلين ، ومن ينقصهم ذلك .

وذلك عكس ما يعتقده العوام ، من أن من له الحظ الوافر في الدنيا ، فهو الذي له ذلك كذلك في الآخرة ، ويستدلون بهذا الحاضر على ذلك الغائب ، وعلى عكسه بعكسه ، وذلك خطأ مبين وبهتان

عظيم ، لأنه خلاف ما قال الله ورسوله ، وخلاف سِيَر الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين .

قال سيدنا لرجل وهو يذاكره في الأنساب : « **لا بد لك من معرفة ثلاثة أشياء هي أَلزَمُ عليك من البحث عن أشياء لا فائدة فيها : أن تعرف نسب النبي ﷺ إلى عدنان ، وأن تعرف كم عدد أزواجه ، وأن تعرف العشرة المبشرين بالجنة** » .

أقول : أي تعرف أسماءهم وأنسابهم ، وأي واحد يجتمع كل واحد منهم فيه مع النبي ﷺ ، وأفتى العلماء بوجوب معرفة النسب الشريف إلى عدنان ، وهو الذي أُجمِعَ عليه ، وما فوقه ففيه اختلافٌ كثير، وهذا المقصود من ذلك :

محمد بن عبدالله « علي بن أبي طالب » بن عبدالمطلب بن هاشم « عثمان بن عفان بن أبي العاصي بن أمية بن عبدشمس » بن عبدمناف « الزبير بن العوام بن خويلد بن أسد بن عبدالعزى » بن قصي « سعد بن أبي وقاص بن مالك بن وهب بن عبدمناف بن زهرة » « عبدالرحمن بن عوف بن عبد عرف بن عبدالحارث بن زهرة » بن كلاب « أبوبكر عتيق بن أبي قحافة بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن تيم » « طلحة بن عبيداللاه بن عثمان بن عمرو بن كعب بن تيم » بن مرة « عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن رباح بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدي » « سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبدالعزى بن رباح بن عبدالله بن قرط بن رزاح بن عدي » بن كعب بن لؤي بن غالب « أبوعبيدة عامر بن عبدالله بن الجراح بن هلال بن أهيب بن ضبة بن الحارث » بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان .

إلى هنا متفق عليه ، فمن العشرة تَيْمِيَّان وعدويَّان ومنافِيَّان وزُهرِيَّان وأَسَدِيٌّ وفهري . وقد نظمتهم في مقتضى هذا فقلت :

أَبُوبَكْـرٍ وَطَلْحَـةُ نَجْـلُ تَيْـمٍ ... وَفَـارُوقٌ سَـعِيدٌ مِـنْ عُـدَيْ
وَعُثْـمَانُ التَّقِـيُّ كَـذَا عَـلِيٌّ ... لِعَبْدِمَنَـافْ ذِي الـشَّرَفِ العَـلِي
وَسَـعْدٌ ذُو الفَضَائِـلِ وَابْـنُ عَـوفٍ ... لِزُهْـرَةَ وَهْـوَ صَالِـحٌ أَخُـو قُـصَيْ
وَمِـنْ أَسَـدٍ زُبَـيْرٌ ابْـنُ جَرَّاحِهِـمْ ... مِـنْ فِهْـرٍ فَاحْفَـظْ يَـا أُخَـيْ

وكذلك نسبة محبهم الإمام الشافعي رضي الله عنه تتصل بنسبتهم ، فهو : محمد بن إدريس بن عباس بن عثمان بن شافع بن السائب بن عبيد بن عبديزيد بن هاشم بن المطلب بن عبدمناف بن قصي

.. إلى آخر النسب . انتهى هـ .

قال : « إن أهل الزمان ما صححوا إيمانهم بالنظر والسؤال ، حتى أن عامتهم إيمانهم قاصر عن إيمان المقلدين لقلة بصائرهم ، وقد أدركنا الناس يُعَلِّمون الصغار قل : رَضِيتُ بالله رباً ، وبالإسلام ديناً ، وبمحمد نبياً ورسولا ، وُلِدَ بمكة وبُعِثَ بها وهاجر إلى المدينة ومات بها . فما زال الأمر ينقص حتى لم يبق لأمثال هذه الأشياء أثر ، فإذا كان هذا في أمور الإيمان الذي هو الأصل ، فماذا يكون غيره ؟ وعلى هذا ينقص الدين شيئاً فشيئاً ، حتى يُرفَع ولم يبق منه شيء ، ثم رجعت فراستهم في أمور الدنيا » .

قال : « الملائكة والشياطين محيطة بالإنسان ، وعنده لكلٍّ منهما متاع ، فإذا تكلم الإنسان بالأمور الغيبية كحال المجذوبين ، فإن كانت من الحق فهي على لسان مَلَك وإن كانت من الباطل فهي على لسان شيطان ، كما ورد في حالة الجماع : إذا ذَكَرَ الله حَضَرَه المَلَك ، وإن لم يَذْكُره حَضَرَهُ الشَّيطان » .

قال : « من أراد أن يَسْلَم من الدنيا فلا يَمُدَّن عينيه ، فإن مَدَّها راح دينه ، أما سمعت قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ﴾ ، والدنيا ما تسوى الإستغراق بها » .

قال : « من لم يَحْكُم على نفسه لا يمكنه أن يَحْكُم على غيره ، وإذا رأيتها جَمَحَتْ - أو قال : طَمَحَتْ- لما لا ينبغي فَتَرَقَّها إلى عكسه كما تترقَّى ولدك ، إذا لم تقدر على منعها من الحرام وتعَكَّت - أي تغلبت- عليك فسَيِّبْها في المباح ، ولكن خل الناس مع ربهم - أي لا تتكلم فيهم - ومَن اطَّلَعْتَ عليه منهم على أمر ، فإن كان يقبل النصيحة فانصحه ، وإلا فاتركه » .

قال : « الولد في هذا الزمان لا يُؤمَن على الأهل ، فكيف بالأجانب ؟ لأن الدين ضَعُفَ جداً ، ومَن لا دين فيه ، كيف يصح منه الورع ؟ والورع إنما هو خوف ، ومَن يُفَرِّق بين التمرة والجوهرة فلا تأمنه على الورع » هـ .

أقول : يعني إذا خلا من الورع الذي هو الخوف من الله ، فربما ينظر إلى زوجة أبيه بشهوة ، لانقلاب الطباع اليوم عن الإعتدال الطبعي والشرعي ، وانحرافها عن المروءة والديانة في هذا الزمان ، كما قال: « في هذا الزمان انعكست الأمور عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها » ، وَسَمِعْتُ عن بعض أكابر السادة أنه لا يترك ولده ينظر إلى زوجته ، وينهاها عن أن تقابله بوجهها ، مع أن الولد من كبار أهل التقوى والورع ، ولكنه نظر إلى حال الوقت ، وطلب منهما الاحتياط والتحري للدين .

قال : « والانسان قد يُبْتَلَى بنفسه أو بغيره ، فإذا زَرَعْتَ شهوات فإنها تريد منك سَقْياً » .

قال : « زهد الرجل وخروج الدنيا من قلبه أَدَلُّ دليلٍ على ولاية الله له وأنه من أولياء الله » .

قال رضي الله عنه لي يوماً : « أيما ترى أعم الصلاح أو الفلاح ؟ » .

قلت : الله أعلم ، فقال : « الصلاح عمل والفلاح جزاء ، ألا ترى حيث يَذْكُر اللهُ الصلاح فيَذْكُر قبله أعمالاً يمدح فاعليها ، ثم يصفهم بالصلاح ، ويذكر ما يجازي به أقواماً فعلوا الخير ، ثم يصفهم بالفلاح » هـ .

أقول : ومثال الأول قوله تعالى : ﴿مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۝١١٣ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۝١١٤﴾، ومثال الثاني قوله تعالى في آخر سورة قد سمع الله : ﴿ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِ ۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ۝٢٢﴾، ونحو ذلك كثير .

وكلامه هنا مع ما تقدم من قوله في شأن الأعبد العشرة المذكورين ، الذين وَكَّلَهُم سيدهم كل واحد بخدمة ، وقوله : « وكلٌ منهم فائز إذا قام بما أمره به سيده » ، شاهِدٌ أن الفلاح والفوز بمعنى الجزاء ، وأن معناهما واحد ، أن المجازى بعمله الخير مفلحٌ وفائزٌ ، والموصوف بعمله الخير صالح ، وإنما خصصه بذلك العرف الشرعي . وأما العرف اللغوي والمعروف من معناه في اللغة ، فهو عام لكل من صلح لشيء من خير أو شر فهو صالح له .

قال : « إن عيسى عليه السلام ذُكِرَ مع أُمِّهِ في القرآن في نحو أربعين موضعاً ، وذكره معها في الغالب، وقد يفرد أحدهما عن الآخر ، وذلك صريحاً وكناية ، وإنما كرر الله ذكر مريم لأن امرأة عمران أمها ، ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ ﴾.. إلخ ، فاستحقرتها لذلك - أي لكونها أنثى - بكونها لا تصلح لخدمة بيت المقدس ، فلما استحقرتها نَوَّهَ اللهُ بِذِكْرِهَا وكرره ، وفيه دليل على أن كل من اتضعت منزلته عند الخلق ارتفعت عند الخالق » .

قال : « يعني مع الإحسان في جانب الدين والدنيا ، وفي ذكر مريم سر » .

وذَمَّ أهلَ الزمان ، فقال : « أهل الزمان كلهم أقفية وليسوا بوجوه ، فإذا لم يكن لك بهم نسبة لا في شور ولا في عطاء ولا غير ذلك ؛ فهو أحسن ، فإنك لو أحسنت إلى أحدهم ما رجع إليك منه إلا

شر ، وكل أمورهم راجت ، الدولة والفقير وغيرهم ، وهم كقومٍ جاءهم صياح - أي نذير قوم - فاختبطوا، منهم المقبِّل ومنهم المشرِّق » .

قال رضي الله عنه في معنى قول بعضهم : « أن ترى الله في كل شيء » ، **قال** : « **يعني ترى وتعتقد أنه فَعَلَه ، وهذه حالة تقع على القلب ضرورة من غير تكلف ، ولو تكلفها لم تحصل له تلك الحالة** » .

وقال لي عندما خرج لصلاة الظهر يوم الخميس غرة جماد آخر سنة ١١٢٦ : « **هل صليت الإستخارة وانشرح صدرك لذلك الأمر الذي قلنا لك ؟** » ، فقلت : صليت الإستخارة ولا ظهر لي شيء ، ولكن ما أشرتم به هو الصواب ، **فقال** : « **لا ، قد حكينا لكم أن طريقنا أنَّا لا نأمر أحداً ابتداء بأمر ، لأنا قد صَحِبْنا على ذلك أقواماً ما فعلوا معنا إلا هكذا ، وربما نشير على من استشارنا بما نرى فيه الصواب ونبيِّن له وجه الصواب فيه وهو بالخيار ، مثل ما إذا استشارنا فقير في الصوم ، فننظر في مزاجه وقدر طاقته . ونحن في هذا الزمان لا يتأتى لنا ذلك ، لأنا رأينا أهل الزمان وجربناهم مراراً كثيراً ، تقول له في الشيء وكأنه لم يسمع منك فيه كلمة ، والتجربة تحصل بمرتين من شخصين ، لا أكثر من ذلك . وقد مكث ﷺ ١٣ سنة يعرض نفسه على الناس يدعوهم إلى الله ، وما قابلوه إلا بالأذى ، ولو قلنا لواحد: افعل كذا ؛ لراح وترك ، وربما أوجب له ذلك الانقطاع عنا .**

وإنما نحن مُيَسِّرين ونستجر الناس إلى الصواب ، وتلك درجة أصحاب اليمين ، ولا يجينا إلا من أردناه ، ولو جلسنا منقطعين عن الناس في جبل فمن يجينا ؟ ومن كان عندنا من ولد وفقير وخادم ، فإنما هو في كنفنا ، ولو أمرناه بأمر لا يمكنه إلا أن يجيب ، ولكن ما نحن بجالسين لهذا ، وإنما إذا أمرنا أحداً بأمر وطلبناه منه ، إن استراحت بذلك نفسه ولا يشق عليه ، أو نُعَرِّض له بفعله إن أراد فعله ، أما مع استثقال نفسه إن فعل مرة ما فعل أخرى ، ثم لا يدوم ، ولا نحب أن نأمر أحداً بما يشق عليه » هـ .

أقول : وذلك لأن شأن قول القائم في مقام دعوة الخلق إلى الله حجة ، يلزم امتثاله ويأثم بتركه ، لأنه قائم في مقام النيابة عن رسول الله ﷺ ، فانظر كيف يجب امتثال أمر الإمام القائم على الناس في حكم الشريعة إذا أمر الناس بصلاة الإستسقاء ، وبالصدقة وبصيام ثلاثة أيام ، ويجب ذلك بأمره ، فهذا من ذاك القبيل .

فقلت لسيدنا : كان عادة المشايخ في من صحبهم ، أنهم لا يراعون ذلك مع من صحبهم ، **فقال** : « **وأين هذا اليوم ؟ كانوا إذا جاءهم أحد لا يجيء حتى يجعل إليهم النظر في نفسه ، حتى لو أرادوا ذبحه لا يقول في نفسه إن هذا لا يجوز في الشرع وافهم هذا من قصة الخضر ، فإن الله جعلها في وقته ليعتبر**

بها أحوال أهل الكمال من هذه الأمة ، مع من أرادوا يُرَقُّونه إلى حال الكمال ، فهل يجوز لأحد قَتْل غلامٍ أو خَرْق سفينةٍ سائرةٍ في البحر وفيها الناس ؟ » .

وإنما معنى ذلك أن مرادك معرفة العلم بالله ، وهو طور وراء طور عقلك ، ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾، فسلم فيه الأمر لله بلا اعتراض ولا إنكار ، وإنما تكليف الشرع معك على مقتضى طور العقل ، وهو مقام الدعوة لعموم الخلق ، وهو معنى قول سيدنا : « **إنما نحن على مقام طريق العموم ، وما كُلِّفنا أن ندعو إلى طريق الخصوص** » ، ومرة قال : « **يحسب الناس أنّا على الطريق الخاصة ، وإنما نحن على الطريق العامة** » . وإنما أنكر سيدنا موسى ذلك من الخضر لكونه مخالفاً لطريق العموم ، وقد يعرف من طريق الخصوص أبلغ مما عرفه الخضر واطلع عليه فلا ينكره ، فلهذا وجب على المريد أن يكون في غاية من الرضا والتسليم ، وأن يكون مع شيخه كالميت بين يدي الغاسل ، وكل هذه المعاني واقعة في معناها بين طريق الخصوص وطريق العموم في هذه الأمة ، فافهم .

ولو أمره مثلاً بأمرٍ ، ظاهره مخالف للشرع إظهاراً لانقياده لتحققه بالعبودية ، فهم يحمونه – أي يحميه الله ببركتهم – كما ذكر عن الشيخ عمر با مخرمة لما جاء إلى الشيخ عبدالرحمن باهرمز ، طالباً منه يعطيه الطريق ، قال له : « صل ركعتين إلى جهة المشرق » . وكان القبلة هناك إلى جهة المغرب ، فلما استقبل إلى جهة الشرق رأى الكعبة تلقاءه ، فأحرم إليها وهو يراها ، ومثل ذلك . فيحميه الله ببركتهم عن أن يقع في ما يضره في دينه ودنياه ، ببركة ما أعطاه الله من قوة اليقين .

وكذلك حُكِيَ عن أحمد ابن أبي الحواري ، أنه أمره شيخه أبو سليمان الداراني أن يُحَمِّي التنور ليخبز فيه قوتهما ، فَحَمَّاهُ فأبطأ ينتظره بأمره له بطرح العجين فيه ، فقال له : « إن التنور قد حمي » ، فقال له : « قع فيه » ، فامتثل أمره ووقع فيه ، فغفل عنه ساعة ، ثم ذكر ، فناداه فخرج من التنور ولم تضره النار . فهكذا أحوال المشايخ مع المريدين الصادقين ، فإن كنت من هذا القبيل وإلا فادرج عنه فليس بِعُشِّك ، ولا تَدَّعِ ما لستَ له بأهل ، وإنما المقصود من فعل المشايخ هذه الأشياء مع المريدين تمرينهم على الإنقياد الكلي والإذعان بقوة اليقين لأحكام الله الدال على التحقق بكمال مقام العبودية ، كما يقال في بعض الأحكام ما هو معقول المعنى وبعضها غير معقول المعنى ، بل مجرد تعبد وانقياد .

فسيدنا نفع الله به إنما لم يؤكد على أحد في هذا الزمان بامتثال أمره ، لعلمه أنهم ليسوا كذلك ، أي ليسوا كمن ذكرنا آنفاً وأمثالهم في الإنقياد .

وقد قال لي يوماً : « **أتحفظ الدعاء الذي بعد سنة العصر ؟** » ، قلت : نعم ، قال : « **كيف ؟** » ، فقرأته عليه وسمعه ، ثم قال : « **كان** » ، يعني استعمله وداوم عليه . فاكتفى بهذه الصيغة عن صيغة الأمر ، فلا يود أن يحرج أحداً ، بل يود ما خف عنهم ، كما هي عادة النبي ﷺ في طلب التخفيف وعدم

التعنيف على أحد ، كما يقول إذا نهى عن أمر قال : « ما بال أقوام يفعلون كذا » ، ولا يُعَيِّن ، فلا يقول : ما بالك يا فلان تفعل كذا . ستراً عليه ، وهو يفهم من نفسه الإشارة إليه ، وكذلك في طلب التخفيف لما جعل يصلي قيام رمضان ، فجعلوا يصلون معه ، فرآهم كل ليلة يَكثُرون ، ثم تخلف عنهم ولم يظهر لهم ، فكلموه في ذلك فقال : « خشيتُ أن تفرَض عليكم فتعجزوا عنها » ، ومثل ذلك في أمور كثيرة . ونزل في نحو ذلك مما عفي عنه : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَسۡـَٔلُواْ عَنۡ أَشۡيَآءَ إِن تُبۡدَ لَكُمۡ تَسُؤۡكُمۡ﴾ الآية .

ثم تكلم سيدنا في هذه المادة كلاماً كثيراً ، وبَعَّدَ الأمر فيه جدًّا ، *ثم قال* : « **لو قلنا لك : إعطِ فلاناً ثيابك . خطر لك عشرون خاطراً من هذا القبيل ، وقد سَكِرَ كثيرٌ من الناس من الصوم حتى مَلَّهُم الصوم وما مَلُّوه ، ولم يحصل لهم من ذلك ذرة لأنها قِسَمٌ ومواهب لبعض العباد . ألا ترى أن الإمام الغزالي بعد ما ملأ الأرض علماً ، لما جاء إلى بغداد وأراد أن يدَرِّس ، امتسك لسانه عن التدريس من غير سبب ظاهر ، فهذا بأي سبب كان ؟ حتى قيل إن عيناً أصابت الإسلام . والإمام النووي مع جلالته وكثرة علمه يثني على الصوفية ويستحسن أحوالهم ولكنه ما تصوف ، فماذا منعه من التصوف وهو يعتقد أنه الحق ؟ فاعرف بهذا إنما هي أقسام** » .

فقلت له : لكن يحصل نشاط فيما تأمرون به ابتداء دون ما تُستأذنون فيه ، *فقال* : « **نعم ، يتوهم أنه يحصل له بذلك شيء ، وتلك الأشياء قد قُسِمَت ، أما تسمع قوله تعالى : ﴿نَحۡنُ قَسَمۡنَا بَيۡنَهُم﴾، ﴿نَحۡنُ قَدَّرۡنَا﴾؟** » ، قلت : فعسى ببركاتكم يحصل كمال الرضا بالقضاء ، *فقال* : « **قال النبي ﷺ : اتركُوني ما تَركتُكُم** » ، أو كما قال .

وتكلم يوماً في القضاء والقدر ، *فقال* : « **هذه الأشياء هي أفعال العباد ، فيؤمِن بأنها من الله ، ولا يَحتجَّ على الله بالقضاء والقدر ، بل يجتهد ويختار الأحسن حتى يغلب ، وقد عَلَّمَك الله القضاء والقدر فَخُذْ به ، لأن اختيارك من فعل الله ، فماذا تحتج به ؟ كما إذا حضر الطعام عندك وأنت جائع ، أو قصدك عدو من سَبُع وغيره ، ومعك سلاح وأنت قادر ، فتترك ذلك فلا تأكل ولا تقاتل ؟ وتقول : إن قدر الله شيئاً هو يكون ؟ فهو قَدَّرَ لك ، بأن أعطاك الإختيار والقدرة ، وفَصَّلَ لك أنواع الخير والشر ، وبَيَّنَ الأحسن والأسوأ . فاجْتَهِدْ أنت وتَحَرَّ ما يَحْسُن ، ولا تجلس وتعتذر ، ومعك خصلتان يعتل بهما الناس وما عرفوهما ، لأنهم أخذوهما بجهلٍ ، جاهلٍ عن جاهلٍ ، ولا يعلمونهما : القضاء والقدر ، والتوبة .**

فيحتَجُّ بالقضاء والقدر مع التقصير في حقوق الله ، والاحتجاج بهما مع المعصية معصيةٌ أكبر من تلك المعصية ، وفي التوبة ربما تاب من بعض الذنوب فنقضها وما جاء في طلب الرضا بالمقدور ، فهو يعنَى في أمور الدنيا من فقر أو غنى أو ربح في تجارة أو خسران أو مرض أو صحة أو موت وأمثال ذلك،

لا بأن ترضى بترك واجب أو فعل محرم ، لأن الله لا يرضى لعباده الكفر ، وكذلك فروعه ، فمن قال لك : ترضى لنفسك بالمعصية ولم يرضها لك ربك ؟ » ، يعني يقول ذلك إذا عاينتَ جزاءها في الآخرة .

قال : « **وما وقع من أفعال الله هو الأصلح ، على أي وجه كان ، وفيه حِكَمٌ لا يحيط بعلمها الخلق، لأنهم لم يحيطوا علماً بكل شيء ، وإن كان يُظن في الشيء أن الأصلح خلافه ، فيقول : لأي شيء يكون الشوك ؟ وإنما الفائدة في الثمر . وكذلك لا حاجة إلى نحو الحيات والعقارب ، ففيها حِكَمٌ ومنافع لا يحيط بها الوهم ، أَقَلُّ الحال أن لا يبطر الخلق إذا كان كل شيء على ما أرادوا** » .

أقول : رأيت في بعض الكتب أن رجلاً قال : « لِـمَ خلق الله الخنفساء ؟ إذ ليس فيها غرضٌ ما » ، فابتلاه الله بقرحة عجز عن مداواتها الحكماء ، وبقي مدة متضرراً منها . فسمع يوماً رجلاً يدور بأدوية عنده ويقول : « من به علة كذا فدواه حاضر » ، حتى قال : « من به قرحة عاصية فدواها حاضر » ، فجاءه فقال : « بي قرحة عاصية فما دواها ؟ » ، قال : « ائتني بخنفساء » ، فأتاه بها فشدخها ، ثم وضعها على قرحته فبرأت ، فتعجب هو وغيره ، وقيل : « سبحان الله ، لم يخلق الله شيئاً سدى » .

ومراد سيدنا بتفصيله المتقدم سلوك سبيل السعادة ، الذي هو الجمع بين الشريعة والحقيقة ، كما قال : « **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه** » ، وتجنب طريق الشقاوة الذي اختلفت به الأمور ، وهو اتباع الحقيقة ومخالفة الشريعة ، فإن هذا هو الزندقة بعينه ، الذي تقدم الكلام فيه عنه وعن السيد أحمد الهندوان .

قال : « **والمصِرُّ على الذنوب مع رجاء العفو مُتَمَنٍّ ، والمعْتَلُّ مع ذلك بالقضاء والقدر مُبْتَدِعٌ ، وهذه المسألة قديمة ، حتى اعتل بها الكفار ، لكنها شاعت عند العامة ، فأول ما يُلام على المعصية احتجَّ بذلك وجعلوه كالجبر ، وليس هذا عذراً لمن بقي معه الاختيار** » .

قال رضي الله عنه : « **لا تطلب من زمانك غير طبعه ، فإنك إن طَلَبْتَ منه ذلك فقد طَلَبْتَ محالاً** » .

ثم أنشد هذا البيت :

وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِد طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ في الماءِ جَذْوَةَ نَارِ

ثم قال : « **فرحم الله امرءاً عرف زمانه ، وحفظ شأنه ، وسَالَمَ أقرانه . وقد قال سيدنا علي : الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم . وما عاد إلا تغافل ما أمكن ، التغافل من غير مداهنة ، والخير في هذا الزمان وأهله قليل ، ولكن إذا وُجِدَ يُرجى أن يدفع الله به عن الناس البلاء ، لأن السراج الواحد يضيء**

في أماكن متعددة . وقد كان الرجل يقرأ الآية من القرآن فيمرض حتى يعاد ، لِعِظَمِ ما يظهر له من معانيها ، كعمر بن الخطاب رضي الله عنه ، وآخر سمع النبي ﷺ يقرأ الطور ، فكاد قلبه أن ينخلع ، لأن قلوبهم وأبدانهم متعلقة بالآخرة . وهؤلاء على العكس قلوبهم وأبدانهم متعلقة بالدنيا ، وتركوا قلوبهم مفتوحة للدنيا ، فَدَخَلَتْ فيها وَقَلَّدَتْها وَبَقِيَتْ من داخلها ، ومن يحتاج إلى سَعْيٍ وكَسْبٍ وعبادةٍ، فليجعل الكسب في بعض الأوقات ، والعبادة في الباقي ، والليل فيه البركة ، فليجعل معظم اجتهاده فيه ، وكل هذه الأشياء ما تنالها إلا بالصبر » ، أو كما قال هـ .

أَقُولُ : المداهنة : السكوت على المنكر حياءً من الناس ، أو طمعاً فيهم ، أو خوفاً من ذمهم .

وقوله : « يدفع الله به البلاء » ، أي بمن وجد فيه الخير لعزته اليوم ، فمَثَّله بالسراج لأنه نور، والوقت مظلم بما فيه من المخالفات ، ولانعكاس الأمور فيه عن أوضاعها ، كما تقدم ذلك عن قوله، ويظهر النور في الظلام أكثر . وأشار إلى سيدنا عمر ، وذلك أنه قرأ يوماً في صلاة الصبح بالأنفال ، فلما وصل قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾، إلى قوله تعالى : ﴿ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾، حصل عليه خشوع عظيم وبكاء وشدة خوف ورعدة حتى مرض من ذلك ، فكان الناس يعودونه وما علموا بسبب مرضه .

والذي سمع النبي ﷺ يقرأ الطور ، أعرابي دخل عليه وهو في صلاة الصبح وكان قرأ فيها بسورة الطور ، فسمعه يقرأ فيها : ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ ۝٣٠ ﴾، إلى أن قال : ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ۝٣٥ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۚ بَل لَّا يُوقِنُونَ ۝٣٦ أَمْ عِندَهُمْ خَزَآئِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ ٱلْمُصَيْطِرُونَ ۝٣٧ أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ ۖ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُم بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ۝٣٨ أَمْ لَهُ ٱلْبَنَٰتُ وَلَكُمُ ٱلْبَنُونَ ۝٣٩ أَمْ تَسْـَٔلُهُمْ أَجْرًا فَهُم مِّن مَّغْرَمٍ مُّثْقَلُونَ ۝٤٠ أَمْ عِندَهُمُ ٱلْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ۝٤١ أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ۝٤٢ أَمْ لَهُمْ إِلَٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٤٣ ﴾، فخر ساجداً وقال : « سجدت لقائل هذا الكلام » .

وكاد قلبه أن ينخلع من عظم ما سمع .

قال رضي الله عنه : « سِتْرُ الأمور بحيث لا تظهر للناس غمٌّ ، خصوصاً إذا لم يحصل منهم نفع ولا كلمة طيبة ، والتدبيرُ عَسِر ، خصوصاً في أمر المعيشة ، إذا لم تعرف من أين يجيء . وكم ظاهر الحال سوقيٍّ أَرْوَحُ منه ، وقد قال بعض أهل البيوت الثقيلة لعبدٍ كان يحمل لهم الماء : مَن أتعبُ ما يكون في البيت ؟ فقال : أتعب من يكون أنا وأنت ، أنا آتي لهم بالماء ، وأنت تأتي لهم بالطعام ، وهم يأكلون ويشربون ولا يدرون . وكل مقيم بحضرموت فهو في التعب ، إلا من أعطاه الله قلباً بارداً » .

قال : « والأرزاق وحشية ، لا بد لها من قنيص » هـ .

أقول : قوله : « في التعب » ، أي لما يقاسون من شدة معاشهم وجَوْرِ دولتهم ، وما يقع عليهم بسبب ذلك من المشاق الشديدة ، حتى سَمِعْتُ عن من سمع أنه قال : سمع من يحكي عن الإمام البكري ، أنه سمعه يتكلم في بعض مجالسه ، وذكر هذه الآية : ﴿ وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا ﴾، قال : « إلا أهل حضرموت لشدة معاشهم وجَوْرِ دولتهم » .

وقوله : « لا بد لها من قنيص » ، يعني أن الأرزاق تُقتَنص بأسبابها كما تُقتَنَص وحوشُ البَرِّ بالشِّباك ونحوها من آلات الصيد ، ولا تُقتَنَص بالعبادة الخاصة لله تعالى ، كما هي عادة الملحدين في الدين ، البائعين عباداتهم بمعايشهم في الدنيا .

وذَكَر المطر ، فقال : « الإنسان خُلِقَ من الطين ، وما يلينه إلا الماء » .

وذَكَر العين ، فقال : « اللهم إني أعوذ بك من شر الجان ، ومن عين الإنسان . وأن بعضهم كان يحس حرارةً تخرج من عينه » ، أي إذا نظر إلى شيء برغبةٍ فيه .

ثم قال : « كل متعلق بشيء يكون راغباً فيه ، ورغبة الإنسان تُتلِف » .

وتقدم له كلام كثير فيما يتعلق بالعين .

وحضر مجلسه يوم عيد الفطر من سنة ١١٢٤ في الغيلة على الغداء رَجُلٌ من الدراويش الهنود ، فذَكَرَ عند ذلك حال المساكين ، فقال : « نحن في بركة المساكين وهم في بركتنا ، وهذه هي حالة التجريد والإنقطاع الذي يُذكَر عن الصالحين الأولين ، بكونه ما هو متعلق بمالٍ ولا حالٍ ولا أهلٍ ، ولا راجي لذلك ، بل منقطع عنه بقلبه ، لكن تبقى معرفة الشروط وأمور الباطن وقوة اليقين ومعرفة الرُّخَص وأوقاتها » .

قال : « التصوف على شعبتين : إما ظاهرٌ مشهور كحالة الحسن البصري وحالة الإمام الغزالي أول

عمره ، أو خاملٌ مستور كحالة أويس القرني والإمام الغزالي آخر عمره . وكذلك الفقه - أو قال: العلم الظاهر - وإن كثرت طرقه فهو على شعبتين : إما عالمٌ على الحق معترفٌ بالتقصير ، وإما عالمٌ فاجرٌ مخلِّط » .

ثم قال : « ولو خُيِّرتُ أنا بين حالَتَي التصوف : الظهور أو الخمول ، لاخترتُ حالة الخمول، لأنها أسلم ، يبيت الإنسان في مسجد طاوياً لا يعلم به أحد ، وإن كانت الأولى فيها نفع للمسلمين . فلو كانت أحسن من الثانية لما تركها كثير من الأكابر واختاروا الأخرى ، أحد منهم من أول أعمارهم كإبراهيم بن أدهم والفضيل وغيرهما ، ومنهم في آخر أعمارهم كالإمام الغزالي وغيره » .

وأنشد منشد بحضرته في مسجده المسمى « مسجد الأوابين » ، يوم الثلاثاء ٢٠ من صفر سنة ١١٢٦ بقصيدة ابن الفارض :

مَـا بَـيْنَ مُعْـتَرَكِ الأَحْـدَاقِ وَالمهَـجِ ... أَنَـا القَتِيْـلُ بِـلا ذَنْـبٍ وَلا حَـرَجِ

فقال للمنشد : « أتُحسِن أن تشرحها ؟ » ، ثم قال : « الكلام في الأعمال ومعاملات النفوس ورياضتها أسلم ، وإلا فعلوم الحقائق إن ما غلط في التصنيف فيها ، غلط في إخراجها لغير أهلها ، والإختصار والإيضاح أولى ، فاختصر ما فيه النفع » هـ .

أقول : تقدم قوله : « علمان لا نأمن متفقهة الزمان عليهما : علم الخلاف بين الأئمة ، وعلم الحقائق»، وكان حريصاً على إخفاء هذين العلمين عن الإظهار ، ولا يتكلم فيهما في مجلس ، ولا يرضى لأحد يتكلم فيهما ، ويلزم على من عنده شيء من كتبها أن يخفيها ولا يظهرها ولا يعيرها ، لشدة حرصه على كتمان الأسرار والأحوال ، وعلى سد باب إظهار الرُّخَص للعوام ، سيما الذين يتتبعون الرخص ، نُصْحاً منه لعباد الله ، وشفقةً عليهم أن يترخصوا في دين الله ، نفع الله به هـ .

قال رضي الله عنه : « خروج النفس عن مقتضى الطبيعة أَمْرٌ عَسِير ، ولا تخرج منه إلا بكَسْرٍ أو بِعَصْرٍ، ومِن طَبْعِها محبة المدح وكراهة الذم من الغير ، ولهذا لو ذم نفسه فقال : أنا ظالم ، مثلاً . فلو قيل له ذلك لضاق منه وتبرم » .

أقول : أي كما تقدم من قوله : « كما أنه يَسْتَقذِر من غيره ما لا يستقذره من نفسه ، فقد يتمخَّط ويَبْزُق في ثوبه فلا يستقذره ، ولو فَعَلَه به غيرُه استقذره » ، فكذلك لا يكره قوله في ذم نفسه ، ويكرهه من غيره ، ويرى عيب غيره ولا يرى عيب نفسه ، ويحب ما يُنسَب إليه دون ما يُنسَب لغيره ، حتى إنه يُرَجِّح عقله الضعيف على عقل غيره القوي ، ويرضى بما يقتضيه عقله مع ضعفه دون ما يقتضيه

عقل غيره مع قُوَّتِه ، كلُّ ذلك لِفَرْطِ محبته لنفسه ، ولذلك يُلقِي نفسه في المهالك في كل ما تهوى ، طلباً لرضاها ولا يبالي ، ولو ضَرَّه في الدنيا والآخرة .

وهذا فِعْلُ الجاهل الأحمق الذي لا يلتفت إلى ما ينفع ويضر في العاقبة ، وهو خلاف فعل العاقل الذي يراعي منافع نفسه في الدارين ، ويرغب فيما ينفع ويخاف ما يضر ، فالعاقل يَغلِبُ شهوتَه ، والجاهل تغلبه شهوتُه ، فلما كان الرزق غاية مطلوب النفس ومرغوبها ، حتى إنها تستقل الكثير منه ولا تقنع بالقليل ، وتجزع وتتبرم بفواته ، صار الأحمق لا يقنع بالكثير منه تبعاً لها لغلبتها عليه ، ولو قد رضي بعقله الضعيف فلا يرضى برزقه الكثير ، كما قيل : « لو رَضِيَ الناسُ بأرزاقهم كما رضوا بعقولهم ما شكى أحدٌ من هَمِّ الرزق » .

فصار الصالحون في أحوالهم ووصاياهم يحثون أنفسهم وغيرهم على قطع الهمِّ بالرزق ، لأنه يقطع عن الإشتغال الكامل بذكر الله .

وقال سيدنا في بعض وصاياه : « **إنما ابْتُلِيَ أهلُ الزمان بكثرة الإهتمام بأمر الرزق عقوبةً لهم على ذنوبٍ صدرت منهم ، وعَلِمَها الله ، ويرونه عقوبة ، والعقوبة لا تكون إلا على ذنب ، فعاقبهم بذلك عليها** » ، أو كما قال .

قال رضي الله عنه : « كان الـمُعَزِّمُون في وقت الشيخ عبدالقادر إذا طلب منهم أحد عزيمة لم يفعلوا، ويقولون : إنّا نحضر مجالس الشيخ عبدالقادر . ومَرُّوا سلفنا ولم يجلسوا لذلك ، فقلنا ذلك منهم لعذر، لأن الناس في وقتهم مستجيبون ويتنافسون في الطاعات ، والمتصَدِّقُون إذ ذاك أكثر من المتصَدَّق عليهم. وكنا أردنا نفعل مثل ذلك يوماً في الأسبوع في الحاوي أو في باعلوي ، لكن رأينا إعراض الناس ، إما اجتمعوا وأشغلوك ، وإما جاؤوا يومين وانصرفوا ، وهذا يحتاج إلى إذن وإلى مساعدة .

وهذا الكلام ليس ككلام التصنيف ، لأن هذا عامٌّ يجتمع فيه طبقات الناس وحتى النساء ، وكل طبقة من الناس في موضع وَحْدَهُم ، وكان العزم مِنَّا على ذلك من زمان قديم حال القوة والنشاط ، وأما الآن لو جاؤوا يطلبون ويسألون ما أجبناهم . وقد عَزَمْتُ على أن لا أتكلم مع أهل هذا الوقت ، فإن كان من حيث التحذير فقد بلغ ذلك مِنَّا حَدَّهُ ، فترى الإنسان منهم إذا تكلمنا في أمر الصلاة ، وأنها بترك الطمأنينة لا تصح ونحو ذلك ، قام يصلي صلاةً لا تجوز وقال : يُبَطِّل علينا صلاتنا ، أو على الناس صلاتهم . أو في أمر الزكاة والتقصير فيها ، خرج وقال : يغتاب الناس . فينبغي إذا سمع أحد ما فيه فليمتثل ، ولا عاد يقول : يغتاب الناس . وهل قد ذكرناه بالخصوص حتى إنَّا اغتبناه ؟ » .

قال : « وكان الشيخ عبدالقادر إذا تكلم في مجلسه كثيراً ولم ير أثر الإجابة على الحاضرين ، يقول: لا تظنوا أني أتكلم عليكم ، إنما أتكلم على أقوام لا ترونهم ، وعلى أقوام تشتب في رؤوسهم النار . وكان ابنه عبدالرزاق جالساً تحت المنبر الذي هو قائم عليه ، فرفع رأسه فاشتبت فيه النار ، فنزل الشيخ فأطفاها بنفسه » ، أو كما قال .

أقول : لعل قوله : « المعزمون » ، الواعظون كما يفهمه فحوى كلامه ، سيما قوله : « وأما الآن لو جاؤوا يطلبون .. إلخ » .

وقوله : « وطلب منهم » ، أي طلب الناس منهم أن يجلسوا يعظوهم ، ويعتذرون من ذلك بأنهم يحضرون مجالس الشيخ عبدالقادر ويستمعون وعظه .

وقول الشيخ : « لا تظنوا أني أتكلم عليكم .. إلخ » ، يقوله لمن لم ينفعهم الله بوعظه ، وإنما ينتفع به أقوام لا يرونهم من رجال الغيب من طبقات الصالحين من كل جهة ومكان ، وممن انتفع بذلك من ترون علامة ذلك أن تشتب في رؤوسهم النار ، وما ظهرت هذه العلامة إلا في ولده من جملتهم وهم كثير ، وظهورها فيه خاصة تدل عليهم ، وتخصيصه بها يدل على أنه انتفع أكثر من غيره ، كيف وهو ابنه وهو أحق بالإنتفاع به ، وتدل على انتفاع كثير غير من قال لهم : « لا تظنوا .. إلخ » ، وما هناك نار تشتب في رؤوس الرجال ، وإنما ذلك كرامة له وتصديقاً لقوله .

وقد سمعتُ سيدنا عبدالله غير مرة يقول : « مَن سَمِعَ كلامَنا وأَخَذَ به ، انتفع به وكان حُجَّةً له ، وإلا فله مَن يَسمعُه ويأخُذ به غير هؤلاء » ، و قد بَيَّنْتُه في أول هذا النقل ، ومراراً يقول للحاضرين : « لا تظنوا أن كلامنا عليكم خاصة ، وإنما له من يسمعه غيركم » .

وذُكِرَ لي أنه قال ذلك في وقتٍ سَبَقَ ، قبل وصولي إلى حضرته ، فما حَسُّوا إلا بِحَيَّةٍ جاءتْ وجلسَتْ إلى جنبه ، وذلك حين جلس مجلسه للدرس بعد صلاة العصر ، فقام رجل من الحاضرين ليأتي بعصا ليقتلها بها ، فقال سيدنا - والجماعة الحاضرون يسمعون - : « لا تقتلوا الحية ، ودعوها » ، فَبَقِيَتْ بجنبه مدة الدرس ، فلما قرأ الفاتحة ختام المجلس ودعا ، تَسَبْسَبَتْ وَمَضَتْ ، فعرفوا أنها من الجن جاءت لتستمع قوله ، تصديقاً لقوله : « وإلا فله من يسمعه غيرهم » ، أي ممن لا يرونهم من رجال الغيب ، ومن غيرهم من جن وغيرهم .

قال رضي الله عنه : « السر في العقيدة ما هو بالأوراق ، كما في قصة ولد الشيخ عبدالقادر ، حيث تَعَلَّمَ العربية والعلوم ، واجتَهَدَ فيها حتى أَتْقَنَهَا ، يريد أن يقوم مقام أبيه في الكلام على الناس ووعظهم، فاستأذن أباه يوماً أن يتكلم على الناس ، فقال له أبوه : ليس هذا بالفصاحة ، وإنما هو بِسِرٍّ . ثم أذن له، فصعد على المنبر ، فتكلم بكلام بليغ فصيح ، فضجُّوا واستغاثوا منه بالشيخ ، وأَبَوا من سماع كلامه، فنزل ، وطلع - أي صعد - الشيخ والده ، فأول ما تكلم به أن قال : البارحة قَدَّمَتْ لي زوجتي أم الفقراء دجاجة في غضارة ، فَدَفَعَتْها الهرة فانكسرت . فلما سمعوا ذلك ضَجُّوا بالبكاء والنحيب بأجمعهم ، حتى لم يبق أحد منهم إلا بكى . فالشأن في السر والإقبال ، فخلها تِقْبِل أولاً » هـ .

أقول : يعني إن ولد الشيخ المذكور الذي ذكر أن النار شَبَّتْ في رأسه ، طلب العلم الظاهر من الفقه وعلوم الآلات حتى أتقنها ، مراده أن يتأهل للنيابة عنه ، وذلك لا يكون حتى يكون كلامه عن لسان الحال ، لا عن لسان المقال ، فلسان الحال أبلغ من لسان المقال ، ولا يحصل لسان الحال إلا بشرطين : شَرْطٌ كَسْبِيٌّ ، وشَرْطٌ وَهْبِيٌّ .

فالكسبي : أن يكون في سيرته كلها من أفعاله وأقواله وجميع أحواله ، عبادةً وعادةً على قانون العلم ، من اتباع الحق والصواب ديناً ومروءةً . والوهبي : أن يمن الله عليه بنصيب من ذلك السرِّ الذي يقوى به الإيمان الذي أوتيه سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه ، فرجح به على إيمان الأمة كلها، حتى قال رسول الله ﷺ : « ما فضلكم أبوبكر بكثرة صوم ولا صلاة ، وإنما فضلكم بِسِرٍّ وَقَرَ في صدره » ، وقال ﷺ : « لو وُزِنَ إيمان أبي بكر بإيمان الأمة كلها لرجحها » . وإنما ذلك لمكان ذلك السِّر. وبَيَّنَه الشيخ عبدالقادر لابنه لما استأذنه في الكلام على الناس ، قال : « ليس ذلك بالبلاغة والفصاحة، وإنما هو بِسِرٍّ » ، فلما تبرم الناس من سماع صوته ، ونزل عن الكلام عليهم ، فلما صعد أبوه وذكر أمر الدجاجة والهرة وضجوا بالبكاء ، قال له : « ألم أقل لك إنما ذلك بسر ؟ » ، يعني خشوعهم وإقبال قلوبهم ليس بالفصاحة ، وإنما ذلك بتمام الشرطين المذكورَيْن ، إذا صار كلامه عن لسان الحال لا عن لسان المقال ، فافهم ذلك هـ .

ومرَّ في القراءة في الإحياء في وقت الدرس بعد العصر ضرب بعض الأمثلة في كتاب الشكر ، *فقال* : **« هذه الأمثلة لإيصال المعاني إلى قلوب العامة ، إذ لولاها لما عرفوا تلك المعاني ، ومثله ما مَثَّل به في الذِّكْرِ ، من أنه كالجوز ، له قشران ولَبٌّ ولُبُّ اللُّبِّ ، ولا بأس بضرب الأمثلة ، فقد ضرب الله ورسوله للناس الأمثال ولكن قال الله تعالى : ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ ، وإن اعترض على ذلك مُعترِضٌ فإنه منافقٌ ، فإن المنافقين واليهود قد اعترضوا في تمثيل الله بالذباب والبعوض والعنكبوت**

وأمثالها، ولكن قال الله تعالى: ﴿يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا﴾الآية، وكل من اعترض في شيء فإن ذلك هو الذي بلغه، ولو بلغه أكثر من ذلك لاعترض عليه أيضاً.

وقد سمعنا فيما سمعنا عن عبدالله بن عمرو بن العاص أنه قال: حَفِظْتُ من رسول الله ﷺ ألف مثل، ولما قيل له: ألا قاتَلْتَ مع علي رضي الله عنه؟ قال: امتثلتُ أمر رسول الله ﷺ إذ قال لي: لا تفارق أباك. فتأوله في هذا، ولكن بان لهم الأمر بعد قَتْلِ عَمّار، إذ كلٌّ من الفريقين معه عِلْمٌ من النبي ﷺ، أنه قال: تقتله الفئة الباغية. حتى إن معاوية رجع يعتذر من سيدنا علي، وعند ذلك جبنوا واستحيوا، إلا بقي معاوية يشجع عَمْراً وعمروٌ يشجعه، ولا عاد ينفع. فينبغي لمن أراد الإقدام على أمرٍ خَطِرٍ أن يتحقق الأمر أولاً، وخصوصاً إذا لم تطعه نفسه على تركه إذا تبين خطاه، أو يتركه من أول الأمر احتياطاً»، أو كما قال هـ.

أقول: ذَكَر في «الفصول المهمة في أخبار الأئمة»، أن عَمْراً لما تبين له الأمر بقتل عمار، جعل يلوم معاوية، وتأسف كلٌّ منهما، ثم رجع معاوية يشجع عَمْراً ويقول له: «ما نحن قتلناه، إنما قتله الذي أخرجه للقتال»، وبلغ قوله هذا لسيدنا علي، فقال للذي أخبره به: «قل لمعاوية: يقول: إن كنتُ أنا قتلتُه، إذاً فالنبي ﷺ هو الذي قتل عمه حمزة بإخراجه للقتال، ولكل من قُتِلَ معه». ونحو هذا، يعني فتخصيص قَتْلِهِ بالفئة الباغية لا محيد لكم عنها أنها أنتم لا محالة، فالحجة بما قلتم داحضة بما فعله النبي ﷺ بمن قُتِل معه في سبيل الله.

وأقول: العجب كيف انتقل الكلام من تبيين ثبوت الأمثلة في الكتاب والسنة حتى إن عبدالله بن عمروٍ وحده حفظ منها عن رسول الله ﷺ ألف مثل، فما بالك بمائة ألف وسبعين ألف من الصحابة، كم حفظوا؟ حتى صار الكلام فيما شجر بين الصحابة، فإن الكلام تابع يعرض في القلب من الخواطر، كما تقدم معنى ذلك من قوله: «فيعبر اللسان عما يعرض في الجنان»، وذلك أن قدمنا أنه قال رضي الله عنه فيما قدمنا عنه: «الكلام شُجُونٌ يَجُرُّ بعضه إلى بعض، كالخواطر التي ترد في الصدر، فبينما أنت تتكلم في كذا، إذا بك تتكلم في كذا»، أو كما قال. انتهى.

قال رضي الله عنه: «فَاضَلَ العلماء بين أزواجه عليه السلام، والسكوت عن هذه الأشياء أحسن، لكن إذا دعت الحاجة إلى الكلام لم يسع العلماء إلا أن يتكلموا بالصواب، وإلا أدى إلى الوقوع في الباطل» هـ.

أقول: «الوقوع في الباطل»، كما ترى أعداء الله الأرفاض اليوم، يتكلمون في سِتّنا عائشة بالإفك

الذي تكلم به المنافقون ، وقد بَرَّأها الله منه بعشر آيات أنزلها تتلى في كتابه ، فجمع العلماء بين قول الله المنزل وبين قول رسوله ﷺ في فضلها ، من ذلك قوله عليه الصلاة والسلام : « فضل عائشة على سائر النساء ، كفضل الثريد على سائر الأطعمة » ، وقوله عليه الصلاة والسلام : « خذوا شَطْرَ دينكم عنها »، وغير ذلك كثير ، وبينوا أن كثيراً من الأحكام أُخِذَت عنها ، فظهر من هذا تفضيلها على سائر أزواجه ﷺ ، ثم بينوا ما هو الثابت بالفضيلة ، وذكروا أفضلهن ثم من يليها على الترتيب ، فهذا السبب الذي دعا العلماء إلى الكلام في التفاضل بينهن .

وسألته عن رؤية النبي ﷺ للأنبياء ليلة الإسراء ، كل واحد منهما في سماء ، أرؤية أرواح أو أجسام؟ ، *فقال رضي الله عنه* : « **رؤيته لهم على قدر درجاتهم بالنسبة إلى القرب من الله ، ويمكنه عليه السلام أن يرى الأشياء قبل وجودها** » .

فقلت : كيف رؤية آدم لداود عليهما السلام ، وأعجبه حسن صورته ، هل هو في الحسن أكمل من يوسف عليه السلام وهو المشهور بالحسن ؟ ، *فقال* : « **إن الله أَطْلَعَهُ على داود ولم يُطْلِعْهُ على يوسف، وإلا فهو أكمل في الحسن ، وقد ورد أنه أُعطِيَ شَطْرَ الحسن ، وإنما أطلع الله تعالى آدم على داود دون يوسف ، ليظهر تفرده تعالى بالعلم** » .

أقول : قوله : « **ويمكنه عليه السلام أن يرى الأشياء قبل وجودها** » ، من ذلك رؤيته عليه السلام ليلة المعراج المعذَّبين في النار بأعمالهم ، كرؤيته النساء المعلَّقات بشعورهن وبِثُدِيِّهِنَّ ، وسأل جبريلَ عنهن فأخبره بهن وبأعمالهن ، ورؤيته الذي يشق شدقه ، وأنه الذي يكذب الكذبة تبلغ الآفاق وتشتهر عنه ، وغير ذلك مما ذكر كثيراً . وكل ذلك رؤية أناس يعملون تلك الأعمال في الدنيا ويُجْزَون جزاءها المذكور في الآخرة ، وما وُجِدُوا بَعْدُ ولا أعمالهم ولا جزاؤهم المذكور ، وإنما سيأتون بعد رسول الله ﷺ بزمان بعيد ، ويعملون هذه الأعمال ويجزون جزاءها المذكور في الآخرة ، فأراهم الله نبيه وأطلعه على حالهم وما جوزوا عليه على أعمالهم ، ليعرف أعمالهم وقدر جزائهم عليها ، ليجتهد ويبالغ في تحذير أمته من تلك الأعمال ، ويذكر لهم ، لِيَشْتَدَّ خوفهم من ذلك ، فينتهوا عن تلك الأعمال ، ونحو ذلك كثيراً مما أطلعه الله عليه ليلة المعراج . وحالة وقوفه لصلاة الكسوف ، وحتى قال ﷺ : « ما من شيء كائن إلى يوم القيامة إلا قد أُرِيتُه في موقفي هذا » ، حتى قال العلماء : « إنه رأى في ذلك الموقف غير ما رأى ليلة المعراج ، وأكثر منه وشيئاً منه ، ورأى فيه كيفية فتَّانَي القبر ، وما رأى ذلك ليلة المعراج » ، كل ذلك تصديق لقول سيدنا : « **ويمكنه عليه السلام أن يرى الأشياء قبل وجودها** » هـ .

قال رضي الله عنه : « من سَألَنا عن ما لم يكن لِما يكون ؟ لا نجيبه ، وكثير من الناس سألونا فأجبناهم، وطلبوا وصايا فكتبناها لهم ، ولكن كلهم لم يبارك لهم في ذلك بعدم انتفاعهم - أي عملهم بها - بذلك، لأنهم إنما أرادوا مجرد علم يَحْكُونه ، وإنما رأينا البركة حصلت في المكاتبات والوصايا التي جعلناها لأناس من غير سؤال منهم لذلك ، بركة بالنسبة » .. وسقط هنا بعض الكلام هـ .

أقول : وهذا من جملة الأسباب المانعة له عن مشافهة أحد بالأمر في هذا الزمان على ما تقدم من قوله ، فإذا كان الذين طلبوا الوصايا واعتنى بكتابتها لهم لم يعملوا بها ، فما بالك بغيرهم ، وإنما انتفع الموصون في الوصايا والمكاتبات ، لعدم طلبهم واستجلاب ذلك لهوى النفس ، إنما هو بِنِيَّةٍ منه .

وقوله : « بالنسبة » ، أي بالنسبة إلى حال الوقت الذي انقلب الأخيار فيه أشرار وأولاد الأخيار فيه بحسب زمانهم ، يشبهون زمانهم ولا أشبهوا آباءهم . وهذا المعنى من عموم معنى قوله المتقدم : « في هذا الزمان انعكست الأمور عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها » ، فإن كلمته هذه يشمل معناها أموراً كثيرة من أحوالٍ تختلف لاختلاف الزمان ، من قصورٍ في دين أو دنيا أو معروف أو ديانة أو مروة حتى الأخلاق هـ .

قال رضي الله عنه : « ونحن قد سُئِلْنَا عن أمور مُشْكلة فأوضحناها ، حتى عن كيفية الجنة والنار ، ولكن ذلك يخص السائلين عن ذلك ، ولو جاءنا واحد ليس بزاهدٍ في الدنيا ، وطلب أن نُعَرِّفَه كيفية الزهد ، لم نُبَيِّن له ذلك ، إذ لو حصل له قصعة طعام جعل يأكل منها نهمته ، أو وقع له درهم ربطه بعشرين رباطاً ، ونسي في جميع ذلك الزهد ، أو طلب أن نُبَيِّنَ له الجنة وهو على حالته تلك لم نُبَيِّن له ، لأنه إيضاحٌ لغير مطلوب ، بل لغير متأهل لذلك . فقد ذُكِرَ أن ابن المبارك قال لأصحابه : اجتَرَأْتُ على ربي فسألتُه الجنة . هذا مع ما هو عليه من العلم والعمل والزهد ، فكيف بهذا ؟ » ، أو كما قال .

قال رضي الله عنه : « الناس اليوم كمن يِشِل المخْفَر بأحد أذنيه ، لا عذر من أن يطَيَّر منه شيء ، لأنهم لم يأخذوا الأمور بأطرافها » .

قال لي يوماً : « الهوى يُعمي عن الحق ، كالريح إذا اشتدت تُعمي العينَ عن النظر ، فكذلك الهوى يُعمي البصيرة عن الحق ، والهوى شِدَّةُ ميل النفس إلى الشيء بالباطل » .

ولما رأى هذا الكلام قد شَقَّ عليَّ وعلى من سمعه من الجماعة ، قال لي في معرض التسهيل : « إذا حصل لك شيء من غير تعب ألا تريده ؟ فكلٌ يريد شيء بلا شيء ، أما سَمِعْتَ قول بامخرمة : فتشت في قشاشي لقيت فيه ماشي ، يا الله بشيء بلا شيء . ولو كنت لم تدر ألا وقلنا لك : هذا الزاد والراحلة،

فقم وسافر ، لَشَقَّ عليك جداً ، أتريد أن ندخلك الخلوة ثلاثة أيام ، فانظر كيف تخرج هارباً ، وقدك في خدمة لنا ، فمن أمرناه بأذان أو قراءة مثلاً أو بسَاقة أو حاجة أو أي أمر ، فهو في الخدمة » .

قال : « ونحن إذا تَكَلَّمْنَا أَسْنَدْنَا الكلام إلى واحد ، وقَصَدْنا الكل . لأنَّا لو جَرَّدْنا لكلِّ واحدٍ خطاباً حِزْنَا معهم ، وفي الكلمات تكون عشر كلمات من الطالب وكلمة من المعلم ، وإن تكلم هو بمراده قبل يسأله يأخذها ويسكت » .

قال له رجل : « الله ينفعنا بكم » ، *فقال رضي الله عنه* : « الله ينفعكم بنا وينفعنا بكم ، فقد قيل : إن المعلم ينتفع من المتعلم أكثر مما ينتفع المتعلم منه . وقد أتكلم مع الجماعة في بعض الأوقات بأشياء لم يفهموها ، لنستذكر بها أشياء كنا نعلمها فنسيناها ، حتى كأنا لم نقف عليها .

وقد قرئت علينا رسالة القشيري أكثر من عشرين مرة ، وإذا مَرَّت علينا كأنَّا ما سمعناها ، ولولا التبرك بذكر أحوال الصالحين تركنا باب الاصطلاح منها لأنها ، أين الآن من يعرفها ؟ ومن يتحقق بها ؟ وفيها أيضاً إشكال ، مثل السُّكْر . وما استشهد في ذلك من الأبيات ، فإن أكثرها من قول أهل الخمر ، وهذا هو الذي حصل بسببه الاعتراض على الصوفية . ونحن لنا بهذه الأشياء معرفة وذوق ، ولكنا صادفنا قوماً ليسوا كذلك ، ولكن بعد ما يرق باطنه ويصفو تظهر له أمور ، حتى إن الشاطحين بعدما صَفَتْ بواطنهم ورأى من رأى شيئاً منها ، ظن ما ظن - أي فقال عند ذلك شيئاً - فحصل عليه الإعتراض في ذلك ، كقول أبي يزيد : سبحاني .

والسلامة في اتباع السلف وما هم عليه من الزهد في الدنيا ، كأويس القرني والحسن البصري ، ولكن جزى الله الإمام الغزالي خيراً ، حيث تَتَبَّعَ طريقة الصوفية فرأى أنها حق ، وأَسَّسَها وبَيَّن ما اختُلِفَ فيه ، بسبب تغير الأسماء الاصطلاحية ، ومثل الإمام النووي في زهده والبغوي في تقلله ما بعدهم في طريق الصوفية ، وإنما هم على طريقة السلف ، فكيف يريد هؤلاء أن يصيروا ويتحققوا بحقائق الصوفية وهم يعجز أحدهم أن يَرُدَّ عن نفسه الخواطر في الصلاة ؟ وربما تراوده نفسه في الصلاة بشهوة ويعجز عن ردها ، فلا يطمعوا في حال أولئك ، فرحم الله امرءاً عرف قدره ولم يتعد طوره .

ولا خير إلا في أسلوب عالمٍ عاملٍ من الإنزواء عن الدنيا والتقلل منها جداً إلا قدر الضرورة ، أو على قدر الحاجة مع التمسك بالكتاب والسُّنة وهو المهيع ، ويترك عنه الإشارات والأشياء المشكلة الغامضة ، فإن طريقة الصوفية لا يكاد يقبلها العقل ولا يُصَدِّق بها ، وإن كان لك نصيب فهو يأتيك ، فأين كنتَ يوم خلق الله السماوات والأرض ؟ » ، أو كما قال .

وذَكَر الشهرة ، *فقال* : « الشهرة ما تعطي الرفعة عند الله تعالى ، فكم من مشهور في بركة مستور،

وكان سيدنا الفقيه المقدم غايةً في الخمول ، وله من التواضع ما لا يكاد يوصف ، حتى إنه مع عظيم حاله يكره أن يُسَمَّى شيخاً ، وأول ما سُمِّيَ به ابن ابنه عبدالله بن علوي بن الفقيه المقدم ، وكان عبدالله إذا قيل له : يا شيخ . قال : الشيخ أبوك - يعني يكره ذلك - . وإذا سمع الإنسان سِيَرَ الأولياء اليوم يقول : ما هذه إلا أضغاث أحلام . فأين هي اليوم ؟ وإنما المتعنتين هم الذين يطلبون معرفة أيهم أفضل، وبيقينٍ أن الأنبياء والأولياء بعضهم أفضل من بعض ، ولكن من الذي يعرف ذلك ؟ وإذا وزن بعض الفضائل ببعض عرف الأفضل ، ولكن في ذلك فضولٌ و لا حاجة إليه ، وإن دَعَتْ حاجةٌ إلى ذلك ينظر بقدرها ، كما دعت العلماء الحاجة في أمور العقائد بسبب المعتزلة إلى تأويلٍ وتفضيلٍ ، وإلا فلولا ذلك لكان بعدما يُحَرِّز معتقدَه ودينَه ، ما عليه إلا العمل ولا يوسوس ، إلا إن كانت حصلت وسوسة في العمل ، كما تكون في الصلاة ، وخُذْهُ من هنا من حديث قول الله تعالى لآدم : أخرج بعث النار .. إلخ» .

وذكر الشيخ عبدالقادر رضي الله عنه ، فقال : « كان صاحب رياضات ومجاهدات حتى إنه قال لأمه : هبيني لله . فوهبته ، فخرج إلى العراق سائحاً متغرباً ، فما نالوا ما نالوا بسهولة ، وكان إذا غلب عليه الحال إنما يقول مثل قوله : يا غلام سِرْ مِيلاً زُرْني ، أو كُلْ عندي لقمة ، أو اشرب من عندي شَربة ، ونحو ذلك . ولا يُفَضِّل نفسه على أحد ، فإنَّ عباد الله العقلاء لا يُفَضِّلون أنفسهم ، فكيف الأولياء » .

وقرئ عنده شيء من نظم ابن الفارض ، الخمرية وغيرها ، فتكلم في ذلك كثيراً وفي أمثاله كابن عربي ، فقال : « أشياء تظهر لهم بعد الرياضات والمجاهدات ، وقد ذكروا : أنه لا بد قبل الدخول في السلوك والرياضات والمجاهدات من معرفة العلم ، لئلا يتغير اعتقاده من ذلك - أي من ذلك الذي يظهر لهم منها - لأن للشيطان فيها مجالاً ، ولهذا لا بد فيها من موافقة الشرع ، الشرع الصريح الذي هو الأصل ، ما هو أقوال العلماء واختلافهم . ألا ترى كيف اعترض للشيخ عبدالقادر ، فامتد له عمودًا من نور ، فقال له : أسْقَطْتُ عنك التكاليف . فقال له : إخسأ يا لَعِين . فاضمحلَّ عند ذلك ، وقال له : قد فَتَنْتُ قبلك بهذا سبعين صدِّيقاً، فبِمَ عَلِمْتَ ذلك ؟ قال : بقولك : أسْقَطْتُ عنك التكاليف. وكذلك قصة الذي شَكَوْهُ إليه ، لما قال أنه ينظر إلى الله عياناً ، فَعَذَرَهُ الشيخ بين الناس ، وقال إنه انخرق بصره إلى قلبه فرأى بعين قلبه، فظن إنه رأى ببصره ، وعاتبه خفيةً في تكلمه بذلك بين العامة .

ورؤية العقل بالعلم ، فإذا دَقَّقَ فيه فكأنه رآه بعينه ، حتى إن الشيخ أبا عبدالله القرشي قال : انفتح لي يوماً باب النظر ، فرأيتُه من كل الجهات الست ، وهي رؤية العقل ، فلو كانت رؤية بالبصر ، فما كان فرق بين رؤية الأنبياء ورؤية غيرهم ، وهذه الأمور كلها فيها القرب من جانب والبعد من جانب ، ولا فيها شيء من الحلول والتشبيه . واسمعوا عنا : السعيد في مثل هذه العلوم - أو قال : الأمور - يُمِرُّها

ولايدري بها ، وإنما يمرها للتبرك ولايتفكر فيها ، فإن التفكر فيها ضلالة ، فاحفظوا هذا عنا وانقلوه ، فربما تدركون أحداً » هـ .

أقول : قوله : « ولا يدري » ، أي لا يعرفها ولا يكلَّف علمها .

قوله : « وَخُذْهُ » ، أي خُذْ معنى التفضيل في جملة الآدميين ، من كون كلِّ ألفٍ واحدٌ فقط يدخل الجنة ، وإبليس اللعين قد مَكَّنَهُ الله في سبيل الإغواء من أمورٍ وحِيَلٍ كثيرة ، حتى فطن لهذه المذكورة وقدر عليها ، ومَن مَنَّ الله عليه تمكَّن بنور العلم من قلبه - كالشيخ عبدالقادر - يحفظه الله من دقيق حِيَلِهِ ، فعرف أنه لا يكون قط إسقاط التكاليف عن المكلفين في الدنيا ، وأن تلك حيلةٌ شيطانيةٌ ، فاضمحلت لما عرفها وقال له ما قال ، وخرج منها يخاطبه . وقد قَصُرَ عن الفطنة لمعرفتها من قَصُرَ عن مقامه ، فمرت عليهم حيلته فغووا وافتتنوا ، كما قال: « قد فتنت بها سبعين صديقاً » ، وكل ذلك ممن افتتن ومن سلم انجذب إلى ذلك - أي السلامة والإفتتان - بسلاسل القضاء والقدر ، لما أراده الله من كل أحد منهم .

وقوله : « فلو كان رؤية بالبصر فما كان فرق بين رؤية الأنبياء وغيرهم » ، يعني لأن رؤية البصر الحسية مستوية بين كل الخلق ، خواصهم وعامتهم ، فلا تختلف باختلاف الناس ، بخلاف رؤية القلب ورؤية العقل ورؤية العلم ، فإن الناس فيها درجات متفاوتة كثيراً وقليلاً ، بعضهم أكمل فيها من بعض ، وأكملهم الأنبياء على درجاتهم ، ﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾، ثم من بعدهم الأولياء في طبقاتهم على ترتيبها ، بعضهم أعلى من بعض ، بحسب ما فضلهم الله به وقسم لكل واحد منهم .

وقد قُرِئت ترجمة سيدي عبدالقادر بتمامها بحضرة سيدي عبدالله وأنا أسمع ، فمما حفظت منها : أن سيدي عبدالقادر لما قال لأمه : « هبيني لله » . قالت له : « وَهَبْتُكَ لله ، فَسِرْ حيث شئت » ، وزوَّدته بشيء من الدنانير ، وخَيَّطَت عليها في مرقعته ، وقالت له : « إستَوْدَعْتُكَ الله ، فأوصيك بالصدق في جميع الأحوال ، وإياك والكذب » ، ثم ودعها وسار من بلاده جيلان - أحد بلدان العجم - إلى العراق، في قافلة تريد العراق ، فالتقاهم قوم حرامية يقطعون الطريق ، فأخذوا القافلة بجميع ما فيها، ثم جاءه مقَدَّم الحرامية وقال له : « أين الدراهم التي معك ؟ فإن الفقراء يخبئون المال ويقولون : ما معنا شيء » . فقال : « ها هي في مرقعتي مُخَيَّطٌ عليها » . فنظر في ما أشار له من المرقعة ، فوجد تلك الدنانير ، فلما رآها تعجب وقال له : « كيف أخبرتني بها وأنت تعلم أني أريد أخذها منك ؟ » . فقال : « لأن أمي أوصتني بالصدق ، وحذرتني من الكذب » ، فخشع قلبه وتعجب وبكى ، وأمر أصحابه بِرَدِّ كل ما أخذوا من القافلة ، فَرُدَّ جميعُه . وكانت هذه أول كرامةٍ وقعت له نفع الله به .

ثم سار الشيخ مع أصحابه قاصدين العراق ، ثم إن الشيخ قصد إلى المداين ودخل إيوان كسرى،

وبقي فيه يتعبد ، فجاءه فيه الخضر ، وقال له : « أريد أعقد معك عقد الأخوة » ، قال : « مليح » ، فقال الخضر : « إجلس مكانك حتى آتيك » ، فغاب عنه سنة ، ثم جاءه وهو جالسٌ مكانه ، فقال : « ما زلتَ جالساً تنتظرني ؟ » ، قال : « نعم » ، فقال : « إجلس أيضاً انتظرني » ، فغاب عنه سنةً أخرى ، فعاد له وهو في مكانه فقال له : « مازلتَ على ذلك ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « فانتظرني أيضاً » ، فغاب عنه سنةً ثالثة ، ثم عاد إليه وقال له : « ما بَرِحْتَ كذلك ؟ » ، قال : « نعم » .

ثم عَقَدَ معه عَقْدَ الأُخُوَّة ، وأمره بالدخول إلى بغداد ، وأن يقصد الجامع ، وكان ذلك اليوم يوم جمعة ، فقصد الجامع ، فرأى في طريقه أو في الجامع رجلاً شيبة نحيفاً جداً ، مُلقىً لا يستطيع الجلوس ، والتراب تكثه الريح على وجهه ، قال : « فقال لي : أجْلِسْني يا عبدالقادر . فأجلسته ، فإذا به قد انقلب شاباً قوياً جميلاً حسن الوجه ، فارْتَعْتُ من انقلابه في لحظة ، فقال : لا تخف يا عبدالقادر ، أنا دين الله ، كنت ميتاً فأحييتني ، فأنت محي الدين . فحين قالها غاب عني فلم أره ، فإذا الناس مكِبِّين عليَّ يقبِّلونني ويتمسحون بي ، ويقولون : شيء لله يا شيخ محي الدين يا عبدالقادر ، وما أحد قال لي ذلك قبل قوله لي ، ولا عُرِفتُ به قبل ما قالها لي » ، ثم بقي ببغداد وكان من أمره ما كان .

هذا ما حضرني مما سمعت من ترجمته نفع الله به ، ثم أشهره الله في الخافقين وبين الثقلين ، وطبق صيته الأرض .

ومرة ذَكَره في بعض المجالس ، **فقال : « من كراماته أن أرسل له الخليفة العباسي الذي في وقته بكيسين دنانير ، فقال للرسول الذي أتاه بهما : قف انظر . فعصر واحداً من الكيسين فجعل الدم ينصب منه ، ثم عصر الآخر فانصب منه الدم أيضاً ، ورسول الخليفة ينظر ، فقال للرسول : قل للخليفة : يسلم عليك ابن عمك ويقول لك : أما تستحي ترسل إليَّ بدماء المسلمين ؟ أما والله لولا قرابتك من رسول الله ﷺ لجعلتهما نهرين يجريان دماً ، من الزاوية إلى بيتك »** .

وسمع سيدنا أيضاً شيئاً من نظم السودي فيه غزل ، **فقال : « يذكرون أشياء لا يعرفونها ، مما يشبه ذكر النساء والخمر ، وهم بُرآء منها ، فيدل هذا أن هناك شيئاً آخر ، ولهم خمر وراح غير ما يعرفه الناس ، ولا حرج على من تغزل ، وإنما يخشى أن يستزل به الضعفاء ، وصاحب الحال معذور في ما يقوله ، لكن يخشى عليه في آخر أحواله أن يغلط بشيء من أمور الدعاوي »** .

وتكلم يوماً في الوجد ، **فقال : « من تمكن في روحه غلب عليه وجد الروح ، ولا يظهر عليه وجد البدن ، فإنهم لا يرونه شيئاً ، ومن هو كذلك غلب على كلامه وجد الروح ، كما أن من غلب عليه أمر**

الجسم غلب على كلامه الكلام في أمر الجسم ، ولا معه إلا وجد الجسم » ، أو كما قال .

أقول : تقدم قوله : « ما أنزل الله الروح إلى الجسم حتى أخذ عليه العهد » ، يعني أن غذاء الروح ذكر الله وما يزلف لديه ، ودواعيه كلها إلهية - أي في ما يرضي الله - ودواعي النفس ومطالبها كلها جسمانية هوائية دنياوية . يعني كلها منافع في الدنيا ، فإن حصل للروح المدد من الله تجردت دواعيه وتمكنت وقويت ، واستجر النفس عن دواعيها ومطالبها إلى دواعيه ومطالبه وغلبها ، كما هو شأن الأولياء . وهذا الروح هو الذي أشار إليه بقوله : « من تمكن .. » ، إلى قوله : « ومن هو كذلك غلب على كلامه وجد الروح » ، وأما دواعي النفس ومطالبها فكما ذكرنا ، فإن جاءها المدد من الشيطان قويت دواعيها وتمكنت ، واستجرت الروح إلى مطالبها ، وغلب على صاحبها أمر الجسم كما أشار إليه ، فأيهما تمكن غلب وجده وتمكن وغلب على كلامه ما هو متمكن فيه من دواعي الروح ومطالبه ، أو دواعي الجسم التي هي دواعي النفس ومطالبها وهذا المعنى الذي أشار إليه هنا ، والذي أخذ فيه العهد على الروح كما ذكر فيما تقدم .

وقد ذكرنا في ما تقدم صفة مجلس من مجالس سماعه ، ليقيس عليه كل مجالسه للسماع ، وهو مجلس جلسه على ما مر تاريخه من كونه ليلة الخميس ٩ شهر ربيع الثاني من سنة ١١٢٩ ، قبل وفاته بأربع سنين إلا خمسة أشهر تنقص يومين هـ .

وذَكَر الوسوسة في الصلاة والتلاوة والذِّكر ، *فقال* : « **لا أحسن للإنسان في الصلاة من ترك الخواطر والإعراض عنها ، ولا شك أن الخواطر الحاصلة في طاعةٍ تدعوه إلى طاعةٍ أخرى أنها من الشيطان ، لأنها تسلبه الحضور فيها ، فإن دعته إلى مباح كان أحسن ، فإن كان إلى حرام والعياذ بالله فالأمر أشد ، وإذا لم يمكنه الحضور الكلي التام الذي يعرفه من ذاقه ، وفيه يكون اللسان تابعاً للقلب ، فلا أقل من أن يجعل القلب تابعاً للسان ، بحيث يجري عليه معاني ما يجري به اللسان ، ويتأمل ما يقرأه . ومن العجيب أن الإنسان في حالة الأكل تَقِلّ خواطره ، لأن النفس مجتمعة على مطلوبها ، فإذا قام إلى الصلاة تفتحت عليه الخواطر من كل جانب ، لأنها خلاف مطلوب النفس فتضيق منها ، ومن حضر في صلاته فهو في الحضرة ، ومن وسوس فيها بمباح فهو خارجها ، أو بمحرم فهو في حضرة الشيطان .**

والرياء هو الفعل بالقصد ، غير الخواطر التي تخطر من غير اختيار ، فإن قلوب الضعفاء تكثر فيها الخواطر من هذا الجنس ، حتى يتخلى القلب من الخلق ، وقليل خطورها في قلوب المتقين ، فإذا خطر منها خاطر نادراً ، بادروا إلى الرجوع عنه ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ إِذَا مَسَّهُمۡ طَٰٓئِفٞ مِّنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبۡصِرُونَ ٢٠١﴾**، وذلك حين يتخلى القلب وينخلع من كل ما سوى الله تعالى ،**

وذلك هو الكبريت الأحمر الذي يعز وجوده ، ويُتَحَدَّث به ولا يوجد » ، أو كما قال هـ .

أقول : قال الشعراوي : « عدم الخواطر في الصلاة ليس من طاقة البشر ، لقوله عليه السلام : رأيتُ في مقامي الجنة والنار . وكان في صلاة الكسوف ، فلو كان يقدح في الصلاة لما وقع له ﷺ ، وقول عمر رضي الله عنه : إني لأُجَهِّزُ جيوشي في الصلاة » ، قال : « وذلك لكماله ، لأن الكُمَّل لا يُشغِلهم عن الله شاغل ، مع أن ذلك كان في مرضاة الله » .

وقد فَصَّل سيدنا الخواطر العارضة في الصلاة في « الفصول العلمية » وفي « إتحاف السائل » أكثر، ومادة كلامه هنا غير مادة كلامه هناك ، يُبين لك ذلك إذا نَظَرْتَ إلى كلٍّ في محله . ففي « الإتحاف » سُئِل عنها ، فكان يقصد كلامه في جوابه عنها وحكمها ومادتها . وفي موضع من المجالس سئل عن سببها فقال : « **أصلها من الطُّعْمَة والخِلْطَة** » ، يعني إذا كانت الطعمة فيها شبهة ، أو غير خالصة في الحل ، وكانت الخلطة مع أناس لا تقوى معهم ، فلا يتحاشون الفضول والغيبة .

ومادة كلامه في « الفصول » : ذكر نقصان الإنسان إذا كثرت عليه الخواطر في الصلاة ، وسلبته الحضور فيها . ومادته هنا : ذكر أن الخواطر على وجوهها الثلاثة المذكورة كلها من الشيطان لأنها تسلبه الحضور في الصلاة ، وأن بعضها أشد من بعض ، أولها أن تدعوه منها إلى طاعة أخرى ، وأشد منها إن دعته إلى مباح ، وأشد منه إن دعته إلى حرام . وأن الخواطر في الصلاة إذا عجز عن ردها ، دليل على نقصه ، والكامل لا تعرض له فيها ، لقوة شغل قلبه بالحضور مع الله فيها هـ .

قال رضي الله عنه : « **النَّفسُ تَحِنُّ إلى السماع أكثر من حنين الروح ، لأنها تطرب إلى هذه الأمور ، وإنما لذة الروح بالمعاملة** – أي العبادة – **وسماع القران . والنفس كثيفة تحب هذه الأمور ، أما ترى الضعفاء** – أي الفلاحين – **كيف يرقصون عند سماع الأشعار ، فكل هذه حظوظ النفس ، وإنما ميل الروح إلى العالم العُلوي ، ومن نزل منه نزل إلى أسفل السافلين ، وإن الله ما أنزل الروح إلى الجسم إلا بعد ما أخذ عليه العهد ، فكلما تعلق بالحادث فهو ناكث . وذكر بعضهم أنه إذا بالغ في الرياضة أن الروح يسمع طنين العرش ، فيجد لذلك من اللذة ما لا يدخل تحت الوصف** » هـ .

أقول : قد تقدم هذا ببيانه ، ونُبَيِّن هنا ما تيسر : قوله : « **الضعفاء** » ، أي الفلاحين أهل الحرث .

وقوله : « **المعاملة** » ، أي العبادة ، يعني أن الفلاحين الذين يخدمون في النخيل يطربون عند سماع الأشعار لميل نفوسهم إليها ، ومَيْلُ النفس غير مَيْلِ الروح ، الأول مَيْلٌ إلى الأمور السفلية الدنيوية ، ومَيْلُ الروح إلى العبادة والأمور العُلوية الأخروية الحقية الإلهية ، كما قال في قصيدته :

لِجِـيْرَانٍ لَنَـا بِالأَبْطَحِيَّـة بَعَثْتُ مَعَ النُّسَيْماتِ التَّحِيَّة

إلى أن قال :

تُزَمْـزِمُ لي الحـدَاةُ بِذِكْـرِ لَيْـلى وَمَـا هِـيَ يَـا فَتَـى بِالعَامِرِيَّـة
فَأَصْبُـو ثُـمَّ أَصْبُـو ثُـمَّ أَصْبُـو وَلَا كَالصَّبَـوَاتِ العُذْرِيَّـة
وَلَيْسَـتْ لِلْغَـوَانِي وَالأَغَـانِي وَلَا لِلشَّـهَوَاتِ الدّنْيَوِيَّـة
وَلَا لِلْفَانِيَـاتِ بِـأَيِّ مَعْنَـى وَلَكِـنْ لِلأُمُـورِ العُلْوِيَّـة
حَقَائِقُ مِنْ رَقَائِقَ قَدْ تَسَامَتْ بِـأَوْجِ الحـضَرَاتِ القُدُسِـيَّة
مَنَاظِـرُ لِلنَّوَاظِـرِ مِـنْ قُلُـوبٍ مُطَهَّـرَةٍ زَكِيَّـاتٍ نَقِيَّـة
وَأَرْوَاحٌ تَطِـيرُ إلى عُلَاهَـا بِأَجْنِحَـةِ الغَـرَامِ المقعَدِيَّـة
فَتَسْرَحُ في رِيَـاضٍ مِـنْ جِنَانٍ وَتَـأْوِي لِلْقَنَادِيـلِ المضِيَّـة
فَـوَا شَـوْقَ الفُؤَادِ لخيرِ عَيْشٍ مَعَ الأَحْبَابِ في الغُرَفِ العَلِيَّة

فهذا وَصْفُ المَيْلَيْن : مَيْلُ الخواص الأولياء الذين غلبت فيهم دواعي الأرواح على دواعي النفوس، فظهر ذلك عليهم في أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم . ووصف مَيْل الفلاحين العوام ، الذين غلبت فيهم دواعي النفوس على دواعي الأرواح ، حتى ظهر ذلك عليهم في جميع أحوالهم وأعمالهم وأقوالهم ، كما أشار إليه . وفرق بعيد جداً بين الميلين ، ولهذا أخذ الله العهد على الروح أن لا تتبع النفس على هواها الذي تميل إليه عن ما يهوى ويميل إليه .

قوله : « **حتى أخذ عليه العهد** » ، أي على الروح ، بأن لا يميل إلى متابعة النفس في مَيْلِها إلى الدنيا وحظوظها ، فهو مَيْلٌ إلى الحادث ، وهو « **ناكث** » ، أي باطلٌ زائلٌ فاني ، فإن هذا خلاف طبعه الأصلي الذي هو طبع الملائكة ، حيث رَكَّبَه في آدم حين كان في الجنة ، فكان هواه في كل ما يقربه إليها ، وإنما أُخرِجَ فيه إلى الدنيا لعمارتها ولترتيب أحكام الله فيها والقيام بها ، فكان طبعه الأصلي هو طبع الملائكة من التلذذ بذكر الله والعكوف في حضرته ، ولسيدنا قصائد كثيرة على لسان الروح ، من ذلك قوله :

مَـا طَـابَ قَلْبِـيْ وَلَا فُـؤَادِيْ مِنْ بَعْدِ مَا غِبْتُ عَنْ بِلَادِي

قال سيدنا هذا على لسان الروح ، يعني أن الروح هو يقول ذلك ، حيث جُعِلَ في الجسم غريباً عن وطنه الأصلي ، الذي هو العالم العلوي مع الملائكة ، فأُنزِلَ مع الجسم إلى الأرض لإقامة أحكام الله،

فصار مع النفس خادمة الجسم معاً ، وكلٌّ منهما يدعو الآخر إلى طبعه ومآربه ، فهما يتنازعان دائماً ، حتى يغلب أحدهما الآخر ويقهره ويصير الحكم له عليه ، فإن أَمَدَّ الله الروح بعساكر التوفيق ، غُلِبَت النفسُ وانقهرت تحت حكمه ولا لها معه اسم ، وصارت مطمئنة ، وإن أمدت عليه بعساكر الخذلان قهرته وصار الحكم لها عليه ولا له معها اسم ، وكلٌّ من الحالَيْن بحسب ما سبق للعبد من ربه من سابقة السعادة أو ضدها .

وقد بَيَّنَ الله لك طبع الروح وما يدعو إليه ، وطبع النفس وما تدعو إليه في هاتين الآيتين المتواليتين، فقال الله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾، فهذا طبع النفس وما تدعو إليه ، ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾، وهذا طبع الروح وما يدعو إليه ، وقد بين الله سبحانه في هاتين الآيتين وغيرهما ، بل في جميع الكتاب والسنة أن الله تعالى إنما خلق الجنة لمن غلب عليه الروح وما يدعو إليه ، وإنما خلق النار لمن غلبت عليه النفس وما تدعو إليه، لأن طبع الروح ودعواه إلى ما يرضي الله سبحانه ، ولأن طبع النفس وما تدعو إليه فيما يسخط الله ، فإذا غلبها صارت مطمئنة تدعو إلى ما يدعو إليه الروح ، وإن غلبته صارت أمارة فتركها وما أرادت وتجردت عن المنازع ، تحث إلى طبعها .

وقد ذكر سيدنا في كثير من قصائده أحوال الروح والنفس وصفاتها ، فمن ذلك قوله :

يَا أَيُّهَا الجوهَرُ المحْصُورُ في صَدَفٍ ... مُخْلَوْلَقٍ غَرَضَ التَّغْيِيرِ وَالْكَدَرِ
مُثَبَّطٍ فِي حَضِيضِ الحظِّ هِمَّتُهُ ... في لَذَّةِ البَطْنِ وَالمنكُوحِ وَالنَّظَرِ
تَقُودُهُ شَهَوَاتٌ فِيهِ جَامِحَةٌ ... حَتَّى تَزُجَّ بِهِ فِي لُجَّةِ الخطَرِ

قال الناظم : « **هذا وَصْفُ الجسم ، وما بعده خطاب للروح** » ، ومراده بالجسم ، أي داعية الجسم وهي النفس ، وما بعده الذي هو خطاب الروح هو بعده ، وهو قوله :

يَا أَيُّهَا الرُّوْحُ هَلْ تَرْضَى مُجَاوَرَةً ... عَلَى الدَّوَامِ لهذَا المظْلِمِ الكَدِرِ
فَأَيْنَ كُنْتَ وَلَا جِسْمٌ تُسَاكِنُهُ ... أَلَسْتَ فِي حَضَرَاتِ القُدْسِ فَادَّكِرِ
تَأْوِي مَعَ الملأ الأَعْلَى وَتَكْرَعُ مِنْ ... حِيَاضِ أُنْسٍ كَمَا تَجْنِي مِنَ الثَّمَرِ
تَأْتِي عَلَيْكَ نَسِيمُ القُرْبِ مُهْدِيَةً ... عَرْفَ الجمالِ كَعَرْفِ المنْدِلِ العَطِرِ
حَتَّى جُعِلْتَ بِأَمْرِ الله في قَفَصٍ ... لِيَبْتَلِيكَ فَكُنْ مِنْ خَيْرِ مُخْتَبَرِ

إلى آخر القصيدة .

وحضر مجلس سيدنا ليلة الجمعة وقت الذكر بعض العامة ، وكان قد تَفَقَّر ، فتحرك فلامه على تحركه ، وقال : « **أنت على طريقة العيدروس أو طريقة ابن علوان ؟** » ، فقال : « بل على طريقة العيدروس » . فقال : « **فَلِمَ تتحرك ؟** » ، فقال : « لضيقٍ يحصل في قلبي » ، قال : « **هذا من الشيطان، لأنه يُضَيِّق القلبَ إذا دخله ، وأما الحق فإنه يُوسِّعُ القلبَ ، قال الله تعالى : ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، فقال النبي ﷺ : إن النور إذا دخل القلب انشرح له وانفسح ، فإذا حصل عليك مثل ذلك فليقرأ أحد عليك شيئاً من القرآن ، وإلا فقم اِمْشِ خطوات** » .

ثم قال مخاطباً للحاضرين : « **والعامي الذي لا يعرف الطريق يدخل الشيطان في صدره ، والشيطان إذا دخل القلب لم يُرِد أن يبقى من الإنسان للحق بقية . وقد ذكر ابن عربي أنه حضر محضراً فيه سماع ، قال: وكان في المجلس رجل صالح مكاشَف يعتقده الحاضرون ، فبينما هم كذلك إذ به يقول إن الشيطان دخل إلى الحلقة ، وأنه دخل في صدر فلان . فما تم كلامه حتى قام الرجل الذي ذكره يستوجد**» .

وكان إذا ندر إلى السبير يوم الأحد كما هو عادته ، ويحضر مجلسه في غرفته جماعة منهم السيد علي باحسن الفقيِّش باعلوي ، فتخلف عن الحضور ثلاثة أسابيع لحمى حصلت عليه ، ثم كان يسأل عنه كلما جلس ولم يره ، فلما صَحَّ من الحمى وحضر مجلسه ذلك قال له : « **أين كنت ؟** » .

فذكر عذره ، فقال سيدنا له : « **قد سألنا عنك كلما جلسنا ولم نرك ، أتظن أن من تعلق بنا وأمسكناه أَنَّا نُسَيِّه ؟ لا ، ولو سَيَّبنا هو ، أصل أَنَّا نمسكه ، ثم بعد لا نُسَيِّبه** » .

وفي مجلس آخر ذكر هذا الكلام ، وزاد : « **فإذا لم نمسكه فإنا لا نحب كثرة التحمل** » هـ .

أقول : وقد رأيتُ كثيراً ممن حَلَّ عليهم نظره وأمسكه كما قال ، وقعوا في محن عظام ، وخلصهم الله ببركته ، حتى إن رجلاً من المترددين إليه من شبام أقرّ وعرف سيدنا منه العقيدة ، وكان يتجر إلى صنعاء، فكان التجار يبيعون بضائعهم على الإمام ، وهذا الرجل يتحرَّى البيع على غيره .

فاتفق أن أخدام الإمام جاؤوا يطلبون من التجار بضائعهم ، فأخذوا من أكثرهم كل بضائعهم ، وهذا الرجل باع كل ما له إلا الربع ، فطلبوه فوجدوا ذلك عنده ، فأخذوه بالشراء بأكثر ثمناً من الذي يباع على غيرهم ، وهذا رغِب في البيع بالناقص على غيرهم حلالاً دونهم بالأكثر ، فعزله عن ماله .

فلما أقبلوا لقيهم قوم حرامية ، وأخذوا أكثر أموالهم ، وما أخذوا من هذا الرجل إلا ذلك الربع المعزول ، وقد هتف بسيدنا حين هجموا عليهم ، ورأى أن هذه كرامة لسيدنا نفع الله به .

وسألتُ سيدنا يوماً أن يُملي عليَّ شيئاً من ظاهر أحواله ، من صغره إلى الآن ، لأحفظها عنه ، وإلا فقد رأينا من ذلك أشياء مكتوبة ، وأشياء على الألسنة يحفظها الناس ، وإنما أردت أن أسمعها منه وأتمسك بها دون السماع والرؤية ، فلم يسعفني بذلك **وقال** : « **قد نسينا أكثرها ، ولا عاد بقي إلا كتابات لم نثق بها** - أي رب قليل كُتِب - **ولا عاد معنا دماغ لذكر ذلك ، ولو ذكرنا لاحتاجت إلى مجلدات ، ولا عاد هنا شيء** - أي لا نقدر على ذكر ذلك لعجزنا من الكبر ، وهذه الكلمة بمعنى هذا المعنى في لغة أهل حضرموت كما سيأتي قريباً - **لذكر ذلك ، وقد قلنا لبعض الناس : إشْرَحْ بعض القصائد ، فقال : لا أشرح إلا بشرط أن أجعل مجلدين : أحدهما في ترجمتكم وذكر أحوالكم ، والآخر في شرح القصيدة . فما أعْجَبَنا ذلك منه** - أي أبينا نحن ذلك ، كيف وهو لم يذكر لي تأويل رؤيا سباحتي في الماء ، ولا خطر في ذلك ، على ما قدمنا من قصتنا ، فكيف يطمع في ذلك - **وأناس مدحونا بقصائد كثيرة وذكرونا بها ، فأردنا أن ننهاهم عن ذلك ، لكن خفنا من عدم الإخلاص في نهيهم ، فخلينا كُلًّا يتولى ما تولى ، ويتدرك ما تدرك به ، ونقتدي بالنبي ﷺ لما قيل فيه النظم مما مُدِح به ، وأنشد بين يديه ، ومدحه عمه العباس وغيره ، ونحن هذه الأشياء ما تجي على بالنا** - أي لا نظر في باله لعدم رغبته فيها كما قال - **ولا نحبها لنا ، ولا لمن نحبه** » .

وتكلم يوماً في شي من ذلك ، أي من أحواله والأمور التي سألتُهُ أن يُمليها عليَّ من شؤونه وأحواله، وهو قليل منه **فقال** : « **في نفسي من أيام البداية أن لا أضع لَبِنة على لَبِنة ، ولا أتزوج إلا على عربية ، لتقع راضية ، وما منا شيء لشره الأشراف ، ولكن ما قَدَّرَ الله إلا ما وقع ، وفي بنانا من العجائب ما لا يُصَدَّق به إلا من رآه ، حتى إن دارنا هذه لم نعلم بها إلا مبوَّبة بعد البناء ، جعلها الله على يد حيمد بن دامس** - أي خادماً له كان ناصحاً صدوقاً أميناً ، كان كل ما وقع لسيدنا شيء دفعه إليه ، **فألقى الله في باله بِنَاءها له** - وكان بناها سنة ١٠٦٥ أو سنة ١٠٦٦ ، **وسَكَنَّاها من حينئذ إلى تمام المائة بعد الألف ، ثم من حينئذ سَكَنَّا الحاوي . وأمور الدنيا يُحاسَب عليها من نواها ، وإن لم يكن عنده شيء منها ، ونحن خائفون من أن يحاسبنا الله عليها ، لكِنَّا منطرحين له وجاعلين أنفسنا بالقاع ، ولا ندَّعي أنَّا قائمين له بشكر ، ولا مخلصين له في عبادة . وأول ما تأهلنا على امرأة عربية عند الهجيرة خُفْيَة ، وما عَلِمَ الوالد إلا بعد ذلك في آخر السنة ، وكان ذلك في أولها وهي سنة ١٠٦١ ، وكان إنما مرادهم البركة وعِلْقَة ولد ، ما هم مثل هؤلاء القناتير، لأن بين ذلك الوقت وهذا الوقت مدة بعيدة نحو ٦٦ سنة ،**

تبدل فيها الناس وتغيرت أحوالهم ، وقد ظهرت طبقات بعد طبقات ، وفي كل طبقة شيء غير ما في التي قبلها ، وكانوا بِرْكِين ، إذا خطب الشريف عندهم فرحوا لأجل التبرك ولعلقة ولد . وأتممنا غرفة الحاوي سنة ١٠٨٣ ، وبقينا نتعهدها يوم الأحد ، وفعلنا لها أشجاباً ، والمحلة في السبير ، وبنيناها بطين الإكليل ، وهو سيل كبير حصل سنة ١٠٤٩ ، وفعلنا لها أبواباً ، وسنة ١٠٧٩ رحنا إلى الحج » .

وفي مجلس آخر قال : « كان نزولنا إلى الحاوي سنة ١٠٩٩ ، وأول ما جلسنا في زاوية الهجيرة سنة ١٠٦١ ، وبقينا ملازمين فيها إلى سنة ١٠٧٢ ، فتأهلنا أول هذه السنة ، وهذا أول تَأَهُّلٍ لنا ، ثم بقينا نتردد إليها ونبقى النهار فيها ، ونغيب عنها في الليل . ثم بنينا غرفة الحاوي سنة ١٠٨٤ ، نَحِلُّ فيها أيام الخريف ، ونأخذ زائداً على أيام المحلة إلى سنة ١٠٩٩ ، ثم حللنا في الحاوي وأقمنا فيه . وأول زيارة زرناها إلى عينات زرنا الشيخ أبابكر بن سالم ، قبل زيارة النبي هود والشيخ سعيد ، وسني إذ ذاك نحو ١٥ سنة ، وهي سنة ١٠٥٩ ، وبعد ذلك بسنتين وهي سنة ١٠٦١ دخلنا الهجيرة في شهر رمضان ، وكنا حَالِّين في السبير أيام الخريف ، فطلبت المكث فيه مدة رمضان لأجل الوترية وصلاة التراويح . وأخذنا نيابة من الفقيه باهارون ونحن إذ ذاك نقرأ عليه ، وأخذناها تطييباً لقلوب أصحابنا ، وإلا فَجَدُّنا الذي بناه جعل نظره ونيابته إلى ذريته ، وهو كان لا يحب أن يباشر الأوقاف » هـ .

أقول : قد تكرر منه ذكر ذلك مراراً ، وقوله : « ما مِنَّا شيء » ، هذه الكلمة في لغة حضرموت معناها لا نقدر على ذلك ، لا من حيث الجدة ولا من حيث الطاقة كما تكررت منه هنا مرتين : قوله : « ما عاد معنا شيء لذكر ذلك » ، يعني لعجزه من الكبر ، وقوله : « ما منا شيء لشره الأشراف » ، يعني ما نقدر على ما يطلبون .

وقوله : « نحن هذه الأشياء ما تجيء على بالنا » ، يعني إنه ناسيها لعدم رغبته فيها ، فكثير ما يخطر الشيء في بال من يرغب فيه .

ويُفهَم من سياق الكلام أن ابتداء البناء في غرفة الحاوي وإتمامها سنة ١٠٨٣ ، وبقي منها بقايا تم بناها سنة ١٠٨٤ ، وأنه حل الحاوي ١٠٩٩ وسنُّه حينئذ ٥٥ ، وأول جلوسه في زاوية الهجيرة سنة ١٠٦١ ، وسنه إذ ذاك ١٧ سنة ، ويوم سيل الإكليل سنة ١٠٥٩ وسنُّه ١٥ سنة ، وبنى غرفة الحاوي سنة ١٠٨٣ بطينه وسنُّه ٣٩ سنة ، وسنُّه يوم حج ٣٥ .

قوله : « في نفسي » ، أي نوى ذلك ، لما كان نفسه عازفة عن الدنيا ولذاتها وأسبابها ، والأمور الضرورية يؤتيها الله لمن أَعْرَضَتْ نفسُه عن الدنيا ، كما لم يعلم هو بداره إلا كاملة مبوبة . ومن التفت إلى الدنيا جعل الله تهيئتها وحصولها بسعيه وكدحه ، كما هو مشاهد وما يكون ، فما يعزم عليه الإنسان إلا ما قدر الله ، وعلامة الإذن في الأمور الضرورية التيسير ، كما قد تم بناء داره على يد خادمه حيمد

بن دامس وما علم بها إلا مبوبة ، عرف أن لا بُدَّ لسيده من دار سكنى .

وكان سيدنا كل ما وقع بيده يحذفه عليه ، فقام فيها ، وكذلك كان لسيدنا أيام خلوته بالهجيرة - أحد عشر سنة - متفطرين ، وله صدقات ومعروف كثير ، كله يأمر به على يديه ، وكان فيه الثلاث الخصال التي قال سيدنا : « **من عنده خادم اجتمع فيه ثلاث خصال ، فَلْيَشْدُد عليه بيده ويعض عليه: الأمانة ، والنصيحة ، والمعرفة** » ، ومرة قال : « **من اجتمع فيه الصيانة والديانة والأمانة تَمَّ أمره** » .

وما ذكر من مدح عم النبي ﷺ العباس له عليه الصلاة والسلام ، فمدحه بهذه القصيدة :

مِـنْ قَبْلِهَـا طِبْـتَ فِي الظِّـلَالِ وَفِي	مُسْـتَوْدَعٍ حَيْـثُ يُخْصَـفُ الـوَرَقُ
ثُـمَّ هَبَطْـتَ البِـلَادَ لَا بَـشَرٌ	أَنْـتَ وَلَا مُضْغَـةٌ وَلَا عَلَـقُ
بَـلْ نُطْفَـةٌ تَرْكَـبُ السَّـفِينَ وَقَـدْ	أَلْجَـمَ نَـسْراً وَأَهْلَـهُ الغَـرَقُ
وَرَدْتَ نَـارَ الخَلِيْـلِ مُكْتَمِناً	فِي صُلْبِـهِ أَنْـتَ كَيْـفَ يَحْـتَرِقُ
تُنْقَـلُ مِـنْ صُلْـبٍ إلى رَحِـمٍ	إِذَا مَـضَى عَـالَمٌ بَـدَى طَبَـقُ
حَتَّـى احْتَـوَى بَيْتَـكَ المُهَيْمِـنُ مِـنْ	خَنْـدَفٍ عَلْيَـاءَ دُونَهَـا النُّطُـقُ
وَأَنْـتَ لمـا وُلِـدْتَ أَشْرَقَـتِ الأَرْضُ	وَضَـاءَتْ بِنُـورِكَ الأُفُـقُ
فَنَحْـنُ فِي ذَلِـكَ الضِّيَـاءِ وَفِي	النُّـورِ وَفِي سُـبلِ الرَّشَـادِ نَخْـتَرِقُ

تمت الأبيات . ذكرها سيدنا في « سبيل الإدّكار » ، سوى بيتين قوله : « وردت نار الخليل » ، والبيت الذي بعده ، نقلتهما من بعض الكتب .

قال سيدنا : « **ونَسْر من أصنام قوم نوح ، وخَنْدَف امرأة إلياس بن مضر وهي جدة رسول الله ﷺ ، وحيث يخصف الورق : الجنة ، حيث قال الله تعالى** : ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾ ، أي لما بدت عورتهما - سترها - بأكلها الشجرة ، جعلا يقتطفان من أوراق الأشجار ، فيستران بها ويغطيان بذلك سوءاتيهما ، والستر الذي كان عليهما الأظفار ، شاملتهما وساترة عليهما ، ومغطية جميع بدنهما ، عورة وغيرها ، فلما أزيلت عنهما ، أبقى منها هذا القليل الذي أعلى رؤوس أصابع اليدين والرجلين ، ليعرف به ذلك الستر ويستدل به عليه .

وابن دامس المذكور : كان خادماً لسيدنا أيام تجرده وخلوته في مسجد الهجيرة وكان خادماً ناصحاً ومحباً صادقاً ، حتى كان سيدنا في تلك الحالة يجعل له على يده مائدة طعام أو أضياف .

وفي شهر رمضان كل ليلة متفطرين من أول الشهر إلى آخره ، كل ليلة ناس آخرين غير مَن قبلهم، وكل ذلك في حياة أبويه ، وهو على كيسه ، ولا على أبويه من ذلك شيء ، وهو على ذلك من نشوه إلى حين توفاه الله . وأدركنا من ذلك في آخر عمره ، وكان في حياة ذلك الخادم على يديه وبعده أرصد له من يقوم به ، ثم في بيته وحمالته ، وهذا الذي أدركناه نفع الله به .

وهكذا كما هو عادة الكرماء الأخيار ، سيما أسلافه السادة بنو علوي نفع الله بهم ، فإنه مجتهد أن يسير بسيرتهم ، ويحث منهم من ظن أنه يعمل على العمل بسيرتهم ، حتى إني رأيت يوماً دخل عليه بعض الأغنياء من السادة من ذرية عبدالله بن علوي ، وهو أحمد بارقبة ، فقال له : « **إتبع سيرة جدك عبدالله ، فإنه كان يتلمس بطون أولاد الفقراء ، ليعرف أنه شبعان أو جيعان ، فلمس بطن وليد من جيرانه ، فقال : يا ولدي ، عندكم البارحة عشاء ؟ قال : لا ، فغضب عليهم ، وكان مكفوفاً ، وسار إليهم قابضاً بيد الولد ، وعَالَقهم وخاصمهم ، فقال : أتباتون بلا عشاء وأنتم جيران لنا ؟ تريدون أن يخسف الله بنا الأرض ؟ الله لا يحللكم إن تباتوا فلا تخبرونا . وكان يخفون حالهم عنه لكثرة معروفه إليهم حياءً منه** » ، يحكي سيدنا ذلك لذلك الرجل ، يحثه على اصطناع المعروف ، فلما حكى له ذلك عنه ، قال له : « **هذا هو العيش لا غيره** » ، في كلام كثير .

وكان سيدنا يسير بسيرتهم ولا يهنأ إلا بالإقتداء بهم ، وأن يحذو حذوهم ، وقد قال في مدحهم ومدح من سار بسيرتهم ويتصف بوصفهم في بعض قصائده حيث قال :

وَسَقَى السَّاحَاتِ مُنْهَمِلٌ	**غَـدِقٌ فِي إِثْـرِ منْهَمِـلِ**
يُضْحِـي الرَّبْـعُ بِـهِ خَصِباً	**خَـضِرَ الأَوْعَـارِ وَالسَّـهَلِ**
مَرْبَـعُ الأَحْبَـابِ مِـنْ قِـدَمِ	**وَمَحَـطُّ السَّـادَةِ الأُوَلِ**
مِـنْ تَرِيـمِ الخَـيْرِ لاَبَرِحَـتْ	**فِى أَمَـانِ الله خَـيْرِ وَلِي**
الإِلـهِ الحـقِّ خَالِقِنَـا	**جَـلَّ عَـنْ شِبْهٍ وَعَـنْ مَثَـلِ**
وَأَمـانِ المُصْطَفَـى المَـدَنِي	**أَحْمَـدِ الأَمْـلاَكِ وَالرُّسُـلِ**
خَـيْرِ خَلْـقِ الله شَـافِعِهِمْ	**وَالـوَرَى فِى غَايَـةِ الوَجَـلِ**
وَأَمَـانِ الْعِـتْرَةِ الشُّرَفَـا	**مِـنْ بِنَـي الزَهْـرَا وَآلِ عَـلِي**
وَبَنِـي عَلَـوِيٍّ قادَتِنـا	**جَامِعِـيِّ الْعِلْـمِ وَالعَمَـلِ**

وَحُمَاةِ الجارِ مِنْ رَهَقٍ   وَأذىً بالبِيضِ وَالأَسَلِ
الْكِرَامِ المُطْعِمِينَ لِمَنْ   أَمَّهُمْ فِي الْخِصْبِ وَالمَحَلِ
مِثْلِ مَوْلانَا المهاجِرِ لُذْ   بِابْنِ عِيسَى السَّيِّدِ البَطَلِ
وَعُبَيْدِ الله يَتْبَعُهُ   عَلَوِيْ المَذْكُورُ فِي سُمَلِ
وعَلِيٌّ شَيْخُنَا وَأَتَى   بالإِمَامِ الجَامِعِ الحَفِلِ
وَالفَقِيهِ الحبْرِ عُمْدَتِنَا   وَالْعَفِيفِ المُحْسِنِ البَذِلِ
لمَوَارِيثِ الرَّسُولِ حَوَوْا   وَأَمِيرِ المُؤْمِنِينَ عَلي
وَمِنْ السِّبطَيْنِ قَدْ وَرِثُوا   ثُمَّ كَمْ حَبرٍ وَكَمْ بَدَلِ
مِنْ أُصُولٍ طُهِّرَتْ وَزَكَتْ   مِنْ جَمِيعِ الرِّجْسِ وَالدَّخَلِ
وَفُرُوعٍ قَدْ نَمَتْ وَسَمَتْ   لِلْعُلاَ مِنْ غَيْرِ مَاجَدَلِ
هُمْ أَمَانُ الأَرْضِ مِنْ فَزَعٍ   وَهُدَاةُ الخَلْقِ لِلسُّبُلِ
لُذْ بِهِمْ فِي كُلِّ نَائِبَةٍ   وَادْعُ ذَا الْعَرْشِ بِهِمْ وَسَلِ
وَصَلاَةُ الله دَائِمَةً   تَتَغَشَّى خَاتِمَ الرُّسُلِ
أَحْمَدَ الهَادِيْ وَعِتْرَتَهُ   ما سَرى بَرْقٌ عَلَى القُلَلِ
وَتَغَنَّى الورْقُ في سَحَرٍ   بِغُصُونِ البَانِ وَالأَثَلِ

تمت . ويعني بقوله : « والعفيف المحسن البذل » ، هو عبدالله بن علوي الذي ذَكَرَ سيدنا سيرته لذلك الرجل ، لِيُرَغِّبَه في المعروف ، كان مشهوراً بالمعروف ، حتى ذُكِرَ في ترجمته أنه كان يُطعِم أهل ستين بيتاً من الجن غير الإنس .

وَقَرَأتُ هذه القصيدة يوماً على سيدنا عبدالله ، فلما سمع قوله : « وحماة الجار من رهق » ، قال : « يحمونه قبل أن يَتَفَقَّروا بالسيف ، إذ كانوا أهل سَلَبٍ - أي سلاح - وكانوا يربطون خيلهم في أطناب الخيام ، إذ كانوا يتنقلون من سُمَل إلى صوح إلى الشِّعب ، ومن بعدما تَفَقَّرُوا من وقت الفقيه وجاي يحمونه بالسيف الباطن - يعني بالحال - » .

وقد **قال** : « إثنان لهما أكبر المنَّة على آل باعلوي : الشيخ أحمد بن عيسى ، خَرَجَ بهم مهاجراً من العراق وسَلَّمَهم من البدع . والشيخ الفقيه المقدم ، لما تَفَقَّر ودخل طريقة الصوفية ، وسَلَّمَهُم من العمومية وحمل السلاح » هـ .

أقول : فكسر سيفه ودفنه في التراب ، ثم قال : « الفقر خير ، الفقر خير » ، وذلك لما جاءته الخرقة من الشيخ أبي مدين هـ .

قال رضي الله عنه : « لنشاط الأبوين وضعفهما تأثيرٌ في نشاط الولد وضعفه ، والأم أكثر ، لأنها موضع الحرث ، وهي التي تعنى به دون الأب » .

وتبعه رجل يوم الأحد إلى السبير بابنه ، وذلك يوم ثامن ذي القعدة من سنة ١١٢٥ ، **فقال** : « قل له يرجع ، من رأيته يحب ابنه كثيراً فلا تكون بركة في ذلك الولد ، لأنه يبقى يداريه ويترقَّاه فيتغير ، فلا تُعَلِّق قلبك إلا بربك ، والمطلوب الوسط . وأما فرط الحنانة فإنما هو محمود للنساء ، وذلك طبعهن . ولهذا إذا طلب الرجل ابنه ليضربه التجأ إلى أمه ، وإذا أَلِفَ من أبيه تلك المحبة المفرِطَة بقي بلا أدب منه فلا يؤدبه ، لأنه إنما يعامله بما يحب ، فلا يُحسِن تربيته ، ألا ترى السلاطين كيف يدفعون أولادهم إلى من يربيهم من بدو أو غيرهم ، لِتَحْسُنَ تربيتهم ، ثم إذا أَلِف منه ذلك أنكر خلافه ، منه أو من غيره ، فيتولد فيه حب الجاه والمنزلة بلا علم ، فما ترى حصل لهؤلاء ؟ » .

ثم قال : « اسمعوا كلامي ، كل هؤلاء ما فيهم خير – أو قال : ما فيهم بركة – ومثلهم مثل من يريد يُحَتِّم بِسْرِه » هـ .

أقول : يعني أولاد أهل هذا الزمان ، لما ظهروا يحبون الجاه والمنزلة بلا علم ولا فضيلة يَفْضُلون بها غيرهم ، بل إنما طُبِعُوا على لئامة وخساسة ، من كونهم يحبون ذلك ، يرون أنفسهم شيئاً وهم لا شيء ، يدل عليه رغبتهم في ذلك وأمثاله .

ثم طال به الكلام في ذم محبة الجاه والظهور ، وفي مدح الخمول ، وما وقع له في ابتداء أمره من الظهور مع تَوَقِّيه منه ، وما قال له مشائخه في ذلك ، وأنه شكى ذلك للسيد عمر العطاس ، فذكر له أن ذلك أراده الله لك ، فلا تكره ما أراده ، وَذَكَرَ له : « إن الشيخ فلان كان الناس يُقَبِّلون حوافر دابته إذا لم يتمكنوا من تقبيل شيء من أعضائه ، ولا قدروا على التمسح بشيء من ثيابه ، وإنه قيل له في ذلك فقال : إنهم ما عظموني إنما عظموا الله ، فلا أمنعهم من تعظيم الله » .

وقول السيد محمد شليه مؤلف « المشرع الروي » له لما حج واجتمع به : « الحذر من المجاورة خوف الظهور » ، *فقال* : « **ما خطرت في بالنا ، مما رأينا من أحوال أهل الحرمين ، إلا إن كان المعاودة** » .

وإرسال شيخه السيد الشيخ محمد بن علوي له من يقول له : « يسلِّم عليك ويقول لك : عليك بالخمول ، واحذر من الظهور ، فإنه حصل لنا بسببه بلاء وضرر عظيم » ، وقول الرسول للسيد محمد: « إنه قالد على نفسه لا يُدخِل عليه أحد » ، فقال : « **ولو ، زد قل له : يقول لك ذلك** » .

وما نوى في زيارته إلى دوعن أنه إن أُذِنَ له بالتنقل في الزيارات ، أن لا يُمَكِّن أحداً يسايره ، وأن لا يزور إلا مع رجل واحد الذي يماشيه ، خوفاً مع كثرة الناس المتعلقين من الشهرة .

وقد تقدم كل ذلك من قوله ، وقال : « **قصدنا ذلك ، ولكن كأنا ما نحن بمرادين بهذه الطريقة**». أي طريقة الخمول ، حيث أظهره الله فوق كل ظاهر ، وأشهره عند كل طوائف الخلق من خواص وعوام ، في خصوص وعموم ، وعند أكابر العلماء والأولياء ، وأهل الكشف والجهال .

وبَيَّنَ له الشيخ عمر العطاس حال المرادين بطريقة الظهور ، وذكر ذلك الرجل منهم ، وقوله : « ما عظموني إنما عظموا الله » ، ودل قوله ذلك على أنه غائب عنه ، وما رآه ولا له إليه نسبة ، كما تقدم من قول سيدنا : « **وهذه الأمور ما تخطر في بالنا** » ، يعني غافلين عنها ولا نلتفت إليها .

ثم قال : « **ولا يظهر أحد من أهل الظهور من الأولياء إلا بواسطة جميع الأولياء من ظاهر وخامل. وذكر الشعراوي أن من ظهر منهم وفيه كفاية ، إذا رام أحدٌ منازعته في ظهورٍ مثله يَدْعُون عليه ، حتى يهلكه الله** » ، انتهى ، وقد ذكرت كل ذلك بتفصيله فيما تقدم .

والعجب من شأن سيدنا أنه من حين نشأ طفلاً ، إلى بلغ حد الكمال ، وهو جِبِلَّته مطبوعة على أشرف الأخلاق وكمال الصفات ، من بغضه للظهور ومحبة الجاه ، الذي طُبِعَ عليه كثير من الأشراف ، ولا جذبه طبعُ الزمان ومَيْلُ أهله إلى الباطل واتباع الرذائل ، حتى صار فيه كثيرٌ من عيال الأخيار من أشر الأشرار ، ولهذا قال فيه شيخه الشيخ عمر العطاس : « إنما السيد عبدالله من أهل القرن السابع ، وهو ثوبٌ طُويَ ونُشِرَ لأهل الزمان » ، فَنُقِلَ له هذا عنه ، *فقال* : « **لولا الأدب مع النبي ﷺ ، لقلت : أنَّا من أهل القرن الأول ، لكن من أهل القرن الرابع ، فانظروا في شأن الناس وشأني ، هل أشبههم أو يشبهوني ؟** » .

وأما أهل الزمان ولو كان فيهم أخياراً أدركوا أخياراً ، فظهر أولادهم لا يشبهونهم ، بل يشبهون زمانهم ، كما قال سيدنا علي : « الناس بأزمانهم أشبه منهم بآبائهم » ، وقيل :

لَئِـنْ فَخُـرْتَ بِآبَـاءٍ لهـمْ شَرَفٌ   لَقَدْ صَدَقْتَ وَلَكِنْ بِئْسَ مَا وَلَدُوا

وقيل أيضاً :

لله دَرُّ رِجَـالٍ بِالدُّجَـى سَـهِرُوا   في خِدْمَةِ الوَاحِدِ المَعْبُودِ مَا فَتَرُوا
قَوْمٌ عَلَى قَدَمِ الشَّرْعِ الشَّرِيفِ مَشَوْا   فَقْـراً لخالِقِهِـمْ لِلْخَلْـقِ مَـا افْتَقَـرُوا
عُلَـمَا هُـدَاةٌ تُقَـاةٌ عَامِلِـينَ بِـما   عَلمُـوا مِنَ العِلْـمِ وَامْتَثَلُوا بِما أُمِرُوا
صُوفِيَّـةٌ صَفْـوَةٌ صَافِيْنَ مِـنْ كَـدَرٍ   لَوْ مَسَّـهُمْ نَصَـبٌ في الله مَا ضَجرُوا
صَفَّاهُـمُ اللهُ مِـنْ غِـلٍّ وَمِـنْ حَسَـدٍ   عَـلَى الأَنَـامِ وَإِنْ سَـاءَ بِهِـمْ صَـبَرُوا
وَخَلَّـفَ الدَّهْـرُ مِـنْ أَبْنَائِهِـمْ نَفَـراً   مِـنْ بَعْدِهِمْ بِئْسَ هَـذَا الدَّهْرُ وَالنَّفَرُ
دَهْـرٌ ذَمِيـمٌ عَدِيـمُ الخَـيرِ أَهْلُـهُ إن   حَدَّثُـوا كَذَبُـوا أَوْ عَاهَـدُوا غَـدَرُوا
الكِذْبُ مَلْهَجُهُـمْ وَالزُّورُ مَنْهَجُهُـمْ   مُصَوَّرِيْـنَ شَـيَاطِيناً وَهُـمْ بَـشَرُ
قَـوْمٌ بَـرَاءٌ مِـنَ الفِعْـلِ الجمِيْـلِ وَإِنْ   تُحْسِنْ إِلَيْهِمْ فَلَوْ أَحْسَنْتَ مَا شَكَرُوا
إِنْ عَـاشَرُوكَ فَـلَا تَأْمَـنْ دَسَائِسَـهُمْ   أَوْ قَارَبُـوكَ فَكُـنْ مِـنْ غَدْرِهِمْ حَذِرُ
مَالُوا عَنِ الشَّرْعِ وَاسْتَغْنَوْا بِجَهْلِهِمُ   وَبَاعَـوُا الدِّيْـنَ بِالدُّنْيَـا لَقَـدْ خَسِرُوا

والمعنى : أن هؤلاء أناسٌ أخيار على هذا الوصف الجميل ، من قوله : « لله در رجال .. إلخ » ، وذلك كان في زمانٍ صالح ، لكن لما اختل الوقت باختلال أهله وفسد بفسادهم ، جاء أولادهم على حسب زمانهم ، وشبه أهله لا خير فيهم على ما وصفهم ، بقوله : « وخلف الدهر .. إلخ » ، على قول سيدنا علي المذكور آنفاً ، وقال بعضهم : « عيال هذا الوقت نَشْوٌ أبدع ، إن نودي ما يسمع ، وإن أُرسِلَ ما يرجع ، وإن أكل ما يشبع » .

فلله در هذا القائل ما أصدق ما قال في هؤلاء العيال ، الذين يشيبون وهم أطفال في العقول والفعال ، ويعيشون وهم جهال ، ويموتون وهم ضلال ، نعوذ بالله من سوء أحوالهم وقبيح أفعالهم، ولا رزق الله محب الخير أحداً من أمثالهم ، فإنهم بئس العيال ، وأحوالهم وأعمالهم بئس الأحوال والأعمال . فأولاد أهل الزمان مع آبائهم كأصحاب الجنة وكان أبوهم رجلاً صالحاً ، يجعل ما حصل له من محصولها أثلاثاً ، فَثُلُثٌ يُخرِجُه لله زكاة وصدقة ، وثلثٌ لمصروف بيته ، وثلث يجعله لمصروف الأرض - وكان سيدنا عبدالله يجعل ما حصل له من محصول بيت جبير على هذا النسق - فجاء أولاد

الرجل على خلاف عمله من الشح بالزكاة والمعروف ، كما حكى الله عنهم بقوله : ﴿ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ ، إلى آخر ما قص الله عنهم ، ثم أمر الله جبريل عليه السلام بقلعها من بقعتها ، وكانت بجنب صنعاء اليمن ، وأن يجعلها بجنب الطائف بالحجاز ، وهي وُج المعروفة ، ولها حرمة كحرمة الحرمين .

وهذا في عموم الناس ، وأما في خصوصهم ، فمن أراد سبحانه أن يجعله من أحبائه وأوليائه فيتولى الله تربيته وحفظه عن كل نَقْصٍ ، في كل زمان ومكان ، صلح الزمان أو فسد ، ويحفظه عن الميل على نسق أهل زمانه ، كسيدنا عبدالله الحداد نفع الله به .

وأنا سألتُه أن يملي عليَّ سيرته من أول أمره ، فعَرَّضَ بذِكْرِ حاله في آخر أمره ، وقد سمعتُ منه في مجالس متقدمة ذِكْر أشياء من أول أمره ، ففي مجلس دخل عليه السيد أحمد بن زين الحبشي مقبلاً من بلده مع ابنه جعفر ، الذي قَدَّمنا تبشيره له به ، فصافحه وتحايا معه ، ثم صافحه جعفر ، وقد تم له اثني عشر سنة ، فقال له سيدنا : « هذا جعفر ؟ » ، قال : « نعم » .

قال : « هل أرَّخْتَ ولادته ؟ » ، قال : « نعم » .

قال : « لا تترك التأريخ ، فعليه عمل ، منه أن تعرف به سِنَّهُ الذي تأمره فيه بالصلاة وما استطاع من الصوم ، ونحن ما عرفنا تاريخ ولادتنا إلا من الوالدة ، قالت : إنك وُلِدتَ ليلة الإثنين خامس صفر سنة ١٠٤٤ . قالت : إني وَلَدْتُك أول الليل ، ولَفَفْتُك في بعض ثيابي ، وبقيت تصيح إلى الصبح ما هَدَأتَ من الصياح . فقلت لامرأة حضرت الولادة ، أظنها القابلة : انظري ، ما له ما سكت من الصياح طول الليل ؟ قالت : فَنَشَرَتْ عنك الثوب ، وإذا بعقرب ملفوفة معك في الثوب ، وبدنك مصبح أحمر من لدغها » .

قال كاتبه : فقلت لسيدنا عند ذلك : ففي ذلك إشارة لما تقاسونه من شدائد الدنيا ومحنها ، **قال** : « نعم » ، **ثم قال** : « فلما بَلَغْتُ سن أربع سنين ، جاءني القطيب - أي الجدري - واكتفت عيوني بسبب القطيب وأنا ابن أربع سنين » .

ثم إنه لما مَيَّزَ جُعِل عند المعلم باجمعان ، أظنه جد سالم المعلم الآن الذي أدركته ولهذا ما كان يجعل أولاده وأولاد أولاده إلا عند سالم المذكور ، ويتجنب معالمة غيره ، مع اعتقاد الناس أن غيره كعبدالله باغريب يخرج الولدان من عنده أنجب من غيره ، وحفظ القرآن وسنه نحو العشر ، ويتردد على قراء العلم إلى أن بلغ ١٥ سنة **قال** : « فقرأتُ وسني ١٥ سنة على الفقيه باجبير في الفقه ، وحَفِظْتُ عليه

ربع العبادات من الإرشاد » .

ولما بلغ سن ١٧ ، دخل خلوة الهجيرة كما قال سنة ١٠٦١ إلى سنة ١٠٧١ ، وفي هذه المدة وقعت له الثلاث المسائل التي سأل عنها كثيراً من صلحاء بلدان حضرموت ، كما قدمنا ذكر عددها ، وكان فيها كثير من الصالحين متوافرين ، فما أحد شفاه في جوابها ، فرأى في النوم الشيخ الحكم باقشير - من أهل القرن السابع - وسأله عنها ، فأجابه عن مسألتين جواباً شافياً ، وقال له : « أمّا هذه فما يجيبك عنها إلا السقاف » .

قال : « **فجاء في خاطري حينئذ أن المراد بالسقاف ، السيد المسَلِّك في هذا الوقت من آل السقاف، فسألتُ عنه فقيل لي : إنه السيد محمد بن علوي صاحب مكة . فكَتَبْتُ له أسأله عن المسألة ، وأسأله إلباس الخرقة ، فكتب لي يعتذر عن ذلك ، ثم كتب لي بالجواب وبالإلباس ، وهو قبع ، كما هي خرقة السادة** » ، يعني الخرقة التي أرسلها أبو مدين للفقيه المقدم ، ويلبسها السادة من آل العيدروس اليوم في صلاة الجمعة والعيدين ، وعند سيدنا قبع يضعه على رأس من أراد إلباسه .

واجتمعتُ مع عيال الحبيب : علوي وحسن ، بالسيد أحمد بن هاشم بن السيد أحمد الحبشي صاحب الشعب ، في زيارة جده السيد أحمد المذكور بالشعب ، يوم الجمعة في عشر الحجة من سنة ١١١٥ ، فأخْبَرَنَا أنه كان عند السيد محمد بن علوي السقاف بمكة يوم جاءه كتاب سيدنا وقرأه عليه ، وحضر جواب اعتذاره ، قال : « فلما وصل حامله إلى جدة ، حصل للسيد محمد داعي إلى زيارة رسول الله ﷺ فسار وسِرتُ معه ، فلما كان في المواجهة تلقاء القبر الشريف ، حصل على السيد محمد حال عظيم ، حتى غاب عن إحساسه ، وجعل العرق يصب من بدنه إلى الأرض ، حتى سال في الأرض، ورمى بكل ما عليه من الثياب التي على بدنه ، وما بقي عليه إلا سروال ساتر عورته ، حتى رأسه مكشوف ، وبقي هكذا ساعة طويلة ثم سُرِّيَ عنه ولبس ثيابه ، وسار وسرنا معه ، ثم قال لي : هات دواة وقرطاساً نكتب للسيد عبدالله كتاباً غير الأول . فجئته بهما ، فكتب إليه : وصل كتابكم تسألون مِنَّا جواب المسألة ، وتطلبون إلباس الخرقة ، وكتبنا لكم نعتذر أنّا لا يمكننا ذلك إلا بأمر من رسول الله ﷺ وأنه أمرنا لكم بذلك ، فجواب المسألة كذا ، والإلباس ها هو واصلكم » .

وكان وصوله إليه في اليوم الذي مات فيه السيد محمد سنة ١٠٧٢ ، وفي ذلك إشارة إلى أنه خليفته، قال سيدنا : « **كل كتاب يصلنا من السيد محمد يكتب أوله : من الداعي بطول البقاء وعلو الإرتقاء محمد بن علوي ، إلى السيد الفاضل فلان** » .

ولما خرج سيدنا من خلوته في التاريخ المتقدم ، جعل يقرِّي في الإحياء وفي كتب أخرى ، كالصحيحين وكتب التصوف ، وكان الفقيه باجبير قد سار إلى الهند ثم رجع وإذا سيدنا يقري ، **قال** :

« فجعل يقرأ علينا في الإحياء ، وهذا من العجيب أنَّا كنا نقرأ عليه ، فجعل يقرأ علينا » .

أقول : رأيت بخط السيد أحمد بن زين الحبشي ، وذلك في مروري عليه مسافراً بعد وفاة سيدنا عبدالله ، أنه أخبره الفقيه باجبير ، قال : خَرَجْتُ ليلة مع سيدي عبدالله الحداد من التربة ، وإذا به يقول لي : « **فقيه باجبير ، إنَّ حبيبك** - يعني نفسه - **قِدْ لُهْ ثلاثة أيام منذ دخل مقام القطبية** » ، فقرأت على السيد أحمد خطه ، وقلت له : هذا خطك ؟ قال : « نعم ، قد قال لي ذلك ، فكتبته خوف نسيانه » ، وإنما خصه بذكره هذه الكلمة له في خلوة لأمرٍ رآه هو ، ولخصوصيته عنده ، لمكان قراءته عليه أولاً ، ثم قراءة باجبير عليه آخراً ، فلباجبير عنده حقان : حق التلمذة وحق المشيخة . وليس ذلك لأحد غيره ، وإلا فسيدنا شحيحٌ جداً بذكر هذه الكلمة لأحد غيره ، ولم يقلها حتى للسيد أحمد بن زين الحبشي ، مع عظم منزلته عنده وقرابته منه .

فإن أبا السيد أحمد ، مع أم سيدنا بنو عم ، فأم سيدنا : سلمى بنت عيدروس بن أحمد صاحب الشعب ، وأبو السيد أحمد : زين بن علوي بن أحمد المذكور . وكذلك السيد أحمد بن هاشم بن أحمد المقدم الذكر ، الذي أخبرنا عن السيد محمد بن علوي القول المذكور . انتهى .

وذَكَر سيدنا الموت والمرض ، *وقال* : « **قد يُشرك الوالد في موت ولده إذا لم يطلب له في الأمور الطبية دواء** » .

وذَكَر القطيب وهو الجدري ، *فقال* : « **طبعه الحرارة ، إلا إن أهل جهتنا ظنوه بارداً ، لما رأوا من شدته في الشتاء أكثر منه في الصيف ، وهكذا عادة الجروح - أو قال : القروح - تكون شديدة في وقت البرد ، وإن كان طبعه الحرارة ، وأكثر موت الصغار بعد تقدير الله والأجل بسبب حبسهم في الأماكن الحارة ، وقد وصيناهم بعد نجم الطَّرف أن يجعلوا المقطِّب - يعني المجدَّر - في البراح ، ولكن يمنعون من المهب** » هـ .

أقول : قوله : « **قد يشرك الوالد .. إلخ** » ، يعني يجب أن يسعى له بالتداوي ، ويأثم في تركه ، وهذا مطلوب منه له ولو مات بأجله .

قوله : « **وأكثر موت الصغار** » ، يعني المجدرين .

و « **بعد نجم** » النجم ، أي إذا خرج ، لأن بعد خروجه يتبين أثر الربيع ، وهو الإعتدال في الحر والبرد ، ويعتدل الليل والنهار بعده عن قليل بنحو ٢٧ يوماً ، وفي سادسه تنزل الشمس . نجم سعد السعود ، قالوا : « وإذا نَزَلَتْ سعد السعود ، جرى الماء في العود وأورق العنقود » ، أي تورق شجرة

العنب بعدما كانت في الشتاء عودان بلا ورق .

و « البراح » ، المكان الواسع غير المسقوف هـ .

قال رضي الله عنه : « نعمة الله في الماء البارد في الصيف من أفضل النعم ، والماء الحار في الشتاء كذلك، ولكن ما سمعنا العرب يذكرونه ، إنما يذكرون البارد في الصيف ، ويضربون به الأمثال ، وكل نفس ظمآنة إلا نفوس الذاكرين » .

قوله : « **ويضربون به الأمثال** » ، كما ذكر هو في دعائه الطويل بعد صلاة الصبح : « **اللهم اجعل حبك أحب إليَّ من نفسي وأهلي ، وأحب إليَّ من الماء البارد** » .

ومرة قال : « **العرب تطلق مدح شرب الماء البارد للظمآن ، ولا تقيده بوقت** » هـ .

أقول : لأن الماء البارد محبوب للظمآن في أي وقت كان ، من شتاء أو صيف ، وفي الصيف أحب، ولكن للناس طبائع مختلفة ، فمنهم من لا يحب في الشتاء إلا الماء المعتدل . وتقدم قول سيدنا أنه ما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه توضأ بماء سُخِّنَ على النار ، ولا أنه صلى فرضاً منفرداً ولا صلاةً واحدةً .

وقوله : « **أفضل النعم** » ، أي نعم الدنيا الخاصة بها هـ .

قال رضي الله عنه : « ينبغي للإنسان إذا كان عند عالم ، أن يكون على ما يريده ويأمره به ، لا على ما يريده هو ، وإلا فَوَّتَ أكثر مما حَصَّل ، إلا أنه ينبغي أن يعرف من هو العالم صاحب الطريقة من غيره ، فيفرِّق بين صاحب الطريقة وصاحب العلم ، فإنه لا يجري صاحب العلم في طريق إلا ويجري صاحب الطريقة في طريق فوقه ، وبعض العلماء المتبصرين من قطاع الطريق على عباد الله . فلهذا ذكر الإمام الغزالي أنه لا ينبغي أن يدخل الطريق حتى يُحكِمَ علوم الأصول على طريق الصوفية ، لا على طريق المتكلمين ، ويعرف من هو الداعي إلى الله حقيقة ، ولا يتبع كل من نعق » ، ثم قال : « فإذا كان العالِم يبات نائماً شبعان ، فعالِم إيش هذا ؟ فلنفرض هذه مسألة يجوب عليها . وكل من دخل على السلاطين، وأكل أموالهم ، ولا نفع المسلمين ، ولا شفع فيهم ، فهذا كذاب مرائي فلا تصدقه » .

ثم قال : « علم الأصول علمان : علم أصول الدين كالعقائد ، ولا بد أن يأخذ الإنسان منه قدر الحاجة ، كعقيدة الإمام الغزالي . وعلم أصول الفقه ، وهو علم عَسِر لا يكاد يُفهَم ، ولا يجب على كل أحد ، فينبغي أن يأخذ من الأصولين قدر الضرورة . ثم بعد يأخذ في كتب الرقائق التي ترقق قلبه ،

وترغبه في الآخرة ، وتزهّده في الدنيا ، ليأخذ في العبادة فيجتهد فيها ، ويكثر من تلاوة القرآن جهده ، فإذا لم يمكنه في بعض الأوقات ، أكثَرَ من الذكر ، ويلازمه في كل أحواله ، فإن العمر قصير ، والبطالة ذاهبة بأكثره ، وليجعل غاية اعتناه ومطالعته في المهم منه ، فيطالع المهم ويحفظ المهم ، وإن أراد مطالعة غير ذلك جعله في نادر من الأوقات » ، وقال : « العلم علمان : علم الإيمان ، وعلم اللسان » ، قال : « يعني المهم منهما ، فيأخذ من ذلك ما يعرف به قواعده » هـ .

أقول : يعني يأخذ من المهم من علم اللسان ما يعرف به قواعد المهم من علم الإيمان .

وقال له رجل : « الله الله فينا ، لا تنسونا » ، فقال : « الأمر في هذا من عندك » هـ .

أقول : يعني العمدة في حصول النفع بالعقيدة منك ، فمن اعتقد انتفع ، ومن لا فلا ، كما قيل : « وكل من لم يعتقد لم ينتفع » هـ .

قال لرجل يريد السفر : « عليك بحسن الظن في الله مع حفظ أمره ؛ يكن لك ، احفظ الله يحفظك. وماذا تكون قدرة العبد وجهده ، ولكن يبذل جهده في طاعة الله سبحانه ، ويعتذر فيما قَصَّر فيه ويستغفر » هـ .

أقول : معنى حسن الظن بالله هنا : أن تلازم الإمتثال ، ويغلب على ظنك أن يعطيك ما تحب دون ما تكره ، فيعطيك ذلك على حسب ظنك ، كما حكى عنه نبيه عليه السلام ، أنه تعالى قال : « أنا عند ظن عبدي بي فليظن عبدي بي ما شاء ، فإن ظن بي أني أعافيه وأعينه ؛ أعطيته ذلك » .

وسألته عن معنى الترقي الذي ذكره على ما تقدم ويذكرونه ، وبأي شيء هو ؟ وما الذي يبدأ به من أراد ذلك ؟ ، فقال : « هو الترقي في أحكام الاسلام ، وحقائق الإيمان واليقين ، ويُحكِمها شيئاً فشيئاً، فيبدأ بأحكام الإسلام ثم الإيمان ثم الإحسان » ، ومرة قال ما معناه : « الإسلام مبانيه الخمسة ، والإيمان مجاريه الستة ، والإحسان خالصهما » ، أي كاملهما .

* * *

قال لرجل يمازحه : « لئن رُدَّ عملُك من سماء الدنيا ، فإنَّ حُجَّتَكَ ألَّا على قدرها - أي ضعيفة - فإنَّ سماء الدنيا حَدُّ حقائق الإيمان ، وتحتها خزائن النيران ، ولا تَظُنَّنَّ أن أحداً له مع الحق كلام ، إنما هم عبيده ، يعطيهم حقه ويثني عليهم » هـ .

أقول : يعني إن لله سبحانه على عبده حَقَّيْن ، فإن أنعم عليه ، فَحَقُّه عليه الشكر ، وإن ابتلاه فحقُّه عليه الصبر . ثم إن كُلًّا من الشكر والصبر فضلٌ من الله يؤتيهما من يشاء ، ثم يُثْنِي عليه بذلك ، وهو حقه أعطاه الشاكرين والصابرين ، ثم أثنى على الفريقين بذلك ، فأنعم على سليمان عليه السلام وأعطاه الشكر ، وابتلى أيوب فأعطاه الصبر ، فأثنى عليهما بثناء واحد : ﴿ وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَٰنَ نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝ ﴾ ، وعلى أيوب بقوله : ﴿ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ۝ ﴾ ، فأثنى عليهما لمكان الشكر والصبر بثناء واحد ، لأن كلًّا من الحالَيْن فَضْلُه سبحانه . وللشكر في العبد ثلاثة مواضع : اللسان: بالحمد لله ، والثناء عليه بما يستحقه من جميل فضائله بجزيل محامده . وفي الجنان : باعتقاد فضله وإنعامه عليه من غير استحقاق . وفي أركانه وجوارحه : باستعانته بالنعمة على طاعته . فإن كمال الشكر في المواضع الثلاثة ، قال تعالى : ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾ هـ .

قال رضي الله عنه : « الدنيا لو تأملها الإنسان ورأى تعب الناس فيها ووساوسهم بها ، في أن هذا يروح وينقص لاستحقرها » ، _قال_ : « إن خير الدنيا مبشر بشرها ، وشرها مبشر بخيرها ، كما في قصة الراعية التي مَرَّ عليها عيسى عليه السلام » هـ .

أقول : قصتها : مَرَّ سيدنا عيسى عليه السلام على راعية ترعى غنماً ، وعندها عشب كثير ، وغنمها شباع سمان ، وهي تبكي ، ثم غاب مدة طويلة ، ثم مر عليها في طريقه بعد ذلك ، فرأى غنمها جياعاً ضعافاً والأرض مجدبة جداً لا عشب فيها وهي تضحك ، فتعجب منها وقال لها : « كيف لـمَّا كُنتِ في الخصب والنعمة تبكين ، ثم لما كنتِ في القحط والمحنة وأنت تضحكين ؟ » ، قالت : « لما كنت في تلك الحالة ، أبكي متوقعة لهذه الحالة ، فلما كنت في هذه الحالة أضحك فرحة متوقعة لتلك الحالة » ، فهذا شاهدٌ لمعنى قوله : « إن خير الدنيا .. إلخ » .

وَذَكَرَ فساد الزمان والفتن الواقعة فيه ، _وقال_ : « من آن مات النبي ﷺ تبدد الحب المجتمع ، ولكن في وقت الصحابة كانوا مجتمعين والأمر مستور ، ثم بعد ذلك ظهر ، وهذا الأمر قده من قديم ، وكان الناس فيهم أهل اليقظة ، يرحم الله بهم أهل الغفلة . ولو نَظَرْتَ إلى البوادي ونحوهم ، لرأيتهم أكثر تضرعاً إلى الله منهم ، ولهذا رحمهم وترك هؤلاء ، وكانوا إذا حصلت لهم نعمة ازدادوا تضرعاً وخشوعاً ، وهؤلاء إذا حصلت لهم بطروا ، فترى الواحد منهم يقطع اللحم يأكله ، والطَّلَّاب يسأله فلا يعطيه شيئاً » .

وتكلم في هذا كثيراً ، ومما **قال** : « **والرحمة ظاهرة ، ما بقي إلا مظهر الرحمة ، ولا عاد أحد يقصِّر عن التوبة والإستغفار والتصدُّق بها تيسر** » .

وذَكَر كلاماً تقدَّم ذِكْره وهو قوله : « **ينبغي أن يُنقِصَ بعض المأكول فيتصدق به** » ، **ثم قال** : « **فلا عاد تدعو الـمُدْبِرِين إلى الصدقة ، بل إلى المقاربة ، فإنَّ أهل الزمان مُدْبِرون ، فإنَّ من عنده شيء أو دعوته إلى الصدقة استثقل ، كالسلطان الظالم إذا قلتَ له في الجَوْرِ - أي أمرته بتركه - اشتغل . ونحن لا عاد أحد يوصينا بالدعاء بالهداية والصلاح للمسلمين والظَّلَمة ، ما هو ألا إن القلوب مظلمة ، ولو سمعنا أحداً يدعو علينا ما تركناه من الدعاء له بالهداية والصلاح ، ولا عاد كلام . وَدَخَلَت الناس دواخل ، فكُلٌّ منهم اتَّهم صاحبه ، ولا عاد شيء قلوب مجتمعة** » هـ .

أقول : قوله : « **تبدد .. إلخ** » ، هذا استعارة من لفظه لمعنى اجتماع الناس على دين الله ، حتى تفرقوا بعده ﷺ ، حتى ارتد عن الإسلام من ارتد ، وما زالوا يتناقصون في دينهم إلى الآن ، وإلى هلم جرا . وظهر التفرق الآن أكثر من الأول ، ولكن الصحابة مع ذلك ما زالوا مستقيمين على دينهم ، وجاهدوا عليه حتى استقام من الناس من استقام ، وكان أهل الإستقامة كثيراً ، يرحم الله بهم من قصَّر .

قوله : « **لو نَظَرْتَ إلى أهل البوادي .. إلخ** » ، أي إنهم أحوج إلى الرحمة ، يعني غيث السماء المطر ، وحاجتهم إليه أشد ، واهتمامهم بذلك أكثر ، وقلوبهم منكسرة لطلبه أعظم ، فلهذا رحمهم وترك أهل البلد ، ولما كانت الإستقامة في الدين متوافرة ، فكانوا إذا حصلت لهم نعمة ازدادوا تضرعاً وخشوعاً ، ولما مالوا اليوم عن الإستقامة في الدين صاروا يبطرون ويغفلون ، فلهذا قست قلوبهم عن رحمة الفقراء والمساكين ، حتى إنهم يأكلون وهم ينظرون ، ولا يطعمونهم ، وقد ورد في الحديث : « من أكل وذو عينين ينظر إليه ولا يطعمه مما يأكل ، ابتلاه الله بداء لا دواء له » هـ .

وذَكَر أناساً بالإشارة إلى جهتهم بلا تعيين ، وذكر أعمالهم الرديَّة ، **فقال** : « **إن الله تعالى ما قَبِلَ أعمالهم ، لأنهم عملوا بلا علم ، ولو قَبِلَها لرُفِعَت ورحمهم ، ولا يقبل الله عملاً حتى يكون أوله علم وآخره إخلاص** » هـ .

أقول : قوله : « **ولو قبلها لرفعت ورحمهم** » ، يعني دل عدم رحمته لهم بإنزال الغيث وهو المطر ، أن أعمالهم ما رُفِعَت ولا قُبِلَت ، لأنهم يدعون بالرحمة كثيراً ، فما قُبِل دعاؤهم لعدم قبول أعمالهم ، لمخالفتها العلم مع عدم الإخلاص ، بعدم صلاح النيات ، فلذلك قال : « **لا يقبل الله عملا حتى يكون .. إلخ** » ، أي إلا أن يكون على قانون العلم ، ومصحوباً بالإخلاص ، أي بالنية الصالحة الخالصة لوجه

الله ، بأن قصد بالعمل وجه الله بلا شوب غرض آخر . فَقَلَّ اليوم أن يَسْلَمَ عملٌ من شَوْبِ الأغراض ، كما تقدم قوله : « من تحركه الرغبات الدنيوية لم يكن للرغبات الأخروية أهلاً ، كمن سمع أن من صلى الضحى تيسر رزقه ففعل لذلك ، فلا يقل : أرجو به الجنة » هـ .

قال رضي الله عنه : « الأعمال تُرفَع من الأرض إلى السماء ، ثم من هناك تُرفَع وتُقْبَل أو تُرَد ولا تُقْبَل، وأماكن العبادة والعُبَّاد معروفون عند الملائكة ، لاعتيادهم لنقل العمل منهم من أماكنها ، ألا ترى كيف أنكروا بطن الحوت ؟ لأنه ليس موضع عبادة ، وعرفوا صوت يونس عليه السلام ، فلما سمعوا صوت تسبيح يونس من بطن الحوت قالوا : صوتٌ معروفٌ من مكانٍ مجهولٍ . ولم يدروا أين هو ، لعدم اعتيادهم لنقل العبادة منه » هـ .

أقول : وأما صوته فمعروف عندهم ، لما تعودوا من سماع ذِكْره .

وقال لرجل وهو يسمع : « فلان - يعنيه - رزقه متيسر » ، ثم أقبل عليه بالخطاب *وقال* له : « وكان أهلك فيهم كرم ، فهل فيك كرم مثلهم ؟ » ، فقال : « نعم ، ألَّا ما تأتت الأمور » ، *فقال* له سيدنا : « الأول فالأول ، فالأول إطعام الطعام ، ثم القهوة ، ثم الماء . والدنيا من وقت آدم وهلم جرا ما تسوى عند الله جناح بعوضة ، وما فيها إلا الإيمان والنية الصالحة والعمل الصالح ، وكان أهل ذاك الزمان إذا قيل لأحدهم : هاك ، قال : أنت أحق به . لزهادتهم وقناعتهم ، وكانت أمور الدنيا ألَّا تضيِّق بهم، واليوم ألَّا يتناهبون ، ما تحسهم إلا أعداء . وإيش يسكن قلوبهم الملانة حرصاً ؟ لأن الحرص ألَّا نار » هـ .

أقول : قوله : « الأول فالأول ، فالأول إطعام الطعام » ، إنما رتب له الثلاثة لأن الأول هو عادة أهل الكرم والمروة ، وهو السنة المعتاد أنهم لا يتفرقون عن مجلس رسول الله ﷺ إلا عن ذواق - أي عن ذوق - أي أكل طعام . وعليه جرت عادة سادتنا آل باعلوي ، كما تقدم من ذكره ذلك عنهم في مجلسه المتقدم ، وفي نظمه الذي ذكرنا معه ، منه قوله :

الكِـرَامِ المُطْعِمِـينَ لِـمَنْ   أَمَّهُـمْ فِي الخِصْـبِ وَالمَحَلِ

وكما ترى من خطابه هنا لهذا الرجل من السادة ، حيث قال له : « وكان أهلك فيهم كرم » ، أي أنه معروف من السادة ، وأهلك من جملتهم . فلما ضعفت الأحوال اليوم ، واشتهرت القهوة وصار

لها موقع في النفوس ، اكتفوا به بها إذا تعذر الطعام ، ثم إذا لم تتفق فالماء ، فيصدق عليه لفظ الذواق . وقال سيدنا : « **هو الأصل والسبب في ما تعودنا من طلب الماء في آخر مجالسنا** » .

قوله : « **إذا قيل لأحدهم : هاك .. إلخ** » ، وتقدم قوله : « **من كان قول : هاك أحب إليه من قول: هات ، فهو راغب في الدنيا ، ومن كان قول : هات ، أحب إليه من قول : هاك ، فهو زاهد في الدنيا ، ومن استويا عنده فهو مُستَوٍ في محبة الدنيا والآخرة** » .

قوله : « **لزهادتهم وقناعتهم** » ، أي أن أهل ذاك الزمان إما زاهد أو قانع ، فيتركونه إما زهداً وإما إيثاراً ، واليوم لا ذا ولا ذاك .

قوله : « **تضيق بهم** » ، أي تضيق منها صدورهم ، ويؤثرون عدم حصولها لا يخشون في عاقبتها من الإثم إن كان حراماً ، أو الحساب إن كان حلالاً ، وكلا الأمرين مشق وعذاب . وتقدم قريباً أن سيدنا سمع ناساً يمدحونه ، وهو أهلٌ للمدح ، قال : « **فأردنا ننهاهم ، فخفنا من عدم الإخلاص في نهيهم، فتركنا كُلًّا يتولى ما تولى** » .

وأنشد منشد بين يديه بقصيدةٍ قيلت فيه مُدِحَ بها ، وهي للشيخ عبدالرحمن بن أحمد باكثير كان ساكن الشحر ، ثم سكن تريم حتى توفي فيها ، وهي التي مطلعها :

يَـا رَبِّ يَـا بَاسِـطَ الخَيْرَاتِ وَالنِّعَـمِ   وَكَاشِـفَ الضُّرِّ وَالآفَـاتِ وَالنِّقَـمِ

وذكرناها مع قصائد كثيرة في مدحه مع ترجمته ، وبعد تمامها قال : « **نحن ما نشتغل من هذه الأشياء ، لأن ما وقع لنا منها طرحناه في بحر النبي ﷺ . النبي ﷺ منبع الفضائل كلها ، وهو الممدوح بها كلها ، فكلُّ من مُدِحَ بعده بفضيلةٍ فإنَّ مَدْحَهُ يعود إليه ﷺ ، والشيطان منبع الرذائل ، فكلُّ من ذُمَّ بِرَذيلةٍ فذَمُّه عائدٌ إليه** » - أي إلى الشيطان - ، قال : « **يعني إن النبي ﷺ هو السبب في حصول الفضائل والخيرات والسعادات ولهذا له أجرُ أهلها مضاعفٌ مع أجره إلى يوم القيامة ، والآخر عليه وزره ووزر أهل الرذائل مضاعف إلى يوم القيامة ، لأنه في حصولها كما ورد في من سَنَّ سُنَّةً حسنة أو سيئة ، ومن دعا إلى خير أو ضلالة** » ، قال : « **وناس يكرهونها ، أحد كذب ورياء ، وأحد من نفسه . وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: من عرف نفسه لا يضره المدح** » .

وقد قدمنا هذا مع ما نقلنا عن « المواهب اللدنية » من معنى المضاعفة ، من أن الحسنة إذا كانت للنبي ﷺ بعشر ، فتَعَلَّمَها منه غيره وعَمِلَها فله بعشر ، وكل واحدة من عشرة تكتب للنبي ﷺ عشراً، فتصير عَشْرُهُ للنبي ﷺ مائة ، ولو تَعَلَّمَها من هذا آخر وعملها فهي له بعشرة للآخر الذي

عَلَّمَه مائة، وللنبي ﷺ بألف ، وعلى هذا تتضاعف دائماً بتعدد العاملين إلى يوم القيامة ، من واحدة إلى عشر ، إلى مائة ، إلى ألف ، إلى عشرة آلاف ، إلى مائة ألف ، إلى ألف ألف ، إلى عشرة آلاف ألف ، إلى مائة ألف ألف ، إلى ألف ألف ألف .. وهكذا . وأما مضاعفة السيئات ، فلإبليس بواحدة وللآخر بواحدة ، ولإبليس بثنتين وللثالث بواحدة ، وللذي قبله بثنتين ولإبليس بثلاث .. وهكذا . فالمضاعفة في الحسنات بعشرات ، وفي السيئات بآحاد . انتهى .

قال سيدنا لبعض السادة : « **الله الله في الوالدة ، آنسها واجبرها لعل تحصل لك منها دعوة ، والكبير قد يتغير طبعه فيحتاج إلى صبر ، وما مع الإنسان إلا إعانة الله إن أعانه تيسر له الأمر الصعب ، وإن لم يعنه لم يقدر يشل ثيابه . والبيت بيت أجر وصبر ، والأجر يبغى صبراً ، ولا شيء إلا بالصبر ، حتى لو أحد جعل لك دواء ، احتجتَ فيه إلى صبر في مقاساته ومرارته ومعالجته ، وقد قالوا : الراحة لا تطلب بالراحة ، إنما تنال الراحة بالتعب** » ، وأنشد :

بِقَدْرِ الكَدِّ تُكْتَسَبُ المَعَالي وَمَنْ رَامَ العُلا سَهِرَ اللَّيَالِي

ذَكَر هذا البيت وأشار به إلى جملة أبيات بعده ، واستشهد بها الإمام الغزالي في الترغيب في علو الهمة ، والصبر معها على فعل ما تقتضيه ، فقال الإمام الغزالي في كتابه « سر العالمين » : « واعلم، إن علو الهمة هو اجتماع قلب المهتم ، وجمعه لنيل المأمول من غير قلب قاصد لسواه ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وهمة كل امرئ على قدر نفاسة نفسه وخستها ، فلا تُنال المعالي إلا بِكَدِّ النفوس، ولكلٍّ وجهة في نيل المنى ، فالعلماء بالدرس والسهر والجوع ، والملوك ببذل المُهَج والأموال ، والزُّهَّاد بالرياضة والإنكسار والخمول وترك الملاذ بأسرها . فإن قُلتَ : هذه سعادات مقسومة أبدية، فلا حاجة إلى كد النفوس . فيفحمك قوله عليه السلام : اعملوا وسدِّدوا ، فكلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له . وقال معاوية : هِمُّوا بمعالي الأمور تنالوها ، فإني لم أكن أهلاً للخلافة ، لكنني هممت بها فنلتها . وعليك بالعمل في الخلوات تكشف لك المعاملات أسرار الكائنات ، ومما قيل في علو الهمة مع الصبر ، هذه الأبيات لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه :

بِقَدْرِ الكَدِّ تُكْتَسَبُ المَعَالي وَمَنْ رَامَ العُلا سَهِرَ اللَّيَالِي
تَرُومُ المجْدَ ثُمَّ تَنَامُ لَيلاً يَخُوضُ البَحْرَ مَنْ طَلَبَ اللآلي
لَنَقْلُ الصَّخْرِ مِنْ قُلَلِ الجِبَالِ أَحَبُّ إِليَّ مِنْ مِنَنِ الرِّجَالِ

وَقَالُــوا لِلْفَتَــى فِي الكَسْــبِ عَــارٌ فَقُلْــتُ العَــارُ فِي ذُلِّ السُّــؤَالِ
إِذَا عَــاشَ الفَتَــى سِــتِّيْنَ عَامــاً فَنِصْــفُ العُمْــرِ تَمْحَقُــهُ اللَّيَــالِي
وَنِصْفُ النِّصْفِ يَمْضِي لَيْسَ يَدْرِيْ تَقَــضَّى فِي يَمِــينٍ أَوْ شِــمَالِ
وَرُبْــعُ العُمْــرِ أَمْــرَاضٌ وَشَــيْبٌ وَشُــغْلٌ بِالتَّفَكُّــرِ وَالعِيَــالِ
فَحُــبُّ المَــرْءِ طُــوْلَ العُمْــرِ قُبْــحٌ وَقِسْــمَتُهُ عَــلَى هَــذَا المِثَــالِ

وقال في الإحياء ما معناه : « إذا قَسَمَ الله لك نصيباً في أمرٍ رَزَقَك قُوَّةَ الهمة في طلبه ، وإذا أردتَ أمراً ولا حصل لك فيه همةٌ تزعجك إلى طلبه ، فذلك دليلٌ على أنه ليس لك فيه نصيب » .

وذَكَر الأخذ من أيدي الناس ، *فقال* : « **إعتقِدْ أن الله تعالى هو المعطي حقيقة ، ولا تعلّق قلبك بالخلْق، ثم خذ ولا عليك ، وإنما المكروه أن يأخذ ما استَشْرَفَتْ إليه نفسُه ، بأن يرجوه من محل مخصوص، فقد كانوا يَرُدُّونه . كما في قصة الإمام أحمد مع الجمَّال الذي حَمَّله إبنُه له متاعاً من السوق إلى داره ، فشَمَّ ريح خبز يُخْبَزُ في البيت ، فأعطوه قرصاً فَرَدَّه ، فلما خرج من الدار وذهب ، أَلْحَقَهُ الإمامُ أحمد إبنَهُ بالقرص خلفه فأخذه ، فقال الولد لأبيه : لِمَ رَدَّهُ أولاً ، ثم أخذه آخراً ؟ فقال : إنه كان رجلاً صالحاً ، فلما شم رائحة الخبز استَشْرَفَتْ إليه نفسُه ، فَرَدَّهُ وكان صائماً ، فلما مضى وأَيِسَ منه أخذه** » .

فقلت لسيدنا : ما الذي يُذهِب من القلب التعلق بالخلْق ؟ وكيف له بأن يقدر أن يَرُدَّ ما اسْتَشْرَفَتْ إليه نَفْسُه مع احتياجه ؟ ولا شك أن الأخلاق المحمودة محبوبةٌ بالطبع ، ولكنه يعجز عن ذلك .

فقال رضي الله عنه : « **حتى يعلم أنه مُصَرَّفٌ غير متصرف ، فإنه لا يحصل له ما أراد** » ، وأنشد هذين البيتين ، *قال* : « **إنهما لأبي الدرداء ، وليس له من النظم سواهما** :

يُرِيْــدُ المَــرْءُ أَنْ يُعْطَــى مُنَــاهُ وَيَأْبَــى اللهُ إِلَّا مَــا أَرَادا
يَقُــولُ المَــرْءُ فَائِــدَتِي وَمَــالِي وَتَقْوَى اللهِ أَفْضَلُ مَا اسْتَفَادا

ثم *قال رضي الله عنه* : « **هذه خصوصيات عزيزةٌ لله سبحانه يجعلها في خواصٍّ من الناس ، ولو كانت في كل أحد ما صار لها موقع ، وانتفت عنها العزة ، ولاختلاف الناس خلق الله الجنة والنار ، ولو كانوا على حالة واحدة لكان إحداهما كافية** » .

قال رضي الله عنه : « صاحب اليقين يأخذ العطاء بشرطين : أن يراه من الله ، ويستعين به على طاعة الله . وفي قضاء الحاجة ، ارفعْها إلى الله ثم أنزِلها إلى من جعلها الله على يديه ، مع تعلق قلبك بالله » .

قال رضي الله عنه : « الأمور الإلهية السماوية أعظم وأعز من الأمور الأرضية السفلية ، وكلما قرب إلى العلو زاد على ما دونه ، ولذلك زادت السماء الدنيا على الأرض بأضعاف كثيرة مضاعفة ، حتى صارت فيها كَحَلَقَةِ دِرْعٍ مُلقاة في فلاة ، ثم هي في الثانية كذلك ، ثم هما في الثالثة كذلك ، وهكذا إلى السابعة ، ثم هي وما دونها في الكرسي كذلك ، ثم الكل في العرش كذلك ، وهكذا ، وكلما هو إلى العلو كان أعز وأعظم . ولذلك عظمت علوم الصوفية وعزت على ما سواها ، لأنها من العلو ، وهي علوم إلهية سماوية . والعلوم الأرضية دونها في ما ذُكِر ، كعقود الأنكحة وغيرها ، ولكن من لَزِمَ العلوم الأرضية بحيث استقام عليها ولم يخالفها في شيء ، أفضى به ذلك إلى العلوم الإلهية السماوية ، وإنما عظمت وشرفت عليها لأن تلك معرفة المعبود ، وهذه معرفة العبادة ، فشتان ما بين العِلْمَيْن ، ولما كان مجرد العلو أعز وأعظم من مجرد السفل ، كان الناس في جميع الأشياء درجات ، بعضهم فوق بعض ، بنسبة بعضهم إلى بعض في الإستعلاء والتسفل » هـ .

أقول : قوله : « ولكن من لَزِم العلوم الأرضية ، أفضى به ذلك إلى العلوم الإلهية » ، فالمراد بالعلوم الأرضية : علوم الأحكام ، فمن لزمها بمعرفتها والعمل بها مع الإخلاص لله ، حتى صارت سيرته وديدنه ؛ أفضى به ذلك إلى حصول السر الذي أوتيه سيدنا أبوبكر ، فقوي به إيمانه حتى رجح بإيمان الأمة ، فإنه حينئذ يتولاه الله ويجعله من أوليائه وأحبابه ومن المقربين ، ومَن قَرَّبَهُ عَلَّمَهُ من العلوم اللدنية ما لا يُكَيَّف فإنه من المتقين الأولياء ، وما وصفهم الله إلا بالتقوى ، ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ ، فالأخذ بقانون العلم الشرعي علماً وعملاً خالصاً ، هو السُّلَّم لحصول مقام الولاية، لا يناله إلا به ، كما تقدم من قوله : « لا ينال الطريق الخاصة - يعني طريقة الأولياء - حتى يُحكِمَ الطريق العامة - أي الشريعة - التي عليها عامة المؤمنين ، ولو عاش عمر نوح » ، يعني لا ينالها إلا بها، بعد أن تصير هي سيرته .

فهذا الذي عليه ، والباقي من فضل الله ومواهبه لمن أحبهم ، فلن تحصل له معرفة الله الخاصة حتى يُحكِمَ طريقة الشريعة العامة علماً وعملاً ، ويستقيم على ذلك ، فهذا طريق الإستقامة الذي أمر الله به رسوله ومن تبعه ، بقوله تعالى : ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾ . ويتفاضل الناس بذلك، بعضهم أفضل من بعض ، فمن زادت متابعته واستقامته كان أفضل مَن دُونَهُ ، فطريق الإستقامة يؤدي ويفضي إلى تلك المعرفة الخاصة التي لا يعطيها الله إلا من أحب واختصه ، وحينئذ تصير علومه إلهية سماوية ، كما أشار إلى ذلك بقوله : « ولذلك عظمت علوم الصوفية وعزت على ما سواها ، لأنها من العلو ، وهي

علوم إلهية سماوية » ، ولا يحصل له طريق الخصوص إلا بعد إحكام طريق العموم ، والصبر على بلاء الله فيها ، كما جاء : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اصطفاه ، فإن رضي اجتباه»، فالصبر يقتضي الإصطفاء ، والرضا يقتضي الإجتباء ، والبلاء دليل محبة الله للعبد ، والصبر دليل اصطفاه ، والرضا دليل اجتباه . ولقد سألت سيدنا في بعض ليالي شهر رمضان أن يدعو لي فقال : « **إن طريق الخصوص فيها ابتلاءات كثيرة ، فادْعُ لنا ولنفسك ، ولا تَدْعُ إلا باللطف والعافية** » ، فطريق الإستقامة يؤدي إلى المعرفة الخاصة الإلهية ، وبَيَّنَ الطريقين في حديث : « اعبد الله على الرضا » . فهذه الطريق الخاصة، قال: « فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ، وهذه الطريق العامة ، إذا لزمها وصل إلى تلك ، ولا يصلها بدونها قط ، كما أشار إلى ذلك بقوله أنه لا يصل إليها حتى يحكم الأخرى ، ولو عاش عمر نوح هـ .

قال رضي الله عنه : « **قال سيدنا علي في من قَصَّر ثم رجا المغفرة : هَبْكَ - أي قدِّر - أنه قد عفى عنك ، أليس يفوتك ثواب المحسنين ؟ فسمعها بعض السلف ، فبكى عليها أربعين سنة . قال الإمام الغزالي : لقد دَفَعَنا إلى أمر إن كَذَّبنا به كنا من الكافرين ، وإن صَدَّقنا به كنا من الحمقى المغرورين** » ، أو كما قال هـ .

أقول : يعني إذا آمَنتَ وأقْرَرْتَ بظاهرك وباطنك ، فعلام تقصيرك في ما يقربك ويرفعك عند ربك؟ فذلك منك يدل على الحمق والغرور هـ .

قال : « **ما عاد معك في هذا الزمان إلا الصبر والتغافل** » .

ثم ذَكَر الناس وتقصيرهم في العلم ، *فقال* : « **غرقوا في بحار الدنيا ، فترى الواحد منهم كالغريق في البحر ، ما يرى بر النجاة إلا نادراً ، كما يرى الغريق البر عندما يرتفع رأسه بحركة الماء ، لأنه غريق حيران ، ومن هو هكذا لا يمكنه النظر** » .

قال : « **من حكمة الله أن الخاشع قلبه كالماء ، ولكنه لم يزل يقسو من المعاصي حتى يصير كالحجارة، قال الله تعالى : ﴿ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَٱلْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً﴾الآية** » .

وذُكِر له من حال رجل منسوب إليه ، *فقال* : « **الولي - أو قال : الصالح - إذا كان منسوباً إلى أهل البيت ؛ لا يخشى عليه في ظهوره ويحصِّلُ من هنا ومن هنا ، ولكن لا ينبغي أن تظهر في هذا الزمان ، إلا إن كان معك نجم وَقَّاد أو شمس مشرقة ، وإلا فإن كان ما معك إلا سريج ، فاترك الظهور لئلا تطفيه**

الرياح ، ولا تعلقه في النهار ، فلا يكون له أثر ، لأن الخاملين فيه على خطر ، فكيف بأهل الظهور ؟ لأن فيه رياحاً شديدة وظلمة شديدة ، وقد كان في الأزمنة الماضية إذا كثر فيها الفساد ، إما الظلمة وإما الرياح فقد يظهرون ، وأما اليوم فقد اجتمعتا فيه » هـ .

أقول : لعل مراده بالنجم الوَقَّاد : علم ظاهر مع كمال العمل والإستقامة الصحيحة ، التي يُقر لك بها الخاص والعام ، ويذعن لك بها جميع الخلق ، ولا أحد يعترض عليك في أمر ، وقَلَّ أن يحصل ذلك اليوم على هذا الوجه .

والشمس المشرقة : يريد أن يكون لك مع ذلك حال عظيم مع الله ، وهيبة في القلوب قوية ، والشرط في ذلك أن يكون لك نصيب وافر في الحالتين ، إنْ كنتَ نجماً أو شمساً ، وإلا فلا يكون ذلك فيهما ، إذ ما هو إلا بالبخت والنصيب ، وهو معنى قوله : « **فاترك الظهور** » ، بمعنى أنه لا يحصل إلا بالنصيب لا بدونه . ففحوى القول يشير إلى الإختيار ، ومراده الأمر الحقيقي إذا كان له في ذلك نصيب ، وذلك من غير اختيار من العبد ، بل بالضرورة يكون إن كان ، ولا يكون إذا ما كان .

والسريح : النصيب الضعيف من الظهور ، والرياح الشديدة : شدة ظهور الفتن واشتهار ظهور المعاصي ، وعدم الإستقامة على الحق والصواب . والظلمة الشديدة : كثرة الظلم والتظاهر به ، لأن الظلم ظلمات ، والنهار : يعني به إذا كنت مع من هو أعرف بالله وبأحكامه منك ، وله من الظهور نصيبٌ وافرٌ أوفر منك ، فلا تزاحمه فيه وتظهر معه ، وسَلِّمْ له الأمر وانْقَدْ له ، وصِرْ تحت نظره ، فإنه ما ظهر إلا بواسطة جميع الأولياء من ظاهر وخامل ، كما تقدم ذلك من قوله .

ومراده من كان كذلك فهو النهار الذي لا يظهر للسراج فيه أثر ، يعني أن نورك وظهورك لا أثر له مع نوره وظهوره . وقدمنا قول الشعراوي في هذا : « أن من ظهر وفيه كفاية ، إنَّ من رام مزاحمته في ظهورٍ مثله ، إن الأولياء كلهم يدعون عليه حتى يهلكه الله » .

هذا ما ظهر لي من معاني هذه الإستعارات ، والله أعلم هـ .

وذَكَر أقواماً أفرطوا في محبة الجاه والرعونة ، *فقال* : « **إذا استحكم الحسد والجهل يخرج الإنسان عن دينه ، فيحتاج أن يسير بالنور المذكور في القرآن ، ﴿فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ ، ﴿وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِي بِهِۦ فِي ٱلنَّاسِ﴾ ، وإلا وقع في الأخرى** - قال : **أي العكس** - **﴿كَمَن مَّثَلُهُۥ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ ، وكل شيء في القرآن ، ما خرج منه شيء ، إلا إنه يحتاج إلى قوة فهم** » هـ .

أقول : وهذه المقالة تُبيِّن معنى المقالة التي قبلها : فالنور في هذه هو النجم الوَقَّاد في تلك ، والشمس

في تلك هو عبارة عن قُوَّته ، والسريج عبارة عن ضعفه ، والرياح الشديدة والظلمة عبارة عن شدة الظلم والفساد والبدع ، المشتمل عليهما الزمان الفاسد ، والنهار - والله أعلم - : عبارة عن الرجل الصالح والزمان الصالح ، فإنَّ نوره كثيرٌ لكثرة الصلاح والصالحين فيه ، أو كنتَ أيضاً في حضرة شيخك الذي أنت مقتد به فإن نوره يغشاك ، ونورك مندرجٌ في نوره ، لا يبقى لك معه أثر ، كما لا أثر للسراج في النهار ، فنوره كافٍ لك إذا اقتديتَ به ، والله أعلم .

هذا ما ظهر من وجه الموازنة في قوله .

وقال لي يوماً ، وقد جرَتْ مذاكرة في الإخلاص والرياء ، فقال : « **إن الإخلاص عَسِر ، تراك تعتقد في نفسك بينك وبين الله أنك على حالة مذمومة ، ثم لو قال لك أحد : يا كذا . على الذي تعتقده في نفسك بينك وبين الله غَضِبْتَ** » .

فقلتُ : لقد تَعَجَّبْتُ من ذلك ، فقال : « **هذا غضب الطبع وقليل - أي من يخرج منه - وقد غضب النبي ﷺ ولكنك ارْمِ أنتَ بنفسك في الأرض ، فإنْ كُنتَ على حالةٍ مرضيةٍ عند الله ، فيزيدك بذلك رفعة ، وإنْ كُنْتَ على خلاف ذلك فما تسوى الكلام - أو قال : فما إليك كلام -** » .

وشكوتُ إليه يوماً في خلوة ، وذلك في الغيلة - أي الغرفة - بين الظهرين ، يوم الإثنين ٢٧ محرم سنة ١١٢٦ ، من شدة الغضب تعتريني أحياناً ، فقال : « **كيف تجده ؟** » .

قلت : يصير الناس عندي سواء ، كرجل واحد بلا تمييز لأحد بين شريف وغيره ، وتظهر لي عيوب في كثير منهم ، وأتكلم على من لا يستحق الكلام عليه ، فقال : « **ليس هذا صفة الغضب ، إنما الغضب ما كان له سببٌ من جهتك أو من جهة أحد من الناس ، بأن فعل معك ما تكره ، ولكن هذا ضِيقٌ في الحوصلة ، لعدم وسع في الصدر** » .

قلت : فكيف مداواة هذا ؟ ، قال : « **بمخالفته ، بأن تفعل ما تكره فعله حينئذ ، وتترك ما تحب أن تفعله إذ ذاك . والرياضة على قسمين : رياضة الشهوات ، بالصوم والمجاهدة بالجوع وكسر النفس. ورياضة الأخلاق ، بالتكلف ، بأن تخالف ما يدعو إليه الخُلُق السَّيِّء ، وتفعل ما يدعو إليه الخُلُق الحسَن، كتكلف التواضع . والنفس لها كمائن ودسائس ، فتَدَّعِي شيئاً ، وإذا جاء هواها لم يصبح شيء من دعواها ، وما قرن الله سبحانه اسمه الواسع في القرآن إلا مع اسمه العليم أو الحكيم فقال تعالى : ﴿وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾، ﴿وَٰسِعًا حَكِيمًا﴾ وفيه دليلٌ على أن سعة الصدر تكون من العلم ، وفيه الحكمة**

أم الفضائل ، ﴿وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ » .

قلتُ : فما معنى المجاهدة التي يذكرونها ؟ ، *قال رضي الله عنه* : « **تصحيح التوحيد والعمل على مقتضى الشرع ، وتذليل شهوات النفس وتعديل أخلاقها ، حتى يستقر كُلٌّ على الأمر العدل الشرعي . وقد يفتح الله على الولي بعد المجاهدة بفتوح من عنده يتحقق له أنها لم تحصل له بمجاهدته ، بل حصلت فضلاً منه تعالى ومِنَّة ، وقد يجتهد ولا يَحصُل له شيء ، لِيَسْلَمَ بذلك من العُجُب ، فلا يرى أنه حصل له من مجاهدته شيء ولا بد من المجاهدة** » .

قال : « **وسُمِّيَ جهاد النفس أكبر ، لأنه دائمٌ ولازمٌ لكل أحد** » .

قال رضي الله عنه في قول صاحب الإحياء : « الطريقة الثالثة في تهذيب النفس أن يتخذ شيخاً صفته كذا ، فيرشده ويبصِّره بعيوب نفسه .. إلى آخر ما قال » ، *قال* : « **يكون ذلك بالإشارة إن كان من أهلها وممن يفهم بها ، أو بالتصريح في الأمور التي لا بد منها ، ومن نِعَمِ الله عليك أن لا يشافهك بالأمر والنهي ، بل بالتعريض** » .

أقول : يعني إن الله أنعم عليك ، وسَهَّل لك الأمر بالإكتفاء لك منه بالإشارة والتعريض ، وقام لك مقام التصريح بالأمر والنهي ، ولو لم يكْفِ إلا ذلك لكان فيه مشقة ، فعلى هذا يحصل لك منه التعليم والتهذيب بما ترى من أفعاله وأقواله وأخلاقه وأحواله ، فتقتدي به فيها ، ولا يتم لك إلا بتوفيقٍ من الله ومعونة . وكان الأمر والنهي بالتعريض والإشارة هي سيرة سيدنا عبدالله نفع الله به مع المتصلين به والملازمين له ، لا يواجه أحداً بفضاضة في أمر أو نهي ، ولا يشافهه به إلا إن وجب ، ومن رآه على أمر مكروه فعلاً أو تركاً لم يكلمه فيه إذا اتسع له العذر فيه شرعاً إلا بالمباسطة والملاينة، لسعة أخلاقه وحسن طبعه ، حتى إن من كَلَّمَه في أمر يأمره به أو ينهاه عنه ، انشرح خاطره وانزاح عنه ما فيه من الكدر ، وتوهم لذلك أن له عنده منزلة . ومثل هذا منقولٌ من أخلاق النبي ﷺ كما هو مذكور في الشمائل .

وإن استأذنه أحد أو استشاره في أمر ، راعى مراده وما يرغب فيه ويميل إليه ويود أن يشير به عليه، كما تقدم ذلك من قوله مراراً ، ما لم يكن إثماً أو مذموم العاقبة ، وإذا عَلِمَ من أحدٍ فِعْلَ مكروهٍ أو تَرْكَ محمودٍ ، ذكر الفعل بعينه ، وبالغ في مدح ما يحمد وذم ما يكره ، بحضرة فاعل المكروه وتارك المحمود ، ولا يقول له : لِمَ تركتَ أو لِمَ فعلتَ ؟ كما بالغ في ذم الكلام حال انتظار الصلاة ، وهو يعلم بمن يتكلم وما قال إذ ذاك : يا فلان ، لِمَ تتكلم ؟ فما سمعتُه ولا سَمِعَه أحدٌ يخاطب به أحداً بخصوصه،

بل يقول : « **إذا كان المنتظر للصلاة في صلاة ، والكلام مُبْطِلٌ للصلاة ، فلأيِّ شيءٍ يُبْطِلُ على نفسه ذلك؟** » ، أو كما قال .

وكذا إذا عَلِمَ من أحدٍ تَرْكَ ما ينبغي فِعْلُه ، ذَكَر فَوْتَ الفضيلة الـمُرَتَّبة على فعله بحضوره ، ليرغب في فعله ، ومن له بصيرة يفهم الإشارة ، وهي كافية له عن العبارة ، ومَن عُدِمَها لا يفيده التصريح بالعبارة ، ومع هذا فله تربية عجيبة خاصة معنوية ، بإذنٍ ربانية لمن سبقت له من الله السعادة، لا يطلع عليها الخلق ولا من يربيه بها ، لا يختص بها القريب ، ولا يحرم منها البعيد .

أعني نسباً ومكاناً ، كما قد سمعته يقول : « **مَن ربَّيناه يفوق غيره ، لأنّا نُرَبِّيه تربيةً لا يعلم بها** » ، وتقدم سبب قوله هذه الكلمة ، فيا سعد ويا فوز من حصلت له وحضي بها ، لقد سعد سعادة بفضل الله لا يشقى بعدها أبداً ، فهنيئاً له بها هنيئاً جعلنا الله من أهلها وممن حصلت له من فضل الله ، وممن نالها ، فإنها من فضل الله وكرمه ه .

قال رضي الله عنه : « إلْزَقْ بالأرض تواضعاً ، فإن الله تعالى ما خلق الخلق إلا ليتواضعوا لعظمته ، وإلا فخزائنه مملوءة من الأعمال ، ولا اعتراض على المتواضع ، وما يجيد المعترض » .

قال : « ولا ورع إلا ما كان مصحوباً بالعلم ، لأن العلم كالميزان للشيء ، إن زَيَّدتَ قليلاً أخطأت، أو نقَّصْتَ قليلاً أخطأت » .

وذكر حديث : « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه المؤمن ما يحب لنفسه » ، ثم قال : « وهذا يقتضي عدم الحسد والبغض ونحو ذلك ، تعتقد هذا في قلبك وما عليك من فعل الله ، أن لا يكون فعله لك أو له ، أو لواحد دون الآخر » هـ .

أقول : تقدم أن القاعدة المطَّرِدَة ، أنه مهما ذُكِرَ لفظ المؤمن والإيمان في القرآن والحديث ، أن المراد به الإيمان الكامل والمؤمن الكامل ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ .. الثلاث الآيات ، وهذا الحديث المذكور ، وليس كل المؤمنين كذلك ، ومن أقر بلسانه وصدق بقلبه وإن لم يكن على ما وصف من هذا الوصف فلا تخرجه عن دائرة الإيمان ، بل هو من المؤمنين المتحقق إيمانهم ، وفي الآخرة درجاتهم متفاوتة هـ .

قال رضي الله عنه : « لا يحدث شيء من الأمور السماوية ، كمنع قَطْرٍ وقَحْطٍ ونحو ذلك مما يشغل الناس ، إلا بحدوث شيء من العباد ، كَمَنْعِ زكاةٍ وقَطْعِ رَحِمٍ وعدم مبالاة بالفقراء ونحو هذا » .

قال : « إذا رأيت الإقبال فاقْبِل ، وإذا رأيت الإدبار فادبر ، وإذا أَقْبَلْتَ كن مُوَحِّداً ، فانظر إلى الله وعلق به قلبك ، ولا تعلقه بغيره ، بل ارحمهم ، كما قال أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : أَيِسْتُ من الناس لأنفسهم ، فكيف أرجوهم لنفسي ورجوتُ الله لغيري فكيف لا أرجوه لنفسي » .

قال رضي الله عنه : « الأمور التي يُطلب القصاص فيها ورَخَّص الشرع في ذلك ، هي الأشياء الظاهرة، بخلاف الباطنة ، فمن ضربك تضربه بقدره ونحو ذلك ، ولا تحسد من حسدك أو تبغض من أبغضك ، بل تحب الصفة المحمودة وتحرم المكروهة على أي حال ، وإن كان منطوياً لك على خلاف ذلك » .

وسألته عن كلام ابن الفارض : هل كان السادة متعلقين به ؟ ، فقال : « نعم ، لأنه نظم ، والنظم سهل ولا عُسْرَ فيه ، وأين الحقائق الإلهية من يقين الموقنين ، فضلا عن وهم الموهمين ؟ » .

ثم قال : « هذه الأشياء المشكلة تُنَزَّل إما على النفس الزكية ، أو ما أراده القائل وكم حد المخلوق ؟

ولا بُعدَ فيها ، فإن الإنسان قد يذهل في أمور الدنيا فيشطح ، فكيف بأمور الآخرة ؟ وأكثر ما يطلقون في تغزلهم على الروح المحمدية والمقامات العلية ، لأنه عليه الصلاة مخلوق ، والخطر في المخلوق سهل، وإن عَظُمَت منزلته عليه السلام ، لكن مع الغاية في تعظيمه واحترامه . ومن اعترض عليهم فإنما الشيطان لقي له مجالاً في قلوبهم ، فلَبَّس عليهم وألقى عليهم ما هو سبب في الإعتراض ، كما ألقى في قلوب الكفار لما رأى منهم آذاناً مفتوحة لقوله ، حين تلى النبي ﷺ سورة النجم ، فتمثل لهم بذلك القول حتى سمعوه من قراءته عليه السلام ، بلا شعور من النبي لذلك ولا علم ، فاعترض لهم ما بين لسانه عليه السلام وآذانهم ، وقلوبُهم التي أذعنوا بها لعبادة الأصنام أضل من قلوبهم التي كذبوا بها الأنبياء . وكلام ابن الفارض أسلم من كلام ابن عربي ، لأن هذا نظم فيه تسامح وسلاسة تُغَطِّي ما فيه، وذاك أكثره نثر وكلام غير منظوم ، والنظم فيه نادر بالنسبة إلى النثر » ، أو كما قال هـ .

أقول : وقوله : « وقلوبهم التي .. إلخ » ، لعل معناه أن عمى قلوبهم في إذعانهم لذلك أشد من عماها في التكذيب ، والكلام المعترض لهم بين قراءته عليه السلام وآذانهم من غير شعور منه ، لـمَّا قرأ سورة النجم في مجلسٍ جهراً ، وفي حضرته جماعة من الصحابة ، وحضرهم قوم من الكفار ، فلما وصل إلى قوله تعالى : ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ۝٢٠﴾، فألقى الشيطان في أسماعهم عند ذلك ، وأسمعهم من غير شعور منه أنه قال بعد ذكر أصنامهم المذكورة : « تلك الغرانيق العُلى، وإن شفاعتهن لترتجى » ، ففرحوا بذلك ، لأنه مدحٌ لأصنامهم ، ولا قال ذلك ولا علم به ، ولكنه جرى على أسماعهم بإلقاء الشيطان ، ولله سبحانه في ذلك مراد .

فلما ختم السورة سجد ، وسجد معه من المسلمين ومن حضر من الكافرين لما سمعوا هذا المدح لآلهتهم ، فتعجب النبي ﷺ من سجودهم ، وبلغ أهل الجهات البعيدة بأرض الحبشة أن قريشاً قد أسلموا ، فرجع من مهاجرة الحبشة أناس من الصحابة لما بلغهم ذلك ، فرأوه خبراً لم يصح .

فأعلم الله تعالى نبيه بذلك ، فحزن ﷺ لذلك حزناً شديداً ، فأنزل الله سبحانه عذره وتسليته ، بقوله تعالى في سورة الحج : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ﴾، أي تلى، ﴿أَلْقَى ٱلشَّيْطَٰنُ فِىٓ أُمْنِيَّتِهِۦ﴾، أي تلاوته ، مثل ذلك القول ﴿ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلْقِى ٱلشَّيْطَٰنُ ثُمَّ يُحْكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ﴾، أي يفردها عن ذلك القول ، ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٥٢﴾، أي عليمٌ بما جرى ، حكيمٌ في تدبيره في أموره . وفيه دليل على أن لله في ذلك مراداً وحكمة ، فطاب بنزول هذه الآية خاطر النبي ﷺ ، وسلى عن حزنه ، وتحقق له عذره عند الله تعالى هـ .

قال رضي الله عنه : « **يسمع بعض الناس كلام الحال فيظنه كلام المقال ، وليس كذلك ، وليس هو على ميزان الحس ، بل على ميزان آخر ، فإذا سمع من يقول : قال لي الله كذا أو قلت له كذا ، فلا يظن أنه كلَّمه مشافهة ، وإنما هو لسان الحال ، كالمريض تراه يحكي لك بحاله وهو ساكت ، فإذا سمعنا من يقول من ذلك شيئاً عرضناه على الشرع ، فإن كان له وجه قَبِلْناه ، وإلا رددناه** » هـ .

أقول : قوله : « قبلناه » ، أي سلَّمناه له وجعلنا معناه ما ذَكَرنا ، كما إن المريض يُرى من حاله ما يتحقق به مرضه بلا نطق منه ، ومن ذلك إذا طلب أمراً ولا حصل له ، فقال : أردت كذا ، وقال الله ما لك إلا كذا . بمعنى لا يكون أمراً إلا بمراد الله ولا أراد الله له ذلك ، ولو أراده لوقع كائناً ما كان .

وقد سمعته مرة قال : « **أردنا أمراً ، وأراد الله خلافه** » ، ومثل هذا هو لسان الحال ، ولو عُرِضَ على الشرع لم يكن مخالفاً ، ومعناه أنه لا يقع شيء إلا بإرادة الله ، فلما وقع الأمر الذي وقع بخلاف ما أردنا ، تحققنا أن الله أراد وقوعه ، فيحكي بهذا الدليل وقوعه ، لا أنه يحكي أن الله قال له ذلك ، فإن هذا لسان المقال ، والأول لسان الحال .

قال ذلك لما قال كما تقدم : « **أردنا ونوينا أن لا نضع حجراً على حجر للبناء ولكن أراد الله خلاف ذلك ، فوقع ما وقع ، وما عَلِمْنَا بدارنا إلا مبنية مبوَّبة** » ، يعني فعَلِمْنا أن الله أراد ذلك ، وما سكنها ، وإنما يضعون فيها شيئاً من الحوائج ، وإنما مسكنه الحاوي .

وفي معنى لسان الحال ، أوّلَ الإمام الغزالي قول أبي يزيد : « سبحاني » ، أنه على لسان الحق ، يعني إنه يقول : « إن الله سبحانه يقول : سبحاني » ، كما قال : ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدۡنِي﴾ .

وتقدم لنا معنى في كلام الحال ، وهذا معنى ، وذلك معنى آخر ، وهو أن كلام الحال النافع في الوعظ وفي الأمر والنهي ، كلام من اجتمع فيه أمران أحدهما كسبي والآخر وهبي .

فالكسبي : من كان في سيرته وفي جميع أحواله من أفعاله وأقواله ، على السيرة السوية واتباع الحق .

والوهبي : أن يكون قد وهبه الله نصيباً من السر ، الذي يقوى به الإيمان الذي أوتيه سيدنا أبوبكر الصديق ، الذي قال رسول الله ﷺ : « ما فضلكم أبوبكر بكثرة صوم ولا صلاة ، وإنما فضلكم بسر وقر في صدره » ، « ولو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة كلها لرجحها » ، يعني لمكان ذلك السر ، ولا بد لكل ولي من نصيب منه ، فمن أوتي حظاً من الأمرين المذكورين ، كان كلامه كلام الحال الذي يقهر السامع على العمل . يقول القائل : « ومن خلي عن النصيب الوهبي ، كان كلامه كلام المقال لا أثر له في القلوب ، فلا يجذبها إلى العمل ، وأبلغ منه في النقص من خلي عن الأمرين معاً الكسبي والوهبي ، كغالب وُعَّاظ هذا الزمان ، فلا جرم أنه ما انجذب أحد ممن سمع وعظهم وتجرد عن الدنيا ، وأقبل

على أمور الآخرة وما يزلف إلى الله » ، فافهم الفرق بين كلام اللسانين وكلام الحالين .

وفي معنى العرض على الشرع ، ما تقدم من قوله : « **من أتانا بحقائق تتبعها طرائق سلَّمْنا له ، وإلا فما هي إلا أخت الزندقة** » ، يعني كل ما كان موافقاً لحكم الشرع مسلَّمٌ له ، من حقائق أو لسان الحال المذكور وغير ذلك ، وما خالفه مردود ، ومراده بقوله : « **تتبعها طرائق** » ، يعني وافقت الحكم الشرعي . وفي هذه المادة من العرض على الشرع ، أنه أصابني في وقت رمد شديد ، فطلبت من سيدي عبدالله يمسح عليها ويتفل ، فقرأ ودعا ومسح عليها ، ثم قال لي : « **رح إلى السيد أحمد الهندوان ، قل له يتفل عليها** » ، فجئته وقلتُ له ، فقال : « خل حبيبك هو يتفل عليها » ، قلت : هو أمرني بالمجيء إلى عندك، وقال : قل له يتفل عليها ، قال : « هذا يجوز في الشرع ؟ » ، قلت : نعم ، قال : « بأي دليل ؟ » ، قلت: تفل النبي ﷺ بعيني سيدنا علي ، وكان بهما رمد . فجعل يتنخم ، يريني أنه يريد يجعل بها نخامة ليهيبني بذلك عن التفل ، فقابلته بعيوني وقلت : افعل ما أردتَ . فلما رأى مني ذلك تفل عليها ودعا لي ، فقمت من عنده وقد خف ألمها عني ، فرضي الله عنهما ونفعني بهما هـ .

قال رضي الله عنه : « من سمع كلامهم وأشكل عليه ، يسلم لهم على كل حال وينسب التقصير إلى نفسه وقلة فهمه ، وإذا أضَلَّ اللهُ عبداً وأراد هلاكه لا ينفع فيه شيء » .

قال رضي الله عنه : « أمور الآخرة كلها محتملة ، ولا على الإنسان إلا أن يؤمن بها مجملة ، ولا يفصِّل، وقد استدل بعضهم بقوله تعالى : ﴿لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَآنٌّ﴾، أن الجن مؤمنوهم يدخلون الجنة ، ولما كانوا خلقوا من النار التي خلق منها إبليس . قال العلماء : إنهم لا يرون الله تعالى ، ولم يَرِد ذلك في صريح الأخبار وصحيح الأحاديث الواردة ، حتى إن النساء لم يصحَّ حديثٌ بالرؤية لهم ، بل في الأحاديث الصحيحة ما يوهم عدم ذلك ، كما في حديث : يؤذن لأهل الجنة في مقدار جمعة .. إلخ ، وفي آخره : فيأتون أهليهم ، فيقولون لهم : لقد ازددتم بعدنا حسناً وجمالاً . فهذا شاهد على أنهم بقوا في منازلهم ، ولم يزوروا معهم » .

قال رضي الله عنه : « النظم تَحِنُّ إليه الأرواح أكثر مما تَحِنُّ إلى النثر ، بشرط أن يكون السامع مجرَّداً عن الهوى ، لئلا ينزل الأشياء على أغراضه ، وقد سأل الشعراويَّ الجنُّ عن مسائل ، فأجابهم وجعل الجواب نظماً فقيل له في ذلك ، فقال : لأنهم يطربون إلى النظم خيراً مما يطربون إلى النثر . وسمى جوابه: كتاب كشف الران عن أسئلة الجان . ولا يجوز تنزيل الغزل على الحضرة الإلهية ، ولا ما فيه الخُلْف على النبوة ، بل ما كان فيه الوفاء والمدح على الروح ، وما كان فيه الخُلف والجفاء والمطل على النفس لأن هذا طَبْعُها » هـ .

أقول : قوله : « **لئلا ينزل الأشياء على أغراضه** » ، أي أهويته . والهوى والحظ ما كان من الباطل، كما نزلت الرافضة قوله تعالى : ﴿وَٱمۡسَحُواْ بِرُءُوسِكُمۡ وَأَرۡجُلَكُمۡ﴾، بالكسر على المسح ، وجعلوا الواجب في الوضوء مسح الرجلين دون غسلهما ، فأخطأوا ووقعوا في الباطل . والنفس عند الصالحين حيث ذُكِرَت ، يُراد بها داعية الشهوة والغضب ، فكلُّ ما جَرَّهُ إلى أحد هذين هو النفس .

قال : « **أكثر صالحي الزمان لا يَعلم بأنه صالح ، ولو نادى منادٍ بين السماء والأرض بالغرور مثلاً، بأن قال : من فعل كذا فهو كذا ؛ ما صدقناه . كيف والشيخ عمر يقول : لو صَحَّت لي تهليلة لعَشَّيْت أهل تريم** » هـ .

أقول : يعني بالشيخ عمر المحضار بن السقاف نفع الله بهما ، وقوله : « **لعشيت أهل تريم** » ، أي لفعلت لهم عزيمة من شدة فرحه بها .

ومعنى : « **صَحَّت** » ، أي قَبِلها الله وتحقق قبولها ، كما يفعل العزيمة من فرح بأمر .

فانظر كيف إذاً لهؤلاء الأكابر شدة خوفهم إلى هذا القدر ، فإنَّ من كَمُلَت معرفته اشتد خوفه، وبحسب المعرفة يكون الخوف ، كيف وهو القائل : « وددتُ لو كنتُ كبشاً ، ذبحني أهلي وأكلوا لحمي»، ونحو ذلك مما يدل على شدة خوفه الدال على كمال معرفته ، كما قيل : « فلا عارف إلا من الله خائف » ، وفي بعض ما أوحى الله إلى بعض الأنبياء : « خِفْنِي كما تخاف الأسد الضاري » . وهذا تَنَزُّلٌ للخلق على مقتضى عقولهم ، وتمثيلاً لهم بما يرونه بعيونهم من المحسوسات ، وتجل الأمور الإلهية عما تدركه العقول البشرية . والأحمق القاصر المعرفة ، المقصر في حقوق ربه ، لو فعل أدنى شيء من العبادة جعل يدل على الله، ويظن في نفسه أنه حاز أعلى مقام ، وأنه يستحق لذلك أعلى منازل الجنة ، وذلك منه يدُلُّ على قلة حظه وقصوره عن منازل الصالحين بل على أنه أحقر قدراً وأقل جَدًّا من الطالحين ، كما قال السيد عبدالله باحسن الحديلي علوي نفع الله به : « إذا صلى أحدكم ركعتين في جوف الليل جلس ينتظر الوحي » ، أي يدعي بنفسه كثيراً لمكان صلاته عنده .

ومن مجاهدات سيدنا عمر المحضار المذكور نفع الله به أنه ترك أكل الرطب ثلاثين سنة ، فقيل له في ذلك ، فقال : « إنه أحب شهوات نفسي إليها ، فتركته لله » ، فهذا حاله وذاك الكلام المتقدم مقاله ، فقس نفسك على أحوال هؤلاء ، لتعرف ما عندك من بضاعة الصالحين ، وأظنك مفلسٌ منها ، فأين أنت وذاك ، فانظر حالك في ما تسمعه من قوله الآن ، فهو شأنك وشأن غالب أمثالك هـ .

قال رضي الله عنه : « **ولو وقع اليوم عَشرة جماعة في شدة فدعوا الله ففرَّج عنهم ، لادَّعى كلُّ واحد إنما هي كرامته هو ، عكس ما كان عليه صالحو الزمان السابق ، من أن كُلاًّ يراها إنما هي لصاحبه لا له، فيتداعَون الكرامات كما يتداعَون الأموال وكانوا يرون الصالح مَن هو خامل ، إذ هو أكمل ، ومَثَل الظاهر منهم والخامل ، كرجلين مع كل واحد زِق عسل ، فالظاهر أخرج بعضَ زِقِّه ، والآخَر بقي زِقُّه ملآن على حاله** » هـ .

أقُولُ : لأن الظهور حَظٌّ من حظوظ الدنيا ، فقد ورد : « من أوتي حظًّا من الدنيا نقص بقدره من حظه في الآخرة ، ولو كان له عند الله منزلة عالية » .

ويكفيك ما تسمع عن الأنبياء والأولياء من الإنزواء عن الدنيا وحظوظها ، فقد كان النبي ﷺ تراوده الجبال ، وتعالجه أن تنقلب له ذهباً فيأبى ذلك ، ويبات وأهله الليالي المتتابعة طاوياً ، وهو لا تنقصه الدنيا ، لكن تركها لزهده فيها وعدم فتنته بزينتها ، ولعدم مشابهة الفجار ممن هي في يده .

ذكر أن الشيخ أحمد باجحدب سأل عن المعلم باجابر : « لِمَ لا يصل تريم للزيارة ؟ » ، فقيل : « إنه يخاف فيها من السلب » ، فقال : « أنا أضمن له اثنين يضمنون له الأمان من ذلك ، واحد من أهل الظاهر وهو الشيخ محمد بن حسن بن الشيخ علي ، والآخر من أهل الباطن وهو الشيخ أحمد بن الحسين بن الشيخ عبدالله العيدروس ، ولكن لا يجلس في تريم إلا ثلاثة أيام ، ويجلس في مسجد بروم» ، فضمنهما ، فجاء وجلس في مسجد بروم للإلباس بأمره له به ، فألبس في الثلاثة الأيام نحو ثمان وتسعين نفساً .

فقلت لسيدنا حينئذ عند ذلك : هل يسلب أهل الظاهر ؟ ، فقال : « **إنه من أهل الباطن أيضاً ، لكن أقيم في الظهور ، فيجري على ظاهر الفتوى** » أو كما قال هـ .

أقُولُ : يعني إن السيد محمد بن حسن من أهل الباطن ، لكن أقيم في الظهور على قدم جده الشيخ علي بن أبي بكر ، كما أقيم هو فيه ، وكما أن الشيخ أحمد بن الحسين أقيم في الباطن على قدم جده الشيخ عبدالله العيدروس ، فصار يغلب على ذرية كلٍّ منهما المُقَام في مَقَام جده ، وإن تمكن في المقام الآخر .

وخوف السلب إنما هو من أهل الباطن ، لكن صاحب مقام الظاهر في مقام الحجة للشرع ، فينكر ما ينكره الشرع ، فيكون الشيخ أحمد بن حسن قائم له في دفع إنكار المنكرين عليه ، وتقويمه على أن لا يظهر منه ما يتوهم عليه فيه الإنكار ، وإن أنكر منكرٌ حاجَّهُ وَرَدَّ عنه إنكاره ، وأحمد بن الحسين يدفع عنه بحاله من أراد سلبه ، وإنما يدفع الأقوى حالاً من غيره ، وصاحب مقام الحجة للشرع مع تمكنه

في الباطن ، كمقام سيدنا عبدالله ، فكل أهل الباطن يخافون سلبه ، وكل أهل الظاهر لا يرون منه ما يعرضهم للإنكار ، لتمكنه في مقام الإستقامة .

وقد أراد أقوام في سابق الزمان أن يعترضوا عليه في قوله في الراتب : « **الخير والشر بمشيئة الله** » ، كيف يكون الشر بمشيئة الله وقد نهى عنه ؟

وذلك لعدم تمييزهم للفرق بين الإرادتين الإلهيتين : الإرادة الأزلية والإرادة الشرعية ، على ما قدمنا بيانه وتفصيله عند قوله : « **الخلق مكلوفون لما خلقوا له ، لأن الحق أراد بهم وأراد منهم** .. »، إلى آخر المقالة . وهي مسألة القضاء والقدر التي قال سيدنا كما قدمنا وغيره : « **إنها مسألة صعبة ، ولا تتضح ويَبِينُ معناها إلا في الآخرة** » ، كيف وقد أشكل معناها على أكابر من أولي العزم من الرسل كموسى وعيسى وعُزَير ، وسألوا ربهم عن معناها ، فلم يُجِبهم ، بل قال في جواب كل واحد منهم : « لا أُسأَل عما أفعل»، فأسكتهم ، فافهم المعنى مما قدمنا .

وإنما يسلبون من رأوا منه مخالفة للشرع ، فهنا اتفق أهل المقامين في الذَّبِّ عن دين الله ، فهو متعلقهما ومعتمدهما ومقصودهما ، فافهم . فلا تظن بينهما مخالفة ، وإنما يخاف السلب من معه بضاعة يخاف عليها ، ومن ليس معه شيء يخاف عليه فما يخاف أحداً ، فالفقير في القافلة مستامن .

وقد أشار سيدنا إلى أولئك الذين أرادوا الإعتراض ، ثم سكتوا وانخصفوا لمعرفة من هو أكمل منهم في العلم ، وما يُخشَى السلب إلا على من يظهر منه مخالفة للشرع .

وتقدمت لسيدنا رؤيا ، وذلك أن رجلاً من آل العمودي قتل عمه ، فأراد أولاد المقتول قتله ، فقام جماعة منهم فأصلحوا بينهم على أخذ الدية ، وعالجوهم في الرضا بذلك حتى رضوا ، ثم تمادوها بينهم وسَكَّنوا بها الفتنة ، لئلا تقع بسبب القُتول بعد ذلك ، قال سيدنا : « **فليلة وصل خبرها ، رأيت كأني أصلي بين رجلين أحدهما من أهل الباطن وهو الشيخ عمر** - أي المحضار - **والآخر من أهل الظاهر وهو الشيخ علي** - أي ابن أبي بكر ابن أخيه - **فلما رأيت أن المقابل للشيخ عمر أَلَّا الشيخ علي ، قلتُ: الأمر مُفَرَّج ، لأن الشيخ علي من أهل الظاهر فالأمر سهل ، فلو كان المقابل للشيخ عمر أَلَّا الشيخ عبدالله لَخِفْتُ من ذلك ، لأنه من أهل الباطن وأمره صعب** » .

هذه صفة رؤياه كما وصف وذكر حرفاً بحرف ، وكان قد حكاها في مجلسه بالسبير ، وقد طرأ ذكر الفتنة في ذلك المجلس ليلة الرؤيا لما بلغه خبرها قبل ذلك بثلاث ليال ، وقد تقدم ذكره هذه الرؤيا ، لكن اقتضى مادة هذا الكلام هنا ذكرها معه .

وكلا الشيخين الشيخ عمر وابن أخيه وزوج بنته الشيخ عبدالله من أهل الباطن وأقيما فيه ، وهما

من أهل الأحوال الباهرة ، وأرباب السيوف الباترة ، فعرضتهما في النوم كان تدل على شدة خوف ، وعلى أمر لا يطاق ، فلما كان ألَّا الشيخ علي - وهو أخوه والشيخ عمر أيضاً عمهما ، وكل منهما ابن أخيه وهما زوجا بنتيه ، إحداهما أم الشيخ أبي بكر بن عبدالله ، والأخرى أم الشيخ عبدالرحمن بن علي، وهما ابنا عم وابنا خالة - وهو من أهل الباطن ، ولكنه أقيم في الظاهر ، فيدل على أن الأمر فيه شدة وأنها تفرج سريعاً ، فكان الأمر كذلك ، أنها فتنة شديدة هالت فهانت سريعاً في أسرع وقت .

والعجب أن السيد أحمد باجحدب ضمن الاثنين ، وكان فيه كفاية منهما ، فإنه مقدم السادة ورئيسهم في وقته ، وأغزرهم علماً في الظاهر ، وأقواهم حالاً في الباطن ، وهو في وقته كالشيخ عمر في وقته ، وكالشيخ عبدالله في وقته ، وقد علم منهم أنهم كلهم منقادون للمتقدم ، لأنهم كلهم بإجماعهم قدموه ، فلا يخالفه أحد من أهل الظاهر ولا من أهل الباطن ، وكلهم أعطاه العهد والميثاق على ذلك ، ويعلم منهم كلهم عدم خلافهم له ، ولكنه أراد أن ذلك زيادة في تطمين خاطره ، أو لأمر رآه واقتضاه نظره من بين السادة من غيرهم ، ولعل المعنى في ذلك طلب زيادة الإنقياد والتواضع من السادة ، لأنهم لا يرون ذلك إلا لواحد كامل منهم .

وكان للسادة من عادتهم من أولهم إلى آخرهم رئيس متقدم فيهم ، يتقيدون برأيه وأمره في جميع أمورهم وأحوالهم ، يظهر هو ويختفون هم ، ويكون الكل تحت حكمه ورأيه ، كما أشرنا إلى ذلك من كلام سيدنا في ما تقدم غير مرة ، فقال : « **لا يتقدم رجل من الأولياء إلا باجتماع جميع الأولياء من أهل الظاهر ومن أهل الباطن ، وإن من تقدم وفيه كفاية ورام أحد منازعته ، دعا عليه جميع الأولياء حتى يهلكه الله ، وأن من تقدم وليس بأهلٍ ؛ نزعه منها جميع الأولياء ، إن كان في الأحياء كفاية ، وإلا نزعه منها الأموات** » . هذا كلامه ، ونحو هذا كثير ، ومن قدموه فهو القطب في زمانه .

ويُذكَر أن القطبية من بعد الفقيه المقدم ما خرجت عن آل باعلوي ، وإنما ينزعون من تقدم بلا تقديم ، وقد يقدمون رجلاً - وفيهم أمثاله - لكونه له نصيب في الظهور دونهم ، أو لأمر رأوه ، وإن كان لجماعة منه نصيب قدموا من اقتضاه نظرهم ، كما تقدم من قول سيدنا : « **الشيخ عمر هو المقدم في وقته ومن قدامه عشرون ومن خلفه عشرون** » ، قال : « **يعني كلهم في مقامه ، فقدموه وظهر واختفوا** » . ولعل معنى القدام والخلف : أن القدام أناس بلغوا ذلك المقام قبله ، فأَخَّرَ التقدم عليهم إلى أن بلغه ، فقُدِّمَ فيه عليهم ، وأناس آخرون بلغوه بعده فلم يقدموا في التقديم عليه في وقته ، والله أعلم. هذا كان في الأوقات الصالحة ، يجتمعون على التقديم من أهل الظاهر والباطن لما كانوا متكاثرين ومتظاهرين ، وأما اليوم لما قَلّوا واختَفَوا لفساد الزمان ، فلو بلغ مقام القطبية أحد صار مُقاماً فيه بأمر الله ، وبتسليم كلِّ مَن كَمُلَ من أهل المقامين الظاهر والباطن ، من غير اجتماع أحد على إقامة أحد .

وقد أجمع على إقامة سيدنا عبدالله في ذلك المقام في زمانه كلُّ من وُجِدَ من الفريقين ، وسُلِّمَ له في عالم الأرواح كل تلك الأوقات الماضية ، كما أشارت إليه رؤيا رأيتها حين وصلت إلى حضرة سيدي عبدالله ، وقد ذكرتها في ما سبق في هذا النقل : وذلك أني رأيتُ كأني في جمع كثير ، ومن جملتهم الشيخ أبوبكر بن عبدالله العيدروس صاحب عدن رضي الله عنه ، وكأنه في صورة رجل من فقراء السادة ، وإذا هو متقشفٌ جداً ، إنما عليه ملحفة خَلِقَة ، فقلتُ في نفسي : لو خَلَوْتُ به لسألتُه عن حالته هذه ، فإذا برسول رجل متصدر ، وكأنه هو المتقدم المشهور في الوقت ، فقال للجماعة : « فلان يدعوكم » . فخرجوا كلهم ولم يبق غيري وغيره ، فقمتُ إليه وقلت له : ما لي أراك على هذه الحالة ؟ وقد سمعنا عنك أنك على حالةِ حِشْمَةٍ عظيمة ، حتى إنك تُلْبِس عبيدك وخدامك الملابس الفاخرة التي تعجز عنها الملوك ، فكيف هذا ؟ قال : « الزمان غير الزمان ، والناس غير الناس ، كان ذلك مِنَّا في وقتنا والوقت لنا ، واليوم الوقت لغيرنا » . قلت له : من هو الذي له الوقت اليوم ؟ قال : « سأريك إياه » . فعند ذلك جاء ذلك الرسول يدعونا ، فقال : « فلان يدعوكم » .

فقمنا وسرنا معه ، فأوصَلَنا إلى باب حوش واسع جداً ، وهو ملآن من الناس وفيه رجل متصدر يدخل عليه الناس ، ومن دخل قَبَّلَ يده ومشى القهقرى ، لا يولونه ظهورهم ، وإذا ذلك الحوش ملآن من الناس من يمينه إلى شماله ، فحين ولج الشيخ أبوبكر من الباب ورأى الرجل ، قال لي : « الوقت اليوم لهذا الرجل ، وهو صاحب الزمان اليوم » ، ثم أطرق برأسه ومشى إليه ، فمشيت معه حتى وصلنا إلى الرجل ، فقَبَّلَ الشيخ أبوبكر يده ثم مشى القهقرى ، إلى أن وصل صف النعال فجلس عنده ، فلما وصلت إلى الرجل قَبَّلْتُ يده ، ثم رفعت رأسي إلى وجهه أنظره ، وإذا هو سيدنا الحبيب السيد عبدالله الحداد نفع الله به . فأردتُ أن أجلس في الصف بقربه ، فاستحييت من الشيخ أبي بكر أن أجلس هناك وهو جلس عند النعال ، فسِرْتُ إليه وجلستُ بجنبه ، ثم انتبهت من النوم . تمت الرؤيا .

وأول ما قصَصْتُها على سيدي حسن بن الحبيب ، وحكاها لأبيه ، فدعاني سيدي وقال : « **كيف صفة رؤياك ؟** » . فأخبرته بها ، وما قال شيئاً ، فقلت : ما معنى تصور الشيخ أبي بكر بصورة ذلك الشريف ؟ فقال : « **لعله حصل له منه مدد – أو قال : حال –** » . وكان الشيخ أبوبكر هو مقدم السادة في وقته بعد أبيه .

وقول سيدنا : « **سأل الشيخ أحمد باجحدب عن المعلم باجابر : لِمَ لا يصل إلى تريم للزيارة . فقيل: إنه يخاف السلب** » ، يفهم هذا أن المعلم لم يتكلم بعذره هذا ، وإنما اعتذر عنه غيره ، لأن فيه دعوى أنه معه حال يخاف عليه ، فإنما يخاف على بضاعته من معه بضاعة يخاف عليها ، فيخاف ممن هو أقوى منه حالاً ، ولا يمكن المعلم يفوه بذلك .

وقول سيدنا : « فقيل » ، يدل على أن القائل غيره ، فلو كان هو القائل لقال : قال : « أخاف » هـ .

وسأل سيدنا عن خطيب سيئون ، فقيل : « لا بأس به » . وكان ذلك الخطيب من المترددين عليه للزيارة ، فقال : « هل يخطب ببكاء أو بغير بكاء ؟ » .

فقيل : « بغير بكاء » ، فقال : « سبحان الله ، كأنهم بلا ذنوب ، لا بل هم بلا قلوب ، وإلا فكلٌّ معترف بالذنب ، ومن يخلو من ذنب ؟ » .

وأتاه هذا الخطيب يوماً زائراً ، فسأله عن ذلك كذلك أيضاً - يعني بلفظ ما سأل أولاً - قال له : « هل تخطب ببكاء أو بغير بكاء ؟ » ، فاعترف بقساوة قلبه وقال كما قيل عنه ، يعني قال : أخطب بلا بكاء ، فقال له : « الخطبة مع البكاء كالقوت معه ماء ، والخطبة بلا بكاء كالقوت بلاء ماء » هـ .

قال رضي الله عنه : « الحقائق المجرَّدة لا تنفع ، ولا تنفع الأعمال المجرَّدة أيضاً ، إلا أنها تستر مولاها، ولا تعجبوا من كلامنا هذا ، فإن له أصلاً . والكلام الذي له أصل يؤخذ منه معان كثيرة ، فقد قال الشيخ أحمد باجحدب : من جالَسَنَا أربعين يوماً ، إذا قال للشيء كن فيكون . أو ما هذا معناه ، ولما سمع ذلك منه بعض الناس جالَسَهُ لأجل ذلك ، فلما كان بعد أربعين ، مر يوماً وهو حامل شيئاً فرماه، يريد أن ينقلب ذهباً فلم ينقلب ، فانقطع عن الشيخ ، ففقده وسأل عنه ، فقيل له : إنه مُختَلٍ في بيته، أو كما هو . إلا أن الانسان قد يترقى من شيء إلى شيء ، إن كان أهلاً للترقي ، كالذي يريد المنزلة عند الناس حتى يكون في أعلى عِلِّيَّة ، ومن لم يكن منهم - أي من أهل الترقي - كان يتنزل إلى أسفل سافلين، لأنها إنما هي مرتبتان : إما عِلِّيون ، أو سِجِّين . وهذا يُعرَف بالبصائر ، وله شواهد قرآنية وحديثية ، من أحب قوماً فهو منهم وغير ذلك ، وبعيد أن يكون منهم ولا يعمل بعملهم » .

قال : « من العجائب أن الروح تحجب الجسم ، حتى إن بعض من يغيب ويُصعَق ، لو سُئِل : ماذا رأى ؟ قال : ما رأى شيئاً . منعه الجسم من الاطلاع ، ولم يزل الإنسان يُلَطِّف كثافات نفسه حتى يرتقي إلى طبع الملائكة ، وقد تعاوده البشرية ، كالذي يمكث مدة من الأكل ، ولم يزل يُكَثِّف نفسه حتى يحصل في طباع الشياطين ، وقد يرتاح الروح لحصول مطلب النفس ، كمن يفرح بأكْلَةٍ ستحصل له، وقد تكون النفس كذلك ترتاح لحصول مطلب الروح ، كما إذا التَذَّ بالطاعة ، فالنفس تلتذ بها تبعاً للروح ، وكل واحد فيما يخصه أصلي والآخر تبع له فيه » ، أو كما قال هـ .

أقول : قد عَرَفْتَ من هذا ومن غيره أن مطالب النفس غير مطالب الروح ، فمطالبها ما يتعلق

بمنافع الجسم في الدنيا خاصة ، من جلب ما يغذيه وما يتلذذ به من الشهوات النفسانية والمطالب الدنيوية وهو الشهوة ، وما يدفع عنه ما يضره ويؤذيه حسًّا ومعنىً وهو الغضب ، فالنفس التي يطلقونها في عباراتهم في معرض الذم ، وفي الأمر بمخالفاتها هي هاذان الشهوة والغضب . وفَهِمْتَ أن مطالب الروح التي يذكرونها هو الباعث على طلب ما يرضي الله ، والتلذذ بالعبادة وما يقرب إلى الله ، وما ينفع عند الله ، وطلب حصول النظر إلى الله ، وهذه مُبَايَنَة لمطالب النفس ، لكن في بعض مطالب النفس ما يعين على مطالب الروح فيرتاح لذلك ، وفي بعض مطالب الروح ما يوجب التلذذ وهو من مطالب النفس فترتاح النفس لذلك ، على ما مَثَّل به في الأمرين معاً .

وأن الانسان إذا أمعن في مطلب الروح قد يحجب عن الجسم فلا يشعر به - كما بينه - ولكن الانسان تغلب عليه مطالب النفس لأنه أَلِفَها من صغره ، فلا يزال يلطِّفها بالرياضة ، فإن ساعدته العناية وقد سبق له من الله حظ ونصيب من مقامات الأولياء ؛ ارتقى منها إلى مطالب الروح ، حتى تغلب عليها وتضمحل معها ، ونفس هذا هي النفس المطمئنة ، فإن عومل بالخذلان غلبت مطالب النفس ، حتى يكون في طباع الشياطين ، كهؤلاء الفجرة الذين ليس لهم هَمٌّ إلا الظلم والفجور والغفلة عن ما توعد الله به من عصاه ، وما خَوَّفهم به من إهلاكه الأمم السالفة ، الذين عَصَوا رسله بما أمروهم به من أمر الله ، وكل ظالم من المؤمنين بالله غافل عن قول الله تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾الآية .

ومطالب الروح محبوبةٌ عند الله مطلقاً ، ومطالب النفس محبوبٌ عند الله منها ما يعين على عبادته وما يقرب إليه ، ومطالب الروح وما يعين عليها من مطالب النفس يُسَمَّى حَقٌّ ، وما كان من مجرد مطالبها دون ما يعين على العبادة يُسَمَّى حَظٌّ وهوى ، والله تعالى يحب الحق ويبغض الحظ ، ولهذا وعد الله تعالى من ترك الحظ والهوى بالجنة ، بقوله : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾، كما توعد من اتبع مطالب النفس من اتباع مطالب الدنيا بالجحيم، بقوله : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝﴾، ولهذا المعنى مِن حُبِّه تعالى لمطالب الروح وبُغضِهِ لمطالب النفس ؛ أخذ العهد والميثاق على الروح لما أراد أن ينزله إلى الجسم ، والاجتماع مع النفس ، للقيام بالأوامر الشرعية التي هي حق الخالق على المخلوق ، فأخذ عليه أن لا يتبعها في مطالبها ، بل يبقى معها على طبعه ومطالبه ، ويستجرها إلى مطالبها إن ساعد القدر بإذعانها له . ولكن لا بد مع المجاورة من المجابرة ، فشرط المرافقة الموافقة ، ولو في بعض الأشياء دون الكل ، فيفرح ببعض مطالبها إذا لم يقوَ حينئذ في مطالبه ، بل يعين عليها من المباحات ، ولو مع ما لها فيه من الحظ دون ما يضره ، ويتجرد لخصوص مطلوبها من الشهوات المحرمة ، وتفرح هي بمطالبه ، لكونها كلها نافعة ، ويكثر ذلك منها

إن لطفت بعض تلطيف .

فإن لطفت كثيراً انقادت إليه وتجردت له عن مطالبها لمطالبه ، وسُمِّيَت حينئذ مطمئنة بعد اللوامة، وهي بعد الأمَّارة الخالية عن مطالبه ، وتلطيفها حتى تلطف موهبة من الله تعالى لمن اختصه بها ، والذي إلى العبد من ذلك أن يمنعها مما تهوى ، من مجرد مطلوبها حظًّا ، الذي لا إعانة فيه ، فإن ساعفه القدر عليها وقهرها إلى أن تنقاد له ، وإلا غلبته وكثفت ، وتكثيفها بإسعافها بما تهوى من كل شيء حقًّا وحظًّا. أعني بالحظ ما فيه الاستعانة إذا تجرد عن نية الاستعانة به على العبادة ، فهو مجرد حظ ، وما هو مجرد حظ لا استعانة فيه ، قد آل بالنية يلتحق بالعبادة فيصير حقاً ، وإلا التحق لمجرد الحظ . وتقدم قوله : إن قول من قال : عبدته لا رغبة في جنته ولا خوفاً من ناره : « **أن معنى ذلك أن مطلب الروح غير مطلب الجسم** » ، فمطلب الجسم الذي تدعو إليه النفس في التلذذ بالأكل ونحوه ، وهي الأصلي فيه ، والروح تابع لها فيما يعينه من مطالبها على مطلوبه ، والروح طبعه الأصلي التلذذ بالعبادة والمعرفة، والنفس تَبَعٌ له فيما تلذذ به . ومطالب النفس كلها متوفرة في الجنة على أكمل وجه ، ومكارهها كلها متوفرة في النار على أبلغ وجه ، ومطلب الروح أعلى مطلوب في الجنة ، وهو النظر ، فكَأَنَّ ذلك القائل مُلاحِظٌ لهذا المعنى ، بأن الروح لا مطلب له سوى ذلك ، دون المعنى الذي يُفهَم من قول القائل ، وإلا فالعبد محتاج لفضل ربه من كل ما تفضل به عليه من المطلَبَيْن ، من مطلب الأرواح ومطلب الأجسام الذي تدعو إليه النفوس هـ .

قال *رضي الله عنهُ* : « **مَن رأيتَ فيه أدنى ميل عن شاكلة أهل الزمان إلى طريق أهل الخير فهو صالح الزمان ، ومَن رأيتَه مائلاً عن ذلك كذلك إلى طريق الشر فهو فاجر الزمان** » .

قال : « **كان السابقون إذا عملوا شيئاً للدنيا جعلوا بعضه للدين ، وقالوا : لا نجعل هذا كله للدنيا. وهؤلاء عميت بصائرهم فلا ينفعهم مع ذلك رؤية أبصارهم ، فتراهم يعملون في الدنيا جهدهم ، ولا يهتمون للدين بشيء البتة** » ، فقلت له : إن الإنسان قد يهتم بطلب شيء ولم يكن أهلاً ، **فقال** : « **الإنسان أهلٌ لكل شيء ، لكنه يطلب ما يطلبه بطاعة الله ومن طريقه** » هـ .

أقول : قوله : « **لا يهتمون للدين** » ، يعني لا ينوون أن يستعينوا به على الطاعة وما ينفعهم عند الله ، وإلا فالنية تُصَيِّرُ المباح طاعة ، ولا يفعلون المأمور بنية صالحة ، بل لطلب عوض دنيوي ، فيصلي الضحى لتيسير الرزق ونحو ذلك ، ويصلي الفرض ويطلب عليه أجرة كما ترى ، ويحج بأجرة وغير ذلك ، فإذا طلبوا الدنيا بأمور الدين فماذا بقي فيهم من الخير ؟ وقولنا هذا في من يفعله كذلك .

وقوله : « لكنه يطلب .. إلخ » ، أي فليطلبه بذلك ومن وجهه هـ .

قال : « قلوب أهلِ الزمان انقلبت في وجوههم ، فلذلك يحصل للإنسان بسببهم خواطر ، ولكن هذا أشكل من أن يتعطّلوا من الأمرين جميعاً ، فيبقون بلا قلوب ولا وجوه » .

قال : « كُلُّ فِعلٍ قَصَد به فاعله الناموسَ لا يقبله الله ، ولا ينتفع به صاحبه في الآخرة أصلاً ، كالذي يفعل الصدقة رياء ، إلا أن يكون قد وافقت صدقته مثلاً محتاجاً ومضطرًّا ، فيحصل له ثوابٌ من وَجْهٍ آخر ، كأن دعا له بسببها ، أو بنى سقاية يرائي بذلك ، فشرب منها رجلٌ فقال : اللّٰهم اغفر لمن بناها . ففي مثل هذا لا مانع منه ، وذلك من المروة إذا تَكَرَّم وأعطى أحداً فذاك من شأن العقلاء ، وذلك في المباح ، بأن لم يقصد به التقرب ، ولا الرياء والمفاخرة . وقد حكم سيدنا علي بالنهي عن أكل طعام المتفاخِرَيْن ، اللذَيْن كان كلٌّ منهما شيخ جماعة ، فذبح أحدهما كذا وكذا من الجُزُر ، ففعل الآخر أكثر ، وتكرر ذلك منهما ذلك مراراً ، فلما عَلِمَ بذلك أمر بإلقائه على المزبلة ، وذلك - أي الذي يقصد به الناموس - كمن يوصي أن يُفعل له خَتْم ، ويُجعل على قبره ختمة ، ويجتمع الناس عند ختمه وضيافته، ونحو ذلك ، وقد انقلبت أمور التربة عندنا في هذا الوقت ، كلها لأجل الناموس » هـ .

أقول : ونظير ما فعل سيدنا علي ، ما فعل سيدنا عمر أيضاً ، وذلك أنه كما ذكر الإمام الغزالي في الإحياء ، قال : « روي أن سيدنا عمر رأى سائلاً يسأل طعاماً من البيوت ، حتى ملأ له مخلاة ، فرآها عنده وهي ملآنة من الطعام ، فأخذها منه ونَثَرَها عند إبل الصدقة ، وقال له : إنما أنت تاجر ولست بسائل من حاجة » ، انتهى . وكان ذلك الطعام الذي فعله الرجلان ، وإن كان عزيزاً ، فقد حَقَّرَتْه نيتهم الفاسدة ، أعني طعام المتفاخِرَيْن ، وطعام ذلك السائل ، ولذلك استحقراه ورميا به استحقاراً ، وكفى بذلك دليلاً من الخليفتين من الخلفاء الراشدين ، الذين حث النبي ﷺ على اتباع سنته وسنتهم، وحَظَّ على التمسك بها ، حيث قال ﷺ : « عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين من بعدي ، عُضُّوا عليها بالنواجذ » ، والعض : عبارة عن شدة التمسك بها ، والتمسك بذلك يريد علماً جَمًّا وغَوْصاً في العلم ، ليطلع على ذلك ويعلمه فإن وفقه الله اتبعه وتمسك به . وقد كان سيدنا عمر يتكلم بأمورٍ تُنكَر عليه ويُلام فيها ، ثم بَعْدُ يتبين أنها الحق والصواب ، كما في قصة سارية ، وأمره للنبي ﷺ بحجب نسائه ، فنزلت في ذلك آية الحجاب ، وقوله لرسول الله ﷺ : « لِمَ تُصَلِّ على المنافقين وقد نهاك الله عن الصلاة عليهم ؟ » ، فنزلت هذه الآية : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم﴾.. الآية ، وغير ذلك .

فقد رأيتُ في ما يرى النائم بعد وفاة سيدنا عبدالله ، وقبل سفري من حضرموت كأن صَبِيًّا ناولني وريقة كالإصبع ، قال : « أعطانيها لك رجل في دمون وقال : إعطها الحساوي » - ودمون : اسم جهة

نخيل بتريم - فإذا في الوريقة مكتوب : « صح ، أنت عمر بن الخطاب » ، وحِرْتُ في معنى ذلك وما فَهِمْتُه ، فأخبَرتُ بالرؤيا سيدي السيد أحمد بن زين الحبشي علوي نفع الله به ، وطَلَبْتُ منه تعبير الرؤيا وتفسير معنى ذلك ، فقال : « معناه أنك أشْبَهْتَ عمر بن الخطاب ، في كونك إذا عَزَمْتَ على أمرٍ أَمْضَيْتَهُ ولا تبالي بلوم لائم ، ولا عندك في من لام ، كما قد يقول سيدنا عمر ، ويفعل أموراً تُنكَر عليه ولا يبالي بلوم من لام ، ثم ينزل بقوله وفعله القرآن » ، ثم ذَكَر جَرَّ سيدنا عمر لرداء رسول الله ﷺ لمَّا أراد أن يصلي على ابن أُبي ، وقوله له : « لِمَ تُصَلِّ على المنافقين وقد نهاك الله عن الصلاة عليهم ؟ » .

أقول : إنما صلى عليه مع علمه بشقائه لما طلب منه ابنه ، وكان من الصادقين عبدالله بن عبدالله أن يصلي عليه ، ويعطيه شيئاً من غِلالته أن يجعله عليه تحت كفنه ، ففعل له ذلك جبراً لخاطره ، لكونه صادق ليس كأبيه ، وكان أبوه الذي صلى عليه النبي ﷺ رئيس المنافقين ، وكانوا توَّجوه لِيُقَدِّموه عليهم ، فلما قَدِمَ رسول الله ﷺ المدينة أقبلوا عليه وتركوا ابن أُبي ، فشرِقَ بحسده وتلفظ بالشهادة بلسانه خوفاً من القتل ، ولا صَدَّق بقلبه ، وكل المنافقين كذلك ، ويُصَلُّون ويخرجون إلى الجهاد خوفاً ومراياة . وابن أُبي هو القائل في حق رسول الله ﷺ : ﴿يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ﴾ - يعني نفسه - ﴿مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ﴾ - يعني رسول الله ﷺ - وذلك في غزوة المريسيع وغضب رسول الله ﷺ من قوله ذلك ، ومن علامة صدق ولده أنهم لما رجعوا إلى المدينة ، ودخلوا ودخل رسول الله ﷺ ، وأراد ابن أُبي الدخول ، وقف له ابنه عبدالله ومنعه من الدخول وقال له : « والله لا دَخَلْتَ حتى يأذن لك رسول الله ﷺ ، لتعلم أنه الأعز وأنك أنت الأذل » ، ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾، الآية .

قوله : « **كمن يوصي أن يُفعل له ختم .. إلخ** » ، يُفهَم أنه إن فُعل له من غير وصية منه أنه يحصل له ثوابه وينتفع به ، وأن ليس ذلك للناموس ، يؤخذ ذلك من تأويل العلماء لقول رسول الله ﷺ : « إن الميت لَيُعَذَّب ببكاء أهله عليه » ، حيث قالوا هذا إن أوصى به ، وإن لم يوصِ به لم يُعَذَّب ببكائهم عليه .

قوله : « **وقد انقلبت أمور التربة في هذا الوقت .. إلخ** » ، يفهم أن الأولين قبل هؤلاء كانت نيتهم خالصة لله صالحة ، ولو أوصوا فهم مثابون ، فلو أن أحداً في وقتنا كان مخلصاً لله في نيته مثلهم لا يضره ذلك ، ولو أوصى به ، فما النفع إلا مع كمال الإخلاص حيث وُجِد في من تقدم أو في من تأخر ، وما الضرر وتفويت الثواب إلا مع عدم الإخلاص كائناً ما كان وأيْنا ممن كان فافهم .

وذَكَر أمان الطرق ، *فقال* : « إذا أراد الله أمان الأرض ، وَضَعَ الأمانَ في قلب الخائف والمخيف ، فحصل الأمان ، هذا فِعْلُه وعليهم الأسباب ، ولهم الاختيار وإليه القدرة والفعل ، هذا في هذا العالَم،

لأنه عالَم الأسباب والحكمة ، فترى الإنسان لو أراد يسافر أو يفعل أو يترك ، ونحو هذا ، كل ذلك باختياره ، وأما في الآخرة فإليه تعالى الفعل والقدرة ، ولا عاد لهم اختيار ولا سبب ، بل لو أرادوا فِعْلَ شيءٍ ما قدروا ، وتولته الملائكة دونهم » .

ثم تلا قوله تعالى : « ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ﴾ .. الآية ، هذا في الآخرة ، لأن إذ ذاك معاد شيء أسباب ، ولأن الأسباب قد استوفوها في الدنيا وقد فُسِّر قوله تعالى : ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزۡقُكُمۡ﴾ ، المطر ، ﴿وَمَا تُوعَدُونَ﴾ ، الجنة ، لأنها في السماء ، فيُنزل لهم اليوم المطر من السماء الذي هو سبب الرزق ، ثم يُسكنهم الجنة في الآخرة » هـ .

أقول : تأمل هذه المقالة البليغة ، المشتملة على الحقيقة والشريعة وما انطوت عليه ، فالحقيقة نسبة الأمور إلى الله ، وهو قوله : « **إذا أراد الله أمان الأرض** » ، إلى قوله : « **هذا فِعْلُه** » ، وقوله : « **وإليه القدرة والفعل** » ، والشريعة قوله : « **وعليهم الأسباب ولهم الاختيار** » ، ويُفهَم أنَّ ما التكليف الشرعي إلا مع الاختيار . وتقدم ضربه المثل لهذا المعنى برَجُلَيْنِ سقطا في بئر ، أحدهما بغير اختيار ، فيكون شهيداً مأجوراً، والآخر باختيار ، فيكون آثماً مأزوراً قاتلاً لنفسه ، وأنَّ ما الأسباب إلا في الدنيا ، وهي حكمة الله فيها دون الآخرة وهي محل ظهور مجرد القدرة ، وفي الدنيا أعمال الآدميين ، وفي الآخرة أعمال الملائكة ، كل هذه المعاني تبينت من هذه المقالة . وتقدم قوله : « **كل خير نزل من السماء** » ، القرآن غذاء الروح، وهو نزل من السماء ، والماء غذاء الأشباح وهو نزل من السماء ، وبَيَّنَّا أن من اشتبه عليه معنى ذلك، فقال : « **ما كلُّ ماءٍ يشربه الآدمي نزل من السماء ، بل منه النازل ومنه النابع ، إن النابع أصل من السماء أيضاً، لقول الله تعالى** : ﴿وَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءَۢ بِقَدَرٖ فَأَسۡكَنَّٰهُ فِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾ .. **الآية ، وقوله تعالى** : ﴿أَلَمۡ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَسَلَكَهُۥ يَنَٰبِيعَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾، **وغير ذلك** » هـ .

وذَكَر الأرزاق ، *فقال* : « **الأرزاق مقدرة ، ولكن إذا عصوا ، قال الله تعالى للخَزَنَة : أخِّروا رزقهم في الخزائن ، وإذا أحسنوا عَجَّلَ لهم ، أو يجعلها لهم فيها مدة ، ثم يَرُدُّه عليهم في وقت آخر لعصيانهم، كما ترى كثيراً من السيول تأتي وتروح ضياعاً ، لا يحسنون تَربِيتها ، هذه هي التي كانت أُخِّرَت لهم ، ثم أُردِفَت لهم . مثل العبد السوء إذا عصى ؛ يجوِّعه سيِّده نحو أربعة أيام ، ثم يجمع عليه رزق تلك الأيام مع رزقه الحاضر حتى يكثر عليه ويمل الأكل** » أو كما قال .

وتقدم هذا لمناسبةِ هناك ، وكذلك ذُكِرَ هنا لذلك .

قال : « **سَمِعْنَا فيما بَلَغَنا أن الله تعالى يقول : يا عبدي أطعني ولا تُعلِمْني بما يُصْلِحُك ، فأنا أعْلَمُ**

بما يُصْلِحُك منكَ » ، ثم فَسَّرَه *فقال* **: « عليك الذي عليك ، وامسك الحبل بطَرَفَيْه ، ولا تَخْتَرْ مع ربك، فاختياره لك أحسن من اختيارك لنفسك » هـ .**

أقول : قد تقدم هذا أيضاً ، ومراده أي عليك ما يلزمك من الأمور الشرعية ، وهي الاختيارية مما يتعلق بأمور دينك ، وهي معاملتك لربك ، وهي عبادتك التي خلقك لها ، لقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾، والعبادة كما تقدم مراراً : أن تفعل ما يرضيه وترضى بما يفعل .

وأما ما يتعلق بمصالحك ومنافعك فذاك إليه ، لا مدخل لك فيه ، فعليه وإليه كل أمور إيجادك وإمدادك ، فأين أنت حين أمضى إيجادك ؟ أي قضاه ، وحين أوجدك ؟ أي قَدَّرَك ، فأَوْجَدَكَ في وقتك وعلى صفتك ، هل لك في ذلك مدخل أو اختيار ؟ أو طلبته عليه ؟ فأنت حينئذ في العدم ، فكيف قلت : أريدك يا رب توجدني وتمدني ؟ فلما أنه أوجدك باختياره ، وأَمَدَّكَ باختياره ، جَعَلْتَ تختار معه وتعالج أن يفعل لك ما تريد دون ما يريد ، فأي حُمْقٍ وجهالةٍ منك أعظم من هذا .

وإمساك الحبل بطرفيه : يعني اِفْعَلْ ما أمرك به ربُّك بظاهرك وهو الشريعة ، واعتمد في جميع أعمالك في تبليغك إياها على الوجه الذي أمر ، ونيل منافعها دنيا وأخرى وهو الحقيقة ، وهما الطرفان الذي قال لك : « امسك الحبل بطرفيه » ، فإنك إن أمسكت بأحدهما دون الآخر ، فإنه فسوق ونفاق في مجرد الظاهر ، أو زندقة وإلحاد في الدين في مجرد الباطن ، وإسلام وإيمان وشريعة وحقيقة في مجردهما على القانون الحق ، فالشريعة أن يأتي بالأعمال بشروطها الظاهرة في مباني الإسلام الخمسة ، والحقيقة أن يصحبها معها في الباطن الإخلاص بقصد الإمتثال وأداء حق الربوبية من العبودية ، هكذا في كل واجب ومندوب ، وفي المباح بنية الاستعانة به على أداء تلك الحقوق ، وفي ترك المنهي كما ذكر من الامتثال . فهذا هو إمساك الحبل بطرفيه ، بأن تأخذ بالطرف الظاهر المذكور والطرف الآخر الباطن كما ذكره، وإلا فلا يكفي الأخذ بأحدهما دون الآخر هـ .

قال رضي الله عنه **: « هذه مسألة مهمة في الدين ، احفظوها : لا يحتج الإنسان بالقضاء والقدر ، حتى يعطي الأشياء غايتها » .** *ثم قال* **: « يعني يراعي أسبابها ، لا في الخير بالفعل ولا في الشر بالترك ، ومَن كان طبعه لا يقبل الرياضة فلا تُتْعِب نفسك معه وتُتْعِبه » هـ .**

أقول : وفي معنى قوله هذا قول سيدي الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه : « العبد إذا ابْتُلِيَ ببلية ، تحرك أولاً في نفسه بنفسه ، فإن لم يتخلص منها ؛ استعان بغيره من الخلق ، كالسلاطين وأرباب المناصب وأبناء الدنيا وأصحاب الأموال ، وأهل الطب في الأمراض والأوجاع ، فإن لم يجد في ذلك

خَلاصَهُ رجع إلى ربه عز وجل بالدعاء والتضرع والبكاء ، فما دام يجد عند نفسه نُصرَةً لم يرجع إلى الخلق، وما دام يجد عند الخلق نصرة لم يرجع إلى الخالق . ثم إذا لم يجد عند الخالق نصرة - يعني ما استجاب دعاءه وتضرعه وبكاءه - استطرح بين يديه مديماً للسؤال والدعاء والتضرع والبكاء والافتقار مع الخوف منه والرجاء له . ثم يعجزه الخالق عز وجل عن الدعاء له ، ولا يجيبه حتى ينقطع عن جميع الأسباب والحركات فيبقى روحاً فقط ، فلا يرى إلا فعل الحق عز وجل ، فيصير موقناً مُوَحِّداً ضرورة ، فيقطع بأن لا فاعل على الحقيقة إلا الله عز وجل ، ولا مُحَرِّك ولا مُسَكِّن إلا هو ، لا خير ولا شر ، ولا نفع ولا ضر ، ولا عطاء ولا منع ، ولا فتح ولا غلق ، ولا موت ولا حياة ، ولا عز ولا ذل ، ولا غنى ولا فقر ، إلا بيده عز وجل ، فيصير حينئذ في يد القدرة كالطفل الرضيع في يد الظِّئر ، والميت الغسيل في يد الغاسل ، يُقلب ويُغير ويُبدل ويُحول ولا حراك به في نفسه ولا في غيره، فهو غائبٌ عن نفسه في فِعْلِ مولاه ، فلا يرى غيرَ مولاه وفعلَه ، ولا يسمع إلا منه ولا يعقل غيره . إن أبصر فلصنعه أبصر ، وإن سمع وعلم فلكلامه سمع ولعلمه علم ، وبنعمه تنعَّم ، وبقربه سعد، وبتقربه تزين وتشرف ، وبوعده طاب وسكن وبه اطمأن ، وبحديثه أنس ، ومن غيره استوحش ونفر، وإلى ذِكْره التجأ وركن ، وبه عز وجل وثق وعليه توكل ، وبنور معرفته اهتدى وتقمص وتسرول ، وعلى غرائب علومه اطلع ، وعلى أسرار قَدَرِه أشرف ، ومنه عز وجل سمع ووعى ، ثم على ذلك حمد وأثنى وشكر » انتهى .

ونقل الشعراوي كلامه هذا في طبقاته الكبرى في ترجمته لسيدي عبدالقادر قال : « وكان الشيخ عبدالقادر يقول : إذا ابْتُلِيَ أحدكم ببلية فليحرك أولاً لها نفسه ، فإن لم يتخلص منها ؛ فليستعن فيها بغيره من الأمراء وغيرهم ، فإن لم يتخلص ؛ فليرجع إلى ربه بالدعاء والتضرع والاطِّراح بين يديه ، فإن لم يجبه فليصبر حتى ينقطع عنه جميع الأسباب والحركات ويبقى روحاً فقط - أي لا يرى إلا فعل الحق جل جلاله - فيصير موحِّداً ضرورة ، ويقطع بأن لا فاعل في الحقيقة إلا الله ، فإذا شهد ذلك تولى الله أمره ، فعاش في نعمة ولذة فوق لذة ملوك الدنيا ، لا تشمئز نفسه قط من مقدور قدرة الله عليه » .

انتهى نقل الشعراوي .

فانظر إلى هؤلاء الأكابر ومراعاتهم للأسباب أولاً ، لأنها الشريعة والحكمة التي أجراها الله سبحانه في الدنيا ، وهي متابَعة مطالب منافع النفس بأسبابها في الدنيا على قانون الشرع ، فإذا انقطعت دواعي النفس في مراعاة الأسباب ، وتجردت عن دواعيها لدواعي الروح ، وصارت حينئذ مطمئنة ، أفاض الله عليها حينئذ أنوار الحقيقة ، وفَنِيَتْ بالله عما سواه . ولا تستعدُّ لذلك حتى يُمْحِنَها بالتأديب في عدم استجابتها في أهويتها ، ليظهر منها بَرْد الرضا والتسليم ، وهكذا جرت عادة الله ، وقد قال الله

سبحانه لسيدنا موسى لما أصابته العلة ، وترك التداوي منها الذي هو سبب برءها ، وطال به المرض فشكى إلى الله ، فقال تعالى : « تريد تُبطِل حكمتي بتوكلك عليَّ ؟ وعزتي وجلالي لا أبريك منها حتى تستعمل دواها » ، فاستعمله فطاب . وهذا مقام الكُمَّل أهل الصحو ، مطالبون بالأسباب .وأما أهل الفناء الغائبون عن الأسباب وتجردوا للحقيقة ، فتعمل معهم عملها من مرض وبراء وصحة وسقم ونحو ذلك ، وهم معذورون .

وقد قال سيدنا عبدالله بالنسبة إلى أهل البقاء والصحو ، إما في الفرق الأول أو الفرق الثاني : « **اعطوا المحن أحكامها ، فمن أعطاها أحكامها كانت المحنة عليه نعمة أو نعمتان** » ، وأحكامها أسبابها والصبر عليها ، فحينئذ تكون نعمة ، لأنها سبب ثواب نعمة ، فهذه نعمة ، وثواب الصبر عليها نعمة أخرى ، والصبر أيضاً حق الله عليك في المحنة ، كما أن حقه عليك الشكر في النعمة .

وقال الشيخ عبدالقادر رضي الله عنه في كتاب « فتوح الغيب » : « لا بد لكل مؤمن في سائر أحواله من ثلاثة أشياء : أمرٌ يمتثله ، وَنَهْيٌ يجتنبه وقَدَرٌ يرضى به ، فأقل حالة لا يخلو المؤمن فيها من هذه الأشياء الثلاثة ، فينبغي له أن يلزم همها قلبه ، وليحدث بها نفسه ، ويأخذ الجوارح بها في سائر أحواله». وقال الشيخ عبدالقادر رضي الله عنه : « لا تختر جلب النعماء ولا دفع البلوى ، فالنعماء واصلةٌ إليك إن كانت قسمتك ، استجلبتها أو كرهتها ، والبلوى حالَّةٌ بك إن كانت مقضية عليك سواء كرهتها ودفعتها عنك بالدعاء ، أو صبرت وتجلدت لرضا المولى ، بل تُسَلِّم في الكل ، فيفعل الفعل فيك ، فإن كانت النعماء ؛ فاشتغل بالشكر ، وإن كانت البلوى ؛ فاشتغل بالتضرع والصبر والموافقة والرضا والتنعم بها ، أو العدم والفناء فيها على قدر ما تُعطَى من الحالات . وتنقل فيها ، وتسير في المنازل في طريق المولى الذي أُمِرْتَ بطاعته ، والمولى يقطع بك الفيافي والمفاوز والبراري إلى المقامات، لتصل إلى الرفيق الأعلى ، فتقام حينئذ في مقام من تقدم ومضى من الصديقين والشهداء »، انتهى . وإنما جَرَّنا إلى نقل كل هذا قول سيدنا : « **هذه مسألة مهمة في الدين فاحفظوها** » ، فلذلك نقلنا بعد قوله قَوْلَ الأكابر فيها ، وأكبرهم سيدي عبدالقادر نفع الله به ، وكلامه فيها كاف عن كلام غيره هـ .

قال رضي الله عنه : « أهل الزمان ما يراعي أحدهم إلا نفسه فقط ، أعني نفسه الدنياوية ، لأن النفس نفسان : نَفْسٌ غذاؤها في لقاء الله ومحبته وذكره ومعرفته ، ونَفْسٌ غذاؤها في الأكل والشرب . فهذه التى أفرط أهل الزمان في مراعاتها » .

قال : « ينبغي أن يحترم الإنسان جانب الربوبية أولاً ، ثم جانب النبوة ، ثم جانب العلماء العاملين، ثم جانب أولياء الله ، لأنهم خاصته ، ولا يعترض على أحد ويخصصه ، والإمام الغزالي مع كثرة ما اعترض على علماء السوء لم يخصص أحداً بذِكْر » .

قال : « ينبغي للإنسان في هذا الزمان أن يسير إلى الله بلطف ، ويأخذ نفسه بالتي هي أحسن . ومن تبعه فهو منه ، ومن عصاه فإن هذا الزمان هو الذي ذُكِرَ في الحديث : آخر الزمان الذي على الانسان فيه بخويصة نفسه ، ولا عليه من غيره ، لأن الروابط قد ضعفت في هذا الزمان » .

قال : « من أتى بأذكار النوم عند المنام ، فتكلم بكلام أجنبي ، ينبغي أن يعيد : قل يا أيها الكافرون والإخلاص فقط ، لأنه ورد أن يأتي بهما آخراً ، فإن انتبه أثناء الليل ونيته العود إلى النوم يكفيه الأول ، فإن قام وليس نيته الإعادة إلى النوم ، ثم بدى له أن ينام ، يأتي منه بما تيسر ، ولم يَرِدْ في القيلولة شيء ، ولا بأس بيسير منه ولو لم يرد إذ ذاك ، فإن أوقاته ﷺ كانت محفوظة » .

ثم تكلم كثيراً ، ثم قال : « وأين ملبوسنا ومأكولنا وجميع أشيائنا من الأولين ؟ لكن الدائرة دائرة التوحيد تشملنا ، ولم يَرِدْ في شيء أن فيه النجاة من النار ، أو من مات عليه دخل الجنة سوى التوحيد » .

قال : « خروج الروح عند الموت من حيث سهولة خروجها وتعسره على قدر زهده في الدنيا وانزوائه عنها ، أو رغبته فيها وتعلقه بها ، فمن كان زاهداً فيها فارغ اليد منها ؛ سَهُلَ عليه خروج الروح، ومن كان مُحِبًّا لها وواجداً لها ؛ عَسُرَ عليه خروج الروح ، ويختلف أيضاً باختلافه قوةً وضعفاً . ومثاله كطيرٍ في قفصٍ ضَجِرَ من الحبس فيه ، فإذا فُتِحَ له القفص فَيَفِرّ منه مسرعاً ، إلا إنه إن لم يعوقه شيء ولم تَعْلَقْ رجلاه بشيء من داخل من حبل أو غيره ، واتسع له المخرج ، خرج بسرعة بلا مهلة ، وإن كان شيء مانع أو عائق عن الإسراع تعوق على قدر ذلك » .

أقول : الطير مثل للروح ، والقفص الذي فيه الطير مثل للجسم الذي فيه الروح ، وطيرانه مثل لخروجه من الجسم عند الموت ، والموانع مثل للتعلق بشيء من أمور الدنيا بقلبه ، من محبة مال أو جاه أو غير ذلك من أمورها ، فهو العائق للروح ، وبقدر تعوقه يتعذب ، لأنه يكون مشبوحاً بين الجاذب له إلى الطيران وهو داعي الموت المحتوم ، وإخراجه إلى ربه عند انقضاء أجله ونفاذ عمره المعلوم ، وبين ما تعلق به من تلك الأمور والأسباب ، فيتضرر ويتعذب بقدر تعلقه وميله إليها .

فلينظر في نفسه لو قَبَضَ يديه اثنان ، كلٌّ منهما يجرُّه إليه بقوة ، كيف يكون عذابه وتضرره ؟ فكذلك داعي الموت يجره إليه ، وداعي محبته لأمور الدنيا تجره إليه ، فيتعذب بقدر قوة الجاذِبَيْن ، ولا شك أن جاذب الموت قويٌّ لا يُسْتَطَاع الانفكاك منه ، فإن كان جاذب أمور الدنيا قوياً اشتد عليه ، وإن كان ضعيفاً كان أسهل ، ولو لم يكن له جاذب إلى الدنيا قط ، سهل عليه جاذب الموت جدًّا ، فانظر لو كان لك مال كثير في سفر ، فجاءك الخبر أن مالك ذهب ، كيف يكون ضرره في قلبك وتعبك عليه قلباً وقالباً ؟ فكذلك إذا مت وتركت مالك ، فبقدر تعبك في ذهابه ، يكون تعبك إذا مت وتركته ، فلا فرق بين أن يذهب عنك المال ويتركك ، أو تذهب أنت عنه وتتركه ، فإن لم تتعب على ذهابه عنك لزهدك فيه ، كذلك لا تتعب على ذهابك عنه وتركك له ، فالأمر في الأمرين بحسب حالك سواء لا يختلف ، إن كنت تتعب على ذهابه عنك فتتعب على ذهابك عنه ، وإلا فلا ، فالضرر أو عدمه حاصلٌ بحسب الحالَيْن فافهم .

فلا فرق بين أن يتركك المال ويذهب عنك ، أو تتركه وتذهب عنه ، فالأمر في الحالَيْن سواء ، فينبغي للإنسان أن ينظر في حال نفسه ويرحمها ، فلا أرحم له من نفسه . وأيضاً الضرر الأول أسهل في ذهاب المال عنك ، لأنه مُنقَضٍ بانقضاء الحياة ، وأما الضرر الآخر في ذهابه هو عنه ، فهو دائم معه، ولعل المعنى المذكور في محبة المال غير الضروري ، وهو رغبته في ما يضطر إليه في معاشه ومعاش من عليه مؤونته ، لأن هذا منقض بحياته ، ولما ورد في الهم به أنه يكفر من الذنوب ما لا تكفره الصلاة والزكاة والصوم والحج . وعن بعض السلف الصالحين أنه قال : « يحصل للإنسان عند موته على ماله مصيبتان ، ما سمع الأولون والآخرون بمثلهما . قيل له : ما هما ؟ قال : يؤخذ منه كله ، ويحاسب عنه كله » ، انتهى . وهذا من غير نظرٍ إلى كونه زاهداً أو راغباً ، فإن هذا الأمر واقعٌ على مجرد وجود المال ، فإنه على أي الحالين كان تاركٌ له ومحاسَبٌ عليه ، فالويل له إن كان فيه درهم حرام أو مشبوه ، فَعَرَفْتَ أن السلامة منه هي الربح والغنيمة ، وقد كان عمر بن عبدالعزيز رضي الله عنه يتمثل كثيراً بهذا البيت :

حَلَالُهَا حَسْرَةٌ يُفْضِي إِلى نَدَمٍ وَفِي المَحَارِمِ مِنْهَا السُّمُّ مَذْرُورُ

قال : « **والعمدة على اجتماع الأرواح ، وبالأبدان يكون الاجتماع في الدنيا ، وبالأرواح يكون الاجتماع في الآخرة ، ولا عبرة باجتماع الأبدان مع مفارقة الأرواح** » ، وقد تقدم هذا واستحسنا إعادته هنا لمناسبةٍ للكلام هنا ، ليتقوى به المعنى ، كما يُستدل بكلام من قد مضى على كلامٍ يناسبه .

وسمعته غير مرة يقول : « **طريقتنا نحن طريقة مظلمة** » ، ومرة قال : « **طريقتنا هذه طريقة الإمامة، وهي طريقة مظلمة ينبغي للمتعلق بنا أن لا يسأل عن شيء أو يقول في نفسه : الصواب خلاف هذا . بل يُسَلِّم ويَسكُت ويكون كالأعمى الذي يقوده بصير** - أو قال : **كالأعمى في يد البصير** - **أو كمن في ظُلمَةٍ وماسِكُه من يعرف الطريق ، وهو لا يعرفها ، فلا يقول له : تعال من هنا ، أو ارجع إلى هنا ، أو الطريق من هنا** » .

أقول : وأخبرني بعض الجماعة الملازمين في مجالسه ، وهو السيد محمد بن شيخ الجفري قال : « إن الحبيب عبدالله تكلم علينا يوماً بهذا الكلام وما يتعلق به سابقاً - يعني قبل وصولي إلى حضرته - ، قال : من بعد صلاة الصبح إلى طلوع الشمس ، قال : وتركنا قراءة الحزب لاشتغالنا بسماع ما يقول » .

قال : وبكى الحاضرون الذين سمعوا كلامه بكاءً شديداً » ، قال : ثم قال لي : « **إنما المقصود بهذا الكلام أنتَ** » ، يعني المخبِر لي السيد محمد المذكور ، وفلان رجل آخر من جماعته الملازمين ، وهو صهره السيد زين الحبشي . قال : فاشتدَّ ذلك علينا وبكينا ، فلما رآنا كذلك جعل يمدحنا ويُسَكِّن خواطرنا ، وقال : « **إنما نحن ننتظر بركاتكم** » .

أقول : وهذه عادته نفع الله به إذا تكلم على أحد بكلام ، واشتغل من كلامه ، أنه يرجع له بكلامٍ آخر يُطَيِّب به خاطره ويترضاه ويترقاه - أي يعالجه أن يرضى - كما في قصة هؤلاء الجماعة ، وقد أخبر نفع الله به غير مرة عن نفسه بذلك ، فقال : « **من عادتنا أنَّا إذا تكلمنا على أحدٍ بكلام ، وحَسِّيناه حنق منه ؛ ترضّيناه وطيَّبنا خاطره** » ، ثم قال : « **وكان عندنا خادم ، كلما أَزْعَلنَا وَزَعِلْنَا عليه وتكلمنا عليه بكلام أزعله وحسِّينا منه الزعل ؛ أعطيناه شيئاً ليرضى ويزول عنا الزعل عليه ، فيقول** - أي ذلك الخادم - : **لَيتَهُ يزعل عليَّ كل حين ويعطيني شيئاً** » .

ورأيتُ أنا منه ذلك معي ومع غيري ، فمرةً أول قدومي عليه ، وكان يشتبه عليَّ كلامهم ، قبل أن أتدرب فيه وأتطبع عليه ، فتكلم لي بكلامٍ وما فهمتُه ، وفهمتُ منه غير المعنى الذي أراد ، وتكلمتُ بمقتضى المعنى الذي فهمته من كلامه ، فَظن أني مُعَانِدٌ لكلامه ، فقال لي : « **أنتَ صَدٌّ** » ، أي معاند ومخالف . فشوَّشَتْ عليَّ هذه الكلمة منه ، حتى إني بكيت وحسَّ ببكائي ، فعرف أني ما تعمدت مخالفة كلامه ، وإنما هو على ما فهمت ، فعذرني وترضاني . فلما ظهر لي معنى كلامه ، اعتذرتُ منه وطلبتُ منه العفو ، فقال : « **أنت معذور ، ولا يقع في بالك أنَّا نزعل عليك** » ، ومرة قال لي في مثل هذه المادة : « **أنت والعيال لا نرى عليكم** » ، أي لا نلومكم في أمر .

وكان ذلك عشية يومٍ بعد فراغه من الدرس ، وكان يعتاد يجلس في أيام الصيف على دكة شرقي

البيت على طرف البستان بقرب النخيل ، فإذا جلس طلبني إما أطالع عليه في كتاب ، وفي وقت الرُّطَب يأمرني أبسق من النخل وأناوله الرُّطَب ، فيعطيني منه ويُقَسِّم على من حضر من الولدان والعيال ، ويأكل منه نحو سبع رطبات . وكان كلامه هذا عشية يوم الأربعاء ٢٨ رجب سنة ١١١٨ ، قبل وفاته بأربعة عشر سنة ونحو أربعة أشهر .

ثم لما فرغنا من حزب صبح يوم تلك الليلة ، ودخلت معه الضيقة - أي الدهليز - ماسكاً بيدي، وهذه عادته إلى أن مرض مرض موته ، فلما دخلنا قال لي : « **تعال يا حاج أشوف رأسك** » ، فنزع كوفيته من رأسه ، ثم رفع كوفيتي من رأسي ، ثم مسح رأسي ثلاثاً ، ثم وضع كوفيته على رأسي وقال: « **ألبسناك ، ألبسناك ، ألبسناك الخرقة** » ، هكذا ثلاث مرات .

وكان ذلك صبح يوم الخميس بعد ختم القرآن ، فطاب خاطري بذلك كثيراً ، ثم فهمت معنى كلامه ذلك وأخبرته به ، قال : « **نعم** » ، وكان هذا ثاني إلباس ، ثم إلى تمام ٢٨ إلباسٌ بعده هـ .

قال رضي الله عنه في قول صاحب الإحياء : « من لم يكن له شيخٌ يهديه ؛ قاده الشيطان إلى طرقه » ، *ثم قال* : « **لأن أسرار الطريقة أَمْرٌ غامضٌ جداً ، لا يطَّلع عليه الذكي ، لأنه يرجع إلى العقائد، وقد يدرك الذكي شيئاً من خفي ظاهر الشريعة ، وباطن الطريقة لا يطَّلع عليه إلا الشيخ ، وقد كان الإمام الغزالي في أيام سلوكه يسأل في طريق السلوك ، وقد كان معه ذكاء مفرط** » هـ .

أقول : قوله : « **لا يطَّلع عليه إلا الشيخ** » ، يعني لأنه قد سَلَكَها وعَرَفَها ، بتعريف شيخه له بها، فالشيخ أعرف بحقيقتها من غيره ، ولذلك قال سيدنا : « **طريقتنا** - أي طريقة الخواص - **طريقة مظلمة** » ، يعني لا يهتدي إليها العقل ، ولو كان واسع العلم ، كما لا يهتدي الأعمى في الطرق الحسية التي لم يمارسها ولم يعرفها ، ولذلك قال - أعني سيدنا - : « **إن طريق الصوفية لا تكاد تُصَدَّق بها العقول ، ولا تدخل في العقل ، فلو قيل : إن إنساناً يمكث أشهراً عن الأكل ، كيف يدخل هذا في العقل ؟** » ، انتهى . ويكفيك أن الامام الغزالي مع شدة ذكائه ورزانة عقله كان يسأل فيها ، أي يسأل عن كيفية سلوكه وما يعمله ، وما كفاه ذلك عن الشيخ حتى اتخذ شيخاً ، وبقي في تربيته وامتثال أوامره ، ولذلك قال المقالة المتقدمة ، وهي قوله : « **يجب على من أراد الدخول في الطريق الخاصة أن يتفرغ عن الدنيا بقلبه وقالبه** .. » إلى آخره .

وهذا ليس في طاقة البشر ، بل بموهبة من الله ، فتعرف أن أمور تلك الطريقة كلها مواهب ليست مكاسب ، إنما المكاسب أحكام الشريعة ، ولهذا كُلِّفوا بها لأنها في طاقتهم ، كما قال الله سبحانه :﴿لَا

يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، ولكن إذا منَّ الله على العبد ووهب له نصيباً من ذلك السر الذي أوتيه سيدنا أبوبكر ، انتهض للعمل بمقتضاه مما هو وراء الطاقة البشرية ، على قانون الشريعة الإلهية، إلى أن يصل إلى الحقيقة ، وهو الذي تقدم من قوله : « **لا يصل إليها إلا بموافقة الشريعة ولو عاش عمر نوح** » هـ .

قال : « **من الناس من أعطاه الله كمال الروح ، وهو الذي عليه العمل ، ومنهم من أعطاه الله كمال الجسم فقط ، وهذا ناقص ، ومنهم من جمع الله له كمال الروح والجسم ، وهو النهاية والغاية . وذلك لأن الله أراد أن يَعْمُرَ بهم مراتب الوجود وكَثَّرَ أهل الأجسام لعمارة الدنيا بهم ، ولا يتم الكمالان إلا لمن أهله الله لإرشاد الخلق ، وجعله داعياً إليه ، ولذلك لا يحصل إلا للآحاد من الناس** » هـ .

أقول : مراده بمن « **أعطاه الله كمال الروح** » ، يعني من غلب فيه وعليه دواعي الروح ، من الرغبة في ما يرضي الله ، والتلذذ بالذكر والعبادة ، على دواعي النفس الطالبة لمنافع الجسم ، الخادمة له في طلب ما ينفعه وهو الشهوة ، ودفع مضارِّه وهو الغضب ، التابعة لمصالحه من التلذذ بالأكل ، وما هو مجرد نفع الدنيا ، كما تقدم وصفه وانقادت له . وهذا مراده بكمال الجسم ، ولهذا قال فيه : « **وهذا ناقص**» ، وقال في الأول الذي أعطاه الله كمال الروح : « **وهو الذي عليه العمل** » . وقال في الذي جمع الله له بين كمال الروح والجسم : « **هو النهاية والغاية** » ، يعني إذا انقادت له النفس - أي للروح - وصارت دواعيها منطوية في دواعيه ، فلا تختار غير ما يختار ، ولا تطلب غير ما يطلب ، وذلك هو الذي اجتمع له الكمالان .

ومثله هم الذين « **أراد الله أن يعمر بهم مراتب الوجود** » ، بأن يعطوا كُلًّا حقه من الشريعة ، فيقومون بها على أكمل وجوهها ، ومن الحقيقة فيقوموا بها على أكمل وجوهها ، وهذا الذي قام بالعهد الذي أخذ الله على الروح ، حين أنزله إلى الجسم ، أن لا يتابع النفس في مجرد أهويتها ، بل أن يكون في عون الروح على مطلوبه ، وهذا هو المقصود من خلقهما وجمعهما في البدن ، ليقوم هو بالعبادة، وتقوم هي بإقامة البدن ، فيحصل منهما ما خُلِقَا له ، كما قال الله تعالى :﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، والروح هو المعْنِيُّ بالعبادة ، والجسم هو الحامل له ، فلا يتم عمل الروح إلا مع الجسم، ولا يستقيم جسمٌ إلا بروح ، فيتم عمله المطلوب منه إن ساعدته النفس خادمة الجسم ، هذا إن ساعدته ، وإن خالفته وجَرَّتْهُ إلى مطلوبها وانقاد لها ، وقعا في خلاف العبادة وهو المعصية .

ولأجل هذين الحالَيْن أعد الله لهما الجنة والنار ، إذا قام الروح بالعبادة وساعدته النفس داعية الجسم ؛ استحق الجنة بإرادة الله ، وإن خالفا هذا المقصود من العبادة والمساعدة عليها ؛ استحقا النار

بإرادة الله ، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾، فالروح هو المعني بالعبادة ، ولا تقوم إلا في جسم، ولا يقوم الجسم إلا بخدمة النفس ، فهذان مراتب الوجود ، الأجسام الظاهرة وعليها القيام بأحكام الشريعة الظاهرة ، والأرواح الباطنة وعليها القيام بأحكام الحقيقة الباطنة . فهما مراتب الوجود ولا يتم عمارتهما إلا بصلاح الروح والجسد ، ولا يَصْلُح الجسد إلا بصلاح الروح ، وهو المضغة ، وتسمى القلب ، باعتبار التي ورد في الحديث : « إذا صلحت صلح الجسد ، واذا فسدت فسد الجسد » ، وفسادهما باختلاف دواعيهما عن داعي الروح إلى داعي الجسد ، وصلاحهما باتفاقهما، فافهم .

ومن أعطاه الله داعي الجسم وصار هو الغالب على الداعي الأكثر ، وهم أكثر من خلق الله ، وأَكْثَرَ منهم لِيَعْمُرَ بهم الدنيا ، لأن بعمارتها يعتمر الدين ، وبخرابها يخرب الدين . وجمع الكمالَيْن من تَجَرُّدِ داعي الروح عن داعي الجسم لقليلٍ من الخواص من الناس ، ممن جعلهم الله أهلاً لإرشاد الخلق إلى الله ، من خواص عباد الله ، والدعاة إلى الله ، نفعنا الله بهم في الدارين .

وذلك هو وأمثاله ، وإنما رتب عمارة الدين على عمارة الدنيا ، وذهابه بذهابها ، لأنها إنما جُعِلَت بلاغاً للبدن ، وجُعِلَت الروح في البدن فيتم بهما جميعاً عمارة الدين مدة الحياة ، فغلط الناس لما غلب عليهم دواعي الجسم ، الذي هو النفس ، وظنوا أن الدنيا هي المقصودة بالذات ، فتركوا الأصل المقصود من جمعهما ، واجتهدوا في طلب الآلة الـمُبَلِّغَة ، كمن أخذ دابَّةً لِيَحُجَّ عليها ، فاشتغل بعلفها والقيام عليها ، وترك الحج الذي أريدت الدابة لأجله ، فهذا مِن أخسَرِ خلق الله .

ومثله من اشتغل بمصالح الجسم ، من منافعه الدنيوية مما تدعو لها النفس ، وترك المصالح النافعة عند الله في الآخرة ، وهو ما يدعو إليه الروح ، وهذا الذي أُعطِيَ قوة الجسم – أي قويت فيه – وغلبت عليه دواعي الجسم الدنيوية ، والآخر الذي أُعطِيَ قوة الروح – أي قويت فيه – وغلبت عليه مطالب الروح ، فهو الذي أعطاه الله كمال الروح وكمال الجسم ، على ما أفهمناك ، فهو الذي جمع الله له بين الكمالَيْن ، كمال دواعي الخير وانطوت فيه معها مطالب النفس بكمال الغِنَى بالقلب ، وهو الزهد، وكمال غنى اليد بالجِدَة ، مع تجرد دواعي الروح ، فهو الكمالان – كمال الروح وكمال الجسم الذي أشار إليه – فحينئذ لا يهمه إلا ما يقربه إلى الله ، مع تمكنه من ذلك بالغنائَيْن : غنى القلب وغنى اليد ، ثم البواعث الجاذبة إلى ذلك ، مع معرفة القانون الذي يسير عليه وجرى عليه مريد الغِنَى ، مع إرادة الله سعادته ، فقبل الله أعماله ، فنفى عنها العوارض المبطلة لها من رياء وعجب وغير ذلك ، وختم له بحسن الخاتمة فهو السعيد حقًّا .

وليس يُحَصِّل كل ذلك من كل هذه الوجوه إلا لمن أَهَّله الله للدعاء إليه ، وهو الذي أُعطِيَ الكمالان من قوة الروح وقوة الجسم ، مع السير على القانون ، بشرط إرادة الله سعادته ، وإلا فلا نَفْعَ بدون

الإرادة الإلهية لعابدٍ ولا لعالمٍ ، فلا نَفَعَ إبليس طول عبادته ثمانين ألف سنة ، ولا نَفَعَ بلعام بلعام عِلْمُه، وقد كان يرى اللوح المحفوظ وينظر ما فيه ، فأبطل عبادة إبليس التكَبُّر عن السجود لآدم ، حين ركَّب الله فيه نور نبينا محمد ﷺ ، وأبطل منزلة بلعام عند الله رغبتُه في الدنيا ، لقول الله تعالى : ﴿أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ﴾، يعني مال إلى الدنيا واتبع هوى نفسه في شهوته لها .

فكان التكبر واتباع هوى النفس هما أصل المعاصي والخذلان من الله ، وإنما وقعا فيما وقعا فيه بتعاطي سببه بإرادة الله لهما ذلك ، حتى لا يغتَرَّ أحدٌ بكثرة عبادةٍ ولا بكمال عِلْمٍ ، فيبقى كثير العبادة وكثير العلم شديد الخوف من الله أن يجعله مثلهما ، فينبغي أن يكون أشد من غيره .

وليعتمد كل أحد على فضل ربه دون شيء غيره ، ومن أراد الله سعادته شَغَلَهُ به عن من سواه وعن ما سواه ، فلا يُشغِله بكَدٍّ لمعاشٍ ، ولا يهمه باتباع هوى مجرد وحصل له من الله كمال الايمان المطلوب بشغله بما ينفعه في دينه ، ودعوة الناس إلى ما ينفعهم في دينهم ودنياهم ، وصار هواه تبعاً لما جاء به رسول الله ﷺ ، فهذا هو كمال الايمان ، حيث قال عليه السلام : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جِئتُ به » ، أي لا يؤمن إيماناً كاملاً حتى يكون كذلك ، ولا يكون كذلك حتى تنطوي فيه دواعي النفس في دواعي الروح ، فافهم . وافهم الداعِيَيْن من قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ﴾، فهذه مطالب النفس ، كما فعل بلعام وإبليس ومن تبعهما من عتاة بني آدم، وقوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِيَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾، وهذه مطالب الروح كما هي سيرة الصالحين . فَدَلَّت الآيتان وما جرى على الشقِيَّيْن المذكورَيْن أن يختم لكل أحدٍ بما أراد الله له من سعادة أو شقاوة. ولا بد أن يموت على ما عاش عليه في الغالب ، وفي النادر من الخلق أن يعمل بخلاف وضد عمله الذي كان عليه ، فيختم له به ويموت عليه ، ولا يموت على مجرد عمله الذي كان عليه إذا أراد الله له خلاف ما يقتضيه عمله هـ .

قال رضي الله عنه : « يكفي الانسان بعد الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ذِكْرُ الوعد والوعيد عن الخوض في مسألة القضاء والقدر ، لأن فيها إشكالاً قوياً لا يَنْحَلُّ إلى يوم القيامة » ، ومرة قال : « لا ينجلي أو لا ينحل معناها إلا يوم القيامة ، وكل من تكلم في حلها زادها إشكالاً ، فلا مطمع في حلها » هـ .

أقول : تقدم الكلام في هذه المسألة على معناها المذكور غير مرة ، وذكرنا أنها أشكلت على أناس من أكابر أولي العزم من المرسلين كموسى وعيسى ، وأنهم سألوا الله عنها ، فما أجابهم عنها بشيء سوى أن قال لكل واحد في جوابه : « لا أسأل عما أفعل » ، وأن جوابهم بَيَّنَهُ الله في هذه الآية : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ﴾.. إلى آخر الآية ، وبَيَّنَهُ في حديث : « اعملوا فكُلٌّ مُيَسَّرٌ لما خُلِقَ له » ، وبَيَّنَ المعنى سيدنا في مقالته المتقدمة : « الخلق مكلوفون لما خُلِقُوا له ، لأن الحقَّ أرادَ بهم وأرادَ منهم ، فالسعيدُ من وافَقَ ما أراد به الحقُّ وأراد منه ، والشقيُّ من اختلفت به الأمور » ، وإنه لشدة اعتناء سيدنا بفهم معناها قال لي : « إحْفَظْ هذه الحكمة إن كُنتَ حافظاً » هـ .

قال : « لو أَدْرَكْنا ناساً يرغبون في العلم ، لجَعَلْنا واحداً يقرأ فقط ، ونتكلم معه ونملي عليه ، والبقية يستمعون ، لكن هؤلاء ما بغوا إلا كثرة قراءة ، ولا بالَوا ، فَهِمُوا شيئاً أم لا ، وأنا يعسر عليَّ إخراج الكلام ولا أسخى به . وقد كانوا إذا حضر أحدهم مجلس علم يتفقد نفسه ، ويقول : ماذا حصَّلتُ من علمٍ أو من زهدٍ في الدنيا ؟ وأمْرُ القراءة والكلام إنما هو إلى العالِم ، والبقية يحفظون ويكتبون ، على أن بعضهم كان يغضب من الكتابة ويقول : لا ، بل احفظوا كما حَفِظْنا » .

قال : « لا أعسر عليَّ من الطعام والكلام ، فإن الكلام مُشِقٌّ عَلَيَّ جداً ، إلا إني أستذكر به ما معنا من العلوم ، لا فائدة فيه إلا ذلك ، وذلك بسبب قلة مخالطتي للناس ، ولا نجلس معهم إلا أوقاتاً متقاربة ، لو جُمِعَتْ كلها ما بلغت ساعتين ، وغالب جلوسي إنما هو وحدي ، ولو أنَّا نجلس مع العيال والصغار في الدار ، وأوقاتاً مع الجماعة ، كل ذلك لا يبلغ أكثر من نحو ما ذكر » .

قال : « هذا آخر الزمان ، والناس اليوم في دهليز القيامة ، إلا إنه سبحانه تفرد بعلمها ، والناس اليوم في علاماتها » هـ .

أقول : قد تكرر منه الكلام في هذا وفيما هو في معناه كثيراً ، في مجالس متفرقة في أوقات متعددة ، وهذا شأن الأكابر في الأزمان ، كلٌّ منهم يقول أن زمانه أشر الأزمنة ، مما يرى فيه من الحوادث مما لم تكن فيما قبله ، كما قال الشاطبي :

وَهَـذَا زَمَـانُ الصَّـبْرِ مَـنْ لَـكَ بِالَّتِي كَقَبْـضٍ عَـلَى جَمْـرٍ فَتَنْجُـو مِـنَ البَـلَا

وقيل :

كُلُّ مَـنْ لاقَيْـتُ يَشْـكُو دَهْرَهُ لَيْـتَ شِـعْرِي هَـذِهِ الدُّنْيَـا لمن

فكذلك سيدنا يذكر زمانه ويذم أهله ، بنقصانهم عن حال من قبلهم في النيات والأعمال والأحوال، من جملة الاختلاف أن غنيَّ تلك الأزمان يَتَقَصَّى عن حال فقيره ، إن رأى منه عوزاً في معيشة أو حاجة؛ واساه وأعانه على حاجته ، وفي هذا الزمان لا يسأل الغنيُّ عن حال جاره الفقير ، ولو علم منه أنه بات مع عياله طاويين لا يواسيهم ، ولو أنه يبيع الزاد لا يسلفه عشاء لعياله ، ولا يصبر عليه في ثمنه .

ومراد سيدنا : أنَّ من دخل الدهليز فقد دخل الدار ، ومن حضر العلامات فكما حضر قيام الساعة، فإن الله ورسوله وعد أنها لا تقوم إلا على شرار الخلق ، فهذه كما ترى صارت طبائعهم أشر طبائع الخلق ، فجميع ما ترى اليوم مما يستنكر ، فلا تستنكره ، فإنه من علاماتها ، ومن ذلك الشُّحُّ القبيح المفْرِط الشديد في نفوس الناس ، حتى صار أطيبهم وأجلَّهم من يوعد ويكذب ، ولا يؤدون حقًّا وجب ، ويحتالون فيما يحتجُّون به مما يبطل حقاً لازماً ، أو يجيز بباطلٍ شيئاً .

فبطلوا أثلاث الموتى ، وأسقطوا الزكوات والنذور الواجبات ، فكل ذلك وأمثاله من قطيعة الأرحام ، وعدم تفقد الأيتام والمنقطعين ، وعدم الرحمة للفقير والمسكين ، فكله من علامات الساعة، وإن كان منكراً فلا تستنكره ، فكيف يُستَنكَر ذلك وقد وعد الله به على لسان نبيه حيث قال : « لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق » . فهذه صفات شرار الخلق ، وإن رأيتها في علماء وشرفاء ، وكلما لها تزيد في صدور الناس ، حتى تبلغ غايتها وحَدَّها ، فلا تبلغه إلا حين حان قيامها . وتقدم من قول بعضهم في قوله تعالى : ﴿لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً﴾، أنه إذا جرى الدهر على حساب ﴿بَغْتَةً﴾، قامت القيامة وذلك ١٤٠٧ .

وذكر في « الإشاعة في علامات الساعة » ، عن الحسن بن علي رضي الله عنهما من علامات قرب الساعة أن تكون ليلة النصف من شعبان هي ليلة النصف من آذار ، وذلك يقع سنة ١١٧٤ . ونقل المناوي في شرحه الكبير على الجامع الصغير ، أن باب مدينة العلم علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، قال : « إذا نَفَدَ الزمان عدد حروف بسم الله الرحمن الرحيم ، يكون أوان ولادة المهدي ، الذي هو أكبر علامات الساعة ، وعدد حروفها بفك الرَّائَيْن المدعمين : ألف ومائة وست وثمانون » . وعن الامام جعفر الصادق قال : « اجتماع الناس ومبايعتهم له سنة ١٢٠٤ » . قال السيوطي في « الكشف » : إن المهدي يُبعث وعمره أربعون سنة ، ويمكث بعدها أربعين سنة ، ومولده في المدينة ، وهو من أشراط الساعة العظام ، والأمارات القريبة منها التي تعقبها الساعة ، وهو أولها ، أي أول العظام .

أقول : وإذا كانت الصفات الفاسدة من أحوال الناس في الأزمنة المتأخرة ، فانظر ما ذُكِرَ في صفات المهدي أنه يبيد الظلم وينفخ الروح في الاسلام ، يمسي الرجل في زمانه جاهلاً بخيلاً جباناً ، فيصبح عالماً كريماً شجاعاً ، يضع الجزية ، ويدعو إلى الله بالسيف ، فمن أبى قُتِل ، ومن نازعه خُذِل ، يُظهِر من الدين ما لو حضره رسول الله ﷺ لأقَرَّهُ ، يبايعه العارفون بالله عن شهودٍ وكَشْفٍ ، يسري عدله في الإنس والجان ، ويُطْلِعُه الله على الأحكام الشرعية التي بَيَّنَها لنبيه .

فاعْرِفْ بهذا أن صلاح الناس وفسادهم بصلاح ملوكهم وفسادهم ، وبحسبهم يكونون صُلَّاحاً وفُسَّاداً ، فإن الملك كالسوق ، يجلب إليه ما ينفق فيه ، فإن كان يحب الخير نقل الناس له أمور الخير، ومن عمل الخير فانتشر واشتهر وتقربوا إليه بفعله ، وإن كان يحب الشر والظلم نقل إليه ذلك وحببوه إليه وأشاروا عليه به ، واشتهر عنه ذلك وعرف به ورعيته . فانظر ما تسمع من سيرة عمر بن عبدالعزيز، حتى إنه أشير عليه بأخذ مال ميت كثير المال ، وليس له إلا ولد واحد ، وقيل له : « لو جعلته في بيت المال » ، فهذا من أشوار المفسدين ، فقال : « الميت رحمه الله ، والمال ثمرة الله ، واليتيم جبره الله » ، وما أطاع هذا المشير الفاسد ، حتى صار من عدله يرعى الغنم مع الذئاب .

وانظر ما يُذكَر عن بني عمه عبدالملك الأربعة من الظلم والفساد ، وانظر الفرق بين الناس في وقته وفي أوقاتهم ، حتى قال واحد من أهل وقته : « كان يهمنا في وقت عمر الصلاة وقراءة القرآن وكان هذا هو هَمُّهُ ، وفي وقت سليمان يهمنا كثرة الأكل ، وكان هذا هو همه » ، حتى كان كما نُقِلَ عنه أنه يأكل الأربعين الدجاجة والمائة بيضة ، وكان يَهُمُّ إخوانه الظلم ، والناس في أوقاتهم نحو ذلك هـ .

وضرب سيدنا مثلاً لدعاء أهل الزمان إلى الخير ، وأنهم لا يجبون من دعا إليه ، **فقال : « أهل الزمان كمثل نائم غَلَبَ عليه النوم ، فَتُنَبِّهه ليقوم للصلاة ، وتَجُرّ برجله ثم يخالفك وينام ، فإن كان نومه إلى مدة قليلة كان أشكل ممن نومه إلى الموت ، ثم ينتبه حينئذ ، وكلٌّ ينتبه إذ ذاك »** .

وسمعته غير مرة يقول : **« لا عاد عمدة في ذا الوقت إلا على المقادير فقط ، لأنا نرى التدابير والسعي ما تنفع ، ولا تُبَلِّغ الانسان ما أراده »** ، وتقدم قوله : **« جَلَسْنا للناس مجالس ، وقرأنا لهم كتباً، وما جئنا منهم بشيء ، فعسى الله أن يعوض عنها خيراً ، وما نحن مع أهل الزمان إلا إن كان بالعناية ، وأما الأسباب فقد فعلنا منها ما أمكن ، ولا جئنا منها بشيء »** .

ثم ذكر قصة سارق آل باكثير ، وذلك : **« أن سارقاً دخل بيت رجل من آل باكثير ليلاً ، وكانوا**

معروفين بشدة الفقر المدقع ، فجعل يدور في البيت من دارٍ إلى دار ، فما وجد شيئاً يسرقه ، فدعا بالسارق وجعل يضحك منه . وقال له : نحن أعرف ببيتنا منك ، ودَوَّرنا فيه بالنهار فما وجدنا فيه شيئاً ، وأنت جئت ألّا تدوِّر بالليل ، فما أجهلك . فقال السارق له : فأسحقكم الله ، فما جلوسكم في هذه الخرابة ؟ » ، تمت القصة ، وقد سمعتُها من سيدنا مراراً بهذا اللفظ .

فهذا الكلام من سيدنا ونحوه في أوقات إذا غلبت عليه الحقيقة ، وغاب عن الأسباب بمسبب الأسباب ، والأسباب هي مراعاة الشريعة ، فإذا رأى الناس اليوم متعطلين منها ؛ رَجَعَ إلى الحقيقة ، وأن هذا أمر أراده الله ، ولله سبحانه فيه مراد ، وغلب عليه التسليم لتقدير العزيز العليم ، وفيه معنى مما تَعَجَّبَ منه موسى وعيسى على ما قدمنا ، فلم يَشْهَدْ حينئذ إلا فِعْله ، ولا ينحصر فِعْلُه سبحانه في سبب ، ولا يتوقف على حصول سببٍ ودفع مانعٍ ، بل بالإرادة منه ، وربما علَّقَه على ذلك ، وإن لم يعلقه به لا تفيد فيه وجود الأسباب وصرف الموانع .

وفي أوقاتٍ أُخَر يغلب عليه لسان الشريعة ومراعاة الأسباب ، فيقول كما تقدم : « لا تعتمد على المقادير وتتعطل » ، وقال : « لا تترك الأسباب وتحتج بالقضاء والقدر » ، وقال : « الاحتجاج بالقضاء والقدر مع المعصية ، معصيةٌ أكبر من الأولى » ، وما في معنى ذلك كما تكرر في هذا كثير من كلامه في الحالتين جميعاً . وتُسَمَّى تلك الأولى عندهم : حالة الجمْع ، وهي حيث تغلب عليهم الحقيقة ، فلا يرون ولا ينظرون إلا إلى الله وأفعاله . وفي الحالة الثانية : حالة الفرْق ، ينظرون إلى حكمة الله التي هي مراعاة الأسباب وأحكام الشريعة ، وتكون على ظاهرهم ، والحقيقة في باطنهم .

ويشبه حال سيدنا وكلامه في الحالتين ، حال سيدنا النبي زكريا ، كما حكى الله عنه ، ففي الأولى حين غلبت عليه الحقيقة سأل الولد مع تخلف الأسباب وحصول الموانع ، ولم يلتفت إلى مراعاة ذلك، كما ذَكَرَ مِن وَهَنِ عَظْمِه ، واشتعال رأسه شيباً وبلوغه من الكِبَرِ عِتِيًّا ، وعَقر امرأته، ولا نَظَرَ إلى هذه الموانع وتَخَلُّف الأسباب ، وإنما غلب عليه النظر إلى الإرادة الإلهية التي قال الله تعالى : ﴿ إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾، ولا عَلَّقَ ذلك بحصول أسبابٍ ودفع موانع ، وبَشَّره ربُّه سبحانه بالولد مع ذلك ، وفي الحالة الأخيرة لمَّا بَرَدَ خاطرُه بالبشارة عن طلب الولد، جعل ينظر إلى مراعاة الأسباب وصَرْفِ الموانع ، فتعجَّبَ من حصوله مع ذلك ، فقال : ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ ﴾.. إلى آخر ما ذكر ، وما نظر إلى ذلك أَوَّلاً ، ونظر إليه آخراً .

فكذلك أكابر الأولياء ، لهم حالتان : حالة الجمْع : لا يرون الأسباب ، بل أرواحهم متعلقة بمسبب الأسباب القادر الوهاب . وحالة الفرْق : ينظرون إلى الأسباب لمطالبة نفوسهم وغيرهم بالعمل ، امتثالاً من العبد لأمر سيده ، وإثباتاً لحكمته ، كما جاء أنه كان في بني اسرائيل عِلَّةٌ تُعاودُهم،

ولها دواءٌ معلوم عندهم ، فمن أصابته تداوى منها بذلك الدواء ، فأصابت سيدنا موسى ولم يتداوى به، وقال : « الذي ابتلاني بها يبرئني منها » ، فطالت به العلة ، فشكى إلى الله تضرره بها ، فأوحى الله إليه: « وعزتي وجلالي لا شَفَيْتُكَ منها حتى تتداوى بما يتداوون به ، تريد تبطل حكمتي بتوكلك عليَّ؟»، فتداوى به فبريء .

فإذا ثبت أن مراعاة الأسباب هي حكمة الله وشريعته التي اقتضتها إرادته الأزلية ، وأن من اتبعها فهو السعيد الذي وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، وأنها امتثالاً من العبد لأمر سيده الذي اقتضاه إرادتاه الأزلية والشرعية ، كما أشارت إليه حكمة سيدنا المتقدمة ، فوجب اتباعه لكافة الخلق ، الخصوص منهم والعموم ، وأنْ يكونوا راضين بكل ما منه إليهم ، مما يرضي النفس أو يغضبها ، وأنَّ هذا مقام الأبرار أصحاب اليمين ، مقام أهل الصبر ، وإن اشتغل عنها الخصوص في حالة الجمع ، وهم أهل مقام الرضا المشغولون بالله وغيبهم به عما سواه ، وهم حينئذ انتفى عنهم الاختيار المتعلق به التكليف، وقام لهم العذر عند الله .

والجمع في الحالتين أن تعمل بالشريعة ظاهراً ، وهي فعل أسباب الخير وترك أسباب الشر ، وتعتمد بقلبك على ربك في حصول الغرض المطلوب ، من فعل أسباب الخير ومن ترك أسباب الشر، وما ينفع في الدنيا والآخرة ، والسلامة مما يضر في الدارين ، وتعتقد أن لا يكون شيء إلا ما قدَّره الله وأراده ، سواء تعلق بسبب أو لم يتعلق به ، فهذا هو الجمع بين الشريعة والحقيقة . ولا يكون الإنسان كاملاً عند الله وعند خلقه وفي الدنيا والآخرة إلا بذلك ، فلا بد له منه ، فإن الشريعة جسمٌ ، لأنَّ عملها على ظاهر الجسم ، والحقيقة روحٌ باطنة ، لأنَّ عملها في الباطن ، فلا يستقيم الجسم إلا بروح ، وإلا كان ميتاً لا نفع فيه ، ولا يستقيم الروح إلا في جسم ، وإلا لا يعلم بها ولا يتوجه إليها خطاب ، ولا اجتمعت حقيقة وشريعة إلا باجتماع روح مع جسم .

وقد جربت الأسباب كثيراً فما أفادت ولا نفعت في حصول الغرض ، فإذا حصل في وقتٍ أمرٌ بسبب ، فاعلم أن ذلك بمجرد إرادة الله وقضاه وتقديره فقط وكَتْبَته ، وفي هذه المرة وافق فيها السبب ، وإلا فلا سبب ولا وسيلة تنفع إلا بالارادة من الله سبحانه لذلك ، لا غير ذلك من سبب ، فإذا أراد الله أمراً قضاه - أي حكم بوقوعه وكتبه في اللوح المحفوظ - أقدره - أي خصصه - بوقتٍ وصفةٍ ، وهيأ له سبباً ، فإذا لم يُرِدْ فلم يكن شيء من ذلك - أي لم يقضه ولم يكتبه ولم يقَدِّره - فيعبر عن الإرادة بهذه الأمور الثلاثة ، ويظهِرُه إذا أراده في أسبابه ، وما يدرك الناس إلا ظاهر السبب ، وربما يكون السبب دون الارادة ، فلا ينفع في مقصود . ويُبيِّن هذا المعنى المقرر قوله تعالى : ﴿وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا﴾ ، فَبَيَّنَ أن الاصابة من الله على أي وجه ، سواء كان له سبب من جهة

الخلق ، أو لم يكن له سبب من جهتهم ، بل مجرد قُدرةٍ ، ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، كما قال تعالى في الحسنة والسيئة ، وَرَدَّ على من أضاف أحدهما إلى الخلق ، فقال تعالى : ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾ .

والإرادة هي الحقيقة ، والأسباب هي الشريعة ، ولكن كلام سيدنا قد ينطقه الله بكلام الحقيقة التي هي الأصل والمعتمد عليها في الأسباب التي هي الشريعة ، ومحلها منها محل الأرواح من الأجساد ، إذ لو لا الأرواح فيها لكانت ميتة خاوية وجيفاً بالية ، فإذا كانت فيها أرواحها فهي أشخاص حية مستقيمة نافعة ومنتفعة ، يُرجع إليها ويؤخذ عنها ومنها ، وهي المقصودة معها ، لا أحدهما بدون الآخر .

وأقرب التمثيل لذلك ليفهم ذلك المعنى المقرر المقصود ، مثال الأعضاء المحسوسة مع منافعها، فلا تُراد الأعضاء إلا لها ولا تنفع بدونها ، وهي معانيها المقصودة منها حين تُذكَر ، ففي الديات كما قال تعالى : ﴿أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ﴾، أي في حال حياتها ، وإلا لو قطعت قطعاً متعددة وهي ميتة ؛ فلا دية فيها ، ﴿وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ﴾، أي مع وجود نظرها ، ومع فقده لا دية عليها بخطفها ، ﴿وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ﴾، أي مصحوبة بالسمع ، لا مع فقده ، وإلا فيدخلان في : ﴿وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ﴾.

وهي منافع ربانية ، جعلها الله فيها ، ولا تحصل بدونها ، وليس مِن لازِم وجود الأعضاء وجود منافعها ، إلا إن جعله الله فيها ، فعين المسُورق موجودة ، مع عدم منفعتها وهو النظر ، ولسان الأبكم موجود دون منفعته وهو النطق ، ومثله الأصم الذي لا يسمع مع وجود الأذن ، ولا تنفع مواضعها بدونها ، ومثله اللمس والبطش من اليد ، والمشي من الرجل . وهذه المنافع من هذه الأعضاء هي أرواحها المقصودة منها ، والأعضاء أجسامها ، جعلها الله فيها وليست مِن لازِمها ، بل حين يريد الله جعل منافعها فيها وحصلت منها ، وإلا فلا ، فقد توجد تلك الأعضاء بدون تلك المنافع ، كما هو مشاهد كثيراً ، فكذلك المقادير من الأسباب أرواحها ، والأسباب أعضاؤها ، فقد توجد الأسباب بدون المقادير فلا يحصل النفع المراد منها ، كما هو مشاهد كثيراً .

فالأدوية المذكورة للعلل - ولو قد جُرِّبَت - فلا تفيد للنفع منها إلا بالارادة ، ومن جَرَّبَها فقد وافَقَتْ في تلك المرة ، ولا يلزم موافقتها في كل مرة ، والفرق بينهما أي المَمَثَّل به والممثَّل له ، أن الأعضاء قد توجد بدون منافعها ، وأما منافعها فلا توجد بدونها ودون المقادير .

والمعنى المراد بالتمثيل : أنه يُطلَب وجود الخير بفعل أسبابه ، والسلامة من الشر بترك أسبابه ، ولكن يجب أن يعتقد أن لا يكون ذلك إلا بالمقادير ، بحصول الخير والسلامة من الشر ، بل لو فعل أسباب الخير وترك أسباب الشر لا يحصل المقصود من النفع والدفع إلا بالارادة الالهية ، حتى لو

فعل أسباب الشر ولم يُرِد الله له ذلك سَلِمَ منه ، ولو فعل أسباب الخير ولم يُرِد الله له ذلك ما حصل له ، ولا حصل له فعل أسباب الخير وترك أسباب الشر إلا بارادة الله ، وهي المعْنِي بالمقادير ، فيترجى ذلك حيث حصل له من المقادير وجود أسباب الخير وترك أسباب الشر ، فيترجى ذلك ، ويستدل أن ربما ما وُجِدَت ولا حَصَلَت ، إلا ويحصل ويرجو معها ما أريد منها ، فإن وافقت المقادير بوجوده مع ذلك وُجِدَت ، وإلا لم توجد ، كما قد تحصل الأعضاء بدون منافعها ، فإذا لم يوافق القدر لم يحصل الغرض المطلوب من الأسباب ، كما قد تُدَاوَى الأمراض بأدويتها المعروفة لها المجَرَّبَة فيها ، فلا تنفع حيث لم يوافق القَدَر بحصول العافية ، وقد يوافق في دواء من أضعف الأدوية غير مُجَرَّب لها ، فيحصل الغرض ، ولكن مع ذلك لا بد من موافقة الوقت المؤقت في حكم التقدير للعافية ، ومع ما تقرر من كون الأسباب لا تفيد في مقاصدها ، وما يطلب منها من منافعها مطلقاً إلا بالارادة الالهية ، لا بد للعبد من الإمتثال لأمر ربه من فعل أسباب الخير وترك أسباب الشر من فعل الطاعات وترك المعاصي ، هذا حقٌّ على العبودية لازمٌ للربوبية ، ولا عليه مما يقتضيه القدر ويفعله في العاقبة .

فلو أَخبَرَ نَبِيٌّ رجلاً مسلماً بأنه سعيد ، وأنه صائرٌ إلى الجنة على كل حال ، فلا يجوز له ترك الإمتثال من فعل أسباب الخير التي هي الايمان والطاعة ، وترك أسباب الشر التي هي الكفر والمعصية ، مُغتَرًّا بما أخبره ذلك النبي ، بل يأثم ويُعاقَب على ذلك إن لم يعفُ الله ، بل ينبغي أن يكون مع ذلك أشد خوفاً من الله من غيره ، ﴿فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ۝﴾، انظر إلى العشرة من الصحابة المبشرين بالجنة ، كيف كانوا أشد الأمة خوفاً من الله ، حتى قال سيدنا عمر منهم : « ليت عمر لم تلده أمه ، وليتني كُنتُ كبشاً ذبحه أهله وأكلوا لحمه » ، ومثل ذلك ذُكِرَ عن باقيهم ، وذلك لقوة إيمانهم ، بمشاهدتهم نور النبوة ، وثبات يقينهم ومعرفتهم بالله ، فلا عارف إلا من الله خائف .

ولو أخبره النبي أيضاً بأنه شقيٌّ لا بد له من دخول النار ، لا يجوز له ترك الإمتثال من فعل الطاعات وترك المعاصي قانطاً ، ومعنى عدم الجواز زيادة إثم لارتكابه ذلك ، زيادةً على إثم استحقاقه لذلك ، هذا في منافع الدين ومضاره ، ومثله في منافع الدنيا ومضارها .

فالمراد بالإمتثال : هو حق الربوبية على العبودية ، حق الايجاد والامداد وهو التمسك بالشريعة ، وهي امتثال الأوامر واجتناب النواهي ، وهي الأسباب المذكورة ، مشتملة على أرواحها المعلومة ، من الاخلاص الخالص لوجه الله ، وقصد مجرد امتثال أمر الله ، فيما أمر به أو نهى عنه ، حقاً لازماً للرب على العبد ، واعتقاد أن لا قدرة له على ذلك إلا بتوفيقه ومعونته ، وأن لا يكون كائنٌ من خيرٍ أو شرٍّ أو غير ذلك في الدارين إلا بإرادته ، وأن تلك الأوامر لا يراد فعلها حساً بأجسامها المذكورة ، خالية من أرواحها المذكورة ، لأن ذلك نفاقٌ من أعمال المنافقين ، فإن المنافقين يقولون : لا إله إلا الله محمد

رسول الله ، ويُصَلُّون ويفعلون الأحكام فعلاً وتركاً ، خالية من أرواحها ، ولذلك صاروا في الدرك الأسفل من النار ، لمَّا خَلَتْ أعمالهم من أرواحها ، فإنما المراد بها والمطلوب منها جمع الأمرين جميعاً ، صورها وأرواحها ، فالصور مجردة تفيد نفع الدنيا ، من السلامة من القتل والسَّبي والاسترقاق ، كما حصل ذلك للمناقين . حتى إن عبدالله بن عبدالله بن أُبَي ، لمَّا قال أبوه - كبير المنافقين - في حق رسول الله كلامه المتقدم: لئن رجعنا إلى المدينة .. إلخ ، استأذَنَ رسول الله ﷺ في قتله ، فقال : « يا رسول الله، إن كُنتَ آمراً أحداً بقتل أبي ، فأذن لي أنا أقتله ، فإني لا آمن نفسي إن رأيت قاتل أبي أن أقتله » ، قال : « لا ، لا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » .

وأما الأرواح في الأعمال فتفيد نفع الآخرة ، من السلامة من النار ، ودخول الجنة دار القرار ، والنظر إلى وجه الله الكريم الغفَّار ، وهو غاية المقصود ، فلا تُراد الأعمال حيث طُلِبَت إلا مع الأرواح، لتفيد نفع الدارين ، كما لا يطلب للعبد من المقادير الأسباب التي جرت بها خاصة دون مسبباتها التي جرت بها - أي بالأسباب - بل بهما جميعاً - أي بالأسباب مع مسبباتها - ، فإنه لا مدخل للعبد في المقادير بحالٍ ، ولا يتعلق به من جانبها شيء لا ثواب ولا إثم ولا عقاب ، وإنما يتعلق ذلك بعمله الناشيء عنها - أي عن المقادير - مع النظر إليها ، واعتقاد أن لا يكون كائن من خير أو شر أو نفع أو ضر إلا بها ، فبهذا يتم حال العبد وعمله ويكمل ، ويستحق عليه الجزاء الكريم والثواب العظيم من الله سبحانه . فالمراد أنه إن ذكر أحدهما - أي الأعمال - فمع الأخرى - أي أرواحها المتقدم ذكرها - لا مجرد الأعمال ، ويكون كلٌّ منهما على وجهه وفي محله ومقصوده ، كما أن الأعضاء حيث ذكر حسيتها ، فالمراد به مع معانيها المتعلقة بها من منافعها ، لا مجردها ، بل كل عضو بمعناه الخاص به ، كما قال تعالى : ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ﴾، فكل هذه يراد حسها مع ما يتعلق به من منافعه ، ولو اختص الحسي بالذكر فالمراد به مع منفعته ، فدية العضو إذا ذهب بأذى كدية نفعه إذا ذهب بأذى وبقي هو .

فالمراد إذا ذكر واحد منها فليس المراد هو فقط ، بل هو وما يتعلق به من منفعته الخاصة به ، لا هو خاصة ، وذلك الأقل ، وإنما الأكثر في قوله : جمعهما معاً إيراداً وقصداً ، أي جمع الصورة والمعنى، حيث يذكر ذلك ونسبته منه نسبة معاني الألفاظ إلى الألفاظ ، وهو الحق الذي عليه أهل الحق ، وما بعد الحق إلا الضلال ، فافهم . ويؤخذ هذا المعنى من قول الإمام مالك رضي الله عنه : « مَن تَفَقَّهَ ولم يتصوف فقد تفسق ، ومَن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومَن تفقه وتصوف فقد تحقق » . وتقدم كلام سيدنا وكلام السيد أحمد الهندوان المأخوذ معناهما من معنى كلام الامام رضي الله عنهم هـ .

قال رضي الله عنه : « من العجائب أن الانسان قد يصيبه السبب الداعي إلى الهلاك ، ولكن حيث لم يُقَدَّر عليه لم يضره ، وإنْ عَظُمَ السبب ، وقد يصيبه السبب الضعيف جداً ، فيضره لأنه مُقَدَّرٌ عليه » هـ .

أقول : كلامه هذا مُؤَكِّدٌ لكلامه الأول ، ومُبَيِّنٌ للمعنى الذي قررنا ، أنَّ كلَّ ما وقع بالأسباب إنما وقع بالمقادير ، ولولاها لم تُفِدْهُ الأسباب .

وذكر كلاماً يروى حديثاً : « إن الله يأخذ بالمظلمة الواحدة من الظالم لمن ظلمه ثواب سبعين صلاة مقبولة » ، **ثم قال** : « نعم ، إن حكموه في حسناته يأخذ هذا وزيادة ، لكن مقام العدل لا يقتضي هذا ، بل يُعطَى قَدْرَ حقه قَلَّ أو كَثُر ، لأن مقام الآخرة كله عدل ، ظاهر وباطن ، لأن أمره إلى الله لا سواه ، وأما العدل في الدنيا فهو ظاهر ، لأنه منسوب إلى الخلق ظاهراً ، ومنسوب إلى الله في الباطن أيضاً ، وكما أن الله تعالى طلب من الخلق العدل في الدنيا ، كذلك يعاملهم الله به في الآخرة » هـ .

أقول : يشهد لقوله هذا قول الله تعالى : ﴿وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ وَلِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾، وقوله سبحانه : ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾﴾.

وهنا فائدة حسنة ، ذكرها في كتاب « انتهاز الفرص في الصيد والقنص » ، قال : ذَكَرَها المفسرون كالامام النيسابوري الثعالبي والبغوي قال : « وهي فائدةٌ عَظُمَ موقعها في الصدور ، وعَزَّ مدركها في الورود والصدور ، ذكروها في تفسير سورة النمل عقب قوله تعالى : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾ ، قال محمد بن كعب القرظي ، وعبدالرحمن بن زيد : قوله تعالى : ﴿فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا﴾، يعني الأضعاف التي أعطاه الله بالواحدة عشراً فصاعداً ، لأن للأضعاف خصائص ، منها أن العبد يسأل عن عمله ولا يسأل عن الأضعاف ، ومنها أن للشيطان سبيلاً إلى عمله ولا سبيل له إلى الأضعاف ، ومنها أنه لا مطمع للخصوم في الأضعاف .

ولأن الحسنة على قدر استحقاق العبد ، والتضعيف كما يليق بالرب سبحانه وتعالى ، وذلك أن العبد إذا كانت له حسنات تَعَلَّقَ به الخصوم الذين لهم عليه حقوق يوم القيامة . وأما المضاعفة التي هي هبةٌ من الله سبحانه ومِنَّةٌ منه ، فلا سبيل لهم ولا مطمع لهم فيها ، فتؤخذ حسنات العبد التي عَمِلَها، وتُعطى للمظلوم الذي له عليه الحق ، ويبقى للذي عَمِلَ الحسنة المضاعفة التي هي نعمةٌ من نعم الله الخطيرة ، وفَضْلٌ من هباته الغزيرة . فطوبى لنا أيها المؤمنون بهذه العطية السَّنِيَّة والنِّحْلة الجسيمة البهية، ومما يناسب هذه المنحة الجسيمة والموهبة العظيمة أن النبي ﷺ قال : قال الله عز وجل : كلُّ عمل ابن آدم يُضاعف له الحسنة بعشر أمثالها إلا الصوم ، الصوم لي وأنا أجزي به .

فقد ذكر أبو الخير الطالقاني في معنى هذا الحديث خمسة وخمسين قولاً ، من أحسنها قولان : أحدهما : أنه تتعلق به خصماؤه فتأخذ أعماله إلا الصوم ، فلا سبيل لهم إليه ، فربما نفدت حسناته فلم يبق له إلا الصوم ، والثانية : أن ثواب الصوم أكثر ثواب الأعمال مُضاعَفةً ، فإنه يُضاعَفُ إلى سبعمائة ضعف ، قاله سفيان ابن عيينة ، حكاه عنه ابن الملقن في كتابه : البدر المنير في تخريج أحاديث الشرح الكبير » ، انتهى ما ذكره في كتاب « انتهاز الفرص » ، ومراده بالشرح الكبير ، هو المسمى العزيز شرح الامام الرافعي ، ويسمى المجموع على المهذب .

قال ناقله : هنا فهماً فهمه مما نقله صاحب الكتاب المذكور في الأضعاف ، وفي الصوم فضلاً من الله سبحانه كثواب القرض ثمانية عشر ، وثواب إنظار المُعْسر إن كان إلى أَجَلٍ ؛ فله كل يوم بمثله صدقة ، فإذا حَلَّ الأجَلُ وأَنْظَرَهُ بعد ذلك ؛ فله كل يوم بمثليه صدقة ، وكذلك إذا ضوعف العمل إلى سبعين إلى سبعمائة إلى حيث يشاء الله ، لقوله تعالى بعد بلوغ المضاعفة إلى هذا الحد : ﴿وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ﴾، أي إلى هذا وأكثر منه . وكذلك في قضاء حاجة المسلم في الله ، يكتب له سبعة آلاف سنة، صيام نهارها وقيام ليلها ، وغير ذلك من كل ما ورد به النص من المضاعفة ، كما سنذكر أدلته ، أنَّ كل ذلك لا يُسأَل عنه العبد ، كما يُسأَل عن عمله ، ولا يُسَلَّط عليه الشيطان ، ولا يتطرق إليه البطلان ، ولا مطمع للخصوم فيها ، فإنها كما تليق بالرب من تفضله على عبده وإحسانه إليه ، فلا يحول حائل بينه وبينها حتى تُؤَدَّى إليه تامة سالمة ، ﴿وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَآدَّ لِفَضْلِهِۦ يُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ﴾، وإنما ذكرت هذا حيث لم ينص عليه بتخصيصٍ في اللفظ ، وإن كان داخلاً معه في المعنى، وفي كل ما ذكر من شأن التضعيف وشمل الكل ، حيث أنَّ كُلَّهُ فضلٌ من الله ، حتى أن الصوم – وهو من جملة الأعمال – لم يجعل جزاءه كجزاء الأعمال ، من كونه حسنة عملها يجزى عليها بعشر ، على القاعدة التي أسسها الله في شرعه لعموم الخلق ، وجعل تلك المضاعفة خصوصاً بخصوصٍ بسببٍ ، وبحسب كمال العمل ، وذلك لكمال عامله في قوة إيمانه وتمام معرفته بالله ، ورسوخ يقينه في ما وعد الله، وما جعل الصوم كغيره ، فتدخل تلك العوارض في تلك الحسنة من تسليط الخصوم وما ذكر معها . وإنما جعل جزاءه على صيغة أخرى من نسبته إليه ، وجزاءه على مراده به ، وضمن جزاءه عليه ، فالجزاء حيث جعله منسوباً إليه مع عمله كذلك ، فلا يتطرق إليه عارضٌ يردُّهُ عما أراده سبحانه ، فكلُّ ما تحقق نسبته إلى الرب فلا خوف عليه من ضرر يلحقه في الدنيا والآخرة .

فحقق نسبتك إلى ربك بتجردك عن دواعي نفسك ، يتحقق لك كمال العبودية ، وتفيض عليك إمدادات الربوبية ، وتحيط بك عواطف الصمدانية من كل جهاتك ، بالحفظ من كل قاطع وضار بعناية الملك الجبار ، وإنما اختص الصوم بهذه المزية لما ورد فيه من مخالفة دواعي النفس لاتباع مراد

الرب ، فلذلك حقق الله تعالى نسبته إليه ، وذلك أنه ورد في حديثه قال الله تعالى : « يدع طعامه وشرابه وشهوته من أجلي ، فالصوم لي وأنا أجزي به » ، فافهم أنه ما كان بهذه المزية عند الله إلا بكونه صَدَرَ من العبد بهذه الصفة ، فكذلك تلك المضاعفات الكثيرة ، إنما كانت لصدور الأعمال كذلك ، فكل ما تحقق نسبته إلى الله من الأعمال كان بالمزية العلية عند الله من الأفضال .

ودلائل ما ذكرناه قد تقدمت في هذا النقل ، مما روى الامام جلال الدين عبدالرحمن السيوطي رضي الله عنه في « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » ، عن بريدة بن الخطيب الأسلمي رضي الله عنه ، قال : « سَمِعتُ رسول الله ﷺ يقول : مَن أَنْظَرَ مُعْسِراً ؛ فله كل يوم بمثله صدقة . ثم سمعته بعد ذلك بمدة يقول : من أنظر معسراً فله كل يوم بِمِثْلَيْهِ صدقة ، فقلت : يا رسول الله ، سمعتك أولاً تقول : فله كل يوم بمثله صدقة . وسمعتك الآن تقول : فله كل يوم بمثليه صدقة . قال : إذا أنظره إلى أجل ، فله كل يوم بمثله صدقة ، فإذا حل الأجل وأنظره بعد ذلك ، فله كل يوم بمثليه صدقة » ، وذكر - أي السيوطي - في كتاب « الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألف » ، حديثاً أسنده وصححه وبنى عليه كتابه هذا المذكور ، بإسناده إلى أنس خادم رسول الله ﷺ قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قضى للمسلم في الله حاجةً ، كتب الله له مثل عُمْرِ الدنيا سبعة آلاف سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها » .

وما ذكر في فضيلة الإنظار بشرط أن لا يطلبه ، وأن لا يأخذ عليه رهناً ، وأن لا يبيعه بزيادة على سعر الوقت الحاضر لأجل الإنظار ه .

قال رضي الله عنه : « من تعلق بالدين ثم بعد ذلك مال إلى الدنيا ، أصبح بلا دين ولا دنيا ، فليفهم هذا » هـ .

أقول : هذه قاعدة مطردة ، كما فعل بلعام بن باعورا على ما قدَّمنا من وَصْفِه هـ .

قال : « مَن هَمَّ على معصيةٍ فَقَيَّضَ اللهُ له عارضاً منعه منها فهو يحبه ، ومَن هَمَّ بطاعةٍ فَقَيَّضَ اللهُ له مانعاً منعه منها فهو يُبغِضُه » .

أقول : وهذه أيضاً قاعدة مطردة .

قال : « كرامات الأولياء منذ زمان النبي ﷺ لم تبلغ معشار عشر معجزاته عليه السلام ، لأن من معجزاته القرآن ، وتحت كل آية معجزات لا تُحصى » هـ .

أقول : المعشار : عشر العشر ، يعني لا تبلغ عشر عشرها ، قوله : « تحت كل آية » ، أي تتضمن كل آية وتشتمل على ما ذكر هـ .

قال : « من تعلق قلبه بحب الدنيا وإعراضه عن الآخرة يكون ذلك من أحد سببين : إمَّا غفلة مع كونه مُوحِّداً ، وإمَّا شكٌّ في اليوم الآخر والعياذ بالله من ذلك . ويُعرف ذلك منه عند الموت ، فمن كان إذ ذاك خائفاً من أمور الآخرةِ ، فذلك من الغفلة وهو مؤمن ، وإن كان بقي خائفاً على أهله وعياله ماذا يكون حالهم بعده فهو شاكٌّ » .

قال : « من لم يُحسِن النظر مع أهل الباطن لم يحصل له منهم ظاهر ولا باطن ، وإن حصل له شيءٌ من الظاهر لم يُبارَك له فيه » هـ .

أقول : حسن النظر منه بالمحبة الخالصة والعقيدة التامة ، كما ذكرنا من شأن تلك المرأة ، وما حصل منها من حسن المحبة والعقيدة ، مع العلامة الظاهرة الدالة عليها ، وما حصل لها من سيدنا من طرح النظر عليها ، مع العلامة الظاهرة ، وما حصل لها من النتيجة بدفع ضررٍ شديدٍ أصابها ، وتقدمت قصتها هـ .

قال : « إذا اجتمع باعثٌ ديني وباعثٌ طبيعي في أمر ؛ كان العبد أقوى ما يكون في فعل ذلك ، وغالب ما ينبعث لأهل هذا الزمان الباعث الطبيعي . وأما القوة المجردة في فعل ما انبعث له في فعل الدِّين ، فلا يكون إلا لنبيٍّ أو قُطبٍ ، فإن رأس القطب تحت قدم النبي يستمد منه . فهِمَّة العوام في الأمور الدينية هي طبيعة القطب ، والقطب هو الغوث ، وكلٌّ مَن ارتفع في مقامٍ على غيره ؛ فهو قطب أهل ذلك المقام » ، ثم قال : « أي رئيسهم فيه ، كما يقال : قطب الراضين ، وقطب المتوكلين ، ونحو ذلك » ، ثم قال : « وإذا رأيتَ إنساناً يعمل شيئاً من أعمال الدين فاتركه عليه ، ولا تذكر له النية وإخلاصها ، فإنَّ فِعلَه ذلك نيةٌ ، ولعله لا يعرف معنى إخلاص النية فيتكدر عليه الحال » هـ .

أقول : ما ذَكَرَ من قوة العبد في أمرٍ اجتمع فيه الباعثان الديني والطبيعي ، يؤيده ما ذُكِرَ عن عمر بن عبدالعزيز أنه قال : « إذا اجتمع داعي الشرع مع داعي النفس ؛ فهو كالشَّهْدِ بالزُّبْدِ » ، والشَّهْدُ : العسل في شمعه قبل تصفيته ، فكأنَّ اجتماعهما في الأكل لذيذ ، فلهذا ضرب به المثل هـ .

قال رضي الله عنه : « معاني المحبة تَلْطُفُ وتَجِلُّ جداً عن التحدث بها ، لأن العبارة لا تأتي على معانيها، ولا يمكن التعبير بالمعاني بحال ، لأنها لا تدركها العبارة ، ولهذا ترى أهل المحبة لما أدركوا من معانيها ما يجل وصفه ولا يمكن كشفه ، واحتاجوا بسبب ذلك إلى التنفس والتروح ، يعبرون عنها بقوالبها التي هي صورها . والمعاني أرواح قائمة بها ، وذلك لما عجزوا عن التعبير بالمعنى ، وذلك كتغزلهم بليلى وسعدى ولبنى وهند ودعد وغير ذلك لما ذُكِر ، ألا تسمع إلى ما ذُكِر أن رجلاً جاء إلى بعض الأنبياء ، وقال له : ادْعُ الله لي أن يرزقني ذرة من محبته ، فدعا له ، فلما استجيب له بقي الرجل كالحيران ، لا ينتفع به بحال ، حتى إنه رجع إلى ذلك النبي يستغيث به ، فأوحى الله إلى ذلك النبي : أن الذي ناله إنما هو من كذا وكذا جزء من الذرة من محبتي ، فإنَّ أناساً كثيراً سألوني ما سألتني له ، فاستجبتُ بدعائك له ولهم، وقَسَّمْتُ بين الجميع ذرة . فهذا نصيبه منها ، فكيف لو كان حصلت له كلها » .

ثم ذكر قصة موسى عليه السلام ، لما رأى العصا ثعباناً هرب منها : « لأن ذلك حصل له بغتةً ، ولم يكن بصدده ، إنما كان يطلب جذوة من نار ، فلما أن تمرَّن وكَلَّمَهُ ربُّه لم يقنع بالكلام ، حتى سأل الرؤية ولم يحصل عليه عند الكلام ما حصل عليه عند الخطاب الأول ، لأنه تَعَوَّدَ وتَمَرَّنَ على ذلك . وقد جعل الله له في المرة الأولى الشجرة سبباً لسماع النداء ، وجعل في الثانية الطور سبباً لسماع الكلام .

ولهذا لما أُسرِيَ بنبينا محمد ﷺ لم يفزع في شيء من المواطن ، لأنه من ابتداء أمره إلى منتهاه كان في صحبة المَلَك ، ورؤية الملائكة ، والترقي من حال إلى حال ، فلم يندهش في شيء منها ، بخلاف ما لو

فَجَأَه أمْرٌ في أول وهلة ، فإن هذا من طبيعة البشر ، كما وقع لموسى ولنبينا عند ابتداء الوحي ، لما قال: زمِّلوني زمِّلوني ، دثِّروني » ، أو كما قال ، والله أعلم . هذا ما فَهِمْنَاه وأدركناه بلفظه ومعناه من جملة ما تكلم به ، ضحى يوم الثلاثاء ٢٤ من جماد الأولى سنة ١١٢٤ ، وذلك في نخل الجحيل في غرفة السيد حسين بن عمر بلفقيه باعلوي ، قبل خراب سيل الحوت لتلك الأماكن .

وكان السيل المذكور ضحى يوم الأربعاء ٢٦ من شهر رمضان من السنة المذكورة هـ .

أقُولُ : قوله : « **معاني المحبة تلطف ..** » ، إلى ما ذكر من أسماء النساء من ليلى وسعدى وسلمى .. إلخ ، وذكر في بيان ذلك كلاماً ، وذلك أنه أمرني بالإنشاد في بعض المجالس ، فأنشدت بقصيدته : « **الله لا تشهد سواه ..** » ، إلى آخرها .

ثم قلت له : قوله : « **الله أكبر غار بحر الحوت** » ، هو إشارة إلى ماذا ؟ ، فسكت قليلاً متبسماً ، ثم قال : « **أهل الحق يَرْمُزون في النَّظْم ، ويشيرون فيه إلى أسرارٍ وأمورٍ تقع في خواطرهم لا يمكنهم التصريح بها ، ولكنهم يتنفسون بمثل ذلك ، ويتسلَّون به** » ، يعني كما يتسلون ويتنفسون مما جعلوا من الأصوات المحاكية لأصوات أذكار الملائكة في أماكنها ، من أصوات أذكار حملة العرش ، وأذكار ملائكة سدرة المنتهى ، وأصوات أذكار ملائكة البيت المعمور ، وأصوات أذكار ملائكة كل سماء من السماوات السبع . فإن الله كشف لأكابر الأولياء كالشيخ عبدالقادر الجيلاني والشيخ أحمد الرفاعي وغيرهما عن أصواتهم ، وسمعوها أصواتاً مختلفة ، كصوت السماع والطبلة والحديدتين بضرب أحدهما على الأخرى ، فلما سمعوا ذلك ذاقوا به ذوقاً عظيماً وتلذذوا به . ثم إن الكشف لا يدوم ، فحجب عنهم ، ثم لم يصبروا عنه فصنفوا تلك الأصوات محاكية لها ، فإذا سمعوها ذكرتهم تلك الأصوات ، فذاقوا وطربوا بها ، وما بقي لهم عنها صبر ، فيتسلون بهذه عنها ، فكذلك هذه الألفاظ يشيرون بها إلى معانٍ يتسلون بذكرها عن ذكر ما في نفوسهم مما لا يمكنهم النطق به ، فيتغزلون بهذه الألفاظ ، ويشيرون بها إلى معانيهم التي قصدوها .

وقد رأيتُ مرة بعدما صليت صلاة الصبح واستندتُ إلى الجدار ، فأخذني النوم ، وإذا بي أرى تلقانا في السماء فُرجَة ، وحول الفرجة ملائكة على صور الآدميين متحلقين حول الفرجة ، ومعي جماعة صافِّين بي ، ففتحتُ أذني وجعلتُ أتسمع لما يقول أولئك الملائكة ، لأرى الفرق بين كلامنا وكلامهم ، فإذا واحد منهم يقول : « يكفيكم ما تسمعون من صوت الرعد » . يعني إن هذا صفة كلامهم وتسبيحهم ، فإنه تسبيح بنص القرآن ، وهو كصوت السماع .

وكذلك ما ورد في الصحيحين لما سُئِلَ رسول الله ﷺ : « **كيف يأتيك الوحي ؟** » ، قال : « **يأتيني أحياناً مثل صلصلة الجرس ، فيفصم عني وقد وعيت ما قاله** » ، وصوت الجرس مثل صوت

الحديدتين ، تضرب أحدهما بالأخرى ، فهذا الدليل من كلام الله وكلام رسوله .

وأما الشاهد من كلام الأولياء ، فقد كان القطب الشيخ عبدالله العيدروس - نفع الله به - يأخذ الطار الذي هو للسماع بيده ، ويضرب به ضربة ويقول : « هذه صوت أهل العرش » ، يعني صوت ذِكْر حَمَلَتِه ، ثم يضرب ضربة أخرى ويقول : « هذا صوت أهل البيت المعمور » ، يعني أصوات أذكار ملائكته ، ويضرب ضربة أخرى ويقول : « هذا صوت أهل سدرة المنتهى » ، أي أصوات أذكار ملائكتها ، وكذلك يضرب ضربة ويقول : « هذا صوت أهل السماء السابعة » ، أي أصوات أذكارها، ثم يضرب ضربات مختلفات لملائكة كل سماء وهكذا ، وضرباته هذه يحاكي بها أصوات ما سمع من أذكار الملائكة الشريفة في أماكنها الرفيعة .

فيتحركون بتلك الألفاظ ويشيرون بها إلى المعاني التي في نفوسهم ، حيث لم يمكنهم النطق بها ، على ما تقدم من قوله : « **الغَزَل حجارة الساس يُبنَى عليه النَّظْم ، ولا يَحْسُن النَّظْمُ إلا بالغزَل ، وقد جرت به عادة العرب ، ولا بد فيه من ذكر أوصاف النساء . ولما كان العشق إنما يعرف في النساء ، حتى جرت العادة بالتغزل فيهن ، جَرَتْ عادة الصالحين أيضاً في قصائدهم بالتغزل بهن ، وإن كان مقصدهم غير مقصد غيرهم** » ، انتهى ما قال .

وقوله في قصة الذي طلب الذَّرَّة من المحبة حتى صار حيران واستغاث بذلك النبي ، ويشبه هذه القصة ما رأيتُ في بعض تراجم سيدنا الشيخ عمر المحضار نفع الله به ، أن بعض أخدامه شكى إليه من رداءة نفسه وتعلقها بالقوت والأكل الكثير ، وقال له : « فما يأكل كثيراً إلا البقر والحمير »، وقال: « أريد أن لا يخطر لي القوت على بال ، وأن يحصل لي ما يشغلني عن التعلق به » ، فقال له الشيخ: « اِبْقَ كما أنت ، فهو أصلح لك في دينك ودنياك ، وتلك حالة لا تطيقها » ، فقال : « لا أحب أن أكون كالدواب ، هَمُّها أكلها وتأكل كثيراً ، فما يأكل كثيراً إلا البقر والحمير » ، وعالجه الشيخ في ذلك فأبى، ولم يرجع عما أراد ، فلما رأى منه العزم على ذلك وعدم الرجوع عنه ، مَدَّ له كُمَّهُ وقال له : « أدْخِلْ رأسَك في الكم » ، فأدخل رأسه في كُمِّه ، وبقى كذلك قليلاً ، ثم رفع كُمَّهُ عن رأس الرجل ، وإذا به سكران لا يشعر بشيء ، ولا يُنتَفَعُ به في شيء ، وبقي على هذا يوماً أو نحوه ، ثم جاء إلى الشيخ عمر مستغيثاً ، وقال : « أرجِعْني إلى حالتي » ، قال له : « اِبْقَ هكذا » ، قال : « لا أستطيع ، فأَرْجِعْنِي»، قال له : « قلتُ لك فأبَيْتَ » ، ثم أدخل رأسه في كمه ، ثم نزع الكم عن رأسه وقد رجع إلى حاله الأول .

فسبحان من أعطاه هذا التصرف الجليل وهذا الحال العظيم ، وقد قال في شأنه أبوه الشيخ عبدالرحمن السقاف نفع الله به : « عندنا جوهرة مخبية ، فدخل عليها عمر فانتزعها » ، يريد أن عندنا حالٌ عظيمٌ وسِرٌّ شريفٌ ما بَلَغَهُ أحد ، فَبَلَّغَهُ الله له وأوصله إليه . وإذا سمعت عن مجاهداته وتربية

والده له عليها ، فلا تستبعد ما وهبه الله ، ومن ذلك أنه مكث ثلاثين سنة ما يذوق الرُّطَب ، وقال : « إنه أحب شهوات نفسي إليها ، فتركته لله » .

فهكذا شَبَّهَ الله خاصته من أوليائه بخواصه من أنبيائه من بعض الوجوه ، بكون كراماتهم - وهي من قدرته وفعله - تشبه معجزات الأنبياء ، وهي أيضاً من قدرته وفعله ، وبكون كل منهما خارقاً للعادة ، وخارجة عن طوق البشر ، وما الفرق بينهما إلا التحدي ، من كون المعجزة يعلم بها صاحبها ويتحدى الناس بها ، أي يدَّعي النبوة ويوريهم إياها دلالة على صدقه ، ومأمورون بإظهارها، وكرامات الأولياء لا يظهرونها ، بل يخفونها ما استطاعوا ، يوصون من اطَّلَع عليها أن لا يُخْبِر بها ، ومأمورون بإخفائها ، ولا يدَّعونها وربما لا يعلمون بها .

وذكر الشيخ أبوبكر بن سالم في كتاب « معراج الأرواح » : أن من الأولياء من يعلم أنه ولي، ويطَّلع على كراماته ، ومنهم من لا يعلم أنه ولي ، ولا يطَّلع على كراماته ، وكذلك لهم الحالتان المذكورتان : حالة الجمع ، التي لا يرون فيها الأسباب ، كما ذكرنا من حال سيدنا عبدالله ، حيث كان يغلب عليه حالها ، فيتكلم بما تقتضيه ، وأن ذلك الحال يشبه حال النبي زكريا أولاً ، حيث سأل الولد مع حصول الموانع وتخلف الأسباب . والحالة الأخرى : حالة الفرق التي يكونون فيها على مراعاة الأسباب ، وهي الشريعة ، وإذا غلبت على سيدنا عبدالله ؛ تكلم على مقتضاها كما قدمنا ذلك ، وأنها تشبه حالة النبي زكريا لما تعجب من حصول الولد مع الموانع وتخلف الأسباب .

وقوله : « **لا بد في الغزل من ذكر أوصاف النساء** » ، يعني فالغزل معناه ذكر أوصافهن في النظم ، والعوام من الناس الذين لا يفهمون من الغزل إلا أوصاف النساء ، أكثر من الخواص الذين يفهمون منه معانٍ أخرى ، والعبرة بالأكثر . فلذلك قال الشيخ عبدالله العيدروس نفع الله به : « إن السماع يهتدي - أو قال : ينتفع - به رجل واحد ، ويضل به ألف » ، فالذي يهتدي به من يفهم منه معانٍ صالحة، والذي يضل به من لا يفهم منه إلا ما يفهمه العوام من ظاهر أوصاف النساء ، وللشيخ أبي بكر بن عبدالله العيدروس صاحب عدن قصيدة ، ذكر فيها كثيراً من أسماء النساء من ليلى وسلمى وهند ، ثم قال : « إنما مرادي بذلك أعلى المقامات ، لا مجرد أوصاف النساء » .

فكل إنسان يتغزل بما في نفسه ، ولذلك قال سيدنا : « **لا يعرف مقصود المتغزل بغزله إلا هو** » هـ .

وسَلَّى سيدُنا رجلاً في مالٍ كثيرٍ قد أخذه سيل الحوت المتقدم ذِكْره ، *فقال* : « **إن الدنيا ما نقص منها زادَ في الآخرة ، وما الدنيا إلا ذاهبة بكل حال** » .

وذكر هذا السيل يوماً ، *فقال* : « إذا فعلوا هم ما يَبغون ، فَعَل الله سبحانه ما يبغي ، لأنهم ما اتقوا الله في حقِّه ، فما أبقى فيهم ، وأقوى رابطة لهم بالله الصلاة وقراءة القرآن ، فانظر ماذا يفعلون فيهما، يتَعْتعون في القراءة ، ويقرأ الرجل المقرأ في نَفَس - أي يُسرِع القراءة فلا يتدبر - ولا معهم توحيد - أي كامل - » .

وقال : « إنهم غيَّروا فَغيَّر الله عليهم ، جَارَ الدولةُ في الخُبَر ، فأخذ النخلة بأصلها ومثالهم في ظلمهم للناس وانتقام الله منهم ، مَثَل من يقول لرجل : اترك فلاناً يضربك - أو قال : يقتلك - فإن فلاناً يضربه أو يقتله ، فإن الغَيَر وأعمال السوء نار ، فَنَارُكَ مِنْكَ . وسمعنا فيما سمعنا أن منازل النار مكتوبٌ عليها أسماء أهلها ، يدخلونها بأعمالهم وإنما دخلوا الجنة برحمة الله ، وما كل أحد يسقط ، ولا كل أحد يسير ، ولا كل أحد يَصِل ، وكل الناس يسيرون ، ألَّا منهم سائر إلى الجنة ومنهم سائر إلى النار ، حتى إنه ما يموت أحدهم إلا وهو على النار » هـ .

أقول : هكذا ما فهمته من لفظه ، قوله : « مكتوب عليها .. إلخ » ، شاهدٌ لما قَدَّمنا من كون الناس بحسب ما أراد الله بهم ومنهم ، من خير أو شر ، ومُعِدٌّ لهم جزاء أعمالهم قبل وجودهم ووجود أعمالهم، لا يحيدون عما أراد بهم وأراد لهم .

وقوله : « ولا كل أحد يسير » ، أي بنفسه ، وإنما هو مُسَيَّرٌ إلى ما يريد الله بهم ولهم ، وهذا بالنظر إلى الحقيقة .

وقوله : « وكل الناس يسيرون .. إلخ » ، أي سائرون بحسب أعمالهم إلى ما أعَدَّ الله لهم من خير أو شر ، وهذا بالنظر إلى الشريعة ، أي مراعاة أحكام الأعمال ونسبتها إلى عامليها .

قوله : « حتى إنه ما يموت .. إلخ » ، أي من الذين ذكر أنهم سائرون إلى النار وعكسه الآخرون السائرون إلى الجنة ، ويتبين الأمر عند الخاتمة .

وقوله الآتي قريباً : « والأمر من فوق » ، يُبيِّن المعنيَيْن : معنى الحقيقة ومعنى الشريعة ، الأول من كون الأعمال والجزاء عليها قد كُتِبَ ، فلا بد من وقوعهما ، والثاني مطالبة العباد بالأحكام ، فمن قائمٍ بها ومُقَصِّرٍ فيها .

وذكر قوماً في معرض المدح ، وآخرين في معرض الذم ، *فقال* : « الناس في الفعل ، منهم الممدوح ومنهم المذموم ، والأمر من فوق ، ولعل في الناس من له عمل مثل عمل قوم نوح ، حتى جُوزوا بمثل جزائهم . وكان من عملهم الاستكبار وقلة الحياء ، والإصرار على المعصية إذا نُهوا عنها ، قال

الله تعالى: ﴿وَأَصَرُّواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ ٱسۡتِكۡبَارٗا﴾، وقال تعالى : ﴿مَّا لَكُمۡ لَا تَرۡجُونَ لِلَّهِ وَقَارٗا ۝١٣﴾، إلى آخر ما حكى الله عنهم ، فكذلك في الناس الآن من يُصِرُّ على المعصية ، فإذا نُهيَ عنها قال : مَرْحبا ، بلسانه وأصر بعزمه ، واستكبر ولا يستحي من الله ، فجوزوا بهذا السيل ، كما جوزوا أولئك بالطوفان ، فقد قال فلان من السادة : إن هذا السيل من بقية طوفان نوح ، والجزاء من جنس العمل ، قال الله تعالى : ﴿فَكُلًّا أَخَذۡنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾ إلخ » هـ .

أقول : أي جعل عذاب كلٍّ من المذكورين من جنس عمله ، كما قال الأبوصيري في قصيدته ، « زاد المعاد في قصة أصحاب الفيل » :

كُلٌّ غَـدَا وَلَـهُ مِـنْ جِنْسِـهِ رَصَـدٌ — لِلْجِـنِّ شُـهْبٌ وَلِلْإِنْسَـانِ سِـجِّيْلُ

يعني أن الجن خُلِقوا من نار ، فجُعِل جزاهم شُهُبٌ من نار ، والإنسان خُلِقَ من طين فجعل جزاؤه حجارة طين من سجيل ، أي محروق بالنار ، فخذ هذا المعنى لتخصيص الأمم المذكورين في هذه الآية ، لكل أمة بما اختُصَّت به من العذاب المذكور لها .

وقوله : « **فلان من السادة** » ، هو السيد عبدالله بن علوي العيدروس صاحب بلدة بور ، وحُكِيَ عنه أنه لما رأى ذلك السيل يتزايد ، وجاءه ناس يشكون إليه منه ، خشوا أن يدخل إلى بيوتهم فيفرقهم، مضى بعكازه إلى طرف السيل ، يعني حد ما وصل إليه ، فركزه وقال : « قف هنا بإذن الله ، ولا تتعداه»، فما تعدى السيل ذلك الموضع ، كذا سمعت من أهل بلدة بور جماعة يحكونه عنه .

وقال سيدنا لرجل يُسَلِّيه : « **عسى أن يقع الأجر والعوض إن شاء الله ، والأجر – أو قال : العوض واقعٌ لا محالة – لأن الله سبحانه ما يأخذ شيئاً إلا أعطى خيراً منه** » ، هكذا ما ترى من تسليته للناس على أموالهم ، لأن هذا السيل فَجَعَ أهل حضرموت في أموالهم التي يعيشون بها فجائع كثيرة كبيرة ، حتى أن منهم من كان يُضرَب به المثل في الغِنَى ، صار يُضرَب به المثل في الفقر .

وذكر أن رجلاً كان يُدخِل ألف وُجب ، صار بعد ذلك ما يُدخِل وجباً واحداً ، والوُجب يعنون به قدر نحو وعاء تمر ، وكانت أماكن النخيل أيام كانت ما يُرى فيها الشمس ، من كثرتها وصلاحها وتقارب غرسها ، إنما بين النخلتين نحو ثلاثة أذرع ، في جهة تسمى بيت مَسْلَمة ، لغالب أهل بلدان حضرموت فيها نخيل ما بين كثير وقليل ، وبعدما جرفها السيل صارت كأنها برٌّ مَهمَهٌ لا يستظل فيها عن الشمس ، ولا كأن غُرِسَت فيها نخلة ، ثم غرست ونمت وصارت خيراً مما قبل .

وهو قوله : « العوض واقعٌ لا محالة ، لأن الله سبحانه ما يأخذ شيئاً إلا أعطى خيراً منه » .

وتكلم يوماً على أهل تلك النخيل الذاهبة قبل عمارتها ، *فقال* : « الرجل عنده أربعمائة نخلة ، يأخذ ثمرها ولا يتصدق منها حتى بمائة سعفة - أي حطباً - ولا يعمل خيراً قط ، ثم إنهم يتحسفون على أنهم لم يبيعوها أو يتخلصوا منها بأي وجه ، وهذا من قلة الخيرية ، ولو لهم نية في الخير لتحسفوا على أنهم لم يكونوا فعلوا منها خيراً ، فإذا لم يكن شيء من الدين فأين العقل والمروءة ؟ » .

وقال له رجل : « إن هذا السيل أذلَّهم » ، *فقال* : « إن الإنسان قده ذليل بالنسبة إلى ربه - أي ذليل لربه - وإنما أظهر ذله ، والإنسان إذا وقع في شدة أو حصل له مرض ، أو شيء من الأمور ، يستبين ضعفه وذله ، وإلا فهو ضعيفٌ ذليلٌ من أصله ، فقد قال سيدنا علي : الإنسان ضعيف ، تقتله شَرْقَة ، وتؤذيه بَقَّة ، وتنتنه عَرْقَة . وقال بعضهم : الإنسان أنفٌ في السماء ، وأسْتٌ في الماء » ه .

أقول : هذا مثل يُضرَب لمن يتكبر حالاً ومقالاً ، ويتضع نِيَّةً .

وقال رضي الله عنه : « إن هذا السيل أشغلهم عن الغِيبة ، حتى لم يتفرغوا لها ، وبقوا مشغولين به عنها ، والرب يغضب ويرحم ، والرحمة تحيط بالغضب - أي تسبقه وتغلبه ، كما قال سبحانه : رحمتي سبقت غضبي - وإذا غضب ورضي ، لا يعود إلى الغضب سمح - أي سريع - » .

وقال : « هذا غَضَبٌ نزل ، وما عاد معهم فيما مضى إلا الإستغفار ، ولكنهم يراقبون الله فيما بقي، ويخشونه ويتقونه ، ويؤدون حقوقه ، وأفعال القوي قوية ، لا تثبت لها أفعال الضعيف ، لأن فعل الضعيف ضعيف ، وحق هؤلاء أن لا يتعرضوا لسخطه إلا بقدر ما يطيقون - أي من عذابه ، ومراده يعني أنهم لا يطيقون شيئاً ، فلا يتعرضون لما يؤديهم إلى شيء من عذابه - ولا معهم استعداد - أي عدة يعتدون بها ويرجون نفعها عند الله - .

ومن يؤمن بالآخرة ، يصلي صلاةً غير معتبرة ؟ أو يزكي زكاة غير معتبرة ؟ ولا يستحيون من الله ومن ملائكتهم الذين يكتبون كلامهم وكثرة هذيانهم . وإذا أردتَ تعرف هل في الإنسان خير أم لا ، فانظر ، إن كان يضحك حال جلوسه في المسجد وتلاوته القرآن ، فاعرف أن ما فيه خير - هذا ضابط عجيب يبين طبقات الناس - وإذا لم يكن فيه حينئذ خير ، فمتى يكون ذا خير ؟ ولا يكون جلوسه في المسجد معشار أوقاته ، فلا يجعلها أيضاً كلها لله ، ومع هذا تجري عليهم مُذَكِّرات - أي كهذا السيل-

فلا يعتبرون ، والظاهر أن صحائف الشر لا تُرفَع إلى الله ، بل تُرَدُّ من السماء الدنيا ، وإنما تطلع - أي تصعد - الملائكة بصحائف طاهرة فيها الخير ، فَتُرَدُّ عند ذلك - أي مع ذلك - أو تُقبل » .

وقَلَّ ما ذَكَرَ هذا السيل ، إلا تكلم في مانعي الزكاة وذمهم ، فمما قال فيهم ، وقد قيل له يوماً : « إن الحطب قد كثر للمساجد ، وانتفعوا به لتحرير الماء لها » ، **فقال** : « **إن الحطب لا يعيض في النخل - أي لا يعوضهم عنه - لكن حيث استحقوا ذلك بتركهم الزكاة ، يضم الإنسان كذا وكذا من التمر ، ولم يُر أنه أعطى فقيراً واحداً ، أما سمعوا قصة أهل الجنة فيعتبروا بهم ، ولا نفع فيهم الوعظ في الخطب على المنابر والتذكير ، ولو جاءهم من يطلبها إلى دورهم ما أعطوه شيئاً ، فأعطاهم سَحقة ولا يمهلهم حتى ساعة زمانية ، فليأخذوا من تركهم الزكاة** : ﴿فَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ﴾ ، ﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُواْ هُمُ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، **ولم يحمل أحد منهم حِمل حطب في مسجد ، ولكنه إذا دخل الجابية ، تحسبه كذا** » .

أقول : ونسيت ما قال ، ومعناه : يتطلب ويقول : لِمَ ما يحررون الماء ، كأنَّ له في ذلك جميل ، أو جَرى منه نفع ، وكانوا يشرون الحطب وهو سجين النخل لتسخين جوابي ماء الوضوء في المساجد ، فكثر ذلك الحطب ورخص لكثرته ، ولذلك قال ذلك القائل : إن الحطب قد كثر للمساجد .

قوله : « **فليأخذوا من تركهم الزكاة** » ، يعني هذا ما حصلوا من ترك الزكاة ، وكان متوجعاً جداً من تركها .

قوله : « **وما نفع فيهم الوعظ في الخطب** » ، إنما ينفع وعظ وتذكير صاحب لسان الحال على ما قدمنا وصفه ، من كونه سيرته على الصواب وسريرته على السر الذي يقوى به الايمان ، يعني أوتي نصيباً من السر الذي أوتيه سيدنا أبوبكر ، حتى رجح به إيمانه بإيمان الأمة ، ولا بد لكلِّ وليٍّ نصيبٌ منه فحينئذ يكون كلامه كلام الحال الذي يقهر السامع على العمل ، وأما كلام المقال الخالي من ذلك فلا يؤثر وعظه ، وهو كلام أكثر الواعظين اليوم هـ .

قال : « **ومن تأمل صنيعه - أي السيل - في النخل ، علم أنه ما جاء إلا بقصدها ، وهذا نتيجة قطع الحطب والتخبير وترك الزكاة ، وقد نهيناهم عن هذه الأشياء ، فحصل لهم كما حصل لأصحاب الجنة - أي الذين - من ثقيف ، حيث حكى الله عنهم** : ﴿فَٱنطَلَقُواْ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ۝ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ۝﴾ ، **إلى آخرها ، وما قصه الله في القرآن إنما يُراد به الاعتبار ، لا الحكاية والأسمار ، وما يأخذ**

الله سبحانه إلا بوجه ، يقوِّمون الثمرة ، وهو - أي المسكين - ينظر فلا يُعطى » .

وقال : « إن هذا السيل عقوبة جاءت على غفلة ، وعسى أن تكون مصحوبة باللطف ، وما ظننتُ أن هذه الهملة يكون منها مثل هذا السيل الهَوَل » .

ومرة ذكر مثل ذلك ، وقال : « مثل هذا السيل الهائل ، ولم نسمع بمثله ، ولم يحصل في الإكليل الأول ولا الثاني ما حصل في هذا ، وبين كل سيل من هذه السيول المدة المتقاربة ، نحو أربع وسبعين أو خمس وسبعين أو قريباً من ذلك » هـ .

أقول : قَلَّ ما جلس بعده مجلساً إلا وذَكَره ، ولهذا طال وكثر كلامه فيه ، وكثر ما نقلناه وذكرناه عنه فيه وما يتعلق به ، وذلك فيما قارب قرب وقته ، وهذا ما ذكرناه مما تكلم به إذ ذاك ، ولما بَعُدَ وقته وطالت بعده المدة قَلَّ ما يذكره ، وهذا الذي نقلنا عنه مما يتعلق به مما تكلم به في مجالس متعددة ، غير مجلس أو مجلسين .

وكنت يوم الإثنين ٢٤ رمضان المذكور بعد صلاة الصبح ، قبل السيل بيوم - فإنه جاء يوم الأربعاء - جالساً في حلقة قراءة قرآن في مصلى سيدنا بالحاوي ، وهو حاضر ، والجماعة كلهم حاضرون لقراءة القرآن بحضرته بعد صلاة الصبح ، كما هو مرتب ذلك في هذا الوقت في العشر الأخيرة من شهر رمضان ، إلى ارتفاع الشمس ، فبعد ما قرأت المقرأ ، وأنا مستند قاعد مستقبل القبلة ، وسيدنا جالس في المحراب من القبلة ، وأنا تلقاءه ومقابله ، وظهري بالجدار الشرقي ، إذ أخذني النوم قليلاً ، فرأيت فيما يرى النائم : قبة فيها قبرٌ ، ولها باب واحد ، وفي القبة ثقبان قبلي وشرقي ، وكأن عتماً ماء يجري من خارج القبة ، ويدخلها من الثقب القبلي ، ثم يجري فوق القبر ومغطيه الماء كله ويسفح منه إلى الثقب الشرقي ، ثم يخرج منه ويجري في العتم ، وهو المسقى الذي يجري فيه الماء ، ويجري فيه إلى نخيل كثيرة وبساتين يسقيها ، وكأن ذلك القبر قبر النبي ﷺ ، وكأني أقول في نفسي : يا سبحان الله ، هذه البقعة التي ضمت أعضاءه الشريفة ، أفضل من العرش والكرسي واللوح والقلم فما دونها ، وهذا الماء متروك هكذا يجري عليها ، وفي خاطري أن ذلك الموضع هو الروضة المشرفة ، وكأني أنظر إليها وأتمثل إليها بهذين البيتين من قصيدة البكري ، قوله :

قَدْ حَسَدَتْهَا سِدْرَةُ المُنْتَهَى ... لما حَوَتْ وَالفَلَكُ الأَكْبَرُ
وَدَّت نُجُومُ الأُفْقِ لَوْ أَنَّهَا ... كَانَتْ قَنَادِيلاً بِهَا تَزْهَرُ

وبقيتُ في رؤياي هذه إلى أن وصلني المقرأ ، فحركني الذي أقرأ بعده فانتبهت ، ثم لما قام سيدنا بعد أن صلى الإشراق ودخل الضيقة ودخلت معه ، حكيت له بهذه الرؤيا ، فلما سمعها وتأملها ، قال:

« هذا با يقع أمر ما يتحمله إلا هو ﷺ » ، فلما وقع هذا السيل ثالث يوم من الرؤيا وهو يوم الأربعاء، قال : « إنه كان يريد أن ينزل ما هو أعظم من هذا ، لكنه ﷺ تحمل منه ما لا يتحمله غيره » ، وسمى هذا السيل نابراً وقال : « إن سيلاً سابقاً كان يسمى قاحش ، وهذا نابر ، والنَّبْر أشد من القحش لأنه نبر الأرض فيُخرِج منها النخل ، وذاك يقحش ما عليها ، وهذا السيل نابر والله جابر » .

وقال ابنه السيد حسين بن الحبيب عبدالله : « وقفتُ على حافته قَدْر طَبْخِ قهوة ، فعبر مع جري الماء من النخيل الجاري بها الماء في هذه المدة ما يقدره الناظر يقطع ألفي نخلة ، وذلك أن النخيل إذا جرت بقوة جري الماء ضربت النخيل الواقفة بقوة ، فرمتها » .

انتهى ما أردنا ذكره من كلامه فيما يتعلق بأمر هذا السيل ، وكثر ما نقلناه عنه فيه ، لكثرة ما تكلم به من جانبه ، وعاش بعده ثمان سنين وشهراً واثنى عشر يوماً ، وكان النخيل التي في جهة بيت مسلمة دون غيرها في مسافة نحو ثلاثة أيام ، لا يرى فيها الشمس لقوة نخيلها ، وقرب تدانيها ، إنما بين النخلتين نحو ثلاثة أذرع غالباً ، ثم غرست أماكن تلك النخيل الذاهبة فرجعت كما كانت هـ .

وذمَّ أقواماً غرسوا في أماكن النخيل التي أخذها السيل ، فجاء سيل آخر فأخذ ما غرسوا ، *فقال* : « لو سمعوا كلامنا مارجعوا يفعلون ، وإن كان ولا بد يصبرون السنة ، ينظرون أولاً . وإذا رأيت مظاهر القهر فاخشع ولا تبطر ، وعند مظاهر الرحمة يكون أمر آخر ، كيف نخيلكم تلك بأجمعها مع كثرتها أخذها في مدة قريبة ، من وقت السحر إلى وقت الشروق ، ثم تعودون على القرب إلى الغرس؟ فهذا الفعل منكم كالمغالبة منكم للقادر القوي » .

وذكر هنا مثالاً : « وهو أن رجلاً فقيراً كان قام له رجل آخر غني بكل ما يحتاج إليه ، وأعطاه من المال حتى أغناه ، قال الله تعالى لذلك الرجل الغني : نحن أفقرناه فأغنيته فَأَمَتْنَاه ، فاحْيِهِ إن كنتَ تقدر على ذلك » .

أقولُ : ولعل ذلك على لسان أحد من الأنبياء هـ .

قال رضي الله عنه : « أهل الزمان أحاطت بهم ذنوبهم ، ولو أنهم يمتثلون ويفعلون ما نأمرهم به ، لكان فَرَّج اللهُ عنهم ما بهم ، ولكن راح بهم العصيان » .

وقال : « إنما تُستَدفع الامتحانات بالصدقات ، سيما المحن المالية ، فإن الجزاء من جنس العمل ، وكانوا يزدادون بالبلايا والمحن خضوعاً وذلة وافتقاراً إلى الله ، ويجأرون ويكثرون من الصدقات عند

ذلك ، وهؤلاء لا يزيدهم ذلك إلا بخلاً وافتجاعاً على الدنيا وحرصاً ، وما بهم إلا أعمالهم السيئة ، فحيث لم ينصفوا ويؤدوا حق الله - أي الزكاة - من أنفسهم بأنفسهم ، من أداء أوامره واجتناب نهيه كما ينبغي ، انتصف الله منهم بنفسه ، والدنيا في أيديهم كالعدانة - أي المزبلة - فيها الدجاج سواء » هـ .

أقول : يعني بالعدانة المزبلة ، وحركتهم في دنياهم ، أي اشتغالهم بأسبابها ، وشبههم كذلك بكونهم كالدجاج في حركتهم في المزبلة ، ونبرهم يبرزون نجاستها ويتحركون في نجاسة ، فهؤلاء يسعون في نجاسة ويحركون النجاسة ويتحركون فيها ، وإنما شبههم بذلك كذلك لكونهم معاملاتهم في دنياهم غير صحيحة على الشروط الشرعية ، ولا نية لهم فيها لله بتحصيلها ، مع شدة شح نفوسهم بها ، والشح يبغضه الله ، ومع الحرص عليها مع قلة أو عدم إخراج واجب ومندوب منها ، فهم في ذلك مع ذلك كحركة الدجاج وبحثها في المزبلة بنجاستها وقَذَرِها .

فهم كما قال علي بن مقرب - الشاعر الحساوي - رحمه الله :

لا يُعْـرَفُ المعْـرُوفُ فِي سَـاحَاتِهِمْ ... إِلَّا كَـمَا يُحْكَـى عَـنِ العَنْقَـاءِ
وَإِذا انْتَـدَوْا بَحَثُـوا النَّـدا فَكَأَنَّهُـم ... دُجَـجٌ تُبَاحِـثُ عَـذْرَةً بِفَضَـاءِ
صُـمٌّ عَنِ الحُسْنَى وَلَكِـنْ طَالَ مَا ... سَـمِعُوا كَلَامَ الحَـكْلِ فِي العَـوْرَاءِ
ثَكِلَتْهُـمُ الآبـاءُ إِنَّ حَيَاتَهُـمْ ... غَـمُّ الصَّدِيـقِ وَفَرْحَـةُ الأَعْـدَاءِ

والحكل : كلام النمل ، مبالغةً في ذمهم لسماعهم أخفى كلام في الخبث ، وعدم سماعهم لأعلى كلام في الطيب ، هذا ذمه لأهل جهته في وقته ، وهو آخر القرن السادس وأول السابع ، فكيف بأهل هذا الوقت ، وهو ما بعد السبعين والمائة والألف هـ .

قال رضي الله عنه : « أمور الدنيا لها ثلاث حالات : إقبالٌ وإدبارٌ ، واستواءٌ ، وهو أحسنها وأقلها مدة ، كاستواء الشمس والقمر . وأما أمور الآخرة إذا تمت ، فأطولها مدةً حالةُ التمام في الخير والشر » .

قال رضي الله عنه : « ما مضى عليه السلف من عادةٍ أو عبادةٍ ، وارتضوه ولم ينكروه ، من غير مانع ولا معارض ؛ فلا ننكره ، والحادث ننكره ، ولكن من خالف ما مضوا عليه إلى سُنَّةٍ فنتبعه ونرضاه ، ولكن أنّى له بذلك ؟ إذ ليس هو مثلهم في العلم والعمل » هـ .

أقول : مراده بالسلف حيث ذَكَرَه ، يعني به من سلف من السادة آل باعلوي ، قبل الشيخ القطب عبدالله بن أبي بكر العيدروس إلى وقته ، والحادث من بعد الشيخ عبدالله العيدروس إلى وقت سيدنا

عبدالله الحداد نفعنا الله بهم في الدارين ، كما بينه وقاله كذلك وهو قوله حيث قال كما تقدم : « **ما مضى عليه السلف ، من قبل الشيخ عبدالله العيدروس إلى وقته ، ما يَسَعُنا إلا تقليدهم والإتباع لما مضوا عليه، وما كان من زمانه إلى وقتنا هذا ، فلا نتبع إلا ما مَرُّوا عليه** » .

وتقدم مع هذا ذِكْر أشياء تُسْتَنْكَر شرعاً وطبعاً ، فقررها لكون ذلك مر عليهم ولم ينكروه ، حتى أنه استؤذن في فعل أمور شرعية ينبغي فعلها ، فنهى عن ذلك ، لكونهم رأوها ولا تعرضوا فيها بشيء، فقال : « **لمَّا لم يتعرضوا فيها ، فنحن لا نتعرض فيها أيضاً** » ، فإذا نظرت موضعها عرفتها .

من ذلك أنه استأذنه رجل في أن يجعل في الغبرة التي يكشت فيها الناس ، ويخرجون إليها للتفرج أيام القيظ بذبائحهم ، ويغسلون لحومهم منها ، وكان قليلاً جداً ، يُقَدِّرُه الناظر أنه لا يملي قدحاً ، فقال له الرجل المستأذن أنه يغمس الناسُ أيديَهم في الماء وهو قليل ، وفي أيديهم النجاسة ، وعلى الماء خطر من التنجس ، فلا يصح به الوضوء ، ويتنجس الناس به ، فقال سيدنا ما معناه : « **قد رآه ومر عليه من هو أفضل منكم ، وأتقى لله وأعلم بالله وبأحكامه منكم ، وما تعرضوا فيه ، فلا تتعرضوا لما لم يتعرضوا له ، ولا تعالجونا فيما مر عليه السلف ، فلستم خيراً منهم** » انتهى ، فترك الرجل ما أراد فعله من جعل جابيته يجتمع فيها الماء . ونسمع أن هذا الموضع أصله دعوة رجل ولي من آل باحميد ، سأل الله أن ييسر له موضعاً خالياً يتعبد فيه ، ويجعل له فيه ماء ، ثم إنه رأى هذا الموضع فارغاً في وسط جبل، فأعجبه، فمكث فيه يتعبد، فأنبط الله له فيه ثقباً يصب ماء كشخب الحليب من الضرع ، يجتمع في حُفَيرة صغيرة، مَصَبُّه من حجر في أعلى الجبل يرى قَدْرَ ما يكفي الرجل شرباً ووضوءاً .

قوله : « **لكن من خالف ما مضوا عليه إلى سُنَّةٍ فنتبعه** » ، هذا تقديرٌ على بُعْدٍ ، وضرب مثلٍ على مُحال ، كقوله تعالى : ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ۝٧٤ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ۝٧٥ وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ۝٧٦ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ۝٧٧﴾، ومحال وبعيد أن يستفزوه أو يركن إليهم ، والمعنى : بعيد جداً أن يُخالف ما مضوا عليه إلى سُنَّةٍ ، فإنهم أعلم من أن يجهلوا السُّنَّة ، وأحرص عليها من أن يتعدوها إلى بدعة ، فلا يتعدون السُّنَّة قط ، ولا يرتكبوا البدعة قط ، وإنما يكون ما يتعدونه إلا بدعة ، ولهذا قال : « **أنَّى له بذلك** » ، يعني بعيدٌ ذلك جداً ، إذ ليس هذا المتعدي ما مروا عليه مثلهم في العلم والتقوى ، فافهم .

وصار ذلك الموضع اليوم مكشتاً ومتفرَّجاً للناس ، سيما أيام القيظ ، يخرجون إليه بذبائحهم وقدورهم يطبخون فيها الشوربة ، وهو مأكولهم إذا خرجوا للفسحة ، وربما كان القدر يأخذ عشر قياسات الحساء ، والقياسة عشرة أمداد تريم ، أو اثني عشر مد شرعي ، وبهذا يكون الكيل ثلاث

فطرات ، وثمانية قهاول تريمية وأربعة أمداد ، وهي ثلث قهاول ، فإن القهاول اثني عشر مداً ، وهذه كلها تمرق من تلك الحفنة الماء المذكور ولا ينقص عنها ، لتعرف بذلك أنه كرامة واضحة ، مع شدة حلاوة ذلك الماء وخفته وسرعة تهضيمه للزاد .

وفي لغة أهل حضرموت يسمون الماء الخارج من الجبل : غبرة هـ .

وقلت لسيدنا يوماً بعد وفاة السيد أحمد الهندوان : إن فلاناً لم نعلم له من وارث ، فهل يكون أحد من الملازمين له والمنسوبين إليه ؟ ، *فقال* : « **قد يكون الموروث هنا ، والوارث في الصين مثلاً ، وأما المنسوبون إليه فلا وَرِثَه منهم أحد ، لأنهم لم يتربوا ولم يتأهلوا ، وقد كانوا إنما يجيء أحدهم عند فراغه**» .

فقلت : بأي شيء يتأهل لذلك ؟ ، *فقال* : « **بالإقتداء بهم واحترامهم ، وتأويل ما يشكل عليه مما يصدر منهم مما يظن أنه يُنكر شرعاً ، ولا يقتدي بهم فيه ، وامتثال أوامرهم ومراعاتهم ونحو هذا . وقد قال هذا المشار إليه لأولاده : لا تقتدوا بي في ثلاث : النساء والثياب والسماع . وكان ربما صدر منه ما يظنه مخالفاً للشريعة** » هـ .

أقول : وقد بلغنا عن الشيخ عبدالله العيدروس نفع الله به ، أنه قال : « ثلاثة أشياء نفعلها وننهى أصحابنا عنها : لبس الثياب الفاخرة ، ومجالسة الحكام ، والسماع ، فإنه يهتدي به واحد ويضل به ألف»، وكان المشار إليه آنفاً لا يخلو عقده عن أربع نساء .

ومثل سؤالي لسيدنا ما سمعته يقول : « **إن السيد أحمد بن علوي باجحدب لما توفي ما عُرِفَ له وارث قام مقامه ، فأمر بعض السادة خادمه أن ينادي عند باب الجامع إذا خرجوا من صلاة الجمعة : من وجد منكم الضالّة ؟ فنادى مراراً ، فإذا بعض السادة يقول له : هي محفوظة . وكان هو فعرفوه** » .

قال سيدنا عبدالله كما تقدم : « **عِلْمان لا نأمن متفقهة الزمان عليهما : علم الحقائق وعلم الخلاف بين الأئمة ، وعندنا منهما كتب كثيرة لكنا ما نظهرها** » هـ .

أقول : إنما كان لا يأمن على هذين العِلْمَيْن خوفاً من دعوى أحد من المشغوفين بحب الجاه والمال أنه من أهل الحقائق . وربما تكلم بشيء من الحقائق إثباتاً لدعواه ، كما ترى كثيراً من المدعين يذكر ذلك ، حتى ادعى أناساً السيادة كذباً وزوراً ، فدخلوا في لعنة الله ورسوله ، حتى كان سيدنا لا يرضى بمطالعة « معراج الأرواح » للشيخ أبي بكر بن سالم ، لما فيه من كلام الحقائق ، وكان مرتَّباً عليَّ قراءة ديوان ابن الفارض في المحضرة يوم الثلاثاء دون التائية الكبرى ، لما فيها من ذلك ، وما فيها أيضاً من

المبالغة كقوله :

فَطُوفَانُ نُوحٍ عِنْدَ نَوْحِي كَأَدْمُعِي ... وَإِيقَادُ نِيرَانِ الخَلِيلِ كَلَوْعَتِي
وَحُزْنِيَ مَا يَعْقُوبُ بَثَّ أَقَلَّهُ ... وَكُلُّ بَلاءِ أَيُّوبَ بَعْضُ بَلِيَّتِي

ونحو ذلك . وأما علم الخلاف بين الأئمة فلا يأمن عليه خوفاً من أن يكون أحد ممن لا يتقي الله يعرفه فيتبع الرُّخَص ، حتى إن بعض السادة طلبه أن يعيره كتاب موجبات الرحمة في الخلاف بين الأئمة ، ليقابل عليه نسخة منه عنده ، فقال له : « **إن كان الذي يقابل معك فلان أو فلان أعرناكه ، وإن كان غيرهم لم نعركه** » ، فقال : « ما أقابله إلا مع أحدهما » ، فأعاره إياه ، فقال لي : « **اِفتح الخزانة، وأعطه إياه** » .

ومرة قال : « **عِلْمان لا نُقَرِّي فيهما بين الناس : علم الحقائق وعلم التواريخ** » ، يعني لما في التواريخ من نوادر تحكى عن الأكابر .

قال : « قد تعلق الإمام الغزالي في آخر عمره بعلم الحديث ، حتى قال بعضهم : لو طال عمره لأرخص تلك البضاعة » هـ .

أقول : كان عمره خمساً وخمسين سنة ، ففاق عمره القصير عمر غيره الطويل .

قال سيدنا : « **وإنما تعلق به لأن من تمكن في العلم اللدني وتبحر فيه ؛ لا يلائمه ويطابعه إلا العلوم اللدنية كعلوم الحديث ، لأنها من عند الله على لسان رسوله** » ، وتقدم هذا ، وذكرنا معه أنه كان جُل مطالعته في جامع الترمذي ، حتى قال - أعني الإمام الغزالي - وسمعت سيدنا يذكره عنه أنه قال : « من كان عنده جامع الترمذي فكأنَّ عنده نبينا يتكلم » ، وإنما سُمِّيَت علوم الأولياء لدنية لقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ ، يعني الخَضِر ، وهو العلم الإلهامي ، فكل العلوم الإلهامية التي للأولياء تسمى: لدنية ، فعلوم الإلهام للأولياء ، وعلوم الوحي للأنبياء ، ومعنى ﴿مِن لَّدُنَّا﴾: أي من عندنا ، يعني أنها موهبة من عند الله ، اختص بها من اختصه من خلقه .

قال سيدنا رضي الله عنه : « إنما تعود بركة الصالحين على أهلهم ، وعلى من لزم الموالاة لهم بعد موتهم » .

ودخل عليه رجل من أهل بيت دولة الجهة ، فقال لسيدنا بعض السادة وهو السيد زين العابدين:

« كيف رأيتم فلاناً ؟ - يعني ذلك الرجل - عسى أن يكون له حراقة ناضجة ، بحيث توري من أول قدحة » ، *فقال* : « إنَّا قد طرحنا القراعة في هذا الزمان ، فلم نقدح لأحد فيه قط » ، ومراد السيد زين العابدين بالحراقة الناضجة يعني : هل هو رجل طيب يقبل الأمر بالخير فيمتثل الأمر من أول مرة ، كما تعلق القداحة النار من ضربة واحدة هـ .

وسمعت سيدنا يقول : « من تأمل أحوال الصحابة وتوقُّفهم في الأمور عما لا يعني ؛ عرف آداب الرجال ، وآداب العلم ، وآداب الأئمة ، وعرف ما ينبغي أن يستكثر منه من العلم ويستقل منه ، وما يُظهَر منه وما يُكتَم . انظر كيف لم يسألوا النبي ﷺ عن الرجل الشديد بياض الثياب من هو ؟ ومن أين جاء ؟ حتى ابتدأ بنفسه ، وحكاه لعمر بعد مدة ، ويعرف من ذلك منع الإخبار عن الشيء قبل وقته ، وإذا جاء الوقت أَخبر من غير سؤال .

وكيف لم يسألوا المرأة التي طلبت أن يقام عليها حد الزنا عن الرجل الذي أتاها ، وهل هو بغصب أو برضا منها ونحو ذلك » هـ .

أقول : قوله : « **يعرف من ذلك منع الإخبار عن الشيء قبل وقته .. إلخ** » ، أي كما قال الخضر لموسى عليه السلام : ﴿فَلَا تَسْـَٔلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّىٰٓ أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا﴾، وقوله : « **بعد مدة** » وذلك بعد ثلاثة أيام ، كما بَيَّـنَ ذلك في حديث سيدنا عمر هذا ، حيث قال : « فلبثت مليًّا » ، فَبُيِّنَ ذلك في رواية أنه ثلاثة أيام . وما ذكر من آداب الصحابة رضي الله عنهم ، فإن الله سبحانه لما اختارهم لصحبة نبيه عليه الصلاة والسلام ، ألهمهم كمال حسن الأدب اللائق منهم لرسول الله ﷺ ، وعَلَّمَهم إياه له، وما فوق أدبهم إلا أدب الأنبياء عليهم السلام .

انظر إلى أدب سيدنا عمر رضي الله عنه لما دخل على رسول الله ﷺ ، فرآه يتبسم ضاحكاً ، وكان عنده بعض أزواجه تطلب منه وتستكثره ، فلما رأته دخل استحيت منه وخرجت ، فتبسم ﷺ من حيائها منه ، وما استحيت منه عليه السلام ، فلما رآه يتبسم قال : « أضحك الله سِنَّكَ يا رسول الله » ، فظاهر قوله هذا دعاء ، وباطنه استخبار ، وما قال كعادة الناس من الجلافة والكثافة : ما يضحكك؟ بل خاطبه بالأدب اللائق ، فأخبره وقال : « عَجِبْتُ من هذه التي كانت عندي ، فما سَلَكْتَ يا عمر فَجًّا إلا سَلَكَ الشيطانُ فَجًّا غير فجك » ، فما فوق هذا الأدب العجيب إلا أدب الأنبياء ، كأدب النبي عيسى عليه السلام حيث قال الله تعالى له : ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥۚ﴾.. الآيتين ولم يقل : لا والله ما قلته . فإن في هذه الكلمة بشاعة وقلة أدب ، وهي عادة المتخاطبين ، ولكن قال ما قال ، وهو أدب

ما فوقه أدب ، ويحق له الأدب ، ويحق في موقفه هذا غاية كمال الأدب ، لأنه أحد كبار الرسل أولي العزم، الذين هم أفضل الخلق لخالق الخلق وربهم وسيدهم ، وملهمهم معرفة الخير والشر ، فيكون أدبهم أفضل الأدب ، وكلُّ أَحَدٍ أدبه بحسب فضيلته ، وما فوق أدب الصحابة إلا أدب الأنبياء . وعِلْمُ الأدب من أفضل العلوم ، كما قال الإمام يحيى بن يحيى اللَّيثي الأندلسي تلميذ الإمام مالك رضي الله عنه : « طَلبتُ الأدب سبعة عشر سنة ، وطلبتُ العلم ثلاث سنين ، فياليتني جعلتُ الثلاث أيضاً في الأدب » هـ .

قال رضي الله عنه : **« إذا أردتَ أن تعرف أنك لم تعلم عيبك من نفسك ، وإنما تعرفه من غيرك ، فانظر إلى نخامتك ومخاطك ونحوهما ، كيف لا تكره ذلك من نفسك ، ولو وقع في أي موضع منك، ولو وقع بك من غيرك ولو في طرف إصبعك ؛ لكنت تستقذره ، وتكره الفاعل ، فكذلك العيوب ، فاترك كلَّ ما يكرهه غيرك منك ، وما تكرهه من غيرك »** .

قال : **« من تأمل أحوال الأنبياء ومن تبعهم من العلماء والصالحين في الدنيا ، عرف أنه لم يسترح فيها ويطمئن بها إلا أحمقٌ جاهلٌ »** هـ .

أقول : أي حيث لم يَقِرَّ لهم قرار ، من تنكيد مُكَذِّبٍ أو طعن حاسدٍ أو معاند ، ونحو ذلك مما يحصل منه شغل القلب والقالب ، وكضيق معيشة ، وكل ما يشوش القلب ويتعب الجسم ، والحاصل أن الدنيا جعلها الله دار بلاء ، مُرَّةً مكروهة على من يحب ، ويزيد ذلك وينقص بحسب منزلته عند الله ، كما ورد : « أشدكم بلاءً الأنبياء ، ثم الأولياء ، ثم الأمثل فالأمثل » - أي الأفضل فالأفضل - وحلوةً عند الفجار ، وقد جاء في الخبر : « إن الله أوحى إلى الدنيا ، يا دنيا مرِّي لأوليائي واحْلَوِّي لأعدائي »، أي كوني لأوليائي مُرَّةً ، ولأعدائي حلوة .

وقال رضي الله عنه : **« كل من هو في الدنيا ، أو ما دام الإنسان في الدنيا ، لا يخلو من شاغل ، إلا إنهم بين مُتَلَذِّذٍ بشاغِلِهِ فيخف عليه ، وبين أحمقٍ لا يعرف الشواغل »** ، وغير ذلك .

وقوله هذا عامٌ لكل أحدٍ من خاصٍّ وعامٍّ ، والمتلذذ بشاغله كالمشتغل بمالٍ يعامل فيه ويقلّبه ، أو مشتغل بثمرة بها يحفظها ويردُّ عنها ما يُنقِصها ، ويضرُّ بها ، فهو مشغولٌ مُتَلَذِّذٌ بشغله ، بخلاف مشغول بمرض وفقر ونحو ذلك ، والأحمق ناقص العقل ، قد يكون غافلاً عن تلك الشواغل هـ .

قال : « الهَمُّ الذي ليس لأجل أمور الدين ما فيه فضل ، وهو ضيق الصدر ، والآخر يُسمَّى الحَزَن، والدنيا بجملتها ما تسوى اشتغال القلب بِالهَمِّ لأجلها ، بل هي أحقر وأقل من ذلك ، والهَمُّ للآخرة يسمى الحَزَن » .

قال : « ينبغي أن لا يُخِلِي الإنسان في هذا الزمان يده من شيء يعيش به ، إذ لا راغب في الخير ، ولا مُبالٍ بمحتاج ، ولعدم الشكر فيه من الغَنِيِّ ، والصبر من الفقير » .

قال : « لا يفتقر من هو من أهل البيت إلا إن افتقر من الدين ، لأنهم مَدْعُوٌّ لهم منه عليه الصلاة والسلام بعدم الحاجة ، زيادةً وتأكيداً على ما ضمنه الله من الرزق العام لهم ولغيرهم ، فإذا بطلت صلاة الإمام بطلت صلاة المأموم ، لأنهم العمدة » هـ .

أقول : يعني أن أهل البيت النبوي هم أئمة الناس ورؤساؤهم ، فإذا اختلوا ؛ اختل غيرهم من بقية الناس ، كما إذا اختلَّت صلاة الإمام اختلَّت صلاة المأموم ، وتقدمت مقالته التي في آخرها قوله : « فإذا فسد الرؤوس فسد المرؤوس » هـ .

قال : « إذا لم تعلم ما عمل الإنسان ، فاعرف جزاءه تعرف به عمله ، إذ الجزاء من جنس العمل » .

أقول : كما ترى أناساً لا يحتفلون بوفاء ما عليهم للناس ، ولا يهتمون ببراءة ذمتهم منها ، فابتلاهم الله وجزاهم بأن يتوقفوا لأناس في أشياء من الأموال ، فيطلبون بها ويغرمونها من أموالهم قهراً على أنوفهم ، جزاءً بما كانوا يعملون ، وذكر في « روض الرياحين » أن رجلاً قال : سَرَقْتُ مرةً ، فاتُّهِمَ بالسرقة غيري ، فقُطِعَت يدُه بسرقتي . فاتفق أن رجلاً سرق فاتُّهِمْتُ بسرقته ، فَقُطِعَتْ يدي بسرقة غيري ، جزاءً لي أستحقه ، وهو معنى قولهم : « الجزاء من جنس العمل » ، وهذا بيان لقول سيدنا هذا هـ .

قال : « الهداية والضلال من الله تعالى ، لكنه يهدي على أيدي الأنبياء ، ويضل على أيدي الشياطين، فإذا كان الإنسان سائراً على السيرة السوية فعرض له الشيطان ، وقال له : تعال من هنا . فإن كان له عقلٌ يُميِّز به ، وأراد الله تعالى ثباته ، قال له : لا أتبعك ، فإني أعرف الطريق وقد مارستها . ومن أراد إضلاله امتثل ما أمره به الشيطان » .

قوله : « قال له .. إلخ » ، مراده يعني خالفه ، لمعرفته بأن تلك معصية تغضب الله ، والدليل في

المعنى قول الله تعالى : ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾﴾، وقرأ سيدنا عمر هذه الآية في خطبته بالجابية ، فسمعها نصراني فقال : « يا أمير المؤمنين ، إن الله يهدي ولا يضل»، وأراد يشغب عليه ، فقال لمن حضره من الصحابة : « إن أعادها فاضربوا عنقه »، فسكت خوفاً هـ .

قال : « لا تتأوَّل إلا إذا كان عليك ، واحذر أن تتأوَّل إذا كان لك ، فتخرج من الدين وتصير تابعاً للهوى والحظ ، بل اسأل عنه العلماء المتقين دون المتساهلين » هـ .

أقول : يعني إذا تأوَّلتَ أمراً تريد تعمله ، فلا تفعل إلا ما كان فيه الإحتياط لدينك ، كصب الماء على محل النجاسة الحكمية سبع مرات ، أو بعد ذهاب عينها على مذهب الإمام أحمد ، وإن طهر بعد زوال العين على مذهب الإمام الشافعي وغير ذلك ، وكل ذلك وهو معنى قوله : « **إن كان عليك** » ، ودع ما فيه الترخص وهوى النفس ، كحمل المصحف من وراء حائل مع الحدث على مذهب الإمام أحمد ، وكجمع الصلاتين في المرض خوف الفوات ، وهوى النفس هو الذي يسمى الحظ ، وهو ضد الحق ، وهو معنى قوله : « **لك** » .

وذلك أن للنفس في المباحات حَقٌّ وحَظٌّ ، فما كان لله كالأكل والنوم بنية الإستعانة به على العبادة فهو الحق ، وما قُصِدَ به مجرد شهوة النفس فهو الحظ المذموم ، ومنه التقليد في أمور فيها احتياط للدين، كالجمع بين الصلاتين في المرض على شرطه ، إذا لم يصح في مذهبه بخلافه في أمور يدعي صحتها في بعض المذاهب لطمع الدنيا ، كمن يزعم أنه مقلد في مسألة بيع التطوع ، ويسمى بيع العهدة ، على زعم أنه صحيح في غير مذهبه ، فهذا كما قال : خروج من الدين واتباع للهوى .

فلو سألتَ عنه العلماء المتقين كما أمرك ، لقبحوه عندك ونهوك عنه ، ولو سألتَ عنه المتساهلين بدينهم من علماء الدنيا ، المؤثرين للدنيا على الدين ، لحسَّنوه لك وأمروك به .

وقد رأيت رجلاً من المتساهلين المنسوبين للعلم ، جالساً عند رجل من أهل الدنيا ، وإذا به يمدح له هذه المسألة ، ويقول له : « اليوم ما أحسن للناس منها ، ولا أسهل عليهم وأنسب لهم »، فما سألتهم حتى تبين لي أنه يعني تلك المعاملة الخبيثة والمسألة القبيحة ، فتكلمت فيها بما عندي ، وتكلم هو فيها بما عنده ، وجرى بيننا كلام أزعل كلاًّ منا الآخر ، وقال : « كان لك مندوحة عن هذا الكلام ، والآن عرفتك » ، فقلت له : ما لي عنه مندوحة حيث سمعتك تمدحها ، والآن لما عرفتني ، فاعرفني أني أعتقد حرمتها ، وإن ما عرفتني عرفتك بنفسي . والتفتُّ إلى الرجل الذي نحن عنده في مجلسه ، وقلت له : أنصحك لوجه الله إن كنت تعملها فاتركها وتب إلى الله منها ، وإن كنت لا تعملها

فابقَ على ما أنت عليه . ووقع بيني وبين ذلك المادح لها مثل المباهلة .

وقد سمعت سيدنا عبدالله يقول : « **سُئِلَ عنها الفقيه عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج بافضل صاحب المختصر ، فقال : هي مسألة مظلمة ، أرجو أن الله يقيض لها من يزيلها** » ، فاتفق من تقدير الله أنَّ ذلك المادح لها مضى تلك السنة إلى الحج ، فاختصم مع أناس من البدو عند بعض الموارد ، فضربوه ضرباً شديداً حتى غُشِيَ عليه ، ثم حُمِلَ إلى رَحْلِهِ ثم مات في الحال .

فما كرهت له ذلك حيث كان يدعو إلى هذه المسألة الخبيثة ، وقد اشتُهِرَت وانتشرت في الجهات والأقطار . ومن الدليل على حرمتها أن الله تعالى لما نهى عن تعاطي الربا ، قال سبحانه : ﴿وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ﴾، وأين رأس المال منها وهي تأخذ المال بأسره وأضعافه، وأشار في الحديث إلى أنها ستأتي وتنتشر وتعم كل خاص وعام ، حيث قال رسول الله ﷺ: « **سيأتي زمان لا يبقى فيه أحدٌ إلا أكل الربا ، فإن لم يأكله أصابه من غباره** » ، وإنما رغَّب الناس فيها كثرة ما يحصل منها ، حيث ذهب منهم التقوى والورع ، ولا بالوا بما يحصل على غير الوجه الشرعي ، وهي من بدع العلماء المتساهلين بالدين ، كما تقدم قوله : « **ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم** » ، ولهذا قيد السؤال هنا بالعلماء المتقين دون المتساهلين هؤلاء هـ .

قال رضي الله عنه : « **نحن مع أهل الزمان في العبادات والعادات كالغريب الذي جاء إلى بلد لا يعرفها ، فرأى أمراً لا يعرفه ، فسألَ عنه فأُخبِرَ به . وقد كان الأولون لهم سيرة ، فترى سيرتهم ويخبرونك عن سيرة مَنْ قبلهم ، وهؤلاء لا سيرة ولا سريرة ، بل اندرست السِّيَر المحمودة وأهلها ، وصار الأمر على حالةٍ أخرى ، وإذا أردت أن تعرف ذلك فانظره في نفسك** » .

قال : « **باطن العادات عبادات ، وباطن العبادات مشاهدات ، إن كان له ترقي . والنفحات ما تُنتَظَر إنما هي يُتَعَرَّض لها ، فقد تحصل في عروض الأوقات** » هـ .

وقال لي يوماً : « **إِستفتح الباب بأظفارك لعل أن يُفتح لك** » .

فقلت : التعرض للنفحات الوارد في الحديث بماذا يكون ؟، *فقال* : « **بالدعاء ، والجلوس في الأوقات المرجو حصولها فيها ، والإنتباه وعدم النوم إذ ذاك ، فإذا وَرَدَت النفحةُ عليك وأنت نائم ، فما يقال لك متعرض** » .

قال : « **من تاب من ذنبٍ وفي نفسه أنه إن تمكن منه فَعَله ، فهو مُصِرٌّ عليه ولا توبة له ، وإن انتفى هذا العزم بعد التوبة ثم رجع بباعثٍ آخر ، صحت توبته الأولى ، وتوقفت إثابته وإثمه على أن يتركه**

خوفاً من الله أو يقتحمه ، وإن تاب كذلك صحت توبته ، والعبرة فيها بالندم ، وفاعل الذنب كمن يأخذ القَدوم ويهدم به ، والقَدوم الذنوب ، والمهدوم الدين ، والطاعات بناء له » .

قال في حديث : « كُتِبَ على ابن آدم نصيبه من الزنا ، مدرك ذلك لا محالة ، فالعين زناها النظر .. إلخ » ، *قال* : **« يعني أن هذه الأعضاء المذكورات أبواب الفاحشة ، منها يتصل إلى القلب العزم عليها ، بسبب ما حصل من كل عضو بما يقتضيه ، ولكن تمام ذلك بفعل الفرج ، فبه تتم الفاحشة كلها ، ويأثم بها من كل الأعضاء المذكورة ، وهو معنى قوله : يُصَدِّق ذلك الفرج أو يُكَذِّبه »** .

قال : **« أي يتم ذلك بفعله ، أو تبقى ناقصة ما عداه فقط »** هـ .

أقول : انظر إلى هذا الكلام البديع ، الذي ما رأيته في شروح هذا الحديث قط ، تعرف أنه لسان الوقت ، واسطوان الدين في هذا الحين إلى يوم الدين ، على ما تقدم بيانه وتفصيله هـ .

أقول : والإجتراح ، هو ما فعل بتلك الجوارح يسمى بذلك لذلك ، وأفعال تلك الأعضاء كلها صغائر ، تكفرها الصلوات والواجبات ، وهي مقدمات لفعل الفرج وهو الكبيرة ، فإذا تمت به أثم على تلك الصغائر إثم أمثالها ، وأثم بتلك الكبيرة إثم أمثالها ، فإذا اجتنبها خوفاً من الله كفَّرت ذنوب الأعضاء باجتنابها ، قال الإمام الغزالي : « وهي على عدد أبواب جهنم ، ﴿لِكُلِّ بَابٍ مِّنْهُمْ جُزْءٌ مَّقْسُومٌ﴾ ولا يستحق دخولها من تلك الأبواب إلا من عصى بتلك الجوارح » ، يعني معصية كل جارحة منها تجرُّه إلى بابٍ من تلك الأبواب ، ومن تلك الأعضاء أيضاً حصول الطاعات ، وثامنها القلب ، وكلها بعدد أبواب الجنة الثمانية التي ورد : أنَّ مَن توضأ وتشهَّدَ ، فُتِّحَتْ له أبواب الجنة الثمانية إكراماً له ، ويدخلها من أيها شاء . ومعصية كل عضو تُكَفَّر بطاعته ، وبفعل الأركان الخمسة ، ومن المعاصي ما لا تكفرها ، ويكفرها الهَـمُّ بالمعيشة كما ورد ، وقد مثلوا لتلك الأعضاء بأن القلب كالحوض ، والأعضاء السبعة كسبعة أنهار ينصب منها الماء إليه ، والماء مثل لأفعالها المؤثرة فيه هـ .

قال : **« من دسائس الشيطان أن يُشْغِلَك عن الخير بخيرٍ آخر ، حتى لا تُحسِن الأول ، فلا تستعجل بخيرٍ لتفعل خيراً آخر ، بل أَحْسِن الذي أنت ملابسٌ له ، ثم افعل الثاني . وشغله له بأن يوسوس له ويهمه على الذي يكون غير ملابس له ، عن ما هو متلبس به ، فيتعلق قلبه به عما هو فيه ، وبهذا يُعلم أنَّ كل خاطر يخطر للإنسان في الصلاة والذكر والقراءة ، فهو من الشيطان ، وإن كان خاطراً يخطر يأمر بخير ، فضلاً عما يأمر بمباح ، بل عما يأمر بمكروه »** ، وتقدم مثل هذا وزاد : **« فإن أمر بحرام كان أشد»** .

وقال لرجل جاء زائراً : « أتريد أن تسافر إلى بلدك ؟ » ، قال : « الذي بغيتوا » .

فقال رضي الله عنه : « كيف الذي بغيتوا ؟ هذه كلمة فيها سوء أدب ، إنما نستخبركم عما أردتم أنتم، وتعرضونه علينا ، ما بعد إلا إذا قال واحد هكذا ، نخليه يمكث شهرين حتى نشوف خبره . ونحن قد ذكرنا لكم ما جرى لنا مع السيد عمر العطاس وأمثاله ، لتعرفوا وتعتبروا لما زرناه ، وخرجنا من عنده وهي تمطر ، فقال لنا : عساكم تجلسون . فقلنا له : إن أشرت علينا بالجلوس جلسنا ، وإن كنت ألّا من قدا المطر ، فلا علينا من ذلك . فخرجنا وأبردنا ، وإنما ذاك مع الإنطراح الكلي ، وحتى نحن نود أن يكون معنا منه بعض شيء ، وقد جاء بعض المريدين إلى بعض المشايخ طالباً ، فقال له : رح أولاً إلى عند الشيخ عبدالقادر ، يعلّمك ، أظن قال الأدب أو الإنطراح أو نحو ذلك ، فراح إلى عنده فتركه نحو مائة يوم أولاً . والكذب كذبان : كذب يختلقه الإنسان ، بأن يقول خلاف الواقع ، وهو كذب الفساق. وكذب في الحال ، بحيث يدَّعي أمراً لو امتُحِنَ فيه لكان على خلاف ذلك . ولا يصير الإنسان من الصديقين حتى يصدق في الأمرين جميعاً ، ثم هو على درجات » هـ .

أقول : قوله : « الكذب كذبان » ، أي نوعان يعني كذب في المقال ، وهو الإختلاق الذي ذكر ، كما قال تعالى مخبراً عن المكذبين إنهم قالوا : ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا ٱخْتِلَٰقٌ ﴾، وهو ذكْرُ خلاف الواقع. وكذب في الأفعال والأحوال ، وهو كذب أهل الدعوى ، الذين يُظهرون للناس خلاف ما هم عليه، ليوهموهم أنهم صادقون فيما ادَّعَوا ، ولا يصير من الصديقين حتى يصدق في المقال وفي الحال . وبالصدق مرة يكون صادقاً ، وفي أكثر يكون صدوقاً ، فإن غلب عليه الصدق في جميع أقواله وأفعاله وأحواله بحيث لا يجري منه خلاف ذلك قط ، صار صِدِّيقاً ثم الصِّدِّيقية على درجات ، من كامل وأكمل منه .

وكان من سيرة سيدنا عبدالله كما قدمنا عنه ، وكما يدل عليه أقواله وأفعاله ، كما أسمعناك في هذا النقل مراراً ، أنه إذا أشار على أحد بأمر ورآه راغباً في خلافه قال له : افعل كذا . على الذي يريده المشور عليه ، وإنما قلنا لك كذا إيناساً لك ، ونحو ذلك ، مثاله : أنه جاءه مرة رجل زائراً ، فمكث يوماً ثم أراد السفر ، فقال له : « لا بعد تسافر ، عادك اجلس يوماً » ، فحسَّ منه الرغبة في السفر ، فقال له: « سافر على بركة الله ، وإنما قلنا لك عادك اجلس إيناساً لك » ، ونحو هذا ، وتكرر مراراً قوله : « إذا استشارنا إنسانٌ في أمر ، فإذا رأيناه راغباً فيه حَسَّنّاه له وأشرنا به عليه ، ونحو ذلك ما لم يكن إثماً أو ضرراً » .

وقال له رجل : « إن فلاناً يسلم عليكم ، وقد كُفَّ بصره فتعب لذلك ، وقال : ما مرادي إلا لأجل

أن أنظر في المصحف فأقرأ نظراً ، ورأى النبي ﷺ في المنام فقال له : اِكتحل بالعظة . وأنه سأل عنها فقيل له : هي كلِّ شجرةٍ ذات شوك . ويريد منكم تأويل ذلك ، وكيف الكحل به ؟ » ، *فقال* : « قل له: **يقول لك : العظة إنما هي الاتعاظ والصبر ، فليصبر على ما أصابه ولا عاد يسأل ، وما عليك من أهل الزمان ، فإن مطالبهم كلها دنياوية ، وإنما يسترونها بأمور الدين ، كمن لا مال له ، فيقول : لو أعطاني الله مالاً تصدقت منه ، وفعلت وفعلت . فانظر لو حصل له مال ، واجلس له عند داره » ﻫ .**

أقول : يعني فانظر كيف يُكَذِّب قوله ويُبطِل دعواه ، فلا يعطيك فلساً ، ولا يفعل ، فهو كثعلبة المدَّعي ذلك ، ثم لما تمكن منه لم يفعل ما قال ، فكتبه الله في جريدة المنافقين ، وأنزل فيه : ﴿وَمِنْهُم مَّنْ عَٰهَدَ ٱللَّهَ﴾، إلى قوله : ﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ﴾، وكانوا يخافون من نزول الآيات خوفاً شديداً ، فلما نزلت ، أتى بزكاته مسرعاً إلى رسول الله ﷺ بعد ما شَحَّ بها ، فردها عليه الصلاة والسلام وقال : « لا أقبلها وقد قال الله تعالى : ﴿فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِى قُلُوبِهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ يَلْقَوْنَهُۥ﴾» ، ثم أتى بها إلى أبي بكر ، ثم إلى عمر ، وكلٌّ منهما رَدَّها . فهكذا أقوال وأحوال المنافقين ، يدَّعي أحدهم فعل الخير عند العجز ، ثم عند التمكن لا ينفق فلساً .

وأراد سيدنا أن أحوال أهل الزمان كأحوال أهل النفاق ، ينوي فعل الخير حال العجز ، وفي حال التمكن يَقْدِر بما نوى ويغلب شحه وبخله على نيته ، فهكذا أقوال وأحوال وأعمال أهل الزمان ، كلها تابعة لمطالبهم ومهماتهم ، وكلها دنيوية وإن ادعوا الدين ، ويسترون عوارهم بقبيح أحوالهم ، بما ادعوه من صلاح نياتهم وأعمالهم ، كما قال سيدنا في قول صاحب الرؤيا : « ما مرادي إلا لأجل القراءة في المصحف نظراً » ، فما صَدَّقَ سيدنا دعواه هذه حيث قال : « **ما عليك من أهل الزمان ، فإن مطالبهم كلها دنياوية ، وإنما يسترونها بأمور الدين** » ، لأن في مطالب الدين عِزًّا عظيماً عند الله وعند خلقه ، وأما مطالب الدنيا ففيها ذل عظيم عند الله وعند خلقه ، سيما إن سترها بأمور الدين ، كما هي عادة المفسدين، وأكثرهم من المتشتهين بأمور الدين ، من العلم والعبادة ، ولا عليك من دعاويهم الكاذبة .

ويشهد لقول سيدنا هذا ما ذكره الإمام الغزالي في كتاب الغرور من الإحياء ، أن رجلاً جاء إلى بِشْرِ الحافي ، وقال : « عزمتُ على الحج ، أفتأمرني بشيء ؟ » ، فقال له : « كم أعدَدْتَ للنفقة ؟ » ، فقال: « ألفَيْ درهم » ، قال بِشْر : « فأي شيء تبتغي بحجَّتِك ؟ نزهةً أو اشتياقاً إلى البيت ؟ أو ابتغاء مرضاة الله تعالى ؟ » ، قال : « ابتغاء مرضاة الله تعالى » ، قال : « فإن أصَبْتَ مرضاة الله وأنت في منزلك ، وتنفق ألفي درهم ، وتكون على يقينٍ من مرضاة الله ، أتفعل ذلك ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « اذهب، فاعطها عشرة أنفس : مديونٌ يقضي دينه ، وفقيرٌ يرم شعثه ، ومعيلٌ يحيي عياله ، ومربي يتيم يفرحه، ومن في غم يفرجه ، فإن قوي قلبك تعطيها واحداً فافعل ، فإن إدخال السرور على قلب المسلم ،

وإغاثة اللهفان ، وكشف الضر ، وإعانة الضعيف ، أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام ، قم فأخرجها كما أمرناك ، وإلا فقل لنا ما في قلبك » ، فقال : « يا أبا نصر ، سفري أقوى في قلبي » ، فتبسم بِشْر وأقبل عليه ، فقال له : « المال إذا جُمِعَ من وسخ التجارات والشبهات اقتضت النفس أن تقضي به وطراً ، فأظهَرَتْ أعمال الصالحات ، وقد آلى الله على نفسه أن لا يقبل إلا عمل المتقين » ، وقيل لِبِشْرٍ : « إن فلاناً من الأغنياء كثير الصوم والصلاة » ، فقال : « المسكين ترك حاله ، ودخل في حال غيره ، إنما حال هذا إطعام الطعام للجياع ، والإنفاق على المساكين ، فهذا أفضل له من تجويع نفسه ومن صلاته مع جمعه للدنيا » انتهى .

ويفهم قوله : « مع جمعه للدنيا » ، أنه لو جمع بين الأمرين كان أكمل وأفضل ، وتعيينه له أوصاف من يدفع إليه يدل على أن لا فضيلة إلا في الدفع إلى المحتاج ، سيما إلى المضطر ، وأنه لو دفعها إلى عشرةٍ على وصف واحد مما ذكر ، كفى في حصول الفضيلة ، وأنه لو دفعها إلى محتاج واحد كان أفضل ، لثقل الدفع إلى واحد على النفس أكثر من الدفع إلى جماعة .

وطريق هؤلاء الأكابر إنما يراعون مرضاة الله ، وهي غالباً في ما يخالف ما تهواه النفس ، وقد ذكر الله في القرآن النفس على ثلاث حالات : النفس الأمَّارة بالسوء : وهي أشد وأخبث أنواعها شراً وعتواً ، وتابُعها أشد الناس عصياناً ، لأنها لا تأمر إلا بِشَرٍّ ، ويجمع جميع معاني طبائعها الشهوة والغضب ، وهما مراد الصوفية بذم النفس ، أي ذم هاتين الخصلتين ، بتنوع دواعيهما . الثانية : النفس اللَّوَّامة ، وهي التي قد قاست العبادة مدةً ، ولا كَمُلَت بَعْد . والثالثة : النفس المطمئنة ، التي عاشت العبادة حتى اطمأنت بها ، وانطوت دواعيها كلها ومطالبها في دواعي الروح ومطالبه ، كما تقدم ذلك من قوله مراراً ، منها قوله : **« من الناس من أعطاه الله قوة الروح ، ومنهم قوة الجسم ، ومنهم قوة الروح والجسم »** ، ومرَّ تفصيله في الكراس الذي قبل هذا .

وسأل رجلاً يريد السفر : **« متى تريد السفر ؟ »** ، فقال : « ما تريدون ؟ » ، *فقال رضي الله عنه* : **« مرادنا إطلاق الكلام للتنفيس ، ولا نقيده فيحصل التضييق ، وإذا جعل الله لك النَّفَس - أيّ السعة - فلا تُضَيِّق على نفسك ، ليعاملك الله بالنفَس في دينك ومعاشك وكل أمورك . ولو أردنا نقيد الكلام في مثل هذه الأمور قيدناها - أي عيناها - بوقت وجعلنا إذا قال : أريد السفر اليوم ، قلنا : غدوة ، وإذا قال : غدوة ، قلنا : اليوم ، ولكنا اخترنا التسهيل على الناس ، فيكون على ما سَهُلَ على الإنسان ، إن أراد ذلك عن قُرْب أو على بُعْد »** هـ .

أقول : مراده بالقيد ، يعني يقيده بوقت ، أي فلا نعين له وقتاً ، فربما إن قرب وقت ما عيناه ، له حاجة بعد ما انقضت ، وإن بَعُدَ فلعله ربما لم يبق له حاجة وملَّ الجلوس ، ورَغِبَ في السفر ، فلهذا لم نقيد ، وتقدم قوله لذلك الرجل الذي سأله : « **متى تسافر ؟** » ، فقال : « **متى بغيتوا** » ، فقال له : « **كيف متى بغيتوا ؟ هذه كلمة فيها سوء أدب ، وإنما نستخبركم فتخبرونا بما أردتم** » ، أي وقت ما أردتم السفر ، وكذلك على هذا السبيل ، كلما أُستشير فيه يشير على المستشير بما يريده ويرغب فيه ، ويرغّبه فيه مع ذلك ، كما تقدم قوله ذلك عن حال نفسه . وهذا على مقتضى أحوال أهل الزمان ، كما رأى وجرب من أحوالهم ، وإنما يترك من يتقيد بقوله وعلى رأيه إلى أن يأذن له ويأمره ، فيكون في الوقت الذي يريد وعلى الوجه الذي يريد ، لا على ما يريد المسافر ويهوى ، ولكن إنما ذلك للمريد الصادق ، ومع الإنطراح الكلي ، كما قال ذلك ، كما مر آنفاً ، لا لكل أحد ، حتى قال : « **حتى نحن نحب أن يكون لنا من ذلك بعض شيء** » ، لا كما يقول الرجل من أهل الزمان : على ما بغيتوا ، وعلى ما تريدون وهو بخلاف ذلك ، فظاهره الإنطراح وباطنه الإقتراح .

ولذلك ما رضي به منهم ، وأنكره عليهم ، لما يعلم ويختبر من شأن أهل الزمان ، وممارسة أحوالهم وأقوالهم وسائر أمورهم ، فعلى الخبير به سَقَطْتَ ، وعين الجواد فُرَارُه ، فهذا القول منهم دعوى بلا بينة، قال في حِكَمِه : « **لا تثبت الدعاوي بالأقوال ، حتى تقوم لها البينة من الأفعال والأحوال** » . وقال فيها : « **إذا أردتَ أن تستشير إنساناً في أمر ، فَقَدِّر أنه يشير عليك بخلاف ما تريد ، فإن رأيتَ امتثاله وإلا فَدَعْ** » ، وغالب من يستشير اليوم أو يشار عليه بل كلهم ، ليسوا على هذا الشرط المشار إليه ، فلذلك لم يقيد لأحد ، بل أطلق ذلك مطلقاً . والمراد بالإطلاق هو التسهيل كما ذكر ، وهو أن يجعل الشور على وُفْقِ مراد المشور عليه ، فهذا هو الذي يستر به وينشرح له صدره ، وهو الذي أشار إليه بالتسهيل . وأما الشور بخلاف ذلك ، فيتنكد به ويضيق منه صدره ، وربما أجابك حاضراً وخالفك غائباً، كالذي جاء من الهند ، ثم استشاره في الرجوع إلى الهند ، فأشار عليه بالجلوس وتَرْكِ المسير إليها، وقد جاء منها ، ثم خالف شوره وسار ، وهذا هو الذي أشار إليه بالقيد الذي ذكر أنه يكرهه، وأنه لا يعامل أهل الزمان به فيضيقوا به . ويكفيك في هذا المعنى من قصة هذا الرجل ، وقصة بِشْرِ الحافي مع الذي استشاره في الحج ، حيث أن كُلًّا منهما خالف ما أشير به عليه ، مع إن بِشْراً كان في وقت صالح، فكيف به في وقت سيدنا عبدالله، وقد قال أهل الحكمة ، وهي من بديع ما ذكره الحكماء، وتكلم به العلماء : « **إن المجيء بإرادة والمسير بإجازة** » يعني أن المجيء بإرادة الزائر ونيته ، والمسير بإجازة المزور، أي بإذنه ورخصته .

وعَنَّفَ سيدنا رجلاً على جلافته وتراشته عند مصافحته ، *فقال* له : « طبعك قوي ، ونفسك منطوية على كِبْر ، وما دام الإنسان ونفسه - أي مع نفسه - ما يحصل على شيء ، وأقل الحال الأدب، ولو بأدب العامة ، من السلام والتحية والصلاة على النبي ﷺ ، والإنسان لا يخلو إما أن يكون قلباً خالصاً ، فذلك من جند الرحمن ، أو نفساً خالصاً ، فذلك من حزب الشيطان ، أو قلباً ونفساً ، مرة يغلب القلب ومرة تغلب النفس ، وغالب الناس لا يخلو من هذه الثلاثة الأقسام .

وقد أثبت الله للإنسان الشيطنة ، بقوله تعالى : ﴿ شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ ﴾ ، وقد عجزوا حتى عن التأدب بالأقوال ، فكيف بالتأدب بالأفعال والأحوال ، فإذا كان الإنسان قائماً مع نفسه ، فكيف يمكن منه التأدب بالمشايخ والإقتداء بهم والتخلق بأخلاقهم . ونحن الآن ما عاد رأينا محلاً يصلح للكلام وقابلاً له ، ولا رأينا أحداً نتكلم معه ، وإلا فمعنا كلام كنا نتكلم به ، لكن ما رأينا له محلاً لائقاً ، ما عاد يريد أحدهم إلا يقرأ كتاب ، ويطرح كتاب لا غير ، وإلى متى هذا ؟ ما هو ألَّا كما قال عمرو بن العاص ، لمَّا قيل له : إن النبي ﷺ كان يحب إنشاد الشعر ، ويعجبه الأُنس . قال عند النبي ﷺ أشياء لا نعلمها ، أو كلمة نحوها ، وذاك الذي له تلميذ يقرأ عليه ، فأراد يوماً يقرأ عليه فقال له : اتخذتني حِرْفَةً لقراءتك ، اقرأ على ربك » ، أو كما قال .

ثم قال : « ولم يزل في نفسي من كلمة عمرو شيء ، وقد لامَهُ السلف جداً ، حتى فَضَّلُوا معاوية عليه، فقال الحسن : وكان معاوية خير الرَّجلين » ، أو كما قال .

وقيل لسيدنا : « نظركم علينا » ، *فقال* : « نظر الله يشملنا ويشملكم ، وإذا رأيت المنقر يسقط من الدار فاشرد ، لئلا يسقط عليك ، والوسائط ما عليهم إلا أن يفتح الواحد منهم لك بابه ، والمدد يجيك مثل البحر ، وأصل المدد من النبي ﷺ ، ومنه تتفرع طرق السماء » .

ثم ذكر قصة قطب الدين الحنفي مع تلميذه في المشي على الماء ، وقد تقدمت ، وهي تبين معنى مراده من كلامه هذا . وكذلك ذكر قصة سهل بن عبدالله التستري لما قيل له : « نريد منك كرامة نراها مشاهدة ، فنحب أن نراك تمشي على الماء » ، فقال : « سل فلان المؤذن » ، فسأله فقال : « ما أعرف منه كرامة إلا أني رأيته يوماً جالساً يتوضأ ، فزلق في النهر ، فلولا أني أمسكته لغرق » .

وكذلك ذكر قصته مع باجبير لما زار معه الشعب ومرورهما المعجاز ، *قال* : « وكان باجبير صائماً ، فعالجته على الإفطار وقلت له في الحديث : ليس من البر الصيام في السفر . فأبى ، فأصابه عطش شديد، وكان هناك سقاية ماء ، فغلبه العطش فشرب ماء كثيراً ، ثم تقايأه » ، *قال* : « فلما وصلنا الشعب ، قلت

لباجبير في الليل : نم . فأبى ، وقال : إذا نمتُ زرتَ الشيخ أحمد بن عيسى وتركتني » .

وقال : « فعالجته على النوم ، فما صدَّقت على الله أن ينام » .

هذا حد ما تلفظ به في حكي القصة ه .

أقول : وكان مسيره لزيارته ، وأراد الزيارة وحده ، لفوائد يعرفها هو يجدها في الإنفراد ، وقد أعفاه هذا في مسيره معه ، لكنه رآه أنسب في المسير معه من غيره .

ومعنى القصتين الأوليتين : نسبة الأمور الخارقة إلى الله ، وأنه تعالى يفعلها لهم حين يريد ، لا حين يرون ، وقد يدركونها بذكره وطاعته ، حيث يكملون في معرفته حيث قال قطب الدين : « ما مشيت على الماء إلا بذكر الله » ، وإن القاصر في المعرفة قد يتوفق معهم في الأمر الخارق كرامة لهم ، وإنه لمكان نقصه في المعرفة قد يتخلف عن موافقتهم في ذلك لنقص عبادته عن عبادتهم ، كما أن ذلك المريد قال: « ذكرت الله ، فغرقت » ، وقصة سهل ، وكان صاحب كرامات أراد الله نجاته على يد ذلك المؤذن ، ستراً له عن إظهار أمر خارق على يديه ، مع حصول مقصود النجاة .

وفي كل ذلك نسبة الأمور كلها إلى الله من عبادة وكرامة ، كما تدل على ذلك أيضاً قصة باجبير ، وقد سمعتها من سيدنا غير مرة ، ورأيتها أيضاً مكتوبة بهذا اللفظ : أنه أمره سائراً في طريقه بالإفطار من صيامه وعالجه ، وذكر له لفظ الحديث المذكور ، ومع كل ذلك يأبى أو بقي على صيامه ، فلمخالفته سلط الله عليه شدة العطش ، فلما صعد المعجاز - وهو جبل يمر عليه المار من هذه الطريق ، وتسمى طريق المعجاز - فلما رأى السقاية لم يتمالك ، ووقع كالمغشي عليه ، فشرب ماء كثيراً حتى تقايأ ما شربه .

والمعنى أن الله ما كتب له صيام ذلك اليوم ، وهو استشهادٌ بقوله : « **والمدد يجيك مثل البحر** » ، يعني يجيء المدد إلى الخلق من الله إلى النبي ﷺ ، ثم إلى من أراد سبحانه ، وهو معنى قوله : « **ومنه تتفرع طرق السماء** » ، أي تتفرق أقسام المدد النازل من السماء ، أي من عند الله كل قسم منه وفق ما أراده الله ، والله أعلم .

قوله : « **وإذا رأيت المنقر .. إلخ** » ، والمنقر في لغتهم هي النخلة المنفردة وحدها ، فإن أكثر نخيلهم نخلات متعددات في مغرس واحد ، يسمونها دوارة ، والفردة الواحدة يسمونها منقر . قوله : « **فاشرد** »، فإن الواحدة الفردة أقل ثباتاً من الكثير المتماسك في رأي العين ، قال الله تعالى مشيراً إلى النوعين : ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ ، ومراد سيدنا بهذا المثل أنه يريد بذلك نفسه ، بأنه منفرد في هذا الوقت بدعوة الخلق إلى الله ، وما له من معين له على ذلك من داعٍ آخر يدعو معه ، فهو في انفراده بذلك كالمنقر الذي هو النخلة الفردة من النخل ، فإنْ قابَلْتَهُ في طلبكَ النظر بالطاعة وحسن الأدب والإمتثال

والإنقياد الكلي ظاهراً وباطناً؛ انتفعتَ ، وحصل لك منهم النظر الذي طلبته منهم ، وإلا فإن الإساءة مع الواحد الذي لا تجد غيره أشد عليك من الإساءة إلى من تجد غيره ، فإنك تلجأ إلى من أردت ، وإذا لم يكن إلا واحداً فلا تجد من تلجأ إليه غيره ، وتطلب منه النظر .

فإن قَصَّرتَ في شيء من حسن الأدب وقوة الإعتقاد وأسأت معه الأدب ، فاشرد لئلا يحل بك الضرر ويفوتك النظر ، ولا تجد من تلجأ إليه في ذلك ، وهو المراد بسقوط المنقر ، يعني يحل بك الضرر من حيث ترجو النفع ، يعني فبقلة أدبك مع هذا الواحد القائم بهذا الشأن اليوم المنفرد فيه ، تتضرر من حيث ترجو النفع ، وهذا هو الغالب من أحوال الناس اليوم ، ولهذا قال : « **إذا رأيت المنقر .. إلخ** » فأطلق القول فيه ولا قيَّده بحالٍ ، لعمومه في أحوال الناس ، أعني قلة الأدب مع الصالحين ، فالمراد أنك تجنَّب سوء الأدب معهم ، ولو رأيته في عموم الناس .

قال عبدالله باشراحيل في مجموعه الذي جُمِعَ في كرامات سيدنا عبدالله : قلت له يوماً : « **أعانك الله** » ، فقال : « **يا باشراحيل عود واحد ما يُوقِد وحده ، مليح ، قدَّرْنا أنه أوقد وحده ، القِدر فارغ ما فيه شيء** » ، قال باشراحيل : « **وهذا دليل أنه وحيدُ وقتِهِ وفريدُ دهرِهِ** » .

وأقول : أظن أن مراده بالقدر الخالي ، الفارغ القلب من الرغبة في طلب الخير ، وإن ذلك اليوم عامٌّ في كل أحد ، قَلَّ أن ترى أحداً يهمه أمر معاده ، بل ماتوا ، إلا من غالب همه أمر معاشه ، إلا إن كان أحد مخصوص غير معلوم ، قسم الله له نصيباً ، وكل أحد يترجى ذلك ، وعلمه عند الله . فالمراد أنك تحرَّ أسباب الخير وتجنَّب أسباب الشر ما استطعت ، لمكان اختيارك المطالب أنت لمقتضاه فقط ، وكل أحد يعمل ما اختاره ، والإرادة والقدرة الإلهيتان من وراء ذلك يعملان عملهما ، فمُوَفَّقٌ ومخذولٌ .

فافهم هذا المعنى العظيم ، فإن مدار الدين كله عليه ، والتوفيق والخذلان لتمام وعد الله للدارين بملئهما ، ولإظهار الفضل بالعفو لمن أراد سبحانه ، وللجنة أعلى وهو مأوى ومثوى للسابقين المقربين، لقوة معرفتهم بالله وكمال عبادتهم لمكان ذلك ، لإرادة الله لهم ذلك ، ولها أسفل وهو مستقر الأبرار أصحاب اليمين ، لما ورد : عِلِّيون أعلى الجنة ، وأهلها المقربون والأبرار في ربض الجنة . أي أسفلها ، حتى أنهم يتراؤون أهل عليين كما يتراؤون الكواكب الغائرة في أفق السماء . وللنار أعلى ، وهو جهنم وهو لعصاة الموحدين ، وأسفل وهو الدرك الأسفل من النار ، وهو مأوى المنافقين ، لمخادعتهم الله بإظهار الإسلام وإضمار الكفر ، وما بينهما هو مأوى الكافرين ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾.

وأما المدد والخير إذا تحريت وفعلت أسبابه ، ودفع الشر إذا تجنبت أسبابه ، كما أنت مطالب بذلك لمكان اختيارك ، إذا كان معك اختيار ، كما هو مناط التكليف ، فذلك إنما هو بيد الله بحسب إرادته

تعالى ، فيتوقف على حصول سببٍ ودفع مانعٍ ، وإذا تعلقت به الإرادة انزاحت عنه الموانع ، وانجَرَّت إليه الأسباب ، وإذا لم تتعلق به لا يفيد ذلك شيئاً .

قوله : « ووسائط الخير » ، إنما عليهم أن ييسروا لك التوصل إليهم ، بعدم منعك منه ، فإذا وصلت إليهم بجسمك مع اجتماع قلبك عليهم بالمحبة والعقيدة ، وهو مراده بسلامة القلب التي يحصل بها المدد ، وهو فتوح العارفين ، والوصول إلى مقامات الأولياء ودرجات المقربين ، فإذا وَصَلْتَ إليهم كذلك فأبشر بحصول الخير ، ولا تخف من وقوع الشر ، فما أوصلك الله إليهم إلا له في ذلك مراد ، كما قال لي سيدي عبدالله يوماً في هذه المادة ، قال : « فما أوصلك الله إلى عندنا إلا لأمرٍ يريده ، ولله في ذلك مراد » ، أو كما قال .

قوله : « والمدد يجيك مثل البحر ، وأصل المدد من النبي ﷺ » ، أي أصل مددهم لهم ولمن اعتنى إليهم من النبي ﷺ ، وهو من الله ، ومنه يتفرع إلى الخلق ، القاصدين والمقصودين ، بحسب ما قسم الله لكلٍّ من النصيب ، وهو معنى قوله : « ومنه تتفرع طرق السماء » ، شعر :

مَا أَرْسَلَ الرَّحْمَنُ أَوْ يُرْسِلُ ... مِنْ رَحْمَةٍ تَصْعَدُ أَوْ تَنْزِلُ
فِي مَلَكُوتِ الله أَوْ مُلْكِهِ ... مِنْ كُلِّ مَا يَخْتَصُّ أَوْ يَشْمُلُ
إِلَّا وَطَهَ المُصْطَفَى عَبْدُهُ ... نَبِيُّهُ مُخْتَارُهُ المُرْسَلُ
وَاسِطَةٌ فِيهَا وَأَصْلٌ لهَا ... يَعْلَمُ هَذا كُلُّ مَنْ يَعْقِلُ

إلى آخر القصيدة ، إلى أن قال :

وَأَنْتَ بَابُ الله أَيُّ امْرِيءٍ ... أَتَاهُ مِنْ غَيْرِكَ لَا يَدْخُلُ

وما أحسن ما قاله الشيخ عبدالله بن أسعد اليافعي نفع الله به ، شعر :

عَلَيْكَ صَلاةُ الله يَا مَلْجَأَ الوَرَى ... إِذَا أَقْبَلَتْ يَوْمَ الحِسَابِ جَهَنَّمُ
وَرَامُوا شَفِيعاً يُسْتَغَاثُ بِجَاهِهِ ... لَهُ شَرَفُ العَلْيَا وَجِيهٌ مُكَرَّمُ
فَعَنْهَا خَلِيلٌ وَالْكَلِيمُ تَأَخَّرُوا ... وَعِيسَى وَقَبْلَ القَوْمِ نُوحٌ وَآدَمُ
فَحِينَ الكِرَامُ الرُّسْلُ عَنْهَا تَأَخَّرُوا ... أَتَيْتَ إِلَيْهَا بِالنَّدَى تَتَقَدَّمُ
أَغَثْتَ جَمِيعَ الخَلْقِ إِذْ كُنْتَ رَحْمَةً ... بُعِثْتَ لِكُلِّ العَالَمِينَ لِيُرْحَمُوا

فَأَنْتَ الـذِي فِي الحَشْرِ تحت لِوَائِهِ ... جَمِيـعُ البَرَايَـا لِلْأَنَـامِ مُقَـدَّمُ

وقوله : « **إذا رأيت المنقر يسقط من الدار** » ، يبين أن المراد بالمنقر ، الرجل الممثل له به ، فإن المنقر الذي هو النخلة ، إنما هو في الخلاء لا في الدار .

ومن معاني ذكر القصتين - قصة الحنفي وقصة سهل - فالذي ظهر لي أن معنى ذلك أن الأشياء مفوَّضٌ أمرها إلى مشيئة الله ، لا لأحد غيره مدخلٌ ما في أمرٍ ما ، فَرُبَّ شخصٍ من أكابر الأولياء قد أجرى الله على يديه كرامات في أوقات أراد الله سبحانه ، فوقعت كما أراد ، كما وقع للحنفي في المشي على الماء . وفي أوقات أُخَر لم يُرِد ذلك مع أنهم قد اضطروا إليها فلم تحصل ، حيث أن الله تعالى لم يُرِدْها إذ ذاك ، كما في قصة سهل هذه خاصة ، وقد أراد ذلك له في وقتٍ غير هذا فوقع ، وإنما المقصود في هذه الواقعة سلامته من الغرق ، فأراده الله له على يد غيره ، فحصل له بإرادة الله على يد غيره تقدمةً لسؤالهم منه ذلك ، للستر عليه ولبيان أن الأمور كلها بيد الله ، لا مدخل فيها قط لأحدٍ سواه في شيء ما ، ولعدم استحقاقهم لظهور كرامة يرونها منه ، كما طلبوا ذلك .

ومن معنى قصته مع باجبير ، فالذي ظهر لي من معنى ذلك ، أن الإنسان إذا قصد أمراً يرجو نفعه وعمله ، فما يحصل له تمامه ونفعه إذا تم إلا بإرادة الله ، فإذا لم يُرِدْ له فعله رَدَّهُ عنه قهراً عليه ، وإن بذل جهده فيه وعجز الخلق عن رده عنه ، فلا يطمع فيه أصلاً . وإلى هذا المعنى الإشارة بمعالجة سيدنا لباجبير على الإفطار ، وامتناعه عنه وتصميمه على الصوم، وما ذاك إلا رغبةً منه في ثوابه ، ثم إنه لمَّا لم يقسم له ، حيل بينه وبينه قهراً ، كما قال سيدنا في بعض المكاتبات : « **وإذا لم يرد الله للعبد أمراً من الأمور ، أيَّ أمر كان ، صرفه عنه بما شاء من الصوارف ، فكان ذلك من قدره** » .

وسيأتي قوله : « **ونحن ما نحب أن نطالب أصحابنا بالإجتماع علينا ، ولا نحبه منهم ، بل الأحسن أن يبقى كلٌّ مكانه ، حتى تبقى القلوب سليمة ، ومع كثرة الإجتماع لم تحصل سلامة القلوب ، ونكره كل أمر يكون فيه وحشة الخاطر على أحد ، فينبغي أن تحصل السلامة في القلب ليحصل المدد والإنتفاع، وقد ذكرنا لكم اختلاف المذاهب ، وقصة الحنفي والتستري وقصتنا مع باجبير ، لتعرفوا بذلك ما هنالك ، وأهل الزمان ما مرادهم إلا خوارق كخوارق السحر** » ، أو كما قال .

قوله : « **ونحن ما نحب ..** » ، إلى قوله : « **كخوارق السحر** » ، يعني إذا كان اجتماع القلوب بداعيةٍ من القلب مزعجة ، فذلك باعثٌ من الله ، وهو الذي يحصل به المدد وأما إذا كان بالتكلف والتَّعَمُّل، وبمطالبةٍ منا لهم به ولوم منا على عدمه ، فذلك الذي لا نحبه ، فإنه رياءٌ دالٌّ على فساد القلب ، ولا نحبه ، ولا يحصل معه المَدد ، وذلك الباعث الذي من الله لا يحصل إلا مع سلامة القلب ، وبه يحصل

المدد ، وهو الباعث الذي ذكره في أول « رسالة المريد » ، حيث قال : « **وأول الطريق باعثٌ قوي..** »، إلى ما ذكر من وصفه . وقد قلت له يوماً : ادعوا لي بحصول ذلك الباعث . فسكت ساعة وتبين الغضب في وجهه ، ثم قال : « **اعملوا ولا تطلبوا جزاء العمل ، فإن ذلك جزاء العمل ، فاعملوا أولاً ثم الله يفعل ما يشاء لمن يشاء من جزاء عمله** » ، أو كما قال .

قوله : « **كخوارق السحر** » ، يعني أنهم لجهلهم يظنون أن الولي متى ما أراد فعل الأمر الخارق للعادة ، كما يفعل الساحر ذلك متى ما أراد ، وليس كذلك ، بل إنما هو مجرد فعل الله ، يفعله متى أراد لمن أراد . واستشهد لذلك بقصة سهل ، وتقدم قوله : « **الناس يظنون أن الولي متى ما أراد أن يكاشف أحداً بما في نفسه كاشفه** » ، وكذلك تقدم قوله : « **إن الأمر الخارق لا نأخذ به عادة مطردة** » ، أو كما قال . وأما الساحر ، فإنه يفعل شعبذة بتركيب أمورٍ أجرى الله العادة متى رُكِّبَتْ حصل ذلك ، ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾.

وحاصل تلك القصص التي ذكر ، أن الأشياء كلها متعلقة بالمشيئة لا غير ، لكن أشياء متعلقة بالقدرة والإرادة ، سواء أفادت فيها الأسباب أم لا ، وإفادة الأسباب من القدرة ، لكن للخلق فيها نسبة شرعية متعلقة بالإختيار . ومن الأول المعجزات والكرامات ، ومن الثاني ما تفيده الشعبذة ونحوها التي أشار إليها بخوارق السحر هـ .

وذكر علم الحديث ، وأَكْثَرَ فيه *ثم قال* : « **ما جَمَعْنَا كتب الحديث إلا لأجل المهدي ، فإنه إذا خرج لا يأخذ بفتاوى الفقهاء ، بل إنما يأخذ بالكتاب والسُّنة ويدع ما عداهما ، أما ترى الإختلاف الحاصل بينهم . ولولا ما جرى عليه سلفنا من الأخذ بمذهب الشافعي ، كان أحبنا أن نأخذ بمذهب مالك، لأن فيه مسائل إذا تأملتها رأيتها أنها هي السُّنة ، لأنه عالم المدينة ، وعمدته ما أجمع عليه أهل المدينة . ولكن الشافعي مالكي ، لأنه تلميذه أخذ عنه ، ولكن لما تأخر عن مالك وقد أتقن مذهب مالك ، وعثر على علوم وأحاديث أخرى لم يقف عليها مالك ، فخالفه في بعض المسائل ، ثم جاء بعده الإمام أحمد وتتبع مذهب الشافعي وحَرَّره ، فكأن المذاهب لذلك مذهباً واحداً** » .

وسمع في كتابٍ قرئ عليه فيه : أن اجتماع أهل المدينة على أمر أنه سنة ، *فقال* : « **ما قلنا لكم ، لو لا أنَّ سلفنا كانوا على مذهب الإمام الشافعي ، لأخذنا بمذهب مالك ، وذلك لأنه من أهل المدينة ، وأخذ بما اجتمع عليه أهل المدينة ، ولكنا نظرنا في ذلك ، فما رأينا بينهما كثير خلاف ، ومذهب الشافعي مذهب مالك** » هـ .

أقول : قوله : « عالم المدينة » ، يعني أن هذا اللقب للإمام مالك مشهورٌ معروفٌ به ، فحيث أُطلق هذا اللفظ فهو المراد به ، وأول من لَقَّبَهُ به النبي ﷺ ، حيث ذكره فقال : « يكاد الناس يضربون أكباد الإبل يطلبون العلم ، فلا يجدون أعلم من عالم المدينة » ، فأجمعوا على أن المراد به الإمام مالك ، كما ورد أيضاً : « سيأتي عالم قريش يملأ طبقات الأرض علماً » ، فأجمعوا على أنه الإمام الشافعي ، فهو لقبٌ له من النبي ﷺ أيضاً .

قوله : « وعمدته ما أجمع عليه أهل المدينة » ، يعني وإجماعهم حُجَّة وأي حُجَّة ، فمن كان عمدته على ذلك فلا يُغالَب .

قوله : « فكأن المذاهب الأربعة لذلك مذهباً واحداً » ، أي كون كل واحد منهم أخذ عن الآخر ، ثم تتبع الآخذ ما ثبت مما لم يذكره المأخوذ عنه ، ومرادُ كلِّهم اتِّباعُ ما ثبت عن الله ورسوله ، فهم لذلك مذهب واحد . ويؤيد ذلك ما حُكي أن بعض كبار مشائخ اليمن ، رأى أن القيامة قامت ، وأن الحق سبحانه دعا بالأئمة الأربعة للحساب ، فلما وقفوا بين يديه قال لهم : « أرسَلْتُ إليكم رسولاً واحداً بشريعةٍ واحدة ، فجعلتموها أربعاً » ، فما منهم من تكلم ، ثم أعاد القول مرة أخرى فما تكلموا ، ثم أعاد الثالثة فقال الإمام أحمد بعد الثالثة : « يا رب ، إنك قلت : ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ » ، فقال تعالى : « أذنتُ لكم » ، فقال الإمام أحمد : « من يشهد علينا بذلك ؟ » ، قال : « تشهد عليكم الملائكة » ، قال الإمام أحمد : « لنا القَدْحُ في شهادتهم » ، قال : « لِمَ ؟ » ، قال : « لأنهم شهدوا علينا قبل وجودنا ، لمَّا قالوا حين خَلَقْتَ أبانا آدم : ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾، فشهدوا علينا بالإفساد وسفك الدماء قبل وجودنا » ، قال سبحانه : « تشهد عليكم أعضاؤكم » ، قال الإمام أحمد: « يا رب ، كانت الأعضاء في الدنيا لا تشهد ، وهي اليوم تشهد مكرهة ، والمكره لا تصح شهادته »، قال سبحانه : « أنا أشهد عليكم » ، قال الإمام أحمد : « يا رب ، حاكمٌ وشاهدٌ ، ما عرفنا هذا من أحكامك في دار الدنيا » ، فقال تعالى : « اذهبوا فقد غفرت لكم » . تمت الحكاية ، وما بقي الرائي بعد هذه الرؤيا إلا نحو ثلاثة أيام وتوفي .

وقوله : إنك قلت : ﴿لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾، يعني لا يمكننا الكلام إلا بإذنك ، فلهذا قال بعد ذلك : « أذنت لكم » . وفي فهمي أن سبب تخصيص الإمام أحمد بالكلام ومراجعة الخطاب، حيث هو حجة المسلمين وقدوتهم في وقته ، حيث عولج وامتُحِنَ من ثلاثة خلفاء ، يتواصون عليه في العلاج على القول بخلق القرآن ، فَثَبَّتَهُ الله فلم يجب ، ولا وَرَّى في ذلك كما ورَّى غيرُه . ورأى وهو في المحنة الخضر ، فقال له: « يا أحمد ، إنك إمامٌ مُتَّبَع ، وقدوةٌ يتبعك الناس ، فلا تقل بخلق القرآن ، فإن قُلْتَ به ، ما بقي أحدٌ من الناس إلا قال به » ، وثبته الله في إبائه عن ذلك ، حتى لم يقله ولم يُوَرِّ به .

وقول سيدنا : « **ولكنا نظرنا في ذلك ، فما رأينا بينهما كثير خلاف** » ، أي بين المذهبين ، مذهب مالك ومذهب الشافعي ، وهذا يدل على أنه كان مجتهداً لا مقلداً .

وقول باشراحيل المتقدم ، لما قال سيدنا له : « **عود واحد ما يوقد وحده ، مليح ، قدرنا أنه أوقد وحده ، القدر فارغ ما فيه شيء** » ، فقال باشراحيل : « وهذا دليلٌ على أنه وحيدُ وقتِهِ وفريدُ دهرِهِ » .

ويحققه أيضاً مكاشفة عبدالخالق له به ، وتقدم ذكر قصة اجتماعه به في موقف عرفة ، قال : « **فقلت له : أنت من رجال السر الذين سألْتُ الله أن يجمعني بهم . قال : أجل ، فقلت له : نود الإجتماع بكم في خلوة . فقال : إن دخلت الليلة إلى مكة حصل الإجتماع ، وإلا وعدكم المدينة** » ، قال : « **فاشتغلنا بأداء المناسك وما اجتمعنا به** » .

وذكر باشراحيل أنه ما زال في موقف عرفة معه في دعاء وتضرع ، حتى حضرت صلاة المغرب ، فأذَّنَ رجلٌ وأقام الصلاة ، وقَدَّمَ الرَّجُلُ سيدَنا عبدالله ليؤمَّ الناس ، فأمَّهم وصلَّى بهم صلاة المغرب ، ولا أدري الذي أذن وأقام عبدالخالق أو غيره ، ثم بعد السلام قام رجل وصاح بالناس : « أبشروا يا أهل الموقف ، هذا القطب حجَّ فيكم » ، قال سيدنا : « **ثم تفرق الناس ، وكان عبدالخالق حج بالخطوة، وطاف ليلة العيد طواف الإفاضة ، ورجع بالخطوة إلى المدينة في ليلته** » .

أقول : ظاهر الأمر أنه لم يكن وقف بمنى ، فأهدى دماً .

قال سيدنا : « **ودخلنا مكة ليلة العيد ، وطفنا طواف الإفاضة ، وأحللنا من الحج ورجعنا إلى منى، وأقمنا فيها أيامها الثلاثة ، ثم بعدها دخلنا إلى مكة** » .

وأقام بدار حسين التي أراده ينزلها ، ونزلتُها مع جماعةٍ معارفٍ لولده محمد يحيى بن حسين ، وذلك سنة حجيت بعد وفاة سيدنا سنة ١١٣٢ ، وتأثرت بمآثره نفع الله به . وبقي هو بمكة إلى أن كارى لهم حسين الكراء المرجَّع ، *قال* : « **فلما وصلنا المدينة ، دخلنا على عبدالخالق ، وإذا له بيتٌ وأهلٌ وحاشية، وكنتُ ظننتُه متجرداً عن الأهل والعيال ، فاجتمع عندنا في بيته خلق كثير ، فسألني بعض الحاضرين عن مذهبي ، فأردت أن أقول : مذهبي الكتاب والسنة . فخفتُ من إنكار أحد من الحاضرين ، فقلت: مذهبي شافعي . فكاشفني عبدالخالق فقال : ألا تقول ما في نفسك ؟ مذهبك الكتاب والسنة ، وتقول مذهبي شافعي ؟** » ، *قال* : « **وما كاشفني بهذا أحد غيره** » .

وتقدم قوله : « **ما كاشفني أحد بما في نفسي إلا ثلاثة** » ، ذكر هذا بذلك ، وواحد بتعز ، وواحد بالهجرين .

وقال لي يوماً ، وذكر سنة حجِّه وأنه سنة ١٠٧٩ ، وذكر لي أيام نزوله مع رفقة معه نحو العشرة بدار حسين بافضل ، قال : « **فقال لنا : الحذر إذا بدت لكم حاجة ما تقولون لي بها** » ، يريد أنه هو الذي يقضيها ، وشَحَّ أن يقضيها أحد غيره .

قال : « **فقلنا له : إن بدت حاجة تُطلَب إلى الخلق ، فأنت أولى بها ، وقدنا عندك وفي بيتك ، وإن قضى الله سبحانه الحوائج فما بقي لنا كلام** » ، ثم رفع رأسه إلي والتفت لي وقال : « **فاعلم هذا أنت واعمل أنت عليه** » هـ .

أقول : إن هذه مكاشفة من سيدي لي ، لما أعلمه الله أنَّ حال خادمه سيؤول إلى هذا الأمر ، وإلى هذا الحال ، فنحن عليه عملاً بقوله رضي الله عنه ، وإن أمورنا صالحة ببركته بلا كسبٍ ولا مالٍ ولا حِرفةٍ ولا استشرافٍ ولا سؤالٍ ، وأرجو كما ستر الله فيما مضى أن يستر أيضاً فيما بقي . وما عرفت الرجل الذي أشار أنه سيقول لي مثل ما قال له حسين بافضل إلا بعد نحو أربعين سنة من قول سيدنا لي ، ونحو ثلاثين سنة من قول الرجل لي مثل ذلك ، وإلا كنتُ قلتُ له في الحين ما قال لحسين ، وذلك أني حين دخلت الحساء في ربيع الأول سنة ١١٣٤ ، قال لي رجل مبارك ، كُلٌّ يعتقد فيه الخير ، ومن بركته أنه رأى ليلة القدر ، وذكر لي وصف ما رأى ، ومن جملته أنه رأى النجوم كالقناديل المعَلَّقة ، قال لي في ربيع المذكور : « باالله عليك ، وروح حبيبك عبدالله ، إن أردت حاجة أو سلفاً أن تقول لي » ، وما قال لي ذلك أحد غيره ، وما زال يتحفَّى عنا ، ويسألني عن أحوال معاشنا في بيتنا ، ويقول : « هل تحتاج إلى كذا ؟ » ، فإن كان حاجة قلت : نعم ، وإن لم تكن حاجة ، قلت : لا . ثم مع ذلك يقول لي : « باالله عليك ، أنكم مقضيي الحاجة ؟ » ، فأقول : نعم . حتى اجتمع له كثير من الدراهم ، ثم قال : « أنت بريء منها » ، وما خطر ببالي أن إشارة سيدنا إليه إلا نحو سنة ١١٦٥ ، فحين فهمت ذلك مضيت إليه إلى بيته، وأخبرته بقول سيدنا ، وأنه أشار إلى من يقول لي ذلك ، وما قاله لي أحد غيرك ، فتكون الإشارة إنما هي إليك ، وذكرته أنه قال لي ذلك فذكره ، وقلت له : جوابك ما قاله لي سيدي عبدالله: إن بدت لي حاجة تُطلَب إلى الخلق فأنت أولى بها ، وإن قضى الله سبحانه الحوائج فما بقي لنا كلام . وفرح فرحاً شديداً بسبق الإشارة منه إلى ذلك ، وأنه وافق أن قاله لي ، ثم لم يمكث إلا قليلاً وانتقل إلى رحمة الله ، رحمه الله .

قال سيدنا : « **ولما كنا بجدة قادمين للحج ، جاءتنا كتب كثيرة من محبين يطلبونا أن نقصد عندهم، وأول ما سبق منها ووصل إلينا أولاً كتاب حسين بافضل الدويلة ، واعتذرنا من أن نقصد عنده لما كنا نعلم من شكاسة طبعه ، وإذا به قد وصَّى حامل الكتاب بكلامٍ ما ذَكَرَهُ في الكتاب ، قال له : إن**

اعتذر أن يقصد عندنا ، قل له : إنه قال إن عندي داراً بنيتها وما تركت أحداً ينزلها قبلكم ، ومرادي أن يكون أول من ينزلها أنتم . فأجبناه إلى ذلك ، فلما قدمنا ونزلناها قلنا له : لا تتكلف لنا بشيء ، فإنَّ معنا حوائجنا كلها ، يعني ما نحتاج إليه ، وأكثرها بقي بجدة يأتي عن قريب . فقال : أنتم في بيتي ولا بد من ضيافتكم الليلة . فأضافنا تلك الليلة ، فلما كان غدوة أرسل لنا عشرة حروف ، فلمناه على ذلك ، فقال: إنما هذه للحطب للقهوة ، تشترون بها حطباً للقهوة ولا تطلبونه . فلما كان الليلة الأخرى فعل أيضاً عشاء ، آخر الأمر أنه قام بالمؤونة كلها ، ولا ترك لنا عذراً ، حتى إنه اكترى لنا إلى المدينة كراءً مرجَّعاً ، فليلة تمام الوعد ، رأيتُ في النوم ونحن في المدينة المنورة رؤيا ، وهي : رأيت كأني خرجت من الدار التي نحن فيها ، وهي دار محمد أمين ، قاصداً إلى مسجد النبي ﷺ ، فعارضتني في الطريق إمرأة أرادت تقبل يدي ، فوضعت يدي في كمي لئلا تمسني ، ثم قَبَّلْتُها وقالت : ما أشبه هذه اليد بيد السيد محمد بن علوي . وقالت لي : قال جدك النبي ﷺ : عادك امكث بالمدينة لا تخرج منها . وكنا قد أمرنا أن تُشَد الرحال للسفر ، وإذا رجل خلفي يقول لي : هذه رحمة . ويعني بها المدينة ، كأنها تُسَمَّى بذلك، وإن من أسماء المدينة رحمة ، فأعجبني اسمها تفاؤلاً بالرحمة . وطلبنا كتاب خلاصة الوفاء في أخبار دار المصطفى تاريخ المدينة للسمهودي ، لننظر أسماءها ، فذكر أن من أسمائها رحمة ، فمكثنا في المدينة لذلك أربعين يوماً » هـ .

أقول : قوله : « كراءً مرجَّعاً » ، يعني يشرط على الجمّال إذا أوصلهم المدينة بوعده ، أن يغيب عنهم مدة معلومة يُعيِّنها له ، ثم يرجع بعد تمام الوعد ، فيرجعهم إلى مكة ، هذا معنى الكراء المرجَّع ، فوعده بافضل أن يغيب عنهم عشرين يوماً ، فليلة تمام الوعد بعد تمام العشرين رأى تلك المرأة رحمة ، وكانوا عازمين على السفر ومنتظرين مجيء الجمّال إليهم لتمام الوعد ، ولهذا قال : « **وقد أمرنا أن تشد الرحال**» ، فأصبح صبيحة الرؤيا وقد هرب الجمّال عنهم ، ولا جاء على وعده ، فمكثوا بعد ذلك عشرين يوماً أخرى ، فتمت لهم في المدينة أربعون يوماً .

قال : « **ولما كنا في المدينة المشرفة ، ومعنا حسين بافضل وكان مريضاً ، فرأيت كأن باباً مفتوحاً له من المدينة إلى مكة ، فقلت له : إنك لا تموت إن شاء الله إلا في مكة ، لأنّا رأينا لك كذا وكذا . فقال: وقد قبري في مكة مبحوث . فاتفق أن سرنا معه أيضاً إلى مكة وتوفي ، وحصل لنا بسبب مرضه أنا رجعنا إلى مكة ، وجدنا عهداً واعتمرنا ، وإلا فإنه إنما خرج معنا مِتناً[1] وراجعاً ، ونقل شليه عنا هذه الرؤيا، وذكر معها أيضاً كلاماً ليس على بالنا ، ولا نعلم بوقوعه منا إلا إن كان قد نسيناه ، فيمكن . والسيد**

---

(١) هكذا في الأصل ، ولعلها : مشياً .

ثقة ، وهذه الأشياء لا نريد أحداً ينقلها عنا ، ولا نُمَكِّنه من نقلها ، وهو أنه ذكر أنّا وهبنا له من عمرنا أياماً ، واستوهبنا له أياماً من الجماعة ، وهو عدد المسير إلى مكة فلما تمت مات .. » ، إلى آخر ما ذكر ، « ونحن جاه حضرموت ما هو على بالنا - أي لا نحبه - وما نرى جاهها إلا الخمول ، وما يدخل علينا لا نفرح به إلا أن نواسي به محتاجاً ، وما خفَّنا عن الإقامة في الحرمين إلا خوف أن تقع لنا إشارة بالمجاورة، مع ما نرى من أحوال أهل الحرمين وخوف الشهرة ، وهذا فينا من حيث الطبيعة لا أنّا نتكلفه ، ولأن الإنسان ما يستقيم أمره ويصفو حاله إلا إذا كان فيما بينه وبين الله ، وإذا ظَهَر ؛ دَخَلَتْهُ العلل ، إن ما دَخَلَتْهُ من جانبه دَخَلَتْهُ من جانب الناس » .

وتقدم قوله : « لا نأذن لمن وَصَفَنا ، ولا نحب أن نُذكَر بأكثر من أنّا من أهل البيت ومتمسكين بالعلم ، ولنا إلمامٌ بأهل التصوف ، ونحن لا نريد الظهور ، ولا نحب الشهرة لنا ولا لمن نحب » .

حتى أني عَلَّمَني رجلٌ عزيمةً مجرَّبةً للحُمَّى ، فجعلتُ أفعلها للمحمومين ، واشتهرت ، وجعل الناس يطلبونها من مسيرة ثلاثة أيام ، فسمع بذلك ، فسألني : « ما هذه العزيمة التي أنت تفعل للحمى ؟ » ، قلت : مُعَلِّمِنِيها فلان . وحكيت له بصفتها ، فلما سمعها سكت ومضى داخلاً إلى الدار، ولا قال لي بشيءٍ من جانبها ، لا بأمْرٍ ولا بنهي ، ثم بعد ذلك ما أفادت بشيء قط إلى الآن ، فتركتها وما استعملتها لأحد بعد ذلك ، وسَلَبَ نفعها خوفاً على خادمه من الشهرة . فخاف نفع الله به في المجاورة من الشهرة ، وقال : « لا تصلح المجاورة بمكة إلا لأحد رجلين : إما عارف عالم كالبحر ، لا يبالي بشيء - أي لا يكدره شيء - وخامل جداً ، أو سائح في الجبال كابن الفارض » .

قال : « ومن حج ليصح حجه للناس ، فحجته معلولة ، وحِجَج الناس في ذمته » ، ومرة قال : « ومن حج ليصح حجه لغيره فأمره مشكل ، ويصدق فيه قول القائل :

إِذَا حَجَجْتَ بِمَالٍ أَصْلُهُ سُحُتٌ ... فَمَا حَجَجْتَ وَلَكِنْ حَجَّتِ العِيرُ

لا يَقْبَلُ اللهُ إِلَّا كُلَّ طَيِّبَةٍ ... مَا كُلُّ مَنْ حَجَّ بَيْتَ اللهِ مَبْرُورُ

أقول : ما أشار إليه من قول السيد محمد شلية ، مؤلف « المشرع الروي في مناقب السادة بني علوي» ، في ترجمته لسيدنا ، وهو الذي أشار عليه بعدم المجاورة ، مع أنها كما قال : « لم تخطر لنا على بال » ، وذكرنا قصته في غير هذا الموضع ، قال في ترجمته لسيدنا في كتاب « المشرع » : « وأقام بطيبة على بساط الإفضال والسرور بيمن الإقبال ، وأحيى الله بسببه قلوباً بشهود جماله ، وعاملهم بجزيل نواله، واتفق أنَّ الشيخ حسين بن محمد بافضل مرض بالمدينة مرضاً أشرف فيه على الموت ، وكشف للسيد

عبدالله صاحب الترجمة أنَّ مدة حياة الشيخ حسين قد انقضت ، فجمع جماعة من أصحابه واستوهب له من كل واحد منهم شيئاً من عمره . وأول من وهبه صاحبنا السيد عمر أمين ، فقال : وهبته من عمري ثمانية عشر يوماً . فسُئِلَ عن ذلك فقال : مدة السفر من طيبة إلى مكة اثنا عشر يوماً ، وستة أيام للإقامة ، ولأنها عدد اسمه تعالى حي .

ووهبه الآخرون شيئاً من أعمارهم ، وكذلك صاحب الترجمة وهب له من عمره ، فجُمِعَ ذلك وكُتِبَ في رقٍّ وتوجه به إلى قبر النبي ﷺ ، وسأله الشفاعة في ذلك ، وحصل له خشوع عظيم ، ثم انصرف وهو منشرح الصدر ، قائلاً : « **قد قضى الله الحاجة واستجاب ، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب** » ، فشفي الشيخ حسين من ذلك المرض ، وعاش تلك المدة الموهوبة له ، حتى إن السيد أشار وهو بتريم إلى أن الشيخ حسين يموت في هذا العام ، فمات كذلك بمكة المشرفة » .

انتهى ما أردنا ذِكْره ، كما أشار إليه مما ذكر السيد محمد شليه في « المشرع الروي » بما يتعلق بواقعة الشيخ حسين بافضل ، الذي قال : « **ذكر كلاماً لم يكن لنا على بال** » ، وهو هذا الكلام .

وإلى ما ذكر من قوله : « وستة أيام للإقامة بمكة » ، يعني أنه اعتمر فيها وطاف فيها مراراً كثيرة، وصلى فيها في الحرم فروضاً ونوافل كثيرة ، وهو الذي أشار إليه آنفاً بقوله : « **وحصل لنا بسبب مرض حسين أنا رجعنا** » ، يعني حصل لنا بسبب ذلك فوائد كثيرة ، منها الرجوع إلى مكة وحصول هذه الفوائد كلها ، وذكر في ترجمة سيدنا عبدالله : أنه أخذ عن سيدنا الطريقة ، وذكر في ترجمة السيد أحمد الهندوان أن السيد أحمد أخذ عنه . وسمعت سيدنا يقول في قصيدته التي يقول فيها :

حَاجَــةٌ فِي النَّفْــسِ يَــا رَبْ　　　فَاقْضِهَــا يَــا خَــيْرَ قَــاضِي

قال : « **إن هذه القصيدة أنشأناها في سفرنا للحرمين ، في طلب حاجة فقضاها الله على أكمل حالة** »، فلعله يشير بذلك إلى قصة حسين المذكورة . وأخبرني أحد النفر العشرة الذين حجوا وزاروا مع سيدنا ، وهو السيد محمد بن عمر باحسن قال: إنه - يعني سيدنا عبدالله - لما عاينه مريضاً ، **قال** : « **هذا مرض الموت ، فنمضي نقف في مقابلة النبي ﷺ ، ننظر إن كان فيه علاج تعرَّضنا وإن كان ما فيه علاج - يعني أي بأن حضر أجله المعلوم - سَلَّمْنا** » ، فمضى إلى المواجهة ، ثم أقبل وقال : « **فيه علاج، فاجمعوا له من أعماركم** » ، فذكر مثل ما ذكر صاحب « المشرع » .

ويشهد لتحقيق هذه الواقعة على ما ذكر في المشرع ، أني سألت سيدنا عنها ثلاث مرات في وقت خلوة وفراغ ، في ثلاثة أوقات متفاضلات متباعدات ، لأنقلها عنه من لفظه تحقيقاً : ففي المرة الأولى سكت عني وخصرني ، ولم يَرُد لي جواباً ولا بكلمة واحدة . وبعد مدة طويلة لمَّا عرفت أنه نسي

السؤال الأول سألته الثانية ، فقال : « **ذكر هذه شلية وهو ثقة** » ، وما وَثَّقَه إلا وهو مُصَدِّقه ومحققها . وسألته الثالثة بعدها بزمان طويل ، فقال : « **ذلك من بركة المتابعة** » .

فكل ذلك يحقق القصة كما ذكر صاحب « المشرع » ، وأظن أن بين كل سؤال والآخر ما يزيد على ستة أشهر ، والله أعلم . لأن مرادي أن لا أسأله إلا بعدما أظن أنه نسي السؤال الذي قبله .

وقوله : « **والسيد ثقة** » ، يدل على أنه مُقَرِّرٌ لوقوع ذلك على الوجه الذي ذكر المؤلف ، ذَكَرَهُ للمعتقِد والمحِب ، مع كراهته للظهور والجاه ، كما ذكره وقرره ونقلناه في هذا النقل مراراً ، ولكن ما تُرِكَ وما يريد ، وأعطاه الله هذا الجاه الحقيقي وأظهره في الخافقين ، ونَوَّهَ بصيته بين الثقلين .

وهذا بخلاف الجاه الوهمي ، الذي ترتاح له نفوس الغافلين ، وتطلبه نفوس الجاهلين ، فإنه لا وزن له ، ولكنه نصيبٌ مقسومٌ لمن قُسِمَ له ، لا يحصل بالتمني والتشهي ، حتى قال كما قدمنا : « **إنَّ من أُقيم في مقام دعوة الخلق إلى الله ، إذا لم يكن له منه نصيب ، يستنيب من قسم له النصيب ، حتى يشتهر ويطلب لقصد الإنتفاع** » ، كما في قصة سيدنا مالك ، وطلب الناس منه أن يملي عليهم أحاديث ربيعة بن عبدالرحمن ، وربيعة في زاوية من زوايا المسجد لا يُطلَب منه حديث ، وغير ذلك . حتى إن القطب قد يستنيب غيره ، كما سمعت ذلك من سيدنا عبدالله .

ويشهد أن سيدنا استزاد لحسين وزاد له من عمره ، أنه - أعني سيدنا عبدالله - ابتدأ به المرض يوم سبع وعشرين من رمضان سنة ١١٣٠ ، وبقي يتزايد عليه إلى ليلة ثامن ذي القعدة . ثم جعل يخف عليه إلى ليلة عيد النحر ، ثم خرج تلك الليلة إلى المصلى وحضر حلقة درس القرآن لإحياء تلك الليلة ، كما هو مُرَتَّبُه لإحياء ليلتي العيدين ، وبقي قاعداً معهم ويقرأ المقرأ إذا وصله ، إلى نحو الثلاثة الأجزاء، من أول مقرأ من سورة الأعراف إلى مقرأ : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ ﴾من آخر سورة يونس .

وعاش تلك السنتين طيباً متعافياً ، فلما كان يوم سبع وعشرين من شهر رمضان سنة ١١٣٢ ، ابتدأ به المرض في هذا اليوم كما ابتدأ به فيه في مرضه الأول ، وما زال يثقل عليه ويتعدد بأنواع مختلفة ، كما سيأتي بيانه عند ذكر وفاته ، وهكذا إلى ليلة ثامن ذي القعدة وهي ليلة الثلاثاء ، ثم توفي فيها .

وسمعت ابنه السيد حسين ابن سيدنا عبدالله يقول : « **تلك السنتان هما اللتان أعطاهما حسين بافضل ثم رُدَّتا عليه فعاشهما ، وكان مرضه الأول هو مرض موته** » .

أقول : يشهد لذلك أن ابتداء المَرَضَيْن كليهما يوم سابع وعشرين من شهر رمضان ، والله أعلم .

وتقدم منه هذا الكلام في المجلس كما تقدم ، وفي هذا المجلس الآتي ذكره أيضاً فنذكره ، وإن زاد

أحدهما على الآخر بزيادة لفظٍ أو نقص عنه ، فيعرف الناقص من المذكور وإن أُبدِل لفظٌ بلفظٍ ، فالمعنى موجود في كلا الكلامين ، وكلٌّ منهما يصحح الآخر ويشهد له لفظاً ومعنى ، *فقال رضي الله عنه* : « **عام حجينا وهو سنة شلهام ، سنة قحط ، كثيرة الجوع ، فقلنا : إن كان الوقت رجع إلى أشد منه الآن من الزمان – أي الغلاء والقحط – فقد الآن أسهل مما بعده ، وإن رجع إلى خير منه من الرخص والخصب، فأحسن ما ينهض الإنسان لأمر الله حيث يشق على النفس** » .

ومرة ذكره ، *وقال* : « **فأحسن ما يُعانى أمر الله في وقت الشدة ، فسافرنا إلى الحج معنا رفقة يبلغون نحو العشرة ، فمررنا إلى الشحر وأقمنا بها نحو ثلاثة أيام ، ثم ركبنا البحر ، وكان في المركب واحد يسمِّع وآخر يقصِّب عليه ، فاستأذنونا في ذلك فأذِنَّا لهم** » .

قال عبدالله باشراحيل في مجموعه فيما جمع من كرامات سيدنا ، قال : « أخبرني فلان – سَمَّاه – قال : كنتُ في المركب الذي ركب فيه ، وسمعتُ إذنه للمُسَمِّعين وتسميعهم بعد الإذن ، فخطر في قلبي إنكار على السيد في إذنه ، وتمكينهم من ذلك فما شعرت إلا قد سحبوني على وجهي وضربوني وأهانوني ، فعرفت أنَّ ذلك لإنكاري ، فأخبرته بذلك وطلبت منه الحل والدعاء ، فحلَّلني ودعا لي » .

قال سيدنا : « **فلما وصلنا جدة ، أتتنا أوراق من أناس ، وأول ما جاءنا كتاب حسين بافضل ، فلما دخلنا مكة وصَّى لنا حسين رجلاً ، وكان لنا بحسين معرفة من غير اجتماع ، وكنا نسمع بشكاسة أخلاقه ، فاعتذرنا من المقام عنده ، فقال الرسول : إنه قال : إنما مرادي أن تسكنوا عندي في دار بنيتها جديدة ، أريدها تتبارك بنزولكم فيها ، فأجبناه ، فلما نزلناها قلنا له : لا تتكلف لنا بشيء ، معنا زوادنا وعاد أكثره بجدة ، يصلنا عن قريب . قال : أمَّا عشاء الليلة فلا عذر لهم منه ، فأجبناه . فلما كان صباح اليوم الذي يليه ، أرسل لنا بعشرة حروف وقال : اصرفوها في الحطب ، والحذر إذا بدت لكم حاجة ما تقولون لي بها . فقلنا : إن بدت حاجة تُطلَب من الخلق فأنت أحق بها ، وقدنا في بيتك ، وإن قضى الله الحوائج كلها فما بقي لنا كلام** » ، ثم قال لي : « **فاعلم هذا واعمل أنت عليه** » هـ .

أقول : فكلامه الأول في مجلس قاله لي وما أحد غيري وغيره ، وهذا الكلام الثاني قاله في المجلس عاماً وفيه أناس كثير ، وفي آخره كلام من الأول ، وهو الذي أشار به إليَّ ، ولهذا أعاده ثانياً ، وهو قوله: « **فاعلم هذا واعمل أنت عليه** » ، وقد كرره مراراً في غير هذين المجلسين ، بعضها في مجالس فارغة في خلاء ، وبعضها في مجالس عامة في ملأ ، وتكرر منا نقل ذلك في مواضع في هذا النقل لمعانٍ تعرُض تجرُّ إلى نقله ، وفي تكرير هذا الكلام تقرير للحال ، وما فهمته إذ ذاك ، وإنما فهمته لما رأيته عياناً . فاقض

العجب من صدق إشاراته رضي الله عنه ، إما عن قُرْبٍ أو عن بُعْدٍ ، والأبعد أقوى كشفاً من الأقرب ، كما ذكر في معناه وتكرره ، وإن كان لفظه ومعناه واحداً ، وربما اختلف بعض اللفظ ، وربما نذكر شيئاً منها ذكره في غير هذين المجلسين .

وإن حسين ما رضي إلا أن قام بأمورهم كلها ، ولا تركهم يتحملون منها شيئاً ، ثم لما أراد سيدنا المدينة كارى لهم مكارياً مرجّعاً ، وخرج معهم مشياً - أي مسَيِّراً وراجعاً - ثم إنه ما صبر حتى سار معهم إلى المدينة ، وجرت عليه تلك الواقعة ، وسماه سيدنا نقيباً ، وقال : « **ما سمينا أحداً بذلك غيره** »، ورأى سيدنا في المدينة الرؤيتين المذكورتين : رؤيا المرأة رحمة ، ورؤيا باباً مفتوحاً من المدينة إلى مكة لحسين . وقال الشيخ حسين المذكور : « كنت غارقاً بين بَحْرَيْن : بحرٌ في الشريعة : أحمد القشاشي ، وبحرٌ في الحقيقة : محمد بن علوي ، فأبدلني الله منهما بحراً جمعهما : السيد عبدالله الحداد نفع الله به » .

وسمعته غير مرة كما تقدم قال : « **لما حججنا كنا في طلب بَحْرَيْن : بحرٌ في علم الشريعة لنسأله عن أمور اختلجت في الصدر** - وتقدم هذا وتقدم معه ذكر بعض سؤالاته - **وبحرٌ في الحقيقة ، فكُلٌّ من توهمنا عليه ذلك وأردنا نأخذ عنه ، قال : أنا أريدكم تعطوني الطريقة . فأعطيناه ، ومنهم عبدالخالق** - المتقدم ذكره - **فما رضي حتى أخذ عنا** » ، ومرة سمعته يقول : « **إنما حججنا لطلب رَجُلَيْن** » ، ثم قال: « **إنما هما مقامان لا شخصان** » ، وكل ذلك تقدم .

وبعدما سألته عن قصة حسين بمدة ، ذاكرته أيضاً في قصة أخرى ، ولا يكون ذلك إلا في وقت فسحة وانشراح صدر واتساع خاطر أُحِسُّهُ منه ، وفي خلوة وفراغ ، وهي قصة سقاية قسم ، وأراها مشهورة بين أصحابه ، وهي : أنه أتى من زيارة النبي هود ، وكان سارياً طول الليل ، إلى أن وصل السقاية وهي على الطريق فوق المسيلة ، ووصلها بعد طلوع الشمس ، وأراد أن يزور تربة المصف لمن فيها من الصالحين من السادة ، وطلب من السقاية ماء فيتوضأ به ، فأنكر ممن كان معه بعض من له إلمام بالفقه من تابعيه ، فحين خطر بقلبه الإنكار ، أمر سيدنا أن يدعى باثنين من شيبان البلد ممن وقف على شرط وقف السقاية ، وسمعت أنهما حضرا في الحال من غير دعاء ، وقيل حضر واقفها أيضاً ، فأقر وشهدوا أنها موقوفة على من أراد أن يشرب أو يتوضأ ، وذلك المنكر يسمع ، فاستغفر مما ظن ، وأخبر سيدنا بظنه واعتذر منه ، وطلب منه الحِل والدعاء ، ففعل . وأخبر ذلك الظان عن نفسه بذلك، وأشهر هو ذلك عن نفسه فاشتهر .

وكذلك لما سار سيدنا إلى دوعن لزيارة الشيخ سعيد ومن هناك من الصالحين ، ومعه السيد أحمد بن هاشم الحبشي وجماعة ، فآواهم المقيل إلى شرج يسمى فضح ، قريب من الغيوار ، وهناك علب فيه

دوم مليح ، العلب : السدرة ، والدوم : النبق ، فقالوا تحتها . فأمر سيدنا بأن تُنفَض السدرة ويُجمَع منها نبق ، فنفضوها وجمعوا نبقاً كثيراً ، فأكل سيدنا وأمرهم بالأكل فأكلوا ، وتنحى السيد أحمد بن هاشم عن الأكل ، قائلاً في نفسه : « أكلوا منه من غير إذن صاحبه » ، ففي الحال جاء صاحبه ، وجلس وما علم بالقصة ، وقال : « يا حبيب هذا العلب ملك لي ، إرثة عن أبي عن آبائه ، وقد أوقفته منذ ثلاث على من مر به أن يأكل منه » ، ورأيت القصة مكتوبة بهذا اللفظ ، وفيها أنه قال : « أذنت لكم أن تأكلوا » .

ثم إن السيد أحمد لما رأى ذلك تأسف أن لا يكون قد أكل معهم ، وطلب أن تُنفَض له ، فما رأوا بها شيء ، ثم إنه رجع عن السير إلى الزيارة مع سيدنا ، وقال : « يا سيد عبدالله ، ما ينبغي لي أن أسايرك » .

فلما ذكرت له هذه القصص وسمعها ، **قال : « ذلك وأشباهه كله من بركة الإتِّباع ، ومن نور النبوة، ومن معجزات النبي ﷺ » هـ .**

وقيل له : « قيل لفلان من السادة : ينبغي لمن أراد الهند أن ينوي إن حصل له عوين - أي شيء من المال - أن يحج به » ، **فقال : « هذه نِيَّة نَيّة ، لأنه إن أراد الفرض ؛ فينظر في كتاب الله من حيث الشروط والإستطاعة ، وإن أراد التجرد والإنقطاع ، فليكن كل يوم حليف مسجد » .**

أقُولُ : قدمنا قوله هذا لمناسبة هناك ، وهو قوله : « **ونحن ما نطالب أصحابنا بالإجتماع - أي علينا- ولا نحبه منهم ، بل الأحسن أن يبقى كلٌّ مكانه ، حتى تبقى القلوب سليمة ، ومع كثرة الإجتماع لم تحصل سلامة القلوب ، ونكره كل أمر يكون فيه وحشة الخاطر على أحد . فينبغي أن تحصل السلامة في القلب ليحصل المدد والإنتفاع ، وقد ذكرنا لكم اختلاف المذاهب وقصة الحنفي والتستري، وقصتنا مع باجبير ، لتعرفوا بذلك ما هنالك ، وأهل الزمان ما مرادهم إلا كرامات كخوارق السحر » هـ .**

أقُولُ : ولذِكْرِهِ لتلك القصص في هذه المادة معنى بديع ، شاهدٌ لقوله : « **فينبغي أن تحصل السلامة في القلب ليحصل المدد** » ، يعني سلامة القلب من الإنكار مع الإعتقاد ، يؤدي إلى حصول المدد من الإنتفاع ، فكل من لم يعتقد لم يتنفع . ومن علامة الإعتقاد الذي يحصل به الإنتفاع ، الإمتثال لما يأمر ، وعند ذلك يظهر الأمر الخارق للعادة ، ومع عدم الإمتثال لم يكن اعتقاد ولا انتفاع ، كما مشى تلميذ الحنفي معه على الماء لقوة اعتقاده ، فلما خطر له ما يخل بالإعتقاد غاص في الماء والتستري لما علم من سائله عدم الإعتقاد أحاله على الإستخبار لمن لا اعتقاد له ، ولا أراد له إظهار أمر خارق ، وقصته مع باجبير حيث لم يمتثل أمره بالإفطار ، سَلَّطَ عليه العطش فأفطر قهراً ، وحرمه الله تمام الصوم لما أحرمه

ثوابه ، لعدم سلامة قلبه بظهور سوء اعتقاده بعدم الإمتثال ، وإنما قاله هنا أعني قوله : « **ونحن ما نطالب أصحابنا ..** » ، إلى قوله : « **كخوارق السحر** » ، قد تقدم كل ذلك في المجلس الأول لما قال له الرجل : « نظركم علينا » . وإنما قاله هنا في هذا المجلس لما قال : « **هذه نِيَّة نَيَّة** » ، أي غيرمؤكدة ، فذكرنا ذلك هناك وهنا ولو أن اللفظ والمقصود منه واحد ، ومعناه في الأول : أن النظر الذي يحصل منه المدد لا يكون إلا مع التجرد والإنقطاع ، ولكننا لا نحبه اليوم لما فيه من تكدر الخاطر ، فإن صدق فيه كان كل يوم حليف مسجد ، إلى أن قال : « **ونحن .. إلخ** » .

وذم هؤلاء الظلمة - أعني يافع - *وقال* : « **لو قيل لأحدهم : هاك كذا دراهم وصلٍّ إلى شرق؛ لفعل . فالخطاب مع هؤلاء ما يجوز ، وما عاد ألّا امنع على دينك ، واشفق على نفسك ، وما قدرت عليه من فعل خير فلا تكره** » هـ .

أقول : يعني إن الدنيا آثر عندهم من الدين ، فيبذلون دينهم لحصول الدنيا ، فمثل هؤلاء لا يجوز تخاطبهم بأمر أو نهي ، فيزيد تعنتهم ومخالفتهم ، فإذا كان الأمر كذلك ، والناس اليوم لا يحتلفون بدينهم ، فاجْتَهِدْ أنتَ يا طالب السلامة من الشر وحصول الخير في سلامة دينك مما يخل به ، وخف على نفسك من عقوبة الله وسطوته في الدنيا والآخرة ، فإذا قُمْتَ بهذين الأصلين في الدين ، من سلامة ما يثلمه والخوف من الله وأحْكَمْتَهما ، فبعد ذلك ، أي ما أمكنك من فعل خير فاجتهد في فعله ولاتتركه .

قال : « **الظَّلَمَة ينبغي أن يُقَرَّعوا بأشياء إذا اعتبرها الإنسان في الدين صحت ، ولا ينبغي أن يُسَلَّط الظالم على شيء أصلاً ، أما ترى في قصة إبراهيم مع النمرود حيث قال له : إنها أختي . وكذلك كلماته الثلاث** » هـ .

أقول : قوله : « **يُقَرَّعُوا** » ، أي يُبالَغ في نهيهم وتخويفهم بما لم يأثم فيه ، ولو فيه تورية ، كما مَثَّل بقصة إبراهيم في توريته للنمرود أنها أختي ، يعني في الدين ، ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ .

قوله : « **أن يُسَلَّط الظالم** » ، أي يُمَكَّن هـ .

وسأل عن شخص مات ، وكان قائماً بتدبير بيت ، وهل قام مقامه أحد مثله ؟ قيل : « نعم » ، *فقال* : « **من عمل عملاً وأحسن فيه نفع اثنين : المقدِّر والمدبِّر . والإحسان في الدين أعظم من الإحسان**

في الدنيا بكثير ، ومن أين إلى أين ؟ » .

قال : « **قد يجيء شيخ صاحب طريقة وهو على حق ، ثم يجون ناس يترسمون برسومه ، فإن كانوا على قصد الإقتداء به ، لا يخلون من خير وبركة ، وإن قصدوا أن يظهروا التشبه به ليَظْهَرَ أمرُهم عند الناس ويُعرَفوا ويُعَظَّموا ، فهؤلاء إنما هم أكلة الدنيا ، قد حبط عملهم وخاب سعيهم . وينبغي لمن له سلف صالح أن يتشبهوا بهم ويهتدوا بِهَدْيِهم ، فإن لم يقدروا على ذلك ، فليترسموا برسومهم ، فإنهم إذا فعلوا ذلك بقصد التشبه بهم لا يخلون من خير وبركة ، والأكابر لا يقتدى بهم في العوايد والحقائق ، كيف يقدر أن يقتدي بهم في أن يصلي الصبح بوضوء العشاء كذا مدة ؟ أو يمكث كذا أياماً من الأكل ؟** » .

انتهى ، هكذا ما حفظته على ما فهمته من كلامه ضحى يوم الثلاثاء ٢٤ من شهر ربيع الآخر سنة ١١٢٤ في دار آل بلفقيه ، عندما حصل منه التلقين لجماعة من السادة وهم أربعة .

وحضر في جماعة في جَمْعٍ في فَيْء الدار الشرقية من الحاوي ، دار ابنه السيد حسين ، وذلك يوم الأحد ثامن عشر ذي القعدة سنة ١١٢٦ ، وكان ذلك الإجتماع لختم السيد أحمد بن زين الحبشي صحيح البخاري ، وحضر إذ ذاك من الطعام ما تيسر ، كطعام المداد ، فمن جملة ما تكلم به حينئذ : أنه ذُكِرَت له امرأة من السادة توفيت ذلك اليوم ، وهي زوجة السيد أحمد الهندوان ، **فقال** : « **اللهم إنا نسألك حسن المصير عند المسير ، وحسن الثبات عند الممات** » ، ولم يزل يتكلم حتى حضرت القهوة **فقال** : « **الفاتحة أن الله يوفق الأحياء ، ويرحم الأموات ، ويغفر للجميع** » .

وهكذا عادته ، قراءة الفاتحة عند القهوة ، ثم بعد قراءة الفاتحة ذَكَرَ هذا البيت للبوصيري وتكلم عليه ، وهو قوله :

إِذَا تَحَقَّقَـتِ العِنَايَـةُ فَاسْـتَرِحْ وَإِذَا تَحَقَّقَـتِ العِنَايَـةُ فَاجْهَـدِ

ثم قال : « **فاسترح : أي في الباطن . فاجهد : أي لا تجلس بَطَّالاً . فلو قيل لك : إنك سعيد ، أتجلس وتترك العمل ؟** » ، **قال** : « **وكان بين أول البيت وآخره مُبَايَنَة ، فكيف إذا تحققت العناية يستريح وإذا تحققت يجتهد ، فهو على ما ذكرنا ، والبيت للأبوصيري في قصيدةٍ مَدَحَ بها شيخه أبا العباس وشيخه أبا الحسن الشاذلي** » .

أقول : يعني أن أبا العباس شيخ الأبوصيري ، وأبو الحسن شيخ أبي العباس ، **وفي معنى هذا البيت بيت كان ينشده شيخ سيدنا السيد عبدالرحمن بن عقيل السقاف باعلوي إذا رآه ، فكلما رآه أنشده وهو:**

وَإِذَا العِنَايَةُ لاحَظَتْكَ عُيُونُهَا نَـمْ فَالمخَـاوفُ كُلُّهُـنَّ أَمَـانُ

وفي معناه هذا البيت :

مَنْ لَاحَظَتْهُ العِنَايَةُ في المجِيءِ وَالذَّهَابْ فَـلَا يُبَـالي وَمَـنْ خَانَتْـهُ الاقْـدَار خَـابْ

قال : « **ونحن أول ما أخذنا طريقة الشاذلية ، وطريقتهم تميل إلى الشكر ، أخذوا ما جاء فيه عن الله ورسوله ، فشرحوه وفَصَّلوه واختصروه . وأول ما طالعنا من كتبهم لطائف المنن ، ولو بقينا عليها لحصلت علينا أمور ، ولكن تدارَكَنا اللهُ بكتب الإمام الغزالي ، لأن ماجاء عن الله ورسوله شبه الأدوية، وهو شرحها وأوضحها ، وجعل العلماء يقدمون في كلامه ويؤخرون** » .

ومرة قال بعد قوله : « **وهو شرحها وأوضحها ، وجعل العلماء يقدمون فيها ويؤخرون** » - يعني فيما جاء عن الله ورسوله الذي هو الشريعة - **قال** : « **والإمام الغزالي ما استيقظ إلا وقده مقبلاً على الآخرة ، لأنه أفنى عمره في طلب العلوم ، فتدارَكَه اللهُ بَعْدُ ، فكأنه ما استيقظ إلا وهو على التجرد ، وإلا لكان كهؤلاء الذين يحضرهم الوزراء والسلاطين ، فاستنقذه الله . ولكن قد معه علم واسع** » .

وفي هذا النقل كثير من قوله في الإمام الغزالي .

وذكر كتب ابن عربي وبعض مشكلاتها ، **فقال** : « **ينبغي للإنسان أن يرجو ولا يغتر ، ويخاف ولا ييأس ، ولا يتساهل بخطرة ولا نظرة ، وهذه الأشياء ذوقية ، ولا يُسَلِّم لصاحب الذوق إلا فيما وافق الشرع الصريح** » .

ومرة **قال** : « **الشرع الصريح لا أقوال العلماء . ولا أسلم ولا أحسن ولا أجمع من كتب الإمام الغزالي ، لا في الشريعة ولا في الطريقة ولا في الحقيقة ، ويدع ما أشكل عليه . والمراد بذكر هذه الأشياء الحزم ، حتى يحذرها الإنسان ، كالبحر ، أول ما تدخله إلى الركبة مثلاً ، ثم إلى الوسط ، ثم إلى القامة ، ثم يغرق ، ودليل هذه الأشياء في القرآن لكن لأهلها ، ومن هو في القاع من يجيب له ما في السماء ، وهذا إن لم يُخْطِ في ذلك ، والله أعلم بهم** » .

قال : « **قد سمعنا عن الشيخ الفقيه حسين بافضل ، أن ابن عربي ما سار إلا في ظل الإمام الغزالي، ولولاه ما جاء ولا راح ، ولكن إذا خالط الإنسان القاع إلى خمس ، ما يدري ماذا يقع** » . انتهى ما حفظناه مما تكلم به في هذا المجلس في هذا اليوم المذكور ، أعني مجلس ختم البخاري يوم الأحد .

وقوله : « **إذا خالط القاع إلى خمس** » ، هذا مثل لغة أهل حضرموت يضرب للمنخفض جدًا ، إما

واضعاً أو ذلًّا .

وفي هذا المجلس مجلس ختم البخاري وقعت قصة عوض بن صباح المتقدمة ، وهي أن سيدنا لما أحس بطول المجلس من أول النهار إلى الضحى العالي ، وطال به الكلام ، وأتعبه الجلوس مع كثرة من يجيء ويصافح ، وكثرة المصافحة تتعبه ، وكذلك كثرة الكلام ، فكيف إذا اجتمعا ، فأراد صلاة الظهر في أول وقتها ، ليقوم ويضطجع ، والوقت واسع إلى صلاة العصر طويلاً للاضطجاع والنوم ، ليحصل له الإستراحة من تعب هذا المجلس الطويل ، فقال لي : « عَيِّنْ على أول ما يدخل وقت الظهر ، ثم أذن » ، فركزت عود قبالة السيد أحمد ، وخَطِّيت على حد الظل خطًّا ، وقلت للسيد : أرْعِهِ بالك إذا زاد . فلما تبينت الزيادة ، قلت للسيد : هل زاد وتحقق دخول الوقت ؟ قال : « نعم ، لكن بينه وبين وقت ما تؤذن كل يوم مدة طويلة » ، فقمت وصعدت سطح المصلى الذي نعتاد أن نؤذن فيه وأذنت ، فجاءني عوض وجعل يصيح علي ويقول : « انزل ، ولا تؤذن للناس أذان الظهر وقت الضحى ، لئلا يُصَلُّوا قبل الوقت » . وأكثر اللغو ، وكان له في خدمة سيدنا نحو سبعين سنة فيها أسمع . فقلت له : أنت عامِّي لا تعرف الوقت .

وسألت السيد أحمد وهو يسمع : هل أَذَّنتُ في وقت ؟ قال : « نعم » . ثم أمرني سيدي أن أقيم الصلاة ، فأقَمْتُ ولا أعلم أنه صلى معنا أم لا ، وبعد الصلاة قرأ سيدنا الفاتحة وتفرق الناس ، وراح السيد أحمد إلى منزله ، وكان في دار سيدنا في البلاد ، ثم حضر لصلاة العصر ، ولحضور مجلس سيدنا للدرس . ثم إن عوض المذكور أخذ إناء من ماء البئر ليتوضأ به لصلاة العصر ، ومضى إلى داره التي هو ساكنها في دهليز بيت سيدنا ، وكان مسيره فوق موضع مرتفع على الأرض نحو ذراعين ، فَزَلَّتْ رجله فسقط وغشي عليه ، وحُمِل مغشياً عليه إلى داره ، وبقي في غَيْبَةٍ من عصر يوم الأحد المذكور إلى يوم الأربعاء ، وتوفي مغشياً عليه .

ومن العجيب المبيِّن معنى حديث : « يموت المرء على ما عاش عليه » ، وقال الإمام الغزالي : « المراد ما كان غالباً على قلبه عند الموت » : وذلك أني رأيت عوض المذكور في النوم بعد مضي نحو سنة من موته ، فلما رآني مرَّ عنِّي هارباً مني ، فلحقته وقبضته وقلت له : أخبرني بما رأيت بعد الموت . قال : « والله لا أخبرك بحرف واحد » ، فخنقته وقلت : والله لا أفلتك حتى تخبرني . وعالج أن يتفلت مني فما قدر ، فلما أيس من الإنفلات قال : « مثل ما ترون في الكتب » ، فعند ذلك أفلتُّه ، وقلت : ما في الكتب نحن نعرفه ، انتهى .

قال في اليوم الذي يلي يوم ذلك المجلس ، وهو يوم الإثنين تاسع عشر ذي القعدة من السنة

المذكورة سنة ١١٢٦ ، وقت الضحى في مجلس قراءة الإثنين ، إذ القراءة وقت الضحى إنما هي يوم الإثنين والخميس فقط ، فتكلم ضحى الإثنين المذكور **فقال** : « **في العلوم من العقائد وغيرها ، وفي الأعمال بأن يعلم ما يلزمه من أمور الإعتقاد بالإجمال ومعرفة العبادات ، ويشتغل بالعمل ولا يلتفت إلى ما يصد عنه ، من آدمي أو خاطر أو قاطع ، وهذا هو دين التصميم دين العجائز ، والتصميم على الفعل من غير تعرض لإزالة شبهة ، فإن التعرض للشبهة يدعو إلى شبهة أكبر منها ، ولا أشد من التعرض للجواب . وأمور الشيطان ما لها إلا مثل هذا ، كل أمر تعرف أنه يشغلك - حتى في المعاشاة وفي أمور الرزق - من الخواطر ، لأن الشيطان يريد أن يشغلك ، فإذا تَدَحْرَجْتَ له في الأمر الصغير جَرَّكَ إلى أكبر منه ، وهو مثل العدو المنازع ، فإن كان معك له مكافأة وإلا فَرُدَّ عليه بابَك ، والأمر ولله الحمد مكفول ، إن تركت الأمر على الله وعرفت الأمور الواضحة . وقد وقعت لي هذه الخواطر سابقاً عندما أنشانا هذه القصيدة** :

إِنْ كَانَ هَـذَا الـذِي أُكَابِـدُهُ ... يَبْقَـى عَـلَيَّ فَلَسـتُ أَصْطَـبِرُ

إلى آخرها ، وذلك نحو سنة ١٠٨٧ ، وسنه إذ ذاك نحو ٤٣ سنة أو قريباً من ذلك .

قال : « **والشيطان ما قام في مقام النبوة** - أي الدعوة إلى الله - **وإنما قام بالباطل في مقابلة الحق ومتابعته أقذار ، وإنما غمس أتْباعَه في الأقذار ، من فعل المعاصي كأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وهكذا كل معصية ، ولا تَدَّعِ القوة فتخفي ضعفك أصلاً ، وإلا أظْهَرَ ضعفك بشيء سهل ولو بشوكة، والقاع القاع ، ألق نفسك في القاع ، فإذا كنت لا تطيق فهم يشلونك ، ولا تلام في ضعفك** » .

أقول : ومراده بقوله : « **القاع القاع** » ، أي تواضع غاية التواضع ، كالمحذوف على الأرض .

وقوله : « **فهم يشلونك** » ، أي ولو كنت نازلاً ، فالتواضع يرفعك ، فمن تواضع لله رفعه الله .

وذكر قول النبي سليمان عليه السلام : « **لأطُوفَنَّ الليلة** .. إلخ ، ولم يقل : إن شاء الله » .. الحديث، **فقال** : « **ينبغي إسناد الأمور كلها إلى المشيئة ، إلا ما لا خير فيه مما فيه سوء أدب** - أي كما ورد : والشر ليس إليك - **وليس هذا بحكم منه ، إذ الحكم إنما هو الفعل** » .

وتكلم في القُصَّاص ، **فقال** : « **كانوا يفتشون أحوالهم ، وينظرون ماذا جاء وماذا حدث ، وقد ذكر الإمام الغزالي أن العلم نافع من حيث أنه ينفع به غيره** » .

قال : « **أي نفعاً غير نفع العمل به ، فيعلِّم أحداً يكون يعمل بعلمه خالصاً به لله ، كما أن أبا سليمان**

تاب لما سمع القصاص ، ولو عمل بلا علم ما نفعه ذلك ، فمن هذه الحيثية فَضَلَ العِلمُ العملَ . ويوم تتأمل زمانك ترى الناس في نزول ما هم في صعود ، ولو أن واحداً منهم رأى كتاباً صنف جديداً ما يعجبهم إلا من حيث يتنفس به ، ولا يتأسف على أحد من الأكابر أنه ما أدركه لينتفع به .

ومن الناس من تردد إلى الأخيار فصار منهم ، ومنهم من تردد إليهم ولا حصَّل شيئاً ، وإنما جعل مجالستهم كالعادة - أي بلا نية صالحة في ذلك - وما ينفع السراج في الهبوب ، فإنه يذهب ولا يبقى ، وإنما ينفع مع القلوب ، ويكون كالسراج تحت الصحفة . وما عاد مقصود الناس أن يسمعوا ليعرفوا ، وإنما مرادهم أن يعذروا أنفسهم ، وكان بعض الناس من أهل تريم راح الهند ، ومدة ما هو هنا ما جاءنا ولا تردد إلينا ، فلما راح الهند طلب أن تحصل له رسالة المريد ، فتعرف أنهم إنما طلبوا الكتب لأهواء وأغراض ، وقد قال الشيخ أبوبكر بن سالم :

مَنْ صَدَّ عَنَّا حَسْبُهُ البَيْنُ وَالقلَا وَمَـنْ فَاتَنَـا يَكْفِيْـهِ أَنَّـا نَفُوتُـهُ

وكان الشيخ مع كبر حاله وبلوغه في السلوك ، ما تبعه من الناس إلا القليل ، وقد نفع الله على أيدينا ناساً كثيراً أكثر ممن انتفع على أيدي من قبلنا ، إلا إنه يقع - أو قال : نفع - على الطريق العام الذي يضطر إلى نفعه الخاص والعام ، الذي جاء فيه التفصيل عن الله ورسوله ، ويكفي الناس عن غيره ولا يكفيهم غيره عنه » هـ .

أقول : يعني على حكم الشريعة الظاهرة العامة ، التي هي مباني الإسلام الخمسة ، التي قال رسول الله ﷺ فيها : « بني الإسلام على خمس » ، لا على أحكام الطريقة والحقيقة الخاصة للخواص المشتملة على الثلاثة المبينة ، في حديث جبريل عليه السلام .

قال رضي الله عنه : « لا ينبغي للطالب أن يبتديء بمطالعة كتب الشاذلية ، حتى يطالع أولاً غيرها قبلها ويُحكِمها ، ككتب الإمام الغزالي ، ثم يطالع بعد ذلك كتب الشاذلية ليستفيد ، فإن ابتدأ بها أولاً رجع يحتج بالأقدار ، وبقي كلحم على وضم » .

وتكلم عشية الثلاثاء في الحاوي سادس ذي القعدة سنة ١١٢٦ ، وذكر الشيخ ابن عربي *فقال* فيه: « إنه تقدم له زهد وصلاح ، فيسلم له أمور الدين والآخرة » .

ثم ذكر ابن الفارض والسهروردي وأمثالهم من المتكلمين بالحقائق ، *ثم قال* : « أمر الله عظيم ، وكلٌّ يقول ما هو إلا أنا ، كالشمس والقمر كلٌّ يراهما ، ولهذا مَثَّلَ الله بهما في الأمور الإلهية ، ولو ظهر لهم جبريل ما استطاعوا النظر إليه ، لكن الآدمي ضعيف ، وهو معذور لضعفه ، ومن طبيعته التيه ، لكن إذا

كان ذلك في محل العفو ، بأن لا يكون متبطراً ولا كاذباً . وقد مَثَّلَ الإمام الغزالي في هذا بالفيل واختلاف مرائيهم فيه مثلاً ، وكلٌ منهم صادق ، ولكن إذا لم يكن شعور ، وفيه إشكال ، فينبغي البيان ممن يعرفه لئلا يدخل على الناس منها التعقيد والشبه ، وإلا فإن سَلِمَ من الناس ما سَلِمَ من الله ، فربما ادعاه أحد من الناس واغتر به ، فترى أناساً يروحون يطالعون في الفتوحات ونحوها ، ويتركون مطالعة الإحياء ، لأن أنفسهم تهوى أمثال ذلك وتشمئز من الإحياء ، لكون فيه تبيين الأحكام وتعريفها، فينبغي اجتناب أقاويلهم المعقدة لئلا يدخل منها التشبيه والتعقيد ، فما الفائدة في ذلك ؟ ومن يحل لهم التعقيد إذا رُكِّب في قلوبهم ؟ وقد جاء في القرآن وفي الحديث ، أن الأمور الإلهية لا تُتَعَقَّل ولا تُكَيَّف ، وأين الإسراء إلى فوق السبع السماوات إلى العرش من سماع الخطاب من الشجرة في الأرض ؟ » .

قال : « يعني في قصة الإسراء بالنبي ﷺ ، وسماعه لكلام الله من قاب قوسين أو أدنى ، وتكليم الله لموسى عليه السلام من الشجرة في الأرض ، وسماعه لذلك ، والمتكلم واحد والأماكن من هناك متباعدة غاية البعد ، ففي هذا دليل على أن الأمور الإلهية أمرها على غير ما تعرفه العقول ، وإنه لا يسع إلا الإيمان بها والتسليم والله أعلم » ، أو كما قال .

قال : « والغلبات لها أحوال ، وهذه المسائل لها حقائق عند أهلها ، لكنها لها عندهم أشياء ، وفيها مخاطرة حتى في الدنيا فضلاً عن الدين . وقد ذكر الإمام الغزالي : أن من أراد أن يسلك فليأخذ ما اتفق عليه أهل العلم وصح ، ولكن إذا تغير المزاج ما يقع شيء - أي ما ينضبط ولا يتقيد - .وقال الفقيه بامخرمة : ما هي ألَّا معاني ما تسعها العبارة . ولأي شيء ما يروح الإنسان في الأمور الواسعة ، ويدخل في سَمِّ الخياط ؟ وقد ذكر ابن عربي : إن كل أحد ما يخرج من الدنيا إلا مُكَاشَف ، حتى الكافر ، لأنه يرى عند الموت مَلَك الموت والأرواح مثل السُّرُج . وكلما جئت بسراج زاد الضوء - أي النور - وقده حاصل بالسراج الأول ، لأن هذه معاني ما هي صور . قال الشيخ عبدالرحمن السقاف : ما نشل الراتب إلا وعند السارية نحو ثلاثة آلاف من الصالحين .

وكم قد وقع غلط في الأمور الظاهرة ، فغلطوا في فجر - أي في وقت فجر - ونحو ذلك ، لكن الإنسان ضعيف ، والضعيف إذا فعل ما لا يقدر عليه ؛ يلام ، كمن دخل في بحر بلا سفينة ، وإذا حمل التغزلات على الروح ، فما كان من هجر ومطل وكل ما يذم ، فمن صفات النفس ، وما كان من لطافة ومدح ، فمن صفات الروح ، وما كان من الشوق وتمني اللقاء ، فمن شوق النفس إلى الروح ، والمعاني قد تضيق ، واللسان قد يطغى ، كمن يصب دن ماء في فنجان ، فيأخذ منه ما يسعه ويتطير - أي يتدفق - ما زاد » ، هذا أو كما قال . ومرة *قال* : « للسان طغيانٌ كطغيان الميزان » هـ .

أقول : قوله : « ومن يحل لهم التعقيد إذا ركب في قلوبهم ؟ » ، مثاله أني كنت يوماً جالساً عند السيد

زين العابدين العيدروس ، فرأيت بجنبه كتباً ، منها كتاب ضخم جداً في مجلد واحد ، فقلت له : ما هذا الكتاب ؟فقال : « هذا كتاب الفتوحات لابن عربي » ، أهدته له امرأة في جافور من أرض الهند ، فجعلت أتشهى أن أنظر فيه ، وأنا متهيب مما سمعته من قول سيدنا من النهي عن النظر فيه ، وكذا ما سمعت من نهي السادة المتقدمين عن مطالعته ، حتى قال الشيخ أبوبكر بن عبدالله العيدروس صاحب عدن : « قط ما ضربني أبي غير يوم رأى في يدي جزءاً من الفتوحات فأخذه من يدي وضربني به في صدري ، وقال : لا قط تطالع فيه ، وطالع في الإحياء . وبعد ذلك جعلت عليَّ نذراً أن أطالع كل يوم في الإحياء ، ولو ورقة أو صافحة » ، فخفت من تحذير السادة من النظر فيه ، وفي كل كتبه ، فبقيت متوقفاً ، ثم غلبتني نفسي ، فتناولته وفتحته من أوله ، فرأيت في خطبته قوله : « الحمد الذي خلق الإنسان من عدم وعدمه » ، يعني عدم العدم ، وهو الوجود ، فنشبت كلمته هذه في خاطري ، وقلت: كيف خلق الإنسان من عدم ووجود ؟ واستعنت على حل تلك الكلمة بالسيد الفاضل عمر حامد ، وجعلت معه نجيل الفكر في حل معناها، إلى أن ظهر لي معنى ، فقلت : لعل المعنى أنه موجود في علم الله ، فخلقه من العدم وهو موجود في العلم الأزلي ، قال : « ما أظن أن له معنى إلا هذا » ، فأخذت على هذا المعنى ، وانطوى الخاطر عليه ، وعزمت أن لا أعود أنظر في ذلك الكتاب ، وهذا يؤكد ما قال سيدنا : « ومن يحل لهم التعقيد إذا ركب في قلوبهم ؟ » .

قوله : « **ولذلك مثل الله بها في الأمور الإلهية** » ، يعني بالشمس والقمر ، حيث قال تعالى : ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا ﴾، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً ﴾.

قال : « **إن الأمور الإلهية لا تتعقل ولا تكيف ، وإن أمرها على غير ما تعرفه العقول** » ، يعني أن جميع الصفات الواردة في حق الله ، عن الله أو عن رسوله نقبلها ونؤمن بها ، ونعتقد أن لها معان تجوز في حق الله ، لا يعلمها إلا الله ورسوله ، وأن كل ما تدركه العقول من معناها ليس هو المراد في حق الله، لأن العقول حادثة لا تدرك إلا حادث مثلها ، وتتعالى صفات الله أن تدركها عقول الخلق ، وقد نزه الله نفسه عن ما تدركه العقول بقوله تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ ﴾، وكل ما تدركه العقول فمثله شيء ، وقال سيدنا جعفر الصادق ، وهو من أكابر أهل بيت النبوة ، وهم وُرَّاث جدهم وخلفاؤه في أمته وأمناؤه على دينه ، قال : « ما خطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك »، وقال سيدنا أبوبكر الصديق رضي الله عنه : « العجز عن درك الإدراك إدراك » . يعني إذا اعتقدت أنك وجميع الخلق لا تدركون الصفات الإلهية فقد أدركت العقيدة الحق المطلوبة منك ، فمن تلك الصفات ما جاء في القرآن من قول الله : ﴿تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ﴾، ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ﴾، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ ﴾، ﴿وَجَآءَ رَبُّكَ ﴾، ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن يَأْتِيَهُمُ ٱللَّهُ ﴾، ﴿رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ﴾،

﴿ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾، وقوله في الكفار : ﴿ غَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ ﴾، ﴿ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ ﴾، ﴿ كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾.

ومن السنة قول رسول الله : « ينزل ربنا كل ليلة إلى السماء الدنيا » ، « لله أفرح بتوبة عبده » ، « يعجب ربك من الشاب ليست له صبوة » ، « وعجب ربك من قنوط عباده وقرب غيره » ، « إن الله يضحك إلى الرجلين قتل أحدهما الآخر فيدخلان الجنة » ، فهذا وما أشبهه مما صح سنده وعدلت رواته ، نؤمن به ولا نرده ولا نجحده ولا نتناوله . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ۝﴾، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾، وقول النبي ﷺ : « ربنا الله الذي في السماء » ، وقوله للجارية : « أين الله ؟ قالت : في السماء . قال : اعتِقْها فإنها مؤمنة » ، رواه الإمام مالك وغيره. وروى أبوداود في سننه أن النبي ﷺ قال : « إن ما بين سماء إلى سماء مسيرة كذا .. الحديث ، إلى أن قال: وفوق ذلك العرش ، والله سبحانه فوق ذلك » .

ومن صفات الله التي يجب الإيمان بها أنه متكلم بكلام قديم يسمعه من يشاء من خلقه ، سمعه موسى عليه السلام منه من غير واسطة ، وسمعه جبريل عليه السلام ومن أذن له من الملائكة ، وأنه يكلم المؤمنين يوم القيامة ويكلمونه ، ويأذن لهم فيزورونه ، ويكشف لهم الحجاب فينظرون إليه ، وقال النبي ﷺ : « إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء » ، وفي حديث عبدالله بن أنيس رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : « يحشر الله الناس يوم القيامة عُراةً حُفاةً بُهماً ، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ : أنا الملك ، أنا الديان » ، رواه الأئمة واستشهد به البخاري .

انتهى ملخصاً من عقيدة موفق الدين عبدالله بن أحمد بن قدامة المقدسي رحمه الله هـ .

قال رضي الله عنه : « الناس غافلون ، وإلا ففي نفوسنا أشياء غامضة ، لو رأينا أحداً يفهمها لأظهرناها وبيّنّاها لهم ، لكن لما رأيناهم ورأينا أحوالهم ، قلنا : لمن ؟ وهذا ميراث لنا من سيدنا علي – أي ابن أبي طالب – فإنه قد شكى ذلك ، إلا أن الميراث كلما طال الزمان ضعف ، وقد سمعنا فيما بلغنا عنه أنه لما ازدحمت العلوم في قلبه ، وشكى من عدم من يحملها عنه ، أتى إلى بئر وتنفس فيها ففاض منها الماء على جوانبها ، فنبت على جوانبها من ذلك شجر اليرع » .

أقول : « اليرع » ، شجر الأقلام ، وروي عنه أنه قال لخادمه كميل بن زياد : « يا كميل ، إن هاهنا علوماً جمة لو وجدت لها حملة » ، كيف لا يكون ذلك ، وهو باب مدينة علم النبي ﷺ ، كما قال عليه الصلاة والسلام : « أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها » .

وله في فتاويه نوادر لا يطلع عليها إلا من مادة علمه من رسول الله ﷺ ، كفتواه بين أهل الأقراص، وذلك أن رجلين اجتمعا للأكل ، مع أحدهما خمسة أقراص ، ومع الآخر ثلاثة أقراص ، فجلسا ليأكلا معاً ، فاستأذنهما رجل آخر ليأكل معهما ، فأذنا له ، فأكلوا جميعاً ، فلما قاموا من الأكل ، رمى إليهما ثمانية دراهم ، وقال : « هذا عوض ما أكلتُ من طعامكما » ، فاختلفا في قسمتها ، فقال صاحب الخمسة : « لي خمسة ، ولك ثلاثة بعدد أقراص كلٍّ مِنّا » ، قال الآخر : « لا ، بل قسمة بيننا بالسوية ، لي أربعة ولك أربعة » ، فترافعا إلى سيدنا علي ، فقال لصاحب الثلاثة : « اِقْبَلْ ما أعطاك صاحبك » ، قال : « لا أقبل إلا مُرَّ الحق . أي لا أقبل إلا الحق ، ولو كان مرًّا » ، فقال سيدنا علي : « ما لك في مر الحق إلا درهم واحد » ، قال : « كيف ذلك ؟ » ، قال : « تقسم أقراصكم أثلاثاً ، لك تسعة وله خمسة عشر ، وأكلكم سواء ، فأَكَلْتَ أنت من تسعتك ثمانية وبقي لك واحد ، وأكل صاحبك ثمانية وبقي له سبعة، أكل صاحبكم المستأذِن ثمانية ، سبعة لصاحبك وواحد لك ، فلك درهم وله سبعة دراهم » ، قال : « رضيت » ، انتهت القصة .

انظر كيف رضي بالواحد لما تبين له أنه الحق ، وقبل ذلك ما رضي بالثلاثة ، بل لو دفع له الثلاثة بعد الفتوى ما قبلها ، فانظر إلى إنصاف أهل الزمن المتقدم ، فلو كان من أهل زماننا لرجع بطلب الثلاثة ويقول : « رضيت بها الآن » ، واعجب لهذه الفتوى العجيبة التي لا تكون إلا من ميراث النبوة، ويكفي من معرفة بلوغه في العلم الغاية القصوى ، ما أظهر الله على يديه من علم معرفة أحكام البغاة المقرر علمها في كتاب الله، وما عرف معناها وظهر إلا منه في وقته الذي أجله الله إليه متأخراً عن وقت رسول الله ﷺ ووقت الخلفاء الراشدين قبله هـ .

قال رضي الله عنه : « العلوم لها مقار ولها ناس ، فإن وَقَعَتْ في أهلها فذاك ، وإلا صارت كالهزل ، وإن كانت في الأصل جدًّا ، ومن العلوم ما هو كالروط - أي اللغو - وهي التي توضع في غير أهلها ، وينبغي للعالم أن يستصلح نفسه أولاً ثم يستصلح العامة » .

قال : « لله في خلقه مثوبات وعقوبات ، فمن أحبه منهم أقامه في المثوبة ، ومن أبغضه جعله في العقوبة ، وإذا رأيت أن الله جعل أحداً ينتقم به ممن خالفه فاعلم أنه يبغضه » هـ .

أقول : أي لأن الله جعله في العقوبة كالظالم ، فإنه إذا ظلم أحداً فإن ذلك عقوبة للمظلوم على ذنوب سلفت منه ، نسيها وأُثبِتَت عليه ، وظن أنه أُخِذَ بلا ذنب ، كما تقدم هذا ، ثم إن ذلك الظالم لا بد له من المجازاة على ظلمه ، مع أنه لا بد مع ذلك من رد المظلمة ، كما قال تعالى : ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية ، فيتبين بذلك قوله : « **ومن أبغضه جعله في العقوبة** » ، ومن جعله في المثوبة

عكس ذلك ، كمن فعل حسناً فجازاه أحد في الدنيا بإحسانه حسناً ، فلا بد ما يجازيه الله بَعْدُ بإحسانه في الآخرة ، فدل ذلك على محبة الله وبغضه للرجلين على الفعلين ، وتبين لذلك معنى كلام سيدنا المذكور هـ .

قال : « **إن لله نظرات ينظر الله بها من نفسه إلى نفسه ، ومن كرمه إلى رحمته ، لا مدخل للعباد في ذلك** » هـ .

أقول : يعني بذلك الأمور التي هي محض الإرادة منه سبحانه ، كسعادة من أراد له السعادة ، ورحمة من أراد له الرحمة ، فمن أسعده فقد رحمه ، وليس لذلك سبب من جانب العبد ، لا جميلة ولا كرامة ولا وسيلة يستحق بها ذلك ، بل مجرد إرادة منه سبحانه وفضل ونظر منه تعالى ، لكن للسعادة أعمال تتعلق باختيار العبد وعمله ، وهي الإيمان والطاعة ، ولكن لا مطلقاً ، بل بقائد القدرة والإرادة الإلهيين ، وهما له كالمصراع للفرس بجاذب التوفيق ، وعلى الإيمان والطاعة يترتب الجزاء بالخير على وفق الإرادة إن وافقت ، وبما جرت به من وافر وأوفر ، وهو الثواب أو مجرده ، وتلك الأعمال الداعي إليها التوفيق الناشيء عن إرادته تعالى الرحمة لعبده ، فالرحمة منه سبحانه بمعنى إرادته السعادة لعبده وتوفيقه أن يعمل أعمالها ، وهو نظره سبحانه من نفسه إلى نفسه . وإثابته على ما وفقه له من العمل الصالح هو نظره من كرمه إلى رحمته ، لا مدخل للعبد في ذلك ، ونفس الأعمال للعبد فيها مدخل ، فإنها سعيه وكسبه ، وهي الشريعة التي قال الله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْۗ﴾، ولا مدخل له في إرادة الله له السعادة والتوفيق وكذا الخذلان ، وهو الحقيقة ، فهذا ما فهمت من معنى كلامه رضي الله عنه .

ووجه آخر في المعنى : « **نظرات** » ، أي إرادات واختيارات ، « **ينظر بها من نفسه** » ، أي يختار بها ويريد من نفسه بنفسه ، أي من غير سبب من غيره يستوجب ذلك ، « **إلى نفسه** » ، أي إنما هو اختيار من نفسه بنفسه ، وينظر بها « **من كرمه** » ، أي بسبب كرمه ، « **إلى رحمته** » ، أي يريد بسبب كرمه رحمته لعباده ، إما بسببٍ كالطاعات ، فيوفقهم لها فيرحمهم بها ، أو بلا سبب فيرحمهم وهم عاصون ، وكل ذلك بحسب ما اقتضته إرادته ، لا بسببٍ من العباد يقتضي ذلك ، والله أعلم .

والفهم بحر واسع كل يسبح فيه بقدر ما قسم الله له منه هـ .

قال رضي الله عنه لبعض المنشدين : « لا تقصر عن أن تحفظ لعبدالرحيم ، لأن نفوس الناس تطمئن إلى نظمه ، لكونه يمدح نبيهم ، والمدح والثناء بالحقيقة إنما هو لله تعالى ولنبيه ، وما عدا هاتين الحضرتين فكلهم أخدام ، إلا ما بين خادم رفيع وخادم وضيع . وفي مكاشفة الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه أنه قال : وقفت على أبواب الله كلها ، فرأيت كلًّا منها عليه تزاحم شديد ، إلا باب الفقر رأيته خالياً » .

قال رضي الله عنه : « الصحبة ثلاثة أقسام : صاحبٌ يصحبك لك فقط ، وصاحبٌ يصحبك لك وله، وصاحبٌ يصحبك له فقط . والأول فيه من وصف الله تعالى ، وهو أكملهم ، لأنه لمجرد نفعك من غير ما يرجو منك شيئاً . والثاني فيه إنصافٌ إن أقام العدل ، لأنه يأخذ ما له ويؤدي ما عليه . والثالث أضعفهم ، ولا يُؤْمَن مثل هذا ولا يُصحب ، ومثله كالمرأة » ﻫ .

أقول : الأول ما مراده بصحبتك إلا أن يقوم بما أمره الله به من حق الصحبة امتثالاً لأمر الله ، وتقرباً بذلك إلى الله ، فطلبها لذلك وعملها لأجل ذلك ، ولم يقصد منك نفعاً ، ومبرئك من كل ما يتعلق بك من حقه من أجلها ، وهذا لا يكاد يوجد سيما في هذا الوقت ، وإنما قال : « **فيه من وصف الله** » ، لأن الله سبحانه ما خلق جميع المنافع إلا ليتكرم بها على خلقه ، لا لغرض له فيها ، وإنما أوجب عليهم حق العبودية تعليماً لهم ليقوموا بما يلزم على العبودية من حق الربوبية ، وذلك فيه كمالهم وتكميلهم ، ولم يُرِد ذلك لكل الخلق ، بل لمن اختصه بالسعادة كما تقدم ، ولعزة هذا الصاحب لعزة هذا الوصف ، قيل في من يقرب من شبهه ، في وصفه بحسن خلقه ، وليس هو ما قيل : أن رجلاً اسمه مخارق ، أنشد المأمون هذا البيت من قول أبي العتاهية :

وَإِنِّي لمحْتَاجٌ إِلَى ظِلِّ صَاحِبٍ　　　يَرُوقُ وَيَصْفُو إِنْ كَدَرْتُ عَلَيْهِ

قال : « فقال لي المأمون : أعِدْه عليَّ . فأعدته عليه سبع مرات حتى حفظه ، فقال لي : يا مخارق ، خذ مني الخلافة واعطني هذا الصاحب » ، انتهى ، ذكره السيوطي في تاريخه .

والثاني إنما صحبك طالباً لنفعك له ، هذا معنى قوله : « **يصحبك له** » ، أي لنفع نفسه منك ، فإذا نفعته فما يمكنه إلا أن ينفعك كما نفعته ، ولولا نفعك له ما نفعك ، وهذا أحسن من الذي تنفعه ولا ينفعك ، فهذا قاصر جداً حيث إنما مقصده منك إلا أن تنفعه ، ونفعه لك عارض ، ربما أنه حياء، فإنَّ نفعه بقدر نفعك له بلا زيادة ولا نقصان فهو كما ذكر صاحب عدل ، يعني كاعتدال الميزان بلا زيادة ولا نقصان . فإن زاد قليلاً ارتقى إلى درجة الإحسان ، كما قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ ﴾، والعدل : أن تؤدي ما عليك وتأخذ ما لك بلا نقص ولا زيادة ، والإحسان : أن تنقص

من الذي لك ولو قليلاً وتزيد في الذي عليك ولو قليلاً .

فإن عكست بأن زدت في الذي لك ولو أقل قليل ، ونقصت من الذي عليك ولو أقل قليل ، صرت في مقام الجور ، مقام أهل الفحشاء والمنكر والبغي ، وهو مقابل العدل والإحسان أي عكسهما ، كما قال تعالى بعد ما أمر بهما بقوله سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ ، نهى عن ضدهما وهو الجور المسمى بالفحشاء والمنكر والبغي ، فقال تعالى : ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ﴾ ، فهذا المنهي عنه لما وقع في مقابلة المأمور به ، تبين أن المراد به ضده . وإياه عنى بقوله تعالى : ﴿وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ﴾ ، ثم بين المطففين من هم ، فقال : ﴿ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ ، فبين أنهم هم الذين يأخذون ما لهم وافياً ويعطون الذي عليهم حاسراً ، أي قاصراً ، فهؤلاء هم الذين توعدهم الله بالويل ، وهو واد في جهنم يستعيذ منه أهل النار كل يوم سبعين مرة ، يقذف الله فيه أهل التطفيف .

وكان بعض السلف يعطي ما يعطي بزيادة حبة ، ويأخذ ما يأخذ بنقصان حبة ويقول : « ألا أشتري الويل من ربي بحبة ؟ » ، فالتطفيف يشمل الكيل والميزان كما في الآية ، وكذلك إقامة حقوق الله وحقوق عباده ، وقال النبي ﷺ في الصلاة من جملة حقوق الله : « الصلاة ميزان ، فمن وفَّى استوفى ، ومن طَفَّفَ فقد علمتم ما قال الله في المطففين » .

والثالث الذي يصحبك له فقط ، رجل دنياوي مدوِّر طمع ، لا يبالي بحق ولا ينتهي عن ملام ، ولا يريد بصحبتك إلا أن يجُرَّ إلى نفسه منك نفعاً ، ومثل هذا كما قال : « **لا يُؤْمَن ولا يُصْحَب ، مثله كالمرأة** » ، أي إنه ربما أخذ من مالِك بخفية ما لا ترضى به ، فإن المرأة لا تتورع قط من مال زوجها ، ولا تراه إلا ملكاً لها ، وأن لها فيه التصرف بما شاءت كيف شاءت ، علم أو لم يعلم ، فإن رآها مرة ولم ينهها استطالت أكثر ، وربما لو نهاها ما انتهت ، فهذا من طبعهن غالباً ، إلا من وفقها الله وهداها ، وقليل منهن الصالحات .

وأما الصالحات فشأنهن عظيم عند الله ، كما قال الله تعالى : ﴿فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ ، وقال النبي ﷺ : « ما استفاد المؤمن بعد الإيمان بالله خير من امرأه جميلة ، حسنة الخلق ذات دين ، إن دعاها لَبَّته ، وإن نظر إليها سَرَّته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن غاب عنها حفظته في نفسها وماله » ، فأخذ العلماء من هذا الحديث ، وهو ضد معناه ، وذلك أنهم قالوا : مفهومه : وما استفاد المشرك بعد الشرك شراً من امرأة سوء سيئة الخلق ، إن دعاها لم تجبه ، وإن نظر إليها ساءته ، وإن أمرها لم تطعه ، وإن غاب عنها خانته في نفسها وماله .

وقال سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، وقد ذُكِرَ النساء عنده : « لا تتخذوا النساء على حال،

ولا تأمنوهن على مال ، ولا تدعوهن يدبِّرن أمر العيال ، ولا تفشوا لهن سراً ، ولا تدعوهن يدبرن أمراً ، فإنهن إن تُرِكْنَ وما يُرِدْنَ أفْسَدْنَ المسالك ، وعصين المالك ، وأوردن المهالك ، فإنا وجدناهن لا ورع لهن في خلوتهن ، ولا دين لهن عند شهوتهن ، يتهافتن على العصيان ، ويتمادَيْن على الطغيان ، وينكرن إذا مُنِعنَ القليل ، ينسين الخير ويذكرن السوء ، اللذة بهن يسيرة ، والحيرة بهن كثيرة ، أما صوالحهن فغادرات ، وأما طوالحهن ففاجرات ، وأما المعصومات فهن المعدومات ، إن ائتمن على مال ضاع ، أو على سر شاع ، فيهن ثلاث خصال من اليهود : يتظلمن وهن ظالمات ، ويحلفن وهن فاجرات ، ويتمنعن وهن راغبات ، فاستعيذوا بالله من خيارهن ، وكونوا من شرارهن على حذر » ، انتهى هـ .

قال *رضي الله عنه* : « **الرياء منه حثيث ومنه دقيق ، وتكتبه الملائكة باختلاف أنواعه ، إلا إن منه ما لا تطَّلع عليه المَلائكة كالدقيق منه ، لكنها تعرفه بالقرائن فتكتبه بقرائنه** » .

قال : « **ينبغي للإنسان في هذا الزمان أن يسير إلى الله باللطف ، ويأخذ نفسه بالتي هي أحسن ، ومن تبعه فهو منه ، ومن عصاه فإن هذا الزمان هو الذي ذكر في الحديث آخر الزمان ، الذي على الإنسان بخويصة نفسه ، ولا عليه من غيره ، لأن الروابط قد ضعفت في هذا الزمان** » .

قال : « **لا تظن أن الفتن في هذا الزمان تَسْكُن ، لا ، بل كلما رأيت فتنة سكنت فهي كالنار تحت الرماد ، غير ساكنة بل استترت ، لأن الناس غلبت عليهم محبة الدنيا والمال والجاه ، ومن كان محباً للمال والجاه لا يعد نفسه إلا في الفتنة ، حتى يبريء نفسه منها** » .

قال : « **من لا يخاف من النار ولا من العار لا تعده إنساناً** » .

وذكر الرياء ، **فقال** : « **العاقل إذا سمع أحوال الرياء لا يتهم إلا نفسه ، ولا يتهم غيره ، وأما أهل هذا الزمان زمان البركة ، إذا سمع ذلك أحدهم وعلم أنه فيه قال : ورى فلان . ولو أحد أعطاه شيئاً ما ذكر فلاناً** » .

وتكلم في الوسواس ، **فقال** : « **ما توسوس به في نفسك على أي وجه كان لا تؤاخَذ به ، لأنه كلام الشيطان ، ولا يؤاخذ الإنسان بكلام غيره ، فتحسب أنه كلامك وليس بكلامك . فلو تكلم أحد على النبي** ﷺ **- أي أو قال حراماً - هل تؤاخذ به أنت ؟ لا ، إنما يجب عليك الإعراض عنه ومنعه إن قدرت ، لا غير . ووسوسة الشيطان كذلك ، وما سببها إلا مجالسة الأشرار وأكل لقيمات الحرام، فاجتنبها أولاً ثم اجتنب الوسوسة ، أَصْلِح الظاهر ثم اصلح الباطن ، ولا يمكن صلاحه إلا بعد صلاح الظاهر ، وتَرَقَّ في ذلك ، فإن الدين درجات ، قال عليه السلام : إن هذا الدين متين ، فأوغلوا**

فيه برفق ، فمن غالبه غلبه . وينبغي إذا كثر عليه الوسواس أن يصلي مع طرف وسوسة ليزول ، لأنه يوسوس في ما يمكنه أن يحلف عليه ، أو يقيم عليه بينة » ، وتقدم قوله : « إن الله لا يؤاخذ الإنسان بوسواس الشيطان إذا كان له كارهاً وعقيدته بخلافه » .

قال : « وهذا الوسواس ما نقيم له وزناً ، لأن عندنا كل ما خرج عن الإختيار لا نرى فيه حرجاً»، وتقدم أن رجلاً شكى إليه من كثرة الوسواس ، فقال له : « هذا بسبب الطُّعْمة والخِلْطة ، فأطب مطعمك وخالط الأخيار ليزول عنك الوسواس » ، أو كما قال .

قال : « الشبهة أشد على المتنسك من الحرام ، لأن الحرام يعرف بأنه حرام فيتجنبه ، وإن وقع عليه تاب منه ، والشبهة أمرها عسر ، فربما اعتقد حراماً أنه حلال أو بالعكس » هـ .

أقول : وكثيراً ما أسمع سيدنا يقول إذا انصرف من صلاة الجمعة : « إلهي فيك قد أحسنت ظني ، فبحقك يا إلهي لا تهني » .

قال : « لا ينبغي للضعيف أن يُدخل على نفسه أمور أهل الزمان ، لأن مثلهم كمثل من رأى شرارة اشتبت ، فراح يطلب لها حطباً يزيدها ، فلا ينبغي أن يتكلف زائداً على وسعه ، فيحصل من ذلك حتى تغير المزاج » .

قال : « لا تحرك المرأة في هذا الزمان في أمر دينها ، لأنها فيه على شفا ، فلو قلتَ لها : هذه الصلاة غير صحيحة ، قالت : هذا الذي أعرفه ، وتركت الصلاة رأساً . وقد كان في الزمن السابق القلوب منوَّرة وفارغة ، فأخذوا الدين وشربوه شرباً كما يشرب الضمآن الماء ، بخلاف هؤلاء » .

قال : « كان الأولون قريبي المرتبة من النبوة ، ما بينهم وبين النبي ﷺ إلا نحو ثلاثة أو أربعة ، والمتأخرون إنما اقتضبوا من كتب الأولين . فأما اليوم فقد بَعُدَ العهد جداً ، حتى قال السيوطي : وأين العلماء والعلم ؟ فما عاد بقي علم ، والعمدة ما في الكتاب والسُّنة ، وما خالفه فلا تتوقف في رده ، وما أشكل عليك فكِلْه إلى قائله ، وما ثبت عن النبي ﷺ فهو أحق أن يُتبع ، وما لم يصح فَخُذْ فيه بالأرجح، وإن لم يكن ترجيح فاجتهد إن كنت من أهل الإجتهاد ، وإلا فخذ بما رجحه أحد من أهل الإجتهاد » .

قال : « الحسد لا يترك صاحبه يُقِرُّ بالحق ، فمَن في قلبه حسد إذا قلتَ كلمة وأنت فيها صادقٌ قال لك : تكذب . قبل أن يتعرف صدقك ، فلا يدعه دخان الحسد من التوقف حتى يتبين الأمر ، وإجمال الأمور : أن كلَّ ما قَبِلَهُ الكتاب والسنة هو الحق ، وما لم يقبلاه هو الباطل . وما المُقَلَّدُ إلا رسول الله ﷺ ، وإنما اختلفت الطرق عنه من حيث الصحة والضعف من جهة الإسناد ، فإذا رأوا أحداً حدث

بحديث مرتين واختلف لفظه فيهما ، أو رأوه ينشد شعراً خالياً ونحو ذلك ، ضعَّفوه وتكلموا فيه . وقد قال بعض أهل الحديث - هو عبدالله بن المبارك - : إنا لنتكلم على أقوام لعلهم قد حطوا رحالهم في الجنة . وهذا لأن المبتدعة قد فعلوا إسنادات بعضها على متن صحيح ، حتى يوصلوه إلى الإمام جعفر الصادق أو غيره من أهل البيت ، وبعضها على كذب على مقتضى أقوالهم ومذاهبهم الباطلة » .

قال : « ينبغي في هذا الزمان أن يكون المطلوب هو الذي يدور للطالب ، ولو هو خلاف ما عليه السلف ، وليحصل له التذكر ، لأنه لو لا المذاكرة نسي ، ولأجل الثواب » .

قال : « كانوا يكون للواحد مشايخ كثيرة ، وإن اختُصَّ بواحد واشتُهِر نسبته إليه ، لأنهم إذا لحق - أي وجد - أحدهم أحداً صحبه وأخذ عنه ، لأنهم إنما يأخذون العلم » هـ .

أقول : وقد سأل سيدنا بعض تلامذته وهو عبدالله باسعيد العمودي أن يذكر له من أخذ عنهم، ليذكر ذلك في مؤلف له أراد أن يذكر فيه من أخذ عنهم ، فقال سيدنا له : « فاعلم أنا قد لقينا وأخذنا عن خلق كثير ، وجماعة يطول عددهم من السادة آل باعلوي وغيرهم ، ممن أدركنا بتريم وجهة حضرموت ونواحيها ، وممن لقينا في حال سفرنا إلى الحج بالحرمين الشريفين وباليمن ، والظاهر أنَّا لو عددناهم ربما يزيد عددهم على المائة ، من بين عالم وعارف وأخ صالح » انتهى .

وأَخْذه عن هؤلاء وغيرهم ، مع أن عمدته ومعوله ونسبته إلى الشيخ العارف السيد محمد بن علوي السقاف وهو شيخ الفتح وهو خليفته ، وما اجتمع به ، بل بالمكاتبة ، وكان متوطناً بمكة المشرفة، وتوفي قبل حج سيدنا بثمان سنين . ومن مشائخه الشيخ عمر العطاس ، وهو أخذ عن الشيخ الحسين بن أبي بكر بن سالم عن أبيه ، وقد قال الشيخ أبوبكر بن سالم : « ناظري في الجنة ، وناظر ناظري في الجنة ، وناظر ناظر ناظري في الجنة » . فيكون سيدنا بعد السيد عمر في ثالث درجة .

ومن مشائخه الشيخ عبدالرحمن عيديد ، وهو رأى الشيخ أبابكر وأخذ عنه ، فيكون سيدنا من طريقه في الثانية ، وناظره في الثالثة . والشأن من سيدنا أن يقول كما قال الشيخ أبوبكر بن سالم ، لكن حاله الخمول ، فلا يقوله ظاهراً إلا إن أُكرِهَ عليه ، وأما في الباطن فهو كذلك . ومن مشائخه السيد شيخ بن عبدالرحمن عيديد المذكور ، الأب وولده من مشائخه ، وهو صاحب مسجد شيخ عيديد الذي بالنويدرة . ومنهم السيد عبدالرحمن بن عقيل السقاف ، الذي كان كل ما رآه تمثل بهذا البيت :

وَإِذَا العِنَايَةُ لاحَظَتْكَ عُيُونُهَا   نَـمْ فَالمخَـاوِفُ كُلُّهُـنَّ أَمَـانُ

كما ذكرنا . ومنهم - أعني مشايخ سيدنا - أحمد بن ناصر صاحب الشحر ، الذي قدمنا واقعته مع السيد عمر المغربي الذي كان بالحساء ، لما مر على الشحر جاي من مكة أو من اليمن ، وسمع به فقصد

زيارته، فأمر له السيد أحمد بالقهوة ، وجعل يصبها له بيده إكراماً له ، وكان ينكر القهوة ويحرمها، وكان جلالي الحال لا يبالي حال الإنكار بأحد ، فلما ناوله الفنجان كلخ عليه ورد الفيجان ، فأخذه السيد أحمد من يده وشربه ولا كلمه بكلمة ، ثم ملأه قهوة ووضعه على الأرض ، وجعل الفنجان يسير على الأرض حتى بلغ السيد عمر ، فقال له السيد أحمد : « خذه واشربه » ، فما أمكنه الخلاف بعدما رأى هذه الكرامة ، فأخذه وشربه ، ثم ملأه ثانية وناوله إياه فشربه ، ثم ثالثة كذلك ، ثم قال له السيد أحمد: « أسقيناك القهوة ، وزوجناك بنجدية » - أي امرأة من أهل نجد- فلما وصل الحساء جعل له دلتين ، إحداهما تُصب له ، والأخرى على النار تُصب له بعد تمام الأخرى ، وتزوج بامرأة نجدية ، وجاءت له ببنت تُسَمَّى المشترى ، أدركنا حياتها ، ولنساء آل حميد الذين منهم حاكم الحساء ، فيها عقيدة تامة. أخبرني بهذه الحكاية ابن بنت السيد عمر ، السيد عمر بن السيد محمد المازون المغربي ببلاد الحساء .

وكان السيد أحمد بن ناصر من ذرية الشيخ أبي بكر بن سالم .

ولسيدنا عبدالله غير هؤلاء مشائخ كثير إلى تمام المائة ، وتقدم أنه أخذ في الحرمين عن جماعة من البكريين وأخذوا عنه ، ولما وصلت إلى حضرة شيخنا الشيخ الفاضل العارف الزين بن صديق المزجاجي اليماني صاحب التحيتة من أعمال زبيد اليمن ، طلبت منه الدخول في طريقتهم النقشبندية، وذلك لأجل قول سيدنا المذكور ، فقال الشيخ الزين : « أنت عليك يد السادة ، لكن يا عبد الخالق هات دواة وقرطاساً » يقوله لابنه عبدالخالق ، وأملى عليه فقال : « اكتب : السعيد من اشتغل بعبادة الله ، وأسعد السعداء من اشتغل بالله جل شأنه » ، وقال له : « ناوله الورقة » ، فناولنيها وقال لي : « اقرأ ذلك » ، فقرأته عليه ، فقال : « هذه طريقة فاحفظها » .

وما أشبه قوله هذا بقول رسول الله ﷺ : « اعبد الله على الرضا » ، وهو قوله :« أسعد السعداء من اشتغل بالله جل شأنه » . ثم قال في الحديث : « فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » ، وهو قوله : « السعيد من اشتغل بعبادة الله » .

فاعرف بهذا عظيم حال الشيخ نفع الله به ، والقصة تقدمت في أول هذا النقل ، وكلمته الأولى هي الثانية في الحديث ، وكلمته الثانية هي الأولى في الحديث هـ .

قال رضي الله عنه : « **السائل المتعنت لا يبارك له ، ومن حين يأتي والشيطان يُلقِي في أذنه ما ألقاه في آذان المنافقين بحضرة رسول الله ﷺ ، إلا أن أحوال النفاق مختلفة فحال متعنت وحال منافق** » ، ثم ذكر قصة الخليل بن أحمد لما جاءه السائل المتعنت ، وسأله فسكت ، وفكر في جوابه إلى ستة عشر قولاً ولم يجبه هـ .

أقول : يعني إنه تفكر في نفسه ، وقال : إن أجبتُه بكذا ؛ قال كذا ، أو أجبتُه بكذا ؛ قال كذا . حتى عَدَّدَ ستة عشر قولاً ، فلم يجد له أحسن من السكوت ، وهو اللائق بحال المتعنت ، كما قيل :

مَـا كُلُّ قَـوْلٍ لَـهُ جَـوَابٌ   جَوَابُ مَا تكْرَه السُّكُوتُ

وقصة الشيخ عبدالقادر والذين معه لما دخلوا على ذلك الولي ، الذي يظهر ويختفي متى شاء ، وقصتهم مشهورة ، وفي حفظي أنهم قبل دخولهم عليه قال بعضهم لبعض : « ما نيتكم في زيارتكم لهذا الرجل ؟ » ، فقال أحدهم : « أريد أسأله سؤالاً يعجز عن جوابه » ، قال الآخر : « أريد أُبيِّن له جهله، حتى لا يعود يدَّعي العلم » ، قال الشيخ عبدالقادر : « ما جئتُه إلا لألتمس بركته ، وأطلب منه دعوة صالحة ينفعني الله بها » ، فدخلوا عليه وكلٌّ منهم مُضمِرٌ ما نوى ، فقال للشيخ عبدالقادر : « أنت يا طالب البركة ، حصلت لك البركة » ، ولا كلم الآخرين ، فآخرهم أن الشيخ عبدالقادر فتح الله عليه، وكان من أمره ما كان ، والآخرين كل واحد منهما وقع في فضيحة افتضح بها عند الله وعند خلقه ، وهذان هما متعنتان ، والشيطان ألقى في أذنيهما ما ألقاه في آذان المنافقين ، كما قال .

وقصة معرفة سيدنا بشيخه السيد محمد بن علوي تقدمت ، وهي أنه وقع له في طريق الله ثلاث مسائل ، واضطر إلى جوابها ، وسأل عنها كثيراً من الصلحاء من بلدان حضرموت ، من تريم واللسك وعينات وقسم والواسطة وسيئون وشبام ، وكان فيها الصالحون كثيراً متوافرين ، وكلٌّ منهم أجاب، وما شفاه منها جواب ، ثم رأى في النوم الحَكَم - من كبار مشائخ آل باقشير - فسأله عنها ، قال: فأجابه عن مسألتين منها جواباً شافياً ، ولم يجبه عن الثالثة ، وقال له : « وهذه ما يجيبك عنها إلا السقاف ». قال: « **فخطر لي أن المراد بالسقاف ، المُسَلِّك للمريدين في هذا الوقت من آل السقاف**»، قال : « **فسألتُ : مَن هو منهم اليوم ؟ فقيل لي : إنه السيد محمد بن علوي نزيل مكة . فكتبت إليه أسأله عن المسألة وأطلب منه الإلباس ، فكتب إلينا جواباً يعتذر ، ثم بعد ذلك أرسل لنا بالإلباس وبالجواب** » . هذا حَد ما تكلم به .

وأخبرنا السيد أحمد بن هاشم الحبشي ، وقد التقيت به في شعب جَدِّهِ الشيخ أحمد الحبشي ، لزيارة جد السادة الشيخ أحمد بن عيسى ، وأنا مع ابنَي سيدنا عبدالله : علوي وحسن ، وجلسنا معه مجلساً

طويلاً مليحاً فسيحاً ، فأخبرنا عن قصة ذلك قال : « كنت حاضراً عند السيد محمد بن علوي حين جاءه كتاب السيد عبدالله الحداد يسأله عن جواب المسألة ، ويطلب منه الإلباس » ، قال : « وأنا الذي قرأته عليه ، فكتب إليه أولاً جواباً معتذراً ، يقول : لا يمكننا ذلك إلا بإذن من النبي ﷺ - يعني إلباسه - » ، قال : « فلما وصل حامل الكتاب إلى جدة ، اهتم السيد محمد بزيارة النبي ﷺ - يعني ألقى الله في قلبه الهمة للزيارة - » ، قال : « فسار وسرنا معه ، فلما وصلنا المدينة الشريفة ، دخلنا إلى الزيارة، فلما وقفنا في المواجهة قبالة رأس النبي ﷺ ، حصل على السيد محمد حال عظيم وغيبة ، ورمى بثيابه كلها ، وما بقي عليه إلا سروال ، وجعل العرق يصب من بدنه ، حتى سال على الأرض ، وأخذ على هذا ساعة طويلة ، ثم سُرِّيَ عنه ورد إلى شعوره ، ثم لبس ثيابه ، ثم سار وسرنا معه إلى البيت ، ثم قال لي : هات دواة وقرطاساً نكتب للسيد عبدالله جواباً غير الأول . فقال لي : اكتب ، وأمرني بكتابة البسملة والحمدلة والصلاة على النبي ﷺ » .

قال سيدنا : « في أول كتاب منه إلينا ، وبعده في كل كتبه يقول : **من الداعي بطول البقاء وعلو الإرتقاء محمد بن علوي ، إلى فلان** » .

قال السيد أحمد : « فقال في كتابه : أما بعد ، فإن كتابك قد وصل إلينا تطلب الإلباس والجواب على المسألة ، وإنَّا اعتذرنا لك وقلنا : لا يمكننا إلا بأمر من النبي ﷺ ، وإن النبي ﷺ أَمَرَنا بذلك ، وإن جواب المسألة كذا وكذا ، وإن الإلباس ها هو واصل إليك » .

قال سيدنا : « **وهو قبع طويل** » ، وهو المعروف بقبع آل باعلوي ، وعادة سيدنا إذا أراد يلبس أحداً يضع القبع على رأسه أولاً ، ثم يضعه على رأس الذي أراد أن يلبسه .

والسيد أحمد هذا ، هو الذي قَدَّمنا أنه امتنع من أكل النبق ، الذي أمر سيدنا بنفضه ، وأكل مع من معه ، ثم جاء صاحبه وقال : « **إني قد أوقفته منذ ثلاث** » ، وهو ابن عم أم سيدنا : سلمى بنت عيدروس بن السيد أحمد الحبشي صاحب الشعب ، والرجل هذا هو السيد أحمد بن هاشم بن السيد أحمد الحبشي صاحب الشعب ، وكذلك السيد أحمد بن زين الحبشي بن علوي بن السيد أحمد الحبشي صاحب الشعب .

وتقدم قول سيدنا : « **ومَن سألَنا عن ما لم يكن لِـمَ يكون ؛ لا نجيبه** » ، وقوله : « **وكثير من الناس سألونا فأجبناهم ، وطلبوا وصايا فكتبناها لهم وكلهم لم يُبَارَك لهم في ذلك لعدم انتفاعهم بذلك ، لأنهم إنما أرادوا مجرد عِلْمٍ يحكونه ، وإنما رأينا البركة حصلت في المكاتبات والوصايا التي جعلناها لأناس من غير سؤال منهم ، بركة بالنسبة** » .

قوله : « **لعدم انتفاعهم** » ، أي لعدم عملهم بذلك ، دلَّ عليه قوله : « **لأن مرادهم مجرد علم يحكونه** » .

قوله : « **بركة بالنسبة** » ، يعني بركة سهلة على حسب نياتهم وأحوالهم القاصرة ، لا بركة على حسب نية أهل الكمال ، كبركة الشيخ عبدالقادر في نيته في التماس بركة ذلك الولي .

ثم إن كتاب السيد محمد وصل إلى سيدنا في حضرموت ، في اليوم الذي توفي فيه السيد محمد بمكة، وفي ذلك إشارة إلى أن سيدنا خليفته ، وأشار سيدنا إلى ذلك في القصيدة الرائية ، التي قال فيها :

رَعَى اللهُ جِيْرَانَ الأَبَاطِحِ وَالصَّفَا   فَقَدْ جَاوَرُونِي بِالجمِيلِ وَمَا جَارُوا

إلى أن قال :

بَقِيَّةُ قَوْمٍ قَدْ مَضَوْا وَخَلَفْتُهُمْ   وَهُمْ خَلَّفُونِي في الحِمَى عِنْدَمَا سَارُوا

وما حصل على السيد محمد ذلك الحال العظيم في المواجهة ، إلا لما كُشِفَ له انقضاء عمره وقرب أجله ، وانتقال حاله عنه إلى غيره ، والله المستعان .

وقد سئل سيدنا عن رجل حَرَّجَ في الصلاة على النبي ﷺ، فقال السائل : « ما تقولون في رجل حَرَّجَ في الصلاة على النبي ﷺ ، بأن يسكنوا اللام من صل ، ولا حركة لها ، يزعم أن إشباع الكسرة في اللام يؤدي إلى ما يعتقد من تنزيه المنزه عن كل شيء ، فالله الله في تحقيق ذلك ، لئلا يثقل أمر الصلاة على العوام ، فيؤدي إلى الترك » . هذا لفظ السائل .

فأجابه رضي الله عنه بقوله : « **وما شرحتم عن فلان إلى آخره .. فالرجل من المتعنتين المتبعين لما تشابه بغير هدى من الله ، ﴿أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ﴾، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾الآية ، ونحن ما نجوِّب على أمثال هذه الشبهات ، لأنها من الترهات، ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾** » .

قال : « **وما لنا في الشعر من رغبة البتَّة ، وإلا فنحن قادرون على ذلك ، لو أردناه لفعلنا نحو ثلاثة مجلدات ، ولكنا لما رأينا – خصوصاً في هذا الزمان – الناس في غفلة جداً ، حَثَثْنَا ذلك على شيء منها، لأنها تشيع في العامة وغيرهم ، فعسى أن تُنَشِّط عاملاً أو تُيَقِّظ غافلاً ، وفيها الوعظ والتذكير وغير ذلك، ولعل أن ترد أحداً إلى الإقبال على الله . ومن طبعي أني لا أذوق بنَظْم أحفظه ، ولم يبق في الحفظ شيء مما نظمناه ، حتى لولا نسمع من ينشد به لما عرفناه ، وإذا حَدَثَتْ في الذّهن شيء من القصائد ، لا**

نكتبها ، فإذا أخذت مدة ولم تَزُل عن الخاطر كتبناها . والنظم أطرب للروح ، وإلا النثر أوضح منه ، والحاصل إن تركه في الأمرين أسلم ، واللوم أكثر منه في النظم ، لأن في النظم التغزل » هـ .

أقول : وقوله : « فإذا أَخَذت مدة ولم تزل عن الخاطر كتبناها » ، أظن ولعل هذا في شيء دون شيء، فإنا نرى منه المبادرة في بعض القصائد في الحال ، فقد رأيته مرة يوم جمعة أراد يركب من الحاوي إلى البلاد لأجل صلاة الجمعة ، فلما وضع رجله في مركاب الفرس ؛ نَزَعَها ، ثم نادى ابنه السيد علوي وقال له : « هات دواة وقرطاساً » ، ودخل من الدهليز إلى حوش البيت ، ولحقه بهما ، فأخذ لحظة ثم خرج ، وخرج معه ابنه السيد علوي وفي يده ورقة مكتوبة فيها هذه القصيدة ، أملاها عليه ، خطرت له في تلك اللحظة فبادر كتابتها ، إلا إن كان ذلك خاصاً بهذه القصيدة ، وهي التي أولها :

وَلَّى الزَّمَـانُ وَوَلَّـتِ الأَيَّـامُ فَعَلَى المَنَازِلِ وَالنَّزِيـلِ سَـلَامُ

قال : « وفي شهر رمضان لم يمكنني أن أفعل شيئاً من النظم ولو بيتاً واحداً ، وقد تكلفتُ ذلك فيه فلم يمكنني ، وأما في غيره فلا يَعْسُر عليَّ ما أردتُه منه ، ولم يحصل مِنَّا في رمضان شيء من المؤلَّفات إلا رسالة المريد والراتب ، لا غيرهما ، والإتحاف ابتدأنا فيه في رمضان وتم في ذي الحجة ، كل ذلك من سنة ١٠٧٣ » ، ومرة قال : « ورسالة المريد هذه رسالة مباركة ، وقعت في رمضان في ست أو سبع ليالٍ » .

وأشار فيها إلى من ألفها له ، وأنه من آل كثير ، وسمعت أنه قريب لزوجته أم ابنه محمد ، قال : « ولم نذكر التي أُلِّفَت له ، لأنه رجع بَعْدُ عن الإرادة » .

وذكر من استملى منه كتبه ، فقال : « استملى مِنَّا رسالة المريد ، ومن الكلام في التوبة من آخر رسالة المعاونة : السيد باقر باحسن . واستملى رسالة المذاكرة وإتحاف السائل : السيد علي بن عمر بن حسين . واستملى من أول رسالة المعاونة إلى الكلام على التوبة : محمد بن عتيق . واستملى النصائح من أولها إلى الكلام في الحج : السيد حسن بن علوي الجفري . وكذلك أول التائية وآخرها : السيد عيدروس بن عمر . ومعظم الدعوة الولد حسين - أظن قال : والولد علوي - » ، وهي آخر مؤلفاته ، ذكر في آخرها أنها في سنة ١١١٤ ، وذكر أنه سنة حجَّ وَوَقْفُهُ في النصائح على الكلام في الحج .

قال : « وسرنا معنا بالكراريس التي مكتوب فيها من أولها إلى الحج ، ظننا أَنَّا نكون في السفر أفرغ من الحضر ، فإذا هو أكثر شغلاً ، فما أتممناها إلا بعدما رجعنا ، غير أنا نقلنا منها الكلام في زيارة النبي ﷺ ونحن في المواجهة تلقاءه عند رأسه الشريف ، تبركاً بنقل ذلك في زيارته ﷺ » ، أو كما قال .

والسيد باقر باحسن المذكور ، والد زوجته أم أولاده الأربعة ، وكان من تلامذته ، وسمعت أنها

حين وُلِدَت أخذها أبوها وهي ملفوفة في خرقة ، وأتى بها إلى سيدنا ، وكان مقيماً في خلوة مسجد الهجيرة ، وقال له : « امسحوا عليها ، وادعوا لها ، وعسى أن تكون زوجتك » ، فتبسم ومسح عليها ، ودعا لها ، فلما كبرت وبلغت تزوجها ابن عم لها ، وما مكثت معه إلا أياماً قليلة ، وطلقها وسار الهند، وذلك قبل دخوله بها ، ثم تزوجها سيدنا .

وهي أم أولاده : حسين وعلوي وحسن وزين العابدين وعائشة وسلمى .

قال : « والمؤلفات التي ألفناها من غير سؤال أحد ، أبلغ وأشمل من التي سُئلنا فيها ، ولهذا لم نُجِب أحداً بَعْدُ فيما سأل ، لأن الذين كانوا سألوا .. » ، وهنا سقط بعض الكلام ، ولعله قوله المتقدم: « سألونا فأجبناهم .. » ، إلى قوله : « كلهم لم يبارك لهم في ذلك ، لعدم انتفاعهم بذلك » ، يعني لعدم عملهم به .

ثم قال : « إنَّ ما كان لله فهو أحسن ،﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلْخَالِصُ﴾» .

ثم قال : « المراد بهذا الكلام من سأل فألَّفنا لأجله شيئاً من الرسائل ، وأما من سأل عن مسألة أو مسألتين فأجبناه عنهما ، فلا يدخل في هذا » .

ثم قال : « وهذه الأشياء حمدنا الله عليها ، وقد كانت في معرض فسحة ، نجمعها لهم من كتب شتى ، ولا هم دارين به . وما أنا خائف من جميع ذلك إلا من الديوان ، لأنه يرى الإنسان أشياء تظهر كأنه ذائق لها ، كما من ذكر عن أحد أنه يوبخ نفسه : أَأَنتِ كنتِ كذا ، فترى الإنسان منهم يقول شيئاً ثم ينكره ويقول : ما قلته . فهذا قد كان بلسان الحال ، قد كان ثم راح منه ، لكنا نوينا في الديوان أن كل ما قلناه مما لم نكن متلبسين به أنه على لسان من هو له أهل ومتلبس به » .

وتقدم قوله : « يسمع بعض الناس كلام الحال فيظنه كلام المقال ، وليس كذلك . وليس هو على ميزان الحس ، بل على ميزان آخر ، فإذا سمع من يقول : قال الله لي كذا ، وقلت له كذا ، فلا يظن أنه كَلَّمَهُ مشافهة ، وإنما هو لسان الحال ، كالمريض تراه يحكي لك بحاله وهو ساكت ، فإذا سمعنا من يقول من ذلك شيئاً عرضناه على الشرع ، فإن كان له وجه قَبِلناه ، وإلا رددناه » .

قال في قوله في الحديث القدسي : « فإذا أحببتُه كنتُ سَمْعُهُ الذي يسمع به » .. الحديث : « أي يعني لا يفعل بكل عضو مما يخصه إلا ما يحبه الله ، ويعتقد أن الله هو الفاعل به ذلك » هـ .

أقول : مثاله : أن من الأعضاء اللسان مثلاً ، ويخصه من الأعمال النطق ، فلا ينطق إلا بما يحبه الله من تلاوة قرآن أو ذكر ، أو الثلاثة التي نص عليها القرآن ، بقوله تعالى : ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ

إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾، ولا يقول ما يسخط الله من الكذب والغيبة وكل مذموم ، وكذلك في كل عضو من الأعضاء السبعة تصدر من كل واحد طاعة ومعصية ، فإذا أحبه الله أجرى على كل واحد من أعضائه الطيب من عمله ، وجنَّبه المكروه منه ، هذا مما يتعلق بالعمل المكلف به شرعاً في الظاهر . وأما في الإعتقاد الباطن فيعتقد أن الله هو الذي أجراه عليه ، ويسمى ذلك في الطاعة التوفيق، وهو ما يجريه على الخصوص الذين أحبهم من عباده ، ووعدهم عليه الجنة ، ويسمى في المعصية الخذلان، أعني ما يجريه الله على عباده ويجري الخذلان على من أبغضهم ، ووعدهم عليه النار ، فيراقب العبد أحواله وأعماله وما يجريه الله عليها ، فإن كان خيراً يحبه الله ، فيحمد الله أن أجراه عليه ، ويرجو تمامه بأن يختم الله له بحسن الخاتمة ، وإن كان شراً يسخط الله ، فيخاف من ذلك ويبادر إلى تركه ، ويخاف من عاقبته الذي هو سوء الخاتمة هـ .

ومرَّ عليه في « الفصول العلمية » من مؤلفاته ، قوله : « **إنَّ إقامة الله تعالى للعبد لا تكون إلا فيما يحبه الله ويرضاه من الأمور والأحوال ، هذا هو الشرط الأول . والثاني أن يكون فيما هو فيه عاملاً بطاعة الله وسالكاً سبيل مرضاة الله . والثالث أن يكون طالباً وراغباً في الترقي إلى ما هو فوق حاله ومقامه من الأحوال والمقامات المرضية ، ما وجد إلى ذلك سبيلا** » ، ثم لما سمعه **قال** : « **هذا الكلام ذكره ابن عباد في أول شرح الحكم ، والفرق أن من كان في طاعة واعتقد إقامة الله له فيه ؛ فهو كذلك ، وإن كان في معصية فاعتقد ذلك فهو الإحتجاج على الله ، ومثل هذا الإعتماد على القضاء والقدر مع ترك العمل، ومثله التعلق بالحقيقة دون الشريعة** » هـ .

أقول : يعني أن كل ذلك من هذه الثلاثة الأمور ، احتجاج على الله ، يعني يعذِّر لنفسه في اتباع هواها مما يحرم أو يكره . وتقدم قوله : « **إن الإحتجاج بالقضاء والقدر مع ملابسة المعصية ، معصية أشد من الأولى** » ، وتقدم قوله : « **من أتانا بحقائق تتبعها طرائق سَلَّمْنا له ، وإن كان ألَّا حقائق بلا طرائق فهي أخت الزندقة** » ، مع كلام الحبيب أحمد الهندوان ، وقدمنا الكلام على قوليهما .

وسئل : أي الأفضل من حالين : « أن يغيب الإنسان أول أمره ، ثم لا يحصل ذلك ؟ » ، **فقال** : « **انظر ما المُغيِّب له ، فإن كان من أمور الآخرة ؛ فقد تَقْدُم إليها قلوب الصالحين في الدنيا ، وإن كانت في الدنيا فتحسب من الآخرة ، وإن كانت من أمور الدنيا فهو من طبيعة البشر وحاجة البدن ، وأفضل ما كان عندهم أن يكون حاضراً في الغَيْبة ، فيغيب عن ما يحسن الغَيْبة عنه ، ويحضر ما ينبغي الحضور**

فيه » .

وحضر عنده رجل يشاور في تركة ، ثم استأذن آخر ، فقال للخادم : « اعتذر له » ، فقال الرجل الحاضر : « شَقِّينا عليكم » ، فقال : « لا ، هذه أمور ما منها بد ، والذي ما منه بُدٌّ يتغصَّبُه الإنسان ، وما منه بد يدافعه الإنسان من وقت إلى وقت ، وهذا أمر يعنانا » .

ثم قال : « نحن لا نشتري من الأيتام ولا نبيعهم ، والإنسان من يحسب الأمور وقد كان سبب التكدر بين الشيخ أبي بكر وبين عامر بن عبدالوهاب ، بعد أن كان نظم فيه قصائد - أي مدحه بها - وكان يروح الشيخ إلى عنده ، أنه أراد منه أن يقضي دينه ، فقال : كم قدره ؟ فقال الشيخ : لا أحصيه كما ينبغي ، إلا نادِ : مَنْ عند الشيخ أبي بكر له شيء فيأتنا . فقال : هذا ما يمكن أن أنادي به في بندر عدن، فيأتي من لا يستحق . فقال : ما هو إلا هكذا . فتكدر كل منهما على الآخر ، ثم إن أحمد بن الشيخ أبي بكر راح إلى أرض الحبشة ، فلقي فيها الوزير باحلوان من أهل الغرفة ، إلا أنه وُزِّر هناك ، فقضى دينه على ذلك الشرط ، وهو أن نادى : من كان له على الشيخ أبي بكر دين فليحضر .. » .

وبعد هذا جملة كلام تقطعت به الورقة المنقول منها ، وما ظهر لي ، فنقلت تتمته ومعناه من « المشرع الروي » ، فقال : « وكان يستدين الديون الكثيرة ، حتى بلغت مائتي ألف دينار فأكثر ، مع أنه لا يرجو الوفاء من جهة ظاهرة ، حتى واجهه بعضهم بالملام . فقال رضي الله عنه : لا تدخلوا بيني وبين ربي ، فما أنفَقْتُ ذلك إلا في رضاه ، وقد وعدني ربي أن لا أخرج من الدنيا إلا وقد أدى عني ديني. فكان كما قال ، فيسر الله تعالى قضاء دينه قبل موته على يد من سبقت له من الله الحسنى ، وحاز الرتبة العليا والمحل الأسنى ، وهو الأمير ناصر الدين عبدالله باحلوان ، فأرسل بذلك مع ولد الشيخ أحمد، ثم نودي في الأزقة : من له دين على الشيخ أبي بكر فليحضر . فقضى جميع ديونه » .

وفي غير المشرع: « وبقيت بقية جُهِّز بها » ، وفي كتاب آخر : أن باحلوان قال للشيخ أحمد بن الشيخ أبي بكر : « ناد أنت - أي مُرْ من ينادي - : ألا من له على الشيخ أبي بكر دين ، وما قصر أخبرني به » ، فنادى ثلاثة أيام ، وحضر كثير من أهل الديون ، فأعطى كُلًّا ما ادَّعى ، ثم بقي بقية فأرسل له وأخبره، فأرسل ما بقي حتى وفى ديونه كلها ، وبقيت تلك البقية من الذي أرسل آخراً .

قال صاحب المشرع : « وسببه أن ناصر الدين باحلوان كان له منزلة عظيمة عند المجاهد إمام أَوْسَة، فلامه بعض الناس في تعظيمه لناصر الدين ، ونَمَّ عليه عنده ، فأعرض المجاهد عن ناصر الدين، وأيقن بالعزل عن منصبه ، فرأى الشيخ أبا بكر في منامه يقول له : سينصرك الله على ذلك النمام. ثم أتى له كتاب من الشيخ أبي بكر ، وتاريخه موافق لذلك اليوم - أي يوم الرؤيا - كتب صبيحة ليلة الرؤيا ، ثم أخزى الله ذلك النمام وطرده المجاهد ، ورجع إلى تعظيم ناصر الدين » .

حاصل الأمر أن له - أي الشيخ أبي بكر - إشارات وحالات وصفات لا يدرك غورها ، ويطلع على حقيقتها إلا رب الأرباب ، أو من أطلعه الله عليه من الأولياء والأقطاب ، وأما غيرهم فعقولهم قاصرة عن إبراز ذرة من ذلك ، معترف بالتقصير عما هنالك . انتهى ما أردت نقله من « المشرع الروي»، تتمة لقول سيدنا فيما يتعلق بالشيخ أبي بكر ، حيث فاتني تمام ما نقلته مِن فِيهِ مشافهة هـ .

أقول : والله لقد رأيت من إشارات سيدنا عبدالله وتصرفاته ما هو أبلغ من ذلك ، كما ذكرتها في هذا النقل ، كقصة قول الشيخ حسين بافضل له .

وقوله لي : « **فاعلم هذا واعمل أنت عليه** » ، وطلبي منه تعبير رؤياي أني أسبح في ماء ، فسألني : « **الماء عذب ؟ وأنت تحسن السباحة ؟** » ، قلت : نعم . ثم أَلْحَحْتُ عليه في تعبيرها ، فلم يجبني بحرف ، ثم إن القدرة ساقتني إلى فتح كتاب « حياة الحيوان » ، فرأيت تعبيرها فيه : « أن من فعل ذلك في النوم، أنه يخالط رجلاً من الأكابر » . فكره سيدنا أن يلفظ لي بذلك إشارة إليه ، وغير ذلك كثير .

وقد تقدمت رؤياي للشيخ أبي بكر المذكور ، وإشارته فيها لسيدنا عبدالله أنه صاحب الوقت وأنه القطب في وقته ، وتقبيله يده - أعني أن الشيخ أبابكر قَبَّلَ يد سيدنا عبدالله في تلك الرؤيا - وتوطئة رأسه له حين وقع بصره عليه تواضعاً ، ومشيه القهقرى في حضرته ، حتى لا يُولِّه قفاه ، ثم جلوسه عند صف النعال من شدة تواضعه . وكذلك ذلك الولي الذي بأرض المغرب في مكاشفته للعلامة السيد أبي الطيب ، لما ظنه القطب اليوم ، قال : « فحين خطر لي هذا الخاطر التفت إليَّ وكاشفني في الحال ، فقال : يا ولدي ، ما أنا القطب اليوم ، إنما القطب اليوم السيد عبدالله الحداد باليمن نفع الله به»، وهذه المكاشفة موافقة لتلك الرؤيا في تخصيص سيدنا عبدالله بمقام القطبية .

قال رضي الله عنه ضحى يوم الإثنين لثاني وعشرين شهر رجب سنة ١١٣٠ ، وهو خارج إلى السبير ، مطلوباً عند ابنه محمد في ختان ابنه ، وقد ذكر حال أهل الخمول كأويس القرني وغيره ، **فقال** : « **هذه طريقة مسلوكة ، وكان على هذا القدم كثير من الصالحين ، وكنا سَلَكنا عليها مدة ، حتى إن الرجل الشيبة من السادة يجيء إلى عندنا فيدعوني وأنا في المكان فلا أجيبه ، ولكن كأنَّا ما نحن مرادين لها . وقد وصى لنا شيخنا السيد محمد بن علوي يقول : الحذر الحذر من الظهور ، فإنا قاسينا شدة عظيمة من الناس . فقال الرسول له : إنه ما هو في هذا الباب قط ، ولا له رغبة فيه . فقال له : ولو كان ، زد قل له . وقد نقول لبعض الأصحاب حال المباسطة : لو أردنا الجاه العادي لما كان أحد له وجود قط ، ولكني أكرهه بالطبع ولا أحبه ، ولا أحب من يحبه أو يطلبه أو يتسبب فيه بأي وجه كان. وكذلك هذه التوسعات أكرهها بالطبع ، وقد قال الشيخ أبوبكر العدني : رئاسة حضرموت منوطة**

بأوباشها ، فأفٍّ لرئاسة تناط بهم ، أفٍّ لرئاسة تناط بهم ، أفٍّ لرئاسة تناط بهم . قال ذلك ثلاثاً » هـ .

أقول : وهذا الذم البليغ ، وأبلغ منه الذي حذر منه الصالحون ، هو الجاه الوهمي الذي تشتهيه نفوس الجاهلين ، وترغب فيه عقول الغافلين ، الذين تغلب على نفوسهم الشهوات الدنيوية من طلب الجاه والمال . وأما نفوس الصالحين الذين لهم عند الله المنزلة العالية تكره ذلك طبعاً ، كما حكى سيدنا ذلك عن نفسه من كراهته للجاه والشهرة بالطبع ، فلذلك نوه الله بذكره في الخافقين ، وأشهره بين الثقلين عند جميع طوائف المخلوقات في جميع الجهات ، عند الخواص والعوام ، والإنس والجن ، حتى صار أشهر من نار على علم ، حتى طبق ذِكْرُه وشهرته على ذِكْرِ من تقدمه . وذلك يدل على صدقه في حاله ومقاله ، وفي كراهته لذلك ، وإلا فلو كان عنده شائبة من محبة الصيت ، لما كان له منه كل ذلك، فإن هذا هو الجاه الحقيقي الذي يجعله الله لخصوص من الأكابر ، كالشيخ عبدالقادر ، ولا يكون منه ذرة لمن يرغب في ذلك الوهمي ، فإنه لا تأييد لطالب الهوى ، فلذلك خمل من يطلبه ، وما تم له مأربه .

ومن ثم لما جاء المعلم باجابر إلى تريم بأمر الشيخ أحمد بن علوي باجحدب له بذلك ، كثر اللابسون للخرقة منه والآخذون عنه ، ما لم يأخذوا من غيره من كبار السادة ، لكن خاف من السلب من كبارهم ، وعليه خطر من ذلك ، سيما إذا رأوا من يلتفت إليه ، ما لم يلتفتوا إليهم ، لكون ما لهم بخت مع بعضهم بعضاً ، كما قال ذلك سيدنا ، كما تقدم نقل ذلك عنه ، وإنهم ما يصلحون إلا مع غيرهم ، ولو قد جاء فقير واحد من غيرهم ثبتوا معه ، لكن لما كان باجابر في خفارة السيد أحمد أَمِنَ من ذلك ، ومع ذلك ما اطمأن قلبه بالأمن ، حتى طَمَّنَه بضمان الإثنين على ما تقدم ، ولأجل ذلك طلبه أن يصل للزيارة ليستمدوا منه ويأخذوا عنه ، وهو مراده ، وذلك سياسة منه ، وكان هو كافياً عن غيره ، ولكن علم بسبب المجاورة والمخالطة لا تقبل عليه القلوب الإقبال الكلي ، وتقبل ذلك الإقبال على الغريب ، حتى أمره أن لا يزيد على الثلاث ، لئلا يبطيء فيحصل الخلل في إقبال قلوبهم على ذلك الوصف ، وبتضمينه الرجلين تبين أنه المتعرض في ذلك تطيبياً لخواطرهم وتسكيناً لخاطره، وكان قصده مجرد النفع ، ولولا ذلك العارض من عدم الإقبال الكلي بسبب المجاورة ، حيث ذلك الإقبال شرط في الأخذ ، لكفاهم هو عن غيره .

فإن قلت إن سيدنا قال : « **إنما مدد السادة من بعضهم بعضاً ، وغيرهم يستمد منهم** » ، فكيف امتداد السادة من باجابر دون من عندهم من كبارهم ؟ ، فأقول : نعم من احتاج إلى المدد ومعه ذلك الإقبال المذكور فيستمد منهم ، وفيهم له من غيرهم الكفاية ، ومن لم يكن معه منهم ذلك مع أحد منهم ، وهو معه مع غيرهم مع النصيب المكتوب له عندهم الدال عليه حصول ذلك الإقبال ، كما استمد الشيخ أبوبكر بن سالم من الشيخ معروف باجمال ، وهو - أي معروف - إنما مدده من السادة

كالشيخ شهاب الدين بن الشيخ عبدالرحمن بن علي ، وغيره من السادة . حتى رأى بعضهم لما مات الشيخ معروف أن سيلاً سال من تحت قبر الشيخ معروف وجرى في الرحبة إلى الكسر إلى حضرموت إلى عينات ، فخرج إليه الشيخ أبوبكر فالتقاه بصدره ، وفتح له فاه ، فالتقمه وشربه كله ، فأولوه أنه حاله ومدده ، تلقاه وورثه ، مع ما ذكر أيضاً أن الشيخ أبابكر العيدروس أرسل له من عدن بأمانةٍ : سبحة وعكاز ومرقعة ، وقال لحامل ذلك : « لا تدفعه له حتى يسألكه » ، وذكر له : « إنك تراه يتعبد في مسجد باعيسى » ، خارج قرية اللسك . فحين رآه مقبلاً سار إليه والتقاه ، وقال له : « هات الأمانة، وهي كذا وكذا » فدفعها إليه ، ومن حيث قبضها جعل يتكلم في الحقائق ، وقيل : إنه ورث حاله .

فالأمر على ذلك بحسب النصيب ، من السادة أو غيرهم ، فالإنسان يتبع قسمه مع من كان ، فهذه أمور الصالحين وأحوالهم ، وهي بمعزل عن العقول ، فتصدق بها ولا تعترض .

ولذلك امتنع سيدنا عبدالله من الأخذ عن باراس لعدم ذلك - أي النصيب - وإنما راوده على ذلك بالكلام ، ثم بالطعام ، ثم أعجزه الله عن ذلك بكل ذلك ، فلم يسعفه بذلك على ما قدمنا من قصته ، يريد بذلك أن يتشرف بانتساب أخذه عنه ، كيف وشيخهما الشيخ عمر العطاس نفع الله به ، ما يرى إلا أنه تلميذ للسيد عبدالله الحداد ، ولا يرى أنه شيخه كما قال سيدنا : « **أبى يُلبِسَني حتى أَلْبَسْتُه، فألبستُه كوفيتي وتركتُها له ، وألبسني كوفيته وتركها لي** » .

ورؤيا الرجل الذي من السادة وكان غائباً عن بلده ، ولم يعلم بمراودة باراس لسيدنا ، قال : « رأيت كأن السيد عبد الله الحداد فاغراً فاه ، وحنكه الأسفل في الأرض ، وسقف فمه في السماء ، غائراً على باراس يريد يلتقمه ، وهو بين يديه كالعصفور ، وإذا السيد عمر العطاس نفع الله به واقفاً عليه يقول : لا يا سيد عبدالله ، لا يا سيد عبدالله ، اتركه لأجلنا » ، فتركه وكف عنه ، فلما جاء وأخبر برؤياه، أخبروه بقصته معه .

وكان السيد أحمد باجحدب المذكور من كبار العارفين أهل التصريف ، أولي البصائر واليقين ، المطلعين على أحوال الناس ومعرفة ما ينفعهم ، والراغبين لهم في النفع والساعين لهم فيه ، ومن سعيه في نفعهم طلب المعلم باجابر لينتفعوا به في الثلاثة الأيام ، وعَيَّنَ له المقام في مسجد بروم ، وكان يقول: « إذا رأيت الرجل عرفت حاله وما هو عليه ، كما يعرف أحدكم الشيء إذا قلبه بيديه » ، وقال سيدنا عبدالله في حقه : « **وجميع السادة آل باعلوي في وقت الشيخ أحمد بن علوي جحدب مُسَلِّمون له ، وتسليم المبتديء للمنتهي من بركته** » ، لأن الشيخ كان زاهداً عارفاً ، تجيه فتوحات كثيرة ، فينفقها في ساعة ، وربما جاءه جماعة - أي أضياف - فاحتاج إلى أن يتسلف من غيره .

ومن عجيب ما سمعت عنه : أن الشيخ أبابكر بن سالم أول ما أخذ عنه في ابتداء أمره ، وصار

للشيخ أبي بكر صيت وشهرة ، فَنَمَّ عليه بعض الناس عند الشيخ أحمد باجحدب ، وذكر له كثرة شهرته ، وكأنه ما اشتهى له ذلك ، كما هو عادة السادة بني علوي وطبعهم ، فأرسل الشيخ أحمد إليه يلومه ويأمره بالخمول ، وقال للرسول : قل له : يقول لك : « إنما عادك في : بسم - يعني ابتديت في البسملة إلى هذا الحد - وما أتممتها بعد ، فكيف هذه الشهرة ، وإنما هي تكون للمنتهي ؟ » ، فقال الشيخ أبوبكر للرسول : « أهو قال لك ذلك ؟ ، أني ابتدأت بـ : بسم » ، قال : « نعم » ، فقال : « الحمد لله ، من ابتدأ فهو يختم » ، ثم سجد شكراً لله على كلمته هذه . ومن هذا يعلم قول سيدنا المذكور آنفاً : « **وتسليم المبتديء للمنتهي من بركته** » .

وكان السيد أحمد المذكور في آخر عمره عزم أن يعتكف في مسجد آل باعلوي ، وموضع اعتكافه في حمام المسجد - أي خلوته - معروف ، وأن لا يأكل الطعام ويكتفي عنه بالبخور وبالعود ، وأخذ على ذلك أياماً . ثم أتاه السيد محمد بن حسن بن الشيخ علي ، وهو أحد الرجلين الذين ضمنهما للمعلم باجابر ، يلومه على ذلك وقال له : « ما فعل هذا رسول الله ﷺ ولا الصحابة ولا التابعون ، فلِمَ تفعله؟ » ، قال : « لم أجد الطعام الحلال » ، قال : « أنا ألتزم لك كل ليلة بقرص حلال بلبن » ، فكان يرسل ذلك له كل ليلة يأكل منه ثلاث لقيمات ، ويرده .

وذكر سيدنا جماعة من السادة آل باعلوي كالسيد مشيَّخ بن عبدالله بن الشيخ علي ، والشيخ شهاب الدين بن الشيخ عبدالرحمن بن الشيخ علي ، وذكر ناساً آخرين ***فقال*** : « **كلهم من بلد واحدة، من جماعة واحدة ، كلهم أهل فضل وعلم ، كل من رأيته منهم قُلتَ : هذا هو هذا . وأما اليوم فلا يُذكَر أحدٌ بشيء ، فهم بالعكس ، وإذا وقع العكس جاء العكس** » .

قال : « **تَشَبَّه بأهل الخير ما استطعتَ ، فإن لم تكن منهم ، فتكون من محبيهم** » هـ .

أقول : يعني ومن أَحَبَّ قوماً تَشَبَّه بِهِم ، ومن تشبه بقوم فهو منهم أو من محبيهم وإنما قيل : « من أحب قوماً فهو منهم » ، لأن مِن لازِمِ المحبة التَّشَبُّه ، ومَن لم يتشبه وهو يقدر فدعواه المحبة مجرد دعوى بلا بَيِّنَة ، وتشبهه بهم هي بينته الشاهدة له بدعواه المحبة .

وذكر سيدنا كيفية التشبه ، ***فقال*** : « **إذا كان من أحببتَه من الصالحين يقوم كل الليل يُحْيِيه بالعبادة، فَصَلِّ أنتَ يا المتشَبِّه بهم ركعتين في الليل ، فتكون قد تشبهت بهم ، وثبت لك قدم المحبة لهم** » هـ .

قال : « **قد يكون التحسر على فوات فعل الخير ، خيراً من فعله ، لأن الفعل يفتقر إلى نية ، والنية قد**

تعز ولا تصح ، وأما التحسر فلا يحتاج إلى نية » .

وذكر همته في الحركة والسكون ، وقال : « قد أقوم وأروح وأجي لأجل النشاط ولا أزحف - أي أتعب - والهمة المتعبة للبدن مؤلمة » ، ثم أنشد هذا البيت :

وَإِذَا كَانَتِ النُّفُوسُ كِبَارا   تَعِبَتْ فِي مُرَادِهَا الأَجْسَامُ

وذكر بعض من سافر على طريق الشط مع بعض فقراء آل إسحاق ، فقال : « هو طريق مخوف ، أشد من البحر بأمور كثيرة ، والفقير - أي الذي من آل إسحاق - مسافر دنيا لا متبرعاً ، فلو كان متبرعاً لكان معه سيف من القدرة ، وآخرهم على طريقة الفقراء الصادقين الشيخ شيبان ، وكان من حال الزهد والتجرد بمكان عظيم ، وكان غالب حاله ما يكون عنده شيء ، حتى جاءه رجل مستخلف منه مسافراً وأراد منه الإلباس ، فلم يجد على رأسه كوفية يلبسه إياها ، وجاءه رجل بحِمل بُر ، وقال له: لك نصف هذا الحمل ، ولكنَّا محتاجون ، فأسألك تقرضناه ونجيب لك حملاً بعد ذلك . فقال : هو لك هبة . وكان له عدة أيام ما له ولعياله عشاء ، وحضره ضيف ، فقال لأهله : ماذا عندكم ؟ قالوا : رأس غنم . قال : اذبحوه . ففعلوا ، فقالوا ما معنا حطب ، فقال : كَسِّروا هذا السرير . لسرير تحته ينام عليه، وغير ذلك من الأحوال ، وهؤلاء يسافرون بالقوافل متشبهين بأولئك وليسوا مثلهم ، وإنما يقولون أهلنا وآباؤنا فأين هم منهم ؟ » هـ .

أقول : وكذلك سمعت من سيدي الحبيب أحمد الهندوان ، يذكر شيبان هذا ويثني عليه ثناء حسناً في زهده ومعاملته ، وذكر قصة ضيفه وأمره بتكسير السرير حطباً لعشائه ، وقصة صاحب الحمل معه، وما أثنى عليه هذان إلا وهو من الكمال والفضل بمكان ، فإنه ما يعرفُ الفضلَ لأهل الفضلِ إلا أهلُ الفَضل ، كما تقدمت الأبيات التي فيها : « إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذووه » .

وسمعت لشيبان قصة فيها كرامة له ، ولعل هذا الذي ذكر السيدان - نفع الله بهما - طرفاً منها، والكلام في معنى واحد يشمل أطرافه من جهاته كلها ، وهي أني سمعت أن شيبان هذا نفع الله به مكث وأهله لياليا كثيرة طاوين بلا عشاء ، وإذا قد حَطَّ عند بيتهم ليلة رَكْبُ ضِيفان ، يريدون منهم العشاء ، وهم على تلك الحالة ، فأُخْبِرَ بأن عندك هذه الليلة ضِيفان ، فما تأمر به ؟ قال : « نحن وهم ضِيفانٌ لله » ، وسكت وهم ينتظرونه يأمرهم بأمر ، فلما أبطأ عليهم الوقت وأمساهم الليل ، وإذا رَكْبٌ آخر قد أقبل ، وإذا معهم له حِمْلان من بُر ، ودفعوهما لأهله ، وأخبروه بذلك ، فقال : « قوموا في صنعة الطعام لكم ولهم » ، فما طحنوا وعجنوا إلا وجماعة قد أقبلوا ومعهم له رأسان من الغنم ، فدفعوهما لأهله وأخبروه بذلك ، فقال : « اذبحوهما وأَدِموا بلحمهما عشاء الضيفان » . ثم جاؤوا وقالوا ،

قد أمسانا الليل وما معنا حطب نوقد به ، فنزل من سريره وقال : « كسروه وأوقدوا به عشاءهم » . ففعلوا وصنع العشاء ، وتم ذلك على أكمل وجه ، فتعشوا وتعشى الضيفان وشبع الكل وحمدوا الله وشكروه، والحمد لله على حسن صنيعه لأوليائه .

ولما وصلتُ إلى بلدهم هينن مسافراً إلى دوعن ، ثم إلى الشحر ، بعد وفاة سيدنا عبدالله ، فسمعتُ هذه القصة هناك عنه متداولة بينهم ، وأدركتُ هناك بنتاً له ، وكانت من الصالحات ، وهي امرأة مباركة ولها في سيدنا عبدالله عقيدة تامة ومحبة عظيمة ، وذلك من سعدها ووفور حظها من الخير ، أرسَلَت لي بالسلام ، وطلبت الدعاء ، وتشكو شدة وجع في عيونها ، وأن معها من ذلك تعباً شديداً ، وقالت : « أريد منك مما ينسب لسيدنا عبدالله شيئاً أضعه عليها ، لعل ببركته يحصل أن يتفضل الله بالشفاء والعافية » ، فقلت : « إن حوائجي كلها أرسلتها إلى بندر الشحر ، وما معي هنا مما ينسب إليه إلا كسرة عود دخون مما كان يتبخر به ، فخذيها تبخري بها على النية ، وافتحي عيونك على دخانها » ، فَفَعَلَتْ ذلك مع حسن النية ، فمنَّ الله عليها بالعافية بفضله ، وأرسَلَت لي تخبرني بذلك والحمد لله . وهذه المذكورة هي أم سعيد بن أحمد وأخيه عبدالرزاق . وطلبونا إلى بيتهم للعشاء على حسن محبة وعقيدة الإنتماء .

وكان لشيبان في بلدنا الحساء ولد اسمه أبوبكر بن شيبان ، كان رجلاً مباركاً صالحاً ، وللناس فيه محبة وعقيدة ، وظهر له بعض الكرامات ، التقاه في طريق عمان غزو ، يقال لهم : بنو هاجر قبيلة من العضَّة ، ولهم بآل إسحاق معرفة ولهم فيهم عقيدة ، والعضَّة من قبائل اليمن . وكان مع أبي بكر بن شيبان ركاب ، أخذها من عمان يريد بها مكة ليبيعها فيها وذلك سنة ١١١٣ ، فقالوا له : نحن مقحطين وألْجَتْنَا الحاجة إلى أخذك ، فاعذرنا في أخذك ، ولولا ذلك ما أخذناك ، فأبى عليهم وقال : « الله لا يعذركم » . فأخذوه ، وثاني يوم التقاهم غزو آخر فأخذهم وما أخذوا ، فتحسفوا بعد ذلك على أخذه.

ومثل هذه الأمور كرامات للسلف الصالحين ، تظهر للخلف الخالفين ، كما تقدم من قول سيدنا: « أحد يبرهن لنفسه ، وأحد يبرهن له غيره » ، أي يفعلها الله كرامة لصاحب الإستقامة ، إما هو أو من ينتمي هو إليه من أهل الإستقامة ، وإن لم يكن هو - أي المنتمي - صاحب استقامة . كما ترى من أمور بدوٍ وعوام جهال - ليس هم أهل تقوى ولا ديانة - في أخذهم النار ، وقبضهم على العقارب والحيات فلا تضرهم ، وضربهم لأنفسهم بالسلاح عمداً فلا يصيبهم ، كل ذلك لانتمائهم لسيدي الشيخ القطب أحمد الرفاعي نفع الله به ، يتعمدون تعاطي ما يضر ويفعلون أسباب الضرر عمداً ، مع أنه مُخِلّ بالديانة ، ومع ذلك كله يصرف الله عنهم ضرره وأذاه كرامةً لسيدي أحمد نفع الله به ، وتشريفاً له ، حيث ادعوا وأظهروا إنتمائهم إليه .

وهذا والله من أعجب الكرامات وأعظمها ، وهذا إن شاء الله عنوان للآخرة ، كما حماهم الله ضرر الدنيا مع تقصدهم له بالعمد ، فالمرجو أن يحميهم الله ضرر الآخرة ، كل ذلك ببركة انتمائهم إليه ، وذلك كرامة له لا لهم ، لأنهم لا بصيرة لهم في الدين ولا تمسكاً بالحق ، وأطمع في الدنيا من السباع الضارية ، لأنهم لا ورع يحجزهم عن الحرام ، ولا تقوى تَرُدُّهم عن ملابسة الآثام ، لأنهم جهال عوام، فلا تسأل عن الجاهل ماذا يقع فيه بجهله ، وهذا وصف كثير من الجهال منهم ، لا الأكثر ولا الكل ، سيما من العامة المبتدئين الذين هم لم يتمكنوا في تلك الطريقة المنورة .

وأما من له فيها مدة طويلة وأَلِفَها وتدرب فيها ، فهو على خيرٍ كثيرٍ ، وحالٍ جميلٍ ، وهذا من كان من غير السادة الرفاعية . وأما هم ، فصغيرهم وكبيرهم ومبتديهم ومنتهيهم ، فهم كلهم على حالة الكمال عند الله وعند خلقه ، نفعنا الله ببركاتهم وأسرارهم في الدنيا والآخرة .

وهذه الأمور الواقعة منهم في هذا الزمان خاصة دون ما قبله ، لاقتضاء الحال فيه بذلك ، لأمرٍ رأوه فيه تتعلق به مصالح ، وبنية لا يقتضيها الحال في الزمان السابق ، فإنهم ينظرون المصالح بعين البصيرة ، كما نظر السادة آل باعلوي من المصلحة في أمور التكابير والسمايات ، فلم ينكروها ، بل أمروا بالسمايات ، وأمر الضرورات تبيح المحظورات .

وقد حَضَرْتُ رجلاً ينكر التكابير بحضرة سيدنا ، ويقول : « إنها تخل بالمروءة » ، وظن أن سيدنا يُصَوِّبُ قوله هذا ، وما أجابه إلا أن قال له : « **كل ما مضى عليه السلف والأخيار فلا تخوضوا لنا فيه ، فما أنتم أعرف منهم بالله ولا بأحكام الله ، فما مضوا عليه اسكتوا عنه ولا تتكلموا فيه** » .

وكل من الرفاعية المنتمين للسيد أحمد نفع الله به ، كلهم يشملهم نظره واعتناؤه ، فينفعهم الله بذلك في الدنيا والآخرة ، لأنه بحر واسع لا طرف له .

وقد رأى بعض أهل الكشف رجلاً من أخدام بعض السادة آل باعلوي ، حين وُضِع في قبره فأتاه فتّانا القبر فسألاه : « من ربُّك ؟ وما دينُك ؟ ومن نبيُّك ؟ » ، فقال : « أنا خادم السيد فلان » ، فقالا: « نسألك عن ربك ودينك ونبيك وتقول : أنا خادم فلان » ، ورفع أحدهما المطرقة أراد يضربه بها ، فقبضه رفيقه وقال : « كيف تضربه وهو خادم السيد فلان ؟ اِمض بنا عنه » ، فمضيا وتركاه .

انظر بركة الإنتماء إلى السادة ما أبركها ، وما أقوى سعادة من حصلت له .

وقد رأيت رجلاً بحضرة سيدنا عبدالله يبكي ويقول : « يا سيدي اليوم لي نحو سبعين سنة وأنا أتردد إلى حضرتكم وأحضر مجالسكم ، ولا نُسِبْتُ إليكم ولا أُذكَر بخدمةٍ لكم ، ولا اتصال بكم ». ونحو هذا الكلام ، فقال سيدنا له : « **أوَ أنا أجعل فيك ما ليس فيك ؟ إنما الله المعطي ، والصالحون**

يعطون من أُمِروا له ، قال النبي ﷺ : الله المعطي ، وإنما أنا قاسم » ، فيفهم هذا أن ثبوت الإنتماء إليهم إنما هو موهبة الله لا بتعمل .

وكذلك فقراء الشيخ أحمد بن علوان يفعلون كفعل المذكورين ، لكن كلٌّ من الفريقين يكون ذلك منهم في أماكنهم ، والتي لا تنسب لأحد من المشائخ غيرهم ، كما سمعت أن بعض الفقراء العلوانيين - فقراء ابن علوان - جاء إلى تريم - وأراد أن يضرب نفسه بسكين على عادته في غير تريم - بلاد السادة آل باعلوي ، فنهاه بعض السادة من آل باعلوي ، وقال له : « هذا لا يتأتى لك في بلدنا ، لأن آل باعلوي لا يرتضون ذلك » . فأبى إلا أن يفعل ، فقال : « شيء لله يا شيخي » ، وضرب بطنه بالسكين، فشقَّ بطنه ووقع مُلقى ، لكن قام به ذلك السيد وجاء له بحكيم فداواه ، وخيط بطنه فبرئ .

وهذه القصة سمعتها في تريم تحكى غير مرة بهذا المعنى هـ .

قال رضي الله عنه : « **وأهل الإشارة إذا أشار أحدهم على أحد بشيء شديد ، كسفر في البحر في وقت هيجانه ، أو في أرض مخوفة ، ما عاد ينام ، لاهتمامه بأمر ذلك الشخص الذي أشار عليه ، وربما رأى ذلك الشخص الشيخَ حال الشدة مع صدق النية حاضراً عندهم . وروي عن الشيخ أبي بكر العيدروس أن بعض من يتعلق به حصل عليهم في مركبهم خَرْقٌ فتعبوا ، فرأى الشيخَ أبابكر دخل عليهم المركب وشَدَّهُ بمنديل ، وغير ذلك . ومن تشبه بالفقراء الصادقين وليس في الحقيقة مثلهم ، كمنزلة الذبر مع النحل ، في أنه يشبهه في بنائه ، ولكن أين العسل منه ؟ بل لا يسلم معه من اللدغ . وقول : أبوي أبوي لا ينفع ، فجماعة كان آباؤهم صالحين وسلاطين ، ما نفع أولادهم ما ادعوه من حال آبائهم ، كحال هؤلاء وسلاطينهم ، ليسوا على قدم من آبائهم** » .

ثم انتقل الكلام إلى ذكر الآباء ، وشفقتهم على أولادهم ، *فقال* : « **كلهم شفيقٌ عليهم ، إلا منهم من فيه مع الشفقة رِقَّة ويُظهِر ما في نفسه ، ومنهم من يخفيه** » هـ .

أقول : قوله : « **وأهل الإشارة ..** » ، إلى قوله : « **ومن تشبه بالفقراء ..** » ، إلى آخر المقالة ، وهو قوله: « **ليسوا على قدم من آبائهم** » ، كله إشارة إلى هؤلاء الذين يعبِّرون القوافل اليوم على طريقة آبائهم ، وبينهم وبينهم تفاوت كثير ، كتفاوت ما بين جني النحل الذي هو العسل ، الذي فيه شفاء للناس ، وبين لدغ الذبر وهي الزنابير وضررهم ، يشير إلى نفع أولئك ، وتعبيرهم لوجه الله ، وتسليمهم من قطاع الطريق من غير أخذ أجرة منهم على ذلك .

وشبه نفعهم هذا بالعسل الذي فيه الشفاء ، وبين تعبير هؤلاء للناس مع امتحانهم للناس بأخذ

أجرة ثم تشغيلهم عليهم بأن يحملوا لهم زاداً من عندهم ، ثم تشرههم عليهم يتطلب أمور غير ذلك، وهذا كمثل أخذ القطاع لهم ، وشبه هذا بلدغ الزنابير . فهذا فرق ما بينهم ، ثم إنهم إذا كتب الله لهم السلامة ولا لقيهم قطاع ، أعجبوا بذلك ، وعدوه كرامة لهم ، فشتان بينهم وبون بعيد ، فلا جرم لا تتأتى لهم الأمور كما تأتت لمن قبلهم ، ولا يصح لهم ما ادعوا من الكرامات .

ثم ضرب لهم المثل بالنحل للنفع ، وبالزنابير للضرر ، ليتوصل معنى الفرق بينهم إلى عقول الناس، ثم زاد ذلك بياناً أنهم لا يصح لهم دعوى أنهم كأوائلهم ، ويفتخروا ويتكبروا بذلك ، كما لا يصح لأولاد السلاطين التكبر لسلطنة آبائهم ، إذ لا سلطنة لهم مثلهم ، فلا ينفع كلا الفريقين ما ادعاه، ولو تكبروا بآبائهم من صالحين وسلاطين فما حصل لهم شيء مما لهم .

قوله : « **ربما رأى ذلك الشخص الشيخ حال الشدة مع صدق النية حاضراً عندهم ، ورأى ذلك المتعلق بالشيخ أبي بكر أن الشيخ أبابكر دخل المركب وشد خَرْقَهُ بمنديل** » ، أي رأى ذلك المتعلق في حال شدته الشيخ الذي هو متعلق عليه ، إما في مركبه أو في مكان شدته ، يصلح من أمره ما يزيل عنه شدته ، كإصلاح مركبه ، أو يأمره بالتنحي عن مكان الضرر ، أو يلقي عليه شيئاً يمنعه منه ونحو ذلك، بل لو رآه مناماً فهو بشارة له بالفرج ، كما وقع ذلك لمن رأى سيدنا مراراً .

وأنا رأيته في حال شدتنا في البحر ، ففرج الله عنا .

وقد كان في بعض السنين - وأظنها سنة ١١٢٦ في آخر ذي الحجة - أغار عسكر يافع الظلمة على بيوت الناس في تريم ، وكسروا أغلاقها وأبوابها ، ونهبوا ما وجدوا من الأموال والأمتعة ، فأخبرني صبي مراهق من أهل شبام بايتاً تلك الليلة بتريم عند أقارب لهم فيها ، وكان الحبيب قد صاهرهم ولهم فيه عقيدة حسنة ، قال : « إنا لقالدون على أنفسنا أبواب الدار كلها ، وإن يافع حاصرونا وهم يضربون الباب الخارجي يريدون كسره ، ولقد رأيت حينئذ الحبيب عبدالله عياناً داخلاً علينا في الدار » ، قلت له : أكنتَ نائماً ورأيتَه رؤيا ؟ ، قال : « لا ، والله إني لجالس يقظان ، وقلبي يرجف من الخوف ، فرأيته، ولكن حين دخل علينا تفرقوا عنا ، وبعد ذلك انكفوا وذهبوا عنا » ، فقضيت العجب من قوله .

وما هذا بكثير من شؤونه وكراماته نفع الله به ، وهذا الولد أظنه من آل باشراحيل ، أو من آل مصفر أو من أحدهما ، وله بالآخر نسبة ، الله أعلم بذلك .

ثم ذكر سيدنا في هذا المجلس ، الجذب واختلاف أنواعه ، *فقال* : « **منه جذب سماوي وسفلي ، فإن كان سماوياً يكون عقله تالفاً بالأمور السماوية ، وإن كان سفلياً فذهاب عقله بالأمور السفلية ،**

والعلوية كخوف من الله ، أو شوقاً إليه ونحو ذلك والسفلية كعشق العامة » .

ودخل عليه السيد زين العابدين ، ضحى يوم الثلاثاء ثامن عشر شوال سنة ١١٣١ ، وذلك في الغيلة في الحاوي ، وطال به المجلس معه ، ومن عادته الإنبساط معه في الكلام ، فكان مما خاطبه به بعدما جرى ذكر السيد علي بن عبدالله العيدروس الذي كان بسورت بندر بلاد الهند ، *قال* : « **كنت أظن أني والسيد علي بن عبدالله يكون موتنا في عام واحد ، فاتفق أني رأيت كأني وهو في جمع – في غرفته – بالسبير اجتمعنا لأمر يوجب الإجتماع ، كوليمة عرس أو نحو ذلك ، وكنت جالساً في المجلس إلى قبلة ، وهو في المجلس إلى شرق ، وبعدما تفرقوا قام وسار مشرقاً يريد الهند ، وكأني أعالجه أن يبقى ولا يروح ، فأبى وراح . فأولتها رجوع روحه ، وأنه يتوفى هناك ، وأن لا أكون معه في عام واحد** » .

ثم قال : « **ورأيت البارحة** – أي ليلة هذا اليوم ١٨ شوال المذكور – **كأنَّ رجلاً أعجمياً وقف فوق هذا الكرسي عندي في الغيلة ، وجعل يصرخ ويقول : الليلة مات القطب ، الليلة مات القطب** »، وأصبح هذا اليوم المذكور السيد محمد بن سقاف متوفياً تلك الليلة ، ليلة هذا اليوم ، فقال سيدنا: « **لا أرى الرؤيا تصدق عليه** » هـ .

أقول : فأرَّختُ ليلة هذه الرؤيا ، ثم مضت الأيام والليالي إلى شهر جماد الآخرة من السنة بعدها ، سنة ١١٣٢ ، ثم جاء من سُرَّت أوراق لسيدنا عبدالله من السيد أحمد باعمر ، وغيره من السادة ، يعزونه في السيد علي ، وذكروا أن وفاته ليلة ثامن عشر من شوال المذكور ، ليلة الرؤيا المذكورة ، فذكَّرتُ سيدنا أن وفاته وافقت ليلة رؤياكم تلك التي ذكرتوها للسيد زين العابدين ، فتعجب من موافقتها لذلك وقال : « **عليه تصدق الرؤيا** » .

وقوله : « **ظننت أن تكون وفاتي ووفاته في عام واحد** » ، فخرج سيدنا من عام وفاته بتسعة عشر يوماً فقط ثم توفي ، فإن سيدنا توفى ليلة الثلاثاء من ذي العقدة في سنة ١١٣٢ ، فقريب ما ظن وقريب ما روى ، وكلٌ منهما وفاته ليلة الثلاثاء .

وكان بينهما اتحاد كلي ، حتى إنه كلما طرأ عليه ذِكرُهُ أطنب في وصف ذلك حتى *قال* : « **ولم نفترق في سفر ولا حضر ، فإن الأوراق في غيبته بيننا وبينه متواصلة ، ونرجو أن نكون نحن وإياه من السبعة الذين يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله رجلان تحابّا في الله ، اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه** » .

وقوله : « **أعجمي** » ، أي غير عربي ، وأنه جاء من الهند فتكون لغته هندية ، وجاء يخبر سيدنا بذلك، لكونه يعنى بذلك ، وخصه لخصوصيته معه ، وكونه يختص بالتعب عليه ، كما يبين ذلك كلامه في مجالسه من طرفه . وقريب ما ظن وقريب ما أوّل ، وصدق كل من الأمرين ، والكرسي الذي رأى

الرجل الأعمى وقف عليه وجعل يصرخ ، كرسي لسيدنا يجلس عليه ، ويضع عليه عمامته ، وهو علامة لتخصصه بذلك الخبر .

وقوله : « **مات القطب** » ، تسميته بالقطب فيه توسعة وتوسع من حيث اللغة في العبارة والتعبير ، بحيث أن المعنى الواقع لفلان يصح في أخيه وقريبه ورفيقه ، وتخصيصه بالصراخ في محله وعلى موضع جلوسه وهو قريب منه يسمعه ، علامة على كونه يعنى به ويختص به دون غيره ، وإخباراً له بذلك في ظهر الغيب ، ويفهم من عبارة قصة رؤياه أنه علم بذلك ، وإنما أخفاه حتى إلى أن يظهر من غيره ، كتماً للسر ، لعدم علامة ظاهرة تدل عليه ، وستراً للحال .

ثم لما جاء خبره وظهر ، جاءه السيد زين العابدين الذي كان أخبره بالرؤيا يعزيه عليه ، وذلك يوم الأربعاء ثاني شهر رجب سنة ١١٣٢ ، فذكر سيدنا حينئذ شيخه السيد محمد بن علوي والسيد علي بن عبدالله المذكور ، فقال : « **ما تظهر بركات الصالح على من صحبه إلا بعد موته** » ، وتقدم قوله : « **إنما تعود بركة الصالحين على أهلهم وعلى من لزم الموالاة لهم بعد موتهم** » ، وقال : « **لما عزينا السيد أحمد باعمر كتبنا له نصف هذا البيت ، ولا كتبنا آخره : وما كان زيد هُلْكُهُ هلك واحدٍ ..** » – ونصفه الذي تركه بعد قوله واحد : ولكنه بنيان قوم تهدما – قال : « **وإنما لم نذكره راجين أن يكون بعدهم منهم بقية مباركة ، يكون فيهم الخلف لمن سلف** » .

ذكر هذا ومعناه في مكاتبته ، جواب كتابه له ، ونقلتها في المكاتبات ، وذكر في مكاتبته بالتعزية كراهة التفاؤل بآخره ، لأننا راجين بقاء النفع والإنتفاع ، وما زال كلما ذكره يكثر الكلام فيه ويطنب في وصفه ، وبعد وفاته قل ما يجلس مجلساً إلا ذكره وأطال فيه الكلام ، ومن ذلك قوله : « **لم نعلم أحد من السادة بقي في الهند ستين سنة مع توقعه للخروج إلا هو ، حتى إن السيد علي الشاطري قال : ما جلسنا معه مجلساً إلا ذكر تريم وتمنى الوصول إليها ، وقد رأيناه مراراً في الخلاء ومراراً في البلاد أنه جاء إلى تريم ، وفي كل ذلك وهو يريد الرجوع إلى الهند ، وأنا أشير عليه بالجلوس وعدم الرجوع ، وهو عازم على الرجوع . فكأن ذلك زيارة روحه وحفرته هناك ، ولكن الغريب شهيد ، لأن موت الغربة كثيب ، وإن كان بين أهله وولده ، وقد توفي بعض الصحابة في غير بلده ، فقال النبي ﷺ : هو شهيد ، يُقاسُ له من موضع قبره إلى منتهى أثره** » .

وسأل سيدنا ابن ابنه محمد بن عبدالله بن السيد علي المذكور : « **هل بلغكم قدر مدة مرضه ؟** » ،

قال : « نعم ، طال مرضه نحو سنة ، ولكنه لم يمنعه ذلك من عاداته ومجالسه وصلواته وجميع عوائده ، إلا قبل وفاته بثلاثة أيام ، انقطع فيها عن الخروج ، وأعتق جملة عبيد نحو عشرة ، وأُسكِتَ قبل الوفاة بقليل » ، كل ذلك يقوله لسيدنا وأنا أسمع ، قال سيدنا : « وكنا عَقَدْنَا بيننا وبينه عقد الأخوة عند قبر سيدنا الفقيه المقدم » .

ومِنْ نقل عمر باحميد فيما نقله من كلام سيدنا في مجالسه ، قبل أن أصل أنا إلى حضرته قال عمر : سمعته مرة يقول : « لله تعالى علينا منتين عظيمتين ، لا يمكننا أن نقوم بشكرهما ، إحداهما : منحنا الله سبحانه علماً واسعاً ، لا نحتاج معه إلى علم كل من على وجه الأرض . وما بقيت النفس تتوق إلى لقاء أحد إلا علي بن عبدالله العيدروس ، ولو كان بنحو الشحر أو نواحي اليمن لزرناه . والثانية : أعطانا الله عقلاً كاملاً ، لا نحتاج معه إلى عقل أحد » ، أو كما قال نفع الله به .

قال باحميد : وسمعته - أي سيدنا - يقول : « ما فهم معنى قولنا في القصيدة الرائية :

بَقِيَّـةُ قَـوْمٍ قَـدْ مَضَـوْا وَخَلَفْتُهُـمْ   وَهُمْ خَلَّفُونِي فِي الحِمَى عِنْدَمَا سَارُوا

إلا السيد علي بن عبدالله » هـ .

أقول : يعني فَهِمَ من كون الإشارة فيها إلى شيخهما السيد محمد بن علوي ، وإن معنى « خلفوني »، أن سيدنا خليفته ، وهو أول من فَهِمَ ذلك ، ثم اشتُهِرَ ذلك عنه ، وأنا سمعت سيدنا يقول : « أول مَن فَهِمَ هذا المعنى من القصيدة السيد علي بن عبدالله » ، وأما سيدنا فلم يَفُهْ منه ببِنْتِ شَفَة قط ، كما هو طبعه وسجيته ، كما سمعتَ مما قدمنا ، والأمر كذلك ، ودل عليه أنه أرسل الخرقة لسيدنا ، فوصلته في تريم يوم وفاة السيد محمد في مكة .

وقوة محبة سيدنا للسيد علي لكونه عقد معه عقد الأخوة والصحبة ، كما قال : « عند قبر سيدنا الفقيه المقدم » ، كما ذكرنا من قوله ، فهما أخوان في الله ولله ، أخوة خاصة ، وكلٌّ منهما يراعي الحقوق التي التزمها هذا العقد ، كما قال : « وما افترقنا في حضر ولا سفر » ، فترى سيدنا يراعي حقه حتى في أولاده ومن يلوذ به ، ويراعي حقوق شيخه الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس له في جميع آل العيدروس ، مراعاة زائدة على مراعاة جميع السادة .

وتقدم ذِكْر ما أخبرني به عبدالله بن حسين العيدروس صاحب المعيقاب بشبام عن مَن أخبره عن السيد علي بن عبدالله المذكور ، أنه ذكر قصة له مع سيدنا عبدالله - والقصة تقدمت هنا - وهي أن عادته يزور معه التربة كل ليلة بعد العشاء ، وفي العادة إن سيدنا يمسك بيده ، وأنه تأخر عنه ليلةً ما زار معه تلك الليلة ، وأنه عالجه على المسير معه فأبى ، فزار وحده - يعني سيدنا عبدالله - فالتقى الشيخ

عبدالله العيدروس قاعداً داخل التابوت فوق القبر ، وكلَّمه ومَدَّ إليه يده وصافحه ، وتفل في فيه ، وأعطاه وديعة . وكنتُ كثيراً أسمعه يشير إلى هذه الوديعة في كلامه ويقول : « **عندنا أمانة من الشيخ عبدالله بن أبي بكر ، ما يحملها إلا المهدي** » ، ومرة قال : « **أو أربعون من أصحابنا** » ، ومرة قال: « **أو ستون من أصحابنا** » ، ويشير إلى هذه الواقعة في ذكر إسناده إليه في لبس الخرقة ، حيث قال : « **ولنا بحمد الله منه يَدٌ باطنة في واقعة عظيمة ، بل وقائع متعددة** » .

وكان معتاداً مع السيد علي في زيارة التربة ، أنهما إذا خرجا من التربة بعد تمام الزيارة ، يقفان عند مسجد الجوهري خارج التربة ، يتذاكران فيما بينهما في فَنِّهما ، ويستغرقان في المذاكرة حتى يطلع الفجر .

ولسيدنا في تلك المذاكرة الشهية البهية أبيات كثيرة من قصائد متعددة ، تشير إلى تلك المذاكرة الشريفة ، وتلك المسامرات العظيمة ، منها قوله :

وَكَـمْ حَبِيْـبٍ وَفِيٍّ العَهْـدِ مُجْتَمِـعٍ ... عَـلَى المـوَدَّةِ لا بِالْعَاجِـزِ الْـوَكِلِ

مِـنْ آلِ فَاطِمَـةٍ بِيْـضِ الوُجُـوْهِ لَـهُ ... إِلَى المكَارِمِ سَـعْيُ المسرِعِ العَجِـلِ

فَهَـلْ تَـرَى عَائـداً في الحَـيِّ مُجْتَمِعاً ... مَـعَ الأَحِبَّـةِ بالإِبْـكَارِ وَالأُصُـلِ

وَبِالمَـسَامِرِ مِـنْ لَيْـلٍ وَقَـدْ هَـدَأَتْ ... عَيْنُ الشُّـنَاةِ وَأَهْـلِ النَّقْـلِ وَالعَـذَلِ

يَـدُورُ مَـا بَيْنَنَا كَأْسَ الحَدِيْـثِ مِنَ الْـ ... ـقَدِيمِ نُسْـقَى بِهَـا فِي النَّهْـلِ وَالْعَلَـلِ

لَسْـنَا نُبَـالي وَلَا نَـدْرِيْ بِنَائِبَـةٍ ... تَنُـوبُ مِنْ حَادِثَـاتِ الدَّهْـرِ وَالعِلَـلِ

أَنَّـى وَهَيْهَـاتَ أَنْ تُثْنِـيْ أَعِنَّتَهَـا ... تِلْـكَ الأُوَيْقَاتُ بَعْدَ الأَوْبِ وَالقَفَـلِ

فَقَـلَّ مـا عَـادَ مَـا قَـدْ فَـاتَ مِـنْ زَمَنٍ ... صَفَـا وَخِـلٌّ وَفَـا فَاقْـصِرْ وَلَا تُطِـلِ

إلى آخر ما قدمناه من ذِكْر الأبيات المشيرة إلى ذلك .

ودخل عليه بعض السادة من آل العيدروس ، فذكر السيد محمد بن سقاف ، وقال له سيدنا : « **ما رأيته في الرؤيا ؟** » ، قال : « لا » ، *قال* سيدنا له : « **عجيب ، من الأولين كانوا إذا رأى أحدهم الميت سأله عن حاله ، وعن ما لقي بعد الموت ، وهؤلاء لو رآه فلا يرى إلا أنه في الحياة ، فكأنَّ أولئك كانوا متعلقين بأمر الآخرة جداً ، على خلاف ما عليه هؤلاء** » .

ثم قال مشيراً إلى رؤياه تلك المذكورة آنفاً : « **رأيتُ ليلة مات ، كأنَّ رجلاً أعجمي دخل علي وأنا**

نائم في الغيلة – وهي الغرفة – وهو قائم على السرير يتكلم ويهتف بالقطبية ، ويذكرها كثيراً فيقول : القطب مات ، القطب مات ، فلو كان السيد علي الميت في هذا الحال ، لظننتُ أنه يعنيه بذلك ، ولكن لعل حصل له تمحيص بطول المدة » .

والمراد بالقطبية المشيخة ، *قال* : « **القطب في كل أمر للمتقدم فيه ، كما يقال : قطب العلوم وقطب الأحوال** » هـ .

أقول : ويقال للإمام الغزالي قطب العلوم ، وللشيخ سهل بن عبدالله قطب الأحوال .

قوله : « **بطول المدة** » ، لمحمد بن سقاف ، أي مدة المرض ، وقيل له ذلك من أجل ذلك .

قوله : « **فلو كان السيد علي الميت لظننت أنه يعنيه** » ، يعني أنه أحق بوصفه بالقطبية من المذكور ، ولنسبته لسيدنا يصدق عليه وصفه ، والحال أن السيد علي توفي تلك الليلة أيضاً في التي توفي فيها محمد بن سقاف ، على ما تقدم من التاريخ .

وبعد صلاة عصر يوم وفاة محمد بن سقاف ، قرأ سيدنا سورة يس وأمر الحاضرين قُرَّاء المدرس بقراءتها وإهداء ثواب ذلك له ، ووقت نشيد مجلسه في الدار بعد صلاة الجمعة التي تليه ، أمر المنشدين أن ينشدوا بقصائد المراثي ، خاصة كمرثيته في السيد أحمد الهندوان ، التي أولها :

يَا صَاحِبِيْ إِنَّ دَمْعِيْ الْيَوْمَ يَنْهَمِلُ　　عَلَى الخُدُودِ حَكَاهُ العَارِضُ الهطِلُ

وقصيدته في رثاء أخيه السيد حامد ، وغيره من السادة التي أولها :

مَـرَّتْ لَنَـا بِالحِمَـى المأْنُـوسِ أَعْيَـادُ　　مَـعَ الأَحِبَّـةِ لَـوْ عَـادَتْ وَلَـوْ عَـادُوا

كُنَّـا قَضَيْنَـا بِهَـا الأَوْطَـارَ فِي دَعَـةٍ　　وَطِيْبِ عَيْشٍ فَمَا كَادَتْ وَمَا كَادُوا

وكل ذلك استحساس واستشعار منه لخَطْبٍ ورزْءٍ يعناه ، غير هذا المتوفى هنا إذ ذاك ، وهو السيد علي ، ولم يتبين ويثبت أنه هو إلا بعد ما جاءت الأوراق بنعيه والتعزية به . وذكروا أنه توفي في تلك الليلة ، ليلة الثامن عشر شوال من سنة ١١٣١ التي توفي فيها محمد بن سقاف ، ومجيء تلك الأوراق بعد نحو ثمانية أشهر . وأن هذا الإستحساس والإستشعار الغيبي منه ، شبيه باستحساس واستشعار يعقوب عليه السلام حين قال كما حكى الله عنه : ﴿ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴾ ، أي تسفهون وتلومون ، كما قالوا : ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْقَدِيمِ﴾ ، وقوله : ﴿عَسَى اللَّهُ أَن يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا﴾ ، فلما أن جاء البشير وتبين ما استحس به قال : ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ وهذا منه علم إلهام ، كما يقع للأولياء ، فلو كان علم وحي لما كان في ذلك توقف وتوهم ، بل كان ذلك

علم يقين لا شك فيه .

وسيدنا لما قال : « **لو كان السيد علي الميت إذ ذاك ، لظننت أنه بذلك يعنيه** » وينعيه ، وهو قد توفي تلك الليلة في الهند ، وإن ذلك الصارخ جاءه مخبراً له به خصوصاً ، دون أقاربه وأقرب الناس إليه نسباً من آل العيدروس ، فدل ذلك على أن نسبته به أقرب من نسبته بأقاربه ، كما قال الشيخ عمر بن الفارض :

نَسَبٌ أَقْرَبُ في شَرْعِ الهَوَى　　　بَيْنَنَا مِنْ نَسَبٍ مِنْ أَبَوَيْ

فأصاب وَهْمُ سيدنا ، كما أصاب وَهْمُ يعقوب عليه السلام . فبهذا ونحوه تبين أن للأولياء مشابهة بالأنبياء من بعض الوجوه ، كما أشبه أبينا آدم ذريته في أمور، كالطاعة منه ومنهم ، وصدور المعصية منه، ثم توبته منها وهم كذلك ، كما تقدم من قول سيدنا : « **وهذه الأمور قد أسسها لهم آدم** » .

وقد بينًّا من حال النبي زكريا عليه السلام أن له - كما ثبت في القرآن - حالتين : حالة جَمْع : ما التفت فيها في سؤال الولد إلى التوقف على حصول سبب ولا دفع مانع ، فسأل الولد مع وَهَنِ عَظْمِه ، واشتعال رأسه شَيْباً ، وعُقْرِ امرأته ، معتقداً أن فعل الله إذا أراد لا يتوقف على ذلك ، كما خلق عيسى بلا أب ، وآدم بلا أبوين ، فلما أنه بُشِّرَ بالولد ، انتقل إلى حالة الفَرْق ، فجعل يتعجب كيف حصل ذلك مع ما ذكره ، فقال : ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ ٱلْكِبَرِ عِتِيًّا ۝٨﴾ .

فكذلك الأولياء لهم الحالتان : حالة جمع : يقومون فيها بالحقيقة ، وحالة فرق : يقيمون فيها الشريعة ، بمراعاة أسبابها وشروطها . كما ترى في كلام سيدنا هذا مما يدل على ذلك منه ، فإنه في حالة الجمع يقول : « **لا عاد عمدة في ذا الوقت إلا على المقادير فقط ، وما نحن مع أهل الزمان إلا بالعناية** » ، وفي حالة الفرق يقول : « **لا تعتمد على المقادير وتتعطَّل** » ، وغير ذلك . وهذا يبين أن كرامات الأولياء من جنس معجزات الأنبياء ، فكل معجزة لنبي يصح أن تكون كرامة لولي ، من حيث كون كل منهما أمر خارق للعادة ، وأن القدرة الإلهية الفاعلة للأمرين معاً واحدة .

وقد قال سيدنا كما قدمنا عنه : « **الولاية من سر النبوة** » ، وقال : « **درجة الولاية تحت درجة النبوة**»، وقال : « **كل رتبة من رتب النبوة تحتها رتبة من رتب الولاية** » ، وغير ذلك .

وذكر سيدنا في جوابه للسيد أحمد باعمر ، على كتاب تعزيته بالسيد علي ، *قال* : « **ولما فشا خبر وفاته بتريم ، أخذتنا الوحشة الكثيرة ، لعلمنا بأنه لا خلف منه على مثل ما كان عليه ، لكونها اجتمعت فيه من الخصال ما يعز اجتماعه في أحد في مثل هذا الزمان المبارك ، من العلم والعمل والسماحة ، التي لا**

يبقى معها الإبقاء على شيء من الدنيا ولا احتفال بها ، وغير ذلك من الفضائل والفواضل . فالله يرحم ذلك الوجه ، ويخلفه بالخير خلفاً صالحاً في عقبه الميمون السعيد ، عبدالله بن علي وأولاده ، وعسى الله والأمر كله لله ، وهو المنفرد بالبقاء والدوام ، ولا نقول إلا ما يرضيه : إنا لله وإنا إليه راجعون ، وإنا إلى ربنا لمنقلبون . وما أحسن ما قيل :

وَإِذَا تُصِبْـكَ مُصِيْبَـةٌ تُشْـجَى بِهَـا   فَاذْكُـرْ مُصَابَـكَ بِالنَّبِـيِّ مُحَمَّـدِ

غيره :

فَـلا تَبْـكِ مَيْتـاً بَعْـدَ مـوت أحِبَّـةٍ   عَـلِيٌّ وَعَبَّـاسٌ وَآلُ أَبِي بَكْـرِ

وقول الإمام الشافعي رضي الله عنه :

إِنِّي أُعَزِّيْـكَ لَا إِنِّي عَـلَى ثِقَـةٍ   مِـنَ المـاتِ وَلَكِنْ سُنَّةُ الدِّيْنِ

فَـمَا المعَـزَّى بِبَـاقٍ بَعْـدَ مَيِّتِـهِ   وَلَا المعَزِّيْ وَإِنْ عَاشَا إلى حِيْنِ

وقول بعضهم : وما كان قَيسٌ هُلْكُهُ هُلْك واحدٍ .. إلى آخر البيت . ولسنا نذكر بقية هذا البيت ، لأنا نرجو من فضل الله وبركات رسوله أن يبقى اجتماع ، ومن يبقى به الإنتفاع والدفاع ، وما ذلك على الله بعزيز ، ولأهل هذا البيت النبوي ما ليس لغيرهم عند ربهم ، من الإقامات والخصوصيات ، والظن في الله جميل وهو حسبنا ونعم الوكيل » .

وهذا ما أردت نقله هنا من تلك المكاتبة ، مكاتبة جواب تعزية السيد أحمد باعمر ، وهي مذكورة في مجموع المكاتبات .

وذكر للسيد زين العابدين ، قال : « كتب إلينا السيد أحمد باعمر يعزينا في السيد علي ، فكتبنا إليه جواباً يشير إلى هذه المكاتبة المذكورة ، المنقول منها هذا الكلام ، وكتبنا له في الجواب صَدْرَ هذا البيت: وما كان قيس هلكه هلك واحد .. وتمامه : ولكنه بنيان قوم تهدما . فتركناه خوفاً من التفاؤل به » .

أي خوف أن يتفاءل أهل بيته به . أو كما قال .

وكان سيدنا ليلة الثلاثاء أول ليلة من رجب سنة ١١٣٢ - وهو عام وفاته - طالعاً إلى البلاد من الحاوي ، فلما انفصل من الحاوي قليلاً ، عندما هبط في مقطب مسيلة ثبي إلى الحاوي ، قال : « إن كان عاد رحنا إلى آل عمر يوم يحلون ، أو نَدَرْنَا بيت جبير ، با نطلب الفالكي - أي من عند السيد زين

العابدين جاء به من الهند - نركب فيه ، ما عاد منّي شيء لركوب الفرس ، لأن السيد علي بن عبدالله هَدَّ قُواي جملة كافية » ، فأشغلنا كلامه هذا ، فقلت : فعسى الله أن يعوضكم منها . أعني القُوى ، فظن أني أقول : منه ، أي السيد علي . فقال : « ما عاد أحد مثله » .

ثم قال : « نرجو أن نكون وإياه ممن يظلهم الله في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله : رجلان تحابّا في الله اجتمعا على ذلك وتفرقا عليه ، ونحن وهو لم نزل متحابين في الله في حال الإجتماع الحسي وفي البعد، لم نتناكر أبداً في الحضور ومع الغيبة ، ولو كان السيد علي في غير بلاد الهند ، كما في الشحر أو عدن أو بعض بلاد اليمن ، ولم يتفق له المجيء للزيارة ، سرنا إليه نزوره ، ولكن لا يمكن ذلك في الهند ، سيما لمن هو مُعتَقَد ومعروف عند الناس ، وإلا فعلوا له مثل أهل الذبيي ، حيث مَرَّ بهم بعض السادة من أهل الفضل فاعتقدوه كثيراً ، فلما أراد السفر من بلادهم أرادوا قتله ، ليجعلوه مقاماً عندهم يزورونه ويتبركون به ، ولم نزل نرى منهم مثل ذلك كثيراً » .

انتهى ما اتفق لنا ذِكْره هنا ، مما ذكر من شأنه مع السيد علي ، وتقدم من ذلك شي كثير ، ويأتي أيضاً عند ذكر وفاته وذكر مرضه الذي توفي فيه شيء من ذلك أيضاً .

« وذكر عن بعض السادة ، وهو السيد أحمد بن الحسين بن الشيخ عبدالله العيدروس أنه خطب ابنة عم له ، فأبى أبوها من زواجها ، فنذر لله إن تيسرت له أن يطالع كتاب الشفاء كله في ليلة واحدة، وهي ليلة زفافها والسراج في يدها ، ثم إنها تيسرت له ، فلما زُفَّت إليه طرح السراج في يدها ، وجعل يطالعه من أوله ، حتى أتى عليه كله ، وهي ماسكة له السراج » هـ .

أقول : هي رقية بنت عبدالله بن شيخ صاحب الرملة بن الشيخ عبدالله العيدروس نفع الله بهم ، وما مراد أبيها الإمتناع منه ، إنما كان مراده أن لا يزوجها حينئذ ، ثم بدا له أن يزوجها به ، ولو كان غيره ربما امتنع .

ورأيت في بعض تراجم الشيخ أحمد بن الحسين هذا ، أنه غالب صلاته في مسجده الذي على حافة ساقية خيلة ، وأنه قد يجلس فيه يذكر الله فيأخذه الحال حتى ينتشر بدنه في المسجد حتى يملأه بحيث لا يسع معه أحداً غيره ، قال في ترجمته في « المشرع الروي » : « حُكِيَ أنه كان جالساً في مسجد الشيخ عمر المحضار يذكر الله وبيده سبحة ، وكان عنده جماعة كثيرون ، فورد عليه الحال ، فكان كلما قال : الله. انفلقت من السبحة حبة أربع فلق ، ومن أصابه شيء منها آلمه ، وأخذ الحاضرون ما تكسر ، وكانوا يتداوون به للجراحة ، وكان كثير الزيارة ، لا سيما لجده الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس المشهور ،

وكان كثير الجلوس بين يديه ، لما رأى من كثرة المدد من قِبَلِه ولديه ، وربما حصل له عنده حال ، فيطول رأسه على رؤوس الجبال ، ولا يقرب منه إذ ذاك إلا فحول الرجال » .

وذكر سيدنا أحوال الناس ، *فقال* : « **ضاعت الأمور التي لم تدرك حقيقتها ، فأشياء قد مضت أوائلها حتى بقي الإنسان فيها كأنه ماسك بالذَّنب ، وأشياء ما يعرفها إلا بقرائنها ، وأشياء لا تُعرَف له** » .

واستخلف منه رجل يريد الهند ، *فقال* له : « **ما الشيء إلا همة ، ولا يعين الله العبد في الأمر حتى يهم به ويشرع فيه . وقد كان بعضهم إذا أراد أن يرسل أحداً إلى أحد في حاجة ، فقال : أخاف ما ألحقه – أي ما أتَّفِق به – قال له : اِجْلِسْ . وأرسل غيره . والبار على الهمة ، ما هي خفخفة ، وامتَثِلْ لفلان ، فقد وصيناه فيك ، وإذا لم تمتثل فلا تلم أحداً فيك ، فاللوم على قليل الإمتثال ، واعتقد البر والصلة – أي اعزم عليهما – إن يَسَّر الله عليك ، حتى يحصل لك ذلك** » .

فلما أدبر الرجل المستخلف ، تكلم في ضعف أرزاق أهل الجهة : « **إنهم لا يحصل لهم نيل مطلوب إلا بفوات فضيلة ، حتى لو أراد يأكل أكلة فوَّتَ نحو جماعة أو فضيلة أخرى ، لأنهم ما هم معودين هذه الأمور ولا مرفهين ، ولا تعودوا أن يخدموا ، وقد جاء عن ابن عباس : إن أرزاقهم كمثل قليل حَبٍّ مُرْتَكِم ، هَبَّتْ عليه رياح فبددته . وقد هيأ ربك لك الأمور وأسبابها ، فاعمل على ذلك ، وإن كانت الأمور مقدرة** » هـ .

أقول : وسمعت في تمام هذا الأثر أنها بددته ، شيئاً منه إلى أماكن بعيدة جدًّا ، وشيئاً منه إلى أقل من ذلك ، وشيء منه بقي في موضعه ، فمَن بَعُدَ رزقه سعى له حيث كان وطال به السفر ، ومن كان دون ذلك سعى له أقل سعياً من الأول ، ومن بقي رزقه في موضعه بقي حيث هو ، ولم يخرج منه لطلب رزقٍ ، أو كما ذكر.

قوله : « **وقد هيأ لك الأمور .. إلخ** » ، أي بَيَّنَ لك أسباب الدين وأسباب الدنيا التي تطلب بها، فاطلب الدنيا بأسبابها المُعِينة لها ، ولكن اعلم أنه لا يحصل أمر بسببه إلا إن كان مقدراً حصوله ، وإلا فلا ، كما قال تعالى : ﴿ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، فافهم ذلك أن ما ابتُغي لا يكون إلا بالكَتْب لا غير ، وكذلك تبين من قول سيدنا : « **وقد هيأ لك .. إلخ** » ، إنك لا تطلب الدنيا بأسبابها لا بأسباب الدين هـ .

قال : « **خلق الله في الإنسان نفسه ليحجبه بها عنه ، فإذا أراد تعالى وصول عبدٍ إليه ستر عنه حُجُبَه** » .

ولما فرغ القارىء في « شرح الحكم لابن عباد » من قراءته ، **قال** : « **هذه أشياء مفهومة ، وواقع الإنسان فيها . وإذا كان مع الإنسان أصل الإيمان ، فما عدا ذلك زائد ، فترى الإنسان إذا عصى رأى نفسه منكسراً ، وإذا عمل طاعة إذا به يتحمحم** - أي يتنحنح تبجحاً - **والإنسان مخلوق على النقص ، وطُلِبَ منه الكمال ، وهذا أمرٌ عَسِر ، فليعتبر الإنسان بقصة آدم ، كيف عمل الطاعة ثم لم يلبث أن وقع في المعصية ، فَوَرَّثَ ذلك لذريته ، فهذه الأشياء في جبلة الآدمي لا يخلو منها** » .

وذَكَر القضاء والقدر ، **فقال** : « **هو مضر بالعامة حتى غيَّرَهم ، وليس هذا مقصود الإيمان ، فإن مقصوده العمل مع الإحتجاج لله تعالى على النفس ، لا بالعكس ، وهذا هو مذهب الجبرية ، ومذهب القدرية خير منه** » ، **ثم قال** : « **وقد ضعفت في هذا الزمان النيات والمروات والهمم ، وضعفها أكثر من ضعف الدين** » هـ .

أقول : وكان هذا الكلام في البلاد يوم الثلاثاء ١٤ ربيع الآخر من سنة ١١٢٨ في بيت آل فقيه .

قوله : « **هذه أشياء مفهومة** » ، إن طبعه الأصلي يميل إلى المخالفة وأُمر بتجنبها ، فَتَجَنُّبها منه تَطَبُّع، والطبع غلب التطبع ، ولو استقام مدة ربما جَرَّهُ الطبع وغلبه ، فإذا كان كذلك فهو يفرح ويتبجح إذا استقام . وهو معنى قوله : « **يتحمحم** » ، أي يتنحنح فرحاً بما صدر منه ، فهو مجبولٌ على تلك المساويء وطُلِبَ منه خلافها ، فمن طبعه المجبول عليه محبة الدنيا والشهوات ، كما قال تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ﴾الآية ، وأُمِرَ بالزهد ومخالفة شهوات النفس ، حتى إن ثلث القرآن ورد في التزهيد في الدنيا ، ومع ذلك يغلب الطبع ويَجُرُّ إلى حبها قهراً حتى يقع في المعاصي بسببها ، وفي جبلة الآدمي الحسد ومساويء الأخلاق ، وأُمِرَ بمخالفة ذلك ، وهذا معنى قوله : « **مخلوق على النقص وطُلِبَ منه الكمال** » .

قوله : « **ورَّث آدم ذلك لذريته** » ، أي الطاعة والمعصية ثم التوبة منها ، كما فعل ذلك هو ، فكذلك هم يفعلون ذلك ، فكما جَرَّهُ الطبع مع سابق القَدَر إلى المعصية ، كذلك هم ، وكما مَنَّ الله عليه بالتوبة منها ، كذلك مَنَّ الله عليهم بها ، وكما فعل الطاعة بتوفيق الله ، فكذلك من وَفَّقَهُ الله لها منهم ، فهذا معنى قوله : « **وَرَّث آدم ذلك لذريته** » ، وكون المخالفة طبع في جبلة الآدمي ، والطاعة منه بتكلف وتطبع ، هو معنى قوله : « **خُلِقَ على النقص وأُمِرَ بالكمال** » .

وقوله : « **وهذا** » ، أي عكس ما ذكر من العمل لله مع الإحتجاج لله على النفس ، عكسه ترك العمل

مع الإحتجاج بالقضاء والقدر ، « **هو مذهب الجبرية ، ومذهب القدرية خير منه** » ، لأنهم يعملون ، ولا يتركون العمل ثم يحتجون ، فهم من هذا الوجه خير ، لأن مقصود الشرع من الخلق العمل وقد عملوا ، وإنما دخل عليهم الخلل والغيار في النية ، حيث اعتمدوا على العمل ، ونسوا جانب الحق من التوفيق للعمل والإعانة عليه ، فهم عاملون بظاهر الشريعة وهو مرادها من الخلق ، ولذلك قال : إن مذهبهم خير من مذهب الجبرية ، التاركين للعمل ، يقولون : لا عبرة إلا بالإرادة الإلهية . وما قاموا لها بحق ، فربما وقفت جزاء الخير على العمل من فعل مأمور وترك منهي .

والمذهب الحق الناجون أهله ، المحبوبون عند الله في الدنيا والآخرة ، هم أهل السنة ، العاملون امتثالاً لأمر الله ، ومعتمدون بقلوبهم على حصول الخير والنجاة من الشر على الله ، وراجون فضله بامتثال أمره ، فهم بذلك قد عملوا بظاهر الشريعة وباطن الحقيقة ، بينهم وبين ربهم .

وأهل أولئك المذهبَيْن ما عملوا بشريعةٍ ، حيث خلت عن الحقيقة ، ولا بحقيقة حيث خلت عن الشريعة ، وإنما صاروا خيراً منهم حيث جرى عليهم ظاهر الشريعة ، فاستفادوا جَرْيَ ظاهر الأحكام عليهم ، كما جرت على المنافقين . انظر إلى ظاهر عمل المنافقين ، حيث قَبِلَ منهم وسَلَّمَهم في الدنيا من القتل ، فنفعهم في الدنيا وسلموا بسببه من مضار شرعية دنيوية ، كالقتل وسبي الذرية والأموال والأهل ، ولو أنه ما نفعهم في الآخرة ، لأن نفعها فيها متوقفٌ على صحة الإيمان في القلب ، ومع عمل الجوارح بالشرع ، فعمل الشرع ينجيه من العذاب ، وصحة الإيمان في القلب ينجيه من الخلود في النار . فلذلك ما نفع المنافقين عملهم لعدم إيمانهم ، بل جعلهم الله في الدرك الأسفل من النار ، فما تحصل السلامة في الدارين والفوز بجزاء الخيرين إلا بإصلاح الحالين ، وهما امتثال أوامر الله في الظاهر – الذي هو الشريعة – واستقامة القلب لله على كل ما يحب – الذي هو الحقيقة – فَنَفْعُ الدنيا يحصل بالشريعة ، ونَفْعُ الآخرة يحصل بالحقيقة والشريعة معاً ، فمَن أصلح شأنه في الحقيقة والشريعة صلح شأنه في الدنيا والآخرة ، ومن قَصَّرَ في أيِّهما قَصُرَ به شأنه من جانبها وما يترتب عليها .

وأظن الكلام الساقط المشار إليه آنفاً يدخل في ضمن هذا الكلام ، ويفهم معناه منه وينطوي عليه هـ .

واستأذن عليه بعض الناس ، *فقال* للخادم : « **دعه فإنه مبلي ، لأنه فتح على نفسه أموراً لا تحسن منه، وإذا ضعفت قوى الباطن حصل مثل هذه الأشياء ، وأهل الزمان ما عاد اكتفوا منا بالمجالس العامة ، ما أرادوا منا إلا مجالس خاصة ، ولا جئنا من مجالستهم بطائل ، وأوقاتنا الخاصة بنا نحن**

مشغولون بها بها يهمنا » ، ثم تمثل بهذا البيت :

تَـوَلَّى زَمَـانٌ لَعِبْنَـا بِـهِ وَهَـذَا زَمَـانٌ بِنَا يَلْعَبُ

أقول : قوله : « **مبلي** » ، أي كثير البلوى ، وهي قول أو فعل لا فائدة فيه ، بل يضر أو تعرض لما يضر . هذا البلوى في لغتهم .

ومراده بـ « **قوى الباطن** » : أي ضعف العقل ، فإن مثل ذلك إنما يكون ممن ضعف عقله واختلت طبيعته ، ومجالسه العامة ما يكون فيها طارفاً لمن أراد أن يدخل عليه من غير استئذان ، كما في جلوسه بعد العصر في المصلى ، أو في الضيقة ضحوةً لقراءة يوم الإثنين والخميس ، أو كان مع جماعة في الخلاء، ويوم الجمعة بعد صلاتها إذا جلس ، وبعد عصرها . فأما مجالسه الخاصة ، فكل ما يكون فيها وحده ، أو مع أحد خاص والباب مقلود دون الناس ، فهو وحده في أوراده وموارده ، ومع مخصوص بما يحثه ويعلمه ويوصيه ويأمره وينهاه .

وقوله : « **ما جئنا من مجالستهم بطائل** » ، أي بشيء ينفع ، كامتثال أمر وانتهاء زجر .

ومعنى تمثله بالبيت ، أنه تذكر ذهابَ زمانٍ ، أهلُه كانوا صالحين أهل عقيدة وامتثال ، فينتفعون وينفعون ، وأعقبهم هؤلاء أهل هذا الزمان ، لا ينتفعون ولا ينفعون ، فمجالستهم ضياع وقت ، يعني فمر علينا ذاك الزمان وما عرفنا قدره إلا الآن لما رأينا هذا الزمان وأحوال أهله ، وتفاوت ما بينهم وبين أهل ذاك الزمان .

ودخل عليه رجل ، فسأله عن حاله وقُوَّتِهِ ، فأظْهَرَ التجلد ، **ثم قال** له : « **كيف عادتك في ذلك الأمر ؟** » ، فأخبره ، **فقال** : « **كلما أمعن الإنسان في هذا الأمر وأحسنه ؛ كان أضعف لقواه الظاهرة والباطنة ، وما ذُكِرَ من ذلك عن الأكابر فلا يُحْتَجُّ به ، فإن الله تعالى قد أمدهم من القوة من معدنها ما هو الغاية ، فلا يقيس نفسه عليهم . وإلا فكيف سيدنا علي يحمل باب خيبر وهو قُوْتُه كما عُرِفَ من تقشفه ، فليس معهم مما يُضعف القوى مما يعتاد عندنا شيء ، فإن أمورهم مقدرة** » هـ .

أقول : قوله : « **في ذلك الأمر** » ، يعني الجماع .

وقواه الظاهرة : استعماله ، والباطنة : داعيته ، يعني كلما أكثر منه ضعف عمله وطلبه ، ويعني أن قوة الأكابر من قوة الروح ، وقوَّتكم من قوة النفس ، فلا تقيسوها بها .

وقصة باب خيبر : لما جاءه رجل منهم اسمه مرحب ، كان أشجعهم وأقواهم ، فقدموه قدامهم

إلى عسكر رسول الله ﷺ ليرهبوهم به عن مقابلتهم ، فجاءهم يطلب المبارزة ، وعادتهم ما يبارز الواحد إلا واحد ، وعيب عند العرب أن يبارز الواحد أكثر من واحد ، فجاءهم يرتجز ويقول :

قَدْ عَلِمَتْ خَيْبَرُ أَنِّي مَرْحَبُ ثَبْتٌ هُمَامٌ بَطَلٌ مُجَرَّبُ

وكل من أراد يبارزه وعلم به أنه هو ترك المبارزة ، لما هو معلوم من شجاعته ، فجاء إلى سيدنا علي يطلبه المبارزة ، فاستأذن رسول الله ﷺ أن يبارزه ، فقال له : « إنه مرحب » ، قال : « ولو كان مرحب». فأذن له ودعا له بالنصر عليه ، وقال : « ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، اللهم كما أفردتني من حمزة فلا تفردني من علي » ، فانتهض عليٌّ إليه بسيفه ذي الفقار وترسه ، فلما تقابلا ، ضرب مرحب ترس عليٍّ فقطعه قطعتين ، ففي الحال اقتلع عليٌّ بابَ خيبر وتترس به ، ثم أقبل عليه يرتجز :

أَنَا الَّذِيْ سَمَّتْنِي أُمِّيْ حَيْدَرَهْ

كَلَيْثِ غَابَاتٍ كَرِيْهِ المَنْظَرَهْ

أُوْفِيْهُمُ بِالْكَيْلِ وَزْنَ السَّنْدَرَهْ

والسندرة : صنجة يزنون بها . ثم ضرب عليٌّ مرحباً بسيفه فقطعه قطعتين ، وأصحابه ينظرون ، فعند ذلك انكسروا وهربوا ، وفتح رسول الله ﷺ مدينة خيبر ومَلَكها . قيل : ثم بعد القتال عالج الباب أربعون رجلاً أن يحملوه حتى حملوه ، فأين قوة الجسم من هذه القوة ؟

وأخبرني بعض طلبة العلم من الشيعة ، وهو محمد بودندن ، أنه كان عند مرحب ضَرَّاب يضرب له في الرمل ، وقال له : « لا يقتلك إلا الأسد » ، فلهذا استطال لحاجة في طلب المبارزة ، فلما برز له سيدنا علي ، وسمعه يقول : « أنا الذي سمتني أمي حيدرة » . وعرف أن حيدرة من أسماء الأسد ، فخالجه الرعب في قلبه ، ثم ضربه سيدنا علي تلك الضربة التي قسمته نصفين .

ولما أشار سيدنا عبدالله إلى تقشف سيدنا علي ، وشدة قُوَّتِهِ مع ضعف قُوْتِهِ ، أحببت أن أذْكُرَ رسالةً لسيدنا علي في وصف حاله وقُوْتِهِ ، مرت علينا في قراءتنا على سيدنا عبدالله في « ربيع الأبرار » للزمخشري ، وذلك في قراءة يوم الثلاثاء ، في الكتب التي هو معينها لقراءة ذلك اليوم في كتب الأدب، وهي هذا المذكور ، وكتاب « المقامات للحريري » ، وكتاب « الفرج بعد الشدة » ، قال صاحب هذا الكتاب : « كتب علي رضي الله عنه إلى عثمان بن حنيف ، وهو عامله على البصرة :

بلغني أن رجلاً من فتية البصرة دعاك إلى مأدبة فأسْرَعْتَ إليها ، تُستطاب لك الألوان ، وتُنقل إليك الجفان ، وما ظننتُ أنك تجيب إلى طعام قوم عائلُهم مجفوٌّ ، وغنيُّهم مدعوٌّ ، فانظر إلى ما تقضمه

من هذا المقضم ، فما اشتبه عليك عِلمُه فالْفُظْهُ وما أيقنتَ بطيب وجوهه فَنَلْ منه ، ألا وإن لكل مأموم إماماً يقتدي به ، ويستضيء بنور علمه ، ألا وإن إمامكم قد اكتفى من دنياه بطِمْرَيْه ، ومن طُعْمِهِ بقُرْصَيْه ، ولو شئتُ الطريق لاهتديتُ إلى مُصَفَّى هذا العسل ، ولُبابَ هذا القمح ، ونسائج هذا القز، ولكن هيهات أن يغلبني هوايَ ، ويقودني جشعي إلى تخيُّر الأطعمة ، ولعل بالحجاز أو باليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع ، أو أبِيتُ مبطاناً وحولي بطونٌ غرثى وأكبادٌ حرَّى ، وأكون كما قال القائل :

وَحَسْبُكَ دَاءٌ أَنْ تَبِيْتَ بِبِطْنَةٍ   وَحَوْلُكَ أَكْبَادٌ تَحِنُّ إلى القَدِّ

ألا أقنع من نفسي بأن يقال : هذا أمير المؤمنين ، ولا أشاركهم في مكاره الدهر ، أو أكون لهم أسوة في جُشُوبة العيش ، فما خُلِقْتُ لِيَشغَلَنِي أكل الطيبات كالبهيمة المربوطة ، همُّها علفها ، أو المُرْسَلَة شُغلُها تقمُّمُها ، تكترش من أعلافها ، وتلهو عما يراد بها .

وكأني بقائلكم يقول : إذا كان هذا قوت ابن أبي طالب فقد قعد به الضعف عن قتال الأقران ، ومنازلة الشجعان ، ألا وإن الشجرة البَرِّيَّة أصلب عوداً ، والرواتعَ الخضِرَةَ أرَقُّ جلوداً ، وأَيْم الله ، يميناً أستثني فيها بمشيئة الله ، لأُرَوِّضَنَّ نفسي رياضة تَهِشُّ معها إلى القُرصِ إذا قدرت عليه مطعوماً، وتقنع بالملح مأدوماً » ، انتهت الرسالة الميمونة المباركة ، الدالة على عظيم زهده وقناعته من الدنيا ، وجليل بلاغته وفصاحته كرم الله وجهه .

وفي المغازي أن النبي ﷺ لما سار إلى خيبر لحربها ، ترك علياً على المدينة ، وكان أرمداً ، فحاصرها أياماً فكان كل يوم يعطي الراية رجلاً ويقدمه على جماعة فيرجعون ولم يُفتَح لهم ، فقال ﷺ : « لأُعطِيَنَّ الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ، ويحبه الله ورسوله ، يفتح الله على يديه » . وكان سيدنا علي قد برئت عيناه من الرمد ، فكره تخلفه عن رسول الله ﷺ ، فالتحق به وسار إليه إلى خيبر ، فوصل إليه صبيحة يوم الغد الذي أشار إليه عليه الصلاة والسلام ، فدفع إليه الراية ، ووعده بأن الله يفتح عليه ، وإذا بمرحب قد أتاه يطلبه يبارزه ، فاستأذن على ما تقدم هـ .

وذَكَر سيدنا يوماً أمور الصالحين ، فقال : « **الأمور الإلهية ما لها حدٌّ ، فترى جماعةً في وقتٍ واحدٍ كلٌّ منهم يقول : أنا أنا . فلِمَن نُسَلِّم له منهم ؟ أحد في اليمن ، وأحد في حضرموت ، وأحد في الغرب، وأحد في العراق . ولكن أمر الله يسعهم ، كما قيل لبعضهم : إن قبوراً كثيرة تذكر أن سيدنا علي مقبور فيها ، فأي قبر منها يصح أن يكون مقبوراً فيه ؟ فقال : إذا حصلت النية والتعظيم ، فكلٌّ منها هو قبره،**

لأن أمور البرزخ لم تتقيد ، فإذا لم تتقيد أمور الدنيا فأولى أن لا تتقيد أمور البرزخ » هـ .

أقول : لأن حال البرزخ إنما هو للأرواح ، والأرواح لا تتقيد ، إنما تتقيد الأجسام ، فلما كانت الأرواح فيها تقيدت بتقيدها ، فلما انفصلت عنها استقلت هي بحكمها دونها . وقد ذكروا أن حال البرزخ كالماء يغوص الإنسان فيه في موضع ، ويخرج من موضع آخر .

وممن قد قُبِرَ في موضع وظهر في موضع آخر ، ما ذُكِرَ عن الست نفيسة بنت الحسن بمصر ، أنها قُبِرَت في موضع وعليه قبتها ، ثم ظهرت في موضع آخر ، فصار ذلك الموضع هو الآخر محل زيارتها ، ومحل قيمها ، وبينهما مسافة بعيدة .

ويصدِّق ذلك ما ذكر أن قبوراً كثيرة يذكر في كل واحد أن سيدنا علي مقبور فيه ، وذكر السيد يوسف الفاسي تلميذ الشيخ أبي بكر بن سالم في رحلته ، أن جَدًّا له يقال له أبو الوكيل ، مقبور في بعض بلدان المغرب في قبيلة من البربر ، وكذلك له ثلاثة قبور في ثلاث بلدان في ثلاث قبائل ، فتداعى الأربع القبائل كلٌّ يقول إنما قبره الذي عندنا ، وتماشعوا السيوف للقتال على هذه الدعوى ، فاشتكوا إلى ولده فقال : كلٌّ منكم يحفر القبر الذي عنده . ففعلوا ، فوجدوه في القبور الأربعة ، فسكن غيظهم وتركوا القتال . ولهذا المعنى لما رثى سيدنا أخاه الحامد وجماعة من السادة ، توفوا بأرض الهند بقصيدته التي أولها :

مَـرَّتْ لَنَـا بِالحِمَـى المأْنُـوسِ أَعْيَـادُ مَعَ الأَحِبَّـةِ لَـوْ عَـادَتْ وَلَـوْ عَـادُوا

ثم التفت في القصيدة إلى مقابر تريم يستخبرها عن أرواحهم هل وافتهم ، فقال :

فَيَـا بِعَيْدِيْـدَ بَشَّـارَ البَشَـائِرِ هَـلْ وَافَـتْ عَلَى الْيُمْنِ إِخْوَانٌ وَأَوْلَادُ

أَرْوَاحُهُـمْ وَنُفُـوْسٌ كَانَ فَارَقَهَـا بِالْقَبْـضِ لله أَجْسَـامٌ وَأَجْسَـادُ

يعني فيا مَن بعيديد وبشار ، وهذه مقابر تريم ، هل وافتكم أرواحهم ؟

ونذكر في هذا المعنى قصة عجيبة ذكرها الشيخ العلامة أبو عبدالله محمد بن عبدالرحيم بن سليمان بن الربيع القيسي الغرناطي رحمه الله ، في كتابه « تحفة الألباب ونخبة الإعجاب » ، فقال حكاية عجيبة، ختم بها كتابه في أمر أمير المؤمنين علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، قال : « وهي من أعجب الحكايات في إظهار قبره رضي الله عنه : بعد خمسمائة وثلاثين عاماً في ناحية في قرية يقال لها قرية الخير ، رأى جماعة من أهلها من الصالحين النبي ﷺ في المنام ، وهو يقول لهم : ابن عمي علي بن أبي طالب في هذا الموضع. ويشير لهم إلى موضع قريب من القرية .

وتواترت هذه الرؤيا عندهم ، وكثر من رآها حتى بلغوا أكثر من أربعمائة رجل كلهم من الصالحين من قرية الخير ومن مواضع أُخَر ، فذهبوا إلى قماج صاحب ولاية بلخ في زمان سنجر ، وحدثوه بما رأوا، وبما سمعوا من النبي ﷺ . فجمع العلماء وعرض عليهم ما قالوا وما شهدوا به ، فقال العلماء: قال النبي ﷺ : من رآني في المنام فقد رآني حقًّا ، فإن الشيطان لا يتمثل بي . فقال فقيه منهم : أيها الأمير ، هذا محال ، ورسول الله ﷺ لا يقول المحال ، وعلي بن أبي طالب كرم الله وجهه قتل بالكوفة، واختلف الناس في قبره ، فمنهم من قال : دفن في جامع الكوفة تحت المنارة ، ومنهم من قال : دفن في كرخ ، ومنهم من قال : دفن في الغدير وعليه بني المشهد ، فكيف يجيء إلى بلخ مسيرة ألف فرسخ وأكثر ؟ فهذا باطل محال لا يجوز إخباره عن رسول الله ﷺ . فانصرف الناس على ذلك إلى منازلهم .

قال ذلك الفقيه : فلما كان نصف الليل ، رأيت جماعة دخلوا علي في منامي ، فضربوني ضرباً وجيعاً ، فاستيقظت من منامي فزعاً مرعوباً ، فلما كان نصف الليل الثاني خرج الفقيه من داره ، ومعه أولاده وأصحابه ، وهو يبكي ويصيح من شدة ما وقع له ، إلى أن جاء إلى دار الأمير قماج ، وهو يصيح ويستغيث ، فدخل الحاجب على الأمير قماج يخبره ، فأمر بإدخاله عليه ، فلما وقف بين يديه قال له : ما أصابك حتى جئت في هذا الوقت ؟ فقال : أيها الأمير ، انظر إلى وجهي وجسدي .

فكشف عن بدنه فنظر إليه في سراج الشمع ، فإذا بوجهه قد اسْوَدَّ وجميع بدنه من كثرة ما ضرب ولطم ، وهو يبكي ويصيح لشدة ما به من الوجع والألم ، فقال الأمير قماج : أيها الشيخ الإمام من فعل بك هذا ؟ ، قال : كنت نائماً في بيتي ، فجاء إلي جماعة من العلويين لهم أظافير وشعور ، وعليهم ثياب بيض ، شباب وكهول وشيوخ وصبيان ، وقالوا : أنت تكذب رسول الله ﷺ وتقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب ليس ها هنا ؟ وتقول : هذا قول باطل ومحال ، ورسول الله ﷺ لا يقول المحال ؟ . فأخذوني وسحبوني بعنف مع شتم وسب ، حتى أوقفوني على قبر مفتوح ، فرأيت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب جالساً في القبر ، أبيض الرأس واللحية ، وقالوا : أليس هذا أمير المؤمنين ؟ ثم جعلوا يضربوني بأيديهم وأرجلهم ، حتى أيقنت بالموت . فقلت : يا أمير المؤمنين ، لله تَعَالَى ارحمني . فأشار إليهم بيده فتركوني ، فاستيقظت من منامي وجميع أعضائي كلها كما ترى وأنا أستغفر الله تعالى وأتوب إليه مما قلته . فلما سمع الأمير ذلك ، خرج بجميع عسكره إلى تلك البقعة ، وحفروا في الموضع الذي أشار إليه رسول الله ﷺ ، فوجدوا القبر عليه لوحان من رخام ، وأمير المؤمنين في داخله لم يذهب من جسده شيء ، وكفنه صحيح ، فرآه الأمير وجميع أولئك العلماء ، ووجدوا تحت رأسه لبنة حمراء مكتوب فيها بالإصبع ، هذا مُحِب النبي محمد عليٌّ كرم الله وجهه .

فبنى الأمير عليه مشهداً عظيماً أحسن وأبهى من مشهد الغدير ، وجعلوا تلك اللبنة في كيس من

ديباج معلقة في محراب المشهد . ولقد رأيت أكثر أولئك الذين رأوا المنام يعيشون ، وأخبروني عن ذلك، والناس يزورونه من جميع بلاد خراسان وبلخ وسمرقند . وهذا من عجائب الأمور ، أن ظهر قبر أمير المؤمنين في ناحية بلخ ، ولا عرف به أحد إلا بعد الخمسمائة والثلاثين . وأنشد بعضهم في ذلك شعراً :

مَـا بِالْغَدِيْـرِ سِـوَى المغِـيْرَةْ	وَاللهُ أَعْلَـمُ بِالسَّرِيْـرَةْ
مَـا قَـبْرُ حَيْـدَرَهْ بِالْعِـرَاقِ	وَلَا الشَّـآمِ وَلا الجَزِيْـرَةْ
اللهُ أَوْدَعَ قَـبْرَهُ	بِالخَـيْرِ فِي أَرْضٍ نَضِـيْرَةْ
بَـخٍ لِبَلْـخٍ إِذْ غَـدَتْ	بِجِـوَارِ مَلْحَـدِهِ مُنِـيْرَةْ
رُؤْيَـا رَآهَـا صَالِـحٌ	فِي أُمَّـةٍ مِنْهُـمْ كَثِـيْرَةْ
قَـالَ النَّبِـيُّ لهـمْ بِهَـا :	هَـذَا ابْـنُ عَمِّـي في الحَفِـيْرَةْ
هَـذَا عَـلِيٌّ هَـا هُنَـا	فَلْتَجْهَـدُوا يَـا أَهْـلَ خِـيْرَةْ
فَاسْـتَغْفَرُوا وَاسْـتَجْهَدُوا	حَتَّـى بَـدَا وَجْـهُ الحَظِـيْرَةْ
فِيْهَـا أَمِـيْرُ المؤْمِنِـيْنَ	كالشَّمْسِ في وَقْتِ الظَّهِيْرَةْ
لم يَحْتَكِـمْ فِيـهِ البِـلى	مـا سَـاء لَـهُ مِـنْ أَنْ يَضِـيْرَهْ
مُتَوَسِّـداً بِوِسَـادَةٍ	فِيْهَـا خُطُـوطٌ مُسْـتَدِيْرَةْ
هَـذَا مُحِـبُّ مُحَمَّـدٍ	وَوَصِيِّـهِ دُونَ العَشِـيْرَةْ
هَـذَا أَبُـو أَحْبَابِـهِ	مَـا زَالَ في الدُّنْيَـا نَصِـيْرَهْ
هَـذَا مُبِيْـدُ عِدَاتِـهِ	هَـذَا الـذِيْ يُدْعَـى وَزِيْـرَهْ
هَـذَا إِمَـامُ عُلُومِـهِ	خَـيْرُ البَرِيَّـةِ ذُو البَصِـيْرَةْ
هَـذَا أَخُـوهُ وَصِهْـرُهُ	وَوَلِيُّـهُ هَـلْ مَـنْ نَظِـيْرَهْ

تم ذلك » . هذا ما أردت نقله مما جَرَّ إليه قول سيدنا : « **إن قبوراً كثيرة يذكر أن سيدنا علي مقبور فيها** » ، وقوله : « **إن أمور البرزخ لا تتقيد** » .

وقوله في النظم : « أخي » ، لأنه يذكر أن أم سليم أو غيرها ، دخلت على رسول الله ﷺ وعنده

علي ، فقالت : « من ذا عندك يا رسول الله ؟ » ، قال : « أخي » ، وعلمت أنه علي ، فقالت : « أخوك وقد زَوَّجتَه ابنتك ؟ » ، و « أبو أحبابه » ، أي أولاده ، لما ورد أن رسول الله ﷺ قال : « إن الله جعل ذرية كل نبي في صلبه ، وجعل ذريتي في صلب علي » ، أي من فاطمة ، و « مبيد عداته » ، كما ذكر من جزره عدو الله ورسوله مرحب وغيره ، و « إمام علومه » ، كما تقدم من قول رسول الله ﷺ : « أنا مدينة العلم وعلي بابها » ، وتمثيلنا بذلك بفتواه بين أهل الأقراص .

وذمَّ سيدنا عبدالله يوماً أحوال المنقادين لأزواجهم ، فقال : « **إن سليمان بن داود عليه السلام أمر الهدهد أن يمضي إلى بعض البلدان ، فَيَعُدَّ رجالها ونساءها ، أيهم أكثر ، وكان المعلوم من تلك البلد أنّ رجالها أكثر من نسائها ، فقال له : عددتُّهم ، وإذا عدد النساء أكثر . فقال : كيف ذلك ؟ قال : كلٌّ من رأيتُه منقاداً لزوجته عددتُه امرأة ، فعلى هذا الحساب صِرْنَ أكثر منهم . فتنبه سليمان عليه السلام من ذلك لمحبته لبلقيس ، ولكن لما كان إنما عنده منهن محبوباً واحدة** » ، كذا قال ، وما ذكر جواباً ، ولعل جوابه عذرٌ .

ولما ختم السيد زين العابدين كتاب « الأربعين الأصل » للإمام الغزالي ، تكلم سيدنا كثيراً في ذلك المجلس ، ومن ذلك أن قال : « **سبحان الله كلام الإمام الغزالي يكفي من غيره ، وغيره لا يكفي منه ، وصدق من قال : لو يجوز خروج نبي لكان الإمام الغزالي ، وتثبت معجزاته ببعض مؤلفاته . وقد رأى الإمام الرازي أو بعض أصحابه النبي ﷺ ، فقال عليه السلام له : أَتُحِبُّ أنْ كنتَ قد أدْرَكْتَني ؟ فقال: كيف لا أحب ذلك ، وأنا متأسفٌ على رجل من أمتك ما أدركتُه أن لا أكون أدركته .فقال : من هو ؟ قال : الإمام الغزالي . فقال عليه السلام : ذاك هو الإمام الزاهد الفاعل ، حتى عَدَّ مائة خصلة . وكذلك ما رآه الشيخ أحمد الزبيدي ليلة مات الإمام الغزالي ، وهو أنه رأى أنه أُخرِجَ ميتٌ من قبره وعُرِجَ به من سماء إلى سماء ، حتى تغطى عنه ، فسأل عنه فقيل هو الإمام الغزالي** » هـ .

أقول : يعني بالشيخ الزبيدي ، الشيخ أحمد الصياد من أهل زبيد ، وقد تقدمت قصته هذه التي أشار إليها هنا ، ومكاشفته من رؤيته ما ذكر وهو في زبيد ، فرأى أن ميتاً وُضِعَ في قبره في بعض بلدان العجم وهي طوس ، فأُخِذَ من لحده وعُرِجَ به من سماء إلى سماء ، حتى تعدوا به السبع السماوات إلى حيث غُيِّب عنه ولم يره ، قال : « ولم أعلم إلى أين انتهوا به ؟ » .

وهو موافق لقول أخيه أحمد الغزالي ، قال : « حين وضعناه في لحده بطوس ، رأينا يداً تناولته من اللحد ، فأخذته وبقي اللحد فارغاً لا نرى فيه أحداً » ، وهذا يدل على جلالته وكرامته ومنزلته عند الله تعالى .

وكذلك رؤيا الشيخ أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، وتقدمت : قال : « نِمْتُ في المسجد الأقصى، فرأيتُ خَلقاً كثيراً جاؤوا ، فدخلوا أفواجاً أفواجاً ، فقلتُ لرجل في جنبي : ما هذا الجمع ؟ قال: هؤلاء جميع الأنبياء والمرسلين مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، قد حضروا ليشفعوا في الحسين بن منصور الحلاج عند محمد عليه الصلاة والسلام ، في إساءةِ أدبٍ وَقَعَتْ منه ، فشفعهم فيه وقَبِلَ شفاعتهم وعفا عنه . ثم نظرتُ فإذا نبينا محمد ﷺ جالس على التخت بانفراده ، وجميع الأنبياء والرسل جالسون على الأرض ، مثل إبراهيم وموسى وعيسى ونوح ، فوقفتُ أنظر وأسمع كلامهم ، فقام واحد منهم، فقلتُ لذلك الرجل : من هذا ؟ قال : هذا موسى بن عمران عليه السلام . فخاطب موسى محمداً عليهما الصلاة والسلام ، فقال له : يا محمد ، أنت تقول : علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل ، فأرِني من علماء أمتك واحداً . فقال له هذا ، وأشار إلى الإمام الغزالي رحمه الله ، فقال له موسى : ما اسمك ؟ فقال : اسمي محمد بن محمد بن محمد الغزالي . فاعترض عليه موسى ، وقال : ينبغي أن يكون الجواب مطابقاً للسؤال ، سألتك سؤالاً واحداً فأجبتني بأربعة أجوبة ؟ فقال له الغزالي : اعتراضُك عليَّ واردٌ عليك حين سألك ربُّك بقوله : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، فكان جوابك أن قلت : ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، فكيف ما أجبت بجواب واحد ، حتى أجبته بأربعة أجوبة ، وهو أعلم بك وبعصاك . فانبهر سيدنا موسى من قوله ، وتعجب غاية العجب ، وقال: صَدَقْتَ يا محمد ، علماء أمتك كأنبيائنا .

قال الرائي : فبينما أنا متفكر في جلالة قدر نبينا ، وكونه جالساً على التخت بانفراده ، والبقية على الأرض ، إذ رفسني شخص برجله رفسة مزعجة فانتبهت ، فإذا بالقَيِّم يشعل قناديل المسجد الأقصى ، فقال : لا تعجب ، فإن الكل خُلِقُوا من نوره . فخررتُ مغشياً علي ، فلما أقاموا الصلاة أفقت ، وطلبت القيم فلم أجده إلى يومي هذا . ومن هنا قال الأبوصيري رحمه الله في البردة :

وَانْسُبْ إِلَى ذَاتِهِ مَا شِئْتَ مِنْ شَرَفٍ ... وَانْسُبْ إِلَى قَدْرِهِ مَا شِئْتَ مِنْ عِظَمِ
فَإِنَّ فَضْلَ رَسُولِ اللهِ لَيْسَ لَهُ ... حَدٌّ فَيُعْرِبَ عَنْهُ نَاطِقٌ بِفَمِ

انتهى ، من شرح الخفاجي على الشفاء ، إلا أنه قال : « فأجابه بعشرة أجوبة ، وبعد جواب الغزالي لموسى ، قال : فعددت لها صفات كثيرة » ، فكأن سيدنا موسى استبعد أن تكون علماء أمة محمد ﷺ كأنبياء بني إسرائيل في العلم ، فإن الأنبياء يأتيهم الوحي من عند الله ، وتخاطبهم الملائكة ، والعلماء ليسوا كذلك ، وقد علم أن الله سبحانه يُلهِمُ علماءَ هذه الأمة الصواب ، ويوقفهم على الحق ، ويؤيدهم ويسددهم ، تأييداً لدينه المحمدي الذي ختم به سائر الأديان ، حتى قال مبلِّغُه ﷺ : « إن الله لَيُؤَيِّدُ هذا الدين بالبَرِّ والفاجر ، ولا تجتمع أمتي على ضلالة » . وجعل اجتماعهم حُجَّةً من أقوى الحجج ،

فأراه الله واحداً منهم فأبهره جوابه ، فاطمئن خاطره بعد العلم بذلك ، فأقرَّ لما رأى .

ومما يؤيد هذا المعنى من تخصيص علماء هذه الأمة بالإطلاع على الحق والصواب ، تأييداً لهذا الدين الشريف والملة العظيمة والحنيفية السمحة ، ما فَصَّلَه الإمام السيوطي في « العرف الوردي في أخبار المهدي » : « إن الله يهديه إلى الحق ويُلهمه معرفة دينه الذي بَعَثَ به رسولَه في ليلة واحدة ، فيصبح وقد أطلعه الله على جميع أحكام الشريعة ، وعَلَّمَه الله إياها من غير تعلم ولا قعود مع معلم ، ليدعوا الناس إليه ، كل ذلك كرامةً لرسوله وتأييداً لدينه » ، ومن ذلك تأييد الإمام الغزالي لخطاب موسى ، وإلهامه لما أجابه به معجزةً لرسول الله ﷺ ، بدليل إشارته له إليه ، ثم ما أبهره به من الجواب ، وكلُّ ذلك دليلٌ على فضيلة الإمام الغزالي ، وشاهدٌ لجلالة قَدْرِهِ وشرفه ، ولهذا سُمِّيَ حجة الإسلام .

ويكفيه من الشرف تعظيم السادة بني علوي له ، كما ذكرنا من قول سيدنا عبدالله وقوة محبتهم له ولكتبه ، وقوة اعتقادهم فيه وتنويههم بذكره وتعظيم كتبه ، حتى قال الشيخ القطب السيد عبدالله العيدروس نفع الله به : « لو بُعِثَ الأموات لما أوصَوا الأحياءَ إلا بما في الإحياء » ، وقال : « لو حَمَلَ الإحياءَ كافرٌ أسلم » ، واختبر قوله هذا بعض السادة في الشحر ، ودخل بكتاب الإحياء سوق الشحر ، ودفعه إلى بانيان فوري - وهم المجوس - وقال له : « احمِلْ لي هذا الكتاب إلى البيت » ، فحمله إلى بيته ، فحين وصل البيت أخذه منه ، فقال ذلك البانيان : « أعجبني دينكم » ، ثم تكلم بشهادة الحق وأسلم ، وذلك مُصَدِّقٌ لما قاله الشيخ عبدالله ، وكل ذلك تصديقٌ لقول سيدنا عبدالله الحداد ، والعيدروس شيخه بلا واسطة نفع الله بهما ، كما تقدم وبواسطة أيضاً . وفي بعض مرائي بعضهم للنبي ﷺ ، أنه رآه ﷺ فَاخَرَ موسى وعيسى بالإمام الغزالي ، فقال لهما : « أفي أمتيكما حبر كهذا ؟ » ، قالا : « لا » .

وقصة ابن حرازم في المغرب مشهورة ، تروى عن الشيخ أبي الحسن الشاذلي نفع الله به ، وهي كما قال الشيخ أبو الحسن رضي الله عنه : « إن الشيخ ابن حرازم كان فقيهاً مشهوراً ، وكَلِمَتُهُ مسموعة في بلاد المغرب ، فطالَعَ في كتاب الإحياء ، فأنكر على الإمام الغزالي في مواضع منه ، فجمع جميع نسخه وعزم على إحراقها كلها ، فليلة عزم على إحراقها في صبيحة تلك الليلة ، قال : إنه رأى تلك الليلة النبي ﷺ وهو في جمع كثير ، وعلى يمينه أبوبكر ، وأظن وقال : وإلى جنبه عمر ، وإذا الغزالي قد أقْبَلَ ، وسَلَّمَ على رسول الله ﷺ وقَبَّلَ يده ، وفي يده نسخة الإحياء ، وقرأ على رسول الله ﷺ من أوله في العقيدة قوله : وأنه بعث الرسول النبي الأمي إلى كافة العرب والعجم .

قال : فرأيتُ وجه رسول الله ﷺ يتهلل سروراً ، ثم ناول الكتاب رسول الله ﷺ ، فنظره فأعجبه ، ثم ناوله لأبي بكر فنظره وأعجبه ، وقال كلٌّ منهما : هذا شيء حسن . فقال الغزالي : إن كان هذا على دينك وموافق لشريعتك ، فخذ لي حقي من خصمي هذا . قال : فأمر عليَّ رسول الله ﷺ أن أضرب

بسوط ، فلما ضُرِبْتُ ثلاثة أسواط تشفَّعَ فيَّ الصِّدِّيق ، وقال : يا رسول الله ، إنما هم مجتهدون .

وانتبه ابن حرازم وأثر السياط ظاهرٌ في ظهره ويؤلمه ، فتاب مما نوى في الإحياء ، وأقبل عليه يطالع فيه بعد ذلك بعقيدة ومحبة ، وفتح الله عليه فيه » ، قال الشيخ أبو الحسن : « ولقد حَضَرْتُ غسل ابن حرازم بعد موته ، فرأيتُ أثر السياط ثلاث ، الضربات بَيِّنَة في ظهره » هـ .

ولما مرَّ في القراءة على سيدنا في « الفصول العلمية » - من مؤلفاته - : « **إنه يقع كثيراً في كلام أهل التصوف أنه ينبغي للعبد أن يرضى بما أقامه الله فيه من الأشياء ، ولا يطلب الخروج من ذلك ، لأن اختيار الله لعبده أحسن من اختياره لنفسه ، ولكن قد يلتبس الأمر على بعض المغترين من الجاهلين ، فمن الظلمة الغشمة من يحتج بإقامة الله له فيما هو فيه ، ومن المخلطين الذين يعملون الربا ويأخذون المال من غير حِلِّهِ ووضعه في غير حقه من يحتج بمثل ذلك ، وذلك بهتان عظيم وضلال مبين ، وإنما يكون إقامة الله للعبد إذا كان فيما يحبه من الأمور والأحوال ، ويكون عاملاً بطاعة الله وطالباً وراغباً في الترقي إلى ما هو فوق حاله ومقامه ..** » ، إلى آخر ما قال .

ثم قال : « **هذا الكلام ذكره ابن عبَّاد في أول شرح الحِكَم ، والفرق أن من كان في طاعة واعتقد إقامة الله له فيه فهو كذلك ، وإن كان في معصية فاعتقد ذلك فهو الإحتجاج على الله ، ومثل هذا الإعتماد على القضاء والقدر مع ترك العمل ، ومثله التعلق بالحقيقة دون الشريعة** » هـ .

أقول : ومثله التمني بالغرور ، وهو طلب المغفرة ودخول الجنة بلا عمل ، بل يعتمد على كرم الله، وما يدريه ، وهل جاءه صكاك بذلك يخصه ؟ وفضل الله شامل لجميع الخلق ، وإنما يختص به من يشاء، والعامل أحق به من البطال ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّ رَحْمَتَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ۝٥٦﴾ ، أي المطيعين الذين يعملون ما أُمِروا به ويجتنبون ما نُهُوا عنه ، فكن كذلك حتى تقرب من رحمة الله وتنال كرامته ، إذ لا يحصد أحدٌ إلا ما زرع ، فاعمل وارجُ ولا تتمن وتغتر ، كما ذم سيدنا من هو كذلك بقوله :

يُمَنِّـي النَّفْـسَ أَمْـراً لَيْـسَ يُدْرِكُـهُ ... إِنَّ الأَمَـانِيَ مِقْطَـاعٌ عَـنِ المِنَـنِ

وكما قال في التائية :

يَهُـمُّ بِـلَا جِـدٍّ وَلَيْـسَ بِنَاهِـضٍ ... عَلَى قَدَمِ التَّشْمِيرِ مِنْ فَرْطِ غَفْلَةِ

وَلَكِنَّـهُ يَرْجُـو الـذِيْ عَـمَّ جُـوْدُهُ ... وَإِحْسَـانُهُ وَالفَضْـلُ كُلَّ الخَلِيْقَـةِ

أي كل الخلق في ذلك سواء ، ولا يختص به إلا من شاء ، فقد خلق الخير وكل الفضل والنفع،

وأراد أن يعم به كافة خلقه الذين أراد لهم وأمرهم أن يتعرضوا لذلك ويستبقوا إليه ، حيث قال تعالى: ﴿ فَٱسْتَبِقُواْ ٱلْخَيْرَٰتِ ﴾، يعني باتباع الأوامر واجتناب النواهي ، وأن لا يكونوا كَلَحْمٍ على وَضَم، ويقولون نريد ذلك ولا يعملون له بالإمتثال ، فهذا مستهين بفضل ربه ، حيث احتقره ولا عمل له، وطمع أن يبذل له بغير عمل منه له . فإن العمل دليل الإعتناء والتعظيم ، فهو أحق أن يعطاه من غيره ، فإن الفضل منه سبحانه حق وجزاء ، يُبذل في مقابلةِ حقٍّ يُؤدَّى أو مَنهِيٍّ يُتَّقَى ، بل إذا اتَّقَيتَ استحقَّيتَ ، وإذا ضيعتَ ضُيِّعتَ ، والمفَرِّط أجدرُ بالخسارة .

وتقدم أنه مَرَّ عليه في « الفصول العلمية » ، أي في قراءةٍ غير هذه : « **إن إقامة الله للعبد لا تكون إلا فيما يحبه الله ويرضاه من الأمور والأحوال ، هذا هو الشرط الأول . والثاني أن يكون فيما هو فيه عاملاً بطاعة الله وسالكاً سبيل مرضاة الله . والثالث أن يكون طالباً وراغباً في الترقي إلى ما هو فوق حاله ومقامه ، من الأحوال والمقامات المرضية ما وجد إلى ذلك سبيلاً** » .

فلما سمعه *قال* : « **هذا الكلام ذكره ابن عباد في أول شرح الحكم ، والفرق أن من كان في طاعة واعتقد إقامة الله له فيه فهو كذلك ، وإن كان في معصية فاعتقد ذلك فهو الإحتجاج على الله ، ومثل هذا الإعتماد على القضاء والقدر مع ترك العمل ، ومثله التعلق بالحقيقة دون الشريعة** » هـ .

وسأل رجلاً عن بيتٍ بناه ، فأخبره *فقال* : « **كلُّ عَمَلٍ قد يثاب عليه إلا البناء ، والذي ورد النهي به منه تعلية البنيان دون التوسعة . وقد جاء أنه يقال له إذا أطاله : إلى أين يا أفسق الفاسقين ؟ وهذه الأمور من المباحات إنما هي بالنية ، والإقتصار على قدر الحاجة منها ، وأهل الزمان لم تصح لهم النية في العبادات فضلاً عن العادات** » هـ .

أقول : قوله : « **إنما هي بالنية** » ، أي أن الثواب في المباحات متوقف على صحة النية ، بأن ينوي بها الإستعانة على العبادة ، كالأكل والنوم . وفي البناء يُشترَط الإقتصار على قدر الحاجة صدقاً ، لا بدعوى النفس المغترة ، فبهذين الشرطين: النية ، التي تُصَيِّرُ المباحَ مندوباً ، وأن يقتصر من المباح على قدر الضرورة ، وهي التي لا تقوم البُنْيَةُ البدنية إلا بها ، أو الحاجة ، وهو ما زاد على ذلك قليلاً ، ولم يصل إلى حد السرف ، وهذا علامة صدق نيته .

قوله : « **وأهل الزمان لم تصح لهم نية في العبادات ، فضلاً عن العادات** » ، أي لشدة طمعهم في الدنيا ومتاعها ، حتى بذلوا في ذلك عباداتهم ، وما يتقربون به إلى ربهم ، وجعلوا أمور الدين أسباباً لمحاصيل الدنيا ، فلا جرم لم يُبارَك لهم في ذلك ، وما زادهم إلا فقراً وسقوطاً من عين الله وعند الخلق.

وقد ورد أن النبي ﷺ قال : « من طلب الدنيا بعمل الآخرة طمس الله وجهه ، ومحق ذِكْرَهُ ، وأثْبَتَ اسمه في النار » ، وذكر السيوطي في « الدر المنثور » ، عن أُبي بن كعب أن رسول الله ﷺ قال : « بَشِّرْ هذه الأمة بالسناء والرفعة والنصر والتمكين في الأرض ، ما لم يطلبوا الدنيا على عمل الآخرة ، فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا ؛ لم يكن له في الآخرة من نصيب » .

وما ورد في ذلك كثيرٌ لا يحصى ، كما قَدَّمنا عند قوله : « **مَن تُحَرِّكه الرغبات الدنيوية لم يكن للرغبات الأخروية أهلاً** » ، فإذا كان الأمر كذلك ، فأنَّى تصح لهم نية في عبادة ؟ أو تُقْبَل منهم طاعة ؟ وإذا كان هذا حالهم وشأنهم ، فأنَّى تصح لهم النية في العبادات ؟ فضلاً عن العادات ؟ فهؤلاء نزلوا عن الطبيعة الشرعية ونقصوا عنها ، كما نقص من تقدم ذِكْرُهُم عن الطبيعة العادية ، فكما يلزم أولئك المجاهدة إلى أن يصلوا إلى الطبيعة العادية ، فتستقيم لهم المروءة ، فيجاهدوا فيها أيضاً حتى يصلوا إلى مقام الولاية، على التفصيل المتقدم من قوله .

فكذلك هؤلاء اختَلَّت منهم الطبيعة الشرعية - أعني عوايد الشرع - حيث باعوا عباداتهم بأطماعهم ، فيلزمهم أن يجاهدوا نفوسهم حتى ترجع عن هذا الطبع وتستقبحه وتتوب منه ، ثم تترقى إلى كمال الإخلاص وصحة النيات الخالصة لله في عباداتهم وعاداتهم ، حتى تصير العادات في حيز العبادات ، ويتمكنوا في ذلك حتى لا يستفزهم طَمَعٌ في عبادة من جانب الخلق ، وتتجرد قلوبهم ثم أبدانهم تبعاً لها ، لكمال العبودية ، قياماً بأداء حق الربوبية ، فعند ذلك يشرفوا على مقام الولاية ، ولكن حصولها متوقف على الإرادة منه سبحانه وتعالى ، فإذا مَنَّ الله بذلك على العبد وَلَجَهُ وتمكن فيه واطمأنَّ به . ولذلك لما سُئِلَ سيدنا عن أجزاء الولاية كم هي ؟ قال في الحال من غير تأمل: « **أربعون جزءاً** » ، قال السائل : « أَمُكْتَسَبَة أو موهوبة ؟ » ، قال : « **كلها مُكْتَسَبة إلا جزءاً واحداً فموهوب ، فإذا وصل إليه ؛ اندمجت فيه كلها وصارت فيه كأنها حلقة ملقاة في فلاة** » ، كما قدمنا ذلك .

وقوله : « مكتسبة » ، يعني على ما فَصَّلَ من مجاهدة النفس في الحالتين : حالة نقصها عن كمال المروءة حتى تَكْمُل فيها وتطمئن بها ، ثم مجاهدتها فيها أيضاً حتى تكمل في العبادة ويؤديها على أكمل الوجوه . فعند ذلك فقد أدى ما إليه وهو حد الكسب الذي هو وسع الإنسان ، فيكون ذلك تسعة وثلاثون جزءاً يعرفه هو وأمثاله ، ثم إذا أراد الله سبحانه تفضل بما إليه وهو الجزء الموهوب ، الذي تندمج فيه مكاسب العبد ، وتكون فيه كحلقة في فلاة ، وهو الذي أشار إليه الشيخ أبوبكر بن عبدالله العيدروس نفع الله به في قصيدته ، حيث قال :

هذهْ مَوَاهِب ليس بِالمكَاسِب يا حَاسِدِين

يعني لا تظنوا لما عنيتم وتعبتم إنما المحصول بذلك ، إنما هو موهبة يهبها الله لمن يشاء ، وهذا المنسوب مجازاً وشريعة ، حيث عمل فيه بأعضائه ظاهراً ، إنما هو منسوب إلى الله حقيقة ، لقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾، يعني خلقكم وخلق أعمالكم ، وهذا من جملة أعمالكم . فإذاً العمل والجزاء كله منسوب إليه تعالى حقيقة ، كما قال تعالى : ﴿ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ أَوْ بِأَيْدِينَا ﴾، يعني كل ذلك إصابة من الله ، ولكن ما أجراه على أيدينا ينسب إلينا مجازاً وشريعة، وما لم يجره على أيدينا ، وما أجراه على أيدينا أيضاً ، الكل منسوب إليه تعالى حقيقة. والفرق بين الحقيقة والمجاز أن الحقيقة ما كان متوقفاً حصول الشيء عليه ، ولولاه ما وجد ، كخلق الله لأفعال العباد ، والمجاز ما له نسبةٌ ما إليه ، وهذا شبيه بجزاء الخير على عمل الخير ، فإنَّ عمل الخير مُطالَبٌ به العبد ، وجزاء الخير موهبة من الرب ، فقد يجازي بالكثير على العمل القليل ، وقد يتفضل على أحد بلا عمل ، وقد يبدل السيئات بالحسنات ، فيجازي عنها خيراً بقدر ذلك . ذكر ذلك في القرآن في من عمل السيئات ثم تاب عنها، وبعد ذلك عمل عملاً صالحاً ، ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٧٠﴾ ﴾ هـ .

قال : « ينبغي أن يُوَطِّن نفسه على مَا هو من طَبْع الدنيا من الكَدَرِ ، وإن حصَّل راحةً في شيء فهو عَارض ، فقد قيل للجنيد : نَرَاك لم تتعب من أمر يكون عليك من مصائب الدنيا . فقال : اعتَقَدْتُ أنَّ جميع أمور الدُّنيا مصائب ، وَوَطَّنتُ نَفْسِي على ذلك ، فأنا كل شيء يَرِدُ على نفسي مُوَطَّنُه على منواله » هـ .

أقول : يعني إذا تجرد العبد كادحاً في سَوقِ نفسه إلى الله ، ويشمر في مجاهدتها في الحالتين ، حالَتَي النقص المذكورتين ، إلى أن يبلغ حالة الكمال ، التي استحق بها أن يكون من كبار الأولياء ، وهي العبادة التي خُلِقَ لها ومجازى عليها بالخير ، كما قال تعالى : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴾، فأنت في ذلك ربما يعرض لك عارض مما هو شأن الدنيا ، من محنها ولأوائها ، يصدك عما أنت بسبيله ، فلا تغترَّ به ، فانظر إلى حال الذين كَمُلُوا في ذلك من أهل الكمال كالجنيد ، واعمل عليه لتبلغ ما بلغوا .

ثم قال سيدنا بعد ذِكْرِه لقول الجنيد : **« عمدة الأمور على شَيْئين : القِيَامُ بوظائف العبودية ، وأن لا يَنْسُب إلى نفسه شيئاً من كل شيء ، ويكون كالجسم المُلْقَى ، والقُدْرَةُ تَتَصرف فيه ، كما ذُكِرَ عن سهل التُّستري رحمه الله ، قال : إذا قال العبد أنا أطعتُ وأنا عَمِلْتُ ، وأنا فَعَلْتُ . فيردُّ الله سبحانه عليه بقوله تعالى : أنا خَلَقْتُ ، وأنا غَفَرْتُ ، وأنا سَتَرْتُ » هـ .**

أقول : وهذا معنى آخر ذكره عن أحد كبار من بلغ في هذا الطريق ، وهو أن العبادة المتقدم وصفها، إذا عَمِلْتَها وبَلَغْتَ فيها الغاية لا تعتمد عليها ، بل اعتمد على فضل ربك ، كما أشرنا إلى ذلك في ذِكْر الجزاء . وهذان الشيئان اللذان ذكر أن عمدة معاملة العبد لربه عليهما ، وهما العمل وعدم رؤيته، يحتويان على جميع معاني الشريعة والطريقة والحقيقة ، ويدخل فيهما جميع معاني الإسلام والإيمان والإحسان . وهما من جوامع كَلِمِه التي أشرنا إليها فيما تقدم ، ولو شرحهما العارف لاحتاج إلى مجلد، لكنه يَوَدُّ طَيَّ معنى كلامه ، ولا يرغب في نشره ، لمكانه من حال الخمول بالنسبة إلى مراده هو ، وأما مراد الله منه فأراد شهرته ، حتى أشهره في الخافقين ، ونوَّهَ بصِيتِه بين الثقلين وفي العوالم كلها ، كل ذلك بالنسبة إلى مراد الله ، وهذا هو الجاه الحقيقي الذي يعطيه الله لأكابر الأولياء ، كالشيخ عبدالقادر الجيلاني وأمثاله ، وهو نصيب مقسوم لمن قسم الله له .

وما ذكر من قول الشيخ سهل التستري من شأن الآدمي المخلوق من الضعف والعجز والنقص ، لمَّا كَمَّلَهُ الله بالعقل لِـحَمْلِ أمانته ، وهي التكليف الشرعي الذي تتعلق به أحكامه ، وهو محل خطابه، ويتوجه إليه بسببه من الله الخطاب بالأمر والنهي ، فعند ذلك تعدى طَوْرَه ، وجعل يدَّعي عكس ما خُلِقَ منه ، فادَّعَى القوة والقدرة والكمال ، فأكذبه الله في ما ادعى ونفاه عنه ، وأثبت الكمال لنفسه ، بقوله تعالى : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾.

وتقدم من تفاصيل الأعمال ما يحقق أن كل أفعال العباد منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى ، ولا يرضى لعبده أن يَدَّعي الاستبداد بشيء دون ربه ، سواء كان من أخص الخواص كالأنبياء ، أو أرذل الأرذلين كالعامة الجاهلين الغافلين ، وذلك عند قوله : « **كلُّ مُدَّعٍ مخذول** » ، وتقدم في ذلك قصص ، منها للملائكة وللأنبياء وللأولياء . ويكفي من كل ذلك قوله تعالى : ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾، فيجب على العبد أن يعرف ما يلزمه من العمل في حق نفسه، ونسبته إليه المجازية ، ويعرف ما منَّ الله منه إليه ، ونسبته إلى الله الحقيقية ، ويعمل الأعمال المأمور بها، ويترك المنهيات كلها على هذا المعنى ، فيعمل ويترك امتثالاً ، ويرجو الجزاء بالاحسان تفضلاً منه سبحانه لا حقًّا لازماً هـ .

وذكر يوماً أمر البرد والحماميم المُتَّخَذَة للدفاء وتحرير الماء في الجوابي ، وهي البِرَك التي يُتَوَضَّؤ منها ، **فقال** : « **إنها نعمة في حضرموت** » ، ثم أطال الكلام حتى **قال** : « **إن الله سبحانه يستحيي أن ينزع النعمة عن شاكر ، ولذلك قال سبحانه : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾** » .

يعني إنها نعمة يلزمهم الشكر عليها ، وإلا يُخشَى عليهم أن ينزعها عنهم ، فإن الله يستحيي أن

ينزع النعمة عن شاكر ، ولعل هذا لفظه حتى قال : « **إن الله لا يغير .. إلخ** » .

قال لرجل - وهو عبدالقادر باعشن ، من أهل الرباط من دوعن - : « **هل عادكم ملازمين للحضرة ؟** » ، قال : « نعم » ، *فقال* : « **الخير لا ينبغي التخاذل عنه ، بل التعاون فيه والمداومة عليه ، وإنما ينبغي ذلك في الشر ، والعالِم يستنبط ذلك من قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ﴾** » .

أقول : يعني إلى آخر السورة . ومن ذلك استنبط العلماء جماعة الجمعة الذين تصح بهم ، فمنهم من قال : أربعين . كالإمام الشافعي والإمام أحمد ، ومنهم من قال : ثلاثة عشر . كالإمام مالك ، ومنهم من قال : ثلاثة . كالإمام أبي حنيفة ، كلٌّ بحسب اجتهاده ، فإذا فتح الله لعبد باب الفهم في كتابه انفجرت عليه ينابيع العلوم ، فيأخذ منها ما أخذ . ولذلك قال الفُضَيل : « لو فُتِحَ لي من القرآن أوّلاً ما فُتِحَ لي منه آخراً ؛ لما نقلتُ حديثاً » ، وفي الحديث : « خذ من القرآن ما شئتَ لما شئتَ » .

وسمعتُ سيدنا يوماً يقول : « **لو صلينا الجمعة لما أعدنا ظهراً ، ولو في أقل من أربعين ، وبعد عندنا كلام لم نذكره** » ، فقلت : ما الكلام الذي لم تذكروه ، *فقال* : « **لو صليناها في جماعة ثلاثة ما أعدنا الظهر** » ، وهذا يدل أنه مجتهدٌ لا مقلد ، كما تقدم من مكاشفة عبدالخالق له .

وصافحه رجل مسافر ، *فقال* له : « **قد صارت اليوم الأسفار أعماراً ، لأنه قد كثرت المطالب وأكدت ، وتوسعوا فيها ، وطول السفر وقصره بقدر ذلك ، وقد كانوا في سفرهم إذا طال فهو ستتان، لأن الآن الأمور متيسرة والقناعة حاصلة . وقد كتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى كل من غاب ستة أشهر : أن يرجع إلى أهله أو يُطَلِّق . ومع طول السفر يتعلق الانسان برسوم وعوايد لا أصل لها ، ولو كان إلا طالب رسوم ، لو تواضع ارتفع عند الناس ، كيف لو كان مطلبه دينياً ، وهذه أشياء لَبَّسَها الشيطان عليهم ، وهذه هي مداخل الشيطان التي كان أدخلها على الأمم الخالية قبل الاسلام وبعده، مثل بني أمية ، حتى أفسدوا وحاربوا أهل الخير والصلاح وقد قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝٨٣﴾، وكان في معرض المخاطبة لا على لسان واسطة ، وقد عم بذلك الكافة، ولكن كان استثناؤه إنما هو للقليل من ذلك العام الكثير . والحاصل إن هذا الزمان السوء إذا لَحِقْتَ - أي وَجَدْتَ - فيه تمرة واحدة في وُجب حَشَف فكُلها، خصوصاً في هذه الجهة الضعيفة ، حتى قال بعضهم : ما يتم لأحدهم شهوة حتى تفوت عليه فضيلة . والدنيا بحر عميق ، كما قيل :**

وَمَـا قَـضَى أَحَـدٌ مِنْهَـا لُبَانَتَـهُ   وَلا انْتَهَى أَرَبٌ مِنْهَا إلى أَرَبِ

ومن تعب فيها وحصَّل منها راحة ، فحاله أحسن من حال من دَأْبُهُ الشغل فيها والكدح والجمع، ولا يستريح فيها ، فهذا حاله كحال العامل العادل أيضاً . وعند أهل الحكمة : من أمكنه الإستراحة بأمر الدنيا فليستغنمها ، وقد كانت فيها شهامة عُدِمَت منهم اليوم » هـ .

أقول : هذا ما أدركته مما تكلم به في هذا اليوم في مجلسه هذا .

وقوله : « وهذه » ، أي ما أشار إليه من الرسوم ، وهي العوايد الخارجة عن الدين والمروءة ، هي التي أدخلها على الأمم الخالية ، بل أدخل بعد الإسلام ما لا يدخله على الناس قبله ، فقد كانوا إذا الرجل يدور قاتل أبيه ليقتله به ، إذا رآه قاصد الحرم كف عنه ولم يتعرض له ، فما بال اليوم الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً من غزاة السوء ، وهم يَدَّعون الإسلام ، إنما يقصدون بأذاهم وطمعهم قاصدين البيت الحرام ، فأهل الجاهلية في هذه خير منهم .

وما ذكر من مداخل الشيطان هنا ، تقدم قوله : « **إن لإبليس في أهل الشمال تسليطاً إلهياً وتمكيناً قوياً ، حتى إنه سأل ربه الإنظار لأجل إغوائهم ، وحلف على ذلك ، كما حكى الله عنه بقوله :** ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴾» .

والوُجب عندهم : ماعون ليف من خوص ، يطرح فيه تمر ، يأخذ نحو ستة آصع أو أكثر ، يقول: إذا رأيت فيه تمرة واحدة ، وكله حشف ، ومثل به للزمان ، إذا لم تر في الكثير من الناس فيه صالحاً إلا رجل واحد اغتنمه بالمحبة والعقيدة .

قوله : « **فهذا ما تتم لأحدهم شهوة إلا بفوت فضيلة** » ، تقدم قريباً : « **ما تحصل له أكلة إلا بفوت صلاة جماعة** » .

قوله : « **وحال من لا يستريح فيها كحال العامل العادل** » ، يعني كلاهما في تعب ونصب ، الكادح في الدنيا بلا راحة مُقاسي محنها . والعادل مُقاسي تعب الإستقامة على الصواب ، مع مجاذبة أحوال الزمان في نفسه وغيرها إلى اتباع الباطل ، ويتعب لجام اتباع الحق في مجاذبات الهوى .

والشهامة : المروءة وقد عدمت ، كما قيل :

مَرَرْتُ عَلَى المُروءةِ وَهْيَ تَبْكِيْ   فَقُلْتُ : عَلَامَ تَنْتَحِبُ الفَتَاةُ
فَقَالَتْ : كَيْفَ لا أَبْكِيْ وقَوْمِيْ   جَمِيعاً دُونَ خَلْقِ اللـهِ مَاتُـوا

ومراده : أن مَن حالُه ودَأْبُهُ الشغل والكدح ولا يستريح فيها ، كحال العامل العادل أيضاً ، في كونه متعففاً لا ينال منها شيئاً ، فهذا أيضاً لا ينال منها شيئاً ، ولكن بُخْلاً وشُحًّا ، لا تعففاً وزهداً ، فهما ولو اشتبها في عدم النيل من الدنيا ، فبينهما من الفرق كما بين الذُّبُر - أي الزنبور - وبين النحلة ، فيما يحصل منها من العسل ، ومن الأخرى من اللدغ .

فَشُحُّ الإنسان بماله ، وبُخْلُهُ به على نفسه غاية الشح والبخل ، قد أحرمه الله النفع بماله ، وكَثُرَ عليه فيه من إشغاله ، ليسوءه به في حاله ومآله ، وهذا نصيبه من دنياه وحظه من ربه الذي أراده له ، فإن كان ما أراد به إلا ذلك ، ولا قَسَمَ له شيئاً من الخير مما هنالك ، فيا سوء منقلبه وضيعة مأربه ، وهو الذي قالوا فيه : إنه يعيش عيش الفقراء ، ويُحاسب حساب الأغنياء . وهو البخيل الشحيح الذي لم يحصل له من دنياه ديناً ولا مروة ، فَفَاتَهُ خيره ، وباء بشرِّهِ ، فلهذا ورد : إن الله سبحانه إذا أنعم على عبده بنعمة ، يحب أن يرى أثر نعمته على عبده ھ .

قَال رضي الله عنه : « الجنة لا شمس فيها ولا قمر ، ولا ليل ولا نهار ، ولكن بُكرة وعَشِيَّة ، تنعكس البُكرة على العَشِيَّة وتنعكس العشية على البكرة ، وهي أشبه شيء بوقت الإسفار بعد صلاة الصبح ، مع اعتدال الوقت ولطف الهواء في ذلك . ومن طبيعة الشمس الحرارة ، ومن طبيعة القمر البرودة ، فإذا كان يوم القيامة يكوِّرهما الله ويسلبهما نورهما ، فيجعله في الجنة زيادةً في نعيم أهلها ، ويجعل حر الشمس وبرد القمر في النار زيادةً لعذاب أهلها . وإنما ذكر الله الشمس في قوله تعالى : ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾، لكون الشمس عنصر الحَر ، كما أن القمر عنصر البرد ، فزيادة حر النار من الشمس، وزيادة بردها من القمر وهو الزَّمْهَرير . وبَلَغَنا : أن الله يوم القيامة يسلبهما نورهما ، فيجعله في الجنة زيادة في ضوئها ونورها ، ويلقيهما في النار مع الذين كانوا يعبدونهما زيادة في حر النار وزمهريرها . وليست الجنة درجة واحدة ، بل هي درجات كثيرة مختلفة ، لاختلاف أعمال أهلها ، كما أن النار دركات مختلفات ، لاختلاف العصاة ، لأن منهم من عصى الله بالكفر ، ومنهم بالنفاق ، ومنهم بالمعاصي » هـ .

أَقُولُ : قوله : « تنعكس » ، أي بَيْنَا هو في إحداهما ، إذ خرجت ودخلت الأخرى بعدها تليها ، من غير أن يتخلل بينهما حر ولا برد ، ولا ليل ولا نهار ، ليس على ما كان في الدنيا ، إذا خرج وقت العَشِيِّ دخل وقت الليل يليه ، وإذا خرج وقت البُكرة دخل وقت الضحى أول النهار إلى آخر النهار ، بلا تخلل شيء بينهما ، ووقت الإسفار المعتدل الخالي من الحر والبرد ، وكامل الضوء ما يكون في الصيف حين اشتداد الحر قبل طلوع الشمس . وعنصر الشيء أصله الذي يكون منه ، كما أن عنصر آدم الطين الذي خُلِقَ منه ، والمراد بذكر الشمس والقمر ، ذكر فرعهما الذي هو الحر والبرد ، حيث لا حر في الجنة ولا برد .

ومرة ذَكَر مثل ذلك وقَال : « الدرجات في الجنة صعودٌ فيها ، من حين تدخلها إلى أن تبلغ أعلاها عليين ، وهو الفردوس ، والدركات هبوطٌ في النار ، من حين دخولها إلى بلوغ أسفلها الهاوية ، وهي الدرك الأسفل من النار ، وهو مثوى المنافقين ﴿إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ فِى ٱلدَّرْكِ ٱلْأَسْفَلِ مِنَ ٱلنَّارِ﴾» .

ومرة قَال في النار : « إن الحر في مُدُنِها ، والزَّمْهَرِير وهو البرد الشديد في برورها ووَرد : أن درج الجنة بعدد آيات القرآن ، حتى إنه يقال لقاريء القرآن المحسن قراءته والعامل به : اقرأ وارْقَ ، فدرجتك من الجنة عند آخر آية تقرأها . أو كما ورد » هـ .

قال في حديث : « يؤذن لهم - أي أهل الجنة - في مقدار جمعة » ، ثم قَال : « إن كان من جُمَعِ الآخرة، فما هو إلا بعد سبعة آلاف سنة ، لأن اليوم من أيامها ألف سنة ، وإن كان من جمع الدنيا فقريب . وهذا

الإذن عامٌّ لخاصة المؤمنين وعامتهم ، وإنما يتميز الخاصة عن العامة بقرب المجلس وأحوال الكراسي، وتجليه تعالى لكل مؤمن على قدره ، كما ورد : إن الله يتجلى لأبي بكر تمامه خاصة ، كما يتجلى لغيره عامة . والقول بعدم إرادة الجنة أو عدم الخوف من النار من شطحات الصوفية التي اعترضوا عليهم فيها ، لأنهم إذا أرادوا النظر فلا بد لهم من الجنة ، ومثل ذلك قول من يقول : ما أريد إلا أن أدخل على السلطان وأراه ، ولا أريد غير ذلك ، وهو يأكل ويلبس ويركب من ماله ، وإنما .. » .

أقول : وسقط عليَّ بعد هذا هنا كلام من الأصل ، ولعله : « **وإنما المراد من قولهم ذلك ، وإنما نعبدك مجرد امتثالاً لأمرك ، وانقياداً لعبوديتك لا غير ذلك مما تهواه النفس ، أو فراراً مما تنفر منه ، هذا هو المقصود ، وما حصل بعد ذلك مما تهوى النفس فهو عارض** » ، والله أعلم .

وتقدم من قوله : إن معنى قولهم : « نعبده لا رغبة في الجنة ولا خوفاً من النار » ، **أن معناه يعني:** أن مطالب الأرواح وما تلتذ به غير مطالب الأجسام وما تلتذ به ، فإن مطلب لذة الجنة من الفواكه والنعيم والحور والقصور ، وكراهة النار وعذابها وأنواع بلائها ، أن ذلك كله من ملاذ الأجسام ومكارهها . وأما ملاذ الأرواح ومطالبها ، فالتلذذ بالعبادة والذِّكر ، امتثالاً وانقياداً من العبودية للربوبية ، هذا هو الأصل في كلٍّ منهما أن يختص بما يخصه . ولكن لا بد من تلذذ أحدهما أو تعذبه بما يلتذ به الآخر ، أو يتعذب به تبعاً من كل منهما للآخر ، للمجاورة والمخالطة والاتفاق في موضع واحد وهو الجسم ، لإقامة الأحكام ، كما تقدم ذلك من قوله حيث قال : « **ما أنزل اللهُ الرُّوحَ إلى الجسم حتى أخذ عليه العهد** » ، أي أخذ عليه العهد بأن يبقى على مطالبه ومطبوعه ، وأن لا يتابع النفس في مطالبها ومطبوعها ، ومع ذلك يستجلبها ويدعوها إلى مطالبه قليلاً قليلاً ، ولا ينقاد هو لها إن دعته إلى مطالبها. والمدد لكل منهما من الله سبحانه بحسب ما أراد لكل واحدٍ منهما من التوفيق والخذلان، فالتوفيق لمن أراد له اتباع مطالب الروح ، ومدده على أيدي الملائكة ، والخذلان لمن أراد له اتباع مطالب النفس الطالبة لمطالب الجسم ، ومدده على أيدي الشياطين ، ومنافع مطالب الروح في الآخرة خاصة ، ومنافع مطالب النفس في الدنيا خاصة هـ .

قال رضي الله عنه في معنى حديث : « يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم » ، *قال* : « **أي من أيام الآخرة ، وهو ألف سنة ، ونصفه خمسمائة سنة** » .

قال : « **يعني فقراء كل طبقة يدخلون الجنة قبل أغنيائها بذلك القَدْر** » .

ومِنْ نَقْلِ مَن نَقَلَ عنه ، قال : سمعته مرة يقول : « **الذين أخذوا منا وانتفعوا بنا أكثر ممن انتفع**

وأخذ عن الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس والشيخ أبي بكر بن سالم . مع إنا معترفين للشيخين المذكورَين نفع الله بهما بالتقدم في كل شيء ، إلا إن لله في ذلك حِكَماً وأسراراً يطول ذكرها ، وتكاد ترجع إلى اختلاف الأزمنة والأمكنة والأتباع كالأولاد ، فقد يَقِلُّونَ ويكثرون من غير أن يتعلق ذلك بذات الوالدين ، فَرُبَّ مفضولٍ أكثرَ أولاداً من فاضل ، فليتأمل في ذلك المتأمل » ، أو كما قال هـ .

أقول : وأنا سمعته غير مرة يقول : « الذين انتفعوا بنا أكثر من الذين انتفعوا بالشيخ عبدالله العيدروس والشيخ أبي بكر بن سالم » ، وزاد في هذا النقل أن ذلك « يكاد يرجع إلى اختلاف الأزمنة » ، يعني كما ورد : « إنكم في زمان من ترك التمسك فيه بربع ما يعلم هلك ، وإنه يأتي زمان من عمل فيه بربع ما يعلم نجا » . وقيل في معناه : « إن الربع من العلم ، هو معرفة الواجبات فعلاً وتركاً ، وبقية العلم الثلاثة الأرباع من السنن والمستحبات ، فمن ترك الربع الواجب في الزمن الأول هلك ، ومن عمله في الزمن الآتي نجا » ، وهذا حثٌّ وترغيبٌ ، وإلا فالربع الواجب مَن عَمَلِهِ في أي زمان نجا ، ومن تركه في أي زمان هلك .

وسمعته نفع الله به يقول : « إن المنشد إذا مات وقَدِمَ على أهل التربة ؛ يستنشدونه » ، فقلت له : كل منشد ؟ ، *فقال* : « المنشدون بقولنا خصوصاً ، لأنه لا يعرف ما قلناه إلا أهلُ البرزخ ، لأنا صادفنا زمانَ جَهْلٍ ، وسلفنا صادفوا زمان علم ، لكن مع حسد » ، انتهى ما نقلته من نقل ذلك الناقل .

قال رضي الله عنه لرجل : « كيف أنتَ ؟ » ، قال : « كذا وكذا » ، يَتَشَكَّى ، *فقال* له : « قل : بخير ، إنما يُذَم التجلد على الله ، وهو أن يغفل عما عليه من النعم ، ويقول بلسانه: أنا بخير ، وقلبه ملآن من الشكوى ، ومن تجلد على الله ابتلاه وإنما المحمود إذا كان معه بعض بلاء ، فذكر ما عليه لله من النعم ، فقال : بخير ، شاكراً على تلك النعم . فقد سُئِلَ الجنيد وبه بعض مرض ، فذكره فقيل له : أتشكو الله؟ فقال : إنما أذكر قدرة الله عليَّ » ، أو كما قال .

وذُكِرَت عنده رضي الله عنه الرحمة في الأودية ، وأن وادي ثبي حصل فيه سَيْلاَن ، الأول كبير ، والثاني صغيرٌ وحصل منه خير مما حصل من الأول ، *فقال* : « السر في البركة والشكر ، السر في البركة والشكر - كذا قالها مرتين - أبى اللهُ أن يرزق عبدَهُ المؤمن إلا من حيث لا يحتسب » .

وسأله بعض السادة أن يُلَقِّنَهُ الذِّكر ، وكان ذلك في جَمْعٍ في مجلس القراءة عشية الإثنين ثالث وعشرين في شهر ربيع الآخر سنة ١١٢٤ ، *فقال* : « إن هذا لا يكون في المجلس العام ، ولا لعموم الناس ، وإنما هو لطالبٍ مخصوصٍ ، في مجلسٍ مخصوص ، ولا يكون له أيضاً حتى يُسأل ليُعرف صدقه،

وشدة تعطشه . وأنتم ما دريتم بهذه الأشياء ، ظننتم أنها حصلت لنا باردة من غير تعب ؟ لا ، بل إنما حصلت لنا بعد التعب الشديد ، لو علمتم بذلك ، فقد سافرنا لأجلها إلى مشايخ ، وزرنا لأجلها آخرين ، وصَحِبْنا آخرين ، وما علمتم بذلك . ولو أن معي تحت السجادة هذه جواهر - مع عدم مبالاتي بها - ما فَتَحْتُها لأهل الزمان ينظرونها ، وهؤلاء الحاضرون ، منهم من ساقِيَتُه ملآنة ، ومنهم من ساقيته مربودة » .

وقال في قولهم كما ذكر الإمام الغزالي في البداية : « فكلُّ نَفَسٍ من أنفاسك جوهرةٌ لا قيمة لها » ، *قال* : « **لأنك يمكنك أن تقول فيه : لا إله إلا الله ، فتنفعك عند الله وفي الآخرة خيرٌ من نفع الجوهرة في الدنيا** » هـ .

أقول : قوله : « **ولا يكون له أيضاً حتى يُسأل** » ، موافقٌ لما تقدم من قول الشيخ الزين بن صديق المزجاجي ، صاحب التحيتة من أعمال زبيد اليمن ، لمَّا سألتُه : هل يكتفي الشيخ من الطالب بالسؤال بلسان الحال بلا مقالٍ منه ، أو لا بُدَّ من تلفظه بالسؤال بلسان المقال ؟ فقال : « لا ، بل لا بد عندهم من تلفظه بالطلب » ، فسألته ما تقدم لفظه في أول هذا النقل هـ .

قال سيدنا عبدالله رضي الله عنه : « **يجب على الانسان أولاً أن يصحح مقام التوحيد ، فإذا أحكمه صحح الواجبات من الصلاة والصوم ، والزكاة إن كانت عليه ، وغير ذلك ، ولايفعل مندوباً قبل تصحيح الواجب . أتُرَاكَ من له عليك دَيْنٌ لازم ، وأنت تتركه وتعطيه شيئاً متبرعاً به ، هل يقبله إلا بعد أداء اللازم ؟ وما عاد إلا تَمَتَّعْ بما تراه من الخير ، ولا تنكده على أهله ، ولا عاد مع الناس إلا بركة رسول الله ﷺ والسلف الصالح . والجهال - صغار العقول - لا تجالسهم فإنهم كالنار ، ولا تَجِ في طريقهم وتَنَحَّ منهم ، مثل ما تَنَحَّى النبي ﷺ من أبي جهل وأمثاله ، إلا إن أولئك كفار . والجاهلَ ما يرجع من شيء ، وينبغي أن يترك السوء وأعمال السوء من أول مرة ، لئلا تتحكم فيعسر إذ ذاك تركها ، وقد جعل الله لك على نفسك بصيرة ، وجعل لغيرك من أولي البصائر عليك بصيرة ، حتى ينتهي ذلك إلى العلماء ، ثم إلى الأنبياء ، ثم إلى الملائكة ، ثم إلى الله تعالى** » .

وكان قوله في من أشار إليهم : « **لا تجالسهم** » ، إلى قوله : « **وينبغي أن يترك السوء وأعمال السوء من أول مرة ، لئلا تتحكم فيعسر إذ ذاك تركها** » ، كل هذا مقدمة لِذِكْر التنباك ، وإشارة إليه فإنه إذا تحكم عسر تركه .

ثم تكلم بعد ذلك في التنباك ، *فقال* : « **الأصَحُّ أنه يَحْرُم** » ، وتكلم فيه كثيراً وذمه .

ثم ذكر يوماً شرب التنباك ، **فقال** : « **إن عفو الله عن العبد إلى حَدٍّ محدود ، فإذا بلغه يقول له : رُحْ ما عاد أغفر لك ولا أعفو عنك ، فيقطعه الله من عفوه ورحمته ، لأن من الذنوب ما لا يغفره الله** » .

ثم قال : « **إنه إذا تعوده الإنسان صارت طبيعته عليه ، فيتغير طبعه وعقله ، والأصح أنه يَحرُم ، لأنه يزيل العقل** » .

ثم ذكر شيئاً من حكايات من خَفَّ عقلُه بسببه ، **ثم قال** : « **ومن لم يُحَرِّمه يقول : لأنه لم يَرِدْ فيه نصٌّ بالتحريم فإنه حادث ، ومثله الأفيون ، فمن تسبب في إتلاف عقله مختاراً ، فإنه تجري عليه أحكام التكليف ويُخاطَب بها ولا يُعذَر فيها ، سواءٌ أزاله بخمر أو غيره . ومن ادَّعى ممن يستعمل التنباك أنه لا يزيل عقله ، وطَلَب الجواز لذلك ، فنقول : إنه من شأنه أنه يزيله ، وما ثبت مع تناوله له إلا بعد أن أزاله مراراً ، فلا يُعذَر فيه** » أو كما قال . انتهى ما تكلم به في التنباك هـ .

أقول : رأيتُ نقلاً يقول ناقله أنه من تفسير « المقنع الكبير » ، قال : « كان هذا الدخان في زمان رسول الله ﷺ ، حتى انقطعت المياه ويبست الزروع والأشجار ، ومات الناس من الجوع والعطش ، وصلوا صلاة الإستسقاء مع رسول الله ﷺ ، ولم يقبل الله صلاتهم ودعاءهم ، وسأل رسول الله ﷺ ربه : لِمَ لَمْ تقبل صلاتنا ودعاءنا ؟ فقال الله تعالى : لا أُمطِرُ المطر ، ولا أُنبِتُ الزروع ، حتى تقطعوا هذا الدخان . وطلب الناس كلهم نبت الزروع والأشجار ونبع الماء والأنهار - أي تركوه لطلب ذلك - فانقطع حتى لم يكن يعرف بعد ذلك ، فقال النبي ﷺ : يا أبا هريرة يأتي أقوام في آخر الزمان يداومون هذا الدخان ، وهم يقولون : نحن أمة محمد ، وليسوا من أُمَّتِي ، ولا أقول لهم أُمَّة ، لكنهم من الشوم .

قال أبوهريرة : وسألتُ رسول الله ﷺ : كيف نبت يا رسول الله ؟ قال ﷺ : إن الله لما خلق آدم عليه السلام ، وأمر الملائكة أن يسجدوا لآدم ، فسجد الملائكة كلهم إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، قال الله تعالى : يا إبليس ، ما لك أن لا تسجد إذ أمرتك ؟ ، ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيۡرٞ مِّنۡهُ خَلَقۡتَنِي مِن نَّارٖ وَخَلَقۡتَهُۥ مِن طِينٖ﴾، ﴿قَالَ فَٱخۡرُجۡ مِنۡهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٞ ۝٣٤ وَإِنَّ عَلَيۡكَ ٱللَّعۡنَةَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلدِّينِ ۝٣٥﴾، فعند ذلك خاف إبليس ، فبال من الخوف ، فنبت هذا الدخان من بول إبليس . فهل يستوي الإيمان في قلب من شرب بول الشيطان ، ولعن رسول الله ﷺ من غرسها ونقلها وباعها ؟ قال عليه السلام : يدخلهم الله النار، وإنها شجرة خبيثة » . انتهى ما نقلته من ذلك النقل المذكور ، استشهاداً بما فيه من الوعيد الشديد والتهديد الوبيل ، لقول سيدنا : « **الأصح أنه يَحرُم** » .

وسمعته يقول : « **إن حدوثه سنة بَغْيٍ** » ، يعني سنة ١٠١٢ ، ويعني ذلك تاريخ ظهوره بعدما اندرس على ما تقدم عن ذلك النقل .

ورأيت ما صورته : سؤال في التتن ، سُئِلَ عنه الشهاب القليوبي رحمه الله : « ماذا يقول العالم العلم يشرب قوم دخاناً ، فهل هم آثمون به وهو حرام أم يباح لهم ، ما الحكم فيه ؟ أفيدونا فترحموا » .

الجواب :

بِالحَمْـدِ أَبْـدَاً وَبِالتَّسْـلِيْمِ أَسْـتَلِمُ	إِرْضـاء لِطَالِبِـهِ بالفَضْـلِ وَالنِّعَـم
اِسْـمَعْ جَوَابـاً أَيـا مَـنْ جـاءَ يَسْـأَلُنَا	عَـنْ شُرْبِ نَـارٍ غَدًا في النَّـارِ يَنْتَقِـمُ
فَيَحْـرُمُ الـشُّرْبُ لِلدُّخَّـانِ أَجْمَعِـهِ	أَيْضـاً وَفِيْـهِ خِصَـالٌ كُلُّهَـا نِقَـمُ
فَيُشْغِلِ القَلْـبَ عَـنْ تَسْبِيْحِ خَالِقِنَا	يُسَـوِّدُ الدَّمْـعَ وَالأَمْـوَالَ تَنْـصَرِمُ
يَـا وَيْـحَ شَـارِبِهِ يَـوْمَ الحِسَـابِ إِذَا	جَـاءَتْ صَحَائِفُـهُ مُسْـوَدَّةً عُـدُمُ
مَـا قَـالَ هَـذَا حَـلالٌ عَـالِمٌ أَبَـداً	قَـطٌّ مِـنَ الإِنْسِ لا عُـرْبٍ وَلَا عَجَمُ
مَـنْ قَـالَ هَـذَا حَـلالٌ جَاهِـلٌ أَبَـداً	أَوْ قَـالَ هَـذَا مُبَاحٌ لم يُصَبْ حَكَـمُ
مَنْ رَدَّ قَوْلِيَ هَـذَا ضَـلَّ عَـنْ طَـرَفٍ	أَيْضـاً عَـنِ الحَـقِّ فِي آذَانِـهِ صَمَـمُ
فَنَسْـأَلُ اللهَ رَبَّ الْعَـرْشِ مُوْجِدَنَـا	بَالخَـيْرِ يُبْـدِيْ وَبِالْإِيـمانِ يَخْتَـتِـمُ

تم ذلك . وإنما أطلنا الكلام في ذلك لكونه على هذا الوصف ، ومع ذلك التهديد وشديد الوعيد، ومع ذلك انتشر هذا الإنتشار ، واشتهر هذه الشهرة بين الخلق وطار كل مطار ، لعل إنساناً إذا سمع قول سيدنا وما في ذلك النقل المهول من التخويف ، وما أفتى به الحبر الشهاب القليوبي ، أن يرتدعَ عن ذلك ويَرْعَوِي قلبُه عنه ويتركه .

وممن أفتى بحرمته أيضاً ، سيدنا الحبيب السيد العارف الجامع بين علمي الظاهر والباطن ، سيدي أحمد بن عمر الهندوان باعلوي نفع الله به ، وقد كان يُشَنِّعُ كثيراً على من يشربه .

ويكفيه شهادة هؤلاء الشهود العدول ، عن تسويل الشيطان له يشرب بوله ، وأن هذين - أعني سيدنا عبدالله الحداد والسيد أحمد الهندوان - شمس وقمر الزمان وعيناه في وقتهما وبعده إلى الآن وإلى آخر الأوان ، كما مضت الإشارة إليه في حق سيدنا ، حيث قال : « **عندنا أمانة ما يحملها إلا المهدي** » ، ومرة قال : « **أو أربعون من أصحابنا** » ، ومرة قال : « **أو ستون** » ، واذا تفرقت عنه فيهم فهي منسوبة إليه ، حتى تُؤدَّى إلى صاحبها ، وتتجمع له منهم بعد ما تفرق منها فيهم .

ولكن سلطان الشيطان في تسويله كلما تأخر الوقت ونزل الناس استقوى ، لفساد الأحوال .

فانظر كيف انقسم الناس اليوم في استعمال بوله هذا الخبيث إلى ثلاث طبقات ، غلبهم في تسويله لهم به ، حتى انقلبوا إلى هذه الثلاث الفرق :

الأولى : العوام الذين لا علم لهم ولا ذوق في الدين ، فَسَهُلَ عليه قيادهم ، فانقادوا له وأطاعوه ، فأمرهم بشربه في المداعة ، فامتثلوا له وما توقفوا .

والثاني : طبقة الملتفتين إلى المروءة قليلاً ، وهم فيها فوق الأولى ، ولهم نظر إلى العقل ، وتَشَبُّه بأهل الدين ، فخالفوه فيها ، فأمرهم بالغليون فأطاعوه وامتثلوا أمره ، وظهر لهم نُصْحَهُ ، وقالوا : هذا أخف ولا بأس به ، وفيه تسلية للخاطر ، وهو مطلوب وينبغي .

والثالثة : طبقة الفقهاء والعلماء ، والقضاة والصوفية ووجوه الناس ، وممن يُنسَب إلى الديانة والمروءة ممن لا يطيعه في أكثر الأمور ، لكنه ما عذرهم من استنشاقه وتطييره في أدمغتهم ، فأمرهم بالتنشق به ورَغَّبَهم في ذلك ، وذكر لهم فيه منافع وفوائد كذباً وبهتاناً ، ودعوى لا تصح ، بل بضدها، فساعدوه في ذلك واعتقدوا نُصحَه لهم ، بأن فيه نفعاً للدماغ بلا حرج في الدين ولا هتكاً للمروة .

بلى والله ، إن فيه حرجاً في الدين وهتكاً للمروءة ، فلما أمرهم امتثلوا أمره ولَبُّوا دعوته ، وفعلوا ما أمرهم به ، واستعدوا لذلك مواعين يُجعَل فيها من قراطيس ومطابق وأواني يجعلونه فيها ، ثم يضعونها في عمائمهم وأجيابهم ، ويحملونه في حال صلاتهم وعباداتهم في المساجد وغيرها ، وكلهم في ذلك عاملون بما يسر الشيطان من استعمال ما نبت من بوله ، وهم لا يرون في ذلك نقصاً عليهم ، وهو غاية النقص ، ولكن غَطَّاه اللعين عليهم لئلا يتركوا شجرة بوله ، وليديموا استعمالها ، وقد خالفوا أمر الله حيث قال تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ ، وما اتخذوه عدوا ، بل اتخذوه حبيباً مطاعاً .

حتى إن مرة صَلَّيتُ الجمعة ، ثم خرجت مع قاضي المسلمين أُماشِيه ، فإذا به قد أخذ من عمامته مطبقةً ، جاعلاً فيها له نشوقاً من ذلك الخبيث ، ونثره في قفا يده وتنشق به ، ثم نثر كذلك ومده إلي وقال : « عزمتُ عليك أن تتنشق به » ، فامتَنَعْتُ منه وقلت له : ولو عزمتَ علي أنت ، وابتُليتَ به ، فلا تجعلني أُبتَلَى به مثلك . وهذا الذي يتنشق به نوعان : يابس ، كهذا الذي يُجْعل في المواعين . ورطب ، وهو أن يُنْقَع في الماء ورقاً أو مسحوقاً ويتنشق به . ومن اعتاد أحدهما لا يغنيه الآخر عنه .

فقاتل الله إبليس اللعين ، كيف تخرَّج من هؤلاء الطوائف ، وحَصَّل منهم مراده . فانظر كيف استجَرَّ هؤلاء الطبقات من الناس إلى مراده منهم ، على اختلاف أنواعه بحسب مراده ، من كل طبقة ما أراد ، وهذا منه معهم في هذا النوع فقط ، فكيف به في أنواع ووجوه لا تحصى ، وكل ذلك مما مكنه الله منه من تصرفاته في الخلق ، لأمر أراده الله ، وقد تقدم قول سيدنا حيث قال : « **إن لإبليس في أهل**

الشمال تسليطاً إلهياً وتمكيناً قوياً » ، وهذا المذكور ممن فعله مع طوائف الناس في التنباك من ذلك التسليط وذلك التمكين ، أعاذنا الله منه ومن نزغاته هـ .

وذكر رجلاً قد مرض ، *فقال* : « إذا حلَّت المقادير حارت التدابير ، وليس لهؤلاء معقول يدبرون به أحوالهم ، والغيار يدخل على الجسم مع عدم التحفظ في الصِّغر ، أكثر مما يحصل في الكِبَر ، لأن الصغير جسمه ضعيف ، أدنى شيء يضره ، والكبير وإن كان ضعيفاً وأدنى شيء يضره ، لكنه فيه شدة في بدنه مستصحباً من حال القوة ، بخلاف الصغير » .

قال رضي الله عنه في قول يحيى بن معاذ الرازي في « رسالة القشيري » : « الزاهد يُسعِطُك الخل والخردل ، والعارف يُشِمُّك المسك والعنبر » ، *قال* : « أي إن الزاهد يُشَدِّد عليك الأمر ، ويتقصى في الإحتياط ، ولا تكاد تسمع منه ما فيه سهولة ، بل كل أموره شديدة . والعارف بخلافه ، يُسَهِّل عليك الأمر ، وإذا رآك في غفلةٍ أو مصراً على شهوة تركك ، ولا يُنَكِّد عليك ، ولكنه يُرَغِّبُك عنه ، ويذكر لك الفضيلة في تركه ، ويستجلبك بلطفٍ ورفق ، فأي الحالين ترى موجباً لانقيادك وميلك إلى الحق ، فلا يكون الاتباع إلا للثاني ، وهو طريق العارفين المنتهين ، والأول سبيل الزاهدين المبتدين » هـ .

أقول : انتهى بمعناه ، وهذا هو معنى قول الشيخ أبي الحسن الشاذلي نفع الله به : « ليس الشيخ من يُضَيِّق ويُشَدِّد على مريده ، وإنما الشيخ من يُوسِّع عليه ويسهل » هـ .

وقال أيضاً في قول ذي النون المصري فيها ، وقد سُئِلَ : « متى أكون زاهداً في الدنيا ؟ قال : إذا زَهِدْتَ في نفسك » ، *قال* سيدنا : « يعني لأنك إنما تريد الدنيا لنفسك ، فإن كانت راغبة في الدنيا مشتهية لها ، فأنت تطلبها لها ، لتنال منها شهواتها وتتمتع بلذاتها وتتنعم بها ، وتفعل بها ما تريد منها ، وإن كانت قانعة بما تيسر منها مأكلاً وملبساً ومسكناً وغير ذلك ، فتكتفي بكسرة خبز تسد بها الجوع ، وخرقة تستر بها العورة ، وزاوية مسجد أو في غوضة - أي قرنة - فإنك لا تطلب الدنيا بل تزهد فيها. فمحبتك للدنيا وزهدك فيها على حسب نفسك ، رغبةً وقناعةً ، فترى السُّؤَّال الذين يفرح أحدهم بكسرة الخبز لو حصلت له ؛ في غاية من الراحة ، وهم أكثر استراحة من الملوك والتجار ، والذين هم في بيوتهم ، ولو أنهم - يعني السؤَّال - اتقوا الله لكانوا مع السابقين » .

وتقدم قوله : « قال بعض أهل البيوت الثقيلة لرجل يستقي لهم الماء : من ترى يكون أتعب من في البيت ؟ فقال : أتعب من في البيت أنا وأنت ، أنت تجيب لهم الطعام ، وأنا أجيب لهم الماء ، وهم يأكلون

ويشربون ولا يدرون » .

وتكلم يوماً في الأعياد ، وذلك يوم ثاني عشر ربيع الأول سنة ١١٢٤ ، *فقال* : « **ضَعُفَت العبادات والطاعات ، وقَوِيَت العادات والشهوات . كانوا إذا أَقْبَلَتْ هذه الأيام ، والأشهر الحرم خصوصاً ، سيما شهر رجب ، يفرحون ويتأهبون بالصدقات وفعل الخيرات ، وأهل هذا الزمان يتأهبون للأعياد ويفرحون ، لأجل نيل أهوائهم وشهواتهم المعروفة فيها . وذُكِرَ أن امرأة من السادة لها ولدٌ يعطيها نفقتها لكل شهر من التمر والحب ، فاكتفت بالحب عن التمر ، ولم تأكل من التمر شيئاً ، وتتصدق به، فدخل عليها يوماً وذلك في آخر جماد الآخر ، فرأى عليها أثر الجوع ، فدخل الدار يتشوف ، فرأى في زير تمراً ، ورآها جاعلته ثلاثين صبياً ، فقال لها : لِمَ تجوعين وهذا التمر أراه عندك ؟ فقالت : إنما ادَّخرتُه لصدقة رجب ، وجَعَلْتُه ثلاثين ، لكل يوم واحداً أتصدق به** » .

أقول : يعني أنهم كانوا إنما يفرحون بهذه الأوقات ، ليفعلوا فيها المعروف والصدقات ، غنيهم وفقيرهم ، لما يسمعون من تضاعف فضيلة الأعمال فيها على ما سواها ، رغبةً منهم في ما يرضي الله ، وفي مضاعفة الثواب والأجر . وهؤلاء إنما يفرحون بها لما اعتادوا فيها من نيل أهواء نفوسهم ، وعوايد لهم فيها زائد على العادة ، ففرح أولئك بها كفرح هؤلاء بأوقات الأسواق ومواسم البيع والشراء، فيستعدون لها بجمع الأمتعة وضمها حتى تأتي ، ليُحَصِّلوا فيها فوائد الأموال وربح التجارات الدنيوية . فانظر تفاوت الفرق بينهما في النيات والأعمال ، وبين ما رَغِبَ كُلٌّ فيه وقصده ، وبينهما أيضاً من الفرق كما بين النحلة والذبرة ، كما ضربه مثلاً فيما تقدم .

وفي العادة في الجهة في الزمن السابق وإلى الآن كما رأينا ، أن التمر هو مأكول النهار في غالب الناس وهو الغداء ، وأن الحب هو مأكولهم في الليل وهو العَشاء . فكأن تلك المرأة المباركة الصالحة كانت تكتفي بالعَشاء عن الغداء ، فتترك مأكوله الذي هو التمر للصدقة ، فرأى عليها في النهار أثر الجوع لتركها الغداء ، فتُجَوِّع نفسَها في النهار لتتصدق بمأكوله ، سيما في الأشهر الحرم ، ولا سيما رجب ، فإن الله تعالى أظهر حرمته بين الناس في الجاهلية والإسلام ، وقد ورد : « إن النافلة في الأيام الحُرُم تعدل سبعين نافلة فيما عداها ، وإن الفريضة فيها تعدل سبعين فريضة فيما سواها » ، فهذا هو الذي رغَّبهم في تَحَرِّيها بكثرة العمل ، لفرط رغبتهم في نمو الأعمال الصالحة ، نظير رغبة هؤلاء في الدنيا . فسبحان من خص هذه الأوقات بهذه الفضائل العظيمة ، وخص من أحب من خلقه باغتنامها .

ولله خصوصيات في الآدميين والأوقات ، فَخَصَّ الأشهر الحُرُم بهذه الفضيلة العظمى والوسيلة الكبرى ، كما خص ليلة القدر بكون العمل فيها أفضل من مثله في ألف شهر ، وهي ثلاثٌ وثمانون سنة وثلث ، وخص يوم الجمعة بساعة الإجابة ، وخص شهر رمضان بما خصه به ، ولو لم يكن إلا كون ليلة

القدر مخصوصة به على القول الأصح . وكما اختص الأوقات اختص أيضاً بعض البقاع على بعض ، فاختص الحرم المكي بكون الصلاة فيه بمائة ألف صلاة ، والحرم المدني النبوي بألف ، والأقصى بمائة ، فكذلك خَصَّ بعض الناس بمراتب الرسالة والنبوة ، في أوقاتها ، قبل ختمها بخاتم النبيين محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

ثم بعد النبوة اختص بمراتب الولاية من أراد على اختلافها ، وكما فَضَّلَ هؤلاء في الدين كذلك فَضَّلَ مقابليهم في الدنيا ، مِن مُوَسَّع عليه جداً ، ومَن دونَهُ وأقلَّ منه ، ومِن فقيرٍ لا يملك شيئاً ، ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنۡ عَطَآءِ رَبِّكَۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحۡظُورًا ٢٠ ٱنظُرۡ كَيۡفَ فَضَّلۡنَا بَعۡضَهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ وَلَلۡأٓخِرَةُ أَكۡبَرُ دَرَجَٰتٖ وَأَكۡبَرُ تَفۡضِيلٗا ٢١﴾، والغالب أن من ارتفعت درجته في الدين ، نقص حظه من الدنيا كما تسمع من أحوال الأنبياء والأولياء ، وقد ورد : « إن من أوتي حظاً من الدنيا ، نقص عليه بقدره من حظه في الآخرة ، ولو كان ذا منزلة عالية عند الله » .

فلذلك اختار الأنبياء والأولياءُ الفَقْرَ على الغِنَى ، ولو أرهقتهم ضرورة المعاش في الدنيا ، قاسوها ورضوا بها ، لما يرجون من عاقبة ذلك في الآخرة من الخير ، فإذا كان الأمر كذلك ، فينبغي أن يكون الإنسان خصمَ نفسه ، فيلومها إن خالفت وقَصَّرَت ، فيلومها على التقصير ، ويحثُّها على التشمير ، لتكون مشابهة لأخيار الدين ، ولا يُحوِجْها إلى الحث من غيره ، فما للنفس ناصحة سواها . فإذا أراد الله بعبدٍ خيراً؛ جعل له واعظاً وداعياً من نفسه ، فإن فقد ذلك فلا ينفعه واعظ وداعي من غيره ، وإنما تنفع الموعظة والداعي من الغير ، مَن أقْبَلَ على ذلك بقلبه .

وانظر إلى هذه المرأة الموفقة مع حاجتها واضطرارها ، كيف حَرَمَتْ نفسها وتصدقت بجازتها ، والناس اليوم حيث امتلأت قلوبهم من الفقر مع سعتهم وغناهم ، لا يتصدقون ولا يرحمون مضطراً ، إلا من رحم ربك - أعني من هم كذلك - والأمة لا تخلو من الخير وأهله العاملين به .

وقد كان أناس من فقراء الصحابة رضي الله عنهم ، ممن لا يجد ما يتصدق به ، يُكْرُونَ أَنْفُسَهم إمَّا في نخلٍ أو بناءٍ أو غيره بأجرة ، ليُحَصِّلوا شيئاً يتصدقون به ، لا ليأكلوه . فانظر الفرق بينك وبينهم يا مَن عنده جِدَة وهو يبخل بما في يده ، وغالب من هو كذلك أنه لا يُخرِج الزكاة الواجبة ، فهدم ركناً من أركان دينه ، وهو يدَّعي أنه كامل الإيمان ، فخاب وخسر ھ .

قال رضي الله عنه لرجل يحذره من أكل الصدقات إذا كانت على يده - كالأثلاث - ولا يخرجها لوجهها ، قال له : « الحذر من أكل الصدقات أو خلطها بالمال ، إنها تفسد الجسم والمال ، وتحرقهما كما تحرق النار الحطب وتفسده » ، وتقدم أني سمعتُ رجلاً يشكو إلى سيدنا أنه ما يعيش له ولد ، فقال : « لا يكون عندك ثلث مُتَوَلٍّ عليه ؟ » ، قال : « نعم » ، قال : « من عنده ثلث لا يعيش له ولد ، وإن عاش له ولد لا يكون في ذلك الولد بركة » .

أقول : وقد رأيت من أهل الأثلاث ناساً مات لواحد منهم نحو العشرين ولد وما عاش له ولد هـ .

قال رضي الله عنه : « يُنسَبُ إلى الإنسان من المقامات ما يغلب عليه ، ولا يتحقق بمقامٍ إلا وقد حصل له شائبة من جميع المقامات ، إذ لا يكون زهدٌ بلا ورعٍ وصبرٍ وخوف ورجاء ونحو ذلكَ كذلك ، ولم يبق عليه إلا إحكامها ، وتحقيق كل مقام ما يخصه ، وكلٌّ ما أحكم مقاماً حَصَل له من القوة ما يقوِّيه على الذي بعده ، وعلى هذا » .

وقال له رجل : « هل الأموات ينفعون الأحياء بشيء ؟ » ، فقال : « نعم ، إنهم يشفعون لهم ويدعون لهم ، فإن أعمال الأحياء تُعرَض عليهم ، فإن رأوه حسناً ؛ دَعَوا له بالثبات عليه والزيادة منه ، وإن رأوه سيئاً ؛ دَعَوا له بالتوبة والمغفرة ، كما ورد . والأموات أكثر نفعاً للأحياء منهم لهم ، لأن الأحياء مشغولون عنهم بِهَمِّ الرزق ، والأموات قد تجردوا عنه ، ولم يبق لهم هَمٌّ إلا في الذكر ، وفيما قدموه من الأعمال الصالحة ، لا تعلق لهم إلا بذلك ، كالملائكة وما يعملونه من الأعمال الصالحة ، كالذي رئي في قبره يقرأ في مصحف ، وغير ذلك مما يُحكى عن الأموات . فالظاهر أنهم لا يثابون عليها لانقطاعهم من دار التكليف ، وإنما ذلك ليتلذذوا به ، كالملائكة غذاؤهم الذِّكر ، وما ورد : إذا مات ابن آدم انقطع عمله .. إلخ . يعني انقطع عمله لنفسه » هـ .

أقول : أي دون غيره ، كما ذَكَر من نفعهم للأحياء .

ويؤيد قوله : « لا يثابون عليها » ، ما ذكر الإمام السيوطي في كتابه « شرح الصدور من تكليم الأموات للأحياء » : أن جماعة من الأحياء دخلوا على جماعة من الأموات فسلموا عليهم ، فلم يردوا السلام ، ثم جعلوا يكلمونهم ويسألونهم عن فلان وفلان ، جماعة من الأحياء . فقال لهم الأحياء : « لِمَ لَمْ تردوا علينا السلام ؟ » ، فقالوا : « إن رد السلام حسنة ، وقد حيل بيننا وبين الحسنات » ، قال ذلك الرجل لسيدنا : « فهل يتعارف الأموات ويتزاورون كما هو حال الأحياء ؟ » .

قال : « يكونون على حسب ما كانوا قبل الموت » هـ .

أقول : أي يتزاور من بينهم معرفة في الدنيا ، ومَنْ كان عادتهم التزاور هـ .

قال : « **وذكر بعضهم : إن من عجيب الإتفاق أن وقع ولادته ﷺ وموته في ثاني عشر ربيع الأول، فشاب الفرحَ فيه بولادته الحزنُ فيه لموته عليه السلام ، ولولا ذلك لكان الفرح فيه شديداً جدًا . وأما عاشور ، فإنما هو يوم حُزْنٍ لا فرح فيه ، من أجل أنَّ قتل الحسين كان فيه ، ولم يصح فيه - يعني من الأعمال - أكثر من أنه يُصام ويُوَسَّع فيه على العيال ، ولكنه في نفسه يوم فاضل** » .

وتقدم قوله : « **أخبَرَنَا رجلٌ صدوق ، قال : حضرتُ دفن ميت في بعض البلدان ، فلما وضعوه في اللحد فَرُّوا عنه سراعاً ، ومكثوا مبتعدين عنه ساعة ، ثم رجعوا إليه ودفنوه فأتموا دفنه ، فسألتهم عن سبب ذلك ، قالوا : عندنا عادة ، إذا وضعنا الميت في اللحد ، سمعنا للقبر رَجَّةً شديدةً تنخلع منها العقول ، فنهرب لئلا نسمعها ، فإذا خلصت رجعنا ودفناه** » .

وتقدمت أيضاً قصة رأيتها مكتوبة في كتاب بحضرموت ، ثم رأيتها أيضاً في الحساء ، بخط بعض الإخوان من طلبة العلم ، أثق بخطِّه وصدقه ، وهو المرحوم الشيخ حسين بن كثير ، أن رجلاً ثقة حكى، قال : « قَدِمْتُ الهند تاجراً ، وعندي مالٌ جزلٌ كثير ، فأَسْلَمْتُه على رجل دلال في بَزٍّ إلى أجل معلوم ، فتوفي الرجل قبل الأجل ، فسألتُ أولاده ومخالطيه عن مالي ، هل أوصى به أو ذَكَرَ لكم عنه خبراً ؟ وكلهم قال : لا نعلم بمالك ، ولا ذَكَرَهُ لنا . فاشتغلتُ لذلك جداً ، وجعلتُ أسأل عنه ، فقال لي بعض الناس : لا تحزن ، وستوفي مالك موفى . فقلت : كيف ذلك ؟ ، قال : إن الله سبحانه أجرى العادة عندنا أنه إذا توفي الرجل يرجع بعد ثلاثة أيام ويفتح دكانه ، وينظر في دفتره ، ثم يأمر منادياً ينادي : من له على فلان ديناً فليأته ، فقد قعد يوفي ديونه .

قال : فلما كان يوم الثالث من موته ، إذا بي أسمع المنادي ينادي : ألا من له على فلان ديناً فليأته، فقد قعد في دكانه يوفي ديونه . قال : فأتيتُ حانوته ، وإذا بي أرى صاحبي بعينه ، وما أنكرتُ منه شيئاً، فسَلَّمْتُ عليه فرحب بي ، ثم قلت : هل تعلم ما لي عندك من المال ، وهو كذا ؟ ، فنظر في دفتره ، وجعل يطالع فيه ويتأمله ، ثم قال لي : صَدَقْتَ . ثم أخذ كيس الدراهم ، وعَدَّ لي كل مالي فقبضته بالتمام ، وبقي يوفي كل من له عليه حق إلى آخر النهار ، ثم أغلق دكانه ، وترك مفتاحه في الباب ومضى، فتبعتُه وقلت له : كيف قصتك ؟ فإني لا أشك في موتك وقد صلَّيتُ عليك . فقال : ألم تستوف مالك بتمامه ؟ قلت : بلى ، ولكن أريد أعرف حقيقة أمرك . فتركني ومضى ، فلحقتُه وقلتُ له : بالله عليك

لتخبرني ، فقال : أما صاحبك الهندي فقد صار إلى الله ، وأما أنا فَمَلَك، يرسلني الله في صورة كل من مات ، آتي وأدخل حانوته وأنظر دفتره ، وأوفي عنه ديونه ، وقد أجرى الله لهم العادة بذلك » .

وبلغه أن فتنة حصلت في الحرمين ، بين الحاج الشامي وبين حرب ، ومثل ذلك في مصر ، ومثله في الهند ، وفي أماكن أُخَر ، فذكر عند ذلك الفتن ، *فقال* : « **قد ظهر في هذا الوقت أشراط الساعة ، فإنه لا يصل أحد من جهة بعيدة إلا ويخبر عن فتنة ، وأن فلاناً وفلاناً من أعيان الناس قد قُتِلوا ، وإن بقيت هذه الفِتَن عامَنا هذا ، فليتحقق الانسان أن هذا هو أشراطها ، فلا يجوز للإنسان أن يخرج من بلاده ، بل يتعين عليه الجلوس في أرضه ، صيانةً لدينه وحفظاً لصبيانه ومَكَالِفِه ، لأن الإنسان أحسن ما يخرج إلى حرم الله ، وإذا حصل فيه الفتن والقتل فإلى أين يخرج ؟ وهذه الأشياء وأمثالها هي الأمور الموعود بها ، وصدق الله وبلغ المرسلون** » هـ .

أقول : قوله : « **عامنا هذا** » ، هو عام ١١٢٤ وكانت الحجة في ذلك العام بالجمعة .

وكان لحجة الجمعة تلك السنة بين الناس ذِكْرٌ كثير ، ما سُمِعَ بمثله في حجة جمعة قبلها ، *فقال* : « **هذا العام كثيراً ما يذكر الناس حجة الجمعة ، وما أدري ما حجة الجمعة ؟** » هـ .

أقول : أي ما مزيتها على غيرها ، ولا شك أن لها مزية ، حيث أن آخر حجة حجها رسول الله ﷺ حجة الجمعة ، وهي حجة الوداع التي خطب فيها وهو بعرفة خطبته التي تودع من الناس فيها ، وأكثر روايات البخاري أنها يوم النحر ، وترجم لها : باب الخطبة أيام منى ، وساق إسناده : عن أبي بكرة قال : « خَطَبَنا النبي ﷺ يوم النحر فقال : أتدرون أي يوم هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فَسَكَتَ حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس يوم النحر ؟ قلنا : بلى ، قال : أي شهر هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، فقال : أليس ذو الحجة ؟ قلنا : بلى . قال : أي بلد هذا ؟ قلنا : الله ورسوله أعلم . فسكت حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه ، قال : أليس بالبلدة الحرام ؟ قلنا : بلى . قال : فإنَّ دماءكم وأموالَكم – وفي رواية : وأعراضَكم – عليكم حرام ، كحُرْمَةِ يومكم هذا ، في شهرِكم هذا ، في بلدِكم هذا ، إلى يوم تَلْقَوْنَ ربكم ، ألا هل بلَّغْت ؟ قالوا : نعم ، قال: اللهم فاشهد ، فَلْيُبَلِّغْ الشاهدُ الغائبَ ، فَرُبَّ مبلَّغٍ أوعى من سامع ، فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضربُ بعضُكم رقابَ بعض .وودع الناس ، فقالوا : حجة الوداع » ، وقال ابن عمر : « وقف يوم النحر بين الجمرات ، وقال : هذا يوم الحج الأكبر » .

قال ابن عباس : « فوا الذي نفسي بيده ، إنها لوصيته إلى أمته ، فليبلغ الشاهد الغائب » .

ثم مَرَّ مُنصَرَفَه من حجته بغدير خم من رابغ ، وخطب خطبته التي ذكر فضائل علي ، وقال : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه ، وعاد من عاداه » ، أعلمه الله أنْ سيظهر له أعداء ، فأراد أن يُسمع من حضر فيبلغونهم فضائله ، فظهر بنو أمية يبغضونه حتى سبوه على المنابر ، فبَلَّغُوهم ما ذُكِرَ من فضائله . ثم قدم المدينة سادس وعشرين صفر ، وابتدأ به مرضه ذلك اليوم ، وتوفي ثاني عشر ربيع الأول سنة ١١ من الهجرة . ومدة مرضه ١٧ يوماً ، ومدة عمره ٦٣ سنة ، ومدة مرضه هي التي كان سيدنا يود أن يلتقي رجلاً مُتَبَحِّراً في العلم الظاهر ليسأله عن كيفية صلاة رسول الله ﷺ فيها ، أي هل صلاها مع أحد أو منفرداً ، على أنه ما ثبت عنه أنه صلى صلاة واحدة منفرداً .

ومن الخواص فيها أن الحج في غير الجمعة يغفر لأحد مخصوصين ، ويغفر لغيرهم بواسطتهم ، وفي حجة الجمعة يغفر لكل إنسان بذاته هـ .

قال رضي الله عنه : « اغتنم الساعة التي تصفو لك ، فإنها قلَّ ما تحصل كل حين ، ولا يحصل الصفاء كل حين » .

وذكر أحوال من تقدم ، *فقال* : « كم راح ممن قد راح ، وكم خلَّف المتقدم للخالف ، والسلف للخلف ؟ ولكن كأنَّ الله لم يُرِدْ أن ينفع أهل كل زمان إلا بأهل زمانهم » .

قال رضي الله عنه : « أموال أهل البادية كلها بيت مال ، لأنهم لا يَدينون بأمور الإسلام ، وإن أقروا بها ، لا صلاة ولا زكاة ، ولو سُئِلتُ عن مثل هؤلاء لم أجزم بأنهم مسلمون أو كافرون ، وهذا هو محل التوقف وقول لا أدري ، لأنهم لا يُقِرُّون بالشهادة تعبداً ، وإنما يقولونها بغير قصد عندما يتظلمون أو يتعجبون ، ولا يفعلون أركان الإسلام ، فبهذا يكاد يُحكَم بكفرهم ، ولكنهم يُقِرُّون بها ، ويعتقدون من يفعلونها ، فبهذا يُرجى أن يكونوا مسلمين . فظاهر أحوالهم تمنع أن يقال بإسلامهم ، وباطنهم يمنع أن يقال بكفرهم ، ففي مثل هذا التوقُّفُ أسلم ، لأن معهم شبهة إسلام ، فلهذا حَسُنَ التوقف فيهم ، ولو قد خرج المهدي لكان أول من يجاهد هؤلاء وأمثالهم » ، أو كما قال هـ .

أقُولُ : قوله : « لا يَدينون بأمور الإسلام » ، أي لا يفعلونها تعبداً ، كما قال في الشهادة من وصفهم، هذا الذي ذكر هو وصف بادية جهتهم ، لا يعرفون الصلاة إلا بالسماع ، وقليلٌ من يصلي ، ولا تُعرَف الصلاة فيهم ، وفي بَوادٍ غيرهم شيء من وصفهم ، وإن لم يكن كله .

وكثير من الجهات غيرها كسقطرى ، لا تعرف فيهم الصلاة ، حتى إن رجلاً منهم سألني في

المركب ، لما رآني أتوضأ كل يوم لصلاة الصبح ، قال : « إذا رقد الرجل بالليل وأصبح ، يتنجس وجهه ويداه ورجلاه ؟ » ، قلت : لا ، قال : « فما لك كل يوم تغسل وجهك ويديك ورجليك ؟ » ، قلت: أتوضأ لصلاة الصبح ، أفما سمعتَ بالصلاة والوضوء ؟ ، قال : « سمعتُ بالصلاة ، وما سمعتُ بالوضوء » ، فهذا الجهل إلى هذا الحد ، هو مراد سيدنا بقوله : « يكاد يُحكم بكفرهم » ، وكذلك مثلهم في جهات الهند ، يَدَّعون أنهم مسلمون ، فإذا قلتَ لأحدهم : أنتَ مسلم ؟ ، قال : « نعم ، الحمد لله ». فإذا قلتَ له : هل تصلي ؟ ، قال : « عادة نهي » ، يعني ما هي عادة لنا نصلي هـ .

واستوصى سيدنا رجل فقال له : « اِزْهَدْ في الدنيا ، لا تحبها جم » ، فقيل : « إنهم يحبونها كثيراً » .

فقال : « ما طلبنا منه أن يزهد كزهد الأولين ، إنما نطلب أن يخفف من حبها ويقرِّب ، وكان الأولون كالشيصة الواحدة في الخِيل وكلُّه تمر ، والناس اليوم ألا كالربع ، ما يلقى فيه إلا إن كان فيه صالح إلا واحدة أو ماثِنْ » هـ .

و « الخِيل » في لغتهم : العذق ، و « الربع » : الشيص .

ثم ذكر حكاية : « عن بعض السلف أنه سُئِلَ ، وقيل له : من نعامل من الناس ومن نترك معاملته ؟ فقال للسائل : عامِلْ مَن شئتَ . ثم بعد مدة قال له : من أعامل ؟ قال : عامِلْهم كلهم إلا فلاناً وفلاناً. وسأله بعد مدة أخرى كذلك ، فقال : لا تعامل إلا فلاناً وفلاناً » ، ثم قال : « وكانوا في الزمن الأول ثمراً بلا شوك ، ثم ثمراً وفيه شوك ، ثم شوكاً بلا ثمر » .

ثم ذكر ظواهر أحوال الناس ، فقال : « ما مع الإنسان إلا الظواهر ، والبواطن إلى الله ، وربما لو ظهر من البواطن شيءٌ كَدَّرَ الظواهر ، ولا تَقُلْ في أحدٍ أنه صالحٌ أو طالحٌ ، فما أنتَ جالسٌ في جنبه تَعْلَم أحواله ، ومن أخطأ (الله أعلم)[1] أصيبت مَقَاتِلُه . ثم إنك لو اطَّلَعتَ على باطنه ينبغي الستر ، ولا ينبغي أن تقول في الناس إلا خيراً » . وذكر آية : « قال الله تعالى : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴿٥٤﴾﴾، فاذكر الثمرة ولا تتعرض للعمل ، ولا يأخذ الله إلا بحجة ، ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾، ومن قال : يأخذ بلا حجة فقد أخطأ ، ولا يأخذ إلا بذنب وإن كان له ذلك ، ولا يعامل الإنسان إلا ربه » هـ .

---

(١) أي من أخطأ كلمة : الله أعلم .

أقول : أي يجتهد أن يكون عمله كله في ما يرضي ربه ، من فِعْلِ ما أَمَرَ به ، وتَرْكِ ما نهى عنه ، وأن لا يفقدَهُ حيث أمَرَهُ ، ولا يراه حيث نهاه ، وأن يكون هذا دأبه وهَجِيراه .

وقوله : « **عن بعض السلف ، أنه سئل : من نعامل .. إلخ** » ، يعني كان الناس كلهم صالحين لكون زمانهم صالح ، لقرب عهدهم بالنبوة ، فكلٌّ من تعامله في معاملة الدنيا التي يتبين فيها تقوى الإنسان وفجوره ، فهو على قانون النصح والتقوى واتباع الحق والإنصاف ، فلما بعدوا من ذلك العهد اختل القليل ، فحذَّره من ذلك القليل وخَيَّرَهُ في من أراد من غيرهم ، فلما بعدوا جداً اختل الأكثر ، وبقي الأقل ، عكس القضية الأولى ، فنصحه وأمره أن لا يعامل إلا ذلك الأقل ، ويأخذ حذره من غيرهم ، ثم بعدوا أكثر ، فنزلوا أكثر ممن قبلهم ، ففسد الكل ، حتى لا تأمن أحداً تعامله ، من خيانة وقلة ديانة وأمانة وقلة نصح .

ويبين ذلك قوله : « **كان الناس في الزمن الأول ثمراً بلا شوك ، ثم ثمراً فيه شوك ، ثم شوكاً بلا ثمر** » ، وهذا مثالٌ لكيفية نزول الناس ونقصانهم في أديانهم ومرواتهم ، ومعاملاتهم لدينهم ودنياهم، كما وعد الله به ، وبَلَّغَتْهُ عنه رسله ، وصدق الله وصدق المرسلون .

وكما رأيت بعينك الصدق في هذا ، فتحقق بقلبك الصدق في كل أمر أخبر الله ورسوله به ، فطمئن به قلبك بعدما آمنت به ، واذكر سؤال سيدنا إبراهيم ربه : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِۦمُ رَبِّ أَرِنِى كَيْفَ تُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِى﴾، والإيمان بالقلب وطمأنينة الإيمان النظر بما تشاهده العين الحسية بالبصر الظاهر .

وقوله : « **فاذكر الثمرة ولا تتعرض للعمل** » ، فالمراد بالثمرة أي نسبة الأمور كلها ما دَقَّ منها وما جَلَّ ، وما صَغُرَ منها وما كَبُر ، إلى المشيئة الإلهية الأزلية ، لا يَشِذُّ عنها قط شيء . وإذا رأيت شيئاً من تصرفاتها بعينك الحسية ، اطمأنَّ إيمانك بذاك ، والطمأنينة فوق الإيمان ، واليقين يشمل الكل ، فإن الأعمال من العباد ، وجزاؤها تابعٌ للمشيئة ، وبحسبها يكونان لا ينفك ذلك عنها ولا يخالفها في شيء، فاذكر ذلك وتعلق به بقلبك ، واعتمد عليه بقلبك ، ولا تعتمد على الأعمال ، وأَجْرِ الأحكام على ظاهرك ولا تعلق قلبك بها ، فإنها تابعة للمشيئة ، هي وجزاؤها ، خيراً كان أو شراً ، وهو معنى نهيه عن التعرض للأحوال والأعمال ، وكل أمورهم من مليح أو قبيح ، وَتَكِلهم إلى ربهم .

واحتج بهذه الآية : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ﴾، وأسند أعمالهم وأحوالهم ومجازاتهم كلها إلى المشيئة، باستدلاله بالآية : قوله تعالى : ﴿رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِكُمْ إِن يَشَأْ يَرْحَمْكُمْ أَوْ إِن يَشَأْ يُعَذِّبْكُمْ﴾، وجعله هو الثمرة المقصودة من عبودية الإنسان ، الذي هو الإنقياد والتسليم والإنطراح تحت أحكام القضاء والقدر،

وإنما غيرها كالحطب من الشجرة ، واحتج لذلك بتمام الآية ، وهو قوله : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾ وإن نُسِخَ ظاهرها بآية القتال ، فالمنسوخ منها حين نزولها وَضْعَ الحرب والقتال لأمرٍ اقتضته المشيئة الإلهية حينئذ ، ثم أمر به بقوله تعالى : ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ فَٱقۡتُلُواْ ٱلۡمُشۡرِكِينَ حَيۡثُ وَجَدتُّمُوهُمۡ وَخُذُوهُمۡ وَٱحۡصُرُوهُمۡ وَٱقۡعُدُواْ لَهُمۡ كُلَّ مَرۡصَدٖ﴾، وتسمى آية السيف ، ونَسَخَتْ مائة وخمسين آية من آيات ترك القتال كآية : ﴿فَذَكِّرۡ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٞ ﴿٢١﴾﴾ . وأما المعنى المذكور المقصود منها وهو الإنقياد ، فهو باقٍ على حكمه ، مُحكَمٌ لا يُنسَخ ، لأنه العمدة ، والمقصود من العبودية باتباع الأحكام الشرعية ، من الإنقياد الكلي من العبد لربه ، والتسليم لمواقع القضاء ، والرضا بما حكم وقضى ، كما ورد من قول رسول الله ﷺ : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير » .

وهذه الآية الشريفة ، مثالها كمثل نَوْعَي القضاء والقدر : النوع الأول : المُبرَم منه ، المحتوم الذي لا يُنسَخ ولا يُبدَّل ولا يتغير ، ولا بد من وقوعه ، وهو ما دلت عليه من نسبة كل شيء مما كان وما هو كائن إلى يوم القيامة إلى الإرادة الأزلية والمشيئة الإلهية ، من انقياد العبد لذلك ، والرضا والتسليم منه لربه في كل ما حكم به وأراده ، فيه وفي غيره ، كرهه الطبع أو أحبه . والنوع الثاني : المُعَلَّق ، ويدخله المحو والإثبات والنسخ والتبديل ، كنسخ الخمسين صلاة ، وهو المعلق بالخمس وهي المحتومة . ومثال معلقها ما دلت عليه من قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ عَلَيۡهِمۡ وَكِيلٗا﴾من الصفح والعفو ، ثم نُسِخَ ذلك بآية السيف المتقدم ذكرها ، وهي : ﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلۡأَشۡهُرُ ٱلۡحُرُمُ﴾ .. إلى آخرها هـ .

وقريء على سيدنا شيء من نَظْمِ السُّودي ، مما فيه غزل وذِكْر العود والطار ، فأعجبه ذلك النظم جم ، فقال : « أدْرَكْنَا ناساً على هذا وكنا نفعله ، ولا تركناه لأجل الناس ، إنما هو لأنا ما رأينا من يحسنه. وقد أردنا أن نُرَبِّي عليه أحداً يتعلمه كما ينبغي ، لكن ما أحد قَبِلَ التعليم ، وكان رجل من آل العمودي من بضَة - اسم بلد - يسَمِّع للشيخ محمد بن علوي ، وكان غالب وقته في السماع ، وأمره بالجلوس عنده حال مرضه الذي مات فيه ، فهو جالس وأتى أهله إليه يشوفونه ، فأراد أن يقوم ، فأومأ إليه أن اجْلِس ، وكلما رأوه عنده ما أمكنهم المجيء ، وكلما هَمَّ بالقيام أمره بالجلوس ، حتى مات وهو عنده ، فذكر أن آخر ما تكلم به أن قال : يا سيدي يا رسول الله . ومكث عند قبره سنة ، ما يميل عنه إلا للصلاة أو لحاجة . ولما حججنا قرأ علينا في حِكَم أبي مدين ، ثم أصبح يوماً وحلقه مشحّم ، فقال: أخاف ألَّا السيد محمد ما أراد أن أقرأ عليكم . قلنا : لا ، نحن والسيد محمد شيء واحد . وكنتُ عَزَمْتُ أن لا ألبس الشاية ، لأنها من لباس المترفهين ، فيوماً كنت في المواجهة في زيارة الرسول ﷺ ، فجاءني هذا العمودي بشايةٍ فوضعها على ظهري ، وألبسنيها من غير ما أدري ، فلما كان ذلك في المواجهة

اتخذتُ ذلك رخصة ، ثم لبستها بعد ذلك ، وسَمَّعَ لنا فأعجبنا تسميعه . وأرسل إلينا السيد علي بن عمر يقول : إن معي لكم وصية من غيري ، ما هي مني ، إنما أنا رسول : إن فلاناً يقول : ما يحسن منكم التسميع ، لكون الناس يقتدون بكم . فقلنا له : قل له : هذا أمر لا بد فيه من الحجب .. » ، وسقط عليَّ هنا بعد هذا بعض الكلام .

قال : « وإنما يحسن مع صفاء الوقت وانشراح الصدر ومساعدة الإخوان ، وقد عُدِمَ ذلك اليوم ، وإن حرَّمه جماعة فقد أباحه آخرون ، لم يطلع أولئك على دليلهم . فيكفي في تحليله أن الإمام البكري أبا الحسن ، وابنه محمد بن أبي الحسن كان يحبه كثيراً ، وأمر بالعود يُضرَب عنده في مرضه حتى مات ، وهو يقول : اعشق يا قلبي » ، أو كما قال هـ .

أقول : قوله : « قد أدرَكْنَا ناساً على هذا » ، أي يستعملون السماع ، كما ذكر عن شيخه محمد بن علوي وأبي الحسن البكري وابنه محمد بن أبي الحسن ، وكذلك ذكر عن شيخه أحمد بن ناصر صاحب الشحر ، قال : « مكانُهُ مع المسمعين » ، أي دائماً معهم ، لما ذاقوا فيه من المعاني اللطيفة الطريفة ، والإشارات الشريفة ، كما ستأتي الإشارة إليها قريباً .

وكان الفقيه عبدالله بن عبدالرحمن بلحاج بافضل ، مصنف مختصر بافضل المشهور في علم الفقه ، وكان من تلامذة العيدروس ، وكان في مدة مرضه الذي مات فيه ، والسماع يُضْرَب عند رأسه ، وأمر المسمع أن لا يفتر عن ذلك ، حتى مات والسماع عند رأسه ، وغير هؤلاء كثير من العارفين ممن جمع الله له بين علمي الظاهر والباطن ، وما اتخذه هؤلاء الأكابر عند خروجهم من الدنيا ، حتى خرجوا منها وهو يُعمل عندهم إلا لأمر عظيم رأوه لا يُفشَى سره ولا يُذَاع أمره . وقد قدمنا أن أصل السماع كيفية أصوات أذكار الملائكة على طبقاتهم ، واختلاف أصواتهم ، كُشف سماعه لجماعة من الأكابر ، فذاقوا به وتلذذوا بسماعه ، ثم إن ذلك الكشف لا يدوم ، بل حُجِبَ عنهم ، ثم إنهم لما ذاقوا من لذته ما صبروا عنه ، حتى صنفوا هذه الأصوات محاكية لها ، إذا سمعوها ذاقوا بها ، وتذكروا تلك الأصوات الشريفة، وازدادوا لذة بذكر الله ، وحسن معاملته ، وحقيقة أمر ذلك متحقق في قلوبهم ، وقلوبهم مشربة به .

ومن العجيب أني يوماً صليت الصبح في مسجد آل جوهر ، ثم استندت إلى الجدار الشرقي في الخلوة ، وأنا أفكر في هذا المعنى ، كيف سمع الصالحون أصوات الملائكة على مثل صوت السماع ؟ وإذا أنا أرى في السماء فرجة تقابلني ، وحولها جماعة ملائكة على صفة بني آدم ، جالسين على الفرجة متحلِّقين عليها ، فَجَعَلْتُ أتسمع لقولهم لأنظر كيف هو ، وإذا واحد منهم يقول : « يكفيكم ما تسمعون من صوت الرعد » ، يعني إنه تسبيحٌ بنص القرآن ، وهو صوت كصوت السماع ، وهو الطار المعروف .

قال في « المشرع الروي » : « وكان الشيخ أحمد بن حجر ينكر السماع ، ومضى إلى السيد عبدالله بن محمد بلفقيه باعلوي المعروف بمولى الشبيكة ، قاصداً أن ينكر عليه في تعاطيه السماع ، فلما رآه السيد عبدالله مقبلاً ، أَمَرَ بالسماع أن يُضرَب ، فَضُرب وهو حاضر ، فأخذه ما يأخذ أهل السماع من الوَجْد ، فجعل يُصَفِّق ويرقص حتى سقطت عمامته ، فقيل له في ذلك ، فقال : رأيت جميع الموجودات تصفق فَصَفَّقْتُ معها . ثم صَنَّفَ بعد هذه الواقعة ، كتابه المسمى بـ : كف الرعاع عن محرمات السماع » انتهى.

وكان الشيخ عبدالله العيدروس يقول : « إن هذا السماع يهتدي به واحد ، ويضل به ألف » ، وكان من سجية سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به استحسان كل ما عليه السلف من السادة آل باعلوي على أي وجه كان من عبادة أو عادة ، ولو كره ذلك في الطبع ، كما قدمنا ذكر ذلك في غير موضع ، كالتكابير والسمايات وغير ذلك ، ويقرر كلما صح عنهم ويمدحه ويلوم من يذمه ، ويتبعهم في ما استُحسِن شرعاً ، وأيضاً في ما لم يذمه الشرع ، وأما ما ورد طلبه في الشرع فيحافظ عليه ولا يسمح بتركه ، ويقدم الأصح فالأصح منه ، والأصح على ما لم يصح ، أو ما هو دونه في الصحة .

فيقدم مثلاً الأذكار الثلاثة الواردة ٣٣ بعد الصلوات ، وهي التسبيح والتحميد والتكبير ، ويفردها ويقدمها على غيرها في كل صلاة ، لأنها أصح من غيرها ، ثم بعدها التهليلات العشر بعد الثلاث الصلوات العصر والمغرب والصبح ، وهي : لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . ويقدمها أيضاً بعد صلاة الجمعة على المسبعات المطلوبة بعدها ، التي هي الفاتحة وسورة الإخلاص والمعوذتين سبعاً سبعاً .

وقس على ذلك في كل ما ورد ، وبعده ما جاء عن السلف من العبادة ، أو ما احتاج إلى العمل به من العادة ، وما لم يتعين له الحاجة إليه لا يُعَرِّج عليه .

وأما في ترتيبه في النوافل ، *فقال* : « **أصلي الضحى ثمانياً ، فإن صَلَّيتُ بعد الطلوع وقت الإشراق أربعاً ، أَتْبَعْتُها إذا ارتفع الضحى أربعاً ، وإن لم أَصَلِّ بعد الطلوع أربعاً صَلَّيتُ بعد ارتفاع الضحى ثمانياً** » ، ويصلي قبل الظهر أربعاً بسلام ، كما ذكره حديث الترمذي ، وذكرها الغزالي في البداية . وكان سيدنا فيما سمعته غير مرة يقرأ في كل ركعة منها مقرأ من سورة يس ، ومراراً سمعته يقرأ مع المقرأ آية الكرسي ، يقدمها بعد الفاتحة ، ثم المقرأ بعدها ، وربما اختصر فَقَرَأَ بعد الفاتحة آية الكرسي ، وقل هو الله أحد ، إما ثلاثاً أو ما شاء ، وذلك على السعة . ويصلي بعد الظهر ركعتين بسورتي الإخلاص أو ما تيسر ، وقبل العصر أربعاً بما تيسر بسلامين ، وإذا سلم من الأولتين أسمعُه يقول : « **السلام على ملائكة الله والمقربين ، وعلى أنبياء الله والمرسلين ، وعلينا وعلى عباد الله الصالحين** » ، ثم يحرم بالركعتين الأخيرتين .

ولما سمعته يقول ذلك أردت أن أسأله عنه ، فمر علينا في الدرس في قراءة من يقرأ في سنن أبي داود، حديثٌ أسنده إلى علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال : « كان رسول الله ﷺ يصلي أربع ركعات قبل صلاة العصر ، يفصل بينها بالتسليم على الملائكة والمقربين ، وعلى الأنبياء والمرسلين ، وعلى الصالحين والمؤمنين » ، أو كما هو لفظ الحديث . وهذا من سيدنا يدل على سعة علمه وتبحره في العلم ، وعلى قوة متابعته لرسول الله ﷺ ، حتى في ما دق وجل ، وشرط الكُمَّل من العارفين أن يكونوا كذلك .

وقال سيدنا في الركعتين قبل المغرب : « **لا نأمر بها ، ولا ننهى عنهما** » ، وبعدها أربعاً بسلام ، وقراءته فيها مشهورة بين أصحابه ، وهي في الأولى : ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾.. إلى آخر السورة، وفي الثانية : أول الصافات ، إلى « لازب » ، وفي الثالثة : أول حم المؤمن[1] ، إلى : المصير ، وآية الكرسي، وفي الرابعة : ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾.. إلى آخر السورة ، ولا تتقيد قراءتها . وكان السادة الأولون يطيلون القراءة فيها ، وكان الشيخ عبدالله العيدروس يأمر بأن يُقرأ فيها جزءان، في كل ركعة بنصف جزء ، وإنما قيد سيدنا قراءتها بما ذكر تخفيفاً على الناس في هذا الزمان ، الذي لا يحتمل أهله التطويل في العبادة ، ومن رغب في ذلك فليقرأ بقدر رغبته .

ولا يمل نفسه من عبادة الله ، فإنَّ فِعلها مع الملل والكسل أخس من تركها ، كما ذم الله الكسالى في العبادة ، فقال سبحانه : ﴿وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَىٰ﴾، وقبل العشاء ركعتان ، تسمى صلاة الرضا ، ينوي في إحرامه بها رضا الله سبحانه ، ويقرأ فيهما بعد الفاتحة آية الكرسي وسورة الإخلاص ثلاثاً ، ثم ركعتين سنة العشاء القبلية ، رتَّب سيدنا قراءتها ، في الأولى سورة قريش ، والثانية سورة الكوثر ، وبعد صلاة العشاء ركعتان سنة العشاء البعدية ، يستحسن سيدنا وكذلك السادة قبله أن يقرأ فيهما بـ ألـم السجدة في الأولى ، وتبارك الملك في الثانية . ورويت لبعض المتقدمين عن بعض الصحابة هذه القراءة فيها فعمل عليه ، وقال : « لم أترك ذلك منذ سَمِعْتُه عن فلان » ، أظنه ابن مسعود . وبعد صلاة العشاء أربعاً بسلام ، وقراءتها التي هو مرتبها فيها له ولأصحابه معلومة بينهم ، يقرأونها فيها: وهي في الأولى سورة الزلزلة ، والثانية سورة ألهاكم التكاثر ، والثالثة آية البقرة التي فيها عشر آيات من : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، إلى : ﴿يَعْقِلُونَ﴾ ، وفي الرابعة ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ .. إلى آخر السورة .

ويصلي بعدها الشفع والوتر بسلامين ، وقراءتها مشروعة معلومة عند طوائف المسلمين ، ويقدمهما من أول الليل بعد تلك الأربع ، وذكر في « النصائح » أنه ورد أن هذه الأربع مثلها كمثلها من ليلة

---

(١) سورة غافر .

القدر . وأما ترتيبه في صلاة الليل ، وما معها من العبادة الظاهرة والباطنة ، فذلك بينه وبين ربه لا يحضره أحد ، ولا يطلع عليه مخلوق ، ويستحسن أن يوزع القرآن من يحفظه من أوله إلى آخره في صلاة الليل ، وهي ثمان ركعات يختمها بالشفع ثم الوتر بقراءتها المعلومة ، وكلما ختمه أعاده . وسمعته يقول : « **ما عادة السلف قراءة القرآن إلا في صلاة الليل** » ، يعني غالباً .

فإذا دخل وقت الفجر صلى السنة في الغيلة أو السطح ، ثم نزل إلى الضيقة ينتظر الخادم يُؤذِنُه للصلاة ، يخبره أن الجماعة فرغوا من صلاة السنة وما بعدها من الدعاء والذكر ، فيدخل المصلى للصلاة فتقام ، فيصلي بهم ، وذلك قبل مرضه عام ١١٣٠ ، وبعده يدخل فيصلي مع الجماعة إن أمكنه قائماً أو قاعداً ، أو الركعة الأولى قائماً ، وما بعدها قاعداً ، والإمام أحد الأولاد .

ولا رأيتُ أحداً أعرف منه بأوقات الصلوات – سيما وقت الصبح – وقد يشتبه على غيره ، ويشق معرفته على البصراء ، خصوصاً مع قوة السحاب وشدة ضوء القمر ، فيعرفه من أول الوقت ، ولا يعرفه المبصرون بالعيون إلا بعدما يضحون ، ولقد خرج يوماً علينا والأمر كذلك ، ونحن معشر الجماعة الحاضرون متحيرون في وقت الفجر ، وقد صلى السنة قبل ذلك بساعة ، فقال : « **اركعوا فإنه وقت** » ، فركعنا السُّنة ، فما سَلَّمْنا إلا والوقت متضح .

وبعد الصلوات الثلاث التي بعدها التهليلات العشر ، يمكث مستقبل القبلة ، مستدبر الجماعة بعد السلام بقدر ما يقول : أستغفر الله ، أستغفر الله ، أستغفر الله ثلاثاً ، ثم ينفتل ويستقبل الجماعة بعد الإستغفار الثلاث وما بعده ، إلى أن يأتي بالأذكار الثلاثة ، ثم يهلل العشر التهليلات وهو ثان رجليه في موضعه ، ويقول كل ذلك بذلك ، ولا يشترط أن يبقى مستدبراً للجماعة ، إذ لا حق له في استدبارهم بعد السلام ، ولا ينبغي أن يفعل ذلك ، وينكر على من يفعله من المتنطعين . وكان عادته عندما يسمع المؤذن مبتدئاً في الأذان قال : « **اللهم افتح أقفال قلوبنا بذكرك ، وأتم نعمتك علينا من فضلك ، واجعلنا من عبادك الصالحين** » ، ثم يجيبه على ما ورد ، ويأتي بالوارد بعده .

وفي الإقامة يقول كما يقول ، وفي لفظ الإقامة يقول : « **أقامها الله وأدامها وجَعَلَنا من صالحي أهلها، اللهم آتني أفضل ما تؤتي عبادك الصالحين ، اللهم إني أسألك العفو والرضا عني والإقبال علي** ﴿رَبِّ ٱجْعَلْنِي مُقِيمَ ٱلصَّلَوٰةِ وَمِن ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَآءِ ۝ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لِي وَلِوَٰلِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ ٱلْحِسَابُ ۝﴾، **اللهم إني أعوذ بك من وسوسة الصدر وشتات الأمر وعذاب القبر** » ، ثم يقرأ : قل أعوذ برب الناس .. إلى آخرها . ثم عند الإحرام يرفع يديه حتى يحاذي بإبهاميه شَحْمَتَي أذنيه ، ثم يكبر تكبيرة الإحرام ، وسيأتي في الخاتمة آخر الكتاب ما يقرأه بعد الفاتحة في الصلوات من السور والآيات .

وتكلم في غزل الشعر ، *فقال* : « **أكثر ما يتغزل الصالحون في قصائدهم التي يمتدحون بها النبي ﷺ ، إنما كان تغزلهم في روحه** » .

وذكر السماع يوماً ، *فقال* : « **قرائن الأحوال تحسِّنُ الأمور وتقبِّحُها ، فقد يكون السماع مباحاً ، ولكن إذا حصلت القرائن التي تُلحِقُه بالتحريم أو الشبهات ، كان كذلك** » هـ .

أقول : وتقدم قريباً أن أصل السماع المذكور عن الأكابر ، أن الله تعالى كشف لجملة من الأكابر عن كيفية أصوات الملائكة في أذكارهم ، وأسمعهم أصواتهم في مواطنهم الرفيعة ، فسمعوا صوت بعضهم على مثل صوت الطبلة ، وبعضهم على مثل صوت الطار ، وبعضهم على صوت ضرب الحديدتين ، بعضهما على بعض وغير ذلك ، فحصل لهم بسماعه لذة ، فتعلقت به قلوبهم وصار لهم إليه اشتياق كثير ، وله في قلوبهم أثر كبير ، حتى صاروا لا يصبرون عنه ، ويجدون في سماعه زيادةً في أحوالهم ، ثم إن الكشف لا يدوم بل حُجِبَ عنهم بعد ذلك فما صبروا عنه ، فاتخذوا هذه الأصوات محاكية لتلك الأصوات الشريفة وتشبهها ، فإذا سمعوا هذه تذكروا تلك ، وذاقوا بسماعها كما ذاقوا بسماع تلك ، ويزيدون أيضاً كذلك في أحوالهم ، فلذلك صاروا لا يصبرون عنه ، حتى رغبوا فيه وبسماعه عند الموت عند خروجهم من الدنيا ليموتوا وهم يسمعونه .

والدليل على ذلك ما جاء في الخبر الصحيح المروي في الصحيحين في بُدُوِّ الوحي ، لما سُئِلَ النبي ﷺ : « كيف يأتيك الوحي ؟ » ، فقال : « يأتيني أحياناً مثل صلصلة الجرس ، فيُفْصَم عني وقد وعيت ما قاله » ، وصلصلة الجرس إنما هو صوت من الأصوات ، يشبه أو قريب من صوت الحديدتين ، ومع هذا هو كلام الله ووحيه الذي أنزله على نبيه الأمين على وحيه وتنزيله .

وكذلك بنص القرآن أن صوت الرعد تسبيح ، والرعد هو اسم للملك الذي يسوق السحاب ، كما تقدم في الرؤيا التي ذكرتها كأني جالس في جماعة متحلقين ، وإذا تُقابِلنا في السماء فرجة حولها جماعة على صورنا ، وهم ملائكة متحلقين على الفرجة ، فجعلت أصيخ لهم وأتسمع لكلامهم ، وأعرف الفرق بين أصواتهم وأصواتنا ، وإذا واحد منهم يقول : يكفيكم ما تسمعون من صوت الرعد . يعني إنكم لا تسمعون من أصواتهم شيئاً سوى صوت الرعد ، فهو آية ذلك ، فاستدلوا به على أصواتهم وهو تسبيح بنص القرآن ، فاعرفوا به كيفية تلك الأصوات الشريفة المختلفة في كيفية أذكارهم العالية المنيفة . وكان الشيخ القطب السيد عبدالله بن أبي بكر العيدروس باعلوي نفع الله به ممن أسمعه الله كيفية أصوات أذكار الملائكة على اختلافها ، فكان إذا غلب عليه الحال عند السماع ، وكان يتعاطاه كثيراً ، فيقبض الطار ويضربه ضربات مختلفة ، فيضرب ضربة ويقول : « **هذه ضربة حملة العرش** » يريد كيفية صوت ذكرهم ، ويضرب ضربة غير الأولى ويقول : « **هذه ضربة أهل البيت المعمور** » ،

يعني كيفية صوت ذكر الملائكة الذين هم فيه ، على ما رأى لما كُشِفَ له ذلك ، لأنه ورد في الصحيح أنه يدخله كل يوم سبعون ألف من الملائكة ، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة .

وجاء في خبر أنه يدخله جبريل كل يوم ، ويغتسل من ماء فيه ، ثم ينفض جناحه فيطير منه سبعون ألف قطرة ، فيخلق الله من كل قطرة مَلَكاً ، فيطوفون به ثم يخرجون منه ولا يعودون إليه إلى يوم القيامة ، وهكذا كل يوم جبريل يفعل ذلك .

ويضرب الشيخ عبدالله ضربة أخرى ويقول : « هذه ضربة أهل سدرة المنتهى » ، وكذلك أخرى ويقول : « هذه ضربة أهل السماء السابعة » ، وهكذا يضرب ضربات مختلفات لأهل كُلٍّ من السبع السماوات ، ومراده بكل ذلك كيفية أصوات أذكارهم .

وكان عادة سيدنا عبدالله الحداد استعمال السماع في نادر من الأوقات ، كما تقدم تفصيل ذلك من قوله ، وتقدم كيفية مجلس سماع حضرته ، وهو دعاني لحضوره ، وما دعاني لحضور مجلس سماع غيره، وكان هذا آخر مجلس له للسماع ، وما جلس بعده مجلس سماع حتى انتقل إلى رحمة الله ، وتقدم كيفية هذا المجلس وتفصيله ، وما تكلم به فيه قال حينئذ : « **ليس من عادتنا أن نُحضِر أحداً للسماع** » هـ .

قال : « **الإسلام مراتب ، والإيمان مراتب ، والإحسان مراتب . قال النبي ﷺ لرجل : ما أنت ؟ قال : مؤمن . فقال عليه السلام : أو مسلم** » .

وذكر بعض السادة ممن كان له به اتصال من صحبة ومزاورة ، ثم انقطع بسبب ناس يترددون إليه يسعون إليه بكلام يوجب الوحشة بينهما ، *فقال رضي الله عنه* : « **فتنوه هؤلاء الصغار ، ولكن الله حفظه وافتتنوا هم في أنفسهم ، وبقيت الفتنة تَدُبُّ فيهم** » .

ويعني بالصغار : أناساً من المتصلين به ، يعني صغار عقول .

وسأله جماعة أن يدعو لهم بغيث بلادهم ، فدعا *ثم قال* : « **ادعوا أنتم بعضكم لبعض ، فيدعو كل إنسان لصاحبه ، لأن العباد من لم يستجب الله دعاءه لنفسه يستجيب له في غيره ، وإن كان ذلك الغير عاصياً ، واستشهد بما أوحى الله إلى موسى عليه السلام : أُدْعُني بلسانٍ لم تعصني به . وَفُسِّر بأن يسأل أخاه أن يدعوَ له** » .

وسألته رضي الله عنه الدعاء ، مع خروجه لصلاة العصر لما جلس في الضيقة ، وذلك يوم الأربعاء من شهر رمضان سنة ١١٢٨ ، فقلت : تفضلوا تَحَيَّنُوا ساعة إجابة في هذا الشهر الشريف ، وادعوا لي فيها بصلاح القلب ، ولا يصلح حتى تعزف النفس عن الدنيا . فسكت ساعة وهو يتبسم ويصلي على

النبي ﷺ ، وكان هذه عادته إذا كُلِّمَ بكلام ولم يُرِدْ أن يَرُدَّ له جواباً ، *ثم قال* : « **كلُّ صاحب فَضْلٍ لا يرى الفضل من نفسه ، بل يراه من غيره ، حتى إنه يعتقد في نفسه أنه على غير شيء ، أما رأيتَ اليافعي كيف يذم نفسه ويرى أنه مُخَلِّط ؟** » .

- وقد مر في قراءة العصر في إرشاد اليافعي، كما هو مرتب قراءته عليَّ فيه في شهر رمضان ، أبيات له يقول فيها في حق نفسه : فقيرٌ ضعيفٌ يافعِيٌّ مُخَلِّطٌ .. إلخ -

« **ولكنك اشكر الله على ما عندك ، وتضرع إليه أن يزيدك ، لأنه تعالى وقف المزيد على الشكر ، ولم يستثن في ذلك . ونحن ما عادتنا إذا دعونا أن نخصص ، بل إنما ندعو لأصحابنا بالعموم ، إلا إن كان أحد منهم في عمل خير فندعو له ، واختيار الله لعبده خير ، ألا ترى الإمام أحمد لما سأل اللهَ أن يفتح له باباً من الخوف ؟ ثم إنه طلب أن يرجع إلى حاله** » .

وسألته عشية الإثنين ٦ منه ، بعد دخوله من القراءة ، وقلت : بالله عليكم ادعوا الله لي أن يصلح الله لي قلبي ، فسكت قليلاً ، *ثم قال* : « **أصلح الله قلبك وقلوبنا** » ، فأحسست بموقعها في قلبي لما تلفظ بها تلك الساعة .

وقد *قال* : « **من يسره الله للدعاء مع الإلحاح في الوقت القابل له ، فلا شك أنه يريد أن يستجيب له، وقد يدخر له ما هو أحسن - أو قال : خير -** » .

وكذلك سألت سيدي الدعاء ليلة ٢٧ شهر رمضان سنة ١١٢٢ ، عندما بقي نحو ربع الليل ، رأيته نزل إلى المصلى ، ودخل الجابية فتوضأ ، ثم صلى ما تيسر ، فوقفت أنتظره حتى فرغ ودخل الضيقة يريد الدخول إلى داخل الدار - أي البيت - فدخلت الضيقة خلفه ، وقلت : ادعوا لي بتوبة نصوح ، *فقال* : « **تاب الله علينا وعليك توبة نصوحاً ، لا تَزَل كذلك ومتعرضاً لما هنالك** » .

وقلت له أيضاً ليلة الإثنين ٢١ شهر رمضان من سنة ١١٢٣ ، عندما بقي نحو ثلث الليل ، وقد نزل وفعل كالأول ، فَتَحَيَّنْتُ له وتعرضت ، وقلت : ادعوا لي ، الله يحفظكم ، وخصوني بدعوة صالحة في هذه الليالي بقية شهر رمضان ، *فقال* : « **إن شاء الله** » .

ثم سار قليلاً ثم بعدما فتح الشجب الذي يصعد إلى الغيلة ، ودخل وَرَدَّهُ *ثم قال* : « **الله يتولاك ويجعلك من عباده الصالحين** » ، فأَمَّنْتُ على دعائه ورجوتُ استجابته وقبوله ، وحاشاه من الرد .

وفي ليلة ٢٧ من شهر رمضان المذكور ، جرى في خاطري أشياء تمنَّيتُها لنفسي ، وسألتُها من الله سبحانه وطَمِعتُ فيها ، وتوهَّمتُ أن تلك الليلة ليلة القدر ، فرأى بعض الفضلاء من السادة الجامعين

بين العلم والعمل والعبادة ، رؤيا تخصني فيها ذكر الأشياء المذكورة ، وتدل على حصولها واستجابة الرب الكريم لعبده الفقير ، الله يحققها بفضله وكرمه .

والرائي بعض مشايخي الذين كنتُ أقرأ عليهم في الفقه بأمر سيدنا لي بالقراءة عليه ، وهو السيد الفاضل المتبحر في العلوم من كل فن : عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه باعلوي ، من ذرية مولى الشبيكة المتقدم ذِكْره في قصة الشيخ أحمد بن حجر ، وصفة الرؤيا كما حكى لي قال : « رأيتُك في جبل النعير كأنك مختلي فيه تتعبد ، وفي يدك كتاب تطالع فيه ، وتقول : هذا كتاب فتح الجواد ، وقد فتح الله علي بثلاث فتوحات » ، وفي الرؤيا كلام كثير تَرَكْتُ ذِكره .

وجبل النعير هذا ، مشهور مأثور مذكور في كتب مناقب أوائل السادة بني علوي ، ذَكَرَهُ في « الجوهر الشفاف » و « الغُرر » و « الترياق » وغيرها من كتب مناقبهم ، وهو موضع متعبداتهم ، حتى إنه مكتوب في كل موضع مخصوص بأحدٍ منهم اسمه أنه كان يتعبد فيه ، كالفقيه المقدم وابنه علوي والسقاف والمحضار والعيدروس وأخيه الشيخ علي ، ولكل واحد منهم فيه موضع مخصوص منسوب إليه ، فيه اسمه مكتوب في حجارة الجبل ، هذا موضع فلان ، وهذا موضع فلان ، يعني الذي كان يتعبد فيه .

وذُكِرَ أن الفقيه المقدم لحقه ليلة ابنٌ له وهو خارج في آخر الليل إلى هذا الجبل ، وعالجه على الرجوع عنه فامتنع ، فلما وصل إلى قرب الجبل صرخ في أذن الولد فغشي عليه ، وبقي ملقىً إلى أن قضى غرضه من العبادة ، ورجع ومَرَّ على الولد ، فناداه وقام ودخل معه البلد .

وذُكِرَ أنَّ الشيخ أبابكر بن عبدالله العيدروس - صاحب عدن - وابن عمه وهو ابن خالته أيضاً الشيخ عبدالرحمن بن علي ، كانا كل ليلة آخر الليل يصعدان هذا الجبل - جبل النعير - يتعبدان ، كلٌّ منهما يتهجد بعشرة أجزاء من القرآن ، ثم ينزلان فيدخلان البلد ، ويوافيان صلاة الفجر مع الجماعة في مسجد القوم مسجد آل باعلوي ، ولا يعلم بهما أحد من الناس ، وما يحسب الناس إلا أنهما كل يوماً يجيئان من البيت إلى المسجد ، وكانا حينئذ سن كل واحد منهما اثني عشر سنة .

فلله دَرُّهما ما أزكاهما وأطيبهما أصلاً وفرعاً وعلماً وعملاً ، وَوِرْدُ كل واحد منهما كل يوم سبعون ألف تهليلة . فهكذا كان السادة آل باعلوي يُرَبُّونَ أولادهم من حين تمييزهم ونشوهم على العبادة ، وهذا مع موافقة القضاء والقدر ، نفعنا الله بهم . ويحق لمن رآهم أو سمع عنهم مثل ذلك أن يَجُرَّ نفسه ويقودها إلى العمل بمثل عملهم ، ليكون ذلك شاهداً له في دعوى محبتهم ، فإن من أحب قوماً كان معهم ، ولا تثبت دعوى المحبة إلا بالتشبه بهم في أعمالهم وأخلاقهم ، ويرجو مع ذلك إن قد قضى الله له باللحوق بهم ، وعلامة ذلك العمل كذلك .

فانظر الفرق البعيد اليوم في الحال من الحال ، وما فرق بينهما إلا عدم موافقة القضاء والقدر ، إذ لا يستوي العموم والخصوص ، لا في الأعمال ولا في الأحوال في الحال والمآل هـ .

قال *رضي الله عنه* : « **العجز يضيّع على الإنسان أشياء ، كلما أراد أن يفعل الأمر ثَقُلَ عليه ، فأخَّرَهُ حتى يضيع ، وتمر عليه الأيام ولا يدري ، يمر الشهر كأنه يوم ، ويضيع عليه حقه في غير سبيل** » .

قال : « **التسمية عند الطعام مهم جدًّا ، حتى إنه إذا نَسِيَها أوله ، يأت بها أثناه إن ذَكَر ، على الكيفية التي ذكروها** - أن يقول : بسم الله في أوله وآخره - **فإن تَمَّ من الطعام ولم يأت بها ، قرأ قل هو الله أحد**» .

قال : « **من علم العلم ولم يعمل به فهو متخذ آيات الله هزواً ، ولا يتم إلا بالعلم وتعليمه والعمل به ، وعموم العلم بأن يزيد فيه على ما يحتاج يعمل به منه ، كأن كان فقيراً لا تجب عليه معرفة الزكاة** » .

أي يتعلم ذلك وإن لم يلزمه عمله ، وغير ذلك مما لا يلزمه ، ويكون عالماً به ، ومثله من لم يكن مستطيعاً ولا يلزمه الحج ، فيكون عالماً بأحكامه وإن لم يلزمه ، فهذا معنى قوله : « **وعموم العلم .. إلخ** » .

قال : « **لا يَهِمُّ أحدٌ في هذا الزمان على طاعة إلا ولا يخلو من هوى وحظ ، ولكن الحظ القليل لا يضر بما أريد به وجه الله تعالى** » .

ومرَّ مراراً وتكرر نَقْلنا له لتكرره في المجالس قوله : « **مرادنا عام حججنا أن نجتمع برجلين ، أحدهما متبحر في العلوم الظاهرة ، والآخر متبحر في علوم الحقائق ، فنسألهما عن أشياء اختلجت في الصدر ، ولم نجد من يجيبنا عنها ، وكلٌّ من وُصِفَ لنا ممن هو معروف بعلم الحديث وسألناه ، قال : نحن نستمد منكم ، ونطلب الإفادة من لدنكم . فلم نر من يشفي الغليل ، وكلما رأينا أحداً ممن يُنسب إلى العلوم الظاهرة وسألناه ، قال : أنا مستمد . وطلب القراءة علينا ، فتركناه قرأ على نيته . ومَن رأينا ممن يُنسب إلى العلوم الباطنة وسألناه عن شيء ؛ انخفض وقال : أنا أريد أن تعطوني الطريق وتُلبِسوني الخرقة . حتى إن رجلاً من أهل الخطوة اجتمعنا به في موقف عرفة ، وطلبنا منه الإجتماع في خلوة ، فقال: إن طلعتم الليلة إلى مكة حصل ذلك ، وإلا الوعد في المدينة . فلم يتفق لنا الطلوع إلى مكة تلك الليلة - وهي ليلة العيد - لاشتغالنا بالمناسك ، وأصبح هو سائراً بالخطوة إلى المدينة ، فلم نتفق به إلا في المدينة ، فاستضافنا وطلب منا الإلباس ، فألبسناه ، وإذا له بيت وحاشية ، وكنا ظنناه متجرداً** » هـ .

أقول : وهذا هو عبدالخالق ، الذي تقدم أنه حين دخل عليه ، وحضر مجلسه ناس كثير ، قال : « **فحينئذ سألني إنسان : ما مذهبك ؟ فأردتُ أن أقول : مذهبي الكتاب والسُّنة . فخفتُ من إنكار – أو قال : اعتراض – أحد من الحاضرين ، فقلتُ : مذهبي شافعي . فقال لي عبدالخالق : لأي شيء ما تذكر ما في نفسك ؟ أنت مذهبك الكتاب والسنة ، وتقول مذهبي شافعي ؟** » .

وفَسَّرَ الرَّجُلَيْن في بعض المواطن عندما ذكر هذا الكلام ، فقال : « **أن نجتمع برجلين ، وهما مقامان لا شخصان** » ، وتقدم أنه من مسائله الباطنة ثلاث ، وإنه سأل عنها كثيراً من أهل الباطن ، وأنهم كانوا كثيراً متوافرين إذ ذاك في قرى حضرموت ، في تريم وعينات وقَسَم والواسطة في حَذْرَى ، وفي عَلْوَى سيئون ومدودة وتَرِيس والغُرفة وشبام ودوعن وغيرها ، وأنه تَعَنَّى لهم إلى بلدانهم وسألهم عن تلك المسائل ، فلم يشفوا له غليلاً ، حتى رأى الحَكَم باقشير ، وهو من أهل القرن السابع ، فسأله عنها ، قال: « **فأجابني عن ثنتين جواباً شافياً ، وقال لي : أما الثالثة فلا يجيبك عنها إلا السقاف . فخطر لي حال الرؤيا أن المراد بالسقاف مَن هو المُسَلِّك اليوم من آل السقاف ، فسألتُ عن مَن هو منهم اليوم ، فقيل لي : السيد محمد بن علوي السقاف بمكة . فكتبتُ إليه أسأله عن المسألة وأطلب منه الإلباس ، فكتب إلينا أولاً يعتذر ، ثم أرسل لنا ذلك آخراً ، وكان وصول كتابه إلينا وإلباسه لنا إلى حضرموت يوم وفاته بمكة** » ، وتقدم ما بين كتاب اعتذاره وكتاب إسعافه له بذلك من الكلام ، بما أخبرنا به وفَصَّله لنا السيد أحمد بن هاشم الحبشي ، وكان عند السيد محمد حين وصله كتاب سيدنا عبدالله ، وهو الذي قرأه عليه، وهو الذي كتب كتابَيْه الذي اعتذر فيه والذي أجابه ، قال : « **اعْتَذَر أولاً وهو بمكة ، أننا لا** يمكننا ذلك إلا بأمرٍ من النبي ﷺ ، ثم لما وصل حامل كتاب الإعتذار إلى جدة ، اهتمَّ إلى زيارة النبي ﷺ ، فسار وسرنا معه ، فلما كان في المواجهة حال الزيارة ، أصابه حالٌ عظيم ، وغاب عن إحساسه ورمى بثيابه كلها ، ومابقي عليه إلا سروال ، وجعل العرق ينصب من بدنه إلى الأرض ، حتى جرى في الأرض كذلك ساعة ، ثم سُرِّيَ عنه ولبس ثيابه ، ثم قال لي : هات دواةً وقرطاساً نكتب للسيد عبدالله جواباً غير الأول . فأمرني فكتبتُ ، ثم أرسل له الخرقة » ، وهو قبع كقبع السادة المعروف ، ووصله في اليوم الذي توفي فيه السيد محمد .

أقول : وهو على صورة القبع الذي أرسله أبو مَدْيَن للفقيه المقدم ، وعلى صورة هذا الذي يُلبسه سيدنا من أراد إلباسه ، فيضعه على رأسه نفسه أولاً ، ثم يضعه على رأس الذي يُلبِسه ، وقد يُلبِس قميصاً أو كوفية أو أي ملبوس كان .

ومن جملة ما أراد أن يسأل عنه متبحراً في علم الحديث ، كيفية صلاة رسول الله ﷺ في أيام مرضه، وهي سبعة عشر يوماً ، هل صلى معه أحد أو وحده ، وقد سمعته يقول : « **ما ثَبَتَ أن رسول الله ﷺ**

صلى فرضاً وحده ولا صلاة واحدة » .

واستأذنه بعض الفقراء في صوم عشر ذي الحجة ، وذلك سنة ١١٢٤ ، فقال له : « صُمْها لا تخلّها ، واغتنم ما أمكنك من هذه النفس السوء ، إذا أمكنك منها فرصة في شيء من أمور الخير فانتَهِزْها ، وخذ منها لها ، لأنك إنما تخبي لها لأنها محتاجة بخلاف القلب ، فإنه مستغن بمعرفة الله وذِكْرِه ، كالملائكة ، فإن غذاهم ذلك ، ومن طبع النفس الخداع والغرور والخُلف بالوعد ، فإنها توعد بالخير ولا توفي بما وَعَدَتْ » ، وقال له : « طَالِعْ في كتاب مقال الناصحين لباجمال ، فإنه مليح » .

فقال : « إني أطالع في تفسير البغوي » ، فقال : « البغوي والإحياء والبخاري وهذه الكتب الكبار، كالمدن الكبار والأمصار ، إذا دخلها الإنسان يحير فيها ، فيحتاج إلى من يُعَرِّفه . وأما الكتب الصغار فهي كالقرى الصغار ، ينبغي أن يدخلها بعض الأحيان ويأخذ ما يستحسنه من هذه ومن هذه » .

وذكر جماعة من الأولياء ، وشيئاً من أحوال الأولياء ، فقال : « إن أمر الله عظيم ، وربما أُعْطِيَ الإنسان شيئاً على جهة الخصوص فيظنه عاماً ، والواحد من الصالحين مأمون على ما يقول » .

وذكر الصالحين ، فقال : « الصالحين ، وأين مقام الصالحين عند الله ؟ ولِعِظَم منزلتهم عند الله أوجب على كل مؤمن ومؤمنة السلام عليهم في كل يوم وليلة خمس مرات في التشهد ، في الصلوات الخمس في قوله : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

وأنشد منشد بين يديه فقال ما معناه : « ما زال الإنسان مرتبطاً بأمر جسمه فهو عليه حُجُب كثيرة، وإذا خرج منها بالرياضة والمجاهدة ما عاد الأمر له فيه اختيار ، وربما سمع من دوران الفَلَك من اللذة ما يستغرقه ، وهذا لمن ليس على طريق الإستقامة ، أو عليها ولم يَكْمُل في الرياضة والمجاهدة ، هذا من دوران الفَلَك ، فكيف إن حصل شيء من الأمور الإلهية ، وربما يحصل للمستقيم من جانب آخر . وانظر كيف لما أراد الله أن يبلغ النبي ﷺ غاية الكمال ، رَقَّاه في معرفة الموجودات حتى بلغ أعلاها، فَكَلَّمَهُ من قاب قوسين أو أدنى ، وتَنَزَّلَ لموسى عليه السلام حتى أسمعه الكلام من الشجرة في الأرض، فانظر الفرق بين الأمرين الإلهيين ، لا إلى النَّبِيَّيْن ، وإن كان كلٌّ منهما في مرتبة عالية » ، أو كما قال .

ومرة ذكر هذا الكلام ، وفي آخره قال : « وليس خطاب الكليم كخطاب الحبيب » ، وقد تقدم نحو هذا الكلام ولفظه بزيادة لفظ ومعنى ، يختلف باختلاف لفظه به في المجالس وتكرره فيها ، ويأتي مثله أيضاً .

قال رضي الله عنه : « من يقرأ القرآن لا يمكنه أن يقول بالجهة ، فيفرِّق بين معراج النبي ﷺ ، وتكليم الله سبحانه له في قاب قوسين أو أدنى ، وتكليم الله تعالى لموسى عليه السلام من الشجرة في الأرض ، لأن الأمور الإلهية لا يدركها أحد ، وما أَوْهَمَ إشكالاً من كلام المحققين فلا ينبغي أن يسارع إلى الإنكار عليهم ، بل يدعهم ، ويسعهم الكتاب والسُّنة ، ويجعلها من قبيل المتشابهات الواردات في الكتاب والسنة ، ولِمَ جاءت هكذا حتى احتاج الناس فيها إما إلى التسليم وإما إلى التأويل » .

قال رضي الله عنه : « لا تتعد في ما تَسْمَعُه من الغزل نفسك ، بل تنزِّله على روحك أو الكعبة ، لأنه لا خطر فيه ، ولا تتجاوزه إلى النبوة ، فضلاً عن الملائكة ، فضلاً عن الأمور الإلهية ، فإن حد ما ينتهي إليه علم الملائكة سدرة المنتهى ، فيجدون أمر الله عندها ولا يتجاوزونها ، وقد ورد : إن على جوانب العرش مائتي شمس وقمر ، ينطمس في كل واحد منها نور الشمس والقمر ، لا يستطيع أكابر الملائكة كجبريل أن ينظر إليه . وهذه صورة العرش ، فما ظنك بغير ذلك ؟ وهذه الملائكة ، فكيف بالآدمي مع ضعفه ؟ وقد قالت سيدتنا عائشة رضي الله عنها للنبي ﷺ : كيف رأيت ربك ليلة المعراج يا رسول الله ؟ فقال ﷺ : نور ، أنى أراه » هـ .

قوله : « لأن الأمور الإلهية لا يدركها أحد » ، يحقق ذلك قول الإمام جعفر الصادق ، أحد كبار أئمة أهل بيت النبوة : « ما خطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك » ، فإذا كان الأمر كذلك ، فما بال أقوام جهلة يدَّعون العلم ، ودعواهم كذب وعلمهم جهل ، لا يصفون الحق إلا بما أدركَتْهُ عقولهم ، وما لم تدركه لا يصدقون به وينفرون منه ، وستأتي الإشارة إلى هؤلاء الجهلة قريباً هـ .

قال : « التغزل في الله ورسوله لا يجوز ، ومَن فَعَلَ ذلك يكاد يكفر . وإنما هو في الروح والنفس ، فما كان من ذكر المَطْل والخُلْف والجفاء ونحو هذا ، فهو تغزُّلٌ في النفس ، لأنها موضع القساوة ، وما كان من ذكر الوصل وذكر اللطافة والأنس ونحو ذلك فهو في الروح - أي تغزُّلٌ فيه - وما ذُكِرَ في البيت من التغزل فلا بأس به » ، يعني بيتاً من القصيدة التي أنشد بها المنشد المشار إليه فيه غزل .

وذَكَرْتُ له أني رأيت في بلدنا الأحساء ، في كتاب « الغُنْيَة » للشيخ عبدالقادر الجيلاني نفع الله به ، ما يشبه كلام المجسمة ، **فقال :** « اطلب ذلك الكتاب ، وأَسْمِعْنا ما رأيت » .

فطلبته من عند السيد الفاضل عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه المتقدم ذِكْره ، وأسمَعْتُه ذلك فلما سمعه أقرَّه ، **وقال :** « لا بأس به ، وفي كلامه من السعة أكثر مما يسعه ظاهر الآيات والأخبار ، فليُحمَل أقل ما في الحال على ما يحتمله ظاهر الآيات والأخبار ، لأنه الظاهر ، وإنما صُرِفَ عنه بالتأويل ، واللغة

واسعة فلا حرج ، وشأن الأمور الإلهية وذكرها في العلو أعظم شأناً منه في السُّفْل . فأين ما يوصف به السماء السابعة وما حولها ، وبأن سكانها الملائكة على طبقاتهم ، مما يوصف به الأرض السافلة وأن سكانها الجن ، وإحاطة علمه تعالى بكل شيء لا يفيدهم - أي من ينكر كلام الشيخ - شيئاً . وأين الأمور الإلهية من قياس العقول ؟ فإذا أردتَ تعرف ذلك فانظر الفرق بين سماع النبي ﷺ كلام الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات ، وبين سماع موسى عليه السلام لذلك من الشجرة في الأرض » .

ومرة قال : « من قرأ القرآن لم يمكنه أن يقول بالتجسيم ، فينظر الفرق بين تكليمه تعالى للنبي ﷺ فوق أعلى سبع سماوات ، وبين تكليمه لموسى عليه السلام من الشجرة ، فانظر أي فرق بينهما » هـ .

أقول : أي بين السامعَين ، وإن كان المسموع واحداً ، ففي هذا دليلٌ على تفاوت المرتبتَيْن عند الله تعالى ، وفيه أيضاً شاهدٌ على ما تقدم من قوله : « وشأن الأمور الإلهية وذكرها في العلو أعظم شأناً منه في السفل » ، فيه دليلٌ على أن تكليم الله سبحانه لنبينا محمد ﷺ في قاب قوسين أو أدنى ، أعظم شأناً منه في تكليمه سبحانه لموسى عليه السلام في الأرض .

وقلت لسيدنا : إن الأشاعرة في تلك الجهات يقولون إن مثل هذا الكلام مدسوس على الشيخ ، فقال : « هذا إن صح عنه » .

يعني قوله المذكور في كلام الشيخ عبدالقادر إن صح هذا الكلام عنه ، ولم يكن مدسوساً عليه ، قال : « وإلا فقد دُسَّ على الشعراوي في كتبه ، وذلك غير بعيد » هـ .

أقول : رأيت شيئاً من المدسوس على الشعراوي في كتبه ، وإذا هو أمر مهول ، وليس بقليلٍ ما يفعله الحُسَّاد الأعداء قاتلهم الله ، وذلك أنه دس عليه حيث قال في بعض كتبه : « يستحب أن لا يستقبل الشمس ولا القمر ولا يستدبرهما في بول أو غائط » ، فَدَسَّ الحاسد العدو ، وقال : « لأن الخليل عليه السلام كان يعبدهما » . فانظر أين ذهب هذا الخبيث ، ووقف الشعراوي على كلامه هذا فاستغاث بالله على الذي دَسَّهُ عليه ، وربما أنه عرفه ، وتكلم في الطبقات عليهم ، وبرئ إلى الله مما قالوا عليه ونسبوه إليه .

ورأيت في كتاب « نشر المحاسن » لليافعي رحمه الله أنه قال : « قد اشتُهِرَ عن بعض الأكابر ، وهو الشيخ عبدالقادر ، أنه كان يعتقد الجهة ، لكن قد أخبر الشيخ العارف الشيخ نجم الدين الأصبهاني رضي الله عنه أن الشيخ العارف بالله عبدالقادر رضي الله عنه رجع آخراً عما كان يعتقد أولاً » .

ذكر ذلك لما بلغه أن الإمام تقي الدين ابن دقيق العيد ، تعجب من سيدنا الشيخ عبدالقادر في

اعتقاده الجهة ، مخالفاً للجمهور .

قال اليافعي : « قلت : ومثل نجم الدين إذا أخبر فعلى الخبير سقط المخبَر ، إذ هو من أهل الإطلاع ظاهراً وباطناً ، لكونه من أهل النور والكشف المشهور ، وكون العراق له وطناً ، وعقد النبي ﷺ له لواء الولاية أحد عشر عَلَماً ، أخبرني بالرجوع عن الإعتقاد المذكور ، وبعقد الأعلام المذكورة غير واحد من أصحاب الشيخ نجم الدين ، ممن لا أشك والله في صدقهم » ، انتهى كلام اليافعي بحروفه .

ثم ذكر اليافعي لسيدنا الشيخ عبدالقادر كلاماً طويلاً حسناً في العقيدة الحق ، مستدلاً به على حسن عقيدته ، وينفي عنه ما نُسِبَ إليه من ذلك الإعتقاد ، وذكر له في العقيدة كلاماً حسناً كثيراً ، يشهد له بالبراءة من ذلك الإعتقاد ، وذكر أنه بريء مما خالف ذلك ، وربما أن الكلام الذي استشكلناه في « الغُنية » مما كان أولاً ، أو مزيداً عليه فيه ، أو مدسوساً كما قال سيدنا ، والله أعلم .

وأكثر من هو متظاهر اليوم بذلك الإعتقاد - أعني اعتقاد الجهة والحرف والصوت ، من كون الكلام القديم حروفاً وأصواتاً - جماعة مستكثرة من الحنابلة ، من أهل نجد خاصة ، سيما أهل العارض ، وهم المتعصبون في ذلك جداً ، وهذا مبلغ ما تدركه عقولهم ، أن لا يكون كلام ولو قديماً إلا بحروف وأصوات ، فوصفوا كلام الله بذلك ، فما وصفوه إلا بأوصافهم .

ولو عقلوا العلم كما هو ؛ لعرفوا أن الصفات الإلهية لا تدركها العقول البشرية ، وما حظُّها من ذلك سوى الإيمان والتسليم ، واعتقاد ما تكلم به الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه : « ما خطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك » ، وقول سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه : « العجز عن دَرَكِ الإدراكِ إدراك » ، يعني إذا اعتقدْتَ أنك وجميع المخلوقات عاجزون عن إدراك حقيقة صفات الله ، فقد أدركت العقيدة الحق التي طُلِبْتَ بها شرعاً .

وأما غير هولاء من الحنابلة فهم أهون منهم ، وهؤلاء المخالفون في العقيدة من أهل تلك الجهة هم الذين أشار إليهم في الحديث الصحيح ، بقوله ﷺ : « الكِبْرُ والخُيَلاء في أهل المشرق ، حيث يطلع قرن الشيطان في ربيعة ومضر » ، ووصفهم بالكِبْر والتعصب بالباطل .

وظهر فيهم في هذا الوقت رجلٌ ضالٌّ زادهم في ذلك غُلُوًّا وعُتُوًّا ، يزعم أنه مجدد الوقت ، وأنه اختص بعلوم اطلع عليها ما لم يطلع عليها مَن قبله ، وليس بمقلِّد مذهباً من المذاهب الأربعة ، واتَّبَعَه أكثرهم ، واعتقاده إبطال خصوصية الله في خلقه ، لا يرى لأحد مزية على أحد . ومن شأنه أن يُكَفِّر هذه الأمة ، سيما الصالحين والأولياء ، يسمِّيهم طواغيت ، ومن اعتقد ولياً وأحبه حكم بكفره وأباح دمه وأهله وماله لمن تبعه ، ومن قال لمخلوق : يا سيدي ؛ كَفَّرَه ، حتى إنه أحرق كتاب دلائل الخيرات،

لما فيها من قول اللهم صل على سيدنا محمد .

ونُقِلَ لنا عنه : أنه عقد على امرأة تحت زوجٍ ، على رجل من أصحابه ، فما صَدَّقْنا أن رجلاً يدَّعي الإسلام يفعل ذلك ، حتى وصل إلينا زوجها التي كانت تحته ، وأخبر أن الأمر وقع منه على زوجته كذلك .

وكنتُ يوماً قبل ظهوره أقرأ في مجمع ، فيهم ناس من أهل تلك العقيدة من أهل نجد ، في كتاب « قواعد العقائد » من إحياء علوم الدين ، ومنهم رجل من طلبة العلم ، فأتيتُ على قوله : « وأن كلام الله تعالى ليس بحرف ولا صوت » ، فالتفتَ إليَّ وقال : « هذا الكلام مخالفٌ للكتاب والسُّنة ، بل هو حرف وصوت ، لقوله ﷺ : من قرأ القرآن ، فله بكل حرف عشر حسنات ، لا أقول ألـم حرف ، بل ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف . فثبت بهذا أنه بحروف وأصوات ، وفي الحديث الصحيح أنه تعالى يكلم الخلق في موقف القيامة بكلام يسمعه من بَعُدَ ، كما يسمعه من قَرُبَ . وهذا يدل على أنه صوت » .

وذكر أن فلاناً من أئمة المالكية قال هذه الأبيات ، وذكرها وما حفظتها ، وفيها : لَحَى اللهُ أَقْوَاماً فَرَّقُوا بِاخْتِلافِهِمْ ، وَضَرَبُوا دِينَ الله بَعْضَهُ بَعْضَا ، يَقُولُونَ كَلامَ الله لَيْسِ بِحَرْفٍ ، وَلَا صَوْتٍ بَلْ بِصَوْتٍ وَحَرْفٍ ، فَمَنْ شَاءَ فَلْيَغْضَبْ ، وَمَنْ شَاءَ فَلْيَرْضَ ، أو كما قال .

فقلت له : هذا كلام الإمام الغزالي ، وهو أعلم بالحديث منك وممن اعتمدتَ عليه ، وكلامه هو الحق ، وما خالفه هو الباطل ، فما بعد الحق إلا الضلال ، وليس من يحتج بقوله من علمائك بأعرف منه بدين الله وبأحكام الله . ثم تركتُه ، وما عُدتُ أقرأ شيئاً بحضرة هؤلاء ، لأنهم لا ينقادون للحق ، ولا يرون الحق إلا ما هم عليه ، ولو خالف الدين القويم ، وما يحصل من مذاكراتهم إلا الجدال والشقاق والإثم . ثم إني أقول في تقرير القول ، وفي تقريب اللفظ في ذلك :

إن الناس فيه فرقتان : إحداهما : من يقول بذلك القول من الجهة والحرف والصوت ، وأكثرهم من الحنابلة ، ومعهم فيه قليلٌ من الشوافع ، وقليلٌ من الموالك ، سمعوا الأحاديث المذكورة ، وما يومئ إلى معناها ، فأخذوا بظواهرها وحكموا بأنه صوت وحرف ، وأنه لا يمكن كلام مطلقاً قديم أو حادث إلا بهما ، سواء كان قديماً أو حادثاً ، لكن قالوا : الحرف والصوت ، حادثان في الحادث ، قديمان في القديم . وأطلقوا هذا القول مطلقاً ، وممن اشتُهر بذلك من الشافعية : صاحب البيان من أهل اليمن ومن تبعه ، ومن المالكية : الذي ذكره لي ذلك المجادل المشار إليه ، ومن هو على ذلك منهم .

والصواب : تقييده في القديم على ما سنبينه ، إن لهذا موطناً يخصه لا يتعداه إلى غيره .

والفرقة الأخرى : الأشاعرة ، ومن تبعهم من جميع المذاهب ، ومثلهم الماتريدية الحنفية ، وهذه الفرقة هي الأكثر من هذه الأمة ، وهم السواد الأعظم ، قالوا : الحروف والأصوات حادثة مطلقاً ، فلا تدخل في الكلام القديم قط ، بل كلام الله ليس بحرف ولا صوت ، وهو مُنَزَّهٌ عنهما وعن كل حادث، كسائر صفاته سبحانه ، فصفاته تعالى منزهة عن دخول الحوادث فيها ، وعروضها لها ، وهذا أيضاً له موطن يخصه لا يتعداه . وكلٌّ من الفرقتين تخطيء الأخرى وتعترض عليها ، بل تكفِّرها ولا تحب أن تموت على قول الآخر .

وهنا قول ثالث جمع بين القولين : وهو الحق الذي لا يعترض عليه أحد من الفرقتين ، وكلٌّ منهما يعترف بأنه الحق الذي يجب اتباعه ، وهو الجمع بين القولين بتقرير دلائلهما ، لأنه هو قول الله وقول رسوله ، وذلك هو الحق المتَّبع ، وخلافه هو الباطل . وأما معانيهما التي أخذوها من تلك الدلائل من الحرف والصوت ، ومعاني الأشعرية التي أخذوها من دلائل أخرى ، استدلوا بها على عدمهما ، فكل واحد من القولين له محل وموطن يخصه كما سيأتي بيانه .

والذي أجمعوا عليه أن كلام الله صفة قديمة أزلية قائمة بذاته كسائر صفاته ، ولا يدرك صفاته الخلق ، ولا يشبه كلامُه كلامَ الخلق ، وقد نَزَّهَ سبحانه ذاته وصفاته عن مشابهة الخلق ، بقوله سبحانه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ ، وذلك ردٌّ على المشبِّهَة ، ﴿وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ ﴾، وهو رد على المعطِّلَة .

يعني إن التنزيه لا ينافي الصفات ، فأثبت الصفتين رداً عليهم ، وبَيَّنَ بذلك أن إثبات الصفات لا ينافي التنزيه ، وأن التنزيه لا ينافي إثبات الصفات ، وبَيَّنَ أن ليس ذاتٌ كذاته ، ولا صفاتٌ كصفاته ، ولكن أراد الله سبحانه أن يُبَلِّغَ كلامه القديم الذي لا يدركه الخلق إلى خلقه ، على وَجْهٍ يريده ويفهمونه، وهو على كل شيء قدير . فإذا أراد أن يُبَلِّغَ كلامه إلى خلقه على أي وجهٍ أراد سبحانه وتعالى ؛ فَعَل، فبَلَّغَه إليهم على وجهٍ يفهمونه ، على لسان رجلٍ يعرفونه ولا ينكرونه ، ومجربينه بالصدق حيث لم يقفوا له على كذبة واحدة قط ، وذلك لإقامة شرائعه وتبيين أحكامه ، وتوجيه خطابه إلى خلقه بأوامره ونواهيه ، ليقوموا له بالحقوق اللازمة على العبودية لحق الربوبية ، بحسب أحوالهم ومبلغ طاقاتهم، على وجه يرضاه منهم بمقتضى ما كلفهم به . ويُسَمَّى هذا التَّنَزُّل ، وهو خطاب الأعلى للأدنى ، كما قال سيدنا : « **وتَنَزَّلَ لموسى فأسمعه كلامه من الشجرة** » . وتسهيله لهم حتى فهموه ، وطاقوا تَلَقِّيه من النبي ﷺ ومن سائر المرسلين ويُسَمَّى التيسير لقوله تعالى : ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾، ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾، ففي هذا الموطن بعد التيسير وتبليغه وإبلاغه إلى الخلق ، يجري فيه قوله ﷺ : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات ، لا أقول الم حرف ، بل ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » ، وإياه

عنى ﷺ بقوله ذلك .

وكذا تكليم الله لأهل موقف القيامة بذلك الكلام ، لأنه خطابٌ للخلق على وجهٍ يفهمونه ولا ينكرونه ، يسمعه كلٌّ منهم ، مَن بَعُدَ ومَن قَرُب .

وأمور الآخرة كلها تجري على ظاهرها من غير تأويل وتبديل حرف بحرف لبيان المعنى ، بل معناه هو ما ظهر من لفظه ، وإذا ثبت أن حروف ما نطق به العرب من لغتهم حادث ، ومع ذلك لا يجوز أن يقال حروف القرآن حادثة ، خوفاً من القول بخلق القرآن الذي امتُحِنَ الإمامُ أحمد على أن يقوله، وعُولِجَ وعُذِّبَ على أن ينطق به ، فأبى ، وحفظه الله منه ، وصبر على المحن والبلاء خوفاً أن يُتبع عليه ، لأنه إمام مُتَّبَع ، فخشيَ إن قاله ولو مُوَرِّياً - كما ورَّى غيرُه - أن يقول به سائر الأمة ، فحماه الله من ذلك ولم يَقُلْهُ ، وإلا فقد تواصى عليه ثلاثةٌ من الخلفاء ، كل ما مات واحدٌ عَهِدَ إلى القائم بعده أن يُكْرِهَهُ عليه حتى يقوله ، فضُرِبَ وعُرِّيَ من ثيابه ، ولم يبق عليه سوى سروال ، وضُرِبَ عرياناً ، ورأى الخضر يقول له : « أثْبُتْ على ما أنتَ عليه ، ولا تَقُل بخلق القرآن » ، فأيده الله ، وصبر على ما لقي منهم ولم يَقُلْهُ . ولهذه المزية منه صار هو المتولي لخطاب الحق تعالى بالسؤال والجواب في الرؤيا المتقدمة لبعض الصلحاء من أهل اليمن ، لمَّا رأى أن القيامة قامت ، وأن الحق تعالى دعا بالأربعة الأئمة للحساب .. إلى آخر الرؤيا .

وقد سُئِلَ الإمام البخاري صاحب الجامع الصحيح : « ما تقول في حروف القرآن ، هي قديمة أو حادثة ؟ » ، فقال : « حروف اللغة حادثة » . فاتُّهِمَ أنه قال : « حروف القرآن حادثة » ، وَوُشِيَ به إلى الوالي ، فأراد حبسه وسجنه ، فقال : « إني لم أقل في حروف القرآن شيئاً ، وإنما قلت : حروف اللغة حادثة » ، فخلَّى سبيله .

فَقَبْلَ تيسير الله القرآن وتبليغه إلى الخلق وإنزاله لهم على لسان رسوله ، فليس بحرف ولا صوت، ولا يجري عليه ذكرهما ، ولا يُنْسَبا إليه ولا يُنسب إليهما ، وهذا قول الأشاعرة ، وأطلقاه في الحالتين، قبل التبليغ وبعده ، ولكن بعده أيضاً لا يجوز أن يقال بهما ، لما تفهم من خوف جري ذلك القول الإعتزالي فيه ، لكن يجري قول النبي ﷺ : « من قرأ القرآن فله بكل حرف عشر حسنات .. إلخ » ، اقتداءً به عليه الصلاة والسلام في هذه المادة مع التسليم ، ولا يطرأ عليه ذلك في مادة غيرها . وكذا قول سيدنا علي فيما روي عنه قال : « من قرأ القرآن وهو في الصلاة قائماً فله بكل حرف مائة حسنة ، ومن قرأه في الصلاة قاعداً فله بكل حرف خمسون حسنة ، ومن قرأه خارج الصلاة وهو على وضوء فله بكل حرف خمس وعشرون حسنة ، ومن قرأه وهو على غير وضوء فله بكل حرف عشر حسنات» .

وقبل تيسير الله له وإبلاغه إلى الخلق لا يقدر الحادث على إدراك معرفة القديم ، فإذا كانوا يعجزون

عن إدراك الملائكة على صورهم التي خلقهم الله عليها ، مع أنهم خَلْقٌ مُحْدَثون مثلهم ، فكيف يقدرون على إدراك كلامه تعالى ؟

انظر إلى قوله تعالى : ﴿وَقَالُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ ٱلْأَمْرُ﴾، أي لهلكوا ، يدل عليه قوله تعالى : ﴿ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴾، أي لهلكوا في الحال بلا إمهال ، ولو لحظة ، لعدم طوق البشرية على رؤية صورة الملكية ، فكيف بالصفات الإلهية ؟

وقد ثبت أن النبي ﷺ ما رأى جبريل على صورته إلا مرتين : مرة في أول ما ابتدأه الوحي ، ومرة ليلة المعراج . هذا مع تمكين الله له وتثبيته لرؤية الملائكة ، قال الله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝﴾ ، ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴾، أي لأن المرسول ما يكون إلا بصفة مَن هو مُرسَلٌ إليهم وشبيهاً بهم ، ليتمكنوا منه وينتفعوا به ويتعلموا منه ويأخذوا عنه ، كما كان جبريل يأتي كثيراً إلى النبي ﷺ في صورة دِحية الكَلْبي، وأتى إلى النبي ﷺ في مَحْضَرٍ من الصحابة وجَمْعٍ كثير على صورة رجل شديد بياض الثياب شديد سواد الشعر ، وسأله عن شرائع الدين من الإسلام والإيمان والإحسان ، وهم يسمعون ليفهموا جوابه له ويدركوا ذلك ، لمعرفتهم بالسائل أنه من جنسهم ، والمسؤول مُحَقَّقٌ عندهم ، ويتمكنوا لذلك من إدراك السؤال والجواب .

ولذلك لمَّا أعلمهم بالسائل قال : « هو جبريل ، أتاكم ليُعَلِّمَكم دينكم » ، يعني : أن هذه الثلاثة التي سألني عنها وأجَبْتُه ، هي جملة دينكم الذي أرسلني الله به إليكم ، أتاني وأنتم حاضرون تسمعون لما يقول وما أقول ، فتعرفون سؤاله وجوابي له ، فتعلمون ذلك وهو دينكم ، وهو الثلاثة التي سألني عنها : الإسلام والإيمان والإحسان ، فافهموا من جوابي له عنها ، وسنذكر ما تكلم به في معانيها ، لمَّا تكلم في شرح هذا الحديث .

وقوله تعالى : ﴿قُل لَّوْ كَانَ فِي ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ۝﴾، لأن الرسول حينئذٍ من جنس المرسَل إليهم ، فلا يستنكرون منه ، فهذا ما ذكره الله في كتابه من أنه لا تقوم البشرية في مقابلة الملكية ، ولا يمكن التخاطب بينهم على أصل الخلقة ، فأولى أن لا يطيقوا إدراك كلام ربهم ، لولا أن يَسَّرَهُ لهم ، فإذا يَسَّرَه بالعربية فهو القرآن ، وإن يَسَّرَه بغيرها بلغات من أرسل إليهم ، فهو التوراة والإنجيل وغيرهما .

وفي بعض الأخبار أن جبريل عليه السلام إنما يتلقى كلام الله إذا أرسله به إلى أي نبي بالعربية، ولكن يخاطب به كل نبي بلغته ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْۖ﴾، فإذا عبر عن كلام الله بالعربية كان قرآناً ، أو بالعبرانية فتوراة ، أو بالسريانية فإنجيل

، كما إذا ذكر الله بلغات مختلفة .

وفي حديث أن رسول الله ﷺ قال : « كتاب الله حبلٌ ممدود بين الله وبين خلقه طرفه بيد الله وطرفه الآخر بيد الخلق » ، يعني : فالذي بأيديهم هو على وَجْهٍ يفهمونه ويعرفونه ، على حسب ما خاطبهم الله به وفَهْمِهِم له ، وبَيَّنَ لهم فيه من أحكامه وأمور دينه ، وهو هذا المقروء بالألسنة ، المحفوظ في القلوب ، المكتوب في المصاحف ، وهو قول عبد الله بن عمر : « ما بين دَفَّتَي المصحف كلام الله » . وهذا الموطن هو الذي ورد فيه : « من قرأ القرآن .. » الحديث المتقدم ، فهذا كلامه تعالى المُيَسَّر لكافة الخلق قراءةً وسماعاً وحفظاً وكتابةً ، المرسل إليهم ، وهو كلام الله سبحانه بالنسبة إليهم . ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾﴾ ، ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾﴾ .

فنقول : القرآن ، هو كلام الله حقيقةً ، مُيَسَّراً باللغة العربية ، كذا قاله ابن أبي جمرة ، قال : « ويحقق ذلك قوله تعالى : ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ ، فتأكيده بالمصدر دليلٌ على أن القرآن كلام الله تعالى حقيقة لا مجازاً ، لأن العرب لا تؤكد بالمصدر إلا ما هو حقيقة ، ولا تؤكد بالمصدر ما هو مجاز » .

انتهى كلام ابن أبي جمرة ، وبه تم الكلام في كلام الله ، في هذا الطرف الذي بيد الخلق .

وأما طرفه الآخر الذي بيد الله ، فلا لنا فيه كلام ، وعلمه موكول إلى الله سبحانه ، لا يعلم علمه حقيقةً إلا هو ، ويجب علينا فيه التسليم ، وعدم التعرض فيه لمعنى من المعاني ، وفي هذا الموطن لا تُذكَر الحروف والأصوات ، ولا يجري فيه : « من قرأ القرآن .. إلخ » ، لأن ذلك ترغيبٌ للخلق ، وليس لهم هناك ترغيبٌ ولا ترهيبٌ ، فهو في هذا الموطن ليس بحرف ولا صوت ، ومن قال بذلك فيه فلا حجة له ولا دليل ، وهو قول الأشاعرة ، لعدمهما فيه .

فافهم هذين الموطنين وما يختص بكل واحد منهما من وصف الكلام القديم المُنَزَّه عن مشابهة كلام الخلق ، ولا تطلق القول بإثباتٍ مطلقاً أو نفيٍ مطلقاً بل خَصِّصْ كُلًّا منهما بما اختص به في موطنه، بأن لفظ حديث : « من قرأ القرآن » ، خاصٌّ بالأول وجارٍ فيه فقط .

وهذا هو القول الثالث الجامع للقولين ، قول الأشاعرة والحنابلة ، لما احتج كل منهما به من الحجة القوية الصحيحة ، ولا بأس بضرب الأمثلة المُفْهِمَة للمعنى ، بلا تشبيه ولا تمثيل ، لأن المخلوق الحادث لا يفهم ولا يدرك إلا الحادث مثله ، فيتمثل له بالحادث ليفهم المعنى المقصود ، كما قال تعالى: ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ .

ومن العجيب أن الله سبحانه أَلْهَمَ الخلق أن يخاطبوا الحيوانات كُلًّا بكلام يخصُّه ، يفهم به ما أرادوا

منه ، من شُربٍ أو وقوفٍ أو مَسيرٍ أو إقبالٍ أو إدبارٍ ، وغير ذلك من كل حيوان ، لكل حيوانٍ كلامٌ يخصُّه في هذه الأمور غير كلام الآخر ، حتى إن النساء إذا نادَيْنَ الدجاج ، كيف يَتَهَافَتْنَ في المجيء إليهن ، فهذا كلام الناس حقيقة بالنسبة إلى تلك الحيوانات ، وهو تَنَزُّلٌ منهم لهن ، ولو خاطبوها بكلامهم المتعارف بينهم لما فهم الحيوانات ذلك منهم .

وللحيوانات بينها كلام أيضاً يخصها ، فكما تَنَزَّلَ الآدميُّ بالكلام للحيوانات للغرض المذكور ، كذلك تَنَزَّلَ اللهُ سبحانه بتبليغ كلامه القديم إلى الآدمي الحادث ، لمقصود تعريفه بأحكام الله بأوامره و نواهيه ، ليقوم بها ويؤدي ما يلزمه من حقوق الله عليه قياماً بحق الربوبية اللازم على العبودية ، وشكراً على النعمتين : نعمة الإيجاد ونعمة الإمداد . فافهم من هذا معنى يفهمك المعنى المقصود .

واعلم أن كلام الله المُيَسَّر المُرْسَل إلى الخلق هو كلام الله سبحانه وتعالى حقيقة بالنسبة إليهم، وهو طرفه الذي بأيديهم ، ولا خطاب لهم في الطرف الآخر ، ولا تفهم منه غير ذلك ، وقد قال سيدنا: « **إنما الأمثلة لإيصال المعاني إلى قلوب العامة ، إذ لولاها لما عرفوا تلك المعاني** » ، وإن من كلامه سبحانه ما لا يطَّلع عليه نبيٌّ مُرسَل ولا مَلَكٌ مُقَرَّب ، ومنه ما خاطب به آحاد الملائكة والأنبياء ، ومنه كثير خاطب به طوائف الخلق . فاعرف ما ذَكَرْنَا ، فإنما بَيَّنَّاه هذا البيان في كلا الطرفين ليتبين لك الصواب، فتعرفه وتعمل عليه وتقف عنده ، فإنا رأينا كُلًّا من الطائفتين تُخَطِّىءُ الأخرى وتكفِّرها ، ولا ترضى أن تموت على ما تقوله الأخرى وتدين به . وما فهمنا المعنى وأمثاله إلا من بركة مجالستنا لسيدنا عبدالله الحداد وسماع كلامه ، نفعنا الله ببركاته وأسراره في الدنيا والآخرة ، كما تراه هنا مما ننقله عنه هـ .

قال رضي الله عنه : « **التنزيه على قسمين : قِسْمٌ أضافَهُ الحق إلى مَن لا إيمان له من المشركين والملحدين. وقِسْمٌ نزه نفسه عنه من غير أن يقع ، فربما يَقَعُ في خاطرٍ شيءٌ ، فَنَفَى ذلك** » هـ .

أقول : أي نزه نفسه عن قول مَن لا إيمان له ، كقولهم : ﴿ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا﴾، تعالى الله عما يقولون علوًّا كبيراً . والقسم الآخر : أنه سبحانه نزه نفسه عن كل ما يخطر في البال ، لأن البال حادث ، وما خطر في الحادث فهو حادث ، كما قال الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه كما ذكرنا عنه أنه قال : « **ما خطر ببالك فهو هالك ، والله بخلاف ذلك** » .

وتكلم سيدنا على حديث جبريل المشار إليه ، الذي جمع شرائع الدين : الإسلام والإيمان والإحسان، حين مرَّ في الدرس في قراءةِ مَن كان يقرأ في الأربعين الحديث النبوية ، جَمْع الإمام النووي،

قال : « قوله : أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، أي تعتقد وتقر عن اعتقادٍ في القلب ويقينٍ بالباطن ، لا كإيمان المنافقين ، وإيمانهم باطل ، وإيمان العوام ناقص » .

يعني أنه فَسَّرَ قوله : أن تشهد ، أي تعتقد وتقر . وإيمان المنافق قولٌ باللسان وعملٌ بالأركان بلا تصديقٍ بالجنان ، ولذلك ما نفعه في الآخرة . ومع التصديق هو إيمان المؤمنين على اختلافه ، مِن كاملٍ وهو اليقين بالباطن ، على اختلافه من كاملٍ وأكمل .

قال : « والإسلام مُجَرَّدُ عَمَلٍ فقط ، والإيمان مُجَرَّدُ عِلْمٍ وتصديقٍ ، والإحسان مشتركٌ بينهما . والأول في الجوارح ، والثاني في القلب ، والثالث فيهما . والأول ظَاهر الثاني ، والثاني باطنه ، والثالث خالصهما . والإحسان هو الغاية من الإسلام والإيمان ، إذا جتمعا صارا إحساناً . وقوله : صَدَقْتَ . تُشْعِر بأن بينهما معرفة سابقة . ومَلِيًّا : صَحَّ في خبرٍ أنها ثلاثة أيام . وفي الحديث حثٌّ على طلب العلم ، وعلى تكرير المُعَلِّم على المتعلمين ليرسخ حفظهم ، وعلى تخصيص أكمل الحاضرين بالخطاب » .

انتهى ما تكلم به على هذا الحديث ، وهذا كله لفظه ومعناه هـ .

أقول : ورأيت في بعض شروح الحديث ، أن لفظة : « مَلِيًّا » ، مشتق من المَلَوان : الليل والنهار، أي مدةً . وإذا كان هذه الثلاثة هي الدين كله ، وعلوم الدين هي علومها ، وكل ما أطلق من لفظ العلم يراد به الدين مقيد بها ، كما في حديث : « اطلبوا العلم ولو في الصين » ، أي علم الدين ، المراد به علوم هذه الثلاثة ، فعلم الإسلام علم الفقه ، وعلم الإيمان العقائد ، وعلم الإحسان علم التصوف ، بأن يعلم ويعمل ويخلص العمل ، ويجمع كل ذلك لفظ الشريعة والطريقة والحقيقة .

فلفظ العلم المُعَرَّفِ بالألف إطلاقٌ ، هنا مقيد بها ، أي اطلبوا علوم هذه الثلاثة ، وجوباً في واجبها، وندباً في مندوبها ، ولو في أقصى بلد في الأرض كالصين ، كما ورد : « أن تعبد الله كأنك تراه » ، أي تُحضِرُ في قلبك كأنك بين يدي الله ، وتخاطبه في قراءتك ، وأنه مُطَّلِعٌ على ظاهرك وباطنك وخواطرك وما توسوس به ، حتى يشغلك ذلك عن الوساوس الشيطانية ، ثم إن مَنَّ الله عليك بالحضور استغرقك عن مطالب الدنيا كلها ، كما ورد : « يوشك أن يضرب الناس أكباد الإبل ، يطلبون العلم فلا يجدون أحداً أعلم من عالِمِ المدينة » . والعِلم المعرَّف في هذا الخبر هو علم الثلاثة المذكورة ، وكذا العلم المنكَّر في خبر : « عالم قريش يملأ طبقات الأرض علماً » ، أي عِلماً بهذه الثلاثة .

وقس على هذا كلَّ عِلْمٍ يُراد به للدين هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا أردتَ أن تَنْفيَ الجهة في حقه تعالى ، وتَعْلَمَ أنه غير محتاجٍ لجهة ، فأَثْبِت حُدوث العالَم ، فإذا ثَبَتَ فلا خفاء في ذلك ، فأين كان قبل وجود الموجودات ؟ وأين يكون عند قيام الساعة ؟ وعندما يقبض الأرض ويطوي السماوات بيمينه فيُعدِمَها ، فيُعْلَم غناه عن الجهة ، فأين كان قبل ذلك وبعده ؟ وقد يَغلَطُ في لفظ الشِّمال في حق الله سبحانه مَن يقول له شِمال ، وإن كان قد جاء في بعض الأحاديث ، وإنما كِلْتا يَدَيْ ربنا يمين ، اليمين الكبرى بها فضله ، واليمين الأخرى بها عدله . فلا يوصف بشمال . وكذا يقال فوق الفوق وفوق التحت ، ولا يجوز أن يقال تحت التحت ، لأنه فوق كل شيء . والأمور التي لا تدركها العقول كثيرةٌ ، منها ما هو في الوجود ، ومنها ما هو في القدرة ، لم يُبْرِزْهُ اللهُ سبحانه ، ولا يعرف الإنسان منها إلا ما يألفه ، فيقيس عليه ما يقرب منه . وأما ما لا يعرفه ولا يألفه طبعُه ؛ فلا يعرفه أصلاً ، ويرى ما عداه محالاً ، وما لم يره أو يعلمه لا يمكنه أن يتعقله ، فخَلِّ الخوض في الحق . وانظر إلى الملائكة ، إنما غذاهم الذِّكْر ، لو قيل : حَيٌّ لا يأكلُ ولا يشربُ ولا ينامُ ، يقال : ما هذه الحياة ؟ وكيف تكون ؟ ويستبعده ، وكذا الجنة يقال : طولها كذا ، و عرضها كذا ، و صفتها كذا ، فإذا استبعد يقال له : نعم ، لو كان ذلك في هذا العالَمَ الضيِّق ، وهنالك عوالم شتَّى ، منها ما هو في الوجود، ومنها ما هو في القدرة » هـ .

أَقُولُ : الشمال ، جاء في حديث موضوع .

قوله : « **الكبرى بها فضله** » ، لما كان وصف الفضل أعلى مقاماً من وصف العدل ، وصف تصرف الإرادة الإلهية بالفضل بوصف الكِبَر .

والتصرفان الفضل والعدل عبارة عن اليدين ، لأن الإعطاء والمنع في عُرْفِنا إنما هو باليد ، فتَنزَّلَ لنا في تفهيمنا للمعنى بذكر اليدين والإصبعين في حديث : « إنَّ القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن، يقلبها كيف يشاء » ، وكلُّ ذلك شؤونٌ للقدرة والإرادة ، وتصرفات للحق ، كما قال سبحانه : ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾، وفَصَّلَ تلك الشؤون في قوله تعالى : ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِي ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِي ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِي ٱلَّيْلِ وَتُخْرِجُ ٱلْحَيَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَيِّ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾.

قوله : « **ما هو في الوجود** » ، أي قد وُجِدَ ، « **وما هو في القدرة** » ، أي لم يوجد .

قوله : « **لا يعرف إلا ما يألفه ويقيس عليه** » ، أي وكِلا الأمرين لا يجوز اعتقاده في حق الله ، فلهذا نَزَّهَ الله نفسه عنهما ، وبَيَّنَ للعبد ما يلزمه اعتقاده في حق الله ، بأن يؤمن ويصدق بكل ما جاء عن الله وعن رسول الله من أوصاف الله ، وبكل حقيقة معناها إلى الله ، وينزهها عن كل ما خطر في باله من

معناها وكل ما يدركه عقله ، ويعتقد أن صفات الحق لا تدركها عقول الخلق ، وهو معنى قول سيدنا أبي بكر المتقدم : « العجز عن دَرَكِ الإدراك إدراك » ، وقول سيدنا جعفر المذكور ، وكل ذلك هو معنى قوله تعالى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ .

وكذلك إن الآدمي لا يدرك عقله أن حَيًّا يمكنه لا يأكل ولا يشرب ولا ينام ، كما أشار إليه من وصف أحوال الملائكة المخلوقة ، فكيف يدرك صفات الخالق ، والملائكة من عالَم الغيب . ولا يدرك الآدمي ما في علم الغيب ، إنما يدرك ما في عالَم الشهادة فقط ، حتى الجنة لمَّا كانت من عالَم الغيب لا يدرك الآدمي معاني أوصافها ، ويستبعد ما يسمع من الوارد : « إن من أهل الجنة من يُعْطَى مثل الدنيا عشر مرات » ، فإن هذا في مقدورات الله كنقطة من بحر ، ومن هذه المقدورات شيء قد أوجده الله ، وشيء منها في الإمكان ، والآن بَعْد ما كان ، والدنيا تضيق عما في القدرة ، والتعبير في هذه الأمور وأمثالها بحالِهِ واسعٌ جدًّا ، بحسب ما تسعه اللغة العربية ، وتحتمله من تسمية الشيء باسمه واسم محله واسم سببه واسم شبيهه واسم قرينه واسم مجاوره ، ومن الحقيقة والمجاز والمبالغة وغير ذلك .

انتهى ما تداعى بنا من الكلام هنا .

وسمع شيئاً من نَظْمِ ابن الفارض فيه غزل ، **قال** : « **هذه الأمور لمَّا كانت في أوصاف المخلوق أنكرها عليه بعض الناس ، ظنوا أنه يريد بها الخالق ، وهذا خطأ منهم ، لأنه لمَّا كان ذلك في وصف الخلق ، تَبَيَّنَ أنه ليس في الخالق ، فإذا صرح المخلوق بالمخلوق ؛ فهو بالمخلوق أحق ، وأجاب عنه بعضهم ممن يقول بالشاهد : بأن ذلك في النور الساري في المخلوقات ، وهو من نور الله سبحانه ، وكل هذه أمور باطلة** » هـ .

أقُولُ : يعني التفكر في هذه الأمور وتعقُّلها ، فالصواب أن يضيف أوصاف الخلق إليهم ، ويُنَزِّه الحق عنها وعن كل ما يخطر في البال ، كما تقدم شرح ذلك هـ .

قال : « **وفي نظمه فصاحةٌ وملاحةٌ ورِقَّةٌ ، كأنَّه كان متمرناً عليه ، وفي نَظْمِ الطرائفي وغزله مثله ، ويقول عند التخلص : رَجَعْتُ عنه ، فمثل هذا يبريهم ويفيد غيرهم ، ويسمى هذا النسيب ، ومثله في كلام ابن علوان ، لأنه كان مجتهداً في علم الأدب ، ليكون في مرتبة أبيه عند الولاة** » .

ثم ذكر قصة جَذْبِهِ كما ذَكَرَهُ في « طبقات الشرجي » ، *قال* : « **وكثيراً ما يذكر آل طه وآل يس ، حتى تَوَهَّمَ بعضُ النَّاسِ أنَّ له نسباً حِسِّيًّا في الأشراف** » .

ومرة **قال** : « **كان أبوه علوان حسن الخط ، فخَطَّ كتاب البيان ، ووصل إلى بغداد ، فتعجبوا من حُسْنِ خَطِّه ، فقال بعض أهل تلك الجهة : ما حَسِبْنَا أنَّ في اليمن إنسان حتى جاءنا البيان بخط علوان. وكان مؤلفه من أهل اليمن** » هـ .

أقول : قال اليافعي في تاريخه : « إنه ممن يقول بذلك القول من الشافعية » ، يعني الجهة والحرف والصوت . وذكر الشرجي في الطبقات : أن الشيخ أحمد بن علوان لمَّا أَحْكَمَ علم الأدب ، ليكون كاتباً عند الدولة في مكان أبيه ، فسار إلى البلد الذي هو فيها لذلك ، فرأى في طريقه صخرة ، فجلس عليها ليستريح من تعب المسير ، فحصلت له جذبة فانفلقت الصخرة ، وخرج له منها كفٌّ ، وسمع قائلاً يقول له : « هذه كَفُّ أبي بكر الصديق ، فقبِّلها وهو شيخك » ، فقبَّلَها ورجع عن مسيره ، وكان لا يرى أن له شيخاً إلا أبابكر الصديق ، وظهر شأنه ، وكان من أمره ما كان .

قوله : « **وكثيراً ما يذكر آل طه وآل يس .. إلخ** » ، يعني كقوله في بيت من قصيدة من نظمه :

مِـنْ آلِ طَـهَ وَمِـنْ آلِ يَـس وَالجانِبِ الغَرْبِي طُوْرِ سِيْنِيْنِ

وذَكَر سيدنا الخلفاء الراشدين ، وأثنى عليهم كثيراً ، **ثم قال** : « **من تأمل أحوال الخلفاء ، ممن له فراسة ومعرفة تامة ، رأى طريقة أبي بكر وعثمان واحدة ، إذ يغلب عليهما الحياء والشفقة ، وطريقة عمر وسيدنا علي واحدة ، وهما على الضد من ذلك القوة والشدة** » هـ .

أقول : يعني يتشابه كلٌّ مِنْ هذَيْن وهذَيْن في ما ذكر ، وهمة كل من الأربعة فيما يرضي الله ، وفي ما يقوم به أمر الله ، في أوصافهم من اللين والشدة ، فكلٌّ منهم هَيِّنٌ لَيِّن مع المؤمنين ، في جانب الحق وما يوافق الحق والصواب ، وقويٌّ شديدٌ في ما يخالف ذلك ، وعلى من يخالفه ، لا لاتباع هوى نفس ، ولا لإثبات حظ ، بل على ما وَصَفَهم الله به في كتابه : ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ﴾.

وإن غلب الحياء والشفقة من الأوَّلَيْن على من اتَّبع أمر الله ، والغلظة والشدة من الآخَرَيْن على من خالف أمر الله ، لكن الأمر المجمع عليه عند الصحابة وعند كل الأمة تبعاً لهم ، هو ما اجتمع عليه الشيخان أبوبكر وعمر ، فإن اختلفا في أمر ؛ وقع فيه الخلاف ، وإن اتفقا في أمر وقع عليه الإتفاق من الصحابة ، واتفق عليه من بعدهم تبعاً لهم ، واتفاقهما هو الأكثر ، واختلافهما هو الأقل .

فإذا اختلفا ؛ ففي الحال يتبين لأحدهما الصواب مع الآخر فيتبعه ، لأنهم ما مرادهم إلا اتباع ما يحبه الله ، لا لغير ذلك من إقامة هوى نفس ، فلذلك يطلعهم الله على الحق بلا مهلة ، ولذلك استقام

على أيديهم شرع الله ، فلو كان معهم أدنى شائبة من هوى ما استقام على أيديهم حق ، ولا انحسم بأيديهم باطل ، ولا تم لهم أمر ، فسبحان من خصهم بهذه المزايا وميزهم بها عن غيرهم ، وحباهم بهذه الفضائل . ثم أثنى عليهم بها ، كما هي عادة الله سبحانه ، أن يُؤتِي من اصطفاه من عباده فضائلَ يخصه بها ثم يُثني عليه بها ، فالفضل والثناء منه بدأ وإليه يعود ، كما قال تعالى في حق سليمان : ﴿نِعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ﴾، فرزقه الإنابة والشكر وأثنى عليه بها ، وفي حق أيوب : ﴿إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ ورزقه الصبر والإنابة وأثنى عليه بهما .

فكذلك رزق أصحاب نبيه من الفضائل ببركة صُحْبة نبيه ، حتى صاروا أنصار دينه وحماة شرعه، ومُبَلِّغُوه إلى مَن بعدهم ، حتى جعلهم كالنجوم يُهتَدَى بهم في الدين ، ثم أثنى الله عليهم في كتابه ، وذكر أنه أثنى عليهم في الكتب السابقة ، فقال تعالى : ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ ﴾.. إلخ السورة ، ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴾الآية ، وهذا في جمعهم في ذكرهم بالفضائل ، غير ما خص كل واحد بإفراده في الآيات بما أعطاه من الفضل الخاص به ، كقوله تعالى في حق أبي بكر رضي الله عنه : ﴿وَٱلَّذِى جَآءَ بِٱلصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِۦٓ ﴾الآية ، ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى﴾ إلخ السورة ، وغير ذلك مما لكلٍّ من المدح الذي يخصه في آيات كتاب الله ، بعد المدح العام الشامل لكلهم ، فلا جَرَمَ كانوا أفضل الخلق عند الله بعد أنبياء الله ، فقد شابهوا الملائكة والأنبياء ، وشاركوهم في أشياء من الفضائل .

ذكر الإمام السيوطي رحمه الله في كتاب « الحبائك في أخبار الملائك » قال : « أخرج الطبراني والبيهقي في الأسماء والصفات من الأوسط ، والبزار عن ابن عمرو ، قال : جاء قوم من الناس إلى رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله ، زعم أبوبكر أن الحسنات من الله والسيئات من العباد ، وقال عمر : الحسنات والسيئات من الله . فتابع هذا قومٌ ، وتابع هذا قومٌ ، فقال رسول الله ﷺ : لأقْضِيَنَّ بينكما بقضاء إسرافيل بين جبريل وميكائيل ، إن ميكائيل قال بقول أبي بكر . وقال جبريل بقول عمر. فقال جبريل لميكائل : إنا متى نختلف أهل السماء تختلف أهل الأرض ، هَلُمَّ فلنتحاكم إلى إسرافيل ، فتحاكما إليه فقضى بينهما بحقيقة القدر خيرِهِ وشَرِّهِ ، وحُلوِهِ ومُرِّهِ كله من الله . ثم قال رسول الله ﷺ: يا أبا بكر ، إن الله لو أراد أن لا يُعصَى لم يخلق إبليس ، فقال أبوبكر : صدق الله ورسوله » انتهى .

فانظر أمر هذه المسألة ، التي هي القضاء والقدر ، ما أعجبه وما أعجز الخلق عن إدراك حقيقته، كيف وقد اشتبه على كبار الملائكة ، وعلى كبار الصحابة ، بل على كبار الرسل من أولي العزم ، كما تقدم سؤالهم عنها موسى وعُزَير وعيسى عليهم الصلاة والسلام ، حيث سأل كلٌّ واحد منهم ربَّه عنها ، حيث قال : « يا ربنا ، إنك ملك عظيم ، لو شئتَ أن لا تُعصى ما عُصِيت ، وهذا أنت تُعْصَى ». وجواب الله سبحانه لكل واحد منهم بقوله تعالى : « لا أُسْأَلُ عما أفعَل » .

وتقدم قول سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به : « إنها مسألة عسرة ، لا يتبين أمرها إلا يوم القيامة » ، فكيف لا تكون كذلك وهذا شأنها ، ولم يعلم حقيقتها في الدنيا من الخلق إلا النبي ﷺ ، فأجاب عنها بها أجاب بقوله : « لو أراد الله أن لا يعصى لم يخلق إبليس » .

ومن العجائب أن الله خلق إبليس ليجعله داعياً إلى الشر ، من الكفر والمعاصي ، وسبباً في وقوع مَن حق عليه سخط الله في ذلك ، وقد جذبه الله تعالى إلى عبادته سبعين ألف سنة ، ثم رده إلى ما خلقه له من دعاء أهل الشقاوة إليها ، ليكون ذلك أشد حسرة عليه ، زيادة في عذابه ونكاله ، كما رُوِيَ أنه شكى ذلك إلى بعض الأنبياء ، فقال : « ما تقول في من ذَهَبَتْ عبادته سبعين ألف سنة مجاناً ؟ » .

ولئلا يغتر من كَثُرَتْ عبادته بها ، وليتحقق له إنما الأمور متوقفة على مشيئة الله لا على أسبابها التي جعلها الله لها ، إلا إن وافقتها المشيئة الإلهية ، فيُعمِل الإنسانُ الأسبابَ جهده ، ويرجو أن توافق المشيئة، ويعتمد بقلبه على المشيئة لا على الأسباب ، فيعلم أن العبادة مثلاً هي سبب حصول كل خير من رضا الله والفوز بالجنة والنجاة من النار ، ولكن بشرط موافقة المشيئة ، فما نَفَعَتْ إبليسَ عبادتُه في كل هذه المدة الطويلة ، حيث لم توافق المشيئة بذلك .

وفي آيات القرآن لها أجوبة كثيرة ودلائل واضحة وفوائد متعلقة بها ، فتأملها وافهمها واعمل عليها ، منها قوله تعالى : ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾، ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾، ونحو ذلك كثير مما يدل على إنما الوقوع في الأسباب إلا بمشيئة الله ، وأن الأسباب لا تفيد مقتضاها التي جعلها الله موصلة إليه إلا بمشيئة الله ، وأن الله جعل للخير أسباباً وللشر أسباباً ، وكلها لا تفيد في ذلك إلا بالمشيئة ، عملاً ونفعاً ، وأن الرسل وأعوانهم أسباباً لحصول خير الدنيا والآخرة ، وجعل إبليس وأعوانه أسباباً لشر الدنيا والآخرة ، وجميع ذلك بشرط موافقة المشيئة من الله سبحانه ، لا مطلقاً، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾، ﴿وَمَا هُم بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾.

وسبب تخلف الأسباب عن مقتضياتها إلى ما اقتضته المشيئة ، من وقوع الطاعة من أهلها ووقوع المعصية من أهلها ، مع أن الله أمر بالطاعة مطلقاً ، وإنما أطلق الأمر للترغيب بالإرادة الشرعية ، ونهى عن ضدها بها ، فلا بد من الأمرين معاً الطاعة والمعصية ، كما اشتبه ذلك على الرسل كما تقدم، وذلك أن الله سبحانه لـمَّا خلق الجنة وعدها بملئها ، ولا يكون ملؤها إلا بأهل الطاعة ، كما وعدهم بها ووعدها بهم ، ولـمَّا خلق النار وعدها بملئها ، ولا يكون ملؤها إلا بأهل المعصية ، كما وعدهم بها ووعدها بهم ، ووعده لا يُخْلَف ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾.

فلا بد من هذين القسمين ليتم وعده سبحانه بهما للدارين ، فما وافقت الإرادة الأزلية إلا بذلك،

وإن خالف ذلك الإرادة الشرعية ، ولذلك استنكره الرسل المذكورون ، فإشاءته سبحانه وإرادته الطاعة ممن أطاع والمعصية ممن عصى ، ليتم بهما وعده للدارين ، وتتم حُجَّتُه لأهل الجنة بدخولها ، وتتم حجته على أهل النار بدخولها ، وَنَجَازُ موعده بإتمامه للدارين بما وعدهما به من الفريقين ، أهمُّ من تجرد الكل لإمتثال الأمر ، ولو كان ذلك لتم وعد الجنة فقط ، لأنه تعالى حكم أن أهل الطاعة هم للجنة ، وأن أهل العصيان هم للنار ، وحُكْمُهُ سبحانه لا يتبدل ، وقد ورد أن أهل الجنة عدد معلوم ، لا يزيد فيهم واحد ، ولا ينقص منهم واحد ، وأن أهل النار أيضاً عدد معلوم لا يزيد فيهم واحد ولا ينقص منهم واحد .

ومن الفوائد أيضاً هنا أمر مهم جداً مقصود ، وهو ليتم فضله على من أطاعه ، وعدله على من عصاه ، ومن ذلك أيضاً كونه أراد لكلٍّ من الدارين من أراد من الفريقين ، وأراد لكلٍّ من الفريقين ما أراد من الدارين ، فيتم مراده فيهم فتقوم له الحجة لمن رحم ، وتقوم له الحجة على من لم يرحم ، لأنه سبحانه لا يأخذ إلا بحُجَّة ، كما تقدم قول سيدنا عبدالله : « **إن الله لا يأخذ إلا بحجة** » ، ويعني سواء كان ذلك في الدنيا - كما أهلك بذلك من عصاه من الكفار والعصاة ، كما تقدم عن فرعون - وفي الآخرة ، فما أجرى عليهم المعاصي في الدنيا إلا ليجزيهم جزاءها في الآخرة ، كما أراد ، وعلى الوجه الذي أراد ، فأراد جزاء العامل على عمله قبل وجوده ووجود عمله ، وجعل عمله في الدنيا من خير أو شر حُجَّةً على جزائه به في الآخرة ، خير أو شر ، كما يروى حديثاً : « الجزاء من جنس العمل » .

وتقدم قوله : « **إذا لم تعلم عَمَلَ إنسانٍ هل هو خير أو شر ، فانظر إلى جزاه ، هل هو خير أو شر** »، يعني انظر حاله في الدنيا وما هو عليه من حالة راحة ، فيدل على أن عمله خير ، أو حالة ضر وتعب ، فيدل على أن عمله شر .

وقولنا : كما تقدم عن فرعون . وذلك أنه تقدم أن الله تعالى لما أراد إهلاكه وإغراقه في بحر القلزم، أمر جبريل أن يأتيه في صورة رجل يسأله ، فقال له : « ما تقول في من له عبد أنعم عليه سيده وأعطاه وأعزه ، فادَّعى أن له مثل ما لسيده ؟ » ، فقال : « لو أن هذا عبدٌ لي لأغرقتُه في بحر القلزم » ، فقال له: « اكْتُبْ لي بهذا كتاباً » ، فكتبه له ، فأغرقه الله في بحر القلزم . فلما كان في حالة الغرق ، تَمَثَّل له جبريل رَجُلاً ، ومَدَّ له بكتابه وقال له : « هذا فتواك على نفسك » .

والدليل على أن لله مراداً في شقاوة الشقي وكفر الكافر وفسق العاصي ، وأنه لا يكون كائن إلا هو مراد له ، لا يشذ عن إرادته قطُّ أمرٍ ، دَقَّ أو جَلَّ ، وكل الأمور تجري بمراده في أوقاتها التي قدَّرها فيها، على ممر اللحظات والأنفاس ، بلا مراعاة لأحد ، وإن جَلَّ قَدرُه عند الله ، حتى استجابته لدعاء من استجاب دعاءه ، إنما هو بمقتضى قَدَرِهِ وسَبْقِ إرادته ، على الوجه الذي أراد ، وذلك قوله تعالى :

﴿وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ۝٣٥﴾، أي فإن شق عليك عدم إسلامهم - يعني أقاربه من قريش - فأردت أن يريهم أمراً خارقاً للعادة ، لعلهم يتعجبون منه فيُسْلِمون ، فإنك عاجز عن ذلك، فإن المخلوق لا يقدر على الأمور القدرية التي ليست في مقدورهم المعتاد ، ولو صعد في السماء أو غاص في الأرض ، وهذا مبالغة في عجز كل من سوى الله ، عن كل أمر لا يريده الله ، فإنَّ ما صَدَّهم عن الهداية واتباعك إلا عدم مشيئة الله لهم ذلك ، فلا تقدر تأتيهم بآية ، ولا تستطيع لهم هداية إلا أن يشاء الله ، ولو شاء الله هدايتهم ؛ لهداهم لذلك جميعهم بآية وبغير آية .

فافهم ذلك ولا يجهلك وهو لا يجهله ، وإنما أراد تعليم غيره ليعلم كل موقن أنه لا يكون كائن قط - أي شيء يكون - إلا بإرادة الله سبحانه . ويجري في ذلك معنى الكلمة المتقدمة ، وهي قوله : « **إن لله نظرات ينظر الله تعالى بها من نفسه إلى نفسه ، ومن كرمه إلى رحمته ، لا مدخل للعباد في ذلك** » .

يعني بقوله : « **نظرات** » ، أي إرادات أراد من نفسه بنفسه سعادة أقوام ، فأسعدهم بلا مدخل لهم في ذلك ، أي بلا وسيلة منهم استحقوا بها الإسعاد ، بل مجرد اختيار منه سبحانه ، وكذلك أراد من نفسه بنفسه شقاوة أقوام ، فأشقاهم بلا مدخل لهم في ذلك ، أي بلا جريمة منهم استحقوا بها الإشقاء، بل مجرد اختيار منه سبحانه .

« **ومن كرمه إلى رحمته** » ، أي أراد بسبب كرمه لمن أسعدهم ، أن وفقهم لطاعته ، ليجزيهم بفضله عليها الجزاء الحسن ، وخذل من أشقاهم وجَرَّهُم بسلاسل الخذلان إلى معصيته ، ليجزيهم عليها الخزي والخسران ، كل ذلك بمجرد اختيار منه سبحانه فضلاً وعدلاً . كما أخزى هؤلاء الأقوام الذين رغب النبي ﷺ في هدايتهم ، وما وافَقَت المشيئة الإلهية ذلك ، حتى أنزل الله عليه : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُۚ﴾، ولما علم الله سبحانه شدة رغبته في هداية قومه خوفاً عليهم من النار ومن غضب الجبار ، حيث لم توافق مشيئته ذلك ، خاطبه بذلك الخطاب الذي فيه العتاب ، والعتاب في الخطاب سائغ مع الأحباب .

فانظر هذا التذكير من الله سبحانه لحبيبه ، من أوله إلى آخره في تلك الآية ، وقوله تعالى : ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ﴾، تفهم ما قلناه ، فكان راجياً لهم الخير وطامعاً في هدايتهم ، ومشفقاً عليهم من الشر ، لكونهم قومه وقراباته وأعمامه وبنوا أعمامه وأقرب الناس في النسب إليه. وهكذا ينبغي منه لأن هذا مطلوبٌ في الديانة والمروءة لغيره ، فكيف به ؟ فلمّا أعلمه الله أنه كتبهم في جريدة أهل الشقاء ، المحتوم عليهم بسوء القضاء ، وتخليدهم في جهنم بئس المثوى ، وأن مشيئته سبقت لهم بذلك ، وأن المشيئة الإلهية لا تتعلق بمراعاة أحد ، فيسعد أحد بسعادته ويشقى بشقاوته ، وإنما ذلك بمقتضى ما

تعلقت به فقط ، فحينئذ نأى قلبه عنهم وأعرض عن رحمته لهم ، فإنه لا يختار إلا ما اختاره ربه ، فإذا علم أن هذا هو اختياره اختاره ، كما سمعت من معالجته لعمه أبي طالب ورغبته في إسلامه .

ومن العجيب أن الله تعالى أراد أن يُنزِلَ بهم أشد العذاب مرتين ، مرة في الدنيا - وأشد عذاب الدنيا القتل ، فجعل قتلهم على يديه ، فقتل منهم يوم بدر سبعين وأسر سبعين - وعذاب الآخرة ، وأنزل عليه تأكيداً لهذا المعنى في حق أبي طالب ، الذي هو أحبُّهم إليه وأقربهم لديه ، قوله تعالى : ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾، فما وقع لهم وبهم إلا ما أراد الله سبحانه لهم ، وسبقت به مشيئته . كما أراد سبحانه شقاوة امْرَأَتَيْ نَبِيَّيْنِ من المرسَلين : امرأة نوح وامرأة لوط ، وسعادة امرأة عدو الله فرعون ، فاقرأ قول الله تعالى : ﴿ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ﴾الآية، فما دفع شقاوةَ امرأَتَيْ النَّبِيَّيْنْ التي أراد الله لهما ، كونُهما نساء الأنبياء ، ولم يغنيا عنهما من الله شيئاً ، وما دفع سعادةَ امرأة العدو التي أراد الله لها كونُها زوجة عدو الله وما ضرها ذلك .

فسبحان من خص عبدالله بن عبدالله بن أُبَيْ بصدق الإيمان ، وبأن جعله الله من خواص الصحابة من أهل بدر ، الذين قال الله لهم : « اعملوا ماشئتم فقد غفرت لكم » ، وجعلهم أفضل الصحابة، ونَوَّهَ بِذِكْرِهِم في الأمم السابقة ، وفي الكتب السابقة ، وفي التوراة والإنجيل والزبور والفرقان ، وخصص أباه عبدالله بن أُبَيْ ، بأن جعله من كبار المنافقين الذين هم في الدرك الأسفل من النار ، فاعجب لتدبير وتقدير العزيز العليم ، فختم على قومِ أفضل الخلق عند الله وأعلاهم عنده درجة وأحبهم إليه بالشقاوة ، أعني من لم يُسْلِم منهم وَسَدَّ عنهم أبواب الهداية ، وذمَّهم بذلك فقال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُل لَّسْتُ عَلَيْكُم بِوَكِيلٍ ۞ لِّكُلِّ نَبَإٍ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ۞ ﴾، انتهى .

وقد طال بنا الكلام في هذه المادة ، وكل ذلك تَبْيِينٌ لمعنى : أن لا فاعل أمراً دَقَّ أو جَلَّ إلا الله ، وأن كل واقع فهو بمراد الله ، سواء وافَقَ الأمر أم لا ، وأن الناس كلهم في هذين الأمرين الموافقة والمخالفة، وأن كل ذلك مراد له لتمام وعد الله للدارين بأرباب العملين ، ولتمام وعد الله أهل العملين بالدارين، وكل ذلك من تفاصيل مسألة القضاء والقدر التي عجز عن إدراكها المرسلون ، ومن سأل عنها منهم ناب عن من لم يسأل ، وهي التي قال سيدنا فيها : « **إنها مسألة محيِّرة لن تتضح إلا يوم القيامة في الآخرة**» ، وقال فيها : « **إنها إذا تكلم العالم فيها يريد إيضاحها ، لم تزدد إلا غموضاً** » هـ .

قال رضي الله عنه : « ولما ولي سيدنا علي الخلافة سأل عنه أهل البصرة الحسن البصري ، وظنوا أنه يتكلم فيه لكونه قتل أهل البصرة يوم الجمل ، فأثنى عليه خيراً خلاف ما ظنوه . وأهل النصيحة من عادتهم إذا تكلموا على إنسان في غيبته ثم حضر ، زاد كلامهم في ذلك ، لا يراعون ، بخلاف المُخَلِّطِين».

قال : « ينبغي للإنسان أن لا يتعمق - أي يُمْعِن - في مطالعة الكتب التي فيها ذكر ما وقع لسيدنا علي من الحروب ، كالجمل وصِفِّين وغير ذلك ، لأنها توغر الصدور ، ولا بد ما يمر عليه القليل منها في شيء من الكتب ، وإن بُلِيَ العالِمُ بذلك واحتاج إلى النظر في ما ذكر ، فليتوسط ولا يمعن » هـ .

أقول : يعني يتبع ما أجمع عليه أهل السنة ولا يتعداه ، فذلك هو التوسط وعدم الإمعان كما أمر ، وقد ذكر ذلك في المشرع الروي - أعني التوسط - ذكره على وجه حسن ، فليؤخذ بما فيه ولا يُزاد على ما ذكره ، قال صاحب « المشرع الروي » : « اعلم أنه يجب الإمساك عما شجر بين الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، من الإختلاف والإضطراب صفحاً ، وعن أخبار المؤرخين ، لا سيما جهلة الرواة وضُلَّال الشيعة والمبتدعة القادحين في أحد منهم ، فقد قال النبي ﷺ : إذا ذُكِر أصحابي فأمسكوا » .

قال كاتبه : وهذا الحديث يدل على أن الله سبحانه أَطْلَعَ نبيه على ما سيكون بين أصحابه ، فإنه أمْرٌ قد حُتِمَ وجَفَّ به القلم .

قال : « والواجب على كل من سمع شيئاً من ذلك أن يتثبت فيه ، ولا ينسبه إلى أحدهم بمجرد رؤيته في كتاب أو سماعه من شخص ، بل لا بد أن يبحث عنه حتى يصح نسبته إلى أحدهم ، فحينئذ يجب أن يلتمس لهم أحسن التأويلات وأصوب المخارج ، أما ما لا يصح عنهم فمردودٌ ، بذاته فلا يحتاج إلى تأويل . فيؤوَّل توقُّف علي كرم الله وجهه عن بيعة أبي بكر رضي الله عنه على أنه لم يكن بغياً منه عليه ، ولا خروجاً عن طاعته ، ولا قدحاً في إمامته ، وإنما هو لما أصابه من الكآبة بفقد رسول الله ﷺ ، فلم يتفرغ للنظر والإجتهاد ، فلما ظهر له الحق دخل في من دخل ، كيف وهو القائل : فمن رضيه رسول الله ﷺ لديننا ، أفلا نرضاه لدنيانا ؟ يعني أبابكر لمَّا أمره النبي ﷺ يصلي بالناس في أيام مرضه، وعولج أن يُقَدِّمَ غيره للصلاة ، فأبى إلا تقديمه ، وفي حديثٍ : قال رسول الله ﷺ : يا علي ، لقد سألت الله ثلاث مرات أن يُقَدِّمَك فأبى إلا تقديم أبي بكر .

ويؤول توقفه عن نصرة عثمان ودَفْعِ الغوغاء عنه ، على أن عثمان منعه من ذلك كما منع غيره ، تجافياً عن إيقاع الحرب وإراقة الدماء بين المسلمين ، حتى قال : من وضع السلاح من غلماني فهو حر . ويؤول توقفه في قبول البيعة بعده إعظاماً لقتله وإنكاراً ، إلا أن أناساً من وجوه المهاجرين والأنصار أقسموا عليه وناشدوه الله في حفظ بقية الأمة ، وصيانة دار الهجرة ، إذ قتلة عثمان قصدوا الإستيلاء

على المدينة والفتك بأهلها ، وكانوا جهلة ، ليس لهم سابقة في الإسلام ، ولا عِلْمٌ بأمر الدين ، ولا صحبة لسيد المرسلين ، فقبل البيعة .

ويؤول توقفه عن القصاص من قتلة عثمان على أنه لما رأى شوكتهم وكثرتهم وقوتهم ، وجزمهم بالخروج على من طالبهم بدمه ، اقتضى النظر الصائب منه تأخير الأمر ، احترازاً عن إثارة الفتن ، إلى أن ترسخ قدمه في الخلافة ، ويتحقق التمكن من الأمور فيها على وجهها ، ويتم له انتظام شملها ، واتفاق كلمة المسلمين ، ثم بَعْدُ يلتقطهم واحداً بعد واحد ، ويسلمهم إلى من له القَوَد .

ويدل لذلك أن بعض قتلته عزم على الخروج على عليٍّ ، وعلى مقاتلته لمَّا نادى يوم الجمل بأن يخرج عنه قتلة عثمان ، والذين تمالَوا على قتله ، كانوا جموعاً كثيرة ، قيل سبعمائة وقيل ألف من أهل مصر ، ونحو ذلك من البصرة والكوفة ، بل ورد أنهم هم وعشائرهم نحو من عشرة آلاف » ، انتهى ما أردنا نقله من المشرع الروي .

والذي له القود هو ابنه ، وكان مع سيدنا علي ، ضامَّه مع قتلة أبيه ، مراده أنه إذا تم له أمر الخلافة وتمكن فيها ، أمره أن يطلب بدم أبيه ، فإذا هم كلهم حاضرون ، فإنما ضَمَّه وضَمَّهم جميعاً لذلك ، فيقتلهم كلهم جميعاً أخذاً بثأره ، كما قال سيدنا عمر : « لو اجتمع أهل صنعاء كلهم على قتل رجل واحد لقتلتهم به » ، والولد أحق بطلب الثأر ممن يزعمه ، لكن الناس لجمعه لهم ، ظنوا أن سيدنا علي لذلك له مدخل معهم في قتله ، وما دَرَوا بقصده ، وقد قال النبي ﷺ : « عليٌّ مع القرآن ، والقرآن مع علي ، لن يفترقا حتى يَرِدا عليَّ الحوض » .

انظر قوله تعالى : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ﴾ إلى أن قال : ﴿فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِي تَبۡغِي﴾، والذي يقاتل الإمام المبايع له هو الباغي ، وسيدنا علي هو الإمام المـُبْغَى عليه ، والخارج عليه هو الباغي ، فما قاتلهم إلا امتثالاً لأمر الله في هذه الآية .

فكان قول أهل السنة : إن الفرقتين من الصحابة كلهم مجتهدون طالبون للحق ، لكن سيدنا علي مجتهد مصيب له أجران ، والآخرون مجتهدون مخطئون لهم أجر ، وكلهم على الأجر سالمون من الوزر .

فإنَّ سبب وقعة الجمل : أن سيدتنا عائشة ومن معها من الصحابة كالزبير ، دعوا سيدنا علي ليجيهم إلى البصرة ، ليصطلح مع الطالبين بدم عثمان من الصحابة الذين معها ، وطَلَبُ القَوَد يمكن بعد ذلك ، حيث الطالب والمطلوب عنده حاضرون ، يعني ولد عثمان وقتلته ، وسار إليهم بقصد الصلح ومعه القتلة الفسقة ، فلما دخل البصرة ، قال القتلة بينهم : « إن اصطلحوا قتلونا ، فهلم فلنبدأ بالقتل » ، فلما التقى أهل البصرة مع سيدنا علي على نية الصلح ، أمر القتلة واحداً منهم ، فرمى واحداً

من أهل البصرة بسهم فقتله ، فقالوا : « قد علمنا أن علياً ما جاء لصلح ، إنما جاء للحرب » . فالتقوا بالحرب ، فوقعت تلك الملحمة ، والقتلة الفسقة سببها ، ولذلك قيل إنها وقعت فلتة من غير قصد من الفريقين للحرب ، وقد صح ندم عائشة والزبير وطلحة على ذلك .

ويحرم رواية مقتل الحسين وحكاياته ، وما جرى بين الصحابة من التشاجر والتخاصم ، فإنه يهيج على بغض الصحابة والطعن فيهم ، وهم أعلام الدين ، فالطاعن فيهم طاعن في نفسه ودينه ، وهذا البيت من تائية سيدنا :

فَذُوْ الْقَدْحِ فِيهِمْ هَادِمٌ أَصْلَ دِيْنِهِ　　　وَمُقْتَحِمٌ فِي لُجِّ زَيْغٍ وَبِدْعَةِ

ومَثَّلُوا للقادح فيهم أنه مثل من كان راكباً على جريدة في نخلة سحوق طويلة ، لو طاحت سقط منها - أي من النخلة - فجعل يحز أصل الجريدة بسكين ، فيوشك أن تسقط به فيهوي إلى الأرض فيقطع قطعاً قطعاً ، لأن نجاة الأمة كلها باتباع الدين ، وبه حصل لهم رضا الله والفوز بالجنة والنجاة من النار ، وخير الدارين والسلامة من شر الدارين .

والصحابة رضي الله عنهم هم الذين أخذوه عن رسول الله ﷺ ، وبذلوا في الجهاد عليه نفوسهم وأموالهم ، حتى استقام واعتدل ، ثم بَلَّغُوه إلى الأمة ، فمن يدرك جزاهم وشكرهم ، فنحمد الله أولاً على إرساله به إليهم على يد نبيه ، وجزى الله نبينا عنا ما هو أهله ، ثم جزى الله عنا أصحاب نبينا أفضل الجزاء ، ثم جزى الله عنا مشايخنا الذين علموناه أفضل ما جزى به المحسنين .

ثم إن الأمور التي ذكر أن لا بد من تأويلها ، هو أن الصحابة من المهاجرين لما توفي رسول الله ﷺ ، قاموا في تجهيزه أبوبكر وعمر وعثمان وعلي ، فبعدما حفروا القبر وصلى عليه جملة المهاجرين والأنصار ، ثم انحاز الأنصار إلى سقيفة بني ساعدة ، وتركوا المذكورين عند الدفن واشتغلوا به ، فبينما هم في اشتغالهم بذلك إذ جاءهم رجل وقال : « يا أبابكر ويا عمر ، أدركوا هذا الدين فقد قعد الأنصار في السقيفة ، وجعلوا يتشاورون بينهم ويقولون : لا ندعهم يستبدون بالأمر دوننا ، فكان رسول الله ﷺ ونحن وهم تحته ، والآن لما توفي فيكون منهم أمير ومنا أمير ، ولئن كان هذا لتفترقن كلمة المسلمين ويختلفون ، فأدركوا هذا الأمر » .

فارتاع من هذا الخبر كل من سمعه ، فخرج أبوبكر وعمر إليهم ، والتقاهم أبوعبيدة ، وتركوا عند القبر سيدنا علي وأهل بيته يتولون دفنه ، فلما دخلا عليهم في السقيفة ، سلَّما عليهم ، فقال لهم أبوبكر : « لقد علمنا أنكم أنصار الله ورسوله ، وأنتم أهل السابقة ، وفضلكم مشهور لا يُنكر ، ولكن قال رسول الله ﷺ : الخلافة في قريش . وقد اخترت لكم أحد هذين » ، يعني عمر وأبا عبيدة ، وقد لحقهما ودخل معهما

السقيفة ، فقال واحد من الأنصار : « مِنَّا أمير ومنكم أمير » ، فقال عمر : « أيكم تطيب نفسه أن يتقدم على أبي بكر ، وهو ثاني اثنين في الغار ، وفي الإسلام ؟ » ، ثم قال عمر : « امدُدْ يدك يا أبابكر فَلَأبايعك»، فبايعه عمر ، وهو أول من بايع ، ثم بايعه الأنصار وكل من حضر بأجمعهم ، وتتابع الناس على البيعة ، ولم يتخلف من الأنصار إلا سعد بن عبادة من الخزرج ، واشتغلوا في أمر البيعة عن رسول الله ، حتى ما فرغوا من أمر تجهيزه إلا بعد ثلاثة أيام ، وتخلف سيدنا علي في بيته أيضاً ثلاثة أيام ، ثم مضى إليه سيدنا أبوبكر وقرع الباب ، فقال بعض من كان عنده : « لا تفتح » . فقال : « بلى افتَحْ ، إن أبابكر من قد عرفتم فضله ، وهو ثاني اثنين في الغار » . وفتح له فدخل ، فقال : « يا علي ، أكَرِهْتَ خلافتي ؟ » ، قال علي : « ما كرهتها ، ولكن نرى أن لنا في هذا الأمر رأي وحق ، فأبرمتموه دوننا ، ولا أحضرتونا فيه » .

قال أبوبكر : « ما قَبِلْتُها إلا خوفاً أن يتفلت أمر الناس ، فلا يمكن بعد ذلك انتظامهم ، فيختلف الناس في دينهم ، فقلت : أقبضه الآن لئلا ينفلت ، ثم إن الناس يختارون لهم من أرادوا ، وقد خلعتها من عنقي وجعلتها في عنقك ، فاقبضها » ، فقال علي : « يأبى الله أن أتقدم عليك ، وقد قَدَّمَك رسول الله ﷺ علينا في الصلاة ، فَقَدَّمَك تصلي بالناس وما قدَّمني في ذلك ، ومَن رَضِيَهُ رسول الله ﷺ لديننا، أفلا نرضاه لدنيانا ؟ » ، يعني فما قدمك فيها إلا وأراد لك التقدم في غيرها ، ويدل على ذلك ما تقدم من قول رسول الله ﷺ لسيدنا علي : « لقد سألت الله ثلاث مرات أن يقدمك في الصلاة ، فأبى إلا تقديم أبي بكر » .

ثم بايع سيدنا علي لأبي بكر في هذا المجلس ، ثم بايع له ناس من بني هاشم كانوا تخلفوا مع سيدنا علي عن البيعة تلك الأيام الثلاثة ، ثم بايعوا معه ، ثم لما تم أمر البيعة قام سيدنا أبوبكر فصعد المنبر ، فاجتمعوا له ، وخطب خطبته التي قال فيها : « أما بعد ، أيها الناس ، إنكم قدمتموني عليكم ولست بأخيركم ، ولقد وددت أن لو كفانيها أحدكم ، ثم اعلموا أن أقواكم عندي الضعيف حتى آخذ له الحق ، وأضعفكم عندي القوي حتى آخذ منه الحق » .. إلى آخر ما قال .

ثم استمر في خلافته ومعظم همته فيها جهاد المرتدين ، حتى ردهم قسراً إلى الدين ، ولمَّا أراد جهادهم قالوا له : « ما عندك إلا هذه الشرذمة من المسلمين ، وقد ارتدت العرب على بكرة أبيها ، فما يساعدك على هذا أحد » ، قال : « إن لم تساعدوني لأقاتلنهم ولو بالذبر » ، فما تم كلمته حتى امتلأ المسجد بالذبر ، حتى هرب الناس منها ، وهي الزنابير التي فيها صفرة وحمرة ، فلما رأوا منه هذه الكرامة ساعدوه ، فرد أهل الردة إلى الإسلام ، فقام الدين على أوَدِه . ثم قام سيدنا عمر ، ففتح تلك الفتوحات العظيمة ، حتى صارت تلك الأمصار الواسعة دار إسلام ، كمصر والشام والعراقين،

ومعظم أرض العجم إلى المغرب . ثم سيدنا عثمان ، فتح بعض جهات العجم ، وغيرها . ثم سيدنا علي ، وأظهر الله على يديه أحكاماً كان قد أنزلها الله في كتابه على نبيه ، وأَجَّلَ ظهورها إلى وقت خلافته، فأظهرها على يديه ، ليظهر معنى قول النبي ﷺ : « أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها » . فكان معظمها ظهر في وقته ﷺ وعلى يديه ، وباقيها ظهر في وقت سيدنا علي وعلى يديه ، حتى تم دين الله على أيديهم .

فَعُلِمَ أن كل من أبغضهم أو تكلم فيهم أنه على غير دين الإسلام الذي أظهره الله على أيديهم ، فيلجأ إلى الله إن أراد النجاة ، أن يجذب قلبه إلى محبتهم ، ويدين بدينهم ، وأن يختم له بذلك ، وإلا انجر إلى النار وغضب الجبار هـ .

قال سيدنا عبدالله : « وإنما نظرنا فيه – أي ما وقع بين الصحابة – حين وصلت الزيدية إلى هذه الجهة ، وسألونا عن أشياء فأجبناهم عنها ، وكان في السائل منهم إنصاف ، حتى إنه مال إلى ما قلناه، وَوَدَّ الإقامة عندنا ، وكان من الزيدية بمكان ، وكان متجرداً للأمر والنهي . وقالوا لنا : لأي شيء قَدَّمْتم على أبيكم علي بن أبي طالب غيره ؟ فقلنا لهم : هو الذي قَدَّمَ غيره وفَضَّلَهُ على نفسه ، فقَدَّمْنَاه نحن أيضاً وفَضَّلْنَاه لتقديمه له وتفضيله ، اقتداءً به . فقالوا : إنما ذلك تَقِيَّة . فقلنا : إنا لسنا مثله في قوته وشجاعته وصولته ، فإذا فعل ذلك للتقية ، فمن أقوى منه أو مثله في الشجاعة والقوة ؟ فالتقية التي وَسِعَتْهُ هو ، تسعنا نحن أيضاً » .

وذكر أهل الرفض ، فقال : « إنهم أهل باطل لا يُذكَرون ، ولا يُعَوَّل عليهم في شيء ، وإن كان عندهم يسير من الحق ، فإنهم خلطوه في الباطل ، فلا يبقى له أثر ، كمن يجعل زباداً في عَذِرة . وينبغي لصاحب الحق أن يتركهم ، وإن رأى عندهم شيئاً من الحق لا ينكره ، لئلا يتعللون ويحتجون عليه بإنكاره ذلك القليل من الحق ، فيستدلون بذلك على أن كل ما معهم حق وأنه أنكره ، وما اعتقدوا أن سيدنا علي أولى بالخلافة ، فإنه لو ولي بعد النبي ﷺ لما كان منه إلا مثل ما كان لما ولي في وقته ، ولكن سيدنا أبوبكر رضي به الناس – ومنهم سيدنا علي – لسابقته ، وحصوله مع النبي ﷺ الغار ، ولكونه صلى بالناس في حياته عليه الصلاة والسلام ، وهو أوصى بها باجتهادٍ لعمر ، وعمر جعلها في أهل الشورى الذي يجتمعون عليه من أحد الستة ، وهو منهم – أي سيدنا علي من الستة – ويكفيه فضيلةً ما له – أي سيدنا علي – من الفضائل والمزايا ، وإن تأخرت خلافته ، فإن ذلك أيضاً زيادة في فضله ، فقد كان النبي ﷺ إذا بعثه في سرية يقول : ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾، وما ذكره الرافضة من ذمه بأنه سكت في بعض الأشياء تقيَّةً ، فليس سكوته فيها جُبْناً ، وإنما هو للإبقاء على المسلمين ، وكراهةً منه لشق العصا بين المسلمين » .

ثم أكثر من ذم الرافضة والإباضة ، *ثم قال* : « **الإباضة والناصبة أبغض إلينا من الشيعة ، لأنهم يبغضون أهل البيت . وقال بعض الشيعة من أهل المدينة ، لبعض السادة من آل باعلوي : ما تقول في الشيعة والإباضة ؟ فقال : بعرة مقسومة نصفين** » .

قال : « **وسبب تسميتهم بالرافضة ، أن جماعة من أوائلهم أتوا إلى سيدنا زيد بن علي** - أخ الباقر- **الذي تزعم الزيدية أنه إمامهم ، وأخذ عنه أبو حنيفة وجماعة ، فقالوا : يا زيد ، نكون عسكراً معك على من عاداك ، ولكن لا نتبعك إلا أن تتبرأ من أبي بكر وعمر . فقال لهم : إنما أَتَبَرَّأُ مِمَّن تَبَرَّأَ منهما . فقالوا: إذاً نرفُضك . فقال : اذهبوا فأنتم الرافضة . فَسُمُّوا بذلك من حينئذ ، وسُمُّوا الزيدية بذلك لأنهم ثبتوا معه ، لا أنهم على مذهبه . وقد كان من سابقي الرافضة رجل معه حماران ، سَمَّى أحدهما أبابكر ، والآخر عمر ، فاتفق أن رمحه أحدهما رمحة شديدة مات منها ، فلما علم بذلك بعض السلف، لعله عبدالله بن المبارك فقال : انظروا أي الحمارين الذي رمحه ، ما يكون إلا الذي سماه عمر . فنظروا فإذا هو الذي رمحه ، لأن طبع سيدنا عمر رضي الله عنه الشدة والقوة** » .

قال : « **يعني في أمر الله ، فلذلك قال النبي ﷺ : أرحمكم أبوبكر ، وأشدكم في الله عمر ، وأصدقكم حياء عثمان ، وأقضاكم علي رضي الله عنهم** » ، انتهى ما تكلم به في هذا المجلس رضي الله عنه هـ .

أقول : انظر كيف شدة بغض الرافضة لأصحاب رسول الله ﷺ ، كيف سمى هذا الخبيث منهم أفضل الأمة وأفضل الخلق عند الله بعد الأنبياء بأسماء أخس الدواب ، وهم يدَّعون أنهم يحبونهم، فدل ذلك على أن دعواهم محبَّتَهم كَذِبٌ وزور ونفاق ، ويريدون بذلك ستراً على أنفسهم لئلا يُكَفَّرُون ببغض من أثنى الله ورسوله عليهم ، فيكونوا بذلك مكذِّبين بما قال الله ورسوله ، مع دعواهم الإسلام . ويدل قول زيد ، وهو من كبار أهل البيت : « أتبرأ ممن تبرأ منهما » ، أن الله ورسوله وأهل بيته بريئون من الرافضة الذين يبغضون أبابكر وعمر ، وطَلَبُ أولئك الرافضة من زيد أن يتبرأ منهما دليلٌ على بغض الرافضة للصحابة ، فجزاهم الله بذلك ببغضه لهم ولعنهم ، فإن بغيض الله ملعون .

وعلماء الرافضة أشد خبثاً وعناداً من عامتهم ، والعامة منهم أقرب إلى قبول الحق من علمائهم، فإن علماءهم يخبرونهم بأمور كذب ، ليزيدوهم بغضاً للصحابة ، ومن أكاذيبهم لهم يقولون لهم : « إن عمر بن الخطاب ضرب فاطمة بنت رسول الله ﷺ على بطنها وهي حامل ، فألقت ما في بطنها»، ويجعلون ذلك لهم حجة على أن الصحابة يبغضون علياً وفاطمة وأولادهما وأهل البيت ، وَرَدُّ زيد عليهم يدل على كذبهم من الجانبَيْن : دعواهم أن الصحابة يبغضون أهل البيت ، ودعواهم أنهم يحبون الصحابة . كيف دعواهم محبتهم ، وهم طلبوا من زيد أن يتبرأ منهم ، قاتل الله الأرفاض ما أجهلهم ، وهذا يصدق قول بعضهم : « إن الرافضة كلما أقاموا لهم حجة ، انقلبت حجتهم عليهم » .

ومثل هذه الخرافات منهم تسمعهم يقولونها ، وما يزيد الناس إلا استهزاء بهم عليها ، ويحقق كذبهم هذا ويردُّه ، ما صح وثبت - كما ذكره في الرياض النضرة في مناقب العشرة ، وفي ذخائر العقبى في مناقب ذوي القربى ، كلاهما لمحب الدين الطبري - : أن عبدالله بن عمر بن الخطاب احتاج حاجة شديدة في خلافة أبيه ، فسأل من أبيه عمر أن يُعطِيَهُ شيئاً ، فأبى أن يُعطِيه ، وسأله الحسين بن علي فأعطاه أربعة آلاف ، فقال له ابنه عبدالله : « سألتُكَ فلم تُعْطِنِي ، وسألك الحسين فأعطيتَه » ، فقال : « نعم ، هاتِ لك جَدًّا كَجَدِّه ، وأمًّا كأمِّه ، وأباً كأبيه » .

ونقول لهم : فأين هذا الصدق من كذبكم ؟ فإنما علماؤكم يكذبون لكم ليوغروا صدوركم على أصحاب نبيكم لتبغضونهم ، فإن أبغضتموهم فقد أبغضتوا أهل البيت وأبغضوكم ، وكذبتم في دعواكم محبتهم ، فعلامة صدق المحبة أن يُحِبَّ من أحَبَّ محبوبه ، ويبغض من أبغَضَ محبوبه ، وإن عَكَسَ دل ذلك على أنه يبغضه ، لا أنه يحبه ، وهذا هو الشاهد ، ودعوى بلا شاهد لا تثبت .

فهكذا مجادلتنا معهم ، لأنهم كثيراً ما يخالطونا ، لكثرتهم في هذه الجهة ، وينجَرُّ الكلام منا معهم في هذه المواد ابتلاءً من الله لنا بهم ، كما قدمنا من قصة ذلك المشهدي الذي تَهَدَّفَ لي في طريق قدومنا من المدينة ، ليلة ما يريد الحاج يأوي إلى عنيزة في صفر سنة ١١١٤ ، وهو صاحب المطارة الذي سألني : « أأنت سني أم شيعي ؟ » إلى آخر المجادلة التي ذكرتها بيني وبينه .

وكان سيدنا عمر لمَّا جعل الخلافة في أهل الشورى الستة ، يُعَرِّضُ لهم أن يجعلوها في سيدنا علي ويقول : « لله درهم إن ولَّوها الأُجَيْلَح » - يعني سيدنا علي - ويقول : « والله لئن ولَّوها الأجيلح لَيَسْلُكَنَّ بهم المحجة البيضاء ، ولئن قدموا الأصلع لَيَمْضِيَنَّ بهم طريق الحق » ، فقيل : « إنك لتشير إلى علي ، فلم لا تُقَدِّمه ؟ » ، قال : « لا أحب أن أتحملها حيًّا وميتاً » ، وقيل لعلي في خلافته : « إن كان عمر يشير إليك ، فلم لا قَدَّمَك ؟ » ، قال : « إنه يخاف إن فَعَلَ الذي يقدمه أمراً مخالفاً أن يلحقه ذلك في قبره » .

واحتجاج الأرفاض بقول رسول الله ﷺ في خطبته بغدير خم : « من كنتُ مولاه فعليٌّ مولاه »، أن معناه : أنَّ من كنتُ أنا مُتَوَلِّياً عليه ، فعليٌّ بعدي متولياً عليه . وجعلوا ذلك حجة أن رسول الله ﷺ أوصى بالخلافة إليه ، مع قول الله : ﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴾، نزلت في عليٍّ لمَّا سأله سائلٌ وهو في الصلاة ، فأعطاه خاتمه ، تَصَدَّقَ به عليه ، فيقولون : « وليكم » ، يعني هو المتولي عليكم ، وهم في دعواهم ذلك مخطئون كاذبون ، فإن مذهبهم مبني على الكذب والخطأ ، كما تقدمت الإشارة إليه ، فنسبوه في ذلك إلى العجز والمحاباة في دين الله ، ولذلك قالوا : تَرَكَها تقيَّةً . ومع ذلك يدَّعون أنهم يحبونه ، وحالهم ذلك يكذب دعواهم

المحبة ، ويثبت أن ذلك علامة البغض لا المحبة ، وليسوا بأعرف بشأنه وحاله منه ، فإنه لما قيل له : « كيف تَرَكْتَ الخلافة ؟ تَقَدَّمَك فيها غيرُك قد عَهِدَ بها رسول الله إليك ؟ » ، فقال : « لو عَهِدَ بها إليَّ لما تقدَّمَني إليها أخو بني تَيْم - يعني أبابكر - ولا أخو بني عدي - يعني عمر - » .

أترى هولاء الكَذَبَة عرفوا منه ما لم يعرف ؟ وعلموا من أمره ما لم يكن يعلم ؟ لقد كذبوا والكذب سيمتهم واعتقادهم واعتمادهم .

والجَلَح والصَّلَع : انحسارُ شعر الرأس عن الناصية ، وهي مقدم الرأس ، وكان سيدنا علي كذلك، وهو علامة الكرم والشجاعة ، ويُسَمَّى لذلك الأصلع والأجلح .

وخاتمه خاتم بندر الأهوازي ، وكان أرسله رسول الله ﷺ في سرية إليه ، فغزاه وقتله وسبى أمواله ، فَنَفَلَهُ رسول الله ﷺ سلبه ، وخاتمه من جملته ، وكان مثمناً صَرَفَ في صنعته خراج فارس والأهواز ه .

قال سيدنا : « رأينا سنة حجينا رجلاً شريفاً رافضيًّا ، قائماً عند قبر النبي ﷺ **يصرخ ويقول : يا رسول الله ، ظلمونا وفعلوا بنا . وتَنَصَّفَ كثيراً ، وإذا به على أمورٍ سَلَفَتْ منذ زمان بعيد ، كما فُعل بسيدنا علي وابنه الحسين ، فعجبنا منه . ومن طبع الرافضة الجنون ، يدل عليه مثل قصة هذا ، حتى قال بعض العلماء : لو أن الرافضة كانوا طيوراً لكانوا رُخماً ، ولو كانوا دواباً لكانوا حميراً »** . وتكلم في هذا كثيراً ه .

أقول : وإنما شبَّهَهُم بذلك ، لكون الرُّخْم أخس أنواع الطيور ، والحمير أخس أنواع الدواب ، فكذلك الرافضة أخس أنواع الآدميين .

ورأيتُ في بعض التواريخ ، أن السفاح - أول ملوك بني العباس - أول ما ولي الخلافة وقف في المشاهدة لزيارة النبي ﷺ ، فسمع شريفاً شيعياً واقفاً تلقاء النبي ﷺ ويقول : « يا رسول الله ، ظُلِمْنا بعدك وبُغِيَ علينا وأُخِذَ حَقُّنا » . فقال له السفاح : « من الذي ظلمكم وبغى عليكم وأخذ مالكم؟ »، فقال : « أبوبكر أخذ سهمنا من خيبر وفدك ، فأدخله بيت المال » ، قال : « ومن ولي بعده ؟ » ، قال : « عمر » ، قال : « فما فعل به ؟ » ، قال : « فعل كفعل أبي بكر ، وتمادوا على ظلمنا » ، قال : « فمن ولي بعده؟ » ، قال : « عثمان » ، قال : « فما فعل به ؟ » ، قال : « فعل كفعلهما ، وظلمونا » ، قال: « فمن ولي بعده ؟ » ، قال : « علي » ، قال : « فما فعل به ؟ » ، فانخصم وعرف أنه إنما فعل مثل ما فعلوا ، وانكسرت عينه ، وأراد أن يهرب فقال له السفاح : « فوا الله لولا أن هذا أول مقام قُمتُه فيكم ، لأُنَكِّلَنَّ

بك ، تزعم يا عدو الله أن أبا بكر وعمر وعثمان ظلموكم ؟ وإنما فعلوا مثل ما فعل رسول الله ﷺ وفعل علي » ، وقصة هذا الرافضي كقصة الرافضي الذي سمعه سيدنا عند المواجهة يتشكَّى .

وجهل أواخرهم كجهل أوائلهم ، وتدل قصة هذا الذي سمعه السفاح من أوائلهم ، كقصة الذي سمعه سيدنا من أواخرهم ، ودلت القصتان على كون طبعهم السَّفَه والجهل والحُمق ، وعلى أن مذهبهم مُؤَسَّسٌ على الجهل والبطل ، فَبُنِيَ وأُسِّسَ مذهبهم على الجهل وعدم معرفة الحق والصواب، كما جهل هذان فعل النبي ﷺ وما أسس عليه دينه .

وقد استُنكِرَ أول الإسلام هذا الأمر ، حتى إن فاطمة رضي الله عنها وقع في نفسها شيء على سيدنا أبي بكر ، حيث وَجَّهَ هذه الأموال من فدك وخيبر ونحوها إلى مصارفها التي وَجَّهَهَا إليها رسول الله ﷺ ، التي وجهها بعده إليها الخلفاء الراشدون - كما تقدم في مناظرة السفاح مع ذلك الرافضي - فجاء سيدنا أبوبكر إلى فاطمة يعتذر إليها ، فقالت له : « إذا أنت مُتَّ ، فمَن يَرِثُكَ ؟ » ، قال : « يرثني أولادي وأهلي » ، قالت : « فما لي لا أرثُ أبي ؟ » ، قال : « أبوك قال : إنَّا معشر الأنبياء لا نورث ديناراً ولا درهماً ، ما تركناه فهو صدقة . فاطلبي عليَّ من مالي ما أردتِ ، وأما هذه الأموال فلا عذر لي إلا أن أصرفها مصارفها ، كما فعل رسول الله ﷺ » ، فَرَضِيَتْ على سيدنا أبي بكر ودَعَتْ له ، وانعقد إجماع الأمة على ذلك .

فما بال الرافضي الخبيث يشغُبُ في هذا بجهله وعَمَاه ، ثم إن الخلفاء كلهم عملوا على ما عمل عليه سيدنا أبوبكر ، والأرفاض لجهلهم وعمى قلوبهم يرون الصواب والحق هو الخطأ والباطل ، وأي جهل وعمى قلب أشد من هذا ؟ وقد بُنِيَ مذهبهم وأُسِّسَ عليه ، نعوذ بالله منهم ومما يَدَّعُون ، ومَن جَهِلَ شيئاً أنكره ، ومن العجب أنه ما أُنكِرَ الحق إلا على يد من يبغضهم ، وذلك أشنع عليهم ، وأما المحب فقد يستر بعض الملام .

وَعَيْنُ الرِّضَا عَنْ كُلِّ عَيْبٍ كَلِيْلَةٌ   وَلَكِنَّ عَيْنَ السُّخْطِ تُبْدِي المَسَاوِيا

فالطبع الخبيث عند السخط يُظهِر الحق في صورة الباطل ، فهذا دليلٌ قاطع على خذلان الله لهم ، ومن خَذَلَهُ الله لا مطمع في هداه .

وفي تأخير خلافة سيدنا علي له من المزايا والفضائل ما لا يحصى ، زيادة على ما له من المزايا والفضائل لو تقدمت خلافته ، ولو تقدمت لفاتت تلك المزايا والفضائل ، ولكن أبى الله إلا أن يتمها له ، بخلاف ما يزعم الرافضة الكَذَبَة - الذين يدَّعون محبته كذباً وزوراً ودعوى باطلة - من أن تأخيرها نقص ، ويجادلون بباطلهم أهل الحق أنها متقدمة لا متأخرة ، ولكنهم لا يؤبه لهم لشدة جهلهم ، كما دل عليه

القصتان من الرَّجُلَين : الأول من متقدميهم الذي رآه السفاح ، وهو من أول الإسلام ، والآخر الذي رآه سيدنا من متأخريهم . وبينهما أظن نحو الألف سنة ، فهم من أولهم إلى آخرهم على نَسَقٍ واحد من الجنون والجهل وضعف العقل ، ولذلك مُثِّلوا بالرَّخم والحمير .

والعجب كيف يزعمون محبة سيدنا علي ، وهم يسيئون به الظن ، ويعتقدون أنه مخالفٌ لكتاب الله، لزعمهم أنه أخذ عائشة مُتْعَةً بعد رسول الله ﷺ ، ويكذبون فيزعمون أن ذلك بوصية من رسول الله ﷺ ، كما سمعنا ذلك من طلبتهم ، نعوذ بالله منهم ومن سوء معتقدهم ، كيف يدخل ذلك في عقل من يَدَّعِي الإسلام .

وهذا يشهد لقول سيدنا : « **إن من طبعهم الجنون** » ، فلا جنون وجهل أشد من هذا ، ولو ظُنَّ ذلك في أضعف المسلمين ديانة ؛ لكان في حقه خطأً فاحشاً ، فكيف بمن سَمَّاه رسول الله ﷺ سيد المسلمين ويعسوب الدين ، وقد قال الله سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُواْ رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓاْ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًاۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا﴾ .

قال بعض العلماء : « ما في فرق الإسلام فرقة أشد تصديقاً للكذب وتكذيباً للصدق من الرافضة»، كما يشهد لذلك ما قَدَّمْنا وذَكَرْنا من شأنهم ، وما لم نذكر أكثر ، فإنَّ من طبعهم وشيمتهم أنهم إذا سمعوا الصدق المُحَقَّق من غير أهل مذهبهم كذَّبوه ولا يصدِّقون به قط ، ولو كان في الصحيحين . وإذا سمعوا الكذب المُحَقَّق من أهل مذهبهم صَدَّقوه واعتقدوه ، ولو كان من الخرافات الباطلة التي لا أصل لها ، كما ترى فقهاءهم يفتونهم بل يفتنونهم ، أنه يجوز جمع امرأة وعمتها وخالتها ، ويصدقونهم ويعتقدون حِلَّهُ ويفعلونه ، ولو أنهم يكفرون بذلك ، لانعقاد الإجماع على تحريمه ، ولا يُصَدِّقون من يفتيهم بخلافه ، ولو تحقق لهم ذلك من قول الله ورسوله ، وهذا مما يشهد بخبالهم ، ويدل على جنونهم وجهلهم وعدم إنصافهم ، فليس فيهم عقل وإنصاف فَيُصَدِّقون بالصدق من كل أحد ، ويُكَذِّبون الكذب من كل أحد ، ولم يزل كلامهم متناقضاً ، وكلما يحتجون به ينقلب حجة عليهم ، كما هو شأن من لا عقل له ولا علم . كما وصفوا سيدنا عليًّا بالتقية ، والتقية إنما هي جُبْنٌ وذُلٌّ وعدم اعتناء بإقامة الحق ، ولا يكون ذلك إلا من ضعف الديانة أو عدمها ، ولو وُصِفَ بذلك أضعف الناس إيماناً لكان ذلك تنقيصاً له وذمًّا ، فكيف يصفون به يعسوب الدين وعَلَم الموحِّدين ؟ وهم مع ذلك يدَّعون محبته، فقاتَل اللهُ مَن وَصَفَهُ به ، وهذا أيضاً يدل على جهلهم وجنونهم .

ومن المزايا والفضائل في تأخير خلافة سيدنا علي : أن جعله الله خاتم الخلفاء في هذه الأمة ، كما جعل الله تعالى ابن عمه النبي محمد ﷺ خاتم الأنبياء ، فختم الله به الخلافة الحق ، التي قال فيها رسول الله ﷺ : « الخلافة الحق بعدي ثلاثون سنة ، ثم يكون ملكاً عضوضاً » .

فخُتِمَت هذه المدة المُعَيَّنَة للحق بخلافته ، وبقي منها ستة أشهر تمّمّها خلافة ابنه الحسن ، فجعل الله خلافة علي خاتمة ومتممة لخلافة خاتم الأنبياء ، فإذاً ختم الله به الخلافة الحق كما ختم بمحمد ﷺ النبوة ، فصار بذلك خاتم النبيين والمرسلين وصار عليٌّ بذلك خاتمَ الخلفاء الراشدين نُوَّاب النبي ﷺ ، وهو نائبٌ عن جميع رسل الله أجمعين ، الذين لو أدركوه لم يسعهم إلا اتباعه ، وقد أخذ الله على النبيين العهد والميثاق في ذلك ، ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾، فأخذ الله على الأنبياء أن يتبعوه إن أدركوه ، ويقوموا بها قام به مدة عمره. ثم قام به عنه الخلفاء الراشدون ، ثم ختم خلافتهم بخلافة علي، فأي مزية وفضيلة أعلى وأعظم من هذه ؟ وضعاف العقول المنطبع شأنهم بالجنون ، يَعُدُّون هذه الفضائل والمزايا نقائصَ ، فإن كان في تأخير النبوة نَقْصٌ ، يكون كذلك في تأخير الخلافة ، فما لِعُمْيِ القلوب لا يفقهون ؟ بل إنما ذلك والله – أي التأخير فيهما ، أي النبوة والخلافة – غاية الزيادة والفضل والكمال ، ولكن ما يَعرفُ الفَضْلَ لأهلِ الفَضْلِ إلا أهلُ الفَضْل . ففي تأخير نبوة النبي ﷺ أكبر الفضائل وأقرب الوسائل ، حتى إنه عند الله موصوف بأنه خاتم النبيين والمرسلين ، وكذلك عند الملائكة أجمعين وعند سائر النبيين والمرسلين ، وعند الأولين والآخرين، وعند جميع طوائف المخلوقين ، كما إنه له عند كل طائفة من المخلوقات اسمٌ ، كما سنذكر ذلك فافهمه ، فكذلك يكون مِثْلَ ذلك مِنْ وَجْهٍ في خَتْمِ الخلافة الحق الشريفة ، فأين دعوى الكَذَبَة النقص ؟

وقد ذَكَر الحسين بن محمد الدامغاني في كتابه « شوق العروس وأنس النفوس » ، نقلاً عن كعب الأحبار أنه قال : « إن اسم النبي ﷺ عند أهل الجنة عبدالكريم ، وعند أهل النار عبدالجبار ، وعند أهل العرش – أي حملة العرش – عبدالحميد ، وعند الملائكة عبدالمجيد ، وعند الأنبياء عبدالوهاب ، وعند الشياطين عبدالقهار ، وعند الجن عبدالرحيم ، وفي الجبال عبدالخالق ، وفي البَرِّ عبدالقادر ، وفي البحر عبدالمهيمن ، وعند الحيتان عبدالقدوس ، وعند الهوام عبدالغياث ، وعند الوحوش عبدالرزاق، وعند السباع عبدالسلام ، وعند البهائم عبدالمؤمن ، وعند الطيور عبدالغفار ، وفي التوراة مرد مرد، وفي الإنجيل طاب طاب ، وفي الصحف عاقب ، وفي الزبور فاروق ، وعند الله طه ويس ، وعند المؤمنين أحمد ومحمد ﷺ » . وفي دلائل الخيرات ذكر له مائتي اسم وواحد .

ومن تلك المزايا والفضائل في تأخير خلافة سيدنا علي : أن الله سبحانه شرع أحكاماً على يد نبيه، أنزلها في كتابه على نبيه ، وأجراها في شريعته ، ولكنه تعالى أَخَّرَ ظهورها إلى وقت خلافته ، حتى أظهرها الله في وقته وعلى يديه ، وهي أحكام البغاة وما يتعلق بهم ، وقد قال الله تعالى فيها : ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ

مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾، فهذا نص كتاب الله في قتال البغاة ، فكان قتاله كله لإقامة أمر الله ، واتباعاً لِحُكْمِهِ في هذه الآية من كتاب الله ، على ما شرعه الله على لسان رسوله . فلهذا قال رسول الله ﷺ : « عليٌّ والقرآن في قَرَن ، لن يفترقا حتى يَرِدَا عَلَيَّ الحوض » ، كما تقدم الحديث ، فلهذا كان باب مدينة علم النبي ﷺ ، كما قال : « أنا مدينة العلم وعليٌّ بابها » ، وقال بعض الصحابة : « والله لولا علي ما عرفنا كيفية أحكام البغاة هذه » .

ولهذا استنكرتها عقول أصحابه فأنكروها ، وحُقَّ لها أن تستنكرها عقول العامة ، إلا الكُمَّل في العقل والعلم ، حتى خرج عليه من عسكره الذين كانوا معه في صفين عشرة آلاف ، قالوا : « ما لك تقتل النفوس ولا تسبي ؟ » ، واعترضوا عليه ، فأمر ابن عباس أن يناظرهم لغزارة علمه ووفور عقله، فناظرهم وكانوا عشرة آلاف ، فقال : « ما تُنكِرون على خليفتكم ؟ » ، فقالوا : « نُنكِرُ عليه أنه يقتل النفوس ولا يسبي » ، فقال لهم ابن عباس : « لو سبى عائشة يوم الجمل ، أَيَحِلُّ لأحدكم منها ما يَحِلُّ له من جاريته ، وهي أم المؤمنين وزوجة نبيكم ؟ » ، فقالوا : « لا » ، قال : « فلذلك لا يسبي » ، ونحو ذلك ، فرجع بمناظرته لهم ستة آلاف ، وبقي أربعة .

وقد سُئِلَ سيدنا علي : « ما تقولَنَّ في هؤلاء الذين تقتلونهم ؟ » . قال : « إخوانُنا بَغَوْا علينا ، وقد أُمِرْنا بقتالهم في الآية » ، وذكرها . والباغي هو الذي يقاتِلُ الإمامَ المُبَايَع له ، وسيدنا علي هو المُبَايَع له، وهؤلاء يقاتلونه كما قتلوا المذكور من الصحابة وزوجته .

وأما الأربعة الآف الذين أصروا على العناد ، وقتلوا الصحابي خَبَّاب بن الأرت وزوجته وكانت حاملاً ، فقال لهم سيدنا علي : « ادفعوا لنا الذين قتلوا إخواننا نقتلهم بهم ، النفس بالنفس » . فأَبَوْا وقالوا : « كُلُّنا قَتَلَهُم » ، قال : « إن أقررتم على أنفسكم بالقتل لزم قتلكم كلكم » .

وهؤلاء هم الخوارج الذين يبغضونه وأهل بيته ، وعالجهم على ذلك فامتنعوا ، فأمر الجيش أن يحيط بهم ، فأحاط بهم كالحلقة ، فقتلهم عن آخرهم ، ما عدا سبعة نفر ، هربوا وتفرقوا في الجهات ، وصار لكل واحد منهم ذرية إباضة ، يبغضون سيدنا علي وذريته ، فواحد فَرَّ إلى الأندلس ، وواحد إلى عمان ، وواحد إلى ما وراء النهر ، وواحد إلى ناحية العراق ، وواحد إلى حضرموت ، وصار سكنه بلد العرض التي تحت مدينة شبام ، ولهم فيها حافة تسمى باسمهم ، فاسمهم الخوقة وتسمى حافتهم الخوقة . وأنكروا نسب السيد أحمد بن عيسى لمَّا جاء هناك سنة ٣١٧ ، حتى حَجَّ ابنه عبدالله مع جماعة من أهل حضرموت ، نحو ثلاثمائة ، والتقى بهم مع ثلاثمائة من أهل العراق ، فسألهم عن نسبه والحضارم يسمعون ، فذكروا له نسبه إلى سيدنا الحسين ، فانعقد الإجماع على صحة نسب آل باعلوي، وصار أشهر أنساب السادة بهذه القصة . ثم ما زال أولئك الإباضة يَضْمَحِلُّون ، حتى انقرضوا في

القرن السادس ، ولم يبق لهم باقية ، فبنى الشيخ عبدالله بن محمد با عباد القديم مسجداً في حافتهم ، قال : « أريد أُطَهِّر تلك البقعة من نجاستهم » ، وسَمَّاه : مسجد الخوقة ، وكان بناه في القرن السادس ، والشيخ عبدالله من تلامذة الفقيه المقدم .

وأخبر النبي ﷺ أصحابه بأن علياً أقضاهم وأفقههم في الدين ، ولذلك كان سيدنا عمر لا يقضي في شيء من الوقائع إلا بما قضى به علي ، وقال : « لا كانت معضلة لم يقض فيها أبو الحسن » .

وسنذكر شيئاً من نوادر قضاياه تتمة لمادة كلام سيدنا عبدالله نفع الله به ، فأجرى الله أحكام هذه الأمور في وقته ، وبَيَّنَهَا على يديه بعد ما أُنزِلَت على رسول الله ﷺ وبُيِّنَت على يديه بالجملة ، ووعد بوقوعها فَبُيِّنَت على يد عليٍّ بالتفصيل ، لأن وقته حينئذ وقت جريانها التي وَقَّتَهُ الله لها ، وقبل تجري يكفي ذكرها بالإجمال عن التفصيل ، وفي وقت جريانها لا يكفي فيها إلا التفصيل ، وتبيين أمورها كل واحد بِجِدَتِه ، كمعرفة جواز قتال البغاة ، وعدم جواز السبي ، وما أحد علم بتفصيلها قبل يفصلها عليٌّ كرم الله وجهه .

وكذلك أنزل الله على رسول الله ﷺ أحكاماً ، وبُيِّنَت على لسانه بالإجمال وأَخْبَرَ بها ، ولكن أَخَّرَ اللهُ وَقْتَهَا ، وأجرى أحكامها إلى وقت خروج عيسى ، وجعل تبيين أحكامها على يديه ، وأخبر أن تلك أحكامٌ من شريعة محمد ﷺ أُخِّرَ إجراء أحكامها إلى وقت خروجه ، لأنه جاء بحكمها ، لِمَا تقرر عنده وعند سائر المرسلين أن محمداً خاتم النبيين ، وأن الله سبحانه ختم بشريعته جميع شرائع المرسلين ، ولا يصح العمل بها قبل خروجه ، وذلك كوضع الجزية وكسر الصليب وقتل الخنزير ، وأن لا يقبل من أهل الكتاب إلا الإسلام أو القتال ، ولا يجوز إبقاؤهم على ما هم عليه بأخذ الجزية كما كان أولاً قبل خروج عيسى .

فكذلك جعل الله سيدنا علي خاتم الخلفاء ، وظهرت على يديه تلك الأحكام ، وما ظهرت قبله ، وشَبَّهَهُ في ذلك بالأنبياء ، فأي زيادة فضل أعلى من هذا ؟ وذلك على رغم أنف من أبى ذلك وادَّعاه نقصاً وقطع بخلافه ، فقاتله الله ما أعمى قلبه وأجهله ، بل وأَجَنَّهُ وأغفله ، فهل يُنْكِرُ هذه الفضائل إلا مَن عَمِيَ قلبه وأبعده شدة التعصب بالباطل عن قبول الحق ، حتى عَدَّها رذائل ، من شدة جهله وضعف عقله .

والعدو القالي يَعُدُّ الفضائل رذائل ، والمحب الغالي بالعكس ، يَعُدُّ الرذائل فضائل ، والمنصف المتوسط الذي يُحِقُّ الحقَّ ويُبطِلُ الباطل ، فيعد الفضائل فضائل ويعد الرذائل رذائل ، وأنَّى لك بذلك اليوم لغلبة الهوى وتمكُّن الشيطان منهم ، حتى جَرَّهُم إلى الردى وصدهم عن طريق الهدى .

فلا تستبعد ذلك ، فقد اعتقد الرافضة في فضيلة سيدنا أبي بكر التي لم يشاركه فيها أحد ، وهي مبيته في الغار مع رسول الله ﷺ ، وجعلوها أكبر الرذائل وقالوا : « إنه آذى الرسول تلك الليلة من شدة خوفه ، حتى قال لمَّا مَرَّ الكفار عليهم ولم يروهم : يا رسول الله ، لو نظر أحدهم تحت رجله لرآنا»، فقال رسول الله ﷺ : « يا أبابكر ، ما ظَنُّكَ باثْنَيْنِ ، اللهُ ثالثهما » ، وما قال سيدنا أبوبكر ذلك إلا خوفاً على رسول الله ﷺ ، لا خوفاً على نفسه ، وأراه رسول الله ﷺ سفينة في ساحل البحر ، وقال: « لو جاؤونا ركبنا في هذه السفينة ، وعمدنا إلى السفر في هذا البحر وما قدروا علينا » .

فاعجب لأمر الله كيف تَقْصُرُ عنه عقول الخلق واعتقادهم أن ذلك رذيلة ، مما يدل على جنونهم وجهلهم وخذلان الله لهم .ولله سبحانه وتعالى حِكَمٌ وأسرار في إجراء خلقه على ما أراد منهم ، فكلهم يجري في مراده كما قال سبحانه : ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ ﴾.

وقال سيدنا في بعض مكاتباته : « **والخلق كلهم مقهورون في عين اختيارهم لِمَا يريده اللهُ منهم ، ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ ﴾** » ، وقال أيضاً في بعض المكاتبات : « **وكلٌّ أحدٍ يسعى لِمَعَادِهِ، بِدَاعٍ قد دعاه ، أو مُحَرِّكٍ قد حَرَّكَهُ من حضرة الأقدار الإلهية ، ولكن لا عذر لمن لم يعذره الله ، ومَن عَذَرَهُ اللهُ ؛ فهو سبحانه أولى بالفضل والكرم** » ، كما قال : « **والخلق مكلوفون لما خُلِقُوا له** » ، أي مقهورون لذلك، وهو كما في الحديث : « كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ له » . فمنهم المطيع ومنهم العاصي ، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر ، ومنهم السعيد ومنهم الشقي ، ومنهم الحَسَنُ الخُلُق ومنهم سَيِّئُه ، ومنهم رصين العقل ومنهم أحمقه ، إرادة منه سبحانه ، ما أراد لمن أراد .

فكلهم وإن اختلفت أحوالهم في مراده ، ولو استنكر الخلق ذلك ورأوا أن الصواب خلافه ، كما اختلف فيه الصحابة واختلف الملائكة ، كما تقدم في تلك المسألة في القضاء والقدر ، وسأل عنه كبار الرسل من أولي العزم ، وقضى فيه النبي ﷺ بين صاحبيه أبي بكر وعمر ، وقضى به إسرافيل بين جبريل وميكائيل . ولا يَطَّلِع على تلك الحِكَم والأسرار إلا الله سبحانه ، ولكن قد يُطْلِع بعضَ الخواص على بعض تلك الأسرار ، وكلها منطوية في علمه القديم الأزلي ، لا يَطَّلع عليه غيره ، وليس على ما تقتضيه عقولهم وما تستصوبه أفهامهم ، وما يَدَّعُونه من المعرفة وما يرونه الصواب ، فإن ادَّعى مُدَّعي أنه يَطَّلِع على شيء من الغيوب ، فليُخبِرْ بِمَ ذا سُبِقَ له ، وبِمَ يُختَم له ؟ فإن عجز عن ذلك فهو عن غيره كذلك ،﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾، ومن ادَّعى ذلك يُعْجِزه الله ، ولا يجوز التكلم في ما يجري من أمر الله ، ومن تكلم فيه يخزيه الله .

وقد ادَّعَى ضَرَّابُ رَمْلٍ لهارون الرشيد ، وقال : « ضَرَبْتُ في الرمل ، فرأيتُ أنه ما بَقِيَ من عمرك إلا ثلاثة أيام » ، فجزع هارون من ذلك جزعاً شديداً ، وضاقت به الأرض برحبها ، فدعا وزيره جعفر

البرمكي ، وكان يُفَرِّجُ عنه معضلات تقع عليه كهذا ، فقال له : « إن هذا زعم أنه ضرب في الرمل ، فرأى ما بقي من عمري إلا ثلاثة أيام » ، قال : « اسأله ما بقي من عمره هو » . فسأله ، فقال : « بقي من عمره هو خمسون سنة » ، قال : « فاضرب عُنقَه » . فضرب عنقه فقتله ، فقال جعفر : « ألا تراه كَذَبَ في حق نفسه ، كذلك كَذَبَ في حقك » ، فقال : « فرَّجْتَ عني فرَّجَ اللهُ عنك » ، وكان هارون يحبه كثيراً لما يحصل له من مثل هذه ، لكن مسار الدنيا تَعْقُبُها مضارها ، ثم إن هارون صلب جعفراً في قصة البرامكة ، حتى مات مصلوباً معلقاً برجليه من أعلى ورأسه من أسفل ، وهذا أمر أراده الله بجعفر وقومه ، وأجراه في قدره وسابق علمه . والله سبحانه إذا أراد أن يُجريَ أمراً مما هو مخزونٌ في عِلْمِ غَيْبِهِ ، أن يجريه على يد أحد من الخلق ، أجراه على يده وألهمه إياه ، سواءٌ كان آدمياً ، ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ﴾، أو حيواناً ، ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى ٱلنَّحْلِ﴾، أو جماداً ، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝﴾ ، وهي الأرض تخْبِرُ بما عُمِلَ عليها من خيرٍ أو شرٍّ ، بأمر الله لها بذلك ، ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝﴾، ﴿شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَٰرُهُمْ وَجُلُودُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ۝ وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾.

ويكفيك شاهداً عجيباً في هذا المعنى ، أن الله سبحانه حيث أراد أن يُسَمَّى نبيه محمد ﷺ باسمه هذا محمد ، الذي سَمَّاه سبحانه به في سابق علمه ، وذَكَرَهُ به في كتبه المتقدمة التي أنزلها على رسله ، وكتب اسمه محمد على قوائم عرشه وعلى باب الجنة ، أَلْهَمَ جَدَّهُ عبدالمطلب أن يُسَمِّيَهُ باسمه عند الله محمد ، وذلك في الجاهلية الجهلاء ، بين أقوام جُهَّال ، لا قرأوا كُتُباً ، ولا طالعوا في علم ، ولا علموا بذلك الإسم الشريف ، ولا أعلمهم به أحد ، ولا أحد أشار عليه بتسميته به ، حتى سُئِلَ عبدالمطلب عن ذلك ، وقيل له : « لم سَمَّيْتَ ابنك محمداً ، ولم يكن من أسماء آبائك ؟ » ، قال : « رَجَوتُ أن يَحْمَدَهُ أهلُ السموات وأهل الأرض » . فحقق الله رجاه ، فكان محموداً عند الله ، وعند أهل السماوات وعند أهل الأرض ، وعند جميع طوائف الخلق ، كما قدمنا أسماءه عند جميع الطوائف ، فسبحان من ألهمه وأجراه على ما أراده الله سبحانه ، وإلا فما عَلِمَ أن ذلك هو اسمه عند الله ، ولا أخبره بذلك أحد ، وإنما ذلك إجراءٌ من الله سبحانه مَن أراد لما أراد .

فكذلك أجرى الله جميع مَن أراد بجميع ما أراد من خير أو شر ، لِمَا أراد من جزاء كل أحد بما أراد له ، من جزاء خير أو جزاء شر ، وقد يتخلف جزاء الشر بالعفو ، فضلاً ، وقد يتخلف العمل دون الجزاء ، عدلاً ، ويُبيِّنُ ذلك قوله تعالى : ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝﴾، يعني يُرَاهُ وَيُجزَى عليه ولابد، ﴿وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝﴾، يعني يُرَاهُ ، وقد يُعفَى عنه فضلاً ، وقد يُجزَى عليه عدلاً ، وقد يُقطَع عن عمل الخير في الدنيا بعدما عمله ، فيرجع إلى الكفر ، كإبليس وبلعام وبرصيص وغيرهم ، وقد

يرجع إلى التقصير في العبادة مع بقائه على الإيمان ، كل ذلك بحسب الإرادة الإلهية والمشيئة الأزلية .

ولمَّا رآه آدم مكتوباً على باب الجنة ، قال : « يا رب ، من محمد ؟ » ، قال الله سبحانه : « هو ابنك، سأُخرِجُهُ من صلبك ، وأنت أبو محمد » . فكُنِّي بذلك ، وعُرِفَ به عند الملائكة ، وقال الله تعالى لآدم: « إذا أردتَ مني حاجةً ، فتوسل إليَّ به ؛ اقضها لك وأعطك ما سألتَ » ، فآمن به آدم ، وقال : « آمنتُ بمحمد » ، فقال الله تعالى : « قد أَفْلَحْتَ يا آدم بإيمانك ، وزَادَتْ منزلتك عندي » . فلما أصاب الخطيئة توسل به وقال : « يا رب ، بحرمة هذا الولد ارْحَمْ هذا الوالد » ، فغفر الله له وقال : « يا آدم ، لو توسَّلْتَ إلينا بمحمد في جميع الخلق لغفرتُ لهم - أو قال : لَشَفَّعْنَاهُ فيهم - » . أو كما قال .

فإذا عرفتَ واعتقدتَ أن كل ما وقع من أمر في مملكة الله فهو مراد الله ، ولو استُنكِرَ طبعاً وعادةً، بل وشرعاً ، ومن ذلك استَنكَرَ الرسل المتقدم ذِكْرهم ، إلا أن الشرع مطلوب من جميع الخلق اتِّباعه، وأن يشاع ويذاع ، وذلك على ألسنة الأنبياء المرسلين ، والأولياء والصالحين ، وكافة الخلق أجمعين، وذلك بمقتضى الإرادة الشرعية ، وكفى ولكن لا محيص لها عن الإرادة الأزلية ، كما تقدم بيان الإرادتين في مقالة سيدنا المتقدمة ، وبَيَّنْتُ أن جميع الخلق مكلوفون أي مقهورون ولو مع الإختيار ، أن يسعوا لما أراد الله منهم وخلقهم لأجله ، من خير أو شر ، وأنه أراد لهم بالإرادة الأزلية ، أحداً سعادةً وخيراً ، وأحداً شقاوةً وشراً ، لا محيص لهم من ذلك .

ولكن خَصَّصَ من أراد بهم السعادة والخير باتباع الإرادة الشرعية ، وأزعجهم إلى العمل بما طُلِبَتْ ، وجَنَّبَ ذلك من أراد بهم ولهم الشقاوة والشر ، كما قال : « **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور** » ، أي وافق أحوال الشقاوة وأعمالها ، ولم يوافق أحوال السعادة وأعمالها ، فإرادة الله الأزلية ومشيئته الإلهية تُخَصِّصُ كل من أراد الله بما أراد الله ، فيدخل الجنة عَبْدٌ حَبَشِيٌّ ، ويدخل النار شَيْخٌ قُرَشِيٌّ ، بل هاشِمِيٌّ من أعمام رسول الله ﷺ ، فكذلك العز والذل ، والتولية والعزل ، فأراد الله تمليك طالوت على بني اسرائيل ، وكان دباغاً ، وليس من بيت النبوة ولا من بيت المملكة ، فأنكروا توليته عليهم لذلك ، وكرهوا أن يكون مَلِكاً لهم وأَبَوْا ذلك ، حتى ثبت ملكه عليهم بأمر الله وإرادته ، وأظهر لهم من العلامات والكرامات الدَّالة القاطعة بإرادة الله له ذلك .

فاعلم بهذا المثال والتمثيل أنه لا يكون شيء إلا على ما أراد سبحانه تحقيقاً .

وإذا أراد أمراً وقع ما أراد ، من خير أو شر أو نفع أو ضر ، على من ظهر عليه وجرى على يديه الخير والشر ، كما رأيت من الملوك ، مَن هو المصلح ومَن هو المفسد ، وإن كان الحُكْم يُخَصِّص ، إنما المراد مطلقاً إلا الخير فقط دون الشر ، وأن يعم بهذا الخطاب كافة الخلق ، وأوجب على الأنبياء و المرسلين تبليغه إليهم ، وكذلك نُوَّابهم الدعاة إلى الله ، كما قال سيدنا عبدالله وسمعته غير مرة يقول :

« إنما نحن نمشي على الطريقة العامة ، المخاطَبُ بها جميع الخلق ، ولكنَّ الله سبحانه يُخَصِّصُ مَن أراد بما أراد » . فهكذا حكم كل ما يجري على أيدي جميع الخلق ، وما يجري عليه جميع الخلق ، لا يكون من ذلك إلا ما أراده سبحانه ، وإن وجب على الإنسان في خاصته أن يختار الأصلح ، ولا يتبع إلا الأنفع له في دينه ودنياه ، فيتبعه ويتجنب ما يضره وما لا ينفعه ، ولذلك أعطاه الله العقل وكَمَّلَهُ به ، ليتبع ما دعاه إليه ، ويتجنب ما نهاه عنه ، وبذلك تظهر جواهر الرجال ويتبين أهل الكمال من الأراذل الأنذال، كما ستسمع من أحوال الخلفاء الراشدين وأحوال الصحابة أجمعين ، و لكن مراد الله من وراء ذلك ، ومن وراء تدبيرنا ، لله تدبير .

فإذا عَرَفْتَ وسَمِعْتَ ، وإن كنتَ تعرفه ، أنَّ كل ما يجري عليه الخلق وما يجري على أيديهم من خير أو شر ، كل ذلك هو مراد الله ممن جرى عليه وعلى يديه ، فكذلك الخلافة الحق بعد النبي ﷺ ، إنما وَقَعَتْ على هذا الترتيب من الخلافة والخلفاء ، فذلك بمراد الله وكما أراده الله وعلى الوجه الذي أراده سبحانه ، فلا يجوز لأحد ينكره ويعترض عليه ، وكل من أنكره فهو لئيم لا يُعَوَّلُ عليه ، ويُعَدُّ عَدَماً لا يُذكَر . ودليل ذلك ما ورد في صحيح البخاري رأيته فيه ، ولعله في صحيح مسلم أيضاً ، من حديث ابن عباس رضي الله عنهما ، أن النبي ﷺ أراد أن يكتب كتاباً ، وصيةً بالخلافة لأبي بكر رضي الله عنه، ثم بدا له أن لا يكتب ، فترك ذلك وقال : « يأبى الله ، ويدفع المؤمنون » ، أو قال : « يدفع الله ويأبى المؤمنون » ، قالها مرتين أو ثلاثاً . فقوله : « يأبى الله » ، أي يأبى الله أن يَلِيَ الخلافة إلا أبوبكر ، فَوَكَلَها إلى إرادة الله ، علماً منه أنه لا يكون إلا ما أراد الله ، وعَلِمَ أن الله سبحانه ما يريدها إلا لأبي بكر ، ولو كان ذلك بسبب متسبب ، وهو معنى قوله ﷺ : « ويدفع المؤمنون » ، أي يدفعون ويمتنعون أن تُجعَل الخلافة إلا لأبي بكر ، فهو مراد الله أن يكون هو المتقدم في الخلافة ، ثم تكون على ترتيبهم ، فكان ذلك هو مراد الله ومراد رسوله ومراد المؤمنين ، وغيرهم تبعاً لهم .

وأن الله سبحانه أراد من كلِ واحد منهم أموراً ، من تأييد دينه وإعزازه وتقويته وإكرامه ، تظهر على يديه في وقت خلافته ، قد وَقَّتَها به كما وَقَّتَ لكلِّ مقاديرِه أوقاتاً تخصها ، من إحياء أمور من الدين وإخماد أمور من المنكرات ، كما وقع من كل واحد من الخلفاء الراشدين في وقته ، من الجهاد في سبيل الله وإعلاء كلمة الله ، ونصرة دين الله وإقامة أحكام الله ، إلى غير ذلك مما وقع من كل واحد ما وقع منه في وقت خلافته . فافهم ، فإنه واجب اعتقاده وهذا من العلم المكنون .

ففي وقت أبي بكر ، لمَّا ارتد الناس عن الإسلام وضعف أمر الدين ، واستطال الكفار والمرتدون على المسلمين ، فانتدب أبوبكر لقتالهم ، فتقاعس الناس عن ذلك لما استضعفوا أنفسهم واستَقْوَوْا عدوهم ، وقيل له : « ما أحد يساعدك على ذلك » ، وكانوا إذ ذاك في المسجد ، فقال : « إن لم تساعدوني

قاتَلْتُهم ولو بالذبر ، أأترك الناس يخروجون عن دين الله وأنا على ظهرها ؟ » ، فما أحسوا إلا بالذبر قد خرجت عليهم ، حتى فروا من المسجد خوفاً منها ، فعرفوا أن هذه كرامة خارقة للعادة ، قد جعلها الله كرامة لأبي بكر ، وأن الله ما أجراها إلا لتصويب قيامهم لقتال المرتدين والكافرين .

فقاموا معه وانتدبوا لقتال أعداء الله ، وابتدأ بمعشِّش الردة ورؤوس المرتدين من أهل اليمامة ونواحيها ، التي أشار إليها رسول الله ﷺ أنها منبع الفتن ، وحيث يطلع قرن الشيطان ، فقتل الله على يديه كبش الردة مسيلمة الكذاب ، وأفنى رؤساءهم ومرؤوسهم ، فأذل الله على يديه أهل الردة وقهرهم ، ورَدَّهم إلى دين الإسلام قهراً ، ثم قام في جهاد الكفار وافتتح جملة من بلدان الشام والروم .

فانظر كيف شد الله لذلك عزمه وسدد أمره لما هنالك ، وأيَّده وأجراه على يديه ويَسَّرَ له أسبابه وأعانه عليه ، وذلك إرادة من الله سبحانه أن يكون في وقته وعلى يديه ، لِمَا أراده الله له وجَرَّأه على ذلك، لما أراد الله له من الكرامة التي لا يعلمها إلا الله سبحانه .

ثم في أيام عمر ، لما أعطاه الله تلك الهمة العالية والنية الصالحة والإعانة البالغة ، حتى افتتح بلاد الروم ومصر والشام بالتمام ، وصارت كلها ديار إسلام ، وغير ذلك مما لا يحصى ، فذلك إرادة الله في وقته وعلى يديه . ثم عثمان كذلك ، مما جرى منه من الجهاد في سبيل الله ، وما جرى عليه من أعداء الله، فكل ذلك إرادةُ الله ، وجرى بأمر الله وبقضاء الله وتقدير الله . ثم خلافة سيدنا علي ، وما ختم الله له من الخلافة الحق ، وما جرى على يديه من بيان تلك الأحكام البغائية ، والنوادر في بيان تلك المسائل الغامضة ، فذلك إرادة الله منه في وقته .

ولهم رضي الله عنهم مقاصد حسنة يرشدهم الله إليها ، ويكون سبحانه هو المتولي لهم فيها ، لقوله تعالى : ﴿وَهُوَ يَتَوَلَّى ٱلصَّٰلِحِينَ﴾، فإذا وَقَّتَ الله هذه الأمور في أوقاتها التي عينها فيها في سابق تقديره على يد من أراد منه ذلك ، وخص كل شيء منها في وقته وعلى يد من أراد ؛ فما لجاهلٍ غِرٍّ ، بل مجنون يعترض ويقول : فلان أولى بها من فلان . فلو كان رأيك واستصوابك أيها المعترض ينفع لَنَفَعَك ، حتى إن معصية آدم جعلها الله حُجَّةً لتنفيذ أمره وإتمام مراده ، كما تقدم من قول سيدنا : « **إن الله لا يأخذ إلا بالحُجَّة** » ، فإنَّ الله سبحانه إنما خلق آدم ليعمر به الأرض وبذريته ، فينزل عليهم أحكامه على أيدي رسل منهم ، فيأمرهم بأحكام وينهاهم عن أمور ، ووعد من أطاع بجنته ، ومن عصاه بناره ونقمته ، ووعد الدارين بملئهما .

ثم إن الله تعالى خلق آدم في الجنة ليشتاق إليها هو وذريته فيعملون عملها ، ثم إن إنزاله منها إلى دار الوحشة عقوبة ، فَجَرَّهُ إلى تلك الخطيئة بسلاسل القضاء والقدر ، لتتم عليه الحجة بإنزاله ، وهي أكله من الشجرة ، فعتب عليه بقوله : ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ

﴿ٱلْجَنَّةِۚ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾، إلى آخر ما قال سبحانه، فتمت له الحجة بإنزاله ، وتم ما أراد منه من عمارة الأرض ، كما أشار سيدنا إلى ذلك فيما قدمنا ، وهو قوله : **« وهذه الأمور قد وَرَّثَهَا آدمُ ذريتَه »** ، يعني ما حصل له من الطاعة والمعصية والتوبة منها ، ومرة قال : **« وهذه الأمور قد أَسَّسَها آدمُ لذريته »** .

وقس على ذلك جميع ما كان من خير أو شر ، أو طاعة أو عصيان ، أو نفع أو ضر ، فالكل بمراده سبحانه ، وله في ذلك مراد ، وكل ذلك من الأمر الذي أرسل به رسول الله ﷺ ، كما أشار إليه الراهب الذي رآه سيدنا أبوبكر في اليمن عام بُعِثَ رسول الله ﷺ . فافهم جميع ذلك ، و أَلْقِ له بالك .

والقصة المشار إليها ينبغي ذِكْرها ، حيث أشار فيها إلى معاوني رسول الله ﷺ على أمره ، أشار إلى اثنين من الخلفاء ، ويدخل في ذلك كلهم .

وذكر محمد بن ظفر في كتاب سيرة خير البشر ، قال : « روى عبدالله بن مسعود عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنه قال : خَرَجْتُ إلى اليمن في تجارة ، قبل مبعث النبي ﷺ ، فَنَزَلْتُ على شيخ من الأَزْد ، عالم قد قرأ الكتب وحوى علماً كثيراً ، وأتى عليه من السن ثلاثمائة وتسعون سنة . قال : فتأَمَّلَنِي ، فقال : أحسبك حَرَمِيًّا ، قلتُ : نعم ، أنا من أهل الحرم ، قال : أحسبك تَيْمياً ، قلت : نعم، أنا من تيم بن مرة ، أنا عبدالله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة ، قال : بَقِيَتْ لي فيك واحدة ، قلت : ما هي ؟ ، قال : اكشف لي بطنك ، قلت : لا أفعل ، أو تخبرني لِمَ ذاك؟، قال : إني أجد في العلم الصحيح الصادق ، أن نبياً يُبعَثُ من الحرم ، يعاونه على أمره فتى وكهل ، أما الفتى فخَوَّاضُ غَمرات وكَشَّاف مُعضِلات ، وأما الكهل فأبيض نحيف ، على بطنه شامة ، وعلى فخذه اليسرى علامة ، فلا عليك أن تريني ما خفي عَلَيَّ .

قال : فَكَشَفْتُ له عن بطني فرأى شامةً سوداء فوق سرتي .فقال : هو أنت ورب الكعبة ، وإني متقدم إليك في أمر فاحذره ، فقلت : وما هو ؟ ، قال : إياك والميل عن الهدى ، وتمسك بالطريقة المثلى، وخف الله في ما أعطاك وخَوَّلَك . قال أبوبكر رضي الله عنه : فقضيت باليمن أربي ، ثم أتيت الشيخ لأودعه ، فقال : أحامِلٌ أنتَ مني أبياتاً إلى ذلك النبي ؟ فقلت : نعم ، فأنشأ يقول :

أَلَمْ تَـرَ أَنِّي قَـدْ سَـئِمْتُ مَعَـاشِرِي ... وَنَفْسِي وَقَدْ أَصْبَحْتُ فِي الحَيِّ رَاهِنا
حَيِيْـتُ وَفِي الأَيَّـامِ لِلْمَـرْءِ عِـبْرَةٌ ... ثَـلاثُ مِئِـينٍ ثُـمَّ تِسْـعِيْنَ آمِنَـا

وَصَاحَبْتُ أَحْبَاراً أَنَارُوا بِعِلْمِهِمْ ... غَيَاهِبَ جَهْلٍ مَا تَرَى فِيْهِ طَابِنَا
وَكَمْ عَنْشَلِيْلٍ رَاهِبٍ فَوْقَ قَائِمٍ ... لَقِيْتُ وَمَا غَادَرْتُ فِي الحَيِّ كَاهِنَا
فَكُلُّهُمُ لما تَفَطَّنْتُ قَالَ لِي : ... بِأَنَّ نَبِياً سَوْفَ تَلْقَاهُ دائنا
بِمَكَّةَ وَالأَوْثَانُ فِيْهَا عَزِيْزَةٌ ... فَيُرْكِسُهَا حَتَّى تَرَاهَا كَوَامِنَا
فَمَا زِلْتُ أَدْعُو اللهَ فِي كُلِّ حَاضِرٍ ... حَلَلْتُ بِهِ سِراً وَجَهْراً مُعَالِنَا
وَقَدْ خَمَدَتْ مِنِّي شَرَارَةُ قُوَّتِي ... وَأُلْفِيْتُ شَيْخاً لا أُطِيقُ الشَّوَاجِنَا
وَأَنْتَ وَرَبِّ البَيْتِ تَلْقَى مُحَمَّداً ... بِعَامِكَ هَذَا قَدْ أَقَامَ البَرَاهِنَا
فَحَيِّ رَسُولَ اللهِ عَنِّي فَإِنَّنِي ... عَلَى دِيْنِهِ أَحْيَى وَإِنْ كُنْتُ وَاهِنَا
فَيَالَيْتَنِي أَدْرَكْتُهُ فِي شَبِيْبَتِي ... وَكُنْتُ لَهُ عَبْداً وَإِلَّا العُجَاهُنَا
عَلَيْهِ سَلامُ اللهِ مَا ذَرَّ شَارِقٌ ... فَأَلَّقَ هَفْهَافاً مِنَ النُّورِ هَافِنَا
وَمَا نَسَجَتْ بِالجِلْهَتَيْنِ وَشِيْجَةٌ ... وَمَا خَلَّدَ الطَّودُ المتالع عَادَنَا

قال أبوبكر رضي الله عنه : فحفظت وصيته وشعره وقدمت مكة ، فجاءني صناديد قريش ، فجاءني شَيْبَةَ وأبوجهل بن هشام ، وأبو البختري ، وعقبة ابن أبي معيط ، ورجال من قريش يُسَلِّمُون عَلَيَّ ، فقلتُ : هل حدث أمر ؟ ، قالوا : حدث أعظم الخطوب ، هذا محمد بن عبدالله يزعم أنه نبيٌّ، أرسله الله إلى الناس ، ولولا أنت ما انتظرنا به ، فإذ جئت فأنت البُغية النهية ، قال : فأظْهَرْتُ تعجباً وصرفتهم فتفرَّقوا ، وذهبت أسأل عن رسول الله ﷺ ، فقيل لي : هو في بيت خديجة . فجئت فقرعت الباب عليه، فخرج إليَّ ، فقلت : يا محمد ، فقدت من نادي قومك واتهموك بالغيبة وتركت دين آبائك. وفي رواية : فقدت من منازل أهلك وتركت دين آبائك وأجدادك . فقال : يا أبابكر ، إني رسول الله إليك وإلى الناس كلهم ، فآمن بالله . فقلت : وما آيتك ؟ وفي رواية : وما دليلك على ذلك؟ قال : الشيخ الذي لَقِيته في اليمن ، قلت : وكم من شيخ لقيت باليمن ، وبعت منه وشريت وأخذت وأعطيت . قال: الشيخ الذي أخبرك عني وأفادك الأبيات ، فقلت : ومن أخبرك بهذا يا حبيبي ؟ فقال: المَلَكُ العظيم الذي كان يأتي الأنبياء قبلي . قلت : امدُدْ يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله . وانصَرَفْتُ وما أحد أشد سروراً - وفي رواية : انصرفت وما بين لابَتَيْهَا أشد سروراً من رسول الله ﷺ بإسلامي . قال ابن ظفر : فهذا أيدك الله أصح نمطٍ عُجابٍ زاخر العُباب ، وقد أتحفتكم منه بِلُبَابِ هذا الباب ، والله الموفق للصواب » .

أَقُولُ : جعل الله سبحانه هذه القصة لسيدنا أبي بكر مقدمة لإسلامه ، حتى يُقبِلَ على الإسلام والإيمان بِكُلِّيَّةِ قلبِهِ وقالبه ولا يتوانى ، وهذا علامة سعادته وسابقته إلى الإسلام من الرجال قبل غيره، وسبق سيدنا علي إليه قبل كل من الصبيان ، ولذلك خص الشيخ ذكرهما في من أعان رسول الله ﷺ على أمره دون غيرهما ، وإن كان الذكر يشمل كل من أعانه غيرهما ممن دخل في الإسلام بعدهما .

وروى ابن اسحاق أن رسول الله ﷺ قال : « ما دَعَوْتُ أحداً إلى الإسلام إلا كانت فيه كَبْوَة وتَرَدُّد ونظر ، إلا أبابكر ما تردد » . يعني لتقدم تلك القصة له وأمثالها .

شرح غريب كلمات في الأبيات وبعدها :

« الصناديد » : جمع صنديد ، السيد الشجاع والقوي ، وغيث صنديد عظيم القطر الصناديد الدواهي ، ومنه قول الحسن : « نعوذ بالله من صناديد القدر الواهن ، المقيم الطابن ، العارف الفطن»، « عنشليل » : هو الرجل الجافي الثقيل ، « تفطنت » : تم خلقي داينًا طائعاً ، « فأركسها » : الرَّكسُ رد الشيء مقلوباً ، وكان ذلك يوم فتح مكة ، « كوامناً » : مختفية ، ومنه كمين الحرب ، « الشواجن » : الطرق المختلفة ، ويعني به السير فيها ، أراد أنه لا يطيق السير في الأرض ، والرحم شجنه ، وتشاجن الأعصاب والعروق تداخلها ، « والوهن » : الضعف ، قوله : « عجاهنا » ، هو الذي يتلهى بحديثه ، ويضحك منه ، « فألَقَ » : أي لمع ، « والهفاف » : الرقيق ، « والهافن » : الضعيف ، « والجلهتين » : جانبا الوادي ، « والوشيجة » : عروق الشجر الملتفة المتداخلة ، « الطود المتالع » : بضم الميم وكسر اللام ، اسم جبل ، قاله البكري والجوهري ، وقيل : المتالع ، المتعالي ومنه التلع وهو طول العنق ، « عادِناً » : أي مقيماً ، ومنه جنات عدن أي جنات إقامة هـ .

وما ذكر سيدنا من سبب تسمية الروافض والزيدية بذلك ، ذكر في « المشرع الروي » في مناقب السادة بني علوي : أن زيد بن علي بن الحسين ، دخل يوماً على هشام بن عبدالملك ، فسمع يهودياً جالساً على بساطه ويسب النبي ﷺ ، فانتهره زيد وغضب غضباً شديداً وقال : أما والله لئن تمكَّنْتُ منك لأختطِفَنَّ روحك من جسمك ، ولأفرقن بين رأسك وجثتك ، فقال هشام : مَهْ يا زيد ، لا تؤذ جليسنا . فخرج زيدٌ وهو يقول : من اسْتَشْعَرَ حُبَّ البقاء ، اسْتَدْثَرَ الذُّلَّ إلى الفناء .

فهاج إلى الخروج على هشام ، فبايعه من أهل الكوفة خمسة عشر ألف مقاتل ، وبايعه جماعة من الأئمة أهل الكوفة ، منهم الإمام أبوحنيفة وأمَدَّهُ بمال ، وعند مبايعتهم قال له داود بن علي بن عبدالله بن عباس : يا ابن عم ، لا يَغُرَّنَّكَ هؤلاء ، ففي أهل بيتك لك أَتَمُّ العِبَر ، وفي خذلانهم إياهم كفاية .

فخرج آخر المحرم سنة ١٣١ ، وخرج معه من الفقهاء والقُرَّاء خمسة آلاف ، ثم خذله الذين بايعوه، فأمرهم بالخروج فأبَوْا ، وطلبوا منه أن يتبرأ من الشيخين أبي بكر وعمر لينصروه ، فقال : بل أَتَوَلَّاهُما وأتبرَّأُ ممن يَتَبَرَّأُ منهما ، فقالوا : إذاً نرفُضُك ، فقال : اذهبوا فأنتم الرافضة . فسُمُّوا بذلك من حينئذ ، وارْفَضُّوا عنه ، وهم نحو الثلثين ، وبقي معه نحو الثلث ، وسُمُّوا الزيدية لثبوتهم معه ، لا إنهم على مذهبه ، ولو ادَّعوه إمامهم ، فهم كذبة كالروافض ، فلما اشتهرت فضيحة الروافض بخذلانهم لزيد ، وما وقع على البيت من الضرر ممن قبل هؤلاء منهم ، كقتل الحسين وسَمِّ الحسَن ، والتحريض على قتل علي كرم الله وجهه ، وبذلهم المال في ذلك وفرحهم به ، وكل بلاء أصاب أهل البيت فكله هم سببه ، فلما اشتُهروا بهذه الفضيحة ، فأرادوا أن يستروا على أنفسهم من تلك الفضائح ، وأن يعزُّوا أنفسهم ، وأن يدفعوا عن أنفسهم الملام ، سَمُّوا أنفسهم شيعة أهل البيت - أي محبيهم - وهذا محال أن يكون مع ما صدر منهم على أهل البيت من المضار ، ولكن العاقل العالم بالأخبار يعرف ذلك ، وإنما هم شيعة إبليس ، على ما دلت عليه قصة الأعمش الآتي ذكرها ، كما ذكره الطبري في كتابه « الرياض النضرة في مناقب العشرة » : أن سليمان بن مهران الأعمش قال : خَرَجْتُ إلى المسجد ليلاً وغَرَّني القمر، فالتقاني في الطريق شخص ، فاقْشَعَرَّ منه شَعَرِي ، فقلتُ : إنسِيٌّ أنتَ أم من الجن ؟ قال : من الجن ، قلت : أمسلم أنت أم كافر ؟ قال : بل مسلم ، فسألته : هل عندكم شيء مما عندنا من الرفض والبدع ؟ فقال الجني : نعم، وقد اختَصَمْتُ البارحة مع رافضيٍّ من أرفاض الجن ، فقلتُ له : ما تقول في أبي بكر وعمر ؟ فقال: هما ظَلَمَا عليًّا بالخلافة ، فقلت : بمن ترتضي حَكَماً ، قال : بإبليس . فمضينا إليه ، وذَكَرْنَا له القصة، فضحك ومسح بيده على وجه ذلك الرافضي الذي من الجن وقال: هؤلاء شيعتي وأنصاري وأهل مودتي .

فسُمُّوا لذلك شيعة إبليس ، ثم حُذِفَت الإضافة تخفيفاً ، وأُبْدِلَت بالألف واللام التي للعهد ، أي للمعروفين بشيعة إبليس الذين هم الرافضة ، ولو ستروا عوارهم بأن وصفوا أنفسهم شيعة أهل البيت ، فكيف يكونوا أعداء الله ورسوله ، وأعداء أهل البيت شيعتهم ، وهم كل ما حصل على البيت من الشر والضرر هو بسببهم . قال : ثم ذكر لنا إبليس قصة ، قال : ألا أخبركما بأمر ؟ قلنا : بلى .

قال : عَبَدْتُ اللهَ في السماء الدنيا ألف سنة فسُمِّيتُ العابد ، وفي الثانية ألف سنة فسميت الراهب، وفي الثالثة ألف سنة فسميت الراغب ، وفي الرابعة ألف سنة فسميت القانت ، فرأيت في الرابعة سبعين ألف صَفٍّ من الملائكة يستغفرون لمُحِبِّي أبي بكر وعمر ، ثم صعدت الخامسة فرأيت سبعين ألف صف من الملائكة يلعنون مبغضي أبي بكر وعمر .

فدلت القصة أنه رأى ذلك في مبدأ مدة عبادته ، وكانت مدتها ثمانين ألف سنة ، حتى ظهر عليه

رَقْمُ شقاوته في وقتها التي وَقَّتَها اللهُ به في سابق تقديره ، وهو وقت ظهور آدم .

فخذ من قصته معنى لتأجيل الله الأشياء التي قَدَّرَها ، فَعَبَدَ الله مدة ما أراد الله منه العبادة ، ثم أظهر شقاوته في وقته ، وجعله مشغولاً منها بما ظهر عليه ، وبما يظهر منها على يديه ، حتى سأل من الله الإنظار ليعمل بما قال : ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ۝﴾، يعني يعمل عمله في من سَلَّطَهُ اللهُ عليه ، وأما عباد الله المخلصين فلا سلطان له عليهم ، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ۝﴾.

وتقدم قول سيدنا : « إن لإبليس في أهل الشِّمال تسليطاً إلهياً وتمكيناً قوياً » ، هذا فيهم دون أهل اليمين ، ورؤية إبليس ذلك في مبدأ عبادته ، وإلا فإن إرصاد الله الملائكة المذكورين في الإستغفار لمحبي أبي بكر وعمر ، والآخرين المرصَدين لِلَعْنِ مبغضيهما ، فهم في ذلك من حين أمر الله القلم يكتب المقادير في اللوح المحفوظ إلى يوم القيامة ، وذلك قبل رؤية إبليس لهم بألوف سنين كثيرة ، وما رأى ذلك إلا يومئذ ، وأن جماعة من الملائكة موكلين من حينئذ بالإستغفار لمحبيهم ، وآخرين بلعن مبغضيهم ، وأنهم مُرصَدون في ذلك إلى يوم القيامة ، ففاز محبوهم بإستغفار الملائكة ، وباء المبغِضون لهم بلعن الملائكة إلى يوم الدين . ومدة عبادته إلى خلق آدم ، وذلك مدة ثمانين ألف سنة ، ثم ظهر عليه رَقْمُ الشقاوة ، فبقي يتقلب فيها وفي لعنة الله إلى يوم القيامة ، وإنما تظهر الأمور المقضية في أوقاتها ، فجعله الله بعد ذلك ضالًّا مُضِلًّا بعد تلك العبادة .

فافهم ، إنما العمدة في كل الأمور بتمامها وخاتمتها ، وما يكون تمامها إلا بحسب الإرادة ، فلا تغتر بأسباب الخير ، ولا تقنط بأسباب الشر حتى تعلم بتمامها ، وكن بين الخوف والرجاء إلا مع أسباب الخير رَجِّح الرجاء ، وفي أسباب الشر رَجِّح الخوف .

وأما الزيدية ، فثبتوا مع زيد بعدما ارْفَضَّ عنه الرافضة وانخذلوا عنه ، وما طلبوا منه التبريء من الشيخين كما طلبه الرافضة ، بل قالوا : « نتولاهما ونثبت معك » ، وبقوا معه ، فسُمُّوا لذلك زيدية لا أنهم على مذهبه ، ولا نصحوا معه ، وعن قُرْبٍ انكسروا عنه واستولوه أعداه بنو أمية ، وصلبوه عرياناً منكوس الرأس ، ورجلاه مربوطتان من أعلى ، فَنَسَجَت العنكبوت على عورته ، قاتلهم الله ما أجرأهم على محارم الله .

فهذا ما قاساه أهل بيت رسول الله من محن الدنيا ، بسبب أعداء الله الرافضة والزيدية ، بعدم نصحهم معه ، فكلهم في الخبث والشر سواء ، مشتركون فيه ، فإنَّ الأمر كما قال الحسن في وصيته لأخيه الحسين لمَّا حضره الموت ، قال : « يا أخي ، لا تُحَدِّثْ نفسك بالخلافة لتتم لك ، فإنها ما تَمَّتْ لأبيك ولا لأخيك ، فلا أراها تتم لك ، ولا أرى أن الله يجمع فينا النبوة والخلافة » . وكلامه هذا قبض

باليد قطعاً لا شك فيه ، تحقيقاً لا مرية فيه ، فما تمت لسيدنا علي ولا للحسن ولا للحسين ولا لزيد ، ومع ذلك ما سلموا من الضرر ولا لغيرهم منهم .

وقد قال سيدنا عبدالله : « **لا أحد من السادة يُحَدِّث نفسه بالولاية ، فإنها ما تَمَّت لأهل البيت الأولين فتتم للآخرين ؟** » ، ولـمَّا تمنى أن يتولى جهة يقيم فيها حُكْمَ الله على الوجه الذي يحب الله ، قال: « **وبعيدٌ أن تَتِمَّ لنا ، لأنها ما تَمَّت لأسلافنا ، لكن لعل أن يتولى والٍ يسمع لنا ويمتثل أمرنا** » ، ورَغِبَ في ذلك كثيراً ، فلم يَحْصُلْ ، لكنه على ما نوى ، ونية المؤمن خير من عمله ، ونرجو أن يكون له عند الله مثل ما لو تولى وأقام أحكام الله كما يحب الله .

وكان مستشرفاً لعمر بن جعفر لما تولى أن يكون يمتثل أمره ويسمع له ، لأنه كان قبل ولايته ملازماً مجالسه ومواظباً حضور الراتب ، فلما تولى رجا ذلك منه وطمع فيه ، حتى إنه إذا جاءه أدنى مجلسه وأصغى إليه بالكلام ، ويود الخلوة به لِيُسْنِدَ إليه بعض الكلام في أمر أو نهي أو شور يشير به عليه ، حتى إني قَدِمْتُ إليه من الحاوي إلى داره ، وهو كان بايتاً فيها ليلة السبت ، بعدما صلى الجمعة مكث وبات ، وعادتنا نغبش إليه ونخرج معه إلى الحاوي ، كما هو مرتَّب عَلَيَّ ذلك ، فأتيته ذلك اليوم وحسيته عنده بالغيلة – وهي الغرفة – فما صعدت ، وبقيت في الدهليز إلى أن خرج أولاً ، ثم خرج سيدنا فصافحته ، فقال : « **يوم كان هنا أنت هنا ؟** » ، قلت : نعم ، قد جئت وحسيته عندكم ، فجلست هنا فيما يخرج من عندكم ، فقال : « **نعم ، هكذا ، نحن الغِنى وهو الفناء ، إذا كان عندنا لا نحب أن يدخل علينا أحد** » .

ثم إن سيدنا رأى منه المخالفة وعدم الإمتثال ، فتركه من نظره بعد ذلك ولا التفت إليه ، حتى إنه إذا جاءه لا يأذن له بالدخول فَيَرُدَّهُ ، فَسَلَّطَ اللهُ عليه يافع ، فأذلوه ولا دعوا له رأياً ولا تدبيراً ، فسار إلى عمان يريد يجيب عليهم عسكراً يخرجهم بهم من حضرموت ، فما حصل له عسكر ، وجلس يوماً تحت جدار في صحار ، فهجم عليه فقتله .

انتهى ما أجراه الله على الجَنان ثم تحرك به البَنان من غير ما يلفظ به اللسان ، مما يتعلق بكلام سيدنا في أهل الرفض ، إذ هم أكثر أهل هذه الجهة هـ .

ومَرَّ حال الدرس حديث الإفك ، *فقال* : « **إنه ﷺ له من كمال العقل – أي وقوة الفراسة – ما يعرف به براءة البريء وتهمة المتهم ، ولكن استشار سيدنا علي وغيره – حيث قال : ما تقول فيها؟ – إنما ذلك لمراعاة قرائن الأحوال ومقدمات الأمور** » ، أي لأن هذه الأمور يلزم مراعاتها شرعاً .

ثم قرأ : « ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ﴾ ، وعادة الرافضة يقولون بذلك ويُكَذِّبُون بالقرآن، وكان بنوا أمية يجتهدون في أن يُلحِقوا في سيدنا علي قَدْحاً ، ويستدلون بمثل هذا ، ولولا أن لهم سلفاً مثل عثمان وأبي حذيفة ، وأفضت إليهم الخلافة أول الإسلام ، لكانوا من أخس الناس ، لأنهم كانوا هم الذين يغزون النبي ﷺ ويحشدون الناس عليه ، ولما أفضت إليهم الخلافة وافقهم بعض الناس خوفاً وبعضهم تقية ، وأما ما كان من سيدنا علي وعائشة فكل منهما طاب خاطره على الآخر جداً ، حتى قال هو فيها : لو أن الخلافة تكون لإمرأة لكانت عائشة أهلاً لها ، ولها هي فيه أبيات من الشعر - وهي هذه :

إِذَا مَا التِّبْرُ حُكَّ عَلَى المحَكِّ ... تَبَيَّنَ غِشُّهُ مِنْ غَيْرِ شَكٍّ

وَفِيْنَا الغِشُّ وَالذَّهَبُ المصَفَّى ... عَلِيٌّ بَيْنَنَا شِبْهُ المحَكِّ

وقالت أيضاً : ما أحب أن لي عشرة أولاد من رسول الله ﷺ ، وأني خرجت ذلك المخرج على علي. رضي الله عنهما » هـ .

أقول : ذكر في كتاب « الفصول المهمة في أخبار الأئمة » ، في قصةِ مَخْرَجِها ذلك المخرج ، ما معناه: أنها حَجَّت فالتقاها بمكة رجال ، وقالوا لها : « نريد نطلب بدم عثمان ، ولا ندع دمه يروح فواتاً » ، وعالجوها في الخروج معهم على ذلك ، وغصبوها أن تروح معهم إلى البصرة ليقوى أمرهم ، ويقولون: زوجة رسول الله ﷺ مع أصحاب رسول الله ﷺ يطلبون بدم عثمان . فاجتمعوا هناك ، وقالوا : ندعو عليًّا ، ونطلب منه أن يُسْلِمَ لنا قتلة عثمان ، لنقتلهم به ونصطلح معه .

وكان من رأي سيدنا علي أن يؤخِّرَ ذلك إلى أن يجتمع الناس على إمام ، وكان معاوية قد بايعه أهل الشام ، وقالوا : ما ظننا أن أحداً أقرب منه لرسول الله ﷺ ، ومراد سيدنا علي أنه إذا اجتمع الناس على إمام ، قام له ولد عثمان وطلب بدم أبيه ، وهو أحق بطلبه من غيره ، وكان ضَامَّهُ مع القتلة لأجل ذلك ، ولا يمكن ذلك إلا مع الإجتماع على إمام ، فأرسل إليه الذين اجتمعوا في البصرة مع عائشة ليجتمعوا معه على الصلح بعد قتلهم ، فمضى إليهم لطلب الصلح ، فلما التقاهم بنية الصلح وكان القتلة المفسدون معه لأجل ما تقدم ذِكْره ، فتشاوروا بينهم وقالوا : « إن تصالحوا قتلونا ، فَهَلُمَّ فلنبتديء بالقتال » ، ففي الحال ضربوا رجلاً من أهل البصرة بسهم فقتلوه ، فقال أهل البصرة الذين ساروا بعائشة : « قد عَلِمْنا أنه لم يأت للصلح ، إنما جاء للقتال » .

فوقعت الملحمة بينهم ، فقُتِلَ من الفريقين ألوف كثيرة ، أكثرهم من أهل البصرة ، أي الذين اجتمعوا فيها لما ذُكِرَ مع عائشة ، والأقل من أصحاب علي ، حتى شالت الحِدَأ والغربان أشلاء من أعضاء القتلى ، وطاروا بها إلى الحرمين ، فرأوها تتساقط منها بين الحرمين في يومهم ، فعرفوا بذلك

وقوع الحرب في يومها الذي وقعت فيه .

ثم إن عليًّا - كرم الله وجهه - ذكَّر عائشة والزبير رضي الله عنهما كلمةً قالها لهما رسول الله ﷺ ، وهي أنه قال لعائشة : « أمَا تذكرين قول رسول الله ﷺ لك : إنك ستخرجين على عليٍّ ، تقاتلينه وأنت له ظالمة » ، فَذَكَرَتْها فبكت وتأسفت ، وطلبت الرجوع إلى المدينة ، فأرسلها سيدنا علي مع أخيها محمد بن أبي بكر ، فتم بمسيرها ما وعدها به رسول الله ﷺ ، وقال ﷺ مرة لها هي وحفصة : « إن إحداكما ستنبحها كلابُ الحَوْأب » ، وهو موضع بالبصرة .

وذَكَّر أيضاً بها الزبير ، فقال له : « أما تذكر قول رسول الله ﷺ : إنك ستخرج يا زبير على عليٍّ، تقاتله وأنت له ظالم » ، فَذَكَرَها ، فرمى بسيفه تاركاً للقتال وراجعاً عنه ، فالتقاه ابن جرموز من أصحاب عليٍّ فقتله وهو غافل ، ثم أخذ سيفه ومضى به إلى عليٍّ مفتخراً بقتله ، فقال عليٌّ رضي الله عنه: سَمِعْتُ رسول الله ﷺ يقول : « بَشِّر قاتلَ ابن صفية بالنار » ، فكان الصواب مع سيدنا علي ، فهو مجتهد مصيب فله أجران ، والآخرون مجتهدون مخطئون فلهم أجر ، فهكذا القاعدة الشرعية .

ثم إن معاوية وأصحابه طلبوا علياً للقتال ، وواعدوه يجيبهم إلى صفين ، فسار إليهم لِبَغْيِهِم ، فَمَرَّ في مسيره بكربلاء ، فبكى وقال : « ها هنا مَحَطُّ رحالهم ، وهنا مَنَاخُ ركابهم ، عُصْبَةٌ من آل محمد يُقتلون هنا في هذا الموضع » ، فكشف الله له عن قتل ابنه الحسين وذويه في هذا الموضع عند مروره هذا فيه سنة ٣٧ ، فقاتل معاوية وأصحابه في صفين نحو مائة وعشرين يوماً ووقع بينه وبينهم نحو ستين وقعة ، وقُتِلَ خَلْقٌ كثير . وآخر وقائعهم ليلة الهرير ، قَتَلَ فيها بيده منهم نحو خمسمائة رجل ، سوى من قتله أصحابه منهم، وهذا في هذه الليلة فقط سوى بقية الأيام ، وما علموا عدد من قتله منهم إلا بتكبيراته، لأنه كلما قتل قتيلاً كبر ، حتى عَدُّوا له خمسمائة تكبيرة .

وهذا قول ذلك الشيخ لسيدنا أبي بكر : « أما الشاب الذي يعاون النبي على أمره فخَوَّاض غمرات - يعني حروباً - وكشاف معضلات - أي أموراً تعضل معرفتها ، أي تتعب - » ، كما أبان من معاني قتال أهل البغي كمعاوية ، لمَّا دعوه للقتال تُهمةً له بقتل عثمان ، وما علموا بمراده ، فقاتل معاوية وأصحابه حتى عملوا له تلك الحيلة من رفع المصاحف على الرماح ، بشور عمرو بن العاص ، وقالوا: « نحاكمكم إلى كتاب الله » ، فاختلف أصحاب علي عليه ، وقالوا : « قوم دعونا إلى كتاب الله ، لقد أنصفوا » ، فقال سيدنا علي لأصحابه لما رأى اختلافهم : « هذه حيلة من فلان ، ومكيدة لكم ، وأنا أعلم بكتاب الله منهم ، وما قاتلتهم إلا على كتاب الله » .

فما التفتوا إلى قوله ، وأنكروا تحكيم الحَكَمَيْن ، وأَمْرَهُ بالقتل دون السبي وأخذ المال ، وقالوا : « تحكم في دين الله وتقتل الأنفس ولا تأخذ الأموال ولا تسبي ، فكيف هذا ؟ فإذا جاز القتل جاز

السبي وأخذ المال » ، فأمر ابن عباس أن يناظرهم ، فناظرهم فرجع بمناظرته منهم ستة آلاف ، وكانوا عشرة، فرجع الستة إلى الإنقياد والطاعة ، وبقي أربعة آلاف مصرين على العناد ، وهم الخوارج .

وقد سئل سيدنا علي عن ذلك ، فقال : « إنما هم إخواننا بغوا علينا » ، يعني إنهم إخواننا مسلمون مثلنا لا يَحِلُّ لنا سَبْيُهم وأَخْذُ أموالهم ، وإنما حل لنا قتالهم لبغيهم ، كما قال الله تعالى : ﴿ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبۡغِى﴾، وما قال : اسبوهم وخذوا أموالهم .

وكان من مناظرة ابن عباس لهم أن قال لهم : « ماذا تنقمون عليه ؟ » ، فذكروا ما تقدم من إنكارهم القتل مع عدم السبي وأخذ المال ، وإنكارهم التحكيم . فقال لهم ابن عباس : « أترون لو أنه أباح لكم سبي النساء ، أيحل لأحدكم أن يستبيح من أمه أم المؤمنين ما يستبيح من جاريته ؟ » ، فانخصموا من ذلك وأقرُّوا له .

قال لهم : « وأما التحكيم ، فإذا أمر الله بالمحاكمة في أمر الزوج إذا تشاقَّ مع زوجته ، فقال تعالى: ﴿وَإِنۡ خِفۡتُمۡ شِقَاقَ بَيۡنِهِمَا فَٱبۡعَثُواْ حَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهِۦ وَحَكَمٗا مِّنۡ أَهۡلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصۡلَٰحٗا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيۡنَهُمَآۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرٗا ﴿٣٥﴾ ﴾، فكيف بهذا الأمر العظيم الذي تتعلق به أحكام شرع الله ، وثبوت أوامره ونواهيه ؟ » ، ومثل هذا ، فلما رجع الستة الآلاف إلى الطاعة ، وبَقِيَت الأربعة ، فصمموا على العناد وتعمدوا أموراً تغضب الله ورسوله وتغضب علياً ، وليس فيهم أحد من الصحابة ، بل كلهم غوغاء جهلة ، فقتلوا خباب بن الأرت ، وكان من السابقين الأولين ، وزوجته وكانت حاملاً ، فقال سيدنا علي : « اعطونا الذين قتلوا إخواننا نقتلهم بهم ، النفس بالنفس » ، فقالوا: « كلُّنا قَتَلَهُ » ، فقال لهم : « إن أقررتم كلكم بقتلهم ، وجب قتلكم كلكم » ، فأَبَوْا إلا التصميم على الإقرار بالقتل ، فسار إليهم لقتالهم ، فقال له المُنَجِّم : « اترك المسير في هذه الساعة ، فإن سِرْتَ فيها غُلِبْتَ وقُهِرْتَ » ، فقال: « صدق الله وكذب المُنَجِّمُون ، فوالله إن سِرْتُ إليهم إلا في هذه الساعة »، فسار إليهم فيها ، فظفره الله بهم وأكذب المنجم ، فأمر الجيش أن يحيطوا بهم ، فحاطوا بهم كالحلقة، فقتلهم عن آخرهم ، وهم الخوارج المذكورون ، فلم يفلت منهم إلا تسعة فهربوا .

ومن ذريتهم الإباضة والناصبة ، فتفرقوا كل واحد منهم إلى جهة ، وله فيها ذرية إباضة ، فواحدٌ منهم هرب إلى الأندلس فصار له هناك ذرية إباضة وواحد منهم هرب إلى عمان وسكنها ، ومن ذريته إباضة عمان ، وواحد هرب إلى ما وراء النهر وسكن هناك وله ذرية إباضة ، وواحد هرب إلى حضرموت وسكنها ، وكان له ذرية إباضة .

هذا بمعناه كما ذكره في « الفصول المهمة في أخبار الأئمة » ، وكان سيدي عبدالله أمرني بقراءته عليه ، فقرأته عليه كله ، وهذا مما حَفِظْتُ مما ذكره بتلخيص .

وهذا الذي نزل بحضرموت كان مسكنه بشبام ، وله ذرية إباضية يقال لهم : « الخوقة » ، هكذا سمعناه يُذْكَر هناك .

وفي بعض الكتب أن الشيخ المهاجر أحمد بن عيسى جد السادة آل باعلوي ، لما جاء إلى حضرموت أنكر هؤلاء الإباضة سيادته ونسبه ، وسَمِعْتُ سيدنا عبدالله يقول : « **إن الشيخ أحمد بن عيسى قال لهم لما أنكروا نسبه ونسب السادة ، وقالوا له : الله قال : ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ﴾، وأنتم تقولون نحن ذرية رسول الله . فقال لهم : إن لم تُصَدِّقُوا أن للنبي ﷺ ذرية ، فنقول نحن من ذرية الحسين بن علي ، وأُمُّهُ فاطمة بنت رسول الله ﷺ ، سواء صَدَّقْتُم أن للنبي ذرية أو لم تصدقوا . قالوا : ولا نُصَدِّقُك أنك من ذرية الحسين** » .

فحج ابنه عبدالله بن أحمد مع جماعة كثيرة من حضرموت ، يقال أنهم يبلغون نحو ثلاثمائة ، وفيهم كثير من أولئك الإباضة الملحدين ، فالتقى معهم في منى بجماعة من أهل العراق ، البصرة ونواحيها ، ممن يعرف السيد أحمد بن عيسى ونسبه ، فقال لهم عبدالله - وأولئك الحضارم مع إباضتهم يسمعون-: « يا أهل العراق ، من أنا ؟ » ، فقالوا بأجمعهم - وكانوا أيضاً خلقاً كثيراً لعلهم يبلغون الثلاثمائة - كما رأيت ذلك أيضاً في بعض الكتب من مؤلفات مناقبهم ، أظنه الترياق - قالوا له بأجمعهم : « أنت عبدالله بن أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن جعفر الصادق إلى آخر النسب » . وشهدوا بذلك ، فشهد أهل حضرموت السُّنَّة منهم والإباضة بما شهد به أهل العراق ، والفضْلُ ما شَهِدَتْ بِهِ الأَعْدَاءُ .

فلما وصلوا إلى حضرموت ، شهدوا كلهم على شهادة أهل العراق ، فثبت بذلك صحة نسب آل باعلوي في حضرموت ، ثم اشتهر وانتشر في كل البلاد ، ولم يبق في نسبهم معارض ، ولهذا صَحَّ وأُجْمِعَ عليه من دون جميع بيوت السادة ، وإن صح نسب بعضهم أيضاً فلا يُزاحِم نسب آل باعلوي قط .

ثم كُتِبَت الشجرة وعُلِّقَت ، وسَمِعْتُ أن أول من ابتدأ كتابتها الشيخ علي بن أبي بكر ، وتتبع بيوت أنسابهم وقبائلهم وأشخاصهم المتفرقة في البلدان البعيدة ، وأُثْبِتُوا فيها إلى وقتنا هذا ، حتى إني رأيت السيد عبدالرحمن بن عبدالله بلفقيه من ذرية مولى الشبيكة ، وكان أمرني سيدي عبدالله أقرأ عليه في « المنهاج » ، رأيتُه مراراً كثيرة والشجرة في يده ، وعنده أناس غرباء ويسألهم عن أناس من السادة في بلدانهم : ما لفلان من الأولاد ؟ وما لفلان ؟ ويخبرونه ، فيكتبهم في الشجرة ، ويسأل عن أناس متفرقين في الجهات ، في الحبشة ومقدشوه ، ويخبرونه فيكتبهم ، وفَصَّلَ فيها جميع قبائلهم وبيوتهم وأفخُذِهم ، وبعضهم قد اندرس اليوم .

وسَمِعْتُ سيدنا يقول : « **قبيلة من آل علوي ببلاد تعز من اليمن ، يُسَمَّون آل باسعد ، اندرسوا ، وآل الرخلي ، اندرسوا ، وكان منهم السيد عبدالرحمن الرخلي** » ، واندرس هذا الفخذ منهم بموته .

وبلغ عدد قبائلهم مائة وأربعون قبيلة : على الفقيه المقدم ثمانون قبيلة ، وعلى عمه علوي بن محمد صاحب مرباط أربعون قبيلة يُسَمَّون آل عم الفقيه ومنهم الحداد وآل بن سميط وآل عيديد وآل بافقيه وآل بيتي عوهج وآل باحسن الحديلي ، وفي آل علوي ثلاث قبائل يُسَمَّون آل با حسن ، وقبيلتين آل البيتي . وكل هولاء غير آل عظمة خان ، ذرية عبدالملك بن علوي المذكور بن محمد صاحب مرباط، وهم قبائل مستكثرة ، صاروا بأرض الهند واختلطوا بالهنود . وأما الذين هم على الفقيه ، فمنهم آل السقاف وهم أربعون قبيلة ، منهم آل العيدروس ، وليس هذا محل تعداد قبائلهم .

وأما أولئك الإباضة ، فانقطع دابرهم واندرسوا في القرن السادس ، وفعل الشيخ عبدالله باعباد القديم مسجد الخوقة في حافتهم ، تطهيراً للبقعة به من نجاستهم ، فاندرس خبرهم فما عنهم من مخبر ولا من يذكر ، ولم يبق لهم أثر . وبنى الشيخ عبدالله باعباد القديم في موضعهم المسجد المذكور ، قال: « أريد أُطَهِّر ذلك الموضع بعدهم بهذا المسجد » . ويُسَمَّى الآن مسجد الخوقة ، أي مسجد موضع الخوقة ، والخوقة هم أولئك الإباضة .

والإباضة والناصبة مثل الشيعة والرافضة ، فالرافضة هم الشديدون البغض للصحابة ، والشيعة دونهم في ذلك . والناصبة هم الشديدون البغض لأهل البيت ، والإباضة دونهم في ذلك .

وأرى الشيعة في هذه الجهة يزعمون أنهم يحبون الصحابة ويقولون : « حِب الكُل تَحْظَ بالكل». وهم في ذلك كاذبون لما ذكرنا من أحوال أوائلهم ، ويزعمون أيضاً أنهم إنما سُمُّوا بذلك لكونهم شيعة أهل البيت ومحبوهم ، وهم في ذلك كاذبون ، بل إنما سُمُّوا شيعة إبليس ، لقوله في تلك القصة : « هؤلاء شيعتي وأنصاري وأهل مودتي » .

وإنما هم أعدى الأعداء لأهل البيت ، فما أصاب أهل البيت البلاء والمحن إلا بسببهم ، انظر كيف خذلوا زيداً وارْفَضُّوا عنه وتركوه ، فسَمَّاهم لذلك الرافضة ، وانسحب عليهم ذلك الإسم إلى أواخرهم في آخر الدهر ، وبسببهم أصاب زيداً ما أصابه من الصلب عرياناً والتعزير ، حتى بَنَت العنكبوت على عورته بأمر الله ، لمَّا كشفوها ، وكذلك أوائلهم وأصولهم كتبوا لسيدنا الحسين ليأتيهم ليبايعوه ، وادَّعوا له أنهم أصحاب أبيه ، وأنهم أحق به وهو أحق بهم ، فصَدَّقَهم واعتقد محبتهم ونصحهم واغتر بكلامهم ، وما صَدَّقَ من نصحه من الصادقين في محبته لما عاهده عليه الغادرون به من تصديقه لدعواهم المحبة .

وقد نصحه أبوهريرة والمغيرة بن شعبة ، وعالجوه أن لا يسير إليهم ، وكان عبدالله بن عمر غائباً في الطائف ، فجاء بعد مسيرة ثلاثة أيام ، وسأل عنه فقيل : « سار العراق » ، فأحزنه جداً ، ولامَ كل من حضر مسيره ، أن لا كانوا منعوه من المسير ، قالوا : « عالجناه وما أطاع » ، قال : « كنتم قهرتوه ولا

تركتوه يسير إلى غَدَرَةٍ لا يفون بعهدٍ ولا يَصْدُقون بِوَعْدٍ » ، وقد قال سيدنا علي في حقهم : « يا أهل العراق ، أمْرُكم شِقاق وماؤكم زُعاق وصُحْبَتُكم نِفاق .. » إلى آخر ما قال .

ثم إن عبدالله بن عمر اتَّبع أثره مفرّداً وراءه ، حتى لحقه بعد ثلاثة أيام ، وهو يحثُّ السير خلفه، ثم عالجه في الرجوع فأبى ، فقال له : « قومٌ قتلوا أباك ، وسَمُّوا أخاك ، ورأيتَ منهم الشر ، كيف تثق بأقوالهم وعهودهم ؟ فلم يَقْبَلْ منه ، وذلك لأمر أراده الله ، فلما أيس من رجوعه بكى عبدالله بن عمر، بكى بكاء شديداً ، وقال : استودعك الله من قتيل » ، فلما وصل إليهم نزل بأهله ومن معه قبل وصول البلد ، وأرسل ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبي طالب ، وقال له : « إنْ رأيتَهُم أَعَزُّوك وأكرموك ، فأرْسِلْ لي أَخْبِرْنِي حتى أدخُلَ ، فإنهم يعزوني ويكرموني أكثر ، وإن رأيتَ منهم الجفاء وقلة البشاشة ؛ فأرسِل إليَّ لأرجع في الحال » .

فلما وصلهم مسلم طلبوا منه يصعد غرفة في قصر الإمارة ، فصعدها فرأى فُرُشاً حساناً مفروشة ، فجلس فيها ، وظن أن ذلك منهم إعزاز وإكرام ، فتركوه جالساً ومضوا في الحال وأخبروا به ابن زياد وأصحابه ، ونكثوا عهودهم ، وأقبل ابن زياد ومن معه وقبضوا على مسلم ، وأعانوه عليه وقتلوه في الغرفة ، ثم بلغ الخبر الحسين ، فأراد الركوب راجعاً بأهله وعشيرته ، ففي الحال جاؤوه وأحاطوا به ، وما تركوه يفر ، وقتلوه وعشيرته إلا علي بن الحسين لصغره ومرضه ، وكان إذ ذاك مريضاً ، فوقع من أمر الحسين وعشيرته ما وقع ، مما أشار إليه سيدنا علي من الكرب والبلاء حين مر بكربلاء كما تقدم .

فانظر أمر هؤلاء الأرفاض الذين دعوه وأخروجه من مأمنه بحلو كلامهم ، حتى وقع عليه وعلى أهل بيته ذلك البلاء والشر ، فأين دعواهم محبة أهل البيت ؟ فلما افتضحوا بفعلهم ذلك بعد دعوى المحبة ، فأرادوا يسترون عوارهم ، ويظهرون للناس أنهم كلهم محبوهم ، وسَمُّوا نفوسهم شيعة أهل البيت ، رياءً وسمعةً ، فقاموا مع المختار بن أبي عبيد الثقفي لما قام يَدَّعي أنه يريد يأخذ بثأر الحسين ، وهو كاذب في زعمه مثلهم ، فتعاون الكَذَبة وقالوا : نحن محبوه ، نريد نأخذ بثأره ، وما وقعوا بسبب كذبهم وتلبيسهم إلا في الشر ، فانكسروا وما أنجحوا ، فقُتِل ابن زياد ثم قُتِلَ المختار .

وكانوا علَّقوا رأس الحسين في قصر الإمارة بالكوفة ، فَعُلِّقَت فيه أيضاً رؤوسهم ، قال عبيد بن عمير : « لقد رأيت رأس الحسين معلقاً فيه ، ثم رأيت رأس ابن زياد أيضاً معلقاً فيه، ثم رأيت رأس المختار معلقاً فيه » ، فكل ذلك عقوبات لهم على كذبهم ودعواهم ، وهؤلاء هم أصول الرافضة ، فأين دعوى الرافضة المحبة ، بل كل أمورهم في دينهم ودنياهم مبنية على الكذب والرياء والنفاق ومخالفة الحق والصواب ، وكذلك غالب الناس اليوم في معاملاتهم كذلك إلا من رحم الله ، وقليلٌ ما هم .

والرافضة في ما ذكر من الكذب والرياء ومخالفة الحق والصواب من أولهم من ذلك الزمان الذي

رأى السفاح فيه ذلك الرافضي الذي يتظلم عند قبر النبي ﷺ إلى آخرهم لما رأى سيدنا الرافضي الذي يتظلم عند قبر النبي ﷺ بما تظلم به الأول ، والأول في نحو الخمس بعد المئة ، والثاني سنة ١٠٧٩ ، وإلى عامنا هذا وهو ١١٧٣ ، وإلى بعد ذلك وهم يقولون نحن محبوا أهل البيت ، وهم في أفعالهم وأحوالهم كأوائلهم ، كما سمعت تكذب أقوالهم .

فانظر هذه الأمور المتناقضة العجيبة ، الواقعة كما اقتضتها الإرادة الأزلية والمشيئة الإلهية ، التي تشقي السعيد - أي المطيع - وتسعد الشقي - أي العاصي - ولله مرادٌ في كل ما أراد ، وإن لم تقتضه الإرادة الشرعية ، فإنها إنما تقتضي بالسعادة لمن سعد بالعبادة ، وتقتضي الشقاوة لمن شقي بالمعاصي فقط ، فإنَّ مجرد حكمها على الظاهر فقط دون الغيبيات .

وأما الإرادة الأزلية والمشيئة الربانية فتقتضي لمن اقتضتها له ، فتقتضي الأمرين معاً : السعادة لأقوام مخصوصين ، وغالبهم من اقتضته الإرادة الشرعية - أي اتَّبَعَها - وقليلاً ممن خالفها ، حتى لا يموت إلا على موافقتها ، وتقتضي الشقاوة لمن اقتضتها له وغالباً لا يكون إلا مخالفاً للإرادة الشرعية ، وقليلٌ ممن اتَّبَعَها ، حتى لا يموت إلا على مخالفتها ، فتقتضي الأمرين معاً كُلًّا لصاحبه ، ولكن تقتضي أن لا يموت من أسعدته إلا على موافقة الإرادة الشرعية ، وأن لا يموت من أشقته إلا على مخالفة الإرادة الشرعية ، وهو معنى قول سيدنا : « **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه** » ، أي وافق الإرادة الشرعية ، وهذا الذي اقتضته الإرادة الأزلية بالسعادة الموافقة للإرادتين ، قال : « **والشقي من اختلفت به الأمور** » ، أي الذي اقتضت الإرادة الأزلية شقاوته ، وهو الذي مات مخالفاً للإرادة الشرعية ، واقتصار الإرادة الأزلية للأمور يسمى القضاء ، وهو على وجهين :

عملٌ محتومٌ وقوعُه لا بُدَّ منه ، ومنه ما وقع بين الصحابة من الحروب ، وهي الدعوة الثالثة من الثلاث الدعوات التي مُنِعَها رسولُ الله ﷺ في موقف الحج ، حيث قال : « **دَعَوتُ ربي ثلاثَ دعواتٍ ، فأعطاني ثنتين ومنعني الثالثة** » ، وهي أن قال : « **اللهم لا تجعل بأس أمتي بينهم ، فيقتتلوا ويُهلِكُ بعضُهم بعضاً** » ، وإنما مُنِعَها لكونها محتومة لا بد من وقوعها .

والنوع الثاني من القضاء : المُعَلَّق ، الذي علَّقه الله إلى أن يُيَسِّرَ له سبباً يمحوه ويدفعه ، كالزائد من الصلاة الخمسين على الخمس ، فالخمس هي المحتومة وباقيها مُعَلَّقٌ وجوبُه إلى أن حصل من النبي ﷺ سؤال التخفيف فخُفِّفَت ، وإلاحين فَرَضَها عليه فَرَضَها خمسين ، فقال له : « **يا محمد ، قد فرضت عليك وعلى أمتك يوم خَلَقْتُ السماوات والأرض خمسين صلاة ، فقم بها** » ، فَقَبِلَها وقام من مجلسه ذلك بها ، فلما أن قضاها الله مُعَلَّقاً لا حتماً ، أرصد له موسى يأمره بأن يرجع ويسأل ربه التخفيف ، حتى خففها وبقيت الخمس ، ففي رواية أنه سأل منها التخفيف بعد أمر موسى له بذلك ، فقال الله

له: « قد أمْضَيتُ فريضتي وأوْجَبْتُ على عبادي ، وجَعَلتُ ثواب الخمسين في الخمس » ، وفي رواية لما أمره بطلب التخفيف من الخمس ، قال : « قد علمتُ أنه أمر صري - أي لازم - فأقومُ بها ولا أسألُ التخفيف منها » .

وفي النسبة الشريفة العالية المنيفة نسبة ساداتنا السادة بني علوي ، قال في « المشرع الروي » للسيد محمد بن أبي بكر شلية باعلوي ، يشير إليهم : « ولا عيب فينا غير أن أصولنا لها سبب بالمرسلين وثيق، وأن ظلام الجهل يمحى بذِكْرنا ، وأنّا بكل المكرمات حقيق ، ولا حاجة لنا بالتطويل في هذا القبيل فإنه أشهر من أن يُشهر ، وأوضح من أن يُسطر عند من سلك محجة الإنصاف ، وأظهر حجة الحق التي هي أكمل الأوصاف . وقد ذكر علماء هذا الفن حكايةً تشير إلى تفاصيل أصله ، وتدل عليه بمختصر القول وفصله ، وهي أن السادة بني علوي لما استقروا بحضرموت ، أراد بعض أئمة ذلك الزمان أن يؤكد تلك النسبة المحمدية والوصلة الأحمدية ، فطلب منهم تصحيح نسبهم الشريف ، وتحقيق شرفهم المنيف بحجة شرعية وأدلة مرضية ، والظاهر أن الحامل له بعض من عنده نزغة إباضية أو سفعة شيطانية . فسافر الإمام شيخ الإسلام الحافظ المجتهد أبو الحسن علي بن محمد بن جديد إلى العراق وأثبت نسبهم ، وأثبت على ذلك نحو مائة عدل ممن يريد الحج ، ثم أثبت ذلك بمكة المشرفة، وأَشْهَدَ على ذلك جميع من حج من أهل حضرموت . فقدم هؤلاء الشهود في يوم مشهود وشهدوا بثبوت نسبتهم المحمدية وسلسلتهم النبوية ، وجَرَت في ذلك اليوم أشياء أُعجِبَ بها كُماتُه ، وسَلَّمَ الفضل لهم حماتُهُ، فعند ذلك انقشعت سُحُبُ الأوهام ، وتبلجت غرة الشرف ، وأميط عنها اللثام ، ولقد أحسن من قال من أهل الكمال :

وَجُحُودُ مَن جَحَدَ الصَّباحَ إذا بَدَى ... مِنْ بَعْدِ ما انْتَشَرَتْ لَـهُ الأَضْـوَاءُ

مَـا ذَاكَ أنَّ الشَّـمْسَ لَيْـسَ بِطَالِـعٍ ... بَـلْ إنَّ عَيْنـاً أنْكَـرَتْ عَمْيَـاءُ

وقد أشار رأس الرؤوس ومزيل كل هم وبؤس ، الشيخ أبوبكر بن عبدالله العيدروس إلى من ذكر هذا النسب الشريف من العلماء وحققه من الفضلاء بقوله :

والجَدُّ سَامِيْ الذُّرَى ثَبْتُ العُلا عَلَوِيْ ... مَنْ حَازَ فَخْراً سَمَا عَنْ فَخْرِ كُلِّ وَلِي

وَبِالـذِيْ فَـارَقَ الأَوْطَـانَ إذْ فَعَلَـتْ ... جَلالُهُـم مَـا يُبَتِّـك بَاهِـيَ المِلَـلِ

أَعْنِـي عُبَيْـداً فَيَاللـهِ مِـنْ رَجُـلِ ... في عَـصْرِهِ ثُـمَّ ياللـهِ مِـنْ رَجُـلِ

وَأَحْمَـدِ ثُـمَّ عِيْسَـى مَـعْ مُحَمَّدِهِـم ... ابـنِ العُرَيْـضِي عَدِيـمِ الضِّـدِّ والمَـثَلِ

ثُمَّ العُرَيْضِيْ عَرِيْضِ الجَاهِ عُمْدَتِنَا وَذي العِبَادَةِ بِالأَبْكَارِ وَالأُصُلِ
وَجَعْفَرِ الصَّادِقِ المشْهُورِ مَنْ شُهِرَتْ أَوْصَافُهُ في حُلُولِ الغَوْرِ وَالقُلَلِ
وَالبَاقِرِ المنتَقَى مِنْ عُصْبَةٍ شَرُفَتْ مُحَمَّدِ الْغَوْثِ عِنْدَ الحَادِثِ الجَلَلِ
وَبِالملَقَّبِ زَيْنِ العَابِدِيْنَ وَبالْـ ـسِبْطَيْنِ وَالبَرَّةِ الزَّهْرَاءِ ثُمَّ عَلِيْ
للهِ سِبْطَا نَبِيٍّ مَنْ كَمِثْلِهِمَا فَقَدْ أُنِيلا فَخَاراً غَيْرَ مُنْتَقِلِ
فَإِنَّ أَكْرَمَ خَلْقِ اللهِ جَدُّهُمَا مُحَمَّدٌ سَيِّدُ الأَمْلاكِ وَالرُّسُلِ
لَنَا إِلَيْهِمْ وَمِنْهُمْ نِسْبَةٌ شَرُفَتْ حَقِيْقَةٌ حَارَ عَنْهَا كُلُّ ذِيْ جَدَلِ
صَحَّتْ وَقَدْ قَالَتِ الْعُلَمَاءُ مِنْ طُرُقٍ مَنْ رَامَ فِيْهَا مُحَاجَاتي فَيَبْرُزُ لي
وَإِنْ يَكُنْ لم يُطِقْ يوماً مُنَاظَرَتِي أَوْ كَانَ في قَلْبِهِ حَرْفٌ مِنَ العِلَلِ
فَلْيَنْظُرَنَّ تَوَارِيْخَ الكِرَامِ فَقَدْ صَفَتْ مَشَارِبُنَا في النَّهْلِ وَالْعَلَلِ
فَإِنَّهُمْ كُلَّهُمْ فِي كُلِّ مَا جَمَعُوا قَالُوا بِتَشْرِيْفِنَا في الأَعْصُرِ الأُوَلِ
كَالأَهْدَلِ الحَبْرِ مَنْ وَافَى بِشُهْرَتِهِ كِيْوَانَ دَعْ عَنْكَ مَجْرَى دَارَةَ الحَمَلِ
وَاليَافِعِيِّ إذاً والخَزْرَجِيِّ كَذَا الشَّيخِ العَوَاجِيِّ وَالشَّرْجِيِّ لَمْ يَحُلِ
وَقَالَهُ ابنُ أبي حِبٍّ مَعَ الجَنَدِيْ ولابْنِ حَسَّانِ قَوْلٌ قَدْ شَفَا عِلَلِ
والْعَالِمُ العَلَمُ الرَّاوِيْ الحَدِيْثِ وَمَنْ لَهُ جَلالٌ بِأَنْوَارِ الحَدِيْثِ جَلِيْ
إنْ كَانَ نِسْبَتُهُ يَا صَاحِ مِنْ حَجَرٍ فَذَاكَ جَوْهَرُ أَهْلِ العِلْمِ وَالعَمَلِ
قَدْ أَثْبَتَ الفَخْرُ في أَنْسَابِنَا شَرَفاً فاسْأَلْ عَنِ البَحْرِ لا تَسْأَلْ عَنِ الوَشَلِ
وَفِي طَرِيْقَتِهِمْ جَاءَ ابْنُ سَمْرَةَ والـ ـشَّيْخِ المَرَاغِيِّ فَاعْدِلْ غَيْرَ مُعْتَدِلِ
أَبُو شكيلٍ لَهُ فِي نَسْجِ نِسْبَتِنَا وَشْيٌ يُقَصِّرُ عَنْهُ الوَشْيُ فِي الحُلَلِ
وَلابْنِ كَبَّنَ فِيْهَا حُسْنُ تَرْجَمَةٍ كَالدُّرِّ يُظْهِرُ حُسْنَ النَّحْرِ حَيْثُ جُلِي
لها السَّخَاوِيِّ بِالمدْحِ البَدِيْعِ سَخَا فِيْمَا تَوَاتَرَ بِالتَّفْصِيْلِ وَالجُمَلِ
كَذَا أَبُو الفَضْلِ في الأَنْسَابِ فَضَّلَهَا عَلَى سِوَاهَا بِلَا رَيْبٍ وَلَا زَلَلِ

وَقَالَ هَـذَا أَبُـو عَبَّادَ عُمْدَتُنَـا   مَقَالَ مَنْ لم يَصِفْ فِي القَوْلِ مِنْ خَطِلِ
مُحَمَّـدُ بْـنِ أبِي بَكْـرٍ فَيَالَـكَ مِـنْ   حُـرٍّ حَمَـى حُرُمَـاتِ الدِّيْـنِ مِـنْ جَـدَلِ
وَقَالَـهُ ابْـنُ أبِي عِيْسَـى التَّرِيْمِـيُّ فِي   تَارِيخِـهِ فَالشِّـهَابُ القَـوْلُ عَنْـهُ جَـلِي
يـا صَاحِ مَـنْ مِثْلُنَـا في مـا تَـرَى أَحَـد   مِمَّـنْ يَسِـيْرُ وَمَـنْ يَعْلُـو عَـلَى الإِبِـلِ
نَحْـنُ الكِـرَامُ بَنُـو القَـوْمِ الكِـرَامِ إِذَا   جُدْنَـا عَدَلْنَـا بِصَـوبِ العَـارِضِ الهَطِـلِ
لَنَـا السَّـمَاحُ الـذِيْ عَـمَّ الأَنَـامَ مَعـاً   كَـمْ أَبْدَلَـتْ رَاحنَـا خِصْبـاً مِـنَ المَحَـلِ
لَـوْ أَنَّ لِلْبَحْـرِ أَعْيَانـاً يُشَـاهِدنا   عِنْـدَ السَّـمَاحِ اعْـتَرَاهُ الفَيْـضُ بِالخَجَـلِ
لِجَدِّنَـا مِـنْ إِلَـهِ العَـرْشِ مَنْزِلَـةٌ   كَقَـابِ قَوْسَـيْنِ لم تُـدْرَكْ وَلَمْ تُنَـلِ
وَجَدُّنَـا نَظَـرَ البَـارِي الْقَـوِيُّ وَلَمْ   يُسْـبَقْ إِلَى مِثْلِـهِ قَطْعـاً مِـنَ الرُّسُـلِ
صَـلَّى عَلَيْـهِ إِلَـهُ الْعَـرْشِ مَـا صَدَحَـتْ   وَرْقٌ عَـلَى فَنَـنٍ بِالسِّـرِّ ذِيْ مَيَـلِ
والآلِ وَالصَّحْـبِ وَالأَتْبَـاعِ عَـنْ طَـرَفٍ   وَنَاصِرِيْـهِ بِحَـدِّ البِيْـضِ وَالأَسَـلِ

هذا حد ما استشهد به صاحب « المشرع » من القصيدة ، حيث ذكر الشيخ القطب أبوبكر بن عبدالله العيدروس في ذلك آباءه الكرام وأجداده سادات الأنام ، واتصالهم بسيد الأنام سيدنا محمد عليه وعلى آله وأصحابه أفضل الصلاة والسلام .

وأما أول القصيدة فغزل ، ليس هو من قصده ، بل إنما قَصْدُهُ إثبات النسبة العلوية ، وترجيح ثبوتها على جميع ما ثبت من أنساب السادة ، وذِكْرُ من تكلم في ثبوتها ، والإشارة إلى ما قالوه في ذلك ، ونصل أول القصيدة بما ذكر منها وهو آخرها ، فأولها قال رضي الله عنه :

فِي رَبَّـةِ الخَـالِ وَالخَلْخَـالِ وَالحُلَـلِ   عَاهَـدْتُ سَـمْعِيْ بِـتَرْكِ السَّـمْعِ للعَـذِلِ
رَأَى فُـؤَادِيْ هَوَاهَـا مَسْـكَناً فَثَـوى   وَقَـالَ لِي إِنَّ هَـذَا البَيْـت يَصْلُـحُ لِي
فَقُلْـتُ لِلْحِـبِّ لا تَـتْرُكْ تَوَطُّنَـهُ   فَقَـالَ إِنِّيَ خِـلِّي غَـيْرُ مُرْتَحِـلِ
وَقُلْـتُ قُـلْ لِلَّتِـيْ صَـارَ الْغَـرَامُ بِهَـا   فَرْضـاً عَـلَيَّ مَتَـى بِالْوَصْـلِ تَسْـمَحُ لي
فَلَـوْ مَـرَرْتُ عَـلَى أَرْضٍ لَهَـا أَثَـرٌ   بِهَـا مَـلأْتُ بِقَـاعَ الأَرْضِ بِالْقُبَـلِ
مَحْجُوبَـةٌ لم يَصِـلْ صَـبٌّ مَلاعِبَهَـا   مَحْمِيَّـةٌ بِصِفَـاحِ السُّـمْرِ وَالأَسَـلِ

مِـنْ حِـرْصِ حُرَّاسِـهَا مَـا مَـرَّ بَيْنَهُـمُ   يَوْمـاً إِلى خِدْرِهَـا قَلْـبٌ بِـلَا زَجَـلِ
أَبْـلَى جَدِيْـدِيْ هَوَاهَـا ثُـمَّ بَلْبَلَنِـي   وَمَـنْ رُمِـي بِسَـنَاها قَـد بَـلِي وَبُـلي
لَا خَلَّـصَ اللهُ قَلْبِـي مِـنْ حَبَائِلِهَـا   وَإِنْ رَمَتْـهُ بِسَـهْمِ الأَعْـيُنِ النُّجُـلِ
وَحَـقِّ مَـا بِلَمَاهَـا الْعَـذْبِ مِـنْ بَـرِدٍ   وَمَـا بِنَاظِرِهَـا الوَسْـنَانِ مِـن كَحَـل
مَا حِلْتُ عَـنْ عَهْدِهَـا المعْهُـودِ مِـنْ قِـدَمٍ   وَلا اخْتَجَبْـتُ بِسُـلوانٍ وَلا بَـدَلِ
بِحَـقِّ حُرْمَـةِ عَبْدِاللـهِ وَهْـوَ أَبِي   وَخَـيْرِ مُتَّـزِرٍ بِالْفَضْـلِ مُشْـتَمِلِ
مَـنْ لَقَّبَتْـهُ الأَنَـامُ الْعَيْـدَرُوس وَمَـنْ   بِالمَسِّ أَوْ ثَوبِـهِ يَشْفِيْ مِـنَ الْعِلَـلِ
وَمَـنْ سَـمَتْ بِـأَبِي بَكْـرٍ مَفَاخِـرُهُ   فِي عَـالَمِ الجِهَتَـيْنِ السَّـهْلِ وَالجبَـلِ
والمنْتَقَـى عَابِـدُ الرَّحْمَـنِ مَـنْ سَـبَقَتْ   قِدْمـاً عِنَايَتُـهُ فِي سَـابِقِ الأَزَلِ
وَبِالجَمَالِ جَمَـالُ الدِّيْـنِ مَنْهَجُـهُ   مُحَمَّـدٍ نَـوِّرِ اللَّهُـمَّ لِي سُـبُلي
وَبِالمسَـمَّى عَلِيًّـا وَالفَتَـى عَلَـوِي   شَـيخِ الطَّرِيْقَيْنِ عَـارِيْ الفَخْـرِ عَـنْ خَلَـلِ
وَبِالنَّجِيْـبِ العَجِيْـبِ ابْـنِ النَّجِيْـبِ إِذاً   مُحَمَّـدٍ وَالحَسِـيْبِ ابْـنِ الحَسِـيْبِ عَـلِي
مُقَـدَّمِ التُّرْبَـةِ الْغَـرَّاءِ مَـا طَلَبَـتْ   نَفْسِيْ بِـهِ مَطْلَبـاً إِلَّا تَيَسَّـرَ لي
وَفِي مُحَمَّـدَ لِي ذُخْـرٌ وَلِي أَمَـلٌ   لا خَيَّـبَ اللهُ لا ذُخْـرِيْ وَلَا أَمَـلِي
وَفِي عَـلِيٍّ فَخَـارِي ثُـمَّ فِي عَلَـوِيْ   تَـرَاهُ يَـا صَـاح مِـنْ فَـوْقِ الفَخَـارِ عَـلِي
فَـإِنْ رَقَيْـتُ المعَـالي فَهـي إِرْثِـيَ مِـنْ   مُحَمَّـدٍ وَهْـوَ وَافٍ بِالعُـلا وَصِـلِ
والجَدُّ سَامِيْ الذُّرَى ثَبْتُ العُلا عَلَوِيْ   ..

إلى آخر الأبيات المتقدمة من آخر القصيدة التي أولها هذا البيت الأخير : « والجد سامي الذرى .. » إلى أن ختمها بالصلاة على النبي ﷺ ، فقال : « صلى عليه إله العرش ما صدحت .. » والبيت بعده . فأت بها من أولها المذكور ، ثم صلها بآخرها المذكور .

أقول : أظن أن واقعة علي بن جديد هذه التي ذكرها في « المشرع الروي » غير واقعة جدِّه عبيدالله بن أحمد بن عيسى التي ذكرناها أولاً ، والواقعتان يتعاضدان في تصحيح نسب السادة بني علوي ، وأنها مرتفعة على جميع أنساب من صح نسبه من السادة ، حيث لم يتفق لهم ما يصحح أنسابهم مثلهم

كهذه الوقائع ، وكثير ممن يدَّعِي السيادة يُصَدَّق ، وتجري عليه النسبة ، ولا اختُبِرَ بمثل ما اختُبِروا به من مثل هذه الوقائع .

وأشهر أنساب السادة : نسب الرفاعية ، وقد اعترض عليها ناسٌ متحذلقون بدعوى العلم ، وهم جاهلون ، ولهم مطالعة في ديوان ابن خلكان ، ورأوه ذَكَرَ أنَّ الرفاعية نِسْبة إلى رفاعة ، قبيلة من العرب، فقالوا في دعواهم في إنكار ذلك النسب الشريف : إذا كان نبستهم إلا إلى تلك القبيلة من العرب ، فليسوا بأشراف إذاً . ولقصور معرفتهم باللغة ، ما عرفوا من النسب إلا نسبة القرابة فقط ، وهم مع ذلك يدَّعون أنهم فيها مُتَّسِعون ، وقد وقعوا بدعواهم في الكذب والفجور ، فإنَّ النِّسَبَ في اللغة خمسٌ ، واحدة منها نسبة الجوار ، حتى إذا جاء رجل أجنبي ، ونزل في حافة قوم ؛ نسبوا إليهم نِسْبة جوار ، لا نسبة قرابة ، وهي نسبة سيدي أحمد إلى رفاعة ، حيث نزل في حافتهم فنُسِب إليهم نسبة جوار ، ونَسَبُهُ وحده لا يتصل بهم فيه . وأحد النسب الخمس نسبة حرفة ، كما يقال للإسكافِيَّيْن ، كُلٌّ منهما يقال له إسكاف ، ولا بينهما قرابة ولا معرفة ، وما جمعهم في الإسم إلا الحرفة ، ونسبة بلد ، كما يقال لإثنين من العراق ، كلٌّ منهما يا عراقي ، بلا قرابة بينهما ، ونسبة طريقة كما يقال لمن هو على طريقة النقشبندية ولو كثروا نقشبندي ، وكذلك الرفاعية والقادرية ، رفاعي وقادري بلا قرابة بينهم . فافهم جهل من نفى الشرف ممن ثبت له سبب النسبة .

فسيدي أحمد الرفاعي له بنتان فاطمة وزينب ، ووَلَدٌ اسمه السيد صالح ، وتوفي في حياة أبيه صغيراً وما أعقب ، فهذا الذي شُبِّهَ على نافي نسبهم الشريف ، فانظر الآن : فإن البنتين : فاطمة ، تزوجها ابن أخته علي بن عثمان ، فأولدت له سيدي إبراهيم الأعزب ، وإليه انتهت رئاسة الطريقة الرفاعية ، حتى إني سمعت سيدي السيد عبدالله الحداد نفع الله به يقول : « **إن إبراهيم الأعزب هذا ولد بنت السيد أحمد الرفاعي قال لأصحابه : نريد نَسلُبُكم أحوالكم في الدنيا ونَرُدُّها عليكم بعد الموت، أَسْلَم لكم ، ففعل ذلك** » ، قال سيدي عبدالله : « **ولعل ذلك سبب تذبذبهم** » .

وولدت له أيضاً نجم الدين أحمد الأخضر ، ويسمى أحمد الصغير ، ويقال لسيدي أحمد الرفاعي أحمد الكبير احترازاً منه ، فهو وإبراهيم الأعزب أخوان أشقاء . وتزوج زينب عبدالرحيم بن عثمان، أخو علي بن عثمان شقيقه ، خالهما سيدي أحمد الرفاعي ، أمهما يقال لها ست النساء ، فولدت زينب لعبدالرحيم سيدي شمس الدين ، وإليه ينتسب الرفاعية في سلسلة نسبهم ، ويجعلونه ابناً لسيدي أحمد. فعلي وعبدالرحيم أخوان من الأبوين ، أبوهما سيدي عثمان بن حسن بن عسلة بن حازم ، وسيدي أحمد الكبير بن أبي الحسن بن علي بن يحيى بن ثابت بن حازم المذكور ، فيجتمع سيدي أحمد مع نسب وَلَدَيْ أخته علي وعبدالرحيم ابْنَيْ عثمان بن حسن في سيدي حازم المذكور .

وهو حازم بن أحمد بن علي بن الحسن بن المهدي بن أبي القاسم بن محمد بن الحسن بن الحسين بن أحمد بن موسى الثاني بن إبراهيم المرتضى بن الإمام موسى الكاظم بن الإمام جعفر الصادق بن الإمام محمد الباقر بن الإمام زين العابدين علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ، وابن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ . وبهذا ثبت النسب الشريف ، خلافاً لمن نفاه ، وقد رأيناه ورآه المجَرِّبون ، أنه ما نفاه أحد فيفلح ، بل يقصم الله عمره في الحال .

واتصال نسب سيدي السيد محمد بن عبدالخضر بن السيد رجب بن السيد شعبان بن السيد محمد بن السيد صالح بن السيد عبدالرحمن بن السيد عبدالله بن السيد حسن بن السيد حسين بن السيد يوسف بن السيد رجب بن السيد شمس الدين محمد ، وهنا يقولون ابن السيد المشهور أحمد الرفاعي ، وإنما هو ابن بنته ، وأبوه عبدالرحيم بن عثمان بن حسن بن عسلة بن حازم ، الذي يجتمع فيه مع سيدي أحمد ، وهو حازم بن أحمد .. إلى آخر النسب كما ذكرنا .

وإذا صحَّ النسب صحت السيادة والشرف ، وسواء اتصلوا به بولد أو بنت ، والله أعلم .

وإنما أطلنا الكلام في هذه المادة ، مادة نسب السادة ، إثباتاً لصحة النسبة خوفاً من اعتقاد شرف من ليس بشريف ، على ما يزعم كثير ، ويدَّعي الشرف بالكذب لطلب الجاه والمال ، أو عدم اعتقاد الشرف لمن ثبت له ذلك ، وقد ورد من قول رسول الله ﷺ : « لعن الله الداخل فينا من غير نسب ، والخارج منا من غير سبب » .

لأنه مطلوب من الإنسان أن يعرف الشر وأسبابه ، فيحترز منه ويجتنبه ، لعله ينجو ويسلم على دينه ويعرف أهله ، فيحترس منهم ، لما روى البخاري في صحيحه عن حذيفة بن اليمان رضي الله عنه قال : « كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير ، وكنتُ أسأله عن الشر مخافة أن أقع فيه ، فكنت أسأله عن النفاق وعن المنافقين حتى أعلمني عن ذلك » ، يعني أنه أعلمه بصفات النفاق ، وبأسماء مَن هي فيه من المنافقين وعَيَّنَهم له ، فعَيَّنَ له كلَّ واحدٍ منهم باسمه ، حتى عرفهم ، فكانوا يُسَمُّونه صاحبَ سِرِّ رسول الله في أهل النفاق ، وكان كل من خاف من النفاق أو أن يكون من أهل النفاق سأله عن نفسه في ذلك ، حتى إن سيدنا عمر قال له : « سألتك بالله هل أنا منهم ؟ » ، قال : « لستَ منهم ، ولن أبرئ أحداً بعدك » هـ .

قال رضي الله عنه : « ما عاد في هذا الزمان إلا الملاطفة والمداراة والأخذ باللطف ، ولا بد أن يدبر الله للناس ما فيه الخير » هـ .

أقول : قال ذلك لمَّا أَنْ ذُكِرَ له جور السلطان وأعوانه على المسلمين ، وإفراط تعديهم عليهم هـ .

وذكر الأخطار التي عليها أهل الجهات ، *فقال* : « **كالهند ونحوهم ، يتربى الإنسان بين السهام وفي الحروب ، وما يشبههم في المخاطرة إلا الصوفية ، فإنهم يخاطرون بأنفسهم في أمور شديدة ، لا تكاد تدخل في الطاقة ، وذلك لأنهم رَمَوا بأنفسهم ولا حسبوها ، فَعَدُّوها في الآخرة ، وإن كانوا في الدنيا، فما يظهر عليهم من أشياء غريبة من رؤية ملائكة أو سماع هاتف أو غير ذلك ، فكل ذلك من أمور الآخرة** » ، وسألتُه عن قول الإمام الغزالي في الإحياء في كتاب التوبة : « قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسببٍ خفي يقتضي العفو عليه - أي على السبب ، يعني يُعفى عنه بسببه - ولا غضب إلا بسببٍ باطن يقتضي البعد من الله - أي بسببه - .. إلخ » ، *فقال* : « **نعم ، لمَّا أن أعطاه الله التوحيد والطاعة ، وَرَزَقَهُ ذلك وَوَفَّقَهُ له ، كان هذا منه تعالى لعبده ، من غير سببٍ ولا وسيلةٍ استحق لها ذلك، وعند ترتيب المجازاة على الأعمال لا يكون شيء إلا بسبب** » هـ .

أقول : مراده أن السعادة والشقاوة وغيرهما من المَقْضِيَّات حَتماً لا بد منها ، ولا تتوقف على سبب من العبد ، بل هي كائنة بمقتضى الإرادة الإلهية لا غير ، إنْ وَقَفْتَها على سببٍ أو لا ، فإنْ وَقَفْتَها على سببٍ فلا بد من حصوله ، ثم حصولها ، كلٌّ في وقته ، فالأسباب فروعها الناشئة عنها ، وهي - أي تلك المقضِيَّات - متوقفة على أسبابها وأوقاتها ، ولا بد لها منهما ، وعلى هذه الأسباب والأوقات تتوقف تلك المقضيات - وهو الذي أراد الإمام الغزالي - وهي مداخل الخلق التي أشار سيدنا إليها في تلك المقالة : « **إن لله نظرات** » ، والمقضيات التي لا تتوقف على الأسباب هي نظرات الله من نفسه إلى نفسه ، والتي من كرمه إلى رحمته هو التوفيق منه لمن اختصه ، الجاذب له إلى فعل الخير ، وليس إلى العبد مدخل إلى التوفيق ، وإن كان له مدخل إلى جزاء العمل . والمثال الذي يوصل هذا المعنى إلى الأذهان : أن السعادة والتوفيق إلى عملها هو مجرد نظر الله من نفسه إلى نفسه ، واختياره لا مدخل لمخلوق في ذلك ، ثم جزاء أعمال السعادة ، فأعمالهم هي مداخلهم في استحقاق الجزاء ، وهو الذي أشار إليه الإمام الغزالي . وكذلك الشقاوة والخذلان الداعي إلى أعمالها ، لا مدخل لهم فيه ، بل هو محض اختيار من الله ، لكن جزاء أعمالهم ، وأعمالُهم مداخلُهم إليها .

فافهم من سياق هذا الكلام ما لا مدخل للعبد فيه ، وهو الإسعاد والتوفيق ، والإشقاء والخذلان،

ومداخلهم ما نشأ عن التوفيق من العمل الصالح وجزاءه ، وهو نظر الله من كرمه إلى رحمته ، يعني تَكَرَّمَ اللهُ على عبده فَجَرَّهُ قهراً عليه إلى استحقاق جزاء العمل الصالح ، وهو من رحمة الله به ، فهذا وسيلة منه استحق ذلك بها ، وما دعا إليه الخذلان من المعاصي فهو جريمة استحق جزاء ذلك بسببها، فهذه - أي الأعمال من الخلق التي هي سبب استحقاق جزاء الأعمال - هي مداخلهم إلى ذلك ، وكل ذلك على وفق الإرادة الإلهية . فانظر إلى قوله تعالى :﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ۝١٣ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ﴾ ، وإنَّ ظاهرها شريعة وباطنها حقيقة ، فظاهرها إخبارٌ للخلق أنَّ مَن أراد منكم أنْ يكون في نعيم ؛ فليكن من الأبرار بعمل البِرِّ ، وهو فعل الطاعات - أي المأمورات - وترك المنهيات ، ومن خاف أن يكون في جحيم فلا يكن من الفجار ، وهم من يفعل الفجور ، وهو فعل المنهيات وترك المأمورات .

وباطنها الحقيقة أنَّ الله سبحانه لمَّا خلق الجنة وَعَدَها بملئها من أهل البِرِّ ، الذين يعملون الصالحات ويتركون المعاصي المنهيات ، ولمَّا خلق النار وَعَدَهَا بملئها من أهل الفجور ، الذين يفعلون المنهيات ويتركون المأمورات ، وعَيَّنَ لكُلٍّ من الدارين أهلاً يختصون بها ، وعَيَّنَ لكلٍّ من الفريقين عملاً يستحقون به دخول دارهم ، وعَيَّنَ ذلك في سابق علمه تعالى ، قبل وجودهم ووجود أعمالهم، فَلَمَّا أوجدهم أعلمهم بذلك ، فأخبرهم أنَّ الأبرار هم الموعودون منه بالنعيم ، وأنَّ الفجار هم الموعودون منه بالجحيم ، فلينظر كلُّ واحد منكم لنفسه ، فيختار لها ما ينفعها ويجنبها ما يضرها. فإخبارهم بذلك وطلبه منهم عَمَلَ الخير وتَجَنُّبَ الشر هو الشريعة ، ثم تحتاج إلى بيان وتفصيل وشرح، وهو ما اشتمل عليه حديث جبريل من الإسلام والإيمان والإحسان ، وما اقتضاه ذلك العمل من الشريعة والحقيقة ، وأنَّ الشريعة هي ما نُسِبَ إلى الخلق ، وأنَّ الحقيقة هي ما نُسِبَ إلى الحق ، وما لا مدخل للخلق فيه هو الحقيقة ، وما لهم فيه مدخل هو الشريعة ، فَعَمَلُهم هو الشريعة ، وقد جمع شريعةً وحقيقةً ، لأن الشريعة من عند الله ، وعملها على يد العبد ، فيجب على العبد أن يُشْغِلَ ظاهره بالشريعة وباطنه بالحقيقة ، ويبقى مع ذلك خائفاً وَجِلاً ، لا يعلم أنه من أي الفريقين هو ، هل هو ممن لا تضرهم السيئات ؟ أو ممن لا تنفعهم الحسنات ؟ والأول المذكورون في قوله تعالى : ﴿ إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾، يعني : وماتوا على ذلك وما بدلوا . والثاني المذكورون في قوله تعالى : ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ۝١٥ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝١٦﴾، يعني : إن ماتوا على ذلك وما تداركوا أنفسهم بالعمل الصالح قبل الموت وماتوا عليه ، فإن ماتوا على الإيمان مع الإصرار على المعاصي فهم في المشيئة ، ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ﴾هـ .

قال رضي الله عنه : « **العلم دليل الفعل ، فإن لم يكن فِعْلٌ ؛ فهو خسارة على الطالب والمطلوب ، والأحسن للمحترف إذا لم يسهل عليه أن يعمل بما في البداية ، أن يعلم بما لا بد له منه من علوم الإيمان - أي الإعتقادية - وعلوم الإسلام - أي العملية - ويشتغل بحرفته ، ويترك طلب العلم - أي يكفيه** ذلك إذا اشتغل بأسباب المعاش عن التوسع في العلم - **ويَسْلَمُ من خطره ، ويَدَعهُ على غيره ، سواء كان بَرًّا أو فاجراً ، فإن قدر أن يعمل بها فليطلبه ، فإن العلم يزيده خيراً ، وإلا فمن عجز عن القليل فلا شك أنه عن الكثير أعجز ، وفيها ميزان عجيب** - أو قال : **عظيم** - **ذكره مصنفها فليجرب نفسه به** » هـ .

أقول : الميزان الذي ذكر : هو قول مصنفها : « وبعد فاعلم أيها الحريص على اقتباس العلم ، المُظهِر من نفسه صدق الرغبة فيه وفرط التعطش إليه ، إنك إن كنت تقصد بطلب العلم المنافسة والمباهاة والتقدم على الأقران ، واستمالة وجوه الناس إليك ، وجمع حطام الدنيا ، فأنتَ ساعٍ في هدم دينك وإهلاك نفسك ، وبيع آخرتك بدنياك ، فصفقتك خاسرة وتجارتك بايرة ، ومُعَلِّمُكَ مُعِينٌ لك على عصيانك ، وشريكٌ لك في خسرانك ، وهو كبائعِ سيفٍ من قاطع طريق ، ومَن أعان على معصيةٍ ولو بشطر كلمة كان شريكاً فيها ، وإن كانت نيتك وقصدك من العلم فيما بينك وبين الله تعالى الهداية دون مجرد الرواية فأبشر ، فإنَّ الملائكة تبسط لك أجنِحَتَها إذا مَشَيْتَ ، وحيتان البحر تستغفر لك إذا سَعَيْتَ» ، قال سيدنا : « **أي في طلب العلم** » ، وقال : « **لا يعرف ذلك بإقراره بل بشمائله** » .

قال الإمام الغزالي : « ولكن ينبغي لك أن تعلم قبل كل شيء أنَّ الهداية التي هي ثمرة العلم ، لها بداية ونهاية ، وظاهر وباطن ، ولا وصول إلى نهايتها إلا بعد إحكام بدايتها ، ولا عثور على باطنها إلا بعد الوقوف على ظاهرها . وها أنا مُشيرٌ عليك ببداية الهداية ، لتجرب بها نفسك وتمتحن بها قلبك، فإن صادَفْتَ قلبك إليها مائلاً ، ونفسك بها مطاوعة ولها قابلة ، فدونك والتطلع إلى النهايات، والتغلغل إلى بحار العلوم والمكاشفات . وإن صادَفْتَ قلبك عند مواجهتك إياه بها مُسَوِّفاً ، وبالعمل بمقتضاها مماطلاً ، فاعلم أنَّ نفسك المائلة إلى طلب العلم هي النفس الأمارة بالسوء ، وقد انتَهَضَتْ مطيعة للشيطان الرجيم ، لِيُدْلِيَكَ بحبل غروره ، ويستدرجَك بمكيدته إلى غمرة الهلاك ، وقصده أن يروج عليك الشر في معرض الخير، حتى يُلْحِقَك بالأخسرين أعمالاً ، ﴿ٱلَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ .

وعند ذلك يتلو عليك الشيطان فضل العلم ودرجة العلماء ، وما ورد فيه من الأخبار والآثار ، ويلهيك عن قوله ﷺ : من ازداد علماً ولم يزدَدْ هدىً ، لم يزدد من الله إلا بُعْداً . وعن قوله ﷺ : إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة عالمٌ لم ينفعه الله بعلمه . وعن قوله ﷺ : مررتُ ليلة أُسرِيَ بي بأقوامٍ تُقرَض

شفاهُهم بمقاريض من نار ، فقلتُ : من أنتم ؟ فقالوا : كُنَّا نأمر بالخير ولا نأتيه ، وننهى عن الشر ونأتيه . فإياك يا مسكين أن تذعن لتزويره وتتدلى بحبل غروره ، فويلٌ للجاهل حيث لم يتعلم مرةً واحدة ، وويلٌ للعالِم حيث لم يعمل بعلمه ألف مرة » .

ومعنى استشهاده بهذه الأحاديث ، الذم لمن لم يعمل بعلمه ، حيث ترك واجباً وهو عالمٌ بوجوبه، أو يفعل محرَّماً وهو يعلم بتحريمه ، هكذا ذَكَرَهُ في أولها ، ثم قال في آخرها : « فهذا القدر يكفيك يا أخي في بداية الهداية ، فجَرِّب بها نفسك ، فإنها ثلاثة أقسام : قِسْمٌ في آداء الطاعات ، وقِسْمٌ في ترك المعاصي ، وقِسْمٌ في مخالطة الخلق . وهي جامعة لجُمل معاملة العبد مع الخالق والخلق ، فإنْ رأيتَها مناسِبةً لنفسك ، ورأيت قلبك مائلاً إليها وراغباً في العمل بها ، فاعلم أنك عبدٌ نوَّر اللهُ بالإيمان قلبَك، وشرح له صدرك ، وتَحَقَّقْ أنَّ لهذه البداية نهاية ، ووراءها أسرار وأغوار وعلوم ومكاشفات ، وقد أودعناها في كتاب إحياء علوم الدين فاشتغل بتحصيله .

وإن رأيت نفسك تستثقل العمل بهذه الوظائف ، وتستكثر هذا الفن من العلم ، وتقول لك : أنَّى ينفعك هذا العلم في محافل العلماء ؟ ومتى يقدمك هذا على الأقران والنظراء ؟ وكيف يرفع منصبك في مجالس الأمراء والوزراء ؟ وكيف له أن يوصلك إلى الصلة والأرزاق وولاية الأوقاف والقضاء ؟ فاعلم أن الشيطان قد أغواك وأنساك منقلبك ومثواك ، فاطلب شيطاناً مثلك لِيُعَلِّمَكَ ما تظن أنه يُوصِلُك إلى بُغْيَتِكَ . ثم اعلم ، أنه قَطُّ لا يصفو لك المُلْكُ في مَحَلَّتِكَ فضلاً عن قريتك أو بلدتك ، ثم يفوتك المُلكُ المقيم والنعيم الدائم في جوار رب العالمين ، والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته » ، هذا آخرها، فهذه القاعدة التي ذكرها والقانون الذي أشار إليه في أولها وآخرها ، هو الميزان الذي أشار سيدنا عبدالله إليه ، وحاصلها توزيع الإنسان أوقاته ، وترتيب أوراده من حين يقوم من منامه إلى أن يعود إليه ، ويأتي بأوراد صباحه ومسائه ، وأذكار الصلوات وآدابها ، وذِكْرُ معاصي الأعضاء السبعة وتَجَنُّبها ، وأن منها جميع اجتراحاته وأعماله ، خيرها وشرها ، فيطلقها في خيرها ويمنعها من شرها ، كاللسان يمكنه أن يذكر الله ويقرأ القرآن به ، وهذا خيره ، ويمكنه أن يَلْغُوَ ويغتابَ ويَكْذِبَ به ، وهذا شره ، فيفعل به الخير ويترك منه الشر ، وكذلك جميع الأعضاء .

فأراد الشيخ مؤلفها : أنَّ من عمل ذلك فهو دليله في إخلاصه في طلبه العلم ، ومن لم يفعل ذلك دَلَّ على فساد نيته في طلبه . ولساداتنا آل باعلوي بها اعتناء كثير جداً ، لإخلاص أعمالهم ، وأعمالهم مُرَتَّبَةٌ عليها ، فَيُرَبّون أولادهم عليها ، ويُقَرِّونهم إياها صغاراً ، فينشئون على العمل بها ، ويقفون على إشارته إذ يقول : « وها أنا مُشِيرٌ عليك » .

قال الشيخ السيد أحمد بن السيد الشيخ أبي بكر العيدروس صاحب عدن : « أَمَرَني والدي الشيخ

أبو بكر أن أقرأ عليه في البداية ، فلما وَصَلْتُ قوله : وها أنا مشير عليك ، قال : قف عليه . وقال : أمرني والدي عبدالله العيدروس أن أقرا عليه البداية ، فلما وَصَلْتُ : وها أنا مشير عليك ، قال : قف عليه . وقال : أَمَرَني عمي الشيخ عمر المحضار أن أقرأ في البداية ، فلما وَصَلْتُ : وها أنا مشير عليك ، قال : قف عليه . وقال : أمَرَني والدي الشيخ عبدالرحمن السقاف أن أقرأ عليه في البداية ، فلما بَلَغْتُ: وها أنا مشير عليك ، قال : قف عليه » ، ثم قال : « ولو لم يكن في البداية إلا قول الإمام الغزالي : وها أنا مشير عليك لكفى » ، هذا قول السقاف .

وكلٌّ واحد من المذكورين يقول لابنه : هات كتاب البداية ، فإذا أتى به ، قال له : اقرأ ، فيقرأ ، فإذا وصل الموضع المذكور قال له : « قف عليه » ، قال ذلك عنهم كذلك سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به قال : « **وأجمعوا السادة من آل باعلوي أنه لا أَنْفَع للمبتديء من البداية ، لأن فيها ميزاناً كافِيِهِ** » ، يعني فيجرب بها نفسه . وكان سيدنا عبدالله يأمر القاريء إذا ابتدأ يقرأ فيها أن يقف على قوله : « وها أنا مشير عليك » ، تبعاً للسادة المذكورين نفع الله بهم .

ولما مر في بعض قراءتها عند ذِكْر حديث : « من ازداد علماً .. إلخ » ، **قال** : « **ومنهم علماء السوء الذين يطلبون العلم ولا يعملون به ، أو يعملون على خلافه ، أو يَفْخَرُون به ، وجعلها**[1] **مصنفها شرحاً لتقوى الله التي حث القرآن على اتباعها ، وذكر أنها فِعْلُ الطاعات الظاهرة والباطنة ، وتَرْكُ المعاصي الظاهرة والباطنة** » .

كما قال : « فإن قُلْتَ : فما بداية الهداية لأجرب بها نفسي ؟ فاعلم أن بدايتها ظاهر التقوى ، ونهايتها باطن التقوى ، والتقوى عبارة عن امتثال أوامر الله تعالى واجتناب محارمه ونواهيه ، فهما قسمان وأنا أشير عليك بِجُمَلٍ مُخْتَصَرَةٍ من ظاهر علم التقوى في القسمين جميعاً » .

ومعنى وقوف السادة عند ذلك الموضع ، الوقوف على إشارة الشيخ هناك بقبول العمل ، وهنا بالعمل نفسه بأن يمتثلَ ويعملَ ولا يتعدى بترك العمل ومخالفته ، فهذا الميزان الذي تعرف به صلاح نيتك من فسادها في طلب العلم كما ذكر .

وقال لرجل يوصيه في أبويه : « **الله الله فيهما ، بِرَّهُما وابْتَغِ رضاهما ، وكُنْ لهما كالعصا المركوزة ، ولا تتحرك إلا إن حَرَّكَاك** » .

---

(١) أي بداية الهداية .

وقال لرجل : « شِبتَ يا فلان » ، قال : « نعم » ، قال : « ولكن إن ما شِبْتَ في الدنيا شِبْتَ في القبر، فإن الإنسان في الدنيا عاد يمكنه التوبة والعمل الصالح ، قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا ٱلتَّوْبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٍ ﴾، هذا في حق المؤمنين ، وفي حق المخلِّطين : ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾» .

أقول : بعد الأولى ﴿ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾ وبعد الثانية : ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌۚ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴾هـ .

قال في الحض على التأهل للولاية وغيرها : « تأهلوا للشيء ، والصغير يُرَبَّى ، كالعشعش يُسقى ويُربَّى حتى يكبر ، فلو أراد جاهل يتولى القضاء لم يمكنه ذلك . والسياسة لها حكم ، والشريعة لها حكم ، ولكن السياسة تحكم الشريعة إذا كانت السياسة من أهلها ، كما أن العادة تخدم الشريعة » .

ثم قال : « وقد رأيتُ الإمام المتوكل في النوم ، وكأنّي مررتُ عليه وهو في طريق كلها شوك ، وعليَّ حذاءٌ وهو حافي . فقلتُ له : خذ الحذاء فالبسها ، لأنك صاحب أمر . فقال : لا ، ما يُحتَاج إليها وإنما هي لأجل .. » ، ثم تكلم سيدنا بكلام اشتبه عليَّ سماعه فاشتبه عليَّ حفظه ، ثم أنشد هذا البيت :

وَلَرُبَّـمَا طَعَـنَ الفَتَـى أَقْرَانَـهُ ... بِالـرَّأْيِ قَبْـلَ تَطَاعُـنِ الأَقْرَانِ

ثم قال : « والأمر ما هو إلا بالرأي والسر والسياسة » هـ .

أقول : مراده بالتأهل للشيء : معرفة عمله على وجهه الذي يُعرَّف للآخذ فيه ، كما يعرف الآخذ في الدين بمعرفة الأحكام الشرعية ، وكما يُعرَّف الآخذ في الدنيا بمعرفة أسبابها ، ويُعرَّف الآخذ في الولاية بمعرفة أمورها وسياساتها ، ويتربى على ذلك من صغره ، كما « يُرَبَّى العشعش » ، وهي الفسيلة المغروسة حتى تصير نخلة مثمرة ، فإذا عرف هذه الأمور وأخذ فيها ، فيصير فيها مع العلم ذا همة عالية ، فما تُدرَك معالي الأمور إلا بعلو الهمة لا بسفسافها ، كما قال معاوية : « هُمُّوا لمعالي الأمور تدركوها ، فإني لست للخلافة أهلاً ، ولكن هَمَمْتُ بها فَنِلتُها » ، ولكن يحتاج في الأخذ في هذه الأمور إلى الغاية والنهاية في التحفظ عما يخل بالدين والدنيا ، المشار إليه في رؤياه بلبس الحذاء - وهي النعل- كما يتحفظ بها عن النجاسة ، وعما يضر من الرمضاء والسَّبرة والشوك والحصى الذي يضر بالرجل ، كما أشار بلبسها للمتوكل وهو إمام اليمن ، حيث أنه والي أمر ، لأنه يحتاج بسبب ذلك إلى غاية التحفظ عما يضر بالديانة والمروءة ، وفي الدنيا والآخرة .

قوله : « **السياسة تحكم الشريعة ، والعادة تخدم الشريعة** » ، فمعنى كون السياسة تحكم الشريعة يعني تُبَيِّنُ حُكْمَها ، فيحكم بها وتظهره فيعمل بالشرع على ما بَيَّنَتْهُ ، ففي بعض الأمور لا يتبين فيها حكم الشريعة ، فتُبَيِّنُهُ السياسة الصادقة ، إذا كانت من أهل الحكمة الحريصين على إقامة الأحكام الشرعية ، المحكمين لأمور السياسة ، وهو معنى قوله : « **إذا كانت من أهلها** » .

ومثاله : قصة رجل استودع رجلاً صُرَّةَ دراهم أو دنانير ، وغاب عنه مدة طويلة ، ثم جاءه يطلبها، فأنكرَهَا وقال : « ما أعطيتني شيئاً » ، فشكى عليه عند القاضي إياس بن معاوية ، وكان مشهور بحسن السياسة المحكمة ، فقال : « أَلَكَ بَيِّنَة ؟ » ، قال : « لا » ، فلو كان له بينة لتم له حكم الشرع ، فلما لم يكن عنده بينة ، أطلق عنان حصان تفرد السياسة ، فأتاه ببيان حكم الشريعة فثبت له به حكم الشرع، وذلك أنه قال للمُدَّعي : « أين أعطيتَه أمانتك ؟ » ، قال : « في الموضع الفلاني » ، قال له: « رح إلى ذلك الموضع وتعال » ، وأَبْقَى المُدَّعَى عليه عنده ، ثم بعد ساعة قال له : « أتراه وصل إلى ذلك الموضع ؟»، قال : « لا » ، ثم تركه ساعة ، ثم قال له : « أتراه وصله ؟ » ، قال : « نعم » ، فقال له : « إنه صَدَقَ في ما ادَّعاه ، فاعْطِه أمانته » ، فأقر بها ، فألزمه بتسليمها .

فانظر كيف تَبَيَّنَ بهذه السياسة الحُكْمَ الشرعي ، فقام القاضي حينئذ له بالحكم الشرعي ، فألزمه بتسليمه له . وهذا هو معنى قوله : « **تحكم الشريعة** » ، أي تُظهِر حكمها وتُبيِّنه ، فَيَثْبُت به الحكم الشرعي . ومعنى كون « **العادة تخدم الشريعة** » ، يعني تجري على حكمها أحكامها .

ومثال ذلك : أنَّ أشياء لا نَصَّ فيها في الكتاب والسنة ، بتعبير أمرٍ ولا نهيٍ ، وجَرَت بها العادة على وجهٍ ، فيَحْكُمُ الشرع فيها على ما هو العادة ، كما يلزم حكم نفقة الأهل والمملوك على حسب عادة أمثالهم وغير ذلك ، بل لو نَصَّ القرآن في اسم شيء ونَصَّت العادة بخلافه ، جرى حكم الشرع فيه عليه حسب العادة .

ويكفيك دليلاً وشاهداً في حكم الشرع بحكم العادة أن لحم صيد البحر مع تسميته في القرآن لحماً طرياً ، لمَّا كان لا يُسَمَّى في العادة لحماً ، ولو جَرَت به اللغة العربية وجرى بها القرآن ، تبع الحكم الشرعي للعادة دون اللغة ، فلو حلف لا يأكل لحماً ، فأكل السمك لا يحنث ، لعدم تسميته في العادة لحماً ، وإنما يسمى لحماً في العادة المعروفة ما هو من لحوم الأنعام والطيور المألوفة فيحنث بها ، والحيوان غير المأكول يُسَمَّى في اللغة لحماً ، كما ورد تسميته بذلك في حديث تحريم أكل لحوم الحُمُر الأهلية ، يعني فيحنث بأكلها ، وموارد أحكام الشرع غير موارد اللغة هـ .

قال لرجل : « الله الله ، عليك بالصدق ، كلمة الحق ، فالحق يَعلو ولا يُعلى ، لا تتكلم إلا بالصدق» .

وتكلم في حديث : « العلم الذي لا يَحِلُّ منعه » ، فقال : « أي لأهله ، أو العلم الواجب من كيفية الصلاة والطهارة وأمور العبادات ، لأن العلم أنواع ، شيءٌ يُبذَلُ لعامة الناس ، وشيءٌ للخصوص ، كالمال ينقسم إلى جهات مختلفة ، شيء منه لأهل الخُمُس والفَيء ، وشيء للفقراء والمساكين وغير ذلك» .

وذَكَرَ والي اليمن ، فقال : « هو ظالم ، لأن الظلم له صورة ، وإنما هو - أي ذلك الوالي - عقوبة طرحه الله على رقاب الناس ، والوالي الظالم عقوبة ، يعاقب الله سبحانه به أولاً ، ثم يعاقبه » ، وهذا معنى قوله فيما تقدم : « إذا أبغض الله عبداً جعله في موضع العقوبة » ، يعني يعاقب به من عصى ، ثم يعاقبه بعصيانه .

وذكر عمر بن جعفر والي حضرموت ، فقال : « حركاته كثيرة وظفره قليل ، وإذا أراد الله بالعبد شيئاً - أو قال : خيراً - جعل حركاته قليلة وظفره جَمًّا . فانظر أمر الله في خلقه ، أحد منهم في الراحة، وأحد منهم في التعب . وأهل حضرموت يعملون كالمريض الذي بَعُدَ منه الطبيب ولا معه دواء ، وليس للناس حاجة بقتل يافع ، ما هو ألَّا يرفعون أيديهم من الأمور التي ما تنبغي لهم ، وصفة العسكري ما هي ألَّا هكذا ، ولو كان أربعة جماعة أرادت تقدم منهم واحداً تعالقوا ، والأمر ما هو ألَّا بالإنتظام. وقد قَصَدَ سِتَّةُ نفرٍ بعضَ الملوك ، ثلاثة منهم عَجَم وثلاثة عرب ، فأمر لكلٍّ بسرير ومَنْوَهَة - أي مروحة- فأما العجم فأمَّروا منهم واحداً ، وجعلوا له السرير وأعْطَوْا المَنْوَهَة آخر منهم يُنَوِّه عليه ، والآخر جعلوه على الباب بواباً . وأما العرب فاختلفوا بينهم ، كلٌّ منهم يريد أن يُؤَمَّر ، فلما علم الملك بذلك ، أَمَرَ العجم الثلاثة بالإقامة عنده وأعجبه حالهم ، وطرد الثلاثة العرب وقال : هؤلاء مفسدون لا خير فيهم » ، أو كما قال .

قال في حديث : « من التقط ما تساقط من الطعام حَرَّمَ الله جسده على النار » ، ثم قال : « للتواضع والصيانة وشكر النعمة » .

أقولُ : أي لِمَا في ذلك من ذلك ، لما ورد : « يا عائشة اعرفي قدر نعم الله عليكِ ، فَقَلَّ ما زالت نعمة عن قوم فعادت إليهم ، والذي يزيلها عدم شكرها واحتقارها وبطرها » .

قال : « لا تشاور إلا ذا عقل وذا سر ، إلا إن كان في أمر ظاهر » .

قال : « مَيْلة الإنسان من الأمر وهو على حق ، خيرٌ مِن أن يُدخِلَ يده فيه ، وبدنه في البعد عنه .

وباعد الأمور إذا اضطربت ولا قام فيها والي ، يصطلح فيها وجوه الأرض إلى أن يقوم والي » .

قال : « بين الناس شياطين من شياطين الجن ، خالَطوا شياطين الإنس ، مثل ما ترى بينهم في الأسواق في غلاء الأسعار ، وظهور ما يطلب إخفاؤه ، وكله من الشواغل ، والأمور السائغة بين الناس » .

قال : « مسير الهند ما هو إلا بَلِيَّة على آل باعلوي ، ما هو إلا بلية يصبر عليها وبلية يشكر عليها ، وإلا يسير إليها صغيراً ، أيش يرجعه إلى وطنه وأهله ؟ ما يرجع إلا إن كان حصلت عناية آلهية . وقد كان السيد أحمد باجحدب ما يخلي من يسافر الهند يستخلف منه ، ولا سار إليها السيد عبدالله بن شيخ إلا بإشارة ربانية ، لكثرة ما حصل له من الدَّين » .

وتقدم قصة بعض الأشراف ، سافر إلى الهند ومكث فيها مدة ، ثم رجع منها إلى حضرموت ، ومابقي إلا يسير ، ثم جاءه يستأذنه في الرجوع إلى الهند ، وقال له : « قد رحت إلى الهند فيكفيك ذلك، والصواب أن تمكث في بلدك ، فلو جاءك أجلك فيها تولاك أهلك وعشيرتك ، ودُفِنْتَ عند أهلك وقرابتك ، ولو رحت الهند وجاء أجلك هناك ما تولاك منهم أحد ، ومُتَّ غريباً ودُفِنتَ في أرض الغربة، فالأولى لك أن تمكث ولا تسير » ، فخالَفَ ما أشار به عليه وسار ، فعَلِمَ به ، فقال : « إنما الشور في الأمور الإختيارية ، التي يمكنك فيها الفعل والترك ، وأما إذا كان في أمر ترغب نفسك إلى فعله ولا بد فلا يفيد الشور في ذلك ، وآخره يصير إلى مخالفة الشور كهذا » ، ثم قال : « إن على أهل حضرموت في مسير الهند دعوة ولي بلا شك ، وإلا فأحدهم إذا كان في الهند فيتمنى أن يشوف تريم ما يحصل له ، ثم إذا وصلها ما يمكث أن يطلب المسير إلى الهند ، فمن إيش هذا ؟ إلا من دعوة ولي » .

ثم قال : « إن الخلق مكلوفون لما خُلِقُوا له ، لأن الحق أراد بهم وأراد منهم ، فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه ، والشقي من اختلفت به الأمور » ، ثم التفت إليَّ وقال : « يا حساوي ، احفظ هذه الحكمة » ، قلتُ : قد حَفِظْتُها وكَتَبْتُها . ومن العجيب أني كنت تلقاءه عندما تكلم بذلك ، وكتبتها في وريقة صغيرة ونسيتها ، ولكن بعد ما وصلت الحساء بسنين كثيرة ، رأيت يوماً وريقة ساقطة مني، فرفَعْتُها لئلا تُداس ، فإذا هي تلك الوريقة ، فتأملتها وحفظتها بعد ما نسيتها ، فحفظها الله لي كما أرادني أن أحفظها ، وأمرني بحفظها . وتقدمت هذه المقالة شَرْحُها : وهو أنَّ قوله : « دعوة ولي » ، أي دعوة مجابة ، فإنه ما يجاب إلا دعاء الأولياء ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾ ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ ، وقوله : « مكلوفون » ، أي مُيَسَّرون ، كما ورد : « كُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ » .

وقوله : « أراد بهم » ، أي أراد بأحدٍ سعادةً ، وأراد منهم العبادة ، وأراد من أحدٍ شقاوةً ، ولم يرد بهم عبادة ، « فالسعيد » مَن وافق إرادة السعادة وأعمالها من الإيمان والعبادة ، « والشقي من اختلفت

به الأمور » ، أي وافق إرادة الشقاوة وأعمالها من الكفر والمعاصي ، ولم يوافق السعادة وأعمالها هـ .

قال : « **التعلق بالخير في هذا الزمان كالمباشَرة لكثرة الأشغال ، لأن أمور الخير قصدٌ وتعلقٌ ومباشرةٌ ونيةٌ** » .

أقول : مراده بالتعلق : أي الرغبة فيه بقلبه ، فإذا حصل ذلك مع العجز عن الفعل بعذر شرعي؛ كان كفعله ، وبَيَّنَ أنَّ فِعْلَه مُشتملٌ على هذه الأربعة : أولها تعلق القلب به بالرغبة فيه ، ثم يقصده بالفعل ، ثم ينويه ويشرع فيه . فإذا حصل شيء من هذه دون المباشرة مع العجز عنها والعذر الصحيح فهو كاف ، خصوصاً في هذا الزمان ، لكثرة شواغل الناس في ظواهرهم وبواطنهم ، وفي الحديث : « نية المؤمن خير من عمله » ، بل لو حصلت المباشرة دونها لم تنفع ، وإذا حصلت دونه نفعت ، وإذا اجتمعا فهو الغاية والنهاية ، وذلك توفيق من الله تعالى . والنية هي القصد مع المباشرة ، كما قالوا في تعريفها إنها - أي النية - هي قصد الشيء مقترناً بفعله .

وسألتُه رضي الله عنه عن معنى حديث : « يُستَوفى من القَرْنَاء للجَمَّاء » ، **فقال** : « **لعل ذلك مبالغة، ويبقى هذا على ظاهره ، لأن ذلك في قدرة الله تعالى . وأمور الآخرة كلها تُمَرُّ على ظاهرها ، ولا حاجة فيها إلى تأويل شيء ، إلا إن كان حديثاً واحداً احتيج إليه ، فإن كان وردت أحاديث على معنى ، يُتْرَك ويُجعل من الأمور السمعيات ، لأنها عند أهل العلم لا تُؤَوَّل . وقد جاء تخصيص بعض الحيوانات بدخول الجنة ، ولكن ذكر الإمام الغزالي أن من ظن أن الله سَيُحْيِي كلَّ بَقَّةٍ وبعوضةٍ حتى يسألها ، فقد انْحَلَّ عن غريزة العقل ، فلعل ذلك إنما هو في حيوان له خطر** » .

قال : « **إذا كان فضيلة في النفس سَهُلَ على الإنسان تناولها في أقرب وقت ، وحصل له الفتح ، كما كان ذلك للإمام الغزالي ، حتى صَنَّفَ في وقت شيخه إمام الحرمين** » .

وذكر جماعة اجتمعوا في الطلب ، **فقال** : « **إذا كان شيء مناسبة ؛ حصل الإتحاد ، كالماء مع اللبن والماء مع الدهن ، وإن كان ألَّا كالعود مع الماء ؛ لم يحصل** » .

أقول : أي إذا لم يكن مناسبة لم يحصل الإتحاد ، ومناسبة الماء للدهن واللبن بجامع الميوعة ، فاتحدا أي اختلطا ، فاتحدا أي اختلط الماء مع اللبن ومع الدهن ، بخلافه مع العود للجمودة فلم يتحدا . فكذلك الشخصان ، إذا اتحدا طَبْعاً فَحَسُنَت أخلاقهما ، فَسَلِما من الحسد والمنافسة اتحدا وتعاونا على الخير ، وإلا افترقا ولم يتحدا ولم يتعاونا ، ويبين المعنى حديث : « الأرواحُ جنودٌ مُجَنَّدَة ، فما تعارَفَ منها

ائتَلَف ، وما تَنَاكَرَ منها اختلف » هـ .

قال رضي الله عنه : « **الدنيا ما هي شيء ، لا يعدها الإنسان إلا من قفا ظهره** ، ﴿وَلَلْآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَٰتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ » هـ .

أقول : هنا ميزان يُعرَف به حال الإنسان : أنه لا يَعُدُّ الدنيا شيئاً إلا من ليس هو شيئاً .

قال لرجل : « **هل بقي لكم شيء من النخل ؟** » ، فقال : « بقي قليل بين جماعة » .

أقول : يعني بعد السيل الكبير الذي جرف النخيل وترك مواضعها كأن لم تغرس بها نخلة ، ويسمى سيل الحوت ، لأنه جاء آخر يوم في نجم الحوت للشبامي سنة ١١٢٤ ، وتقدم وصفه ، **فقال** : « **القليل إذا فيه بركة خير من كثير ما فيه بركة ، كما في قصة صاحب الدينار الذي سأل هل فيه بركة ؟ فقيل : نعم ، فأخذه واشترى به سمكة لَحِقَ فيها جوهرة ، ورَدَّ أكثر من ذلك ، كما في القصة. وأموال أهل الزمان ما عاد فيها بركة ، لعدم إخراجهم الزكاة ، فخالطت أموالهم ومعاملاتهم الفاسدة وغير ذلك ، ما عاد إلا اقنع منها بالقليل** » هـ .

أقول : والقصة التي أشار إليها ذَكَرَها غير مرة في مجالس متعددة غير هذا المجلس بطولها .

قال : « **إن رجلاً أصابه فقر شديد أتعبه جداً ، فرأى في النوم قائلاً يقول له : في الموضع الفلاني مائة دينار فَخُذْها ، فقال : أفيها بركة أم لا ؟ فقال : لا ، ما فيها بركة . فلم يأخذها ، فأخبر زوجته بالرؤيا ، فلامَتْهُ على عدم أخذها ، وقالت : نحن في غاية الضر ، فلو أخَذْتَها سواء كان فيها بركة أم لا . فرآه مرة أخرى يقول له : في الموضع الفلاني خمسون ديناراً ، فقال : هل فيها بركة ؟ قيل : لا ،قال : لا أريدها. وتركها ، ومرة أخرى رآه قال له : في الموضع الفلاني خمس وعشرون ديناراً ، قال : هل فيها بركة أم لا؟ قال : لا ، قال : لا أريدها . وتركها ، ومرة رآه يقول : في الموضع الفلاني عشرة دنانير فَخُذْها ، قال : هل فيها بركة ؟ قال : لا . فتركها ، ومرة رآه يقول له : في الموضع الفلاني خمسة دنانير فَخُذْهَا ، قال : هل فيها بركة ؟ قال : لا ، فتركها ، ثم رآه آخر مرة يقول : في الموضع الفلاني دينار واحد . قال له : هل فيه بركة ؟ قال : نعم ، فيه بركة . فأخذه واشترى به سمكة ، فلحق فيها الجوهرة التي ذكرها ، وفي كل مرة يخبر زوجته فتلومه** » .

وذكر الأسباب ، **فقال** : « **إذا أراد الله أمراً جعل له سبباً ، لأنه سبحانه لا يكلم الناس فيقول لهم : افعلوا كذا واتركوا كذا** » ، ثم قرأ : « ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ إِنَّهُۥ عَلِيٌّ حَكِيمٌ ۝٥١﴾، **والله سبحانه هو الفاعل** » هـ .

أقول : أي الله هو الفاعل في الأسباب ، فإن فَعَلَ في سببٍ ما هو المقصود بفعله ؛ حصل المقصود، وإلا فلا يحصل ، كما هو مشاهد ، وهذا جارٍ في كل الأسباب ، الدنيوية والأخروية . ودل عليه قوله تعالى : ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، والإبتغاء هو التسبب ، والمكتوب هو ما أراده الله به ، فَدَلَّ على أن كل ما هو سبب لا يفيد مقصوده إلا بالكتبة التي هي الإرادة الإلهية ، فلا كُلُّ مَن عَمِلَ الطاعة يدخل الجنة إلا بإرادة الله ، ولا كُلُّ مَن عَمِلَ المعصية يدخل النار إلا بإرادة الله ، ولا كُلُّ مَن تسبب بأسباب الدنيا لحصولها تحصل إلا بإرادة الله .

وقس على ذلك في كل الأسباب ، الدنيوية والأخروية ، فإن الله سبحانه وَجَّهَ الأسباب إلى مسبباتها ولا أطلق ذلك ، بل علق ذلك بمشيئته ، حتى ما تَعَلَّقَ بمشيئة الخلق من الأمور التكليفية ، لا يكون إلا بمشيئة الله ، كما قال الله تعالى : ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ۝٢٧ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ۝٢٨ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٢٩﴾، والعجب في مطالب الشريعة ، وهي استدعاء الأسباب مع شرط وجودها موافقة الحقيقة ، فقال تعالى في ملامة من أهلكهم لعصيانهم : ﴿ فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُواْ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُواْ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴾، مع قوله سبحانه : ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾الآية .

فمن اتبع الشريعة فلا لوم عليه في الحقيقة ، فدل قوله : « **إن الله لا يكلم الناس** » ، أن الأسباب هي كلام الله وخطابه للخلق ، بأن أعلمهم أن بها مقصودهم ومطالبهم ، لكن خَوْفَ أن يتكلوا عليها وينسوا جانب الله فيها عَلَّقَ مقصودهم منها بإرادته ، وفيه دليل على خطأ القدرية المتعلقين بها ، ونسوا فيها جانب الحق . ودل أيضاً على خطأ الجبرية التاركين الأسباب المأمور بها ، ودل أن الحق مع أهل السنة العاملين الأسباب امتثالاً للأمر ، ومعتمدين في رجاء حصول مطالبهم على إرادة الله ، فهم في عملهم بين الرجاء والخوف . ودل ذلك منهم على أنهم هم الفرقة الناجية من هذه الأمة ، وأنهم هم الذين هم على ما عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، حيث بَيَّنَها لما سُئِلَ عنها : من هي ؟ فقال : « هم الذين على ما أنا عليه وأصحابي » ، والذي هو عليه وأصحابه الإعتناء بعمل الأسباب ، والإعتماد على الله في نيل المقصود دونها ، فافهم .

وأوصى رجلاً يريد السفر ، **فقال** له : « **الله الله في الطاعة والهمة ، وطلب الدين والآخرة ، فإنَّ مَن**

سعى في طلب الدين والآخرة ، يَسَّرَ الله له دنياه ، ومن سعى في طلب الدنيا وترك دينه وآخرته ؛ فاته الدنيا والآخرة . وقد انقلبت همم الناس اليوم إلى ما لا يُهْتَم له ، واستغرقوا في ما لا يُستغرَق فيه ، لأن كل أحد إنما يستغرق فيما يهمه خاصة ، وكلٌّ يَهمُّه ما لا يَهمُّ غيره ، على مقتضى غرضه ، قَلَّ ذلك أو كَثُر ، وقد جعلوا الآن هَمَّهُم هَمًّا واحداً ، وهو طلب الدنيا ، حتى استغرقوا في ذلك عن أمر دينهم وآخرتهم ، ولولا أن الله منَّ على الناس بالحزب لذهب بهم استغراقهم حتى لا يعرفوا يوم الجمعة » .

وذكر الهارات ، وهي أوقات الوباء ، وكثرة من يموت فيها ، *فقال* : « **قد مات على ما أحْصُوا خمسمائة** » ، يعني في مدة ثلاثة أشهر من رمضان إلى ذي الحجة سنة ١١١٥ هـ .

أقول : سمعت رجلاً يقول لسيدنا : قد أُحْصِيَ من مات بين العيدين ، عيد الفطر وعيد النحر نحو أربعة آلاف من أهل البلد - يعني تريم - ومن غرباء وبدو ، وكانت هذه هارة شديدة وقحط شديد ، وصل سعر البلد تريم مد البُر بأوقية ، وثلاثة أرطال التمر بأوقية ، وثلاثة أواق الدهن بأوقية .

أقول : المد عشر قياسة الأحساء ، والرطل وزن نصف المُد ، والأوقية وزن قرش الحجر ، والرطل إثنا عشر أوقية هـ .

قال : « **وكلٌّ يحب سلامة نفسه ويسعى في منفعتها ، إلا إنهم مختلفون في القصد ، منهم من يقصد التنعم ، ومنهم من يقصد الطاعة ، ومنهم من يقصد المعصية . ولا بد لكلٍّ من الموت ، تأخرت المدة أو تقدمت ، إذا لم تَبْكِ عليهم بكوا عليك ، ولكن إذا كان مع الإنسان عَبرة ينبغي أن يتسلى ، لئلا تتغير عليه أمور دينه ودنياه . وما بقي الإنسان إلا كَمَن قال له واحد : إني أريدُ أن أقتُلَك ، فقتل من قَرُبَ منه ولا مَسَّه ، فتعجب من ذلك ، ثم ظهر عليه أثر القتل ، كمرضٍ ونحوه ، فاشتد خوفه ، فإذا صَحَّ ؛ نسي ذلك وقال : عسى يتركني** » هـ .

أقول : قوله : « وما بقي .. » إلى آخر المقالة ، هو مَثَلٌ لِمَا وعد الله به خلقه من الموت ، حيث قال سبحانه : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾، وأَجَّلَ أجَلَ كل واحد . فإذا رأى « **أثر القتل** » ، أي حصل له شيء من أسباب الموت كمرض ونحوه خاف من الموت ، فإذا لم يحضر أجله وبرئ من المرض، ثار عليه الأمل القاطع للعمل ، وتعلق قلبه بالعاجل الفاني ، ونَسِيَ ما ينفعه حين سَلِمَ من وقوع ما خاف منه ، ورجع في عماه ، وترك ما يقدمه عند مولاه ، فبئس هذا العبد من عبد ، لقد بخس حظه وَفَاتَهُ ما يفوز به عند ربه . وكان الذي ينبغي له لمَّا عاين سبب ما يخافه أن لا يَأْمَن ، ويبقى في غاية الوجل ، فيُقبِل بقلبه وقالبه على ربه ، ويقول في نفسه : لئن كنتُ أُمهِلْتُ في هذه ، لَحَرِيٌّ أن لا أُمْهَل في أخرى مثلها ،

فاشتغالي بطلب ما ينفعني فيما أقْدِم عليه أولى بي وأحق من طلب النفع فيما أنا مُرتَحِلٌ عنه ، لكن أين من ينفث روح القدس في روعه - أي ضميره - فيقول له : « عِشْ ما شِئتَ فإنَّك ميت ، وأحْبِبْ ما أحْبَبْتَ فإنَّك مُفارِقُه ، واعمل ما شِئتَ فإنَّك مُلاقِيه » .

والعجب كل العجب أني رأيت أناساً كثيراً لا يُحصَون ، مرضوا أمراضاً شديدة أَيِسُوا فيها من الحياة ، وأشفقوا فيها من الوفاة ، وغلب على ظنهم أنهم ميتون ، ثم إنهم لم تحضر آجالُهُم ، فعوفُوا وصَحُّوا ، ثم إنهم رجعوا مقبلين على الدنيا بِشُحٍّ شديدٍ ، أضعافاً كثيرة على شحهم الذي كانوا عليه قبل المرض ، لمَّا أَيِسُوا منها رجعوا إليها بنفوس مُقْبِلَة عليها ، لا تبالي من فَرْطِ شُحِّها بترك أديانهم ولا مروآتهم في طلبها ، أضعافاً مضاعفة على ما كانوا عليه من ذلك في شأنها .

وكان الأَوْلَى بهم والأَقْمَن أن يرجعوا إليها ساليةً قلوبُهم منها ، ومنصرفةً نفوسُهم عنها ، وإنما رجعوا إليها بعكس ذلك بأضعاف كثيرة . حتى إن بعض الناس مرض ثم صَحَّ ، فأردت أن أذكُرَ له ما استَنْكَرْتُهُ من الناس في هذا الوقت ، وأردتُ أن أسأله عن نفسه ، فابتدَأني قبل أن أسأله يخبرُني بما أحَسَّ به من نفسه ، فقال : « والله إني لأجِدُ من نفسي من الشُّحِّ بعد ما عوفيتُ من المرض أشد مما كنتُ أجد في نفسي من ذلك قبل المرض ، مع إنه كان شديداً » ، فقلت له : لقد رأيتَ أنت هذا من نفسك ، ورأيتُه أنا أيضاً في كثير من الناس ، وأردتُ أن أسألك عنه فابتدَأْتَني . فعجيبٌ ذلك ، وهذا مذكورٌ أنَّه من علامات الساعة ، أن يُلْقَى الشُّحُّ الشديد في قلوب الناس ، سيما من رأى أمارات الموت هـ .

قال *رضي الله عنه* : « ينبغي أن يأخذ مع أهل الزمان في تعريفهم الصواب بالتعريف باللطف والبيان، وأن لا يتعدى من هذا الطرف إلى الطرف الآخر - أي من الإفراط والتفريط ، وهذا هو الوسط المطلوب - ولا عاد معنا لهم بيان ولا صبر ولا حوصلة ، وهم كمن هو مائل عن الطريق ذراعين ، فأرَدتَه أن يميل الذراعين حتى يقوم على الطريق ، فقفز أربعة أذرع حتى يصير مائلاً عنه ذراعين في الجانب الآخر ، ما شبههم إلا كذلك ، إلا القليل من أهل العناية ، لأن الزمان مُدبِرٌ ، وأهله مُدبِرُون، ويعسر تعريفهم الصواب ولا لهم بصائر . ولا يَستخرِجُ العِلمَ إلا هِمَمُ الطالبين ، ومايستخرجه تقرير المعلمين ، ولكن يأخذ الإنسان بالقليل من الخير ويُحسِنُه ، فما ذلك بقليل ، وما العلم إلا معرفته ، والعمل به ، وتعليمه لمن تأهل ، وإلا كان متلاعباً بالدين ، والدين أعمال واتصاف ، فيطالب نفسه بالعمل ، فمن لا ينصح نفسه ما نصحه الناس، خصوصاً في هذا الزمان المبارك ، لو رأوك تسيء الصلاة وعرفوا أنك لا تقبل ، ما كَلَّمَكَ واحد » .

أقول : فالمصلي له ثلاث حالات ، لما ورد : « الصلاة مكيال ، فَمَن وفَّى استوفى » ، ومَن طَفَّفَ فقد

علمتم ما قال الله في المطففين ، فالمقتصر على أقل مجزيء فليس هو موفي ، والمقصر عنه فهو مطفف ، والأول بينهما .

قال : « **ما يليق في تفسير القرآن وشرح الأحاديث إلا الخشوع والخوف ، لأنها رقائق ، ولا يَحْسُنُ فيها البحث ونقل الأقوال . ومسألة القَدَر فيها إشكال لا يزول ، وهي على ثلاث درجات : مذهب القدرية والجبرية ، وقد انقرضوا حتى لم يبق اليوم منهم أحد ، وكانوا أنباء ، ومذهب أهل السُّنَّة وَسَطٌ بينهما . ولكن اعمل ما يُصلِحُكَ في أمر دينك على الوجه المقرر ، ودنياك ، وإن شَقَّ ذلك فتثبت به على ما قرره أئمة الحق** » هـ .

أقول : قوله : « **ثلاث درجات** » ، يعني الناس فيها على ثلاثة مذاهب : « **مذهب القدرية** » ، متعلقون بالأسباب ظاهرهم وباطنهم لا يرون النفع إلا من قِبَلِها ، ونسوا المُسَبِّب الحق الذي وَجَّهَهَا إلى مُسَبِّباتها ، وشَرَطَ أن لا يحصل مقصودها الذي وجَّهَهَا له - وهو النفع المراد به - إلا بإرداته وهي مشيئته أن تقع تلك المنافع بتلك الأسباب ، فإن لم يشأ ذلك لم تُفِدْهُ الأسباب . فافهم ذلك فإن جمهور الناس غافلون عنه ، فهم قَدَرية وما علموا ، كما تقدم ذلك من قول سيدنا .

والدليل في هذا المعنى قوله تعالى : ﴿ وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ ، والإبتغاء هو التسبب ، وما كتب الله هو ما أراده ، فدل ذلك في كل أمر أنه لا يحصل مقصودُ سببٍ إلا بإرادة الله ، وغير ذلك من الدلائل إذا تأملتها في القرآن، حتى مشيئتك في قصدك فعل السبب ، ما تكون إلا بمشيئة الله لقوله تعالى :﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ ، أي ما تشاؤون الإستقامة - التي هي سبب رضا الله ، ودخول جنته ، والنجاة من ناره ، وسبب كل خير في الدنيا والآخرة - إلا بمشيئته . فأين أنتَ عن هذه المعاني ؟

ومذهب « **الجبرية** » ، عكس مذهب القدرية ، يقولون نحن معتمدون على الله ، لا نرى نافعاً إلا الله ، ولا تنفع الأسباب ، وتركوها وقالوا : لا نافع ولاضار إلا الله ، وتركوا أحكام الله التي جعل اتِّباعَها سبباً للنجاة في الدنيا والآخرة ، من العار والنار ، وما اعتمد على الله مَن ضَيَّعَ أحكامه ، وذلك قطعاً خِزْيٌ وعذابٌ في الدنيا والآخرة ، وقد جعل الله قطعاً رضاه وعافيته في الدارين متوقفاً على اتِّباع أحكامه ، ويرون أنهم في أحوالهم وأعمالهم القبيحة مغلوبين مقهورين في كل ما يأتون ويذرون ، كحالة المرتعش الذي يرتعش قهراً من غير اختيار ، يعني فلا ملام عليهم في فِعلٍ قبيحٍ ، ولا حَمْدَ لهم في فِعلٍ مليحٍ ، وكِلا المذهبَيْن باطلان .

قوله : « **وكانوا أنباء** » ، أي أخبار ، تُذكَر ولا تُرى ، يعني أن أهل هذين المذهبين قد انقرضوا وما

بقي منهم أحد ، سوى أخبارهم .

ومذهب أهل السُّنَّة وهم الباقون اليوم ، ومذهبهم هو الحق ، الوسط بين المذهبين ، فيُعمِلُون الأسباب امتثالاً لأمر الله ، ويعتمدون بقلوبهم في حصول النفع على الله ، وكونه هو الحق ، لأنه المُقَرَّر في كلام الله وكلام رسوله ، وهو الموجود الآن ، ومُؤيَّد بتأييد الله إلى يوم القيامة . وكونه وسطاً ، لأنه وَسَطٌ بين المذهبين ، أي أخذ من كل واحد منهما طرفاً ، ففعلوا الأسباب كما أمر الله ، ولا اعتمدوا عليها كالقدرية ، واعتمدوا في حصول المقصود من الأسباب على الله ، فقالوا : لا يضر ولا ينفع إلا الله، وما تركوا الأسباب واتباع الأحكام كالجبرية ، وهم لذلك وسط . فإن الدين هو الوسط ، أي وَسَطٌ بين الإفراط والتفريط ، وبين الغلو والتقصير ، فهذا هو الحق والصواب ، يشهد بصحته الشرع والعقل ، فإن الأسباب أشباح ، وإن المقادير فيها أرواح ، فلا يحيا الجسم إلا بالروح ، كما لا يفعل السبب إلا ما جرى به القدر ، وهذا معنى ما أراده الله ، ومعنى المكتوب ومعنى القضاء .

فإن كل ما قضاه الله وأراده كتبه وسمى به ، وكونه خصه بأوقات وصفات هو القدر ، فإنْ وافق السبب القدر الذي هو الإرادة مع حضور الوقت حصل المقصود الذي يراد من السبب ، وإن لم يوافقه لم يحصل بالسبب ما يراد منه ، كما دلت عليه الآية المذكورة : ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، يعني تسببوا لكل أمر تريدونه بسببه الذي جعله الله له ، فلعل أن يوافق القدر الذي هو الكَتْبة ، وهو عبارة عن إرادة الله ذلك الأمر المتسبب له ، فيبقى مع فعل السبب راجياً أن يوافق الإرادةُ الإلهية ، والسببَ، وخائفاً أن لا توافق ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ﴾، فما صاروا راجين لرحمة الله إلا بعد فعل أسباب الرحمة ، وهي هذه المذكورات، ولم يقطع لهم بالرحمة بفعلها ، لأن هذه الأسباب وأمثالها من سائر الأسباب الدينية والدنياوية لا تفيد مقصودها بفعلها إلا بشرط موافقة الإرادة الإلهية لها بذلك ، فلما كانت غيباً لا يُقطَع بها ، صار فاعل الأسباب راجياً ، لعل أن توافق ، فلو طمع في الرحمة بدونها كان متمنياً . وكذلك في سائر المطالب ، إذا طمع فيها بدون فعل أسبابها فهو مُتَمَنٍّ مغرور ، مخادِعٌ نفسه ، ومع الأسباب على رجاء موافقة الإرادة الإلهية فهو راجي ، فلا يغفل عنها ، فرجاءه بدونها ولو مع السبب رجاءٌ كاذب، أي لا يصح له ما رجاه . وقس على ذلك في كل الأسباب ، الدنيوية والأخروية ، أن الأسباب كلها سُلَّمٌ يُتَوَصَّل بها إلى المقاصد، بشرط موافقة إرادة الله لذلك ، لا مطلقاً ، فافهم . فكثيراً ما يتكرر الكلام في ذلك ليتقرر لك المعنى .

وأما غرض امتثال أمر الله من العبد ، فيحصل له بفعل السبب ، سواء وافق القَدَر بحصول المقصود أو لم يوافق ، كما قيل شعراً :

عَـلَيَّ فِعْـلُ مَـا أُمِـرْتُ بِـهِ وَمَـا عَـلَيَّ إِذَا لَمْ يُسْعِفِ القَدَرُ

ولما لمح هذا المعنى بعض السلف قال : « لأن أدخل النار وأنا مطيع ، أَحَبُّ إليَّ من أدخل الجنة وأنا عاص » ، فإذا فعل الطاعة التي هي سبب دخول الجنة ، ووافقت الإرادة الإلهية له بدخول الجنة ، كان ممن وُعِدَ بها ووُعِدَت به ، وتَمَّ به وَعْدُ الله له بها ولها به ، وإن عمل المعصية التي هي سبب دخول النار، ووافقت الإرادة الإلهية له بدخولها ، كان ممن وُعِدَ بها ووُعِدَت به ، وتَمَّ به وَعْدُ الله له بها ولها به، وإن لم توافق الإرادة الإلهية للمطيع بدخول الجنة ، لا بد أن يُختَم له بعمل أهل النار ، فيلتحق بهم ، وإن لم توافق للعاصي بدخول النار ، لا بد أن يُختَم له بعمل أهل الجنة ، فيلتحق بهم .

ويبقى ذلك المطيع أولاً في حسرة شديدة على حرمانه من مقصود الطاعة وثوابها ، زيادةً على ما هو فيه من العذاب ، ويبقى العاصي أولاً في فرح وسرور على سلامته من مقصود المعصية وإثمها ، زيادةً على ما هو فيه من السرور والنعيم . والدليل على ذلك قول رسول الله ﷺ في آخر الحديث : « والذي نفسي بيده ، إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها ، وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » . والكتاب عبارة عن ما أراده الله في سابق علمه ، وكتبه في اللوح المحفوظ ، فما يموت أحد إلا على ما سُبِقَ له من الكَتْبَة ، يعني ما أراد الله له ويختم له بذلك ، ولو كان عمله بخلافه ، ومخالفة العمل لذلك نادر ، والغالب إنما العمل طول العمر إلا عليه ، ولذلك ورد جرياً على الغالب : « يموت المرء على ما عاش عليه ، ويبعث على ما مات عليه » ، وذكر الإمام الغزالي أن المراد بما عاش عليه ، أي على حالته قبل الموت عند قربه منه جدًّا، عند سبق الكتاب في الذراع المشار إليه في الحديث ، والذراع كناية عن قرب موته .

فافهم هذا المعنى المقرر ، فكثيراً ما يتكرر ، فإذا تكرر تقرر ، فيكثر تكرره في كلام سيدنا ، فيتكرر منا الكلام فيه على كلامه ، كما تقدم قريباً ، والكلام يدور على ذلك كثيراً ، كما تدور فوقية طبقة الرحى على السفلى لأنها القاعدة ، فكذلك هذه قاعدة الدين من أوله إلى آخره ، فيدور عليها الكلام في الدين هـ .

وصافح سيدنا جماعة مسافرون من أهل دوعن ، فسألهم عن الطريق من حيث الأمن والخوف والسهولة والصعوبة ، فأخبروه **فقال : « المسافرُ معانٌ ، سواء كان سفره في بر أو بحر ، إلا إن عليه أن يُحرِّرَ النية ، لئلا يضيع سَعْيُه ، فإنَّ المسافرَ سفراً مباحاً سَعْيُهُ ضائع ، وكذا المسافر لزيارةٍ أو حجٍّ،**

إذا لم يُصَحِّح النية سعيه ضائع ، إذ معلومٌ أنَّ مَن حَجَّ أو جاهَدَ مُرائياً أنَّ سَعْيَهُ ضائعٌ . والرياء هو الفعل بالقصد ، لا الخواطر التي تخطر من غير اختيار ، فإنَّ قلوب الضعفاء تكثر فيها الخواطر من هذا الجنس، حتى يتخلى القلب من الخلق ، وقليلٌ خطورها في قلوب المتقين ، فإذا خطر لهم منها خاطِرٌ بادروا إلى الرجوع ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْاْ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُواْ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ۝﴾، وذلك حين يتخلى القلب وينخلع عن كل ما سوى الله تعالى ، وذلك هو الكبريت الأحمر الذي يَعِزُّ وجوده ، ويُتَحَدَّثُ به ولا يوجَد » .

وقد قَدَّمتُ هذا بلفظه وأكثر في ذكر خواطر الصلاة ، حيث قال ما معناه : « سبحان الله ، إذا كان الإنسان في حالة الأكل لا تخطر له خواطر ، فإذا كان في الصلاة تفتحت عليه الخواطر من جهات كثيرة، لأن النفس في حالة الأكل مجتمعة على مطلوبها » .

قال : « كل شيء له أسباب كثيرة ، فإنَّ أسبابه وإنْ تعدَّدت تكون فرعاً لأصلٍ واحدٍ ، وهو أصلها، وترجع جميعها إليه في الخير والشر ، فإنْ كان شراً وأراد قطعها ، فليقطعه إن أراد الله به الخير ، وذلك بتحكيم شيخٍ مُحَقِّقٍ ، أو أخٍ صَالِحٍ مُشْفِقٍ ناصح ، وإلا لم يَسْلَم من دسائس نفسه أبداً ، ولو فيما هو صحيح في اعتقاده ، فقد قالَ الإمامُ الغزالي : إن الإنسان لم يمكنه تعذيب نفسه إلا بمنعها من أهويتها ، ولو كان ناصيته ورأيه بيد كلب ، لكان أنفع له من كون ذلك إلى نفسه » هـ .

أقول : أخذ ذلك بالمعنى ، ولفظه : « ومن ألقى زمامه في يد كلب مثلاً ، حتى لم يكن يرده بحكم طبعه بل بحكم غيره فنفسه أقوم ، وإلى قبول الرياضة الحقيقية أقْرَبُ ممن جعل زمامه في يد هواه ، يسترسل استرسال البهيمة ، وتحت هذا سر عظيم في تزكية النفس . وهذه فائدة تحصل بوضع الشارع ﷺ كيف ما وضعه ، والفائدة الحكمية والخاصية لا تتغير بالوضع ، وهذا يتغير بالوضع ، فإنَّ المقصود أن لا يكون مُخَلًّى مع اختياره ، وذلك يحصل بالمنع من أحد الجانبين ، أيِّ جانب كان ، وفي مثل هذا يُتَصَوَّر أن تختلف الشرائع ، لأنه ثمرة الوضع ، فيكفيك هذه التنبيهات على فضل ملازمة الإتباع في جميع الحركات والسكنات » ، انتهى ذِكْره في « الأربعين الأصل » . وأفْهَمَ معنى كلامه أنك إذا تحققت في ملازمة اتباع الكتاب والسُّنة ، أنك لا تحتاج إلى تحكيم أحد هـ .

قال : « إن الأكابر لا يأمرون أحداً ولا ينهونه ابتداء منهم أبداً ، حتى ما يطلب منهم أن يروا له ما هو الأصلح والأنفع له » .

قلتُ : فإن طلب منهم أن يكون تحت نظرهم ؟ ، **فقال** : « **يعطونه عندها كلمة واحدة تكفيه** » هـ .

أقول : يعني يذكرون له كلمة كُلِّيَّةً يعمل عليها ، وتكون له دستوراً وقاعدة يقف عندها ويعمل عليها ولا يتعداها ، كما قال في « رسالة المريد » : « **يأخذ منه إشارة كُلِّيَّة** » ، وكما وقف السادة عند قول الإمام الغزالي : « وها أنا مُشِيرٌ عليك » ، حتى صار عملهم على ما في البداية ، فتعمل على ذلك ونظرهم من وراء ذلك . ومثال ذلك ما قَدَّمْتُ من قول سيدنا لي يوماً : « **إذا أردتَ زيارة أحد من شيبان السادة فرخصتك معك ، ولك الإذن منَّا في ذلك متى أردتَ ، وإن أردتَ زيارة أحدٍ غيرهم فاستَأْذِن** » ، فزرتُ جميع شيبان السادة إلا واحداً ، فكلما أردتُ الدخول عليه انصَرَفَتْ همتي عن الدخول عليه ، وقد أسير قاصداً إليه ثم في أثناء الطريق تنصرف الهمة فأرجع ، وأخذتُ على ذلك نحو أربع سنين ، فذَكَرْتُ لسيدنا ذلك فقال : « **الحذر تزور هذا الرجل خاصة ، أو تصل إليه ، فإنَّا ما نريدك تصل إلى عنده** » . فتعجبتُ من المانع من ذلك مِن تَصَرُّفِهِ ، وبعد أيام سألني : « **هل سِرْتَ إلى فلان؟**»، قلتُ : لا ، بعد إذنك العام ما أمكنني الدخول عليه ، أَفَأَصِلُ إليه وقد نَهَيْتَنِي ؟ ، قال : « **نعم، هذا ما أردناك تروح إليه** » ، فيا أيها السامع لهذه القصة ، اقْضِ العَجَب من تصرف القطب عبدالله الحداد نفع الله به ، فهذا مثل ما أشار إليه من كونهم يعطونه كلمة تكفيه ، يعني تكفيه في كل ما يعمل ويذر ، ونظرهم من وراء ذلك .

فقلتُ له : فإن سلَّمَ نفسَه إليهم ، وطلب منهم أن يتصرفوا فيه بما أرادوا ؟ ، **قال** : « **ذلك له حُكْم** » هـ .

أقول : يعني إذا حصل له ومنه الإنطراح الكلي ، بحيث يكون كالميت بين يدي الغاسل كما قالوا ، فذلك له حُكْمٌ آخر لا يقاس على حكم المنقاد ، ولهم فيه نظر ، وما يكون ذلك إلا بموهبة من الله عز وجل ، وهم يعرفون حاله . وقد مَرَّ في هذا كلام ، وبَعَّدَ سيدنا وجود مثل هذا اليوم ، حتى قال : « **قَلَّ أنْ يوجَد هذا الإنطراح الكلي ، وحتى نحن نود أن لو كان لنا منه نصيب** » هـ .

قال رضي الله عنه : « ما يستقيم للأولياء أحوالهم إلا بترك الحظوظ في بداياتهم ونهاياتهم » .

أقول : الحظ كل ما تهواه النفس مما نفعه مجرد الدنيا ، ولا نفع فيه في الآخرة ، وهو المسمى في القرآن الهوى ، ﴿وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ﴾، وعكسه الحق وهو ما كان في مرضاة الله .

قال : « إذا لم تقدر تمشي على الطريق مع من يمشي عليه ، فكن منهم قريباً ، ولا تبعد عنهم فتميل عنه وتضيع » .

وتقدم من قوله مثل هذا ، وقال : « **فإنك إذا انقطَعْتَ وأنت على الطريق ، حَمَلَكَ المارُّون عليها ، وإذا لم تكن عليها وبَعُدْتَ عنها لم يَرَكَ أحدٌ فتنقطع ، ولا أحد يحملك** » ،أو كما قال .

وقال : « **ما استقمنا من أول الأمر إلا على الطريق العامة ، وأما الخاصة فقد انطوت** » .

قال : « **الإيمان إذا باشر القلب يكون هو اليقين** » هـ .

أقول : معنى « باشر » ، أي تَمَكَّنَ ، وذلك بنورٍ إلهيٍّ يقذفه الله في قلب من شاء فيجد بذلك لذة العبادة ، وهو من مواهب الله سبحانه ، وهو علامة قبول العمل ولا يحصل بالتكلُّف والتَّعَمُّل والتوقع له ، بل حيث أراد ، وحين أراد ، وكما أراد سبحانه هـ .

قال : « **كلٌّ من الأكابر غير أهل البيت ، لا بد لأحدهم علاقة وبركة من أحد من أهل البيت** » .

وذكر يوماً المباهاة ، **فقال** : « **إن ناساً صحبوا أحداً من الصالحين ، فتباهوا بصحبتهم ، فأذهب الله عنهم بركتهم ، لأن المباهاة بأمور الدنيا تُذهِب البركة ، كيف المباهاة بأمور الدين ، والناس اليوم نزلوا** ».

أقول : المراد بالمباهاة التكبر بها ، ويرى بسببها أنه خير من غيره من أجلها ، فما زادته إلا نقصاً لا كمالاً . و « **نزلوا** » أي نقصوا .

قال : « **لا بد في الإمام المُقتَدَي به من السيرة والسريرة والصورة ، فالسيرة هي الطريقة ، والسريرة هي حُسْنُ الخُلُق ، أن لا يكون فَظًّا ولا غليظاً ولا وحشياً** » هـ .

أقول : المراد بـ « **السيرة** » التي فَسَّرَها بالطريقة ، هي الإستقامة على قانون الحق والصواب في

عباداته وعاداته ، وفي جميع حركاته وسكناته ، وفي أقواله وأفعاله ، وظاهره وباطنه ، وسائر أحواله عادةً وعبادةً . فافهم ولا تغفل .

و « السريرة » التي فَسَّرَها بما ذَكَر أن يكون كما ورد : « هَيِّناً لَيِّناً » ، لا يجفو أحداً بقولٍ ولا فعلٍ ، وإن جُفِيَ عليه قابَلَ بلطفٍ وإحسانٍ ، بلا غلظة ولا جفاء ، بل ببشاشة ولِينِ عريكة - أي طبيعة - .

و « الصورة » أن يَظْهَرَ على ظاهره من حُسْنِ سيرته وحُسْنِ خُلُقه أثَرٌ جميل يَسُرُّ الناظر ، ويدل حُسْنُ ظاهره على حُسْنِ باطنه ، فإن الظاهر عنوان الباطن ، كما يدل لون الحزين على حزنه ، ولون المسرور على سروره ، كما تراه مُشاهَد . يعني بأن يكون على ظاهره عنوان مما في باطنه ، فالجواد عينه فُرارُه ، يعني رؤيته تدل عليه .

قال : « **ما كلُّ أحد يستيقظ ، ولا كل أحد يسير ، ولا كل أحد يصل ، وكل الناس يسيرون ، إلا منهم سائرٌ إلى الجنة ومنهم سائرٌ إلى النار ، حتى إنه ما يموت أحدهم إلا وهو على باب النار** » هـ .

أقول : قوله : « **ما كل أحد يستيقظ** » ، أي بل بعضهم . وقد ذكر الإمام الغزالي أن من الناس من لو مات نِصفُهُ ما أيقظَ نِصْفَه الآخر .

قوله : « **ما كل أحد يسير** » ، أي إلى معرفة الله ، بل بعضهم ، ولا كلهم يصلون إليها ، بل البعض حسب المشيئة الربانية .

قوله : « **وكل الناس يسيرون** » ، أي قادمون على جزاء أعمالهم ، فمنهم من عمله صالح ، فهو قادمٌ على الجنة على الشرط المتقدم ، ومنهم عمله سوء ، فهو قادمٌ على النار بالشرط المذكور ، وهو إرادة الله كما تقرر مراراً .

قوله : « **حتى إنه ما يموت أحدهم .. إلخ** » ، هو معنى قوله ﷺ : « **حتى إن أحدكم ليعمل بعمل أهل الجنة ، حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع ، فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها** »، وهو الذي عناه بقوله : « **ما يموت أحدهم إلا وهو على باب النار** » ، ومثله في أهل الجنة : « **وإن أحدكم ليعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها** » . والذراع كناية عن شدة القرب ما بين آخر عمله وبين أجَلِهِ وسَبْقِ الكتاب في الحالتين ، يعني يغلب عليه عند قرب موته ما كُتِبَ له من سعادةٍ فيعمل عملها ، أو شقاوة فيعمل عملها . وكل ذلك بحسب ما كَتَبَ الله له - أي أراد له - من سعادة أو شقاوة ، فيعمل آخر عمره وقرب أجله عمل ما كُتِبَ له من أحد الأمرين ويُخْتَم له به . اللهم ارزقنا حسن الخاتمة والوفاة على

الإيمان ، فلا يموت أحد إلا على ما كتب الله له - أي أراد له - من أحد الأمرين : إما بسعادة وخير، أو شقاوة وشر ، قال الله تعالى : ﴿كُلٌّ فِي كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾، ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَٰهُ فِيٓ إِمَامٍ مُّبِينٍ﴾ ، ﴿وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُّسْتَطَرٌ﴾، وكل ذلك بحسب الكَتْبة ، أي الإرادة الإلهية لا غير ، كما تقرر كثيراً غير مرة، لا بحسب الأسباب ، إلا بشرط موافقة الارادة هـ .

قال *رضي الله عنه* : « **القطبانية في خصوص وعموم ، قد يكون قطب أهله أو قطب بلده . فقد قال الشيخ عبدالرحمن** - يعني السقاف - **في ابنه الشيخ عمر** - أي المحضار - **وجدنا عند عمر أسراراً ما كنا نظنها عنده . فقال الشيخ عمر : أوَ قد أحاطَ بجميع أسرار الله ، وكان صاحب مجاهَدة** » هـ .

أقول : يعني الشيخ عمر . قال في « المشرع الروي في مناقب السادة بني علوي » في ترجمة الشيخ عمر نفع الله به ، قال : « وكان كثير المجاهدات والرياضات في الأعمال الصالحات ، وترك الحظوظ والشهوات ، والإنخلاع عن جميع العادات ، وكان يصبر عن الطعام الليالي والأيام ، ومكث أكثر من ثلاثين سنة لا يأكل الرُّطَب ولا التمر ، وربما أخذ الرُّطَبَة أو التمرة ويُقَلِّبها بأصابعه ثم يعطيها لمن حضر ، فسُئِلَ عن ذلك فقال : لأن التمر والرُّطَبَ أحَبُّ شهوات نفسي إليها ، فتركتُه لله تعالى .

ومكث خمس سنين لا يأكل مما يعتاده الآدميون ، ومكث في ريدة المشقاص شهراً ، لا يذوق شيئاً إلا الماء . ومكث في مسيره إلى الحج أربعين يوماً ما يذوق فيها لا طعاماً ولا شراباً ، ولم تنقص قُوَّتُهُ ولم يضعف عن المشي ، وكان غالب قُوتِه اللبن ، واستأجر بمكة المشرفة بقرة ، وكانوا يأتونه بلبنها ، فشابوه يوماً بالماء فماتت البقرة من يومها .

ولم يزل على تلك المجاهدات ، إلى أن أتته المواهب اللدنية والأسرار الغيبية ، وانفجرت من بحور قلبه ينابيع الحِكَم الربانية ، وتجلى له قُدْسُ اللاهوت وعالم الملكوت وأنوار الجبروت ، وترادفت عليه الفتوحات وتزايدت لديه المنوحات ، كما قال تعالى وهو أصدق القائلين : ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾، وأول ما ظهرت عليه الأحوال في سنة ٨٠٨ ، وذلك في حياة والده - أي ولذلك قال والده ما ذكر سيدنا عنه - .

قال : وكان والده يقول : وجدنا مع عمر شيئاً ما كنا نظن أنه معه ، فلما سمع ما قال أبوه قال : هل أحاط بجميع ما حبانا الله تعالى به ؟ وكان يقول : أُعطِيتُ ثلاث أيادي ، يداً من النبي ﷺ ، ويداً من والدي عبدالرحمن ، ويداً من رجل آخر . وكان يتلو اسمه تعالى : اللطيف ، ألف مرة في نَفَس ، وكذا يا حفيظ ، وكان خادمه باجريدان يتلوه خمسمائة مرة » ، انتهى ما أردنا نقله من ترجمته من « المشرع

الروي» وهي طويلة ، ذَكَرَ فيها له كرامات كثيرة وشؤون عظيمة ، وإنما أردنا أن نُعَرِّفَ ببعض شأنه لمَّا ذَكَرَهُ سيدنا . والرجل الآخر الذي لم يُسَمِّه سَمِعتُ أنه الخضر ، وكان خادمه يتلو ذلك الإسم خمسمائة، أي في نَفَس ، فهذا واحد من السادة بني علوي ، وكلُّ أوائلهم في أزمنتهم كانوا هكذا . فاذْرِ أحوالهم - أي اعرفها وكن دارياً بها - كما قيل :

مَنْ تَلْقَ مِنْهُمْ تَقُلْ لَاقَيْتُ سَيِّدَهُمْ　　　مِثْلَ النُّجُومِ الَّتِيْ يَسْرِيْ بِهَا السَّارِي

يعنى إنهم يُقتدَى بهم في معرفة الدين ، كما يُقتدَى بالنجوم في معرفة الوقت ، ومعرفة القبلة ومعرفة الطريق ، وهذا مَثَلٌ ضربه رسول الله ﷺ لأصحابه في الإقتداء بهم في الدين ، فقال ﷺ : « أصحابي كالنجوم ، بأيِّهم اقتدَيتُم اهتَدَيتُم » هـ .

قال رضي الله عنه : « إلْزَقْ بالأرض تواضعاً ، فإنَّ الله ما خلق الخلق إلا ليتواضعوا لعظمته ، وإلا فخزائنه مملوءة عملاً ، ولا اعتراض على المتواضع ، وما يحيد المعترض » هـ .

أقول : أظن أن هذه المقالة قد تقدمت ، وقد استشكلت لفظة قوله : « **وما يحيد المعترض** » ، عندما تَلَفَّظَ بها ، وما جسرت على سؤاله عنها إلا إن كان المعنى : « **وما يحيد** » ، أي ما يصيب ، أي ليس بصواب المعترض إذا اعترض على المتواضع من حاد عن الطريق إذا مال عنه ، يعني ما أصاب في اعتراضه ، إلا أنَّ التواضع ينبغي على الوجه اللائق ، بأن يكون لمن يليق له من الكبراء في الدين ، يعني أهل مناصب الدين من العلماء والزهاد ، ولا لكل أحد . قال الإمام الغزالي : « لا يليق التواضع لكَنَّاسٍ وزَبَّال ، بل لمن له الحشمة والقدر » هـ .

قال رضي الله عنه : « التَّرَفُّعُ على لسان الحال ولسان المقال مذمومٌ جداً ، ولا بد للمترفع من الضَّعَة ، ولا بد للمتواضع من الرِّفْعَة ، كما قيل :

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لاحَ لِناظِرٍ　　　علىٰ صَفَحَاتَ الماءِ وَهْوَ رَفِيْعُ
وَلَا تَكُ كَالدُّخَانِ يَرْفَعُ نَفْسَهُ　　　إِلَى طَبَقَاتِ الجَوِّ وَهْوَ وَضِيْعُ

أقول : تقدم وصف اللسانَيْن والفرق بينهما ، وأن أهل لسان الحال كل مستقيم على السيرة النبوية، وأوتي نصيب من السر الذي يقوى به الإيمان الذي أوتيه سيدنا أبوبكر ، حتى رجح إيمانه بسببه على إيمان الأمة . ولا بد لكل ولي منه من نصيب وأهل لسان المقال من لم يكن كذلك ، ولم يؤت من ذلك

بشيء ، والمترفع من يرى نفسه خيراً وأفضل من غيره ، وهو مذموم عند الفريقين المذكورين الخواص والعوام هـ .

قال : « الإحسان إلى الجار : بالإحسان إليه وكف الأذى عنه والصبر على أذاه . وهذه الخصال ما تكون إلا من الكامل من الناس ، ومعاملة الجار بها هو الغاية في القيام بحقوقه الواردة في الحديث، كما قال النبي ﷺ : ما زال جبريل يوصيني بالجار ، حتى خَشِيتُ أن يُورِّثه . أي يجعل له نصيباً في ميراث جاره ، فإذا أردتَ أن تُحسِنَ إليه فافعل هكذا معه ، ولا يفعله إلا من وفقه الله وأعانه » ، ثم قال : « ربما يصل إلى الجهة أجنبي فيرى أموراً ، فيتعجب أن يكون هنا من يؤبه له مع وجودها، فنقول كما قال سيدنا علي لما اختلف عليه أهل العراق ، فقيل له : إنه يقال ليس لك رأي . فقال : لا رأي لمن لا يطاع » .

أقول : يشير إلى أمور ظاهرة منكرة يراها كل أحد ، ويستنكرها ولا علاج فيها ، وقد نهى عنها من السادة من تقدم ولم يُسمَع له ، وكذلك سيدنا نهى عنها وما سُمِعَ له ، وذلك أن النساء اعتدن الخروج من بيوتهن في الأسواق والسكك وإلى الخلاء ، وثيابهن في العادة أن ثوب المرأة من خلفها يسحب في الأرض ، ومن قُدَّامها مرتفع إلى الركبة ، وساقها خارج يراه كل أحد ، وهذا منكر ظاهر عام ، فلما لم يسمعن إنكار من أنكر في أزمنة صالحة ، كيف يُسمَع اليوم ؟

وقد سمعت أن الشيخ علي بن أبي بكر في القرن الثامن أنكره وما سُمِعَ له ، وأنكرناه وما سَمِعْنَ، ومع ذلك لا يغطين وجوههن . ولكن بحمد الله ما رأيناه في نساء السادة قط ، بل مصونات كما ينبغي، وإنما هو من نساء غير السادة كلهن أو أكثرهن ، ممن يخرجن من بيوتهن وذلك لجهلهن وقلة ديانتهن وحيائهن ، حتى إنه مرة قابلتني امرأة ، فأغضيت عنها ، فقالت : « إيش بوجهي حتى تغطي عني ، هل به برص ؟ » ، أو ذكرت غيره . قلت لها : أنت جاهلة إلى هذا الحد وأنتي في بلاد السادة ؟ ما تعرفين أنه لا يجوز ينظر المرأة إلا محرمها من أبيها وأخيها وعمها وخالها ومن لا يجوز له تزوجها ؟

ومراد سيدنا يعني : وما سكتنا عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ولكنا ما أُطِعْنا على ذلك، فلا رأي لنا معهم لذلك . فلا ينبغي أن يستنكرها الغريب مع حضور من عليه العمل ، ولذلك تمنى أن يتولى بلداً يقيم فيها أمر الله ، فإن الوالي يُخاف منه ويُتبع أمره بخلاف غيره ، وقد تقدم من قوله ما معناه : **« وكنا راجين أن نتولى بلداً نقيم فيه أمر الله ، أو يتولى والٍ يسمع لنا ، وبَعيدٌ أن تتم لنا الولاية ، لأنها ما تمت لأسلافنا »** هـ .

قال رضي الله عنه : « لا أنفع في هذا الزمان من البكاء والإستغفار ، ومن معه خوف من الله في الدنيا أمّنه في الآخرة ، وبالعكس ، ولا بد من خروج العرق والدموع ، فإن لم يخرج ذلك في الدنيا خرج في الآخرة . قال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا أجْمَعُ على عبدي خَوْفَيْن ولا أمْنَيْن ، إن هو أَمِنَني في الدنيا أَخَفْته في الآخرة ، وإن خافني في الدنيا أمّنته في الآخرة ، كما أخبر بذلك عنه نبيه عليه الصلاة والسلام. وقيل في قوله تعالى : ﴿أَلَآ إِنَّ أَوْلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾، أي لأنهم خافوا وحزنوا في الدنيا ، فلا يُعاد عليهم ذلك ثانياً ، فينبغي للإنسان أن يتوب ويتقي ويخاف ، وعسى الله » .

قال : « إذا خَرَجَت الموعظة بجد وصدق ، مع معرفة مقاطع الكلام وعدم التشكك ، والوقف حيث ينبغي أن يقف عليه ؛ نَفَعَتْ ، وإلا شَوَّشَت ولم تنفع » هـ .

أقول : يعني من أهل الجد والعمل وصدق العبودية ، وهم العلماء العاملون المشهورون بالتقوى والورع ، لا ممن لا يعمل بعلمه ، فإنَّ الناس في اتِّباع الأعمال أقمن من اتِّباع الأقوال ، وقد قيل عمل واحد يؤثر في ألف ، ما لم يؤثر ألف قول في واحد .

و « مقاطع الكلام » ، يعني يتحقق لهم صدقه ونصيحته ورغبته في هدايتهم ، بخلاف قول المتجمل بالكلام ، والمراد كلام صاحب لسان الحال ، لا كلام صاحب لسان المقال ، كما تقدم بيانها هـ .

قال : « السير على الطريق العام على الإقتداء بالنبي ﷺ مليح وفيه بركة ، وإذا الإنسان دام عليه وتمسك به ؛ يحصل له خير مما يحصل من الخلوة » .

ومَرَّ علينا في القراءة في المدرس كلامٌ للشيخ حاتم بن أحمد الأهدل صاحب المخاء في الحقائق ، فقال سيدنا : « العارف إذا وصل إلى هذه المثابة - يعني التقيد بالحقائق - لم يُنتَفع به ، وإنما يُنتَفع به ما دام متقيداً بأمور المعاملة . وكذلك الشيخ علي بن عمر ، من أهل الحقائق ، ولا يخلو هذا الأمر من ظاهرين فيه ومن خاملين » .

ثم ذكر القطب ، فقال : « قال بعضهم : الأقطاب أربعة : قطب الأحوال كأبي يزيد ، وقطب المقامات كالشيخ سهل بن عبدالله التستري ، وقطب العلوم كالإمام الغزالي ، وقطب الحق - أو قال : الحقائق - كالشيخ أبي الحسن الشاذلي » هـ .

أقول : يعني بقطبية كل واحد من المذكورين ، كونه فيما ذكر به أكمل من غيره فيه ، لأن معنى

القطب في كل زمان مَن هو أكمل أهل زمانه في معرفة الله . وما ذَكَر من كون المتقيد بالحقائق لا يُنتفع به ، أي لا يُنتفع به في طريق العموم وإنما يُنتفع به في طريق الخصوص ، ولا عبرة عندهم بالإجتماع الحسي ، وعَبَّرَ به في طريق العموم ، ولهذا ينتفعون به دون غيره ، وأولئك ينتفعون بالشيخ الكامل حتى يبلغوا به إلى مقام القطبية إن كُتِبَ له ، كما بلغ سيدنا عبدالله بالسيد محمد بن علوي ولم يجتمع به ، وبلغ السيد عبدالقادر بن شيخ العيدروس بالسيد حاتم المذكور ولم يجتمع به ، حتى ذَكَرَ أنه كَتَبَ إليه – أعني أن السيد عبدالقادر كتب للسيد حاتم – كتاباً يسأله عن بعض الأشياء ، وقال لحامل الكتاب : « إنْ ما لَقِيتَهُ فَضَع الكتاب على قبره » . فلما دخل المخاء ، وجدهم راجعين من دفنه ، فوضع الكتاب على قبره ، قال السيد عبدالقادر : « فجاءني جوابه وجواب السؤال على أكمل وجه » ، فاعجب لشأن هؤلاء الأكابر وعجيب أحوالهم .

ثم قال سيدنا بعد ذِكْرِ الأقطاب الأربعة : **« وعام حجينا كان ركن قصدنا حج بيت الله وزيارة النبي ﷺ ، ولكن طالِبِين بذلك السؤالَ عن رجُلَيْن** – وفي بعض المرات قال : **هما مقامان لا شخصان – أحدهما رجلٌ متبحرٌ في علم الحديث ، حتى يكاد يكون مجتهداً ، وعن القطب صاحب الوقت ، إمَّا الإلتقاء بهما ، أو مَن يَدُلُّنا عليهما ، فما رأيناه . ولكن رأينا عَشِيَّةَ عَرَفَةَ رجلاً من أهل الخطوة ، يسمى عبدالخالق ، حَجَّ بالخطوة ، وكان جاء إلى حضرموت ، ولنا به بسبب ذلك معرفة ، وقلنا له : الآن ما يتفق لنا معك مجلس ، عسى يحصل بعد ذلك . فقال : إن سرتم إلى مكة هذه الليلة – وهي ليلة العيد– حصل ذلك ، وإلا فوعدكم المدينة . فلم نتفق به بعد ذلك إلا بالمدينة ، فجاءنا ونحن في المواجهة ، فطلب مِنَّا نمضي إلى بيته ، وإذا له دارٌ وأهل ، وكُنَّا ظنناه مُتَجَرِّداً عن ذلك ، وسألناه عن القطب ، فذَكَرَ مِن وَصْفِهِ شيئاً »** هـ .

أقول : قد تكرر منه هذا القول ومثله ، وفي معناه مرات كثيرة في المجالس ، وفي هذا من الزيادة كونه جاء إلى حضرموت ، وأنه له به معرفة بسبب ذلك ، وكونه جاءه وهو في المواجهة ، وطلب منه المضي إلى بيته ، فهذا لم يذكره فيما قدمناه من ذكره لذلك ، فكررناه في هذا النقل لتكرره منه في المجالس، ومن شحنا على تلك الأنفاس الطيبة الحاصلة في تلك المجالس المنورة ، كتبناها وكررناها كلها ، وإن كان لفظاً واحداً في معنى واحد ، ولكن لا بد من اختلاف الألفاظ وتغايرها ، وزيادة معنى بزيادة لفظ، وفي بعض المجالس قال : **« فما وجدناهما ، ووجدنا منهما آثاراً يسيرة كالشيخ أحمد القشاشي والشيخ عبدالخالق »** ، يعني هذا الرجل المذكور هنا ، وهو الذي كاشفه بأنَّ مذهبه الكتاب والسُّنة .

قال : « وعام حجينا رأينا في مكة المدد والفتوح كثيراً في أيام الموسم ، وبعد رجوعنا إليها من المدينة رأيناها أفرغ ، فالحضور والخشوع في أيام الموسم أكثر ، وبعده أفرغ ، وينبغي أن يُطلَب ذلك آخر الليل، عند بقاء ثلث أو ربع من الليل ، حيث ما في المطاف إلا واحد أو اثنين ، فعند ذلك يكون الحضور والخشوع ، لأنه إذا حصل التجلي الإلهي يتقسم على من حضر ، فإن كان الناس قليلاً كَثُرَ لهم النصيب، وإن كثروا قَلَّ ، كمن يقسِّم مالاً على الناس فيقل - أي النصيب - إن كثروا ، ويكثر إن قَلّوا » هـ .

أقول : ذكر أولاً أن المدد والفتوح في أيام الموسم أكثر ، وذكر ثانياً أن الحضور والخشوع فيها حينئذ أكثر ، فلعل مراده بالمدد والفتوح هما الحضور والخشوع ، وأما الفراغ فما اختلف فيما ذَكَرَ أولاً وآخراً .

والعجب كونه يريد أن يسأل عن القطب صاحب الوقت ، أو شيء من أوصافه ، أو مَن يَدُلُّه عليه، وقد عَلِمَ أنه هو القطب صاحب الوقت ، كما أَسَرَّ ذلك لباجبير وما كاشف به ذلك الولي الذي ببلاد المغرب للسيد أبي الطيب ، كما قدمنا ذكر ذلك ، وما ذكرنا من تلك المرائي الصادقة العجيبة الدالة على أنه هو ذاك ، والقاطعة بلا شك أنه هو صاحب ذلك المقام ، وفي الحديث : « إن الرؤيا الصادقة جزء من النبوة » ، وقد خوطب هو بنسبة ذلك إليه من رجال الغيب ، ورجال ما رأوه ولا عرفوه إلا تلك الساعة ، فلا شك أن لو كان صاحب ذلك المقام الجليل غيره ، لَدَلَّهُ عليه أحدٌ من أولئك المكاشفين كعبدالخالق هذا والشيخ أحمد القشاشي ، أو غيرهما من أهل الكشف ، ورؤياه هو التي قدمناها ، قال : **« رأيتُ كأنّي في جامع قيدون في جَمْع كثير ، كأنهم بعد صلاة الجمعة ، وإذا قد أتاني رجل وقال لي والناس يسمعون : أنت القطب ، قلت : لا ما أنا القطب ، قال : بلى هو أنت ، ثم صرخ وكل أولئك الجمع يسمعون وقال : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمداً رسول الله ، وأن عبدالله بن علوي الحداد القطب »** .

كذلك لما كان في موقف عرفة وحَضَرَتْ صلاة المغرب ، فأذَّنَ رجل كان من الصالحين ثم أقام الصلاة ، ثم قبض سيدنا عبدالله وأقامه ، ثم قَدَّمَهُ يصلي بالجماعة ، فلما سَلَّمَ ، قام رجل آخر وصاح في أهل موقف عرفة ، وقال : « أبشروا يا أهل الموقف ، فقد حج فيكم القطب » ، وهو يشير بذلك إلى سيدنا عبدالله ، وسيدنا يتبسم من قوله .

وكل ذلك مُشافَهة ومُكاشَفة له بنسبة ذلك إليه من رجال الغيب ، ورجال ما عرفوه ولا رأوه إلا تلك الساعة ، ولكن الظن بل اليقين أنهم كعبدالخالق والشيخ القشاشي وغيرهم ، دلُّوهُ على نفسه ، وحكوا له بوصفه وعلاماته ، وأنها فيه بلا مرية ولا شك ، فسكت عن ذلك وأظهر أنه ما وجد من ذلك شيئاً ، دفعاً بذلك عن نفسه ، لِمَا جَبَلَهُ اللهُ عليه من الرغبة في الخمول وكراهة الشهرة ، وقد سمعته يقول : **« لا أُحِبُّ الشُّهرة لنفسي ولا لمن أُحِب »** ، وهذا كان طبعاً فيه لازماً لا تَطَبُّعاً ، حتى إن بعض طلبة

العلم علمني بعزيمة مجربة للحُمَّى ، وكنتُ أفعلها للناس حتى اشتهرت ، فسمع بذلك فسألني عنها، فأخبرتُه ، فَسَكَتَ ولا أمَرَ ولا نَهَى ، فسَلَبَ نَفْعَهَا ، حتى إنها بعد ذلك ما نَفَعَتْ قط ، فتركتُها ، فاعجب لتصرفه .

وله في سؤاله عن القطب وأوصافه مقصد ومراد يعرفه هو ، وقد أشهره الله به بين طوائف الخلق، وألقى الله ذلك له في قلوبهم ، كما قال : « **فكل من سألناه عن مسألة ظاهرة قال : أنا مُلتَمِسٌ منكم . وطلب أن يقرأ علينا ، فنُخَلِّيه يقرأ فيما أراد من الكتب ، وكل من سألناه عن مسألة باطنة قال : مرادي التبرك بكم وأخذ الطريقة عنكم . وطلب منا الإلباس والتلقين ، فنُلبِسه ونُلَقِّنه ، ونحو هذا** » .

قال عبدالعظيم باشراحيل : سأله - يعني سيدنا عبدالله - بعض الصالحين عن صفة القطب ، *فقال رضي الله عنه* : « **القطبُ عبدٌ محبوبٌ ، عليه تدور الدوائر ، يَعرِف ولا يُعرَّف ، أكثر ما يقع في عوام الناس ، وإن وقع عالماً ؛ فعلامته أن تكون له هيبة في القلوب ، يهاب منه الجبابرة وأبناء الدنيا ، ويحبه كل مؤمن ، وعلامته أن لا يختار شيئاً سوى الله ، فإن أردتَ يا هذا تعرفه ، فَنَزِّه قلبك عن هذه الأدناس التي أنت متعلق بها ، فإن القطب لا يتحرك له خاطر في ما جرى في الكون ، فإنه لو خرج للدنيا في كمال نباتها وزهرتها يوماً ، وخرج ثانياً ولم ير شيئاً من ذلك ، لم يتحرك له خاطر ، لأنه يعلم بعلم اليقين أن الذي أوجدها وأعدمها هو الله وحده** » ، قال : « فَعَرَفْتُ الإشارة وكنتُ حاضراً ، ففهمت منه أنه مُتَحَقِّقٌ في القطبانية ، لأن هذه أوصافه » ، انتهى ما ذكره .

قال كاتبه سامحه الله : فَتَحَقَّقَ لنا بهذه الأمور وغيرها ، أنه القطب وصاحب الوقت - أي سيدنا- وأنَّ هذه أوصافه قد عُرِفَتْ منه ، فما الذي أراد أن يسأل عنه من جانب القطب من ذاته أو صفاته ؟ وهو هو بغير مراء ، وصفاته ووصفه هو بعينه ، فتَبَيَّنَ لك ما قلنا آنفاً ، ولكن الظن بل اليقين إلى قول عبدالعظيم وبعده ، فتأمله جيداً وأمعن فيه النظر ، ليظهر لك ما يوجب اليقين أنه القطب ، وأن الوقت له إلى أن تصل الأمانة التي كانت عنده إلى حاملها عنه ، وهو المهدي ، فإنها بعده محمولة عند نحو أربعين أو ستين من أصحابه إلى ظهوره ، فيُسلمونها إليه ، ويصير الوقت بعد قَبْضِها له هو صاحب الوقت إذ ذاك ، كما قدمنا من قول سيدنا : « **عندنا أمانة ما يحملها إلا المهدي أو أربعون من أصحابنا**»، ومرة قال : « **أو ستون** » ، يعني يتفرق منه فيهم للمهدي ، إلى أن يخرج ويقبضها وتنفك عهدتها ونسبتها من سيدنا وتصير له وإليه .

وسألته : أيها أفضل مكة أو المدينة ؟ ، *فقال* : « **أما مكة ، فإن كان بالنسبة إلى الله فهي أفضل ، وإن كان بالنسبة إلى إبراهيم ، والمدينة إلى النبي ﷺ ؛ فالمدينة أفضل** » .

قال : « **وربما حصل إساءة أدب فتقل الحظوظ بسبب ذلك ، وإذا أحدٌ أَقَلَّ الأدب ؛ فأَحْسِن أنتَ الأدب ، حيث يحتاج إلى حسن الأدب منهم** » .

قال : « **حسن الأدب مختلف بالنسبة إلى الأشخاص ، كما ذُكِرَ في البداية فانظره وبالنسبة إلى البقاع فانظره فيما ذكروه من الأدب بمكة وبالمدينة ، وبالنسبة إلى الأعمال فكل عمل من مباني الإسلام وما يتبعها من النوافل لها آداب ، فلا نُطَوِّل بذِكْرِهِ فاعْرِفْه ، واعمَلْ به بحسب اختلافه كما أمرك به** » .

قال : « **ولما طُلِبَ مِنَّا المجاورة** - أي طلبها منه أهل الحرمين - **قلنا : إن مكة لا تصلح إلا لأحد رجلين : إما خامل لا يُعرف أبداً كالتراب ، فلو دُحِقَ** - أي ديس - **لا يبالي ، أو بحر لا يتكدر . وأما المتوسط فيشتغل ، فَيُتْعِبونه بسبب أمور الدنيا وأحوالها** » .

قال : « **لا ينبغي للجماعة المجتمعين في أماكن متقاربة أن تضيق صدورهم ، فتضيق بهم أماكنهم ، وإذا وَسِعَتْ صُدورُهم وسِعَتْهُم أماكنهم** » هـ .

أقول : في الغالب لا يقع نكد بين المتجاورين وضيق صدور إلا إن كانوا أقارب في النسب ، كما قال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « مروا الأقارب فليتزاوروا ولا يتجاوروا » ، يعني لئلا يقع ذلك بينهم ، فإن الأقارب إذا تجاوروا يكون بينهم ضغائن وأحقاد ، وفي تباعدهم مع تزاورهم مصافاة في القلوب ، وهذا في الخلق طبع مخالف للحق ، لأن الجار القريب في النسب له على جاره ثلاثة حقوق، أمَرَهُم الله بها أن يقوم بعضهم بها لبعض : حق الإسلام ، وحق الجيرة ، وحق القرابة . وذلك إنما يحصل في أهل الديانة والمروءة ، وهم قليل من الناس ، والغالب منهم خلاف ذلك .

وكلام سيدنا عمر جرياً على الغالب ، حتى صار الشر اليوم مشهوراً في الأخيار ، فصار الخير لكثرة الشر مُستَنْكَراً ، و ينكر أيضاً لو رئي من أهله الأخيار ، كما قال صاحب المرثية التي أولها :

حُكْمُ المنِيَّةِ في البَرِيَّةِ جَارِي ... مَا هَذِهِ الدُّنْيَا بِدَارِ قَرَارِ

حتى قال في آخرها :

ذَهَبَ التَّكَرُّمُ وَالْوَفَاءُ مِنَ الْوَرَى ... وَتَصَرَّمَا إِلَّا مِنَ الأَشْعَارِ

وَفَشَتْ جِنَايَاتُ الثِّقَاةِ وَغَدْرُهُمْ ... حَتَّى اتَّهَمْنَا رُؤْيَةَ الأَبْصَارِ

يعني لكثرة ما حصل اليوم في ثقاة الناس ووجوههم وأهل الحشمة والديانة منهم ، من الغدر

والخيانة ومساويء الأخلاق ، شككنا في الأمور المحسوسات الظاهرة الجلية المرئية ، فالله المستعان .

وقوله : « وتَصَرَّمَا إلا من الأشعار » ، يعني ذهبا من الناس ، وما بقي إلا ذكرهما والحث عليهما في الأشعار ، سيما أشعار المتقدمين ، لحصول العمل منهم بهما ، وأما أشعار المتأخرين حيث لا عمل بهما فلا رونق لها ولا طلاوة عليها ، ولو ذُكِرَا فيها فإن العمل بالخير كلٌّ يحُثُّ عليه ، من عامله وغير عامله، كما قيل : « خذ من قولي ، ولا تنظر إلى عملي » ، قال الناظم :

لله دَرُّ الحَادِثَـاتِ فَإِنَّهَـا صَدَأُ الِّلئامِ وَصَيْقَلُ الأَحْرَارِ

والصدأ : الوسخ والخَبَث الذي يعلو الحديد . والمعنى : أن المحن الواقعة في اللئام - كموت عزيز- من الناس تُظهِر خَبَثَهم ، وهو جزعهم وقلة صبرهم وعدم تسليمهم لأمر الله ، وتُبَيِّن طيب الكرام ، وهو صبرهم ورضاهم بقضاء الله ، وتسليمهم لأمر الله هـ .

وكان يوماً - وهو ضحى يوم الجمعة ١٣ محرم سنة ١١٢٧ ، و ٦ في نجم النثرة في حساب الشبامي - طالعاً إلى البلاد وهو راكب حماراً ، لمَّا ماتت الفرس التي كان يركب عليها ، وليس معه أحد يسايره غيري ، وخادمه عكيمان الذي كان يقود به الفرس وكان يقود به الحمار ، **وقال** له : « **هل أنت واثق على هذا الحميرِّ في طَعْمِهِ وسَقْيِه ؟** » - يعني قائماً عليه بهما كما ينبغي - قال : « نعم » ، **فقال** له ولمن يسايره مازحاً : « **لو تكلم الحمار ، فقال : لا ، ما هو واثق علي . مِن أول من يَشْرُد منكم ؟** » ، فقال الخادم : « أنا أول من يشرد » .

فقلتُ لسيدنا : فهل يفزع الإنسان إذا تكلم نحو الحمار ؟ ، **فقال** : « **نعم ، لأنه خَرْقُ عادة** » .

فقلتُ : هل الخارق للعادة لا يحصل لأهله إلا مع غَيْبَة ؟ ، **فقال** : « **نعم ، في حالة تُسَمَّى السُّبَات ، وهي مرتبة بين الوحي والحس ، لا ترتقي إلى درجة الوحي ، ولا تنزل إلى مرتبة الحواس** » .

فقلتُ : وما صفة تلك الحالة ؟ ، فتبسم وسكت ساعة ، **فقال** : « **ما لم يُكَيِّفُوه لا نُكَيِّفه نحن ، لأن ما كُيِّفَ نزل ، فلأي شيء تُضرَبُ الأمثال ؟ ما تُضرَب إلا لمثل ذلك ، إذ ما كل كلام له جواب . وقد سأل بعضُ الجهال بعضَ العلماء : متى يجد الإنسان لذة النوم ؟ فسكت وقال : إن قلتَ قبل النوم فليس بنائم ، أو بعده فليس معه حس يدرك به اللذة** » ، ثم تمثل سيدنا بهذا البيت :

مَـا كُلُّ قَـوْلٍ لَـهُ جَـوَابٌ جَوَابُ مَا تَكْرَه السُّكُوتُ

ثم قال : « **والأحسن أن يقال : يجد لذة النوم حالة النُّعَاس ، وهي أوَّلُه ، والإنسان معه بعض شعور**

عندما يتسكك - أي يومي برأسه من غلبة النوم - **بحيث لو كان بقربه جدار سَكَّ رأسه** » هـ .

قال : « **نوم الصالحين ليس بنوم خالصٍ ، إنما هو بين النوم واليقظة ، وتُسَمَّى تلك الحالة السبات، ولو كان نوماً لكان رؤيا ولا تختص بالصالحين** » هـ .

أقول : يعني أن حالة الكشف المسماة بالسبات هي بين النوم واليقظة كما ذكر ، ولا تكون إلا للصالحين ، ولهذا خصها بهم .

ولمَّا سألتُه عنها تبسم وسكت ، وهذه عادته إذا سئل عن ما لا يود أن يُسْأل عنه ، ثم يجيب بما يطمئن به خاطر السائل . ثم انظر واعجب لسياسته ، لمَّا رآنا لسنا أهلاً للإخبار بحقيقة تلك الحالة، كيف خرج بنا إلى مادة أخرى من كونها ومثلها لا يذكر بل يفهم بضرب المثل ، وقد قال : « **إنما المراد بالمثل لإيصال المعنى إلى قلوب العامة** » ، كما قال تعالى ﴿مَثَلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَوْلِيَآءَ كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾الآية ، مثلاً في غاية الضعف والعجز عن جلب النفع ودفع الضر من سوى الله ، فلا يرجى ذلك إلا منه سبحانه . فكذلك كلما يعجز الخلق عن فهمه يضرب لهم المثل في تفهيمه ، فقوله : « **لأي شيء تضرب الأمثال ؟** » ، يعني ما كل شيء يمكنهم النطق به ، لأن مراد السائل أن يفهم المعنى فيضربون له المثل الذي يفهم به المعنى ، بلا نطق وتصريح به . وهذا شبيه بما يتغزلون به بذكر أسماء وأوصاف يكنون بها عن ما في نفوسهم مما لا يمكنهم النطق به ، فيتَسَلُّون بذلك عن ذِكْرِهِ لذا ذكَرَه ، كما قال تعالى : ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ . وكان مادة ذلك الكلام المتقدم أصله مزاحٌ انجرَّ إلى هذا الكلام ، كما أشرنا إليه في أول هذا النقل، أن بعض كلامه مزاح يمتد إلى الجد ، فجِدُّه في مزاحه ومزاحه في جِدِّه ، أعني قد يأتي بالجد بعدما يُقَدِّمُ قبله المزاح ، فيوعَى ويُهتَمُّ بحفظه لِتَبَسُّطِ الذهن وانشراحه بالمزاح قبله ، وذلك قوله : « **لو تكلم الحمار .. إلخ** » .

وسألته : أيكون الإنسان من أهل الأحوال والمكاشفات في حياة شيخه ؟ ، *فقال* : « **يمكن ذلك ، ولكن الكشف إنما يكون في بعض الأحوال وبعض الأوقات ، لا مستمراً ، لأن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده** » هـ .

أقول : قوله : « **في بعض الأحوال** » ، أي حالة السبات التي ذكرها ، وإنما تكون لمن بَلَّغَهُ الله درجة الولاية ، كما حصل للشيخ عمر من ذلك أشياء ، ما ظنها فيه أبوه كما تقدم ، وهو شيخه . ووَصْفُ سيدنا لها أنها حالة بين النوم واليقظة ، لا ترتقي إلى درجة الوحي ، لأنه مقام النبوة ، يخاطب صاحبها فيها مَلَك الوحي ، ولا يتوصل إليها الشيطان ، بخلاف درجة الولاية - السبات المذكورة -

وإنما يخاطب فيها مَلَك الإلهام ، ويتوصل إليها الشيطان ، كما تقدم ذلك من قول سيدنا ، وهي دونها وصاحبها محفوظ ، وصاحب الأولى معصوم ، ولكن درجة الحفظ لا تنزل إلى درجة الرؤيا وهي حالة النوم العامة للأنبياء والأولياء والعامة .

والنوم كما رأيته في بعض الكتب ، يروى حديثاً قال عليه السلام : « النوم في اليوم على خمسة أنواع: الغَيْلولة : وهو النوم بعد صلاة الفجر ، وهو يورث الغفلة . والعَيْلولة : النوم وقت الضحى ، وهو يورث الفقر . والقَيْلولة : النوم وقت الإستواء ، وهو يورث الغنى . والكَيْلولة : النوم بعد العصر ، وهو يورث الجنون . والفَيْلولة : النوم بعد المغرب ، وهو يورث الفتنة » ، انتهى .

قوله : « **لأن علم الغيب مختص بالله تعالى وحده** » ، يعني وحصول قليل من ذلك لبعض الأنبياء، ودون ما للأنبياء لبعض الأولياء في بعض الأوقات والأحوال ، موهبة من الله سبحانه ، لا يقدح في اختصاصه سبحانه بعلم الغيب ، كما استثنى ذلك في الآية ، حيث قال تعالى : ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَىٰ غَيْبِهِۦٓ أَحَدًا ۞ إِلَّا مَنِ ٱرْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ ﴾، فإذا ثبت بهذا الإستثناء أنه سبحانه قد يختص بشيء من علم غَيبِهِ من ارتضى من رسول ، علامةً على كونهم على الحق ؛ فلا بُعْدَ أن يختص أيضاً بشيء مما اختصهم به مَن أَحْسَنَ المتابعة لهم ، علامةً على كونه تابعاً للحق ، ومؤيداً بحقيقة متابعته حقية مَتبُوعِهِ ، بعدما ثبتت أحقيَّته هو ، أعني بمعجزة الرسول الحاصلة له بما اختُصَّ به من علم الغيب ؛ ثَبَتَ كونُه على حَقٍّ من كل وجه ، لا يدخله خلاف الحق من وَجْهٍ قط . وكذلك ثبت بكرامة الولي الحاصلة له من حُسْنِ متابعته لنبيه المُقْتَدَى به ، مما اختُصَّ به من علم الغيب ، كون اتِّباعه للرسول حق ، وأنه على حق ، ومؤيَّدٌ لذلك بالحق الثابت لرسوله من علم الغيب ، لا يدخله الباطل من وَجْهٍ قط هـ .

وذكر في هذا اليوم - يوم الجمعة المذكور - شدة البرد ، وامتداد مدته ، *فقال* : « **إنه هكذا ما يعتاد ، إنما عادته له ثورات ، كل ثورة يومين ثلاثة ، ولا نعهده يبطي هكذا ، لكن أعمالهم جُوَّة ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ ٱلنَّاسَ شَيْـًٔا وَلَٰكِنَّ ٱلنَّاسَ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ۞﴾، تصعد إلى الرب منهم أعمال فاسدة لم تُعرَف ، فأنزل عليهم أشياء لا يعرفونها ، ومع وجود الصالحين وإن كان فيهم كثرة ، لكن مع كثرة الأعمال الصالحة يغلب الخيرُ الشرَّ ويندفع البلاء .لكن اليوم قَلَّ الصالحون وقلَّت الأعمال الصالحة ، وكَثُرَ الفساد وأهله، فما ينفع رطل سد بهار ، فلهذا صار كل شيء مستنكر على خلاف العادة ، عاملهم الرب على مقتضى أعمالهم ، المطر على غير العادة ، والزرع خلاف العادة ، والبرد خلاف العادة . وهكذا في كل شيء ، كلٌّ على قدره ، الرب على قدره ، والعبد على قدره في الخير والشر ، كمن يهدي إلى ملك عظيم قَطْفَ عنبٍ، فيعطيه فرساً أو ما شاء الله ، ولو دخل به السوق ربما ما جاء له بفلس ، هكذا معاملة الملوك في الخير**

والشر ، وأفعالهم ألّا معكّسة ، ولا عاد معهم رؤوس يأمرونهم وينهونهم ، بل ما سمعوا ما ينفعهم ، وما نفعهم ما سمعوا ، مما وصف لهم من الحق والصواب » هـ .

أقول : قوله : « جُوَّة » ، في لغة حضرموت معناها رديئة ، فيقولون : رجل جُوَّة ، وعمل جُوَّة ، وأمر جُوَّة ، أي رديء . وفي لغة أهل الحرمين معناها داخل البيت ، فإذا سأل أحد عن رجل أين هو ، فيقولون له : هو جُوَّة . أي داخل البيت .

قوله : « أعمال فاسدة لم تُعرَف » ، أي لم تُعرَف في حكم الشرع والحق ، بل هي من الباطل .

وقوله : « لا يعرفونها » ، أي لا تُعرَف عادة ، وفي العادة المألوفة كانت على خلاف ذلك .

قوله : « مع كثرة الأعمال الصالحة .. إلخ » ، يدل على أن الجزاء من جنس العمل ، وكما تَدِين تُدَان، وكما تكونوا يُوَلَّى عليكم ، وهكذا في معاملة الخلق مع الحق ومع بعضهم بعض أن يجز العبد كما يعمل، فمن زرع خيراً حصد نفعاً وخيراً ومن زرع شراً حصد ندامة وضراً وشراً ، ﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴾، ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ﴾، أي لا يستوون لا في الحياة ولا في المات ، يعني لا في الدنيا ولا في الآخرة . وورد في الحديث ما معناه : إذا صَلُح الناس وصَلُحَت أعمالهم ، أنزل لهم المطر في وقته وحيث ينفعهم ، وإذا فسدوا وفسدت أعمالهم أنزل لهم المطر حيث لا ينفعهم وفي غير وقته ، فلذلك استنكروه .

قوله : « كلٌّ على قدره » ، يعني إذا عمل العبد على حسب ضعفه عملاً يرضي ربه ولو قَلَّ وصلحت فيه نيته ؛ أعطاه من الجزاء ما لا يُقاس عليه ، ولا نسبة لعمله إليه . ومَثَّل لذلك بقَطْفِ العنب ، وهو معنى ما تقدم من ضرب المثل لإيصال المعنى إلى بعضهم في خير كهذا أو شر كما هو معروف .

وقوله : « وأفعالهم معكّسة » ، يعني لجهلهم وعدم علمهم ، يعملون أشياء يحسبونها تنفعهم فتضرهم ، ويحسبونها طاعة تنفع وهي معصية تضر ، فيفعلون المنكر يظنونه معروفاً ، ولا معهم من يمتثلون أمره لخوفهم منه ، فيسمعون منه ما ينفعهم بعملهم به ، ولو سمعوا ممن لا يخافون منه ، فما عملوا به ما نفعهم ذلك ، وهو معنى قوله : « ولا عاد معهم رؤوس .. » إلى آخر المقالة ، انتهى .

وحاصل ذلك أن معاملة الرب - أي من مجازاته - لعبيده في الدنيا والآخرة ، بحسب أعمالهم ونياتهم ، وفضله من وراء ذلك ، وذلك ظاهر كما ترى في كل ما ترى من أسباب الدنيا وضعفها وانقطاعها ، وكذلك في أسباب الخير من ضعف الرغبة في عمل الخير وعدمها ، وضعف النية البالغة والهمة العالية الحاملة على العمل ، فيعطي على العمل اليسير الجزاء الكثير . وهذا تمثيل في عمل الخلق

يفهم به عمل الخالق مثلاً ، حيث لا تبلغه عقولهم ، فقد كان الملوك لعلو هممهم يعطون بالعكس ، يعطون على ما لا يسوى فلساً ما يسوى فرساً ، فصار الملوك اليوم يستعطون بالظلم وخلاف الحق ، حتى صاروا اليوم بالعكس ، والعمل لو هو اليوم أيضاً يسوى فرساً مع صلاح النية لا يستحق عليه فلساً لرداءة النية . فافهم بهذا انعكاس الأمور في كل شيء ، حتى لو سمعوا العلم ما انتفعوا به بعمل ، لانعكاس الأحوال ، فما نفعهم ما وصف لهم من الحق والصواب ، شرعاً ومروءة . وافهم لهذا صدق معنى قول الناظم المذكور آنفاً : « وفَشَتْ جنايات الثقاة وغدرهم .. إلخ » هـ .

قال رضي الله عنه : **« الدنيا مأكولة ، مذمومة ومحبوبة ، وكلٌّ يذُمُّها وهو يُحِبُّها ، ولا شيءٌ أجمعَ المِللُ على ذَمِّهِ مع حُبِّ كلِّ أحدٍ له إلا الدنيا ، ولو اقتصر في الخطبة على ذمها لم يكف »** .

ومرة *قال* : **« ما شيء أجمعت الملل كلها على ذمه ، وأجمعت الأمم التي أرسلت إليها الملل على حبه إلا الدنيا »** .

ومرة *قال* : **« من عرف الدنيا زهد فيها ، ولو كان ما يؤمن بيوم الحساب »** .

ثم ذكر قصة الحكيم النصراني الذي داوى المسلم ، وأخذ منه ثُلُثَي ماله وكان كثيراً ، فلما برئ من عِلَّتِهِ قال له : « ما أخبَرَكم نبيُّكم أن لا بد لكم من الموت ؟ » ، فقال : « بلى أخبرنا بذلك ، وفي كتابه الذي أنزله الله عليه : ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِۗ﴾ » ، فقال له : « مع إخبار نبيكم لكم أن لا بد لكم من الموت ، وقد أتيتني من مكان بعيد تطلب شفاء عِلَّتك ، ولو برئت منها لا بد لك من الموت » .

فكشف له عن جسده ، وإذا به علة عظيمة ، وقال له : « انظر كيف بي هذه العلة ، وما داويتُ نفسي عنها ، لعلمي أن لا بد لي من الموت ، وهذه دراهمك هاكها ، لا حاجة لي بها ، وأنا ميت عنها » .

والقصة مذكورة هنا في غير هذا الموضع ، وفيها أنه أتعبته هذه العلة ، وكان في أقصى بلاد الصين، ودار على حكماء كثير يريدهم يداوونه منها ، وكل منهم يقول له : « لا أقدر على مداواة علتك هذه ، ولا يقدر على مداواتها إلا فلان في أقصى بلاد المغرب » ، يعنون هذا الحكيم ويشيرون له إليه ، فقصده بمال كثير جداً ، وقال : « إن داويتَ عِلَّتي هذه وبرئتُ منها ، أعطيتُكَ رُبْعَ مالي هذا كله » . وأراه المال ، قال : « ما أداويك إلا بثلثيه » ، وعالجه على أقل من ذلك فأبى ، فلم يرض إلا بالثلثين ، فدفع له ذلك، فداواه فبرئ . ثم قال له ما تقدم ذِكْره ، فحيث برئ وقال له ما قال .

ثم أرجع إليه ماله زهداً فيه ، وقال له : « إنما أَرَدْتُ أن أريك أني لا أريد الدنيا لزوالها عني وزوالي عنها ، وأنت شحيح عليها مع تزهيد نبيكم لكم عنها » .

قوله : « **مأكولة مذمومة** » ، يعني أنهم يأكلونها ولا يصلحون بلاها ، ولا بد لهم منها ضرورة وحاجة ، وفيها عون على الدين ، ولهذا زَيَّنَها الله لهم ، كما قال تعالى : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾.. الآية ، وألقى محبتها في قلوبهم ليطلبوها ويعمروها ، ولو زهدوا فيها وتركوا أسبابها خربت وخرب الدين بخرابها، كما ورد في الحديث : « اللهم أعِنِّي على ديني بدنياي » ، فمن عرف قدرها وما يُعِينُه منها على دينه وعَمِلَ به ، واقتصر عليه ؛ فحالته مرضية عند الله ، ومن جهل ذلك وعمل فيها على مقتضى دواعي النفس وغفل عن مطالب الدين منها ؛ فحالته مذمومة عند الله .

فكلا الفريقين اشتركا في الأكل ، واختلفا في المدح والذم عند الله ، فهي عند الفريق الأول مأكولة محمودة ، وعند الثاني مأكولة مذمومة ، فهم يأكلونها ويذمونها ويحبونها ، وإن ذموها باللسان فمحبتها راسخة في قلوبهم ممن يذمها ويحبها ، والأول يحبون منها ما يعينهم على دينهم دون غيره ، وهمهم بها هو الهم الذي لا تُكَفِّرُه الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج ، ويكفِّره الهمُّ بالمعيشة ، وهو كل ما يحتاج إليه في الإستعانة به على الدين دون غيره مما لا إعانة فيه ، وما زاد على ما يعين فهو مما يضر .

وهي مثل التنباك ، كلٌّ يذمُّها ولا تلقي لها مادحاً قط ، حتى من يشرب التنباك ولو لم يصبر عنه فهو يذمه ، فضلاً عمَّن لم يشربه ، حكمة من الله ، لمَّا كانت الدنيا أبغض خلق الله إلى الله ، التقى ذمها على ألسنة خلقه ، وتقدم قوله : « **ما من شيء أجمعت الملل على ذمه ، وأجمعت الأمم على حبه إلا الدنيا** »، فيذمونها وإن كانت قلوبهم تحبها وتتمناها ، ***قال*** : « **ولما كانت محبوبة طبعاً لكل أحد إلا الأقل ، لم يَكْفِ الإقتصار في الخطبة على ذمها عن الوصية بالتقوى** » هـ .

والتقاه خارجاً من البلاد إلى الحاوي رجلٌ بماءٍ لِيَنفُثَ فيه ، لجملة ناس مرضى في وقت بارد ، ***فقال***: « **لا ينبغي أن يداوى في وقت البرد إلا بكل حار ، وكذا في كلِّ فَصْلٍ بما يخالف طبعه ، إلا إن كان طبيبٌ حاذقٌ يرى خلاف ذلك في أمر ، إذ قد استحب الأطباء حتى في المأكولات أن يكون في الشتاء - حيث طبعه بارد رطب - أن يكون المأكول حارًا يابساً . والربيع - حيث طبعه حار رطب - أن يكون المأكول بارداً يابساً . والصيف - حيث طبعه حار يابس - أن يكون المأكول بارداً رطباً . والخريف - حيث طبعه بارد يابس - أن يكون المأكول حاراً رطباً . وهكذا مداواة كل شيء بضده هو الدواء الكلي ، إلا إن رأى طبيب حاذق خلافاً في شيء من جزئيات ذلك** » هـ .

أقول : سُمِّيَت الفصول الأربعة بأسمائها الموافقة طبائعها ، ولاختلاف طبائع الناس فيها ، فلما كان الربيع حاراً رطباً ، ويصير الطبع فيه تغلب عليه الحرورة والرطوبة سُمِّيَ الفصل المعتدل الربيع ، فيعتدل فيه الليل والنهار ، ويعتدل فيه الهواء بعد شدة البرد إلى الإعتدال ، فينبغي فيه الطعام المعتدل .

والصيف حار يابس ، فسمي بذلك ، ويغلب فيه على الأبدان الحرارة واليبوسة فينبغي فيه الطعام المذكور ، وكذلك في الخريف والشتاء . فالطبائع الأربع كلها في الإنسان ، وفي زاده الذي يأكله ، وفي أوقاته التي يتقلب فيها ، وكذلك في كل حيوان وفي الأزمان ، وما غلب من أحدها في أحدها نُسِبَ إليها ، فيقال لمن غَلَبَتْ عليه السوداء - اليُبْس والبرد - : فلان سوداوي ، وزادٌ سوادي ووقت سوداوي . فيناسب له في الأكل والدواء : الحار الرطب .

فالحرارة في مقابلة البرودة ، والرطوبة في مقابلة اليبوسة ، إذ المراد الإعتدال فيعدل كل شيء إذا زاد بضده . أي إذا تعدى حد الإعتدال فيعدل بضده ليعتدلا ، كما يعدل الماء الحار بالماء البارد ، والماء البارد بالماء الحار ليعتدلا بالسخونة المعتدلة بعد شدة البرودة في الماء البارد ، وبشدة الحرارة في الماء الحار ، فلذلك تُعَدَّل الطبائع الأربع إذا زادت بضدها ، كلٌّ منها يُعَدَّلُ بضدِّه ، حتى تعتدل فتحصل العافية والصحة . فإن العلل إنما تحدث بزيادة أحدها ، فيأتي المرض من قبل الزيادة ، فلكل طبيعة عِلَلٌ تَخُصُّها ، فَتُدَاوى بضدها ، فما زالت في الإنسان الطبائع الأربع معتدلة ؛ فالصحة موجودة ، فيصلح في كل فصل من المأكول عكس طبعه لطلب الإعتدال .

قال علماء الطب : اعتمد مقاومة السوداء بالثرائد الدسمة ، ومقاومة الصفراء بالأشياء الحامضة، ومقاومة البلغم بالأطعمة الملحة ، وزيادة الدم بإخراجه ، وأحسن ما يكون إخراجه في فصل الربيع، بأن يحتجم فيه في كل شهر مرتين ، وفي الصيف في كل شهر مرة ، وخمس محاجم في كل مرة ، ومنها محجمتا الساقين ، فإنهما من أكثر المحاجم ، وخير أوقات الحجامة إذا ارتفعت الشمس قيد رمح ، وينبغي له أن يشرب له ما يسهله من الشربات المسهلة المطفئة لوهيج الدم .

وينبغي الحذر من الحجامة من أول الشهر حتى ينتصف ، لقوله ﷺ لسيدنا علي : « من احتجم في أول الشهر فإنه يورث البرص » ، وذكروا أن حجامة كل يوم من أول الشهر إلى نصفه ، كل يوم يورث داءً في البدن ، وحجامة كل يوم من النصف الآخر دواء من كل ما يصيب من حجامة كل يوم من أوله، فسادس عشر منه حجامته دواءٌ مما يصيبه من حجامة أول يوم منه ، و ١٧ عن ما يصيبه من حجامة ثاني يوم ، و ١٨ عن ٣ ، و ١٩ عن ٤ ، و٢٠ عن ٥ وهكذا فحجامة يوم ٣٠ عن ما يصيبه من حجامة يوم ١٥ ، وفي الحديث : « الحجامة تُكْرَه في أول الهلال ، ولا يرجى نفعها حتى ينقص الهلال»، أي ينتصف ، انتهى من « الجامع الصغير » .

ومن شرحه للمناوي : « يعني بأن ينتصف الشهر ، لأن الأخلاط في أول الشهر لا تكون تحركت ولا هاجت . وفي وسطه تكون الأخلاط متحركة ، ومنه الحجامة يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر دواء لداء السنة ، أي لما يحدث في تلك السنة من الأمراض . الحجامة في الرأس تنفع من الجنون

والجذام والبرص والأضراس والنعاس ، وظلمة يجدها في عينه .

« ش » أي لا في نقرة الرأس ، فإنها تورث النسيان ، كما في خبر : الحجامة في الرأس شفاء من سبع ، إذا ما نوى صاحبها . من الجنون والصداع والجذام والبؤس والنعاس ووجع الضرس وظلمة البصر .

الحجامة على الريق أمثل ، وفيها شفاء وبركة ، وتزيد في العقل وفي الحفظ ، فاحتجموا على بركة الله يوم الخميس ، واجتنبوا الحجامة يوم الجمعة والسبت ويوم الأحد ، واحتجموا يوم الإثنين والثلاثاء، فإنه اليوم الذي عافى الله فيه أيوب من البلاء ، واجتنبوا الحجامة يوم الأربعاء فإنه اليوم الذي ابتلى الله فيه أيوب ، وما يبدو جذام ولا برص إلا في يوم الأربعاء وفي ليلة الأربعاء ، فإنه يوم نحس مستمر وهذه أمراض نحسه » ، انتهى من « الجامع الصغير من حديث البشير النذير » .

قال بقراط : « المعالجة بخمسة أَضْرُب : يُعالَج ما في الرأس بالغرغرة ، وما في المعدة بالقيء ، وما في أسفل الجوف بالإسهال ، وما بين الجلدين بالعرق ، وما في داخل العروق بالدم - أي بإخراجه - ».

وقيل : « الصفراء كالطفل يغضب من لا شيء ، ويرضى من لا شيء ، والدم كالعبد وربما قتل سيده ، والبلغم كالمَلِكِ الجائر إذا غضب ، لا يرضى إلا بقطع عضو شريف ، والسوداء كاللص الحاذق إذا دخل البيت ، لا يرضى يسرق إلا أجَلَّ ما فيه وهو العقل » .

وعلامة غلبة الدم : التمطي والتثاؤب وحلاوة الفم وتوقد الوجه وثقل العينين والنعاس وظهور البثور الدموية ووجود الصداع ، ويعين على تأكيد ذلك البله والسن وسالف التدبير . وعلامة غلبة الصفراء : العطش وضعف الشهوة ومرارة الفم ، وقيء الصفراء وصفرة اللون ، ونارية البول ، ويعين على ذلك ما تقدم ذكره . وعلامة غلبة السوداء : قوة الشهوة وقلة النوم وكمودة اللون ، وكثرة الفكر والحرج بغير سبب - أي ضيق الصدر - ويعين على ذلك ما تقدم ذكره .

وشبه أموال أهل الزمان بالنار ، لكونهم في غير الطريق يسهل عليهم إخراجه ، وفي الطريق يعسر عليهم ذلك .

وذكر الجنون ، فقال : « الجنون له مواد كثيرة ، مواد من فوق ومواد من أسفل ، فإذا رأيتَ المجنون ذا خُزَعْبَلات فهو من مادة أسفل ، وإن رأيتَه كثير الذكر ونحوه فمادته من فوق ، وقالوا : الجنون فنون. أي أنواعه كثيرة ، ومواده كثيرة » .

أقول : قوله : « **مواد من فوق ومواد من أسفل** » ، يعني هو نوعان : عُلْوِيٌّ وسُفْلِيٌّ . فالعلوي : المسَمَّى بالجذب ، وصاحبه يقال له : مجذوب ، وهو المتعلق بذكر الله وبذكر الصالحين وبذكر الآخرة،

وذاهل عن الدنيا وأهلها .

والسفلي : ما تراه كثير الكلام من غير ضبط ، وهو الذي أراد بالخزعبلات وكثير الحركة ، وربما صاح وتعبث بمن يراه ، فالحاصل أن لا يكون مضبوطاً لا في كلامه ولا في فعله هـ .

قال : « **أَكْثَرَ الناسُ في كل شيء من كل شيء ، فليأخذ الإنسان بما أمكنه ، ولا إذا عجز عن الكل يترك البعض ، لأن من نظر فيها مع كثرتها أورثه ذلك حيرة ، كما إذا اعتَرَضَتْ له عشرة طرق ، ما يدري أيتها يسلك ، فليسلك الطريق الكبيرة ، ولا يأخذ في بُنَيَّات الطريق فَيزِل ، وهي السُّبُل التي قال الله تعالى : ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾، والسُّبُل هي بُنَيَّات الطريق الخفِيَّة ، التي قَلَّ ما تُعرَف ، ولو سَلَكَها ضَلَّ** » .

قال : « **وربما أنَّ أحداً من المجاذيب المجانين يجتمع ببعض الشياطين ، لأنهم ما يُمَيِّزُون بين الإنس وغيرهم ، فإنا نسمع منهم ما يدل على ذلك** » .

قال : « **الشَّكُّ ما له سببٌ أو قرينه ، وهو الشُّبْهَة ، وينبغي أن لا يَقْدُم عليه حتى يتضح ، فإن لم يكن عن سببٍ ولا قرينةٍ ؛ فهو وسواسٌ وخواطرٌ لا عَمَلَ عليها** » .

وذكر رجلاً كان من سلاطين الجهة - أي البلد - المتقدمين - أظنه بدر بن عبدالله الكثيري - وكان ذلك - أي ذِكْرُه له - في طريق السبير يوم الأحد سابع شهر ربيع الأول سنة ١١٢٥ ، فقال : « **إنه لا بأس به ، وإن كان مُخَلِّطاً ، فإنه فيه خير يستره ، وأما الآن فإنما فيهم شوك بلا ثمر ، مجرد شر بلا خير، وأما لو كان شوك ومعه ثمر فحسن ، فالنخلة فيها شوك وثمر ، والعِلب** - أي السدر - **فيه شوك وثمر، وغير ذلك** » .

فلما كان جالساً بدهليز داره بالسبير ، في مجلسه الذي يعتاده في هذا اليوم ، واطمأن به المجلس قال : « **النخل هذا العام مليح الثمر ، ولولا أن المهدي تتقدمه فِتَن ، لقلنا هذه السنة من سني المهدي** » .

فقيل له : « إن بعض النخل - أي نخله من أرض السبير - أصابه السيل » ، أي من جهة سيل دمون ، وهي جهة نخل كالجِرَب ، يعني جهة نخل أخرى ، فقال : « **قد كان في ما مضى وصل إليه سيل دمون ، فأردنا أن نأخذ منه له ماء ، فخشينا أن يكون ذلك حقًّا مستمِرًّا ، فتركناه . و ينبغي للعاقل في هذا الزمان فضلاً عن الزاهد أن يفرحَ بالسكون ، ولا يحرك ساكناً ، ويترك الناس على ما هُم ، وأرزاقهم على ربهم ، وهو كافيهم إيَّاها ، ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾. وإن تحَرَّكَ فَلْيَتَحَرَّك في أمور الدين ، فإنها مُعَطَّلة ، ولو قام عليك عشرون سيفاً أو عصا في شيء ، فأحسن لك أن تتركه ولو هو مالك** » هـ .

أقول : قوله : « **وإن كان مُخَلِّطاً** » ، المخلِّط مَن خَلَطَ عملاً صالحاً وآخر سيئاً .

والثمر عبارة عن النفع ، والشوك عبارة عن الضرر ، فإن كان إنسان فيه خير وضرر سواء كان سلطاناً أو غيره ؛ فلا بأس ، فيكون أحدهما في مقابلة الآخر ، خير من أن يكون شراً مجرَّداً ، وأما مجرد خير بلا ضرر فعزيز ، وقليل أن يوجد في الأزمنة الصالحة ، فكيف في زماننا هذا .

ونخل سيدنا السبير المذكور ، فكان يتعود المسير إليه كل يوم أحد ، هو ومن يتعلق به من الأولاد والفقراء ، فيجلس في داره مجلساً مع جماعة يجتمعون إليه مع الذين معه ، فيُقرَأ بين يديه في كتابٍ من كتب الأدب مثل : « ربيع الأبرار » أو « الفرج بعد الشدة » وفي « ديوان ابن الفارض » ، ويُنشِد عنده منشد ، وتُدار قهوة ، ثم يختتم المجلس بالفاتحة ويتفرقون ، ثم يتوضأ في الدار ، ثم يسير إلى المسجد ويركع فيه الضحى ، ثم يسير إلى البيت في الحاوي . وهذا النخل صار إليه بالميراث من والده ، ثم شرى أسهم إخوانه منهم ، وبنى هذا المسجد ، قال : « **سبب بنانا له أن الوالد رأى كأن في هذا الموضع مسجداً ، فبنيناه تتميماً لرؤيا الوالد وتصديقاً لرؤياه** » . وكان أبوه وأهله ثم هو وأهله ينزلون في داره أيام القيظ ، وكان وُلِدَ سيدنا بهذه الدار أيام كان والده وأهله نازلين بها أيام القيظ ، يوم الأحد رابع صفر سنة ١٠٤٤ ، فلهذا كان يتعود المسير إليه كل يوم أحد .

وكان سنة ١١٢٤ جاء سيل الحوت الذي جرف النخيل على ما قدمناه ، وسالت الأودية كلها بسيول كبار ، وسال وادي دمون زائداً على العادة ، حتى وصل ماؤه إلى السبير ، وسقى نخلات من نخل سيدنا ، فلما كان السنة بعدها سنة ١١٢٥ أثمرت النخيل ثمرة كثيرة فوق العادة ، فلهذا قال : « **كان في ما مضى وصل إليه سيل دمون .. إلخ** » ما قال .

وكذلك قال : « **النخل في هذا العام مليح الثمر** » ، ومعنى كلامه أن سيل وادي دمون في السنة التي قبل هذه ، وهي سنة السيل الكبير المذكورة ، التي أخذ فيها النخيل سنة ١١٢٤ ، فاض من وادي دمون ماء زائد على حاجة أهله إلى السبير ، وسقى نخلات من نخل سيدنا من السبير من غير أن يُوَجِّه أحدٌ الماء إلى النخل .

قال : « **فأردنا أن نأخذ منه ماء لبقية النخل ، إذ كان ذلك زائداً لا حاجة لأهله به ، فنأمر أحداً من أخدامنا أو غيرهم يوجهه إليه ، فخشينا إن فعلنا ذلك أن يكون عادة مستمرة ، فلو جاءه مرة بعد هذه سيل قدر حاجة أهله ولو زائداً وتحتمله ، أنْ ربما أنَّ أحداً من الأخدام يستجري بسبب تلك المرة الاولى ، ويستقوي دعواه بها ، فيطالب بالماء فيروج بَوَجْهٍ من ماء ذلك الوادي شيئاً إلى نخلنا ،**

ويراه حقاً لازماً يطالب به ، فتركنا أَخْذَ الزائد خوفاً من الاستجراء على ما لا زيادة فيه ، أو فيه زيادة ويحتملها، فالإحتراز أحوط في الدين والمروءة ، خوفاً من التمرُّن على تلك العادة بالطمع فيه لأحد من الأخدام ، والتقوي على الدعوى بتلك المرة . وكلما تكررت قَوِيَ الطمعُ في ذلك بتلك المرة المتعودة ، وهذا مما طُبِعَ عَلَيه الآدمي ، كما قيل : خُلِقَ ابن آدم من طمع . سيما أهل الزمان ، فقد طُبِعوا عليه لعدم ورعهم وقلة تقواهم ، فالأولى والصواب من حيث المروءة والتقاضي ، إلا إنك لو ادَّعى عليك مُدَّعٍ في مالك ، وتحتاج معه إلى مخاصمة ومحاكمة أن تتركه له ، لِتَسْلَمَ من التعب والضرر في بدنك ودينك ، ويبوء هو به وبخطره محقاً كان أو مبطلاً ، وليس ذلك بِضائع عند الله ، لكن أهل الزمان يغالط أحدهم فيما أمكنه ولو بغير حق وبغير وجه » .

فيعني سيدنا عبدالله نفع الله به : أنك في هذا الزمان تطمع فيما ليس لك ، فكيف ألَّا لو تترك من مالك شيئاً لمحتاج وقتاً من الأوقات ، أو تأمر أحداً يتغاضى بشيء من ماله لأحد وقتاً ، فيراه أَخْذَهُ حقًّا لازماً ، فيطالب به في ثاني حال ، هو أو ورثته . أو أَخَذتَ يوماً شيئاً سمح لك به صاحبه في وقت، فتطالبه في وقت آخر أنت أو وريثك . فهذا حال كثير من أهل الزمان كما رأيناه ، فالأحسن الاحتراز مما يخاف منه ذلك ، من نفسك ومن غيرك .

ومثل ذلك لو اعْتَدْتَ تعطي إنساناً شيئاً - سواء دراهم أو غيرها - في وقتٍ من السنة ، فإذا جاء ذلك الوقت استشرف له ، وربما قال لك أين عادتك من ذلك ، وأكَّد عليك كأنه حَقٌّ لازم ، فينبغي للمحسن أن لا يقطع الإحسان ، فإن كان زكاة لازِمة لزمت لأهلها المذكورين في الآية هو أو غيره ، وإن كان غيرها فهو بحسب الداعي له من الله له أو لغيره .

وأما المُعْطَى فلا ينبغي أن يعلق قلبه به ، فيرى أن غير الله يعطي ، فهذا خطأ فاحش . وربما لو استمر في العطاء حتى مات قام ورثته في الشكاية في طلبه عند الحاكم .

قال : « وقد تَرَكْنا ثَمَرَ نخلةٍ لبعض أخدامنا وقت القيظ ، كل سنة يأكل رطبها إلى أن مات ، ثم بعده طالبَنا به أولادُه مطالبة صاحب حق ، حتى أرادوا الشكوى عند الدولة ، فتركناها لهم » .

يعني فهكذا أحوال الناس ، فينبغي الإحتراز منهم .

وقد حَضَرْتُ أنا أيام خادمه يأكلها ، ورأيت مطالبة أولاده بها ولجاجهم وتركه إياها لهم ، فافهم معناه الذي أراده بكلامه ، فقليل ما أحد ذكره ، وهو أن تتساهل بِأمْرٍ ، تعطيه بطيبة نفس منك ، أو تأخذه بطيبة نفس من صديقك ، ينقلب بعد ذلك من جانبك أو من جانب صديقك في وَرَثَتِكُما

أمراً لازماً يُطالب به ، إما بتظلم أو بمحاكمة عند حاكم وقاضٍ ، فاحذر مما تخاف منه من ذلك ، إلا إن أمنت العاقبة .

قوله : « **وينبغي للعاقل في هذا الزمان فضلاً عن الزاهد ، أن يفرح بالسكون ولا يحرك ساكناً** » ، يعني أن العاقل - المخاطب على لسان الشرع وعلى لسان المروءة - هو الذي يفعل ما طُلِبَ منه شرعاً ومروءة ، وهو مَن عَقَلَهُ عَقْلُهُ عن الدناءات - أي يترك كل أمر دنيء يكرهه الشرع والمروءة - وغلبت فيه دواعي الشرع والمروءة على دواعي النفس والهوى ، فصار عقله مُقَيَّداً على أمور الديانة والمروءة ، وسيرته في أفعاله وأقواله وأحواله متقيداً بهما ، لا يتعداهما إلى ما فيه إثم أو دناءة قط . والزاهد في ذلك من باب أولى ، وهو من غلب عليه دواعي الدين ، ولا تغلب إلا إذا ضعفت منه دواعي النفس ، لا تنازعه في أمر قط . والمثل في الأمرين معاً الديانة والمروءة وتوابعهما ومتعلقاتهما ، فكل هذه المذكورات إنما أخبر بها عن طبعه الزكي ، مما فيه غاية الخوف من الله ، والعمل الصالح وغاية كمال المروءة ، مِن تَجَنُّبِ تلك المذكورات مع الإحتياط والورع للدين والدنيا . فليجرب الإنسان نفسه بهما ، بترك هذه الأمور وأمثالها ، ليبين له محله من الدين والمروءة .

وصافحه ليلةً بعد الراتب رجلان أخوان ، أَقْبَلَا من صعداء سيئون أو نحوها ، فسأل كُلًّا منهما : « **من أنت؟** » ، فقال : « فلان من شبانة » ، فاستنكرتُ من ذلك ، فسألتهما : من أين أصلكم ؟ فقالا: إن أباهما جاء إلى جهة حضرموت من نجد ، وقبلها كان جدهما من الحساء من آل شبانة المعروفين من عامر ، وكان جدهما السابق من أهل القرن الرابع يقال له : غفيلة بن شبانة ، شيخ عامر ، ذكره ابن المقرب ، وذكر أنه وقع بينه وبين سلطان الحساء في ذلك الوقت - وهو الفضل بن عبدالله بن علي بن ابراهيم بن محمد العيوني ، نسبة إلى بلد العيون ، وهو من عبدالقيس أهل جواثا - وقعت حرب شديدة، ومقتلة عند شجرة تسمى السليمة ، وهي الآن موجودة ، شجيرة سَلَم صغيرة شرقي بلد المُبَرَّز . فقال أحد أولئك الرجلين لسيدنا : « ادع لفلان - يعني أخاه - فإنه عاده براسه » ، يعني له وفرة ، وهي تدل على جهله ، *فقال* : « **الشَّعر مليح ، إلا إن النبي ﷺ أمر بتعهده ، وكان عليه السلام عليه شعر ، ما حلقه إلا في حجَّتِه . والسِّرُّ في التقوى ، إذا وُجِدَت التقوى صلح كل شيء ، وإذا فُقِدَت التقوى فسد كل شيء** » هـ .

أقول : تقدم ما ذكرتُ عند قول سيدنا : « **إنَّا لا ندع المتصل بنا ، سواء كان دويلاً أو حادثاً** » ، والدويل في لغتهم المتقدم . **يعني لا نترك المتصل بنا ، بل نعتني به ، ونتوجه إلى الله له في جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، من فضل الله وكرمه .**

وذَكَرْتُ - عند ذلك من قوله - : أن السيد محمد بن عبدالخضر نفع الله به أمر والدي أن يفعل لي وَفْرَةً ففعل ذلك ، وكان ذلك في أول جماد الأولى من سنة ١١٠٢ ، ثم إن الطاعون وقع بالبصرة آخر هذا الشهر ، وتوفي السيد محمد بالطاعون في شعبان من هذه السنة ، وتوفي والدي بالطاعون لجمادي الثاني ، وبقي الطاعون إلى أن توفي السيد ، ثم انقطع . واشتُهِرَ أنه فدى الناس منه بنفسه ، وأخبر به قبل يقع ، وحذر الناس منه ، وحثهم بسببه على العمل الصالح ، فقال : « إنه آتيكم أمر ما يلحق الولد على والده ولا الوالد على ولده ، فمن أمكنه فعل الخير والطاعة فلا يُقَصِّر في ذلك » .

ثم جئت الحساء - يوم أظن عشرين من رمضان - وبقيت الوفرة إلى صفر من سنة ١١٠٣، ثم إن عمي عبدالله كَرِهَهَا ، وأمر الحلاق فحلقها ، فانتثر رأسي كله بثراً كثيراً ، وفيه ألم شديد ، فكل بثرة كأن فيها ضرباً بإبرة ، وبَقِيْتُ على ذلك أياماً يؤلمني ولا أذوق النوم ، وأنا أعرف أن ذلك بسبب إزالة ما أمر به السيد محمد نفع الله به ، فجعلتُ أهتِفُ به وبسيدي أحمد الرفاعي ، أن الله ببركاتهم يشفيني منه ، فبرئ كل الرأس سوى نحو ثلاث حبات ، كَبُرنَ وانْفَقَشْنَ ، فَصِرْنَ قُرحةً واحدةً يقطر قيحها وصديدها ، فكنتُ أستحيي من الحلاق إذا رأى ذلك ، فداويته في بندر مَسْكَت عند صاحب مراهم ، وفي المخا أيضاً عند صاحب مراهم ، وفي العجم في شيراز عند حكماء ، ولا نفع الدواء في ذلك شيئاً ، لكونه كرامة للسيد محمد . وبَقِيَتْ كذلك وأعانيها اثني عشر سنة ونصف .

فلما وصلت إلى حضرة سيدي عبدالله ، يوم عشرين من شهر رمضان سنة ١١١٥ ، فما مضت علي إلا نحو ثلاثة أيام وبرئت برءاً عجيباً ، حتى لم يبق لذلك القرح أثر ، إلا عدم الشعر في محلها ، وما أعلَمْتُ سيدي بها ، إلا مجرد فضل من الله كرامةً له ، وتصديقاً لقوله المذكور : « لا ندع المتصل بنا » ، يعني بل نعتني به ، ونطلب له من الله جلب ما ينفعه ودفع ما يضره بظهر الغيب . وفي ذلك أدل دليل أن المُحِبَّ لهم والمعتقِدَ فيهم ينفعه الله بجلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، علموا بذلك أو لم يعلموا . وكذلك من أبغضهم أو أغضبهم بقولٍ أو فعلٍ أو مخالفةِ أمرٍ ، أن الله يضره ويُنَكِّل به ، عَلِمُوا كقصة سيدنا مع الدمشقي وغيرها ، أو لم يعلموا كقصة السيد محمد هذه وغيرها .

يعني سواء كانوا أحياء كقصة سيدنا مع الدمشقي ، حيث أزعل سيدنا فغضب عليه ، فسقط من المركب في طريق سورت فمات غريقاً ، أو كانوا أمواتاً كقصة السيد هذه ، حيث أمر بالوَفْرَة ، فخولف أمرُه بها بعد وفاته ، فوقع برأسي ما وقع من البثر ثم القُرْحَة ، حيث لم ينفع فيها دواء ، ثم تفضل الله بشفائها كرامة لسيدنا ولم يعلم بها ، فإني كنت زائراً له . وللزائر حق على المزور من جلب المنافع ودفع المضار ، فيفعل الله ذلك كرامة لعبده الذي له عنده المنزلة العالية ، علموا أو لم يعلموا ، فلم يشترط إطلاعهم - أي الصالحين - عليه ، لأن ذلك سريرة بين العبد وربه ، ومعاملة بينه وبين الله ، ونية

صالحة بينه وبينه . وهذه إن صلحت كحسن العقيدة فيهم والمحبة لهم ، لِمَا يعتقده لهم عند الله من المنزلة ، فيجازيه الله بذلك خيراً ، في الدنيا والآخرة ، من جلب نفع ودفع ضرر ، وإن ساءت كسوء ظن بهم وعدم اعتقاد ، جازاه الله بذلك سوءاً ، من جلب ضرر ودفع نفع ، في الدنيا والآخرة ، كما مثلنا به لذلك هـ .

وكان سيدنا يوماً وهو في الضيقة جالساً ، وكان خارجاً لصلاة الظهر ، فيجلس فيها ساعةً لاجتماع الجماعة ، وهذه عادته كل يوم ، *فقال* : « **من الذي يُدخِل المُصَلّى بعد ما نقوم من الراتب ، مع علمكم بأن صلاة الصبح تكون خارجاً ، إذ لا معنى لإدخاله ثم إخراجه للصلاة ، فليخدم الإنسان بجميع أفعاله المعاني المطلوب الفعل لأجْلِها ، لأن من فعل شيئاً لا معنى له كان فعله سدى بلا فائدة . فالحاصل إنه يتعين أن يخدم – أي يقصد – بجميع أفعاله وأقواله معانيها التي لأجْلِها يقول ويفعل ، ولا يقول ويفعل ما لا معنى له ، وإلا صار سعيه ضائعاً وعمله خائباً ، فراعوا ذلك في كل ما تقولون وتفعلون** »، أو كما قال هـ .

أقول : مراده بقوله : « **أن يخدم** » ، أي يقصد كما قال ، وينوي بما يفعل ويقول ما أريد الفعل والقول لأجله ، لحديث : « إنما الأعمال بالنيات » ، فلا عمل مقبول ومقصود ويُذكَر إلا بنيَّة ، و « نية المؤمن خير من عمله » ، يعني النية مع عدم الفعل لعذر مانع صادق ، خيرٌ من عمل بلا نية ، لحصر الحديث الصحيح المذكور العمل بإنما ذات الحصر ، أن يكون معتداً به إلا بالنية ، فإذا كان كذلك فالنية روح العمل ، وعمل بلا نية كجسد بلا روح . وهذا نظير ما ذُكِرَ في البسملة من أنه ينوي عندها العمل الذي بَسْمَلَ لأجله ، فإذا بسمل في الوضوء مثلاً نوى عندها أن يقول : « أتوضأ باسم الله » ، وإن بسمل عند الأكل نوى أن يقول : « آكُلُ باسم الله » ، ومثل ذلك في كل فعل يبسمل له .

وعلى هذا ، يتعلق بالبسملة أربعة أحكام ، بحسب الفعل الذي بسمل له : إن كان حراماً حَرُمَت، أو مكروهاً كُرِهَت ، أو واجباً أو مباحاً استحبت . وكذلك في الذبح وَجَبَت ، لقوله تعالى : ﴿ وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ﴾، هذا عند غير الشافعي ، لتحريم أكل الكافر إجماعاً ، وعنده إن كان مسلماً ، وإن لم يتلفظ بالبسملة ، فكذلك ينوي في كل ما يقول القول له ، من أمر بمعروف أو نهي عن منكر ، وكل ما يفعل الفعل له ، من طاعة يفعلها ينوي بها التقرب إلى الله وامتثال أمره ، أو مباح ينوي به الإستعانة على العبادة ، ونحو ذلك . وكل هذه الأفعال يخدم بها هذه النيات ، يعني ينويها بفعلها .

والمعنى المقصود في هذه المادة : أن المصلي يخرج من داخل المُصَلّى إلى حوشه وقت المغرب لصلاتها وصلاة العشاء وصلاة الصبح ، فكان سيدنا يصلي عليه هذه الأوقات ، وكان الجماعة يُدخِلونه بعد

صلاة العشاء ويُخرِجُونه لصلاة الصبح ، فقال : « لأي معنى تُدخِلونه ، فإن كان ذلك لغرضٍ مقصود فمليح ، وإلا فإدخاله عملٌ ضائعٌ ، فالعمل المقصود منه أن لا يُدخَل إلا بعد فراغ عمله بعدما يُصَلَّى عليه صلاة الصبح » ، وكان هذا المُصَلَّى سجادةً من خوص .

ثم سَحَبَ على هذا المعنى كلَّ فِعْلِ شيء يُراد أو يُقصد لشيء آخر ، وهو مراده بقوله : « فليخدم الإنسان بجميع أفعاله المعاني المطلوب الفعل لأجلها » .

وتعدى بسيدنا الكلام في هذا إلى القهوة ، *فقال* : « إنها بحسب مجلسها ، إن كان مجلس لهوٍ واستعمال مُحَرَّمٍ حَرُمَت ، أو مندوب كمجلس قراءةٍ وذِكْرٍ ، وسهر ليلٍ في ذِكْرٍ وعبادة ، وطَلَبَ منها دفع النوم والنشاط لذلك ؛ نُدِبَت ، أو مجلس فيه تعاطي مكروه كرهت ، أو مباح جازت » .

وصافحه بعض السادة فَتَوَسَّم من حاله ، *فقال* : « كان أهل المروءات أَلَّا يُعِينُونهم الناس ، عكس ما عليه الناس اليوم ، والخير والتقدير كلاهما مأمور به ، وإلا فإن مددت يدك كثيراً تعلقوا بك. فانظر إلى فلان - وهو السيد زين العابدين - ثمره في كل مكان - يعني يقسم على كثير من الناس - ويمتحنونه لذلك ، ولا أثر لِفِعْلِهِ معهم ، وهم يقولون بخيل ، وقد قال الله تعالى : ﴿وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ﴾» .

وقال رضي الله عنه : « خلق الله كل شيء وجعل تحته حِكَماً ، وفي مقابلته حِكَماً ، فخلق السماوات والأرض وغيرهما ، حتى انتهى الأمر إلى الشيطنة ، فإن من خصال الشيطان ما لم يقبل الحق مجرداً إنما ينفع فيه السيف ، فرسول الله ﷺ لمَّا قاتل أهل بدر لم يَدْعُهُم حينئذ ، إنما قاتلهم بالسيف فقط ، وإنما كان دَعَاهم قبل ذلك ، وبعض الحُجَج الباطلة ما يقطعها إلا السيف ، ولا يُناظَر صاحبها ، إذ لا تفيد فيه المناظرة ، لأنه يَنْجَرُّ من شيء إلى شيء . والطرائق المسلوكة إلى الله كثير ، منها عامة ومنها خاصة ، ومنها ظاهرة ومنها باطنة ، ومنها جَلِيَّة ومنها خَفِيَّة ، وكلها مسلوكة ، إذا سلكها الإنسان وثبت عليها ومال منها قليلاً يمنة أو يسرة ثم رجع اليها ، وإن لم ير السائرين بأن بَعُدَ عنهم وجعل يتتبع أثر أقدامهم، وأما إذا راح يسير على الشخر - يعني أغصان الشوك - تضررت رجله وانقطع ولم يصل » هـ .

أقول : يعني الحُجَج الباطلة الراسخة في قلوب أربابها ، إذا كانوا مع ذلك يَدَّعون أنهم على حق، فجَهْلُهم جَهْلٌ مُرَكَّب ، يرون باطلهم حقاً وخطاهم صواباً ، فهؤلاء لا تفيد فيهم المناظرة ، ولو تَبَيَّنَ لهم الحق واضحاً كالشمس ، فلا يتركهم الفهم الباطل وتَمَرُّنهم عليه ورسوخه في قلوبهم - حتى اعتقدوا الباطل حقاً والصواب خطأً - أن يتبعوا الحق وينقادوا له ، لأنهم لا يرون الحق والصواب

إلا ما هم عليه ، وإنما ينقاد للحق طالبُه ، ولو طلب عليه دليلا ليثبت في قلبه فلا بأس ، كما قال سيدنا إبراهيم : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ ، فطلبُ طمأنينة القلب بالإيمان مطلوبُه .

فمثل مَن ذَكَرنا ممن لا يرى الحق إلا معه ، لا يُنَاظَرُون إلا بالسيف ، فيُرَدُّون للحق قهراً ، هذا هو الغالب ، ومثل هؤلاء الرافضة ، فإنهم لا يرون الحق إلا معهم ، ويرون أنهم هم الفرقة الناجية ، فلا يُرَدُّون إلى الحق إلا قهراً . وهذا هو الأغلب من الناس اليوم والعام فيه ، وأما إذا أراد الله هداية عبد، فهدى قلبه وجذبه إلى الحق بجاذبٍ إلهي ، وأقبل عليه طوعاً ، فلا لنا على هذا حُكْمٌ ، ولا كلام لنا معه، فإنَّ هذا عبدٌ قد جذبه الحق إلى الحق بجاذب عنايته وسابق سعادته نفعنا الله به .

وهو كما قال سيدنا - وقَدَّمْنا عنه قوله ذلك - حيث قال : « **إنما نحن مع الناس اليوم ألّا بالعناية، وأما الأسباب فقد أتينا منها بما أمكن ، ولا جنينا منهم شيئاً** » ، يعني وهذا الذي تريدُ أن تُرِيَهُ الحق وتُبَيِّنَهُ له وتَجُرَّه إليه ، إنما يكون انجذابه إليه إلا بالعناية - أي بالحظ والنصيب - .

وأما كونك تريد تحصل منه شيئاً فلا يمكن ذلك ، يعني بعيدٌ ذلك اليوم لقلة العناية فيهم ، وأما في الزمن السابق فكانت العناية فيهم كثيرة ، فكثير ما يحصل . كذا حُكْمُ الله في مُلْكِه ، وتنفيذ قضاه في تدبيره ، وتخصصه لخواص عباده بخصوصيات مواهبه ، نفعنا الله بهم ، وبما خصهم به سبحانه وأراد لهم من الخير ، وإنما كلامنا في العامة من الناس ، ممن شأنهم أنهم يُدْعَون إلى الحق بالسياسة والملاطفة ، ثم بالقهر والمغالبة ، ولكن ما يحصل المقصود منهم إلا بالشرط المذكور ، وهو إرادة الله هدايته ودون ذلك لا يمكن ذلك ، وكذا في كل مطلوب تسبب له بأسبابه .

قوله : « **وأما إذا راح يسير على الشخر** » ، وهو الشوك . وذلك إشارة إلى عدم الإستقامة في دينه ، بأن كان يرتكب المعاصي هـ .

وحَسَّ بصبي صغير جالس في المجلس ، وذلك في شهر رمضان ، فسأل عنه : « **هل صام ؟** » ، قيل: « **نعم** » ، فقال : « **فأي معنى لصيام الصغير الذي لم يجب عليه ويشق عليه ولا ينتفع به ؟ ، فخَلُّوه يفطر ، يقضي لأهله حاجة ، فإذا شق على الكبير فعلى الصغير أشق ، فكما أنه يُضرَب على الصوم ويُؤمر به في بعض الأحيان إذا استطاع ، فكذلك يُضرب على الفِطْر ، ويُؤمر به إذا لم يستطع ، ومثل الصغير يوم تلزقه في الدين مثل الشعرة في العجين ، والدين إنما هو فقه - أو قال : فهم - وعلم ، بحيث يعرف الذي هو يباشره وإلا غَيَّر على نفسه وعلى غيره . فكل من لا معرفة له بأمور الدين إذا أَمَرْتَهُ بها غَيَّرَها،**

وأتعب نفسه بلا فائدة ، فينبغي أن يُعَرَّفَ أوَّلاً كيفية العمل ، ويُبَيَّن له إذا لم يعرفه من قَبْل ، وإنما اكتفى النبي ﷺ بأمره لهم على العموم ، من غير شرح لهم ، لأنهم كانوا فقهاء أنفس ، يبيعك الواحد ويشتريك بكلامه وأنت لا تشعر ، وكان الرجل يعرف القرآن - أي معناه - وهو ابن أربع سنين ، والآن الواحد شيبة ما يقرأ سورةً إلا أخَلَّ بحروفها، فضلاً عن أن يعرف معناها » ، ثم أنشد هذا البيت:

وَمُكَلِّفُ الأَيَّامِ ضِدَّ طِبَاعِهَا مُتَطَلِّبٌ في المَاءِ جَذْوَةَ نَارِ

« ولم يُذكَر أن أحداً سأل النبي ﷺ عن معنى لا إله إلا الله ، لكونهم دارين بما تضمنته ، عُرفٌ معروفٌ بينهم ، فإيمانهم أقوى من قلوبهم . فلو أن محتسباً قام على أهل تريم اليوم ، لاحتاج أن يُبَيِّنَ لهم ما يجهلونه ، ويطالبهم بما يعرفونه ، وينكر عليهم في أمور كثيرة يتعاطونها » .

ذكر منها جملة ، ثم قال : « ومنها أنهم يدحرجون صغارهم في باعلوي ، يداحنون الكبار في المسجد والجوابي ، ويتركون ما هو ألزم من ذلك ، فأين الزكاة وغيرها ؟ وما كنا نعرف صغيراً يُقَدَّم في الصف الأول في باعلوي ، وقد كنتُ إنما أدخله مع الوالد ، ولا أصلي إلا في الصف الثالث ، وهذه الأمور التي حدثت ما كنا نعرف منها شيئاً ، ولو توليناهم أو تولى والٍ يسمع لنا ، لأظهرنا لهم أموراً غريبة من الحق، ما كانوا يعرفونها ، وغير ذلك ، ومثل ذلك ، وأشباه ذلك ، وكم وكم » ، أو كما قال هـ .

أقول : وقد تَفَلَّتَ علينا منه كلام كثير ونسيناه ، ولكن قبضنا منه هذا بلفظه ومعناه ، وفي بعض المجالس ذكر مثل هذا ، وذكر بعد قوله : « ماكانوا يعرفونها » ، قال : « إلا إن كان رأوها في الإحياء»، ومراده من كلامه هذا أنك إذا أردتَ تأمر أحداً بأمرٍ شرعي أو عادي - يعني مما يُطلب شرعاً ومروءة- فيُعَرِّفه كيفية الفعل ليفعله على وجهه ومقصوده ، وأما إذا أمرتَه بلا معرفة به ، خَرَّبَ على نفسه ، فأتعب نفسه ، فَعَرِّفهُ إن لم يكن يعرفه من قبل ، فإن كان يعرفه فيكفي ، وعليك الحث والأمر ، ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾.

ثم ذكر اختلاف الناس في عوائدهم وفرق بين من تقدم ومن تأخر ، فكان الصغار لا يجرؤون على دخول مسجد آل باعلوي ، لقوة احترامهم له ، وعظمته في صدورهم ، حتى كان سيدنا في صغره لا يدخله إلا مع والده ، ويصلي في الصف الثالث ، ويتقدم الكبار في الصَّفَّين ، ويرون أن صلاة عصر يوم الجمعة فيه في حينها تزيد عظمة على صلاتها في غيره ، وذلك لأنه بناء أولاد أحمد بن عيسى ، جدهم الذي هاجر من البصرة سنة ٣١٧ . وأن الأولين كانوا حُذَّاقاً في معرفة القرآن والحديث ، لفظاً ومعنى، فكانوا إذا أُمِروا بأمر ، فهم عارفون له فلا يحتاجون إلى تعريف ، بخلاف اليوم فلا يؤمرون إلا بعد التعريف ، والبيت الذي استشهد به : « ومكلف الأيام ضد طباعها .. إلخ » من تلك القصيدة المرثية

التي تقدم ذِكرها ، وذَكَرْنا منها ذينك البيتين :

لله دَرُّ الحادِثَـاتِ فَإِنَّهَـا صَـدَأُ اللِّئـامِ وَصَيْقَـلُ الأَحْـرَارِ

والبيت الآخر :

وَفَشَتْ خِيَانَاتُ الثِّقَاةِ وَغَدْرُهُـمْ حَتَّـى اتَّهَمْنَـا رُؤْيَـةَ الأَبْصَـارِ

وكذلك استشهد سيدنا منها بهذا البيت : « ومكلف الأيام غير طباعها » ، وفيها : « ضد طباعها، متطلب في الماء جذوة نار » .

قوله : « **ولم يُذكَر أن أحداً سأل رسول الله ﷺ عن معنى لا إله إلا الله** » ، لأن معناها معروف عندهم ، بأنه لا معبود بحق إلا الله ، فمن هداه الله صدق بذلك وهدى الله قلبه للإيمان قائلها ، ودخل بها في دين الإسلام ، واطمأن قلبه بالإيمان واليقين . ومن لم يهده الله ؛ تَوَقَّفَ عنها ولم يَقُلْها ، وغلب عليه الخذلان وغضب الرحمن ، وهو معنى قوله تعالى : ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُۚ﴾، يعني بعد ما تَبَيَّنَ لهم الحق وعرفوه ، فعند ذلك يُزَيِّنه الله في قلب من أراد الله هدايته ، وكتبه في السابقين من أهل سعادته الذين كتبهم أن يُتِمَّ به وعده بملء جنته ، ومن أضله بعد البيان فهو ممن كتبه من أهل شقاوته ، الذين أراد بهم إتمام وعده بملء النار دار عقوبته . فافهم لهذا أنَّ ما السعادة والشقاوة إلا بإرادة الله لا غير ، فالخير والشر بمشيئة الله .

قوله : « **لا ينتفع به** » ، أي الصغير ، إذا صام عجز فلا ينتفع به ، ويبينه قوله: « **خَلُّوه يفطر يقضي لأهله حاجة** » ، وهذا يدل على أنه لا يطيق الصوم ، وما أُمِرَ به إلا مع الطاقة له ، ودونها لا يؤمر به ، هذا في شأن الصغير إذا ما طاقه ، أما الكبير إذا ما طاقه فله حُكْمٌ ذُكِرَ في باب الصيام .

والمثل الذي ضربه : « **كالشعرة في العجين** » ، يعني ليس الصغير بثابت في دينه أدنى شيء يجرُّه عنه يُخرِجه منه ، كما أن الشعرة تخرج من العجين بأدنى جَرٍّ ، لأجل الفرق ما بين حذاقة الأولين وبلادة الآخرين ، وشدة جهلهم اكتفى في الأولين بمجرد الأمر بلا حاجة إلى تبيين ، لفهمهم معنى ما يؤمرون به ونباهتهم في الأمور ، وأما أهل الزمان فلا يكتفي بمجرد الأمر دون التعليم ، لعدم فهمهم لذلك وقلة نباهتهم ، بل لا بد لهم من التبيين ثم أمْرِهِم . وهذا وأمثاله من واجب البدع الحادثة ، لأن كل أحكام الشرع الخمسة تجري في البدع الحادثة بعد النبي ﷺ ، من الواجب كهذا المذكور من وجوب تبيين الحكم والكيفية ، ثم الأمر به ، والحرام والمندوب والمكروه والمباح .

ومعنى البيت الذي استشهد به يبيِّن المعنى المذكور ، من كونك إن طلبتَ من أهل كل زمان طَبْعَ

أهل زمان قبله فقد طلبتَ محالاً ، فلا يمكن ذلك ، كما لا يمكن اجتماع النار والماء ، ولو قام محتسبٌ في هذا الوقت لكان من جملة ما يهمه إزالة هذه الأمور الحادثة المخالفة للأدب مما يُطلَب شرعاً ومروءة ، مِن تَأَدُّبِ الصغار مع الكبار في المجامع من اجتماع الصلوات ومجالس العلم وحِلَقِ الذِّكر ، وهذا وقع في الأزمنة والأمكنة ، حتى إن بعض المساجد المطروقة قد يمر المارون منه رجالاً ونساءً .

فقد كان فيما أدركنا من الزمان قبل اليوم إذا مر المارون من المسجد ، ولو مع خُلُوِّهِ من الناس وهم كانوا يتكلمون ، فإذا دخلوا المسجد مارِّين منه ، يسكتون ولا يتكلمون وهم في المسجد بكلمة، حتى يخرجوا منه الرجال والنساء ، فيسكتون عن الكلام في المسجد ، لما ملأ قلوبهم من الهيبة منه ، لكونه موضع ذكر الله ، كل ذلك أدباً منهم مع المسجد ، سيما النساء ، فَهُنَّ فيه أكثر هيبة من الرجال ، فما تمر المرأة فيه إلا وهي كالخانعة لا تنطق فيه بكلمة . واليوم ليسوا كذلك ، بل لو مَرَّ المارُّ من رجال ونساء والمسجد غاصٌّ بالرجال في أوقات الصلوات، لا يقطعون كلامهم الذي كانوا فيه قبل دخول المسجد، الرجال والنساء ، الكل على ذلك، حتى إنهم يشوشون على المُصَلِّي في المسجد بِلَغَطِهِم ، حتى إن الرجل من الجالسين يستحيي للمرأة من كلامها والرجال يسمعونها ، حتى إن كلامهم وكلامهن في المسجد كما هم في أسواقهم من لغطهم وخصامهم، لا حياء في النساء يمنعهم ، ولا أدب في الرجال يردعهم . فانظر كم فرق بين زمانك هذا الحاضر وزمانٍ تَقَدَّمَه قليلاً ، فكيف بالأزمنة البعيدة ، وغير ذلك وأشباه ذلك ، وكم وكم . فاعرف أهل زمانك وطباعهم ، وعاملهم بمقتضاها ، ولا تكلفهم طباع ولا أحوال أهل الأزمنة المتقدمة قبلهم ، وإنما عليك نفسك أن تَجُرَّها إن أمكنك منها ، طوعاً أو كرهاً ، أن تتشبه بأهل أزمنة الخير والصلاح ، وتعمل أعمال أهل الصلاح وتتخلق بأخلاقهم ، ومن جملة ذلك عدم الطمع وهوان الدنيا على نفسك ، فيطمع فيك الطامع المحتاج ، ولا تطمع في أحد ، وغير ذلك مما لا يحصى من الأخلاق الجميلة .

وذاكرتُ سيدنا في كلامه المتقدم ذِكره في شأن الصبي الصغير من قوله : « **فأي معنى لصيام الصغير .. إلخ** » ، *قال* : « **إذا مَيَّزَ ، بأن يُحسِنَ يأكلَ ويستنجيَ ويتوضأ وحده ، فيؤمر بالصلاة لسبع والصوم إن أطاقه** » ، قلت : فالعمدة في الأمر بذلك بالتمييز أو بالسن - أي بلوغ السبع - ؟ ، *قال* : « **بهما جميعاً** » .

قلت : لو مَيَّزَ قبل السبع أيؤمر بذلك ؟ ، *قال* : « **لا ، لأنه لا يوثَق بتمييزه قبل السبع ، ومن كَلَّفَ الصغيرَ أن يصلي ويصوم كما يصلي ويصوم الكبير فقد بالغ وتَنَطَّع ، وللأمور أوائل وأواخر ووسط ، فكل من عمل في أوائلها كما يفعل في أواخرها فهو المتنطع . فخذ هذه حكمة وقاعدة . أيمكن للإنسان طلوع السطح قبل الدرجة ؟** » .

وقلتُ له في اليوم بعده : قد تكلمتم بالأمس بما فيه القانون الكلي في تعليم الصغار ، ولكنه تَفَلَّتَ علينا ، *فقال* : « **الناس اليوم لا سماع في آذانهم ، ولا قابلية في عقولهم ، فلو كان فيهم قابلية لأخذوا الكلام في ذلك الشيء وفي غيره ، فأين نحن اليوم ممن أخذنا عنهم** » هـ .

قوله : « **لا سماع في آذانهم** » ، أي سماع قبول . بدليل قوله : « **ولا قابلية** » ، بأن يسمعه بأذنه ويقبله ويشغف به بقلبه ، فلو أن أحداً كان كذلك مع فراغ القلب لَمَـا نَسِيَهُ ، فأين يسمع كلاماً مثل كلام السيد عبدالله الحداد نفع الله به ؟ ولكنا مع جملة من حضر وسمع ، قلوبنا ملآنة من هموم الدنيا ، مع عدم الفهم الكلي ، كما نسمع عن السابقين إن الرجل ليسمع الكلام الطويل ، أو القصيدة الطويلة مرة واحدة فيحفظ ذلك ، وهذا معنى ما ذكر آنفاً من الفرق بين حال أهل الزمن المتقدم بأنهم فقهاء أنفس، حتى كان الرجل يعرف القرآن لفظاً ومعنى وهو ابن أربع سنين ، ولهذا اكتفى النبي ﷺ معهم بالأمر بلا تعريف ، لكونهم عارفين بما يؤمرون به وبما يُنهَوْن عنه . وأما اليوم فلا ، حتى إن الشيبة منهم لا يحسنون القرآن لا لفظاً ولا معنى ، فيحتاج من يأمرهم معهم بالتعليم قبل الأمر ، وهذا فَرْقٌ بعيدٌ وبَوْنٌ شديدٌ بين أهل الزمن الأول وبين أهل زماننا . وضرب سيدنا للفرق بينهما مثلاً بالبيت التي ذكر من مرثية أبي الحسن التهامي لابنه ، المشار إليها هـ .

قال رضي الله عنه : « **الدنيا ما فيها فراغ ، إنما فيها التفرغ ، فإنك إن لم تكن مشغولاً بظاهرك فأنت مشغول بباطنك ، فإذا حصل الحزم فما عاد شيء وقت** » .

قال : « **لا تَخُص الدعاء بأمور الدنيا فقط إذا دَعَوتَ ، ولكن إذا سألتَ اللهَ شيئاً من الدنيا ، فاسأله قبله شيئاً من أمر الآخرة ، فإنه سبحانه أكرم من أن يعطي شيئاً ويترك البعض ، بل يعطي ذلك جميعاً** » .

وذكر الظلم والأخذ بالحزم ، *فقال* : « **إذا لم تقدر على التقوى فخذ بالصيانة ، ففيه لك مراد ببركة النبي ﷺ . وكان من دعاء الوالدة نحفظه عن بعض جَدَّاتها : اللهم لا تُتْلِف مال ، ولا تُغَيِّر حال . قالت: وَزِدْتُ أنا : وبارك في الخلع والعيال** » .

قال : « **ونحفظ عن بعض جداتنا عن أبيها أنه كان يقول : في زيارات القبور نُجحٌ لما تَعَسَّرَ من الأمور** » هـ .

أقول : قوله : « **إذا لم تقدر على التقوى فخذ بالصيانة ، ففيه لك مراد** » ، يعني إن تقوى الله مجموع علم وعمل ، فالعلم : أن تعلم جميع مراضي الله وأوامره ، وجميع معاصيه ونواهيه ، والعمل : أن تعمل الأوامر وتترك المناهي بنية امتثال أمر الله وطلب مرضاته وما يقرب إليه ، مخلصاً في ذلك من

غير شوب غرض آخر ، من طمع دنيا من مال أو جاه ، فلا يفقدك حيث أمرك ولا يراك حيث نهاك .

فإن أمكنك ذلك فهو المراد لك والمقصود ، وإن عجزتَ عنه ؛ فاعمل بما فيه المروءة ، من جميل الأخلاق والأعمال المطلوبة طبعاً ، وترك سفسافها ، فيحصل بذلك المراد والمقصود من التقوى ، طبعاً وشرعاً ، لأن جميع مطالب الشرع مُرَكَّبة في الطبع ، وجميع مناهيه سفساف في الطبع ، فإذا زَكَى منك الطبع فقد زَكَت منك السيرة في الشرع ، فإذا ضعف باعثك في الديانة والشرع ، وزكى وقَوِيَ باعثك في المروءة والطبع فقد بَلَغْتَ الكمال في الوجهين معاً شرعاً وطبعاً ، وإنما ذلك ببركة النبي ﷺ يُبَلِّغُ اللهُ القاصِرَ إلى مقام الكامل ، وإنما كمل المتقي بكمال نياته في أفعال التقوى لمرضاة الله ، وإنما قصر الآخر لغفلته عن تلك النيات الكاملة ، وإنما بلغ إلى مقام أهلها بِعِزِّ نفسه وعُلُوِّ همته عن الدنايا . وأيضاً المؤمن لا يخلو عن سريرة صالحة بينه وبين الله ، تُبَلِّغُ القاصرَ إلى مقام الكامل إذا اطَّلَعَ اللهُ منه على صلاح سريرته .

والخلع في لغتهم هو الغَرْس من النخل ، من حين غرسه إلى أن يبلغ حد قوَّته يقولون : « أرض فيها خلع جَيِّد » ، يعنون نخلاً قوياً صغيراً ، كما يقول أهل جهتنا الحساء : « نخل جرا » ، يعنون نخلاً شاباً ، فإذا عوَّد وطال انتفى عنه الإسمان في اللغتين .

وجدَّتُه التي أشار إليها هي : الحبابة سلمى بنت السيد عمر بن أحمد المنفر ، من آل عبدالله بن علوي ، وهي أم أبيه السيد علوي بن السيد محمد الحداد ، وكانت من كبار الأولياء الصالحات ذوات العرفان والمكاشفات ، وهي التي رَبَّت سيدنا عبدالله ولَحَظَتْهُ وحَلَّ عليه نظرها من صغره ، مع ما سبق له من الله من سابقة السعادة ونيل الحسنى والزيادة وحصول الكرامة ، وكانت وارثة سر أبيها ، وكان أبوها السيد عمر المذكور من كبار العارفين أرباب الحقيقة واليقين ، وهو صاحب الحاوي الذي هو - أي سيدنا عبدالله - مرتَّب له فيه قراءة الفاتحة بعد الصلوات ، ومن جهته صار إليه سهمه من الحاوي ، من ورث أبيه عن أمه عن أبيها السيد عمر المذكور ، واشترى سيدنا أسهم إخوانه مما صار إليهم من الإرث كذلك ، فصارت إليه مع سهمه - وهو جملة الحاوي - له خاصة ، ثم بنى فيه غُرفَتَهُ ومُصَلَّاه ، ونزل فيه بالتاريخ المتقدم - أظنه سنة واحدة بعد المائة والف - .

وأما والدته المذكورة فهي : الحبابة سلمى بنت السيد عيدروس بن السيد أحمد الحبشي صاحب الشعب ، وكانت من الصالحات القانتات الحافظات للغيب بما حفظ الله ، على الوجه الذي قال الله .

وكان سيدنا عبدالله يحفظ عنها أشياء حين ولادته وأيام صغره ووقت شبابه وأول نشوءه وتردده إلى العُلْمَة ، وكان إذا ذَكَر وتذَكَّر تلك الأوقات وأيام الشباب طال به فيها الكلام جداً ، وإذا تذكر أوقات الشباب والصِّغَر ، وتلك الأوقات والأحوال الصافية من الكدر ، أطال الكلام في تذكرها

وأحواله فيها ، فإذا طال به الكلام قال : « الكلام شجون يَجُرُّ بعضه إلى بعض » ، وربما أنشد هذا البيت:

وحَدَّثْتَنِيْ يَـا سَـعْدُ عَنْهُـمْ فَزِدتَنِـيْ   شُـجُوناً فَـزِدْنِي مِنْ حَدِيْثِكَ يَا سَـعْدُ

فمن ذلك قال : « حفظنا تاريخ ولادتنا من الوالدة قالت : وُلِدْتَ ليلة الاثنين خامس صفر سنة ١٠٤٤ » ، قال : « قالت : جاءت امرأة من الجيران كانت حضرت الولادة ، وإنها قالت : لففتك في بعض ثيابي ، وقالت : فَبَقِيَت تصيحُ تلك الليلة إلى الصبح ، ما طِعت تستقل من الصياح . فقلتُ لتلك المرأة : شوفي هذا الولد ما به ، فما له لا يسكت ؟ فَفَتَّشَت الثوب ، وإذا بعقرب عظيمة ملفوفة معي بالثوب ، وهي مما يلي البدن ، بيني وبين الثوب ، والبدن متخبِّز محمَّر ، فكأنها بَقِيَت طول الليل تقبِّص، ولا أحد درى بها ، ولا شعر بها أحد » هـ .

أقول : وفي هذا إشارة إلى ما سيتحمله ويقاسيه من شدائد الدنيا ومحنها ومشاقِّها ، من الأمور التي لا يستقل بحملها إلا الأكابر من الرجال والفحول الأقوياء الأبطال ، كما ذكروا في ضغطات جبريل الثلاث للنبي ﷺ أن فيها إشارة إلى ثلاث شدائد شداد وقعت عليه ﷺ :

أولها : حصاره في الشعب مع أهل بيته - بني هاشم وبني المطلب - ثلاث سنين محصورين ، إلى أن فَرَّجَ الله لهم بعد ذلك ، وذلك أن قريشاً غضبوا عليهم بسبب النبي ﷺ ، وكتبوا صحيفة وعلقوها في الكعبة : أن لا يخالطوهم ولا يجالسوهم ولا يواكلوهم ولا يشاربوهم ولا يصاهروهم ، فأكلت الأرضة الصحيفة بعد الثلاث السنين ، فعرفوا أنهم مخطئون بذلك ، وأنه منهم قطيعة رحم ، فتركوا ما عزموا عليه ، وخالطوهم وواكلوهم وصاهروهم ، وفرج الله لهم . والثانية : ما وقع عليه ﷺ من وقعة أحد ، وما أصابه من شَجِّ رأسه ، وكَسْرِ ثَنِيَّتِهِ ، وقتل سبعين من أصحابه ، وقتل عمه الحمزة ، وهو أشد ذلك عليه ، وما أزعله وأتعبه شيء وقع عليه أشد من قتل عمه . والثالثة : ما وقع عليه من قتل سبعين من أصحابه من حفظة القرآن يوم بئر معونة ، حتى كان يقنت في الصلوات ويدعو على قاتليهم من رَعْلٍ وذَكْوان وعُصَيَّة وأحياء من عرب نجد وقبائل أُخَر ، وقال : « اللهم عليك بِرَعْلٍ وذَكْوَان وعُصَيَّةَ عَصَت الله ورسوله » ، وقال في كلٍّ من هذه القبائل قولاً يذمهم .

وقلتُ لسيدنا عند ذِكْرِهِ قصة العقرب : في هذا إشارة إلى ما تقاسونه من محن الدنيا وبلائها كالغَطَّات الثلاث ، قال : « نعم » ، قال : « ووقع في تلك السنة - يعني سنة ولادته - حوادث كثيرة ، فيها خرج السلطان عبدالله وفعل ما فعل ، وفيها مات الشيخ الحسين بن أبي بكر بن سالم ، وفيها وفاة السيد يوسف بن عابد الفاسي ، تلميذ الشيخ أبي بكر بن سالم يوم ١٨ من شهر رجب منها . وفيها قُتِلَ

السيد علي باجبهان على خبرة تمر وقتالته من المناهيل ، وذلك أن اثنين منهم اتفقا على أن يقطعا خُبرةً من نخلةٍ له ، فلما رآهما قام إليهما فكلمهما ، وواحدٌ منهما فوق النخلة يقطع والآخر يتناول ، فأراد أن يأخذ الخبرة من المُتَنَاوِل ، فحذف الذي فوق النخلة السيد بجنبيَّة ، فأصابت منه مقتلاً فكان بها أَجَله » .

وكان سيدنا يوماً جالساً بعد العصر ، فأقبل السيد أحمد بن زين الحبشي مقبلاً من بلده ، ومعه ابنه جعفر ، فصافحه السيد أحمد وسَلَّم عليه وحيَّاه ، ثم صافحه جعفر ، فلما أحس بيد الولد قال لأبيه : « هذا جعفر ؟ » ، قال : « نعم » .

قال : « هل أرَّختم ولادته ؟ » ، قال : « نعم » .

قال : « أوَمَا تعتادون تُؤرِّخون المولود ؟ » ، قال : « بلى » .

قال : « لا تخلُّوا ذلك ، فإن عليه عمدة كبيرة في معرفة وقت ما تأمره بالصلاة ، وفي المواريث والأحكام ومعرفة البلوغ وغير ذلك ، ألا ترى ما يذكر في كتب التواريخ من تواريخ الولادة وغيرها . وهذا في العموم فكيف في الخصوص . وقد كانوا عندنا يؤرخون بالسيول والنجوم ، ولكن إنما العبرة بالسنين ، ونحن ما عرفنا تاريخ ولادتنا إلا من الوالدة ، قالت : إنك وُلِدْتَ ليلة الإثنين ٥ من صفر سنة ١٠٤٤ » .

ثم ذكر الكلام المتقدم ، من لَفِّ أمِّه له في ثوبها وصياحه طول الليل ، وقولها لتلك المرأة : « انْظُرِي ما باله » ، وقصة العقرب والحوادث التي وقعت في سنة ولادته .

ثم قال : « فلما بَلَغْتُ أربع سنين جاءني القطيب - يعني الجدري - وكان سبب كَفِّ بصري به ، فكُفَّ بصري وأنا ابن أربع سنين من القطيب » .

وذكر في غير هذا المجلس أن ولادته كانت بالسبير أيام المحلة . وكان يوماً جاء بالسبير على عادته، وهو يوم الأحد ٢١ ربيع أول سنة ١١٢٨ ، فذكر بكونه موضع ولادته ، ثم ذكر أيام صغره ، وكان إذا ذكر أحوال الصبا يطنب في الكلام ، ويتعجب من تلك الحال ، وكان إذا ذكرها وتكلم وطال به الكلام في تلك المادة ثم سكت ، قال : « الكلام شجون » ، ثم ينشد هذا البيت :

وحَدَّثْتَنِيْ يَا سَعْدُ عَنْهُمْ فَزِدتَنِيْ ... شُجُوناً فَزِدْنِي مِنْ حَدِيْثِكَ يَا سَعْدُ

وأظن أن هذا البيت له[1]، لكونه كثيراً ما يأتي بلفظ سعد في نظمه ، كقوله : « يا سعد سربي نحو

---

(١) ينسب للعباس بن الأحنف .

ربع حبي » ، وقوله : « يا سعد راح الوفاء واهله وراح الجميل » ، « يا سعد قلبي حزين » ، وغير ذلك .

ومما ذكر في مجلسه هذا بالسبير من أحواله في صغره ، **قال** : « **كنتُ قائماً عند جرب مَقَالِد ، أنا والصنو حامد ، تحت عِلِب هناك ، فحذفت العلب بحجارة ، فوقعت في رأسه** - يعني رأس أخيه - **فأدْمَتْهُ ، وقد عندنا في الجهة** - أي جهة حضرموت - **مَثَل يقولون : دواء الحجارة أن تدق له حجارة . فاتفق أن جاء يناديني بعد المغرب ، وكنا في درس ، فأبطيت عليه ، فحذف حجارة فوقعت بي ، فشرد ولحقوه ، فسبحان الله ما حال الصبا وما والاه من الشباب . وكنتُ في أيام الصبا لا أتعامل معاملة من لا يشوف ، لا في مشي ولا في لعب ، حتى إني إذا سرت ما أسير إلا مع أحد ، فإن لم أرَ أحداً دَوَّرت من أسير معه ، ويوم نلعب نلعب أخَلِّي أحد يشوف لي ، وكنت أُجَلِّس عندي أحد حتى لا أُغْلَب** » هـ .

أقول : « **العلب** » : السدرة ، و « **الجرب** » : البستان ، و « **مقالد** » : اسم رجل من السادة المتقدمين، وله مسجد يسمى « مقالد » باسمه ، فمراده بجرب مقالد : يعني بستان المسجد .

ودق الحجارة على حجارة ، ويؤخذ ما انْحَتَّ منها يُعجَن بماء ، ويُطلَى به على فلقة الحجارة ، فإنه دواء مجرب عندهم لذلك ، وقد جربته في صبي أصابته حجارة فبريء سريعاً . وأظن أنَّ سِنَّهُ لما حذف أخاه بالحجارة نحو العشر السنين ، وذلك سنة ١٠٥٤ ، فإنه ذكر أنه اكْتُفَّ بسبب الجدري وهو ابن أربع سنين ، فيغلب على الظن أنه نحو ذلك .

وقوله : « **دورت من أسير معه** » ، أي لئلا يُرَى أنه مائل عن الطريق .

وقوله : « **حتى لا أُغلَب** » ، يفسره قوله : « **لا أتعامل معاملة من لا يشوف** » ، يعني يريد أن يكون في جميع أموره وأحواله في مَشْيِهِ في لعبه مع الصغار وجميع أموره على الصواب والإعتدال كحال من يُبصِر ويرى ، لا يحب أن يكون كمن لا يبصر ولا يرى ، وذلك لطلب نفسه الشريفة الزكية معالي الأمور ، وكراهتها للدنايا من الأمور وسفسافها ، تسديداً له من الله عز وجل ، فإنه قد عَوَّضه الله تعالى عن بصره كمال بصر البصيرة ، وطبعه على طلب معالي الأمور من صغره ، وحال طفولته ، حتى في لعبه إذ ذاك مع الصبيان . وفي لعبه معهم معاني عجيبة ، ولذلك إذا ذكر وقته حينئذ وحاله في ذلك السن أطنب في الكلام ، لما في ذلك من تلك المعاني العجيبة ، يفهمها الذكي اللبيب الزكي الفهم إذا ألهمه الله إياها ، وإلى شيء منها أشار الشيخ عمر بن الفارض رحمه الله بقوله في تائيته الكبرى .

وكان سيدنا مُرَتِّباً قراءة ديوانه عصر يوم الثلاثاء ، وأمر القاريء أن يتعداها ولا يقرأها في مجمع الناس ، وإنما أمره أن يقرأها عليه مرة واحدة وَحْدَهُ فقط في خلوة ، وبعدها أمره إذا وصلها أن يتعداها،

وذلك قوله رحمه الله :

وَلَا تَكُ بِالَّلاهِيْ عَنِ اللَّهْوِ جُمْلَةً ... فَهَـزْلُ الملَاهِـيْ جِـدُّ نَفْـسٍ مُجِـدَّةِ
وَإِيَّاكَ والإِعْـرَاضَ عَنْ كُلِّ صُوْرَةٍ ... مُمَوَّهَـةٍ أَوْ حَالَـةٍ مُسْـتَحِيْلَةِ
فَطَيْفُ خَيَالِ الظِّلِّ يَهْدِيْ إِلَيْكَ فِي ... كَرَى اللَّهْوِ مَا عَنْهُ السَّتَائِرُ شَفَّتِ
تَرَى صُوَرَ الأَشْيَاءِ تُجْلَى عَلَيْكَ مِنْ ... وَرَاءِ حِجَابِ اللَّبْسِ فِي كُلِّ خِلْعَةِ
تَجَمَّعَـتِ الأَضْـدَادُ فِيْهَـا لحِكْمَـةٍ ... فَأَشْـكَالُهَا تبـدو عَـلَى كُلِّ هَيْئَـةِ

وقوله : « وكنا في درس » ، وهو ما كان يُعتاد في الجهة من اجتماع الصبيان عند المعلم بعد المغرب، كل واحد يدرس وحده ما يحفظه من القرآن ، فيالله ما أعطاه الله من الهمة العالية في حال طفوليته وطور صغره ووقت شبابه ، بحيث لا يكون في كل أمر وحال إلا على أكمل حالاته ، ولا يجب أن يُرى قاصراً في أمر من الأمور . فلا جرم بَلَّغَه الله من كل أمور الكمال إلى أقصى غاياته ، حتى بَلَّغَه إلى أعلى مقامٍ في الولاية ، حتى جعله خاتم الولاية - يعني بلغه إلى ختمها - وهو أعلى مقاماتها وهو مقام القطبية ، وفي هذا دلالة بينة على أن من سبقت له من الله العناية بحصول الرتبة العليا يظهر عليه من ذلك عنوان في صغره وحال طفوليته ، وعلامته الهمة العالية في كل الأمور .

وقد قال في ما تقدم عنه من قوله حيث قال : **« من وقت صغر الإنسان يظهر عليه خُلُقُهُ المطبوع عليه ، كما ذُكِرَ أن الشيخ أبابكر بن سالم نفع الله به قَسَّمَ على أولاده وهم صغار قروشاً ، فأعطى كل واحد قرشاً ، ليرى من كل واحد ما يفعل به ، فكلهم لعبوا بقروشه لعبة معروفة عندهم ، من غلب صاحبه أخذ عليه ما عنده ، تسمى : النَّبر ، فكلهم لعبوها ، فأُكِلَ ما عندهم إلا الحسين ، فبعد أيام سألهم : ماذا فعلتم بالقروش ؟ وكلهم قالوا : لعبنا بها ، فأُكِلَت علينا . وسأل الحسين عن قرشه فقال: هو مربوط في ثوبي ، فقال له : أَتَضُم الدنيا وتتحفظ عليها ؟ عاد الدنيا تسقط عليك من فوقك ، أو قال: من السقف . فبينما هو في مجلسه بعد أبيه ، وعنده جماعة جالسين في ليوان ، وعنده ميسمة** - يعني دار مصفوفة ، فيها أوجاب تمر - **فسقط عليه في مجلسه منها وجب من روشن ، فقال : اليوم تَمَّ لنا ما وَعَدَنا به الوالد ، حيث قال : عاد الدنيا تسقط عليك من فوقك ، أو قال : من السقف »** .

وقال سيدنا : **« إن طبع الإنسان الذي ينسب إليه ما هو الغالب عليه »** ، يعني وإن صدر منه خلاف ذلك قليلاً ، فلا يُسَمَّى طبعُه ، وإنما طبعه الذي هو الغالب عليه ، فاعجب كيف في حالة الصغر واللعب يتبين عليه حاله الأصلي .

فالسبير موضع ولادته ومسقط رأسه ومحل نشوءه ، فلذلك كان يراعيه بالتعهد والتردد إليه ، لا يختص ذلك بوقت ، ثم لما أدركه الكبر وغلب عليه الضعف وفتور القوى عن الأول من النشاط والقوة ، جعل يتردد إليه في الأسبوع مرة ، وعَيَّنَ لذلك يوم الأحد ، عادة معتادة يَصِلُ إليه كل يوم أحد ، ومعه تابعوه من أولاده وفقراه والمجاورين ، فيجلس معهم في الضيقة - وهي الدهليز - ويأمر من يقرأ في شيء من كُتُبٍ مما يعتاد قراءته يوم الثلاثاء ، وآخر يقرأ في ديوان ابن الفارض أو ديوان التلمساني ، وهما في مجموع . ويأمر منشداً ينشد ، وبقهوة تُدار ، ثم يختم المجلس بالفاتحة ، ثم يتوضا في البيت ، ثم يمضي إلى المسجد ، وربما توضأ في جابية المسجد ، ثم يركع سبحة الضحى في المسجد ، ثم يركب ويرجع إلى الحاوي .

وتخصيصه ذلك بيوم الأحد خاصة لأمر رآه هو ، وغروب شمس يومه ليلة الاثنين كانت ولادته .

قال : « **بنينا هذا المسجد تتمة لنية الوالد ، لأنه نوى أن يبني في موضعه مسجداً ، وما اتفق له أن يبنيه، فتممنا نيته وبنيناه** » ، يعني لما رأى كأنَّ في موضعه مسجداً ، كما قدمنا ، نوى أن يَبنيه ، فلما لم يتفق له ، بناهُ سيدنا ، تتمةً لرؤيا والده ونيته ، كما ذكر ذلك في مجالسه كما تقدم . ومرة قال : « **تتمة لرؤيا الوالد** » ، ومرة قال : « **تتمة لنية الوالد** » . وهذه عادته في التردد إليه من زمان قديم ، لا يتخلف عن ذلك إلا لعذر ، حتى إنه لما ثقل عن ذلك جعل أحداً من العيال يصل إليه في يوم الأحد ، مكانه مع المعتادين معه ، لِيُحيُوا بذلك مجلسه وعادته تلك ، وذلك لشدة وفائه وقوة اتِّباعه لجده المصطفى ﷺ في جميع عوائده العبادية والعادية والمواظبة عليها ، وهذا غاية الكمال . وفيه تتفاوت أحوال الرجال في كمال محبة الله له ومحبته لله ، لقوله تعالى : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ﴾، فبقدر ذلك تتفاوت المحبة من الجانبين : جانب الخالق لعبده ، وجانب العبد لخالقه .

ففي ميدان المحبة تتفاوت الرهان بتفاوت محبة الخلق لله والإقتداء بحبيب الله ، وتفاوت الجزاء لهم بذلك من الله ، وقد قال : « حب الوطن من الإيمان » ، ولا وطن أحب من موضع الولادة ومسقط الرأس الذي خرجت فيه إلى هذا العالم الدنياوي الذي هو محل التكليف ، ومعرفة العبادة والمعبود ، والترقي في مقامات الشهود ، وإن فتح على أحد بشيء من فتوح العارفين في موضع ولادته زادت محبته له ، وزادت خصوصية تلك المحبة ، ولو كان ذلك غير الوطن ، فكيف إذا كان ذلك في الوطن ، كما قد سمعت من أقوال السادة وأقوال الأكابر ، من التلهف على رؤية محال ومواضع فتوحهم إذا نأوا عنها، كما تسمع من تغزلات الشيخ عمر بن الفارض في مواضع من مكة المشرفة لحصول ذلك له فيها .

كل ذلك لأجل أن فُتِحَ له فيها ، وغيره كذلك ، فإن كان ذلك في الوطن ؛ كان محبته له أبلغ ، لِمَا اجتمع فيه من الأمرين : كونه وطناً ، وكونه موضع فتوحه ، كما قال الشيخ أبوبكر بن الشيخ عبدالله

العيدروس صاحب عدن : « نذرت شافعل إذا شاهدت عيديد عيد » ، يعني نذرت عيداً إن رأيت وادي عيديد ، وهو وادٍ من أودية تريم ، وله في هذا المعنى في نظمه أقوال كثيرة من تَذَكُّرِه لتريم ، وتلهفه عليها وتغزله في أماكنها .

وفي قتل أولئك الفجرة من البادية الحرامية من المناهيل للسيد الجليل علي باجبهان باعلوي عبرة أي عبرة ، وذلك أن الدنيا لما كانت مؤسَّسَة على البلوى والمحن ، للخلق عموماً ، وللمحبوبين عند الله خصوصاً ، سيما أهل البيت النبوي ، كما وقع لسيدنا الحسين وأبيه وأخيه وسائر أهل بيته ، ليوفر الله لهم الآخرة في مقابلة ما نقص عليهم من الدنيا ، ويجعل ما وقع عليهم في الدنيا من المحن زيادةً في ما أعد لهم من الخير . وقد ورد : « مَن أُعطِيَ حَظًّا من الدنيا ، نَقَصَ بقدره من حظه في الآخرة ، ولو كان له عند الله منزلة عالية » ، ويكفيك دليلاً في ذلك وشاهداً ، تجافي النبي ﷺ عنها وتحرُّزه منها ، ولا أحد له مثل منزلته عند الله ، حتى إنه راودته الجبال أن تنقلب له ذهباً فأبى ، ومع ذلك يبيت الليالي المتتابعة طاوياً وأهله ، وأرادته الدنيا ولم يُرِدْها .

ولذلك زهد فيها جميع الأنبياء والأولياء ، وقاسوا شدائدها ومحنها ، وأعرضوا عن لذاتها ونعيمها ومسارها ، وقاسوا مشاقها ومضارها ، فانظر تسلط الظلمة الفجار على المظلومين الأخيار . لكن أراد الله للظلَمَة بذلك ، زيادةً في النكال والعذاب ، وللصالحين كمال الأجر والثواب في الدنيا والآخرة . فختم الله لذلك السيد بالشهادة ، حيث قُتِلَ دون ماله ، وجعل الله ذلك سبباً لموته حين حضر أجله .

وأَفْهَمَ الحديث أن ما نقص من إحدى الدارين زاد في الأخرى .

وذكر ما حصل من الرحمة في الأرض - يعني المطر - *ثم قال* : **« سبحان الله الذي علق الأشياء بالمشيئة ، فقال تعالى : ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ ، فكيف لو علقها بالمحبة ، فلو كان ذلك لما أعطاها إلا من يحب ، وكلُّ بلاءٍ تَتْبَعُهُ رحمةٌ وعافيةٌ ، وهذا بلاءٌ ساقوه ألَّا بأنفسهم إلى المسلمين ، بلا نية وبلا صلاح »** هـ .

أقول : وفي هذا معنى عجيب غاية العجب يُبَيِّن بُعْدَ الفَرْقِ بين صفات الخالق وصفات المخلوق، وأن أفعال الله على وفق مشيئته لا غير ، وقد توافق مشيئته تعالى للخير الدنيوي في من يحب ومن لا يحب ، كما ترى من إنعامه على الكفار والفجار ، بسعةٍ في الدنيا وخَفْضٍ في المعاش ، ويضيقه على من يحب ، وأما مشيئة المخلوق فلا توافق في الخير إلا من يحب ، لا غير ، لمكان الهوى المجبول عليه في خلقته ، وتنزُّه الصفات الإلهية عن مشابهة صفات خَلْقِه .

وأما في الآخرة فتتجرد المشيئة الإلهية بالخير للمحبوبين عند الله ، ﴿قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾، والله سبحانه وتعالى علق أشياء بمشيئته خاصة ، لا تعلق لها بالأسباب قط ، كسعادة من أراد سعادته بلا وسيلة منه استحق بها السعادة ، وشقاوة من أراد شقاوته بلا جريمة منه استحق بها الشقاوة - وهو معنى قوله : « **إن لله نظرات ينظر الله بها من نفسه إلى نفسه** » - أو خيراً أراده لبعض عباده من أهل الخير ، في الدنيا والآخرة - وهو معنى قوله : « **ومن كرمه إلى رحمته** » - أو من أهل الشر أراد له خيراً في الدنيا ، أو شراً في الدنيا والآخرة ، أو شراً أراده لأهل الخير في الدنيا ، كقتل الحسين وغيره من أهل الخير . فكل ذلك مختصٌّ تعلقُه بالمشيئة الإلهية في الأزل دون الأسباب ، ثم وقع في وقته المؤقَّت وبأسبابه الحاضرة ، فإن الأمور المعلقة بالأسباب لا بد فيها بشرط المشيئة لا مطلقاً ولا تفيد فيها إلا بها ، وتُنسَب إلى الأسباب ، لأنها المرئية للخلق والمتعلقة بأفعالهم والمشيئة عنها لا اطلاع للخلق عليها ، وإنما تُعرَف بوقوع الأشياء ، إذا وَقعَتْ عُرِفَت أنها صادرة عنها ، وتعلقت المجازاة بأفعال الخلق ، كما قال تعالى : ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ﴾، ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ ۙ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ﴾، حيث قال واحد منهم : لن نُغلَبَ اليوم من قِلَّة ، ﴿فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْـًٔا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾﴾، فأصول الأمور في حكم إيجادها لا تَعلُّقَ لها بسببٍ ولا جزاء ، بل بمجرد المشيئة ، فإذا كان وقت برزوها تعلقت بالأسباب والمجازاة ، ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ﴾، وأراد بذلك ردًّا على مُنكري البعث ، ومنكري المجازاة على الأعمال ، والمعنى أنه ما قامت السماوات والأرض إلا بالعدل ، وهو أن يُجازى المحسن بإحسانه ، بأن يُجازَى جزاءً حسناً ، ويُجازى المسيء بإساءته ، بأن يُجازى جزاءً سيئاً ، ولو لم يُبعثوا لما كان للفريقين جزاء ، وكانوا سواءً في عدم المجازاة بالأعمال ، وهذا لا يجوز شرعاً ولا طبعاً .

ويُفهم من هذا - حيث ثبت مقابلة العمل بالجزاء على وُفْقِهِ من حَسَنٍ وسيء - معنى قوله : « **وهذا بلاء ساقوه ألّا بأنفسهم إلى المسلمين** » ، يعني أعوان الدولة ، من ظُلْمِهم أقحطت الأرض ، وانقطعت عنهم الرحمة - أي الغيث - وهو المطر المُنبِت للزرع والشجر ، فالأشياء في علم الله متعلقة بالمشيئة مطلقاً ، ثم منها ما لم يكن له سبب من جهة الخلق ، ولا مدخل لهم فيه ، ومنها ما هو بِوُفْقِ المشيئة ، متعلقٌ بالأسباب والأوقات وعليها المجازاة . الأول بمجرد حقيقته ، والثاني فيه مع الحقيقة شريعة في البروز ، والجزاء حقيقة في الحكم والقضاء ، وشريعة في الإيجاد ، والجزاء حيث وُجِدَ بفعل الخلق الموعودين عليه بجزاء ما يعملون ، وخَلَقَ لجزاهم على أعمالهم جنة وناراً هـ .

قال : « حرث السماء يضاهي التجارة في بركته ، فهو أقرب إلى الحل ، وفي قوله تعالى : ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَـٰتِ مَا كَسَبْتُمْ﴾، التجارة ، ﴿وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ﴾، الحرث » .

وسأل عن استهلال الشهر : « هل هو في ناحية دوعن كما هنا بيوم واحد ؟ » ، فقيل : « لا فيه تقديم عندهم » . يعني شوال في تريم بالسبت وهناك بالجمعة ، وذلك سنة ١١١٦ . فلام الناس في تساهلهم في الرؤية حتى اختلفوا والمطلع واحد ، ثم قال : « ما عاد نحن عند شيء ، إنما يتعين عليهم أن يراعوا الأحكام المتعلقة بالأوقات، من العِدَد وتأجيل الديون والنذور وغير ذلك ، فإنَّ بتقصيرهم في ذلك بايحصل التقصير في هذه الأحكام » .

ثم قال : « وأحوالٌ وأمورٌ لو تصورها الإنسان قبل وقوعها ، هل يمكن وقوعها لم يُجَوِّز ذلك ، بل يستبعده ويستحيله ، ولكل شيء حُكمُه ، فإذا تصور الأمور الإلهية فلها حُكْمٌ آخر » هـ .

أقول : قوله « لو تصورها .. إلخ » ، أي لو تفكر في جوازها في العقل ووقوعها ، لا يجوِّز العقل إمكان وقوعها ، ولو أخبَرَ أحدٌ أنه سيقع ، أو أنه وقع ، ما صُدِّقَ في ذلك ، كما سنذكره . ولقد حُكِيتُ بوقوعه فما صَدَّقتُ ، وهو مُصَدِّقٌ لقوله : « لم يُجَوِّز العقل ذلك » ، ومُبَيِّنٌ لقول بعضهم : « إذا أردتَ تعرف العاقل من الأحمق ، فحَدِّثه بالمُحال ، فإن صَدَّقَ به فهو الأحمق » .

وأما قوله : « فإذا تصور الأمور الإلهية فلها حكم آخر » ، يعني لها حكم آخر يخصها ويلزمنا فيها التصديق ، لما رأينا من وقوعها على خلاف العادة المألوفة ، كخَلْقِ آدمِيٍّ من غير أبٍ كعيسى ، ومن غير أبوين كآدم ، وفي أمور لا تحصى . ويلزمنا في كل أفعال الله الرضا والتسليم لحكم الله بوجودها وإرادته ذلك ، فننطرح لذلك ونُسَلِّم ولا نعترض . وأما ما بينا فيلزمنا اتِّباع الحكم الشرعي ، مِن إنكار المنكَر وتقرير الحق ، وهو معنى قوله : « فإذا تصور الأمور الإلهية فلها حكم آخر » ، فمنها كُلُّ ما عُرِضَ على العقل فحَكَمَ العقلُ باستحالته واستبعاده ، فإذا عرضناه على فعل الله وإرادته فإن العقل يجوِّزُه ولا يستبعده ، فلله خرق العوائد ، كما ترى من خوارق العادات في المعجزات والكرامات وغيرها من جميع ما ترى من أفعاله سبحانه التي يعجز عن إدراكها العقول ، وإنما المحال في الجاري من الخلق .

ومن المحال من الأمور المحالية الواقعة في هذا الزمان ، أن في سنة ١١١٦ رؤي القمر من شرق ، صبح اخر يوم من شعبان رؤية مُحَقَّقَة ، رآه عدد التواتر من الناس ، فلما كان الليل شهد عند القاضي اثنان من الحاكة أنهما رأياه ، فَحَكَم برؤيتهما ، وأثبت دخول شهر رمضان وأصبح الناس صائمين .

فلما كان آخر رمضان رآه جماعة في الصبح ، وشهد أولئك الشاهدان عند القاضي برؤيته وقت المغرب ، فَحَكَمَ برؤيتهما وثَبَّتَ الشهر ، وأصبح الناس مفطرين ومُعَيِّدين ، وسيدنا ما أفطر ، وأَمَرَ

أهله وفقراءه بإتمام الصيام .

وثاني ليلة تَطَلَّعَ لرؤيته نحو ستة رجال ، وفيهم سادة طلبة علم وغيرهم ، وكلهم قالوا : « هو هذا بلا شك ولا ريب نراه » ، حتى قالوا : « لو أردنا نحلف بالطلاق أنه هو هذا » ، وأنا أنظر معهم وما رأيتُ شيئاً ، ثم في ثاني ليلة نظرتُ وما رأيت شيئاً ، فدَعَوتُ أولئك الستة ، قلتُ : تعالوا انظروا. فأتوا هم وغيرهم وجعلوا ينظرون ، وأمعنوا النظر ، فلم يروا شيئاً . فقلت لهم : أين ما زعمتم البارحة أنكم رأيتموه ؟ وهذه ليلة ثالثة من إفطار الناس ، وليس هناك ما يستره ، بل الجو صاف لا كدورة فيه .

فلما كان الليلة القابلة ، وهي الرابعة من إفطار الناس ، وإذا به يُرى هلال وفا ، وكل من حَدَّثتُه بذلك استَمْحَله ولا صَدَّقَ به ، وهذا هو مراد سيدنا بقوله : « **أمور وأحوال لو تصورها الإنسان قبل وقوعها ، هل يمكن وقوعها بم يجوِّز ذلك بل يستبعده ويستحيله .. إلخ** » ، وقد حكيت به فما صدقت.

وسبب ذلك الإختلاف في آخر الشهر رمضان ما وقع من الإختلاف في دخوله ، فإن التفاوت ما بين رؤيته صباحاً ورؤيته مساءً قدر ذلك ، فعند ذلك يدخل هذا في العقل ويتبين به خطأهم في رؤيته دخولاً وخروجاً ، وإنهم بذلك صاموا شيئاً من شعبان ، وأفطروا شيئاً من رمضان ، نعوذ بالله من الإشتباه في الدين ، واتباع غير سبيل المسلمين .

وليس العجب من خطأ عوام جُهَّال ، يغلب عليهم الخيال ، وليسوا بأثبت من أولئك الستة الفقهاء والسادة الفضلاء ، وإنما العجب من القاضي القائم في مقام الحكم ، كيف لا يثبت بالبيان والسياسة على ما قدمنا من قول سيدنا من كون السياسة تخدم الشريعة ، يعني تحكم الحكم الشرعي فَتُبَيِّنُه وتُوَضِّحُه ، كما قدمنا بيانه . وأكثر شغل سيدنا وتشوش خاطره من أحوال الناس ، مما فيه تغير الأحكام الشرعية ، كهذا المذكور وأمثاله ، كما ترى في هذا النقل كثيراً من أقواله في ذلك .

ودخل عليه السيد زين العابدين العيدروس معاوداً في عيد شهر رمضان سنة ١١٣٠، وكان مع سيدنا حُمَّى – وهو مرضه الذي حصل عليه في هذا العام – فقال سيدنا له : « **الحمد لله حصلت العافية – أو : العافية حاصلة – وإنما هي حُمَّى خفيفة ، قد كنتُ أحْسَسْتُها ، ولكن كنت أخفيها ، قلت إذا أظهرتها تبقى لها صورة . وإذا كان الإنسان يروح ويجيء ويقيم صلاته ، ولو معه أمراض خَفِيَّة، ما يخالف ، وإنما المرض ما أقعد الإنسان ، وقد لي نحو سنتين ما أصلي إلا وأنا ماسك بالحائط من سنة ١١٢٧ ، ومنذ مكثتُ في الدار لا أخرج** – أي بسبب الحمى في أيامه هذه وابتداؤها به يوم ٢٧ من رمضان – **أُصَلِّي جالساً واستَرَحْتُ بذلك . والعافية من الله سبحانه ، والعبد ضعيف ، وفي بعض**

الأحاديث أن النبي ﷺ جعل يَصِفُ الحُمَّى لرجل ، ثم قال له : أتريد أن أزيدك من وصفها ؟ فقال : لا ، لو لم يكن إلا ما ذكرتَ - أو قال : يكفيني ما ذكرتَ - » هـ .

أقول : ومن قوله : « الحمد لله » ، إلى هنا قوله : « ما ذكرت » ، يخاطب به السيد زين العابدين يحكيه له ، ولما كان به الحمى في ذلك الوقت كان معي أيضاً حُمَّى مُتعِبة ، وكان نفع الله به مع ما به من المرض كثير التحنن عليَّ في تلك الحالة والسؤال عني . ورأيت وأنا في أشد ما أكون من الحمى ، وكان معي منها في تلك الساعة شدة عظيمة ، فرأيت كأني حامل سيدي على ظهري وأمشي به سائراً ، إذ اعترضني في طريقي نوف مرتفع ، وأردت أن أصعده به فلم أقدر ، فحاولت الصعود مراراً وعالجته ، حتى تبين لي سن في ذلك المكان المرتفع ، فقبضته بيدي وتعلقت به ، حتى صعدت ذلك النوف وسيدي على ظهري ، ثم سرت أمشي به . ثم انتبهت ، وإذا أنا أجد من الحمى خِفَّة ، ثم من يومي ذلك وَجَدْتُ ووَجَدَ أثر العافية ، ثم حصل له ولي تمام العافية بعد قليل بحمد الله .

ودخل عليه في مرضه هذا جماعة عايدين له ، فبعد ما اطمأن بهم المجلس ، **قال** : « **الحمد لله ، العافية حاصلة ، وعافية الكبير ألَّا على قدرها - أي ضعيفة - ولو هو ألَّا من حيث الشواغل ، ولو أراد شيئاً أو أراد أحدٌ منه شيئاً ، وشيء من الشواغل من حيث الحقيقة ، وشيء من حيث العادة** » هـ .

أقول : قوله يعني عافية الكبير ضعيفة ، والشواغل تزيدها ضعفاً ، ولو كان بتمام العافية وحصل له ما يشغله ، يُرى كأنه مريض وأدنى شيء يشغله ، ولو هو إلا إذا أراد أو أريد منه يشتغل ، فكيف بما وراء ذلك من المشغلات .

قوله : « **وشيء من حيث الحقيقة** » ، وهو الشغل الذي لا يُعلم له سبب ، بل شغل يجريه الله في خاطر من أراد له لا يعلم له سبباً ، « **وشيء من حيث العادة** » ، أي ما يعلم له سبب مشغل في العادة .

وسأل سيدُنا رجلاً من الذين يقرأون في الليل في مسجد السقاف : « **متى تقوم لقراءة السدس ؟** » .

ثم قال : « **ومع الكِبَر الإنسان لا يستوفي نوم الليل كله ، ولا أكله كله ، وقد يكون ذلك إما لِكِبَرٍ أو لعادة ، والشاب لا يكفيه ذلك ، بل يريد نوم الليل كله ، وينام في النهار ، ويأكل أكثر من العادة - أي عادة الأكثر من الناس - . وقد قيل : إن خَلَّاك الموت ، ما خَلَّاك الكِبَر . والحاصل إن الدنيا دار عقوبة منذ خلق آدم ، فبقي ذلك في ذريته ، خَلَقَهُ للمثوبة فراح يدوِّر العقوبة ، وإلا فما أحد يخالف الحبيب ويطيع العدو ، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ۝ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾** » هـ .

أقول : تقدم لنا أن لله سبحانه مراد في ما أراد ، ولا يكون في ملكه إلا ما أراد ، مما ظاهره امتثال الأمر أو ما ظاهره مخالفة الأمر ، وأنه تعالى إذا أراد من عبد شيئاً من طاعة أو معصية ، جَرَّتهُ كلاليب القَدَر ، إلى ما أراد سبحانه من عبده من الأمرين جميعاً ، فقد يظهر سر مراده في ما أراد ، وقد لا يعلم سرَّ مراده سبحانه إلا هو . ففيما ظهر من سر مراده تعالى في معصية آدم ، إن الله تعالى إنما خلقه ليعمر به الأرض ، كما قال تعالى : ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، ثم إنما خَلَقَهُ وأنْبَتَهُ في الجنة ليبقى مشتاقاً إليها إذا خرج منها ، فيتسبب في الوصول إليها ، ويعمل ما يوصله إليها من العبادة والطاعة .

ثم إن الله سبحانه أراد أن يُخْرِجَهُ منها إلى الأرض التي خُلِقَ لعمارتها ، لما حضر وقته الذي أجَّلَه لخروجه من الجنة إلى الأرض التي خُلِقَ لعمارتها ، فأجرى ذلك الخلاف ليكون سبباً لإخراجه ، وحُجَّةً عليه في ذلك ، وعقوبة له عليه ، لأن الله سبحانه لا يأخذ إلا بحُجَّة ، كما تقدم ذلك من قول سيدنا، وإذا أراد الأخذ لعبد أجرى عليه الحجة لذلك ، كما إذا أراد لعبد المثوبة أجرى عليه سببها الذي هو حجة في ذلك . فلا تكون المثوبة والعقوبة إلا بإرادته ، وإذا أراد سبحانه ذلك أجرى له الحجة بارتكاب سببه الذي جعله جزاءً عليه من مثوبة على الطاعة أو عقوبة على المعصية ، وإرادته في ذلك قديمة سابقة للسبب ، والسبب حادثٌ ، حجة للجزاء على ذلك .

فإذا أراد لعبد المثوبة أجرى عملها – الذي هو سببها – عليه ، وأعقبه على ذلك مع المثوبة المدح والثناء على الطاعة ، ويعاقب ويذم بما فعل من سبب العقوبة الذي هو المعصية ، والإلجاء إلى الأمرين من الله سبحانه ، ليتم مراده ووعده الذي لا يخلف ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴾، ﴿ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ﴾، ﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾، لكن من باب الأدب أن ينسب الجميل إلى الجليل، وينسب القبيح إلى الشحيح – أي الآدمي – وفي الحديث : « والخير كله في يديك ، والشر ليس إليك» هـ .

قال : « **الدنيا دار عقوبة** » .

أي ما يقع على الإنسان فيها من المكاره ، وبما يجري عليه فيها من أسباب مكاره الآخرة ، كما جرى مثل ذلك على آدم ، فكان ذلك إرثاً في ذريته ، لكن تاب فتاب الله عليه ، فكان ذلك أيضاً إرثاً منه في ذريته ، كما قال : « **ما وقع لآدم كان إرثاً منه في ذريته** » ، يعني من المعصية والتوبيخ عليها كما في القرآن ، ثم التوبة . وفي لسان الحال من آدم وطلب الجنة بامتثال أوامر الشريعة واجتناب نواهيها ، أشار سيدنا

في قصيدته الرائية : « **يَا أَيُّها الروحُ هَل تَرضى مُجَاورةً .. إلخ** » .

ودخل على سيدنا السيد حسن الهندوان مُقبِلاً من مِشْطَة بأسوكة ، فوضعها بين يديه ، **فقال** لي : « **أتطيق تقسم الأسوكة ؟** » ، يعني على الجماعة الحاضرين .

قلتُ : نعم . فأعطانيها ، فاشتَغَلْتُ بتقسيمها عن سماع باقي كلامه ، وإنما قال لي : « **أتطيق تقسم الأسوكة ؟** » ، لما معي من المرض ، كهو أيضاً .

ودخلوا عليه مرة أخرى عايدين له في مرضه المذكور ، وكنت أيضاً معي حُمَّى كما هي معه ، وما تَعَوَّقْتُ بسببها عن حضور مجالسه ، من لطف الله وكرمه ، فدخَلْتُ عليه مع الجماعة الداخلين عليه ، فلما صافَحْتُهُ وقَبَّلْتُ يده ، **قال** : « **عساك أَشْكَلْ ؟** » ، أي أهون .

فقلت : أنا بخير ببركتكم ، **فقال** : « **مسيكين الحاج – يعنيني – وكلنا ذلك المسكين** » ، ثم قرأ هذه الآية : ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْآفَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ۝٥٣ ﴾.

ثم ذكر هارة شديدة حصلت سنة ١٠٣٠ – يعني وباءً شديداً – ، **قال** : « **ما أُحصِيَ من مات فيها لكثرتهم ، وفيها مات الشيخ أحمد بن الحسين العيدروس** » ، ولم يدركها سيدنا إنما أخبر عن ما سمع عنها ، فإنها قبل ولادته بنحو أربعة عشر سنة ، وكما ترى ما بين ذلك وبين تاريخ ولادته .

ثم **قال** لي : « **تطيق تنشد ؟ هات ما تيسر ولو سبعة أبيات** » ، فأنشدتُ بقصيدته :

لِجِـيْرَانٍ لَنَـا بِالأَبْطَحِيَّـة ... بَعَثْتُ مَعَ النُّسَيْمَاتِ التَّحِيَّة

وبعد فراغي من القصيدة قرأ الفاتحة ، ثم دعا ، ثم خرجوا .

ودخلوا عليه مرة أخرى بعد هذه ، فلما فرغوا من المصافحة ، جعل يتكلم في رؤيتهم الشهر ، ويخطِّيهم فيها ، **فقال** : « **تمضي ثلاثة أشهر ما خرجوا يشوفونه ، فإذا كان شهر فيه لهم أكل ؛ خرجوا له ، والناس ما هم في ما يتعلق بذلك ، فلا فرق في أكلة تأخرت أو تقدمت ، وإنما الحرج فيما تتعلق به الأحكام من الأشهر ، كمدخل رمضان وخروجه ، وشهر يوم الحج ، وكذلك العقود والأنكحة والعِدَد وغير ذلك . وهم عَمَّال يدوِّرون الإشكالات ، الإشكالات ماهي في الدين ، كيف يشهدون به**

ولا يُرى ثاني ليلة ، وقد لا يُرى ثالث ليلة ، كيف يكون ذلك ؟ ورؤيته يحتاج معها إلى معرفة حساب وهندسة ، ليعرف محل النظر إليه ، ويعرف إمكان رؤيته . ولكن هذا الزمان ما سكت ولا خلى أحداً يتكلم ، إن سكت ما صبرت ، وإن تكلمت ما لحقت أحداً يقبل ، كالذي يضرب بالفأس على حجر . وما معك من الزمان اليوم إلا كما يُحكَى عن رجل كان ينظر إلى أمردٍ حَسَن وهو في الطواف ، فما دَرَى إلا بضربة جاءته في وجهه ، فقال : آه . فقيل : اسْكُتْ وإلا جاءتك أخرى . فما لهم إلا مثل هذا ، ولو كان ذلك إلا من سلطان قاهر ، وتسهنه أن تَثْبُتَ رؤيته بالإثنين من غير اشتباه ، وأن تكون الأمور صالحة ، والفتن ساكنة ، والشر منطفي » .

ثم أمر منشداً ، فأنشد بقصيدة الخلي التي امتدحه بها ، التي أولها :

قِفْ بِالمطيِّ عَلَى الحِمَى يَا حَادِيْ   وَاقْرَا السَّلَامَ أُهَيْلَ ذَاكَ الْوَادِيْ

فلما فرغ أمرني بتفرقة أسوكة ، وقال : « أعطهم على واحد واحد » ، فجاءت على عددهم كذلك ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا ﻫ .

أقول : قوله : « كيف يشهدون ولا يُرى ثاني ليلة ، وقد لا يُرى ثالث ليلة » ، يُؤيِّد ما قَدَّمْنا مِن ذِكْرِ ذلك الإختلاف الفظيع الذي ما يدخل في العقل ، ولا يُصَدَّقُ به من سمعه ، الواقع في تريم في رؤية هلال فطر سنة ١١١٦ ، فإنه ما رُئِيَ ثالث ليلة ، وإنما رُئِيَ ليلة رابعه ، مثل هلال الْوَفا .

وقوله : « تسهنه » ، أي ترجوه . يعني هلال ذي الحجة من سنة ١١٣٠ ، فثبت كذلك بالإثنين من غير اشتباه كما رجاه ، فحقق الله رجاه ، وكذلك ما رجا من صلاح الأمور وسكون الفتن . والمثل بالضربة الذي ذكر أشار به إلى حلول عقوبة الله بمن عصاه ، حيث لا أحد يأمر بالمعروف ولا أحد ينكر المنكر ، ولا سلطان يقيم أحكام الله ، فالقدرة تعمل عملها كما قيل : « الله يستوفي لنفسه» ، وإنما وعد بذلك في الآخرة ، وإنما قد يعجل منه في الدنيا إذا كان في الأمر مبالغة ، وذلك واقع في الخير والشر . فشأن الذي يطوف وهو في هذه العبادة كما في الصلاة ، فخلطها بنظره إلى الأمرد وهو فيها ، فمعصيته بليغة فيها ومبالغة شديدة ، فاستحق الضربة ، وكذلك في المبالغة في الطاعة ، حتى سبق درهمٌ واحدٌ عند الله مائة ألف درهم ﻫ .

*

ثم دعا سيدنا الجماعة للدخول عليه ، وقد حشدوا راغبين في الدخول عليه ، وذلك عشية يوم التروية ثامن ذي الحجة يوم الاثنين ، فدخلوا عليه ، فلما اطمأن بهم المجلس جعل يتكلم ، وكان كلامه كله تنفس وتروح ، كالفاقد للشيء ، لفقده لمجالسه المعتادة وتعطشه لها ، ولجريان المذاكرة له فيها بعد

انقطاعها ، وفيه شاهد لما قيل : إن مرضه هذا هو مرض موته ، وأن هاتين السنتين اللتين عاشهما بعد ذلك إنهما كان وهبهما لحسين بافضل وهما آخر عمره ، لكن ردهما الله عليه تتمة لتمام عمره المكتوب له، فهما له قضاء حتماً ، وزيادتهما منه لبافضل قضاءً معلقاً ، فجرى المحتوم ومُحِيَ المعَلّق ، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾، كما وقع له نظير ذلك عندما مرض حسين ، وطلب له من الجماعة أن يُعطِيَه كلٌّ منهم مِن عُمُرِه شيئاً ، فأعطَوهُ ، وأعطاه هو هاتين السنتين ، وكتب الجميع في ورقة ، ثم توجه هو بالورقة في المواجهة ، قبالة وجه النبي ﷺ ، فحصل له شبه الغَيْبَة ساعة ، ثم سُرِّيَ عنه، ثم قال ووجهه يتهلل سروراً : « **قضى الله الحاجة واستجاب** ، ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾» .

وعاش المدة الموهوبة له ، وأن سيدنا أشار بعد تمامها وهو بتريم أن حسين يموت في هذا العام ، كذا ذكر صاحب « المشرع الروي » في ترجمته ، كما وقع مثل ذلك كما تقدم في المواجهة للسيد محمد بن علوي السقاف من الغَيْبَة ، لمَّا أمره النبي ﷺ أن يكتب لسيدنا كتاباً ، ويرسل له بالخرقة ، وأن يكون هو خليفته ، وإنما تهلل وجهه سروراً ، فَرَحاً بتدبير الله سبحانه له ذلك التدبير العجيب ، وانشرح لذلك خاطره ، وحُقَّ له أن ينشرح ، نفع الله به في الدارين .

فمما تكلم به في هذا المجلس المذكور يوم التروية ، وما نسيتُه أكثر ، وهذا أيضاً على مقتضى ما حفظته مع ضعف حفظي وركاكة فهمي ، بعدما صافحه مع الجماعة صبي فسأله من هو ، فأخبره ، *فقال* له : « **بارك الله فيك** » ، *ثم قال* : « **إن بعضهم قال : ينبغي إذا أراد أن يقول لأحد بارك الله فيك ، أن يقول : بورك فيك . لئلا يكثر ذكر اسمه تعالى في كل لفظ ، وفي كل محل غير لائق ، فيكون فيه شِبْه الإخلال بالحرمة ، وكذلك الإتيان به في الألفاظ المذمومة كأخزاك الله ونحو ذلك ، إذا تكرر الاسم الشريف فيها يخل بالتعظيم الإلهي ، ويعرف ذلك من حيث العلم الذوقي أو العلم الكشفي ، ولكن لا يفهمون بكثرة التعليم ، وقد تَعْوَجُّ الألفاظ في أَلْسِنَةِ العامَّة فيقلبونها ، ولا أحد ينكرها عليهم ، فيحتاجون إلى تعليم . وقد جاء رجل إلى عند النبي ﷺ ، فقال : عليك السلام يا رسول الله . فقال ﷺ : عليك وعلى أمّك . الحديث . وألفاظ كثيرة لكثرة الإعتياد ما يحس الإنسان إلا وقد وَضَعَها في غير محلها بحكم الإعتياد ، كألفاظ الطهور والخلاء ، وقد يقع لي أنا هذا كثير** » .

قوله : « **من حيث العلم الذوقي أو العلم الكشفي** » ، الذي يظهر أن « **العلم الذوقي** » : ما يُلقِيه اللهُ في بعض القلوب ، من كونه أَخَلَّ بالحرمة بذلك ، فيقع في قلبه بسبب ذلك حياءٌ من الله وتأسُّفٌ من ذلك ، وهذا قد يكون من غير تَعَمُّلٍ وتكَلُّفٍ . و « **الكشفي** » : ما يَكشِفُ اللهُ لأهل الكشف من معنى ، أنَّ في ذلك خللاً في الحرمة ، من غير ما سمعه من قبل .

والحاصل أن الأمور الذوقية لا تُعرَف بالتبيين كما ذكر ذلك ، وإنما تُعرف لمن ذاقها ، كما قال : « إن الله لا يدع المؤمن في الخير من إحدى همتين : إما همة العادة ، أو همة الفتوح ، ويعرفها من ذاقها » .

ومَن قَلَبَ الكلام عن ترتيبه ، بتقديمٍ وتأخير ، كهذا الرجل الذي قال : « عليك السلام » ، فقد اعْوَجَّ هذا اللفظ في لسانه ، فلذلك أنكر النبي ﷺ عليه بقوله له : « وعليك وعلى أمِّك » . فلو رتب القول فقال : « السلام عليك يا رسول الله » ، لكان قد رتب الكلام وأتى به على وجهه ، وَرَدَّ عليه جواب سلامه .

قوله : « وقد وقع لي أنا هذا كثيراً » ، يعني أن من كثرة مواظبته على الأذكار الواردة ، المختلفة باختلاف محالِّها ، واختلاف الأحوال الواردة فيها ، قد يأتي بِذِكْرِ موضعٍ في موضعٍ آخر غير موضعه ، فكثيراً ما نسمعه إذا دخل البيت يأتي بأذكار دخول المسجد ، ومثل ذلك هـ .

قال : « **ينبغي أن يَحتَرِمَ الإنسانُ جانب الربوبية أوَّلاً ، ثم جانب النبوة ، ثم جانب العلماء العاملين، ثم جانب أولياء الله ، لأنهم خاصَّتُه ، ولا يعترض على أحد ويخصِّصه ، والإمام الغزالي مع كثرة ما اعتَرَضَ على علماء السوء لم يُخصِّص أحداً بِذِكْر** » .

وذكر أشغال الدنيا وكثرة استغراق الناس فيها ، *فقال* : « **إتِّباع أمور الدنيا هي قولك : با أفعل كذا أو أفعل كذا ، فهذه هي الشُّعَب ، شُعَبُ الدنيا التي من تتبعها لا يبالي الله به في أي وادٍ من أودية جهنم أهلكه ، ولكن إنما هي أقوالٌ تَتْبَعُها أوهام ، وتتبعها الأعمال ، وأهل الزمان يريدون صبراً** » .

وذكر صبر أهل العلم على العامة ، *فقال* : « **وأهل العلم والدين يصبرون ، وذلك شَرْطٌ ، وقد يكون إما ابتلاء أو طلب فائدة . فالإبتلاء كمن يُبتَلى بأحدٍ سيِّء الخُلُق ، في جامعٍ ، أو مجلس تَعَلُّم ، أو صحبة سفر ، كما في قصة الرجل الذي صحبه في سفرٍ رجلٌ سيِّء الخُلُق ، فجعل يصبر عليه مدة ما هو معه ، حتى إذا فارقه جعل يبكي ، فقيل له : ما يبكيك ؟ فقال : أبكي على صبري عليه مدة ، ثم فارقني وبقي خُلُقُه معه** » .

ثم قال : « **وفي قولهم : إذا ضاق الأمر اتَّسع . هو أن الله هو الذي يُضَيِّقه ، وهو الذي يُوسِّعه ، ماهو أنت . فإذا ضَيَّقْتَه من حيث الأعمال ، فاذهب إلى أهل العلم يُعَرِّفُونك . وقد قال بعضهم في المعاملات: معاملة الحق بالحقيقة والسُّنة ، ومعاملة الخلق أيضاً بالحقيقة والسُّنة . ومثَّلوا الذلك بقصة صاحب الدَّيْن الذي جعله في الخشبة ورماها في البحر ، ثم بعد ذلك سافر إليه بدَينِهِ ، فهذا عمل بالحقيقة والشريعة . ومعاملة الحق بالحقيقة فقط ، ومثلوا له بحال أصحاب الغار الثلاثة - بِتَوَسُّلِ كل منهم بأصلح ما عَلِمَ**

من عمله الصالح - في انطباق الصخرة عليهم ، ومعاملة الحق والخلق بالسنة . وأما الذي يعامل الخلق بالظلم فلا تبالي بما يقع له ، فإنه لا يموت مستور الحال - أو قال : مستوراً بحال - لتهاونه بأخذ أموال الناس » أو كما قال ه .

أقول : انتهى ما تكلم به في هذا المجلس يوم التروية من هذا الكلام البديع ، وقد اختلفت فيه أفهام الجماعة السامعين له ، فاختلف فيه حفظهم ، واختلف بسببه تعبيرهم بحسب اختلافهم في فهمه. وهذا على ما فهمتُه وحفظتُه أنا ، بل ما أحد حفظه ولا نقله .

وأرجو من الله التسديد والتأييد والتوفيق للصواب في الفهم والحفظ والتعبير باللفظ المسموع الذي نطق به بلفظه بالفاء والواو - ومعناه ذِكْر الحرفين كذا يعني حرفاً بحرف ، بلا اختلاف بزيادة أو نقص ، أو إبدال لفظ بلفظ أو إبدال حرف بحرف - كذا ذكره ابن أبي جمرة الأندلسي رحمه الله .

والتمثيل بصاحب الدَّين تمثيلٌ للمعامَلَتَيْن : معاملة الحق ، ومعاملة الخلق ، بالوجهين جميعاً الحقيقة والسنة ، حيث طلب منه كفيلاً ضامناً ، فكفل له الله فقال : « كفى بالله كفيلاً » ، فرضي بذلك وطلب منه شهوداً ، فأشهد له الله وقال : « كفى بالله شهيداً » ، فرضي بذلك .

فهذا معاملة الحق بالحقيقة ، وأكَّدَ كفالة الله وشهادته أن لا يخيس بذلك ، وكان الوفاء بينهما إلى أجل معلوم ، فلما قرب الأجل اجتهد في إيصال المال إلى صاحبه عند تمام أجله ، وكان البحر يجري من بلاد الآخذ إلى بلاد المُعطي ، ساقياً وجازراً ، والمسافر يتردد بينهما براً وبحراً ، فما رأى حينئذ مسافراً في أحدهما . فلما لم يجد من يرسله معه ، نَقَرَ الخشبة وكتب له ورقة ، وألقاها مع المال في الخشبة، وطرح الخشبة في البحر معتمداً على الله في وصولها إليه ، وهذا معاملةٌ منه لصاحبه بالحقيقة . أيضاً إن الله سبحانه عامله على حُسْنِ نيته ، فحفظ المال وأوصله إلى صاحبه ، فهذا معاملة لصاحبه بالحقيقة ، وذلك معاملة لله بالحقيقة ، ومعاملة لصاحبه بها أيضاً . ثم إنه ما رضي بذلك من حيث السنة - أي الشريعة - حتى وصله بالمال طلبا لبراءة ذمته شرعاً ، وإتماماً لشهادة الله وضمانه ، فهذا معاملة لله بالسنة التي هي الشريعة ، ولصاحبه بها أيضاً .

فالكل شريعة وحقيقة ، ومعاملة بهما لله ، ولصاحبه وصاحب الدَّين عند حلول الأجل ، قال لرجل عنده : « هلم نمشي إلى ساحل البحر ، لعلنا نجد من يأتينا بمالنا من عند فلان » ، فما وجد أحداً، ورأى خشبة تجري بجري الماء ، فقال لذلك الرجل : « ائتني بها نأخذها حطباً للقدر » ، فأتاه بها ، وذهبا بها إلى البيت ، فكسَّرها حطباً ، وإذا بدراهمه مع الورقة في وسطها ، فأخذها وفي الورقة مكتوب ما معناه : « لما حَلَّ الأجل طلبتُ مسافراً أبعثُ معه بمالك ، فما وجدتُه براً ولا بحراً ، فنقرت هذه الخشبة ، وألقيتها في البحر على رجاء وصولها إليك » ، ثم بعد أيام جاءه بماله ، فلما جاءه به قال: «

أَمَا أرسلتَ إليَّ مالاً في خشبة ؟ » ، قال : « بلى » ، قال : « فَلِمَ تُعطِني هذه ؟ » ، قال : « خوفاً أن لا تكن وصلتك تلك ، فخذ هذه لتبرأ ذمتي من مالك ، ووفاء لشهادة الله وكفالته » ، فأبى من أخذه ، وقال: « مالي وصلني ، وبرأتْ منهُ ذمتك » ، وعالجه على أخْذِهِ فلم يأخذه ، فلو كان ذلك مع أحد من أهل زمانك هذا ، ممن ليس من أهل التقوى – وهم الأغلب اليوم – لأخذ الثاني ولم يعبأ بأخذ الأول، فانظر أمر التقوى ما أعجبه ، وما أحسن شأنه ومحله عند الله وعند خلقه ، وكيف القدرة الإلهية والمشيئة الربانية تساعد العبد ، وتخرق له العادة ، حيث يتحقق بالتقوى والإستقامة .

واعْجَبْ من شأن هذين ، حيث تراضيا بكفالة الله وشهادته ، واجتهد الآخذ أن لا يختلف على صاحبه عند حلول الأجل ، وأن يقوم بتمام شهادة الله وكفالته .

و مثَّل لمعاملة الحق بالحقيقة فقط بأصحاب الغار الثلاثة ، حيث إنهم ما طلبوا حاجتهم إلا من الله، ولا لهم سبب حسي ينفع في ذلك ، إلا عمل صالح يرضي الله ، فهو مجرد حقيقة لا تعلق له بالخلق، ومعاملة الحق والخلق بالشريعة ، وهي المراد بالسنة المذكورة ، فشأنها معروف لا يحتاج إلى تمثيل ، فلذلك لم يُمَثِّل له .

وقوله في من يعامل بالظلم : « **لا تبالي بما يقع له** » ، أي لا تلتفت إليه ، ولا ترق عليه مما يقع به وينزل عليه ، فإنه كما قال : « **لا يموت مستور الحال** » .

ولقد والله رأينا مصداق قوله في أناس ممن أخذ أموال الناس بلا نية الوفاء ، لقد عميوا فكُفَّت أبصارهم أوَّلاً ، وافتقروا وذاقوا شدةً من الأذى والبلاء ، ثم ماتوا على أخس حالة ، مصداقاً لقوله « **لا يموت مستور الحال** » ، وما يُدرى بِمَ ذا خُتِمَ لهم .

وأما من أخذ بنية الوفاء ، فإن الله تعالى وَعَدَهُ على لسان نبيه بالوفاء ، كما قال ﷺ : « من استدان دَيْناً وهو ينوي أداءه ، أدَّاه اللهُ عنه في الدنيا والآخرة » ، فأداءه في الدنيا أن ييسر الله له ما يوفي به ، وأداءه في الآخرة أن يرضي عنه خصمه . وقد كانت ميمونة زوجة رسول الله ﷺ لا تترك نفسها سالمة من الدَّيْن ، وكلما أوْفَت استدانت ، فقيل لها في ذلك ، فقالت : « لا أُحِبُّ أن أخْلُوَ من ضمان الله – أو قالت : من نظر الله لحظة – لأني سمعت رسول الله ﷺ يقول : من استدان ديناً وهو ينوي أداءه فهو في ضمان الله – أو نظر الله – » هـ .

قال رضي الله عنه : « ارفع رأسك إلى ربك وعامِلْهُ ، ولا تُقَصِّر إذا قَصَّر عنك الخلق ، فتكون إنما أنت معامل لهم ، واصفح عن تقصيرهم ، وإن كان يجوز لك مقابلتهم بذلك ، فقد سماه الله سيئة في قوله تعالى : ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَا﴾ » ، وتقدم هذا بما عليه من الكلام .

وأحببت أن اذكر هنا لفظ حديث صاحب الدَّيْن المتقدم ، لتمام ذكر المعاملة مع الخالق ومع الخلق، وهذه رواية البخاري : « عن أبي هريرة عن رسول الله ﷺ قال : إن رجلاً من بني إسرائيل سأل بعض بني إسرائيل أن يُسْلِفَه ألف دينار ، فقال : ائتني بالشهداء لأشهدهم ، فقال : كفى بالله شهيداً، قال : ائتني بالكفيل ، قال : كفى بالله كفيلاً ، قال : صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى ، فخرج في البحر فقضى حاجته ، ثم التمس مركباً يركبه يقدم عليه للأجل الذي أَجَّله ، فلم يجد مركباً ، فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة منه إلى صاحبه ، ثم زَجَّجَ موضعها ، ثم أتى بها إلى البحر فقال: اللهم إنك تعلم أني تسلفت من فلان ألف دينار ، فسألني كفيلاً فقلت : كفى بالله كفيلاً ، فرضي بك ، وسألني شهيداً فقلت : كفى بالله شهيداً ، فرضي بك ، وإني جَهَدْتُ أن أجد مركباً أبعث إليه الذي له فلم أقدر ، وإني استودعكها .

فرمى بها في البحر حتى ولجت فيه ، ثم انصرف وهو في ذلك يلتمس مركباً يخرج إلى بلده ، فخرج الرجل الذي كان أسلفه ينظر لعل مركباً قد جاء بماله ، فإذا بالخشبة التي فيها المال ، فأخذها لأهله حطباً ، فلما نشرها وجد المال والصحيفة ، ثم قدم الذي كان أسلفه فأتى بالألف دينار ، وقال : والله ما زلتُ جاهداً في طلب مركبٍ لآتيك بمالك ، فما وجدتُ مركباً قبل الذي أتيتُ فيه ، قال : هل كنتَ بَعَثْتَ إليَّ بشيء ؟ قال : أخبرك إني لم أجد مركباً قبل الذي جئت فيه ، قال : فإن الله قد أدَّى عنك الذي بعثت في الخشبة ، فانصَرِفْ بالألف الدينار راشداً » . انتهى ، نُقِلَ من كتاب « مشارق الانوار » للصغاني .

قال الشيخ العلامة عبدالرحمن بن محمد الحنفي البسطامي : « عدد أحاديثه ألفا حديث ومائة حديث وإحدى وخمسون حديثا ، المختص منها بالبخاري ثلاثمائة وخمس وعشرون حديثاً ، والمختص بمسلم ثمانمائة وخمس وسبعون حديثاً ، والمتفق عليه منها ألف وإحدى وخمسون حديثاً » ، توفي أبو الفضائل الحسن بن محمد الصغاني مؤلف « مشارق الأنوار النبوية من صحاح الأخبار المصطفوية » ، بتاريخ ربيع الأول سنة ٦٥٠ .

وكلام سيدنا المذكور في المعاملات من بديع الكلام ، فله إرثٌ ونصيبٌ وافرٌ من إرثه من جدِّه رسول الله ﷺ الذي أوتي جوامع الكلم ، كما تقدم بيان ذلك من قوله : « إذا أخذ الناس من النبي ﷺ بسهم من جهة العلم ، أخذنا نحن منه بسهمين : سهمٌ من جهة العلم ، وسهمٌ من جهة القرابة»،

واستشهدنا عليه بقول الأبوصيري في مدحه لشيخه أبي العباس ، وشيخه أبي الحسن ، في القصيدة الدالية ، حيث قال :

يَا وَارِثاً بِالْفَرْضِ عِلْمَ نَبِيِّهِ ... سَهْماً وَبِالتَّعْصِيْبِ غَيْرَ مُفَنَّدِ

الْيَوْمَ أَحْمَدُ مِنْ عَلِيٍّ وَارِثٌ ... سَهْمَيْ عَلِيٍّ مِنْ وِرَاثَةِ أَحْمَدِ

وأحمد الأول أبو العباس ، وعلي أبو الحسن ، وأحمد الثاني النبي ﷺ .

ومن بدائع كلام سيدنا عبدالله كما ترى من كلماته المختصرة اللفظ قليلة الحروف مشتملة على معانٍ جَمَّة كما تقدم ويأتي ، كقوله : « **من تُحَرِّكه الرَّغبات الدنيوية لم يكن للرغبات الأخروية أهلاً** » ، على ما ذكرنا على هذه الكلمة من البيان ، وما يُصدِّقها من الوارد من قول الله ورسوله ، وأقوال السلف الصالحين والعلماء العاملين ، حتى بلغ ذلك نحو عشر أوراق ، وما بَيَّنَّا من معناها الباطن الموافق لظاهر الحديث المذكور معها ، وما ذكرنا من معناها الظاهر الموافق لباطن الحديث لفظاً ومفهوماً منهما.

وكذلك ما تقدم من قوله : « **الخلق مكلوفون لما خلقوا له ..** » إلى آخر المقالة .

وقوله : « **لكن في هذا الزمان انعكست الأمور عن أوضاعها ، ورجعت فيه إلى أضدادها** » ، ولا أشدُّ انعكاساً من كون العبادات رجعت عادات ، أعني يتسبب لها لأطماع الدنيا ، نعوذ بالله من الإنعكاس ، سيما في هذا .

وكلمته هذه فيها قاعدة مطردة ، يشمل معناها لجميع طوائف الخَلْقِ في خروجهم عن أصل أعمالهم إلى ضد المقصود منها ، ونذكر لك مثالاً واحداً ، وقس عليه مقاصد جميع الأعمال فإنها من باب أولى ، فَقُل في جميع العبادات الشرعية ، وما ورد عن الله ورسوله من الترغيب ومن الترهيب وتركها ، والحث عليها : ما المقصود بذلك ؟ هل المراد منه حقيقةً ومقصوداً غير امتثال أمر الله والتقرب بها إلى الله ، وحصول الفوز بها يوم لقاه ؟ هل يراد بها غير هذا ؟ أو شُرِعَت وأَمَرَ اللهُ بها إلا لأجل ذلك ؟ كيف صارت اليوم - سيما ورأسها الصلاة التي جعلها الله وصلة بين العبد وبين ربه - يقصد بها أطماع دنيوية وأهوية سفلية ، لا يرضى الله بها ولا رسوله ، فهل إذا صلى بأجرة يشملها مدح : ﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ﴿١٤﴾ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ ﴿١٥﴾ ﴾؟ فأي انقلاب وانعكاس عن الأصل المقصود أشد من هذا ؟ بل العالِمُ النِّحرير المقدَّم في العلم والفضل اليوم يأكل وَقْفَ المسجد ، ويبني به بيته ، ويشتري لنفسه منه البيوت، ولو انهدم المسجد أو حصل فيه خلل ، ما عَمَرَهُ ولا أصلحه من وقْفِهِ ، من شُحِّه عليه لحاجة نفسه ، ولم يعمل في المسجد ما جَعَلَ عليه الواقف ، بل يستأجر رجلاً آخراً محتاجاً يقنع بأقل شيء ، ويأكل جميعه ما عدا ما استأجره به ، وهو يفتي بأن شرط الواقف مُتَّبَعٌ ، لا يجوز خلافه، فأين فتواه من عمله ؟

فانظر هذا العكس ما أفظعه وأشنعه عند الله وعند أهل الحق ، دون الطغام الذين يأكلون الدنيا بالدين، الذين هم أخس وأنزل درجة من الدواب والأنعام ، فكل هؤلاء من أتباع الدَّجَّال .

فاعجب لقول هذا القطب الذي هو خاتمة الأقطاب ، وهو الذي بَلَّغَهُ اللهُ أعلى مقامات القطبية، ما أبلغ كلماته وما أشمل معاني عباراته . ومن العجيب أن كل واحد منهم سكت عن الإنكار على صاحبه ، ستراً على نفسه ، لأنه مُلابِسٌ مثل ما هو مُلابِسُه ، فلو تكلم عليه بما يعلم منه ، تكلم هو عليه بما يعلم منه ، فاصطلَحوا كي لا يفتضِحوا ، فهذا حال وشأن علماء السوء . وعلماء الحق غير هؤلاء ، وهم الذين يعملون بما دعاهم إليه العلم لوجه الله ، لا ليقال . وليس بقليل ما تكلم به علماء الحق على علماء السوء ، وبَيَّنُوا للناس علاماتهم ، وضربوا لهم الأمثال فيهم ، لئلا يغتروا بهم .

فاعرف أنت أهل الحق من أهل الباطل ولا يَغُرُّك عِلْمُهُم ، فقد قال سيدنا علي : « أخوف ما أخاف على هذه الأمة ، من جاهلٍ عليم اللسان » ، فاتبع أهل الحق . وتقدم قول سيدنا : « **ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم** » ، يعني بهم علماء السوء ، وتقدم قوله أيضاً : « **إن الإمام الغزالي مع كثرة ذمه لعلماء السوء ، وتشنيعه عليهم ، ما ذَكَرَ أحداً بعينه** » ، أي لم يعين أحداً ويصفه بالذم ، لأن مراده إنكار الأفعال المخالفة للحق ، لا الأشخاص بأعيانهم هـ .

قال : « **وقولهم فيها أفلاك ، يحذفون الكلمة ، ومعنى ذلك فيها أفلاكٌ دائرة ، عني تدور عليك بما تحب ، بعدما كنت فيها تكره** » ، ثم أمر بإدارة دخون ، ثم قال لي : « **انْشِدْ حتى يفرغ من الدخون** » ، فأنشدت بقصيدته : « **على ريم وادي الرقمتين سلامي** » ، وفيها ذِكْرُ الحج ، وذِكْرُ أركانه ، كالإحرام والوقوف ، وترحيل منازله .

وبعدما فرغت من النشيد ، *قال* لي يمازحني : « **هل يمكنك لو قال لك أحد : هيا نروح نحج، ولكن بشرط أن لا تخبر أحداً ، أيمكنك تسكت ؟** » ، فَسَكَتُّ ، ومعنى سكوتي أعني : ما أظن أني أسكت ، *فقال رضي الله عنه* : « **لا ، لا ، أستغفر الله ، ولو حتى رؤيا ، إلا إن قال لك : إن أَخْبَرْتَ أحداً تموت ، فلعل أن لا تخبر أحداً** » ، قلت : إن قال لي : لا تُخْبِر أحداً ، ما أَخْبَرْتُ ، وإن لم يَقُلْ ذلك فلعل هـ .

أقول : معنى استغفاره : يعني بعيد عليك ذلك ، ولذلك عَقَّبَهُ بـ « **لا ، لا** » مرتين.

وقوله : « **ولو حتى رؤيا** » ، يعني ولو رأيتَ في رؤيا المنام من يقول لك ذلك ، ما سَكَتَّ عن الإخبار به ، إلا إن خَوَّفَكَ بالموت إذا ذَكَرتَه ، فربما تترك الإخبار به خوفاً من الموت ، وفي إخباره بذلك كذلك تعريض لو وجد لذلك أهلاً .

وقد ذكر مراراً أنه موعود بالحج ، عن قول بعض أهل الكشف ، وهو أحد الثلاثة الذين كاشفوه، وقد قدمنا ذكرهم وذكر ما كاشفوه به ، وهو صاحب الهجرين الذي هو من آل بن نعمان ، قال : « **وقد ذكر لي أنه يكاشف من أضمر في خاطره شيئاً ، فأضمرتُ : هل لي عودة إلى الحج غير هذه ؟ فقال : يكون ذلك بعد زمان** » ، فبقي مترجياً لذلك ، وقال : « **نحن موعودون بالحج** » ، واشتُهِر عنه ذلك ، وما عُرِفَ منه أنه حج في الظاهر إلا حَجَّتَهُ المعروفة ، فما يكون إلا قد حج في الباطن ، كما حج سهل التستري وما فُقِدَ من محله ، حتى رآه رجل بعَرَفَة ، وحلف بالطلاق أنه رآه يوم الحج بعرفة ، وحلف آخر من أصحابه بالطلاق أنه صلى بهم صلاة العصر في بيته يوم عرفة ، وتداعَوا عنده كلٌّ وحده ، وأفتى كُلًّا منهما بإمساك زوجته .

ثم قال بعد كلام مزاحه المذكور بعد قوله : « **فلعل أن لا تخبر أحداً** » ، *قال* : « **ما ندري أين جاء خبر بيت الشريف في اختلافهم ، ما هو ألَّا لكونهم قرابة وإخوان ، فالإختلاف غير لائق ، بل ينبغي أن يقول : الذي يقع لي يقع لأخي** » ، *ثم قال* : « **وقد رأيتُ قبل أن تحصل لي الحُمَّى ، كأني قائمٌ تحت الكعبة عند الحَجَر ، وكأني أمسُّ محله أملس ليس به كُسْر ، ولكن نفس الحَجَر ليس موجوداً** » .

فقال له السيد عقيل باعقيل : « ماذا أوَّلتُوها ؟ » ، *فقال* : « **ما أوَّلناها بشيء ، لأن التأويل سمح** - أي سريع - **يقع ذاك ، ألَّا في الزمن الأول إذا أولت تأخرت مدة ، وإنما نؤولها بأمر حادث** » .

ثم قرأ الفاتحة ودعا ، فلما ختم الدعاء قاموا يصافحونه ليخرجوا ، وفي جملتهم جماعة كانوا مرضى، فقال لكل واحد منهم : « **كيف أنت ؟** » ، فقال : « بخير » ، *ثم قال* : « **لون عرفة ألَّا بايضحُّون لها الناس ، سبحان الله على بالك أن الناس هنا يقولون : عرفة ، حتى الضواون ما تأكل فيها اللحم** » هـ .

أقول : وهذا من كلامه في المزاح ، و « **الضواون** » جمع ضيْوَن ، وهو الهر ، هكذا في لغتهم .

وقوله : « **سمح** » ، يعني سريع ، كذا في لغتهم ، وكون تأويل الرؤيا في هذا الزمان يقع سريعاً ، وفي الزمان المتقدم يتأخر مدة ، ما سمعته إلا منه في قوله هذا ، ولا علمت السبب في ذلك .

وكذلك رأيت الهرار في الحساء ما تأكل اللحم أيام الضحايا ، إما لشبعها فيها ، أو لخاصيةٍ جعلها الله في ذلك ، الله أعلم بامره ، حتى إنها تمُرُّ على اللحم وتَشُمُّهُ وتتعداه ولا تأكله ، رأيت من الهرار بحضرموت وبالحساء كذا . وبعدما صافحوا للخروج ، وقفوا يتسمعون كلامه هذا ، ثم تفرقوا .

وهذا آخر دخول عليه للعيادة من مرضه الحاصل عليه سنة ١١٣٠ ، وأفسَحُ مجلسٍ في مجالس العيادة ، وبعد ذلك إنما يدخلون عليه معاودين حيث خرج ، وإن كان أثر المرض ظاهراً عليه .

ومن الدليل على كون هذا مرض موته ، وإنما رُدَّت عليه السنتان بعد أن وَهَبَها لبافضل فعاشها ،

أنَّ هذا المرض ابتدأ به يوم ٢٧ من رمضان ، وما زال يشتد عليه إلى ليلة ثامن من ذي القعدة ، ثم جعل يخف عليه ، فيأذن للناس يدخلون عليه عايدين . وفي المرض الآخر الذي هو في سنة ١١٣٢ ، ابتدأ به أيضاً يوم ٢٧ من رمضان ، وما زال يتزايد ويختلف أنواعاً ، إلى ليلة ثامن ذي القعدة ، وتوفي فيها .

وفي هذا المرض لما جعل يخف عليه من ليلة ثامن إلى ليلة العيد فخرج فيها ، ومَنَّ الله ببروز طلعته البهية وظهور غُرَّتِهِ السَّنِيَّة ، فخرج إلينا إلى المصلى ليلة العيد ، فتيَّمنا بنفحة رَيَّا مرأى رؤية وجهه البهيج ، وحصل لنا برؤيته خيرات كثيرة وفوائد منيرة ، وانطفت عنا حرقات الغرام المهيج ، شعر :

بِغُرَّتِـهِ قَـدْ أَوْدَعَ اللهُ أَرْبَعـاً ... نُشَاهِدُهَا كَالشَّمْسِ عِنْدَ التَّأَمُّلِ
تَسَـلٍّ لمهْمُـومٍ وَأَمْـنٍ لخائِـفٍ ... وَرُشْـدٍ لِـذِيْ غَـيٍّ وَيُـسْرٍ لمقْلِـلِ

وهذا أول خروج . ودخل المُصلَّى بعد أن أتم الجماعة الذين رتبهم يقرأون القرآن في المُصَلَّى لإحياء ليلة العيد ، ودخل عليهم وهم يُكَبِّرون ، عند تمام حزب آخر سورة الأنعام ، إذ هو مرتب لهم أيضاً التكبير في إحياء ليلتي العيدين عند إتمام كل حزب ، تقييداً لهم للتكبير في مواضع يُكَبِّرون عندها، حيث التكبير في الليلتين مطلق ، لئلا يُغفَل التكبير ويترك بمرة .

وابتدأوا يقرأون من سورة الأعراف بحضرته ، ويقرأ هو معهم إذا وصله المقرأ ، وبقى جالساً في حلقة القرآن ويقرأ كذلك ، إلى أن وصلوا مقرأ : ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ﴾، من سورة يونس . ثم قام .

ودخلوا عليه ضحوة يوم العيد للمعاودة ، كما هي العادة في مثل هذا اليوم ، ثم استأذن جماعة آخرون لِيُهَنُّوه بالعيد ، فأذِنَ لهم ، وأمر للجميع بقهوة ، وما كان أمَرَ بها في المجالس المتقدمة ، لأنهم كانوا فيها عايدين ، والعيادة لا استقرار فيها ، بل هي مبنية على التخفيف . وهذه وما بعدها يدخلون زائرين ومعاودين ، ومكثوا قليلاً بعد القهوة ، ثم قرأ الفاتحة ، ثم دعا ، ثم خرج من أتى بَعْدُ ، وبَقِيَ من كان حاضراً قبلهم ، فقال : « **أبداً ما تَخَلَّفْتُ قط عن شهود صلاة عيد عرفة إلا هذه المرة ، لقلة الإختلاف فيها ، وعدم اتفاق مرض في هذا الوقت . وأما صلاة عيد الفطر فتخَلَّفْنا عنها ثلاث مرات، غالبها بسبب الإختلاف وخطئهم في رؤية الشهر ، فمرة أفطروا ولم نُفطِر ولا حضرنا الصلاة ، ولكن أَمَرْنا النساء والصغار من أهل بيتنا بأنَّ من أراد منهم أن يصوم أو يفطر هو بالخيار ، ومرة أفطرنا ولكن لم نحضر العيد لحصول الشبهة ، ولكنها في هذه المرة ضعيفة ، وفي الأولى قوية** » .

قوله : « ثلاث مرات » ، أي غير هذه الأخيرة التي سنة ١١٣٠ ، لأن الكلام والشأن أنه في هذه في الحاضر ، فمراده ثلاث مرات قبلها وتكون هي رابعة . وقد صلينا معه في الحاوي صلاة عيد الفطر

بخطبتها في جماعة ، وهي التي قال : « **الشبهة فيها ضعيفة** » ، وهي سنة ١١١٨ .

وأما التي فيها قوية سنة ١١١٦ التي ذكرناها بعد قوله: « **أمور وأحوال لو تصورها الإنسان قبل وقوعها لم يُجوِّز العقل ذلك** » ، وإنه ما رؤي الهلال فيها رؤية محققة إلا ليلة رابعه ، وهي التي أمسك فيها ، وأمر بالإمساك فيها أحداً ، وخَيَّرَ أحداً.

ومراده بقوله : « **لقلة الإختلاف فيها** » ، الإختلاف في الرؤية ، كما بَيَّنَه بقوله : « **بسبب الإختلاف وخطئهم في رؤية الشهر** » .

و قوله : « **مرة أفطروا ولم نفطر** » ، فمراده بها هي سنة ١١١٦.

قوله : « **كيف يكون ما يرى ليلة ثالثه** » ، أي ليلة ثالثه .

قال : « **ومرة تخلفنا فيها لبقية مرض كان حصل معنا ، وهذه أخف أمراضنا ، وإلا فقد مرضنا سنة ١٠٧٠ مرضة شديدة جداً ، ونحن إلا في لطف كبير ، وإلا فكم ناس من الأكابر يمكث الواحد الشهرين وأكثر وهو غائب ، لا حس معه . وأنا أود أن أخرج أكثر من هذا ، والمشي أيضاً يَسْهُل عَلَيّ ، وإنما يشق الركوب ، ولكون الناس يناتفون الإنسان ، مثل سارق عينات في نوف** - أي محل مرتفع - **وعلى الفرس فيُشْغِلون ، وإذا عُلِّم واحدٌ ما تعلَّم غيرُه . وأهل الأرض هنا عامة وجلفان** »

قلتُ : إنه كان يكفيهم منكم الرؤية بلا مصافحة ، قال : « **وبا الله إن وقع لهم منا هذا ، ولكن ما عاد معنا إلا الصبر عليهم ، والأمور إن شاء الله ألّا جميلة** » هـ .

أقول : قوله أنه تخلف عن صلاة عيد الفطر ثلاث مرات ، يعني وهي التي قال : « **إن الشبهة فيها قوية** » ، وهي سنة ١١١٦ على ماوصفنا من وصف شدة شبهتها ، بحيث ما رؤي رؤية محققة إلا ليلة رابعه ، ولا يدخل هذا في العقل ويراه العقل محالاً ، لكن ليس في فعل الله محال ، كما أشار إليه بقوله : « **وأما الأمور الإلهية فلها حكم آخر** » ، والتي قال أن الشبهة فيها ضعيفة فسنة ١١١٨ ، التي صليناها معه في الحاوي بخطبتها ، وهي التي قال تخلف عنها إنما لبقية مرض .

والثالثة التي مرض فيها مرضة شديدة التي قال إنها سنة ١٠٧٠ ، وكان يذكرها كثيراً ويبالغ في وصفها ، وما حصل عليه فيها من شدة الألم ، حتى إنه قال : « **نسيت القرآن بسبب شدة الوجع ، لأن شدته في الدماغ** » ، قال : « **فلما بَرِئْتُ ، حاولتُ أن أقرأ شيئاً من القرآن ، فلم أعرف إلا بعد مدة ظهر لي ، وأول ما ظهر لي منه سورة الحشر** » .

وقوله : « **هذه أخف أمراضنا** » ، يعني هذه التي في سنة ١١٣٠ ، وهي رابعتهم ، وتخلف فيها عن صلاتَي العيدين ، لأن المرض ابتدأه يوم ٢٧ رمضان ، وفي الثلاث قبلها عن صلاة عيد الفطر فقط .

وفي سنة وفاته ١١٣٢ تخلف عن صلاة عيد الفطر ، لأن المرض ابتدأه يوم ٢٧ رمضان ، ولم يدرك صلاة عيد الاضحى ، لأنه توفي ليلة ثامن القعدة .

فثبت بهذا أنه تخلف عن صلاة عيد الفطر خمس مرات ، كما يعرف من سياق هذا الكلام ، وذلك سنة ١٠٧٠ ، وسنة ١١١٦ ، وسنة ١١١٨ ، وسنة ١١٣٠ وسنة ١١٣٢ ، وكان مدة مرض الرابعة التي سنة ١١٣٠ أطول ، والتي سنة ١٠٧٠ أشد ، ولهذا تخلف عن الصلاتين في الرابعة .

وبينما هو في آخر هذا المجلس ، إذ قيل له : « ها هنا جماعة يطلبون الإذن في الدخول » ، **فقال** : « **قولوا لهم إنه أبطأ به المجلس وهو جالس ، فوَعْدُكم العصر إن اتفق ذلك منا ومنكم** » .

وكثر تعاقبهم للمجيء وترددهم إليه في هذه الأيام لكونها أيام عيد ، فيجون للمعاودة ، التي هي البدعة كما قال ذلك : « **ونسوا العيادة التي هي السنة ، فلا يجون بقصدها** » ، نَسَخَ منهم قَصْدَهَا قَصْدُ المعاودة ، لِمَا شَابَهَا من فرح العيد ، فغلبت البدعة للسنة كما هو شأن الزمان ، وغلبة الشر فيه على الخير ، وغلبة الأشرار على الأخيار . فالأخيار فيه يغلبهم الأشرار ، فالباطل فيه يزاحم الحق ، وإن الظالم فيه كلٌّ ينصرُه ، من الحكام والقضاة والوزراء والكبراء وسائر طبقات الناس ، وإن المظلوم فيها ما له ناصرٌ إلا الله ، وإن القائل بالباطل كثير ، والقائل بالحق قَلَّ ما يوجد ، وإن وُجِدَ ؛ فكلٌّ يعاديه ، فكم من لائم ملوم ، وكم من ظالم يُظن أنه مظلوم .

وغلب اليوم طَبْعُ الأشرار طَبْعَ الأخيار ، كما ورد: « الأشرار يغلبون النساء ، والأخيار يغلبهم النساء » ، وعلى ما ورد : « المؤمن يأكل بشهوة أهله ، والفاجر يأكل أهله بشهوته » . ويشهد لذلك قول سيدنا القطب الشيخ علي بن أبي بكر باعلوي نفع الله به : « لا يَغُرَّنَّك قولُ من قال : امْشِ بنا إلى الشرع، فإن الشرع قد قلعوا عَيْنَه ، وما بقي إلا الشر » ، يعني إذا ذهبت من حروف لفظة الشرع العين، فباقي الحروف الشر ، فيكون معنى قول : « امش بنا إلى الشرع » ، أي إلى من يُفتي بالهوى ، فيُفتينا بما نهوى ، ولو خالف الحق ، فلو كان إنما يفتي بالحق ، لكان الشرع على أصله وحروفه .

فمعنى ذلك القول : كلمة حَقٍّ أُريدَ بها باطل ، لأن ظاهرها امْشِ بنا إلى الحق ، وباطنها امْشِ بنا إلى ما فيه هوى النفس الشيطانية ، من الحاكم والمحكوم له أو عليه .

فلما كان وقت العصر حشدوا وتجمعوا على سماعهم للوعد منه ، فلما أُخبِرَ بهم ، أَمَرَ لهم بقهوة ، وأَذِنَ لهم في الدخول عليه ، فلما اطمأنوا جالسين ، **قال** : « **المعاودة هذه ما لها أصلٌ في السنة ، وإنما هي بدعة حادثة ، ولا يُعرَفُ لها ذِكرٌ إلا إن كان في الآداب ، إنما السنة عيادة المريض وزيارة المؤمن لله** » هـ .

أقول : ولذلك لما رأى البدع واتباع الهوى ومخالفة الحق غلب على اتباع السنة والحق في هذا الزمان، قال مقالته المتقدمة : « **الأمور في هذا الزمان انعكست عن أوضاعها ، ورجعت إلى أضدادها** » هـ .

قال : « **ما قطع الناس عن الناس بالمواصلة في هذا الزمان إلا التكلُّف ، وثلاثة أوقات الناس يتواصلون فيها طوعاً أو كرهاً : الخريف ، ورمضان ، وعرفة . والعوايد شيء منها للنسوان وشيء للرجال . وساداتنا آل باعلوي أمورهم إنما هي مُرَتَّبَة على السُّنَّة والعوائد الحسنة ، ومن خرج منها فهو قليل خير** » .

ثم أمر منشداً أن ينشد ، فأنشد بقصيدةٍ أنشئت فيه مدح بها ، وفيها تهنئة له بالعيد ، وهي للشيخ عبدالرحمن بن أحمد باكثير ساكن الشحر ، أولها :

الحَمْدُ لله الـذِيْ عَـمَّ الْـوَرَى ... بِالجُـودِ وَالإِفْضَـالِ وَالنَّعْـمَاءِ

إلى أن قال :

إِنَّــا نُهَنِّيْكُــمْ بِعِيْــدٍ أَكْـبَرٍ ... مَـعْ جُمْلَـةِ الأَهْلِـينَ وَالأَبْنَـاءِ

فلما فرغ منها سأله : « لمن هي ؟ » ، فأخبره ، **فقال** : « **نحن ما نستثقل من هذه الأشياء ، لأن ماوقع لنا منها طرحناه في بحر النبي ﷺ ، لأنه ﷺ معدن الفضائل كلها ، وهو الممدوح بها كلها ، ومنه عُرِفَت الفضائل ، فكلُّ من مُدِحَ بعده بفضيلة ؛ فإنَّ مدحه يعود إلى النبي ﷺ ، والشيطان منبع الرذائل كلها ، فكلُّ مَن ذُمَّ برذيلة فَذَمُّه عائدٌ إليه** » .

أقول : يعني إن النبي ﷺ هو السبب في حصول الفضائل والخيرات والسعادات ، ولهذا له أجر أهلها العاملين بها مُضَاعَفٌ مع أجره إلى يوم القيامة . والشيطان منه الرذائل عُرِفَت ونُقِلَت ، فعليه مع وِزْرِهِ وِزْرُ أهلها العاملين بها إلى يوم القيامة ، لأنه السبب في حصولها كما ورد : « **مَن سَنَّ سُنَّةً حَسَنَةً في الإسلام ، فله أجره وأجر من عمل بها إلى يوم القيامة ، ومن سن سنة سيئة في الإسلام فعليه وزره ووزر من عمل بها إلى يوم القيامة** » ، وكذا من دعا إلى خير أو إلى ضلالة .

قوله : « وناس يكرهونها ، أحد كذب ورياء ، وأحد من نفسه ، وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله: من عرف نفسه لا يضره المدح » هـ .

أقول : قوله : « كذب ورياء » ، يعني يذكرون كراهتهم لذلك بألسنتهم وقلوبهم تحبه ، والذين من أنفسهم مَن يبغضه بقلبه ويذكر بغضه بلسانه .

و « من عرف نفسه » ، هو الذي يعتقد أن ما الممدوح صدقاً إلا من هو ممدوح عند الله ، ولا عبرة بمدح الخلق ولا ذمهم ، فلا يفيده مَدْحُهم كمالاً ، ولا ذمهم ينقصه من كماله . وذكر الإمام الغزالي أنه لا بأس بمحبة مدح الخلق وكراهة ذمهم ، لأنه ورد : « إن ألسنة الخلق أقلام الحق » ، فإذا مدحوا أحداً فيوشك أن يكون عند الله ممدوحاً ، وإن ذموا أحداً فيوشك أن يكون عند الله مذموماً .

ويؤيد هذا ما ورد : « إذا مات العبد وقد علم الله منه شرًّا ، فأثنى عليه اثنان من المسلمين خيراً، عامله الله بما أثنيا عليه ، وترك ما عَلِمَ منه » ، وقد تقدم ذِكْر تمام قوله ، وما عَلَّقْنا عليه مما نقلناه من « المواهب اللدنية » وغيرها في كيفية تضعيف جزاء الأعمال ، الحسنة منها والسيئة ، وأن العامل الأول للحسنة وهو النبي ﷺ له بِعَشْرٍ ، والعامل الثاني بعده هي له بعشر ، وعشرة للأول بمائة ، والثالث له بِعَشْرٍ وعشرة للذي قبله بمائة ، وللنبي ﷺ بألف ، وهكذا تضاعفها بعدد العاملين بها إلى يوم القيامة، وأما تضاعف السيئة فهي بواحدة للأول ، وكذلك للثاني ، وواحدته للأول باثنتين ، وواحدة الثالث للثاني باثنتين ، وللأول بثلاث وهكذا .

وقيل لسيدنا في مجلسه هذا : « الحمد لله حيث خرجتم البارحة » ، فقال : « نعم ، نقول عسى ساعة قبول أو ساعة رحمة ، والدنيا سموها ساعة ، فهي ساعة لا ينبغي أن تُجعَل إلا في طاعة ، وما بعد هذه الساعة إلا ساعتان ، إما ساعة نعيم دائم ، أو ساعة عذاب دائم » .

ثم قرأ الفاتحة ، ثم دعا ، ثم خرجوا ، ثم بعد هذا كل من أتى زائراً أو عائداً أو معاوداً ، وذلك بحسب النيات والقصود ، أو لغير ذلك لا يرجع لغير ذلك ، بل يأذن له في الدخول عليه ويعطيه من المجلس والأُنس والجَبْر كما يريده ويأنس به .

ثم خرج لصلاة عشاء ليلة الجمعة ١٢ من الشهر ذي الحجة ، وحضر من الذِّكر ما كان يعتاد يحضره غالباً قبل ذلك ، وهو ثلثيه ، وكان تعود ذلك من هذه السنة ، وقريب منها قبل مرضه هذا ، فإنه في هذه الأيام قد يحصل له عذر ، وقد يحضر كل المجلس ولا يقوم إلا بعد انقضاء الذكر ، وبعد أن يقرأ الفاتحة . ومنذ حصل عليه هذا المرض ما تقدم للصلاة يصلي إماماً ، بل يقدم العيال للإمامة ، الأكبر

منهم فالأكبر ، ويصلي قاعداً سوى الركعة الأولى ، حيث تقام الصلاة إذا دخل ، فيُحرِم بالصلاة قائماً، إلى ما بعد السجدة الثانية من الركعة الأولى ، وبعدها يجلس إلى تمام الصلاة ، فيُتِمُّها جالساً .

وقبل هذا المرض بنحو سنتين أراه يمد يده إلى الجدار ، فَيَسْتَرْكِي عليه عند الاحرام ، ثم يُحرِم ، وسِنُّهُ إذ ذاك نحو ٨٨ . والعذر له واسع قبله ، ولكنه يتكلف القيام ، ويستند بيده على الجدار ، فبعد حصول هذا المرض فالعذر من باب أولى .

ودخل عليه ضحوة يوم هذه الجمعة جماعةٌ معاودين ، فانبسط لهم وتأنسوا عنده كثيراً ، ثم خرجوا، وعشية هذا اليوم دخل عليه جماعة حاشدين ، وفيهم كثرة معاودين ، على عادتهم في الكثرة إذا دخلوا عليه في هذا الوقت ، وأمرني بالإنشاد فأنشدت بقصيدته :

خَلِّهَا تَجْرِيْ بِعَيْنِ الله في ... بَحْرِ أَسْرَارِ المُهَيْمِنِ ذِيْ الْعُلَا

وبقصيدته : « مرحباً بالشَّادِنِ الغَزِلِ » ، ثم بعد فراغهما قرأ الفاتحة ، ودعا ثم خرجوا .

ثم خرج هذه الليلة - ليلة السبت ١٣ - لصلاة العشاء ، وبعد الفراغ من قراءة سورة يس قام وأمر بشد الفرس ، ثم ركب إلى البلاد ، من الحاوي إلى بيت آل فقيه للمبيت على عادته ، فلما دخل البيت وصعد الدرجة وبلغ السطح ، وقد تعب في الدرجة ، **فقال** : « **الكِبَر قِدُه مرض ، فما حصل معه من مرض فهو مُحَاوش له** » ، ثم بات عندهم وبقي ذلك اليوم إلى العصر ، وهذه عادته أن يبقى عندهم آخر أيام التشريق ، وبعد أن صلى العصر خرج إلى الحاوي هـ .

أقول : قوله : « قده » ، لفظة « قد » من لغتهم تدخل في الأسماء ، ظاهرها ومضمرها ، كما قال هنا، ومعناها فيها التحقيق ، كما هي كذلك في الأفعال الماضية مطلقاً ، وفي المستقبلة في القرآن خاصة ، وأما في الأفعال المضارعة المستقبلة في غير القرآن فمعناها التقليل ، انظر قولك : قد قام زيد . فالمعنى تحقيق قيامه ، وإن قلت : قد يقوم ، فالمعنى يمكن قيامه وعدمه . وفي القرآن كقوله تعالى : ﴿قَدْ يَعْلَمُ ٱللَّهُ ٱلْمُعَوِّقِينَ مِنكُمْ﴾، فالمعنى يعلم ذلك تحقيقاً وغير ذلك ، وقس على ذلك .

وقوله : « **محاوش له** » ، أي معاون له ، فإن الكِبَر مُضْعِفٌ والمرض مُضعِف ، فإذا اجتمع المُضعِفان أَوْهَنَا البدن إلى الغاية ، وكان أحدهما يكفي ، فكيف إذا اجتمعا هـ .

ودخلوا عليه عشية الأحد ١٤ وفيهم كثرة ، فتكلم كثيراً في أحوال الناس ، خصوصاً وعموماً،

ثم قال : « لا عاد ندعوا إلا بالصلاح ، فإنما العزيز اليوم إلا الصلاح ، وأما الدنيا فلا عبرة بها ، فقد تكون عند أقوام ثم تنتقل عنهم إلى قوم آخرين . فلا ينبغي أن يحرص الإنسان إلا في ما يرضي الله ورسوله ، فكلما كان لله ورسوله فما منه بدل ، وكلما اخلَصْتَ في ذلك فهو العمدة ، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ ، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ ، وكل شيء فهو في القرآن ، إلا إن الناس ما علموا معناه ، وقد قال الفُضيل بن عياض : لو علمت من القرآن أوّلاً ما علمت منه اليوم لما كتبت الحديث . قال يعني أنه انكشف له من معاني القرآن آخر وقته ما لم ينكشف له أوّلاً » .

ثم تكلم في تعاطي الأسباب وعدم الإعتماد عليها ، فقال : « كل الأشياء من الله ، ولكن لا تنسب إلى المليح إلا المليح ، والشر ليس إليك ، وأما قولك : من الله ، ولله ، فلا يعرفه إلا العلماء الأكابر ، وإذا قال : هذا وقع لي من الله ، فلا شك أنه من الله ، ولكن بأسباب موقوفة على أسباب ، فخذ الشيء من الوجه الذي أُذِنَ لك فيه ، ولا تكن كالذي رأى في يد رجل شيئاً فنهبه منه ، وقال : هذا جاءني من الله. فنهب هو منه شيئاً آخر فقال : وهذا أيضاً جاءني من الله . فإذا كان أحد معه شيء ، فقال : هذا من الله، فلا ينبغي للآخر ليس معه شيء أن يقول : كيف يعطيك ولا يعطيني ، فإذا أراد مثل ذلك ، فينبغي أن يَعرف الوجه الذي حصل له هذا منه ، فيعمل فيه مثل عمله ، ليحصل له مثل ما حصل له . وناس كثير يغلطون في الصواب ، فيحتاجون إلى التعليم ، ولو أراد شبام أو الشحر مثلاً لاحتاج إلى جَمَّال ، فينبغي أن يعرف أمور الدين بهذا الوجه . و إذا قال : أعطانيه الله ، فيحتاج إلى شاهد من الشريعة ، قال الله تعالى في قسم الفيء : ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾ ، ثم قسمه تعالى بنفسه بقوله : ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ﴾ » .

ثم قال سيدنا : « والدنيا كلها مفروغ منها ، والناس فيها بين ناج وفائز ، وهذه أمور قد فُرِغَ منها، فلا مدخل للعمل فيها ، ولكن إذا مات الإنسان على الإسلام فلا يبالي بشيء » .

ثم أمر بدخون ، ثم قرأ الفاتحة بلا نشيد ، ثم دعا ، وصافحوه وخرجوا اهـ .

أقول : كلام هذا المجلس كثيراً ما يتكرر في المجالس ، من تبيين أن جميع الأمور لا تكون إلا بالمقادير ، الحَسَن منها والسيء ، وأن المقادير كامنة فيها كمون الأرواح في الأجساد ، فكل سبب يباشر عملا فيه قَدَر - أي أراده الله وأراد وجوده به - وقع وهو معنى قوله : « من الله » ، وإن لم يكن فيه إرادة من الله بوجوده لا يقع به ، إما مطلقا من جميع الأسباب ، فلا تفيد شيئاً ، أو أراد وجوده بسبب دون سبب ، فلا يوجد إلا بذلك السبب . وهو معنى قوله : « خذ الشيء من وجهه » ، ثم إن تعاطي الاسباب منها مبغوض عند الله ويُغضِب الله فعله ، ومنها محبوب ، فخذ المحبوب ولا عليك ، وهو معنى قوله : « خذ الشيء من الوجه الذي أذن لك فيه » ، وهو الإذن الشرعي ، من هبةٍ أو شراء أو

إرث، دون النهب الذي نهاك عنه ، أو سرقة وغير ذلك .

و « **معرفة الدين بهذا الوجه** » ، أي يعرف أن الأمور متوقفة على المقادير هو إرادة الله لها ، وأن يكون مأذوناً فيها شرعاً ، ولا يمكن معرفة ذلك إلا بمُعَلِّم مرشد ، وهو معنى قوله : « **لو أراد شبام أو الشحر لاحتاج إلى جَمَّال** » ، أي مُعَلم يدله الطريق ، ويتبين له أنه على صواب ، وهو شاهد الشريعة، ومَثَّل لتوقف حصول الأمور على المقادير .

ولو عرفت علمها الشرعي ، وسلكته فعلم الشرع قوله : ﴿وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ﴾، والأمر القدري كونه تعالى مع ذلك قسمه بنفسه ، وختم هذا القول المُوَجَّه هذا التوجيه بأن الأسباب وما اقتضته من مسبباتها « **كلها دنيا مفروغ منها** » ، أي مفارقه ومُرتَحَلٌ عنها ، ويبقى الناس بعد فراقها في عاقبتها ، فمن عَلِمَ الحق واتَّبَعَه ، فهو بين الفائز بالدرجات العُلى ، وبين ناجٍ سالمٍ بنفسه ، قاصرٍ عن نيل الدرجات .

قوله : « **وهذه أمور قد فُرِغَ منها** » ، أي حظوظ قد قسمت وفُرِغَ منها ، فلا يفيدها العمل ، ولكن إن مات على الإسلام حصل له الفوز والسبق إلى المقامات العالية ، إن كان من البالغين في معرفة الحق ، والمبالغين في اتباعه ، والنجاة والسلامة بالنفس إن كان من المقصرين في ذلك ، ولم يرتكب الخطأ واتباع الهوى ، فإذا حصل له الخاتمة الحسنة مع الفوز والنجاة ؛ فهي الغنيمة ، فلا يبالي بشيء هـ .

ثم دخلوا عليه عشية الإثنين ١٥ ، وفيهم كثرة كالتي قبلها ، فشكى إليه رجل ضيق الحال وضنك المعاش ، *فقال* : « **ما عاد معك اليوم إلا الرضا ، لكن بشرط موافقة الأمر ، فإذا وافق الأمر الرضا بالقضاء والقدر** » ، أي تم أمره .

ثم أمرني بقسمة أسوكة ، وبقي يتكلم ، ولا عقلت منه شيئاً ، ثم أمر منشداً ينشد ، فأنشد بقصيدة تُنسب للشيخ أبي بكر العيدروس التي مطلعها : « **أغالب دهري حيناً وحيناً يغالب** » ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا .

ودخلوا عليه عشية الجمعة ١٩ ، فكان غالب كلامه في الناس الذين أدركهم وكان يعرفهم ويألفهم ، وفي الأماكن التي كان يتردد إليها ويعرفها أيام طلبه ووقت شبابه ، حتى ذكر محلًّا كان فيه حسارة - وهي شجرة معروفة - *فقال* : « **هل هي باقية ؟** » ، فقيل : « **لا ، ولكن محلها معروف ينسب إليها ، يقال له محل الحسارة** » .

والقائل السيد عمر حامد ، وظهر لي من الكلام أنها بجنب البستان الذي شرقي مسجد أحمد بن الفقيه ، الممتد شرقاً إلى سقاية عمر بن أحمد ، بينهما الطريق الذي يتصل بالمجف .

ثم ذكر جماعة ممن كان يعرفهم ويألفهم ، ومن جملة من ذكر رجلاً من السادة اسمه أحمد عيديد ، *قال* : « **كان عالماً فاضلاً ، وله اطلاع على العلوم ، وله يد في علم النحو وغيره** » .

وذكر جماعة غيره من أهل وقته ، وترجم له في « المشرع الروي في ذكر السادة بني علوي » ، وذكر كثيراً من أحواله وأقواله ، وأثنى عليه ثناءً حسناً ، *ثم قال* سيدنا : « **كل هؤلاء كانوا بين الستين إلى السبعين ، وكانوا كلهم متوافرين ومتناصرين ومتعاونين ، وما أحدٌ يَشِحُّ على صاحبه في مثل أمور الدنيا ، فإذا مال أحد منهم قام عليه صاحبه بالأمر بالمعروف** » ، *ثم قال* : « **وكم أشياء نعرفها ما عاد يعرفها أهل الزمان ، فإنه كم وجوه راحت** » .

ثم ذكر خربطة هؤلاء المفتونين وسوء أحوالهم ، *فقال* : « **لا هُمْ لهم نسبة إلى أهل الدين ولا إلى أهل المروة ، فلا يُنسَبون إلى أهل صلاح ولا إلى أهل دنيا** » .

ثم قال : « **كلُّ أمرٍ بين أمرَيْن فأمْرُهُ مُشكِلٌ جداً ، الذي يكون لا هو إلى هذا الأمر فيُلحَق به ، ولا إلى هذا الأمر فيُلحَق به ، فعند الأطباء : إن الشيء الذي لا تُعرَف طبيعته ، هل هي باردة مثلاً أو حارة ، أو هي رطبة أو يابسة ، فمعرفته - أي معرفة دواء علته - مُشِقَّة عندهم ، لا يعلمون به في أحد الدرجتين، حتى يتبين لهم قربه من أحدهما فيلحقونه بها . وكذلك الخنثى ، الذي لا هو رجل ولا امرأة ، فقد أخذ نصف العلم ، ولا أحد حكم فيه بأمر قاطع ، فكم أتعب الفقهاء أمْرُه ، وأكثروا فيه الكلام ونحو ذلك، فقس هذا في الأمور الدينيات والأمور الدنيويات واعتبره فيهما** » .

ثم ذكر قراءته في النحو ، *وقال* : « **حفظتُ المُلحَة على - أظن قال : السيد علي باهارون -** » ، *قال* : « **وما تأسفت إلا على القَطْر حيث ما قرأته** » .

ثم ذكر أخذه في الفقه ، *فقال* : « **حفظتُ خطبة الإرشاد أوَّلاً ، من قوله : الحمد لله الذي لا تُحصَى مواهبُه ولا تنفد عجائبه ، ولا تُحصَر له مِنن ولا تختصُّ بزمنٍ دون زمن ، ثم إلى محرمات الإحرام ، على الفقيه باجبير قبل يسير الهند** » ، وذكر أن سِنَّه إذ ذاك أربعة عشر سنة ، فيكون ذلك سنة ١٠٥٨ ، *وقال*: « **حصل لنا من الفقيه باجبير الإسناد في الفقه إلى ابن حجر على اثنين : أبوه ، وأبوبكر بافقيه . فأخذ هو عن أبيه عن بافقيه ، وهو أخذ الفقه عن ابن حجر** » ، *قال* : « **وكان ابن حجر يذكر مسائل من الاحياء، فإذا ذكرها جاء بعبارة الإحياء كما هي حفظاً ، وكان يحفظ من الإحياء** » .

ثم قال للذي يدير الدخون : « أتَمَّ الدخون ؟ » ، قال : « عاده » .

قال : « تِنْ ، الطَّيب ألَّا مبارك ، وهو أقرب إلى السُّنَّة من القهوة ، إلا أن القهوة لمَّا كان أصلها وظهورها من عند الصالحين ، اتَّخَذُوها لأجل السهر والنشاط على الطاعة ، فهي خير ، وما كان أصله إنما نشأ من خير ، فهو خير مما أصله من الأشرار ، واتُّخِذَ لأجل الهوى » .

يشير إلى التنباك - وكان أول ظهوره سنة بغي ١٠١٢ - ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا .

وبهذا تَمَّ هذا المجلس المنوَّر وكلامه فيه ، وهو المجلس المذكور عشية الجمعة ١٩ ذي الحجة سنة ١١٣٠ ، بعدما شفاه الله من مرضه المذكور .

وقوله : « **كلُّ أمرٍ بين أمرَيْن أمره مُشكِل** » ، ثم ذكر عن الأطباء توقفهم في الطبيعة المشكلة ، وتوقف الفقهاء في الخنثى المشكل .

وقوله : « **قس على ذلك في الأمور الدينيات والأمور الدنيويات** » ، يعني شدة مشقتها بسبب اشتباهها . ومن ذلك في الأمور الدينيات يوم الشك ، تمام ثلاثين شعبان ، وتمام ثلاثين رمضان ، كيف يُشكل على الناس ويُتعبهم غاية التعب إذا لم يتضح ويتبين ، فإنه بين أمرين كما ذكر : بين أن يكون من شعبان بوضوح الجو وعدم الرؤية فيترك صومه ، وبين أن يكون من رمضان برؤية هلاله فيلزم صومه . فلم يتبين أنه من أيهما ، هذا إذا اشتبه ولم يتبين ، فإن تبين كونه من أيهما ؛ فله حكمه ولا إشكال - كما إذا تبين الخنثى بالـمَبَال - وهذا في دخول رمضان ، وأما في خروجه فإذا تكدر الجو ليلة الثلاثين ؛ فالأصل إنه من رمضان ، فيُتِمُّ صومه إن لم يُر ، وإن كان رؤيته ممكنة أو صفَا ، ولم يُرَ ، وقد يكون الجو صافياً ويكون اختلاف واشتباه ، وذلك نادر .

وسبب الإختلاف في دخوله كما ذكرنا من وقوع ذلك في تريم سنة ١١١٦ ، وشهد اثنان عند القاضي برؤيته ، وأصبحوا مفطرين ، وسيدنا الحبيب أتم صومه ، وأمر فقراءه بإتمام صومهم ، وخَيَّرَ أناساً من أهل بيته ، بين أن يُتِمُّوا كما هو ، وبين أن يُفطِروا كسائر الناس ، كما تقدم ذلك من قوله . فلذلك صار أمْر هذا مُشكِل لاشتباهه هكذا ، لأنه أمر بين أمرين .

و قد تكرر ذِكْرُ هذا منا في هذا النقل لتأكيد وقوعه ، وإن كان مُستبعداً عقلاً وعادةً ، فقد وقع مع استبعاده ، لعل تكرره يؤثر في التصديق بوقوعه ، ليتبين بذلك صدق قوله : « **الأمور في هذا الزمان انعكست عن أوضاعها ، ورجعت إلى أضدادها** » ، وإن معنى كلمته هذه عام في أمور كثيرة وأحوال مختلفة .

وما ذكر من تفاقم أمر الخنثى المشكل على أهل العلم ، فللناس في شأنه وقائع كثيرة في الجاهلية والإسلام ، فيما يتعلق به من الأحكام الشرعية والأحكام العادية ، ونذكر قصتين من كل حكم ،

واحدة شاهدة لقوله : « فكم أتعب الفقهاء أمره » .

فأما قصة الحكم الشرعي الاسلامي : فذكر في « الفصول المهمة في أخبار الأئمة » في مناقب سيدنا علي ، ودقائق أقضيته ونوادر علمه وأحكامه ، حيث أنه باب مدينة علم النبي ﷺ حيث قال عليه الصلاة والسلام : « أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابها » ، وقال سيدنا عمر : « لا كانت معضلة ليس لها أبو الحسن » ، ولـمَّا طُلِبَ أن يجيء سيدنا عمر بيت المقدس وقد أعيا الصحابة فتوحه ، وقال أهل بيت المقدس عن قول عالمهم وبَتْرَكِهم : « نحن نعرف صفة الذي يفتح بلدتنا ، فأرونا إمامكم الذي أرسلكم نراه ، فإن كان هو فتحناها لكم » ، فأرسل مقدم الصحابة أبوعبيدة لسيدنا عمر يطلبه ، فشاور سيدنا عمر الصحابة في المسير ، فكلهم أشاروا أن لا يسير ، غير سيدنا علي أشار بالمسير وقال : « أَعْلِمْهُم أنك مجاهد في سبيل الله ، ومريح المسلمين من العناء والتعب » ، وقال سيدنا عمر : « اللهم إني آخذ بشورك يا علي » ، ثم سار إليهم وعمل بشوره ، فصار شوره هو الميمون المبارك . وذلك أن سيدنا علي سُئِلَ عن خنثى : « ماذا نُوَرِّثُه ، إرث الذَّكَر أو إرث الأنثى ؟ » ، فقال : « اتْبَعُوا الـمَبَال ، إذا كان له ذَكَرُ رَجُلٍ ، وفرج انثى ، فمن أيِّهما بال ، فألْحِقُوه بمثله » ، فرأوه يبول منهما جميعاً ، فأخبروه به ، فقال : « مسألة صعبة معضلة شديدٌ أمرها ، عدُّوا أضلاعه ، فإن كان أحد عشر فهو ذَكَر ، وإن كان اثنا عشر فأنثى » ، فعَدُّوها ، فرأوه على أحدهما ، فجَرَوْا على حُكمِهِ . وذلك أن آدم كان خُلِقَ له اثنا عشر ضلعاً ، فأخذ أحدها فخُلِقَت منه حواء ، ولها اثنى عشر ضلعاً ، فنقص من آدم واحداً وبقيت حواء كما هي ، وآدم كما هو ، فصار الرجال على حُكْمِ آدم ، والنساء على حُكْمِ حواء .

ومن نوادر قضائه ما قدمنا من حُكمِهِ بين أهل الأقراص الثلاثة .

وأما قصة الحكم العادي : فكان للعرب في الجاهلية فريض من قبيلة عدوان ، يقال له عامر بن الظرب ، ذُكر في سيرة الكلاعي : أن عامر بن الظرب العدواني كانت العرب لا يكون بينها نائرة ولا معضلة في قضاء إلا أسندوا ذلك إليه ، ثم رضوا بما قضى فيه ، فاختُصِمَ إليه في بعض ما كانوا يأتوه بأمْرٍ كان أعضل عليه منه ، فقال : « حتى أنظر في أمركم ، فو الله ما نزل بي مثل هذه منكم يا معشر العرب » ، فاستأخروا عنه ، فبات ليله ساهراً يُقَلِّبُ أمرَه ، وينظر في شأنه ، فلا يتوجَّه له منه وِجْهَة، وكانت له جارية يقال لها سُخَيلة ، ترعى عليه غنمه ، فكان يعاتبها إذا سرحت فيقول : « صَبحتِ والله يا سُخَيل » ، وذلك أنها كانت تؤخر السرح والإراحة حتى يسبقها بعض الناس ، فلما رأت سهره وقلة قراره ، قالت : « مالك لا أبا لك ، ما عراك في ليلتك » ، قال : « ويحك ، دعيني ، أمراً ليس من شأنك» ، ثم عادت له مثل قولها ، فقال : « عسى أن تأتيني مما أنا فيه بفرج » ، فقال : « ويحك ، اختُصِمَ إلي في ميراث خنثى ، أأجعله رجلاً أو امرأة ، فو الله ما أدري ما أصنع ، وما يتوجَّه لي فيه وَجْهٌ » .

فقالت : « سبحان الله ، لا أباً لك ، أتْبع القضاءَ المبال ، أقْعِدْهُ ، فإن بال من حيث يبول الرجل فهو رجل ، وإن بال من حيث تبول المرأة فهو امرأة » ، فقال : « مَسِّي يا سُخَيل بعدها أو ضَحِّي ، فَرَّجْتِها والله » ، ثم خرج على الناس حين أصبح ، فقضى بالذي أشارت إليه . انتهى ما استشهدنا به لقوله .

وتقدمت من نوادر فتاوى سيدنا علي ، وكشف معضلاته فتواه لأصحاب الأقراص في الثمانية الدارهم ، وهي عجيبة جداً ، وقد قال ذلك الحبر الذي لقيه سيدنا أبوبكر باليمن عام بعث رسول الله ﷺ ، فقال له : « إن النبي الذي يكون آخر الأنبياء يُبعَثُ هذا العام ، وستلقاه قد بُعِثَ ، فعليك باتِّباع المحجة البيضاء والشريعة الغراء والملة الزهراء ، ويعاونه على أمره رجلان كهل وشاب ، فالكهل قد عرفتُه » ، وتأمله ، فقال : « وهو أنت ، وأما الشاب فخَوَّاضُ غمرات وكَشَّاف مُعضِلات » .

و الغمرات : الحروب ، وما هو قليلٌ ما خاضها ، فقد قتل بيده في ليلة واحدة خمسمائة نَفْسٍ من الخوارج بصِفِّين ، وتُسمَّى ليلة الهرير .

ويعني بالمعضلات : الأمور المشكلات ، وكشفه لها كهذه الأمور التي أبان عنها . تم ما تكلمنا عليه من كلام مجلسه هذا يوم عرفة المذكور .

ثم دخل الناس عليه عشية الاثنين ٢٢ ذي الحجة من تلك السنة ١١٣٠، لمَّا صَحَّ من مرضه ، فكان غالب كلامه في قبائل الأرض ، أرض حضرموت ، من أهل الخلاء وأهل البلد ، فذكر أن آل باشيخ وآل باسالم يرجعون في النسب إلى أصل واحد ، وأن آل أحمد وآل جيد إلى أصل واحد ، وآل باجذيع وآل باغوث كذلك .

ثم ذكر باغوث الذي كان خادماً للدولة ، وقد تقدم ذِكْرُه مراراً ، ***فقال*** : **« ما هو قليل ما فعل ، فإذا جاءنا الناس يشكونه ، قلنا لا بد ما ينصف الله المظلوم من الظالم . فقال عليوان بن دامس** – وهو كان خادم سيدنا – : **مرادنا نشوف ما يفعل الله بهم .قلنا : هذه شماتة والشماتة مذمومة ، والظالم مأخوذٌ ، إلا إما أبطأ وإلا أسرع ، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَۚ﴾، وقد عاقب الله هذا الظالم وأخذه أشد أخذة ، ورجع جماعته يطلبون على الأبواب ، ولا أحد رثى لهم ، بعدما كان من صولته واستضعافه المسلمين . وهكذا جرت سنة الله في عباده »** ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا ه .

أقول : قوله : **« سنة الله في عباده »** ، أي عادة الله في خلقه ، أنه يُمهِل للظالم ولا يهمله ، بل يتركه في عماه يعمل ما يهواه ، حتى يستوفي قدر ما كتبه عليه من الظلم ، الذي سبقت مشيئته بفعله ، مما أراد أن يجازيه به أو يعفو عنه .

وقد تكرر منه ذكر قصة هذا الرجل مراراً بحسب ما تَجُرُّ إليه المذاكرة ، كما قال : « **الكلام يَجُرُّ بعضه بعضاً** » ، وتكرر نقلنا لذلك بحسب ما ننقل من كلامه في المجالس ، وإن تكرر وذكرنا كيف أخذ الله لهذا الظالم أشد أخذة ، وذلك أن السلطان الذي نصبه في الخدمة من آل كثير في ذلك الوقت ، أظنه بدر بن عبدالله ، ووقته وقت مسير سيدنا إلى الحج وهو عام ١٠٧٩ ، ويدل على ذلك أن بعض المؤلفين في كرامات سيدنا إما عبدالعظيم باشراحيل أو عبدالله ، الملقب بالسخيلة باشراحيل ، أو كلاهما وهو الغالب على الظن، ذكر عن بعض من حج مع سيدنا قال : « **لما وصلنا مع سيدنا إلى بلاد عدن من اليمن ، قال لنا : رمينا بدر بن عبدالله بسهمين فما أخطآه** » ، يعني كل منهما أصابه . وجاءهم الخبر أنه مات في مسير سيدنا إلى الحج ، وذلك أنه جعل باغوث المذكور نقيباً في تريم على ظُلْمِهِ وجَوْرِه ، فآذى المسلمين أذىً كثيراً ، وآخر من آذاه رجل كان خادماً لابن رواس من أهل قرية جعيمة ، وكان ابن رواس من أقارب السلطان ، فشكى إليه خادمه من أذى باغوث ، فجاء من بلده إلى تريم قاصداً لقتله، فمر على الحاوي واجتمع بسيدنا - أظنه قبل الحج - وقال : « **اقراؤوا لي الفاتحة على ما في نفسي** » .

وعادته يقول لمن طلب منه الفاتحة : « **على ما يرضي الله ورسوله** » ، فنسي أن يقول له ذلك حينئذ، فقصد باغوث ، فلقيه محتبياً في سكة الصَّوَغ منتفخاً بكِبْره ، فضربه بجنبية في جنبه حتى خرجت من جنبه الاخر .

ثم إن سيدنا ذكر تلك الكلمة ، فأرسل إليه رسولاً يقول : « **قل له : قال لك السيد إنما قرأنا لك الفاتحة على ما يرضي الله ورسوله** » ، فقال : « **سلِّم عليه ، وقل له : يقول لك : قد انقضى الأمر** » ، فهذه أشد القتلة التي ذكرها وما وعدهم به بقوله : « **لا بد ما ينصف الله المظلوم من الظالم** » .

و جاءه السيد زين العابدين العيدروس يوم الثلاثاء ٢٣ ذي الحجة من السنة المذكورة سنة ١١٣٠ ، فقال لسيدنا : « لعلكم إذا طلعتم الرقاد ما تجدون تعباً » ، *فقال* : « **قليلاً جداً ، وهو من بقايا شيء ، ولكن نحسه كالذي هو ذاهب ، وبانغلبه بالقوة ، وقوة الكبير ألّا ضعيفة ، ومرضه زيادة في ما معه من الضعف ، يعرف ذلك من نفسه . والعاقل ما يحتاج إلى التعلم ، لأن التجربة قد علَّمته ، ومن حَنَّكَتْهُ التجارب يعرف من نفسه ما لا يعرفه غيره ، هذا إذا كان الإنسان عاقلاً ، فإن كان لا عقل له ، أو هو ضعيف العقل ؛ فلا يفيده التعلم أيضاً ، وقد قيل : بعد العشرين لا يزيد العقل** » ، *قال* : « **يعني الغريزي - أي الطبيعي - وما بعد ذلك إلا الزيادة بالتجربة والمعرفة ، وهو من العقل الكسبي** » .

ثم امتد به الكلام - وهو معنى قول : « الكلام يجر بعضه بعضاً » - إلى أن *قال* : « **ينبغي أن يؤخذ كل شيء من عند أهله ، وإن أداه إليه العلم فلا يستغني عن أن يسمعه منهم** » ، وهو معنى قوله المتقدم:

« ينبغي أن لا يؤخذ العلم إلا ممن أَخَذَه من أهله ، لا ممن أَخَذَه من الكتب » .

فقال له السيد زين العابدين : « عسى أموركم المعتادة مثل القوت والنوم قد تراجعت » ، *قال* : « نعم ، هي كالعادة ، وما أحس شيء إلا إن كان بعض شيء في الدماغ ، حتى إنه يشغلني الكلام ، إلا إن كان عندي أحد ، فلا عذر من الكلام . وقد أوصي الأهل والعيال إذا دخلوا عندي ، وبقوا ساكتين، أقول لهم : تكلموا بعضكم مع بعض كما ترون من عادتي . وهم يرون هذه الأشياء أدباً ، وشيء منها من الأدب ، لكن ما هو بهذه الصورة ، ولكن من لك بمن يعرف » .

وسيأتي قوله : « وقِدْنِي أقول لهم : افْصِلوا بيني وبين الداخلين عليَّ ، إن أرادوا يتكلمون وحدهم أو يسكتون ، وإلا فلا يطلعوا ، وأمَّا إنهم يحيلون الكلام عليَّ ، فلا . والكلام فصول يَجُرُّ بعضه بعضاً ، فبينما أنت تتكلم بكذا ، انجَرَّ إلى كذا ، كالخواطر المترددة في الصدر » .

وقال : « الإنسان إذا طَعَنَ في السن ؛ ضاعت عليه الأمور ونسي ، حتى كأنه في سن التسعين . وقال أنس بن مالك في آخر عمره : ما عاد أعرف شيئاً مما كان في عهد النبي ﷺ . وأهل الزمان حَيَت نفوسُهم وماتت قلوبهم ، لأنهم لا هِمَّة لهم في الدين ، كيف يصلُّون أو يزكُّون ، إنما هِمَّة أحدهم ما يأكل أو يلبس . وكان الأولون نفوسهم ميتة وقلوبهم حية ، لأنهم ما يَهُمُّهم ما يَهُمُّ هؤلاء ، إنما يهمهم الحياء والدين » .

ثم ذكر قصة اللصوص الذين نهبوا قافلة فيها مال كثير ، وتأوَّلوا أنهم فقراء من أهل الزكاة ، ولا حرفة لهم غير التعسكر ، وأن المأخوذين تجار استغرقت أموالهم الزكاة ، فحَلَّتْ لنا لأنهم ما زكَّوها ، وكان مُقَدَّمهم فقيهاً عالماً ، وسألهم عن مسائل في الزكاة فما عرفوها ، بَيَّنَ بها ما ادَّعاه ، واستدل بذلك على صحة دعواه .

ثم قال سيدنا : « فانظر كيف هؤلاء - مع غفلتهم تأوَّلوا علم ما يجوز لهم ، وفي هذا الزمان ترى أناساً أخياراً أولاد أخيار ، لا يتفرغون لقراءة المختصر ، بل استغرقتهم أمور دنياهم - تَعْلَم فَرْق ما بين ذاك الزمان وهذا الزمان ، وهذا هو الذي كان موعوداً به ، إذ لولا ذلك لما خَلِقَ الدين وظهرت علامات الساعة » .

ثم إنه ذكر إنه سيخرج لصلاة الجمعة يوم ٢٦ ذي الحجة ، ثم قرأ الفاتحة ودعا ، ثم انقضى هذا المجلس وخرج السيد زين العابدين .

أقول : وقول السيد زين العابدين له : « لعلكم إذا طلعتم الرقاد » ، يعني صعدتم الدرجة .

وقول سيدنا : « من بقايا شيء » ، يعني نتعب من صعود الدرجة قليلاً لبقاء شيء من المرض ،

وهو كما قال : « ذاهب » ، لكن الكبير وإن قوي فقوته ضعيفة قد أَضْعَفَها الكِبَرَ ، وإن مرض فضعف المرض يجتمع مع ضعف الكبر مزيداً له ، ويعرف هو من ذلك ما لا يعرفه غيره ، ومن جربه يعرف منه ما لا يعرف من لم يُجرّب .

وقوله : « موعوداً به » ، أي موعود بأن الدين يَضْعُف ولا يبقى على قوَّته ، ولهذا اختلف أحوال أهل الأزمنة المتقدمة والمتأخرة في الدين ، وظهر الفرق بينهم فيه ، وأنَّ هَمَّ الأوَّلِين ما مُدِحَ في الدين ، وهَمَّ المتأخرين ما يذمه الدين ، وهو المراد بقوله : « خَلِقَ الدين » .

وبقية شرح هذا المجلس سيأتي في شرح المجلس بعده .

ولما ذكر إنه سيخرج لصلاة الجمعة ٢٦ ذي الحجة ، تَقَدَّمَهُ ابنُ أخيه السيد عمر بن علي الحداد بيومين ، وطلب منه الوعد ، واستأذنه أن يفعل عزيمة للغداء بحضرته ، فَوَعَدَه وأَذِنَ له جبراً لخاطره ، ففعل وليمةً وطلب معه العيال ومن يسايره ، ودعا جماعة من وجوه السادة وغيرهم ، فحضر بحضرته جَمْعٌ كثيرٌ ، وممن حضر هناك السيد أحمد بن زين الحبشي ، وصار هنالك في بيته مجلساً حافلاً ، وقَدَّمَ زاداً راهياً وطعاماً جماً ، فرحة بخروجه وسروراً بتمام عافيته ، وأخذ عنده مجلساً طويلاً ، فمما تكلم به في ذلك المجلس المنور المأنوس أن *قال* : « اليوم حُسْن السفر من الشحر إلى اليمن ، وذلك لعشر في البطين » ، *ثم قال* : « **لو أن أحداً فيه طاقة ، لسافر إلى الحرمين في هذه الأيام ، ما دام وقت الحج متراخياً، ومكث في الشحر إلى أن تتفق له ساعية مناسبة يطمئن بها الخاطر ، ونلقِّيها إلى المدينة ونحضر زيارة الرجبية ، وإن اتفق موت فلا فرق أن يكون بتريم أو بمكة أو في غير ذلك .**

وقد سافر جماعة من أهل التصوف في آخر أعمارهم ، كالشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه ، حج وهو ابن خمس وتسعين سنة ، حتى إن ابنه كان يقود به الناقة ، وذلك تواضعاً منه ، وإن كان يقدر على إمساكها . وحج السهروردي وكان قريب المائة ، فحُمِلَ على أعناق الرجال من بغداد إلى مكة . فهذه أسفارهم بأبدانهم ، والأمور السماويات على حالها ، كما هي ، لا تَعَلُّقَ لها بذلك – يعني مناهج الأرواح – **في معارجها . وقد قيل لواحد من آل باسهل ، كان من أهل الخطوة ، يقال : إنك تحج متى أردت ، فكيف ذلك ؟ فقال : يخطر ببالي الحج ، فما أحس إلا وأنا بمكة** » .

ثم قال سيدنا : « **وهذه الأمور ما هي إلا هكذا** – أي أحوال الكُمَّل من الرجال – **ومولى الشبيكة قال لعياله وأصحابه : إذا أردتم تُطوَى لكم الأرض ، أو أردتم شيئاً ؛ فاذكروا إسمي . وكذلك البقَّال وهو ألَّا عامِّي يبيع البقل ، لمَّا رأى ابن الفارض قال له: ما يُفتَح عليك إلا في مكة ، قال : وأين أنا من**

مكة ؟ فقال له : هذه مكة . فالتفت فرآها ، ولكن تَقَدَّمَت هذه رياضات ومجاهدات » .

ثم قال : « والعجب من أناس ، يذكرون في التواريخ أن الواحد منهم عُمِّرَ مائة سنة ، ومائة وعشر ، ومائة وعشرين ، وأكثر من ذلك من هذه الامة ، من بعد النبي ﷺ وجاي ، كيف يستقل أحدهم بالحركة والتصرف في حوائجه ؟ » .

ثم قال لي : « انْشِدْ » ، فأنشدتُ بالقصيدتين الأخيرتين : « الحائية والتي على اللام ألف » ، ثم مكث قليل ، ثم قال : « انْشِدْ بسوح المقام - يعني التي أولها : قل لأحبابنا بسوح المقام - وائْتِ من أثنائها » ، فأَتَيْتُ من قوله :

فَدَعِ الْعَجْزَ وَالتَّعَلُّلَ وَاسْلُلْ صَارِمَ الْعَزْمِ يَا لَهُ مِنْ حُسَامِ

إلى آخرها . وخَصَّها لما فيها من ذِكْرِ الحج والزيارة وذِكْرِ الحرمين ، وذكر ترحيل منازل السفر إلى ذلك ، وإلى تلك الأماكن المشَرَّفة ، وكيفية فعله المناسك لمَّا سافر إليها ، وخَصَّ منها الأثناء لكون ابتداء الكلام في ذلك منه ، وكل ذلك بل كل كلامه في هذا المجلس شوقاً وتشوقاً إلى المناسك والأماكن المعظمة .

ثم ختم المجلس بقراءة الفاتحة والدعاء ، فخرج الناس ، وبقي هو قليلاً يسلِّم عليه النساء والأطفال ، ثم خرج ، وجاء إلى داره وجلس مع السيد أحمد بن زين الحبشي في الدرع ، فأول ما جلس، قال : « قِدْ لنا من دخول هذا الدرع والجلوس فيه ، من ولادة علوي » ، يعني ولده ، وعلوي حينئذ أبو عيال وله من العمر نحو ٣٥ سنة ، لأن ولادته سنة ١٠٩٦ والآن سنة ١١٣١ ، قال سيدنا : « وكنا نقابل فيه الإحياء بالليل » .

أقول : وإنما ترك الجلوس فيه هذه المدة ، لأن خادمه عوض الذي تقدمت قصته معي في الأذان ، لمَّا حضر سيدنا ضحى يوم في ختم السيد أحمد المذكور البخاري ، وأمرني سيدي أن أُعَيِّنَ أول دخول وقت الظهر لأؤذِّن ، فعَيَّنْتُه وأَذَّنْتُ ، فأنكر عوض الأذان حينئذ ، لأنه متقدم كثيراً على وقت الأذان المعتاد ، فاتفق لما دخل وقت العصر ذلك اليوم أن سقط من أعلى دكة فغُشِيَ عليه ، فحُمِلَ مغشيًّا عليه، وبقي في غيبوبته إلى ثالث يوم ومات ، وكان مُوَضِّعاً في ذلك الدرع حوائجه ، وينام فيه وقت القيلولة، فترك سيدنا الجلوس فيه لذلك ، فلما مات دخله سيدنا ، وجلس فيه مجلسه ذلك مع السيد أحمد ، وذلك بعد موته ، أظن بثلاثة ايام .

وبعد ذلك مدة ما السيد حاضر قد يجلس معه في يوم الجمعة ، فذكر في مجلسه ذلك مع السيد أحمد أيام كان يجلس فيه لمقابلة الاحياء في الليل ، قال : « لا بد ما مر علينا جميعه دون الأبعاض خمسة عشر

مرة ، إلا ما أحد يتْقِن » .

وذكر أناساً كانوا يقرأون عليه ، ومن كان قرأ عليهم ، ثم قال : « من العجائب أن الفقيه باجبير قبل يروح الهند كنا نقرأ عليه في الفقه ، فلما جاء ، قرأ علينا الإحياء » ، ثم قرأ الفاتحة ودعا .

وطلع إلى الغيلة وجلس فيها مجلساً آخر ، وجرى بينه وبين السيد أحمد بن زين كلام ، قال له السيد: « الحمد لله أنتم بخير ، أقوى مما كنت اظن » ، فقال : « الحمد لله على نعمه وعافيته ، وكنت أردتُ أطلع الجمعة التي قبلها ، وبيني وبين عمر فيها وعد ، ولكن جَرَّبتُ نفسي بالحركة والقيام والقعود أنّي ما أطيق لشاغل الناس ومناتفتهم » ، فقيل : « إنها شاغل كبير » ، فقال : « شاغل من لا يدري ، وبَلونا بكثرة المصافحة ، وقد هممتُ أن أقول لواحد يقول لهم : بالقلوب ، لا أحد يصافح . أو أني أصلِّي العصر في الجامع ، لكن قلت لأي شيء ، لا أنا قاعد لهم ولا هم قاعدين لي ، وأهل البلد في طبعهم جفاوة وبداوة » . ثم قرأ الفاتحة وقام ، ودخل المُروَاح لِيَقِيلَ فيه ، وتفرق الحاضرون .

وذكر يوماً كثرة من يصافحه على الفرس حتى أشغلوه ، وتضرُّره بذلك ، فقال : « كنا حال القوة نمسك البغلة عن المسير رفقاً بهم ، ونأمرهم في طريق هود إما يتقدمون أو يتاخرون ، فلما رأينا من يتقدم منهم يحتاج إلى الخبَب ، وكذا من تأخر ، تأَنَّيْنَا لهم في المسير ، حتى إذا كان اليوم لو تحرك مسير الفرس قليلاً أشغَلَنا بسبب ضعف الأعضاء والقُوَى ، وهم يصافحون وينترونا ولا يبالون ، وإذا صافحَنا الشريف ، إذا مَدَدْتُ له يدي لمجرد المد لا بد ما يقع في خاطره . فالحاصل مع الناس لا بد من المقاساة لمن عرفهم أو لم يعرفهم ، لكن مقاساة من لم يعرفهم أسهل وأقرب إلى التقوى » .

وكان أيام نشاطه وزيارته للنبي هود يزور على بغلة ، وإنما ركب الفرس بعدها .

وطلب السيد أحمد بن زين بعد صلاة العصر للدخول عليه في الحاوي إلى الغيلة – وهي الغرفة- فدخل ومعه ابنه جعفر ، وأذن بحضوره لمن حضر بالحضور عنده من القُرَّاء وغيرهم ، فلما اطمأن بهم المجلس ، سأل السيدَ أحمد عن سن ابنه جعفر : « كم سِنُّه ؟ » ، فقال : « أظنه اثنى عشر سنة » .

فقال سيدنا له : « أنتم ما تعتادون تؤرِّخون المولود ؟ » ، قال : « بلى » .

قال : « لا تخلُّوا ذلك ، فإن عليه عمدة كبيرة في المواريث والأحكام ومعرفة البلوغ ، ومعرفة حين تأمره بالصلاة وغير ذلك ، ألا ترى ما يُذكر في التواريخ من تواريخ الولادة وغيرها ، وهذا في العموم، فكيف في الخصوص . وقد حَفِظْنَا تاريخ ولادتنا من الوالدة » .

أقول : قد تقدم سؤاله للسيد أحمد لما قدم من بلده بعد صلاة العصر في بعض الأيام ، ومعرفته لجعفر لما صافحه ومَسَّ كَفَّهُ ، فسأل السيدَ أحمد ، وقال : « هذا جعفر ؟ » ، فقال : « نعم » .

فسأله عن تاريخ ولادته وأجابه بما ذُكِرَ هنا ، وما ذَكَر من حِفْظِهِ تاريخ ولادته عن والدته ، وما تقدم من كلامه عند ذلك ، غير سؤاله فيما تقدم هناك بصورة لفظه ومعناه هنا ، فتقدم هذا الكلام كله ، وما ذكر من تاريخ ولادته هو ، وما وقع في سنة ولادته من الحوادث ، من موت السيد يوسف الفاسي في رجب منها ، وقتل السيد باجبهان ، وذكر العقرب التي باتت معه ملفوفاً معها في الثوب ، ومُكْثه طول الليل يصيح من لدغها ، حتى أصبح بدنه مُحَبَّزاً أحمر من لدغها ، وغير ذلك مما ذَكَر وقدمنا ذِكْرَه ، فأعاده هنا أيضاً كما هي عادته في المجالس ، قد يذكر كلاماً في مجلس وقد ذكره في مجلس قبله ، حسب ما تجر إليه المذاكرة .

وكان جعفر المذكور ابن السيد أحمد آخر أولاده ، وتقدمت فيه إشارة عجيبة وكرامة ظاهرة غريبة لسيدنا عبدالله نفع الله به ، وذلك إنه توفي للسيد أحمد المذكور ولد سِنُّهُ نحو سبعة عشر سنة واسمه علي ، قد حفظ القرآن ، وطلب العلم على والده حتى أتقنه ، وفيه نباهة كاملة وذكاء كلي ، ونشأ نشأة حسنة ، وطلع طلعة مباركة ، وكان أبواه مشغوفَين به لمَّا كان بهذه الأوصاف .

فمرض بنحو ثلاثة أيام ووافاه الأجل ، فحَزِنَا لموته حزناً شديداً ، واشتد كربهما عليه ، وكان السيد أحمد يرى أن سيدنا في هذه القصيدة يشير فيها إليه بقوله فيها :

يَـا اَحْمَـدَ اللهْ يُيَسِّرْ كُلَّ مَـا قَـدْ تَعَـسَّرْ	رَبُّنَـا اللهْ سُـبْحَانَهُ لَـهُ الْبَحِـرْ وَالْـبَرْ

إلى إن قال :

قَلْبِـي اصْـبِرْ عَـلَى المكْتُـوْبْ وَالَّا تَصَـبَّرْ	وَارْضَ بِالْحُكْمِ مِنْ رَبِّكْ حَلَا عِنْدَكْ أَوْ قَرْ

فقالت أمه – وكانا ابنَيْ عم – : « هيا بنا نزور السيد عبدالله الحداد ونلازمه ، أن لا نبرح من عنده إلا أن يبشرنا بولد مبارك يخلف علينا ذلك الولد علياً » ، فأتياه زائرَيْن مُضمِرَيْن ذلك العزم بطلب البشارة ، حتى إذا دخلا عليه وجلسا عنده أشارت إليه أن يتكلم ، فأشار إليها أن تكلمي أنتِ ، فاستحيَتْ أن تتكلم ، فقال السيد أحمد : « يا حبيب ، إن الشريفة – يعني زوجته – في نفسها كلام تريد أن تخبركم به » ، فقال لها : « **تكلمي بما في نفسك** » .

قالت ما معناه : « الله يحفظك ، أنت تعلم إن الولد علي خرج مزعة من قلوبنا ، وأتيناك عازمين على أن لا نبرح من عندك إلا أن تبشرنا بولد خلفاً منه ، ولد مبارك يخلف علينا ذلك الولد علي » . فقال

سيدنا للسيد أحمد : « **أهكذا جئتما على هذا القصد ؟** » ، قال : « نعم » .

وتكلم كلٌّ منهما بما في نفسه ، ورآهما اتفقا على مطلب واحد مُدلِّين عليه بما بينهما وبينه من القرابة ، إذ كانت أمه ابنة عم لأبويهما – على ما ذكرنا أن اسمها سلمى بنت عيدروس بن أحمد الحبشي صاحب الشعب ، وأبواهما زين وعيدروس ابنا علوي بن أحمد الحبشي صاحب الشعب المذكور ، وكان من أكابر السادة آل باعلوي – فذكرا له ما في نفسَيْهما من مطلوبهما ، معتقدين أن أولياء الله لهم ما يشاؤون عند ربهم ، ووافق بذلك قضاء الله وقدره ، فقال لهما : « **عادكما ألَّا جئتما ، ولو بشرناكما الآن قلنا لكما اركبا إلى بلدكما الآن ، لكنكما اصبرا إلى أن نرى رأينا ، وحتى تحصل لنا الإشارة في ذلك ، فإذا أخذنا كم يوماً أرسلنا لكما** » .

فلما مكث نحو ثلاثة أيام ، أرسل لهما يدعوهما ، فأتَيَاه فقال : « **سيرا على بركة الله ، ونبشركما بولد مبارك ، فسَمِّيَاه جعفر** » ، فسارا على إشارته ، وقابضين على وعده باعتقاد حصول مطلوبهما ، ثم بعد أيام جاء لسيدنا من السيد أحمد كتاب ، ذكر فيه أن الشريفة حبلت ، ثم بعد ذلك بتسعة أشهر أرسل لسيدنا كتاباً آخر ذكر فيه أنها ولدت ولد سَمَّيْناه جعفر كما أمرتم .

ثم نشأ هذا الولد نشوءًا حسناً ، وحفظ القرآن وطلب العلم ، وزاد على عليٍّ بزيادات كثيرة ، ولازم أباه واستمد من علومه ، وصار فيه البركة كما وعدهما بذلك ، وصار اليوم هو القائم في مقام أبيه، دون بقية إخوانه الذين هم أكبر منه ، وهم من غير أمه . فانظروا وافهموا واعتبروا يا أولي الألباب، وهو الذي ساله عنه . ثم لما بلغ سنه نحو الاثنى عشر سنة ، جاء السيد أحمد للزيارة ، وجاء بابنه جعفر معه، ووصل وقت عصر اليوم المذكور فيما تقدم ، فلما صافحه ومس كفه قال للسيد أحمد : « **هذا جعفر ؟**»، قال : « نعم » ، ثم سأله عن سنه وتاريخ ولادته ، وجرى الكلام المتقدم كله .

وهذا مجيء في صحة سيدنا قبل مرضه هذا وهو في عامه ، ثم هذا مجيء آخر بعدما انتعش من ذلك المرض ومعه ابنه جعفر أيضاً ، ثم طلبه للدخول ، وهو دخوله هذا ، ثم إن سيدنا أمر السيد أحمد في هذا المجلس المذكور أن يقرأ على قراءته في الموطأ للإمام مالك ، فقرأ من موقفه الذي وقف عليه في مدة مرضه من أثناء كتاب الصيام ، وبقي كل عشية بعد صلاة العصر يدعوه إلى عنده في الغيلة ، ويأمره بالقراءة فيه ، ويدعو معه من حضر للقراءة في وقتها هذا ، فيجتمعوا عنده .

ودعاه مرة فدخل ودخلوا ، فلما اطمأنوا جالسين جاء عبود بن إسحاق فصافحه ، فقال : « **أنت من ؟** » ، قال : « ابن إسحق » . فالتفت سيدنا إلى السيد أحمد وقال له يخاطبه بهذا الكلام : « **لله حكمة**

في ذِكْرِ إسحاق ، وهو أن الله تعالى إذا ذَكَرَه وذَكَر إسماعيل ، قَدَّمَ إسماعيل ثم ذَكَرَ إسحاق بعده ، لأن إسماعيل هو الأكبر ، وإن ذَكَرَ إسحاق أولاً أفرده ولم يذكر معه إسماعيل ، هل على بالكم هذا ؟ » .

قال : « لا » ، *ثم قال* : « وقد استبعد أهل العلم كون الذبيح إسحاق ، لأنه منقول عن أهل الكتاب، أرادوا ذلك لكون إسحاق جَدَّهم ، ومآثر الذبح إنما هي في الحرمين ، والحاضر هناك إذ ذاك إسماعيل ، وإسحاق كان في الشام ، وكان إبراهيم عليه السلام يجيهم زائراً في خُفْيَةٍ عن سارة ، فإن لم يتفق باسماعيل أوصى زوجته له بالسلام ، ويوصيها بكلام تُبَلِّغه إليه » .

ثم أمر السيد أحمد بالقراءة ، وبعدما تم قراءته أمرني بالإنشاد ، فأنشدتُ بقصيدة البرعي : « أتأمرني بالصبر والطبع أغلب » ، وهي ٩٠ بيتاً ، لِمَا أعرف إنه كان يستحسنها وتعجبه ، ويرغب في الإنشاد بها ، وإن كانت طويلة والمجلس متطرف . وبعد تمامها وسكوت المنشد ، قال للسيد أحمد : « هذه قصيدة غريبة ، وهي لعبدالرحيم ، هل سمعتموها ؟ » ، قال : « نعم » .

ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا ه .

أقول : قوله : « أوصى إبراهيم زوجة إسماعيل بكلام تبلغه إليه » ، يعني أنه كان يزورهم في بعض الأيام ، وتطوى له الأرض ، فكان يركب بغلته ويخرج من الشام بعد طلوع الشمس ، ويصل الحرم وقت الضحى ، ثم يرجع إلى الشام قبل الظهر ، فجاء مرة على عادته ، فلقي امرأته ، وكانت من العمالقة ، لمَّا جاءوا إلى الحرم واستولوا عليه ، وخالطهم إسماعيل وتزوج منهم امرأه ، فلما لَقِيَها قال : « أين إسماعيل ؟ » ، قالت : « ذهب إلى الصيد » ، قال : « كيف معاشكم وحالكم » ، قالت : « نحن في شدة من المعاش وأمر صعب » ، فأزعله قولها ، فقال لها : « إذا جاء ، قولي له : جاءنا رجل صفته كذا يُسَلِّم عليك ، ويقول لك : غَيِّرْ عَتَبَةَ بابك » ، فلما جاء قالت له ذلك ، فقال : « ذاك أبِي ، أمرني أن أُفَارِقَك ، اذْهَبِي إلى أهلك ، أو الْحَقِي بأهلك » ، فذلك كلامه الذي وَصَّى هذه له به أن تُبَلِّغَه إليه .

ثم إن جُرهماً – من قبائل اليمن – أصابهم في بلدهم قحط شديد ، فجاءوا إلى الحرم ، فالتقاهم العمالقة ، فحاربهم جرهم وغلبوهم واستولوا على الحرم ، وخالطهم إسماعيل وتزوج منهم امرأة، وكانوا عَرَباً ، فتعلم العربية منهم ، وامرأته بنت ملكهم ، واسمها رعلة بنت عمرو بن مضاض الجرهمي .

ثم إن إبراهيم أتاهم زائراً ، فلم يجد إسماعيل ، فسأل زوجته عنه ، فقالت : « ذهب للصيد»، فسألها: « كيف معاشكم وأحوالكم ؟ » ، فقالت : « نحن بحمد الله بخير ، اللحم كثير والسمن كثير واللبن كثير ، وأنت الليلة ضيفنا » ، ونحو ذلك . فأعجبه قولها ، فقال : « إذا جاء بعلك بَلِّغيه مِنِّي

السلام ، وقولي له : جاءنا رجل صفته كذا يبلغك السلام ، ويقول لك : أثْبِت عَتَبَةَ بابك » .

فهذا الكلام الذي أوصى هذه له به تبلغه اليه ، كما أشار إليه سيدنا .

ثم قال سيدنا إبراهيم لزوجة ابنه هذه : « ائتيني بحجر » ، فأتته به فاتّكى عليه بإحدى رِجْلَيْه وهو راكب ، وقال : « امشطي جانب رأسي » ، فمشطته . ثم قال إبراهيم : « ائتيني به من الجانب الآخر ، وامشطي جانب رأسي الآخر » ، فَفَعَلَتْ ، ثم رَفَعَت الحجر ، وقد أثَّرت فيه قدماه بعد مقامه عليه ، ثم بُنِيَ عليه قبة ، التي هي عليه الآن وهو فيها ، وهو المعروف بمقام إبراهيم الذي يُصلى عنده ركعتا الطواف . ثم سار إبراهيم عليه السلام إلى الشام ، فلما جاء إسماعيل من الصيد أبلغته سلامه وكلامه الذي أوصاها تبلغه إياه ، فقال : « ذاك أبي ، وأنتي عتبة بابي ، أمرني أن أمسكك ولا أفارقك». فقالت: « ليتني عَلِمْتُ أنه أبوك كنتُ أكرمتُه وطلبتُ منه المبيت عندنا » . قال : « تراك ما أبقيت من الإكرام شيئاً » ، فأمسَكَها وحَظِيَت عنده ، وجاءت منه باثني عشر ولداً ، أكبرهم نابت ، وفيه كانت ذرية إسماعيل عليه السلام .

وكلام إبراهيم لزوجَتَي إسماعيل ، هذه الجرهمية ، والأولى العملقية ، الذي وصَّى كلَّ واحدة منهما تقوله له ، هو الذي ذكرنا ، وهو الذي أشار إليه سيدنا من قوله للعملقية : « غَيِّر عَتَبَةَ بابك » ، حيث أزعلته بشكواها الفقر وضيق المعاش ، الدال على كفران نعمة الله ، وقوله للجرهمية : « أثبِتْ عَتَبَةَ بابك » ، لمَّا أعجبه قولها ، مما يدل على الحمد لله من ذكر الغنى والنعمة .

فمن ذرية إسماعيل من رعلة ، ثم من ابنها نابت ، عدنان هو الذي يُنسب إليه النبي ﷺ بأنه النبي العدناني ، وإليه صح نسب النبي ﷺ ، وأجمع عليه دون ما فوقه . وقال أهل علم النسب : « العرب بطنان : عدنان وقحطان » ، وعدنان أيضاً بطنان : ربيعة ومضر ، وقال النبي ﷺ : « لا تَسُبُّوا ربيعةَ ولا مُضَر ، فإنهما كانا مُسلِمَيْن » ، وأنشد بعض اليمانيين بين يدي النبي ﷺ هذا البيت :

إِنِّي امْـرِؤٌ حِمْـيَرِيٌّ حِـيْنَ تَنْسِبُنِيْ ... لَا مِـنْ رَبِيْعَـةَ آبَائِـيْ وَلَا مُـضَر

فقال له النبي ﷺ : « ذلك أَبْعَدُ لك عن الله ورسوله » ، يعني حيث افتخر بالنسب لا بالدين ، ورأى أنَّ حِمْيَرَ أفضل من ربيعة ومضر نسباً .

ولربيعة ومضر أَخَوان : إياد وأنمار ، فهم الأربعة أولاد نزار بن معد بن عدنان ، فأنمار دخل في الروم وخالطهم وناسبهم ولا عُرِفَ له نسب ، وأما إياد فكانوا قبيلة مستكثرة وكان مساكنهم نواحي الحساء من البحرين فعَدَت عليها عبدالقيس فعدتها عن مساكنها وسكنت فيها ، فكانت مواطنها جواثا والأحساء والقطيف ومر الظهران إلى عالج وبينونة وأطراف الدهناء . وآخر إياد : قس بن

ساعدة ، حكيم العرب ، وله قصص وأخبار يخبر بها عن النبي ﷺ قبل ظهوره، وأنه ظاهرٌ لا محالة ، وسمعه النبي ﷺ يخطب بسوق عكاظ ويخبر بظهوره ، ويذكر وصفه ، فأعجبه جداً ما سمعه يذكر عنه .

ومن قبائل مضر بن نزار بن عدنان : قريش ، وثقيف ، وبنو جشم ، وبنو تميم ، وعدوان ، وغيرهم، ومن قبائل ربيعة عبدالقيس وبنو شيبان وبنو عجل وبنو بكر بن وائل وبنو حنيفة وعنزة وغيرهم . ومن قبائل قحطان وهم اليمن : سبأ ، وحِمْيَر ، ومنهم كِنْدَة ، ومن كندة الصيعر ، ومنهم آل باكثير وغيرهم . ومن مضر قريش ، ومن قريش بنو هاشم ، ومن بني هاشم أكرم الخلق على الله محمد رسول الله ﷺ . ويقال لقبائل عدنان العرب العاربة والعرب المستعربة ، لأنهم ما تكلموا بالعربية إلا بعد ما تعلمها إسماعيل من جُرهم ، وهم قبيلة من قحطان . وقبائل قحطان يقال لهم العرب العرباء، لأنهم عرب من قبل إسماعيل .

وكان لغة إسماعيل وأبيه من قبل سريانية ، وهؤلاء عرب من أصلهم حتى إن إبراهيم لما أمره الله ببناء البيت كان يبني وإسماعيل يناوله الحجر ، فكان إبراهيم يقول بلغته : « هب لي كببا » ، وإسماعيل يقول له بالعربية لمَّا تعلمها : « اِقْبِض حجراً » .

وسبب وضع إبراهيم لإسماعيل عند البيت ، أن سارة زوجة إبراهيم كانت ترغب لإبراهيم بالولد، وهاجر جارية لها ، أعطاها لها النمرود ، فوهبتها إبراهيم وقالت : « تسرَّرها ، لعل الله أن يرزقك منها ولداً ، لما لم يحصل لك ذلك مني » ، فتسرَّرها فحملت ، فلما أَحَسَّت سارة بحملها جاءتها الغارية ، الطبع الجبلي في النساء ، والله سبحانه مسامحهن في ذلك ، ثم حنقت كاظمة ومتبصرة إلى أن ولدت ولداً ، فاشتد ذلك عليها ، فحلفت وأقسمت قسماً مغلَّظاً ، لتفعلنَّ بها أربعة أمور : أن تُدْمِيها ، وتُعزِّر بها ، وتقطع جزءاً منها ، وتُبعدنَّها عنها في أبعد محل ، لا تراها .

فأوحى الله إلى إبراهيم أن مُرْ سارة فَلْتَبَرَّ بيمينها ، بأن تُدمِيها بخرق آذانها ، وتقطع جزءاً منها بخفضها وهو ختان المرأة ، وتعزيرها بتحزيمها بسير فتشبه الرجل وهو تعزير لها ، وبتبعيدها عنها أن تضعها وابنها عند البيت ، فوضعها عنده وأنبع الله لهما زمزم ، وقال : ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ﴾ الآية ، فأسكنها هناك ، وجعل يزورهما ، ثم رحم الله سارة على غاريتها ورزقها إسحاق ، وجعل جميع الأنبياء بعده من ذريته ، إلا النبي ﷺ من ذرية إسماعيل .

فأسكنه وأمه عند البيت وقال بما أخبر الله عنه : ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ﴾إلخ ، وزودهما بجراب من زبيب وسقاء فيه ماء ، فلما فرغا صعدت هاجر على الصفا لعل أن تجد ماء ، ثم سعت إلى المروة فصعدتها تنظر ، وهكذا ترددت سبعاً بين الصفا والمروة وشرع السعي في الحج سبعاً ، فلما كانت

في السابعة فوق المروة رأت طيوراً كبيرة هـ .

أقول : قوله : « **ينبغي يؤخذ كل شيء من عند أهله** » ، تقدم قوله لفظه أو معناه : « **ولا ينبغي أن يؤخذ العلم إلا من الذي أخذه من أهله ، لأن المنسوب إلى شيء هو أعرف به من غيره** » ، ومن عادته أنه لا يحب أن يجلس الناس في حضرته سكوتاً ، ولو ذلك أدب ، لكن فيه استيحاش للجليس ، بل إن كان هو يتكلم فليستمعوا لقوله ، ففيه من الفوائد والتحصيل ما لا يحصل من غيره.

قوله : « **إذا طعن في السن ، ضاعت عليه الأمور** » ، يعني يكثر نسيانه وتخفى عليه الأمور ، كما تراه من حال الشيبان ، وتضعف حواسه وإدراكاته .

قوله : « **كأنه في سن التسعين** » ، هذا مثلٌ يُضرَب لمن هو في حال الشدة ، كما يقال : « **فلان في حلقة التسعين** » ، أي في شدة عظيمة.

وقول أنس : « ما أعرف اليوم شيئاً مما أعرفه في وقت النبي ﷺ إلا الصلاة وقد غيرتم فيها وبدَّلتم» ، وقد ذكر العلماء أن الرجل يدخل المسجد وهم في الركعة الأولى ، فيصِلُ البقيع ويزور - أي زيارة مخففة - ثم يرجع ويلحقهم في الركعة الأولى ما ركعوها ويدرك الصلاة كلها ، حتى إن سيدنا أبابكر رضي الله عنه قرأ في صلاة الصبح يوماً بسورة الأعراف ، فقال بعض الحاضرين : « كادت الشمس أن تطلع » ، فقال : « لو طلعت لم تجدنا غافلين » ، وأين صلاتهم هذه من صلاة الناس اليوم لو خرج من المسجد ومشى خطوات يسيرة ورجع ؛ فاتته الصلاة .

قوله : « حياة النفوس » ، هو تعلقها بأمور الدنيا مع غفلتها عن أمور الدين ، وعكسها حياة القلوب ، وهي تعلق القلب بمراضي الله وما ينفع عند الله ، وغفلتها عن أمور الدنيا ، فحياة كل منهما هو موت الآخر ، وموت كل منهما هو حياة الآخر .

وقصة اللصوص التي أشار إليها ، ذَكَرَها في كتاب « الفرج بعد الشدة » ، وذلك أنه ذكر أن هؤلاء الحرامية كان مُقَدَّمهم رجلاً عالماً ، فأخذوا قافلةً وفيها رجل عالم ، فلما رأى مُقَدَّمُهم على الرَّجل سيما العلم ، أمَرَهم أن يردُّوا عليه ما أخذوا عليه ، ثم إن ذلك الرجل عتب عليه تعاطيه مع قومه هذا الأمر مع معرفته بالعلم ، فاعتذر إليه بما ذكر سيدنا بأنهم ممن تجب لهم الزكاة ولا يعطونها ، وقال له : « سأُبيِّن لك أن أموالهم ما زُكِّيَتْ ، واستغرقتها الزكاة وصارت حِلًّا لنا » ، ومعنى استغراقها : إذا وجب ربع العشر في كل سنة ، ولم يُخرَج ، ففي كل سنة يُخرَجُ عن مُلكِهِم قدر ذلك ، حتى لم يبق معهم إلا أقل من نصاب الزكاة ، فهذا مِلْكهم فقط ، وما عداه كله زكاة يجب إخراجه . فسألهم سؤالات ، فتلَجْلَجُوا

عن الجواب ، فقال له : « أَعَرَفْتَ أنهم ما زكُّوا قط ، وأن أموالهم صارت ملكاً لنا » .

ومثل قصة هؤلاء ما تقدم من قصة السيد يوسف الفاسي - تلميذ الشيخ أبي بكر بن سالم - أنه قال له مكاشَف في بلاد الغرب : « إن لك شيخاً قبض بقلبك وأمسك بلسانك ، يريد يطرح لك فيه علماً لدنيًّا » ، وحلف له بعضهم أنه ليس في غربنا ، فقصد إلى مصر إلى عند البكري ، يقول لعله هو ، فساقته المقادير إلى الشيخ أبي بكر ، وكان الشيخ أبوبكر وعد به أصحابه ويقول : « لا تبلعني الأرض حتى يأتيني من الغرب رجلاً شريفاً حسنياً يقرأ في مدينة فاس » ، وما بيَّنه له إلا رجل جاء من الهند ومَرَّ بحضرموت ، ووصل عينات لزيارة الشيخ أبي بكر ، فسمعه يطريه ، فأخبره فقصده ، قال : « فلما خرجتُ من أرض المغرب قاصداً إلى مصر ، مررتُ بخبوت ومفاوز وقفار متسعة ، فرأيت قوماً يقطعون الطريق ومُقَدَّمهم رجل عالم ، وكل ما دخل وقت فريضة أذَّن لهم واجتمعوا إليه فصلى بهم ، فإذا رأوا مسافرا مارًّا في الطريق ، قاموا إليه فأخذوا من ماله قَدْراً معلوماً لا يزيدون عليه » ، قال : « فتذاكرت معه ولُمته على هذه الحالة ، فقال : نحن فقراء ، تجب لنا الزكاة ولا نُعطَاها ، فنتعرض في هذه الطريق لمن يمر بمال ما زُكِّي فنأخذ قَدْرَ الزكاة لا نزيد عليها ، ومن تحقق لنا أنه أخرج الزكاة لا نَمَسُّ ماله ، ولا نأخذ منه شيئاً » ، كذا ذكره في كتاب رحلته هـ .

وقال سيدنا يوماً : « **من جاء من القُرَّاء خلُّوه يدخل** » ، بعدما مُنِعوا من مرضه المذكور ، ومراده قُرَّاء الإثنين والخميس ، فجاؤوا وادخلوا عليه في الغيلة ، فأمرهم بالقراءة فقرأوا ، وهي أول قراءة وقعت بعد انقطاعها مدة مرضه ، وهذه قراءة الخميس والإثنين ، وهي ضحى ، وهي غير قراءة عشية كل يوم وأهلها غير أهل تلك ، وبعد ما تمَّت هذه القراءة في هذا المجلس ، قال للسيد أحمد بن زين الحبشي : « **قد تفعلون الذكر في خلع راشد ؟** » ، قال : « نعم » ، *قال* : « **عندكم من يشل مليح ؟** » .

فذكر ناساً يلحنون ، *فقال* سيدنا : « **إن شل الذي يلحن يفرق الباطن - أي القلب - ويشوشه ولا يقيم الباطن إلا المستقيم ، والأمور في هذا الزمان يحتاج فيها إلى المجاوزة ، لكن لا في كل الأمور ، بل في الأمور التي يقع فيها الخلل ، كالذين يقرأون القرآن ويلحنون فيه ، فتركهم للقراءة أولى منها** » .

ثم سكت قليلاً ، ثم قال : « **الفاتحة** » ، ثم دعا ثم خرجوا .

قوله : « **يحتاج فيها إلى المجاوزة** » ، يعني يجاوزها ويتركها فلا يفعلها ، لِيَسْلَم هو وَمَن سَمِعَه من الإثم في القراءة باللحن وسماعها ، وسؤاله للسيد أحمد عن شل الذِّكر قد يُنكِره الجاهل الذي لا ذوق له في العبادة والذِّكر ، وهو شأنه عظيم عند أهل الله والكاملين في معرفة الله ، كما قدمنا عن أبي

الحسن البكري وابنه محمد بن الحسن، والشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بافضل صاحب كتاب المختصر مختصر بافضل - الذي شرحه الشيخ ابن حجر - أنهم جعلوا مسمِّعين يسمِّعون عند رؤوسهم، عند خروجهم من الدنيا، حتى توفي كل واحد منهم والسماع يُضرَب على رأسه، لأنه كما تقدم شبيهٌ بأصوات الملائكة في أذكارهم، كما قال تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعۡدُ بِحَمۡدِهِۦ﴾، وقال النبي ﷺ: «يأتيني الوحي أحياناً مثل صوت الجرس»، ذَكَرَهُ في الصحيحين، وذلك الصوت شبيهٌ بضرب الحديدتين أحدهما بالأخرى، وتلك مشاربٌ عَرَفَها وذاقها مَن مَنَّ الله عليه بها، خلاف ما يظنه أهل الغرور والأماني الكاذبة.

ثم بعد الظهر من هذا اليوم - وهو يوم الإثنين ٢٩ ذي الحجة من سنة ١١٣٠ بين الظهرَيْن - أشرف عليَّ ابنه سيدي الحبيب حسن بأمره، وقال: «قال حبيبك: طالع لوحك، باتقع قراءة، وقل لفلان وفلان يطالعون ألواحهم». يعني بقوله: «لوحك»، أي درسك، يعني الموضع الذي وقفت عليه مدة مرضه، وذلك من باب الأذان من صحيح مسلم بعد ما خَتَمْتُ قراءة صحيح البخاري بأمره لي بالقراءة فيه، أمرني بالقراءة في صحيح مسلم. فقلت للجماعة الذين أمرني أقول لهم يطالعون ألواحهم، أي دروسهم عليه في كتبهم، وكنت مع هؤلاء من قُرَّاء عشية كل يوم، والمذكورون أولاً الذين يقرأون عليه ضحى يوم الإثنين والخميس، فدخلنا عليه في الغيلة بعد صلاة العصر وقرأنا قراءتنا المعتادة بعد انقطاعها تلك المدة، من٢٧شهر رمضان سنة ١١٣٠ إلى هذا اليوم المذكور، فاتفق ابتداء القراءتين، قراءة ضحوة يوم الإثنين والخميس، وقراءة قُرَّاء عشية كل يوم في يوم واحد، وهو هذا اليوم المذكور يوم الإثنين.

فمما تكلم به في هذا المجلس أن قال: «**قال أهل التجربة من أهل الحكمة: ستة - أو قال: سبعة - لا ينبغي أن يسكن إليها، من جملتها: الطبيب، والنهر**»، وما رأيت باقيها مكتوباً في الأوراق التي أنقل منها، التي كنت كتبتها بحضرته تلقاه حين تكلم بها، إما أنه لم يذكرها أو أني نسيتها حينئذٍ فلم أكتبها. وقوله من جملتها يدل على أنه لم يذكر منها إلا هذين.

ثم انجرَّ به الكلام حتى قال: «**حكمة المرتبة للأمور بعضها على بعض، حتى إن الإنسان إذا تفكر في توارد الألفاظ الواردة في الكتاب والسنة في هذا الباب يظنها متضادة ومتناقضة، حيث لم يعلم وجهها، فإذا تأمل في معاني مجاريها واطلع عليها عرف أنه لا تناقض هناك**»، ثم انقضى هذا المجلس.

وطلبهم للدخول عليه عشية الثلاثاء الذي يليه ، وهو سلخ ذي الحجة المذكور ، فاجتمعوا عنده في الغيلة ، فأمر بالقراءة في الكتب المعتاد قراءتها يوم الثلاثاء .

وهو أول ثلاثاء اتفق فيه ذلك بعد هذا المرض ، لأن له ذلك اليوم كتباً مخصوصة من كتب الأدب، ككتاب « مقامات الحريري » ، وكتاب « الفرج بعد الشدة » ، وكتاب « ربيع الأبرار » للزمخشري ، و كتاب « ديوان ابن الفارض » ، والقراءة فيه وظيفتي ، والقراءة فيه دائمة كلما خُتِمَ أُعِيد ، سوى قصيدة نظم السلوك التائية الكبرى ، وأما الكتب الباقية فربما يكتفي ببعضها عن البعض .

وما وقع في هذا الثلاثاء شيء من الكلام الذي يُنقَل .

ودعاهم للدخول عليه للقراءة بعد صلاة عصر يوم الأربعاء ، غرة المحرم فاتحة ١١٣١ هجرية ، فدخلوا وحشدوا وقرأوا ، والقراءة يومئذ لأهل البلاد ، إذ كان مرتِّبهم للقراءة ، يوماً لأهل الحاوي من عياله وفقرائه والنازلين بجواره بالحاوي ، ويوماً لأهل البلاد النازلين فيها ، ويخرجون يوم قراءتهم إليه في الحاوي ، ومن كان مجاوراً عنده من الغرباء يقرأون كل يوم مع الطائفتين ، وقراءتهم في كتب المعاملات كالإحياء ، وكتب التصوف والعقائد ، لا كتب فقه مجرد ، ولا غير ذلك ، وقد يكون في سِيَر الصالحين وتواريخ ، وما انفضَّ هذا المجلس إلا مع غروب الشمس ، ومما تكلم به في هذا المجلس المنور أن **قال** : « **إذا نَقَلَ أحدٌ كلام أحدٍ فليذكر الكلام كله من أوله إلى آخره ، فإن الكلام يُذكَر بالكلام، ويُعرَف معنى بعضه من بعض** .. » إلى آخر هذا الكلام .

وقد تقدم في المقدمة حرفاً بحرف إلى قوله : « **ولو ما ذكر إلا ما يقع بين الرجل وأهله** » .

وذكر في هذا المجلس قبل هذا ورغَّب في ترك محبة الجاه ، وذم طلب الترفع في الدنيا ، وبالغ في ذم ذلك ، **فقال** : « **ما مقصد أهل المعرفة إلا فراغ القلب لذكر الله ، ولا يحبون من يشغلهم بأي شيء كان أو بمدح أو بذم ، ومن طبعي أنه يشغلني المدح مثل ما يشغلني الذم ، إلا إني ما أُفَرِّق بينهما ، ولو جلس عندي أحد وقال : ما أقوم إلا إن قُمْتَ ، ولا أنام إلا إن نِمْتَ ، ولا أفعل شيئاً إلا إن فَعَلْتَ . شغلني كثيراً ، و نحن إذا جلسنا بين الأولاد والبنات والأهل وبقوا منتظرين لنا وساكتين بين أيدينا ، فَرِحنا بأن رَفَعَنا الله عندهم ، وسَلِمْنا من شرِّهم ، وما ينفع الإنسان إذا ارتفع في الدنيا وهو عند الله بخلاف ذلك ، ولا يميل إلى هذا إلا مَن ضَعُفَ عقلُهُ ويعدُّونه شيئاً . وإذا كان الإنسان عند الله رفيعاً لا يضره أن يكون وضيعاً عند الناس ، وإذا ارتفع عندهم ، ولا هو عند الله كذلك كان أشر له ، ولو سجد له جميع أهل الدنيا إلى شرق ما هو إلى القبلة ما نفعه ذلك ، ولو كان هذا ينفع لنفع النمرود وفرعون لعنهما الله ، فإن الله أهلكهما ، هذا في أربعة أبواعٍ من ماء ، والآخر ببعوضةٍ دَخَلَتْ دماغه ، أحبُّ الناس إليه مَن يضربه في رأسه** .

وقد كان يوم كُنَّا في الهجيرة يجلس عندنا وقت القراءة جملة ناس ، وفيهم أهل رئاسة ، واستأذننا رجل أن يقرأ بعدما ينصرفون هذه الآية : ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ إلى آخر السورة ، فأذِنَّا له وقلنا : القرآن بركة ولا بأس بها ، فبقي مدة يقرأها كذلك ، ثم بعد نهاه رجل منهم عن قراءتها ، لئلا يتوهَّم أنه يقصدهم بها » .

ثم انقضى هذا المجلس المبارك وقرأ الفاتحة ودعا وانصرفوا .

أقول : في معنى نهيه عن محبة المدح ، وما ذكر من طبعه أنه يُشغِله المدح ، ما سمعته يوماً يقول : « أنا لا أحب الشهرة لنفسي ولا لمن أحب » .

ومن تصرُّفه الذي مكَّنه الله منه في معنى ذلك ، مما رأيته وما لم أره أكثر ، أن رجلاً كان متسعاً في العلم ، في الفقه والفلك والحكمة ، حتى إن له مؤلفاً في الحكمة ، فأعطى مُؤَلَّفَهُ لسيدنا ، وأمر سيدنا ولده الحبيب علوي يقرأه عليه فقرأه وأعجبه ، وكان سيدنا يصف للمرضى من أدويته ، وجُرِّب نفعها، وكان من أهل الشحر ، فانتقل منها و نزل بجوار سيدنا ، رغبة في مجاورته وحضور مجالسه والصلاة معه وسماع كلامه ، وكان قد ابتلاه الله بالحمى ، قلَّ أن ينفكَّ منها ، فعَلَّمَني لها عزيمة مُجَرَّبة، كلما وَرَدَتْ عليه أرسل لي يطلب أن أفعلها له ، فأفعلها له ، فتتركه الحمى نحو سبعة أيام ثم تأتيه ، فأفعلها له كذلك ، فقلت له : لِمَ لَمْ تفعلها لنفسك ؟ قال : « ما ينفعني فعلي لنفسي ، بل فعل غيري لي » .

ثم إني ما اقتصرت عليه ، بل كلما رأيت محموماً أو ذُكِرَ لي محمومٌ فَعَلْتُها له فيبرأ في الحال ، حتى إني أدخل على المحموم والحمَّى تنفضه ، فأفعلها له ففي الحال تفكُّه ، ويجلس ويطلب الزاد ، فاشتهرت في بلدان حضرموت ، فيرسلون إلي يطلبونها إلى مسيرة ثلاثة أيام ، كدوعن ونواحيها ، فأفعلها لهم فيبرأون ، وفي هذا شهرة عظيمة ، فسمع سيدنا عني بذلك ، فناداني يوماً فأَجَبْتُهُ وصعدت إليه ، وهو واقف خارج من الغيلة يريد السطح الشرقي منها لِيَقِيلَ في المرواح في ذلك السطح ، والمرواح موضع فيه سقف يجلس فيه يسمَّى بذلك في لغتهم ، فصعدت إليه فقال : « **ما هذه العزيمة التي تفعلها للحُمَّى؟** » ، فقلت : عزيمة مُعَلِّمنيها فلان . وذكرت له كيفيتها ، فسمعها وسار إلى ذلك السطح ، ولا كلمني بعد ذلك بكلمة ، لا بأمرٍ ولا بنهيٍ ، بل ساكت ومضى ، واستشرفت إلى كلام يقوله لي من جانبها ، فما قال شيئاً ، ثم بعدُ ما أفادت تلك العزيمة شيئاً ، وفعلتها بعد ذلك مراراً كثيرة وما أقلعت الحمى عن أحد كما كان قبل ذلك ، فتركتها مدة حياته ، وبعده فعلتها رجاء أن يرد الله خاصيتها لنفع المسلمين ، فما نفعت ، فسَلَبَ نفعها خوفاً على خادمه من الشهرة في حياته وبعد مماته ، تصديقاً لقوله المذكور .

وما يتصرف مثل هذا التصرف مثل السيد عبدالله الحداد أحد ، كتصرفه في عدم تأويل رؤياي

المتقدمة مع رغبته في اطِّلاعي على تأويلها من غيره ، حتى ساقتني القدرة إلى فتح كتاب « حياة الحيوان»، فحين فتحته قابلني تأويلها من غير تصَفُّح ، بدليل شرطين سألني عنهما ، فرأيتهما في ذلك الكتاب بعينهما ، فاعجب غاية العجب .

وغير ذلك أشياء ما تحصى من إشاراته ومكاشفاته وكراماته مما رأيته أو سمعته أو وجدته في كتب أُلِّفَت في كراماته ، رضي الله عنه و نفعني به في الدنيا والآخرة .

ودخلوا عليه بكرة يوم الخميس ثاني يوم من المحرم للقراءة مبدأ سنة ١١٣١ ، فصافحه بعض الأشراف ، *فقال* : « **فلان - يعنيه - صار إماماً في السقاف ، ولا هناك كبير مؤنه ، والمعونة تحصل من الله، ولكن يجتهد الإنسان في التقوى والورع** » ، ومرة *قال* : « **إن الله ما يُعِين العبد على الشيء يفعله حتى يَشْرَعَ فيه** » ، *وقال* حينئذ : « **المنساة المذكورة في القرآن المراد بها العصا ، ولا ذلك على بال أكثر الناس ، وربما ظنوها غير ذلك ، يوم ما يطلبون العلم ، ولو أنهم طلبوه لحصَّلوا منه ما تيسر - أو المهم - وأشياء بعض الناس قائم فيها على الترك بالكلية ، وأحد منهم على التوسط ، وآخرين على المهم ، وأحد يمعن فيها جداً حتى يشتغل فيها بما لا يُشتغل به** » هـ .

أقول : يعني كما ذكر غير مرة أن ذلك كدقائق الفقه التي لا يُتَصَوَّر وقوعها كما قال : « **تَقَضَّت أعمارهم في تصوير مسائل لا يُحتاج إليها ، كقولهم : لو كذا ، لو كذا ، مما تنقضي الأعمار ولا وقع شيء منها** » .

وقد طال عليه هذا المجلس جداً ، وأشغله كثرة الجلوس ، ثم ردفه مجلس القراءة عشية هذا اليوم، وكانا مجلِسَيْن طويلَيْن في يوم واحد ، أول النهار وآخره ، مع ما انضم إلى ذلك من تعب مجلسه عشية الأربعاء قبله إلى الغروب ، فعوَّدَت عليه الحُمَّى ، وهي خفيفة لم تمنعه من الخروج لصلاة عشاء ليلة الجمعة ، ولم يطلع لصلاة الجمعة .

ثم دعاهم بعد صلاة عصر يوم الجمعة للدخول عليه في الحاوي ، فدخلوا وفيهم كثرة ، وأمر السيد أحمد أن يقرأ على قراءته ، وأن تقرا الكتب المعتاد قراءتها في البلاد بعد عصر كل جمعة ، وكان مجلسه هذا في الحاوي بدلاً من مجلسه في البلاد ، واستخلف منه حينئذ السيد عقيل باعقيل مسافراً إلى دوعن ، وطلب منه الفاتحة فقرأها ودعا ، فلما صافحه قال له يوصيه : « **اللهَ اللهَ في الدعاء إلى الخير ، والوصية بما يحسن منك أن توصي فيه ، لمن يليق به ذلك ، كلٌّ على قدر حاله** » .

ثم فوّض ذلك المجلس قبل الغروب .

ودخل عليه السيد زين العابدين يوم الثلاثاء سابع المحرم من سنة ١١٣١ ، فمما خاطبه به بعد أن ذكر العلماء وتصانيفهم ، **فقال** : « **نقلوا مسائل متقررة ، وإنما زادوا مسائل قريبة ترغيباً للناس في العلم، فسهّلوا لما رأوا الناس مالوا عن هذه الشاكلة ، وراحوا إلى معانٍ بعيدة ، كمن رأى مُقبِلاً ففتح له الدار**»، ثم قال السيد زين العابدين : « على رأيكم ، عسى غدوة بالأربعاء نسبّر في المطالعة امتثالاً لأمركم»، **فقال** : « **إن شاء الله ، لأن مرادنا أن تكونوا على عادة سلفكم وأجدادكم من اعتياد القراءة والتصدي لها، ولا تنقطع من بيتكم هذه العادة بالكلية ، وشغل الوقت بما هو الأحسن** » هـ .

أقول : وذلك أن سيدنا كان أمرني إن أطالع مع السيد زين العابدين المذكور في البخاري والإحياء ضحى يوم السبت وضحى يوم الأربعاء في بيته ، فطالَعْنا مدة ، فلما حصل على سيدنا هذا المرض المذكور في السنة المذكورة ، تركنا المطالعة لما حصل من اشتغال الخواطر من ذلك ، ثم لما خَفَّ عنه وبرئ منه ، استأذنه السيد زين العابدين هذا الإستئذان في العود إليها ، والإبتداء فيها من يوم الأربعاء هذا ثامن المحرم من السنة المذكورة ، فأذن في ذلك .

ثم قال : « **وهذه كلمات نعتاد نقولها في مجالسنا ، لا بد لنا أن نقولها** » ، ثم ذكرها ، ومراده أن نقولها عند الابتداء في المطالعة مع السيد زين العابدين ، وكلما أردنا الإبتداء فنبتدي بقولها ، فلما خرج السيد زين العابدين ، قلت لسيدنا في ذلك المجلس : عساكم تُمْلُونها عليَّ أكتبها ، **فقال** : « **نحن نكتبها ونرسلها لك في وقت آخر ونحن متريضين ، فربما يحصل فيها غلط الآن حيث طال بنا المجلس ، فربما ليس هناك اجتماع خاطر** » ، **ثم قال** : « **يا حساوي ، الكلام كثير ، والعمدة إلا على صلاح القلب** » .

فلما كان عشية هذا اليوم كتبها وأرسلها إليَّ مع ابنه السيد زين العابدين بخطه، وهي هذه : « **بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله ، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ، نويت التعليم والتعلم ، والنفع والإنتفاع ، والمذاكرة والتذكير ، والإفادة والإستفادة ، والحث على التمسك بكتاب الله وسنة رسوله ، والدعاء إلى الهدى والدلالة على الخير ، ابتغاء وجه الله ومرضاته وقربه وثوابه سبحانه وتعالى . انتهى ما أملاه الشريف عبدالله بن علوي الحداد باعلوي ، وذَكَر أنه يقوله عند أول ما يجلس لتعليمه العلم وقراءته عليه ، والله تعالى يستجيب ويتقبل من الجميع بفضله وكرمه . وكان ذلك بتاريخ وقت العصر يوم الثلاثاء لسبعٍ خَلَت من المحرم أول سنة إحدى وثلاثين ومائة وألف** » .
انتهى بلفظه .

أقول : ثم مررتها عليه بعد أن انفض مجلس القراءة في عشية هذا اليوم الثلاثاء المذكور ، خوفاً من الغلط . ثم دعاني إشراق يوم ثانيه ، وهو يوم الأربعاء ثامن الشهر المحرم ، *وقال* : « **مُرَّها** » ، فمررتها عليه ، فأمرني بإصلاح ألفاظ فيها ، وهذا المذكور هنا هو بعد الإصلاح ، ثم أمرني بالمسير إلى السيد زين العابدين للمطالعة وأنقلها له .

وذكر في مجلسه ذلك مع السيد زين العابدين شيئاً من بُدُوِّ أَمْرِه ، *فقال* : « **بعد أن ختمتُ القرآن قال لي والدي : إقرأ في الفقه ، وعندنا نسخة صحيحة مليحة من الإرشاد تحفَّظْ فيها ، وكان معي طرف من عبادة ، ولكنها على قدرها ، وكان سِنِّي إذ ذاك دون خمسة عشر سنة** - أي نحو سنة ١٠٦٠ ، ولكن قبل شهر ولادته وإلا لكان تم ١٥ - **وكنت أجالس السيد سهل الكبش ، وكان كثيراً ما أسمعه يذم الفقه وأهله ، وينكر على ناس من الفقهاء ويذمهم ، حتى الشيخ ابن حجر . فقلت لوالدي : ما بغيت القراءة في الفقه ، فإن رجلاً من السادة يذم الفقه وأهله . فقال : الإنسان ما يستغني عن الفقه ولا عذر له منه . فقلت : أريد القراءة في البداية . فقال : مليح ، وعندنا أيضاً منها نسخة مليحة ، وعزمت على حفظها ، فحفَّظني الوالد حينئذٍ من أولها إلى قوله : وها أنا مشيرٌ عليك .**

وكان الفقيه باجبير يقري في النويدرة ، يقرأ عليه كثير من السادة وغيرهم ، فرُحت إلى عنده وحضرت مجلسه ، تَقْدِمَةً للإستئذان في القراءة ، ومرادي أن أستأذنه في القراءة في مرة أخرى ، فأتيته في اليوم الثاني ، وقلت : أريد أن أتحفظ في البداية وأقرأ عليك فيها . فقال : إنَّ حِفْظ البداية عَسِر ، وعندنا ناس يقرأون فيها ، فاستمع عليهم حين يقرأون ، وتحفَّظ في الإرشاد ، فوافَقَتْ إشارتُه إشارة الوالد. فقلت : الإرشاد حِفْظُهُ عسر ، فكيف أتحفظه ؟ فقال : نحن نخلِّي من يحفِّظك ويستمع عليك فيه . فأجَبْتُ لذلك لموافقة إشارته إشارة الوالد ، فلقَّنني تلك الساعة من أول الإرشاد قوله : الحمد لله الذي لا تُحصَى مواهبه ، ولا تنفذ عجائبه ، ولا تُحصَر له مِنَن ، ولا تختص بزمنٍ دون زمن . فخرجتُ من عنده وقد حَفِظتُ ذلك . فما زلتُ أستمع على الذين يقرأون في البداية ، وأتحفظ عنده في الإرشاد ، إلى أن وصلت إلى محرمات الإحرام .

ثم إن السيد أبابكر بافقيه عزم إلى الهند ، وزيَّن للفقيه باجبير المسير معه ، وأنه قائمٌ له بكل ما يحتاج إليه ، فسافر معه وبقي معه في الهند مدة قريبة ، ثم وقع بينهما منافرة ومناكرة ، فانتقل الفقيه من عنده إلى دقرور ، فوجد فيها السيد عبدالله بن شيخ ، وكان السيد ممن كان يقرأ عليه ، فبقي عنده مدة قام بكفايته وجبره ، ثم إن الفقيه رجع إلى حضرموت فقرأ علينا الإحياء بعد أن رجع ، وهذا من عجيب الإتفاق، أن كُنَّا نقرا عليه في الفقه فرجع يقرأ علينا » هـ .

أقول : قوله : « **كان معي طرف عبادة** » ، ذكر ذلك في مجلس مؤانسة مع السيد زين العابدين وفراغ بال وانشراح خاطر ، وستر ذلك بقوله : « **ولكنها على قدرها** » ، يعني قاصرة غير كاملة ، فاشرأبَّ قلبه لعبادة الله والميل إليها ، وسِنُّه كما قال دون الخمسة عشر سنة ، بل وهو طفل صغير . وهذا يؤيد ما تقدم من قوله : « **إن الإنسان يظهر عليه وهو طفل خُلُقُه وطبعُهُ المجبول عليه إذا كَبُر** » ، يعني يظهر عليه في طفوليته عنوانٌ من حاله الذي سيصير إليه إذا كبر ، كما تراه مشاهداً في كثير من الصغار ما آل أَمْرُهُم إليه وهم كبار .

وما ذكر عن السيد سهل الكبش من إنكاره الفقه وذَمِّهِ له ولأهله ، فهو رجل مجذوب ، والمجذوب يُحْتَمَل منه ما يقول ، ويُسَلَّم له ويُعتَقَد ، ولا يُتَابَع فيما يخالف الحق والصواب . وربما رأى من أحد ممن يدَّعي معرفة الفقه أمراً يُنكَر ، فظن أن كلهم كذلك .

وقوله : « **حفَّظَني الوالد من أول البداية إلى قوله : وها أنا مشير عليك** » ، فهذه إشارة ومشورة من الإمام الغزالي لمن يعيها ويأخذ بها ويقف عندها ، بأن يعمل بها ولا يتعداها ، وكل السادة آل باعلوي مقتدون بذلك ، حتى إنهم يقفون عندها عند قراءتها وإقرائها ، إشارةً إلى الإعتناء بالعمل بها ولا يتعدونها ، كما قال الشيخ علي بن أبي بكر بن السقاف في قصيدة له في مدح « البداية » ، فقال :

إنَّ البِدَايَـةَ سِـفر نُـورٍ يـشرَحُ ... عِلْمَ الشَرَائِعِ والحَقَائِق تلقحُ

إلى أن قال فيها :

فِيْهـا مِـنَ الـبَرَكَاتِ أَمْـرٌ هائـلٌ ... في ضِمْنِهَا مَا لَيْسَ يُحْصَى وَيُشْرَحُ

فِيْهَا المَشُورَةُ مِنْ إمامٍ كَامِلٍ ... تَلْقَى بِهَا سِرًّا يَدُوم ويلقحُ

ويريد بالمشورة ، قوله : « وها أنا مشيرٌ عليك .. إلخ » ، وتقدم قول سيدنا : « **فيها ميزان عجيب ذَكَرَهُ مصنِّفُها ، فليجرِّب نفسه به** » ، يعني به قوله ذلك . وكان من عادة سيدنا أنه إذا ابتدأ القارئ في « البداية » ، إذا وصل هذا الموضع ، قوله : « وها أنا مشيرٌ عليك » ، يقول له : « **قف هنا** » ، ولا يتركه يتعداه ، **وقال** : « **قال الشيخ أبوبكر بن عبدالله العيدروس صاحب عدن : قال لي أبي الشيخ عبدالله بن أبي بكر : هات البداية ، فأتيته بها فقال : إقرأ فيها ، فقرأت عليه من أولها ، فلما بلغت هذا الموضع ، قوله: وها أنا مشيرٌ عليك ، فقال قف عنده ، وقال : قال لي عمي الشيخ عمر المحضار : هات البداية ، فأتيته بها ، فقال : إقرأ ، فقرأت فيها عليه ، حتى وصلت قوله : وها أنا مشيرٌ عليك ، فقال : قف عنده ، وقال : أمرني أبي الشيخ عبدالرحمن – يعني السقاف – أن آتيه بالبداية ، فأتيته بها ، فقال : إقرأ ، فقرأت فيها ، فلما وصلت إلى قوله : وها أنا مشيرٌ عليك ، قال : قف عليه ..** » .

هكذا سيدنا عبدالله يرويه عن هؤلاء الأكابر ، وكان دأبه التأسي بهم والإقتداء بهم في كل أمر دقَّ أو جلَّ ، من عبادة وعادة ، ولا يحب أمراً يخالف ما مر عليهم .

حتى إن رجلاً أراد أن يفعل بِرْكَة كبيرة ، يجتمع فيها قُلَّتَين فأكثر ، في ماء يصب من جبل كشخب الضرع ، ويجتمع في حفرة صغيرة يقدِّرها الناظر نحو إبريق ، ويجتمع عندها ناس كثير للتنزه هناك بذبائحهم وقدورهم ، ويغسلون ذبائحهم منها ، فخاف على ذلك من النجاسة ، واستأذن سيدنا في ذلك ، فقال : « **شيئاً مر عليه السلف من السادة لا نتعرض فيه ، ولستم بأعرف بالله ، ولا بأحكام الله منهم ، ولا بأتقى لله منهم** » ، ومن العجيب مع قلة الماء المذكور ، يمرق منه القدور الكبار ، يفعلونها شُرْبَة ، حتى يمرق القدر الذي يطبخون فيه نحو سبع قياسات الحساء ، والقياسة قهاول سيئوني . والموضع مَكْشَت معلوم مشهور بالغَبرة ، وهو عندهم اسم للموضع الذي يخرج منه الماء .

فكان سيدنا عبدالله يقتدي بهؤلاء الأكابر وأمثالهم ، ويتأسى بهم ، ولا يحب أن يخرج عن اتباعهم قيد شبر ، لرسوخ أقدامهم في متابعة رسول الله ﷺ ، والإقتداء به لما جُبِلَ عليه من صغره من محبة متابعة الحق والصواب ، طبعاً وجِبِلَّةً لا تَطَبُّعاً ، ولما سبق له من محبة الله له ، لقوله تعالى لرسوله عليه السلام : ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ﴾، وذلك لكمال حظه ونصيبه من قوة الإيمان ، صار هواه متابعة نبيه جَدِّه ، فيما ورد وصدر ، لما ورد في الحديث الصحيح : « لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به » ، يعني لا يكمل إيمانه .

وهذا من شرط القطب ، أن يكون منطبعاً على أمور الحق كلها ، فكان طبيعة سيدنا عبدالله أن يتبع أهل الكمال من أسلافه في كل أمرٍ بلغه عنهم ، وذلك بعد كمال اقتدائه المطلق في كل شيء وفي كل حال، من عبادة وعادة ، وفي كل قول وفعل ، وفي جميع الحركات والسكنات ، باطناً وظاهراً ، بجَدِّه سيد المرسلين وخاتم النبيين صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين .

حتى سمعته غير مرة يقول : « **لولا أن سلفنا من آل باعلوي أخذوا بمذهب الشافعي ، كُنَّا أَخَذْنا بمذهب مالك ، لأن عمدته ما أجمع عليه أهل المدينة ، وهذه عمدة عظيمة لكن الشافعي مالكي ومالك شافعي** » ، يعني كلهم في طريق الحق سواء .

وكان رغبته في اتِّباع هذه العمدة العظيمة ، لتحققه أنها تسلك به طريق الحق قطعا ، ولكن تَرَجَّحَ عنده أنَّ اتِّباع طريقة أسلافه سالكة به إليها ، لاجتهادهم في تحريها قبله ، ونفاذهم إليها في الأوقات الصالحة النية فيها ، وسهولة سلوكها في الأوقات السالفة ، لعموم الحلال ، ونبات لحوم الناس فيها على الحلال ، بخلاف هذه الأوقات التي كثر فيها الحرام ، و نبت اللحوم منه ، و « كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به » .

وتقدم قوله : « **وقد حصل لنا من الفقيه باجبير الإسناد في الفقه إلى ابن حجر على اثنين : أبوه ، وأبوبكر بافقيه** » ، فأخذ عن أبيه ، وأبوه عن بافقيه ، وبافقيه أخذ الفقه عن ابن حجر ، والذي سار الهند وزيَّن ذلك للفقيه ابن ابن الذي أخذ عن ابن حجر سمي باسمه .

وأما الفقيه باجبير فأدرَكْتُ له ولد اسمه أبوبكر ، في سن يزيد على الثمانين سنة ، وهو صاحب القصة مع سيدنا عبدالله في زيارته معه لأحمد بن عيسى ، وكان صائماً ، فأمره بالإفطار ، وقال له : « **ليس من البر الصيام في السفر** » ، فأبى أن يفطر ، وما امتثل أمره ، فابتلاه الله بشدة العطش ، حتى أفطَرَ قهراً ، فشرب ماء وعجز عن إتمام الصوم ، وعند الزيارة جلس مُرَابضاً لزيارة سيدنا ليزور معه ، فما زار حتى غلبه النوم فنام ، فزار سيدنا وحده ، وقال : « **ما صدقت على الله أنه نام** » ، ومراده أن يخلو وحده في الزيارة ، ولا يكون معه فيها أحد .

وهذا ابن الفقيه باجبير الذي قرأ عليه في الفقه وسِنُّه دون ١٥ ، ولهذا ابنٌ اسمه عبدالرحمن بن أبي بكر بن الفقيه باجبير ، وكان كلُّ منهما كثير التردد على سيدنا ، ولهما فيه صحيح محبة وحسن عقيدة، ويَدِلَّان عليه لما يعرفان من قراءته على أبيهما ، وكان هو يعرف لهما محلهما من الفقيه أبيهما بحسن البشاشة لهما والإقبال وتمام المعروف والإحسان إليهما ولمن يتصل بهما ، وهو رضي الله عنه أهلٌ لكمال حسن الوفاء ومحل له ، نفع الله به في الدارين .

ومن العجب أن عبدالرحمن هذا مرض مرضاً شديداً ، حتى أشرف منه على الموت ، فجزع عليه أبوه أبوبكر جزعاً مفرطاً ، وجعل يتردد على سيدنا مراراً كثيرة يشكو إليه مرض ابنه ، ويطلب منه له الدعاء بالعافية ، ويأخذ له منه وفاء كثير مرات - يعني ماء يقرأ له عليه ويسقيه ابنه - فاتفق أن الولد برئ وتعافى ، ومرض الأب ، ثم ما أبطأ ومات .

ورأيتُ مثل ذلك كثيراً في حضرموت والحساء ، أن يمرض الولد فيجزع عليه الوالد من أب أو أم، فيصح الولد ويمرض الوالد ثم يموت على قرب . ومثل ذلك فيما رأيت غير مرة أن بعض الناس يتمنى الولد مدة ، ثم إذا حصل له الولد ما يبطي ويموت الأب .

وقد تكرر ذكره لباجبير في مجالسه ، فتكرر نقلنا لكلامه ، وإن كثر تكرره وأيام ابتداء قراءته عليه، حيث قال : إن سِنَّه إذ ذاك دون الخمسة عشر سنة ، فيقرب من نحو سنة ١٠٦٠ .

ودخوله في خلوة الهجيرة تقدم قوله أن ابتداء ذلك سنة ١٠٦١ ، وسِنُّه نحو ١٧ سنة ، ومدة خلوته كما قال : إلى سنة ١٠٧٣ ، وذلك مدة ١١ سنة وسِنُّه إذ ذاك ٢٩ . ومَرْضَته التي ذَكَر أنها سنة ١٠٧٠ وسِنّه نحو ٢٦ .

وتزوج أول زواج سنة ١٠٧٣ بعربية من جهة الهجيرة ، قال : « **قلنا العربية أسهل علينا ، وما مِنّا شيء لِشَرَهِ الأشراف** » ، يعني وما لنا طاقة لِشَرَه الأشراف ، وسِنّه حين زواجه هذا ٢٩ ، يعني بعد تمام خلوته ، قال : « **وبعد الزواج نبقى في الليل بالبيت ، والنهار في الزاوية** » .

وأيام كان في زاوية الهجيرة مختلياً مدة الأحد عشر سنة ، هي أيام مجاهدته واجتهاده ، وظهور حقيقة أمره الذي بان عليه في طفوليته ، قبل قراءته على باجبير الذي عناه بقوله : « **وكان معي طرف عبادة** » ، أي في أيام الطفولية ، وسَتَرَ ذِكْر ذلك بقوله : « **ولكن عبادة الصغير على قدرها** » ، بَعَّد شأنها بأنها قاصرة ضعيفة لا تُذْكَر .

وكان في مدة ما كان في خلوة زاوية مسجد الهجيرة الأحد عشر سنة يطوف كل ليلة على مساجد تريم كلها أو أكثرها يتعبد فيها ، ويصلي في كل مسجد ما تيسر له ، يسير إليها مع خادم له . وأدركت خادمه هذا الذي كان يسايره كل ليلة ، واسمه أحمد بامزادان ، وكان شيبة كبير السن ، أظن سنه يزيد على الثمانين سنة ، وسألته عن تَرَدُّد سيدنا إلى المساجد كل ليلة وصلاته فيها ، فقال : « إنه يطوف المساجد كلها كل ليلة يصلي فيها ، حتى إن المساجد المقلودة المهجورة التي ما يُصَلَّى فيها ، كنت أوطِّي له ظهري فيقف عليه ويتشربع - يعني يتسلق - ثم يقفز ويصلي ما بدا له ، ثم يتشربع فأتشربع له وأقبض بيده » .

والمساجد المهجورة كمسجد بامروان الذي بطرف المجف كان أتلى ما يأتيه منها ، حيث هو في طرف البلد ، يخلِّيه أتلى ما ياتيه من المساجد ، وبقية المساجد التي في وسط البلد التي هي مساجد السادة المأثورة ، كلٌّ منها بنسبته إلى صاحبه ، كمساجد السقاف الثلاثة ، ومسجد الشيخ عمر المحضار، ومسجد آل باعلوي ، والجامع ، والشيخ علي ، والسكران ، وهو بقرب بامروان ، فهما آخر ما يأتي منها، ويأتي بامروان بعد السكران . وغير هذه المساجد كثير من مساجد تريم ، حتى إنه ليلة ٢٧ من شهر رمضان يختم بسبع وعشرين مسجداً ، فما ظنك بكثرتها . و من ليلة ١١ تبدأ ختوم المساجد ، ومنها كل ليلة وتر ، لمساجد متعددة إلى آخر الشهر .

وفي مدة مجاهدته هذه وما يقرب منها يكون قد أتى بالثلاثة التي قدمنا أنه كان يقول : « **ما أنا متأسف إلا على ثلاثة ، أن لا أكون أفعلها** » ، وذكرناها وهي : التشفيع في رمضان ، يعني قراءة القرآن كله في صلاة التراويح ، وصلاة الصبح بوضوء العشاء ، يعني كما ذُكِرَ ذلك عن بعض السلف ، إذ قلبه مشرئبٌّ إلى متابعتهم في كل أمر ، واعتكاف العشر الأخيرة من رمضان ، يعني كما كان ذلك من عادة رسول الله ﷺ ، لشغفه بمتابعته في كل حال وكل فعل وقول ، من عبادة وعادة ، وذكرناها فيما تقدم ، ومراجعتي معه الكلام فيها ، حتى قلت له : قد فعلتوها فيما سبق ، فيكفيكم عن فعلها الآن .

قال : « نعم ، ذاك والبصيرة إذ ذاك ضعيفة والقوة قوية ، واليوم القوة ضعيفة والبصيرة قوية » ، إلى آخر ما تقدم . أتُرى وهذا اجتهاده كما وصف منه ؛ ويعرف تلك المذكورة وهو يتمناها ويتركها ؟ لا والله ، ولو أن بعضها تعجز عنه طاقة البشر ، كصلاة الصبح بوضوء العشاء ، فيؤيده الله لذلك ، لأن الأمور إنما هي بالهمة ، وهمته إذ ذاك تقطع الحجر .

وقد قيل : إن الهمة هي الإسم الاعظم ، يعني سلطان الأسماء ، الذي تنفعل للإنسان به الأشياء ، وأنت ترى بعينك في العادة إذا قصد الإنسان إلى قضاء حاجة بهِمَّة قوية انقضت حاجته ، وإن قصدها بلا همة - سيما إن سعى فيها كالمكره - أن حاجته لا تنقضي وتتعوق ، وهذا كثيراً ما يقع ، فإذا مَنَّ الله بالهمة بكمالها على عبد ، فإن الله سبحانه إنما فعل له ذلك ليفعل له ما تقتضيه .

ولقد والله رأينا بعض الناس تَأَتَّت له في الأمور المعاشية مع الهمة أشياء أنه يقطع العقل والحال أنَّ تأتِّيها له من المحال ، فكيف هذه الأمور العلوية التي منبعها من فيض المدد الإلهي ، فما بالك ما بالك وقد كان معروف من سيرة شيخنا الشيخ محمد بن صالح بن دوغان أنه يتوضأ آخر الليل لبقاء نحو الثلث أو الربع ، ويصلي بذلك الوضوء صلاة الليل والضحى وفريضة الظهر ، وذلك معروف من سيرته لكل جماعته والمترددين عليه ، ولا يعتاد النوم في النهار ، وله إذ ذاك أعني سنة ١١١٥ نحو ٤٠ سنة مواظباً على الوضوء ، وكان يوصينا أن لا نجالس الأولياء والأكابر إلا على وضوء ، ولا تأتَّى لنا العمل بذلك ، فسير الأولياء من فيض الفضل لا بتكلُّف ودعوى .

وأما سيرة القطب السيد عبدالله الحداد نفع الله به ، فتأمل فيما ذكرنا وفيما سنذكر من خصوصيته على من تقدَّمه ، فكم ترك الأول للآخر .

وتقدم ما يفهم من فحوى كلامه ، ذكر أن ابتداء قراءته على باجبير وسنه دون ١٥ سنة أن ذاك سنة ١٠٥٨ وسنه نحو ١٤ و نصف ، إلى سنة ١٠٦١ وسنه نحو ١٧ ، ثم سار باجبير إلى الهند مدة نحو سنتين ، وسن سيدنا نحو ٢٠ وذلك سنة ١٠٦٤ ، ثم رجع وقرأ على سيدنا نحو ٥ سنين إلى أن بلغ نحو ٢٥ سنة ، وذلك نحو سنة ١٠٦٩ ، وأنه في هذه السنة أو قريباً منها أَسَرَّ لباجبير تلك الكلمة ، وهي قوله : « **إن حبيبك له ثلاثة أيام منذ دخل مقام القطبية** » ، يعني نفسه ، قالها له في خلوة وهما خارجين من التربة لزيارة أكابر السادة ، فكان من قولها له وسنه نحو ٢٧ ، وبقي في ذلك المقام إلى وفاته سنة ١١٣٢ نحو ٦٣ سنة . وقَلَّ من مكث في هذا المقام الشريف هذه المدة ، وإنما ذلك خصوصية له على غيره كما تقدم .

وتقدم بيان علامات تدل على ذلك ، فإن هذا المقام لا يبلغه من أراد الله له بلوغه إلا بعد الأربعين ، وهذه خصوصية أخرى ، وإذا أراد الله سبحانه أن يخص عبداً من عبيده بخصوصية فلا يتوقف ذلك

على عادة ولا شرط ولا سبب ، فقد خلق آدم بلا أبوين ، وعيسى بلا أب ، فالأنبياء جرت عادة الله أن لا تأتيهم النبوة إلا بعد بلوغ الأشد وهو العشرون ، والإستواء وهو الأربعون ، كما كان ذلك في حق نبينا وغيره ، فقال تعالى في حق موسى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَٱسْتَوَىٰٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وهو النبوة ، ثم إن الله تعالى آتى يوسف النبوة في العشرين ، على غير تلك العادة ، فقال تعالى : ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾، وكذلك يحيى بن زكريا على غير هذه العادة ، فقال تعالى : ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا﴾.

فافهم أن إرادة الله تعالى لا تتوقف على عادة ، ولا على شيء ، بل إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون ، فهكذا شأنه سبحانه في الأنبياء ، فكذلك شانه في الأولياء إذ الكل إرادته وتدبيره في خلقه. فقد أجرى عادته أن لا يبلغ مقام القطبية من أراد له ذلك إلا بعد الأربعين ، وأن لا يمكث فيه بعد بلوغه إلا أياماً قريبة ، وأكثر من ذُكِرَ أقام فيه الشيخ عبدالقادر الجيلاني نفع الله به ، مكث إلى أن توفي نحو ثلاث سنين ، وإلا فالغالب دون ذلك أو أيام مهلة .

حتى ذكر صاحب « المشرع الروي » أن الشيخ القطب عبدالرحمن السقاف باعلوي إنما مكث فيه إلى أن توفي ثمانية عشر يوماً ، والفقيه المقدم نحو سنة أو قريباً من ذلك ، فلا يبعد بمقتضى الإرادة الإلهية وتصرفه سبحانه بما شاء أن يبلغ سيدنا عبدالله الحداد مقام القطبية وهو ابن خمس أو سبع وعشرين سنة ، وأن يمكث فيه نحو ثلاث وستين سنة ، فافهم .

وثبت أن القدرة الأزلية والمشيئة الإلهية لا تتوقف على أمر ، من عادة أو سبب أو مانع ، بل ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾، ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ . فاعلم أن الانبياء والمرسلين والأولياء والصالحين في ذلك على حالتين ، وكل مؤمن تَبَعٌ لهم في ذلك :

الحالة الأولى : حالة الجمع ، وهو التعلق بالله في كل جَلْبِ نَفْعٍ بلا تعلق في ذلك بسبب ، وفي دفع كل ضررٍ بلا تعلقٍ في ذلك بمانع ، فلا يرون سبباً ينفع ولا مانعاً يدفع إلا بإرادة الله ، وتسمى هذه الحالة الحقيقة . والحالة الثانية : وتسمى حالة الفرق ، وهي النزول عن هذه إلى حالة الإلتفات إلى الأسباب في جلب النفع ، وإلى الموانع في الدفع ، واعتقاد نسبة ما أثرت الأسباب والموانع إلى الله الذي هو على كل شيء قدير ﴿أَن يُصِيبَكُمُ ٱللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِندِهِۦٓ﴾، كما فعل بمن عصاه بلا مدخل فيه لمخلوق ﴿أَوْ بِأَيْدِينَا﴾وهو القتل، وهو على أيدي الخلق ، ونَسَبَ الله كلا الأمرين في هذه الآية إلى نفسه ، وتسمى هذه الحالة الشريعة ، وهي نسبة الأسباب إلى الخلق ، والحقيقة نسبة الأمور وأسبابها وموانعها إلى الله .

انظر شأن النبي زكريا في حالة الجمع عدم الإلتفات إلى الأسباب والموانع حيث قال أولاً : ﴿وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا﴾، فسأل الولد مع العُقْر المانع من الحمل ، ولا التَفَتَ إليه ، فلما بُشِّر بالولد وبَرَدَ خاطرُه من طلبه ، انتقل منها إلى حالة الفرق ، التي هي الإلتفات إلى تأثير

الأسباب والموانع ، فقال : ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَكَانَتِ ٱمۡرَأَتِي عَاقِرًا﴾، فتعجب من حصول الولد مع العُقر ، وفي الحقيقة والشريعة ﴿قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ﴾، انتهى .

وكان مسجد بامروان - المتقدم الذِّكر - موضع تدريس الشيخ عبدالرحمن بن علي ، كما قدمنا من قصة الطير الذي أرسله له تلميذ له من شبام بورقة يسأله عن مسألة يحض على جوابها في الحال ، فما وجد أسرع له من طير يأتيه ، فإن شبام عن تريم مسيرة يوم ، من طلوع الشمس إلى غروبها ، فيحتاج مع غاية السرعة إلى يومين سائراً وراجعاً ومبيت ليلة ، ومراده الجواب في الحال ، فكتب الورقة ورمى بها إلى الطير ، فالتقطها بمنقاره وطار بها ، وفي لحظة وصل إلى الشيخ عبدالرحمن بن علي ، وهو في هذا المسجد يدرِّس ، فرفرف فوق رأسه وحذف الورقة في حِجْرِه ، وهو واقع على الحائط ، فرأى السؤال، فكتب الجواب في الحال في ظهر الورقة ، ورمى بها إلى الطير ، فاختطفها وطار بها ، ووصل بها إلى السائل في لحظة - أظن مدة مضيه ورجوعه قدر قراءة نحو نصف جزء - .

فاعجب لأحوال هؤلاء الأولياء ، كيف لقوة صدقهم تنفعل لهم الأشياء ، وتنخرق لهم العوائد بقدرة الله وإرادته ، وذلك لا يكون إلا بعد خرق عوايد النفس ، فكل ما حصل لك من مكاره النفس، فافرح به ، فإنه تذليلٌ لنفسك حتى تنخرق عنك عوايدها ، فتنخرق لك العوايد من الله ، فإن هذا تربيةً لك حيث إنك لم تتركها اختياراً سلَّط الله ذلك عليك اضطراراً لتألفه ، ويأخذ طبعك عليه ، ويكمل منك تسليم الأمور إليه ، وتفويض أحوالك كلها له ، والإنطراح بين يديه ، فإن الله سبحانه إذا أحب عبداً ابتلاه ، فإن صبر اصطفاه ، فإن رضي اجتباه ، والإجتباء مقام فوق الإصطفاء .

فالإبتلاء ثمرة المحبة فلا تكرهه ، والإصطفاء ثمرة الصبر ، والإجتباء ثمرة الرضا ، وتترقى بذلك إلى مقام عبادة الخواص المقربين السابقين ، وهو الرضا الذي قال ﷺ : « اعبد الله على الرضا»، وترفَّع عن درجة عبادة العامة الأبرار أصحاب اليمين ، وهي العبادة على الصبر ، كما بينه ﷺ في هذا الحديث، حيث قال : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خيرٌ كثير » .

فكل سعي أكابر الأولياء على تحصيل ذلك المقام ، لكن أحد أراد الله له بلوغه ، فأرسل عليه باعثاً يجذبه به إليه ، فيتركون ملاذ النفس اختياراً أولاً بِكُرْهٍ ، وآخراً بعد التمرن بالتذاذ ، وآخرين أراده لهم لكن سلَّط عليهم مكاره الدهر ، حتى تمرنوا عليها ، فالتحقوا بهم وصاروا في الحال مثلهم ، وأظهر الله على أيديهم كرامات ، كما أظهرها على أيديهم . ويشهد لذلك قصةٌ سَمِعتُها بحضرموت ، وهي أن بعض سلاطين حضرموت توفي وله ولد صغير ، فانتصب عمه - أخو الميت - في السلطنة ، فأطاعه الناس كرهاً ، وحبس ابن أخيه الصغير خوف أن يميل الناس إليه ، ويسلطنونه عليهم ويتركونه ، ومكث مدة حياة عمه إلى أن مات نحو اثنى عشر سنة .

قال سيدنا : « **فحصل له بذلك رياضة** » ، ثم تسلطن ذلك الولد على الناس وصارت سيرته سيرة الصالحين ، حتى كان إذا قُدِّمَ له الطعام الأرز المحمَّس المليح قال : « لسنا ملوك أرز ، قدِّموه لسوَّاس الخيل ، إنما نحن ملوك الدُّخن » ، فيؤتى له بالدخن ، فيأكل منه مع كرهه للنفس وشهوتها للأرز أكثر .

ومر يوماً على مقبرة سيئون ، ورای امرأة تبكي عند قبر ، وذلك آخر يوم في فصل الصيف الذي يسمونه الخريف ، فقال لخادمه : « سِرْ إلى هذه المرأة واسألها ما بالها تبكي ، هل ميت لها أحد ؟ » ، فسألها فقالت : « ما مات لي أحد ، وإنما أبكي لكون فصل الخريف با يخرج ولا حصل لنا فيه غيث من جور سلطاننا ، هذا الظالم الله يفعل به ويترك ، وأخاف أن يقع علينا بسبب ذلك قحط شديد يتعبنا» ، فأخبره بقولها ، فقال للخادم : « قل لصاحب الحصن أن يحوّل ، وقل لرجل يقف على الطريق يكورِم»، وليس بالجو شيء من الغيم ، بل صحو صافي بلا كدورة ، فما أحسوا في الحال إلا والسيل قد أقبل بقوة وكثرة ، فقال للخادم : « رح انظر شأن تلك المرأة » ، كل ذلك في جلوسها ذلك ، فسار إليها، فرآها مسرورة تضحك ، وقالت : « الحمد لله أن أغاثنا قبل خروج هذا الفصل » ، فقال لها : « هذه بدعوة سلطانكم الذي تقولين أنه ظالم » . فقالت : « جزاه الله خيراً » ، فهذا ما أهَّله الله له بسبب تلك الرياضة، بإرادة الله له ذلك .

والحصن : هو القصر الذي يجلس فيه النقيب ، ينظر من يقدم على البلد من بُعدٍ ، وهو مرتفع .

قوله : « يحوّل » ، يعني يقول كلمة معلومة عندهم يقولها من رأى السيل ، يُخبِر به من لم يره ، فإذا سمعه أحد فرح واستبشر بقدوم السيل ، وهي أن يقول : « يا حول حولاه » ، يقول سامعه له : « بشَّرك الله بالخير » ، فهذا قوله : « قُل له يحوّل » ، يعني يقول ذلك كذلك .

وقوله : « يكُورم » ، هو عندهم من رأى كثرة البرق والرعد متواترة ، يرفع صوته يقول : « ياكريم، ياكريم » ، مراراً ، فيفرح من سمعه راجٍ للسيل ، هكذا في لغتهم .

ونخلة الجهة إذا شربت من المطر في هذا الفصل من نزول الشمس برج السرطان والأسد والسنبلة، قبل نزولها برج الميزان ، تطيب جداً ، وتأتي في العام المقبل أضعاف ثمرتها المعتادة ، ولا يكون ذلك كذلك إلا بشربها من المطر في هذا الفصل خاصة ، ولهذا بكت المرأة لخوف فَقْدِ ذلك ، ورجاء حصول كثرة الثمر ورخاء السعر لذلك . ولقد رأيت نخلة ميتة يابسة محروق نحرها ، ومرَّ تحتها السيل في هذا الفصل ، فأخرجت طَلْعاً ، ولكن ما صلح طَلْعها ويبس .

والمراد أن المتدرب على محن الدنيا ومكارهها ؛ أقرب إلى رضا الله من الجَزُوع الهلوع ، وعبادته هي العبادة الكاملة كما قال ﷺ : « اعبد الله على الرضا ، فإن لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير» .

وقال سيدنا لي : « لا تَدْعُ لنفسك إلا باللطف والعافية ، فإن هذه الطريق كثيرة البلايا والمحن »، يعني طريق عبادة الله الموصلة إلى الله ، وقال سيدنا موسى : « يا رب ، متى أعلم رضاك عني ؟ » . فأوحى الله إليه : « رضاي عنك في رضاك عني » .

وبامروان صاحب المسجد المتقدم ذِكْره ، هو شيخ سيدنا الفقيه المقدم في الفقه ، قرأه عليه حتى أحكمه ، وبلغ فيه الغاية القصوى ، وكان السادة إذ ذاك مع تعلقهم بالعلم الظاهر - الحديث والفقه - والعمل ، يحملون السلاح ، حتى جاءت الخرقة من بامَدْيَن بأمر رباني إلى الفقيه المقدم خرقة التصوف، فرمى حينئذ بالسلاح ، وكسر سيفه ، ودفنه في التراب ، وقال : « الفقر خير ، الفقر خير » ، ودخل طريقة التصوف ، وكذا السادة تركوا السلاح تبعاً له ، ولم يُعرَف حمله فيهم إلى الآن ، وهلم جرا .

وغضب على الفقيه شيخه بامروان لتركه التعلق بالفقه ، والتجرد للعبادة ، وقال له : « أردناك تكون مجتهداً في العلم ، فتركته بالكلية » . ولبامروان مع سيدنا الفقيه المقدم قصة عجيبة من أجل ذلك ، أسمعها على ألسنة المنتسبين إلى العلم في تريم ، وذكرها في « الجوهر الشفاف في مناقب السادة الأشراف » ، ومعناها على ما حفظت ، ولا أعلم لو اختلف بعض اللفظ ، وذلك أن بامروان كان قرأ عليه الفقيه الفقه ، حتى تبحر فيه ، فلما جاءته الخرقة من بامدين ودخل طريقة الصوفية ، وترك المطالعة في الفقه ، وتجرد للعمل ، فزعل عليه شيخه بامروان بتركه الفقه ، وهجر كلامه ، وبقي كلٌّ منهما على حدته بمعزل عن الآخر . فاتفق أن سيدنا الفقيه سار يوماً إلى الخلاء ، فتوفي بامروان في غيبته ، ولا جاء إلا بعد فراغهم من تجهيزه ودفنه ، ولا شهد الصلاة عليه ، فاختلى الفقيه في منارة الجامع ، وآلى على نفسه أن لا ينزل منها حتى يأتيه شيخه بامروان ويرضى عنه ويحلِّله .

فصعد مؤذن الجامع بارضوان لأذان العصر أو المغرب أو غيرهما ، فرأى باب المنارة من فوق مقلوداً ، وسمع من داخل رَجُلَين يتحدثان ، وعرف أصواتهما كشفاً أو حِسًّا أنهما الفقيه المقدم وشيخه بامروان ، ومن جملة ما سمع من كلامهما أن بامروان قال للفقيه : « إلزم طريقتك التي أنت عليها، فإنها حق وصواب » ، وأن الفقيه قال له : « وما يَذْكُرُني به أهل البرزخ ، أو هل لي ذِكر عند أهل البرزخ، أو كلمة نحو ذلك ؟ » ، فقال له : « إن أهل البرزخ يترجُّونك كما يترجى أهل تريم الخريف » .

أي أوان الرطب ، انتهت القصة بمعناها هـ .

واستأذن سيدنا رجل في الحج ، فقال : « مليح ، حجُّوا هذا العام ، ففي الخبر : من حَجَّ حَجَّة أدى

فرضه ، ومن حج الثانية داين ربه ، ومن حج الثالثة حرَّمه الله على النار » ، ثم حكى قصة ، فذكر : « إن رجلاً حج ثلاثاً ، ثم إنه أسر - أي أسره الكفار - فأرادوا إحراقه فلم يحترق ولم تضره النار ، فتعجبوا من ذلك ، فسألوا عن ذلك بعض العلماء ، فقال : اسألوه كم حج من حجة ؟ فسألوه فقال : ثلاثاً ، فقال - أي ذلك العالم - : لهذا ، لأن الله حرَّم من حج ثلاثاً على النار » هـ .

أقول : علم سيدنا أن هذا السائل كان مستطيعاً فأمره بالحج ، ورغَّبه في الزيادة على الفرض .

وقد سمعت مرة رجلاً استأذنه في الحج مع أمه ، وعلم أنه غير مستطيع ، فأمره أن يصلي الصبح في جماعة ، ويجعلها تصلي مع الجماعة ، بحيث لا يراها الرجال ، ويجلسان في محلهما يذكران الله إلى أن ترتفع الشمس ، ثم يصلِّي كلٌّ منهما ركعتين أو ما تيسر ، فذلك لهما بحج وعمرة كما ورد .

فاعجب لحكمته وسياسته نفع الله به وتتبعه الأحكام والدعاء إليها على قانون العلم .

وذُكِرَ له أن رجلاً غضب على ابنٍ له فحذفه بشفرة - يعني سكين - فأصابت منه مقتلاً ، فكان فيها حتفه *فقال* : « لا حول ولا قوة إلا بالله ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، هذا بسبب الغضب ، والغضب من الشيطان ، فينبغي للإنسان أن لا يعمل شيئاً حالة الغضب أبداً ، لأن كل شيء يفعله في تلك الحالة غير سديد ، ويريض الإنسان نفسه بتكلف الصبر ، والإمساك عما يقتضيه الغضب ، حتى يتعود ذلك فلا يغلبه الغضب ، وقد أمر النبي ﷺ أنه إذا كان قائماً فليقعد ، وإن كان قاعداً فليقم » هـ .

أقول : وقد رأيت رجلاً من السادة آل بن يحيى ، عنده ابن كامل طلب العلم وتبصر فيه ، وكان يحبه كثيراً ، فاتفق أن غضب عليه يوماً ، فحذفه بشفرة كالمهيب له فأصابت منه مقتلاً ، وحضر أجله فمات في الحال ، فحزن عليه أبوه حزناً شديداً ، وأسف على حذفه ، فبرح فيه الحزن ، فما تم الأسبوع ومات . وهذا الحذف بالشفرة عادة للبدو ، فأخذها منهم مخالطوهم من الحضور ، كما في قصة البدوي الذي حذف السيد باجبهان فقتله ، كما تقدم .

ثم قال سيدنا بعد ذِكْره حديث القيام والقعود في الغضب : « وفلان لا يملك نفسه عند الغضب، حتى يفعل ما يدعوه إليه الغضب » .

سمَّى رجلاً من آل فلان كان في الحاوي خادماً ، فإذا وصاه في بعض الحوائج يراه وعليه أثر الغضب جداً فيزعله ذلك منه ، ومن العجب أن هذا الرجل كان يقول لي : « كان سيدنا عبدالله الحداد إذا وصَّاني في حاجة قال لي : مالك إلا وادي الدواسر » ، قال : « وكرر ذلك عليَّ مراراً كثيرة ، وكان أوعدني سيدنا عبدالله بالحلول والإقامة والنزول في وادي الدواسر ، وكلما خاطبني قال لي : ما لك إلا

بلاد الدواسر » ، فقلت له : يظهر لي إنما هذا توَعُّد لا وَعْد .

وهو كما قال في حق عيسى بن بدر لما ذَكَر ظلمه وجَوْره بشبام ، وبلغه يوم الإثنين فزعل عليه ، وقال : « **ماله إلا الكثيب الأحمر** » ، يعني مقبرة عينات ، فغبش من شبام صبح يوم الثلاثاء إلى عينات ووصلها مساءً ، ففعل له السادة عزيمة ، وذبحوا له ذبيحة ، فلما قدَّموا له العشاء ليلة الأربعاء لزقت لحمة في حَلْقِهِ ، لا دخلت ولا خرجت ، وخرجت روحه وهو جالس على الصحن يتعشى ، ودفن يوم الأربعاء في الكثيب الأحمر كما قال ، وتقدمت قصته .

فلما ذكرتُ للرجل هذه القصة ، قال : « لا إن شاء الله » . واعتَقَدَهُ وَعْداً ، فكان تَوَعُّداً ، وطمع أن يصير له في وادي الدواسر مظهر وصيت واسم ، فاستعد لذلك بقراءة في الفقه وقال : « إنهم جُهَّال ، يحتاجون لمن يُعَلِّمهم » ، وأخذ له كتب فقه وخطب وقال : « إنها بلاد عامة ، يحتاجون لذلك » ، فأتى إلى الحساء لطلب شيء من العلم لذلك ، ثم مضى إليها مستشرفاً لما تَوَهَّمَه من الوعد ، فحين وصلها حصل له ما تُوُعِّد به ، فحضره في الحال أجله بلا أمد ، فانتقل بلا مكث قليل فيها ، فكان الوعد له بسكنى في القبور ، لا بسكنى في الدور والقصور .

فاعجب لهذا العجب العجيب مِن بُعْد مرامي كشف سيدنا ، وتَعَمِّيه على السامع حتى يظنه ضد الواقع ، وقد قال كما تقدم : « **كلما بَعُدَ ما أخبر به الأولياء من المغيَّبات ؛ كان أعظم للكشف** » ، فتبين بهذا إنما ذلك تَوَعُّد لا وَعْد ، ولو ظنه وعداً تَعْمِيَة عليه وستراً للواقع ، وبهذا تبين شدة ضرر الغضب في مخاطبة الأكابر من الأولياء ، بل في حضرتهم أو في أمر ينوبهم ، كما تقدم من شأن ذلك الدمشقي حيث تكلم في سيدنا بكلمة نشأت عن الغضب ، وتدل منه على ضعف العقيدة ، فانظر ما آل أمره إليه حتى سقط في البحر من وسط الليل سائراً إلى سرت ، وبقي يعالج الوصول إلى المركب ، ويعالج أهل المركب الوصول إليه إلى وقت الإستواء ، وهو يصيح ، إلى أن انقطع صوته ، فمضوا وتركوه ، وقد تقدمت قصته بتفصيلها . وانظر ما قدمنا من قول سيدنا لما ذُكِرَ له إن رجلاً غضب على ابنه فضربه بشفرة فقتله ، والآخر أيضاً من السادة ، وقول سيدنا : « **ينبغي أن لا يعمل شيئاً حالة الغضب أبداً ، لأن كل ما يفعله في تلك الحالة غير سديد ..** » إلى آخر ما تقدم ، يعني يعود عليه بالضرر حالاً أو مآلاً ، فليجتنب غاية الإجتناب .

وشفار العوام هي مثل هذه الحسية المذكورة ، وهذا ومثله ضررها ، وشفار الأولياء الأحوال القاهرة المهلكة أشد من إهلاك سيوف الحديد والسهام ، وإن عموا عليها بالستر إلى وقتها الذي أُجِّلَ لهم فيه الحِمام ، وتُوُعِّدوا فيه به .

ومثل تَوَعُّده هذا لهذا الرجل تَوَعُّده لسلطان الجهة عيسى بن بدر في ظُلْمِه وعَسْفِه ، وقوله في حقه:

« **ما له إلا الكثيب الأحمر** » ، وكان بينه وبين محل الكثيب الأحمر يوماً و نحو نصف يوم ، فسار إليه عَجِلاً على فرس حتى وصله ، وقُدِّم له الطعام ، وموافق شكوى خادم سيدنا له محمد بِلْفَقِيَه الصعدي تلك الساعة من ضرره وظلمه ، وقوله : « أريدكم تقبضون بحلقه وتخنقونه ، وتريحوا المسلمين منه » ، فغصَّ بلحمة في ذلك الطعام فمات في الحال .

وقد تكررت قصته هنا مراراً ، وما بين قول سيدنا : « **ما له إلا الكثيب الأحمر** » ، وبين دفنه فيه إلا ليلة واحدة ، فكان قوله لذلك الرجل : « **ما لك إلا بلاد الدواسر** » ، كقوله في حق عيسى : « **ماله إلا الكثيب الأحمر** » ، وكذلك من مكاشفاته ، وهي كثيرة لا تحصى ، وهذه الواحدة من جملتها ، تدل عليها ، لما قال : « **قال لنا حسين بافضل : إن بدت لكم حاجة الحذر ما تخبروني بها . فقلنا له : إن بدت حاجة تُطلب من الخلق فأنت أحق بها** - أو قال : **أولى بها - وقدنا في بيتك ، وإن قضى الله الحوايج فما بقي كلام** » ، ثم التفت إليَّ وقال لي : « **إعلم هذا ، واعمل عليه** » .

ومعنى ذلك أنه سيقول لك إنسان مثل ما قال لنا حسين ، فقُل له مثل ما قلنا لحسين ، يعني قوله : « **إن بدت حاجة ..** » ، إلى قوله : « **فما بقي كلام** » ، فوالله أنَّ حين ما وصلتُ إلى الحساء سنة ١١٣٤ ، ثاني يوم من وصولي أول يوم من ربيع الأول ، بعد قوله بنحو عشر سنين ، لقد قال لي رجلٌ مثل ما قال له حسين ، فقال : « بالله عليك ، وروح حبيبك عبدالله عليك ، إن بدت لك حاجة ، أو أردتَ سلف إن تُعلِمني بذلك » ، لكن ما خطر ببالي أنه يشير إليه بذلك ، وما قلت له حينئذ ما قال لحسين ، ولكن ما فهمت أن إشارة سيدنا إلى هذا الإنسان إلا في شهر رمضان من سنة ١١٦٥ ، بعد نحو ٤٠ سنة من قول سيدنا ، فحين ظهر لي ذلك قصدتُه إلى بيته ، وقلت له : إن سيدنا عبدالله قال كذا وكذا إلي ، قال : « **فاعلم ذلك واعمل عليه** » ، ومعناه أنه سيقول لي إنسان كذا ، مثل ما قال له فلان ، وإنك أنت قلت لي كذا ، وهو قول بافضل له ، فالإشارة من سيدنا إليك ، فجوابك الذي أمرني أن أقوله لك هو أن أقول لك : إن بَدَت حاجة تُطلَب من الخلق فانت أحق بها ، وإن قضى الله الحوايج فما بقي لنا كلام . ففرح بذلك كثيراً ، وقال : « جزاك الله خيراً » .

فافهم من هذا عجيب إشاراته ، وظهور مكاشفاته ، وبُعْد مرامي عباراته ، وأن بُعْدها يدل على عظمها وقوتها ، كما قال كما قدمنا : « **كلما بَعُدَ ما أَخْبَرَ به الأولياء من المغيبات كان أعظم للكشف** » ، يعني إذا بَعُدَ كان كالذي يرى الشيء من بُعْدٍ ، وإذا قَرُبَ كان كالذي يرى الشيء من قُرْبٍ ، وفَرْقٌ بعيد وبَوْنٌ كثير بينهما .

وكان من شأن ذلك الرجل المشار إليه أنه يتقصى عن أمورنا من بعيد ، ومهما علم بشيء قضاه من غير أن نعلم ، فكنا نخفي عنه أشياء لا نحب أن يتكلفها ، وهو لا يرضى إلا أن يقوم بها ، إلى أن جاءنا

هذا الوقت العجيب الذي أقعد الأقوياء وأفقر الأغنياء ، وساوى بينهم وبين الفقراء ، فصرنا نُخفي عنه وعن غيره أكثر الحوائج ما استطعنا ، ولو كنا نحب قضاها على يده دون غيره ، فإن كان منها بُدٌّ ما بالينا بها ، ولو لم تكن ، وإن كان لا بد منها فوَّضنا أمرها إلى الله ، ولا بد أن يقضيها على يد من أراد ، ولكن لا يمكن اليوم إلا القناعة القصوى التي تُذكَر عن أولي التقوى والنُّهى ، وإلا بأن انجذب إلى ما تدعو إليه النفس كالبهائم الراتعة في الشوك والسموم القاتلة ، لا في المرعى والكلأ ، نعوذ بالله من شأن ما تدعو إليه النفوس في هذا الزمان .

ولقد رأينا من حال ذلك الرجل من التحنن والشفقة علينا في أمر المعاش أشياء عجيبة ، ما رأيتها من أحد غيره ، وما توجد إلا في السلف الأولين من الصحابة والتابعين وعباد الله الصالحين ، حتى إنه يعالجني في أن أتسلف منه واستقضي منه الحوائج ، فمرة أجيبه ومرة أمتنع ، فإذا أجبته وقضاها جعل يقول : « جزاك الله عني خيراً ، والله إن هذه مِنَّة عظيمة عليَّ ، وأنا ومالي مُلْكٌ لكم » ، ويدعو لي بالبركة، فكأني أنا الممتن عليه ، فهل ترى أحداً اليوم يفعل كذلك ؟ لا والله ، بل طَيِّب أهل الزمان الذي إذا طَلَبْتَ منه الحاجة يوعدك بها لتتركه ، ثم يكذب ، فأين الثريا من الثرى ؟

وما ذَكَرْتُ عن ذلك الرجل هو ظاهره وباطنه ، وله في المعروف نوادر عجيبة ، وما أشار سيدنا إليه إلا وهو أهلٌ لذلك ، حتى مما خصه الله به أنه رأى ليلة القدر ، وإذا ذَكَر رؤيتَه لها كان كمثل ما وُصِفَتْ به في الحديث ، وما أطلتُ الكلام فيه إلا لما فيه من المزية على غيره ، ولو لم يكن إلا إشارة القطب السيد عبدالله الحداد نفع الله به إليه .

وكان من شأنه أن يتعنى إلى المجيء لبيتنا ، ليس له غرض إلا الزيارة وطلب سماع كلام سيدنا عبدالله في مجالسه ، فإذا جاء طلب أن نُسمِعَه شيئاً من ذلك ، فكُنَّا نُسمِعه شيئاً من كلامه في المجالس هذه فيذوق بها ، ويطلب منها الزيادة ، ولا يمل من ذلك ، حتى بدأ به مرض الموت ، فكان إن لم آته أَرْسَلَ إليَّ ، وقال : « لا تخلني من ترددك عليَّ ، وأَسْمِعْني من كلام الحبيب ولو كلمة واحدة أستريح بها» ، إلى أن ثقل في المرض ، فصار يوميء بطلب ذلك ، ويتكلف الكلام وهو يشق عليه ، إلى إن أعجم على لسانه ، وجعل يؤمي إلى طلب ذلك بلا كلام ، ويمد يده للمصافحة، وكان قبل ذلك يأتيه أهله ويكلمونه وقلَّ ما يكلمهم ، وإذا أتيته انبسط إليَّ بالكلام ، وكان أُعجِمَ عليه قبل وفاته بثلاثة أيام ، ثم انتقل إلى رحمة الله ضحى يوم السبت ثاني صفر سنة: ١١٦٦ .

وقبل وفاته بلحظة أتيتُه وقد أَشْغَلَهُ ماهو فيه من المرض ، ثم خرجت من عنده مع ولده وابن اخيه وابن بنته ، فانتقل في حين قمنا من عنده إلى رحمة الله ، ويحق لنا تطويل الكلام فيه لما أهله الله له من فعل الخير .

فكان كما رأينا منه صوب الحمران بأنواعها والمحمَّديات الطوال ، وكلها قَدَّمها لنفسه وأخرجها لوجه الله ، وكان يتسبب في الدنيا وتخرَّجَ على يديه ناس كثير من الفقراء أعطاهم رؤوس مال ، وعلَّمهم أمور التسبب حتى استغنوا ، وترك إرثاً لأهله أرضين يأتيهم منهما ما يكفيهم من العيش والتمر ، وجعل ثُلُثَه في غنم له عند رجل من العتبان ، رجل صالح واسمه صالح ، وأوصى على يديه يُفعل له ما أراد من الطعم والضحية ، وما وثق بذلك أن يجعله على يد غيره من أقاربه لخلل الأقارب في الوصايا ، حتى إن الميت لَيُعَيِّن شيئاً من المال في حج وغيره فلا يدفعونه كما قال ، بل يُنقِصونه ، حتى قلَّ أن يدفعوا في ذلك نحو النصف ، والله حسيب كل ظالم ، وقد قال الله تعالى في الوصية : ﴿فَمَنۢ بَدَّلَهُۥ بَعۡدَ مَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثۡمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾.

و كان سيدنا في وقته يقول ما معناه كما قدمنا : « **لو يتصور الإنسان هذه الأمور الواقعة في هذا الوقت قبل وقوعها ، هل تقع أم لا ، لكان لا يجوِّز وقوع ذلك** » ، قال ذلك لما وقع من شدة الإختلاف في رؤية الشهر المتقدمة على ما وصفنا ، ويشمل كل اختلاف مُسْتَنْكَر في أي أمر كان ، على ما قال : « **انعكست الأمور عن أوضاعها إلى أضدادها** » ، ولقد صدق الله قوله في كل ما قال بأن أظهره في الوجود ، وإن أحالته العقول والعادة ، ولو قيل : هل يُتصوَّر في البال أنَّ رجلاً كان ذا سعة في المال ، وكان كثير الإحسان إلى الفقراء والمساكين والمحتاجين ، ويعطيهم ويقوم بهم ، أنه صار اليوم يستعطي ممن هو كان يعطيه ؟ لقيل : إن هذا مُستَبْعَد ، وقَلَّ أن يُمكِن . وها هو ذا قد وقع في هذا الوقت كما ترى ، فكلُّ أَمْرٍ يُستنكر قد وقع في هذا الزمان ، لا بد أن يكون قد أشار إليه ، إمَّا تصريحاً وإما تلويحاً أو تلميحاً ، وهو من علامات الساعة ، سيما شدة الشح الواقعة اليوم في نفوس الناس ، فإنه مذكور في الأحاديث الصحيحة أنه من علامات الساعة ، حتى إن أحدهم إذا أيس من الحياة لشدة مرض أصابه، أو أمر آخر ولم يحضر أجله فتعافى من ذلك ، رجع إلى الدنيا بإقبالٍ كُلِّيٍّ وشُحٍّ نفس عليها أشد مما كان بأضعاف كثيرة من شدة شحه قبل ذلك .

والعجب أن الواحد منهم مع شدة بخله وحرصه - سيما المنتسبين إلى العلم - ليتكلَّم بكلام أهل الزهد الكامل الذين قد عزفت نفوسهم عن الدنيا ، حتى أن من سمع كلامه يقول هذا زاهد كامل في الزهد ، قد استوى عنده الذهب والحجر ، وهو أكلب كلابها ، حتى إنه ليبيع عباداته بأطماع الدنيا . فاحتَرِز من مخالطة هؤلاء ، فمخالطتهم سُمٌّ قاتل ، لئلا تغتر بهم وبأقوالهم ، ومثالهم كما ضربوه مثلا للدنيا التي شغفوا بها ، كجيفة طُلِيَت بمِسكٍ - أي لكثرة نتنها ، ستروه بضده الرائحة الطيبة وهي المسك - كذلك هؤلاء الكلاب الدنياوية ، تشبهوا في ظاهرهم بكلام الزهاد الطيب تَسَتُّراً به .

وقد حذَّر أهل العلم بالله من مخالطة علماء السوء الذين يورُّون في ظاهرهم بحال علماء الدين،

وهم في بواطنهم أشد فسادًا للدين من الفاسقين ، كما قال سيدنا في بعض مجالسه : « **ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، ولكن بعد فساد دينهم** » ، فهم الذين أفتوا للناس بالبيوعات الباطلة الربوية، فحذروا منهم ومن مخالطتهم ومجالستهم ، وأخذ العلم عنهم ، خوفاً من استراق الطبع منهم في أحوالهم وأمورهم ، فلا ترغب في أموالهم ولا تنتفع بشيء منها إلا من ضرورة شديدة ، فإنَّ أكل أموالهم والإنتفاع بها يقسِّي القلب ، ويُبعِد عن الله ، فإذا قسى القلب انقطعت منه دواعي الإيمان ، واستولت عليه دواعي الشيطان ، فلو ذكَّرته بكلام الله وكلام رسوله ليلاً و نهاراً ما أفاد فيه ، ولا أثَّر في قلبه داعية للعمل ، ولا تحرك للإنتهاض لما ينفعه ، وتَرْك ما لا يفيده ، كما ترى من حال غالب أهل وقتك ، سيما المترسمين بالعلم المدعين بأنفسهم ، الذين هم عند أنفسهم أعرف من غيرهم .

انظر كيف باعوا دينهم وعباداتهم التي يرجون نفعها عند الله بالأطماع الدنيوية ، ويتعللون بسعة فضل الله ، وأنه لا يبعد أن يعطيهم ما وعدهم به في الآخرة على العمل الصالح بشرط الإخلاص مع عدمه منهم ، حيث قصدوا بالعمل الطمع الدنيوي ، وأخذوه من الخلق في الدنيا ، وما جاء في شرع الله إن عملاً واحداً يُعطى عليه جزاءان : جزاء في الدنيا من الخلق ، وجزاء من الله في الآخرة ، بل يقال له : خذ جزاءك ممن عملتَ له .

فاحذر من أخذك على العبادة طمعاً في الدنيا ، وافرح بما فاتك من ذلك ، ومن أموال الأشِحَّاء ، وإن كانوا علماء يُزَهِّدون ولا يَزْهَدون ، واحمد الله على سلامتك من شرها ، فذلك حظ عظيم لك من الله ، إذ سلَّمك من أَخْذِها واستعمالها ، فاشكره على هذه النعمة واغتبط بها ، وافرح أكثر من فرحك بحصولها ، ولا تميز في ذلك بين أحد ، فكل الناس اليوم في شدة الشح والتفجع على الدنيا ، سواء العالم والصوفي والمتعبد وذو المنصب الذي يقبِّل الناس يديه ، قد استووا مع العامة في الشح والبخل ، بل هم أشد من العامة بكثير ، بدليل بيعهم عباداتهم بأطماع الدنيا ، والعامة لا يفعلون ذلك ، ولكن مع عدم فساد الحال في الخاص والعام ، لا بد لله من خيرةٍ من خَلْقِهِ يُصْلِحهم ، ولو فسد الناس ، ومن أسعده الله لا يشقى ، وفي الغيب من رجال الله من لا يطَّلع عليهم إلا الله ، لا تَخْلُو هذه الأمة المحمدية منهم ، إلى أن يأتي أمر الله ، يجعلهم الله من أي الطوائف أراد ، وإن كان المتبادر إلى الذهن أن هؤلاء الطوائف المذكورين أقمن بذلك من غيرهم ، ولا نرى فيهم من فيه من أوصافهم شيء من سماحة النفوس وسخاوتها ، فإن ذلك من علامتهم ، وهو العمدة في ذلك ، كما قال بعضهم : « ما صارت الأبدال أبدالاً بكثرة صوم ولا صلاة ، وإنما هو بسماحة النفوس ومحاسن الأخلاق » ، ولا تكون محاسن الأخلاق إلا مع سماحة النفوس ، ولا تكون مع الشحاحة ، ولكن مظاهر الوقت والأحوال الردية تظهر فيه على الأخيار ، فربما تظهر عليهم وتكون على ظاهرهم من الشح ومساويء الأخلاق،

وبواطنهم سليمة من ذلك .

جَرَّنا إلى فَهْم هذا المعنى ما نرى من سيدنا في بعض الأوقات إذا سأله من هو متعود سؤاله - مراراً كثيرة ، ويأمر له بما سأل - إذا سأله يُخشِن له القول ويرده تأديباً له ، ثم بعد ساعة يُلِين له القول ويعطيه ما سأل . و قد انجرَّ بنا الكلام فيما يتعلق بكلام سيدنا إلى هذه المادة ، مستشهداً لكلامه ، ومبيناً لغامض مرامي إشاراته ، وتوضيح معاني مكاشفاته ، مما يخص ويعم ، وتحقيقاً لما قال .

وكان تعليق هذا الكلام هنا ضحى يوم الاربعاء١٨ جماد آخر سنة ١١٧٣ ، وقد رأيت ليلة هذا اليوم في النوم كأنَّ سيدي عبدالله نفع الله به جالساً وأنا بجنبه ، وهو على يميني ، وكأن مقابلنا كثير من الصبيان الأطفال ، وإذا به قال لي : « اكتب في جباههم ، في جبهة كل واحد منهم » ، قلت : ماذا أكتب؟ قال : « اكتب ، أوَدُّ لو كان لي من الله نظر يهديني » ، وكان من جملتهم أبنائي محمد صالح ومحمد سالم ، فكتبت ذلك في جبهة محمد سالم ثم انتبهت ، وكنت أردت أكتبه في جباههم كلهم ، وفهمت من معنى ذلك أن هداية الله سابقة للعبد ، لا تكون إلا بنظر من الله لا بعمله ، ثم إذا حصل ذلك تبعه العمل ، وأن نظره نفع الله به شامل للناس الجميع اليوم ، وأن الوقت له إلى ظهور المهدي ، ولذلك كان كثيراً ما يقول : « **عندنا أمانة ما يحملها إلا المهدي** » ، ومراراً منها يقول : « **إلا المهدي أو أربعون من أصحابنا** »، فإنَّ هذا الإعتناء منه بعد وفاته بنحو واحد وأربعين سنة إلا ثلث .

ومن عجيب مكاشفاته وبُعْدِ مرامي إشاراته ، ما ذكر عبدالله باشراحيل في المجموع الذي جُمع في كرامات سيدنا عبدالله ، ولما ألَّفه أوقفه عليه ، ظنَّ أنه يعجبه ذلك ، فغضب عليه وأمره أن يموغه في الماء ، فمشى عليه بجماعةٍ يعزهم في الرضا عنه وبإنفاذ ذلك الكتاب ، حيث أنه تعب في جمعه ، منهم السيد أحمد بن زين الحبشي وصهره السيد عبدالرحمن بن علي فقيه وغيرهما ، فأعزهم ورضي عنه ، والكتاب أمر ابنه السيد علوي أن يلقيه في طاقة ، ولا ينظره هو ولا أحد من إخوانه ، ولا يُظهِره لأحد، هذا قبل وصولي إلى حضرته ، ثم لما وصلت هناك وسمعتُ بالقصة تأسَّفتُ على الكتاب ، وودتُ لو قبضته ، فإذا بابنه الحبيب علوي جاي به إلي وأعطانيه ، وقال : « أمرني حبيبك أن أعطيكه » ، وأخبرني بالقصة ، فطالعت فيه . ومن المستغرب أن الكتاب لا يمكن هناك يترك ثلاثة أيام لا يُقَلَّب إلا تشوبه الأرضة وتبطله ، وهذا مكث سنين كثيرة ما مسته .

وتقدم أن سيدنا دفع إليَّ كيساً فيه أوراق ، وقال : « **احتفظ عليه من الأرضة** » ، فما وثقت عليه منها إلا أن جعلته على وتد في خلوتي ، أنظر إليه داخلاً وخارجاً ، وأقلِّبه أحياناً ، فغفلت عنه نحو خمسة أيام ، ثم نظرته فإذا قد دَخَلَتْهُ كثقب الإبرة ، فاشتغل خاطري جداً خوفاً من زعل سيدي ، فأخذته وناولته إياه ، واعتذرت إليه ، وظننت أنه يغتاظ عليَّ ، فقال : « **ضعه في الخزانة** » ، فوضعته وما اغتاظ

بحمد الله ، فأين طبع الأكابر من طباع العامة ؟ ولكن في ورقة منها سؤالاته التي أراد أن يسأل عنها في الحرمين متبحِّراً في الحرمين ، وقفت عليها ، فتبين لي أن مقصوده بوضعها عندي أن أقف عليها .

فطالعت في مؤلف باشراحيل ، وذكر قصة محمد المغربي ، الذي كان ينزح على بئر زمزم ، وهي من غرائب الكرامات وعجائب المكاشفات ، وباهر الآيات والإشارات ، وفيها وَعْدٌ وتَوَعُّد ، وَعْدٌ بالولد وتَوَعُّدٌ بالموت ، وذلك أنه كما ذكر : جاء إلى حضرموت لزيارة سيدنا عبدالله ، ومكث عنده في الحاوي مدة ، وصار من جملة الفقراء والخدم ، وتخدم له كبقية الخدم ، فكان يأمره وقت الراتب أن يُفصَّ رِجْلَيْه، فكان ليلة وَهُم في الراتب يفصُّ رِجْلَيْهِ ، إذ أكل محمداً ظهره فحَكَّه وقال : « يا حبيب ظهري يشراني» ، يعني أصابه شرى . فرفع سيدنا يده ، فضرب بها ظهر محمد بقوة على المحل الذي حكه ، وقال : « **ما هذا شرى ، إنما هذا إبراهيم في ظهرك ، يريد أن يخرج ، فنريد أن نزوجك** » .

ثم التفت سيدنا في الحال إلى رجل في المجلس ، وهو عبدالله باحرمي ، وقال له : « **انطلق إلى أختك فلانة** – وكانت امرأة ثيباً – **وقل لها : يقول لك نريد أن نزوجك بفلان ، فأْذَنِي لي أن أعقد لك عليه** » .

فأَذِنَتْ له في ذلك ، وعقد نكاحها عليه في حضرة سيدنا ، وزُفَّت إليه في ليلته ، ومكث معها أياماً قليلة نحو العشرة ، ثم اشتاق إلى المسير إلى مكة المشرفة ، فجاء إلى سيدنا يطلب الإذن في المسير إلى الحرمين ، وقال : « تراني وكَّلت أخاها في طلاقها » ، فأذِنَ له ، ولم يتبيَّن حينئذ مع المرأة حَمْلٌ ، وما عَلِمَتْ بذلك ، ولا رأت له علامة ، ولا تبيَّن لها من ذلك شيء ، لا هي ولا لمن لها معرفة من النساء .

فلما جاء يستودع من سيدنا مسافراً ، قال سيدنا له : « **إن زوجتك حبلت بولد ، فإذا وَلَدَتْهُ سَمَّيناه: إبراهيم ، على اسم أبيك ، فإذا بلغ ؛ يحج أحدٌ من عيالنا ويحج معه ، فَوَلِّم له ما يمكنك من الدراهم ، واجمع له من ذلك ما قدرت عليه ، ثم بعد مدة يحج أيضاً أحد من عيالنا ، ويجيك معه ، ويجيب لك من عندنا كفنك ، يكون ذلك على بالك لا تَنْسَه** » ، فسافر وقد حفظ من سيدنا كل ما أوصاه به ، وصار كله على باله ، ثم بعد سفره بمدة قريبة تبيَّن حَبَلُها ، ثم على تمام مدة الحمل وَلَدَت ولداً وسماه إبراهيم .

ووصلتُ إلى حضرة سيدنا لعشرين من شهر رمضان سنة ١١١٥ ، والولد يلعب مع الصبيان ، أقدِّر سِنَّه نحو ١٣ سنة ، ثم في سنة ١١١٨ حج السيد حسين بن الحبيب عبدالله ، وطلب الولد من سيده الإذن في المسير مع حبيبه حسين ، فأذن له ، وقال له : « **سلِّم على أبيك ، وقد معه الوصية منا فيك** » .

فسافر معه وقد بلغ سِنَّهُ تمام الستة عشر ، فلما سمع أبوه بوصوله إلى جدة جعل يطلب له دراهم من مغاربة مجاورين ، أهل دنيا ، ويرغبون في إعطائه حيث هو مغربي مثلهم ، حتى اجتمع له سبعون

قرشاً حجراً ، فلما وصله دفعها إليه ، وقال له : « **هذه حبيبك أمرني أن أجمعها لك** » ، فجاء مع السيد حسين وجاء بها معه ، فاشترى له منها نخلاً في دمون ، وهي جهة نخل كالشراع عندنا ، وابتنى له منها، وتزوج منها ، وجاءه أولاد .

ثم بعد ١١ سنة حَجَّ السيد حسين أيضاً ، فاستأذن الولد سيده أيضاً في المسير معه ، فأذن له ، واجْتَزَّ سيدنا ملحفته من تحت ثيابه ، ثم لَفَّها ودفعها إلى الولد ، وقال له : « **سلِّم على أبيك ، وادفع له هذه وقد معه خبرها** » ، أي أن هذه كفنه الذي وعده به . فلما سمع أبوه بوصوله إلى جدة قادماً ، حزن حزناً شديداً ، وهنَّأه بعض الناس بوصوله قادماً عليه ، فقال له : « فَبِمَ تُهنِّيني ؟ أتهنيني بقدوم بشير الموت إليَّ ؟ إنما جاء ولدي يخبرني بموتي ، وجايني بكفني من عند حبيبه » ، وكان حينئذ قد قرب بدُوُّ الرُّطَب بالمدينة ، وقَدِمَ عليه فيها ، ثم جعل ولده يُقَبِّل رأسه ويُحَيِّيه ، فقال له : « ليتني ما رأيت وجهك الآن ، ألا تأخَّرتَ قليلاً حتى أذوق الرطب ؟ هات الذي أعطاك لي حبيبك ، جئتني به من عنده » ، فدفع له الملحفة بِتَلْوِيَتِهَا ولَفَّتِها التي لَفَّها سيدنا نفع الله به ، فتمسَّحَ بها وقبَّلَها ، وقال لمن حضره : « إشهدوا يا جماعة إن هذا كَفَنِي ، أرسله لي الحبيب عبدالله الحداد نفع الله به » . فمرض من يومه أو ثاني يوم ، وما بقي في مرضه إلا نحو ثلاثة أيام وتوفي ، وكُفِّن في تلك الملحفة، وهي الكفن الذي وعده بقوله المذكور ، كما تقدم من قوله : « **ثم يحج بعض عيالنا ، ويحج ولدك معه ، ويأتيك بكفنك - أو بالكفن - من عندنا** » .

قال كاتبه : فيالله من هذا العجب العجيب ، فانظر إلى تلك الكلمة المزاح قوله : « **ما هذا شرى ، إنما هذا إبراهيم في ظهرك يريد أن يخرج ، فنريد أن نزوجك** » ، وما جرَّ إليها من عجيب المكاشفات وغرائب الكرامات المتعددات ، فتأمَّل في تعدادها تعرفه .

وهذا ملخص ما ذكره باشراحيل ، مع ما هو بَيِّنٌ من قولنا ، وهو مُبَيِّنٌ لما قدَّمنا في المقدمة من قولنا: إن جِدَّه في مزاحه ، ومزاحه في جِدِّه . أعني قد يكون شيء من ذلك كذلك .

واعجب من جميع ما ذُكِرَ لمحمد المغربي كيف ما اختلَّ منه حرفٌ واحد على تداول الأوقات وتعداد السنين وطول المُدَدِ ، بل كله جميعاً جاء ووقع على قَدْرِ وعلى وُفْقِ ما قال ، ما تخلَّف لفظٌ من ذلك عما قال . ومن العجب أنه كتب جميع ما ذَكَر بعد وقوع قصة الزواج بقليل ، قبل وقوع كل ذلك من تَبَيُّن حَبَلِهَا وولادتها بولد ، ومِن كونه يحج مرتين ، وقبل موت الأب ، ثم إرساله له بالكفن، وموته بعد وصوله بقليل ، وكُفِّنَ به ، وكل ذلك وقع وما اختلَّ شيء منه ، ومَن يكون له مثل شأن سيدنا عبدالله الحداد ، وأي شأنه ليس بعجيب .

وقال عبدالعظيم باشراحيل في مجموعه الذي جمعه في كرامات سيدنا عبدالله قال : صَلَّيتُ التراويح ليلة تمام الثلاثين من دخول شهر رمضان مع سيدنا عبدالله ، ولم يكن أحد رأى الهلال تلك الليلة في تريم ، فلما انقضت الصلاة سلَّمتُ عليه ، فتبسَّم في وجهي وقال لي : « **لو سمعت التكبير في البلدان البعيدة لما صليت التراويح** » ، فقلت له : وهل أحد رأى الشهر - أي الهلال - في البلد ؟

فقال : « **نعم ، الآن يأتيك خبره لأني سمعت التكبير ، لكن تقيَّدْتُ للشريعة** » .

فما استتم كلامه إلا وقد ضربت بنادق الدولة للشهر ، فحِرْتُ من ذلك ، فقال لي : « **إن شئت ترى الأشياء فَارِق الشهوات لله ، وأَقْبِل عليه بقلبك ، واعْبُدْهُ في السِّرِّ والعلانية** » .

أقول : يعني إن أهل تريم معتقدون أن تلك الليلة من رمضان ، والعمل على ذلك هو ظاهر حكم الشرع ، عمل سيدنا عليه وترك ما أطلعه الله عليه من الكشف ، لأن الكل متقيدون بحكم الشريعة المخاطَب به عامة الخلق ، فإنهم ما خوطبوا بصوم شهر رمضان إلا بالرؤية ، كما قال رسول الله ﷺ : « نحن أُمَّة أُمِّيَّة ، لا نَخُطُّ ولا نحسب ، نصومُ لرؤيتِهِ ونُفطِر لرؤيته ، فإن غمَّ عليكم فأتِمُّوا عدَّة شعبان»، هذا في دخوله ، وفي خروجه إن غمَّ علينا أتممنا عدَّة رمضان ثلاثين . فربما غمَّ على أهل تريم تلك السنة، وما غمَّ على غيرهم والله اعلم .

وعبدالعظيم باشراحيل هذا ، غير عبدالله با شراحيل المذكور أولاً ، وكلهم من قبيلة واحدة ، يُدعَون : آل باشراحيل ، وكل واحدٍ منهما أَلَّف في كرامات سيدنا مؤلَّفاً ، لكن مؤلَّف عبدالله وَقَفَ عليه سيدنا وأنكره وزعل منه كما ذَكَرْنَا أولاً ، ومنه نقلنا الكلام المتقدم في شأن محمد المغربي لما أمر سيدنا بدفعه لي ، ومن مؤلَّف عبدالعظيم هذا الكلام الأخير في صلاته مع سيدنا صلاة التراويح ليلة العيد ، على ما هو ظاهر شأن أهل تريم أنه من رمضان .

قوله : « **فَارِق الشهوات لله** » ، أي اترُكْ فِعل ما يُشتَهَى بجاذِبِ الشهوة ، بل افعله مجرَّداً لله ، أي بنية الإستعانة بذلك على أوامر الله ، وعلى أمر يحبه الله مجرَّداً لذلك .

قوله : « **وأَقْبِل عليه بقلبك** » ، أي علِّق قلبك بربك في فعل كل ما تفعل وترك كل ما تترك ، لا لداعٍ آخر . ومنه يفهم معنى : « **واعْبُدْهُ في السِّر والعلانية** » .

وقال أيضاً عبدالعظيم في مؤلَّفه ذلك المجموع ، وألَّفه بعد سيدنا ، وما وقف عليه ، وليس هو في تريم ، وإنما وقفتُ عليه بمكة المشرفة ، فنقلته وهو قليل ، والأول أكثر ، وقال فيه :

قال رضي الله عنه : « ما بالُ أقوامٍ يتمنون مقامات الأولياء بلا عمل ، ولا واحدٌ تَرَكَ لله شهوة ، ولا كَظَمَ غيظاً ، ولا بكى من خشية الله تعالى خالياً وحده ، ولا قدَّمَ أَمْرَ الله على أَمْرِ نفسه ، أما يعلمون أنه مُلكٌ عظيمٌ ونعمة باقية ، مع إن الملك الدنياوي مع حقارته وفنائه لا يناله العبد إلا ببذل الأموال الكثيرة ، وبذل المجهود أيضاً ، الذي هو نحو الهلاك . فاعلم أن مقامات الأولياء وأمر الولاية شريفٌ، بعيدُ المرام عزيزٌ ، رفيع الجناب ،لا يُدرَك بالقيل والقال ، إنما يدركه من سَبَقَت له العناية الأزلية ، حتى جَدَّ في الطلب فتَزَكَّى بالأعمال ، فرُزِقَ الأحوال ، فَغَشِيَتْهُ الرحمة ، فتحقَّق بالولاية ، ولذلك قال الله تعالى : ﴿وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾. ولكنه حين تفضَّل عليه المولى ، أعانه على تَرْكِ شهوته لله ، وكَظْم غَيْظِهِ لله ، وبكى من خشيته حياءً من ربه، فأُعْطِيَ المُلْك الأبدي الذي هو الجنة ، وانْتَفَتْ عنه كثافات الحُجُب بواسطة الرياضة ، ضد من لم يعمل على مقتضى الشريعة ، ولم يمنع شهوته ، بل تَاهَ في محبتها ، ولم يكظم غيظاً ، بل تعدَّى وآذى ، ولم يحصل له خوفٌ من ربه ، ولا خشيةٌ منه ، فهو بعيدٌ محجوبٌ ، تائهٌ في البطالة ، وإن تمنى فأمنيته خسارة عليه ، لأن الأماني لا فائدة فيها ، كما قال تعالى :﴿وَغَرَّتْكُمُ ٱلْأَمَانِىُّ حَتَّىٰ جَآءَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَغَرَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ﴾ »، انتهى ما أردت نقله من مجموع عبدالعظيم .

وهذا الكلام كله هو نَاسِبُهُ إلى سيدنا عبدالله بأنه قوله ، كما ترى ، فإن أخطأ في شيء أو زِيِّد على ما قال فعهدته عليه . وهذا المجموع ما رأيتُه في حضرموت ولا سمعتُ به هناك ، وإنما رأيته في مكة المشرفة فنقلته .

وسأل سيدنا عن مريض فقيل : « به ضعف » ، فقال : « هذا أثر المرض ، فإنَّ الأثر يتأخر عن المرض ، ونحن الآن ما عاد ننكر شيئاً من بعد ذلك العارض » ، يعني المرض الذي عرض له ، أي حصل عليه سنة ١١٣٠ ، كما مر تفصيله .

قال : « وإنما الباقي الآن ضعف الكِبَر ، وهو المرض الذي لا يزول ، وهو لا يزول عن الكبير ، وإن زال مرضه » .

وسأل عن رجل مُسِنٍّ ، فقيل : « إن أكثر ما يعوقه رُكَبُه » ، وقال : « هذا من الكِبَر ، ونحن كذلك من حيث ضعف الرُّكَب ، فإن سببه الكبر ، وقد قيل : لو خلاني الموت ما خلاني الكبر » ، قال : « ويصلح هذا أن يكون بيتاً ، وقد كتبناه إلى السيد علي بن عبدالله - أي العيدروس - بِسُرَّت » .

وما طلع البلاد يوم الجمعة لصلاتها ، ثامن يوم من صفر سنة ١١٣١ ، وبعد صلاة عصر هذا اليوم أَذِنَ للجماعة الحاضرين الصلاة في الطلوع عنده إلى الغيلة ، فقال يخاطب الحاضرين : « **طاقني البرد والماء ، حيث اجتمع مع ضعف الكِبَر ضعف المرض** - وكان سِنُّه إذ ذاك ٨٨ - **فخطر لي أنه ربما يتكلف الإنسان الطلوع ، فيحصل ضعف عن صلاة الجمعة ومع الغسل قد يحصل نافض ، فيبقى ولا ينقطع ، فلا يمكن حضور الجمعة ، فمع الضعف والكِبَر قد يحصل مثل هذه الخواطر ، ويتوقع مثل هذه العوارض ، ولكن الله لطيف والعبد ضعيف** » .

ويوم الأحد سلخ ربيع الأول انكسفت الشمس ، فأشرف من الغيلة ، وناداني فأجبتُهُ ، فقال : « **صلوا صلاة الكسوف في المصلى** » ، فاجتمعنا لها جماعة فصليناها ، ولم يحضرنا أحدٌ من العيال .

وطلبه السيد علي عيديد - وكان من المترددين عليه - أن يَمُرَّ على مسجد بناه عند غرفته في نخله بوادي ثبي ويصلي فيه ، فوعده بذلك إذا حَلّوا آل عمر الحداد ، وسار إليهم على عادته أن يسير إليهم، أن يمر على مسجده ، ويصلي فيه ما تيسر ، وعمر المذكور ابن أخيه وزوج ابنته الحاضرة ، وابنة له أخرى توفت قبلها ، فلما حَلّوا في شهر رجب من تلك السنة - سنة ١١٣١ - سار إليهم ، وبقي عندهم يومه ، وتلك الليلة ، ورجع من صبحه إلى الحاوي ، ومَرَّ في رجوعه على مسجد السيد علي وصلى فيه ركعتين ، قرأ فيهما بعد الفاتحة ﴿لَّمَسۡجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقۡوَىٰ﴾، وبعد السلام دعا ثم التفت إلى الحاضرين ، وقال : « **آمال الخير هي النية الحسنة ، وقد وعد أن آخر الزمان تكثر المساجد ويقل الساجدون ، ولكن الله يصلح النيات** » .

ومعنى : يحلّون : إن أهل حضرموت لهم في نخيلهم بيوت ينزلونها وقت القيظ ولهم عند بيوتهم مساجد يحيونها بالصلوات والحزب من القرآن المعتاد عندهم ، يُبتدأ ليلة الجمعة ويُختَم صبح الخميس، يسمونه حزب الأسبوع ، يقال أنه يروى عن سيدنا عثمان ، فإذا جُذَّت النخيل ؛ انتقلوا منها إلى بيوتهم في البلاد ، تريم ومساجدهم .

وذَكَرَ قلة الخريف في تلك السنة المذكورة سنة ١١٣١، فقال : « **في الحديث : إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه . وما بهم إلا ذنوبهم ، ذنوب بلا توبة ولا ندم ولا إستغفار** » .

ثم مكث قليلاً أقل من مدة طبخ قهوة ، ثم قرأ الفاتحة وآخر آية الكرسي ﴿وَسِعَ كُرۡسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفۡظُهُمَاۚ وَهُوَ ٱلۡعَلِيُّ ٱلۡعَظِيمُ﴾ ، وقال : « **سِرُّ آية الكرسي في هذا المذكور منها** » ، وبعدما قرأ هذا

قرأ « لإيلاف » ، ثم دعا وقام ، وركب إلى الحاوي ، ووصلناه ضحى عالي وقت انصرافهم من قراءة يوم الإثنين والخميس .

وتقدم شرحه لهذا الحديث المذكور : « إن العبد .. إلخ » ، وما ذكر فيه من بديع المعاني ، ووِزَان العادات من العبادات ، مما يبهر العقول ويتحقق مَن سَمِعَه أنه ما يكون مثل ذلك اللفظ والمعنى وتيسر التعبير عنه إلا من القطب المجدِّد للدين ، لا يكون ذلك من غيره ، وأنه يدل على أنه هو صاحب هذَيْن المقامَيْن : مقام القطبية ومقام التجديد للدين ، وإنه ما بعده من ينوب عنه فيهما إلا المهدي ، وأن ذلك هو معنى قوله : « **عندنا أمانة ما يحملها إلا المهدي** » ، وغير مرة قال : « **أو أربعون من أصحابنا** » ، وما قال ذلك أحدٌ غيره ممن تقدمه ، وما أحدٌ من شُرَّاح الحديث تَعَرَّضَ لشيء من تلك المعاني ، لا تصريح ولا إشارة ولا تلميح .

وما ذكر من آية الكرسي فكثيراً ما أسمعه يكتفي به عن قراءتها كلها إذا أراد الإقتصار ، ويذكر ما تقدم من أن سر الآية في ذلك المذكور .

وتقدم أيضاً ما ذكر هنا من شأن الناس اليوم وعوايدهم ، وأنها مخالفة لعوايد الأولين ، ثم قال : « **خذ هذه كلمة ، واحفظها : أهل الزمان ما لهم نظام ، لا في دين ولا في دنيا .. إلخ** » ، ومر بتمامه .

وله الآن جمعتان يسير من الدار إلى الجامع ماشياً بعد ذلك المرض وأثره ، وقد كان إنما يسير من الدار إلى الجامع راكباً ، والآن يوم الجمعة٢٣ من شهر رجب من هذه السنة سنة ١١٣١ وليلة خميس ١٧ من شهر رمضان منها بعد ما تقبَّض الناس .

وبعد تمام قراءة السُّدس في الحاوي ، أمر بِشَدِّ الفَرَس ، ولم يعلم أحدٌ أين يريد ، ثم ركب وناداني، فَسِرتُ معه ثالث ثلاثة ، فقال لقائد الفرس - خادمه أحمد عكيمان - : « **خذ طريق السادة** » . ثم قال له : « **أتظن أين نريد ؟** » ، قال : « المسجد » ، يعني مسجده المسمى : مسجد الأوابين بطرف حافة النويدرة ، ثم قال لي : « **وأنت ، ما تظن ؟** » ، قلت : كنت ظننت التربة ، فلما كان طريقكم هذه يكون المسجد . قال : « **نعم ، والتربة ما هذا وقتها** » ، فقصد مسجده المذكور ، وصلى فيه في الحمام ، ثم في المحاريب ، والحمام خلوة المسجد ، يصلى فيها وقت البرد ، والمحاريب رواقه .

وسمعته يقرأ في أحد الركعات : ﴿لَا يَسْتَوِيٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ﴾إلى آخر سورة الحشر، ثم حضر قراءة الوترية ، وأديرت قهوة وأمر بدخون يدار، أعطى العود لمدير القهوة ، وأمره يديره ، ثم قام وخرج إلى الحاوي . ومما تكلم به في الطريق قال : « **قد أوقفنا نخلاً على المسجد قبل نبنيه ، وكنا أردناه إلا عند سدة باشريف ، ولكن أشار علينا الصنو علي أن يكون في ناحية النويدرة ، وأن يكون في**

ذَبر له اشتراه فاشتريناه منه ، وفعلنا فيه المسجد » .

والذَّبر : اسم للأرض التي تحرث ، كان السيد علي الحداد اشتراه ليحرث فيه ، ثم بدا له وباعه على سيدنا .

وسمعت بعض الناس يقرأ قصيدة وينسبها لسيدنا عبدالله ، أولها : « لي في ربا نجد غزيل أحوم يسبي العقول » ، فأسمعته إياها ، وذكرت له قول الرجل نسبتها إليه ، **فقال : « ليست لنا ، ولم أر عليها أثر نور ، لما غشيها من ظلمة الكذب ، حيث نُسِبت لغير قائلها ، ولم نعرفه ، فإما أنه لم يكن مُنَوَّراً ، أو غلبت ظلمة الكذب على نوره »** ، هذا قوله بلفظه ، وقال : « **اكتبه** » .

قال رضي الله عنه : **« من راقب الناس أتعب نفسه وأتعب غيره ، ولكنه يلزم الحق والرفق ثم لا يبالي بعد ذلك »** .

وقال : **« من اعترض على الأكابر هلك ، لأن المعترض عليهم معترض على الله ، والمعترض على الله هالك ، والأكابر فيهم إنصاف تام ، ويعرف بعضهم قدر بعض ، وقد ذكر أن رجلاً جاء إلى عند السيد عبدالله بن شيخ صاحب الرملة في مجلسه ، وبقي إلى أن تفرق الناس ، ثم لما تفرقوا بقي هو عنده، فقال له السيد أو الخادم : ما تريد ، ألك حاجة ؟ فقال له أو للسيد : نعم ، أريد صابوناً . فأمر له بألواح صابون ، فقال : ما هذا أريد ، قد رأى ثيابي ما هي ثياب صابون ، أريد صابون القلوب . فقال له السيد: أظنك تطلب الطريق ، إن هذا ليس إلينا ، إنما هو إلى الشيخ أبي بكر بن سالم ، سِر له إلى عينات . فمضى إليه وأخذ عنه . وأصاب الجهة قحط ، فجاء الشيخ أبوبكر المذكور إلى تريم يستقون ، وزار التربة ، ثم سار بعد الزيارة إلى عيديد ، إلى عند السيد محمد عيديد ، وكان من أهل السر ، فقال له الشيخ أبوبكر : إسألِ الله أن يغيث المسلمين ، فقال له : نحن إنما نطلب الدعاء منك ونتوسل بك إلى الله عند الشدايد ، قال له: لا عذر لك من الدعاء والفاتحة ، فقرأوا الفاتحة ودعوا كلهم ، فسار الشيخ أبوبكر ، فما وصل مكانه إلا وسحابة خرجت فأمطرت »** هـ .

أقول :قوله : **« من اعترض على الأكابر هلك ، لأن المعترض عليهم معترض على الله »** ، وذلك لأن الأكابر تجردت بواطنهم وظواهرهم في هممهم وأفعالهم لله خاصة خالصة ، دون ميل إلى هوى وملاحظة لأمور الدنيا ، فصارت أحوالهم كلها لله ، فمن أنكر عليهم فقد أنكر ما هو لله ،فلهذا صار بذلك معترضاً عليهم ، ومعترض على الله لإنكاره أوامر الله القائمين بها ، ومنكراً خصوصية الله في

خلقه ، فهو بذلك هالك .

والأكابر هم الكبراء في الدين ، البالغين منه غايته ، كلٌّ منهم على قدر خصوصيته عند الله ، بقدر ما خصه به من ذلك ، وبلَّغه إليه منه ، موهبة منه سبحانه وفضلاً ، لا بحول أحد منهم ولا قوة .

وقوله : « **فيهم إنصاف** » ، أي معرفة الحق لأهله بلا هوى وحسد يميل بهم عن ذلك ، ولمعرفتهم بعداوة أنفسهم يفضلون غيرهم عليها ، ويعرفون له حقه وقدره ولو هو دونه ، كما ذكر شاهداً من معرفة الشيخ عبدالله بن شيخ بن عبدالله بن شيخ ابن الشيخ عبدالله العيدروس للشيخ أبي بكر بن سالم حقه في ذلك ، وأنه المقدم من الله فيه .

وقول الشيخ أبي بكر للسيد محمد عيديد وطلبه منه الدعاء ، مع أنه أكمل منه ، ثم قول السيد محمد عيديد للشيخ أبي بكر : « نحن نطلب منك الدعاء ونتوسل بك إلى الله » ، كل ذلك معرفة منهم لقدر بعضهم وحقه وإنصافهم رضي الله عنهم لفضلهم ، إذ لا يعرف الفضلَ لأهل الفضل إلا أهلُ الفضل ، وفيه دليل لقوله واستشهاد له ، ثم إن الله سبحانه استجاب دعاءهم وأغاثهم ، وكيف لا يكون ذلك ومنهم الأقطاب من السادة بني علوي كالشيخ أبي بكر بن سالم ، والله سبحانه يستجيب لمن دونهم .

ومن عادة سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به إذا قحطت جهة حضرموت أو أحسَّ في أسعارها بعض شدة ، أن يرتب بعد صلاة العصر وبعد الدرس هو وأهل مجلسه قراءة سورة يس والدعاء بعد الفراغ من قراءتها ، نقرأ قصيدته التي أولها :

يَـا رَحْمَـةَ الله زُوْرِيْ ... وَأَنْعِمِـيْ بِحُضُـورِ
وَيَمِّمِـيْ سُـوْحَ قَـوْمٍ ... فِي ضَنْكِ عَيْشٍ مَرِيْرِ

وهكذا كل يوم مدة أربعين يوماً ، فما تمضي الأربعون حتى يغاثوا وترخص أسعارهم .

ومرة رتبها كذلك لذلك ، فحصل غيث كثير فرخصت الأسعار ، ثم زاد ذلك على العادة حتى مَلُّوا ، حتى إن سيدنا رتب قراءة سورة يس كذلك بنية قطعه فانقطع ، فقال ما معناه : « **هذا طبع الآدمي ، يطلب الشيء إذا احتاج إليه ، حتى إذا كثر عليه ما أسرع ما يَمَلُّه** » هـ .

أقول : وهذا ليس في كل شيء ، بل في شيء دون شيء ، فلو طلب المال مثلاً فكثر لا يمله ، ولا يزال يطلب منه الزيادة ، ولعل ذلك في هذا خاصة ، ويمل الزيادة من غيره إذا كثر عليه هـ .

قال في من يؤمر بالمعروف مع علمه أنه على خلاف الصواب ، ثم لم يمتثل من عشق علته ، فليس

له طبيب ، **قال : « ومن يستجب لك في هذا الزمان إذا أمرته بإرتقاء درجة قفز درجتين ، واحدة تقيمه والأخرى تعديه ، وما نحن معهم إلا كنوح مع قومه ، ﴿إِن تَسۡخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسۡخَرُ مِنكُمۡ كَمَا تَسۡخَرُونَ﴾، فلو أمرنا أحداً ولم يمتثل بقينا نضحك عليه وتركناه ، لأن من لم يرحم نفسه لا ينبغي أن تحزن عليه » هـ .**

أقول : يعني لأن نفوس الخلق سيما في هذا الزمان مائلة عن الإعتدال على الحق والصواب ، إلا القليل وقليلٌ ما هم ، فالإعوجاج في الطبع لا يقبل الإعتدال ، فإذا كان في حالة التفريط وأمرته بالإعتدال بارتقاء درجة ، قفز إلى حالة الإفراط درجتين ، فلو اكتفى بدرجة واحدة لاعتدل ، لكن لميل طبعه عن الصواب ما قبل الإعتدال ، حتى تعدَّى إلى الإفراط .

وذلك لما سيأتي ذِكْره من وقوع الأثر الحاصل من أكل الطعام الحرام مع عدم علمه به ، فكذلك العكس أيضاً إذا كان في حالة الإفراط فأمرته بالإعتدال بنزول درجة نزل درجتين إلى حالة التفريط ، لعدم قبول طبعه للإعتدال بسبب ذلك الأثر ، كما سيأتي تفصيله . فهذا شأن أكثر الناس اليوم ، فإن وُجِدَ نادراً أحدٌ على خلاف ذلك ، وهو بعيد جداً فالنادر لا حكم له هـ .

قال رضي الله عنه : « من يضيق من الجلوس في المسجد والقراءة ، قل لي ذلك لأي سبب ، ما هو إلا أن في قلوبهم شياطين يُضَجِّرونهم من الجلوس فيه ومن تلاوة القرآن ، مع أن التالي مجالسٌ ربَّه ، فلا تصلح قلوبهم حتى تخرج منها الشياطين ، والملائكة لا تتبع الشياطين ، وهذا صراط الله المستقيم، حيث حكى عنه أنه قال : ﴿قَالَ فَبِمَآ أَغۡوَيۡتَنِي لَأَقۡعُدَنَّ لَهُمۡ صِرَٰطَكَ ٱلۡمُسۡتَقِيمَ ۝١٦ ثُمَّ لَأٓتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيۡنِ أَيۡدِيهِمۡ وَمِنۡ خَلۡفِهِمۡ وَعَنۡ أَيۡمَٰنِهِمۡ وَعَن شَمَآئِلِهِمۡۖ وَلَا تَجِدُ أَكۡثَرَهُمۡ شَٰكِرِينَ ۝١٧﴾، وهو يجري من ابن آدم مجرى الدم ، إن لحق إلى القلب مدخلاً دخل إليه ، وسببه لُقَم الحرام والشُّبَه ، ومن أكل طعاماً لم يعلم بحرمته ، فلا لوم عليه من حيث ظاهر الشرع ، لكن يحصل منه تأثير في غير ذلك » هـ .

أقول : تأثيره في إظلام القلب وقسوته ، بحيث لم يتأثر بالموعظة ، ولم يرق ويخشع عند التخويف، ولم يتأثر بمعاني القرآن ، ولم يقبل الوقوف على الإعتدال على الحق والصواب ، حتى تنفَّرَ منه إلى الإفراط والتفريط على ما أشير إليه فيما تقدم . وكل خراب في أمور الدين والدنيا ، وكل خلل في القلب والعبادة ، وتخلف الخواص الموعود بها في الأذكار والدعوات والأسماء ، وعدم استجابة الدعاء، وعدم قبول العقول للعقائد الحق ، وعدم اعتقاد القلوب في الصالحين ، وغير ذلك من جميع أنواع الفساد ، كل ذلك بسبب ذلك التأثير الذي ذكر أنه يحصل من أكل الطعام الحرام من غير علم بحرمته .

وقد صرح هنا أن سببَ ذلك التأثر ودخول الشياطين إلى القلب لُقَم الحرام والشُّبَه ، وإن لم يأثم

بعدم علمه بالحرمة ، لأن الشرع لم يكلف ولم يعلق الجزاء بالمثوبة أو العقوبة إلا بالنية ، ولم تكن النية إلا مع العلم بحكم ذلك ، لأن الشارع قال : « إنما الأعمال بالنيات » ، ولا نية مع عدم العلم ، ومع عدم العلم لم يكن الوسع المعلق به التكليف ، قال الله تعالى : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي طاقتها، وما خرج عن العلم خرج عن الوسع والطاقة ، ومع خروجه عن عهدة التكليف لا بد له من ذلك التأثر المذكور ، فإنه يحصل بنفس المباشرة بدون العلم والنية ، كما كل الدواء النافع أو الضار والقابض والمسهل ، فيحصل منه النفع أو الضرر ، والقبض أو الإسهال ، وإن لم يعلم بخاصيته من حصول ذلك منه ، فإن ذلك بخاصيةٍ جعلها الله فيه بحصول مجرد المباشرة فقط ، كما تؤثر مباشرة الأكل والشرب في إزالة الجوع والظمأ ، من غير ما يتوقف على أمر غير ذلك .

ويشمل ذلك المعنى قول النبي ﷺ : « كل لحمٍ نَبَتَ من سُحت فالنار أولى به » ، يعني وإن لم يعلم بحرمته ، وذلك على قاعدة إجراء الله العادة بحصول ما وقفه بوقوع المباشرة ، لكن من عموم وسع رحمة الله فيما كلف به عباده أن وقف ذلك وخصصه بوقوعه مع العلم والنية ، فيكون ذلك من الله سبحانه وعداً لعبده بالعفو والمغفرة إذا لم يعلم بالحرمة ، ولو حصل ذلك الأثر . ويكون الحديث المذكور مُقَيَّداً عن هذا الإطلاق بقيد « كل لحم نبت من سحت .. إلخ » ، أي مع علم التحريم فالنار حينئذ أولى به ، فأطلق القول هنا ولم يقيده بالعلم ، لأجل الترغيب والترهيب ، وقد قيده في التكليف حيث حصر الأعمال بإنما ذات الحصر ، الحاصرة ما بعدها عما قبلها ، حيث قال : « إنما الأعمال بالنيات»، أي الأعمال المعتد بها شرعاً في عهدة التكليف المتوقف عليه الجزاء بالثواب أو العقاب .

ودلَّ على أن ذلك الأثر إنما هو خاص بالخاصية ، وهو مستلزم بالمباشرة فقط ، فإن الله سبحانه وتعالى قد جعل في أشياء خاصيةً تؤثِّر بالمباشرة ، ولو على يد غير المستقيم على طريق الحق ، حتى يرى من ذلك أموراً خارقة للعادة ، فيظن أنها كرامة ، فيفعله المدَّعون الكذابون الملبِّسون ، يوهمون الناس أن ذلك كرامة لهم ، وإنما الكرامة ما وقعت من المستقيم على قانون الإستقامة وطريق الحق ، على وجه آخر لا تعلق له بالخواص ، ولا يفعلها الحق إلا لأهل الحق المستقيمين على الصراط المستقيم .

ومما هو سبب يقع بالخاصية إزالة الضرر وجلب المنافع بالعزائم والآيات والأسماء ، وقد كان ناس كثير من الأولياء أهل الكرامات يفعلون هذه العزائم ، فتتأتى لهم المقاصد ، من جلب المنافع ودفع المضار ، فيتسترون بها عن إظهار الكرامات وخوارق العادات ، ستراً لحالهم بها عن التظاهر بالكرامات . حتى إن رجلاً من ساداتنا آل باعلوي أتاه بدوي ببعير يضلع ، فقال له : « اقرأ عليه لعل الله يشفيه » ، فأبى ، فألحَّ عليه وامتنع ، فحلف عليه ، فقرأ عليه ، فبرئ البعير وقام السيد يضلع ، فقال له رجل رأى منه ذلك : « ما كان يمكنك أن يبرأ البعير ولا يصيبك شيء » ، فقال : « لا يمكنني ذلك،

لأنه نادى مناديهم في الزمن السابق : ألا من عنده شيء فأخفاه ولم يظهره فوا ويله ، ونادى مناديهم في هذا الزمان : ألا من عنده شيء فأظهره فوا ويله » .

فاعلم هذا ، وَزِنْ بهذا الميزان مَن رأيته من المدَّعين ، وقد كثروا في هذا الزمان ، فليعرفوا ، وقد قال الإمام الشعراوي رحمه الله : « إن بعض الناس قد يطَّلع على خواص بعض نباتات أو حيوان ، فيفعل بها الأمور من تطورٍ ، ومشيٍ في الهواء ، وبعضهم يكون عالماً بخواص الأسماء والحروف ، فتظهر بها الأشياء العجيبة عند غضبه على أحد ، أو مخالفته في أمر من الأمور ، فتلتبس على الحاضرين أن ذلك من قوة الحال أو المكانة عند الله والولاية الصادقة ، وإنما هو في ذلك كاذب ، لأنه فِعلٌ بالخاصية ، كالدواء المسهل أو القابض يفعل بخاصية الحال ، لا بالمكانة عند الله ، وقد بسطنا الكلام في رسالة الأنوار القدسية » ، انتهى .

فكل هذه التأثيرات إنما هي بالخاصية ، لا تعلُّق لها بالحكم الشرعي من الإثم والثواب بسبب الحرمة والحل ، وأما ما يتعلق بالتكليف فمتوقف على العلم والنية ، فإن الحديث المذكور : « كل لحم نبت من سحت فالنار أولى به » ، يصدق على من تعوَّد أكل الحرام حتى نَبَتَ عليه لحمُهُ أن النار أولى به ، سواء علم أنه حرام أو لم يعلم ، أثِمَ بأن عَلِمَ الحرمة ، أو لم يأثم بأن لم يعلمها ، فكل ذلك يشمله الحديث ويصدق عليه ، وهو مصدِّق لما ذَكَر سيدنا من حصول ذلك الأثر وإن لم يعلم بالحرمة ، وهو دليل وأي دليل لذلك .

ويكفيك ما ترى بالعيان ما يغني عن البيان ، من شدة بلاهة الناس كافة وضعف رغبتهم في أمور دينهم ، وقوة حذاقتهم وشدة رغبتهم في أمور دنياهم أكثر بأضعاف كثيرة ، فمن أي شيء هذا إلا من ذلك الأثر ، أثموا بتعاطيه أو عُذِروا ، ولكن مع العذر يترجَّح جانب الرجاء والطمع في عفو الله ، ولو مع ذلك الأثر أكثر من جانبه مع عدم العذر ، وأيضاً مع العلم والتَّعمُّد يترجَّح جانبُ الخوف ، وإن كان لا بد للعبد من الرجاء والخوف ، أَحْسَنَ أم أَسَاءَ ، ويترجح أحدهما بموجبٍ له ، وإن كان النار أولى به ، كما في هذا المعنى .

فإذا كانت أولى به ، فأي خير يستحقه ، وأي خير يعمله ، الأول من الخيرين الثواب والخير الثاني العبادة ، وكل هذا الشر والبلاء سببه لُقَم الحرام والشُّبَه كما قال ، وهو سبب للثراء المذكور وغيره ، وهذا مع عدم العلم بالحرمة وعدم الإثم ، فكيف به مع العلم بها والإثم بسببه ، فيكون إذ ذاك أشد وأخس وأتعس ، فيجتمع عليه الحرمة والإثم بسببها ، والتأثر المفضي إلى تلك الأمور والمفاسد التي ذَكَرْنَا وما لم نَذْكره .

وهذا ما يتعلق بالعادات وبعض العبادات كالتروك التي لا تحتاج إلى النية ، كغسل النجاسة والأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر ، وهي كثيرة ، وأما ما يتعلق بالعبادات وبعض العادات ، فلا تكون عبادة يُعتَدُّ بها إلا مع النية ، ولا تكون النية إلا مع العلم ، لأن النية قصد الشيء مقترناً بفعله ، ولا قصد إلا مع العلم ، وكذلك في بعض العادات التي تحتاج إلى النية لتصيِّرها عبادة ، كَنِيَّة التَّقَوِّي والإستعانة بالأكل والنوم على العبادة ، ونية الطلاق ليقع في الكنايات ، وفي مواضع أُخَر كثيرة في المعنى الذي قررناه .

فتبيَّن بهذا قول من قال ، وأظنه حديث وارد : « من أكل الحلال أطاعت جوارحه شاء أم أبى ، ومن أكل الحرام عصت جوارحه شاء أم أبى » ، لأنه إذا أبى وحصل ذلك مع إبائه - أي بغير علمه - فقد حصل التأثر من مأكوله بالخاصية ، بما يقتضيه الطعام من حِلٍّ أو حرمة ، بطاعة أو معصية ، ثم بثواب أو عقوبة ، وهكذا على الوجه المقرر .

وقد سمعت سيدنا غير مرة يقول : « **قال الإمام الغزالي : لو أكل الناس الحلال أربعين يوماً خربت الدنيا** » ، يعني لو أكلوا الحلال الخالص هذه المدة ، أثَّر معهم بالخاصية التي أودعها الله فيه من الخير والبركة ، حتى حصلت منه الطاعة بغير قصد منه ، وأثَّر تنويراً لقلوبهم وصلاحاً في جوارحهم ، فزهدوا بسبب ذلك في الدنيا وأقبلوا على الآخرة ، وتركوا أسباب الدنيا ، فلم يعمروها .

فلا غَرْوَ أنها بذلك تخرب وتذهب ، ولو خربت لخرب الدين معها ، لأنها قِوَامه ، كما في الدعاء الوارد : « اللهم أَعِنِّي على ديني بدنياي » ، فلهذا جعل الله الأسباب متراسلة ، وطبع الخلق على عمارتها، ليعمروها لأجل أن يبقى الدين قائماً إلى الوقت الذي أراد الله . فلهذا يطلب من الدنيا ما يقوم به الدين المقتضي للتقوى ورضا الله تعالى ، كما ورد من دعاء رسول الله ﷺ : « **اللهم أعني على ديني بدنياي ، وعلى آخرتي بتقواي ، اللهم وَسِّع عليَّ في الدنيا وزهِّدني فيها ، ولا تُزْوِها عني ، وأقِرَّ عيني فيها** » ، إلى آخر الدعاء ، ذَكَرَهُ السيوطي في « الجامع الكبير » .

وليس هذا القدر المُعِين على الدين من الدنيا ، بل هو من الدين لمن استعان به عليه ، لأن ما أعان على شيء له حكمه ، ولهذا طلب السعي فيه بأسبابه من كل أحد من الناس ، حتى للمشتغل بالعبادة ، وفَعَله أنبياء وأولياء ، وفي السعي فيه والإهتمام به ثواب عظيم وتكفير للسيئات ، كما في الحديث : « إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرها الصلاة ولا الزكاة ولا الصوم ولا الحج ، ويكفرها الهم بالمعيشة » ، وذلك لما ذَكَرْنَا من عونه على الدين ، على ما ورد : « الصلاة إلى الصلاة مكفرة لما بينهما ، والزكاة إلى الزكاة مكفرة لما بينهما » ، وكذلك في الصوم والحج . ومع هذا الوعد هنا ذنوب لا تكفرها ، وإنما يكفرها الهم بالمعيشة ، وذلك لخاصية جعلها فيه دونها .

وأما الإهتمام بالقدر الزائد على ما يعين على الدين ، فهو اهتمام بالدنيا ، فكُلُّه حسابٌ إن كان

حلالاً، أو عذابٌ إن كان حراماً، وكان عمر بن عبدالعزيز رحمه الله كثيراً ما يتمثل بهذا البيت :

حَلاَلُهَا حَسْرَةٌ يُفْضِيْ إلى نَدَمٍ ۝ وَ في المحَارِمِ مِنْهَا السُّمُّ مَذْرُورُ

وهذا شَرّه إذا كان حصَّله على قانون الشرع ، فما بالك إذا كان بخلافه ، أو تعدَّى إلى بيع دِينه وعباداته في تحصيله ، كأَخْذِ أُجْرة على عبادة أو معاملة ربا وغير ذلك ، فحرمته أشد .

وقال بعض السلف : « يحصل للإنسان عند موته على ماله مصيبتان ، ما سمع الأولون والآخرون بمثلهما » ، قيل له : « ما هما ؟ » ، قال : « يؤخذ منه كله ، ويحاسب عليه كله » .

فلينظر الإنسان لنفسه ، فلا أحد ينظر له سواه ، ويحذر على نفسه من هذا الغبن الفاحش والبخس الشنيع ، نسأل الله الحماية منه ومن كل شر ، بفضل الله ورحمته فيفعل ما ينفعه ، ويترك ما يضره ، فلا أَلْزَمَ عليه من نفسه .

قال : « يقال : أعظم النعم ثلاث : أن يرى ولد ولده ، وأن ياكل من غرس يده ، وأن يُنْشَد في حضرته بشعره » ، ثم قال : « وقد حصل لنا ذلك بفضل الله » .

قال : « يقال : من اشتغل بما لا يعنيه ابتلاه الله بفوات ما يعنيه » .

أقول : المراد بـ « ما يعنيه » : الذي ينفعه في دينه أو دنياه أو فيهما ، والذي ما يعنيه هو ما لاينفعه في ذلك هـ .

قال : « إذا حصلت الصيانة مع الديانة تمَّت الأمانة » .

قال : « وقع الطاعون والقحط في بعض السنين بأرض مصر ، فسألوا الدعاء لهم من رجل صالح ، فدعا لهم وقال : اللهم ارحم أهل مصر . فلم يُستَجَب له ، فرأى أو سمع قائلاً يقول : إن هؤلاء الذين ماتوا من الطاعون والقحط كلهم أولاد حرام وزنا ، وأموالهم التي بأيديهم كلها حرام . فخرج منها فارًّا إلى أرض القدس ، فلَقِيَه إبراهيم الخليل عليه السلام إكراماً له ، وقال له : ما تطلب أن أُكرمك به؟ فإن للزائر على المزور حقًّا . فقال : أريد إكرامي أن تتشفَّع إلى الله أن يرحم أهل مصر . فتشفَّع الخليل عليه السلام في ذلك فرحمهم الله » .

وقال رضي الله عنه : « لم يَحْدُث أمرٌ من السماء إلا في مقابلة أَمْرٍ حدث من الأرض ، ولا يَدْفع الأمور السماوية إلا الأمور السماوية ، فلا طاقة لمخلوق بدفعها إلا بذلك » هـ .

أقول : ومعناه إذا أرسل الله على أهل أرض شيئاً من الشدائد العامة ، كقَحْطٍ وجَدْبٍ وجَوْرِ ولاة، أو تسليط ظالم على عام أو خاص من الناس و نحو ذلك ، وهي الأمور السماوية المرادة بقوله : « لم يحدث أمر من السماء » ، أي ينزل بهم بأمر من الله ، فما فعل الله بهم ذلك إلا لذنوب صدرت منهم .

وهي هذه الأمور التي أشار إليها أنها حدثت من الأرض ، وأن تلك العقوبات نزلت في مقابلتها، فما أنزل بهم هذه الشدايد إلا في مقابلة تلك الذنوب ، ولم ترتفع إلا بأعمال صالحة في مقابلتها ، كتوبة ومحافظة على الأوامر واجتناب النواهي ، والتزام القربات و نحو ذلك .

و هي الأمور السماوية الدافعة لتلك الأمور السماوية ، وسُمِّيت سماوية لرفع الحفظة لها إلى السماء، ومنها - أي الأمور الدافعة - التوجهات العظيمة الإلهية من كُمَّل الخلق ، فتكون من الدافعة لها على حسنها تحفظها بالكتابة على العبد ، وترفعها إلى السماء ، وذلك إجراء للحكمة على قانونها بحفظ الأمور بالكتابة ، وإلا فهو سبحانه عالم بها وبكل شيء .

والذنوب الحادثة من الخلق هي الأمور الأرضية - الواقعة على أيدي الخلق في الأرض - التي هي سبب لنزول تلك الشدائد ، والذنوب قد تكون خاصة من بعض الناس ، فربما كان عقوبتها خاصة ودافعها خاص ، فإن عَظُمَت الذنوب أُحتيج في دفعها إلى ما كان أعظم من التوجهات .

ويكفيك دليلاً على ذلك أن همة ذلك الرجل الصالح ما أغنت في دفع ما أصاب أهل مصر ، لعظم ذنوبهم ، حتى توالدوا بالحرام ونبتت عليه أجسامهم من أكله ، فما أفاد في دفع ما أصابهم إلا همة سيدنا إبراهيم عليه السلام ، وتوجهه بتعاقد الأرواح بينه وبين ذلك الرجل الصالح ، وبقوة همته وإرادة الله له ذلك بشفاعته عليه السلام أراه الله إياه فوقع منه ما وقع ، وذلك من نتيجة سَبْقِ رحمة الله تعالى لغضبه ، وإلا فما أشد عصياناً مما ذُكِر عنهم غير الكفر .

قال : « ورأينا كثيراً من العقائد ، ولم نر لأهل الزمان أنفع من عقيدة الإمام الغزالي ، للمبتديء منهم والمنتهي ، ولكن منتهيهم مبتديء » .

وذكرت لسيدنا اني رأيت في بلدنا كتاب « الغُنية » للقطب الشيخ عبدالقادر الجيلاني قدس الله سرَّه شيئاً أشكل عليَّ مما يوهم ويُشْبِه كلام المجسِّمة والمعتزلة ، **فقال** : « **أُطْلُبه ، وأَسْمِعْنَا ما قال** » .

فطلبته وقرأت عليه ما رأيته فيه ، فلما سمعه أَقَرَّهُ ، **وقال** : « **لا بأس فيه ، وفي كلامه من السعة أكثر مما يسعه ظاهر الآيات والأخبار ، فَلْيُحْمَل أقل ما في الحال على ما يحتمله ظاهر الآيات والأخبار ، لأنه الظاهر** - أو قال : لأنه الأصل ، أو نحو هذه الكلمة - **وإنما صُرِفَ عنه بالتأويل ، واللغة واسعة فلا حرج . وشأن الأمور الإلهية ، وذَكْرُها في العُلوّ أعظم شأناً منه في السُّفْل ، فأين ما يوصف به السماء السابعة وما حولها ، وبأن سكانها الملائكة على طبقاتهم ، مما يوصف به الأرض السفلى ، وأن سكانها الجن ، وإحاطة علمه تعالى بكل شيء لا يفيدهم شيئاً** - يعني من ينكر كلام الشيخ - ، **وأين الأمور الإلهية من قياس العقول ؟ فإذا أردت تعرف ذلك فانظر الفرق بين سماع النبي ﷺ كلام الله سبحانه وتعالى من فوق سبع سماوات ، وبين سماع موسى عليه السلام لذلك من الشجرة في الأرض ، فانظر** » .

وقال مرة قبل هذا المجلس بزمان : « **وانظر كيف لما أراد الله تعالى أن يبلغ النبي ﷺ غاية الكمال، رقَّاه في معرفة الموجودات حتى بلغ أعلاها ، فكلَّمه من قاب قوسين ، وتنزَّل لموسى حتى أسمعه الكلام من الشجرة . فانظر الفرق بين الأمرين الإلهيين لا إلى النبيين ، وإن كان كلاهما في مرتبة عالية** » .

ومرة **قال** : « **من قرأ القرآن لا يمكنه أن يقول بالتجسيم ، فينظر الفرق بين تكليمه تعالى للنبي ﷺ فوق أعلى سبع سماوات ، وبين تكليمه لموسى من الشجرة ، فانظر أي فرق بينهما** - أي بين السامعين- **وإن كان المسموع واحداً** » هـ .

أقول : ففي هذا دليل على تفاوت المرتبتين وشاهد لذلك ، وعلى ما تقدم من قوله : « **وشأن الأمور الإلهية وذِكْرها في العلو أعظم منه شأناً في السفل .. إلخ** » .

وقلت له : فإن الأشاعرة في تلك الجهات يقولون إن مثل الكلام مدسوس على الشيخ ، **فقال** : « **هذا إن صَحَّ عنه** » ، أي قوله هذا المذكور إن صح عن الشيخ .

قال : « **وإلا فقد دُسَّ على الشعراوي في كتبه ، وذلك غير بعيد** » هـ .

قال رضي الله عنه : « التنزيه على قسمين : قِسْمٌ أَضَافَهُ الحق إلى من لا إيمان له ، من المشركين والملحدين - أي أن ذلك نقص - وقِسْمٌ نَزَّهَ سبحانه نفسه عنه من غير أن يقع ، فربما يقع في خاطرٍ شيءٌ ، فنفى ذلك » .

وسمع سيدنا رضي الله عنه شيئاً من كلام ابن الفارض فيه غَزَل ، فقال : « هذه الأمور لمَّا كانت في أوصاف المخلوق أنكرها عليه بعض الناس ، ظنوا أنه يريد بها الخالق ، وهذا خطأ منهم ، لأنه لما كان ذلك في وصف الخلق ، تبيَّن أنه ليس في الخالق ، فإذا صرَّح المخلوقُ بالمخلوق فهو بالمخلوق أحق. وأجاب عنه بعضهم ممن يقول بالشاهد ، بأن ذلك في النور الساري في المخلوقات ، وهو من نور الله سبحانه ، وكل هذه أمور باطلة . وفي نَظْمِهِ فصاحة وملاحة ورِقَّة ، كأنه كان متمرناً عليه ، وفي نظم الطرائفي وغزله مثله ، ويقول عند التخلص : رجعت عنه ، فمثل هذا يُبَرِّيهم ويفيد غيرهم ، ويُسَمَّى هذا النسيب . ومثله في كلام ابن علوان ، لأنه كان مجتهداً في علم الأدب ، ليكون في مرتبة أبيه عند الولاة - أي كاتباً - » .

ثم ذكر قصة جَذْبِه ، قال : « وكثيراً ما يذكر آل طه وآل يس ، حتى توهَّم بعض الناس أن له نسباً حِسِّيًّا في الأشراف » .

ولما أشار إلى قصة جَذْبِه ، فنذكرها على ما حفظناه منها من كتاب « طبقات الخواص » للشرجي باختصار : وهو كان حسن الخط ، كاتباً مجيداً فيه ، فكتب بخطه كتاب البيان في الفقه ، فوصل إلى العراق فقالوا : « ما كنا نظن أن في اليمن إنسان ، حتى جاءنا البيان ، بخط علوان » ، وكان كاتباً عند السلطان ، ثم إن الشيخ أحمد بن علوان جَدَّ في طلب العلوم الظاهرة حتى أحكمها ، من الفقه والنحو والصرف والمعاني والبيان ، ثم مضى إلى البلد التي كان أبوه فيها كاتباً ، ليقوم في مرتبته ، فجلس في طريقه على صخرة فانفلقت وخرج منها كَفٌّ ، فسمع قائلاً يقول له : «هذه كف أبي بكر الصديق ، فقبِّلها فهو شيخك » ، فقبَّلها وحصلت له الجذبة ، فرجع عما قصد ، وظهر له شأن عظيم ، وبلده يَفْرُس من بلاد اليمن ، وقبره بها يُزار ويُتَبَرَّك به .

ومن كراماته أنه كان تدفع له صُرَرٌ كثيرة من الدراهم ، وتجيء إليه أموال كثيرة ، وشيء يَقْبَله وشيء ما يَقْبَله ، ولكنه يقبض الجميع ، فالذي يقبله يبقى عنده ، والذي ما يقبله إذا رقد الذي أعطاه إياه ، فإذا قام من منامه وجد صُرَّته التي كان دفعها إليه عند رأسه .

انتهى ما أردنا ذِكْره من أخباره ، لما أشار سيدنا إليه .

ورأيت في كتاب « نشر المحاسن » للإمام اليافعي رحمه الله ، بعد ما ذَكَر عقيدة الأشعري وعقائد

السلف وأهل الطريقة والحقيقة في الإعتقاد الحق ، ونفي الجهة ثم قال - أي الإمام اليافعي - :

« فإذا عُلِمَ جميع ما ذكرته من أقوال الفريقين المصرحة باتفاق الطريقَيْن في الإعتقاد الحق و نفي الجهة ، فاعلم أنه قد اشتُهِر عن بعض الأكابر ، وهو الشيخ الإمام عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه ، أنه كان يعتقد الجهة ، وقد استُغْرِب هذا منه ، وعُدَّ شاذًّا في ذلك عن أئمة المشرق ، كما عُدَّ الإمام ابن عبد البر شاذًّا في ذلك عن أئمة المغرب ، لكن قد أخبر الشيخ الكبير العارف بالله الشهير نجم الدين الأصفهاني رضي الله عنه أن الشيخ الإمام العارف بالله المشهور عبدالقادر الجيلاني المذكور رضي الله عنه رجع آخراً عن ما كان يعتقد أولاً ، ذكر ذلك لما بلغه أن السيد الجليل الإمام الحفيل تقي الدين ابن دقيق العيد رضي الله عنه ، تعجَّب من سيدنا الشيخ الكبير الإمام الشهير الجامع بين عِلْمَي الباطن والظاهر ، الحسيب النسيب ذي الشرف والمفاخر والدين عبدالقادر المذكور من اعتقاده الجهة ، مخالفاً للجمهور .

قلت - هو قول اليافعي - : ومثل الشيخ نجم الدين الأصفهاني إذا أخبر فعلى الخبير سقط المُخْبَر ، إذ هو من أهل الإطلاع ظاهراً وباطناً ، لكونه من أهل النور والكشف المشهور ، وكون العراق له وطناً ، وصحبه المشايخ هنالك والعلماء ، وعقد النبي ﷺ له ألوية الولاية ، أحد عشر عَلَماً ، أخبرني بالرجوع عن الإعتقاد المذكور ، وبعقد الأعلام المذكورة غير واحد من أصحاب الشيخ نجم الدين المذكور رضي الله عنه ، ممن لا أشك والله في صدقهم » ، انتهى كلام اليافعي بحروفه ولفظه ، قلت من قول اليافعي : « فإذا علم » إلى هنا .

ثم ذكر لسيدنا الشيخ عبدالقادر كلاماً طويلاً يتكلم فيه بنفي الجهة ، يشهد له بعدم ما نُسِبَ إليه من ذلك الإعتقاد .

ومرَّ علينا في الدرس حديث جبريل لما قال ﷺ : « الإسلام : أن تشهد أن لا إله إلا الله » ، *قال* سيدنا : « **أي تعتقد وتقول ذلك عن اعتقاد في القلب ويقين بالباطن ، لا كإيمان المنافقين ، وإيمانهم باطل، وإيمان العوام ناقص** » ، *وقال* : « **الإسلام مجرد عمل فقط ، والإيمان مجرد علم وتصديق ، والإحسان مُشْتَرَك بينهما ، والأول في الجوارح ، والثاني في القلب ، والثالث فيهما ، والأول ظاهر الثاني، والثاني باطنه ، والثالث خالصهما ، والإحسان هو الغاية القصوى من الإسلام والإيمان إذا اجتمعا صارا إحساناً** » .

و في الحديث ذكر علامات الساعة ، ورأيت في بعض الكتب عن بعضهم في قوله تعالى : ﴿لَا تَأْتِيكُمْ

﴿إِلَّا بَغْتَةً﴾، أن عند انقضاء عدد حروف بغتة تكون الساعة ، والله أعلم بغيبه ، ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾، وعدد تلك الحروف ١٤٠٧ .

قال : « **وذكر عن بعضهم ذم الكلام** » ، *ثم قال* : « **من موبقاته ذِكْر البراهين ، لو كان كذا لكان كذا ، فيوقع في القلب الريبة** – أو قال : **التهمة – ولو تفتح عمل الشيطان ، إنما العلم مجرد العقيدة فقط دون ذلك** » .

قال : « **ما ثبات العلم وقوَّته إلا بالعمل ، فإنه يرسخ بذلك ويزكو وينمو ويبقى على البال . وذكر الإمام الغزالي أن العلم الذي هو نتيجة العمل وميراث التقوى أفضل من هذا العلم ، لأن ذاك هو الأصل ، وهذا وسيلةٌ للعمل الذي ينتجه ، والعالم بهذا العلم ربما جَرَّأ العامة على ارتكاب النهي ، إذا رأوه يعمل على خلاف علمه** » .

ومن عقيدة السهروردي قال : فجميع العالَم من العرش إلى الثرى وإلى أعماق أطباق التخوم بالنسبة إلى العظمة الإلهية أقل وأحقر من خردلة بالنسبة إلى جميع العالم ، فَفَرِّغ بالك عند ذلك من قياسك أنه سبحانه داخل العالَم أو خارجه ، فما أحقرك وأحقر علمك ، فلو فُتِحَتْ عين بصيرتك لاستحييتَ من قياسك وفكرك ووهمك وخيالك أيها المحدود المحصور ، لا ينتج فكرك إلا محدوداً محصوراً ، وأيها المحيط به الجهات ، لا يَحْكُم عِلْمُك إلا بالجهات ، فالجهات من جملة العالَم ، وقد عَلِمْتَ نسبته إلى عظمة الله تعالى ، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وفي الصفات السبع ، قال في صفات الله الذاتية : لله تعالى الأسماء الحسنى والصفات العُلا ، لا نسمِّيه إلا بما سمَّى به نفسه ، ولا نَصِفُه إلا بما وَصَفَ به قُدْسَه ، وكل اسم من الأسماء ينبيء عن صفة من الصفات ، وله بكل صفة من صفاته أثرٌ من آثار ربوبيته في خَلْقِهِ ، وهو مطالبٌ بعبوديةٍ ملائمة لتلك الصفة ، وهذه الصفات ذاتية ، من لوازم كمال الذات المقدس ، وما أبرَزَها إلا لِنَعْلَمَها ، وما ذَكَرَها إلا لنفهمها ، ولو لا ما أخبر وأنزل وفهَّم وعلَّم ، لَعَظُمَ شأن الله أن يتفوه بها لسان ، أو يعرب عنها بيان .

وفي ذِكْر القدرة قال : إن الله خلق القادر وخلق قدرته وخلق فعله ، ثم اعلم أن الله خلق الكافر وكُفْرَه والفاسق وفِسْقَه ، ثم أمر الكافر بالإيمان ولم يخلق له إيماناً ، فأَمْرُه بالإيمان قهرٌ محضٌ لأنه قهار، وصفة القهر اقتضت ذلك ، وخلق المؤمن وخلق له إيماناً ، وخلق الطائع وخلق له طاعة ، ولم يكن للطائع والمؤمن في ذلك مِنَّة ، وأضاف العمل إليه تكرُّماً ، ولم يكن طاعته إلا خلق الله ، وأسكنه الجنة

بمحض الرحمة والفضل ، لأنه الرحمن الرحيم الغفور الودود .

أما ترى كيف جعل الآدمي ذا مال ، ثم استقرضه ، فقال سبحانه : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنًا﴾، فالمال والممول ماله وملكه ، فقياسك أن هذا كيف ولِمَ ، وأن هذا ظلم ، لضيق وعائك وقصور فهمك ، إذ لم ينكشف لك سر ذلك ، تقيس أمره على الخلق ، جَلَّ أمرُه عن القياس ، وعَظُمَ أن يُحيطَ بحقيقته أفهام الناس ، وما اشتبه على الخلق من سر القدر لِمَنْع الخوض فيه لموضع إشكاله ، وقد يُكشَف للعلماء الراسخين بإطْلاع الله إياهم على ذلك ، منحةً منه سبحانه .

ثم اعلم أنه لا يكون منك فِعْلٌ إلا بحركة جارحتك ، وجارحتك لا تتحرك إلا بإرادةٍ تنشأ من القلب ، فلولا إرادة القلب ما تحرَّكَت الجارحة حركة مخصوصة في محل مخصوص ، ولكانت الجارحة كالجماد ، فما صار الفعل فعلاً إلا بإرادة القلب ، والقلب أمير الجوارح ، فجارحتك جماد لولا قلبك ، ونسبة القلب إلى الله سبحانه كنسبة جارحتك إلى قلبك ، فلولا إحداث الإرادة في القلب وخَلْق الله إياها لكان القلب أيضاً جماداً ، فصارت الجارحة ذات فِعْل بالقلب ، والقلب ذا إرادة بالله سبحانه ، فالله سبحانه خلق الإرادة في الخلق وأحدثها ، فيكون الفعل بإرادة القلب ، ويكون إرادة القلب بالله فيكون الفعل إذاً بالله تعالى ، فإن قال : كيف يضاف إليَّ ضمان المتلفات وأرُوش الجنايات ، وتقام فيَّ الحدود ؟ فنقول : الفعل من الله خَلْقاً ومنك كسباً ، لأن الله سبحانه خلق عالم الحكمة ودبَّره بالأسباب والوسائط والآلات والأدوات ، وخلق كل شيء وأضاف كل شي إلى شيء ، والكل منه وبه ، ولا يجعل لشيء وجوداً على الإستقلال والإستبداد ، فلا تكن قاصر النظر ، فأي فعلٍ لك ، وأي وجود لك ، إلا ما وهب لك واهب الوجود سبحانه ، ولا تعلم غير هذا حتى لا يكون لك ما تقوله وتتوهمه إشراكاً في الربوبية ، والله يتولى الصالحين .

وقال في الكلام : من قائل بأنه لا حرف ولا صوت لمَّا عَظُمَ عليه أن يُحصَر ، ومن قائل أنه حرف وصوت لمَّا عَزَّ عليه أن يغيب ، ﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا﴾ ، فالقائل الأول يُقِرُّ بما رأى مِن مَزْجِ الحدث بالحروف والأصوات ، فقال لا حرف ولا صوت ، صيانةً للقديم عن مزج الحدث ، والقائل الثاني رأى أشعة العَظَمة القديمة تخرق أجرام الأصوات واللغات ، فقال هو حرف وصوت . شعر :

رَقَّ الزُّجَاجُ وَرَقَّتِ الخَمْرُ ... فَتَشَابَهَا فَتَشَاكَلَ الأَمْرُ
فَكَأَنَّمَا خَمْرٌ وَلَا قَدَحٌ ... وَكَأَنَّمَا قَدَحٌ وَلَا خَمْرُ

فالسبيل الأمثل والطريق الأعدل أيها الإخوان من الطائفتين أن تتركوا المنازعة ، فما حمل كل واحدة من الطائفتين أن يخوض في ما خاض فيه ، ويتعرض لما تعرض له ، إلا ما بُلي به من تعلق الشُّبَه

ببواطن أهل الزمان ، فأحوجه الوقت أن يشرع في ما لم يشرع فيه أصحاب رسول الله ﷺ من الأهواء المختلفة ، وإلا فلا يخفى على العاقل أن العبد إذا قال : القرآن كلام الله ، واعتقد أنه يجب عليه اتِّباع أمره ونهيه ، والإلتزام بأحكامه وحلاله وحرامه ، واستماع وعده ووعيده ، والقيام بحقوقه وحدوده، ولا يتعرض بعد ذلك لِقِدَم وحَدَثٍ وتلاوةٍ ومَتْلُوٍّ وحرفٍ وصوت ، لا يضره ولا يفوته مما وجب عليه شيء مما تصوره من المسألة أنه إن لم يقل كذا ، يلزم منه كذا ، فلعله يعيش مائة سنة ، ولا يخطر بباله شيء مما تصوره ، فدعه يمضي لسبيله ، فهذا هو الطريق القويم والمنهج المستقيم ، وإلا فمتى تعرَّضْتَ للقِدَم تعرَّضَ الخصمُ للحَدَث ، وأنت تكَفِّره وهو يُكَفِّرك ، وما أرى التكفير إلا قولاً من غير فعلٍ بمقتضاه، فالذي تُكَفِّره أراك تخالطه وتمازجه وتواده وتزوجه ، وكفاك أن فعلك يخالف قولك ، فلا أراك تزيد خصمك إلا إغواءً وعصبيةً وغيظاً ، فاعمل في تلاوة كتاب الله عز وجل آناء الليل وأطراف النهار ، وتدَبَّره في صلاتك وغير صلاتك ، فإنه كتاب الله إليك وحجته عليك ، فالمنازعة في ذلك كمن يأتيهم كتابٌ من سلطان يأمرهم فيه وينهاهم ، وهم يتشاجرون في أن الكتاب كيف عبارته ، أي شيء فيه من صفة الفصاحة والبلاغة ، ويَذْهَلُون عن صَرْفِ الهَمِّ إلى الإنتداب لما نُدِبُوا إليه ، والله بفضله يُلهِم الصواب .

في الآيات والأخبار الواردة في الصفات : أخبر الحق سبحانه وتعالى أنه استوى ، فقال : ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾ ، وأخبر رسول الله ﷺ بالنزول ، وغير ذلك ما جاء في اليد والقدم والتعجب والتردد ، وكل ما ورد من هذا القبيل دلائل التوحيد ، فلا ينصرف فيها بتشبيه وتعطيل .

فلولا إخبار الله تعالى وإخبار رسول الله ﷺ ما تجاسر عقلٌ أن يحوم حول ذلك الحمى ، وتلاشى دون ذلك عقل العقلاء ولبُّ الألِبَّاء ، فالله تعالى دنا من عباده بما أخبر ، ودلَّ على نفسه بما أَظْهَر ، ورفع حجاباً من الحُجُب عن وجه الكبرياء ، وكشف شيئاً من سَبُحَات العظمة والعُلى ، وكَلَّتْ أخبارُ الصفات تجليات إلهية وكشوف وألطاف جَلِيَّة عَقْلَ مَن عَقِل وَجَهْلَ مَن جَهِل ، فلا تبعد عن الله تعالى بالتشبيه وقد قرب منك ، ولا تفر عنه بالتعطيل وقد دنا إليك، أطلِق الإستواء واعْرِض عن الكيفية، وهكذا سائر الصفات ، فهو سبحانه بها تجلى لعباده بهذه الأخبار ظاهر ، وبها قَصُرَت العقول عن إدراك كنهها وكيفيتها باطن ، فلا تستكشف من عظيم شأنه ما بطن ولا تستشِفَّ من عُلُوِّ سلطانه ما انْكَمَن، وإياك أيها الراغب في الدنيا ، الغالب عليه محبة الجاه والعلو والرفعة بين الناس ، أن تتصرف فيها بعلمك ، فإنها أسرارٌ وإن كانت أخبار ، وأنت مريض ، فداو أولاً مزاج قلبك عن مرض الميل إلى الدنيا الفانية ، حتى يستقيم مزاج عقلك .

ثم اعلم أن المتصرفين في ذلك من الطوائف مأجورون من حيث أنهم قصدوا التوحيد، ومؤاخذون

من حيث عُدُولهم عن المنهج القويم ، والإخلاد إلى التشبيه والتعطيل ، فانظر أيها المنصف ودع الهوى والعصبية ، وراجِع فكرك من غير فظاظة وغلظة ، واتق الله في نفسك ودينك أن تطلق القول في أخيك المسلم بسرعة طبعك ونفور نفسك ، فإن الله تعالى عند كلمة كل قائل .

واعلم أيها الأخ الحنبلي أن أخاك الأشعري ما ذهب إلى التأويل إلا لما توهم من مخامرة البواطن من التشبيه والتمثيل ، ولو سَلِمَ له مجرد الإستواء ما أوَّل ، وأي حاجة كان له إلى ذلك لولا خوف التشبيه .

وأيها الأخ الأشعري إن أخاك الحنبلي خوفه من النفي والتعطيل ، حمَلَه على المبالغة والإصرار ومخامرة خفية من الإستقرار ، فليصالح أحدكما الآخر ، يزيح الحنبليُّ عن باطنه المبالغةَ والإصرارَ والمخامرة الخفية على ما أراد رسول الله ﷺ ، فالإستواء لا يفوته ، ويزيح الأشعريُّ خوف التشبيه، ولا يخلد إلى التأويل ، فالإعتراف بمجرد الإستواء لا يضره ، وَلْيَقُولَا جميعاً ، إثباتاً من غير تشبيه ، ونفياً من غير تعطيل : آمنَّا بما قال الله ، على ما أراد الله ، ويليق بالله ، وآمنَّا بما قال رسول الله ﷺ ، على ما أراد رسول الله . فَعِلْم الأسرار موكول إلى الله تعالى ورسوله ، وما أحسن قول القائل : الإستواء معلوم ، والكيفية مجهولة ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

ثم أزيد إيضاحاً وتوطئةً للصلح ، والله يعلم أن القصد فيه صالح ، ومِن أَتَمِّ العبادات : إصلاح ذات البين ، ويدعو إلى هذا الفن من الإيضاح ما نُقِلَ عن طائفة من السلف التصريح بالإستقرار في تفسير الإستواء : اعلم أن البواطن في زمن رسول الله ﷺ على صفة واحدة ، وفي غير زمانه لم تكن على صفة واحدة من حيث غرائزها وجِبِلَّاتها ، بل بعضها كان أقوى من بعض ، وأتم فهماً وعلماً ، وأكمل استعداداً ، ولاختلاف الإستعداد تنوَّعت مراتب الدعوة ، قال الله تعالى : ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ﴾، فلسان الحكمة جعل رُتْبَة في الدعوة لبواطن قابلة لذلك صالحة له ، ولسان لبواطن أُخر صالحة لذلك ، والمجادلة لآخرين ، وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم ، وبنور باطنه الصافي يُشرِف على البواطن ، ويُودِع في كل وعاء ما يصلح له .

وذكر رضي الله عنه يوماً : مَن هو حَسَن الخُلق ، ومَن هو سيئه ، وقد جاء ذِكر حَسَن الخُلق في حديث ، فقال رضي الله عنه : « لأن سيئ الخلق المُعَبِّس بوجهه يسيء إلى الناس وهو لا يحسب أنه يسيئ إليهم ، وحَسَن الخَلق يُحسِن إلى الناس وهو لا يظن أنه يحسن إليهم » .

وقال رضي الله عنه : « صاحب الجاه الجاهل ، سلامته أن يُحيل على غيره ، ويُظهِر عدم علمه ، ولا يتوسط في شئ ، وإلا هلك وأهلك ، وذو الجاه العالم ، يعرف ما يزن به الأمور ، وعنده نور يعلم به ويفرِّق ، وتكون أموره في الاعتدال كلسان الميزان » .

وقال رضي الله عنه : « إذا حَكَمَت الأقدار - تيسرت الأسباب أو تعسرت - وَقَعَت المسبَّبات ، ولم يعذر مع الإختيار ، وأما إذا لم تسبق الأقدار فلم تقع ، فلا عذر له أيضاً مع الإختيار ، وهذه مسألة قد تخفى ، فيحتج الإنسان بالأقدار مع ثبوته على المعصية » ، أو كما قال .

وقال رضي الله عنه لرجل: « كيف أنت؟، أمستريح؟ » ، ثم قال نفع الله به: « ما المستريح في الدنيا إلا من لا يُعوِّل بأمورها ، ولا يقول أريد ذا كذا ، وذا كذا ، وكان الجنيد لا يهتم بها ، فقيل له في ذلك فقال: إنها بُنِيَت على التعب ، فلا أستنكر شيئاً ، ونعلم أن كل راحتها تعب ، وتعبها راحة » .

وذكر رضي الله عنه الحياء ، فقال : « إن لسيدنا علي فيه كلاماً ، ومنه: إن الحياء المفرِط باب الحرمان، وهو مانع من الخير ، والطالب لا ينبغي أن يستحي ، وإن استحيا المطلوب منه » .

ومن خط ابنه علي زين العابدين ، قال: تكلم الوالد يوماً مع الحاضرين ، فقال : « إن العقول قلَّت، والنفوس كَبُرَت ، والحق خَفِي ، والباطل ظَهَر ، اللَّهم إنا نعوذ بك من مُنكَرات الأخلاق والأعمال ، ومن فضول الكلام وسوء الانتقام ، ونعوذ بك من زوال النعم وحلول النقم وضعف الهمم » .

قال سيدنا رضي الله عنه : « يقال إن السيد محمد بن علوي لما جاء طالباً إلى السيد عبد الله بن علي صاحب الوهط ، قال له السيد عبدالله : متى وُلِدتَ؟، قال: سنة ١٠٠٢ ، قال : لو عادك أدركتَ من القرن العاشر لحظة لحصل لك مطلوبك وأنت قائم في لحظة ، لكنه تركه عنده مدة طويلة يروّح عليه إذا نام ، ويملأ الحوض، وفي ثيابِ خَلِقَة ، ونحو ذلك ، حتى حصلت له الرياضة ، ثم بعد ذلك كان من أمره ما كان » .

وقال رضي الله عنه : « نود أن نحضر السماع في بعض الأحيان ، ولكن نخاف أن الروح تخرج » ، ثم قال : « إن الروح قد تقوى في الجسم ، حتى تخرج عنه » ، أو كلمة قريبة من ذلك ، وقال مرة : « إن حضرناه ربما يغيِّر علينا ، ويحصل لنا بذلك تنسّم ، ولكن ربما يغيِّر على الحاضرين بتغيُّرنا ، وإن تماسكنا ما نخلو في الباطن من شاغل وتعب ، فبقي إذن تلاوةُ كتاب الله ، وذكرُ الله أفضل » .

وقال رضي الله عنه : « إن أصل الدَّرِيج : أن قابيل بن آدم وُلِد له وَلَدٌ فمات ، فحزن عليه ، فعلقه في الهواء مدة ينظر إليه ، فتدخل الريح في جوفه ، ويسمع له عند ذلك صوت حزين ، فاتخذ أخياطاً من الشجر وفعله كالدريج ، فذلك أصله ،ولذلك لا يخرج من أهل الباطن ونحوهم إلا حزناً » .

وقال رضي الله عنه : « أول ولد وُلِد لآدم بعد نزوله إلى الأرض مات ، ولم تعلم حواء بوفاته ، فلما رأته لا يتحركُ ، قالت لآدم : لِمَ لا يتحرك ؟ فقال : إنه مات ، فصاحت ، فقال لها : لك ولبناتك الصياح، ولي ولأولادي الوقار » .

وقال رضي الله عنه في حديث ابن عباس الذي فيه : « واعلم أن الأمة لو اجتمعت .. إلخ » : « أي غير مُستقلين بذلك ، بل سعوا فيه ، ووافق القدر في حصوله ، فالإيمان بالقدر إجمالاً واجب ، فلا يُحتجُّ به في فعل معصية أو ترك طاعة ، فإن هذه بدعة ، وهي تضر بالعامة ، وهي حُجَّة لا تنفع ، يحتجون بقَدَرِ الله ، فالإيمان واجب ، وبعد ذلك إذا أَصَبْتَ معصية تُبْ منها ، واعمل الطاعة وأنت مع ذلك تؤمن أنها بِقَدرِ الله » .

وذكر رضي الله عنه القضاء والقدر، فقال : « هو مضر بالعامة ، حتى غيَّرهم ، وليس هذا مقصود الإيمان ، فإن مقصوده العمل مع الاحتجاج لله تعالى على النفس ، لا بالعكس ، وهذا هو مذهب الجبرية، ومذهب القدرية خير منه » ، وسقط بعد هذا بعض الكلام ، ثم قال : « ضَعُفَتْ في هذا الزمان النيات والمروءات والهِمَم ، وضعفُها أكثر من ضعف الدين » .

وذكر رضي الله عنه رجلاً ، فقال : « إنه فعل أموراً لم يشاورنا فيها ، ولكن الفعل فِعْلُ الله ، فما وقع فَقُل : فِعْلُ الله ، وما لم يقع فَقُل : فِعلُ فلان » .

وذكر رضي الله عنه أقواماً في معرض المدح ، وآخرين في معرض الذم ، ثم قال : « الأفعال أحد يُمدح بها وأحد يذم، والأسباب من فوق » .

وقال رضي الله عنه في حديث محاجَّة موسى لآدم ، وقوله : « فحج آدمُ موسى » : « إن هذا أمر قد مضى وتاب منه آدم ، وكم قد بقي يبكي ذنبه ، حتى بكى عليه نحو مائتي سنة ، ما إنه جلس يضحك ويحتج بالقضاء والقدر ، ولو أن العمل ما هو إلا بالقضاء والقدر ، لكن إلى الإنسان منه شعبة ، هي محل التكليف ، وبِحَسبها يثاب ويعاقب ، وهي الإختيار ، فما دام يميِّز بين الفعل والترك ، ويعرف الأحسن منهما ، ويمكنه ذلك مع الإختيار ، فلا حُجَّة له ، والحاصل : إن المدح والذم متعلقان بالإختيار، حتى إن الإنسان قد يثاب مع عدمه فيما لو فعله معه لَذُمَّ به ، كمن يسقط في بئر وهو غافل ، أو فَعَل ما فيه تلفه ، وأما المضطر المجبور ، فلا ثواب له ، ولا عقاب عليه ، لعدم الإختيار » .

وقال رضي الله عنه : « لم تظهر مجاري القضاء والقدر إلا بعد تعدي خطة الإختيار ، وما يتكلمُ في القضاء والقدر وفي الرجاء مع العامة في هذا الزمان إلا الأحمقُ » .

وقال رضي الله عنه : « لا يمكن الإنسان مادام في الدنيا أن يمسك المحفر بعُروتيه أبداً، بل إن تمكَّن جدًّا قبض بإحديهما ، وإن حرَّكه كثيراً سقط كل ما فيه أو بعضه ، فينبغي أن يأخذ بها بالتي هي أحسن، لئلا يرجع به خالياً » .

وقال رضي الله عنه : « الإصرار على الذنوب مع رجاء العفو تَمَنٍّ ، والمعتل مع ذلك بالقضاء والقدر مبتدع ، وهذه المسألة قديمة ، حتى اعتل بها الكفار ، ولكنها شاعت عند العامة ، فأول ما يلام على المعصية إحتجَّ بذلك ، وجعلوه كالجبر ، وليس هذا عذرٌ ما بقي الإختيار » .

وذكر إقامة الله للعبد ، فقال : « من كان في طاعة واعتقد إقامة الله له فيه ؛ فهو كذلك ، وإن كان في معصية واعتقد ذلك ؛ فهو الإحتجاج على الله ، ومثل هذا : الإعتمادُ على القضاء والقدر مع ترك العمل، ومثله : التعلق بالحقيقة دون الشريعة » .

وقال رضي الله عنه يوماً في مجلس الدرس في معنى : « نسألك اللطف فيما تجري به المقادير » : « معناه : أن المقدور لا رادَّ له ، ولكن يسأل اللطف في ذلك ، كما قال أبو الحسن الشاذلي : لا نسألك دفع ما تريد . ولكن نسألك التأييد بروح منك فيما تريد ، وأما نسألك الرضا بعد القضاء ، فذلك عند الحاجة إلى الرضا ، وأما قبله فإنه عازم عليه ، وما يدريك عند حصوله ، وأما برد العيش بعد الموت فذاك شيء آخر ، وقبل الموت يرغِّبه في الدنيا ، فمن سأله الله كرهه الله منه ، كما يبغض الدنيا ، ودعا النبي ﷺ لذاك الرجل الذي يكرهه: بكثرة المال والأهل ، وكذا دعا بذلك لأنس بن مالك ، فما الفرق بينهما ؟ إن هذا دعاءٌ مع المحبة بسؤال امرأة صالحة ، فصار نافعاً ، وذاك بخلافه فصار ضاراً » .

وذكر رضي الله عنه الزهد ، فقال : « كل الناس راغبون ، إلا إنها رغبة دون رغبة ، فينبغي أن يعرف الإنسان قَدْره ، ولا يدّعي ذلك ، فيَلقى الله مُدَّعياً ، وبهذا تعرف أن الزهد عزيز ، وأنت لا تُظْهِر للناس أنك زاهد ، فإن كنت كذلك فلا عليك من قول الناس ، وإلا صرت مدَّعياً ، ولقيتَ الله كذلك إذا ظهر لك الحال في الآخرة ، وفي الدنيا ما أنت سالمٌ بها أنت عليه ، وقد رأينا أناساً يدَّعون الزهد ، وهم بَعْدُ لم يصلحوا لطلب الدنيا ، لجهلهم وقِلّة ورعهم ، فكيف بالزهد ، فيسمعون مثل هذه الأشياء في الكتب فيَدَّعونها » .

وقال رضي الله عنه : « الدنيا لا تخلو أن تكون سجناً للمؤمن من كل الوجوه أو بعضها ، ولو لم يكن إلا أن الروح فيها مسجون في الجسم » .

وقال رضي الله عنه : « علامة الزاهد في الدنيا أنه إذا دخل عليه منها فوق حاجته ، يستوحش منه ، فيرد الباقي أو يخرجه في الحال بلا مهلة ، وهذا أقل الزهد ، وعلامة الراغب فيها ، أن يستأنس بما يحصل له منها ، ومن عرف الدنيا زَهد فيها ، ولو كان لم يؤمن بيوم الحساب » .

وقال رضي الله عنه : « الدنيا للدين مثل الغشاوة للمصحف ، وما زاد على ذلك فهو مضر ، فقد قال بعضهم : الدين مثل العمامة ، أي يُرفَع كما تُرفَع العمامة فوق الرأس ، والدنيا مثل النعل ، أي توضع ، واليوم انعكس الأمر ، أي وُضِع ما من شأنه أن يُرفع ، ورُفِع ما من شأنه أن يوضع » .

وقال رضي الله عنه : « اسأل ربك العافية والرضا بالدون من أمر الدنيا ، وانظر مَنْ هو فوقك ، وفَضُل عليك فيها ، هل هو يجمع ذلك لينفقه في سبيل الله أم لا ، ولا شك أنك لست بفاعل خيراً منه » .

وقال رضي الله عنه : « ما طالَبْنا أهلَ الزمان بالزهد ، فأين الزهد اليوم ، وإنما طَلَبْنا منهم التوسط ، فيأخذون أمورَ الدين بأيمانهم وأمورَ الدنيا بشمائلهم ، وكل الناس في هذا سواء ، إلا بين آخذ بيده ، وآخذ بيديه ، ولو أردنا الزهد التام ، لكُنَّا رحنا إلى جبل لبنان » .

وذكر رضي الله عنه أحوال الدنيا، وأناساً مضوا، فقال : « إنها راحت بالناس ، أحد يروح ، وأحد يجيء ، وعلى هذا السبيل ، وإنما الشرف : الطاعة وفعل الخير » .

وقال رضي الله عنه : « لا نسلِّم لأناس يدّعون أنهم متورِّعون في أمور ينكرون على من يتعاطاها تنطُّعاً ، حتى يكون كذلك في جميع الأشياء ، وإما إنه يَكِدُّ نفسه في درهم ، ويأكل رأس الفيل ، ثم هو ينكر أشياء درج عليها من هو خير منه » .

وذكر رضي الله عنه التفضيل بين الفقر والغنى، فقال : « دع التفضيل حتى ترى فقيراً وغنياً مُتَدَيِّنين متمسِّكين ، حتى ترى أحوالهما ، فتُفَضِّل أحدهما على الآخر ، وأما أهل الزمان فما فيهم حُجَّة ، ولا بهم حُجَّة ، فدعهم حتى يجيئك من تحتجُّ به ، فأول ما تحتجُّ على أهل الزمان بالزكاة ، ويكفي في هذا شأن رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأن الغالب من أولياء الله كانوا متجردين عن الدنيا ، ومن كان في يده شيء منها ، إنما يمسكه لينفقه ، ولا يبالي كيف كان ، وأما هؤلاء الذين أحدهم يبيع ويشتري ، ويقامر ويخون، وأوقات لا يصلي ، ولا يبالي بالدِّين ، فما هؤلاء ، فلا يُفاضَل بينهم ، ويُترَكون فيما بينهم وبين الله » .

وقال رضي الله عنه : « الدنيا مثل البحر ، وإذا رأيت الإنسان كلما له يتوسط البحر ، خَفْ عليه ، وإذا رأيته كلما له يتقرب إلى الساحل ، فارْجُ له الخير ، وقد ضرب الله لها الأمثال ، وشبّهها ﴿كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ

ٱلسَّمَآءِ ﴾ ، وغير ذلك ، وقد كان الأكابر من السلف قُرْب مماتهم يتجردون عنها بالكلية ، وكان الشيخ عبد الله العيدروس رضي الله عنه في آخر عمره ، كلما رأى عنده مما فيه زينة الدنيا ، يغيِّرُهُ ، حتى مسامير الباب » .

وقال رضي الله عنه : « من عمل شيئاً من الطاعات وظن أنه مخلص في ذلك، فليجرب نفسه ، فإن عرض له ما منعه عن ذلك ، وتأسف على عدم فعله ، فهو مخلص ، وإلا فلا ، وإن اهتم بفعل طاعة ، وادَّعى الإخلاص فيها ، فليطرح جميع أغراضه ، فإن بقي على همته فهو مخلص، وإلا فلا » .

وقال له رضي الله عنه رجل : « إني أريد الحج، ولكن ما خَلُصت لي النية لمجرد قصد الحج، فإنَّ نفسي تمنيني أن آخذ حَجَّة » ، فقال له : « إذا أردت أن تعرف النية الدينية ، فَنَصِّل كل ما حواليها من النيات الأخرى ، فتعرفها حينئذٍ ، وأين النية الخالصة ، ولكن حَيَّا الله الإنصاف ، بأن يَتّهم نفسه في صدق النية ، فإن لم تكن إِبِلٌ فَمَعْزٌ ، وإن لم يكن وابلٌ فَطَلٌّ ، ولكن ينبغي للإنسان أن يحمد الله حيث لم يجعله ينوي نية سيئة ، ولم يَهِم بقطع طريق أو مراياه للناس » .

وقال رضي الله عنه في قول الإمام جعفر الصادق : « ومن خان الله في الستر، هتك ستره في العلانية»: « أي إذا كان يُحَسِّن الصلاة في الملأ مع الناس أكثر منه خالياً ويرائي ، ويُرى في الملأ خاشعاً خاضعاً ، وليس كذلك في الخلوة ، فهذا هو الخائن في الستر الذي يهتك ستره ، ويُقرَّب في الآخرة من الجنة ، حتى يرى حورها وقصورها ، ثم يُصْرَف عنها ، فيقول : يارب لم أَرَيْتَنِيها ؟ فيقال له : هذا أردتُ بك لأنك راقبتَ عبادي ولم تراقبني . وتلك الأمور ينبغي أن يراقبها الإنسان من نفسه في الخلاء والملأ ، فإذا رآها وارتقب حاله فيها ، فليتكلف تركها ويكرهها ، وأما من كان على حالة فيها ، ولكن قد تَعْرُض له عند الناس خواطر رياء وحياء ، وهو يكرهها ولا يعمل بمقتضاها ، فليس كذلك ، ويعرف من نفسه، ولا ينتظر من يُعَرِّفه ، لأن الناس مأمورون بالسِّتر والكف عن التطلع إلى عورات الناس وإفشائها ، فليراقِبْ هو ربه ، ويراعي قلبه » ، أو كما قال بمعناه .

وذكر رضي الله عنه أناساً يَتَلَبَّسون بصلاة غير جائزة ، فقال : « إنما فِعْلُهم هذا معصية ، لأن من تَلَبَّسَ بطاعة باطلة ، فهو عاصٍ ، ولكن ماذا نقول في هذا الزمان ، ومن استحسن الباطل ما عاد معك له إلا السيف ، إن كان معك سيف فاقهرهم على الحق » .

ومرة ذكر مثل هذا الكلام، وذكر له مثلاً، فقال : « ومن عَشِقَ عِلَّتَهُ فليس له طبيب » .

وقال رضي الله عنه : « الكتمان في هذا الزمان أحسن من الإعلان ، إلا لأحد أمرين : إما لضيقٍ في صدره ، أو لحاجةٍ له في إظهاره ، لأن الزمان إنما هو شوك بلا ثمر ، ولم تزل الأمور تَتَناقص إلى قيام

الساعة ، وقد يضيق صدر الإنسان ، حتى من أمرٍ أو أمْرَيْن ، ومن كتم أمره أو غفل عن أمر ، حتى لم يعرفه ولم يطَّلع عليه ، ولا هو سلطان يلزمه أن يتطلع على الأمور ، فذلك خير له ، وقد سلم من الإثم والشاغل » .

وقال رضي الله عنه : « ينبغي للإنسان أن يفتش عن نفسه ، ولا ينخدع بغرورها ، فكم ممن يبرئ نفسه من شيء ، وهو ملابس له » .

وقال رضي الله عنه : « إن الله تعالى يبغض العلم الذي يَمْنَع من العمل ، ويبغض العمل الذي يمنع من العلم المهم ، والعمل بلا علم سقيم ، والعلم بلا عمل عقيم ، وفرق بينهما ، وإن كان كلٌ منهما آفة » .

وذكر رضي الله عنه شأن الصلاة، فقال : « من رأى صلاة الإمام مالك بن أنس ، علم أنها السنة ، لأن مسكنه المدينة ، فرأى من اقتدى بصلاة رسول الله ﷺ ، فهو على الإقتداء به فيها ، ويليه الإمام الشافعي ، لأنه من مكة فهو على قدم الإقتداء ، ولو كان الإمام مالك أقدم في السِّن ، والحجاز محل الدين ومنه خرج ، وهو الوسط فيها ، والإمام أحمد أخذ بالاحتياط ، والإمام أبوحنيفة أخذ بالعلم ، وقول أهل الحجاز جواز السماع ، أي الإمامان مالك والشافعي ، وقول أهل العراق السكوت ، أي الإمام أحمد وأبوحنيفة » .

وقال رضي الله عنه : « ما يوجد في نَظْمنا مما يخالف قواعد النحو فهو مما أنشأناه قبل القراءة لنا فيه ، وقد مضى على الإخلاص ، ثم إنا لا نُغيِّر منه شيئاً لأجل الفصاحة ، إلا إن كان يتغير منه المعنى ، وقد قال بعض العارفين : أَعْرَبْنَا في أَلْسِنَتِنَا فلم نَلْحَن ، ولَحَنَّا في أعمالنا فلم نُعْرِب » .

ومرة قال : « إن الصالحين يكثر لحنهم في قصائدهم لذهولهم، وإن كانوا فصحاء ونحاة، وربما تبينوا بعد ذلك شيئاً من اللحن، فلا يُصْلِحونه لمُضِيّه على الإخلاص، وإصلاحه ربما عَرَضَ فيه رياء » .

وقال رضي الله عنه : « وربما خطرت لنا الأبيات فنذكر الإعراب فنتركها ، وإلا فتعرض غير مُعرَبة، ولا حاجة لنا بالنظم ولا بالإعراب ، ولما أنشأنا الرائية التي في الشيخ عبدالقادر ، وكنا أنشأنا فيه أبياتاً على نمطها ، فلم يتم لنا ذلك ، ثم إنا في هذه الأيام احتجنا إليها لأمر مهم ، وقد فعلنا في الفقيه المقدم والعيدروس أيضاً قصائد لأجل أمور أسهل من هذا ، وأما هذا فهو في بلادهم ، فلم يحتاجوا إلى التنبيه، وهم أشد غَيرة منا عليها ، وأما السيد عبدالقادر فلم نكن ببلده ، ولأن لنا به اتصالاً من حيث رحم أهل البيت وغير ذلك » .

وقال رضي الله عنه : « إن الشيخ عبدالقادر رضي الله عنه من الذين أُذِن لهم في الظهور ، المكرهين

عليه ، وهو من ذوي الغارات الظاهرة ، حتى إنه كان ذات يوم يتوضأ فاستغاث به مستغيث قد نزل به العدو ، فخلع قبقابه في الحال فضربهم بها ، ثم الأخرى كذلك ، فوقعت كل واحدة في واحد من مشايخ العدو ، فَفَرَّج الله عن أولئك ببركته ، ثم إنهم أتوه بالقبقابَيْن وقد رأوا عليهما رطوبة الماء ، وكان بينه وبينهم حينئذ مسافة أيام متعددة » .

وقال رضي الله عنه : « إنا لم نحتج لتسويدٍ عند إنشاء قصيدة أو تصنيف كتاب ، كما يُعتَاد ، بل مسودَّتنا هي المبيَّضة ، لا اختلاف بينهما ، إلا إن أشكلت كلمة على من يرى ، أبدلناها بأوضح منها » .

وأنشد بين يديه رضي الله عنه بقصيدته التي مطلعها : « قُل للذِي جَدَّ بالأظعان يا حادي » ، *فقال* بعد تمامها : « هي من قديم القصائد ، فإن لم تصح لنا فهي على لسان من تصح له ، وكذلك كل ما هو بهذا المعنى » .

وأنشد عنده بقصيدته : « بشِّر فؤادك بالنصيب الوافي .. إلخ » ، *فقال* عند قوله : « راحُ اليقين أعز مشروب لنا » : « الراح والكأس ونحو ذلك مما يُذكر في كلامهم، المراد به اليقين » .

وأنشد عنده أيضاً بقصيدته : « قل لأحبابنا بسُوح المقام » ، *فقال رضي الله عنه* : « لا تخلو أبيات من هذه القصيدة من زحاف ، بالنسبة إلى هذا البحر ، لأن ما لنا كثير نظم فيه ، وعادتنا إذا اطَّلَعنا على رِكّة في بعض القصائد بعدما أنشأناها كذلك ؛ لا نتكلف إصلاحه ، وربما فعلنا ذلك بالقصد » .

قال : « وفيها أشياء ما توجد في الرائية ، من فصاحة وغيرها ، ولو شرح هذه الأبيات عالمٌ مُنصِف، خَلِيٌّ عن الحسد والمنافسة ، لأتى فيها بجميع مناسك الحج ، ولا ينافِسُ الإنسان إلا أصحابه » .

وتكلم يوماً رضي اللهُ عنه كلاماً على أهل الجهة وعوائدهم ، *ثم قال* : « هذه أوعية ملآنة ، ما عاد تقبل التعليم ، فأين يُطرح فيها » .

وقال رضي الله عنه : « الغلو مذموم ، لأنه يُوَلِّد غلوًّا في الجانب الآخر ، فالغلو يولِّد غلوًّا ، والتفريط يولِّد تفريطاً » .

وقال رضي الله عنه : « ما العلم إلا معرفته والعمل به ، وتعليمه لمن تأهل ، وإلا كان متلاعباً بالدين ، والدين أعمال واتِّصاف ، فيطالب نفسه بالعمل ، فمن لا ينصح نفسه ، ما نصحه الناس ، خصوصاً في هذا الزمان المبارك ، لو رأوك تسيء الصلاة ، وعرفوا أنك لا تقبل ، ما كلَّمَك واحد » .

وقال رضي الله عنه : « المقام مقامان : مقام إسلام ، ومقام إيمان ، فإذا حقَّقْتَ مقام الإسلام ، صار هو

طريقك إلى الإيمان ، ولا طريق إليه إلا منه ، ومن أراد الإيمان من غير طريق الإسلام ، بقي لا إسلام ولا إيمان » .

وذكر رضي الله عنه في حديث : « إن للقبر رجَّة، يسمعها كل شيء إلا الثقلين » ، ثم قال : « حكى لنا رجل وكان ثقة : إنه أتى بعض البلدان ، فرأى قوماً معهم جنازة ، فأتوا بها المصلَّى ، وصلوا عليها، قال : وصلَّيتُ أنا معهم ، ثم حملوها إلى التربة ، ومضيت معهم ، فلما وضعوها في القبر ، هربوا في الحال مسرعين ، فعجبت من سرعة مسيرهم وركضهم كأنهم خافوا من شيء ، فسألت رجلاً منهم عن سبب ذلك ، فقال : إنا في بلدنا هذه ساعةَ نضع الميت في القبر نسمع للقبر رجة شديدة ، فنهرب خوفاً منها حتى لا نسمعها » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « يأتي زمانٌ القابضُ فيه على دينه كالقابض على الجمر » : « أي يعسر التمسك بالدين حينئذ، وأكثر ما يشتد على المتمسك بالدين والعلماء العاملين والصالحين » .

وذكر رضي الله عنه قوماً أساءوا الأدب مع النبي ﷺ ، كالذي قال : « إن هذه قسمة ما أريدَ بها وجه الله » ، ثم قال : « فمن أين عرفوا الله ، إلّا من نبيه عليه الصلاة والسلام ، ومثل هذه الأشياء ، تَقْدح في دين قائلها ، ومَثَلُها مَثَلُ القائم على جريدة في النخل أو على حبل ، وهو يقطع فيه ، فيوشك أن ينقطع به فيهوي » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « شر الرعاء الحطمة » : « أي الذي يحطم الناس بالجور ، ثم بعد تحطُمُه النار ، فالحطمة للحطمة » .

وقال رضي الله عنه في قول بعضهم : « الإنقباض موجب للعداوة .. إلخ » : « أي الإنقباض في الأخلاق : بأنّ ينقبض مع الخلطة ، لا الإعتزال عن الناس » .

وقال رضي الله عنه في قولهم : « عجباً ممن يحب نفسه على اليقين ، ويَكْره غيرَه على الظن » : « أي يقيناً من المعصية من نفسه، وظناً منها من غيره » .

وقال رضي الله عنه : « العلم في هذا الزمان إنما هو للبركة ، ولكن بشرط أن لا يروا لأنفسهم ، وكانوا - أي الأولونّ - في غاية التواضع ، وأين اليوم العلم النافع في الدين » .

وقال له رضي الله عنه بعض السادة : « هل وقت الإشراق هو وقت الضحى؟ أم له وقت وحده؟ » ، فقال رضي الله عنه : « من طلوع الشمس يقال له إشراق ، ولكن لا تحل الصَّلاة إلا بعد ارتفاعها قدر رمح ، ويبقى هذا وَقْتها إلى رحين ، ثم يَخْرج وقت صلاة الإشراق ، وبين وقتها ووقت صلاة الضحى ، وقت يسمى رادّ » ، واستشهد ببيت لامية العجم « والشمس راد الضحى .. إلخ » ،

وهو قدر ساعة زمانية .

وقال رضي الله عنه : « إنا لا نحبّ أن نحيِّر الطالب ، بل نعطيه على قدره ، وترى أقواماً يطيلون على المبتدين ، ويحيِّرونهم حتى يَمَلُّوا ، ونحن قد طَالعنا كثيراً ، وقرأنا كثيراً ، ونسينا كثيراً ، ولكنا لم نُجر المذاكرة في مسألةٍ ما إلَّا ذَكَرْنَا لها شاهداً من القرآن والسُّنة ، وإذا عَرَضَت مسألة تَكَلَّمنا فيها ، ولا نراعي حال الحاضرين ، وإنما نراعي الوقت والدماغ ، ونحب مع ذلك أن الحاضرين يُثْبِتُون بعض ما تكلمنا به - أو قال : بعض المذاكرة - لأن لنا في ذلك شجناً ، وإلى الآن نحب الكتب والمطالعة فيها ، مع إنّا على ذلك من حين كان سِنُّنا نحو خمس عشرة سنة ، حتى إنه يعجبني بعض الكتب التي لم أقف عليها أو وقفت عليها ونَسيتُها » .

وقال رضي الله عنه في الحديث : « يقول الله لأهل بدر: اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم » : « أي إنهم ما بقي فيهم داعية المعاصي ، إنما عملهم كله صالح » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « إذا اشتبهت عليك طريقان ، فاسلك أيْمَنَهَا » قال : « هذا إذا كان كلٌّ منهما يسلك بك مقصداً واحداً ، فاشتبه عليك الأقرب منهما ، فأما إذا تحقَّقْتَ أن أيْسَرَهُمَا هو الطريق الأبعد أو الأقرب فاسلكه » .

وقال رضي الله عنه : « كلُّ ما صَرَف قلبك عن الله من علم أو غيره ، ووسوستَ به في نفسك ؛ فاتركه، وإن كان من علوم الآخرة . واختلاف العلوم كاختلاف الطرق ، فخذ منها ما تحْتاج إليه ، مثل ما إذا كنت مسافراً ورأيت طرقاً كثيرة ، فلا تَسْلك الطرق كلها ، بل واحدة التي منها طريقك » .

وقال رضي الله عنه : « العالِمُ دون المكاشَف والنبي ، وهو يعرف طبقات الناس كلهم ، من العرش إلى تخوم الأرض ، ويُنَزِّل كل واحد منزلته ، وما سُمِّيَ العالِـم الكبير ربَّاني إلا لكونه يُرَبِّي الناس بصفات العلم » .

وقال رضي الله عنه في معنى حديث : « إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه » : « أي ينفعه بنفي العُجُب، بسبب شيء من الصغائر ، تصدر منه مرة واحدة ، كرؤية غير مَحْرَم ، وأما الإصرار على المعاصي ، بأن يعملها ويَنْوي ذلك مهما تمكَّن ، فإنه يضر ، سيما الكبائر ، فقد قيل بتخليد من مات مُصِرًّا عليها ، وقوله مع الإصرار أستغفر الله وأتوب إليه بلسانه ، لا يَنْفعه ، لكنه خير من عدمه ، وإنما التوبة مع التَّنصُّل من الذنوب » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « الدين النصيحة » : « أي إنها داخلة في جميع أجزاء الدين » .

وقال في حديث : « من غَشَّنا فليس مِنَّا » : « أي أظهر خلاف ما أبطن ، بِقصد الخدعة في سلعته » .

وقال رضي الله عنه في الحديث الذي فيه ذِكْر أبواب الجنة الثمانية : « هذه الأبواب الكبار التي تكون على حائطها ، حائط سورها يدخل منها إليها ، وإلا فلكل بيت باب ، والنَّار سبع طبقات ، إذا دخل من باب طبقة إلى أخرى ينزل حتى الهاوية ، والجنة إذا دخل من باب وأراد الآخر ارتفع ، وكل منزلة أعلى من منزلة ، ولأيّ شيء كانت أبواب النار سَبْعة ؟ قيل : لأنَّ القلب يُعَدُّ في أبواب الجنة دون النار، والإنسان إنما يرجو من فضل ربه ، وإلا فما له عمل صالح يرجوا الجزاء عليه » ، أو كما قال .

وسُئِل رضي الله عنه عن قول : « سبحان الله وبحمده » ، التي يُهْدى منها ألف للأموات ، هل فيها لفظ العظيم ؟، فقال رضي الله عنه : « ليس فيها ، وإذا ورد في الحديث تسبيح كهذا ، أو استغفار كاستغفر الله في شيء من المواضع ، ولا فيها لفظ العظيم ، ثم إنه زيِّد فلا يعُكّر عليه ، لأن العظمة وَصْفُه تعالى » .

وقال رضي الله عنه في الدعاء الوارد في الحديث « اللهم إني أعوذ بك من التردي والهدم والحرق »: « إن هذه الأشياء ، ولو كان فيها شهادة ، إلا إنها لا تأتي إلَّا بغتة ، ويكون حِينئذ بِغَيْر استعداد ، وما جاء بغتة ، يُشْكِل ويَعْسُر ، وربما يُقبَض وهو غير راض ، وذلك مشكل » .

وسئل رضي الله عنه عن الذي استعجل الموت ، فقتل نفسه ، المذكور في قصة خيبر ، هل هو مخلَّد أم لا ؟ فقال : « إنه كان مؤمناً ، فاستعجل الموت لضرورة ، ولعله مات على الإسلام ، والله أعلم بحاله ، وكونه يَدْخل النار ، فما كل من دخلها بمخَلَّد ، وقد كان السلف يَتْركون أحاديث الخوف على ظاهرها ولا يؤوِّلونها ، وقد استعجل الموت وفعل مثل ذلك ناس كثير ، وتعرضوا لسبب موتهم ، ونعرف منهم جملة ناس ، منهم امرأة من الأشراف ، طلبت مُوْسَى ، فَأُعْطِيَتْه فذبحت به نفسها ، وآخر كان يخدم الدولة ، ويؤذي الناس فاتفق أن غضبوا عليه الدولة ، وأشغلوه ، فقتل نفسه ، فقال السيد عمر بن أحمد وكان من المكاشفين : إنه أرسل إليه الفقيه المقدم من ذَبَحَه » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « إذا لقيتم المصرِّين على المعاصي ، فَالْقَوهُم بوجوه مُكْفَهِرَّة » ، والحديث في الجامع الصغير ، قال : « أي المجاهرين بها و المتظاهرين بها بلا مبالاة ، ولا يجاهر ويتظاهر بها إلا من لا خوف معه من الله ولا حياء ، فليبغضهم ويعاديهم ما لم يخش فتنة » .

وقال رضي الله عنه لرجل من القرّاء يغلط كثيراً ويَلْحَن : « من راح عليه وَقْت التحصيل ولا حَصّل، يعسر عليه التّحصيل بَعْد ذلك ، ويروح وقته بلا شيء ، كمن ترك الفخطة - أي التأبير - في أوانها فأرادها بعد ذلك ، فلا تنفع بعد . ونحن ما تَكَلَّمنا بهذا إلا بسبب رجل من الجهال ، قال : فلان قرأ على مَنْ ، فنقل ذلك لنا عنه رجل ، وقال عنه : قال رأيت في النوم أمراً أتعبني ، وهو أنه رأى أن أسداً أراد يأكل المتكلم الذي قال : قرأ على مَنْ » .

قال : « وما نحن بصدد المنافسة ، وقد تكلم الإمام الغزالي على السلاطين والأمراء ، وحفظه الله منهم ، ولا كَلّم بذلك هؤلاء بعد ما تصوَّف ، فإنه ينبغي أن لا يُكَلَّموا ، وقلنا له : هو بواسع الحل » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « كفى بالمرء كذباً أن يحدِّث بكل ما سمع » : « أي من صِدْقٍ وكَذِبٍ ، ومن نافعٍ وضار ، فينبغي إذا أراد كلاماً أن يَنتَقِيَه ، فلا يحدّثْ إلَّا بما فيه نفع مؤمن ، أو دفع ضر عنه » .

وقال رضي الله عنه : « إذا أردت توقيف إنسان يدَّعي علماً ، فاسأله عن علمه المشهور به الذي يدَّعيه، فإن غلط أو جازف ، فاعرف مقداره ، والحاصل : إنك لا تسأل الإنسان إلَّا عن العلم الذي تفرّغ له ، وإلا فلا شك أن الفقيه يَغْلط في النحو وبالعكس ، ويَنْبغي أن يُحْكِمَ العلم الذي تفرغ له ، ويتطرف في بقية العلوم ، فالإمام الشافعي مثلاً عالم بالحديث ، ولكن ما نَزّلوه فيه ، كابن شهاب[1] ، ولا ابن شهاب في الفقه كالشَّافعي ، ولا هما في السِّيَر كابن إسحاق » .

وقال رضي الله عنه : « إذا رأيت الجاهل يحتج لجهله فاتركه ، ولا تجادله ، إلَّا بفعل إن قدرت عليه، كما أنكر أقوام على الإمام الغزالي لما تصوَّف ، أرادوه يرجع إلى تَقْرير العلم الظَّاهر ، مع أن أكثر انتفاعهم فيها منه ، فتركهم وسكت عنهم » .

وقال رضي الله عنه : « كان النَّاس يطلبون الفضائل ليتحلوا بها ، واليوم تأمرهم بذلك فيرون أنك أشغلتهم ، فضلاً عن أن يتنبهوا لها » .

وقال رضي الله عنه : « الفقيه من عَلِم أسرار الدين ، والذي عِلْمُهُ إلا أيَّة أفضل ، كذا أوكذا أفضل من كذا ، ما هذا إلا موسوس » .

وقال رضي الله عنه لبعض السادة: « أكثر من الدعاء بهذه الكلمات : اللهم ارزقني طيباً، واستعملني صالحاً ، وتوفني مُسْلماً ، وألحقني بالصالحين » .

وقال رضي الله عنه : « أمور الآخرة لا يَسَع الإنسان فيها إلا التَّصديق والإجمال وعدم التأويل » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « من تصدَّق فقد فك لِحْيَيْ سبعين شيطاناً » : « يعني خالف صفات الشياطين ، فَشَيْطان يأمره بالبخل ، وآخر يخوِّفه الحاجة ، وآخر يأمره يؤُخّره ، ونحو ذلك إلى سَبْعين شيطاناً من هذا القبيل ، فإذا تصدق فقد خالف جميع هذه الدواعي » .

وقال رضي الله عنه في معنى ما ورد أنه ينبغي أن يُدار بنحو الماء على اليمين ، قال : « هذا إذا كان يدار بإناء واحد فقط ، وأما إذا تعددت الآنية فالإنسان مخيَّر فيها في يده ، لأن ما فيه له يعطيه من أراد ، ممن

---

(١) هو الزهري . اهـ « م » .

كان عن يمينه أو شماله أو غيرها » .

أقول : وذلك كما هو المعتاد في حضرموت في أدنان الماء ، كل واحد يعطى دنًّا فيه ماء له ، يستبد به ، وذلك هو سبب كلام سيدنا هذا ، فإنه لما شرب ناوله بعض السادة ، فقال ما قال ، لئلا يتوهم أحد ممن سمع الحديث ، فيقول في نفسه ينبغي الإدارة على اليمين ، وربما خَطَر ذلك في خاطر أحد من الحاضرين ، فقال هذا الكلام المذكور مكاشفة منه له .

وقرأ رضي الله عنه على رِجْل شخص فيها قرحة ، عجز عنها الأطباء والمداوون هذه الكلمات ، *وقال لي* : « **احفظها، فإنا نرويها عن سلفنا : يا ذا النَّبت المنبوت ، مُت في بدن من يموت ، بقدرة الحي الذي لا يموت** » .

وقال رضي الله عنه في خبر : « إذا هاجت الفتن، فعليكم باليمن » ، قال : « **وهذا هو الذي نشير به في الحياة وبعد المات ، لمن يسمع كلامنا ، أن يرجع عند هيجانها إلى حيث خرج الدين ، والحرمين تُسَمَّى يمن** » .

وذكر رضي الله عنه العين، *فقال* : « **ينبغي أن يشوّش الأمور ، لئلا يراها من يخاف منه العين ، وأنا ما أوسوس إلّا من العين ، لحديث : لو كان شيء سابق القدر لسبقته العين ، ومن آخر أربعاء ، لقوله تعالى : ﴿يَوْمِ نَحْسٍ مُّسْتَمِرٍّ﴾، وإن كان بعض المفسرين قال : على عَادٍ بالخصوص ، فإنهم قد عُذِّبوا ، فما وجه استمراره ، وقد فُسِّر : ﴿إِلَّا حَاجَةً فِي نَفْسِ يَعْقُوبَ قَضَاهَا﴾، أنه خاف على بنيه العين ، فيَنْبغي سؤال اللطف والستر** » .

ورأيتُ مكتوباً عنه رضي الله عنه: أنه يرتب قراءة الفاتحة وآية الكرسي مع شُرْب قهوة الصّبح. والفاتحة ، ولإيلاف قريش ، وإنا أعطيناك الكوثر ، وقل هو الله أحد مع شُرْب قهوة الظّهر . ومع شرب قهوة السَّحر خاصة يا قوي ١١٦ مرة كما هو مأثور ، وفي غير ذلك الفاتحة فقط ، ومع آية الكرسى في الغالب .

وقال رضي الله عنه : « ما كان لنا رغبة في التدريس ، إلا رجل من آل بافضل قال : أريد أن أتبارك عليكم ما تيسر في «رياض الصالحين» ، فجاء السيد حسن الجفري وقال : أريد أن أقرأ ما تيسر في العوارف ، وطلب الفقيه باجبير القراءة في حزب البر ، فتراسَلَت القراءة ، فلما رأينا النَّاس متراسلين على القراءة ، رتبنا أوقاتها . وقرأ علينا في مكة وفي المدينة خَلْق في «الإحياء» وفي غيره ، ولم يتم من قراءة كتب «الإحياء» إلا كتاب رياضة النفس » .

وقال رضي الله عنه : « مقصودنا في كتاب «النصائح» أن يكون سَلِساً واضحاً ، يَفْهمه كل من نظر فيه ممن له فهم ويَكْتفي به ، فإن لم يكتف ، وإلاَّ يكون مشوقاً إلى أبسط منه ، وسماه بعضهم حاء الإحياء، لكن في هذا الزمان ما قيل حاء ، ولا تاء ، بل ضُرب بعضهم ببعض ، ووقع الضرب في أهل الدين ، لكن الجهال ما لهم جواب ، ولا يُرَدُّ عليهم ، والسّكوت عنهم أحسن ، كما فعله الإمام الغزالي آخر عمره ، فسكت عن الرّد على المبتدعة ، وقد رَدَّ على علماء وسلاطين ، وقُتِل جماعة من تلامذته في الفتنة ، منهم رجل يقال له محمد بن يحيى ، شَرَح الوسيط ، والدِّين في جزيرة العرب أقوى منه في غيرها ، فمن أَدْرَكَتْهُ فتنة فيها ، فليفرَّ بدِينه من مَوْضعه إلى موضع آخر منها ، ولا يتعداها إلى غيرها ، لأن الفتنة في غيرها مشكلة جداً ، وإذا لم يفر يُكَلَّف أو يَتكَلَّف ، وكلاهما شر » .

وقال رضي الله عنه : « هذا زمان العالِم فيه أبْكَم عن الحق ، والجاهل فيه أصم عنه ، فلا العالم يتكلم به لمداهنة وغيرها ، ولا الجاهل يستمعه ، لاستغراق الكل في طَلَب الدنيا ، وعَدم المبالاة بالدين ، فمن أين يحصل الأمر بالمعروف وامتثاله ، ومن أين يحصل النهي عن المنكر واجتنابه » .

وقال رضي الله عنه : « عادات السلف أحسن من عاداتنا بل من سُنَنَنا » .

وقال رضي الله عنه : « كل حياء يمنع من خير فهو جُبن ، وليس هو من الحياء المحمود ، وإنما المحمود ما مَنع من مباشرة مذموم ، شرعي أو طَبْعي » .

وقال رضي الله عنه : « الركعتان اللَّتان قبل المغرب ، لا نأمر بهما ، ولا نَنْهى عنهما » .

وقال رضي الله عنه : « ما أقمنا من أول الأمر إلا على الطريق العامة ، وأما الخاصة فقد انطوت » .

وقال رضي الله عنه : « لو أمْلَيْنا عليكم في الأذان لعجبتم ، وسمعتم مالم تسمعوا » .

وقال رضي الله عنه : « ينبغي أن تكون السورة التي تقرأ بعد الفاتحة في صلاة التسبيح ، من السور التي عدد آيها عشرون كسبح - الأعلى - » .

وقال رضي الله عنه : « كل كتاب فيه باب هو عين الكتاب ، ترجع كل الأبواب إليه ، وما يقع فيها

من الإطلاقات فهو يقيدها » .

ومر في حديث ذكرُ الجنة والنار ، *فقال* : « لا محالةَ أن الجنة أوسع ، لأن لأهلها فيها منازل واسعة، وممالك مُطَّردة ، ولا محالةَ أن أهل النار أكثر ، لأن ما لأحدهم إلا مِفْحص رجله ، وإن غلظت أجسادهم» .

وقال في حديث : « رب أشعث أغبر ذي طمرين ... إلخ » ، : « هو فقير قانع بفَقْره، ولا يريد خلاف ذلك ، ذو تقوى ، مؤدِّياً لحق الله فيما أمر أو نهى ، ذو ورع لا يأكل إلَّا حَلالاً ، وأما فقير ذو طمرين لا يُبَالي من أين أكل ، من حلال أو حرام ، فما فضيلته ؟ فالحاصل أنه لا فضل إلا مع التقوى والدين ، لا بشرف الآباء ونحو ذلك » .

وقال رضي الله عنه : « المعاصي إذا عَمَّت عمَّ ضررها ، وإذا خصَّت خصَّ ضررها ، التالية أن من علم بها ولم يُنكِر يأثم ، وإلَّا فإنما إثمه على نفسه ، أي إذا لم يطلع عليها أحد » .

وقال رضي الله عنه : « الجهال صغار العقول ، لا تجالسهم فإنهم كالنَّار ، ولا تجي في طريقهم ، ويجي منهم مثل ما يجي للنبي ﷺ من أبي جهل وأمثاله ، إلَّا إن أولئك كفار ، والجاهل ما يرجع من شيء » .

وقال رضي الله عنه : « أهل العلم متواخين ، وأهل الجهل متواخين ، إلا أن الأخوة متقاربة ومتباعدة » .

وذكر رضي الله عنه قراءة القرآن وما يحصل فيها من الغلط ، *فقال* : « احرصوا على أن تؤدوا - وهنا بقي بياض ، ولعل: أن تؤدوا القرآن كما أنزل - واحذروا نقصانه أو زيادته أو إبداله بآخر ، ونحو ذلك، وأنا أكثر ما يشتبه عليَّ الواو بالفاء في بعض الكلمات ، ولو كنت ممن يقرأ في المصْحف لما قرأت إلا فيه، ولو كنت في الصَّلاة ، لأنه إذا كان قد اختُلِف في رواية الحديث - أو قال : قراءة الحديث - بالمعنى ، حتى يأتي به بلفظه ، فكيف بالقرآن » .

وقرأ رضي الله عنه يوماً في حلقة القراءة في رمضان وذلك يوم الثلاثاء ١٤ منه سنة ١١٢٥ سورة « سأل سائل » ، فقال لي : « لو سُئلتَ عن غَرِيب هذه السورة، أكنتَ تجيب بديهة من غير مراجعة ؟ »، فقلتُ : لا ، ولا غيرها . *ثم قال* : « لولا تغير الزمان لَوَضعنا كتباً في مثل هذه الأمور ، ولكن كيف وقد تَغيّر قبل اليوم بزمان، وما عليهم إلَّا أن يقيموا حروفه » .

وقال رضي الله عنه : « دخل سلمان الفارسي رضي الله عنه بلد المدائن ، فحَفَّ به النَّاس من كل جانب، يريدونه يحدِّثهم ، فجعل يقرأ سورة يوسف ، فلم يزل الناس يَتَصدَّعون ، حتى لم يَبْقَ أحد منهم ، فقال: زخرفاً من القول أردتم » .

وقال رضي الله عنه في قول سفيان الثوري: « طلبنا العلم لغير الله ، فأبى العلم أن يكون إلا لله » : « قد ذكر الإمام الغزالي رحمه الله ، أنه إن كان العلم من أمور الآخرة ، التي فيها التخويف فهو كذلك ، يمكن أن يَجُرَّه ذلك إلى الإخلاص والرجوع إلى الله ، وإن كان في الفروع النادرة من الفقه فإنه لا يمكن فيها إصلاح النية ، بل لو كان له نية في طلب العلم فإذا جاء عند هذه المذكورة فسدت نيته ، وتفاريع الفقه ما لها طرف ، حتى أهل الزمان لو أرادوا ذلك يمكنهم ، ولا حاجة فيها إلّا إن كان لإشحاذ الذهن، كما ذكروا في الخنثى ، فإنه أخذ نصف العلم في الوضوء والغسل والصلاة والمواريث وغير ذلك ولم يوجَد ، ومن تأمل تصانيف المتأخرين ، رآها تقصر عن تصانيف السابقين ، لأنها أوضح ، ونياتهم أحسن من نياتهم ، إلّا إن كان نَوَوا أن يكونوا منظومين في سلك من أحيى الشريعة ونصرها ، ولو سئل ابن حجر وغيره ماذا نووا في ذلك ، لا يقولون إلا كذلك إن شاء الله » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « يُنصَب لكل غادر لواء يوم القيامة بقدر غدرته » ، فقال : « يختلف الغدر ، فغدر في حقِّ الله ، وغدر في حق رسول الله ﷺ ، وغدر في حق الخلق على حسب أحوالهم ، وغدر في حق نفسه » .

وقال رضي الله عنه في ما ذكروا في الخشوع في الصلاة أن لا يعرف من على يمينه أو يساره ، فقال : « أي إذا لم يكن قد عرفه قبل الدخول في الصلاة ، وإلا فَقِدْهُ يعرفه ، فإن لم يعرفه إلا فيها ، فإن ذلك خاطر خطر له في الصلاة » .

وقال رضي الله عنه لرجل يوصيه : « اِلزم كل مكان تصفو لك فيه طاعتك ، ويطمئن فيه قلبك ، إن كان وطنك أو غيره » .

وقال لآخر يوصيه أيضاً : « الله الله في الدعاء في المجامع وفي مجالس السَّادة ، وحال اجتماعهم ، فإن الدعاء كالسهام ، إن أخطأ هذا ، أصاب هذا » .

وقال رضي الله عنه : « بالأدعية وحضور المجالس المحضورة ، ومجالسة أهل الخير ، فبمثل ذلك يكون التعرض » .

وقال رضي الله عنه : « اطَّلَعنا على جملة من العلوم من غير قَصْد منا لذلك ، وينبغي أن يطلع على أوائل العلوم ، ليحصِّلَ من كل علم حظًّا ، وأما التبحُّر فلا ينبغي ، إلّا في العلم بالله وصفاته وملائكته واليوم الآخر » .

وقال رضي الله عنه في قولهم : « إن النفس إن لم تشغلها أشغلتك » : « أي إن كنت من أهل الدين فأَشْغِلْها بالعبادات والأوراد وتقليل العادات ، من الأكل وغيره حتى الماء البارد - أي أيام الصيف -

لا تكثر لها منه ، وإن كنت من أهل الدنيا فاشغلها بالعوائد الحسنة ، والأمور المحمودة ، فإن لم تُشْغَل بذلك تَفرَّغَت للتفكر في أمور غائبة مذمومة ، وَدَعَتْه إليها ، ومن طَبْع النفس أنها إذا حُبِسَت عن أمرٍ الضيقُ وإن كانت في سعة ، وإذا أُطلقت الراحةُ وإن كانت في ضيق ، كما لو كان صائماً فيحس الثقل من الصوم من أول النهار ، وإن لم يكن جائعاً ، وإذا كان مفطراً استراح ولو تأخر عنه الغداء عن حِلِّه المعتاد » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « من احتكر على المسلمين طعاماً ابتلاه الله بالإفلاس والجذام » ذكره في الجامع الصغير ، فقال : « إما الجذام الظاهر أو مَحْق البركة ، لأن الجذام المحقُ ، فَيمْحق ويُفْلس من الدنيا مع إفلاسه أيضاً من الدين ، لأن الغالب ما يفعل ذلك أحد إلا افتقر قبل أن يخرج من الدنيا » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « والله لا يؤمن، من لا يأمن جاره بوائقه » ، قال : « البوائق التطلع إلى عوراته ، والإستشراف في بيته من غير إذنه ، ونظره إلى أهله ، واحتقاره ، ونقله لكلامه ، وخون أمانته » .

وقال في حديث : « قل هو الله أحد ثلث القرآن ، والزلزلة نصف القرآن ، والكافرون ربع القرآن»، ونَحْو ذلك ، قال : « إن هذه أسرار لا يُطلع عليها إلا بنور النبوة » .

وقال في حديث : « الجار قبل الدار » : « أي إذا أردت نزول دار فانظر فيها واختر مجاورة أهل الصلاح والستر والصيانة ، ولا تجاور معروفاً بالفساد ، والتَّطلع على العورات ، فربما تَطَلَّع على عورتك، وتشرَّفَ عليك وعلى أهلك ، فاختبر حال الجار أولاً قبل نزولك في جواره » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « اطلبوا الحوائج بعزة النفس » : « أي اطلبوها بعز، ولا تطلبوها بالتضعضع ، لأن التضعضع ليس من أخلاق المؤمنين » .

وقال في حديث : « أعدى عدوك زوجتك التي تضاجعها وما ملكت يمينك » : « أي لأنه يقع منهم بلايا ، وأقلّ الحال أنهم يوقعونك في طلب الدنيا ، إن لم يكن معك شيء » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « من أخذ أموال الناس يريد إتلافها، أتلفه الله .. إلخ » : « هو من يستدين و نيته إن تيسر له أدَّى وإلا ترك » .

وقال في قولهم: « الجوع المفرط مُفسِدٌ للفكر » : « أي إنه إذا كثر عليه الجوع يرى أشياء يظنها أنواراً ومكاشفات ونحوها ، وليس كذلك ، إنما هو من فراغ الدماغ ، إنما الجوع المحبوب يكون إختياراً بالتدريج » .

وقال رضي الله عنه : « الجوع الإضطراري مضر ، وإنما المَطْلوب الجوع الإختياري كما يَفْعله

الصالحون، وهو المعروف من حالة النبي ﷺ وأصحابه ، فمَن بَعدَهم » .

وقال رضي الله عنه : « الجوع المستعاذ منه في الحديث : أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع : هو الجوع الإضطراري الذي يُشْغل الخاطر كثيراً ، حتى تتغير عليه حوائجه ، وأحوال دينه ودنياه ، وغير ذلك من المضار الدينية والدنيوية ، وأما الجوع الإختياري فهو محمود ، فقد كان ﷺ يجوع الثلاثة الأيام أو أكثر » .

وقال رضي الله عنه : « ذكر الشعراوي أنَّ من دعا إلى الله في هذا الزمان ، أنَّ مَثَله كمثل المعلِّم ، إذا فتح المدرسة لتعليم الصبيان القرآن عند غروب الشمس ، فلا يجيئه منهم أحد ، ولا أحد يرسل إليه ابنه في ذلك الوقت لضيقه ، وهو - أي الشعراوي - مع ذلك في القرن العاشر ، فكيف في زماننا الآن؟ » .

وقال رضي الله عنه : « نحن تَطَرَّفنا في كل علم ، حتى إذا وقعت المذاكرة لا يَبْقى الإنسان جاهلاً بشيء منها ، وما العلم الصَّحيح بعد معرفة كلام الله ورسوله ، إلا عِلْم التَّصوف ، وأخذنا كثيراً من علم الأدب ، وأكثرَ الناسُ من تصانيف الفقه ، والحديثُ أحسن » .

وقال رضي الله عنه : « إذا الإنسان أمعن في شيء فلا عاد يزاحم أهله ، فإنهم ربما زاحموه فلم يحسنوه ، لأن المزاحمة من طبيعة الآدمي ، ولا يخلو الثمر من شوك ، ما هو إلا بين قليل أو كثير ، وإذا أردتَ عِلْمَ ما لم يمكنك أن تحيط به ، فخذ أصوله ، فمن أين يفرغ الإنسان لمطالعة العلوم كلها ، ومن اشتُهِر بشيء من العلوم ، وإن كان يُحسِن غيره ، نُسِبَ إليه وسُئِلَ عنه » .

وقال رضي الله عنه لرجل كان يقرأ في «منهاج العابدين» ، عندما وصل إلى ذِكْر الأكل وكثرته :

« كيف قرأت هذا الكتاب في الخانقة[1] ، وهم ألّا يدوّرون للأكل والشهوات ، أيلعبون بكتب الأئمة، ومثل هذه الأماكن لا يليق بها إلا طلب الفقه والنحو، ونحو ذلك . وأما قراءة كتب التصوف فلا تليق بمن هذه حالته ، لأن عملهم مخالف لذلك ، والعلم بخلاف السيرة يمحق العبد ، وقد أرسل بعضهم إلى آخر - وكان من الرجال - : كيف تقرأ في «الإحياء» وأنت كذا وكذا ، وكان مستقيم الحال ، إلا إنه ببعض السيرة يُخِل » .

وقال رضي الله عنه : « كنا أردنا أن نجعل القراءة قارئاً واحداً ، ولا أولى من قراءة آية الكرسي ، وقد كان كذلك جماعة من الأكابر ، فيتكلم على الذي يقرأ ويقرره ، ويَمْتد به الكلام حتى يخرج إلى ما يناسب كل أحد من الحاضرين ، فيأخذ كلٌّ من الكلام ما يوافقه ، ألا تسمع كلام الشيخ عبدالقادر ، كيف يقول : يا فلان ، يا غلام ، فيكلم كل واحد ويخاطبه بمقتضى حاله وما يناسبه ، ولكن لا يَسْتقيم

---

[1] الخانقة : نزل الصوفية ، واللفظة فارسية . اهـ المعجم الوسيط .

هذا إلا لمن استوى عنده الذَّامُّ والمادح ، والمعطي والمانع ، والمحب والشَّاني ، فإذا استوى عنده النَّاس بمثابة واحدة ، تأهَّل لذلك ، ونحن نرى النَّاس كلهم سوى ، لأنهم كلهم خلق الله ، والكلام كذلك فيه مشقَّة اليوم ، وأسهل منه الإيصاء بالدِّين والتقوى ، وفيه كفاية من ذلك ، وأسهل منه ، وقد اكتفينا بذلك ، وذكرنا ما يحتاج الناس إليه » .

وجاء في القراءة في « حديقة بَحْرَق » تعداد فوائد الذِّكر وتَفْصيل ذلك ، فقال : « يظُنُّ الناس أن المراد بالذِّكر أن يقول بلسانه : لا إله إلا الله ، وهذا غلط ، والرجل كان يُذكَر فيه حِدَّة ، والحديد يكون في كلامه في كل شيء مبالغة من جنس ما يتكلم فيه ، لكنه يكون ثقيلاً في الطَّبع ، وكلامه مليح ، لكن فيه المبالغة ، وهذا كلام قد نَخَلَه الإمام الغزالي » .

وذكر رضي الله عنه القُرَّاء ، فقال : « هؤلاء الصّغار كلٌّ يريد إلا قراءته لنفسه ، وإلَّا فما ينبغي أن يُقرأ علينا إلا آيات من القرآن ، فما أحسن ولا أبرك من كلام الله » .

وقال : « ورَغْبتهم في القراءة لأجل الدنيا ، وإن كانوا من المتصدِّين للقراءة ، لأنهم يحبُّون أمور الدنيا ، ولا يقال له ممن يريد العلم اللدني ، حتى لا يفرح بأمور الدّنيا ، وإن كان الزهد من وراء ذلك وإنه لا يصلح للزهد كل أحد » .

وذكر رضي الله عنه المعاملات الفاسدة ، فقال : « لهم في السَّلَم بشروطه ، وفي القراض وبيع الصبر بأقل ، مندوحة عن الرباء ، ولكن الشيطان إذا أغرى الإنسان بشيء ، ما يغريه إلا بالذي يُهْلكه ، وهذه الحِيَل ما كنا نعرفها ، ولكن ما عاد الناس مُعوِّلين بشيء ، وكذلك تَزْييد بعض الورثة على البعض في الميراث ، وكانت لنا جدة من آل الحَبْشي ، ولها أخ وكانت في خدمة أمها ، فقالت أمها يوماً لأخيها : أريد أن أقسم مالي بينك وبين أختك ، هِبَة مني الآن ، فسكت ، فلما فَرَغَتْ من كلامها قال لها: يا أُمَّاه قولي لربك إنكَ ما تعرف القسمة ، يعني أنه كَره أن تَجْعل البنت كالولد في ذلك ، وكان الرجل زاهداً في الدنيا جدًّا ، لكنه ما أراد أن تفتح هذا الباب » .

وقال رضي الله عنه : « ظاهر اليد والإسلام سببان كافيان في حِلِّ المال ، خصوصاً في هذا الزمان، إذا لم يكن لهما مدافع » .

ومَرّة قال عندما قرأ القاريء في « رسالة المعاونة » في فصل : « وعليك بالوَرَع عن المحرَّمات والشبهات » ، حتى وصل إلى قوله: « الناس بالنسبة إليك ثلاثة أشخاص، الأول : شخص معروف عندك بالخير والصلاح، فكُلْ من طعامه، وعامله إذا شئت، ولا تسأل » ، فقال عند ذلك : « لأن في هذا ثلاث علامات ، تدل على تَحْقيق حِلِّه ، وهي الإسلام ، واليد ، وظاهر الحال » .

وقال رضي الله عنه في قولهم : « الصيام قطب الرياضة » : « قطب الشيء : الذي يدور عليه ، كعود الرَّحى ، قُطبُها الذي تدور عليه ، وقطبها[1] : أي عليه مدار الرياضة المعروفة في طريق القوم » .

وقال رضي الله عنه : « الدنيا ٣٦٠ جبلاً ، وحضرموت جبلان منها ، وهي بلاد مؤسَّسة ، وكان الذين أسسوها أهل قوة ، فهل بلغكم تريم ابن من هو ؟ » .

فقال السيد زين العابدين : « يقال بينه وبين الإسلام ثلاث آلاف سنة » ، ثم انجرَّ الكلام إلى مكة وجبالها ، وأن في المسجد الحرام قُبُور بعض الأنبياء ، فقال السيد زين العابدين: « أراناها بعض النَّاس في الحِجْر، وعليها علامة » .

فقال سيدنا : « هذا فضول منه ، فلو جاء أحد يبحث ما وجد شيئاً ، ولكن من أخذ بالذيل لا تسأله عن الرأس ، وإن ذلك مذكور في شيء من الكتب ، ومنها ما هو مذكور في كتاب ابن ظهيرة » .

ثم قال : « لكن كتاب الأزرقي خير منه ، وكتب المتأخرين ماعاد توافقنا ، ولا خاطري يَقْبلها لأنهم متكلِّفون كالذي خرَّج على حديث جابر ألف ورقة ، تكلف فيها فما يتم المطالع الكتاب إلى آخره إلا ونسي أوله ، وإذا أردت تنقل أمراً فانقل أمراً بين أمرين ، واحذر من التَّعنُّت والاستقصاء » .

ثم أطال الكلام في ذلك إلى أن قال : « هذا عزيز ونادر جداً » .

وقال رضي الله عنه في قولهم : « العمل بالعلم » : « أي يعمل بما يقدر عليه منه ، ويتعلم منه ما يقدر عليه ، ويعلِّم منه ما يمكنه ، وعلى هذا . وأما معرفة كل العلم ، والعمل بكل العلم ، فمن يَقْدر عليه ؟ ولكنه مع ذلك يعتقد أنه ما بلغ تمام العلم ، لا في العمل ، ولا في المعرفة ، ولا في التعليم » .

وسألته رضي الله عنه عن معنى قول الإمام الغزالي في الشهوة والغضب ، أنه يسلّط أحدهما على الآخر، فقال : « التَّسليط العرفي - أو قال : الحسي - ونحوه ، وهو إذا كان طَبْعها يقتضي فعل شيء ؛ فهو الشهوة ، والغضب عليها يَقْتضي تركه ، فهو الغَضب ، فإذا غَلَبَتْكَ في الأكل حتى أَكَلْتَ كثيراً ، ثم بعدُ ذَكَرْتَ ما فَوَّتَتْ عليك من الفضيلة وثواب القناعة ، تأَسَّفْتَ على ذلك ، حتى غَضِبْتَ عليها، وهمَمْتَ على أن تخالفها فيما تدعوك إليه ، فهذا مَثَل التسليط المذكور ، أو نِمْتَ حتى فاتتك الفَريضة أو قِيَام الليل حتى تأسَّفْتَ ، أو عَزَمْتَ على أن لا تنام إلا أربع ساعات فَغَلَبَتْكَ عَيْناك حتى نِمْتَ ست ساعات ، فَتعِبْتَ من ذلك ، فهذا هو الغَضَب عليها وتسليطه على الشهوة » ، أو كما قال.

---

(١) أي الرياضة . اهـ « م » .

وقلت له رضي الله عنه : إذا كان الإنسان يعمل شيئاً من الطاعات ، ولم يعلم بشيء مما يفسدها ، هل يَتَطَرَّق إليها مُبْطل ؟ فقال : « لا ، إلَّا إن كان يعلم فيها شيئاً من المبطلات ، ولا عبرة بالوسوسة ولا تضر » ، فقلت : فإن وقعت الوسوسة في الصَّلاة ، حتى غَيَّرت قلبه ، وأشغلت خاطره، هل يضر ؟

قال : « لا ، إلَّا الكمال ، فلا تكون صلاته كاملة ، ودواها الإعراض عنها » .

وقال رضي الله عنه : « الدلائل العَقْلية والبراهين تُشكِّك ، لأنها إنما وُضِعَت للمحاججة مع الكُفَّار ، والمؤمن لا يَحْتاج إليها ، لأنَّ من عرف زَيْداً مثلاً ، فقيل له : انظر إنْ هذا زيد ، إما يشككه فيه ، أو يَمْقته الآخر ، والبراهين التي عليها المعول براهين القرآن ، كيف وكُفَّار قريش لم يُكَذِّبوا النبي ﷺ في قوله لهم : إن لكم إلهاً خالقاً ، وإنما كَذَّبوه في الوحدانية وأنهم لم يروه » .

وقال رضي الله عنه في قول صاحب « العوارف » : « إن النفس الحيوانية تَوَلَّدَت من الروح الرباني العُلوي ، كما تَوَلَّدَت حواء من آدم ، للتوالد وحصول الذرية ، فيتولد من النفس الجسمية ، والروح» ، ثم قال : « كلام الشيخ هذا لا يُوَافَق عليه ، وما وافقه عليه أحد من الأكابر ، لأنها لو خُلِقَتْ منه لكانت طيبة مثله ، وليس كذلك، وهذا من مشكلات الكتاب ، فقد ذكره زروق في الكتب المشكلة ، ككتب ابن عربي وغيره » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « إن الله ختم سورة البقرة بآيتين أعطانيهما من كنزه الذي تحت العرش ، فتعلَّموهن ، وعلموهن نساءكم وأبناءكم فإنهن صلاة وقرآن ودعاء » ، قال : « أي ينبغي تعليمهن ذلك ، وإن لم يمكن ؛ تُكتب وتُعَلَّق عليهم ، وإن جمع لهم بين ذلك فحسن ، وإن أمكن نزعه عند دخول الخلاء فليفعل » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « إن الله خلق خلقه في ظلمة ، فألقى عليهم من نوره ، فمن أصابه من ذلك النور يومئذ اهتدى ، ومن أخطأه ضل » ، قال : « فعلى هذا إن الذي أخطأه النور أكثر ممن أصابه، لأن أهل الضلال أكثر من المهتدين » .

وقال رضي الله عنه : « رؤية النبي ﷺ في صورة رجل صالح ، هي بشرى من الله ، أو على صورة من ليس من أهل الصلاح ، ففي ذلك إنذار للرائي ، يدل على أنه شرير ، وأما من قال : شرط رؤية النبي ﷺ أن تكون على صورته المنقولة ، حتى يرى رباعيته التي كُسِرَت ، فذلك غُلُو ، وقد ذُكِر : إن الشعراوي سأل الله أن يريه مقامه ، أو قال مَنْزلته عنده ، فرأى أنه على مَطْرحةٍ محشية شَوْكاً ، فاستدل

بذلك على أنه بَقِيَت فيه بقايا ، ماتَطَهَّرَ منها إذ ذاك ، وكان النبي ﷺ يَسْأل الناس : من رَأى منكم رؤيا يَقُصُّها عليه، كان ذلك منه أول الأمر ، ثم وقعت له رؤيا فلم يسألهم بعدها » .

وقال رضي الله عنه في قول القائل : « وما من يد إلا يد الله فوقها .. إلخ » : « هذا مُشَاهَدٌ من أفعال الله، من تأَمّل أفعال الله في الوجود ، وما نَصَّه الله في آيات القرآن ، استغنى عن أشياء كثيرة ، وإذا حصل له المعرفة الكُبْرى ، معرفة الوحدانية ، بأي وجه كان فهو المراد ، فَكَيف وقد ملأ العوالم كلها ، ولكن الجسم المخدور لا يحس بدخول الإبرة » .

وأنشد رضي الله عنه يوماً :

لِي حِيْلَـةٌ فِيْمَـنْ يَنُـمُّ ... وَلَيْسَ فِي الكَذَّابِ حِيْلَةْ
مَنْ كَانَ يَخْلُقُ مَا يَقُولُ ... فَحِيْلَتِـي فِيْـهِ قَلِيْلَـةْ

وأنشد أيضاً :

الْكَلْـبُ أَحْسَـنُ عِـشْرَة ... وَهُوَ النِّهَايَةُ فِي الخَسَاسَة
مِمَّـنْ يُطَالِـبُ فِي الرِّيَاسَـة ... قَبْـلَ أَوْقَـاتِ الرِّيَاسَـة

وقال رضي الله عنه : « هذا البيت لأبي العتاهية ، ولم يسبق إلى مثله » ، قال : « أي ما سبقه أحد إلى المعنى ، لا أنه ما سبق بالبيت ، وهو :

مَـا كُلُّ قَـوْلٍ لَـهُ جَـوَابٌ ... جَـوَابُ مَـا يَقبُـح السُّـكُوتُ

ويجد المجوِّب في السكوت عن جَواب من لاَ يعرف لذة ، لأنه لو تكلم شغل نفسه مع من لا يعرف بلا فائدة . وله أيضاً :

تَعَالى اللهُ يَا سَلْمَ ابن عَمْرٍ ... أَذَلَّ الحِرْصُ أَعْنَاقَ الرِّجَالِ

ثم قال : « للشِّعر موقع عند العرب ، ويسمونه ديوان العرب » ، وتكَلَّم كثيراً ، ثم قال : « هذا هو معنى : الحديث أشجان ، ومثله يُنْهى عنه في الصلاة ، وإن لا بد فتُزْجى به الأوقات » .

وقال رضي الله عنه لي يوماً : « هات سفينتك » ، فأتيته بها ، فقال : « اكتب » ، وأملَى عليَّ أبياتاً في معان متفرقة من حِفْظِه نفع الله به ، منها هذان البيتان للخليل بن أحمد :

أَلَمْ يَنْهَاكَ شَيْبُكَ عَنْ صِبَاكَ وَتَتْرُكُ مَا أَضَلَّكَ مِنْ هَوَاكَ
وَتُنْكِرِ أَنْ يُطِيْعكَ قَلْبُ سَلْمَى وَتَزْعُم أَنَّ قَلْبَكَ قَدْ عَصَاكَ

قال : و بيتان آخران :

قَدْ بَقِيْنَا مُذَبْذَبِينَ حَيَارَى نَطْلُبُ الوَصْلَ مَا إِلَيْهِ سَبِيلُ
فَدَوَاعِي الهَوَى تَخِفُّ عَلَينا وَخِلَاف الهَوَى عَلَيْنَا ثَقِيلُ

قال : وبيتان آخران :

وَمِنَ العَجَائِبِ وَالعَجَائِبُ جَمَّةٌ قُرْبُ الحبِيبِ وَمَا إِلَيْهِ سَبِيْلُ
كَالْعِيْسِ فِي البَيْدَاءِ يَقْتُلُهَا الظَّمَا وَالمَاءُ فَوقَ ظُهُورِهَا مَحْمُولُ

ثم قال : وبيتان آخران :

تَوَاضَعْ تَكُنْ كَالنَّجْمِ لاحَ لناظرٍ على صَفَحَاتِ المَاءِ وَهوَ رَفِيْعُ
وَلَا تَكُ كَالدُّخَانِ يَرْفَعْ نَفْسَهُ إلى طَبَقَاتِ الجوِّ وَهْوَ وَضِيْعُ

ثم قال: بيت آخر :

إنَّ الرِّجَال صَنَادِيْقٌ مَقَفَّلَةٌ وَمَا مَفَاتِيْحُهَا إِلَّا التَّجَارِيْب

ثم قال : بيتان آخران :

إِذَا كُنْتَ قُوتَ النَّفْسِ ثُمَّ هَجَرْتَهَا فَمَا تَصْنِعِ النَّفْسُ التِّي أَنْتَ قُوتُها
تَعِيْشُ كَعَيْشِ الضَّبِّ فِي الماءِ أَوْ كَمَا يَعِيْشُ بِبَيْدَاءِ المَفَاوِزِ حُوتُهَا

وسمعته رضي الله عنه يقول : « هذان البيتان للإمام الشافعي رحمه الله تعالى ، مجرب تكريرها بسرعة الفرج ، وهما :

تَوَقَّعْ صُنْعَ رَبِّكَ سَوْفَ يَأْتِي بِمَا تَهْوَاهُ مِنْ فَرَجٍ قَرِيْبِ
وَلَا تَيْأَسْ إِذَا مَا نَابَ خَطْبٌ فَكَمْ فِي الغَيْبِ مِنْ عَجَبٍ عَجِيْبِ

وجاء في كتاب المحبة من « الإحياء » ، ما ذَكَرَهُ يحيى بن معاذ عن أبي يزيد : أنه رآه واقفاً على قدميه، حتى قال : « أدخلني في الفلك السفلي .. » إلى آخر القصة ، ونحو ذلك ، *فقال* : « **هذه واقعة حال ، أو كُبْر حال ، أو من تَسَاهل النَّقلة ، كما ترى من تساهلهم في المجالس اليوم ، وهذه أشياء قَلْبية، والمراد أنها جائزة في قدرة الله ولا عليك ، والجائز غير المحال ، والمحال غير المستَبْعَد ، لأن المستَبْعَد قد يكون واقعاً ، والمحال ما لم يقع** » .

وقال رضي الله عنه في حديث خوَّات بن جبير رضي الله عنه لما مرض فعاده ﷺ فقال له : « كيف تجدك؟ » ، قال : « بخير يارسول الله ، فقال عليه السلام له : « أوْفِ لله بما عَاهدته عليه » ، فقال: « ما عاهدتُ الله بشيء » ، فقال سيدنا : « **أي إن كل مؤمن يمرض ، يتأسَّف على ترك الطاعة والإقبال على الله حال صحته ، ويَحْصل له عزم على الجِدِّ في ذلك إن عافاه الله وعاد إلى العافية ، فقال عليه السلام له ذلك مُذَكِّراً له بهذا العزم أن يَفِيَ به ، لما رآه متعافياً** » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « إذا دخل رمضان صُفِّدَت الشياطين » : « **أي ما عدا الشيطان الكبير - وهو إبليس - فلم يرد فيه نَصّ ، ولو كان كذلك لما تعرَّض لهم يوم بدر ، حيث أخبر الله عنه بقوله: ﴿وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾الآية . ووقعة بدر كانت في رَمَضان ، وحَظّ أعوانه من الإغواء أكثر منه ، فإنه ما له من العمل إلَّا الوَسْوسة ، فيوسوس له في الأمور المذمومة ، والمصفدون هم المردة منهم، وقيل لبعضهم : أينام الشيطان ؟ قال : لو نام لاسترحنا ساعة** » .

وقال رضي الله عنه : « **النفاق على قِسْمين : نفاق الكافرين : وهم من يظهر الإيمان ويخفي الكفر ، ونفاق المؤمنين : وهو أن يؤمن ولا يعمل بما يقتضيه الإيمان ، ومن علامته أن يضيق ويضجر من قراءة القرآن ، والجلوس في المسجد ونحو ذلك ، ويستأنس بالهَذْوة ، والمجالس والأسواق ونحوها ، ولم يُعرف هذا إلَّا من قريب ، وقيل للحسن البصري : إن النفاق والحمد لله ليس في وقتنا ، بل في وَقْت الصحابة ، وقد انقضى ، فقال : لو أن للمنافقين أذيالاً ، لما وجدتَ مكاناً تجلس فيه ، يعني لكَثْرتهم ، ويدل على نفاقك أن تغضب إذا قيل لك يا منافق ، لأن الإنسان ما يخلو من نفاق** » .

وقال يوماً رضي الله عنه وقد ذكر كِتابَهُ « الفصول العلمية » ، *ثم قال* : « **إنا نتكلَّم بالكلام ولا يُعمل به ، كالذي يتردد بمتاعه إلى السوق كل ساعة ولا يبتاع ، لكساده وقلَّة الرغبة فيه ، كَمَوْلى الزمالة، وهو أنه دخل رجل من بيت جبير في سَابق الزمان إلى تريم حاملاً زمالةً مملوءة بَلَحاً ، وأراد بيعه فلم يَنْفُق له، ولا أحد ساومه فيه ، فضَجر منه ، وطَرَحه عند باب بعض المخازن على دكّة ، ورآه صاحب الدكان، فلما انصرف أخذه صاحب الدكان وباعه ، وميَّز ثمنه ، وبقي يتَسَبَّب فيه ببيع وشراء، حتى رَبا وزاد ، ثم بعد مدة سنين ، جاء ذلك الرَّجل صَاحب الزّمالة عند صاحب المخزن ، وَجَعل**

يتحدَّث معه، وقال: كنتُ أتيتُ سَنَةً من السنين إلى هذا الموضع بزمالةٍ فيها بلح ، ورَمَيْتُ بها هنا ، فقال له : أنت صاحبها ؟ قال : نعم ، قال : ادخل المخزن ، خذ هذا المال فإنه حَقُّك ، وحكى له بما فعل بها ، فأخذه وانصرف ، وكانت لأهل تريم مناقب حَسَنة ، هذه من جملتها .

ومنها : أنَّه مَرَّ رجل عليه دين لآخر على صاحب الدين ، ولم يسلّم عليه ، فتعجَّب منه ، وقال : لم تركت السلام ؟ قال : حياء منك لأجل دَينك ، ما أردت أن تَعْرف أني هنا ، وكان بصيراً ، فقال له : أنت بريء من الدين ، فتعال بنا إلى الدَّار ، فدخل به داره وأكرمه .

ومنها : أنه مَرَّ رجل على أرض فيها حرث ، ومن جملة الحرث غُلْفُق[1] ، فَسَرَق منه ملئ مظلّة كانت على رأسه ، ثم وَضعها على رأسه ، وسار وصاحب العَمَل يرى جميع ما فعله وهو ساكت لم يُرِدْ أن يَفْضَحه ، فلما سار عارضه رجل وحرَّكه ، فسقطت وانتثر ، فَظنَّه سَرَقه ، فصاح صاحب العمل عليه ، وقال : أصلحك الله أردناه ذَرْياً فبدَّدته ، فَزَال عن ذلك الرجل ما ظنه به » ، أو كما قال .

وقال رضي الله عنه بعد ما أكثر المذاكرة يَوماً ، ثم قال : « وكَثْرة المذاكرة لا نحبها ، ولو ذاكرنا أحداً من هؤلاء غرق معنا ، لكثرة ما قرأناه وطالعناه ولقيناه من المشايخ » .

وقال رضي الله عنه : « العلوم الدينية والأعمال الدينية ، يَنْبغي أن لا تُفْعَل إلَّا مع الإجتماع ، ليتم أمره ويَكْمُل ، وأما الأمور الدنيوية فما عليه إلا أن يخلص فيه ، ولا يَنْبغي السؤال اليوم إلا عن أمور الدِّين، ولا الاستيصاء إلا بها ، وأما أمور الدنيا فهم مجتهدون فيها من غَيْر كلام ، فلا يُحْتاج إلى الإيصاء به والسؤال عنه ، فالحازم لا يوصي ، وهذا موعود به في آخر الزمان ، بأن الناس يُقبِلون بكُلّيَّتِهم على الدنيا وينسون أمر الدين » .

قال : « والناس ما يتواردون على أمر واحد ، فإذا تَوَاردوا عليه ، كان كالعدم ، كما حُكِيَ عن جماعة قصدوا مَلِكاً يريدون المنزلة عنده ، وفيهم عَرَب ، وفيهم عَجَم ، فأمر بالعجم بمنزلٍ وحدهم، وبالعرب وحدهم في منزل آخر ، وأراد يرى ما يَصْنعون ليَخْتَبر أحوالهم ، سياسة منه ، وجعل عند كل فريق منهم في منزله سريراً واحداً ، فأما العجم فقدَّموا واحداً منهم وأجلسوه على السرير ، وبقوا تحته يخدمونه ، منهم من يَقُص[2] له ، ومنهم من يَذُبّ عنه بالمروحة الذُّباب ، ويُرَوِّح عليه ، حتى صار كل واحد منهم في خدمة . وأما العرب ، فكلما أرادوا أن يقدِّموا واحداً ، قال الآخر : أنا الذي أتقدم وتكونون من تحتي ، وقال الآخر مثل ذلك ، حتى اختلفوا بينهم ، فأمر الملك بطردهم وإبعادهم وأجاز

(١) هو شجر الخنبص ، وهو الكشد . اهـ « م » .

(٢) أي يغمز ويكبِّس له . اهـ « م » .

العجم وأكرمهم ، والعلوم تكلم فيها السابقون ، فجاء من بعدهم فوجدهم قد سبقوه بكل شيء من دقائق العلم ، وأراد أن يَذْكر غير ما ذكروه ، كالذي جاء إلى أرض واسعة ، فارغة من البناء ، فبنى فيها داراً فجاء آخر فرآها مبنية فكنَّس ، فجاء آخر فرآها مكنوسة ، ففرش وعلى هذا » .

وذكر رضي الله عنه المطالعة ، *فقال* : « أولى ما ينبغي أن يُطالَع كتب الإمام الغزالي ، على قَدْر حالك، فإن كنت من المُبْتدئين ، فالبداية ، وإلا فالأربعين الأصل ، وإلّا فالمنهاج ، فإن كان لك فَهْمٌ ومَعْرفةٌ بالعلم ، فطالِع في الإحياء ، فإن كُنْتَ لا تعمل بالبداية ، فقل في نفسك : لا شك إذا لم أقدر على العَمَل القليل ، فلا أقدر على الكثير ، كمن ليست له دواب قوية يَسني عليها ، فلا يَزْرع كثيراً بَل قليلاً على قدر طَاقته ، ولا يَتَشَوَّف إلى الكثير وهو عاجز عن القليل ، والإحتياط للعلوم أولى من الإحتياط للزرع » .

وقال رضي الله عنه في ردِّ المظالم والأموال المغصوبة : « يسأل عنها أهلَ التقوى من العلماء الذين يخشون الله ، وهم الذين يعرّفونك بالسر ، ويسترون عليك ، ويبيِّنون لك وجه البراءة للذمة ، وكيفية التَّقوى ، فهؤلاء هم العلماء المحققون ، وأما علماء الدنيا فإنما يُسَمّون مُتَرَسِّمين لا علماء ، ولو جئت لأحدهم بالمال وأعطيته نصفه أخَذَه منك ، فليس أولئك بعلماء ، إنما هم متشبِّهون بالعلماء ، فأقلّ الأمر إذا لم يكن من أهل التقوى ، فليكن كالشَّمعة تضيء للناس ، فتنفع غيرها وإن إحترقت في نفسها ، وما عاد التوبة إلا ضحكات ، يغتسل من الحرام كما يغتسل من الحلال ، ويقول : قد تبتُ ، فأين التوبة ؟ وأين التائبون صدقاً ؟ وأين العلماء المتقون الذين يعرِّفون الناس أمور دينهم ؟ » .

ومر حديث : « إذا الْتَقى المسلمان بسيفيهما ، فالقاتل والمقتول في النار » ، *فقال* : « هذا يَدْخلها بالنية والعمل - يَعْني القاتل - وهذا يدخلها بالنية فقط ، بخلاف ما إذا استسلم أحدهما وقَتَله الآخر، فالمقتول يَسْلَم ، ويبوء القاتل بالإثم ، كما قَصَّ الله في ابن آدم » .

وقال في حديث : « إذا التقى المسلمان فتصافحا، وتكاشرا ، قسمت بينهما مائة رحمة، تسعة وتسعون لأكثرهما بِشْراً ، وواحدة للآخر » ، أو كما قال في الحديث ، *قال* : « فالفضل المذكور للأكثر بِشْراً ، إذا كان لله وللدار الآخرة ، لا لأمور الدنيا ، فإن الدنيا جميعها ساقطة » .

وقال رضي الله عنه : « كلما شَكَكْتَ فَمِلْ إلى ما فيه الإحتياط والنجاة في الآخرة ، كالسيل إذا تطرَّفْتَ[1] ، ينبغي أن تميل إلى جانب البَر ، وإلا سَقطتَ في الماء وغَرِقتَ » .

وقال رضي الله عنه : « شَكُّ المأموم في الصلاة مع شكِّ الإمام من سوء الوضوء ، وفي بعض الأحاديث: ما بال أقوام يسيئون الوضوء فيشكّون إذا شكَّ الإمام » .

---

(١) أي غسَلتَ أطرافك . اهـ « م » .

وقال رضي الله عنه ما معناه : « يَنْبغي للمؤذِّن والمُقِيم ، أن يُظْهِرا نون التَّنوين ، من قول : أشهد أن محمداً رسول الله ، لأن في إدغامها إشكالاً يوهم » .

وقال رضي الله عنه في قول بعضهم : « إذا كَثُرَ عِلْم الرجل، قلَّ كلامه » : « أي لأن الخوف يَمْنعه من الكلام في الفور » .

وقال رضي الله عنه : « من أراد أن يصير عالماً فَلْيَجْتمع على علم ، ويتَمكَّن فيه حَتَّى يُنسب إليه ، ويتطرَّف في بقيَّة العلوم ، حتى لا يُنكِر شيئاً منها إذا سمعها ، قال سيدنا علي : مَن جَهِلَ شيئاً أنكَرَهُ . وقال : من أكثر من شيء عُرِفَ به ، ويكون كذلك ، إن كان فقيهاً ، أو صوفيًّا ، أو نَحْويًّا ، أو غير ذلك، والسؤال في غَيْر موضعه - أو قال : محله - بلاء على السائل والمسئول » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « إن البيت المعمور بحيال البيت ، يدخله كل يوم سَبْعون ألف مَلَك، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة » : « في بعض الأحاديث : إن فيه أو عنده عين ماء ، يدخله جِبْريل عليه السلام كل لَيْلة وَقْتَ السحر ، ينتفض فيطير من جناحه سَبْعون ألف نقطة ، فيخلق الله من كل نقطة مَلَكاً ، فهم الذين يدخلون البيت المعمور ، لا يعودون إليه إلى يوم القيامة » .

وقال رضي الله عنه : « أمران لا ينبغي أن يُذكَرا للعامة ، ولا يسمعونها : دقائق العقائد ، ودقائق الأحكام - أو قال : دقائق الصلاة - ، فإنك لو تَتَبَّعْتَهُم فيها ، لما رأيتَ صلاتهم صَاحَّة على المَذْهب ، من إخراج الضَّاد وغير ذلك ، بل إذا حملهم مذهب فاتركهم على ما هم عليه ، وإلَّا شدَّدت عليهم ، ولا أمكنك أن تحصِّل منهم المطلوب ، وكذا في العقائد لا تذكر لهم شيئاً من الخفايا فيها ، بل ترى أحدهم يقول : الله مَعْنا ، الله ناظرٌ إلينا ، ونحو ذلك ، فاكتف منهم بذلك ، فإن أردتهم أن يكونوا معطِّلة محضاً فاذكر لهم شيئاً من أمر الجهة والجسمية ، ولذا يقال : العامي لا مذهب له ، لأنه يُحْمل على الأسهل ، ويقال : الصوفي أيضاً لا مذهب له ، لأنه يتتبع الأحوط من كل مَذْهب فيأخذ به ، وطَعَن بعضهم في قولِ : لا مذهب للعامي ، وهو غالط لا عِبْرة بقوله - أو قال : رُدَّ عليه - » .

وقال رضي الله عنه : « شَرْط الصَّبر على الشيء ، أو الصَّبر عنه ، أن يكون الصَّبر أرجح من مقابِلِهِ ، وإلا يوشك أن يرجح مقابِلُهُ عليه ، فَيَقع في الحَرَج ، فَيفْعله على الوَجْه المأذون فيه ، كمن يَضَعُ رِطْلاً في كفَّة ميزان ، ودونه في الآخرى ، فيرجح لا محالة » ، قال ذلك لما مر في قراءة « قوت القلوب » : « إن الأولى للمريد تَرْك التزويج، إن أمكنه الصبر » .

وذكر رضي الله عنه الجُدَري الذي حَصَل في حضرموت ، أول سنة ١١٢٦ وقد مات فيه كثير من الصِّغار ، فقال : « لم نعرف منه كثرة الموت هكذا إلَّا من نحو اثنين أو ثلاثة ، وقد مر علينا مَرَّات ، وإنما

قد يَحصل بسببه تغير بعض الأعضاء كالعين ، ولعَلَّ هذا الموت الحاصل منه بِسَبب أمور كشُبْهة في أنكحتهم ، إن لم يكن زِنَا أو عَدم تنزُّه في الوِقَاع ، أو عدم ذِكْرِ الله عنده ، وأين الناس اليوم قد غَفِلوا جداً، أقل الحال أنه لم يقصد بالنكاح السُّنة أو العفاف ، أو كَفُّ بصره ، وإنما مراده مُجَرّد الشهوة ، واشتغلوا بأولادهم عن الله ، وقد ذُكِر أنه حصل مَرّةً في مصر مَوتٌ ذريع ، وفيها الشيخ أبو عبدالله القرشي ، وكان من الأكابر ، فدعا اللهَ في رفع ذلك ، وتَشَفَّع لهم ، فسمع صوت قائل يقول لا تأسف على هؤلاء ، فكل من رأيته مات فهو ولد زِنَا ، فخرج من مِصْر قاصداً إلى الخليل ، فلما قرب منه تلقَّاه الخليل عليه السلام، فقال له : يا نبي الله ، ما أريد قِرائي منك إلا أن تَشْفع لأهل مِصر ، فَشفَع فيهم ، فَشَفَّعَه الله ورفع عنهم ذلك » .

وذَكَر له رضي الله عنه رجل أن ابنه مات ، *فقال* : « الناس كلهم طحين رحى الموت ، إلَّا أنَّ منهم مَن قَد طُحِن ، ومنهم من عاده » ، فقال الرجل : « لكن فيه أنسٌ » ، فقال سيدنا : « أنت قد آنست أهلك ، فيَكْفيك ذلك أنساً ، وسمعنا فيما سمعنا أن الإنسان قَلَّ ما يخطر له الموت في مرض موته ، لُطْفاً من الله ، وإلَّا كان انخلع قلبه » .

وقال رضي الله عنه : « ما نَزَلنا الحاوي وتوطَّنا إلا لما رأينا معنا من ثقلة وكثرة الدواب ، وأيضاً يجيئ عندنا من له نيَّة ، ومن لا له نيَّة ، ولكن رجعوا يجيئون إلينا هنا بهذه الصورة » ، قيل : « ما يجيئكم إلا من له نية » ، قال : « نَعم ، نِية وهي نَيَّة ، أَيَحْسُن أن تأكل اللحم النيئ » .

أقول : وكان رضى الله عنه في مدة إقامته بزاوية مَسجد الهجيرة المذكور يطوف كل ليلة على مساجد تريم كلها ، يصلي في كل مسجد منها ما تَيَسّر له ، وقد أدركتُ خادمه حميد بامزيدان ، وسألته عن ذلك، فقال : « يطوف المساجد كلها ، يصلِّي فيها حتى إن المساجد المغلوقة المهجورة التي لا يُصلَّى فيها، كنت أقدم له ظهري يَرتقي عليه ويَتَسَوَّر ويصلي ، والمَسَاجد المهجورة كمسجد بامروان الذي قريب المجف كان آخر ما يأتيه منها » ، وكان هو مَوْضع تدريس الشيخ عبدالرحمن ابن الشيخ علي، وقد سبق ذكر ابتداء قراءته، وطلبه للعلم على باجبير، وذكر ابتداء تدريسه هو نفع الله به في ذلك .

وقال رضي الله عنه : « الإحياء بالنِّسبة لما اشتمل عليه مختصرٌ جداً ، ولو فُصِّل ما ذُكِرَ فيه لبلغ ستين مجلداً » .

قال : « سمعتُ عن بعض أهلنا المتقدمين ، أنهم سمعوا آباءهم كثيراً ما يذكرون الإمام الغزالي، قالوا له : ما هو الغزالي ، سَيِّد هو ؟ - يعني شريف - ، قال : ليس بسَيِّد ، ولكنه سيِّد السادات » .

وقال رضي الله عنه : « إثنان يغار منهما أهل الباطن ، ويحسدونهما أهل الظاهر ، لأنهم إذا طعنوهما بمَسَلَّةٍ طَعَنَّاهم برُمحٍ : الشيخ عبدالقادر ، والإمام الغزالي » .

وقال رضي الله عنه عن الشيخ عبدالله العيدروس : « الإحياء مغناطيس القلوب ، يَجْذبها إلى حضرة علام الغيوب » .

أقول : وما سمعت سيدنا قط يقول في مسألةٍ ذكرها الإمام الغزالي أنه لم يُسَلَّمْ له فيها ، بل كلما تكَلم في مسألة ، وفيها كلامٌ لغيره ، يقول إن كلامه هو الراجح ، إلا قوله في الموازنة بين القيامتين : الصُّغرى وهي الموت ، والكبرى وهي البعث وما بَعْده ، وأنه يقال في الصُّغرى : ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ﴾ فقال : « ليس هذا بمسَلَّم له ، فإن الله سبحانه وتعالى ذَكَر في غير موضعٍ من القرآن ، إنما يقال ذلك في القيامة الكبرى » .

وقال رضي الله عنه : « نحن على القدم النبوي وسِيْرة سلفنا السابقين ما استطعنا ، ومظهرنا إنما هو مَظْهر عِلْم ، لا مَظْهر رؤية شيء آخر ، لأن الرياسة على أهل الدِّين إنما هي زَرَى بِهِم » .

وقال رضي الله عنه : « نحن جاه حَضْرموت ما هو على بالنا ، ومانَرَى جاهَهَا إلا الخمول ، وما يَدْخل علينا لا نَفْرح به ، إلا إن نواسي به محتاجاً . وما خَفَّنا عن الإقامة في الحرمين إلا خوف الشُّهرة والجاه، وهذا فينا من حيث الطبيعة لا أنَّا نتكلَّفه ، ولأن الإنسان ما يستقيم أمره ويَصْفو إلا إذا كان فيما بينه وبين الله ، وإذا ظهر دَخَلت العلل ، إنْ ما دَخَلَتْه من جانبه ، دَخَلَتْه من جانب الناس » .

وذكر رضي الله عنه تَذبذب السلطان وامتحانه ، فقال : « من تولَّى على قوم ، يفعل الله به في الدنيا كَفِعله في رعيته ، كما أتعب الناس بالظلم ، أتعبه الله ، صام الناس رمضان في بيوتهم ، وهو لابِدٌ في غار تحت حِجَارة في شَبْوة ، وهكذا فأخذهم بأعمالهم » .

وقال له رضي الله عنه بعض السادة وكان قريب عهد بالسفر ، ومن عادته الانبساط معه قال : « قَدِمْتُ من السفر إلى الآن في كل شهر ثلاثة قروش دُفْعة للدولة يأخذونها منَّا ، ولا عاد شيء يقع برهان ، وقد كنا في السفر يحصل ذلك كثيراً » ، فقال له: « الفوائد تتبع العقائد ، فهناك تحصل للشريف مَشَمَّة ويُعْتَقد ، وأمَّا هنا فالمكان ملآن من الأشراف ، إذا تعدَّى واحداً لحق اثنين ، فضَعفت العقيدة

لذلك » .

ثم قال الرجل : « خاطركم بالفرج ، عساكم تأذنون في قراءة يس في مسجد باعلوي بنية الفرج للمسلمين ، فإنكم لما أذنتم بها في طلب الغيث ، لم يفرغوا من مدة قراءتها ، حتى ضاق الناس من كثرة الغيث وملّوه ، حتى قُرِئت بنية قطعه » .

فقال : « بِشَرْط أن تقسّمون على الفقراء والمساكين ، إن أردتم يس فقسّموا ، وكلٌّ يعرف يقرأ يس، كما حُكِيَ أن رجلاً وقف يقرأ يس على دار بعض الناس ، يَطْلب حاجة من صاحب الدار ، فَنَزل صاحب الدار فدارَسَهُ إياها ، وقال : كلنا نُحسِن قراءة يس ، لا تظن أنه لا يحسن يقرأها إلا أنت . ولكن الأشياء إنما هي بالإشارات ، وفي الناس مصرِّرين ، إذا جاءهم الفقير يطلب الزكاة دفعوه وَمَنعوه، فلما لم يعطوا الفقراء حَقَّهم من حقِّ الله ، سَلَّط الله عليهم من يَقْلعها من مناخرهم قَهْراً ، فما أصابهم هذا ونحوه إلا بمنعهم من الحق ، ولَوْ لم يمنع منهم إلا واحد ، فإنما كان عاقرَ الناقة واحد ، ورُبَّ فقير محتاج إلى مِلْحفة ما يقدر عليها ، ما يعطونه من الزكاة ما يشتري له به ملحفة ، فأين الزكاة، وأين حق الله ، ما يُخرجونه » .

وأمر بقراءة « الإحياء » في مسجد آل أبي علوي، وقال : « إن فهموه ، وإلَّا فلا يَخْلو من روحانية أحد من الصالحين ، أو روحٌ يَحْضر إذ ذاك ، لأن الأولياء منهم مَنْ تُطْلَقُ روحه في الدنيا والبرزخ والآخرة ، وكثير من السادة آل باعلوي كذلك ، كما ذُكر أن رجلاً اجتمع بالشيخ السيد عمر باشيبان في المشقاص بعد وفاته ، فقال له : مَن أنت ؟ قال : أنا من الطُّلَقَة . ومنهم من تُطْلق روحه في الدنيا فَقَطْ ، ومنهم في البرزخ ، ومنهم في الآخرة ، ومنهم من يَمْكث ببدنه في قبره بلا إطلاقٍ لروحه » ، أو كما قال .

وتكلم رضي الله عنه في أهل الزمان وفي دُوَل الجهة وفي كَثْرة ظلمهم فقال : « أكبّوا على جِيْفة الدنيا، وهي حرام إلَّا قدر الضرورة ، قال تعالى : ﴿فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾الآية ، ومن تأمل أحوالهم عرف أن ما فيهم رَحْمة ، لا الدولة على الرَّعيَّة ، ولا الرعية بَعْضهم على بعض ، فإذا لم يَتَراحموا ما رُحموا».

وأكثَرَ في مثل هذا ، ثم قال : « إنا نحب أن نتنفس مع من نحب ، فإن لم نتنفس وبقي ذلك مكموناً في صدرونا نخْشى عليهم أن يصابوا » .

وقال رضي الله عنه في قول بِشْر: « صُحْبة الأشرار تُوْرث سوء الظن بالأخيار » : « أي لأن الأشرار غالب أوقاتهم يَذْكرون النَّاس بما لا يَنْبغي ، فيقولون : فلان كذا وفلان كذا ، حتى يَصِفوهم بأشياء مَن سمعها أنكر عليهم ، حتى حكى لنا رجل : أنه بقي يوماً يمشي خلف رَجُلَيْن من أهل تريم يَذْكران

صالحيها ، وأحدهما يقول للآخر : ما تقول في فلان ؟ فقال : إنه يأتونه الدَّولة ، أو يَرُوح عند الدولة ، قال : وفلان ؟ قال : إنه كذا وكذا ، قال : وفلان ؟ قال : فيه كذا وكذا ، حتى لم يبق منهم أحد إلا ذكره بشيء ، فقال له : كيف قلت ، إنه الآن لم يبق فيها صالح » .

ثم قال سيدنا : « والقدح في أهل الخير ، يقتضي القدح في الدين » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « من حمى مؤمناً من منافق ينتهك حرمته » : « أي يغتابه ، وهذا يدل على أنه لا يغتاب الناس إلا منافق ، إلا أنه قد يكون منافقاً تام النفاق ، أو دون ذلك » .

وقال رضي الله عنه : « الشَّقاوة لها في قلوب أهلها حلاوة أشد من حلاوة السَّعادة - أو قال : الطاعة- لأهلها ، حتى إن أمير الجيش الذين استباحوا المدينة وهَتكوها ، وقتلوا غالب من كان فيها من المهاجرين والأنصار وذرِّيَّاتهم ، وتُسمى وقعة الحَرَّة ، وذلك أنه اتفق موته بين مكة والمدينة ، فقال عند النزع : إن كان عَذّبه الله بعدما فعل في أهل المدينة ما فعل ، إنه لشقي ، انظر كيفَ عَدَّ فِعْله ذلك قُرْبة يتقرب بها ، وكان الجيش من قِبَل يزيد بن معاوية » .

وشكى إلى سيدنا رضي الله عنه رجل شدة الظلم من الدولة ، فقال له : « اصبر على ظلمهم حتى يضجروا من الظلم فيتركونه ، أو يضجر الظلم منهم فيأخذهم الله » .

وقيل له رضي الله عنه : « عسى ببركتكم أن الله يكفي الناس شَرّ يافع » ، فقال : « الذباب لا يقع إلا على علة ، فعسى الله يكفي الناس شر أنفسهم ، إذ لولاها لكانوا في عافية » .

وذكر رضي الله عنه المَظَالم ، فقال : « مظالم أهل الزمان إنما هي في ألسنتهم وأعراضهم ، وإلا فإنهم أشحاء بأموالهم ، وكلٌّ ظَالم ومَظْلوم ، وما بقي إلا التَّواهب ، كما في الحديث : تَوَاهبوا المظالم فيما بَيْنكم وادخلوا الجنة برحمتي » .

وَدَخل عليه رضي الله عنه رَجل من أهل الدَّولة ، فقال سيدنا له : « أنتم ثلاثة قد قَصَدْتم هذا الأمر : أنت ، وعمر بن جعفر ، وآل الشيخ أبي بكر ، ولا أنجحتوا » ، فقال الرجل : « أنتم الأصل ، وإنما نحن مُدَيْرَة[1] على سِتْرة » ، فقال : « لا تحتج بالأمور الإلهية ، فإنها عامة لكل الناس ، وفيها حجة لك، وحجة عليك ، وها هو الطَّعام تحت الرحى ، ولا شيء عود ولا سهم ، ولو إنه إمتثل وَرَقَة واحدة من أوراقنا التي كَتَبْناها إليه كَفَتْه ، وقد تأسَّفنا على كتابتها إليه لما أهملها ، وقد قُلْنا له اجمع أوراقنا ، فإن لم يكن لَكَ بها حاجة ، فلنا نحن بها حاجة ، ونحن ما أخذنا الرِّياسة إلا من الكتب على قانون الشَّرع ، لا مثل ولاية فلان ، وإن كان لنا منها نَصِيب من جهة سيدنا علي ، إلا أنَّ سَلَفنا تركوها وزَهِدوا فيها » .

---

(١) تصغير مَدَرَة : اللبِن من الطين .

وقال رضي الله عنه في انتصار المظلوم من ظالمه ، بعد كلام طويل : « ماعاد اليوم إلا كلٌّ ينتصر لنفسه، ويَرَى أنه هو المظلوم ، ولكن يَنْبغي أن يداريهم بِحُسن الخلق ، وهذا لمن خَالط الناس ، وعرف طبقاتهم وأحوالهم » .

وذكر رضي الله عنه جهة الجِرَبْ إنها ضعفت وَتَغَيَّرت ، فقال : « راح بها دعاء أهلها ، إذا حصل عليه بسببه شيء من المتاعب من نحو دولة أو غيرها ، قال : الله يَفْعل به ويَفْعل ، فغيَّر ذلك عليهم ، وهذا كما قال الله تعالى : ﴿وَيَدْعُ ٱلْإِنسَٰنُ بِٱلشَّرِّ دُعَآءَهُۥ بِٱلْخَيْرِ ۖ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ عَجُولًا ﴿١١﴾﴾ » ، ثم قال : « معك خصلتان يمحقان : تعلّق الدولة ، وتعلق هِمم الناس » .

ثم ذكر إفراط ولاة الجهة في الظلم ، فقال : « لو جاء والي على الجهة يريد أن يدمّرها بِسيَاسة من غير قتل ولا إزعاج ، ما فعل بهم مثل هذا الفِعل ، وقد أمرنا بعض سلاطين الجهة بشيء من المعروف - وهو السلطان محمد بن بدر الكثيري - فلم يَمتثل ، فأرسلنا إليه رَجُلاً ممن يتَّصل به ويداخله ، فكلَّمه بكلامنا ، فقال : إن فلاناً يريد مني أن أسير بسيرة عمر بن عبد العزيز ، وأنا ما أطيق ذلك ، ولا قُدْرة لي عليه ، فحكى لنا بقوله هذا ، فقلنا للرجل : حُكمك ، بَلِّغْتنا كلامه ، فهل تُبَلِّغه كلامنا ؟ فقال : نعم أبلِّغه كلامكم ، وما عليَّ منه ، فقلنا له : قل له يقول لك : تخزى ، ما نطلب منك أن تسير بسيرة عمر بن عبدالعزيز ، لا أنت ولا نحن في أنفسنا ولا في أهلنا ، ولا من هو أحسن منا ، وإنما نريد منك أن تَقُوم وتؤدي من حقوق الله وحقوق عباده ، ما لا يغيِّر عليك أمرك الذي تقصده » .

وقال رضي الله عنه : « جعلنا لمحمد بن بدر قاعدة ، أن يعمل بكل أمر من أمور الدين والدنيا التي يُحتاج إليها ، بما لا يخل عليهم في الأمر الذي هم بصدده ، فقال : أما هذا فسهل » .

وذكر رضي الله عنه فتنة دوعن ، فقال : « إن هذا المثير للفتنة ، إنما هو ولد منهم ، وليس بطالب رياسة ، إنما هو ومن ساعده من البدو ، تجمَّعوا طَمَعاً في الأكل ، وطالبُ الأكل أمره سهل ، بخلاف طالب الرِّياسة ، وهو الذي يقوم على صاحبه منكراً عليه أموراً يفعلها ، كأن يقول له : إنك غَيَّرْتَ الطرق ، وظَلَمْت الناس ، وفعلت كَذا وكَذا ، مما يُنكَر عليه فيها ، والأمور تقابل بأمثالها ، وما أقام الله الولاة إلا لإقامة الدِّين ، وإقامة المعاش بعد إقامة الدين ، وهذا وادي مُبَارك ، ما يقوم فيه إلا من فيه صلاح وإقامة لأمر الدين ، لأنه إلا مَنْصب وزاوية ، لا محل مملكة وولاية ، حتى إن الشيخ عثمان ما أخذه بحرب ولا عسكر ، إنما كان شيخ زاوية دَخله مع تلامذته وفقرائه ، ومن تولَّى منهم طالباً للدنيا، فالغالب إنما يموت بِسَفك دمه ، كصاحب النَّقعة لما قتله التُّرك ، وكذلك ولد عبد الرحمن لما سَلَك غير طريقتهم ، قام عليه آل مطهر فقتلوه ، ومن حين قَتَل محمد بن مطهَّر ابنَ عمه ، ما تبارك في نفسه، ولا تبارك به أحد ، وآل العمودي ماهم بخت في البغي ، قال سيدنا علي : مَن سَلَّ سيف البغي على

أخيه قُتِل به ، ومن حفر لأخيه المسلم حفرة وقع فيها ، وآل العمودي بيت صلاح ، والشيخ سعيد أخٌ لسيدنا الفقيه المقدم ، وكل أهل زاوية وقع بينهم إلا آل باعلوي ، وآل العمودي ، أما سمعتم فيما يقال إن الفقيه المقدم طَرَح عند الشيخ سعيد شيئاً من الأحوال ، وابن هادي كم حاجَّه أصحابه ، فانقلبت العاقبة عليهم ، والبغي ما له عاقبة ، وفي الحديث : لو بغى جبل على جبل لَدُكَّ الباغي ، وخصوصاً فيما يثير فِتْنة في الناس ، وشاغلاً عليهم ، ولا يقوم في هذا الأمر إلا من فيه علم وديانة ، ليقيم للناس أمر دينهم ودنياهم ، وهؤلاء ما نفعوا الناس ، لا في دينهم ولا دنياهم ، وأي شئ وقع للذين تولوا بلا علم ، تراهم يتلتِلون الناس، ومن لا يحسن يصلي ، يصلح أن يلي أمر المسلمين ؟ وما هو إلا أهل الزمان غلب عليهم الشيطان والهوى ، فبقي ناس يحسنون أشياء لأجل أغراضهم ، كما قال بامخرمة :

يَا عُمَر إنْ تَوَلَّيت أَحْرَمُوك الوِلَايَة ... وإنْ رَأُوك اهتَدِيت بَا يحرمُوك الهِدَايَة

وأنشد هذا البيت :

ومَن يربط الكَلب العَقُور ببابه ... فَعَقْرُ جميع النَّاس من رَابط الكَلب

وقال رضي الله عنه : « من لا يخاف الله ، خَوَّفه الله من الناس ، ومن خاف الله خوَّف الناس منه » .

وقال رضي الله عنه : « الناس مع فلان – يشير إلى بعض الولاة[1] – كالقائم في طَحس – أي وَحْل – كلما تحرك زلّت رِجْله ، فإن أموره مضطربة والناس معه كل ساعة في حكاية ، والذين يبغونهم الناس ما جاؤوا، والذين ما يبغونهم جاؤوا ، حتى يعلموا أن القوة لله جميعا ، وقد تَغَيَّرت أساليب الدولة كلها على وجهه، وكلما غرق في حِجَّة قال : نجُّوني منها ، وعاده ما ثبتت له قدم ، ولا استقام لنا معه أمر ، وما هو إلا كما قيل : أخذت زوجاً ليقوم بي وبعيالي ، فعجز عني ما قام بي بحال – أو نحو هذا اللَّفظ – وما مثَله إلا مثل فلان – رجل سماه ، قال : – كان أعمى وشيْبة ولا يَسْمع ، والإنسان فَلْيقع إما ثمر وشوك، وهذا هو التمام ، وإما ثمر يأكل منه الناس ، وإلا شوك فيمنع على نفسه » .

وكان هذا الكلام حاضره السيد زين العابدين ، فشكا إليه من أحوالهم ، وما هُم عازمين عليه من إيذاء الناس وظُلْمهم – وذلك في شعبان من سنة ١١٣٠ لما جاء بتلك العساكر – فقال : « لا عاد الإنسان يشغل نفسه في هذه الأمور ، فكم من قربة منفوخة تحسب فيها ماء ، ما عاد إلا يتولى الله خلقه، ولا عاد تتعبون أنفسكم بلا قدرة لكم عليه ، وإذا عَجَزَتْ قدرةُ العبد عن أمر كان فيه الخيرةُ إلى الله » .

وطلبه السيد زين العابدين المذكور أن يصل إلى مكانه ، فَمَضَى نفع الله به إليه يوم الأحد تاسع

---

(١) أي عمر بن جعفر . اهـ « م » .

عشر شعبان ، فمما قال في مجلسه ذلك ، أن قال : « إنَّا متعجبون من عاقل يشك في أمر يافع ، ويُخشى حتى على إيمانه ، فإنهم مستحلُّون أمراً حَرَّمه الله في القرآن[1] ، واستحلال ما حَرَّم الله يوجب الكفر ، فلا يَمْتري فيهم أحد ، ولا يرى أن على من قام عليهم حرجاً » .

وقال رضي الله عنه : « إعانة المؤمن لأخيه أمرٌ مَطْلوب ، فإن كان إعانة لوالي أمر ؛ كان أمراً عاماً ، والعمدة كلها على الرحمة والأمان ، ما يستقل الأمر إلا بهما . قال السويني :

مَا حَضْرَمُوت إِلَّا ان صَفَا كَدَرْهـا   وَطَـابَ مَصْعدهـا ومُنْحَدَرهـا

أي مجيئها ومراحها ، ولا يصلح حال صاحب الأمر ويستقيم أمره ، إلا إن طلب المصلحة لغيره، فإذا طلبها صلح ، وإن طلبها لنفسه فسد ، والظلم كله خراب ، ولكن الظلم المرَتَّب خير من العدلً ، قال بعضهم : فأما اليوم فهو ظلم مسيَّب ، وأصل الأموال والجرايات ما تجبيها إلا الرعايا ، فإذا كان الوالي ذئباً فمن أين يُجْبونها ، وقال بعض أهل السياسة للمأمون ، لما ضعف بعض ممالكه : إني لأعلم ما يقوّمها ، قال : ما هو ؟ قال : تَرْفع عنهم خَرَاج سنة ، والحاصل أن المحسن ينفع نفسه وينفع غيره ، والمسيء يضر نفسه ويضر غيره » .

وقال رضي الله عنه : « من علامة فساد الزمان ، أن الرجل فيه إذا ظُلِمَ صاح واستغاث وتنَصَّف وقال: ما أظلم الناس ، ما يأمرون بالمعروف ولا يَنْهون عن المنكر ، وأبطلوا الحقوق ، وتركوا الدين ، ونحو ذلك ، وإذا وقع الظلم على غيره ، تراه بارد الخاطر ، ولا يقول كقوله إذا ظُلِمَ في نفسه » .

وقال رضي الله عنه : « ومن العجائب أن الواحد من ظَلَمة أهل هذا الزمان ، أنه لَو وقع في وَرْطة تَذَكَّر ماذا فعل في عمره من الخير ، فإن ذَكَر شيئاً من ذلك اعتقد في نفسه أنه ما حَصَل عليه ما حصل إلا بسببه ، فانظر ما أعجب هذا الأمر ، مع أنهم قَلَّ ما يكون منهم شيء من الخير فيما رأينا ، فما أحدٌ يطلب من الله الفرج بمعصيته ، إنما يكون ذلك بطاعته ، فإن الحسنة إذا احتَوَشَتْها سيئتان أفسَدَتاها ، فكيف بِحَسنة بين سيئات كثيرة » .

وتَظلَّم إليه نفع الله به رَجلٌ ، فقال : « الظلم في الإنسان كالنار إذا اشْتَبَّت ، فادْعُ إلى الحق ، فإن قُبِل منك وإلا فَخَلِّ بين الظالم وبين الله سبحانه وهو يَكْفيه ، وكان معنا عشدلية مليحة جدًّا ، جعلناها لرجل خُرْفة ، ولا حَقَّ له في أصلها ، فمات ، فتملَّكها عِيَاله ، فأعلمناهم بذلك ، فلم يقبلوا ، وجعلوها في جملة مالهم ، فتَرَكناها ، ونحن من طَبْعنا من ظَلَمنا تَرَكْنا حقَّنَا له ، ولا ننظلم لأهل الزمان ، وإن كانوا هم الظَّالمين ، ونُظْهِر لهم أنهم مُسْتحقين ، ونحن نقدر مع ذلك أن نُظهر الحق ، ونأخذ حَقَّنا

---

[1] (١) أي الربا . اهـ « م » .

منهم بالحق لا بالباطل ، وكان النبي ﷺ قد آذته قريش في عِرضه ومالِه ، فعفا عنهم وَتَرك لهم مالَه، ثم أظهره الله عليهم فَمَلَّكه رقابهم وأموالهم فمنَّ عليهم برقابهم وأموالهم ، ونَحْن طريقتنا إلا مثل طريقة الشيخ عمر العطاس ، مَن أعطانا شيئاً سكَتْنا عنه ولم نسأله ، وإن طالب به عياله خَلَّيناه لهم ، فكم ناس أوصوا وجعلوا لنا أشياء ما أخذناها ، وأشياء فَرَّقناها على ورثتهم ، وما الإنسان يكره أن يَدَعَ إلا لمن أراد أن يُرْبي به ويتخذه وسيلة للربا والحرام ، فهذا لاَ نَدع له شيئاً ، لأنه لا تجوز المساعدة على الحرام » .

وذكر رضي الله عنه ولاة الجهة وشدَّة ظلمهم ، فقال : « لا تَدْع عليهم ، فما عاد معك معهم إلا مثل ذاك الذي شكى أولاده إلى بعض الناس ، فقال له : هل دَعَوْتَ عليهم ؟ فقال : نعم ، فقال : أنت الذي أفسَدْتَهم ، ولا تخصِّص أحداً منهم ، بل قُل : الوالي أو الولاة ، والدعاء لهم ، وتجنَّبهم ولا تَصَلهم، لأنهم معزولون بحكم الشَّرع ، لأن الفاسق معزولٌ شرعاً ، وأعظم الفسق ظُلْم المسلمين ، فإنهم أهلكوا الحرث والنسل ، حتى صَيَّروا الناس كدود القبر ، يأكل بعضه بعضاً ، حتى تَبْقى ثنتان كبيرتان ، فتأكل إحداهما الأخرى ، ثم تموت . ولكن قاعدة : كلما فعلوه في الناس من صغير أو كبير، لابد لهم ما يذوقونه - أو قال : يقعون فيه - كائناً ما كان ، لأن الله سبحانه وتعالى قال فيما جاء عنه : أنا الظالم إن لم أنتقم من الظالم . وإن أُخِّروا إلى أمدٍ يُريده » .

وقال رضي الله عنهُ : « أحكُم على الظَّالم بِفِعْله ، لأن الله وعد بأخذ الظالم » .

وقال رضي الله عنهُ : « اسأل ربك السَّتر ، وإلا عاد يصبح الأمر غَير هذا ، والبَيْضة فيها وَقْوَقه ، لكن الشهادة فيها الخير ، والأمور تجري على قليل قليل ، ويُسكت عنها » .

وقيل له رضي الله عنه: « إن السُّلطان مسَاهِن ما وعدتوه من أنه يكثر عليه الخير ، حتى لا يجد وعاء يَطْرح عليه » ، فقال : « هذا إن اتَّقى الله وعَدَل . فإن جارَ وظَلَم لا يَحْصل له ذلك ، يطرِح الرِّجْلين ويريد أن يستقيم له الأمر ، إن الظلم ييبِّس الإنسان حتى يصير كالعود اليابس ، حتى لو نُقِّع في الجنة ما عاد انتقع » .

وقال رضي الله عنهُ : « لا بُدَّ بعد كل سَبْع سنين تَحْصل حركة بين الولاة والعَسْكر من حَرْبٍ ، وتَبْديل سُلْطانٍ بآخر ، ونحو ذلك » .

وتكلم رضي الله عنه في الفاطميين ، وبَني العباس ، وبَني أمية ، فكان من جملة ما قال : « إن محمد بن عيسى ، أخا الشيخ أحمد بن عيسى ، قَاتَل بَني العباس ، وكان إذ ذاك شَوْكتهم قائمة ، وإذا قهروا أحداً من بني فاطمة لا يَسْتأصلونهم كبني أمية ، بل يجعلونهم عِندهم في بيوتهم مع أهلهم ، ولما علم عبدالله بن عمر بِقَتْل الحسين بَكَى ، حتى خرج الكحل من عيونه مع الدموع ، ثم قال : أما والله لو

حدثكم أبو هريرة ، بأنكم ستقتلون ابن نبيكم ، وتُخرِّبون بيت ربكم لكذَّبتموه ، وقلتم ما صَدَق أبو هريرة ، وها أنتم فَعَلتم ذلك » ، فقلت لسيدنا : ألم يكن معاوية - وهو صحابي - عَهِدَ إلى ابنه بالخلافة فَفَعل هذه المُنْكرات ، *فقال* : « إنه قيل : إن معاوية لما عَهِدَ له بها قال : إني تفرَّستُ فيه خيراً ، فإن صَدَقَتْ فراستي فيه فذاك ، وإلا فتِلْك من محبّة الطبع ، محبة الوالد لولده ، وأنا أسأل الله أن لا يطيل بقاه. فلما بَان على خلاف ما ظَنَّه فيه ، لم تطل مدته ومات مقتولاً قَتْلَةً قبيحة ، ذَبَحه لما أرسل إلى الحرمين لقتل ابن الزبير وهدم الكعبة » .

وأكثر في ذلك ، حتى *قال* : « ينبغي للإنسان أن ينطويَ باطنه في أصحاب النَّبي ﷺ على المحبة وحسن الظن بهم ، ولا يسيء ظنه فيهم ، حتى يصير من الذين جآءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان . وأما يزيد وابن زياد والحَجَّاج ونَحْوهم ، فلا لهم حُرْمة الإسلام ولا هم بشيء حتى يُذكَروا ، وهذه الأشياء كلما اجتنبها الإنسان كان أحسن ، لا سيما إذا لم يكن فيه مَسْكَة دين ، وخرج رجل ممن يحب أهل البيت في العَسْكر الذين خرجوا لقتل الحسين ، وبقي فيهم مختفياً ، فلما كان وسط الليل أنشد :

يَا رَب رب النَّاسِ وَالعِبَاد الْعَنْ زِيَاداً وَبَنِي زِيَاد

وذكر هذا النظم أيضاً :

جَاؤوا برأسك يَا ابْنَ بنتِ مُحَمَّد مُتَزَمِّلاً بِدِمَائِهِ تَزْمِيلا

وَيُكَبِّرونَ بأن قُتلتَ وَإنَّما قَتَلُوا بِكَ التَّكْبِيْرَ وَالتَّهْلِيْلَا

وقال رضي الله عنه : « لو أن الخلافة صارت بعد عثمان أو بعد معاوية إلى بَني هاشم ، ولم تَصِرْ إلى بني أمية ، لكان لم يَبْق لغيرهم مجدٌ ولا فَضْلٌ ، ولكن لله تعالى في ذلك مُرَاد ، وهو سُبْحانه يحب أن يَتَشارك عباده في الفَضْل والمجد ، ولولا ذلك لكان مختَصًّا بهم ومقصُوراً عليهم ، وليس لِغَيْرهم منه شيء ، لأن فيهم النبوة والرِّسالة ، وفيهم الحَسَب » ، وعَدَّد أشياء، *ثم قال* : « ولكن الله أراد ذلك ليتفرق في جميع قبائل العرب ، ولهذا لا تخلوا قبيلة من مناقب وفضائل ، كثرت أو قلَّت ، ولَوْ خصلة واحدة ، لِيَسْتُر ذلك ما فيهم من المذموم » .

وتكلم رضي الله عنه في الولاة ممن سبق ، *فقال* : « إن أولئك ، وإن كانوا ظَلَمة ، فالمَظْلومون في زَمَنهم قليل ، فيقلّ لذلك الدعاء عليهم ، وفيه حَتْفٌ على الظالم ، وأعماله أيضاً حَتْف عليه » .

وذكر : « إن بعض ملوك الروم - أو قال : الملوك ، أو ملوك الإسلام ، أرسل بريداً إلى ملك الصين

- أو قال : ملك الهند - فقال : قل له : فلان يقرئك السلام ، ويَسْألك : لِمَ تطول أعمار ملوككم، وتَقْصر أعمار ملوكنا ؟ فأراه شَجَرة ثابتة عُرُوقها في الأرض ، فقال له : إذا سقطت هذه الشجرة عن أصلها أجبْتُك ، فبقي مدة مستبعداً لسقوطها ، ويتَمَنَّاه وخاطره متعلِّق بها ، فبعد مدة سقطت، فتعجب من سقوطها ، فقال ذلك الملك له : إن ملوككم يَظْلمون فتَتَعلَّق بهم هم المظلومين حتى يَهْلكوا ، وهُنا الظلم قليل ، والشَّاهد سقوط الشجرة ، لتعلق همة هذا بها » .

هذا ما حفظناه مما تكلم به ضحى يوم الخميس حال القراءة في ٢٩ صفر سنة ١١٢٤ .

وتكلم رضي الله عنه يوماً كثيراً في حوادث الزمان وظلم الناس فقال : « وَرَدَ عن الله : لو أن الظلم في حَجَرٍ في قعر الجنة لأخرَبْتُها لأجله . مع أنها لا تخرب » .

ثم ذَكَر الصحابة وما جرى بينهم ، وقال : « الذين بايعوا سيدنا عليًّا من أهل الحديبية نَحْو مائة رجل ، ومن أهل بدر وأحد والمهاجرون والأنصار ، ولم يَتَخلَّف عن بيعته من الأنصار سِوَى رَجُلَيْن ، أحدهما كان صغيراً » .

وأكثَرَ في ذلك ثم قال : « إنما مرادنا من ذِكْر ذلك لِيَكُون في بالكم ، فربما تسمعون فيها يأتي بأشياء من هذا القبيل ، فلا تُنكرونها وتَبْقون حسنين الظَّن بأصحاب رسول الله ﷺ ، فالله الله بحسن الظن بالصحابة ، نُوصيكم بذلك كثيراً ، استوصوا بحسن الظن فيهم ، وما كان لنا مطالعة في ذلك إلا لما وَصَلوا الزيدية إلى الجهة[1] ، احتجنا إلى المطالعة فيها ، فطالَعنا بِقَدْر ما نحتاج إليه » .

وَذكَر رضي الله عنه الولاة والرؤوس ، فقال : « إنما الرأس من تنفذ كلمته ، ويُسْمع قوله ، وأما من لا يُبالَى به ، ولا يُسْمع كلامه ، ولا يَنْفُذ حكمه وأمره ، فليس برأس » .

وصافحه رضي الله عنه بَعْضُ عبيد الدولة ، فقال له : « أنت الذي في تريم ؟ » ، فقال : نعم ، فقال سيدنا له: « تريم مباركة ، إذا وَصَلَتْها النَّار انطفت ، ومن مَدَّ يَده إلى ما لا يحل قَطَع الله يده ، وإن الله يُمهِل الظالم ثم يُخضفه » .

وذكر رضي الله عنه الغضب ، فقال : « هو طبيعة في الآدمي ، لا يُمْكنه أن لا يغضب ، ولا يُلاَم عليه، إلا إنه لا يَنْبغي أن يُكثر منه فيُخْرجه من الحق إلى الباطل » .

---

(١) وسنُّه إذ ذاك رضي الله عنه نحو ٢٦ سنة . اهـ « م » .

وقال رضي الله عنه على قوله عليه السلام : « وخالِق الناس بخُلُقٍ حَسَن » : « أي لا تجفو على الناس، ولا تشمخ عليهم ، ولا تُنكِر عليهم ، ولا تَكُون ثقيلاً على الناس ، ولا عتَّاباً على الناس ، حتى على أهلك وأولادك » .

وقال رضي الله عنه : « بحسن الخلق يُسْتجلب خير الأخيار ، ويُسْتكفى شر الأشرار » .

وقال رضي الله عنه : « مقابلة النفس بالنفس تورث العداوة ، وإنما ينبغي أن يقابل النفس بالقلب، والشر كله في الكلام ، فينبغي لمن ثارت عليه نفسه أن يسكت ولا يتكلم ما دامت كذلك ، وأنا من طبعي إذا غَضِبْت على أحد ، فإن تكلمتُ استمر بي ذلك ، وإن سكتُّ سكن مني ، وإن خَرَجَتْ مني كُلَيمة على أحد من المحبين ، فإنما هي حق التنفس » ، أو كما قال.

وقال رضي الله عنه : « إنا نتكلف إساءة الخلق ، وطبيعتنا عكسه[1] ، بخلاف الغير فإنهم يتكلفون حُسْن الخلق ، وطبعهم ضده » .

وقال رضي الله عنه : « إذا حَسُنَت أخلاق الشخص ، ساءت أخلاق أخدامه » .

وقال رضي الله عنه : « الغل : إضمار البغض لمسلم . وهو شديد ، إلا إن كان من غير اختيار ، كأن ظَلَمَهُ حقَّه ، فلا يَحْرُم ، لكن ينبغي أن يكفِّره بكراهته والاستغفار منه ، ويعزم على أنه إن تمكن منه ، لم يخرجه عن حد المباح فذلك تكفيره » .

وقال رضي الله عنه : « سوء الخلقِ ضيْقُ الصدر » .

وقال رضي الله عنه : « أهل شبام ، كثيري الكلام ، كل ذلك لِضِيْق صدورهم ، فَلِضيقها يتَنَفَّسون بكَثْرة الكلام ، وضِيْق صدورهم لضيق بيوتهم ، لأن من ضاق بيته ضاق صدره » .

وعاتب رضي الله عنه خادماً له، فكان مما قال : « إذا حَسُنَت أخلاق الرجل ، ساءت أخلاق خادمه، وأحب إلينا أن يكون ذلك فيهم ، ولا فينا ، وما كنا من حين ابتداء أمرنا نظن أن نلابس شيئاً من أمور الدنيا وأسبابها للطَّرَف ، حتى صارت الأمور إلى غير الاختيار وأقبل الناس علينا ، فلما رأينا ذلك علمنا إنه إنما كان بسابق إلهي ساقهم إلينا ، فيجب علينا الصبر فيه ، وتمشَّت لنا من الأمور المعاشية أشياء ما يكاد يصدق بها الإنسان ، كالمحال ، تسْتَبعدها العقول ، ومن رآها وسمعها تعجَّبَ كثيراً ، وقال : بعيد جدًّا أن يكون هذا الأمر من هذا الباب » أو كما قال .

---

(١) يعني يتكلف نفع الله به إظهار الغضب على أحد لأجل تاديبه ، إن رأى أن مصلحته في ذلك ، وإلا فطبعه نفع الله به الرفق واللين، فافهم . اهـ « م » .

وقال رضي الله عنه : « الأوصاف ما تَصير أوصافاً إلا إذا قويت وثَبَتت ، وهذا في كل الأخلاق ، المحمودة منها والمذمومة ، كالحسد وغَيْره ، وأما الخواطر المتردِّدَة فلا يُعْتَدُّ بها ولا إثم بها ، ولا مَدْح ولا ذَم ، والكبر والإعجاب وحب الدنيا ماحِقَات كلها ، والقليل منها يَجُرُّ إلى الكثير ، وفي الحديث : إذا رأيتم في إنسانٍ خُلُقاً محموداً فاعلموا أن هناك له أخوات ، وإذا رأيتم فيه خُلُقاً سيئاً فاعلموا أن له أخوات » .

ثم قال : « انظروا إلى أماكن الشوك والنمل ، كيف يدل القليل على أكثر من ذلك، وكذلك في الأماكن المُسْبِعة ، ولكن راحت بالناس الأفهام ، فلا معهم أفهام يعرفون بها الأمور ، ولا مفهِّمين يُعرِّفونهم بها ، فبَقُوا حائرين لا يَدْرون وِجْهتهم ولا أين هم متوجهين ، وذلك حتى في أمور الدنيا ، لا تحقق لهم بها ، وهذه الأشياء لا يقبلها الله تعالى ما دام الإنسان يقبل التشكيك في الأمور الدينيات ، و الإنسان – أو قال : وما زال الإنسان – يقبل التشكيك في الأمور الدينيات فلا يقبلها الله ، والإنسان في مطالبه على قَدْر همته وطَلَبه ، فلو كان إلَّا إنما يريد نكاح امرأة ، أو شراء ضَيْعة ، فإذا طلبت النفيس من ذلك صَعُبَ عليك الأمر ، وإن طلبت ما اتفق أمكنك من ذلك كثير ، فطالِبُ الصَّعْبِ أموره صعبة، وطالِبُ السَّهلِ أموره سَهْلة » ، أو كما قال ، قال ذلك عشية الثلاثاء في ٢١ جماد الآخر سنة ١١٢٩ .

وقال رضي الله عنه : « النَّفس قاسية رغيبة ، إذا رأت الشيء لم تَقْنع به ، لكن إن رأته كثيراً تبارك وإن كان قليلاً ، وإن رأته قليلاً ذَهبت بركته وقلَّ ، وإن كان كثيراً » .

وذكر رضي الله عنه البر وأهله ، فقال : « البِر فيه بركة ، وصلة الأرحام مباركة ، فيها طول العمر وسعة الرزق وكفاية الأعداء ، ومن وَفَّقَه الله فهو بخيت ، وإذا أضل الله عبداً أو أراد هلاكه ، لا ينفع فيه شيء » .

وقال رضي الله عنه : « الأمور الفجائية ، التي تأتي الإنسان بَغْتة ، أو يُخْبر بها كذلك ، قد تَقْتل وقد تُرْعب رُعْباً شديداً ، بحيث يغمى على الإنسان ، كما حكي : إن حارساً كان في بَعْض الحصون رأى جرادة في الجو طائرة ، فظنها سهماً ، فوقع من الحصن ، فبقي مطروحاً إلى اليوم الآخر كذلك ، ثم أفاق. وكذلك اتفق لشخصين مسافِرَيْن أن نام أحدهما ولم يَنَم الآخر ، فرأى حية لدغته .. » ، إلى هنا رأيت في الوَرَقة ، وأظن إن النائم رأى ذلك فصاح فقام مرعوباً ، فقام إليه الآخر وأمسكه .

وقال رضي الله عنه : « إذا أفرط الإنسان في محبة أمر أو بغضه ؛ انعكس إلى ضده ، لأنه لا ضابط حينئذٍ، فينعكس الأمر ، كذلك الذليل جداً لو سمع خربشة ، يفزع منها ، يظنها شيئاً يخاف منه ، وليس

كذلك ، كما ذكر إن رجلاً رأى جرادة طائرة قاصدة نحوه فظنها سهماً ، فصاح ، فوقعت عليه ، فسقط وهو يقول بصياح شديد : أصابني سهم ، حتى مات . وآخر خرج من بعض الحصون ، فسمع ضربة بندق ، فظن إن رصاصة وقعت فيه ، فسقط ، فخرج إليه أهله فرأوه ملقىً ، فلما أفاق قال : إنه أصابني، إلا إنه لما آتيتموني ذهب ذلك عني » .

وذكر رضي الله عنه جماعة من آل الشيخ أبي بكر كانوا يترددون ثم انقطعوا ، فقال : « ما كان بيننا وبينهم شيء من أمور الدنيا ، ولا نالنا منها منهم شيء ، وهم عالمون بذلك ، ولو أرسلوا لنا شيء ، رديناه ولا قَبِلْنَاه ، وإنما مرادنا منهم أن يتربوا ويتخلقوا بأخلاق سلفهم ، ماهم داريين إنا نُرَبِّي الرجل من أولادنا على الخُلُق الواحد سنين » .

وقال رضي الله عنه : « إذا أَخَذْتَ شهوة فقدِّم قدَّامها أو بعدها ذِكْر الله ، حتى ترفعه الملائكة ، شوبوا مجالسكم بذكر الله » .

وقال رضي الله عنه : « إذا أردت أن تفعل الخير هَوِّنه على نفسك حتى يسهل عليك ، وأَكْثِر منه ما استطعت » .

وقال رضي الله عنه : « هذا الزمان زمان نار ، وأهله مفتونون ، وفتنتهم في قلوبهم ، لو جئتَ بشرارةٍ؛ جاءوا هم بحطب ، وأوقدوا عليها حتى تشتعل » .

وكثيراً ما أسمع سيدنا نفع الله به يقول إذا انصرف من صلاة الجمعة :

إِلَهِي فِيْكَ قَدْ أَحْسَنْتُ ظَنِّي فحَقّـكَ يَـا إِلَهِـي لا تُهِنِّـي

وقال رضي الله عنه : « لا بُدَّ في الإمام المقتدَى به من السيرة والسريرة والصورة ، فالسيرة : الطريقة ، والسريرة هي حسن الخلق ، أن لا يكون فَظًّا ولا غليظاً ولا وحشاً » .

وقال رضي الله عنه : « الجهال صغار العقول ، لا تجالسهم فإنهم كالنار ، ولا تَج في طريقهم ، وتَنَحَّ منهم مثل ما تَنَحَّى النبي ﷺ من أبي جهل وأمثاله ، إلا أن أولئك كفار ، والجاهل ما يرجع من شيء » .

وقال رضي الله عنه : « الجنون فنون ، وما هو فنٌّ واحدٌ إلا العقل ، وكلٌّ له منه نصيب ، ممن له منه جزء وجزءان أو أزيد أو أقل ، ولا كَمُلَ فيه إلا رسول الله ﷺ ، وترى الإنسان عليه ثياب وعمامة ولا عقل معه ، لأنك إذا تأمّلتَ أفعاله لم تكن من أفعال العقلاء » .

وقال رضي الله عنه : « الجنون مرض عَقْلٍ ، ومنه المطبِق ، ومنه الذي يَرِدُ أحياناً ، كمرض الجسم،

وهو على أنواعٍ شتى ، كما قيل : الجنون فنون ، وأما الحمق فنوع واحد ، ونهايته بداية الجنون ، وهو أشد منه على الناس ، لأن المجنون كُلٌّ يحذر منه ، والأحمق فيه شائبة من عقل » .

وقيل له نفع الله به : « فلان من آل بافضل يسلِّم عليكم ، وهو نِعْم الرجل » ،فقال : « من طاب - أو قال : صلح - من آل بافضل فهو فضة خالصة ، ومن طاب من السادة فهو ذهب خالص » .

واستأذنه رضي الله عنه بعض الجماعة في السفر ، وسأله الدعاء بالتيسير ، فقال له: « إن شاء الله أمورك ميسرة ، والله الله في السيرة المحمودة ، فإن لم تقدر عليها كما ينبغي ، فكن مقارباً لها ، وللسيرة علامات وأمارات ، فلتكن منك السيرة باطناً ، وعلاماتها ظاهراً ، وخذ في أمورك بما تعرف أنا لا نكرهه منك ، لأن الشاهد يرى ما لا يراه الغائب ، احذر أن يُؤْثِرَ عنك أحدٌ شيئاً من العلامات المذكورة، ثم يَنقل عنك آخر خلاف ذلك فلا يُعرف منك استقامة على حال ، مثل من ذُكِرَ أنه مُغَرِّبٌ ، فرؤي مُشَرِّقاً، بل ليتواتر عنك ذلك على هيئة واحدة » ، أو كما قال بمعناه .

وقال رضي الله عنه لرجل: « حِلُّوا ، أدخلوا على أروحكم الرَّوح ، لئلا تضيق النفس ، والذي يروِّح الروح كالنسيم والخروج إلى الأماكن المتسعة والأشجار ، وتتقوى النفس والجسم بالأكل والنوم والأشياء الكثيفة ، وليست هذه أغذية للروح » .

وقال له رضي الله عنه بعض السادة : « ما حَلِّيتوا هذا العام » ، فقال : « إنهم - أي الأهل - ما نشطوا للحلول ، وقالوا : إن الخريف قليل » ، ثم قال : « إن المؤمن يأكل بشهوة أهله ، والمنافق يأكل أهلُه بشهوته » .

وقال أيضاً نفع الله به لرجل آخر: « لأي شيء ما حليتوا؟ والمحلة عادتكم » ، فقال : نحن في الهمة، والمشيئة بيد الله ، فقال : « ما عليك ، مشيئة الله شيء، ومشيئتك شيء آخر ، مشيئة الله قوية قاهرة ، وإذا لم يُرِدْ شيئاً لم يقع ، وإنما هي همتك وعزمك » .

ثم إن الرجل شكى إليه من الظلم ، وما هو وغيره عليه من الأحوال ، فقال له : « إذا اشتد الأمر فالفرج قريب ، وإذا قد حَمَلَتْ بالرأس وَلَدَتْ » .

وشكى إليه أيضا مِن ولدٍ له غير بار ، وليس هو في رأيه ، فقال له : « ما عاد معك إلا الصبر والمسامحة ، والصبوة في الصغر لا تُسْتَنْكَر ، وفي الحديث : عَجِب ربك من شاب لا صبوة له . والصبا شعبة من الجنون ، وإذا غَلَبَتْكَ الأمور فاغلِبْها بالصبر ، ولا تَدَعْها تغلبك » .

وقال رضي الله عنه : « أهل الباطن لا يبالون بالظواهر ولا بأهل الظاهر ، والصادق لا يُمَكِّنُ أحداً

أن يعترض عليه » .

وأمر رضي الله عنه في بعض الأيام منشداً ينشد ، وكان ذلك في مسجده « الأوابين » ، فأنشد بخمرية ابن الفارض ، وكان السيد الجليل أحمد بن زين الحبشي حاضراً ، فقال له سيدنا : « **أثبِتْ لنا ما فَهِمْتَ من معنى هذه القصيدة وما في معناها ، لنرى كُنْهَ فَهْمِك ، فتناول الورقة من يدي والقلم وكتب هذا** » .

وهذا المنقول هنا من خطه : « الحمد لله ، مما فهمناه من كلام سيدنا : مدار المعنى المقصود في كلام أمثال ابن الفارض لأهل المعنى على سر قوله تعالى : ﴿رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ﴾ إلخ الآية ، وفي نحو قوله في الخمرية : شَرِبْنَا على ذِكْرِ الحبيب مُدَامة ، يرجع إلى ظاهر التوحيد وباطنِه وذوقِهم فيه واتصافِهم به، فإذا أُخِذَ ذلك دستوراً ظهرت ، وظهر غالب المعاني » انتهى.

قال سيدنا نفع الله به : « **كلام الشاذلية متداخل ، يختلف فيه اللفظ ويتفق فيه المعنى ، وينقل بعضهم عن بعض** » .

وجاء بعض السادة إلى تريم للزيارة في مدة قريبة مرتين خلاف عادته ، *فقال* سيدنا له : « **ما كنت تعتاد المجيء على القرب ، هل أحْسَسْتَ في نفسك رغبة في الخير ، فإذا رأيتَ من نفسك أو من غيرك زيادة خير في الظاهر ، كَسَعْيِ في فعل خير لم تكن تفعله ؛ فهو علامة زيادة خير في الباطن ، وفي الشر كذلك ، إذا رأيت له أثراً على الظاهر فهو علامة على وجوده في الباطن ، وهكذا زِنْ نفسَك وغيرَك ، وإلا فما علامة الزيادة والنقصان ، والأصل في الشيء الهمة ، وقد قال رجل للحسن البصري : عظني ، قال : مات أبوك ؟ قال : نعم ، قال : ماتت أمك ؟ قال : نعم ، قال : رُحْ ، فما تنفعك الموعظة . أي لأنه لم يعتبر بموت أبويه ، وهما أحب الناس إليه ، فالله الله في الهمة في طلب الخير ، فالسادة أصل تحصل لهم همة الخير ، وحصل لهم المطلوب ، كما قال الشيخ عبدالرحمن السقاف : إن أولادنا كالذي يحفر في أرضٍ طيبةٍ قريبةِ الماء ، يخرج لهم الماء عن قرب ، وغيرُهم كالذي يحفر في جبل أو أرض صلبة لا يكاد يخرج ، وإن خرج ماء فعلى بُعْدٍ ومشقة ، ولا يدري يكون طيباً أو مالحاً** » .

وقال رضي الله عنه : « **ليس مع الإنسان في هذا الزمان عن المعاصي مانع من الحق من نحو خوف، ولا من الخَلْقِ من سلطانٍ عادلٍ آمرٍ بالمعروف ناهٍ عن المنكر ، وإلا لمُلِئَت منهم المساجد أو السجون، لكن عُدِم ذلك ، فاجترأوا على تضييع حقوق الله ، لما اجترأوا الأكابر ووجوه الناس اجترأ بسببهم أداني**

الناس ، لما رأوا الأمور مفلتة ، ولا زاجر يزجرهم ، فأكب كلٌّ على ما يدعوه إليه هواه ، طالِبُ الدنيا في دنياه ، والظالم في ظلمه ، ثم هم في تفريطهم يحتجون لأنفسهم على ربهم ، ويقولون مع ذلك : مُقَدَّرٌ علينا ، فَهَمُّ واحدهم في أمر الدنيا يكدح بغاية ما يمكنه ، خوفاً من جَوْعَةٍ ، أو فَوْت عشاء ، وإذا جئنا عند حقوق الله قال : مُقَدَّرٌ عَلَيَّ ، أفلا ترك أحدهم حرفته أو صنعته ويقول : الرزق مُقَدَّر ، مع إنه كذلك ، أو فَخُذْ ثوبه وقل له : مُقَدَّرٌ عليك ، وانظر كيف يطالبك إلى القاضي » .

وقال رضي الله عنه : « إنما وصف الله الجنة وذَكَر حورها وقصورها وغيرَ ذلك ، ليُرَغِّب الناس فيها فيطلبوها ويزهدوا في الدنيا ، لأنهم إذا كان مرادهم مثل هذه الأشياء فهي لهم في الجنة ، وإلا فإن الحق تعالى يتعالى عن ذِكْرِ الحور والقصور وسائر الأشياء » .

وقال رضي الله عنه : « هذان البيتان لأبي الأسود الدؤلي :

وَمَا طَلَبُ المعِيْشَةِ بِالتَّمَنِّي ... وَلَكِنْ أَلْقِ دَلْوَكَ فِي الدِّلَاءِ
تَجِيْكَ بِمِلْئِهَا طَوراً وَطَوراً ... تَجِيْكَ بِحَمْأَةٍ وَقَلِيلِ مَاءِ

وكان سيدنا نفع الله به ذات يوم خارجاً من البلاد إلى الحاوي ، فالتقاه في الطريق بعض السادة فصافحه وحَيَّاه ، فَحَيَّاه وبَشَّ له وأَلَانَ له الكلام ، *ثم قال* له : « إن جدك تزوج عندنا ، وجاءه من العيال كذا وكذا .. » ، وبقي يكلمه حتى فارقه الشريف ، وما بقي معه إلا الفقير وقائد الفرس جعل يحدثني ويقول : « ولما مات جده بقي عياله عندنا نربِّيهم ونكفلهم ، لأنهم عيال كريمتنا ، وقَلَّ ما تخلو كفالتنا بحمد الله من يتيم أو أرملة ، لأن من عادتنا من كان من هذا القبيل مَحْرَماً لنا ، ولا له من هو ألزم به منا في الشرع ، جعلناه عندنا ، معيشته وما يحتاج إليه ، فيحصل لنا الثواب الموعود به كافل اليتيم والأرملة بالفعل فيما يمكننا ، وبالنية فيما لم نقدر عليه من كفالة الأرملة ، واليتيم من جميع آل باعلوي بالخصوص ، ومن غيرهم بالعموم ، المطلوب ذلك من ذوي الثروات » .

فلما رأيته رضي الله عنه تكلم بهذا ، وما هناك من يعي كلامه ويفهمه غيري ، سألته : كيف تفعلون باليتيم الذي يكون عندكم ، وفي المساجد الذي بنظركم ، وكذلك كل ما لكم فيه نظر ؟ ، *فقال* : « أما اليتيم فإن كان ما معه ما يكفيه ، فجميع مؤنه من عندنا ، وإن كان معه بعض كفاية ، بحيث يحتاج إلى أكثر من ذلك ، كَغَلَّةٍ لا تكفيه سنتَه ، جعلناه في مصروف الدار ، ولا عليه حساب فيما زاد عليه ، وإن كان له زائد على كفايته جعلنا كفايته من ماله ، لأنه ورد نَهْيٌ عن اليتامى يتكففون الناس ، كمن جعل فطرة على مسجد ، فأردت أن تجعل عليه فطرة ، فلا حاجة بجعلها وهو مكفي ، فاجعل ذلك في غيرها ،

وربما راح مالُهم لوارث ، فنجعل من مالهم إن كفى مؤنتهم كلها أو بعضها ، وما زاد فمن عندنا، كما فعلنا في مال فلان - زوج إحدى بناته - وقد أوصى لنا بجميع أمتعته ، من أمتعته من تمر ونحوه فأعطيناها منه مهرها وثمينها والباقي للولد وبقي ثمينها معه ، وما حصل من غلة وهي لا تكفي مؤنة الولد سنة، طرحناه في الدار في جملة المصروف ، ونحن بحمد الله ما أخذنا قط شيئاً من مال يتيم ، ولا من مال سدس مسجد ، إلا ما كفى المسجد من وقفه ، فذاك ، وإلا جعلنا له من عندنا ، وإذا كان معه من هو أقرب إليه منا ، خليناه إليه ، ونظرنا من وراه ، كأولاد فلان - هو ابن أخيه - وقد أوصى بهم إلينا لكن إلى أبيه ، ونظرنا من وراه » ، قلت: فلو لم يكن ، كانوا إليكم ؟ ، *قال* : « لا ، إما إلى أمهم ، أو إلى وصي ونَظَرْنا عليهم » ، *ثم قال* : « الآن نحن غرباء في وقتنا ، وأمورنا قد ماتت قبلنا ، وتموت بعدنا»، فقلت: أنا عارف بذلك ، ولهذا أتبحث في هذه الأمور عنكم .

وأراد رضي الله عنه عشية جمعةٍ وهو في البلاد أن يصلي المغرب في البلاد ، وأراد أولاده الخروج إلى الحاوي ، *فقال* : « من يبقى يصلي معي المغرب؟ » ، قالوا : فلان . لبعض الأخدام ، فلما سمعتُ منه ذلك ، استأذنته في الجلوس للصلاة معه ، فأبى عليَّ ذلك *وقال* : « عليك هناك دَرَك » ، يعني في الحاوي، ودَرَكِي فيه الأذان .

فقلت : إن كل صلاة تفوتني معكم يبقى عليَّ منها حسرة ، *فقال* : « وهذا أحسن ، لأن أمور الخير إذا فاتت على إنسان وتحسَّر عليها ، فتحسُّره ذلك خير من فعله لذلك لو فعله ، أما سمعت بقصة ذاك الذي رأى إنساناً تحسَّر على أن فاته الحج ، فقال له : يا فلان إني قد حججت سبعين حجة ، أتريد أن أهب جيعها منك ، وتهب لي تحسرك هذا ؟ » .

وقال رضي الله عنه : « لا تنكِر على الأكابر أموراً وليست محرمة شرعاً ، فلعل لهم فيها نية صالحة، ولا تقتد بهم فيها حتى تقتدي بهم أيضاً في أمور أخرى ، ولا تجعلهم لك عذراً ، وقد لبس السواد الشيخ أحمد بن أبي بكر[1] » .

وقال رضي الله عنه : « الرجل ، من كان رحمة وسلامة لنفسه ولغيره فلا يكلمهم فيما لا يبلغه فَهْمُهُم من أمور التوحيد والدين سيما العامة ونحوهم » .

---

(١) أي أحمد المساوى بن أبي بكر العدني بن عبدالله العيدروس .

وقال رضي الله عنه : « البخيت بغيره[1] في الفضول لا في الخير ، إلا في خير يتفرغ بسبب ذلك لخير خير منه » .

وقال رضي الله عنه : « الإنسان ضعيف ، عينه قوية وقلبه ضعيف ، وما نريد من الإنسان إلا الربط على الدين ، وأما الدنيا فمن حصَّلها فهو لا شيء ، ومن لم يحصِّلها فهو لا شيء مرتين » .

وقال رضي الله عنه : « رأينا في النوم كأن في محل سقاية زنبر ، سقاية ، فحكينا له بالرؤيا فبادر وفعلها وقال : خشيت أن تسبقوني ببنائها ، ولكن من نوى عملاً صالحاً وسبقه إليه غيره ، فهو نائب عنه » .

وذَكَر رضي الله عنه أمور الخير وثِقَلَها على النفس ، وقال : « ينبغي أن يستجلب إليها باللطف ولو إلى القليل منها . فإذا كانت الغايات لا تُدرَك ، فالقليل منها لا يُترَك ، وثِقَلُ الأمور الإلهية على الإنسان فيه سِرٌّ آخر ، فلو كان يتلذذ بها كأمور النفس ما حصل عليها الثواب » .

وذَكَر رضي الله عنه أقواماً يقاتل أحدُهم ابنه وأخاه وقريبه بسبب الملك ، فقال : « البغي ما له عاقبة، فإذا طَلَبْتَ أمراً فاطلُبه بالتقوى ، فإذا ذَهَبَت الدنيا بَقِيَت الآخرة » .

وقال رضي الله عنه : « فعل الكافر إذا صدر من المؤمن فهو النفاق ، وفاعله منافق ، لأن المؤمن بَيِّنٌ ، والكافر بَيِّنٌ ، كلٌّ مُقِرٌّ بما هو عليه ظاهراً وباطناً ، وأما المنافق فمتلبس بالحالين ، الإسلام على ظاهره ، والكفر في باطنه » .

وذَكَر رضي الله عنه الأولاد – ورأيت موضعه بياض لا خط فيه ، ولعل معناه : « ما يتعلق بك من مؤنتهم ، والقيام عليهم في دينهم ودنياهم » ، ثم قال : « لأنهم أخرجهم الله إلى الوجود بواسطتك، وجعلهم ضعفاء عاجزين ، وجعلك قائماً عليهم ، ولكن هذا يحتاج إلى نية ، والنية تفسرها الأغراض، فكم واحد عنده مثل هؤلاء ويقول : ما نحن إلا بُلينا بهم » .

وذَكَر رضي الله عنه الخوف والتخويف ، فقال : « إن كنت تخاف فلا تفعل ما يكون منه الخوف ، وهذا ميزان ، والله لا يُضِيعُ أجر من أحسن عملاً » ، وقال لي حينئذ : « أنتَ جئتَ عام جاء عمر بن جعفر ، فسبحان الله العظيم ، استَعْمَلَ أقواماً في الرضا واستعمل آخرين في الغضب » .

وقيل له رضي الله عنه : « كم فرق بين الأولين وأهل الزمان في همة الطاعة ! » ، فقال : « هؤلاء إلا غثاء مثل غثاء السيل » ، فقيل له : فلو أراد الواحد منهم أن يحصل له ذوق في الطاعة لم يمكنه ذلك ، فقال : « عليهم حُجُب حائلة ، إنما يَحُكُّ أحدهم جبهته في الأرض حكًّا ، فسَلْهُم هل يجدون في الطاعة ما

---

(١) أي قولهم : البخيت من كفي بغيره . اهـ « م » .

يجدون في الأكل والشرب عند الجوع والعطش ، لا ، ولكن يوم يُخَبِّر أحدهم التمر أو يقطعه فانظر الحلاوة » .

وذكر رضي الله عنه ذات يوم كتاب «نشر المحاسن» لليافعي ، *فقال* : « أصله جواب على أسئلةٍ من كرامات الأولياء ، وهذا أمرٌ لا يحسُن السؤال عنه ولا الجواب عليه ، لأن أصل الولاية سر ، فلا يجوز إفشاؤه وإذاعته . وما الغرض الداعي لذلك؟ » .

وقال رضي الله عنه : « النفس مَطِيَّة ، فيها الخير والشر ، كالنخلة فيها الرُّطَب والشوك ، والشيطان غدار مخادع ، ولهذا إذا جاءك من وَجْهٍ فخالفتَه جاءك من وَجْهٍ آخر ، وعلى هذا حتى يُخْرِج الإنسان من الباب الكبير ، وهو التوحيد ، ودسائس النفوس كثيرة ، فإذا وَجَدْتَ واحدة فابحث ، تجد أختها كالحية، والشيطان قد يَقْبَل منك ويروح لغيرك ، وأما النفس فمكانها معك لا تفارقك ، قال الشاعر :

تَـوَقَّ نَفْسَـكَ لَا تَأْمَـنْ غَوَائِلَهَـا فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِيْنَ شَيْطَانَا

والبكاء نورٌ للقلب ، قال عليه السلام : لو بكى باكٍ في أمة لرحمهم الله ، لكن من خوف الخالق، وأما البكاء للتصنع للخلق ولو لم يُرِد منهم شيئاً من جاهٍ أو مال ، لكن ليُرى أنه خاشع ، أو استحياء منهم ، بأن يظنوه يبكي وقد رأوه بكى مرة فتباكى للحياء ، والبكاء من الخشوع إنما هو قد يَعرُض ، فإن كثر وتعدد صار عادة ، وينبغي كتمان البكاء في القلب ، ومنع الدموع أن تخرج ، فإن ذلك يزيد في تنوير القلب ويؤثِّر فيه أكثر مما لو ظَهَرَتْ ، لأن في ظهورها تنفيساً ، ففي الخبر أو الأثر : إن لله عباداً يضحكون من سعة رحمة الله جهراً، ويبكون من خشية الله سراً » .

وقال رضي الله عنه : « الناس في مقام الشكر ، وهم يحسبون أنهم في مقام الصبر ، لأنهم ليسوا في بلاء، وإن كان بهم شيء من ذلك فما هم فيه من النعم يغلب عليه ، لأنك إذا تفكرت فيما أنت فيه من نعمة الإسلام والتوحيد ، رأيت أنك في أتم ما يكون ، لأنه لا عيش مع كفر ، إلا إن الإنسان خلق ضعيفاً ، وقد رأى بعضهم في النوم قائلاً يقول له : أتحب أن تكون أعمى ولك كذا وكذا ؟ قال : لا ، قال : أتحب أن تُقطَع يدك ولك كذا وكذا ؟ قال : لا » .

وقال رضي الله عنه لرجل مستخلف منه يريد الشحر: « المراد مرور الحال ، إذا مَرَّ وأنت دائم على طاعتك ، غير مضيِّع لديانتك . والشحر بلد مبارك ، كان السادة يتعودونها ، وحَوَّط الشيخ عمر فيها أماكن كثيرة ، ومات الشيخ عبدالله في طريقها ، وقال الشيخ عبدالله : إذا جئت من الشحر ، ولا معك شيء فاحمل شيئاً من ترابها فإنها مباركة ، فعمل بذلك بعض الناس للتبرك بكلام الشيخ ، فحمل من ترابها ، فلما جاء إلى تريم ، لحق فيه أحمر » .

قال : « وكانوا يسألون عن حال الإنسان للمواصلة والمراحمة » .

وذكر رضي الله عنه التفكر ، فقال : « إن أهل الزمان ما تَخَلَّوا للتفكر ، بل تناتفهم الخواطر من شيء إلى شيء آخر ، ولو أراد يصلي ركعتين مثلاً نَتَفَهُ الشيطان إلى غير ذلك ، وهذا من الغرور بواسطة الشيطان ، فلو أنه أحسن ما هو فيه لكان أحسن له من أن يتركه أو يستعجل فيه ليفعل غيره ، ثم قد يفوت عليه هذا وهذا ، وأما أولئك فقد أعطاهم الله قلوباً قوية ، وأجساماً قوية ، وأحوالاً قوية ، نفعنا الله ببركاتهم ، وكان داؤد الطائي ما بينه وبين الميت إلا إنه حي ، وإذا سمع الإنسان بسِيَر الأولياء اليوم يقول : ما هذه إلا أضغاث أحلام ، فأين هي اليوم ، وإنما المتعنتون هم الذين يطلبون معرفة أيهم أفضل، ويبقين : إن الأنبياء والأولياء بعضهم أفضل ولكن من الذي يعرف ذلك ؟ وإذا وُزِنَ بعضُ الفضائل ببعض ، عُرِفَ الأفضل ، ولكن في ذلك فضول ولا حاجة ، وإن دعت حاجة إلى ذلك ينظر بقدرها ، كما قد دعت العلماء الحاجة في أمور العقائد بسبب المعتزلة إلى تأويلٍ وتفصيل ، فلولا ذلك لكان بعد ما يحرز معتقده ودينه ، ما عليه إلا العمل ، ولا يوسوس ، إلا إن كان حصلت وسوسة في العمل ، كما تكون في الصلاة . وخُذْ من هنا معنى حديث قول الله تعالى لآدم عليه السلام : أَخْرِج بعث النار .. إلخ» .

وذكر رضي الله عنه الساعة ، فقال : « أمر الله عظيم ، وما هي إلا بغتات ، ما تأتي والإنسان مستعد لها ، إنما هي بغتة لا يُعلم بها ، كما يجيء المطر بغتة ، وينخسف القمر بغتة من غير علم للناس بذلك » .

وقال رضي الله عنه لبعض السادة : « أَكْثِر من الدعاء بهذه الكلمات : اللهم ارزقني طيباً ، واستعملني صالحاً ، وتوفني مسلماً ، وألحقني بالصالحين » .

وقال رضي الله عنه : « ينبغي للإنسان أن يفتش عن نفسه ولا يُخدع بغرورها ، فكم من يُبَرِّي نفسه من شيء وهو ملابس له أو نحو ذلك » .

وقال رضي الله عنه : « ذُكر أن بعض عمال سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، قال له : إني رأيت الشمس والقمر اختصما ، مع كل واحد منهما جيشٌ وعسكر يحارب الآخر ، وإني قاتلتُ مع القمر ، فعزله عن عمله ، وقال له : قاتلتَ مع الآية الممحُوَّة ، فاتفق أنه قاتل مع معاوية ، وكان في عسكره على سيدنا علي كرم الله وجهه ، ويعني بالآية الممحُوَّة : القمر ، لقوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ » .

وقال رضي الله عنه : « كل ما جاء في حق الفقير من المدح فالمراد به الفقير من الدنيا ، الغني من عمل

الآخرة ، لا الفقير منهما جميعاً ، فإن ذلك شيطان » .

وقال رضي الله عنه : « من أنفق عمره في غير طاعةٍ أو وسيلةٍ إلى الطاعة ؛ فقد أنفق أعزَّ الأشياء في أخسِّ الأشياء » .

ودخل رضي الله عنه الضيقة يوم الجمعة تاسع ربيع أول سنة ١١٢٩ ، فرأى صبياً يتيماً فقيراً ، وكان تلك السنة في البلد قحط شديد ، والجهة مُسنِتَة جداً ، فقال له : « غَدّوك ؟ » ، قال : « نعم ، لكنه قليل» ، فقال : « اقنع اليوم بالقليل ، والشيء عند ربك » ، ثم قال : « اليوم من معه شيء يقسمه بينه وبين مسكين ، ومن ما معه شيء وحصل له قليل يقنع به ، وأما أن يتسخط الإنسان القليل إذا أُعْطِيَه نُزِعَت منه البركة ، ومع القلة والضيق لا ينبغي أن يحاذر الإنسان ، بل يفعل كل شيء بقدر ، ومن خبأ التمر لا لأجل صدقته ، ولا لأجل مؤنته ، فهو محتكر ملعون ، وفي الحديث : إنه يحشر مع قتلة النفوس» .

وقال رضي الله عنه لبعض بني بعضِ بنيه ، بعدما سأله عن أحوال بيتهم : « قل لأمك قال حبيبي: استقنعوا ، ما عاد في الأوقات الضيقة إلا البركة ، وهو سبحانه ما يسيب خلقه ، ولكن اعرف حقه ، واعمل ما أمرك به» ، ثم ذكر قصة رؤيا الذي رأى الدنانير ، وسأل هل فيها بركة ، ثم قال : « الأمور خَرَجَتْ عن أوضاعها ، وقد كان الأولون : إن الاثنين ، إذا وقع بينهما نزاع ، ذهبوا إلى رجل من أهل الدين والصلاح يصلح بينهم » .

وقال رضي الله عنه : « لا يستقيم أمر كما ينبغي إلا مع العقل والتدبير ، ومن لم يكن كذلك فليستعن بمن هذه صفته » .

وقال رضي الله عنه : « الكِبْرُ ونحوه كالذري تطرحه وهو حبة ، ولم تشعر به إلا وإذا به نخلة أو شجرة كبيرة ، فَلْيُبَادِر إلى قطعه ما زال صغيراً ، لئلا يكبر عليه فيعسر قطعه حينئذ » .

وقال رضي الله عنه : « كلما قلَّ عقل الإنسان كثر تكبُّره ، ولهذا ترى أكثر الصغار والنساء يتكبرون» .

وقال رضي الله عنه : « إنما فائدة بلوغ الإنسان حد التكليف ، الترقي ، فإن لم يترقَّ فموته قبل ذلك أحسن ، لأنه لم يبلغ الحِنْث ، ويكون حينئذ على الفطرة » .

وقال رضي الله عنه : « اسمعوا منا كلمتين ، الأولى : من حج ليحج للناس ، فحجته معلولة - أو قال: مدخولة - ويكون حجة إسلامه وحجج الناس في ذمته ، والثانية : إذا أراد الإنسان أن يعرف نفسه ، فليعرضها على كتاب الله ، فإنه خليفةُ رسول الله ﷺ في أمته وأهلُ بيته ، قال ﷺ : تركت

فيكم كتابَ الله ، وعترتي . فإن لم يعرف نفسه من كتاب الله ، فليسأل الأئمة من أهل البيت ، فإنهم نُوَّاب جدِّهم وورثته ، يفسرون للناس ما أشكل عليهم من معاني الكتاب العزيز ، فإن لم يجد منهم أحداً فليسأل عنهم ويبذل جهده في طلبهم ، فإن لم يجد فليسأل نُوَّابهم من الأئمة من غيرهم وهم العلماء العاملون » . فقال له بعض الناس في بعض الأيام : « أخبِرْني » ، قال : « ألم تكن عاملاً بالقرآن؟ » ، قال: « الله أعلم » ، قال : « ألم تؤمن إنه من عند الله ، وإنه معجزة لا يُقْدَر أن يُؤتى بمثله، وإنه منزل من عند الله؟ » ، فقال : « آمنت بجميع ذلك ، وأشهدكم على ذلك » ، قال : « كان » .

وقال رضي الله عنه : « المال مذمومٌ من أكثر الوجوه ، محمودٌ من بعضها » .

وقال رضي الله عنه : « حضرموت لم تصلح إلا لمن اجتمعت فيه خصلتان : الطلب والتزهد ، لأنه إذا كان كذلك ، لم يُبَلْ لو جلس على الجمر » .

وقال رضي الله عنه : « لم يحصل للعباد حسن المعاد إلا بالجد والاجتهاد ، إلا إن ذلك على حسب الزمان والحال بحيث يُعَدُّ الإنسان من مجتهدي الزمان ، لا من المبطِلِين المقصِّرين » .

وقال رضي الله عنه ما معناه : « ما عاد أهل الزمان لهم هَمٌّ ، إلا نظرهم إلى حالتهم الراهنة والأمر العاجل ، وغفلتهم عن مآلهم وأمرِ ما هم صائرون إليه ، ولو نظروا إليه لكفاهم » .

وقال رضي الله عنه بعدما أكثر من ذِكْر الزمان وأهله ووصفهم : « يشيب الرجل في ذا الزمان ولم تصدق له رؤيا مرة واحدة ، وقد كان الناس يرون في المنام ما يوجب لهم اليقظة والإنتباه من سِنَة الغفلة، ويحثهم على ملازمة الجد والتشمير » .

وقال رضي الله عنه : « لولا الحرص على طلب فضيلة الجماعة وطلب الاقتداء به ﷺ حيث لم يترك صلاة الجماعة ، لاخترتُ الصلاة مع الإنفراد ، لأن أهل هذا الزمان لم تزل قلوبهم في الوساوس حالة الصلاة ، فتُشغِلنا خواطرُهم وما يختلجُ في صدورهم » .

وقد سمعت مرة سيدنا يقول : « إن أكثر ما تُرْتَج القراءة على الإمام من سوء خواطر المأمومين ، وورد في ذلك حديث » .

أقول : قال لي مرة عمر باحميد : قلت للسيد أحمد الهندوان وقت انتظار بعض الصلوات : « يا سيدنا إني لا أتمكن من قراءة الفاتحة معكم » ، فقال : « نتريَّض لأجلك » ، فتقدم يصلي بالجماعة ، وصليت معه ركعة - أو قال : ركعتين - ولم يخطر لي خاطر ، وهو متريِّض أكثر مما يعتاد ، ثم ما أدري إلا خطر لي خاطر ، فطار من العجلة حتى ما أتممت الفاتحة إلا بعد ما فرغ من السجود الثاني .

وذكر سيدنا نفع الله به صلاته يوماً فقال ما معناه : « صلاتنا هي الصلاة المعتدلة ، لا تطويل فيها

ولا إخلال » ، وقال لي مرة بعد ما أقيمت صلاة الظهر : « اِجلس إحزر صلاتنا ، فحين ما أكبِّر اِبتدِئ في قراءة سورة يس ، قراءة متوسطة بلا عجلة ولا تأن » ، فحين ما كَبَّر شرعتُ فيها على ما وصف، فأتممتها قبل أن يسلِّم ، ثم قراءة الفاتحة وسورة الإخلاص ، فأتممتها مع سلامه ، ثم أمرني كذلك لصلاة العصر فأتممت سورة يس وقل هو الله أحد مع سلامه .

وقال رضي الله عنه : « إذا لم تراقب الله فراقب الناس ، لأنك بذلك تسلم من الإثم » .

أقول : معناه إذا لم تترك ما نُهيتَ عنه إمتثالاً لأمر الله أو خوفاً منه فتثاب على ذلك ، فاتركه حياءً من الناس ، تسلمْ من الإثم حيث لم يحصل لك ثواب ، فتحوز أقل الغنيمتين ، فالسلامة إحدى الغنيمتين .

وقال رضي الله عنه : « لم يَكْفِ فعل الأمر في الباطن ، ولم تسقط عنه المطالبة به في الظاهر ، وإن كان في الحقيقة سواء » .

أقول : لعل مراد سيدنا ما مثاله كما يقع لأحد من أهل الله ، إنهم يحجون وتتحقق رؤيتهم في الحج، وهم في أماكنهم ما فارقوها ، وإنما لم يحجوا غير ذلك في الحس ، لأن الشريعة لها حق مطلوب لله ، لا يكفي عنه غيره ، والحقيقة كذلك ، فلا بد منهما ، كصور الأعمال مع الإخلاص ، فلا يكفي أحدهما دون الآخر .

وقال رضي الله عنه : « الملَلُ من ذكر الله ، وكثرةُ النوم ، وكثرةُ الأكل ، وكثرةُ الكلام ، كل هذه الأشياء أمراض في القلب تنبغي معالجتها والتداوي منها » .

وقال رضي الله عنه : « المشغول في باطنه ، إذا اشتغل في ظاهره غفل عن الشغل الباطن ، وكذلك مشغول الظاهر إذا اشتغل في الباطن غفل عن شاغله الظاهر » .

وقال رضي الله عنه : « يقال : لا يخلو الطبيب من مرض في الغالب كما قيل :

يَمُـوتُ رَاعِـي الضَّـأنِ فِي ضَانِـهِ كَمَـوْتِ جَالِينُـوس فِي طِبِّـهِ

وقال رضي الله عنه : « إن الله يُذَكِّرُ عباده في الدنيا بذِكْرِ الوعد والوعيد ، فإذا كان يوم القيامة جمع الله جميع الخير كله في الجنة لأهلها ، وجمع الشر كله في النار لأهلها » .

وقال رضي الله عنه : « مَن كَرِهَ ما تُحمد عاقبته في المآل ، ولو كَرِهَتْهُ النفس في الحال ، فهو مريض القلب ، يحتاج أن يصحب أحداً من أطباء القلوب يداويه منه ، لأن كل ما يُقَرِّب إلى الله مرادٌ للقلب ، غير مراد للنفس ، والعكس مرادٌ لها لا لَهُ » .

وقال رضي الله عنه : « ومن دخل عليه شخص فوجده على طعام فاستحيا منه فهو متكبر » .

وقال رضي الله عنه في قول الشيخ سهل بن عبدالله التستري رحمه الله : « للعقل مائة اسم ، لكل اسم ألف اسم » ، فقال : « قد تحصل لهم غلبات ، ويقع مثل هذا الكلام فيها ، ولو سُئل عن ذلك بعد حين لأنكره وقال : ما قلتُ ذلك ، كما قال الشيخ عمر المحضار : سُمِّيَ الفؤاد بذلك لأن فيه ألف وادي » .

ولما مر في القراءة قول صاحب العوارف ، لما ذكر في أولها جملة من علوم القوم كالفَناء والبقاء، والمحو والصحو ، والخاطر ، ونحو ذلك إلى آخر ما ذكر ، فقال : « هذه هي العلوم التي يقول الشعراوي: نعلم مائة ألف علم ، وفلان يعرف كذا كذا من العلوم ، فهي من هذا القبيل » .

وقال رضي الله عنه في قول بعضهم في الرسالة : « الخُلُق : أن تكون من الناس قريباً، وفيما بينهم غريباً » ، قال : « غُربَتُه : أن لا يحب أن يكون له عندهم جاه ، وأن يكره إحسانهم وثناءهم عليه ، وقربُه منهم أن يعينهم على الخير ويحسن إليهم » .

وقال رضي الله عنه : « ليس مع الله ومع أوليائه غربة ، إنما الغربة مع النفس والهوى » ، ثم قال: « احفظوا هذه الكلمة » .

وقال رضي الله عنه : « العز : ما يحصل لأحد من الخلق من العز بسبب دينه مع الإخلاص ، وأما ما يكون لأبناء الدنيا من القيام لهم ، واحترام الناس لهم ، فليس هذا عزًّا ، بل ناموساً ينبغي لمن حصل له ذلك أن يستعيذ بالله منه ، لأن هذا عبد مبتلى بنفسه، غالِبَة عليه » .

وقال رضي الله عنه : « لا يظنن أحد ممن يطلب الرياسة أن تستقيم له ، إلا بسرٍّ أو عبادة ، وإن ظن الإنسان أنه يفعل » .

وقال رضي الله عنه : « الذي يجمع المال للمال أحمق ، وإذا لم يُعطِ الإنسانُ ربَّه من نفسه ، يأخذ الله منه ما بيده ، ومن فيه حياء وهمة لم يطق الضولة[1] ، بل لو أراد أحد يأخذ حقه تركه له » .

وقال رضي الله عنه : « مَن جالَسَ أهلَ السِّرِّ بالتجسس والتطلع حُرِم بركتهم ، ولا نرى نحن إلا ما كان على الكتاب والسنة ، ومن قال شيئاً بنفسٍ وهوىً فالله حسبه ، ومن أراد أن ينقل عنا فليفهمه أولاً،

---

(١) أي اللغو والجدال . اهـ « م » .

وإلا فلا نأذن في ذلك » .

وقال رضي الله عنه ما معناه : « اسمعوا منا كلاماً واحفظوه ، وانقلوه عنا ، إن جاء بعدنا أحد وقال لكم : إن فلاناً أطلعني على كذا - أي من المغيبات - أو فَعَل لي كذا - أي من الخوارق - أو قال لي : كذا - أي مما ينكره ظاهر الشرع - فكذِّبوه ، ولا تتوقفوا عن تكذيبه » أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : « الفقراء[1] كالماء ، تَرِدُهُ الدابة وهي ظمآنة ثم تعود تبول فيه » .

أقول : أي يأتيهم الزائر وهو في غاية التعطش إلى رؤيتهم ، ثم إذا طال مقامه معهم ، ربما يعود إلى الملل والسآمة ، وحينئذ عليه خطر من قلة الاحترام والتأدب وربما أدى إلى الإعتراض عليهم فيخسر في دينه ودنياه .

وسمعته رضي الله عنه يقول: « إن الناس لم يحبوا الصالحين لمجرد الصلاح فقط ، وإنما حبوهم لأنهم انخلعوا عن الدنيا بالكلية وتجردوا عنها وتركوها لهم ، فلم ينازعوهم فيها ولم يضايقوهم عندها، فلذلك أحبوهم ، لأن الإنسان مجبول على بغض كل من يطلب أمراً وهو طالبه ، وحب من يترك ما هو طالبه » ، وسمعته نفع الله به مراراً في أيام متعددة يردد هاتين الكلمتين : « يا من لا تخفى عليه خافية ، أسألك اللطف والعافية » .

وقال رضي الله عنه : « أخطر الأعضاء على الإنسان لسانه ، لِخفَّتِهِ ، وبقية الأعضاء قد تتعسر عليه المعصية به ، إمّا لخوف مخلوق أو خسارة ونحو ذلك ، بخلافه هو » .

وقال رضي الله عنه في قول أبي عمرو اسماعيل بن نجيد المذكور في « رسالة القشيري » : « من ضيع في وقت من أوقاته فريضة افترضها الله عليه ، حُرِم لذة تلك الفريضة ولو بعد حين » : « إن كلام الصالحين يؤخذ للإعتبار فقط ، ولا يكون هذا لكل الناس ، بل ربما يكون لبعضهم ، بل ربما اختُص به القائل ، لأنه جرَّب هذا من نفسه ، ولا يكون لغيره ، ولا يعم إلا إن كان كلام الله وكلام رسوله إذا ورد في العموم » .

وقال رضي الله عنه : « يعسر طلب مجرد الفضيلة لمجرد كونها فضيلة إلا على أهل الفضل » .

وقال رضي الله عنه : « إذا قوي الروح احتاج إلى مراعاة البدن وقُوَّتِه ، لأنه مطيته ، وإلا خيف عليه تغيُّر المزاج » .

---

(١) أي الراغبون إلى الله . اهـ « م » .

وقال رضي الله عنه : « إنما تم النعيم لأهل الجنة لِتَمَكُّن الأرواح منهم ، كما تمكّنت الأجسام في الدنيا، لأن النعيمَ والراحةَ مع تمكُّن الأرواح ، والتعبَ والشدةَ مع تمكُّن الأجسام ، ولهذا كانت الدنيا سجن المؤمن » .

وقال رضي الله عنه : « من فيه خيرية وكان ذا دين لم يزل يستفيد من خيِّرٍ وشريرٍ ، لأنه يرى فائدته فيأخذها ، ولا ينظر إلى من سمعه منه » .

وقال رضي الله عنه : « كنا نسمع من الأولين : إن شرب الماء البارد في الشتاء حيث يشتد البرد ، إنه يستحيل في الباطن دماً فاسداً ، وكان يُنهى عنه كثيراً » .

وقال رضي الله عنه : « الحجامة على ثلاث درجات : للضرورة ، فمتى دعته إلى ذلك ، وللحاجة ، فينبغي أن يترقب بها الأوقات المذكورة في الحديث ، وحقِّ البلوى فلا ينبغي للإنسان أن يَهريق دمه بلا فائدة، لأن الدم حياة البدن » .

وقال رضي الله عنه : « من يحب الناس ويحبونه فهو مفتون ، ومن أحبهم ولم يحبوه فهو مفتونان ، ومن لم يحبهم وهم يحبونه أو لا يحبونه فهو أسلم وأقرب إلى السلامة » .

وقال رضي الله عنه : « لا أحسن للإنسان من أن يلزم وَصْفَه من العبودية والفقر المحض ، ولا يخرج من ذلك أبداً » .

وقال رضي الله عنه : « كلٌّ فيه هوى ، وليس الشأن أن يذهب الهوى بالكلية ، وإنما الشأن أن يعمل على خلاف مايقتضيه مع وجوده ، والعمل على خلافه يضعفه ، وكلما ازداد من العمل على ذلك ازداد ضعفاً، حتى إنه ربما يتوهم عدمه ، وليس بمعدوم ، بل يكون ضعيفاً جدًّا » .

وقال رضي الله عنه : « مِن أعظم المناقب لسيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، أن أسلم أبواه وأدرك أبوه خلافته ، وحج إلى مكة واجتمع بأبيه ، ولكنه ما جلس إذ ذاك في مكة إلا نصف يوم ، ولما ذُكِرَ لأبيه إن ابنه صار خليفةً بعد رسول الله ﷺ قال : أَوَ رضي قريش به ، قالوا : نعم ، قال : سبحان من أعز ذليلاً ، وأذل عزيزاً ، قال ذلك لأنه كان من تَيْم بن مُرَّة ، وكانت قريش تعُدُّه من أقل بيوتهم » .

قال سيدنا في حديث : « الأئمة من قريش » : « أي الأئمة في الدين والعلم ، ومن كان منهم ضعيف الدين جاهلاً ، بأي وجه يستحق التقديم ، بل يتعين عليه يجتهد أن يصير عالماً تقياً ليصير أهلاً للتقدم ، وقد قال الشيخ علي بن أبي بكر لابنه الشيخ عبدالرحمن بن علي : تَفَخْسَس تَسْلَم ، لا تكن عقرباً تُقتَل ، وكُن ذَنَباً في الخير ولا تكن رأساً في الشر ، فإن الرأس أول ما يقطع » .

وقال رضي الله عنه : « الجنة ممالك ودرجات ، والنار مَبَارِك ومَعَارِك ودركات »

وقال : « أمور الدنيا تابعة لأمور الدين ، كالظل من الشاخص » .

وقال رضي الله عنه : « من لا يخاف من الله ؛ خَوِّفْه بغير الله ، لأن المراد الإنكفاف » .

وقال رضي الله عنه : « الأشياء لاتظهر عند أوائلها إلا لأرباب البصائر ، وإنما تظهر عند أواخرها » .

وقال رضي الله عنه : « كل ما ذُكِر عن الأكابر من الكلام الذي ظاهره التبجح، كقول الشيخ أبي الحسن الشاذلي : منذ أربعين سنة ما حُجِبْتُ عن الله ، وقول أبي العباس : لو حُجِبَتْ عني جنة عَدْن لحظة ما عَدَدْتُ نفسي من المؤمنين ، كل هذا مُؤَوَّلٌ وليس على ظاهره » .

وذَكَر رضي الله عنه بعض السادة فأثنى عليه ، وقال : « لابأس به هو رجل مذاكر ، ولا في جماعته مثله ، إلا إن الزمان منقوص ، إنْ ما انتقص من كِلَا طَرَفَيْه ، انتقص من طرف واحد ، وقد ذَكَرْنَا لرجل من السادة فقلنا له : لو اجتمع السادة على رجل يُقَدِّمونه ويرجع رأيهم إليه ، إن كُتِبَتْ ورقة أو حصلت مشاورة أو مقابلة في أمر ، فقال : إن كان أنتم فنعم ، فقلنا : لا ، نحن لايمكننا ، لأننا لا نحبه أولاً ، ولأني مدبّر[1] ، وسلوا عني أهل بيتي ، ودعونا نحن للعلم والدعاء ، إن طلب أحد يقرأ علينا في علم نُحسِنه ، ونقرر عليه على مقتضى حاله وحالنا ، وأنتم أعرف بأمركم ، والتوسط بين الناس أمر عسر، أشد من الحكام ، لأن هذا يحتاج إلى إقامة الشرع والعادة ، وذَكَرْنَا له ذلك الرجل ، فقال : لا نريده ، وهو فيه كفاية ، إلا إن الزمان محسود » .

وذَكَر رضي الله عنه التجرد ، فقال : « ما هو بِعَسِر ، لو أراد كل أحد أن يتجرد سَهُل عليه ، وإنما يعسر على أهل العلائق ، ومنهم مَن عوائقه في نفسه ، ومنهم من عوائقه في غيره ، وإلا فالإكتساب موجود لكل أحد ، لكن هذا فيمن قنع بالقوام ، إما بقوت أو بقوة ، وصاحب « التنوير »[2] نَبَّه كما ذكره المتقدمون ، ولكن المغرور يظنه إنما يحسن أن يكون هكذا ويترك العمل ويَتَّكِل » .

وذَكَر رضي الله عنه ذات يوم ماوقع على الجهة في أموالهم وأحوالهم ، فقال : « ما عاد إلا يدعو الإنسان : اللهم لا تُسَلِّط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يرحمنا ، وقاعدة : الظالم مخذول ، وهؤلاء مَثَلُهم مثل سيل عِدِم ، إذا جاء يقول الناس : المتطرف يميل لا يشلُّه ، ولكن السيل يخفش ، وما فات يخلف الله ، ومظلوم ولا ظالم ، ولا عاد نَفَع فيهم الدعاء ، مع أن المظلوم دعاؤه لابد ما يُسمع ولو بعد مدة ،

---

(١) أي مُبِين . اهـ « م » .

(٢) يعني ابن عطاء الله السكندري صاحب كتاب : (التنوير في إسقاط التدبير) .

ولكن المظلوم إذا كان ظالماً لا يُسمع دعاؤه وقيل :

المـرْءُ يَغْلَـطُ في تَـصَرُّفِ حَالِـهِ ... وَلَرُبَّـما اخْتَـارَ العَنَـاءَ عَـلَى الدَّعَـة

هَـلْ لا يُحَـاوِلُ حِيْلَـةً يَرْجُـو بِهَـا ... دَفْـعَ المـضَرَّةِ وَاجْتِـلَابَ المنفَعَـة

وهذه أشياء بذنوب ، منها شيء نسيه الإنسان ، وشيء ما استغفر منه ، وشيء فعله وهو يستلذه ، فلا عاد تحرك أحداً فيتجرأ ، كقصة ذاك الذي جَرَّ أباه من فوق السطح إلى الضيقة ، فدخل عليه غريم له وطالَبه ، وقال له : جَرَّيت أباك إلى هنا ، فأنا أَجُرُّك إلى خارج وجَرَّه ، وهذه أمور خَوَّفْ فيها بالله وبالرسول وبالسادة ، ولا عاد معهم تقوى ولا عقول ولا صيانة ، فإذا ذَكَّرت عيالك ، فهكذا عَلِّمهم ولا تُجَرِّيهم ، وتقول كان فلان فيه أمانة ، وصفته كذا وكذا » .

وقال له رضي الله عنه رجل: « ادعُ لي ، خاطركم بالطاعة والعبادة » ، فقال له : « مكانك فيها لا تخرج منها ، فإنها ما عليها باب ، وما دعاك إليها ، ويريد أن يمنعك منها ، لكن ما المانع لك منها إلا ربك» .

وقال رضي الله عنه : « إذا أتاك الأمر المستقيم في نفسه فخذ به ، وإن لم يصح عمن نُقِلَ عنه ، لأنه صحيحٌ في نفسه ، وإن أتاك الأمر الفاسد فلا تأخذ به ، وإن صح عنه ، لأنه فاسد ، ولعله إنما فسد في طريق وصوله إليك » .

وقال رضي الله عنه ضحوة يوم الثلاثاء ٢٩ رجب سنة ١١٢٢ في الغيلة بمحضر جماعة أتوه زائرين : « مَن طلب الفضل لنفسه وحاول أن لا يكون لأحد غيره ، فما له فضل ، فإن موارد فضل الله معه تَسَعُه وتسع غيره ، فَلِمَ يَضِيق من تَعَدِّيها إلى غيره ، فَلْيَشْرَبْهُ كله إن قدر على ذلك » .

وقال رضي الله عنه : « إذا أفرط إنسان في محبة أمر أو بغضه ، انعكس إلى ضده ، لأنه لا ضابط حينئذ فينعكس الأمر » .

وذكر رضي الله عنه البحر ، فقال : « إن الله قال : ﴿ سَخَّرَ لَكُمُ ٱلْبَحْرَ ﴾ في غير موضع ، ولم يقل : وسخر لكم الأرض في موضع ، والتسخير إنما يكون فيما يَعْظُم ويهول ، وقد قيل : البَرُّ بكُم أَبَرُّ . وحُسْنُ حالِ البحرِ نادرٌ ، والأغلب فيه الإضطراب ، ثم إن اضطرب أَشْغَل ، أو السكون الكلي ويُشغِل أيضاً ، وحكى بعض الصالحين من أهل المغرب أنه أراد الحج ، فتحيَّر هل يسافر برًّا أو بحراً ، فعزم على أن يشاور أول من يلقاه ، فاتفق أنَّ أول من لَقِيَه يهودي على بغلة ، فتوقف أولاً عن مشاورته ، ثم استشاره فقال له : ما رأينا فيما سمعنا من كتابكم أن الله ذكر البر والبحر في موضع إلا بدأ بالبر قبل البحر ، فَبِرْ

فيه خير لك ، فسار في البر وهو أسْلَمَ » .

وقيل لسيدنا : « ما يحصل من البحر هذا الوقت قليل » ، **فقال** : « سبحان الله ، هذا لأمر ، وإلا فسكان البحر لا تقصير منه ، وإنما ذاك من سكان البر ، إلا إن كان لما كان ذلك نصيباً لأهل البر ، ومن رحمته سبحانه وتعالى ولطفه أن قال تعالى : ﴿ ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِى ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِى عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾ ﴾ ، ولم يقل لعلهم يهلكون أو يذهبون ، إنما ذلك استجرارٌ منه لعباده إلى طاعته » .

وقال رضي الله عنه : « أحسن ما في هذا الزمان قطع العلائق ، لأن الزمان مظلم ، وخَرَجَت فيه ظلمات الساعة » .

وقال رضي الله عنه : « من بنى أمره على الفتوح[1] ، فهو كالبحر ، ما له في السارحة بارحة » .

وقال رضي الله عنه : « الحب والبغض موروث ، وإن لم يعلم الوارث » .

وذَكَر رضي الله عنه قرية قَسَم ذات يوم ، **فقال** : « سُمِّيَت بذلك لأنها مُقْتَسَمة بين السادة ، وهي حوطة ، وإنما تكون الحوطة حوطة بالنسبة لعقيدة المعتقِد ، لا المعتقَد ، لأنه لا يعتقد في نفسه ولو كان ولياً ، لأنه محجوبٌ بنفسه عن قلبه ، فإن النفس حجاب القلب ، فإذا قوي القلب انخرق منه بابٌ إلى النفس - وبعد هذا بياض لعله سقط كلام متعلق به - وهذا لا يَعرِف معناه إلا هو ، ومن هو من أهل مقام الولاية » .

وقال رضي الله عنه : « ذَكَر بعضهم : ينبغي أن يفرح الإنسان بحصول الشدة ، لأن الرخاء يَعْقُبها ، ويكرهَ الرخاءَ لأن الشدة تَعْقُبه » .

وقدَّم إليه نفع الله به بعضُ أخدامه حذاءه ليلبسها ، **فقال** له : « افتحها لتزول بذلك كراهة لبس الحذاء قائماً ، لأن السبب فيه خوف السقوط ، فتزول بزواله » .

وتناول ابنه السيد علوي رحمه الله الورقة التي كنت أنقل فيها كلام أبيه سيدنا نفع الله به ، فكتب فيها كلاماً سمعه منه ، فنقلته هنا من خطه وهو : قال سيدنا : « كان بَلَغَنا أن السلف لما اختلف عليهم ولاة الأمر ، وكثر بينهم القتال ، ساروا إلى عند نبي الله هود عليه السلام ، واستغاثوا بأن الله يختار للجهة ويجمعها ويسلمها لرجل واحد ، فأجيبوا . وقد رأينا هذا اليوم إجتماعاً في ذلك المحل ، وفيه

---

(١) أي التوكل على الله . اهـ « م » .

ناس من السادة من الأحياء والأموات ، وهناك من ينشد بشيءٍ من كلامنا ، ورجونا أن يكون ذلك فرجاً للجهة وأهلها مما حل بهم ، والله أعلم » .

أقول : وكان ما رأى ضحى يوم الأربعاء حادي عشر ربيع الثاني سنة ١١٢٣ ، ومن الأموات السيد حسين بلفقيه ، والسيد حامد بن علوي ، وغيرهما ، وهي إما رؤية منام أو تورية عن الكشف ، لكونه أطلق الرؤيا .

وحضر عنده رضي الله عنه جماعة ، فبقوا سكوتاً لا يتكلمون ، *فقال* : « السكوت مع الإجتماع ما له معنى ، ولو كانوا يسبحون ، فلأي شيء الإجتماع ، فَلْيُسَبِّحْ كُلُّ إنسان وحده ، ولا نرى مع الجمعية أحسن من قراءة كتاب لِيَسْلَم الإنسان ، خصوصاً في هذا الزمان ، حيث لا يخلو كلامهم من كَذِبٍ أو غيبة ، وهذه عادتنا من قديم . كما قيل :

أَعَـزُّ عَزِيـزٍ في الدُّنـا سَرجُ سـابِحٍ   وَخَـيرُ جَلِيْـسٍ في الزَّمَـانِ كِتَـابُ

وقال رضي الله عنه : « طريقة آل باعلوي ، مَن تَأَمّلَها عَرَفَ أنها هي الطريقة الوسطى المعتدلة التي لا تُنكَر ، من رأى تواضعهم وزهدهم وفقرهم وخمولهم وسلامة صدورهم ، ومن صحب أحداً لا بد أن يقتدي به ولو في بعض الشيء ، على حسب الحال والزمان ، وإلا خرج إلى الخلاء » .

ومرَّ في القراءة حديث : « إن الله يَبْغَض : السَّخِيَّ عند موته ، البَخِيلَ في حياته » ، فقيل : « أليس هو أحسن ممن لم يفعل أبداً » ، *فقال* : « وورد : إنك إن تترك ورثتك أغنياء ، خير من أن تتركهم عالة يتكففون الناس . وايش هذا الكرم الذي جاءه عند الموت ، بعد أن لم يفعل محتسباً لله تعالى في حال صحته ، بل لا يجوز له إن قصد أن يُحرِم ورثته » .

وذَكَر رضي الله عنه أهل الزمان وإدبارهم ، *فقال* : « لو عاد حذفوهم بالحجارة مانفع ، لأن الشارد شارد ، ما عادها إلا حثالة ، وقد عرَّف الشعراوي أهل زمانه ببعض صفاتهم ، وهم اليوم إلا خضخاض كحثالة الإناء » .

وذُكِر له رضي الله عنه جماعةٌ فاتهم الحج ، *فقال* : « لا بد لله تعالى في ذلك خيرة ، ولكن خيرة الله تعالى لا تظهر سمح ، ما تظهر إلا ما فيها بعد » .

وقيل له نفع الله به : « عجيب من اختلاف طبقات الناس ونياتهم ، حتى إن الواحد يحب وجود الشيء ، وآخر يؤثر خلاف ذلك » ، *فقال* : « دَعْهُم لربهم حتى يخرجوا من الطاعة ، وإلا فَدَعْهُ لهم ، فله

فيهم مراد » .

وجلس ضحوَة يومٍ رضي الله عنه وهو مُحْتَرٌّ ، وكان الوقت في شدة الحر ، ثامن نجم البلدة ١٨ جماد آخر سنة ١١٢٤ فجعلت أروّح عليه ، وذلك يوم الجمعة في داره التي بالبلاد ، **فقال : « سبحان الله ، لو أن أحداً رَوَّحَ عليك في الشتاء ، أشغَلَك ، فعَجَبٌ للإنسان كيف يَفِر من خلاف حظه إلى حظه، ولو فعل أحدٌ معه خلاف حظه ، صار عدواً له ، ويختلف ذلك باختلاف الأوقات واختلاف الناس ، الفاعل والمفعول به ، فلو ضربك بيده أحدٌ من أداني الناس ، ربما حنقت ، ولو فعل ذلك بك أحدٌ من أحاسن الناس ، ربما لم تحنق ، فقد يجلس الشريف والضعيف والحائك في محل ، فإذا كان بيد الشريف مروحة لا يتركونها في يده بل ينازعونه إياها ، فلا أدب لهم ولا حرمة ، ولا فيهم لبيب ، ونحن قد طُلِبَ منا أن يُرَوَّحَ علينا في أماكن أحسن من هذه ، فامتنعنا ، إراحة للناس وسلامةً من التشبه بأهل الرفاهية، والناس غير يُرَوِّحون على المحتشمين وإذا بطلت الرياسة بطلت السياسة » .**

وكان رضي الله عنه ذات يوم في فسحة ، في غرفة آل فقيه في الصالح ، وذلك يوم الأربعاء ١٧ ربيع الأول عام ١١٢٨ ، فجاء رجلٌ من أهل شبام ، من غير أن يعلم بذلك ، فقال سيدنا له يمازحه : **« من أعلمك بأنا هنا ؟ أَجِنّي ؟ »** ، قال : « عَلِمْت » ، **فقال : « إن أهل الطاعة من الجن ينقادون لأهل الطاعة من الإنس ، وكذلك الشياطين من الجن ينقهرون لأهل الطاعة من الإنس ، وفيهم مماثلة ومشابهة منهم كثيراً ، حتى إن فيهم شيعة كما في الإنس . وعن ابن عباس: إن فيهم ابن عباس مثلي ، ولهم مع الإنس وقائع ، حتى إنه ذُكِرَ أن رجلاً من أهل شبام ، كان له قَرِينٌ من الجن يقرأ معه القرآن ، ولهم وقائع كثيرة، حتى إن رجلاً رأى جِنّيًا ، فقال الجني : أنا شريف ، فقال له الآخر : أَوَ فيكم أشراف ؟ ، قال : نعم ، وفينا مشايخ مثلكم » .**

وقال رضي الله عنه : « الطرق كثيرة والمقصد واحد .

عِبَارَاتُنَا شَتَّى وَحُسْنُكَ وَاحِدٌ ... وَكُلٌّ إلى ذَاكَ الجَمَالِ يُشِيرُ

وذلك كالصلاة وغيرها ، إذا كنت تريد الله فاعبر على النار إلى الجنة ، وترى الله سبحانه فيها ، ولكن إفهم المقاصد ، وصحح النية . وفساد الطرائق والمقاصد عسر » .

وقال رضي الله عنه : « إذا لم يكن للنَّفْسِ نظر بينها وبين صاحبها تغيَّرتْ ، وقد حمل عمر بن الخطاب

قربة ماء وهو خليفة ، وكل شيء يُعْرَف بقدَر ، ولا أحد أعرف منه من نفسه ، وإذا رأيت إنساناً لا تُنكِر، فرُبَّ شيء غير مذموم فلا تنهه إلا إذا عَلِمْتَه عن كِبرٍ ونحوه ، ولو مَرِضَ اجتَهَدَ في إزالته ، واهتمامه بأمر قلبه أهم عليه من أمر جسمه » .

ودخل عليه رضي الله عنه بعض السادة في آخر يوم من نجم الغَفْر ، فقال : « في الوقت برد ، على خلاف العادة ، ولا بد لله في ذلك حكمة ، أقل ما يكون في ذلك العبرة ، لأن الإنسان إذا رأى ما يخالف عادته يتعجب فيعتبر ، فيشل رأسه - أظن قال : يحركه - بخلاف ما يعتاده » .

وذكر رضي الله عنه جماعة من السادة فيهم صفاء ، ثم قال : « ذاك كان زمنٍ صفا بلا كدر ، واليوم اختلط منه الصفا والكدر ، أما سمعت قول القائل : يا الله ، بجنونٍ واضحٍ وإلّا عقل ناصح » .

وقال رضي الله عنه ليلة النصف من شعبان ، وذَكَرَ زيارة النبي هود على نبينا وعليه أفضل الصلاة والسلام : « أرى مَنْصِبَيْنِ في حضرموت ، إما يُدَمَّران بالكلية ، أو ينقلب خيرهما شراً ، أرى ذلك واقعاً وظاهراً فيهما ، لأنا نرى أهلهما يسعون في خرابهما » .

وقال : « قواعد الزيارة من جانب الشيخ أبي بكر قد تغيرت عن قواعدها المعتادة ، وأصل الدعاء فيهم إلا من الشيخ شهاب الدين ، هو ترك الشيخ أبابكر يدعو ، فَبَقِيَت عادة لهم » .

وقال له رضي الله عنه رجل : « إن الناس يروحون لزيارة النبي هود عليه السلام يخبُّون ، لأجل أن يدركوا العيد هنا » ، فقال سيدنا له : « اسْكُتْ ، لا تطرح الملح على الجرح » ، وقد تقدم قوله : « مَنْ رَوَّح ما له زيارة ، لأنه خالف ترتيب السادة وما درجوا عليه ، فكأنه مراغمٌ لهم ، وما جعل الشيخ أبوبكر بن سالم الحضرة إلا ليجتمع الناس ساعة ، ويذكرون الله ويدعونه ، ويقرأون مولداً لحصول البركة بالإجتماع ، ومن سرح بعدما حضر الحضرة له نصف زيارة ، ومن نفر فله زيارة تامة ، فرب شيء من الأمور الإلهية ، مُرَتَّبٌ على ما رتبه السادة » .

وقال رضي الله عنه : « هذه جهة ضعيفة ، ما تستقيم فيها إلا إن أردت أن تحمل كل ما ترى فيها على الضعف وإلا - أظن قال : - الرعاع لا يستقيمون على حال » ، قال : « لأنهم أشرار ، ولا فيهم صيانة» ، ثم استمر به الكلام ، ثم قال : « كما قيل : يافصيح لا تصيح ، فسمعه واحد، فقال : بل صح لعل أحد ينقذك » .

وقال رضي الله عنه : « كانت الأشياء هنا - يعني في الجهة - من عوائدهم مع القل ، والأمور كلها

كل أحد على قدر حاله من حيث الجِدَة والقِلَّة ، وكان لا عذر من دقَّتين من الطِّيب في السنة ، أحدهما من الأبيض والأخرى من الأحمر ، وأين الناس اليوم ، مات الدين والدنيا عندهم ، ومن مَرَّت عليه الأيام مثلنا ومثل السيد علي بن عبدالله - أي العيدروس - قده إلا غريب في كل الأشياء من العوائد وغيرها ، حتى إنا إذا أذكرناهم بأمر من أمور الدين ، قالوا : أينك فَين ؟ ، فنقول لهم : أنتم أينكم فَين؟، وكان من عوائد الأولين : أنه إذا تزوجت المرأة ولا لها ظعون ، بَقِيَت عند أهلها سنة كاملة ، ما يطالَب الزوج لأجلها بشيء من أمر المعيشة أبداً ، لا في قليل ولا في كثير ، وهذا المدة كلها ما فيها خوض - أي مطالبة- وكانوا على أساليب جَرَوْا عليها ، وحملوها عن غيرهم ، وهم فيها على مراتبهم ، كل أحد يعرف طبقته ومَن هم جنسه ، من الأشراف وغيرهم » .

وقال رضي الله عنه لرجل ثقيل على خواطر الناس ، وهو مع ذلك يلومهم في عدم إقبالهم عليه : « الذي ترجوه من الناس قَدِّر إنك ترجوه من الله ، ومَن تَمَيَّزَ بالدِّين لا يعلِّق قلبه بالناس ، أو يقول للناس: عظِّموني واصطنعوا إليَّ . واظِبْ على قراءة القرآن والطاعة ، لكن مع الإخلاص ، ولا عليك من الناس ، إذا رأوه متمسكاً بالدين عَظَّموه ، وعاده إلا يَرُد الزائد ، والرزق مقسوم ، لو بغيت تردّه ما ارتدَّ إلا بالذنب ، قال النبي ﷺ : إن العبد قد يصيب الذنب يمنعه الرزق . واسأل ربك البركة ، فإن القليل مع البركة كثير ، والكثير مع عدمها قليل ، كقصة صاحب الدينار ، وإذا حصل للإنسان رزق، فصَرَفَه في الشهوات ، إيش الفائدة ، هل شيء غير الحساب؟ » .

ومَرَّ في القراءة في تفسير البغوي ، عند قوله تعالى : ﴿وَلَا تَأْكُلُوا۟ مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ ٱسْمُ ٱللَّهِ عَلَيْهِ﴾، *فقال* : « ينبغي أن يُرشَد العامي إلى التسمية عند الذبح ، لما في القرآن وللخلاف في ذلك ، لأن أحوالهم الغفلة ، إلا إن كان عنده معرفة بشيء قليل فلا يستعملونه ، وقد رَتَّب الله تعالى لكل أمر يتعاطاه الإنسان أذكاراً تخصه ، من نومٍ وانتباهٍ ودخولٍ وخروج ، حتى إلى حد إذا اشترى دابة أو جارية ونحو ذلك ، فمن فعل جميع ذلك كانَ متنبهاً ، وإلا فغافل بقدر ما أغفل ، وقد يتعود الإنسان الذِّكْر في شيء من هذه الأمور ، فيجري على لسانه من غير تَقَصُّد » ، أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : « ما شيء أدل على الزهد من السخاء ، والذين يحبون الدنيا ما يحبون الصالح إلا لسماحته لهم بالدنيا » .

وقال رضي الله عنه لرجل بعد ما ذكر أمر المعاش : « اقصد محبة الله ، وهذه الأمور تجيك عَرَض ، أيُعْوِز اللهَ أن يعطيك خرقةً وكِسرة ، لو كان هو مانعاً ذلك أحداً لمنعه الكفار ، فإذا أردت أن تعرف الله، فانظر إلى الكفار ، كيف يرزقهم وينعمهم ، تعرف إن الدنيا بأسرها هَمٌّ وشاغل ، ولا ترى أَرْوَح ممن

يأكل كسرة خبز على دكة ، أو في مكان مثل الطَّلَب[1] ، فإنهم أَرْوَحُ من غيرهم بكثير » .

وقال لي بعض الجماعة : إن الحبيب قال لي يوماً : « ما لَكَ ليس لك تدبير ولا معرفة بالأمور؟ »، فقلت : « يا سيدنا ، إن الله لم يجعل لي شيئاً من المعقول ، ولا أُحْسِن فيه تدبير الأشياء » ، فقال : « أما عَلِمْتَ أنهم قد ينزعون من الإنسان المعقول ، فيقرِّبوه بذلك إليهم ، ويعطونه معقولاً فيُبَعِّدُونه بذلك عنهم » .

وذَكَر رضي الله عنه « منهاج العابدين » فقال رجل : « لكنه عَسِر » ، فقال : « ما عليك ، إذا أُخِذَ على المقدور أحسن من لا شيء ، كما قيل لسفيان الثوري : قد سَبَقَنا أناسٌ إلى الله تعالى ، وتَبِعْنَاهُم على حُمُرٍ عُرُج ، فقال له : أَوَ نحن على الطريق على أثرهم ؟ فإذا كنا كذلك فلا بأس ، فنحن وإن سبقونا نلحقهم ، وإنما الخوف أن لا نكون على الطريق ، فنميل إلى الهاوية » .

ثم قال : « وأين الناس اليوم ، راحت بهم الشهوات والغفلات ، وضاعت منهم قلوبهم فلم يجدوها، فمنهم من لم يلحق قلبه ، ومنهم من لحقه ولا انتفع به ، فترى تخطر على بال الإنسان إذا كان في الصلاة خواطر لا حاجة إليها ولا نفع ، ويخطر له منها من أن يصبح إلى أن يمسي ما لا يحصى » .

وقال رضي الله عنه : « في هذا الزمان إذا حصلت للإنسان الشهادة ، وواجهته الرحمة ، فسكون القبور خيرٌ له من سكون الدور ، وقد رأيتُ ليلةً في النوم الشيخ عمر العطاس يقول ذلك ، ويتمثَّل بقول بامخرمة :

قِدْ حِلال المقَابِر خِير وَاكْثَر فَوَائِد ... مِن مَقَامي كذا ما بين واشٍ وَحَاسِد

وذكر يوماً رضي الله عنه كلام بامخرمة وما فيه مما يشكل ، فقال : « يُترَك على ظاهره ، فلو كان من كلام الأئمة المحققين المقتدَى بهم أُوِّلَ له تأويلٌ يليق ، وأما كلامه فيُترَك على ظاهره ، فإنه يتعاطى أموراً لا تليق بالكُمَّل من الصالحين ، إلا إنه محفوظ بنور العلم ، وكلامه إنما هو وارد ، وكان من أهل العلم والصلاح ، إلا إنه مخرِّب في طريقة الصوفية ، والشاعر ما يؤاخَذ بقوله ، فإن كان عالماً لا بد أن يقصد أموراً محمودة » .

ومَرَّ في الدرس في القراءة في الأربعين الأصل ، وتمثيله للتوحيد ، وأن له أربع درجات ، وفي الرابعة وهي اللب ، إلى أن قال : « وذلك بأن يعرف سلسلة الأسباب ، وكيفية تسلسلها ، وارتباط أولها بمسبب الأسباب » ، فقال سيدنا عند ذلك : « وهذه الأشياء لا تحصل إلا بجود إلهي ، أو برياضة

---

(١) أي السُّؤال . اهـ « م » .

تامة ، حتى ينقطع تعلُّقُه بالخَلْق ، ولا يبقى له تعَلُّقٌ إلا بالله ، كهؤلاء المتجردين الذين يسيحون في الأرض » .

قال : « **وهذا في التوحيد الرابع ، وهو عَسِر جدًّا ، يُتَحدَّث به ولا يوجَد ، ولا يقع إلا خطرات ، ولو دام لاضْمَحَلَّ الإنسان ، ويحصل إما بالجذب أو بالرياضة ، وليست ترك الأكل بل العمل والإجتهاد ، وإنما يكفي الإنسان التوحيد الثالث أن يصحح العمل ، والتوحيد على طريق العامة ، ولو كان مع ذلك مكتسَباً فلا يضره** » .

وسألته رضي الله عنه عن معنى قوله ، في القصيدة العينية :

تِلْـكَ الأئِمَّـةُ وَالدُّعَـاةُ إلى الهُـدَى وَالحَـقِّ مِـنْ أَهْـلِ المقَـامِ الرَّابِـعِ

فقال : « **هو المقام الرابع من مقامات التوحيد التي ذكرها الإمام الغزالي رحمه الله ومَثَّل لها بأربعة أمثلة** » .

وقال له رضي الله عنه بعض أولاده يوماً في معرض المزاح : « إن فلاناً ما فيه أدب » ، *فقال* : « **أكابر العرب ليس فيهم أدب**[1] **، إنما الأدب معروف عند العجم ، مستنكر عند العرب ، والكرم معروف عند العرب ، مستنكر عند العجم** » .

وكان ذلك ضحى يوم الخميس لعله غرة رجب من سنة ١١٢٤ ، وسبب هذا الكلام ، أن المذكورين من الأولاد والرجل المذكور مع جماعة آخرين كانوا مع سيدنا في حضرته على الغداء ، لأن هذا اليوم - أي غرة رجب - يوم عيد عند أهل حضرموت ، فاتفق أن قام بعض الأولاد ، فقام فلان المذكور ، ثم إن سيدنا نفع الله به أخذ يفرِّق لقيمات على الحاضرين ، *فقال* : « **أين فلان** » ، فقال ابنه المذكور : « فلان ليس فيه أدب » ، أي لأنه قام قبل أن تقوموا ، فأجابه بما تقدم ذِكْرُه نفعنا الله به وجزاه عنا خيراً .

وضرب رضي الله عنه مثلاً لقُرَّاء التربة الذين يقرأون على القبور - أي بالأجرة - يذمهم، *فقال* : « **قراءة أحدهم مثل الحنذولة ، يوزوز** » ، وتقدم قوله : « **قُرَّاء القبور بين الآثم والسالم ، فلا هم يُعَدون قارئين ولا ساكتين ، فإنهم يتحملونها بإجارات وشروط ، والقاريء وحده أسلم عاقبة** » .

ومَدَح عنده رجلٌ رجلاً آخر ، *فقال رضي الله عنه* : « **حتى نسأله عنك ، فإن مَدَحك هو ، فإنَّ مَدْحَكَ له معلول غير صحيح ، فإن المدح في هذا الزمان مُسَالفة** » .

---

(١) أي الأدب الصوري من حيث العادات الظاهرة . اهـ « م » .

وقال رضي الله عنه : « **رأيت سابقاً كأني مِتُّ ، وأتيت إلى باب الجنة ، وإذا هو مغلق ، فقلت: إني قد مِتُّ على الإسلام فلا يضرني ذلك** » ، ومرة قال لي : « **رأيتُك في النوم ، وعليك خاتم فضة ، وفوقه قطعة زائدة، وذلك زيادة خير** » .

وقال رضي الله عنه لرجل من السادة في مجلس القراءة ضحوة يوم الاثنين في ١٤ ذي القعدة سنة ١١٢٤ : « **رأيتُ البارحة في النوم كأني وجماعة من الأحياء والأموات في الحرم الشريف تحت الكعبة، فقُسِّم عليهم سُكَّر نبات ، فلما استوفوا كلهم بَقِيَت بَقِيَّة ، فقلت : وهذا قِسْمي ، فإذا بك قد دَخَلْتَ، فقلت لك : تعال أقاسمك إياه ، فقسمته بيني وبينك أنصافاً** » ، وذكر من الأموات السيد أحمد الهندوان، ومن الأحياء السيد عبدالله بن مصطفى .

وتقدم له رضي الله عنه مرائي كثيرة رآها في حضرموت وفي الحرمين ، من جملتها ما رأيته مكتوباً بإملائه على الكاتب ما لفظه : « **الحمد الله ، رأى الشريف عبدالله بن علوي الحداد ليلة الثلاثاء ، خامس ذي القعدة سنة ١١٢٠ ، كأنه دخل عليه الشيخ حسين بافضل صاحب مكة ، وأخذه[1] في الحياة فقال: الحمد لله يوم عادك زرت تريم ، وكأنه يقول : أسألك بالله ورسوله أن تضمن لي بالجنة ، وإن أردت أني أخرج أجي لك بالشيخ ابن عربي خرجت ، وكأنه خرج ليجيء به** » ، انتهى.

وذكر رضي الله عنه رؤياه المشهورة في مسجد باعلوي ، وهي : أنه رأى الشيخ علي بن أبي بكر في المسجد ، وفيه جماعة من السادة أيضاً ، من جملتهم الشيخ عبدالله بن أبي بكر ، فقال الشيخ علي لأخيه الشيخ عبدالله المذكور : هناك رجل يريدك - يشير إلى الرائي - قال : فجاء إليَّ ، إلى آخر الرؤيا كما رآه عند قبره في الواقعة التي أشار إليها وقد سبق ذِكْرها .

وقال رضي الله عنه : « **لا يُقضَى بين أهل الأعراف إلا آخراً ، فعند ذلك إما يعطيه بعض إخوانه حسنة يتمم بها ما يتوقف عليها دخوله الجنة ، أو يتفضل الله عليه فيأمر بإدخاله** » .

وقال رضي الله عنه لرجل موسوس : « **نريد نعلِّمك تهليل زبيدة بنت جعفر ابن الخليفة المنصور ، لأنك رجل موسوس ، وكل ما جاءك من التهليل يسقي شجرتك فإن كانت ضعيفة قوَّاها ، وإن كانت قوية زادها قوة ، وكان لها مآثر وأعمال خير ، رؤيت في المنام ، فقيل لها ما فعل الله بكِ ، قالت : نفعني الله بهذا التهليل ، لا إله إلا الله أرضي بها ربي ، لا إله إلا الله أفني بها عمري ، لا إله إلا الله أدخل بها قبري، لا إله إلا الله أخلو بها وحدي ، أربع كلمات ، وبعض الناس يغلطون : يقولون زبيدة بنت مروان ، كيف**

---

(١) هكذا .

وهي زوجة هارون الرشيد ، ومروان عدوه ، وهي بنت عمه لَحٌ[1] » .

ثم قال لذلك الرجل : « إنا نرى عليك سيما المؤمنين ، فلا عاد توسوس وتسيء الظن بربك ، وسِرْ على الطريق ولا تتخلف ، فتنقطع وتهلك في المخاوف ، لأن مخاوف الطريق مِن خَلْفِها أكثر من مخاوفها في أثنائها ، ولهذا جاء : إن ناراً تمشي يوم القيامة خلف الناس تسوقهم إلى المحشر ، والشيطان حاسد يريد الناس كلهم يدخلون النار فلا تتبعه ، ونحن نطرح على النبي ﷺ ، وهو يطرح على ربه ، والأمر إلى الله ، فاعملوا ولا تغتروا » ، وكان هذا الرجل يَخْرُج عليه وقت الصلاة ويعجز عن الإحرام بها، فيكتب كل صلاة تفوته إلى أن يتمكن من قضائها .

وذَكَر رضي الله عنه ذات يوم الأوراق الواصلة إليه من الجهات ، فقال : « خُصَّ بالبلا من عَرَف الناس أو عرفوه ، الأول مشغولٌ بنفسه ، والثاني مشغولٌ بربه » .

وذُكِر له رضي الله عنه بعضُ الجهات بأن بها مرضاً شديداً ، حتى إنه قد يغيب الإنسان عن حسِّه وشعوره ، فقال : « هذه الغَيبة بسبب قوة الخواطر ، لكثرة ما يرى من الموتى ، فإذا اشتدت في الباطن ظهر أثر ذلك على الظاهر ، وكل الناس إلى هناك ، فإن الأمر على التدريج ، ولو وَقَعَت الأمور على المقاصفة والكثرة لغَيَّرت عقول الناس ، مع أن كل هذه الأشياء يؤمن بها الإنسان ، ولكن لم يتحقق بها، فتراه يؤمن بالشيء ، فإذا حَصَل له جَزِع وخاف » .

وقال رضي الله عنه لرجل ادعى أنه لا يبالي بما يفوته : « إن كلامك هذا في اللسان دون القلب ، والكلام بمجرد اللسان مثل القِربة المنفوخة ، فارغة ما فيها شيء ، والكلام في اللسان مع موافقة القلب له كالقِربة الملآنة » .

وذَكَر يوماً رضي الله عنه العشق ، فقال : « لا يرقى الإنسان إلى الشيء إلا من جنسه في كل شيء من أمور الدين والدنيا ، فلا يرقى إلى سماء الشيء إلا من أرضه ، فإن سقط من سماه فلا يسقط إلا إلى أرضه كائناً ذلك الشيء ما كان ، فمن كانت همته في الأكل مثلاً ، فلا يرقى منها إلا إلى شهوة الوِقاع ، وكذلك من هِمَّته الجمع والتمتع » ، قال : « وهذان البيتان للشيخ أبي إسحاق الشيرازي رحمه الله :

أُحِبُّ الكَأسَ مِنْ غَيْرِ المُدَام ... وَأَهْوَى الغَانِيَاتِ بِلَا حَرَامِ
وَمَا حُبِّي لِفَاحِشَةٍ وَلَكِن ... رَأَيْتُ العِشْقَ مِن شِيَمِ الكِرَامِ

وهذا عِشق مِنْ طَالِعْ ، عِشْق الأرواح ، وهو محمود ، لا العشق المذموم ، فإنه عشق من أسفل ،

---

(١) أي عمه الأدنى في القرب . اهـ « م » .

فَرُبَّ واحد منهم لم يتزوج مدة عمره ، فإنَّ شَبَقَ الحمير عِشْقٌ بلا أليف ، حتى عشق الطير ليس هو مثله، فإنها تذكر أليفها فتشتاق إليه ، وفي الطير خفة تشبه الأرواح والملائكة ، وكلٌّ أمرُه إلى الخفة ، وأما البهائم فكثيفة مثل طبع الأحجار . وكان الشيخ أبو اسحاق من الزاهدين ، حتى إنه كان قُوتُه قرصاً يابساً يَفُتُّهُ بالماء ويأكله وينشد :

خُبْـزٌ وَمَـاءٌ وَظِـلٌّ ... هَـذَا النَّعِيـمُ الأجَـلُّ
جَحَـدْتُ نِعْمَـةَ رَبِّي ... إنْ قُلْـتُ إنِّي مُقِـلُّ

وقد يَفُتُّهُ في السوق عند الذي يطبخ الفول ، ومضى إليه يوماً فلم يجده ، فقال الشيخ : ﴿تِلْكَ إِذًا كَرَّةٌ خَاسِرَةٌ ﴾» ، ثم قال : « والعشق ما يتم إلا بشروط ، لاختلاف الناس فيه ، فإن أحداً يهوى في الرضا ، وأحد في الجفاء ، وأحد في العطاء ، ولولا اختلافهم لما صدروا أشتاتاً » .

ومِن نَقْلِ السيد عمر البار رحمه الله في بعض المجالس ، وكنتُ حاضراً إلا إنه حفظ ما لم أحفظه ، قال لسيدنا نفع الله به رجل : « عسى القبول » ، فقال : « عسى الله ، عسى الإقبال والقبول ، وأنت على ما أردتَ من حيث الإقبال ، إن كان من الرب أو من العبد ، وأما القبول فلا يكون إلا من الرب » .

وسأله السيد عمر : « إذا مَنَّ الله علينا بشيء من ملبوسكم ، كيف نفعل به ، نلبسه أو نخبيه ؟ » ، فقال: « اِلْبَسْ لباس العافية ، إن الشيخ عبدالقادر الجيلاني رحمه الله ألبس بعض الناس طاقية ، فقال له: اِلْبَس العافية ، فبقي مدة لم يتألم بألم » .

ثم قال له السيد عمر: « وإذا تقطعت الثياب كيف نفعل بالدويل من ذلك » ، فقال : « يكسوه المتبركين ، الثياب ألَّا تُكْسى ، ورأى أبويزيد بعض فقرائه يمشي خلفه ويجعل قدمه محل قدم الشيخ ، فقال له الشيخ : لو إنك سلختَ جلدي وجعلته عليك لم ينفعك ما لم تتبع طريقي في السير إلى الله » .

ثم قال : « ونحن ما نعطي الناس إلا على قدر نياتهم ، ولا يخيبهم الله ، إما يعطيهم على نيتهم أو فوقها أو دونها ، وأما نحن فلا نرى أنفسنا أهلاً لشيء ، ولكن كما قال الشاعر :

يَظُـنُّ النَّـاسُ بِي خَـيْراً وَإنِّي ... لَشَرُّ النَّاسِ إنْ لم تَعْفُ عَنِّي

ولكن الناس لا يُسَلِّمون لك ، ولا يَتْبَعُونك على نيتك ، وكان عيسى عليه السلام لما عظَّمه الناس، فَرَّ منهم ، فلما فَرَّ عبدوه ، ولو عملنا على ما نرى لأنفسنا لكان في ذلك قطع التبركات ، والناس أيضاً ما يُسَلِّمون لك ما تدَّعي من عدم الأهلية » .

انتهى ما نقلته مما حَفِظَ في هذا المجلس المبارك ، وحفظت أنا بعد قوله : « من عدم الأهلية ، وهو

كذلك في بعض الأشخاص ، حتى إنه ليذم نفسه ويقول : أنا ضعيف مسكين مذنب مخطيء ، ونحو ذلك مما فيه هَضْمٌ نفسه ، وفي إظهار التواضع إظهار المنزلة ولو بهتَّه وقلت له : يا مخطيء ، يا كذا ، مما يَصِفُ به نفسه ، لاشتد ذلك عليه وضاق به الحال ، وإنما نقول نحن كما قال سيدنا علي كرم الله وجهه: إنما أنا رجل من المسلمين ، وذلك لما سأله ابنه محمد بن الحنفية رضي الله عنه : أيما أفضل أنت أو أبوبكر ؟ قال : أبوبكر ، قال : فعمر ، قال : عمر ، قال : فقلت : ثم أنت ؟ فقال : إنما أنا رجل من المسلمين ، ولم أقل له في عثمان خوفاً أن يقول : هو أفضل مني » .

ثم قيل لسيدنا: « عسى ببركتكم تحصل الرحمة للمسلمين » ، فقال : « لن نَعدم خيراً من رب يضحك ، كما قال الأعرابي : يا رسول الله أَوَ يضحك ربنا ؟ قال : نعم ، قال : لن نَعدم خيراً من رب يضحك ، وهو سبحانه كما أعطى البعض ، فهو يعطي الكل » .

انتهى ما قاله نفع الله به في هذا المجلس المنور ، وهو ضحى يوم الجمعة في دار البلاد ، ثالث شوال سنة ١١٢٨ ، ثم بعد صلاة المغرب مضى سيدنا من الدار إلى الدار التي يريد المبيت فيها ، فقال للسيد عمر المذكور وهو ماسك بيده : « عاد دوعن فيه حياة بظهور أثر العلم فيه ، وما مات العلم فيه بالكلية مثل وادي عمد » ،

قال : « لكن ذلك صورة بلا حقيقة » ، فقال : « مجرد صورة أو حقيقة خيرٌ من عكسه ، وإن كان أحدهما لا يُنتفع به دون الآخر ، وأين الحقائق اليوم ، فقد طال بالناس العهد من وقت حقائق الأمور، وإذا كانت الصورة ظاهرة ولو بلا حقيقة ، فهو خير من عدم الصورة والحقيقة ، وقد انقلب الناس اليوم إلى حال آخر، فلو ألقيت إلى أحدهم كلمة أو كلمتين من العلم لم يفرح بهما ولم يتأسف على ما مضى من عمره قبل أن يعرفهما ، ولو سألته عنهما بعد يوم أو يومين رأيته قد نسيهما ولا يهمه ذلك ، ولو أعطيته أوقية مصفًى لكان كم خواطر تخطر له فيها ، وكم أمور فعلها ، وكم شهوات أخذها ، وتَحَفَّظَ عليها غاية الحفظ لئلا تضيع » أو كما قال .

وقال رضي الله عنه : « فلان مُهَوِّن[1] ولا فيه نظر ، ولكن إن شاء الله فيه تقوى ، ومع التهوين وعدم النظر تضيع على الإنسان أشياء أكثر مما تضيع مع عدم التقوى ، وأمور الدين والدنيا ما تستقيم إلا بالنظر ، وإلا فاتت ، فكم كَرَّرَ الله سبحانه من قوله : انظروا ، انظروا » ، وتقدم قوله : « إن والي الأمر لا بد له من نظر ، إن لم يكن نظر دين كان نظر دنيا » .

وقال رضي الله عنه : « الوَطَاء محمود في كل شيء ، فإذا عَسُرَ عليك أمرٌ فتَوَطَّ له ، وهو معنى حديث:

---

(١) أي مقصِّد . اهـ « م » .

ما كان الرِّفقُ في شيء إلا زانه .. الحديث ، لأن الإنسان لا يخلو إما أن يكون حجراً أو ماء ، وكلاهما ينفع فيه الوطاء ، فلا يسيل الماء إلا في الموضع المنخفض » ، وأنشد هذا البيت :

العِلْـمُ حَـرْبٌ لِلْفَتَـى المُـتَعَالِي ... كَالسَّـيْلِ حَـرْبٌ لِلْمَـكَانِ العَـالي

وذكر رضي الله عنه الزمان ونَقْصَ من لحق عن حال من سبق *فقال* : « إن النور لم يزل يختفي شيئاً فشيئاً ، والظُّلمة لم تزل تظهر شيئاً فشيئاً ، حتى تقوم الساعة ولا أحد يقول : الله ، ولو إن الآتي كالذي قبله لم تقم الساعة » .

وقال رضي الله عنه : « عَزَّ الصدقُ اليوم جدًّا ، حتى لو ذُكِرَ رجل صاحب صدق بارٌّ لم يُصَدَّق ، لعدم إلْفِ الناس لذلك ، إذ لا يُصَدِّق الإنسان إلا بما يألفه ويفعله ، فلو قيل لهم : إن أحداً أُعطي عشرة قروش فردَّها ، أو أخذ حاجته وردَّ الباقي لم يُصَدِّقوا ، ثم إن الإنسان اليوم ربما تُمَنِّيه نفسه أن لو كان معه مال لفعل به كذا وتَصَدَّق ، فإذا تمكن لم يصبح من ذلك شيء ، وكذا يكون قبل حصوله قانعاً بثوبٍ وقوتِ يوم ، وإذا حصل انبعثت دواعي أخرى ، ولكن اللهم ارزقنا ما يكفينا ، وامنع عنا ما يُطغينا » .

ثم ذكر : « إن رجلاً فقيراً من آل أبي فضل كان مع أهله سالكين ومستريحين بحالهم في بيتهم ، وفي جوارهم بعض الأشراف معه مال ، فبقي الشريف طول ليله مع أهله في كلام من جهة نفعل كذا ونترك كذا ، فلما رأوا من حال بافضل وأهله في الراحة غبطوهم براحتهم ، فأعطاه الشريف شيئاً من ماله ، وقال له : اتَّجِرْ فيه ولك الفائدة انْتَفِعْ بها ، ورأس المال لنا ، فبقي بافضل مع زوجته طول ليلهم في كلام، يقول : نشتري كذا ، وهي تقول : بل نشتري كذا ، وعلى هذا ، ثم إنه تَفَطَّنَ وقال للشريف : خذ مالك وأَرِحْنَا منه » .

وقلَّ القُرَّاء يوماً فسأل رضي الله عنه عنهم ، *وقال* : « من شأن الخريف التشَتُّت ، لأنهم يتقسمون في الوادي وفي البلاد ، وهو موسمهم ، وأهل مكة موسمهم أيام الحج ، فيعطِّلون فيها لاشتغالهم، إذ يحصِّلون في هذه المدة كفايتهم في كل السنة ، وكان من شأن السادة الأولين الإرتحال للتخرُّف والنَّفس، كانوا أَوَّلاً يحلُّون ببيت جبير ، إلى وقت الشيخ عبدالله ، ثم حَلَّوا قَسَم ، حتى اجتمع فيها في نخل يسمى بازياد نحو أربعين سجادة ، وكانوا يعجبهم التمر بالخصوص ، لأنهم يعتقدون حِلَّه ، فإنهم يَرِثُون النخل عن أجدادهم وأسلافهم ، ومن الكلام المنسوب إلى السقاف : من حَصَّل أيام التعطيل ، عَطَّل في أيام التحصيل » .

وقال رضي الله عنه لرجل: « حِلُّو على الشجر والمرعى والنَّفَس ، وإن لم يكن خريف ، فقد كانوا يفعلون ذلك لذلك ».

وقال رضي الله عنه : « كلٌّ جعل الله فيه نفعاً للآخر ، جعل في الرجال نفعاً للنساء لا يوجد إلا فيهم، وفي النساء منافع للرجال لا توجد إلا فيهن ، وشيء يوجد في كُلٍّ ، ولو لم يجعل النفع إلا في أحدهما ، لتعطل جانب العالَم ، وفي ما رأينا من عجائب البلدان أن بلداً كلها نساء ما فيهم رجل ، ولا يلدن إلا النساء ، وسقط عليهم رجل فأرادوا قتله » .

وأرسل لسيدنا رضي الله عنه بعضُ أهل السواحل بشملة ، وطلب منه شيئاً من اللباس ، فقال : « لا عاد تطالبونا إلا بالجزاء الذي لا ينفد : الفاتحة والدعاء ، ولو تعلق بنا عشرة أنفس مثلاً ، كل واحد يأخذ من ثيابنا شيئاً لبقينا بلا ثياب ، ومن أراد البركة يكفيه أن يجيب ثوب أو كوفية نُلْبِسها له ، وقد ذكر الشيخ عبدالله بن شيخ : أن جميع أهل الجهات إذا أرادوا يتباركون بالصالحين ، جاءوهم بشيء يعطونهم إياه ، إلا أهل حضرموت ، فإنهم إذا أرادوا البركة طلبوا منهم أن يعطوهم » .

وسألتُه عما يعتقده أهل تريم من أفضلية صلاة الصبح في مسجد باعلوي صبح ليلة ختمه بالخصوص ، أي في شهر رمضان دون غيره ، واجتماعهم له ، هل فيه خاصية أو يؤثَر ذلك عن أحد ، فقال رضي الله عنه : « لا ، وما كنا نعرف ذلك ، وإنما الذي على تِقْنِنَا إنهم من بعد تمام كُتُب الختم يتفرق الناس كلّهم ، ولم يبق منهم أحد ، إلا من جلس يتهجد ، فنَمُرُّ عليه في مُضِيِّنا إلى الهجيرة لصلاة الصبح، فلا نرى أحداً إلا من جلس للتهجد ، ونمر عليه بعد الصلاة فلا نرى أحداً ، وإن كان فيه بعض الناس، وكأن لم يكن شيء من الذِّكْر بعد الختم ، ولكن لعموم بركة مسجد آل باعلوي يجتمع الناس فيه ، ويرغبون في الإجتماع لذلك ، وهذه أمور حدثت ، خَفيت فيها المقاصد وظهرت فيها العوائد » .

قلت : فالمقاصد من قوم ، والعوائد من قوم آخرين ، قال : « نعم ، حيث لم يعلموا اليوم ما هو المعتاد في وقت السلف ، وحدوث هذا كان في وقت حامد[1] » .

قلت : فصلاة العصر فيه مأثورة ، قال : « نعم ، عن بعض السادة لعله الشيخ أحمد باجحدب ، وإنها حَبَشَة بلا جِفِلَّة ، وذلك لفضيلة البقعة والوقت ، لكون بقعة المسجد كانت مباحة[2] وبنيت بحلال، حتى إن طينه حملوه من أمواهم من بيت جبير ، ولاجتماع السادة فيه في هذه الصلاة إجتماعاً لا يكون في غيرها، وفي فضل هذه الصلاة خاصة أيضاً أحاديث واردة صحيحة » .

وقال رضي الله عنه لرجل يمازحه[3] : « نريدك تروح إلى عند السيد علوي بن عبيدالله ، تأخذ نحو

---

(١) أي حامد بن علوي بن حامد . اهـ « م » .

(٢) أي موات ، لا مالك لها ، وكان فيها أشجار وأحجار . اهـ « م » .

(٣) هو نبيهان . اهـ « م » .

ثلاث إن تيسرت لك أمورك ، وإلا ارجع ، ولكن ربما لو جُعْتَ طلبتَ تمراً أَوَّلاً ، فإذا حصل طلبتَ خبزاً ، فإذا حصل طلبتَ له خصاراً ، ثم لم تحس إلا تحرك عليك شيء ، فقلت أريد أهلي ، وما هذه حالة المتجرد ، كأنكم ما سمعتم بقصة توبة ذي النون ، وخروج السُّكرُّجات له من الأرض ، ورؤيته القُنبرة العمياء وغير ذلك ، إنما حال المتجرد أنه كلما طعن في السن عَدَّ نفسه في أصحاب القبور » .

ثم قال : « وكل من وثق بغير الله هلك ، ثم الموثوق به إن سَكَنَ إلى ذلك واطمأنَّ إليه هلك الآخر أيضاً » ، ثم بعد ذلك قال : « لا ، ما لفلان عذر ، إلا نجزم عليه ، فإن لم تتيسر له أموره واحتاج أذِنَّا له في الرجوع ، وإلا وقع له جاه وحشمة جلس ، إلا أن تطغى نفسه أو احتاجت رجع » .

وقال رضي الله عنه عشية يوم ٢٩ صفر سنة ١١٢٤ : « لا تحب الكافر لأجل المؤمن ، ولا تبغض المؤمن لأجل الكافر ، لأن ذلك بعيد المناسبة ، وكذلك في المنافقين » .

وقال له رضي الله عنه رجل: « أَلبِسْنِي » ، وقد تقدم له منذ أيام إلباس ، *فقال* له: « قد ألبسناك مع جماعة منذ أيام ، فلا ينبغي لمثل هذه الأمور أن تُبْتَذَل ، لأنها عزيزة ، وقد ذُكِر : إنك إذا اعتقدت مثلاً أن فلانًا شيخك ، ينبغي لك أن لا تأكل معه ، ولا تجلس بجنبه ، أو على سجادته » ، وقال له : « الله يتولى الصالحين ، فإذا أردته يتولاك – أو قال : يصلحك – فأصلح ما بينك وبينه » .

وقال رضي الله عنه : « ما يتم الأمر إلا بثلاثة أشياء ، وهي الأثافي التي يقوم عليها : النية والعلم والعمل، لكن لما كان هذا أمر الدين ، فتكون سريراً فتحتاج إلى رابع ، وهو الاعتماد على الله » .

وقال رضي الله عنه لرجل يعاتبه: « لو دَخَلْتَ الخلوة ما بارك الله لك فيها لعدم مشاورتك لأهل المعرفة ، فإذا كان أمور الدنيا – ولا أخس منها – يُستعان عليها بمن يعرفها ، فكيف بأمور الدين . والأفعال مع الهوى ليس تحتها طائل، والهوى كالجُفاء ، لا يبقى ، وإنما يبقى الحق » ، ثم تلا : ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ الآية ، *وقال* : « إذا أردتم تعرفون الفرق بينهما فاقرأوا الآية هذه » ، *ثم قال* : « صادف الهوى أوعية أهل الزمان فارغة ، فسكن فيها ، فامتلأت به ، ولو كانت ملآنة بالحق لخليت منه ، والهوى عبارة عن خلو الإناء، فبقدر ما يمتلىء يذهب منه ، وبقدر ما يفرغ يكون فيه » .

وقال للرجل المذكور: « أتريد أن نراعي فيك حسن الوفاء ، ولم تراعِهِ معنا ، لا ، لا يحمل شجرُ الشوك ثَمَراً » ، قال ذلك للتعليم والتأديب، *ثم قال* : « لا يطول الرأس في الدنيا والآخرة إلا بحسن الوفاء ، وكان ذلك عادة النبي ﷺ وأصحابه معه ومع أصحابهم وأقاربهم حتى من الكفار ، حتى ذلك الرجل في قصته المشهورة مع سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، حيث قال له : لو لا يَدٌ لك عندي لم أكافئك بها لأجبتك » .

ثم طال كلام سيدنا في الوفاء ، حتى ذكر العمودي - صاحب شيخه الشيخ محمد بن علوي - بحسن الوفاء ، حيث اعتكف سنة لا يفارقه إلا وقت الصلاة ، قال : « ثم وقعت له رؤيا عند قبره ، فسافر إلى المدينة ، فاجتمعنا به ، وطلب منا أن يقرأ علينا في حِكَم أبي مدين ، فلما ابتدأ حصل في حلقه شحام[1] ، فقال : أخاف إن السيد محمد ثقل عليه أن أقرأ عليكم ، فقلنا له : لا ، إنما نحن والسيد محمد شيء وأماثل السادة شيء واحد » .

ثم ضرب لذلك مثلاً ، فقال : « ونحن معهم كالجوابي ، مفترقات من فوق ، وملتقيات من تحت - أي ولو افترقنا في الظاهر - فنحن مجتمعون في الباطن » .

ثم قال : « ولو ذكرنا سيرة هذا العمودي ، وسيرة حسين بافضل معنا ، لاحتاجت إلى كراريس » ، وإنما ذكر ذلك نفع الله به ليعرف الملازمون قلة وفائهم معه ، ومما ذكر في شأن العمودي معه أنه طلب أن يفرش له السجادة في صلاة الجمعة وأن يغسل ثيابه كل يوم .

وقال رضي الله عنه : « كلُّ نَفْسٍ تخرج من الدنيا ظمآنة ، إلا نَفْس الذاكر ، وكل يوم للذاكر عيد ، والعيد رضا ربك » .

وقال رضي الله عنه : « التجربة قِسْمٌ من العقل ، ولا بعد ٢٢ سنة زيادة في العقل ، إنما هي التجربة فقط ، وإذا أردت تصحب أحداً أو تخالطه لا عليك من ذلك ، خصوصاً في هذا الزمان الذي قلَّت فيه الأمانة ، ولولا أن عاد طرفاً من الحياء ، لخَرَجَتْ في هذا الزمان أمور غريبة ، وقال سيدنا علي رضي الله عنه : الحزم سوء الظن ، أي الحذر والتجربة من غير ما تسيء به ظناً ، ولا عاد يسع الإنسان في هذا الزمان إلا الصبر والتحفظ لأنهم ضباع ، إذا طرفت لهم أكلوك » ، وأنشد هذا البيت :

وَمَن يَفْعَلِ المعْرُوفَ في غَيْرِ أَهْلِهِ   يُجَازَى كَمَا يُجْزَى مُجِيْرُ امِّ عَامِرِ

وقال رضي الله عنه : « لا بأس أن يُكثر المريد من المشايخ ، إن حصل له من كلِّ فائدة ، وإن اجتمع قلبه على نحو اثنين أو ثلاثة فليعتمد عليهم ، ويأخذ الفائدة من الباقين ، وإن اجتمع قلبه على واحد ولم يمكنه الانتفاع من غيره ، فليلزمه فهو شيخه » .

وقال رضي الله عنه : « ليس في الإنفاق في الصدقة إسراف ، فإن أَجْحَفَ بعياله فلم يُبقِ لهم شيئاً، جاء النهي من حيثيةٍ أخرى ، ولا تحدِّث أهل الزمان بالإمساك رأساً ، فلعلَّهم لم يُخرجوا الزكاة ، ومنهم من يأخذ مالَ محتاجٍ بنصف القيمة ، فهؤلاء هم أعداء الشريعة ، وخل الأعداء الكفار ونحوهم ، والأشياء

---

(١) أي بحّة . اهـ « م » .

بَغَت البصائر لا الأبصار ، لأن البصائر هي التي تعرف طريق الدين ، لا الأبصار ، لأن الطريق مُظلِمة لا يسلكها إلا أهل البصيرة ، ومن ليست له بصيرة يقلِّد صاحب البصيرة ، وقد يحصل النور في أثناء الطريق ، وطريق الإمامة الخاصة مُظلِمة ، فلا يسلك فيها إلا من سلَّم يده[1] ، ولا تُحسِّن لأهل الزمان ما هم فيه ، إلا إن كان حسناً فَحَسِّنه ، والناس درجات ، أحدهم يجيء باللطف والرفق - أظن قال : وأحد يجيء بالقهر والإكراه - وكنا أردنا أن نجلس للناس على كرسي[2] ، لكن مَنَعَنا منه : أنَّ سلفنا لم يفعلوا ذلك ، بل مشوا على المنهاج العدل الذي سلكه أناسٌ قبلهم ، والجاهل لا يُحصِّل شيئاً من أمر الدين والدنيا ، وإنما يُسلِّك وقته بالإعجاب » .

ووصف رضي الله عنه الطريق، *فقال* ما معناه : « إذا رأى الإنسان الأمر عسيراً استصعبه ، كالذي يريد سفراً إلى مكان بعيد ، يتأمل إلى ذلك المكان فيستعسره » ، ثم ذكر رجلاً سار إلى نبي الله هود للزيارة ، فلما وصل النصف *قال* : « ماذا بقي من الطريق؟ قيل: النصف ، قال : النصف يوصلني إلى بلادي ، فرجع وترك الزيارة ، وهذا كذلك ، لكنك إذا كنتَ في بابٍ من هذا الأمر فافْهَمه ، ولا عليك أن تتأمل فيما وراء ذلك » .

وزار رضي الله عنه التربة ضحى السبت ٢٦ ذي القعدة من سنة ١١٢٤ ، *فقال* : « كنا مُرَتِّبين زيارة التربة ألَّا في ليلة الجمعة ، لأن في الليل يصفو الوقت للزيارة ، ويَسْلَم الإنسان من تشويش الناس ، كل ساعة يجيئك واحد ، وبقينا نزور كذلك حتى فعلنا الذِّكر في ليلة الجمعة في المحرم أول سنة ١٠٧٢ ، فبقينا نزور في أثناء الأسبوع ، وترتيبنا الزيارة ليلة الثلاثاء بسبب رؤيا رآها بعض الأخيار ، وهي : أنه رأى كأن السادة مجتمعين عند الفقيه المقدم ، ويقولون ما يكفينا من فلان في الأسبوع زيارة واحدة ، والآن لما حصل الضعف نزور على الاتفاق حسب الطاقة ، وإن طالت المدة ، وإذا زرت إن أمكنني أُتِمّ الزيارة وإلا زرت الفقيه وحده ، وقده تجتمع عنده أرواحهم » ، فقلت له : قد كنتم تزورون في الليل، وملازمين الزيارة لا بد منها في الأسبوع . *فقال رضي الله عنه* : « خل كان ، كنا نزور نمشي والمركوب قائم ، وما عاد ينفع كان ، لأن ما كان قد كان ، وعلى بالك أن ابن خلِّكان سُمِّي بذلك ، لأنه يقال : إنه من ذرية البرامكة ، وكانوا على ما هم عليه ، فيذكرون الناس أيامهم ، ويقولون : كان فلان منهم كذا وكذا ، ومنهم فلان كان كذا وكذا ، ومنهم فلان كان كذا وكذا ، وعلى هذا ، فقيل له : خل كان ، أي أترك كان » .

فقلت : هل الزيارة مندوبة في نفسها ، أو لأجل التذكر والإتعاظ؟، *فقال* : « لأجل ذلك وللتبرك

---

(١) أي إلى شيخ محقِّق . اهـ « م » .

(٢) أي للوعظ . اهـ « م » .

بمجالسة الصالحين ، إذ ورد : أن رجلاً سأل النبي ﷺ عن أفضل الأعمال ، فقال : الجلوس بين يدي وليٍّ لله ، سواء كان حيًّا أو ميتاً ، وورد : من زار قبري فكأنما زارني في حياتي » .

فقلت : أيكون الميت يرى أن عليه حقًّا للزائر ينفعه به في الآخرة، *فقال* : « شيء ضعيف ، دون من زار الحي ، ولهذا تعجب السائل من قوله عليه السلام حيًّا أو ميتاً ، لأن الحي ترجو منه وصية ودعاء صالحاً ، ومثال الزائر كالواقع في السيل ، إنما يطلب نجاته بأي ممكن ، فإنه يطلب ما يتخلص به منه ، كان ذلك ما كان ، ولو بحبلٍ أو عود ولو ضعيفاً ، فلو أضله الشيطان وسَهَّل[1] عليه أمر الزيارة للميت فلا يكون له شيء من الأسباب التي يود أن يتخلص بها » ، *قال* : « وكان إبراهيم الجعبري إذا مر بموضع قبره يقول : يا قبير ، جاءك دبير . وهو مقبور بمصر ، وكان من أهل العراق » .

وقال لسيدنا بعض الناس : « إن في سنة ١٠٧٢ ، لمزية على بعض السنين ، فيها رتبتم الراتب، وفيها جعلتم الذِّكر » ، *فقال* : « نعم » .

وقال رضي الله عنه : « من نظر إلى مواطن حيث يحلُّون السادة الشيخ أحمد بن عيسى وبنوه حيث يكونون في الأطراف تحت الجبال يستدل بهذا إنهم لهم مَشَمَّة بطلب دولة ورياسة ، ويكون قصدهم إعلاء الحق والأمر بالمعروف ، فإن الشيخ أحمد بن عيسى يُذكر في الكتب أنه حَلَّ في الهجرين لارتفاعها وكونها حصينة ، واشترى فيها مالاً كثيراً ، ثم لما رأوا الماء فيها عزيزاً ، يؤتَى به إليها من هابَط ، تَرَكَها وأعطى المال بعض أخدامه ، ودخلوا حضرموت في الأطراف منها ، كما يُرى من قبر الشيخ أحمد بن عيسى في الحسيِّسة ، وابنه عبيدالله في العرض ببور ، وابنه علوي بن عبيدالله في سُمَل ، يَعرف به أنهم لم يحلُّوا في هذه الأماكن إلا لأجل شيء يطلبونه ، وكانوا أهل علم وتقوى ، يحبون أن يتمكنوا من إقامة الحق ، وأيضاً خرجوا من البصرة بمالٍ كثيرٍ له قَدْر ، وكلما حلّوا بمكان لم يَطِبْ لهم المقام فيه ، لكون هذا طبع الجهة هذه ، فبقوا في الأطراف ، إن حصل لهم ما أرادوه بقوا عليه ، وإلا فلا ينالهم في مكانهم أذى ملوك البلاد ، ولم يحل في بيت جبير ويسكن تريم إلا آل أحمد بن عيسى » ، أي أولاد أولاد أولاده.

وقال رضي الله عنه : « تريم بلاد آل باعلوي ومسقط رؤوسهم ، وإنما تفرقوا إلى أماكن أخرى ، حلّوا فيها عن قريب بعد ذلك ، وكانوا تَدَيَّرُوها وحلّوها سنة ٥٢١ ، من وقت خالع قسم ، هو أول من نزلها، وكانت هي بلدتهم لقضاء حوائجهم ، وهم كانوا حالِّين ببيت جبير وسمل وعرض بور ، فَبَنَوا في تريم مسجدهم المعروف بمسجد آل باعلوي ، وقطعوا من محله شجر سَلَم ، وحملوا له الطين من بيت جبير ، طلباً للحِل ، وذلك قبل أن ينزلوها ، وكان لهم فيها أيضاً حافات معروفة ، فحافة

---

(١) أي ضعّف وهوَّن . اهـ « م » .

آل جديد حوالي مسجد الحبوظي ، وحافة آل بصري حوالي مسجد بروم ، أو بالعكس ، وحافة آل باعلوي الحوطة ، وفيها مسجدهم المذكور ، وأما الرضيمة فإنها قديمة ، حتى حُكِيَ أنهم لحقوا في جبلها صناديق، وفيها قبور آل قحطان » .

وقال رضي الله عنه : « استكثر من أعمال الخير ما استطعت ، وخذ منها ما تطيق المداومة عليه ، ولا تحتقر منها شيئاً، فلعل فيها وصولك ، وذلك كتهليلة وتسبيحة ، واملأ بطن جائع ، ولا تحتقر منها شيئاً ، فقد رئي الإمام الغزالي بعد موته فقيل له : ما فعل الله بك ؟ فقال : غفر لي ، فقيل : بم ذلك ؟ قال : بذباب برح على القلم وأنا أكتب ، فتركته حتى روي ، فإن الخير كله في أمور الخير السهلة ، التي لا تراها النفس ولا تعدها شيئاً ، وأما التي تراها وتعتد بها ، فإنها يتطرق إليها البطلان ، إما من جهة الفاعل أو المفعول معه ، أو الحاضر بينهما » .

وقال رضي الله عنه في حديث : « لكل نبي دعوة مستجابة قد دعا بها » ، قال : « هي دعوة عامة ، يدعو بها في ما شاء ، كأنه قيل له : إسأل ما أردتَ أَسْتَجِب لك » .

وقال رضي الله عنه في قول صاحب العوارف : « إن النفس بكل ما تُلقِيه من الخواطر، تأمر بالسوء»، واستدل لهذا بقوله تعالى : ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾الآية : « ولو إن الآية تشمل مراد من يريد تزكية النفس ، لكن الغالب اعتبار ذلك في النميمة والغِيبة ، ولا عبرة بقول فقهاء الزمان ، ومثلهم مثل حشرج الدخن ، يُدَقُّ كثيراً ويظهر بلا فائدة فيه ، وما كان لهم فيه هوى أنكروا له ، وإلا سكتوا ، فقد حكي : إن فقيهاً قال : إن الشيخ عبدالله - أي العيدروس - جلس رجلٌ يفص له حتى دخل وقت بعض الصلوات ، قال للشيخ : قم للصلاة قال : قد صليت ، فخرج الرجل فرأى الجماعة قد خرجوا من مسجد الشيخ أبي بكر - أي السكران - مصَلِّين ، فقال لهم : من صلى بكم ؟ قالوا : صلى بنا الشيخ عبدالله ، وهذه وأمثالها تُسَلَّم لأولياء الله ، ولا يُعتَرض عليهم فيها ، لأن عقولهم - أي المعترضين - لا تبلغ أحوالهم - أي أولياء الله - ولكن قد يصح له قدم الصلاح - أي فيُسَلَّم له - وإلا كان فتنة ينبغي الإنكار عليه » .

وقال رضي الله عنه : « صاحب الحقيقة مستغرقٌ فيها ، وجميع عمله ومشهوده فيها ، وأكمل منه الجامع ، يضع الحقيقة موضعها باعتبار ، ويضع الشريعة موضعها باعتبار » .

وقال رضي الله عنه : « كان الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه يعمل في عين الحقيقة ، وقلَّ من لا تشغله الشريعة عن الحقيقة ، ولا تشغله الحقيقة عن الشريعة » .

ثم ذكر قصة الكِيسَيْن الدنانير اللذَين أرسلهما له الخليفة العباسي الذي في وقته ، فعصر أحدهما

فصب دماً ، ورسول الخليفة ينظر ، فقال له : قل له : يسلم عليك ويقول لك : أما تستحي ترسل إليَّ بدماء المسلمين ، فلولا قرابتك من رسول الله ﷺ لجعلتها نهرين يجريان دماً من الزاوية إلى بيتك ، ثم رُدُّهما عليك .

وقال رضي الله عنه : « ما رأيتُ مثل رَجُلَيْن ، أحدهما من أهل الباطن ، والآخر من أهل الظاهر ، يغبطهما أهل الباطن وأهل الظاهر ، وهما الشيخ عبدالقادر والإمام الغزالي ، نَسَبوا للشيخ عبدالقادر كتباً فيها أمور مُنكَرة ، واعترضوا على الإمام الغزالي وقالوا : لا تجوز مطالعة كتبه ، حسداً منهم وعدواناً، وكانا في أماكن متسعة ، تحصل فيها المنافسة والمباهاة ، ولكن من مات لا عاد تذكره إلا بخير ، لأمورٍ أولها : أن النبي ﷺ قال : لا تذكروا مساويء موتاكم ، واذكروا محاسنهم ، والثاني : أنه رجع إلى الله، ومجازاته إنما هي عليه سبحانه ، وهو كافِيْه ، والثالث : أنك إذا خَصَّصت أحداً بالإعتراض ربما تَجَرَّأَ أحدٌ على الإنكار على أحد من أهل العلم لإنكارك على الأول ، بل ينبغي إذا بلغك عن أحد ما تُنكِر ، أن تقول كما قال النبي ﷺ : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا » .

وتقدم قوله : « اثنان يغار منهما أهل الباطن ، ويحسدهما أهل الظاهر ، لأنهم إذا طعنوهما بمسَلَّةٍ طَعَنَاهم برمح : الشيخ عبدالقادر والإمام الغزالي » .

وأتاه يوماً رضي الله عنه بعض الفقراء زائراً ، فقال له : « قد أَمَرْنا لك عند الخادم بحاجة ، فاقبِضْها منه » ، فقال : « أتيتكم زائراً لا لطلب شيء » ، فقال له: « ذاك كذلك ، فإذا أتيتَ للزيارة حصل لك النفع الدنيوي ، مع ما حصل لك من الزيارة من النفع الأخروي ، فقد جاء : إن آدم عليه السلام لما هبط من الجنة إلى الأرض نزل معه بأوراق من شجر الطيب ، ولها من الرائحة الطيبة شيء كثير ، فأتته الظبية زائرة ، فأعطاها من ذلك الورق ، فظهر عليها ريحه ، فلما شَمَّ ذلك منها سائر الدواب ، جاءوا لآدم فلم يعطهم، لأنها أتته زائرة ، وهن أتوه لطلب ذلك .

ويشبه هذه الحكاية ، ما سمعنا : يُذكر أن رَجُلَين أتيا إلى سيدنا الشيخ القطب عبدالله بن أبي بكر العيدروس علوي رضي الله عنه ، وأحدهما نيته الزيارة والتبرك بالشيخ ، والآخر نيته حصول شيء يأكله ، فلما وقفا تحت الباب ، وكُلٌّ منهما مُضْمِرٌ ما قَصَدَه ، أمر الشيخ الخادم أن ينزل بما أراده ذلك الرجل، فيعطيه إياه ويصرفه من تحت الباب ، وأمر بالآخر فطلع إلى عند الشيخ فأكرمه وحصل له بحُسنِ قَصْدِهِ من الشيخ الإقبال والقبول وأضعاف ما حصل لذلك من مراده ، مع ما حصل له من الخير الديني ، والمنزلة عند الله بحصولها له عند أولياء الله ، فسبحان المتفضل المنان بما يشاء على من يشاء، والحارم لذلك من أراد ممن لم يسبق له ما سبق للآخر ، وكل ذلك متوقف على حركة المُضْغة - أي القلب - من حيث صلاحها أو فسادها ، وهذا معنى الحكاية ، ومثلها ما يُحكَى عن الشيخ

عبدالقادر قدس الله سره والرجلين معه ، لما وصلوا إلى الرجل الذي يُسَمَّى الغوث ، ويحتجب عن الناس ويظهر لهم متى أرادوا ، والحكاية مشهورة ، وهذا سرُّ حديثِ : الأعمال بالنيات » ، أو كما قال .

وذَكَر رضي الله عنه الطلسمات والعزائم والتنجيم وأمثالَها فقال : « هذه الأشياء كلها أمور باطلة، ولو صَدَقَتْ في بعض الأوقات في بعض الأشياء ، لأن الباطل قد يشتبه بالحق ، فإذا أخلفَتْ في وقتٍ، قال : هذا من الله ، إذاً فاتركها إلى الله أولاً وآخراً ، ولهذا إذا أتيت المنجم مستعجلاً ، قال : دعني أحسب، وقال بعضهم : إن المنجِّم ونحوه متجسِّر على غيب الله ، لأنه ينزله من حاله حتى يركِّبه في الحس ، وقد يتعلم الأكابر أشياء من هذا القبيل ، فيظن بهم ظانٌّ أنهم مُتَدَيِّنون بذلك ، وليس كذلك، وربما تستَّروا بشيء من هذه عن إظهار كرامة ، والكرامة إنما تكون عند الحاجة ، وربما توَهَّم بعضهم عند ظهورها أنه كان قادراً عليها قبل ذلك ، وإنما أظهرها حينئذ ، وما راح بالناس إلا أهل الإشارات وأهل البدع ، وأولئك[1] معذورون ، وأولئك[2] غير معذورين ولا مأجورين ، والناس في طرف البحر، نَشْغَوا بهم[3] في الغُبَّة ، وهل قال لك أحد : إنه يمكن أحداً أن يدخل البحر بلا مركب ؟ لا يمكن ذلك ، حتى لمن يسير على الماء ، الغاية إنما حصلت له كرامة في لحظة ، وما يدريه لعله يغرق » أو كما قال .

وقال رضي الله عنه لرجل يُعَزِّيه في ابن له مات غريباً : « إن الله يَمُدُّ له من قبره إلى موضع ولادته ، والحمد لله على الوفاة على الإسلام ، إن الإنسان أصله التي هي النطفة تُمزَج بترابِ أرضِ قبره ، والأعمار مكتوبة ، كلٌّ له حَدٌّ معلوم ، ولا يخلو في كل سنة أو شهر من مصيبة ، لأنه معرض لها ، ومن عمره خمسون من أين لك أن تَرُدَّه عشرين ، ولكن تَذَكَّر الأمور التي تُنَفِّس عليك ، ودَع تَذَكُّر الأمور المنكِّدة، وأكثر ما يُتعِب الإنسان قوله : لَو ، لَو ، لأن لَو تفتح عمل الشيطان ، ولا يحصل منها إلا التعب : ﴿لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا﴾ »[4].

وقال له رضي الله عنه رجل في شهر رمضان : « أريد كتاب كذا نطالع فيه » ، فقال له : « إن رمضان شهر عمل، فاترك فيه العلم، يكون في غيره ، فإن رمضان لمجرد العبادة ، ألا ترى كيف يترك الناس فيه التدريس ، إلا إن كان بعد العصر تذكيراً للأصحاب إذا جلست معهم ، فاجْتَهِدْ فيه في العمل وتنظيف الباطن ، وجعل الله في نهاره الصيام ، وفي ليله القيام ، فيستعمل فيه ما حصله قبله من العمل ، فمن جمع في وقت شيئاً من الأمتعة استعمله وقت الموسم ، وكان رجل في وقت السهروردي قال له : ادخُل

---

(١) أي أهل الإشارات . اهـ « م » .

(٢) أي أهل البدع . اهـ « م » .

(٣) أي رموا بهم . اهـ « م » .

(٤) أي يقول للكفار ذلك ، فلا تقتدِ بهم . اهـ « م » .

الأربعينية لعل الله أن يفتح عليك بشيء ، فَدَخَلَها ، فنام ذات ليلة فرأى تحت رأسه ورقة فيها ٢١ دائرة فخرج فقال : فُتِح عليَّ بهذه ، فبعد ساعة دخل عليه رجل بواحد وعشرين ديناراً .

وأهل الزمان إنما هم على التشبُّه والرسوم ، ومَن تَشَبَّهَ ولا معه شيء من الدعاوي الكاذبة فهو على خير ، وإلا الأشياء التي تُذكَر عن الأولين قد طُوِيَت ، إلا إن كان في الزمان خبايا ، ولله تعالى أخلافٌ ما زال الدين قائماً والبيت قائماً ، لا بد منهم ، ولو أنهم حتى في القفار ، أما ترى هنا القرآن يُرفع[1] ، والدين يُرفع ، فهذه من البقايا وإن اختفوا ، وما المؤمنون إلا سابق ومسبوق ، والمؤمنون على خير ، مَن لَقِيَ اللهَ مؤمناً دخل الجنة ، أو عليه شيء من الذنوب أدخله الله النار بقدر ذنوبه ليطهِّره ، والناس بالنسبة إلى الله تعالى أهل تقصير كثير ، وإن فعلوا ما فعلوا ، فإذا كان النبي ﷺ يعترف ، فكيف بغيره، وأنت اُعْبد الله على قدر ما عندك من العلم والنور ، واترك الإغترار والتعلق بصالحين قد مضوا كما يفعله كثيرون ، فالذي اعتمدوا عليهم ، لأي شيء لم يتركوا العمل ، والإنسان يَنهى ولا يَنأى ، بل إذا نهيتَ وهناك خير إلزمه ، إلا من يرد الدين أو يعترض على الدين ، فلا تخض فيه ، بل اتركه ، فإنه كالذي يريد أن يرمح ، ومن الناس من لا يمكنك أن تجذبه إلى الخير ، أو عن الشر ، إلا بترغيبٍ في الرئاسة بأن تقول له : أنت فلان ، ومن رآك تفعل هذا سقطتَ من عينه ، وإن لم تفعل كذا استحقرك الناس » .

وقال له نفع الله به ذلك الرجل المذكور آنفاً : « لا ترون علينا ، فإن السكوت عن هذا أقرب إلى الأدب » ، *فقال* : « لا بأس بذلك ، فإنك تحيي المذاكرة ، وأنت كالصائد ، ونحن ما نحابي ، إذا كان المجلس وقت فسحة ويحسن ذلك تَكَلَّمنا ، وإلا قلنا له : اترك الكلام إلى وقتٍ آخر » .

وقال رضي الله عنه في قولهم: « لا يقيم على معلوم » : « وأين هذا ، لا يستقيم إلا لمتجرِّد ، لا يعوِّل على أهلٍ ولا مالٍ ولا على أحد » .

وذكر رضي الله عنه الصمت ، *فقال* : « هو محمود، إلا إنه لا ينبغي أن يبقى الصامت بلا ذِكْرٍ وفِكْرٍ » .

وقال رضي الله عنه ضحى يوم الإثنين سادس ذي الحجة سنة ١١٢٤ : « مع الناس شغل العيد ، لأن هذه العيد مشهورة في الجهة ، حتى سموها : الدُّهمة ، لا تبقي ولا تذر ، ويتكلفون فيها كثيراً ، حتى قالت العامة : راحت العيد بزينها وبقي همها ودَينها وهي أشهر من عيد الفطر بكثير ، مع إنها في مكة لا تُعرَف ، لأنهم في هذه الأيام يكونون مشغولين بأمر الحج والبيع والشراء » .

فقال بعض الحاضرين : « قد ينفق الرجل منهم إذا حج ثلاثمائة قرش » ، *فقال* : « لأنهم يتكلفون

---

(١) أي العمل به . اهـ « م » .

إذا حجوا أشياء ، ولأجل ذلك قد يشيب الرجل منهم ولا يحج ، لاستثقاله من تلك العوائد التي يعتادونها في حجهم » .

فقال الرجل : « يشبه هذا عندنا أيام المحلة حيث يتكلفون فيها » ، *فقال* : « وكل هذه أوزار يحملونها على ظهورهم ، ما في الكُلَف إلا كَلَف » .

وقال رضي الله عنه : « أهل الزمان حُسْنُ ظنهم في الأموات أحسن منه في الأحياء ، لعظم حجاب البشرية فيهم » .

وقال له رضي الله عنه رجل: « متع الله بحياتكم » ، *فقال* : « ما عاد نرغب في الحياة في هذا الزمان، لأنه زمن إدبار ، وإذا بقي في حضرموت واحدٌ أو اثنان يعلِّمون الناس ظاهرين، فيهم كفاية ، ولو إن رجلاً خُيِّرَ بين المغفرة وبين مائة قرش ، لاختار الدراهم على المغفرة ، لفَرْطِ غفلتهم عن الدين ورغبتهم في الدنيا ، ولو قيل : كل من طلب العلم فهو جبري[1] ، لرأيتهم يتبادرون إليه[2] ، ولو كان في الدول نظر وأدنى رغبة في الدين لحصَّلوا[3] أمور الدين ، لأن معهم منهم بعض رهبة ، فلو قالوا : من صلىَّ أو من فعل كذا من أمور الدين خُفِّف عليه مما يؤخذ منه لفعلوا ، ولكنهم ما يهمهم إلا ظلمهم من غير حق، ووضعه في غير مستحق كما قال فلان : إنهم طلبوا الزكاة وبالغوا كأخذ عمر بن الخطاب ، وفرَّقوها كتفريق الحَجاج » .

وسأل رضي الله عنه رجلاً عن سِنِّهِ ، فقال الرجل : كذا وكذا ، *فقال رضي الله عنه* : « بعض الرجال الخُرَّق إذا قيل له : كم سنك؟ ربما يذكر دون ذلك ، ويحب أن يكون ما مضى من عمره قليلاً ، ويظن أنه إذا كان كذلك أنه بقي له عمر طويل ، وإن مضى كثير من عمره ، فهو إلى الموت أقرب ، وإن كان يعلم أن الموت يأخذ الصغار والكبار ، يتسلى بذلك ، وهذا من الشك النافع ، الذى هو رحمة للإنسان، فقد يكون الشك خيراً من العلم في أشياء ، مثل هذا ، والعلم خيراً من الشك في أشياء ، وفي الشك في مثل هذا تسلية وراحة » .

وذكر رضي الله عنه اعتياد النفس للأعمال ، *فقال* : « هذا عامٌّ في الخير والشر ، فينبغي أن يُعَوِّدَها الخير مع المشقة ، حتى تعتاد فيسهل بعد ذلك ، وربما يكون بحيث لا يصبر عنه ، ويعَوِّدها ترك الشر مع المشقة ، حتى تعتاد تركه حتى تشمئز عنه ، مثاله : رجلٌ يَكره أن يجلس في مجلسِ قوم يَكره مجالستهم،

---

(١) أي ليس عليها طِلاب من الدولة يأخذون من ماله ، وهو عكس (العشري) الذي يعشِّرون ماله ، أي يأخذون العُشر . اهـ « م » .

(٢) أي لأجل التجبرة لا العلم . اهـ « م » .

(٣) أي الرعية والدولة . اهـ « م » .

فإذا جلس أول مرة مع الاستثقال ، فلا يزال يَسْهُل عليه حتى لا يصبر عنه ، وكذا في الرجل ينقر الصلاة نقراً ، فإذا تكلف الطمأنينة مرةً فمرة ، بحيث لا عاد يصلي إلا بطمأنينة ، وبالعكس لو كان يطمئن فنقرها مرة ، ثم لم يزل كذلك حتى لا يبالي بأن يصلي صلاة باطلة ، وعلى هذا ، وليس ذلك لكل أحد فإنما هو بالنصيب » .

وذَكَر رضي الله عنه البرد ، فقال : « في البرد تعريف ومنافع أخرى ما لم يَجُر ، فإن جار فهو كالخراب، وله ثورات حتى يُضرب به المثل ، فيقال : فلان كالبرد ، إن لم يَثُر في أوله ثار في آخره ، وشدته في ستة نجوم : الثريا وما بعدها » .

ثم ذَكَر الطبائع وما يليق بكل وقت من الأكل وقال : « إن العسل في الربيع أحسن منه في غيره، فإذا عرف الإنسان العلوم وقواعدها ومظانها أمكنه الاستنباط ، وإذا تفكَّرْتَ في كل علم رأيتَ إنما أصله من ثلاثة أقسام ونحوها ، كقوله عليه السلام: بُنِيَ الإسلام على خمس ، وإنما تفرع الباقي من ذلك» ، حتى ذَكَرَ علم الحَرْف وطبائعها فقال : « هو علمٌ جليلٌ ، ولا يتمكن منه إلا من هو من أهل الولاية» .

وذكر رضي الله عنه أناساً إنهم يتعنَّتُون في شيء من الألفاظ ، فذم التَّعَنُّت كثيراً ، ثم قال : « ولا يخلو كلُّ أحدٍ من أجرٍ على قدر نيته ، إن كان له في ذلك نية ، وإنما الآثم الخاسر من كل وجه من لا له مقصد إلا الكِبْر والعُجُب » .

وقال رضي الله عنه في قولهم : « بأن لا يعتقد أن الصالحين معصومون ، بل قد يقع منهم الزلة والهفوة»، قال : « أي على سبيل القِلَّة والندور ، وإلا صاروا كالعامة والفساق » .

وقال رضي الله عنه في ما جاء في الحديث : « إن فاطمة رضي الله عنها أتته عليه السلام بكِسْرَةِ خُبزٍ وقالت : خَبَزْتُ خبزاً ، فما طابت نفسي حتى أتيتُك بهذه الكسرة ، فقال عليه السلام : أما إنه أول طعام دخل فم أبيكِ منذ ثلاث » : « إنه عليه السلام كان يتنقل في بيوته التسعة ، كل ليلة في بيت ويخرج أيضاً إلى خارج المدينة ، ويصوم ويجوع ولا يعلمون به ، وكل موضع يجيئه يظنونه قد أكل في الموضع الآخر، حتى إنهم طلبوا يوماً معرفة كونه صائماً أم لا ، فأطعموه فأكل فعرفوا أنه مُفطِر » .

ثم تكلم سيدنا في الجوع ، فقال : « ينبغي أن يُنقِصَ كل ليلة لقمة ، حتى يصل إلى حدٍّ لا يتغير عليه عقله فيه ، فيلزمه ، وأقوام يدخلون الخلوة على غير هذه المقاصد ، بل يقصدون أموراً أخرى ، فلهذا تتغير عقولهم ، لأنهم إذا اشتدَّ عليهم الجوع قد يسمعون أصواتاً وأشياء ، فيفزعون ويتغيرون منها ، ولو أخذوها بشروطها وحقوقها لما حلَّ بهم ما حل » .

وقال رضي الله عنه : « إذا بقي العُود فالخير يعود ، وإن راح فكل شيء إنما هو للفناء ، ولكن إنما هي

مقدمات ، الأول فالأول » .

وتكلم نفع الله به في شدة ما في الناس من الطمع ، *ثم قال* : « **راحت عقولهم وقلوبهم ، أخَذَها الخوف والطمع »** .

ذِكرُ ابتِدَاءِ مَرَضِ وَفاتِهِ نفعَ اللهُ به

ولم يزل سيدنا رضي الله عنه مواظباً على عوائده كلها ، من حضور الصلوات وترتيب الأوراد ومجالس القراءات في البُكر والعشِيَّات إلى عشية يوم الخميس ٢٧ من شهر رمضان سنة ١١٣٢، وقد حصل معه بعض الألم ، وكان ذلك يعاوده ويعتاده - وسيأتي ذِكْره من لفظه هو - فما خرج لصلاة عصر ذلك الخميس المذكور ولا للقراءة ، بل أَمَرَهم أن يقرأوا على عادتهم في حضوره ، وهو عند الخلفة من الغيلة يسمع قراءتهم ، وكان قراءتي في « إرشاد » اليافعي ، ووَقْفِي على قصيدة اليافعي فيه التي أولها : « قِفَا حَدِّثاني فالفؤاد عليل » ، فقرأتُها فقط ولم أزد عليها ، وبعد إنقضا القراءة ، **قال** : « **ما قرأتَ كثيراً** » ، قلت : اكتفيتُ بالقصيدة وحدها لعدم حضوركم المعتاد .

ثم خرج لصلاة العشاء ليلة الجمعة وتراويحها ، ودخل بعد أن ابتدأوا في الذِّكر ، ولا خرج لصلاة الجمعة ، بل لما كان وقت طلوعه إلى البلاد لأجلها ، قال لي : « **اطلع ، ما بايقع لنا طلوع ، لأنه أشغلنا احتباس راقة ، الظاهر ، ولا أرى لذلك سبباً ، هل هو من يُبس أو غيره ، وقد يحصل لي ذلك لكن في وقت يسير ويزول ، وفي هذه المرة طال قليلاً ، ولا أستر للإنسان من العافية ، وقد قال النبي ﷺ : ولكن عافيتك هي أوسع لي . وخشيت من طول الجلوس يحصل بسببه ألم ، ولكن كما قال الشافعي** - ولا ذَكَرَه - **فادعوا لنا بالعافية** » .

ومضى أولاده لصلاة الجمعة ، وجلسوا بعدها في الدار مجلسه المعتاد ، مع قراءة القرآن على عادته في رمضان نحو جزءين ، ثم خرجوا وصلوا العصر بالحاوي ، ولا خرج لها ، وقرأوا بأمره على العادة في الكتب المعتادة في شهر رمضان ، وقرأت القصيدة التي أولها : « مَن بَانَ عن ربع من نهواه والطلل »، وهو يستمع كالأمس ، وخرج لصلاة العشاء ثم بعدها وبعد صلاة السُّنَّة أشار إليهم لصلاة التراويح بالتنحنح ، وهذه عادته كل ليلة ، ثم دخل ، وهذه الليلة - أعني ليلة السبت ٢٩ رمضان - هي ليلة ختم مصلى الحاوي ، وما ترك الحضور وهو يمكنه .

وبعد صلاة عصر يوم الأحد سلخ رمضان دعاني وطلعت عنده في الغيلة ، فصافحته وقبَّلت يده الشريفة ، وهو مضطجع على سريره ويده حارة كالمحموم ، وسألني : « **كيف أنت ؟** » ، وتحادَثتُ معه ساعة ، وسأل عن قراءتي ووَقْفِي ، وأي باب انتهيتُ إليه من « الإرشاد » ، وسأل عن الباب الأخير الطويل في « الترغيب والترهيب » ، وقال : « **تأخر تمامه ، وظنناه يتم قبل هذه المدة** » ، ثم قال : « **امض احضر القراءة** » ، وكانوا إذ ذاك في حال القراءة ، وهم يقرأون في المصَلَّى على عادتهم يوم كان يحضر في شهر رمضان وفي ست شوال ، وفَرَغْتُ من القراءة آخر يوم من الست .

ولسؤاله وكلامه هذا نفع الله به معنى عجيب يفهمه الفطن الحاذق اللبيب ، ولهذا دعاني إليه في مجلس القراءة ، ولا خرج رضي الله عنه لصلاة عشاء ليلة العيد ، وهي ليلة الإثنين ، ولا لصلاة العيد، وأشار إلى أولاده الكرام بشهودها ، وتخلَّفتُ عنها لِتَخَلُّفه ، وخَفَّ عنه ذلك اليوم ما يجد من سبب الراقة ، ثم عرض له وجع آخر في الجنب ، وسألت سيدي ابنه الحبيب حسن : هل به حمى ؟ ، قال : « لا ، إنما يده حارة فقط » ، وقد يكون ذلك ، وكنا مجربينه إذا مشى أو ركب أو نزل من المركوب أحس يده حارة .

وجاء إليه رضي الله عنه ضحى يوم العيد السيد زين العابدين وأخوه السيد شيخ ، معاودين وعائدين ، فجلس لهما مجلساً فسيحاً ، وكنت حاضراً ذلك المجلس المنور ، فقال لهما : « **سبب ذلك بعد تقدير الله فيما ظهر لي : التقصير في بعض الأمور كالتأديب ، وذلك أني خرجت إلى السادة آل فقيه[1] ليلة الأربعاء سادس عشرين من شهر رمضان ، وقد كان النبي ﷺ يترك أمور الدنيا في هذه الأيام - يعني العشر الأواخر - وكان ﷺ يعتكف فيها ، ولا يبيت فيها عند أحد من نسائه كعادته ، لكن فعلنا ذلك استمراراً على إجراء الحقوق والإقامة بالجبر من غير داعية لشيء ، ولا عاد معي طلب لشيء ، ولو كان مع الإقامة بذلك استعمال - قال هذه الكلمة مزحاً وتبسطاً معهما - وقد خرجت ليلة ختم الحاوي، وصليت العشاء والركعتين بعدها ، لكن مع الحرقة الحاصلة أحس معي لاكِز في الكلوة ، فما أمكنني المقام ، وأنا عازم إن تنشطت رجعت ، ولكن ما ينبغي أن يكلف الجسم عمل الهمة ، وقد قالوا : همة العاقل أقوى من جسمه ، وجسم الجاهل أقوى من همته** » .

وتقدم قوله : « **القُوى ضَعُفَت ، فلا يمكنها تساعد الإنسان على ما يريد ، فربما نهم بالأمر لا تساعدنا عليه القوى ، فالهمة قوية ، والقوى ضعيفة ، والروح أقوى من الجسم ، وإذا قوي الروح حصل للجسم قوة ، وإذا حصل على الروح ما يوجب الإنقباض انهدم الجسم ، واللاكِز قد يحصل ، لكن أداويه بالزباد وغيره ، فيصح ولا يحس به أحد ، وهذا فيه زيادة على ذلك ، ولكن الحمد لله حيث العافية حاصلة ولا شي زيادة ، وقد رأى العيال في بعض كتب الطب عندهم : إنها علة خفيفة ، وقد كنت حكيت لكم بالرؤيا التي رأيت فيها السيد علي بن عبدالله ، وهي : أني رأيت كأني وَرَدْتُ عليه وهو في مجلس مستطيل ، وهو في طرفه الشرقي ، وأنا في القبلي ، وبيني وبينه مسافة ، وكأنّا جئنا لسببٍ يوجب الإجتماع ، كالعزاء ونحوه ، ومعنا من الصغار كثير جاءوا في جُرتنا[2] ، وقد كنت قبل وفاته أظن أني وإياه متقاربين في الوفاة ، فلما رأيت ما بيني وبينه من المسافة في المجلس ، قلت : هذا يكون**

---

(١) حيث له زوجة عندهم في البيت المذكور . اهـ « م » .

(٢) أي تبعتنا . اهـ « م » .

مسافة مدة ما بيننا وبينه في الوفاة » .

وقد تقدم ذِكْر هذه الرؤيا بأبسط من هذا عند ذِكْرِه للسيد علي المذكور ، وكان مدة ما بين وفاته ووفاة السيد علي سنة ونحو ١٩ يوماً ، ثم قال : « والحمد لله ، وقد ذكرنا لكم من المعمرين من آل باعلوي ، كالسيد عمر بن أحمد عاش ٩٥ سنة » ، وعَدَّدَ جماعة آخرين عُمِّروا ، وذَكَر عُمْرَ كل واحد منهم .

أقول : وَذِكْرُهُ لهذه الرؤيا والمعمرين من السادة يشير إلى إنه يتوفى من هذا المرض ، وأكثر إشاراته رضي الله عنه إلى وفاته كانت منه سنة ١١٢٨ ، كما قدمنا ذِكْرَها فلا نعيده ، وذلك لغُزْرِ قَعْرِ بَحْرِ عِلْمِهِ وكَتْمِهِ الأسرار ، وستره للمغيبات وحفظه الشؤون الإلهية .

وقد ذَكَر لي ابنه الحبيب الحسين رحمه الله غير مرة قال : مَرِض الوالد فيما سبق أيام صغري مرضا شديداً أشفقنا عليه ، فكنت يوماً والكريمة بهية رحمها الله جالسَين عنده ، إذ قال : « كان السيد عمر بن أحمد مَرِض مرضاً شديداً خيف عليه منه ، وكان ذات يوم عنده ابن وبنت له يحبهما كثيراً ، فجعلا يدعوان له ويقولان : اللهم زد في عمره من أعمارنا ، اللهم زد في عمره من أعمارنا ، ويكرران ذلك كثيراً، فصَحَّ من ذلك المرض ، وعاش عمراً طويلاً ، وكان يرى أن ذلك زيد له من عمريهما » .

قال : وأملى عليَّ الوالد قصيدته : « يا رحمة الله زوري » ، حين أنشأها في مرض ، فقال عند ختمها :

يَـا رَبِّ وَاخْتِـم بِخَـيْرٍ　　　إِذْ حَـانَ حِـين المسِـيرِ

فتعبنا من ذلك ، ولكن بَعْدُ مَنَّ الله عليه بالعافية فأصلحها : « إن حان حين المسير » .

وقال له السيد زين العابدين : « ما الذي يناسبكم من الزاد ؟ » ، فذكر سيدنا ما يناسبه حينئذ، وذلك قبل أن يشتد عليه الألم كثيراً ، فقال : « يناسبني الرُّطَب كثيراً ، حتى إني لم أدَع كل ليلة عند العَشاء من أخذ حبتين أو ثلاث ، وكان الوقت ذلك الحين وقت الرُّطَب » .

فقال له السيد زين : « أيناسبكم التين؟ » ، فقال : « لا ، لأنه حار ، وأرى الصغار يتولعون به ، فأُعطِيهم إياه ، وإلا ففيه عندنا هذه السنة كثرة » .

ثم أمر بالقهوة وبعدها البخور ، وبعده قرأ الفاتحة ودعا بدعاء كثير ، ومما دعا به : « اللهم إنا نسألك العافية في الدنيا والآخرة ، اللهم إنا نسألك الهدى والتُّقى والعفاف والغنى ، اللهم متِّعنا بأسماعنا وأبصارنا وحَوْلنا وقُوَّتنا ، اللهم متعنا بالعافية ، ومُنَّ علينا بدوام العافية ، اللهم إنا نستحفظك ونستودعك أدياننا وأنفسنا وأولادنا وأهلينا وأصحابنا وجميع من معنا وما معنا ، اللهم اجعلنا وإياهم

أجمعين في حفظك وكنفك وأمانك وجوارك ، اللهم أصلح أمور المسلمين ، اللهم ارحم المسلمين واسقهم الغيث والرحمة برحمتك ياأرحم الراحمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم والحمد لله رب العالمين » .

ثم بقي الناس يتحرون أوقات الدخول عليه نفع الله به ، ويطلبون ذلك ، وهو يعتذر ، سيما والوقت وقت معاودة وعيادة ، حتى وعدهم عشية الأربعاء ثالث شوال بعد صلاة العصر ، فاجتمعوا لذلك ، ثم أُعْلِمَ بهم ، فأذِنَ لهم في الدخول عليه ، وكان غالب كلامه في ذلك المجلس في شُبَه كلام أهل الحقائق ، فأول من صافحه بعض الشيبان من السادة *فقال* له : « **الله الله في الدعاء بالعافية واللطف، وفعلُ الله كله فضل وعدل ، وما جاء من الله للعبد يكون على قدره تعالى لا على قدر العبد ، فينبغي أن يتنبه لذلك من كل الوجوه أو من بعضها ، وما نحن إلا من جهة الرحمة بكم والشفقة عليكم** » .

وهذا ونحوه كلامه إلى أن فرغ منه ، ثم أمر بماء وَرْدٍ ، فأدير به عليهم ، ثم قرأ الفاتحة ودعا : « **اللهم اقسم لنا من خشيتك ..** » الدعاء المشهور ، حتى بلغ : « **ولا تجعل الدنيا أكبر همِّنا ، ولا مبلغ علمنا، ولا تُسَلِّط علينا بذنوبنا من لا يخافك ولا يخشاك ولا يرحمنا ، اللهم أصلح أمورنا وأمور المسلمين ، واسقنا الغيث والرحمة وولِّ علينا خيارنا ، واصرف عنا شرارنا** » ، ثم ختم الدعاء .

وكلما صافحه إنسان مستخلفاً بعد المجلس سأله من هو ، فإذا قال : فلان ، دعا له بخشوع ورحمة وتحنن ، حتى صافحه آخرهم رجل ، فأوصاه بمالِ رجلٍ من أقاربه قد مات ، وبما يتعلق به ، فكأنه استثقل أن يتعرض فيه ، وقال : عسى أن يكون فلان - لرجل آخر قريب له - ولكنه قد قلنا له فاعتذر، فقال سيدنا : « **إنما هو قضى حاجة ، ما في ذلك من طمع ، والكلام ما ينفع في ذلك ، ما المطلوب إلا العمل والنصيحة ، وما ذكر الله القول مجردًا ، ولا على مجرد القول عمل عند الأكابر ، ومن كان مراده ألَّا الأكل والإستيلاء ، ولو على مال يتيم بالظلم ، فلا تَعُدَّه شيئاً ، وقد أوحى الله إلى بعض الأنبياء ، وأظنه داود عليه السلام : أن حَبِّبْ إليَّ عبادي ، فقال : كيف أُحَبِّبُهم إليك ؟ قال : تُذَكِّرُهم نعمائي** » ، ثم انقضى هذا المجلس .

ودخل عليه رضي الله عنه السيد زين العابدين وقت الإصفرار يوم الجمعة خامس شوال ، فجلس مستنداً إلى الجدار مستقبل القبلة في الطرف النجدي من الغيلة متوشحاً بشَمَط ، وليس من عادته لبسه إلا تلك الساعة ، فكلَّمه وآنَسه وأثَرُ العافية بادٍ عليه ، *فقال* : « **ما أظن بي إلا حرارة ، وأوصيناهم يدوِّرون لنا كِرْزَام ، لأنه في غاية من البرودة ، وقد قطعوا نخلة لأجل ذلك فعله بعض الخلفاء** » .

أقول : هو هارون الرشيد ، لما أصابته الحرارة في بعض أسفاره ، وقد مَرَّ على نخلتي حلوان اللَّتَين

يُضرَب بهما المثل في طولهما وطول الصحبة وفي إتحادهما ، فقُطِعَت إحداهما وأُطْعِمَ كِرْزَامها ، فما لبثت الأخرى بعدها أن ماتت ، وللعرب فيهما أبيات كثيرة من الشعر ، في أمثلة تُضرَب في طول صحبتهما ، والتعجب من موت الأخرى بعد صاحبتها ، وكانتا من غرس الأكاسرة .

ثم بقي السيد زين إلى أن غربت الشمس ، ثم قرأ سيدنا الفاتحة وبعدها سورة لإيلاف قريش والكوثر والإخلاص ، ثم دعا : « **اللهم اقسم لنا ..إلخ** » ، إلى أن قال : « **ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ، ولا تسلط علينا بذنوبنا من لا يخافك** - وكررها ثلاثاً - **اللهم أصلح لنا أمورنا ، وأصلح لنا قلوبنا وأجسادنا ، اللهم طهِّر منا باطن الروح وظاهر الجسد ، وحِطْنَا من جميع الآفات ، ونَجِّنَا من الأهواء والتَّبِعَات ، وجُد علينا بفضلك وقُربِك ، واجعلنا من خالص أهل المحبة من حِزْبِك** » .

ثم ختم وقام السيد زين ، ولما صافحتُه قائماً ، **قال** : « **بارك الله فيك ، ووفقك لطاعته ، وجعلك من عباده الصالحين** » ، وأرجو أن يستجيب الله دعاءه هذا وغيره ، لأن دعاءه نفع الله به مقبول عنده ، والله سبحانه لا يُخيِّب من رجاه .

وكل يوم بعد ذلك يجتمعون بعد صلاة العصر ويطلبون عليه طريقاً ، فوعدهم نفع الله به عشية الإثنين ثامن شوال ، فحشدوا ، واستثقل من كثرتهم ، وأراد أن يعتذر منهم ، ثم أمر بدخولهم وهو متكلف لهم ، فدخلوا وصافحوه ، وكلَّم كُلَّ واحد بكلام يخصه ، ولكنه بقي مضطجعاً فوق السرير ، ومكثوا عنده قليلاً ، وأمر أن يُنشَد بقصيدة مختصرة ، ثم بعدها قرأ الفاتحة ، **وقال** : « **قولوا لهم بالقلوب**» ، أي بلا مصافحة ، فخرجوا من غير مصافحة ، ودعا للجميع وطلب منهم الدعاء كما هي عادته .

وصافحته أنا وحدي فقط ، **فقال** : « **كيف أنت ، بخير ؟** » ، وكلما اتَّفَقْتُ به في هذه الأيام في شكواه هذه قال لي هذه الكلمة .

ودخلتُ عليه رضي الله عنه ضحى يوم الجمعة ١٢ شوال ، وهو في السطح الشرقي وعنده السيد زين العابدين ، فبقي يتكلم ساعة ويُهوِّن مرضه هذا كثيراً بالنسبة إلى مرضه الأول ، **فقال** : « **أين مرضنا الذي عام العام** - أي عام ١١٣٠ - **من هذا ، ذاك حُمَّى مُطْبِقَة ، وهذا إنما اشتد بسبب الإنحسام**» ، ونحو هذا الكلام .

ثم قال له الأولاد : « عسى نقوم مع السيد زين نتقهوى في الغيلة » ، **فقال** : « **مليح ، وعاد شيء غير القهوة ؟** » .

قالوا : « بعدها يعلم الله ما يكون » ، **فقال** : « **إن كان شيء غيرها هاتوا قِسْمِي إلى هنا ، وإن قلَّ ، فإنَّا نتبارك بكم أكثر مما تتباركون بنا** » ، فعندما قال هذه الكلمة ، أخذت السيد زين العَبْرَة ، فبكى وخشع

كل من سمعها ، فرضي الله عنه ما أحسن أخلاقه ، وأطيب معاشرته ومحادثته ، وما أعرفه بربه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، ثم قرأ الفاتحة ودعا وخرجوا إلى المكان المذكور .

ودخل عليه رضي الله عنه هذا اليوم جماعة من السادة ، فُرَادَى ومجتمعين ، كالسيد سقاف بن عبدالله ، استأذن وحده فأذِنَ له بالدخول ، ولم أعلم له زيارة لسيدنا قبلها ، وقد أرسل مرة فيما سبق، هو والسيد محمد بن سقاف العيدروس ، أرسلا يستأذنان سيدنا في زيارته ، فلم يأذن لهما إستنكاراً لمجيئهما الآن مع عدم إعتيادهما للزيارة من قبل ، فأذِنَ للسيد سقاف في هذه المرة لكونه مستودعاً وداع آخرة، وأعطاه قميصاً وجعل يوصيه : « **الله الله في التوالي مع إخوانك العيال ، ﴿وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾** » ، ومثل ذلك ، ثم قرأ الفاتحة واستودع منه وخرج .

وعشية هذا اليوم كنت أجني رُطَباً من النخلة العَشْدَلية ، التي هي مقابلة الحَلْقَة النجدية من الغيلة، فلما أحس بي ، ناداني ثلاث مرات ، بحَنانةٍ وشفقة : « **يا حاج** » ، وكانت هذه مناداته لي فلَبَّيْتُهُ، فقال : « **ذا مَن عليك يا حاج ؟** » ، قلت : ما عَلي من أحد ، وبقي يقول في نفسه ، وأنا أسمع : « **يا حويِّج مَن ذا عليك ، يا حويِّج مَن ذا عليك ، يا حويِّج مَن ذا عليك** » ، ثلاثاً ، فعرفت من هذا أنه يَتَرَثَّى لي من أمور ستعرض لي ، والله المستعان ، وما رأيتها إلا بعد فراقه ، من أمورٍ لا تُحكَى ، في حضرموت وفي الحساء ، لو أخبرتُ بها الناس لعجبوا ، وعلموا أن مصادمتي لها من باهر كراماته وخوارق عاداته رضي الله عنه ، حتى إني بحضرموت لم أطق أرى موضعاً كنت آلف منه الجلوس فيه ، أو كنت أمر معه به ، وأود الفرار منه بسرعة ، فهذه مقدمة لبعض الشؤون ، وأما في الحساء فأمور كثيرة رأيتها من إشاراته رضي الله عنه ونفع به .

وعشية يوم ثامن عشر شوال كثروا العُوَّاد وتجمَّعوا ، واشتد طمعهم في الدخول عليه، فأرسل اليهم ، وقال : « **أما أنا فلست متكلفاً لأجلكم الجلوس ، ولا أريدكم تدخلون علي وأنا مضطجع ، فادعوا لي وأنا أدعو لكم** » ، وأعذَرَهم فانصرفوا .

ومرة قبلها قال : « **قُلْ لهم في مثل هذا الحال : أتركوني أنا وربي ، ولا تكلفوني شططاً ، وأنتم إلا في الخاطر ، وأنا داعي لكم فادعو لي** » .

ثم عشية الجمعة ١٩ شوال تجمعوا وأرادوا الدخول عليه ، ورجوا أن يأذن لهم ، ووافق أن جاء السيد زين العابدين وهم مجتمعون ، فأذن له ولهم معه ، فدخلوا وازدحموا ، فصافحه من جملتهم رجل كان يُرقي من العين ، فقال له : « **الله الله في الهمة ، وعمدة العمل على الهمة ، وهمة أهل هذا الزمان في أسباب المعاش ، ولهذا يغبطون من معه منها شيء ، ويُعَظِّمون أمره ، وهذه الأسباب لا تُذكَر** » .

فذكر له السيد زين أنه أصابته قبل هذا بيومين عين ، وذلك أنه جلس عنده رجلان معروفان بالعيانة ، فوسوس منهما ، فلما قام اِلْتَوَتْ رجلاه حتى لم يطق القيام إلا بشدة بعد مدة ، وبقي متألماً من رجليه زمناً طويلاً ، فأوصاه سيدنا بالحذر والإحتراز من العين ، وقال له : « **إن الناس ماعادهم إلا كالخلقان بالنسبة إلى الجديد الصحيح ، لِمَا هم عليه من الإستكثار والحسد ، فلا شيء أخس من العين، وقد كانوا في وقت الإمام الغزالي لمّا أصابه ذلك العارض الذي عرض له ، حتى بقي لا يقدر على الكلام، قالوا : إنما هذه عَيْنٌ أصابت الأمة** » .

وسأله السيد زين عن نومه إذ ذاك ، فقال : « **هو أكثر من أيام الصحة** » ، ثم أمر بإدارة ماء ورد ، ثم قرأ الفاتحة ودعا كعادته ، ثم خرجوا من غير مصافحة ، إلا السيد علي بن حامد ، فقال له يباسطه : « **يا علي ، يا علي اُدْعُ لي ، والقهوة عَلَيَ** » ، ثم إنه في الغد أرسل له نصف قرش ، ولكريمته مثل ذلك .

ثم صافحته وقال لي: « **أحمد** » ، قلت : لبيك ، وما أعلم أنه ناداني كذلك ، إلا هذه المرة ، فقال : « **الله الله في الدعاء** » ، قلت : قد دعوت لكم اليوم بالعافية عند الفقيه المقدم ، فقال : « **نعم ، اُدْعُ عنده** » .

ويوم السبت حصل له رضي الله عنه ورم في البطن ، وورمة مثل البيضة تحت السُّرَّة ، اشتغلوا منه جدًّا ، وبعد صلاة صبح يوم الأربعاء فاتحة أو ثاني يوم من ذي القعدة ، وصل الشيخ عمر بن عبدالقادر العمودي زائراً وعائداً له في نحو عشرة من أصحابه ، وليس له عادة قط يجيء في مثل هذا الوقت ، إنما جاء لهذا السبب ، فلما جاء مكث يومين لا يؤذن له في الدخول ، ثم بعدهما قال سيدنا : « **أين الشيخ عمر ؟** » ، مرتين أو ثلاثاً .

وليلة هذا الأربعاء المذكور رأى أحد من أهل البيت كأنها تخاطب أخرى ، فإذا رجل قد صعد السطح ، فقالت صاحبة الرؤيا : من هذا ؟ قالت الأخرى : هذا سرور ، طلع إلى عند حبيبه ، فأُعلم بالرؤيا فاسْتَرَّ بها ، ويوم هذا الأربعاء فَشَّ ورم البطن ، لكن حصل له بُحَّة في الحلق وانقطاع في الصوت ، فشقَّ عليه لذلك الكلامُ .

وقد حصل مثل ذلك للنبي ﷺ في مرض موته ، وفي ذلك إشارة إلى أنه لما كان شديد المتابعة له عليه السلام في حياته ، وأوقات صحته ، في كل حالاته الاختيارية من عباداته وعاداته ، أجرى الله عليه مثل ما أجرى عليه عند وفاته ، مما ليس له فيه اختيار ، تتميماً للمشابهة والإتحاد والإنتساب ، رضي الله عنه ونفعنا به في الدارين .

وبعد صلاة عصر يوم الخميس دعا سيدُنا الشيخَ عمر المذكور ، فدخل وصافحه وقبَّل يده ، فقال

له سيدنا : « **مرحبا بالعمودي ، مرحبا بالعمودي ، مرحبا بالعمودي** » ، ثلاثاً ، ثم إنه أراد أن يتمسح بسيدنا ، فقال له : « **تمسح، خلوه يتمسح** » ، ففعل ، ثم قرأ الفاتحة ورفع يديه بالدعاء ، *ثم قال* : « **خلوا العمودي يتوطَّى ، وعاده يعود** » ، فنزل من عنده .

ومنذ أصابته رضي الله عنه البُحَّة ، لا قُوت له إلا نحو مُجّين أو ثلاثة رائباً لا غير ، وفي هذين اليومين الأربعاء والخميس ، بل والجمعة ، ما تناول شيئاً قط ، وزاد عليه الأمر ليلة الجمعة ويومها إلى الغاية ، حتى بقي الناس في غاية من التعب عليه ، فلما كان وقت العصر من يوم الجمعة خَفَّ عنه بعض ما يجد من البُحَّة ، ولكن ما أكل شيئاً إلا ضحى يوم السبت ، نحو ثلاثة أمجاج رائب ، ولم يذق بعد ذلك شيئاً إلى أن توفي ، بل مدة مرضه ذلك كله ، ما يأخذ شيئاً إلا إن كان قدر العُلْقة من الزاد ، وكذلك الشراب .

وأخبرني سيدي الحبيب ابنه الحسن ، وكان هو الذي لازمه وخدمه في مرضه ذلك ، وحَظي به من بين الأولاد ، إنه - أعني سيدنا - ليلة هذا السبت خامس ذي القعدة أخذ ساعة يذكر فقيره ومحبه، ويقول : « **أين الحساوي ؟ أجاء الحساوي ؟ نبهوا الحساوي ، قولوا للحساوي يجلس هو والرجَّال في الضيقة ، لا بعد يطلع لأنا الساعة ما بعد نحن بمفسوحين ، خلوه يجلس أولاً** » ، ونحو هذا الكلام ، فقلت للحبيب حسن : من الرجل الذي يشير إليه، هل ظهر لك من هو ؟ قال : « **الله أعلم** » ، وما هناك رجل يشار إليه ، إلا إن كان يعني الخضر أو أحد آخر .

ودخلتُ عليه رضي الله عنه يوم الأربعاء ثاني يوم من ذي القعدة ، فرأيته وهو مُسَجًّى وكأنَّ بدنه ووجهه لا لحم فيه ، بل مجرد جسم وجلد وعظام فقط ، وكان يتمنى أن يكون كذلك عند موته ، وقد أخبرني ابنه الحبيب حسين إنه سمعه منذ مدة طويلة - أظن نحو العشرين السنة - يقول : « **أشتهي أني يوم أموت ولا في جسمي مُزْعَة لحم ، وكنا نسمع أهل بلدنا يقولون : رحم الله جثة لم تُخَثْلِم قبرها - أي تقذره - ولكن من لك بمن يصبر عليك إذا طال بك المرض ، فلو أن أحداً وَضَّاك مرتين أو ثلاثاً، مَلَّك وضاق منك** » .

وقال لي ابنه الحبيب حسين أيضاً: احتجم سيدي الوالد ليلة عشرين من شهر رمضان ، سنة ١١١٢ وعشر في نجم الثريا في الليل وقت العشاء ، وكان معه شبه الفرسة ، ولم يخرج إذ ذاك لصلاة العصر ولا المغرب ولا العشاء ، وسمعته وهو يحتجم يقول : « **الإنسان في هذه الدنيا معرَّض للأمراض والأعراض والأغراض** » ، وسمعته يقول : « **إني أجد في نفسي هذه السنة زيادة لحم من غير سبب ، وأنا أحب أن لا أموت وعَلَيَّ كثير لحم ، ولا أحب أن أموت بطول مرض ، وقد اشتهى الشيخ أحمد الرفاعي ذلك ، فتم له ، ولكن مَرَضٌ حصل عليه باطن ، ولكن الشيخ أحمد وافق زماناً أشبه من زماننا ، وزماننا**

هذا كما ترى ، لو طَلَبْتَ في الخمسة الفروض واحداً يُوَضِّيك ضَجِرَ منك » ، *ثم قال* : « وما نسمع ما يقول الناس : رحم الله جثة .. إلخ » .

أقول : فتم لسيدنا نفع الله به ما تمناه واشتهاه من ذلك ، ومن أول ما حصل عليه هذا العارض وهو يذكر إنه إنما هو عين ، وصَرَّح بذلك مراراً ، وكذلك أيام صحته ، قال كما تقدم : « **أكثر ما كان خوفي من العين والسم** » ، وأشار إلى ذلك مراراً أخرى ، كما ذكر في قصة الإمام الغزالي : « **إنها عينٌ أصابت المسلمين** » ، وكلما عرضوا عليه نفع الله به شيئاً من القوت ، أو ذكروه له ، ذكر قصة الفقيه المقدم عند موته ، وكان يأمر برش الماء عليه كثيراً ، قلَّ ما يفتر عنه ، بل كل ساعة يشير إليه ، وذلك من نحو نصف شوال ، فلذلك ظنوا أنه حرارة كما تقدم من قوله : « **ما أظن إلا أنَّ بي حرارة** » ، وطلبُهُ للكِرزام، لكنه لم يقبل شرب الماء ، فلما رأوه لم يقبله اِنْبَهَمَ عليهم الأمر ، فإنَّ طلبه الرش يدل على الحرارة ، وعدم الشرب يدل على عدمها ، والسيد الحبيب أحمد بن زين قال : « **ظهر لي أن ذلك لتقوية الأعضاء ونشاطها** » ، وظهر لي أنا والله أعلم أن ذلك لمعنى من معاني مرض النبي ﷺ ، حيث كان يُصَبُّ عليه في مرض موته قِرَبٌ من الماء ، تتمة من الله سبحانه وتعالى بإجرائه على سَنَنِه ﷺ حيًّا وميتاً.

وكان رضي الله عنه في مرضه ذلك كثيراً ما يذكر خاتمة صحيح البخاري فيقول : « **كلمتان خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان ، حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم** » ، وكان في أيام صحته متعلقاً به – أي صحيح البخاري – ولا يَدَعُ مَدْرَسَه يخلو من قراءته ، وكان أيضاً في آخر مرضه يقول : « **يا محمد ، يا أحمد** » ، وسمعته رضي الله عنه غير مرة يقول : إن شيخه السيد محمد بن علوي السقاف آخر كلمة تكلم بها عند الموت أن قال : يا حبيبى يا محمد ، ثم انطفأ بعدها في الحال ، ولم يَجْرِ على لسانه بعدها كلام .

وفي هذه الستة الأيام من ثاني ذي القعدة التي ثقل فيها واستغرق ، كثيراً ما يرفع يديه ثم يقبضهما تحت صدره كهيئة المحرم بالصلاة ، ثم يضع كفه على ركبتيه قابضاً أصابعه، ورافعاً المسبِّحة كهيئة المتشهد .

ذِكر انتقال روحه الزكيّة نفع الله به

فلما كان ليلة الثلاثاء سابع أو ثامن من ذي القعدة من سنة ١١٣٢ لنحو ربع الليل ، وسَبْعٍ في نجم سَعْد الأخبِيَة انتقلت روحه الزكية إلى أعلا عليين ، ومن هذه الدار الفانية إلى الدار الآخرة الباقية ، وكان حاضراً عنده ابنه الحبيب حسن ، فرحم الله مثواه ، وبلَّ بوابل الرحمة ضريحه وثراه ، وكان مدة عمره ٨٩ سنة إلا ثلاثة أشهر تنقص ثلاثة أيام ، ومدة مرضه أربعون يوماً ، ومدة إقامتي في خدمته والتمتع برؤيته ، تحت ظل ريف رأفته ١٧ سنة وشهر و١٧ يوماً ، ولسان الحال يقول :

رَعَى اللهُ أيّاماً بِرَامَةَ قَدْ خَلَتْ ... وَأَوْقَاتِ طِيْبٍ مَا عَرَفْتُ لها قَدْرَا

أُوَيْقَاتُ وَصْلٍ لَوْ تُبَاعُ شَرَيْتُها ... بِرُوحِي وَلَكِنْ لَا تُبَاعُ وَلا تُشْرَى

وأنشد أيضاً لسان الحال ، فقال :

أَسَفِي عَلَى زَمَنِ العَقِيقِ وَطَيبة ... مَعَ جِيْرَةٍ كَانُوا لَنَا بِكَثِيْبِهِ

زَمَنٌ صَفَا مَشْرُوبُهُ آهٍ عَلَى ... مَا فَاتَ قَلْبِي مِنْ صَفَا مَشْرُوبِهِ

أَتُرَى أَرَى الْوَادِي وَيُشْرِقُ نَاظِرِي ... وَأَرَى بِحَضْرَتِهِ جَمَالَ حَبِيْبِهِ

وَأُرَنِّحُ الأَعْطَافَ مِنْ فَرَحِ اللِّقَا ... بُشْرَى بِطِيْبِ نَسِيْمِهِ وَهُبُوبِهِ

فيالله ما أقصر تلك السنين في حال صحته ، وما أطول هذه الأيام في مدة مرضه ، وما أنكد عيشنا بعده ، وإن كل مصيبة إذا طالت هانت ، وأرى المصيبة به تتجدد بتجدد الأيام والأعوام ، كما قال أبو تمام :

كَانَتْ لَنَا أَعْوَام وَصْلٍ بِالحِمَى ... فَكَأَنَّهَا مِن طِيْبِهَا أَيَّامُ

ثُمَّ اعْقَبَتْ أَيَّامُ صَدٍّ بَعْدَهَا ... فَكَأَنَّهَا مِنْ طُولِهَا أَعْوَامُ

ثُمَّ انْقَضَتْ تِلْكَ السُّنُون وَأَهْلُهَا ... فَكَأَنَّهَا وَكَأَنَّهُمْ أَحْلَامُ

فالله يجبر ما انصدع من قلوبنا لفقده ، ويجمعنا وإياه في دار كرامته ، فأي عين لم تسح دموعها عليه، وأي قلب لم ينصدع لفراقه ويشتاق إليه ، بل والله لو أن أحداً بكى الدمع ثم الدماء لم يكن ذلك كثيراً في رزئه ، إذ لا أحد يقوم مقامه مثله ، ولا ينوء بعبائه ، لقوله نفع الله به : « **عندنا أمانة لا يحملها إلا المهدي** » ، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾، ﴿وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ ، ﴿كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ .

وكان انتقاله رضي الله عنه ، في المرواح الشرقي من بيته الذي في الحاوي الميمون ، ثم حُمِل إلى الغيلة القبلية ، ولم يُعلِمُوا أحداً بموته إلا بعد الفجر ، أرسلوا إلى البلاد إلى مساجد السلف ليقرأوا له الفاتحة بعد الصلاة ، وهكذا عادة أهل الجهة ، إذا مات أحد أعلموا أهل المساجد ليقرأوا له الفاتحة ويشتهر موته لمن أراد الصلاة عليه ، ولم يُعْلِمُوا أهل البيت من النساء والصغار بذلك ، ولا أحداً من جماعة الحاوي من الفقراء والمجاورين إلا بعد أن صلوا الصبح ، وقرأ مرتب الفواتح ، فقال ابنه السيد علوي، وهو الذي صلى بنا : « اقرأ الفاتحة لحبيبك » ، فحينئذ انقلبوا في صيحة واحدة ، ولا عاد قدر مرتب الفواتح بعد الأولتين أن يتم الثالثة ، ولا قرىء الحزب ذلك اليوم ، فلما سمع النساء من أهل الدار ضجة أهل المسجد ، ضجوا بأجمعهم وصاحوا ، ثم خرج الناعي من البلاد إلى الحاوي وانقلبت الدنيا بمرة ، وأظلمت الأرض لهول مصرعه ، وحُقَّ لها أن تظلم ، فالصابر المستمسك الذي يحمد ويسترجع وهو يبكي، ولا أظن أنَّ عيناً لم تبك لفراقه ، ولا قلباً لم يحزن عليه ، فكم يومئذ من عينٍ باكية، وكم من أصواتٍ بالعويل والنشيج عالية ، ومن العجائب كيف لم تنشق المرار ، وتُؤْذِن الأجسام بالدمار ، ولكن لما ورد : « إنه ما نزلت مصيبة إلا ومعها من اللطف بقدرها » .

وامتلأ الحاوي من الخلائق للتبرك والتمسح به ، حتى لم يبق في المصلى ولا الضيقة ولا الحوش الشرقي ولا الغيلة ، ولا السطح ولا الدَرَج وما حوالي المكان ، وفي الطريق من بحر وبين النخيل من نجد ، وقبلي المصلى مُتَّسَع من الزحام ، وهو رضي الله عنه مُسَجَّى على سريره في الغيلة الذي كان ينام عليه .

وابتدأوا في غسله وقت الضحى ، وغسلوه على سريره المذكور ، في المحل الذي هو فيه من جانب الغيلة النجدي ، والذي غسله ابنه سيدى الحبيب الحسن ، وهو الذي كان مواظباً عنده أيام مرضه ، وأشرك معه صهره السيد عمر بن حامد ، ومغيربان يصب الماء ويتردد إليهما بما يُحتاج إليه ، وما هناك أحد غيرهم ، وماؤه يصب من الميزاب ، وتحته ناس كثير يتلقون الماء الذي ينصب من غسله ، بأقداح وأدنان يشربون منه ويتمسحون به ويتبركون ، ثم بعد غسله درجوه في الأكفان ، ثم وضعوه على السرير مُسَجَّى بعد أن جففوه .

ثم لما صلوا العصر حملوه في النعش ، وحُمِلَ على الأعناق والرؤوس ، والناس يتنافسون الحمل ، أيهم يحمل خطوة أو خطوتين ، وقلَّ من يتم الثالثة إلا وقبضها عليه آخر ، والزحمة من الناس شيء لا يعلمه إلا الله ، وكم من ضَرْبٍ بالعصي ، ولَكْم بالأكف ، ودَفْعٍ باليد لأجل المنافسة على حمل النعش ، مع الصياح والبكاء والعويل من كل جانب ، وما بلغوا الجبَّانة إلا قرب اصفرار الشمس .

وما فرغوا من الدفن إلا بعد الغروب ، والإزدحام في التربة لحضور الدفن مد البصر من كل

جانب ، وما وضعوه على شفير القبر إلا وقد قُطِّعت أذيال الشُّقَّة الممدودة على النعش للتبرك ، وألحده السيد عيدروس بن عمر صاحب مِشْطة ، ومن عادته إلحاد المرموقين والموصوفين بالصلاح ، والقوي الشديد من الناس من تمكن يحثو ثلاث حثوات على القبر ، وحزروا بالتخمين من حضر الصلاة والدفن نحو عشرين ألفاً أو تزيد ، من كل بلدان حضرموت .

ومن العجيب أنهم لما فرغوا من دفنه جاء درويش عجمي ، كالذي وصفه في تلك الرؤيا كأنه هندي أو سندي ، وأكَبَّ على القبر ، وبرك بصدره عليه ، وجعل يصرخ ويصيح ، ويلثم من تراب القبر ، فصاحوا عليه ، فتنحى إلى قبلي قبة الشيخ عبدالله العيدروس ، وجلس إلى أن تفرق الناس ، ثم لم نره بعد ذلك ولا قبله .

فلما سافرتُ ووصلتُ إلى بنادر اليمن ، كعدن والمخا والحديدة واللُّحَيَّة ، وإذا كل أهل بلد يقولون: « أول ما سمعنا بموته من درويش جاءنا ، والله أعلم هو ذاك أو غيره » .

ثم نصبوا على قبره الشريف خيمته الكبيرة التي كان ينصبها في زيارته لنبي الله هود عليه السلام أيام كان يزوره وقت نشاطه ، ثم بعد ذلك يأمر أولاده الأجلاء بالزيارة ، ونصبوها لأجل يستظل تحتها الذين يقرأون على قبره رضي الله عنه ، والقراءة عليه طول النهار ونحو ربع الليل ، ثم تسابيح ساعة طويلة ، ثم يتفرق الأكثر من الناس ، وأبقى في جماعةٍ من الفقراء ، نبات عند القبر المنور ، نقرأ نشاطنا ، ثم ننام ، وذلك من حين دفنه إلى ثالث يوم ، وهو يوم خَتْمِهِ ، كذلك عادة أهل حضرموت، يقرأون على القبر ثلاثة أيام .

وكان ختمه يوم الجمعة ١١ ذي القعدة ، وفي هذه المدة قَلَّ ما تمضي ساعة من ليلٍ أو نهارٍ إلا ويَفِدُ ناسٌ لم يشهدوا الصلاة عليه ، فيصلون على القبر ، ويدعون لأنفسهم ولمن يحبون عند قبره ، ويترضون عنه ويترحمون عليه ، ويحملون من تراب ضريحه ، حتى إنه في يوم الختم انقلبوا عليه ، يأخذون من ترابه حتى قرب أن يستوي مع الأرض ، بعدما كان مُسَنَّماً مرتفعاً ، وحضر عند الختم أكثر ممن حضر عند الدفن ، وفعل أولاده الكرام مأدبة عظيمة ضافية ، أكل منها جميع من حضر الختم إلا الآحاد من الناس ، كرهوا كثرة الزحام .

ودُفِنَ في طرف التربة الجديدة ، التي أمر هو السيدَ زين العابدين بفعلها ، ففعلها ، وبقي يحثه عليها سنين كثيرة ، حتى قال له : « أسرع بذلك ، فإنه بايقبر فيها أحدنا إما أنا وإما أنت » ، ولم يتفق للسيد زين عمارتها إلا سنة ١١٣١ ، قبل وفاة سيدنا رضي الله عنه بسنة ، وكان محلها ساقية ماء، يجري فيها من وادي عيديد ، إلى نخلٍ لجماعةٍ من آل باحرمي يُسَمَّى باتميم ، فعوضوهم بساقية بحري المكان المذكور .

وذكر سيدنا نفع الله به جماعة صالحين مرضوا ، منهم من مات قبله ومنهم من عاش ، وقال في كلٍّ منهم: « **إن مات فلان ، أمَرْنَا بدفنه في تلك التربة** » ، يعني المذكورة آنفاً ، فكلما هَمَّ أن يأمر بدفن أحد من أولئك إذا مات ، فينسى أن يأمر به ، فما دفن أحد منهم حينئذ ، ثم يذكر بعد ذلك فيقول : « **لو ذكرنا لخليناهم يقبرون فلانا فيها** » ، وتكرر منه ذلك في نحو ثلاثة ماتوا قبله ، واثنان بقوا بعده ، فقال لكلٍّ منهما : « **إذا مُتَّ نقبرك فيها** » ، وأحدهما اشتد به المرض ، حتى أصبح لا يتكلم ، فأرسلني سيدي الحبيب إلى السيد زين يحضه في إصلاحها ، وقال : « **قل له : يسلِّم عليك ، ويقول لك : هيا اهتم في إصلاح هذه التربة ، فإن فلاناً مرض مرضاً شديداً ، حتى أصبح لا يتكلم ، ونخشى أن يموت قبل إصلاحها ، فنريد أن يكون قبره فيها** » ، وما مراده رضي الله عنه إلا أن يحضه حتى يُسْرِع بذلك ، واتفق أن سيدنا نفع الله به أول من قبر بها ، وذلك بعد أن تشاوروا أولاده المباركون ، أين يُقبَر ، فاتفق رأيهم أن يقبر في موضعه هذا .

وتقدم قوله رضي الله عنه : « **إن الإنسان أصله قد مزج بتراب قبره** » ، وذكر لي السيد علي عيديد، وكان من المترددين على سيدنا كثيراً ، قال : سمعت سيدنا الحبيب في بعض زياراته لما خرج من قبة الشيخ عبدالله بن أبي بكر العيدروس ، توطأ إلى موضع قبره ، فوقف فيه ، وقال : « **بسم الله : ﴿رَّبِّ أَنزِلْنِي مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ﴾** » ، وذلك قبل وفاة سيدنا بسنين ، فيدل على أن هذا يكون منزله بَعْدُ، وموضع قبره ، فأعظم بهذه المكاشفة العظيمة ، وأمور سيدنا وأحواله رضي الله عنه عجيبة جدًّا، لمن ألهمه الله تعالى فَهْمَ معانيها ، وقد قدَّمنا كثيراً منها في هذا النقل ، فلا نعيده ، وهو نقطة من عجيب أحواله .

ومن تصرفاته العجيبة وإشاراته الغريبة، أنه نفع الله به قال لي ذات يوم : « **قد أَذِنَّا لك أن تزور من أردتَ من شيبان السادة** » ، فزرت كثيراً منهم إلا واحداً ، فكلما مضيت إليه قاصداً لزيارته ، فَتَرَتْ مني الهمة ورجعتُ من أثناء الطريق ، ومراراً أصل إلى بابه ، فإذا أردت أن أقرع الباب ما جزمت على ذلك ورجعت ، وأنا على ذلك إلى نحو أربع سنين ، فقلت : لأذْكُرَنَّه لسيدنا بالخصوص ، فقلت له : إنكم أمرتوني بزيارة الشيبان من السادة ، فزرتهم إلا فلاناً ، فقال : « **هاه ، الحذر تزوره ، فإنا لا نريد لك زيارته** » ، فقضيت من ذلك العجب رضي الله عنه ونفعنا به في الدارين.

وسمعته رضي الله عنه مرارا يقول ما معناه : « **كنا إذا دخلنا على شيخنا السيد عبدالرحمن بن عقيل، أول أيام مخالطتنا له يتمثل ، ويقول :**

وَمَنْ رَعَتْهُ العِنَايَةِ فِي المجِيءِ وَالذَّهَابْ ... فَلَا يُبَالِي وَمَنْ خَانَتْهُ الأقْدَارِ خَابْ

وإذا دخل عليه عباد بن أسعد ، وكان فيه بلوة واعتراض ، يتمثل ويقول :

وَإِذَا كُنْـتَ فِي الْمَـدَارِجِ غِـرّاً ... ثُـمَّ أَبْـصَرْتَ صَادِقـاً لا تُمَـارِ

وَإِذَا لَمْ تَـرَ الْهِـلالَ فَسَـلِّمْ ... لأُنَـاسٍ رَأَوْهُ بِالأَبْصَـارِ

ويشير إلى سيدنا .

وآخر من مشايخه يتمثل إذا رآه ويقول :

وَإِذَا السَّعَادَةُ لاحَظَتْكَ عُيُونُهَا ... نَـمْ فَالمَخَـاوِفُ كُلُّهُـنَّ أَمَـانُ

ثم إن بعض الناس بعد وفاته رضي الله عنه جعلوا يتلهفون عليه ويتأسفون أن لا يكونوا من الملازمين له ، والمتسببين به ، وندموا كثيراً حيث لا ينفعهم الندم .

وقال رضي الله عنه قبل انتقاله بنحو ثمان سنين : « **ما يعرفون قَدْرَنا إلا إذا فارقناهم ، فما دام الرجل بينهم لا يعرفون قدره ، فإذا صار الرجل قبراً ، فحينئذ يعرفون قدره** » .

وقد صَدَرَتْ منه رضي الله عنه إشارات كثيرة في مرضه هذا ، أن هذا هو مرض موته ، وما عُرِف بعضها إلا بعد وفاته ، منها قوله لجماعة جاءوا عائدين له : « **قولوا لهم دعوني وربي** » ، ولم يأذن لهم ، وليس هذا من عادته ، ومنها ذِكْرُهُ للسيد زين العابدين لما جاءه عائداً رؤياه للسيد علي بن عبدالله ، وَذَكَر له المعمَّرين من السادة ، وقد تقدم ذِكْر ذلك ، ومنها إنه طلبني ضحى يوم الثلاثاء سادس عشر شوال ، فأتيت إليه وهو بالمرواح الشرقي ، وليس عنده إلا ابنه الحبيب حسن ، ومغيربان يروّح عليه ، فلما صافحتُه حيَّاني بتحيةِ شفقةٍ ورأفةٍ وحنانةٍ ، وأمر ابنه السيد الحبيب حسن أن يأتي بقميصٍ له كان قد لبسه مدة ، ثم طواه وضَمَّهُ ، وما علموا لمن يريده له ، فقال لابنه المذكور : « **قد قلت لكم اطووا الدرَّاعة الفلانية التي هناك نريدها للحاج ، لئلا يأخذها غيرُه ، ويفوت الذي عليه العمل ، الإلباس الحسي والمعنوي** » ، ثم قال له : « **قم هات ذلك القميص** » ، فلما أتى به ، أخذه ونشره وضمه إلى صدره، وأدخل رأسه في جيبه كأنه يريد يلبسه ، ثم لفه وتفل فيه ونفث ، وذكر الله وصلى على النبي ﷺ ، ثم دفعه إليَّ وقال : « **هاك قد ألبسناك الآن ، وأذِنَّا لك في الإلباس لمن شِئْتَ من المتأهلين له ، وقد تقدم منا لك الإلباس مرات ، ونرجو لك الإلباس أيضاً بعد ذلك ، ونرجو أن يرزقك الله الإلباس الحقيقي ويؤهلك الله له** » ، هذا كلامه بلفظه ، وأرجو أن يحقق الله رجاه ، جزاه الله عنا أفضل الجزاء ، وقد ألبسني قبل هذا نحو ستة عشر إلباساً ، لكن لم يكن معها إذن في ذلك .

ثم قال الحبيب الحسن : « **صافِحْه** » ، يعني مصافحة الخروج ، فلما صافحته دعا لي وقال : « **بارك**

الله فيك وأصلحك »، فكان هذا المجلس مع ما اشتمل عليه من المؤانسة والملاطفة والدعاء آخر مجلس لي معه من مجالس المؤانسة ، وإلا فقد دخلت عليه بعد ذلك مراراً كثيرة ، وهو مستغرق بالمرض ، ولم يَصْفُ الوقت كما صفا له في هذا المجلس المذكور ، فخلَفه الله علينا وعلى كافة المسلمين بخلف صالح، وجمعنا وإياه في دار القرار ، كما جمعنا به في هذه الدار .

وقد رأيت ليلة رابع من شوال ، وذلك حين اشتد بسيدنا المرض ، وكنتُ قد نِمتُ على وضوءٍ وأتيت بأذكار النوم : كأني جالسٌ في الصف الأول من مصلى الحاوي وهو ملآن من الناس ، والصفوف متضايقة جدًّا ، منتظرين لخروج سيدنا الحبيب نفع الله به ، يصلي بهم صلاة عشاء ليلة الجمعة ، فبينما الناس جلوس ، إذ جاء طائرٌ يشبه الغراب ، يطير ، فجاء حتى وقع على كتفي الأيسر، ومكث ساعة وعَيِيتُ من ثقله ، فلما أحس أني عييت طار ، ووقع على الأرض بين يَدَيَّ لحظة ، حتى رأى أني استرحت من ثقله ، فطار ووقع على كتفي الأيمن ، وبقي ساعة ، حتى عييت منه ، ثم طار ووقع في الأرض بين يدي ، وإذا به قد انقلب صقراً وله خرطوم طويل كخرطوم الفيل ، مُعْوَجًّا ، وإذا له صوت يُسْمَع، كصوت الذي يتكلم ، فتسمَّعتُ له ، فإذا به يتكلم بكلام عربي فصيح ، فقلت له : أوَ تعرف أسماء الناس ؟ فقال : نعم ، فقلت له : ما اسمك ؟ أو ما اسم هذا الرجل ؟ - لرجل كان حاضراً أشك في أيهما كان - فقال : محمد ابن فلان ، فَسَمَّاه باسمه واسم أبيه وجده ، فقلت له : وأنا من ؟ فنظر إلي ، وظننت أن يقول فلان الفلاني - أي أحمد الحساوي - أو فلان بن فلان - أي بن عبدالكريم - فقال : أنت أحمد الشَّجَّار ، وما أُعْرَف بحضرموت بهذا اللقب ، وإنما ذلك في الاحساء فقط ، وفي حضرموت: « الحساوي » ، فقلت : أترى أن أحملك إلى أولاد الحبيب يكلمونك ويعجبون منك ، فسكت قليلاً، ثم قال : ما أقول لك إلا : ما لي بأحد حاجة ، ثم أردت مفارقته ، فقلت له : ادع الله لي بصلاح القلب والدين والجسم ، فقال : أصلح الله قلبك ودينك وجسمك ، فعند تمام هذه الكلمة انتبهت ، فظهر لي من تأويلها معنيان ، أحدهما : أن كلام ما لم يتكلم كالطير أنه هول عظيم ، وأن الغراب غراب البين المُشْعِر بالوفاة ، ولا أهول ولا أشنع من وفاته رضي الله عنه ، على ما سمعت من ذِكْر وصف بعض الحال وركوبه على كتفي حتى أعياني مرتين، مما يحقق ما يخصني من زيادة العنا بوفاته ، المُبيِّن لقوله نفع الله به : « **أكثر ما أنا خائف على فلان** » ، يعنيني ، لمحبته وغربته ، يعني من ألم التعب على فراقه وشدة الحزن على المصيبة به ، هذا ما ظهر لي من تعبير هذه الرؤيا .

وذكر أيضا السيد علوي بن شيخ البيتي ، من أهل الخريبة من دوعن ، أنه رأى وهو في طريق صنعاء مقبلاً منها إلى حضرموت ، وذلك ليلة ٢٧ سبع وعشرين من رمضان ، وهي ليلة ابتداء المرض بسيدنا كأن الحبيب عبد الله توفي ، وكأنه موضوعٌ في مَحَفَّة ، ورجال حاملين المحفة طائرين بها إلى

السماء ، فكتم الرؤيا ولم يحك بها إلا يوم الثلاثاء ، سابع ذي القعدة وهو يوم وفاة سيدنا ، حكى بها لأحد خواصه قبل أن يعلم هو ولا أهل بلده بوفاته ، ولم يبلغهم الخبر بوفاته إلا يوم الجمعة في ١١ ذي القعدة ، ومن العجيب أن اتفقت له هذه الرؤيا حين ابتدأ بسيدنا المرض ، وإخباره بها يوم وفاته ، وكل هذه المرائي دالة على وفاته رضي الله عنه .

وسمعت عن بعض السادة ، إنه رأى سيدنا وكأنَّ بيده أوراقاً صغاراً مطوية ، يقسِّمها على كل من حضر جنازته ، يعطي كل واحد واحدة ، قال : فأعطاني أنا أيضا ورقة ، ففتحتها فإذا هي بيضاء لا خط فيها ، فأولت ذلك محو الذنوب وستر العيوب .

وقد رثى سيدَنا جماعة كثيرة ، من جملتهم أولاده الأجلاء ، كابنه السيد الحسين رثاه بقصيدة طويلة، وابنه السيد علوي رثاه بقصيدة ، عدد أبياتها ١٤٢ وفق عدد حروف اسم سيدنا عبد الله ، مطلعها :

أَتُرَانِيَ اَسْلُو بَعْدَ فَقْدِ عِمَادِي   أَو أَهنَ يَوماً عِيْشَتِي وَرقَادِي

وأرسلها إليَّ من حضرموت إلى الاحساء ، فنقلتها ثم أرسلتها إلى صنوه الحبيب زين العابدين بالبصرة ، فجاءني جوابه مع قصيدة ، جواباً لأخيه ومرثية لأبيه عددها ٤٠ بيتاً ، ومطلعها :

كَرِّرْ عَلَى سَمْعِي حَدِيْثَ الوَادِي   فَلِنَازِلِيـهِ مُنَيْـزِلٌ بِفُـؤَادِي

ورثاه السيد الشريف علوي بن جعفر مدهر - ساكن غيل باوزير - بقصيدة عددها ٢٩ بيتا أولها :

يَـا عَيْنِ سُحِّي بِدَمْعِ الوَابِلِ الرَّذِمِ   عَـلَى فُـرَاقِ جَلِيْـلِ القَـدْرِ وَالشِّـيَمِ

وكذلك رثاه أخوه السيد الفاضل عبد الله بن جعفر مدهر - نزيل مكة المشرفة - بقصيدة عددها ٦١ بيتاً ، أولها :

مَـا لِلْمَـكَارِمِ آذَنَـتْ بِنَفَـادِ   وَالكَونُ مُشْتَمِلٌ بِثَوبِ حِدَادِ

ورثاة جماعة من أهل حضرموت وأهل الحساء ، وأرَّخوا وفاته في قصائدهم ، وقد جمعت ما بلغني من مرثياته ، مع ما معي من مدائحه التي أُنشِئَت في حياته ، وقد سَمِعَ أكثرها وأُنشِدَ بها في حضرته، وتكلم عند سماع بعضها بما يتعلق بالمدح ، كقوله : « **من مُدِح بفضيلةٍ فإنَّ مدحه يعود إلى النبي ﷺ لأن فضيلته إنما جاءت عنه، وَصَدَرَتْ عن النبي ﷺ، فمَدْحُهُ يعود عليه** » ، في كلام كثيرٍ قدَّمنا ذِكْرَهُ في هذا النقل ، وجعلْنا الجميع مع ترجمته التي من المشرع الروي ، مع ما زيَّد عليها السيد الجليل أحمد بن زين الحبشي ، ومع راتبه وجملة أوراده وأذكاره في الصباح والمساء وبعد الصلوات ، وفي أوقات

أخر وفي أحوال مختلفة ، كل ذلك في مجموع ، وأضَفْتُ إليه شيئاً من كلام مجالسه ، وشيئاً لخصته من مكاتباته ، فصار مجموعاً مجلداً ، ثَمَراً مجنيًّا ورطبًا جَنِيًّا ، فيه خالصُه وزُبْدُه وعيونُه ، يسهل على المطالع. والحمد لله على ما وفق وأعان ، وأمد بالعناية والبيان .

وحيث بلغ بنا النقل إلى ذِكْرِ وفاته رضي الله عنه ونفع به ، فما بعد الوفاة من كلام ، فلنقتصر منه على ما يسَّره الله ، وكفى به ، وإلا فلا نقدر على استيعاب جميع ما نقلناه من كلامه ، وهذا نَزْرٌ يسيرٌ من بحرٍ كبيرٍ ، يكفي عن كثير ، والغرض الآن أن نختم هذا النقل بفائدة حسنة ، وهي في ذِكْرِ ما كان يقرؤه في الصلوات ، من السور والآيات ، مما واظب عليه ، إلى أن انتقل إلى رحمة الله وقربه ، دون ما تكرر منه في أوقات دون مواظبة ، لأني أرى من نفسي ومن كل محب أن يتأثر بآثاره ، ويستضيء بأنواره، ويتبعه في إيراده وإصداره ، لأن في اتباعه والاقتداء به ، الإتباعَ لسيد المرسلين صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين .

فمما كان رضي الله عنه مواظباً عليه إلى الوفاة : « المعَوَّذَتَيْن » في أَوَّلَتَي المغرب ليلة الأربعاء وليلة السبت ، ما سمعته قرأ فيهما بغيرهما قط ، وفي أَوَّلَتَي صلاة العشاء من ليلة الجمعة ، وأَوَّلَتَي عصر يومها « ألم نشرح » و « إذا جاء نصر الله » وصبح يوم الجمعة « بسبح » و « الغاشية » ، وقال: « **إن قراءتهما في صبح يوم الجمعة تنوب عن قراءة السجدة وهل أتى** » ، وقد كان نفع الله به أيام نشاطه يقرؤهما فيهما ، وتنوب في العيد عن « ق » و « اقتربت » ، وكذلك فيما تعيَّن في شيء من الصلوات من السور المطوَّلات ، فيكفيان عن ذلك .

وأما الآيات المداوم عليها إلى الممات فآية : ﴿ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ ، ﴿ وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾، بعد الفاتحة في ثالثة الظهر والعصر مطلقاً ، وفي رابعتهما كذلك أي مطلقا : ﴿رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴾، وفي الجهرية في السكتة التي بعد الفاتحة وقبل السورة في الأولى: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ ، وفي الثانية : ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾.

وقد قال يوماً : « **لا سكوت في الصلاة** » ، ويقرأ في أخيرة المغرب بعد الفاتحة : ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِىِّۦ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ تَوَفَّنِى مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِى بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴾، وربما قرأ فيها: ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴾، وفي ثالثة العشاء بعد الفاتحة: ﴿رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾، وفي الأخيرة منها بعد الفاتحة الآية المتقدمة في المغرب : ﴿فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ﴾.. إلخ ، وفي سُنَّة الفجر « الكافرون »

و« الإخلاص » ، أو: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا ﴾ الآية في الأولى ، و: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ ﴾ الآية في الثانية ، وفي سنة الوضوء « الكافرون » و « الإخلاص » وكذلك في أولتي المغرب ليلتي الجمعة والإثنين ، وفي صبح يوم الأربعاء « لم يكن » و « الزلزلة » كثيراً ، وما عدا ذلك فقد يتكرر بلا مواظبة فيما نعلم .

ونختم هذه المجالس الشريفة بما كان سيدنا رضي الله عنه يدعو به في خاتمة مجالسه بعد الفاتحة ، وهو : « **اللهم اقسم لنا من خشيتك ما تحول به بيننا وبين معاصيك ، ومن طاعتك ما تبلِّغنا به جنتك، ومن اليقين ما تهوِّن به علينا مصائب الدنيا ، اللهم مَتِّعنا بأسماعنا وأبصارنا ، وحَوْلِنا وقُوَّتنا أبداً ما أبقيتنا، واجعلها الوارث منا ، وانصرنا على من عادانا ، واجعل ثأرنا على من ظَلَمَنا ، وأَرِنَا في العدو ثأرنا ، ولا تجعل الدنيا أكبر هَمِّنا ، ولا مبلغ علمنا ، ولا تسلِّط علينا بذنوبنا من لا يرحمنا ولا يخافك ولا يخشاك ولا يتقيك يا رب العالمين** » .

فإذا نهض قائماً ، قال : « **سبحانك اللهم وبحمدك ، أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك، سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلامٌ على المرسلين والحمد لله رب العالمين** » .

هكذا حفظته عنه من كثرة ما أسمعه يدعو به إذ ذاك ، فإن كان زاد أو نقص شيء أو تبدل شيء، فهو من طول العهد بذلك ، لأني نقلته هنا من حفظي الآن .

وأرجو من فضل الله تعالى وكرمه حسن الختام ، والوفاة على الإسلام والإيمان والإحسان ، إنه الكريم المنان ، وصلى الله وسلم على سيدنا ومولانا الحبيب النبي المرتضى ، والرسول المصطفى ، محمد وآله وصحبه أهل الفضل والوفاء ، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الفصل والجزاء ، وعلينا معهم برحمتك يا أرحم الراحمين ، والحمد لله رب العالمين .

قال سيدي : « **أهل زماننا أحدثوا حوادث لم تكن من قبل ، فأحدث الله لهم حوادث لم يعرفوها** » هـ .

أقول : يريد بهذا ما قدَّمْنَا من النقل عنه من قوله : « **لا تُحِل هذه الأمور على المقادير ، بل حِلْها على هذه القلوب المنصرفة والوجوه المدبرة ، قال الله تعالى** : ﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ﴾ » ، انتهى كلامه . وما تكلمنا عليه من أن الأمور المذكورة بالناس من التعب والقحط وتسليط الظلمة ، فهذه الأمور كما استدل عليها بالآية ، هي ما أحدث الله لهم مما لم يعرفوه ، وأعمالهم التي أحدثوها وأنزل الله بهم هذا عقوبة لهم عليها ، ما أحدثوا من تعاطي الربا الفظيع ، الذي قال تعالى في متعاطيه : ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ﴾، أي تتركوا الربا ، ﴿فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾، وغير ذلك من أفعالهم المُنْكَرَة .

ومِن نَقْلِه قال - أي قال أبوه - : « **أهل هذا الزمان أخذوا السيوف إلا ليقطعوا بها الطريق ، ما أخذوها ليُأمِّنوا بها الطريق** » ، قال : « ويشير بذلك إلى العلماء » هـ .

أقول : يريد بالسيوف : العلم . وتأمين الطرق بها : أن يرشدوا الخلق على قانون العلم إلى طاعة الله . وجمع العلم - أي ذكره بصيغة الجمع - بالنسبة إلى تعدد أبوابه ، من عبادات ومعاملات ونكاح وأبواب أُخَر غير ذلك .

وقوله : « **ما أخذوه** » ، أي ما طلبوه لذلك ، إنما طلبوه لقطع الطريق ، وهو تعليم الناس به الحِيَل وفاسد المعاملات ، التي تُغضِبُ الله تعالى هـ .

وذكر الصحابة والقرن الأول وشأنهم في التزويج وسرعتهم في ذلك ، ثم قال : « **ما أحلى أحوالهم وسِيَرهم وأحسنها** » .

قال : « **وكان أحب الأشياء إليهم الطيب ، ولما تزوج سيدنا علي ملأوا البيت بطحاء - أي رملاً - والوسادة حشوها ليف - يعني أنَّ ذلك منهم يدل على عدم تعلق قلوبهم بالدنيا وحظوظ النفس - فأين هذا الحال من حال أهل زماننا وافتخارهم ومكابراتهم** » .

وسألتُ سيدنا : هل الحساب على أمور الدنيا خاصٌّ بمن سعى في تحصيلها ، أو مطلقاً ؟

فقال : « **يُحاسَبُ عنها من الجانبين** » ، يعني على التحصيل والإخراج إن سعى لذلك ، وإلا عن الإخراج واستعمال العلم فيها أولاً وآخراً ، أي في تحصيلها وإخراجها .

وسألته عن معنى حديث الجامع الصغير : « واجعلوا بينكم وبين الحرام ستراً من الحلال » .

فقال : « **يعني لا يستوفي الحلال كله** » .

أقول : يُبَيِّنُ ذلك قول سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : « كنا ندع تسعة أعشار الحلال خوفاً من الوقوع في الحرام » . ومعنى ذلك : إذا كنا نحتاج لشيء يسوى عشرة دراهم ، قَنِعْنا منه بما يسوى درهماً واحداً ، وذلك من الحلال الخالص الذي لا شبهة فيه ، وهذا غاية الزهد والقناعة . وذلك مشهورٌ من سيرة سيدنا عمر ، وكذلك كل الصحابة ، من بركة مشاهدتهم نور النبوة ، وإن كان بعضهم في يده شيء ؛ فليس هو في قلبه ، فلا يرى أنه أحق به من المحتاج ، وعلى مثل هذا سلك الصالحون والفقراء الصادقون أنهم يتركون الحلال الصِّرْف الذي لا شبهة فيه ، زهداً فيه وتقرباً إلى الله بتركه ، فأين منهم المُدَّعون حالهم من فقراء وقتك وصلحائه ، الذين أحدهم يطلب الحرام الصرف بما أمكنه ، ويتمناه لو حصل له ، ويتردد إلى أبواب أهله ويقف عليها يطلبهم من الحرام .

فانظر الحال واعرف الفرق بين زمانك والزمن الماضي ، وهم على حالتهم هذه الخبيثة الخسيسة ويَدَّعون أن منزلتهم عند الله كمنزلة أولئك الأخيار ، وهيهات هـ .

قال : « **كره بعضهم الدعاء بالبقاء ، لِمَا يوهِم ، ولكن في لغة العرب اصطلاحات ومجازات وإضافات ، فيكون الكلام مطلقاً وعاماً وهو مقيد وخاص ، مثل لفظ النفاق ، إن كان مطلقاً فهو مقيد بمدة معروفة** - أي خاص بوقت النبي ﷺ - **وأكثر الأشياء اليوم حادثة ، فهذه الأدعية الطويلة العريضة في المكاتبات وغيرها لم يذكر في مكاتبات النبي ﷺ وأصحابه** » هـ .

أقول : قوله : « لما يوهم » ، لأن البقاء وصف خاص بالله ، ومن أسمائه الباقي ، فلا ينبغي أن يوصف به سواه ، لكن الإجماع انعقد على أن معنى الدعاء بالبقاء ، أن يطيل الله مدة عمره بتأخير أجله مدة طويلة ، ويؤيده حديث : « البر يزيد في العمر » ، على الوجه الذي قَدَّمنا بيانه .

وأتى إليه قاضي بلد زائراً ، فلما أراد السفر إلى بلاده استودع منه ، وقال له يوصيه : « الله الله في اتباع الحق ومجانبة الباطل ، ولا تحكم إلا إذا اتضح لك الأمر ولم تشك فيه ، فإن لم يتضح لك فتوقف ولا تحكم فيه بشيء ، واعدِلْ في كل أمورك إلى الصلح ما استطعتَ ، وإذا تبين الحق وأردتَ الحكم به فخطر لك مراعاة أحد من الناس ، فاترك الناس للحق ولا تترك الحق للناس » .

وقال : « الله ورسوله والقرآن مظلومون مع الناس ، وإذا عمل الإنسان بما أَمَرَ القرآن ؛ جاء والقران أمامه ، وإذا خالف الأوامر وارتكب المناهي ؛ جاء والقرآن خلف ظهره يسوقه » .

وكثيراً ما يتمثل بهذا البيت في من يسعى في الخير وآخر يسعى بخلافه فيقول :

فَكَيْـفَ بِبَـانٍ خَلْفُـهُ أَلْـفُ هَـادِمِ ... وَلَوْ أَلْفُ بَانٍ خَلْفُهُـمْ هَادِمٌ كَفَى

وتكلم في تعليم القرآن ، فقال : « هو ألَّا يتسبب الإنسان أدنى تسبب ، وإلا فـ ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ وقد قال السقاف : عيال الأشراف كمن يبحث في مسيلة ، يخرج منه سريعاً ماء طيب ، وغيرهم كالذي يحفر في أرض صلبة ، إمَّا جاء على بُعْدٍ قليلٌ أو لا شيء . وأهل البيت طاهرين من أصلهم ، لقوله تعالى : ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذۡهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجۡسَ أَهۡلَ ٱلۡبَيۡتِ وَيُطَهِّرَكُمۡ تَطۡهِيرٗا﴾ ، لكن مَن نَجَّسَ نفسه ، فيطهر بالغسل مرة ، وأما غيرهم فلا يطهر من الأصل حتى يطهر نفسه . فهذه الخاصية هي الفرق بين أهل البيت وغيرهم . ومعك النساء والصغار ينبغي أن يؤخذوا باللطف ، وإلا فالشدة ما تجيب شيئاً ، فإن قلوب أهل الزمان قد تحجرت ، ومن أراد منهم التَّرك فليأخذ معهم بالشدة ، والطباع ألَّا ما طبع عليه الإنسان وساعدته معه السعادة ، وأما ذو الطبيعة الشديدة فلا ترجو رجوعه عنها ، كما في الحديث: إذا حُدِّثْتَ بأنَّ جبلاً زال ؛ فَصَدِّق ، أو طَبْعاً زال فلا تُصَدِّق » .

وذكر رجلاً أن في طبعه شدة : « لولا أن الله قد جعل في طبعه شدة ، لكان فُتِن - أي لكونه ربما نوى إقامة في مكان - فيمضي في مدة وقرن ما نوى ، خوفاً من رؤية ما ينكر » .

وأنشدتُ بين يديه قصيدة الشيخ علي التي أولها : « إذا راح بعضهم وبقى بعضهم بقى متحسرا » ، فقال : « فتغَزُّلُه هذا بأخيه الشيخ عبدالله وأمثاله » .

وقرأتُ بين يديه أيضاً قصيدة من نظم سيدنا الشيخ علي بن أبي بكر علوي ، وفيها شيء من أحوال أهل الجهة ، وذم بعض أوصاف فيهم ، فقال : « أولئك لمَّا غابوا عن الدنيا وأهلها ، ظهرت لهم العيوب المضرة بالدين ، وليس الذين ماتوا . وأهل الزمان مثل السمندل يدخل النار ولا يَحُسُّ بها ، وهم ما عاد

- أظن قال : - نرجو فيهم خيراً للفتنة من أكل الحرام وتضييع الصلوات ومنع الزكاة ، وجميع ما فعلوه من ارتكاب المحرمات وترك الواجبات ، فإن هذه هي الفتن المضرة بالدين وهي النار المحرقة » » .

أقول : ولو أن كلامه عام من قوله : « وأهل الزمان » ، فإن ما مراده إلا خصوص المذكورين بهذه الفواحش ، ومن أشد الفواحش الكِبْر ، سيما من الأراذل ، وقد فَشَا منهم في هذا الزمان كثيراً ، كما قال بعضهم : « فاحرص هداك الله على أن لا يظهر الكِبْر منك في مشية ولا خُلُق ، ولا تساعد نفسك على ما جَرَّ إليه أو قَرُبَ منه ، أو خذها بالرياضة إلى ما يُخضِعُها ويَكْسِرُ سَوْرتها ، ولا يتركها وما تريد منه » .

وقيل في ذلك :

حَذَّرْتُكَ الْكِبْرَ لا يَخْدِشْكَ مَيْسَمُهُ ... فَإِنَّـهُ مَلْبَـسٌ نَازَعْتَـهُ اللهَ

يَـا بُـؤْسَ جِلْـدٍ عَلَى جَـوْفٍ مُجَوَّفَـةٍ ... تَحْـوِيْ مَقَادِيْـرَ إِنْ كَلَّمْتَـهُ تَاهَـا

إِنِّي لَأَمْقُـتُ نَفْـسِيْ عِنْـدَ نَخْوَتِهَـا ... فَكَيْـفَ آمَـنُ مَقْـتَ اللهِ إِيَّاهَـا

ذكره ابن برجان في « شرح أسماء الله الحسنى » .

قال سيدنا في قولهم - أو إنه حديث عن الله - : « لا تقولوا العلم في السماء ، مَن ينزل به ، أو في الأرض ، من يُخرِجُه ، هو مجعولٌ في قلوبكم ، فتأدَّبوا بين يَدَيَّ بآداب الروحانيين » ، **فقال** : « أي لا يحصل إلا بعد العمل بعلوم الشرائع ، لأنها نزلت من السماء ، فإذا عمل بها ؛ جاءه عِلْمٌ آخر ، وهو العلم اللَّدني ، المسمَّى علم الوراثة ، من قوله تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾. وقوله : فتأدَّبوا : وهو علم الشرائع المشروط حصول ذلك عليه ، والروحانيون : هم المتجردون لأمور الأرواح ، وهم الملائكة » .

قال : « منزلة العلم من الدِّين كمنزلة السمن من اللبن » ، وأنشد هذا البيت :

وَمَـنْ مَنَـحَ الجُهَّـالَ عِلْـماً أَضَاعَـهُ ... وَمَنْ مَنَعَ المُسْتَرْشِدِيْنَ فَقَدْ ظَلَمْ

وذكر أهل الوقت ، **فقال** : « إن الإنسان لا يقيس إلا على نفسه ، فإذا رأى إنساناً صالحاً في وقته، ظنه مثله لوجود بشريته ، وإن كان فيه خصوصية . ومن مات فإنما يسمع بخصوصياتهم دون بشرياتهم، فيعتقد فيهم لا محالة ، وأين من يطوي البشرية وينظر إلى مجرد الخصوصية ؟ وهؤلاء ما يريدون الصالحين لأجل التعلم منهم والإقتداء بهم ، إنما يريدون منهم أن يبرهنوا لهم فيما يزيد دنياهم ، ويريدون الفقهاء لأجل أن يعلموهم الحِيَل والرُّخص في أمور الدنيا ، ويودون لو مات الفقراء كلهم ، حتى لا يبقى فقير يسألهم أو يقف عند أبوابهم ، ليتفرغوا بدنياهم ويَستقِلُّوا بها ، وعلى هذا فجميع مطالبهم الدنيا فقط ،

لا عناية لهم بأمر الدين » .

وذكر أهل الزمن السابق ، فقال : « كان أهل الزمن السابق أهل صدق وصفاء ، فنياتهم صافية ، وأعمالهم صافية ، وطعُمتهم صافية ، فاجتمع صفاءٌ على صفاء . وجاء أهل هذا الزمان على العكس ، فلو كان عيناه مثل الجروب ، ثم انطفى عليه السراج ليلاً ، لَحِقَتَهُ هو والأعمى سواء » هـ .

أقول :قوله : « على العكس » ، أي كل ما ذَكَرَ من شأن أولئك ، من نياتهم وأعمالهم وطُعمتهم ، فهؤلاء على ضد ذلك ، فاجتمع كدر على كدر . و« الجروب » ، جمع جرب ، ضواحي النخل والزرع. والمراد : لو اتسع نظره وسلك سبيل الصواب في الدين والدنيا ، ففي هذا الزمن المظلم يشتبه عليه الصواب فيهما ، حتى لا يعلم أي مسلك يسلكه ، من اشتباه الأمور من أكل الشُّبَه والحرام .

قوله : « لحقته هو والأعمى سواء » ، والجاهل هو المشَبَّه بالأعمى ، وقوله : « ليلاً » ، شَبَّهَ ظُلْمَة الوقت لكثرة ظلمة أهله ، بظلمة الليل هـ .

قال : « العمل في هذا الزمان على الرجاء أنسب ، لأن الأعمال فاسدة - أو كلمة نحو هذه - والأحوال والنيات كلها كذلك ، إلا ما شاء الله ، فإذا استشعر الإنسان هذا كان مُشكِلاً » .

قال رضي الله عنه : « إنهم بَنَوا أمورهم على العلم ، ولكنهم يعلمون الأصول أولاً ، وإذا احتاجوا إلى الفروع النادرة ، يحصل لهم فيها فتوح من الله . وفي قول : من عَمِلَ بما يعلم ؛ أورثه الله علم ما لم يعلم، هو العلم اللدني » .

وذكر الصدقات وهو يُحَذِّرُ رجلاً منها ، فقال له : « الحذر من أكل الصدقات أو خلطها بالمال ، فإنها تُفسِدُ الجسم والمال ، وتحرقهما كما تحرق النار الحطب وتفسده » .

وشكى إليه رجل متولي وظيفة بأنه لا يعيش له ولد ، فقال : « لعلك قَصَّرْتَ في الوظيفة أو أَكَلْتَ منها ، فإن من فرط في وظيفة أو أكل منها ، قَلَّ ما يعيش له ولد ، وإن عاش لا يكون فيه بركة » .

قال : « لا ينبغي للجماعة المجتمعين في أماكن متقاربة أن تضيق صدورهم فتضيق بهم أماكنهم ، وإذا وسعت صدورهم وسعتهم أماكنهم » هـ .

أقول : ويؤيده قوله ﷺ : « اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة » ، فإن جار البادية يتحوَّل ، وجار السوء هو الذي يؤذي جاره ، ويبغضه ويضيق به صدره .

وتكلم يوماً في الفتن ، فقال : « اعرف أهلَ زمانك ولا تتورط مع أحد منهم ، واترك كل أحد حتى تتبين لك صفحته ، والنبي ﷺ ما ترك شيئاً إلا بيَّنه للصحابة ، وهم بَيَّنوه للتابعين ، وهم بيَّنوه لتابعيهم. وإذا هانت الأمور ما عاد بالى الإنسان حتى بالتحفظ والتستر ، وقد ظهر في هذا الوقت أشراط الساعة ، فإنه لا يَصِلُ أحدٌ من جهة بعيدة إلا ويُخبِر بفتنة ، وأن فلاناً وفلاناً من أعيان الناس قد قُتِلُوا ، وإن بَقِيَتْ هذه الفتن عامنا هذا - وهو عام ١١٢٤ في ربيع الأول - فليتحقق الإنسان أن هذا هو أشراطها ، فلا يجوز للإنسان أن يخرج من بلاده ، بل يتعين عليه الجلوس في أرضه ، صيانةً لدينه وحفظاً لصبيانه ومَكَالِفِه ، لأن الإنسان أحسن ما يخرج إلى حرم الله ، وإذا حصل فيه الفتن والقتل فإلى أين يخرج ؟ وهذه الأشياء وأمثالها هي الأمور الموعود بها ، وصدق الله وبلغ المرسلون » - قال هذا لما بلغه أن فتنةً في الحرمين بين الحاج الشامي وبين حرب - « قال الإمام الغزالي : إذا لم يكن ما تريد فأرِدْ ما يكون . وإذا أردتَ أن ترتقي إلى معالي الأمور ، شَقَّ عليك ما هو إلا ما حواليك وعندك ، ما أحد يروح للتعب ويخلي الراحة ، وقليلٌ من أسَّسَ بنيانه ، والله سبحانه - وإن كان هو الخالق لكل شيء - لكن عَلَّقَ تارةً أفعاله على أفعال العباد ، وتارة عَلَّقَ أفعال العباد على فِعْلِه ، لكونه تعالى جعل أفعالهم سبباً لحصول الأمر المطلوب » .

قال : « اغتَنِم الساعة التي تصفو لك ، فإنه قَلَّ أن تَحْصُل كل حين ، ولا يحصل الصفاء كل حين » .

ثم ذكر أحوال من تقدم ، قال : « كم راح مما قد راح ، وكم خلف المتقدم للخالف - أو قال : السلف للخلف - ولكن كأنَّ الله لم يُرِد أن ينفع أهل كل زمان إلا بأهل زمانهم » .

قال : « يُنسَب إلى الإنسان من المقامات ما يَغْلِبُ عليه ، ولا يتحقق بمقام إلا وقد حصل له شائبة من جميع المقامات ، إذ لا يكون زُهْدٌ بلا ورع وصبر وخوف ورجاء ، ونحو ذلك كذلك ، ولم يَبْقَ عليه إلا إحكامها ، وتحقيق كل مقام بما يخصه ، وكلما أحكم مقاماً ، حصل له من القوة ما يقوِّيه على الذي بعده ، وعلى هذا » .

وذكر الشتاء والصيف ، فَفَضَّلَ الصيف على الشتاء ، ومما قال في ذلك : « حَيَّا الله الصيف ، لأن من طبعه أن يدعو الإنسان إلى قطع العلائق ، فلا تكثر فيه الثياب ، وأين أدركك النوم نِمْتَ ولو في الخلاء ، أو على تلِّ رمل ، أو تحت شجرة ، أو في أي مكان ، وعلى أي حال . ولو أنك في الشتاء طلبت كثرة الثياب ، والنوم في الدُّور ، وعلى الفرش وغير ذلك ، حتى إنه يكفيك من الحطب في الصيف ربع ما يكفيك في الشتاء . ومن العجائب في حكمة الله في تغاير الأوقات ، أنك لو شربت بعدما أكلت في الشتاء ماءً بارداً أفسد عليك الطعام ، والماء الحار يُصلِحُه ، أو في الصيف ماءً حارًّا ، أفسد ، والبارد يُصلِحه .

ومن تأمل في آيات القرآن وفي الأحاديث ، رأى أن الله لم يصف الجنة إلا بأشياء الصيف - أي المطلوبة فيه - والتي لا توجد إلا فيه ، كقوله تعالى : ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ۝٣٠ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ۝٣١ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ۝٣٢﴾ . فإن الظل إنما يكون محبوباً في الصيف ، وكذلك الماء والفاكهة لا تكون إلا في الصيف ، بل لو وُجِدَت في الشتاء لم تكن صالحة كَهِيَ في الصيف . وأن الله تعالى جمع في الآخرة جميع ما تلتذ به النفوس وترتاح به القلوب وتطيب به الأرواح ، وجعله في الجنة ، وجميع ما تكرهه النفوس وتضيق منه القلوب وتخبث به الأرواح ، وجعله في النار ، ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ﴾، وجمع الكل لهم في الدنيا ، وجعلهم مشتركين فيها ، ليبلوهم أيهم أحسن عملا، فَمَيَّزَ للفريقين الأمْرَين في الدَّارَين » .

قال : « صاحب العادة لا بد فيه شيء من الحقيقة ، إلا إنه ضعيف ، والعادة فيه أقوى ، وصاحب الحقيقة لا بد أن يكون فيه عادة ، إلا إنها ضعيفة ، والحقيقة فيه أقوى ، وكلما قويت الحقيقة ضعفت العادة ، حتى ربما يتوهم فقدها ، ولا يمكن أن تُفقَد بالكلية وإنما تَضعف ، وكلما قويت إحداهما ضعفت الأخرى ، والإضافة إلى أحدهما بحسب الأغلب والأقوى ، لأن من أكثر من شيء ؛ عُرِفَ به، ومن عُرِفَ بشيءٍ ؛ نُسِبَ إليه » هـ .

أقول : مراده بصاحب الحقيقة : مَن كَمُلَ إيمانه جداً ، حتى صار لا يرى نافعاً ولا ضارًّا ولا معطي ولا مانع إلا الله سبحانه ، حتى صار هذا وصفاً له ، حالاً ومقالاً ، متحقِّقاً بذلك ظاهراً وباطناً ، لا كقول غالب الناس ذلك بألسنتهم دون تَحَقُّقٍ به ، حالاً وشأناً ، كإيمان المنافق .

وعلامة الصدق في ذلك أن لا يلوم أحداً على تقصيرٍ في حَقِّه ، ولا يرجح عليه من يقوم بحقه وينفعه ، فإذا رأى العطاء والمنع والضر والنفع من الله تعالى ، مُتَحَقِّقاً به ؛ فما يلاحظ أمراً إلا من الله سبحانه ، فيحمده ويشكره على السَّرَّاء ، ويرضى ويصبر على الضَّرَّاء .

وقال في حديث : « المؤمن مرآة المؤمن » ، *قال* : « أي إذا رأى ما فيه من الخصال الحميدة ، التي ليست فيه ، فيعلم بِخلُوِّه عنها ، ويجتهد حينئذ في الإتِّصاف بها ، كما يرى وصف لونه إذا نظر في المرآة، فينبغي للمؤمن أن لا يصحب إلا من هو فوقه أو مثله ، ولا يصحب من هو دونه إلا على نية رجاء إصلاحه ، وإلا وقع العكس » .

قال : « التجربة من ثمرات العقول الراجحة » .

قال : « إذا أعطى الله العبد الطاعة والقناعة ؛ فقد أعطاه الشيء كله » .

قال : « كلٌّ فيه هوى ، وإنما الشؤم في اتباع الهوى ، ويقال إنه ليس في النفس من الخصال المحمودة

إلا خصلة واحدة ، وهي أنها إذا عودتها الخير اعتادته » .

قال : « الأكابر يتحققون بالعمل باطناً أكثر مما يتكلمون به ظاهراً ، لأن العمل عليه العمدة ، واللسان لا ضابط له ، وقد يتكلمون بلا قصد ، مع الإسترسال في الكلام » .

قال : « جامع التقوى فعل الطاعات وترك المعاصي ، خشيةً من الله ورجاء ثوابه وامتثال أمره » .

قال : « إن ملائكة الليل شدادٌ ، وملائكة النهار أهون من ملائكة الليل ، وبهذا السبب ترى المريض يشتد عليه المرض بالليل أشد منه بالنهار » هـ .

أقول : لعل مراده بملائكة الليل والنهار ما جاء في الصحيحين : « يتعاقبون عليكم ملائكةٌ بالليل وملائكةٌ بالنهار .. » ، الحديث . وذكر عددهم في غير الصحيحين أن عدد كُلًّا منهم ثلاثمائة هـ .

قال : « من دسائس الشيطان أن يُشغلك عن الخير بخيرٍ آخر ، حتى لا تُحسِن الأول ، فلا تستعجل بخير لتفعل خيراً آخر ، بل أحْسِن الذي أنت مُلابِسٌ له ، ثم افعل الثاني . وشُغلُهُ له بأن يوسوسَ له ويُهَمِّمه على الذي يكون غير مُلابِسٍ له عن ما هو متلَبِّسٌ به ، فيتعلق قلبه به عما هو فيه . وبهذا يعلم أن كل خاطر يخطر للإنسان في الصلاة والذكر والقراءة فهو من الشيطان ، وإن كان خاطراً يأمر بخير ، فضلاً عمَّا يأمر بمباح ، بل عمَّا يأمر بمكروه » .

وذكر الصالحين ، فقال : « الصالحين ، وأين مقام الصالحين عند الله ؟ ولعظم منزلتهم عند الله أوجب على كل مؤمن ومؤمنة السلام عليهم في كل يوم وليلة خمس مرات ، في التشهد في الصلوات الخمس ، في قوله : السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين » .

قال : « من اشتغل بهوى نفسه لا يُفلِح ، وكل ما خرج منه بعد ذلك من دواعي الدين ، فهو من دواعي النفس ، من شهوة أو غضب ، فينبغي للعاقل تركه » .

قيل : « فإن لم يتخلص له دواعي الدين من دواعي الهوى ؟ » ، قال : « هذا موضع الغلط » .

وسمعته يوماً ينشد هذين البيتين :

وَكُلُّ حَبِيْبٍ أَوْ صَدِيْقٍ عَرَفْتُهُ ... فَلَا تَرَكَ اللهُ لَهُ جَارِحَةْ
كُلُّهُمْ أَغْدَرُ مِنْ ثَعْلَبٍ ... مَا أَشْبَهَ اللَّيْلَةَ بِالْبَارِحَةْ

أقول :قيل في المعنى :

حَذَارِيْ مِنَ الإِخْوَانِ إِنْ شِئْتَ رَاحَةً   فَقُرْبُ ذَوِيْ الدُّنْيَا لمن صَحَّ مُمْرِضُ
سَبُرْتُ كَثِيْراً مِنْ أُنَاسٍ صَحِبْتُهُمْ   فَمَا مِنْهُمُ إِلَّا حَسُودٌ وَمُبْغِضُ

ذكره في شرح جامع الصغير ، وقال بعضهم :

مَنْ لي بِإِنْسَانٍ إِذَا أَغْضَبْتَهُ   وَجَهِلْتَ كَانَ الحِلْمَ رَدُّ جَوَابِهِ
وَإِذَا صَبَوتُ إِلى المُدَامِ شَرِبْتُ مِن   أَخْلَاقِهِ وَسَكِرْتُ مِنْ آدَابِهِ
فَتَرَاهُ يُصْغِيْ لِلْحَدِيْثِ بِسَمْعِهِ   وَبِقَلْبِهِ وَلَعَلَّهُ أَدْرَى بِهِ

قال رضي الله عنه : « كل ما وقع في القرآن من قول الله تعالى : ﴿قُلْ﴾، فهو حجة من الله سبحانه على لسان رسول الله ﷺ ، فإن وافقه شيءٌ من الحديث ؛ فهو حجة ثانية ، أو من كلام الصالحين فحجة ثالثة » .

قال : « من تكلم بكلمة العدل ، سواء كانت له أو عليه ؛ فهو الرجل » .

وقال : « إن الحوت ليس له رئة ، فبهذا السبب لا يحتاج إلى النفس » .

قال : « ثمان آيات دواء من العين : الفاتحة وآية الكرسي . لأن الفاتحة سَبْعٌ ، وآية الكرسي الثامنة » .

قال : « من كلام الشيخ عبدالرحمن السقاف : إذا صار الناس ذئاباً ، فلا تكن شاةً فيأكلوك ، وإذا صاروا شاءً فلا تكن ذئباً فتأكلهم . ومنه : مَن لا له وِرْدٌ ؛ فهو قرد » .

قال : « الشكُّ ما له سببٌ أو قرينة ، وهو الشبهة ، وينبغي أن لا يقدم عليه حتى يتضح ، فإن لم يكن عن سبب ولا قرينة فهو وسواس وخواطر لا عمل عليها » .

قال : « الأشياء الشاقة كبَرْدٍ وسَفَرٍ ونحو ذلك ، التجلد فيها والصبر خير من .. » . هكذا رأيته في الورقة ولعله : « خير من التحرك » هـ .

قال : « علامة المتدين أن لا يختلف لسانه مع اختلاف الأحوال ، إلى صحة ومرض وفقر وغنى وغير ذلك » .

قال رضي الله عنه : « لا ينبغي للطالب أن يقول مُرُوني بكذا ، أو اعطوني كذا ، فإنَّ هذا طالبٌ لمطلوب نفسه ، بل يكون كالميت بين يدي الغاسل ، إن أقاموه في شيء ابتداءً منهم ؛ فليمتثل ، وإلا

فليقف . فإنه لا يدري بما يصلح له ، وهم أعرف به منه ، فإن الناس مختلفون ، أحدٌ لا يصلح له إلا خدمة الشيخ ، وأحدٌ لا يصلح له إلا خدمة الفقراء ، وأحدٌ يصلح له غير ذلك ، على حسب اختلاف غرائزهم وفطرهم » .

قلتُ : فإن أقام الطالب عند الشيخ وطالت المدة ولم يُقِمْهُ في شيء ، فقال : « في الطاعة بركة ؛ فيمتثل ما يأمره به الشيخ ، فإنه ما دام يطلب شيئاً بنفسه لم يحصل له ، فإن الأشياء مُوزَّعَة ، لِكُلٌ ما يصلح له » ، ثم ذكر قصة الإمام الغزالي حين مضى يطلب الطريق ، فجاء إلى بعض المشايخ فقال له : « أردتُ عندكم خدمة » ، فقال له : « ما عندنا لك إلا حجر الإستنجاء تغسله كل يوم » .

قال : « إن صاحب الطريقة العامة ينتفع به أهل الطريقة الخاصة ، لأنه يكون تذكرة لهم ولا عكس » .

قال : « أكابر الأولياء كالشمس وكقابس النار ، إذا أتاهم الطالب ، فإن كان متأهلاً للشيء ؛ قدحوه في لحظة ، وإلا أقاموه حتى يتأهل له . ثم إنهم مختلفون الأحوال ، فمنهم من هو كالقبس الصالح العامل يوري من أول مرة ، ويؤثر معه ذلك ، ولكنه لا يظهر عليه له أثر في حياتهم ، كما أنه لا أثر للسراج مع طلوع الشمس . ومنهم من لا يوري إلا بعد مرار متعددة . ومنهم من لا يوري بحال ، كالقطن الدويل الذي ما فيه رائحة الدواء . ثم بعد الإيراء منهم من يثبت فيه ذلك كما تقدم ولا يزال، ومنهم من ينطفئ في الحال ، ومنهم من يقيم معه مدة ثم ينطفئ على حسب الصلاحية لذلك وعدمها» .

وقال لبعض السادة : « دَارِ الناسَ وانقَبِضْ عنهم بعض الإنقباض ، وشُفْ حاجتك وما لا بد لك منه ، وما لهم إلا الفاضل . ومطالب أهل الزمان ألّا الهوى والدنيا ، لا يحبك أحدهم إلا وقت يخلو ، وما يلحقون ظهراً إلا أدبروه ، ولا جواداً إلا أحفوه ، ولا قلب ولا همة لهم في الدين ، يوم تراهم يجلس أحدهم في مخزنه عن الصلاة إلى آخر الوقت ، ولو لهم همة في الدين لأدركوا ، فقد جعل الله عندهم من يرجعون إليه » .

قال : « إذا صح الحديث فَخُذْ به وأحسن الظن ، ولا تشكّك فتقع ، كما وقع لرجل سمع حديث : إذا نام أحدكم فليغسل يده .. إلخ » .

أقول : وذلك أنه أنكر الحديث ، وقال : « إنما تبات يده في بطنه » ، فانتبه ليلةً من نومه وإذا يده داخلة في دُبره .

قال : « في ما جاء أنَّ عرض كل سماء خمسمائة عام ، وأنها خُلِقَت قبل الأرض بمدة ، وأن الأرض إلى السماء كحلقة درع ، وأعمار الأنبياء ، ونبينا يتيم ، فأودع ما في الأنبياء ، وأمثال هذه الأشياء مما يكثر ، أن هذه يُصَدَّق بها ويُعتبر ، ولا يجب الإيمان بها ، إلا ما صح أو جاء في القرآن ، فيعلم على ما هو عليه » هـ .

أقول : الذي ظهر لي من قوله : « ونبينا يتيم فأودع ما في الأنبياء » ، يعني كونه ما أودع ذلك إلا لأنه يتيم ، ليس الأمر كذلك ، وإنما ذلك خصوصية له من الله سبحانه ، لا لأجل يتمه . والله أعلم هـ .

قال : « المغروم قليل ما يقصد الكذب ، وإنما هو يتصور له أشياء في دماغه يظنها صحيحة وهي باطلة . والمجذوب خف له وخف عليه ، لأنه يحتاج إلى تَحَفُّظ كالطفل ، إلا أنه يبطش لأنه ما يعرف » .

وتقدم قوله : « المجنون قَصْدُهُ باطل ، وعمله باطل ، والأحمق قَصْدُهُ صحيح وعمله باطل ، والعاقل قَصْدُهُ صحيح ، وفعله صحيح » هـ .

قال : « إذا توجه العبد إلى ربه ، وصدق في الإقبال عليه ، يظهر عليه من ذلك العالَم ما لا تطيقه القوة البشرية ، ورؤية الإنسان لربه في الآخرة على بُنْيَةٍ أخرى ، ليس هو على ما في الدنيا » .

وقيل له : « فلان وفلان جاؤوا زُوَّاراً ومَرُّوا عينات » ، فقال : « قد يجون ناس يدَّعون أنَّ نيتهم الزيارة ، ولهم أغراض وحظوظ ، ولا يُتعب الإنسان إلا تَمَلُّقهم وتجرجرهم ، كأنهم لمجرد الزيارة » .

قلت : ويزعمون إنما جاؤوا لذاك ، ولهم مقاصد أخرى ، قال : « ألست تقرأ : مضى الصدق ، فأين الصادق ؟ وإذا أردتَ تعرف ذلك ؛ فانظر كيف يجرجرون الإنسان ، وإلا فمن جاء بصدق ونية ، فلأي معنى يجرجرون تجريراً » ، يعني أنه لا طاقة له بكثافة المصافحة ، وهم يفعلون لقلة أدبهم .

قال : « ويتعبنا العَرَاجُ ، ولكنه طبع الزمان ، وفي الحديث : نعم صومعة الرجل بيته . وما نود أن نخرج ، لكن تعرض عوارض توجب للإنسان الخروج ، من زيارة قريب وصلته ونحو ذلك » .

ومرة قال : « ولولا رغبتنا في صلاة الجماعة والجمعة لما خرجنا للناس » .

قال : « وأشغال بلادنا كثيرة ، إن لم نرها ، سَمِعْنا بها ، فتشتغل بواطننا لذلك ، وقد انكب الناسُ على زيارة عالم حتى أدْمَوا رِجْلَيْه ، فقيل له في ذلك ، فقال : إن الله لا يدعني لهم . وسار بعض الناس إلى البصرة لزيارةِ رجل فيها من الصالحين ، فجعل كلما مَرَّ ببستان وسأل عنه ،قيل له : هو لفلان ، الرجل الذي أراد زيارته ، فتعَجَّبَ وحصل معه إنكارٌ عليه ، وقال في نفسه : كيف يكون رجل صالح ، وهذه

الدنيا كلها له . وهمَّ بالرجوع ، ثم خطر له أن يقرأ سورة الأنعام ، وينظر أي آية يصل إليها مع وصوله إلى داره ، فانتهى إليها مع انتهائه إلى هذه الآية : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ﴾ ، فاستأذن عليه، فأذن له ودخل ، فقال له الرجل - أي مكاشفة - : كل هذا الذي رأيت لفلان ، ولم يخطر ذلك على قلبه - يعني نفسه وسَمَّى اسْمَه - » ، أو كما قال . ويفهم اللبيب من هذا معنى غريب عجيب .

وذكر يوماً جماعةً صحبوه ، فانقطعوا ، وأخداماً نفاهم ، فقيل له : « إن هؤلاء يُرثى لهم » .

قال : « إذا ترك الإنسان حقه فماذا يصنع به ؟ وقد قال الشيخ أبوبكر بن سالم : ومَن صدَّ عنَّا حسبه البَيْن والقَلاء ، ومَن فاتنا يكفيه أنَّا نَفوتُه » .

قال - يخاطب الخادم - : « إذا رأيتنا معرضين عن أحد فلا تَخُضْ فيه ، فإنَّا ما تركناه إلا لأمر ، ومن تغيَّر خاطرنا عليه ، فأخذنا منه عملاً كنا أدركناه به ، أو أخرجناه من عندنا ؛ فلا عاد ينفع » .

قال لي يوماً : « جاءنا رجل كان حَسَن الأخلاق ، يجبر الغرباء ، ويأخذ بخواطرهم ، وكان يثني عليه ، ولكن مع ذلك ما قَبِلَهُ قلبي ، ولا مال إليه خاطري ، فَتَعَجَّبْتُ من ذلك ولم أعلم له سبباً ، حتى إذا سافر من عندنا ، بَلَغَنا أنه كان قتل نفساً » .

قال : « ينبغي أن يأخذ في كل شيء بحسب حاله ، ويراعي مزاجه وطاقته ، وإن أعجبه شيء أخذ فيه بالحكمة لا بالشهوة » .

قال : « القدر لك وعليك ، فإن كان لك أَقْبَلَ الناس إليك يخبُّون ، أو عليك أدبروا عنك بالكلية » .

قال : « المراد بالعزائم إما فقير يرجو الغنى ، أو ذليل يرجو العز ، أو محتاج يرجو قضاء حاجته » .

وذم الملاحاة ، **فقال** : « هذا في الدنيا ، وإن كان في الدين فلا ينبغي أن يترك دينه لدنياه ، فإن هذا هو المداهنة ، وأما ترك دنياه لدينه أو لدنياه ، فهو المداراة التي تنبغي » .

ووصل بعض الزائرين من دوعن ، فسأل منه عند وصوله التلقين والإلباس ، **فقال** له : « تريَّض أوَّلاً ، وإنما يَحسُنُ ذلك عند المسير ، والعجلة مذمومة ، ونحن صافحين عنكم وحالمين عليكم ، ولكن مرادنا لكم التعليم والتأديب » ، وخاطب غيره في مجلس آخر بمثل ذلك الكلام ، فقال : « ونحن صافحين عنكم .. إلخ » - كما قال معاوية بن أبي سفيان : إذا لم أجد يوماً بحلمي عليكم ، فمن الذي تكون له عند الغيظ مني الحلم - .

« تريدون إذا وقع لأحد مصلى أو شيئاً يقول هذا من فلان ، اتركونا من هذا اللعب ، ونحن لو

سَيَّبْنا أنفسنا لأهل تريم ؛ قَطَّعوا ثيابنا تقطيعاً ، لكن بقينا مانعين على أنفسنا . فانظر يوم يصافحونا ويناتفونا ، يُظهِرون أن ذلك عقيدة ، ولو قلنا لهم : ادخلوا مسجداً اركعوا فيه ركعتين لتبرموا ، وقالوا يريد هذا الشريف يشغلنا . وكان لأبي يزيد صاحب ، إذا مشى يضع قدمه على موضع قدمه ، فقال له: لو سلخت جلدي ولبستَه ما نفعك حتى تسلك طريقي التي سلكتُها إلى الله . وقِدَك تعرف جماعة من أصحابنا ، إذا استحقوا ميراثاً من أحد ، لا يسألونه ولا يزاحمون فيه ، فإن أُعطُوا منه شيئاً أخذوه للبركة، وإلا سكتوا . وقد كان الجد عيدروس بن أحمد لما مات أبوه جلس تحت حجارة ، والناس يجون يعزون إخوانه على أبيهم ، وكان أبوه مشهوراً ، يأتونه الزُّوَّار ، ولا طلب شيئاً من ميراثه . هذه سيرتهم، وما قيمة الإنسان إلا هِمَّته ، ما قيمته شهوته » هـ .

أقول : يعني جده والد أمه : عيدروس بن أحمد الحبشي صاحب الشعب ، فإن أم سيدنا سلمى بنت عيدروس ، وأبوه أحمد تكفي شهرته عن اسمه ، وكان مسكنه بالشعب ، إلى أن توفي وقُبِرَ فيه في أسفل الجبل ، وفي أعلاه جدهم أحمد بن عيسى ، يصعد الزائر إليه في نحو ٨٥ درجة .

وكان سيدنا أحمد الحبشي يمر عليه التجار السائرون إلى صنعاء ، ويسلمون عليه ، فيقول لبعضهم: « سالم غانم » ، فيأتي من صنعاء سالماً هو وماله ، ومستفيداً في ماله فائدة جزلة . ويقول لبعضهم : « سالم » ، فقط ، فيأتي سالماً وقد ذهب ماله ، فكانوا يتوقعون منه ما يقول . هكذا سمعنا عنه .

وله سياحات في الحرمين وغيرهما ، وتزوج بثلاثمائة امرأة هـ .

وتكلم سيدنا يوماً في قلة أدب الناس في دخولهم الجوابي ، وأنَّ دخولهم حادث ، *فقال* : **« لو كان حكم حاكم أن لا يدخل أحد الجوابي ، لو كان لهم أدب لما دخلوها ، وكانوا منعوا من الجوابي ، خصوصاً وقت الصبح ، لأن تلك الرائحة من أبدانهم ، وفي الأبدان عرق وزفر ، خصوصاً المحترفين، ولكن هذا إذا كان للإنسان من نفسه واعظ ، فلا يتكلم الإنسان إلا وقده ناجح من وعظ نفسه ، فأما إذا لم يكن فتعب بلا فائدة » .**

قال : **« أفنى أقوامٌ أعمارَهم في طلب علم اللغة ، لما عجزوا عن علم الأعمال والأخلاق ، لمشقتها على النفوس ، وإنما راحوا في ذلك لسهولتها على النفوس ، ولها فيها أغراض ، مع إنما حاجتها ألا ليتوصل بها إلى معرفة علوم الأعمال والأخلاق . وهذه - أي علوم اللغة - علومٌ في نفسها ، لكن ما هي مقصودة ، بل وسيلة ، وذلك كعلم التجويد وغيره » .**

وذكر أهلَ الطاعة ودَفْع الله البلاء بسببهم ، *فقال* : **« جاء في بعض الأحاديث : أن الله يَهِمُّ بأهل**

الأرض بالعذاب بسبب معاصيهم ، فإذا رأى عُمَّار المساجد ، صَرَفَهُ عنهم . وكان عوض بالمختار دخل تريم ، وأراد يروح يسير ، فمَرَّ على الجبَّانة ، فرأى رجلاً ساجداً ، فانتظره ساعة ، فأبطأ عليه ، فمضى ثم رجع ، فرآه على حاله ، فسلم عليه وقال : سَلَّمَ اللهُ لنا رجالنا .

أَوَأهل اليقظة غافلين مثل أهل الغفلة ؟ وجاء في الأثر : أنه نزل من السماء مَلَكان ، أحدهما في الأرض نزل أولاً ، ونزل الآخر بعده ، فقال النازل للآخر : بِمَ ذا بُعِثتَ ؟ فقال : بإهلاك أهل القرية وإغراقهم . قال : لِمَ ذاك ؟ قال : لأن الملائكة الحفظة صعدوا إلى الله بأعمالهم وفيها الفجور، وأنه افتضت هذه الليلة سبعمائة عذراء بالزنا ، فبِمَ ذا بُعِثتَ أنتَ ؟ قال : بُعِثتُ بنجاتهم ، لأنه صعد إلى الله في عملهم الليلة سبعمائة أذان وإقامة . فنَجَوا ببركة هؤلاء ، والقرية بغداد » .

قال : « اسأل ربَّك أن يجعل لك الحظ عنده ، وهو الذي يُسَمَّى : البخت والنصيب .

إِذَا كَانَ المحِبُّ قَلِيلَ حَظٍّ فَـمَا حَسَـنَاتُهُ إلا ذُنُـوبُ

وتقدم معنى الحظ والبخت والنصيب ، أنه ما كُتِبَ في اللوح المحفوظ للعبد من الخير في الدنيا والآخرة أنه يُصيبه فيصيبه لا محالة ، فيقال له : حظ وبخت ونصيب ، كما قال الشيخ أبوبكر العيدروس في قصيدة : « وما هو إلا بالبخت والنصيب » ، أي مواهب الله لعبده إذا بَلَّغَهُ مقامات الصالحين ، وما لم يُكتَب له لا يناله ، فيقال : ما له بخت ولا حظ ولا نصيب .

قال : « وتكلم الإمام مالك بكلام في غوامض العلم ، فقيل له : من أين لك ذلك ؟ فقال : من ربيعة بن عبدالرحمن . قيل : أين هو ؟ قال : في طاقة في المسجد . فراحوا إليه وقالوا : لِمَ يكون مَالِك أَظْهَرَ مِنْكَ وأشهر بالعلم ؟ فقال : قليلٌ من الحظ ، خيرٌ من كثيرٍ من العلم » ﻫ .

أقول : يعني أن الشهرة وعدمها حظ من الحظوظ ، كالغنى والفقر ، لا يدل على أن صاحبها أفضل من غيره . وقد سمعتُ سيدنا يقول : « كم من مشهور في بركة مستور » .

وقال : « إن القطب إذا كان له نصيب في الظهور ؛ ظهر ، كالشيخ عبدالقادر الجيلاني ، وإن لم يكن له فيه نصيب ؛ استناب في الدعوة إلى الله من له فيه نصيب ، كقصة ربيعة والإمام مالك » .

وتكلم في الزمان وأهله ، **وقال** : « لا عاد يسع الإنسان إلا الصبر والتحفظ لأنهم ضباع ، إذا طرفت لهم أكلوك » - أي حاولوا أن يستجروا منك دنيا ولو كانوا أغنياء وهم لا يستحقون ذلك ،

ولهذا أنشد البيت المذكور - وأنشد هذا البيت :

وَمَنْ يَفْعَلِ المعْرُوفَ مَعَ غَيْرِ أَهْلِهِ　　يُجَازَى كَمَا يُجْزَى مُجِيْرُ أُمِّ عَامِرِ

قال : « راحت أعمار الناس بلا شيء ، وسَيَّبوا كلَّ شيء ، وادَّعوا كلَّ شيء ، وفاتهم كلُّ شيء » .

وذكر الجنة والنار فتكلم فيهما كثيراً ، **فقال** : « **جهل الإنسان نفسه على طرق النجاة قبل الفوت ، ولا يُعَرِّج على التأويل والرُّخَص . لأن العقل ما لَهُ فَهْمٌ في أمور الآخرة ، إذا كانت الحبة مثل الجرَّة ، والوقت كله كالبُكرة ، والأكل ألَّا جشأ وعرق . وإذا اعتبر النار فهي على أقسام : نار تأكلهم ، وإلا حميم** ، ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴾» .

وذكر عشية الأحد ١٤ ذي القعدة سنة ١١٢٧ قصة الذي مَرَّ على قبر وسمع فيه ضرباً ، ثم خرج منه كلبٌ أسوَد ، فسأله : « ما أنت ؟ » .

قال : « أنا عمله - وكان سيئاً - أردتُ أن أحيط به ، فوجدتُ عنده سورة تبارك وأخواتها - يعني المنجيات - » .

والقصة مذكورة في « روض الرياحين » .

وحديث : « وَدَدْتُ أنها - أي تبارك - في قلب كل مؤمن » .

قال : « **وينبغي لكل مؤمن أن لا يترك قراءة المنجيات كل ليلة ، فإن أمكنه كلها أو بعضها الذي ورد قراءته منها ليلاً ، وباقيها في النهار ، فيقسِّمها بين اليوم والليلة** » .

والمنجيات السبع السور : « ألم السجدة » ، و« يس » ، و« فُصِّلت » ، و« الدخان » ، و« الواقعة »، و« الحشر » ، و« تبارك » . والوارد منها ليلاً : « السجدة » ، و« الدخان » ، و« الواقعة »، و« تبارك » . و« يس » تعلق الناس بقراءتها ليلاً ونهاراً ، ولا أعلم تخصيصها بأحدهما .

وكان عادة سيدنا قراءة « الواقعة » في خروجه إلى المسجد لصلاة العشاء في مسيره خارجاً ، هكذا كل ليلة نسمعه يقرأها ، وأما قراءة يس فمرتِّبها على المؤذن بعد كل صلاة من الخمس .

وشكى إليه بعض الناس الزكام، **فقال**: « في الحديث: الزكام أمانٌ من الجذام، والسعلة أمان من الفالج، والرمد أمان من العمى ».

وذكر حديث: « إنما الأعمال بالنيات »، **وقال**: « الإنسان ينوي ويتحرك ويُتِمُّ الله ما أراد، فقد توافق الحركةُ القضاءَ والقدر، فإن وافقتها تم الفعل، وإن لم توافق ذلك لم يتم العمل، ولكن يبقى الإنسان على ما نوى من خيرٍ وشرٍّ » ه.

أقول: قوله: « فإن وافقتها تمَّ »: وذلك في الخير والشر.

وقوله: « يبقى على ما نوى »، أي على قانون الشرع، من كون نية الخير بلا عمل تُكْتَب له حسنة، ونية الشر لا تُكْتَب شيئاً، وذلك من فضل الله ورحمته، وكونها سبقت غَضَبَه، أي غلبته في أمور كثيرة خاصة لهذه الأمة، وهذا من جملتها، وكل ذلك ببركة نبيها خاتم الأنبياء، وتمنوا كلهم أن يكونوا من تبعيته ﷺ. فانظر في أثر سيدنا موسى عليه السلام الذي فيه: « يا رب إني أجد في الألواح أُمَّةً صفتها كذا .. إلى أن قال في آخره: رب اجعلني مِن أمَّتِه »، جزاه الله عنا أفضل الجزاء وجزاه عنا ما هو أهله.

وذكر سيدنا الشُّحَّ المُطاع، والهوى المتَّبع، والإستغناء بالرأي، وقد مرت الثلاثة في حديثها في الدرس، **فقال**: « قد يكون في الإنسان الشح، ولكن لا يضره إلا إن أطاعه، بأن أطاعه في تَرْكِ واجبٍ كالزكاة، أو فِعْلِ حرامٍ كأخذ مالٍ حرام، فلا شك أن ذلك يضره، والشح هو الذي جَرَّ إلى ذلك. وكذلك الهوى، كلٌّ فيه هوى، لأنه من طبيعة النفس، فإن اتبعه حتى وقع في حرام مما يدعوه إليه، أو ترك ما يلزمه، فلا شك أن ذلك مما يُهلِكُ الإنسان. والإستغناء بالرأي، لكونه يمنعه من أن يستشير من هو أعرف منه، فيقع في المحذور ».

وذكر الصالحين في الأزمنة المتقدمة وظهورهم فيها، وفي هذا الزمان وخفاهم فيه، **فقال**: « كان الزمان صالحاً، وبضاعتهم مطلوبة، فظهروا لذلك، وأما اليوم فالزمان فاسد، وبضاعتهم مرغوب عنها، فلذلك لم يظهروا. ألا ترى لو أن رجلاً معه بضاعة انفرد بها، لا يطلبها منه أحد، فإنه لا يُظهِرها ولا يَذكُرها لأحد، ومن معه مسك أيروح يجلبه للزبَّالة، ولو أن رجلاً طلب شيئاً لم يطلبه أحد غيره، لم يجده، ولو كان له طالب غيره وللناس فيه رغبة لوجده ».

وذكر حديث: « ثلاث من السعادة »، حتى ذكر الدار تكون واسعة كثيرة المَرافق، **فقال**: « هذا لمن بناه له غيرُه، فحصل بذلك، وقد باء بثوابه الثاني، أو عقابه، وحصل لهذا مع حاجته للمَرافق، وإلا فسكونُه في زاويةٍ خيرٌ له. والبناء فيه نَهْيٌ، وأكثر الناس يشيد البناء من غير حاجة، ولو جعله

في أمر - ولو من أمور الدنيا ، كشراء نخلة ونحوها - فهو خير من البناء ، وحصوله من نحو هبة أو إرث » .

والتقاه يوماً بعض السادة من أهل مَرْيَمة ، وهو نادر إلى الحاوي ، فسَلَّم عليه وصافحه ، فسأله سيدنا عن بلده وما حواليها ، هل هم آمنين أو متخوفين ؟ وذلك يوم السبت سلخ ذي الحجة سنة ١١٢٦ ، أيام الناس يرقلون لعمر بن مطهر بن جعفر ، فقال ذلك الشريف : « هم في سكون ولكنهم متخوفين » ، فقال رضي الله عنه : « لا يخاف إلا من معه شيء ، هم الذين أخافوا أنفسهم ، فجمعوا بين حقهم وحق غيرهم بالباطل ، من رباً وغيره ، فجعل الله في قلوبهم الخوف ، ولو كان ذلك من وجه لما كان عليهم في ذلك بأس ، ولكن هؤلاء - يعني المرابين - ينهبون أموال الناس في البيوت ، وأولئك - يعني البوادي قطاع الطريق - يفسدون في الأرض » ، أي ينهبون في الخلاء ، وسَمَّاهم مفسدين لقول الله تعالى : ﴿وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا﴾.

قال : « وهذا هو البَغْي المذكور في القرآن والفساد في الأرض » ، واستشهد بآياتٍ ، كقوله تعالى : ﴿وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِي ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا﴾ .

قال : « ومَن هو مُتَجَرِّدٌ عن الدنيا ، لا يخاف من شيء ، فلا أحد خاف على هدم بيته أو قلع نخله ، ولكن جاء الناس اليوم على حالة أخرى ما كنا نعرفها ، وتغيروا عن أحوال أسلافهم ، الوالي لا يَتَولَّى إلا ونِيَّته أَخْذ أموال الناس بالظلم ، وصاحب البيع والشراء لا يفعل إلا ويريد أَخْذ أموالهم بالباطل في نحو رِباً ، مع اعتقاد أن ذلك لهم حق » .

فقال الرجل : « خاطركم بالسلامة من الفتنة » ، فقال : « الفتنة في العالِم أشد منها في الطالب ، لأن العالِم يفتتن بفتنته كثير من الناس ، وفتنته أن يرى ظُلماً فلا يُنكِره ، ومُرَابياً فلا يكلِّمه في ذلك ، ونحو ذلك كثير ، وما ذلك إلا لعلمه بعدم قبولهم ، لأنه إذا بَلَغَهُ عن أحدٍ من ذلك شيء فكَلَّمَه فيه ، إمَّا أنكره بالكلية ، أو راح يَتَقَصَّى عن مَن أخبره به . وأما الإمتثال واجتناب المنهي فلا » .

كلُّ هذا الكلام مع ذلك السيد في الطريق ، وهو يماشيه في خروجه إلى الحاوي ، فلما وصل معه إلى الضيقة - الدهليز - استودع الشريف منه ، فقال سيدنا له : « يكفيك هذا المسير والكلام ، وإذا جئتَ إلى أهل الحق فلا تَقُمْ عندهم إلا قدر ما يعلق المُقْتَبِسُ علق السراج سراجه ، فسمح - أي سريع - يعلق الذي يريد يعلق فيه ، ويرجع ولا يحتاج إلى أكثر من ذلك » ، أو كما قال .

وفي ذكره هنا : « علق السراج ، سراجه » ، إشارة إلى معنى ما تقدم من قوله : « إذا جاءهم المستعد

قدحوا له في لحظة » .

وطلبني يوماً أن أقرأ عليه قصيدته التي أولها : « يا قريب الفرج سالك تجلي ذي الأكدار .. إلى آخرها » ، وفيها : « وارشد الوالي إنُّهْ يا إلهَ السَّما حَازْ » ، ثم قال لي في معرض المزح : « لو وَلُّوك عليهم، ماذا كنت تفعل في معيشتك ، كنت تحترف ؟ » .

قلت : نعم ، قال : « لا ، كما فعل أبوبكر رضي الله عنه ، إن كان هناك بيت مال يعطونك منه ما يكفيك » ، ثم قال : « لو قد ولي على الناس وال ، وأراد العدل ، فأول ما ينبغي أن يجمعهم عند المنبر ويخطبهم ، فيقول : إن أردتم أن تحموا أنفسكم بأنفسكم ، فقوموا كلكم البسوا السلاح ، واحموا أنفسكم وأهلكم وأموالكم ، وإن لم تفعلوا وأردتم أن يحميكم غيرُكم فمؤونتهم وكفايتهم عليكم ، بما أمكنكم وسهل عليكم ، فاختاروا أحد هذين الأمرين » .

ثم كلم بعض الفقراء من الحاضرين في أمر المعيشة ، وسأله عن أمر معاشه ، فقال : « ما لنا إلا الله، ثم أنتم » ، فقال : « ما عليك ، أعطاك الله دِيناً وأعطاك دنيا ، فالدِّين يدك اليمنى والدنيا يدك اليسرى، ولا يتم شأن الإنسان إلا إن كان بيديه جميعاً ، وأما يمنى بلا يسرى ، وإن كان حصل له بها قوة لكنه ناقص عن تمام القوة ، وإن كانت اليمنى معه فذاك ، وإن كانا معه فقد تمَّت قُوَّتُه » ، يعني : وأما يسرى بلا يمنى فلا خير فيها ، ولا تتم قوته يعني دنياه بلا دين ، فلا خير في دنيا بلا دين .

وتكلم يوماً كلاماً كثيراً لم نحفظه ، فمن جملته أَنْ ذَكَرَ العِلم والمال ، فقال : « العلم الظاهر هو دَرْبُكَ الذي تسير عليه ، لا بدَّ لك منه ، فإذا صَلَّيتَ مثلاً على ما سَمِعْتَ في العلم ، ودُمتَ على ذلك ؛ رَسَخ ، وبعد رسوخ العمل تظهر ثمرته . وأما المال ، فإن المال الحرام يروح في الحرام ، والشبهة يروح في الشبهة ، وذلك أكثر ما تروح فيه أموال أهل الزمان ، وهو دليل على أصله ،فترى أحدهم يُخرِجُ في هوى نفسه أموالاً غلط ، من غير طرف ، وإذا جئنا إلى فعل الخير ، لِحَقْنا ساقيته يابسة ، وفي الحقيقة هو الدائم ، وذاك هو الفائت » .

قال يوماً حال القراءة في المسجد : « افتحوا الطاقة ، فربما أحد يفتحها فيتضرر بها ، لأن الزمان معكوس فجاؤوا على طبيعته - يعني طبيعة أهله - وقد قال الشيخ عبدالرحمن : هذا زمان معكوس. هذا في زمانه ، فكيف بهذا الزمان ، فإن كان ذلك الزمان معكوساً منكوساً ، ففي هذا الزمان زاد الإنعكاس والإنتكاس » .

وطلب منه بعض السادة القراءة في « النصائح » ، فقال : « لو أردنا أن نقرِّي من جاء ؛ امتلأ بهم المسجد ، وإن طال بنا عمر تركنا الجلوس للناس ، ومن أراد القراءة قرأ الفاتحة أو صدر سورة يس ،

وبهذا كفاية ، وحصل الإتصال ، وإن أراد يقرأ ويتقيد ، يروح يقرأ على أقوام جالسين لتفقه الناس ، وحسبهم الله فيما يقولونه ، ولسنا نحن من طبقتهم » .

وذكر ذات يوم الرياح وجهاتها ، ثم قال : « ما بين الجهتين تسمى النكباء » .

فقلت : هل النسيم التي يذكرونها تختص بجهة أم لا ؟ ، فقال : « لا تختص ، بل كلما كانت لطيفة، لكنهم كثيراً ما يذكرون نسيم الصبا ، التي من شرق ، فلعلها ألطف من غيرها ، ونسيم نجد ، إن كان مرادهم العلو فهي كذلك ، وإلا فكلما هو عالي يُسَمَّى نجداً ، ولكنهم يذكرونها على الإطلاق ، ويكتفون عن تقييد كونها في الصيف كما في الماء البارد ، حيث يُذكر في معرض المدح ، ولا يُقَيَّد بحال الحرارة ، إذ لو هبت نسيم سحراً والوقت شد البرد ، أو شربت ماء بارداً في هذا الوقت ، لكان شاغلاً لا يحصل به راحة » ، أو كما قال .

وسئل عما في حديث النهي عن وصال الصوم ، وقوله ﷺ: « إني أطعم وأسقى » ، يعني أن الوصال جائز له ، وهذا من خصوصياته ، هل هذا الطعام والسقي حسي أم معنوي ؟ فقال : « حسي، كما في قصة اللبن ، ويُحتَمَل أنه معنوي » ، يعني فإن كان معنوياً فالإكتفاء به من خصوصياته ﷺ .

وسئل : « هل يُسَنُّ تكرير قراءة سورة الكهف يوم الجمعة وليلتها ؟ » ، فقال : « لم يرد التكرير ، ولا بأس به ، وفيها عجائب ، فإيش سر تخصيص القراءة بها في هذا الوقت » .

وعن حديث : « مَن أذَّنَ سبع سنين .. إلخ » : هل لا بد أن يكون ذلك في الأوقات الخمسة ، أو ولو في بعضها ؟ ، فقال : « ظاهره أن يكون ذلك في الكل ، إلا لعُذر في شيء من الأوقات ، ولكنهم في هذه الأزمنة أخذوا الأجرة ، ولا يقيموا بما عليهم ، لأنهم فقراء قلوب ، ومن كان كذلك لا يترك شيئاً ويستغني عنه ، ولكن هذه الأمة إن شاء الله فيها خير ، والأولون كانوا أغنياء ، يتركونه عن غنى قلب، وهؤلاء يطلبون الأذان للأجرة » .

وأَفهَمَ كلامه بقوله : « ولكنهم في هذه الأزمنة أخذوا الأجرة » : أنَّ مَن أخَذَ الأجرة ، لا يحصل له الأجر الموعود به في الآخرة ، وأن ذلك هو نصيبه منه ، وكذلك في سائر العبادات ، كما يدل عليه كثير من أقواله كما سيأتي ، فإنه إنما وعد بالأجر للمحتسب ، وآخِذُ الأجرة ليس محتسباً ، ولكنهم يغلطون من الأجر بالأجرة ، والأجر هو الأجر الأخروي ، والأجرة هو الطمع الدنيوي كما في حديث : « خير ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله » ، يعني أن ثواب كتاب الله هو في الآخرة أفضل عمل أخذتوا عليه أجراً - أي ثواباً - فأوَّلوه وصرفوه عن معناه ، حُجَّةً لنفوسهم الأمَّارة بالسوء .

ثم كَذَّب أقواماً يَدَّعون فعل الخير ، فقال : « الخير في هذا الزمان لا يخفى ، وإن قَلَّ ، لقلته فيه ، فلو كان شيءٌ لظهر » .

قال : « من تمسك بالدين ما ضَرَّه شيء ، وإن ضَرَّه ؛ فما هو مبالي ، وخبر : ما أهريق الدم في طاعة الله خير من موت على الفراش ، وما يخاف الإنسان إلا أن يضيع دمه هدراً من غير حق ، ولهذا أمر بحقن الدماء ، أو يقع بسبب ذلك بأهل أو نحوهم » .

وتكلم في الحديث القدسي : « يا عبادي كلكم جائعٌ إلا من أطعمتُه .. إلخ » ، فقال : « أي إذا تحقق أن الأشياء كلها من الله ، سأل منه ما أراد وقت الحاجة . وقوله : فاسْتَطْعِمُوني واسْتَكْسُوني : أي إذا احتاج ، فإن كان معه كفاية فلا يسأل ، بل يشكر ولا يَمُد العين ، فإن العيون ممتدة والقلوب غافلة ، ولا ينبغي هذا بل الذي ينبغي بالعكس » .

هنا قصة ينبغي أن تُذكَر ، والأنسب ذكرها هنا ، وإنما استحسنت ذكرها لكونها فيها كرامة لسيدنا، وهي مُكاشَفة عظيمة ، وذلك أنه قال لي يوماً ، وكنت معه جالسين وحدنا ولا عندنا أحد ، فالتفت إليَّ وقال : « قد قال لنا حسين بافضل إن بدت لكم حاجة ، أو أردتم سلفاً ، الحذر ما تحكون لي » ، يعني أنه أراد أن يختص هو بقضاء حاجته . قال : « فقلنا له : إن بدت حاجة تطلب من الخلق فأنت أولى بها، وقدنا في بيتك » ، ثم قال لي سيدنا : « فاعلم هذا واعمل عليه » ، ومعنى قوله هذا أنه سيقول لك بعض الناس مثل ما قال لنا بافضل ، فقل له مثل ما قلنا لبافضل .

فو الله لقد قال لي رجل حين دخلتُ الحساء مثل قول بافضل لسيدنا ، فقال : « بالله عليك ، وروح سيدك عبدالله إن بدت لك حاجة ، أو أردتَ سلفاً ، فلا تطلب ذلك إلا مني » ، ولكني لبلادة فهمي ما فهمتُ الإشارة أنها لذلك الرجل ، إلا عام وفاته سنة ١١٦٧ ، قبل يتوفى بنحو خمسة أشهر ، فحين فهمتُها سرتُ إليه وأعلمتُه بالقصة ، وقلت له كما قال سيدنا لحسين بافضل .

وكان قول الرجل لي ذلك في ربيع الأول من سنة ١١٣٤ ، وقول سيدنا أظن نحو سنة ١١٢٦ ، فبين قول سيدنا ذلك وقول الرجل نحو ثمان سنين ، وبين قوله وفهمي الإشارة نحو واحد وثلاثين سنة . فاعجب لهذه المكاشفة العجيبة من سيدنا ، ومكاشفاته وكراماته لا تحصى ، مما علمت منها ومما لا أعلم .

والعجب ما زال هذا الرجل يراعينا ويسأل عنا ، وإذا جئته يوماً قال : « إلينا بكلام سيدنا » ، فنقرأ عليه من كلام المجالس ، فيستأنس ، ومجيئه إلينا أكثر من مجيئنا إليه ، وما زال يراعينا ويسأل عن

أحوالنا ، إلى أن توفي . وكان يسألني : « هل تحتاج لسلف ؟ » ، فمرة أنا غير محتاج فأقول : لا حاجة لي ، ومرة آخذ منه السلف ، حتى اجتمع له عندي شيء كثير ، ثم قال : « ذلك الحساب الذي عندك أنت بريء منه » ، فجزيته الخير . فهذا كان شأن الرجل ، وما كاشفني سيدي بالإشارة إليه إلا لمنزلته ومرتبته عند الله ، ويشهد لذلك أنه قد رأى ليلة القدر مرة ، وهذه مكاشفة ومزية يخص الله بها من يشاء ، لا لكل أحد .

وقول سيدنا لحسين بافضل : « **وقدنا في بيتك** » ، هذا بيت بناه حسين ، ونوى أن أول من ينزل فيه سيدنا عبدالله ، قال : « إنه لا بد ما يحج السيد عبدالله ، فأريد أن يكون أول من ينزله » ، ومنع أولاده أن ينزله منهم أحد ، ثم بعد ما سار سيدنا إلى حضرموت نزلوه ، ونزلناه لما حججنا بعد وفاة سيدنا .

تتمة : الفرق بين الحديث القدسي والقرآن : من جهة أنه ليس على التحدي ، وليس فيه كثرة المعنى والفحوى كالقرآن ، ولا يحرم مسه على المحدث ، وجاحده لا يكفر ، ولا تواتر فيه ، وقد يفرق بأنه بغير واسطة المَلَك ، وفيه أنه قد يكون بها كالحديث الحسن الذي أخرجه أحمد : أن رجلاً سأل النبي ﷺ : « أي البلاد شر ؟ » ، قال : « لا أدري حتى أسال جبريل » ، فسأل جبريل فقال : « لا أدري حتى أسال ربي » ، فانطلق فلبث ما شاء الله ، ثم جاء فقال : « إني سألت ربي عن ذلك ، فقال : شر البلاد الأسواق » . والفرق بينه وبين سائر الأحاديث ، أن اللفظ والمعنى فيه من الله سبحانه وتعالى ، وفي سائر الأحاديث المعنى منه تعالى دون اللفظ ، ولم أر نصاً في أن الحديث القدسي هل هو قديمٌ لفظه على تقدير قِدَم لفظ القرآن أم لا ؟ والكلام النفسي القديم يشمله أم لا ؟ . ذكره في « شرح لاري » انتهى .

وتكلم في حديث : « ما أطعمتَ نفسك فهو لك صدقة » ، *قال* : « **أي إذا قصد به التقوِّي على طاعة الله والإستعانة به عليها ، فإن كان لمجرد الشهوة ؛ فلا ، بل لا له ولا عليه** » .

أقول : ذلك إذا كان حلالاً ، فأما إن كان حراماً ؛ فعليه لا له ، فإن كان حلالاً وقصد به التقوِّي على الطاعة والشهوة ؛ فلكلٍّ حُكمُه ، فيثاب بحسب نيته التقوِّي ، ويباح بحسب قصد الشهوة .

وفي حديث الترمذي أن رسول الله ﷺ انصرف من صلاةٍ جَهَرَ فيها ، فقال : « هل قرأ معي أحدٌ منكم آنفاً ؟ » ، فقال رجل : « نعم » ، فقال عليه الصلاة والسلام : « أقول ما لي أُنازَع القراءة .. إلخ » .

قال : « **فلهذا لا ينبغي أن يقرأ مع الإمام إذا كان يجهر ، إلا الفاتحة ، وقراءةُ الإمام قراءةٌ للمأموم** » .

وفي حديث : « القلب الذي ليس فيه قرآن .. إلخ » ، يشير إلى أنه مُظلِمٌ خَرِب ، **قال : « وكل مؤمن معه شيء من القرآن ، ولو الفاتحة »** .

قال في حديث : « إذا أوى أحدكم إلى فراشه ، فلْيَنْفُضْهُ بداخِلَةِ إزرِاه » ، يعني وسطه ، **قال : « أي يمحشه به ، لئلا يكون فيه ما يؤذيه ، لأن أهل المدينة كانوا أهل حرث ، فيغيب الرجل ولا يأوي إلا ليلاً ، ويبقى فراشه مفروشاً ، فيخاف أنه ربما خلفه عليه نحو حية أو عقرب مما يؤذي »** .

ورأيت وريقة بخط سيدي علوي بن سيدنا الحبيب عبدالله نفع الله به ، قال : « سألتُ سيدي رضي الله عنه - يعني والده - عن عند ما يقال عند النوم من القراءة والأذكار ، أأقرأه وأنا جالس على الفراش أو مضطجعاً عليه ؟ » ، **فقال رضي الله عنه : « بل مضطجعاً ، إلا إن خفت أن النوم يغلبك فاقرأه وأنت جالس »** . وقال في حديث : « الطّروق ليلاً » ، **قال : « أي لئلا يبغتهم ولا يعلمون به ، فلا يستعدون له، فيشتغلون لذلك ، هذا إن كان سفره نحو أربعة أيام فأكثر ، لا إن كان قليلاً ، ويكونون منتظرين لقدومه كل حين »** .

أقول : وفي هذا الحديث أن رجلاً قال : « أستأذن على أمي إذا طَرَقْتُ ليلاً ؟ » ، قال ﷺ له لشدة المبالغة في النهي : « نعم ، أتحب أن تدخل عليها عريانة » .

وفي حديث : « لا يمنع أحدكم أهله إذا أرادوا المسجد » ، **قال : « إن لم يخش فتنة ، بأن كانوا مفتونين ، أو في الذي في المسجد فتنة ، أو في الطريق فتنة لأن هذا حادث وإلا منعوا »** هـ .

أقول : كما في قصة أسماء بنت سيدنا أبي بكر الصديق زوجها الزبير بن العوام ، لمَّا تعودت الصلاة في المسجد مع النبي ﷺ في جملة نساء كثير ، ثم بعد ذلك - أظن في خلافة سيدنا عمر - أرادت يوماً أن تروح المسجد ، فمنعها زوجها الزبير ، قالت : «عادة تعودتها من وقت النبي ﷺ لا أقطعها » ، قال لها : « الناس اليوم ليسوا كالأول » ، فأبت إلا المضي إلى المسجد ، فتركها وما أرادت ، فتعرض لها يوماً مُتَغَثِّراً بعد صلاة الصبح ، فقبض بيدها فعصرها ، ثم جذبت يدها وأرادت الإنصراف قبل يراها أحد ، فما قدرت ، وخجلت في نفسها وتأسفت ، فتركها ثم مضت وما عرفته ثم بعد ذلك توقفت عن المسير إلى المسجد . ثم بعد أيام لما رآها متوقفة عن المسجد ، سألها وقال : « ما لي لا أراك تسيرين إلى المسجد ؟ » ، قالت : « فسد الناس اليوم » ، قال : « وما ذاك ؟ » . فأخبرته بالقصة ، فقال لها : « هَوِّني عليك ، ذاك أنا » ، فاستراح خاطرها ، ثم لم تسر بعد ذلك .

قال : « راح الناس إلى الطرف ، كجدار تهدم ما بقي إلا إلى العُضْرَة أو الأقْبَال » .

قال : « أهل الزمان لا عاد إذا اعتبرتهم في نفسك أو في غيرك ، لا تراهم محسنين في الدين ولا في الدنيا ، إذا رأيتهم صلواتهم وزكواتهم وخدمتهم - يعني في الحرف - ولا يستريح الإنسان فيه إلا أن يجعل الأمور على خالقها ، إمَّا وقع منها وقع ، أو لا يقع ، وإن بقي معك إحسان فاجعله في الدين ، لأن من راحت عليه اليد اليسرى - يعني الدنيا - وبَقِيَت معه اليمين - يعني الدين - لا عاده يضيعها » .

قال في أهل الزمان : « لأن طباعهم نارية ، والنار لا تسكن » .

قال رضي الله عنه : « من يقول لا إله إلا الله ولا يمتنع من ذلك ، ولكن لا دليل معه ماذا يقال له ؟ فهذا ليس مُقَلَّداً بل سامع ، والمُقَلِّد من معه حُجَّة ، وكذلك في البعث ، وأن الناس يساقون إلى الموقف، وذلك كإيمان النساء والعامة ، والناس أخذتهم العمومية والجهل ، فرضوا بذلك عن العلم . فانظر من كان له جرب ، حرص على السؤال عنه من الخادم ، ومن يبرهن في أمور العقائد يستدل بأمور القرآن والأحاديث ، والمنافق ما معناه ؟ إنما هو الذي يقول ما لا يعلم ، فيقال له : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْت » .

أقول : يقول ذلك له فتانا القبر .

وإنما اكتفى النبي ﷺ من أجلاف العرب بكلمة ، بقول : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » ، لأن هناك أقواماً يعرفون ما يتكلمون به ، فإذا قالوها علموا ما يتعلق بها ، حتى اكتفى أن ينطق بها عمه أبوطالب عند موته ، لما عرفوه منها بذلك ، وبقي يعالجه على النطق بها ، وطلب منه الإسلام والإقرار بالشهادة ، فقال : « أما هذه ففي النفس منها شيء » .

قال : « وأنا في نفسي داري ، بأن إيمانهم - يعني العامة - بالله ورسوله واليوم الآخر إنما هو تَهَجُّم أو تَجَزْهُم » ، أو كلمة نحوها .

قال رضي الله عنه : « من يقرأ القرآن لا يمكنه أن يقول بالجهة ، فَيُفَرِّق بين معراج النبي ﷺ وتكليم الله سبحانه لموسى عليه السلام من الشجرة ، لأن الأمور الإلهية لا يدركها أحد . وإذا أردت أن تنفي الجهة في حقه سبحانه وتعالى ، وتعلم أنه غير محتاج إليها ، فأثْبِتْ حدوث العالَم ، فإذا ثَبَتَ فلا خفاء في ذلك ، فأين كان قبل وجود الموجودات ؟ وأين يكون عند قيام الساعة ؟ وعندما يطوي السماوات والأرض بيمينه فيعدمها ؟ فيُعلَم غناه عن الجهة ، فأين كان قبل ذلك وبعده ؟

وقد يغلط في لفظ الشمال في حق الله سبحانه مَن يقول له شمال ، وإن كان قد جاء في بعض الأحاديث: وإنما كلتا يدي ربنا يمين ، اليمين الكبرى بها فضله ، واليمين الأخرى بها عدله . فلا يوصف بشمال . وكذا يقال فوق الفوق ، وفوق التحت ، ولا يجوز أن يقال : تحت التحت ، لأنه سبحانه فوق كل شيء .

والأمور التي لا تدركها العقول كثير منها ما هو في الوجود ، ومنها ما هو في القدرة ، لم يُبرِزْهُ الله سبحانه ، ولا يعرف الإنسان منها إلا ما يألفه ، فيقيس عليه ما يقرب منه ، وأما ما لا يعرفه ولا يألفه طبعه ، فلا يعرفه أصلاً ، ويرى ما خالفه محالاً ، وما لم يره أو يعلمه لا يمكنه أن يتعقله .

فَخَلِّ الخوض في الحق سبحانه ، وانظر إلى الملائكة ، إنما غذاهم الذِّكْر ، لو قيل : حَيٌّ لا يأكل ، ولا يشرب ، ولا ينام ، يقال : ما هذه الحياة ، وكيف تكون ، ويستبعده ، وكذلك الجنة ، حيث يقال : طولها كذا ، وعرضها كذا ، وصفتها كذا ، فإذا استبعد ، يقال له : نعم ، لو كان ذلك في هذا العالم الضيق ، وهناك عوالم شتى ، منها ما هو في الوجود ، ومنها ما هو في القدرة ، وأمور الآخرة لا يسع الإنسان فيها إلا التصديق والإجمال وعدم التأويل . ورأينا كثيراً من العقائد ، ولم نر لأهل الزمان أنفع من عقيدة الإمام الغزالي للمبتديء منهم والمنتهي ، ولكن منتهيهم مبتديء » .

ومرة قال : « لمَّا أراد الله سبحانه أن يُطلِعَ نبيه ﷺ على عجائب المخلوقات ، كَلَّمَه من قاب قوسين، وكَلَّمَ موسى عليه السلام من الشجرة . فانظر الفرق بين المقامين ، ولا تنظر الفرق بين النبيين، وإن كان كلٌّ منهما في درجة عالية ، وليس منزلة الكليم كمنزلة الحبيب » هـ .

أقول : معناه : أن كِلَا الكلامَيْن كلام الله تحقيقاً ، فيدل على أن كل الجهات في حقه تعالى سواء ، ولا يختص بجهة ، ولا مكان ، ولا زمان ، فقد كان قبل وجود الزمان والمكان ، وهو الآن على ما عليه كان .

فالجهات كلها في حقه سبحانه بمثابةٍ واحدة ، لا تختص جهةٌ بالقرب منه سبحانه دون أخرى ، وإنما جهة العلو والفوق تدل على الأفضلية ، فهي أفضل من السُّفْل ، فيُشار إلى الحق من جهة العلو ، كما قال تعالى : ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾، ﴿الرَّحْمَٰنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ﴾، ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ ، وغير ذلك .

وكذلك في تكليم الله تعالى للنبي ﷺ من قاب قوسين أو أدنى ، وتكليمه لموسى عليه السلام من الشجرة ، كما قال : « فانظر الفرق بين المقامين » ، أي مما يدل على كلٍّ من المقامين ، الفرق بين موضع التكليمين .

والحديث الوارد في اليد الشمال موضوعٌ لا أصل له ، وإنما الصحيح الثابت حديث اليمينين ، ولما كان المراد باليدين الفضل والعدل ، فالأمر كله راجع إلى القدرة والإرادة ، فما أراده وقع كما أراده، وإنما

ورد الشرع باليدين تَنَزُّلاً للخلق على مقتضى عقولهم ، لمَّا كانوا لا يعرفون العطاء والمنع إلا باليدين ، ذكرهما مراداً بهما الفضل والعدل ، لكن بقي لوهمهم الشمال في حقه سبحانه ، بأنه لا شمال له ، لأن عادة الشمال للأمور الرديئة ، وأموره سبحانه كلها جليلة ، مِن مَنْعٍ وعطاءٍ ، وعافيةٍ وابتلاءٍ ، وغير ذلك .

وأمَّا مَا أوَّلوا به اليدين والإستواء والنزول وغير ذلك من الصفات ، فكان الناس في القرون الثلاثة - التي هي خير القرون - ما احتاجوا إلى التأويل ، فكلُّ أحد منهم سمعوا ما قال الله وقال رسوله ، فآمنوا به ، وانطوت عليه قلوبهم ، وركدت عن الهواجس في معانيه وتأويله ، فلم يحتاجوا إلى التأويل ، حيث القلوب حينئذ صافية عن الأغيار ، والأجسام نقية طاهرة ، والأعمال صالحة خالصة ، لخلوص طُعْمَتِهِم من الشُّبَه ، فضلاً عن الحرام ، وكان طُعمَتُهم حلالاً طيباً ، ونبتت عليها أجسامهم، فكان مذهبهم التسليم وترك التأويل في كل ما ورد في الكتاب والسنة ، فكان مذهبهم اعتقاد كل ما ورد في الكتاب والسنة من الصفات ، وقَبِلَتْهُ قلوبُهم بلا تَعَقُّلٍ وتَطَلُّبٍ لمعانيها ، بل أمَرُّوها كما جاءت، ولا تعرَّضوا لتأويلها ومعانيها ، حتى إن الإمام مالك لمَّا سأله ذلك السائل عن الإستواء ، اقْشَعَرَّ شَعرُه ، وسال منه العرق ، وقال له : « الإستواء معلومٌ ، ومعناه غير معقول ، والإيمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة ، وما أراك إلا مبتدعاً ، أبعدوه عني » ، ونُفِيَ عن المدينة ، وكان هذا الرجل أول من تعرض لهذا المعنى ، فأنكره عليه الإمام مالك وخَشَّنَ عليه الكلام ، وأغلظ عليه القول ، وأنكره أيضاً أهل زمانه ، الزمان الصالح ، ثم بعد ذلك لما فسدت الأزمنة - وكَثُرَ أهلُ الحرام ، ونبتت عليه أجسامهم ، فلم تقبل التسليم ، حتى تثبت بالمعاني ، كما قال ذلك السائل . وأنَّى لِلَحْمٍ نَبَتَ على السُّحتِ أن يقبل قلبه العقائد الحق ، ويطمئن عليها ، كيف وفي الحديث : « كلُّ لحم نَبَتَ من سُحتٍ ، فالنار أولى به » - كثر المتعرضون لذلك وتداولت عليه العصور ، ثم لم يُنكَر بعد ذلك .

ثم إن العلماء بالله المشفقون على عباد الله ، أوَّلوا لذلك تأويلات تليق ، لا يضرهم إذا انطوت قلوبهم عليها ، خوفاً عليهم أن تنطوي قلوبهم على معانٍ فيها لا تليق ، وعلى هذا فكان الإيمان بهذه الصفات والتسليم من غير تأويل ، هو مذهب السلف في الأزمنة الصالحة في القرون الثلاثة ، التي هي خير القرون ، ومن هو على مذهبهم وطريقهم بعد ذلك ، ممن وفقه الله لذلك .

فانظر كيف أمر الإمام بإبعاد ذلك السائل ونفيهم له ، استعظاماً لذلك السؤال واستنكاراً له ، لعدم إلْفِهِم للخوض في هذه المعاني ، واليوم وقبل اليوم ، بل بعد القرون الثلاثة لمَّا كَثُرَ الحرام والشُّبَه، وانتشر في العموم ، فأكلوه ونبتت عليه لحومهم ، وكلُّ لحم نَبَتَ من سُحْتٍ فالنار أولى به ، فما قَبِلَت قلوبُهم أن تؤمن بهذه الصفات ، وتطمئن به بلا اضطراب وتقلقل ، حتى جعلت تتطلب لها معان ، وما

وقعت إلا على معان باطلة ، لأن عقول الخلق لا تدرك صفات الحق ، وما عرفوا إلا ما أدرَكَتْهُ عقولهم وعقولهم حادثة لا تدرك إلا حادثاً مثلها ، كما أشار قوله إلى ذلك ، كقوله : « **ولا يعرف الإنسان منها إلا ما يألفه .. إلخ** » ، وقوله : « **فَخَلِّ الخوض في الحق وانظر إلى الملائكة .. إلخ** » .

ولذلك قال المُحَقِّقُون في صفات الله سبحانه وتعالى : « إنه حَيٌّ بحياة ، عالِمٌ بعِلْم ، قادِرٌ بقُدرَة ، سميعٌ بِسَمْع ، بَصيرٌ بِبَصَر ، مريدٌ بإرادة ، مُتَكَلِّمٌ بكلام » . يعني أن هذه التي يعرفها الإنسان من نفسه تسمى بهذه الأسماء ، وهي غاية ما أدرك بعقله أن صفات الحق المسماة بهذه الأسماء ليست على الوجه الذي يعرفه من نفسه ، وإن شارَكَت في الإسم ، فالصفات القديمة غير الصفات الحادثة ، كما إذا عَرَفْتَ من نفسك أنك حي مثلاً ، فإن الحق حي بحياةٍ غير حياتك ، حياتُكَ تَقَدَّمَها العَدَم ، وآخرها إلى العَدَم ، وحياة الحق قديمة أزلية ، وباقية أبدية ، ما تَقَدَّمَهَا عَدَم ، ولا يلحقها عدم ، وأنت وغيرك مِن كلِّ حيٍّ ، من آدمي وغيره ، كلهم كانوا عدماً ، فأوجدهم وأحياهم بعد عدمهم ، وسيميتهم ويعدمهم كما أوجدهم ، فأين حياة الحق من حياة الخلق ؟

وكذلك باقي الصفات ، قديمة بقدم الذات ، باقية ببقائها لا تفارقها ، ولهذا قالوا : « حي بحياة، قادر بقدرة .. إلى آخرها » ، يَعْنُون أنك لا تظن بعقلك القاصر أن صفات الحق مثل صفات الخلق ، وإن شاركت في لفظ الإسم ، فالصفات القديمة غير الصفات الحادثة ، فما أدركتم قط غير صفاتكم، وأما الصفات القديمة فلا يعلم حقيقتها إلا المتصف بها سبحانه ، فلأجل ذلك جعل علماء الدين المشفقون على عباد الله يتطلبون لها معانياً لو تَشَبَّثَت بها عقولُهم لا تضرهم في دينهم ، كما أَوَّلوا الإستواء بالإستيلاء ، مع أنه من تأويل المعتزلة ، لكن رأوا أنه أسلم من تأويل غيره ، خوفاً من اعتقادهم أن معناه الإستقرار ، وهذا لا يجوز في حق الله .

لأن الإستقرار من صفات الخلق التي تدركها عقولهم ، وفي هذا دليل وشاهد على أن عقول الخلق لا تُدرِك إلا حادثاً مثلها ، كما مَرَّ معناه في الصفات ، ولا يقولون - أعني المتأوِّلون من أهل العقيدة الحق - : أن تلك التأويلات هي حقيقةُ معنى تلك الصفات قطعاً ، إلا إن كان شيء منها ثبت فيه معنى من قول رسول الله ﷺ ، كما في الحديث القدسي عن الله سبحانه أنه قال : « ابن ادم ، اسْتَطْعَمْتُكَ فلم تُطْعِمني » ، قال : « كيف أُطْعِمُكَ وأنت رب العالمين ؟ » ، قال : « اسْتَطْعَمَكَ عبدي فلان فلم تُطْعِمه، أما إنك لو أطْعَمْتَهُ لوَجَدْتَ ذلك عندي .. إلى آخر الحديث » ، وفيه : « اسْتَسْقَيْتُكَ واسْتَكْسَوْتُكَ ، بذلك » ، وبذلك المعنى فأَوَّلَهُ بهذا التأويل العجيب ، ومثله : ﴿مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، وكل ما جاء في القرض في الكتاب والسنة هو بهذا المعنى .

قال السهروردي : « فلا تَبْعُد عن الله بالتشبيه وقد قَرُبَ منك ، ولا تَفِرَّ منه بالتعطيل وقد دنا

إليك، أطلِق الإستواء وأعرِض عن الكيفية » ، وهكذا سائر الصفات ، فهو سبحانه لما تجلى لعباده بهذه الأخبار ظاهرٌ ، وبما قَصُرَت العقول عن إدراك كنهها وكيفيتها باطن ، فلا تستكشف من عظم شأنه ما بطن ، ولا تستشف من عُلُوِّ سلطانه ما انكمن .

وسألتُه : هل من يدخل الجنة من هذه الأمة ، من كونهم ثلثا أهل الجنة ، وفي حديث أن النبي ﷺ قال : « خُيِّرتُ بين أن يدخل نصف أمتي الجنة أو الشفاعة ، فاخترتُ الشفاعة » ، هل الداخلين الجنة منهم من لا يدخل النار أصلاً ، أو هم مع من يدخل النار ثم يخرج منها ويدخل الجنة ؟ *فقال* : « **ما عليك من هذا ، وما يجب عليك إلا الإيمان بذلك مُجْمَلاً ، ولا لك أن تبحث ، فإن هذا يحتاج فيه إلى نص ، فلو سَألْتَ عن إيمان كثيرٍ من بَدْوٍ وضعفاء** - يعني حرث - **لم يحكم لهم بالإيمان ، إذ لا صلاة ولا دين ، والمؤمن الضعيف الإيمان ما يُخاطَب بأحد غير نفسه** » .

وتكلم عند ذكر بعضهم ذم الكلام ، *فقال* : « **من موبقاته ذكر البراهين ، لو كان كذا لكان كذا ، فيوقع في القلب التُّهم ، و(لو) تفتح عمل الشيطان ، إنما العلم مجرد العقيدة فقط دون ذلك** » .

ولمَّا قُرِئَت عنده خمرية ابن الفارض التي أولها :

شَرِبْنَـا عَـلَى ذِكْـرِ الحَبِيْـبِ مُدَامَـةً سَـكِرْنَا بِهَا مِنْ قَبْلِ أَنْ يُخْلَقَ الْكَرْمُ

والقاريء هو السيد الجليل أحمد بن زين الحبشي ، *فقال* سيدنا يخاطبه : « **فَسِّروها في الظاهر كلمة لا إله إلا الله ، وفي الباطن حقيقة التوحيد ، من تحققهم وذوقهم واتصافهم بالتوحيد ، لأن حقيقة التوحيد في الأرواح تعمل هكذا وأكثر مما تعمله هذه في الأجسام والأشباح** » .

وتكلم في هذا كثيراً ، وذكر شيئاً من كلام الشاطحين وما يشكل من كلامهم ، *ثم قال* : « **وأين المدى من المدى ؟ وما هم في المثل إلا كبعوضة حَطَّت على نخلة ، فقالت : استمسكي فإني أريد أن أطير. وفي قصة موسى وتكليم الله له من الشجرة ، يحلُّ لك من هذه الأشياء مشكلاتٍ كثيرة ، فتأملوا فيها ، وفيها أيضا عبرة . وللإنسان في رياضة نفسه وفي العمل شُغلٌ شاغِلٌ عن هذه الأشياء ، والدنيا كلها إنما هي للمعاملات والصالحات ، وعاده في الآخرة يتفرغ لما هو بصدده من الخيرات والمثوبات ، أو من الشرور والعقوبات ، بحسب ما كان عليه في الدنيا** » .

وقال : « **وكلُّ ما مع الأنبياء والمرسلين والصالحين وسائر الخلق إنما هو من فضله سبحانه ، وأين الأمور الإلهية من مدارك الخلق ؟ إنما يُرمَز إليها ويُمَثَّل لها لتُعرَف ، وما هي إلا محبته وطاعته والنصيحة**»، أي الصدق في عبادته .

وبعد فراغ قراءة السيد زين العابدين في « شرح الحِكم » ، قال : « هذه أشياء إذا سمعها الإنسان من غيره استبعدها ، فلو سلك طريقها ، عرفها من نفسه ، وأولئك قوم قد انغمرت قلوبهم ، بعدما رأوا حقيقة الأمر وعرفوه » .

وتكلم في أعذار الناس ، فقال : « ينبغي العذر من الجانبين ، حتى يستوي الأمر كما تستوي أعواد السقف على الجدارين إذا استويا ، فإن طال أحدهما على الآخر لم تستو الأعواد » .

قلتُ : وقَلَّ أن يصطحب اثنان إلا وأحدهما مبخوص ، فقال : « نعم ، لكنه بخصٌ محتمل ، إذ قاعدة : إن الصاحب يراعي صاحبه مرة ، وهو يراعيه أخرى » ، وأنشد :

تَذَلَّلْ لِمَنْ إنْ تَذَلَّلْتَ لَهْ يَرَى ذاك لِلْفَضْلِ لا لِلْبَلَهْ

ثم قال : « قال تعالى : ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ﴾ ، أي كلمة التوحيد ، مع أن توحيده عليه السلام لا يعادله توحيد ، ولكن أي سواء في نفس التوحيد ، لأنه واحد، وكل لفظة سواء في القرآن ، يرجع إلى هذا المعنى » هـ .

أقول : ومن هذا المعنى اختلف الأئمة ، مِن قائلٍ بزيادة الإيمان ، ومِن قائلٍ أنه لا يزيد ، فإذا كان النبي ﷺ وإيمانه لا يعادله إيمان أحد هو وغيره سواء في كلمة التوحيد ، فيعني أن كلمة التوحيد واحدة لا غير ، وكل الناس فيها سواء ، فهذا حجة من قال : الإيمان لا يزيد ، بل هو شيء واحد . وحجة من قال بزيادته أنه شيء واحد ، ولكن تأثُّر القلوب به مختلف ، مِن أقَلّ وأكثرٍ ، فإن إيمان النبي ﷺ يتأثر قلبه بالإيمان والتوحيد ومعرفة الله ، لا يعدله إيمان أحد قط .

وذَمَّ يوماً المعتلِّين بالقضاء والقدر ، وقال : « القضاء والقدر مُجَرَّدُ عِلْمٍ ، فأين العمل ؟ ويجب أن يراعي الأسباب التي رتبها الله تعالى ، ما دام الإختيار هو مُستَنَد الكتاب والسنة ، وذلك حتى في تحصيل الأرزاق ، ولأي شيء خلق الله اليد ؟ ولو أن رَجُلَيْن جالِسَين تحت جدار ، وعَلِمَا أنه يريد السقوط ، فقام أحدهما وبقي الآخر ، فسقط عليه فمات ، ففي جواز الصلاة عليه خلافٌ ، لكونه ألقى بنفسه إلى التهلكة ، فهذا مذمومٌ شرعاً وعرفاً ، والآخر حالُه محمودٌ شرعاً وعرفاً » هـ .

وتقدم قوله : « من كان عنده من الدنيا قدر كفايته .. إلخ » ، وقوله : « سمعنا فيها بَلَغَنا أن لله ملائكة مُوَكَّلين بخزائن أرزاق العباد .. إلخ » ، وقوله : عن الله : « يا ابن آدم أطِعْنِي ولا تُعَلِّمْنِي بما يُصْلِحُك ، فأنا أعْلَمُ بما يُصْلِحُكَ منك .. إلخ » ، وقوله : « الأرزاق مقدرة .. إلخ » .

وتكلم يوماً في بعض المجالس في الرزق ، *فقال* : « **إن الله لا يُعاقبُ في الرزق بالتقتير إلا المغترين** » .

ثم ذكر : « إن رجلاً قال لموسى عليه السلام : أريد أن أوصيك بوصية تُبَلِّغُها إلى ربك عند مناجاتك له ، قل له : إن فلاناً يقول لا ترزقني ، فإني غير محتاج لرزقك . فلما ناجى ربه ، قال : يا رب ، أنت أعلم بما قال عبدك فلان . فقال الله سبحانه لموسى : قل له : يقول لك : إن خَرَجْتَ من مملكتي مَنَعْتُك من رزقي » ، *ثم قال* سيدنا : « **ما أعجب هذا ، فأين يخرج من مملكته ، والأرض أرضه ، والسماوات ملكه** » .

قال رضي الله عنه : « **الرزق المضمون هو الكفاف ، وهو ما لا تَمَكُّن العبادة وإقامة حقوق الله إلا به، وما فوق ذلك فمقسومٌ ، والشكُّ في المضمونِ كُفْرٌ ، ولا يجوز فيه قصد تجربة ، بأن يقول : أجْلِسُ وأنظرُ إن كان جاءني شيء ، فإنه إن كان بقي له حياة ؛ فلا بد وأن يجيه ، وإلا فالميت لا يطعم قوتاً ، بل يُصرَف إلى الحي ، ولو جلس واشتد به الجوع** » .

ومرة *قال* : « **ومن جلس في داره مُجَرِّباً واشتد به الجوع ، يجب عليه تحصيل حاجته بما أمكنه ، وإن لم يمكنه إلا بالسؤال ، سأل بقدر الحاجة ، وهو فيه معذور ، فإن لم يفعل حتى مات جوعاً ؛ مات عاصياً، لأنه قتل نفسه ، إلا إذا لم يُمْكِنه بحال** » .

وسمعتُه يقول : « **إن السؤال من الفواحش ، كالزنا والسرقة ، ما أبيح من الفواحش إلا هو عند الضرورة** » هـ .

أقول : والقاعدة في علم الأصول ، كما ذكره الإمام السيوطي في كتابه « الأشباه والنظائر » : « إنَّ ما حُرِّمَ في الشرعِ ثم أُبيحَ لِعُذْرٍ ، صار استعماله واجباً » ، كما حَرُمَ أكل الميتة ، فإذا أبيح للضرورة وجب استعماله لِسَدِّ الرَّمَق ، فكذلك السؤال ، إذا حُرِّمَ لكونه من الفواحش ثم أبيح للعذر والضرورة، وجب استعماله للضرورة ، ولعل في معناه : ضده ما كان واجباً ، ثم وقع في فعله ضرر شديد ، أنه يصير حراماً فعله ، وتَجَشُّم الخطر في فعله ، كالحج اليوم ، لَمَّا كان واجباً ، فلما كان بهذه المثابة من الخوف الشديد حَرُمَ أن يُلقِيَ الإنسان بنفسه إلى التهلكة ، ولعل معناه : أنه إن مات جوعاً ؛ فموتُه دليلٌ على انقطاع رزقه بانقطاع حياته ، إذ لو كان له حياة لكان له رزقٌ كذلك ، فلما انقطع ما له من العمر ، انقطع ما له من الرزق .

أما عصيانه في المضمون ، فَمُتَعَلَّقُهُ الإختيار ، فلما تَرَكَ بإختياره أمراً لازماً – وهو طلب الحلال ، أي ما يَحِلّ له في تلك الحالة – أَثِمَ بذلك ، إذ في الحديث : « طلبُ الحلال فريضةٌ بعد الفريضة » ، وفيه: « إن من الذنوب ذنوباً لا تُكَفِّرها الصلاة ولا الزكاة ، ولا الصوم ، ولا الحج ، ويُكَفِّرها الهَمُّ

بالمعيشة» .

فاعجب لهذا الحث الأكيد في طلب المعيشة ، سيما إن كان ذا عيلة ، ولكن لا ينبغي أن يمتد به ذلك إلى بيع دِينه وعباداته في طلب معاشه ، كما هو غالب أحوال المتشبهين والمنسوبين إلى العلم في هذا الزمان السيء حال أهله ، فإنَّ مَن هو هكذا فقد تَعَدَّى حَدَّهُ ، ومَن تَعَدَّى حَدَّهُ رجع إلى ضده .

ولعل ضمان رزقه موقوفٌ على صَبرٍ قويٍّ منه ، أو على سعيٍ وسَبَبٍ ، ومعنى الضمان : حصوله لا محالة على أي وجه كان ، ولو حراماً ، خلافاً للمعتزلة ، لكنه يجب عليه تحصيله على قانون الشرع ، عزيمة أو رخصة . أعني بمعاملة صحيحة ، أو بمرخص له فيه عند الضرورة شرعاً ، كما تباح الميتة ، والسؤال عند الضرورة ، لأن الله سبحانه يُحِبُّ أن تُؤتَى رُخَصُه ، كما يحب أن تؤتى عزائمه .

فاعمل على هذا ديانةً ومروءةً ، أعني تجنب ما يجرح دينك من الحرام ، أو يخرم مروءتك من السؤال ، وإن أبيح ، ولو حَصَّلَهُ فمات قبل تناوله ؛ لم يكن عاصياً ، لأنه بذل مجهوده ومختاره ، فلا إثم عليه ، فبهذا علم أنه إنما أثم بسبب تقصيره ، لا لكونه مات جوعاً ، وأيضاً إذا حصله بسبب وسعي، فإنما هو بحول الله وقوته وإرادته ، فقد أدى إليه ما ضمنه له ، ولو لم يرد له ذلك لما قدر عليه بوجه .

فلا يغتر خِبٌّ جاهلٌ ولا أحد بأن يقول: ما ضمن لي يأتيني بغير سَعْيٍ وتَسَبُّبٍ ، وإذا لم يأت إلا بالحركة والسعي ؛ فلا وجه للضمان ، فقد يكون ذلك من بعض الجُهَّال ، فإنه ما ضَمِنَ لك أن يُنزِلَ عليك الخبز من السماء ، وإنما ضمن لك أن يأتيك رزقك فقط ، سواء كان بسعي وسبب ، أو بلا سعي وسبب .

فإن الرزق المضمون الذي هو الكفاف ، وإن كان مكتوباً محتوماً ، فإن المحتوم جعل الله له أسباباً، وحتمها أيضاً كَهُو ، ولو لم يكن محتوماً ، لَمَا وقع بسبب ، فلا يقع بالسبب إلا ما حتم به وفي وقته ، كما قال تعالى : ﴿وَٱبْتَغُواْ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ﴾، أي اطلبوا المكتوب المحتوم بالسبب ، فلا يحصل إلا ما كتب وحتم لا غير ، فافهم .

وما جاء عن كثير من الأكابر ، من السياحة في المفاوز والفلوات بلا زاد ، أو سكونٍ في جبلٍ ، أو موضعٍ خالٍ ، الأيام المتعددة والأوقات المتطاولة ونحو ذلك ، كما ذُكِرَ أن الشيخ أبابكر بن عبدالله العيدروس نفع الله بهم أعطاه أبوه عند دخول شهر رمضان ثلاثين تمرة ، وأمره أن يسير إلى عند النبي هود عليه السلام ، ويصومه هناك ، ويفطر كل ليلة بتمرة ، فأخذ على هذا أياماً يسيرة - أظن نحو ثلاثة أيام - ثم حصل له ما أغناه عن باقي التمر ، فجاء به لأبيه ، فقال له أبوه : « قد عَلِمْتُ يا ولدي أنك لا تحتاج إلى رياضة » .

ورأيت في ترجمة الشيخ أبي بكر أن أباه الشيخ عبدالله خرج يوماً من التربة ، والسماع يُضرَب بين يديه ، وهو يَضرِبُ بيديه على بطنه ، فقيل له في ذلك ، فقال : « بَشَّرَني ربي أني بعد ثلاثة أيام يولد لي مولود ، يرث كل ما في هذا المرطبان » ، فوُلِدَ يوم الثالث الشيخ أبوبكر .

فهولاء لا يقاس بهم ، فإن خطاب الله ورسوله ، ووصْفُ الله ورسوله لهم خطابٌ ووصْفٌ خاص، غير خطابه وَوَصْفِهِ لعموم المسلمين ، كما قدمنا ذِكْرَهُ من قوله تعالى للخواص : ﴿وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ﴾، وللعموم : ﴿وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ﴾، فإن أولئك الخواص أقوامٌ قد مَنَّ الله عليهم بما ملأ قلوبهم به ، من كمال الإيمان والدين وخالص التوحيد واليقين ، حتى تعلقت قلوبُهُم وهِمَمُهم بمولاهم ، وشَغَلَهُم به عمن سواه ، وصَرَفَ هَمَّهم عن هَمِّ الرزق والتعلق بالخلق ، بما أولاهم ، فإنَّ هَمَّ الرزق شُغلُ قَلْبٍ فارغٍ ، فإذا اشتغل القلب بما أَهَمَّهُ خَلِيَ عن كلِّ هَمٍّ سواه .

فهؤلاء تُسَلَّم لهم أحوالهم ، ولا يجوز للقاصر عن أحوالهم أن يتبعهم عليها ويقتدي بهم فيها، حتى يبلغ ما بلغوا ، ويغترف مما منه اغترفوا ، فمَن تَبِعَهُم في الظاهر وليس هو كذلك ؛ فهو مُدَّعٍ كذاب، يوشك أن يفضح بين الخلق ، ويسلك في مسالك المنافقين المخادعين ، لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا﴾، ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾، وقد جرت عادة الله كما رأيناها مراراً، أنَّ من ادَّعى حال أولئك الأكابر ، وأظهر أنه مثلهم ، وما قَصْدُهُ إلا الجاه والمال تَرَفُّعاً بهم وتجمُّلاً بأحوالهم ، أن الله يفضحه على رؤوس الأشهاد ، ويُظهِر خِزْيَه ، ويُبيِّن للناس عَوَارَه وكذبه فيما ادَّعاه .

وهذا مراد الشيطان منه ، أن يفتضح في الدنيا ، ويُعاقَب على دعواه في الأخرى ، وأي خِزْيٍ ونكالٍ أقبح وأشنع من أمر يخزيه في الدنيا والآخرة ، وهؤلاء الفسقة المُدَّعُون يطلبون الجاه والمال ولو حراماً ، لا يبالون به ، فأين صلاحهم وصدقهم فيما ادَّعوا ، وهذا يشهد عليهم بكذبهم ، فأين قولهم ووصفهم من قول أهل الحق المتحققين بالحق ، وهم مع ذلك يتهمون أنفسهم ولا يثقون بها ، ولو ظهر عليهم أثر الصلاح تحقيقاً ، كما قال سيدنا في قصيدته النفحة العنبرية :

يَا وَيْحَ نَفْسِيَ الْغَوِيَّهْ عَنِ السَّبِيْلِ السَّوِيَّهْ
أَضْحَتْ تُرَوِّجْ عَلَيَّهْ وَقَصْدُهَا الجَاهْ وَالمالْ

فانظر تفاوت ما بين قول أهل الحق وأحوالِهم ، وبين قول أهل الدعوى الكاذبة وأحوالهم ؛ تعرف الفرق بينهم ، كما قال سيدنا علي بن أبي طالب كرم الله وجهه : « اعرف الحق تعرف أهله ، ولا تعرف الحق بالرجال » ، اللهم اسْلُكْ بنا مسالك أحبابك ، وجَنِّبْنا مواقع سخطك وعقابك .

وهذا البيت من نظم سيدنا رضي الله عنه ، جامع لما تَعَيَّنَ على كل من الفريقين من المؤمنين المتسببين،

وخواص الصالحين المتوكلين ، وعن الدنيا بالقلوب والأبدان متجردين ، وهو هذا :

وَإِنْ تَجَرَّدْتَ فَاعْمَلْ بِالْيَقِينِ وَبِالْـ ـعِلْمِ إِذَا كُنْتَ مَوْقُوفاً مَعَ السَّبَبِ

فهؤلاء الخواص قد غلب عليهم طبع الروح ودواعيه ، وهو التغذِّي بالذِّكر والعبادة ، كطبع الملائكة ، فإن غذاهم بالذكر ، وأولئك العوام قد غلب عليهم طبع الجسم ودواعيه .

والروح من جنس الملائكة ، وطبعه طبعهم من التغذي بمعرفة الله وذِكْرِه ، بخلاف الجسم ، إنما تغذيه بالأكل والشرب ، ولذلك لما جاءت الملائكةُ - جبريل ونفرٌ معه من الملائكة - في صور آدميين إلى سيدنا إبراهيم ، على نبينا وعلى الجميع منهم أزكى الصلاة وأشرف السلام ، فما لبث أن جاء بعِجْلٍ حنيذ ، فلم تمتد أيديهم إليه ، ﴿فَلَمَّا رَءَآ أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً﴾ ، ظن أنهم آدميون ، لمَّا أَبَوْا عن طعامه ، تَوَهَّمَ أنهم أتَوْهُ بسوء ، فقال جبريل عليه السلام : لا تَخَفْ ، إنَّا رسل ربك ، فعرفهم عند ذلك .

وسيأتي قول سيدنا : « **ما أنزل الله الروح إلى البدن حتى أخذ عليه العهد والميثاق** » ، يعني أن لا يَتْبَع النفس في مطالبها ، بل يدعوها هو إلى مطالبه ، فإن مطالبها مصالح الجسم ، لأنها خادمته ، تدعو إلى مصالحه ، وهي عبارة عن الشهوة والغضب . فالشهوة تدعو إلى مصالح الجسم كالأكل وغيره ، والغضب يدفع عن الجسم مضاره ، من دفع عدو يريد ضرره ، ونحو ذلك . والروح مجرداً ، طبعُه إلى التلذذ بالذكر والمعرفة ، وأهل مطالب الروح يُسَمَّون الروحانيون ، كما يُسَمَّى الملائكة كذلك ، فيقال: الملائكة الروحانيون . وأهل مطالب الجسم يُدعَون الجسمانيون .

ورأيتُ في مكاتبة لسيدنا لبعض خواصه يقول : « **وسلِّموا مِنَّا على من لديكم من الروحانيين والجسمانيين** » ، يعني بهم أهل مطالب الأرواح ، وأهل مطالب الأشباح ، أي الأجسام .

وقال شيخنا الشيخ الزين ابن صديق المزجاجي رحمه الله - صاحب التحيتا ، من أعمال زبيد اليمن السعيد - : « من اشتغل بذكر الله » ، يعني به مَن هو مِن أهل مطالب الأجسام ، قال : « وأسعد السعداء من اشتغل بالله جل شأنه » . يعني به مَن هو مِن أهل مطالب الأرواح .

فتبيَّن بذلك أن بين الفريقين تفاوت مديد وأمد بعيد ، وإلا فالخواص صاروا على مطالب الروح، فلا يلتفتون إلى مطالب الجسم ، فلهذا قدروا على التخلي في البراري والقفار والجبال والأودية والأماكن الخالية ، وعجز عن ذلك المتعلقون بمطالب الجسم .

والشرع إنما ورد على مقتضى أحوال هؤلاء العوام ، يدعوهم إلى الترقي إلى مقام أولئك الخواص، وأما الخواص فقد ارتقوا عن تلك الدرجة النازلة إلى أوج الدرجة الكاملة ، وبلغوا حد الكمال المطلوب

مِن كلٍّ منهم ، فكلٌّ منهم بَلَّغَه الله ما كتب له ، فمنهم مَن بَلَّغَهُ إلى أعلى درجات الكمال في الدين ، ومنهم دون ذلك ومنهم دونه ، ومنهم من بقي في أدنى درجة ، على حسب حظوظهم التي أرادها الله تعالى لهم ، وكتبه في اللوح المحفوظ .

وَذَكَرَ ضعفَ قُواه الظاهرة ، *فقال* : « **بعض الأوقات أعجز حتى عن التقدم في الصلاة ، قبل الشروع ، ولكن إذا شَرَعْتُ فيها حَصَلَت الإعانة . وقد جاء : إن الله لا يعين العبد على الأمر حتى يشرع فيه ، لأن الأمور الإلهية تتفرع من شيء ، ويتفرع الشيء عن الشيء ، ويخرج ذلك الشيء إلى أشياء ، حتى يرجع إلى فعل الإنسان نفسه ، والأمور الإلهية لا مدخل للعقل فيها** » .

قال رضي الله عنه في ذِكْر الأرزاق : « **إن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : إذا غضب الله على قومٍ أَخَّرَ أرزاقهم عن أوقاتها ، ولا يمنعهم منها ولا يُنقصها ، فيرسل المطر في غير وقته ، والحصاد في غيرِ وقته . فإنه كذلك ، وليس هو على أصله ، بل دون ذلك . وقال بعضهم : لا يمنعهم ولا يُنقصها ولا يؤخرها ، بل يُبقيها ويَدَّخرها لهم في الخزائن ، حتى يرضى ، فإذا رضي أرسلها عليهم كلها بالتمام** » .

وقال في حديث : « إن الرجل لَيُحرَم الرزق بالذنب يصيبه » ، على ما تقدم من شرحه وبيانه وتفصيله من قوله ، على وجه عجيب لم يذكره العلماء وشُرَّاح الحديث ، يدل على غزارة علمه وبحره الذي يغترف منه ، كقوله : « **للرزق جهات كثيرة ، فإن أذنب في جهة منها حُرِمَ الرزقَ من تلك الجهة فقط ، دون غيرها التي لم يَعْصِ فيها ، فإذا كان رزقُهُ مِن جهةٍ تجارةً ، ومن جِهةٍ زراعةً ، فأذنب من جهة التجارة ، حُرِمَ الرزقَ من جهة التجارة دون الأخرى ، وبالعكس ، فإذا أحسن في جهةٍ ، كَفَّرَ ذنبه من تلك الجهة دون غيرها ، كما تُكَفِّر الصلاة بالصلاة ، دون الصوم وغيره ، والصوم بالصوم دون الصلاة وغيرها** » ، ونحو هذا المعنى كما تقدم .

قال : « **أهل الخير ما لهم من يضبط لهم أمورهم ، ولو كان لم يطيعوه ، لأنهم لا يحبون الدناقة ، وأمورهم وأرزاقهم عند الله تحت العرش ، يقول الله تعالى : اعطوا فلاناً بقدر ما يُخرِج . وقد يُخرِجُ رزق يوم أو أيام في ساعة ، فيبقى محتاجاً في تلك الأيام ، وقد يقع لهم زرَّات في بعض الأوقات ، وقد تفيض عليهم من وجوهٍ كثيرة ، وإذا أراد الإنسان من متاع الدنيا شيئاً ، عن حاجة إليه أو ضرورة ، فإن الله يعينه وييسره ، وإن أراده بطراً من غير حاجة فليقدر** » ، أي يقتصر .

وتكلم ليلة في ذكر الرحمة والتوسعة لبعض الناس دون بعض ، وفي وقت دون وقت ، *فقال* :

« إن الله تعالى لا يسيِّب عباده ، ولكنهم إذا سَيَّبوا طرف الحبل تركهم مدةً ، ابتلاءً لهم ، ثم يعود عليهم، وإن بقوا على ما هم عليه ، وكيف يتركهم وهو عالم بعجزهم وفاقتهم ، ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾. وقد سَمِعْنا فيما بَلَغَنا : أن رجلاً مكث في غيظة شجر ، ملتفٍّ بعضها ببعض ، ولا معه ولا دونه ، فخطر بباله أن الله هل يعلم بحاله في مكانه ذلك ، فسمع صوت قائل يقول : ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ » .

وعند ذِكْر شجر ملتف ، خطر لي أن أذكر ما ذكره في « المشرع الروي » : « أن تريم سُمِّيَت الغَنَّاء لكثرة أشجارها وأنهارها ، وكانت فيها الأطيار تتغنى في غصون الأشجار ، فلذلك سميت بذلك ، وكانت كذلك في زمن عاد ، وبين ذلك الوقت ووقتنا ما يزيد على أربعة آلاف سنة » ، انتهى .

وتكلم يوماً في الرزق ، *فقال* : « **جاء في بعض ما ورد عن الله تعالى ، أنه قال : عبدي أطِعْني ولا تُعْلِمْني بما يصلح لك . ولكن الدعاء مطلوب ، لأن فيه إظهار الإفتقار من العبد لسيده ، وهناك أصناف من المخلوقات لا يعلمون الغيب ، ولا تظهر لهم أحوال الناس إلا بدعائهم ، من ملائكة وشياطين ، لأن الملائكة يحبون من الناس العبادة والدعاء ، وإظهارهم إفتقارهم إلى ربهم ، فيفرحون لهم بذلك ، والشياطين يكرهون ذلك منهم ويثبطونهم عنه ، ويفرحون لهم بتركه ، فيحصل بظهور الإفتقار بالدعاء سرور الملائكة ، وإرغام الشياطين . ولا يزال الإنسان مشبوحاً بين هذين الصنفَين : الشياطين يَجُرُّونه من أسفل بالمعاصي ، والملائكة يَجُرُّونه من أعلى بالطاعات . فإن غَلَبَت الملائكة جَرَّتْهُ من أيدي الشياطين ، من أسفل سافلين إلى أعلى عِلِّيِّين ، وإن غَلَبَت الشياطين اجتذبته من أيدي الملائكة من عليين إلى أسفل سافلين ، والعياذ بالله** » هـ .

أقول : اجتذاب الملائكة والشياطين للصنفين من الناس إلى أحد المقامَين المذكورَين ، بحسب ما أراد الله تعالى لذلك العبد ، فكلٌّ من صنف الملائكة والشياطين قائمٌ في مقام الخدمة والإمتثال لما أمَرَ به وأراده ذو الجلال تحقيقاً ، لا لغير ذلك ، وإن كان ظاهره التعلق بالأعمال ، وبحسبها يكون أحد الأمرين ، من اجتذاب الملائكة والشياطين ، وفي الحقيقة إنما هو بحسب الإرادة منه سبحانه فقط ، وإنما الأعمال وما يتعلق بها أسباب تابعة للإرادة لا غير ، كما هي حكم الأسباب ، كما تقرر مراراً ، لا بحسب قوةٍ من أحد صِنفَي الملائكة والشياطين على الآخر ، فَهَرَهُ وغَلَبَهُ بها ، وإنما تكون الغلبة لأحدهما بحسب الإرادة لا غير ، فبحسب الإرادة تكون الأعمال والأسباب ، وبحسب الأسباب يكون الجزاء والمجازاة .

وأعني بالجزاء : الوعد والوعيد الموعود بذلك على الطاعات والمعاصي في الآخرة ، وأعني

بالمجازاة: ما يقع في الدنيا من الحسنات لأهل الطاعات، ومن السيئات لأهل المعاصي، على ما نَصَّهُ الله سبحانه في كتابه العزيز، كقوله تعالى: ﴿وبلونٰهم بالحسنٰت والسيّئات لعلّهم يرجعون﴾، وقوله تعالى: ﴿إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سيّئة يفرحوا بها﴾، وغير ذلك مما ورد في كثير من الآيات. ويحقق ذلك قوله تعالى: ﴿وما أصٰبكم من مّصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفوا عن كثير ۝﴾.

وذكر ابن أبي جمرة، قال: «ما زال اختيار العبد باقياً؛ فالدعاء منه لربه في طلب حاجاته وما يختاره لنفسه أفضل، فإذا فَنِيَ عن نفسه وفارقه الإختيار؛ فترك الدعاء أفضل، وهذا نادر، والأول هو الأغلب من أحوال الناس»، وكلام سيدنا كله إنما يجيء على الأغلب من أحوالهم، لعموم دعاء الشرع، كما أن الشرع إنما ورد على حسب الأغلب من أحوال الناس، كذا ذكره الشيخ عبدالله بن أبي جمرة.

ومقام سيدنا مقام الدعوة العامة، التي عليها النبي ﷺ ونُوَّابه من ورثته القائمين مقامه في الدعوة العامة، وهو الأغلب من أحوال الناس، وهو الشريعة التي أرسل الله بها الرسل إلى الخلق، لمَّا غلب عليهم طَبْعُهُم في حُبِّ الدنيا، فجعلوها هي الأصل المقصود، فَدَعَتْهُم الرسل إلى أن الأصل المقصود الإيمان بالله وامتثال طاعته، وإنما طلب الدنيا عارِضٌ، فيُقبِلوا على الأصل المقصود، ويتركوا ذلك العارض، إلا بقدر ما تدعوا إليه الضرورة الماسة.

وسيأتي قول سيدنا: «**إنما أرسل الله الرسل إلى من جعل الدنيا أصلاً، يدعونهم إلى الله**». فلهذا يجيء كلامه كما في هذا الموضع وغيره على حسب ذلك، وهو مقام البقاء، وهو بعد النبوة أفضل المقامات، وبعده في الفضيلة مقام الفناء، لخصوصٍ من الناس، وإليه أشار في القصيدة بقوله:

عَلَّ يَبْدُو فِي الحِسِّ فِي خَيْرِ حَالٍ   وَكَفَانِي عِلْمُ الإِلٰهِ بِحَالِي
غَيْرَ أَنَّا إِلَى الدُّعَاءِ نُدِبْنَا   وَأُمِرْنَا بِهِ وَبِالإِبْتِهَالِ

وهو عموم أحواله، أعني الدعاء، وطريق العموم مقام الدعوة، ولهذا أنكر زمنه ذلك كثيراً فيما تقدم، وفيما سيأتي من قوله: «**يحسب الناس أنَّا ندعو إلى الطريق الخاصة، وليس كذلك، وإنما دعوتنا إلى الطريق العامة**»، فافهم. ومقامهم مراعاة الأسباب، اقتداءً بالنبي ﷺ حيث حَثَّ على فعلها للتشريع للأمة، فَلَزِمَ كلُّ مَن نَابَ عنه في مقام الدعوة أن يفعلها ويدعو إليها، لأنها هي الشريعة بعينها، التي بُعِثَ بها رسول الله ﷺ، يدعو إليها كافة الخلق، فتطلب من الخلق فعل أسباب الخير والتعرض له بأسبابه، وترك أسباب الشر وعدم التعرض له بترك أسبابه.

ومن العجيب أن أسباب الشر المفعولة لا بعمل الخلق قد تؤثر فيهم، لعموم توجيه الله سبحانه

المسبَّبات إلى أسبابها ، إتماماً للحكمة ، لأن أفعال الله سبحانه وتعالى التي لا تحصى يجمعها ثلاثة معاني: فَضْلٌ ، وَعَدْلٌ ، وحِكْمَةٌ .

ومن تأثير أسباب الشر في خيار الخلق - ولو أنهم لا يرون فاعلاً غير الله - تأثير سحر لبيد بن الأعصم اليهودي مع النبي ﷺ ، حيث كان يُخَيَّلُ إليه أنه فعل الشيء ، وما فعله ، خَرَّجه البخاري ومسلم عن عائشة رضي الله عنها ، لكن كان ذلك للتشريع ، ليتجنب الناس أسباب الشر ، وفي الحال نُزِعَ ذلك عنه برؤيته الملَكَين يتساءلان ، قال أحدهما للآخر : « ما بال الرجل ؟ » ، قال : « مطبوب »، يعني مسحور . قال : « مَن طَبَّهُ ؟ » ، قال : « لبيد بن الأعصم اليهودي » ، قال : « فيم ذا طبه ؟ » ، قال: « في مشط ومشاقة » ، يعني مشاقة من شعر رأسه ، الذي ينتفه المشط من الرأس ، والمشق علاقة طلعة فجال . قال : « أين وضعه ؟ » ، قال : « في بئر ذي أروان » . وهو بئر معروف في المدينة ، ففي الحال أمر النبي ﷺ رجلاً مضى إلى تلك البئر واستخرجه منها وجاء به إليه ، وإذا فيه عُقَدٌ مُعَقَّدَة ، ثم نَزَّل الله المعوذتين فقرأهما ، فكلما قرأ آية انفكت عقدة ، حتى انفكت العُقَد كلها . فقيل : « يا رسول الله ، أما تُرسِل إلى لبيد ابن الأعصم من يأتيك به فتقتله » ، قال : « أما أنا فقد شفاني الله » .

وإذا نَظَرْتَ وتأملت في آيات الكتاب ؛ رأيت جميع أسباب الخير والشر لا تؤثر إلا بإرادة الله سبحانه ، كما قال تعالى في الشعابث والسحر : ﴿وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾، فيشمل قوله تعالى ذلك كل نوع من أسباب الشر .

ومن تلك الأسباب النظرة والعين التي حذر النبي ﷺ منها غاية التحذير ، وقال عليه السلام : « العين حق ، ولو كان شيء سابَقَ القَدَرَ سبقته العين » ، فكم أدْخلَت العَينُ من رَجُلٍ في القبر ، وكم أدْخلَت من جَمَلٍ في القِدر .

وقال سيدنا عبدالله مراراً ، حتى في مرضه الذي قبل وفاته بسنتين سنة ١١٣٠ ، وفي مرض موته سنة ١١٣٢ : « أكثر ما أنا خايف من العين » . وكان يُحَذِّر منها كثيراً . وحَذَّرَ منها بعض السادة ، فاتفق أن حضر مجلسه رجل مِعْيان ، قال : فلما قمتُ ؛ تَكَرْوَعَتْ رِجْلاي ، وحصل بهما وجع شديد ، وبقي على ذلك مدة .

ومِثْلُ العين ، جميع أنواع الشعبذة ، كالرقى بأسباب الشر لضُرِّ أحد ، وفعل أنواع ، وترتيب أمور ، وفعل أشياء في أوقات مخصوصة ، وشيء من أمور التنجيم كذلك . وقالوا في العين : « إذا نظر إلى شيء باستحسان ، خرج من عين الناظر إلى المنظور زهومة سُمِّيَّة ، تصيب المنظور فتضره » ، وقد جعل الله سبحانه رُقاً نافعة ، دافعة لتلك الرُّقى المضرة وللعين ، وتلك الشعابذ وأسباب الشر ، عَلِمَ ذلك من عَلِمَهُ وجهله مَن جَهِلَه . وفي الحديث : « أفضل ما استَرْقَيْتُم به كتاب الله » ، ومن لا انتفع بالقران فلا

نفعه الله . وقد عَلَّمَ النبي ﷺ أُمَّتَه استعاذات وأدعية نافعة من كل ضرر وإضرار ، فانظرها في كتب الأحاديث الصحيحة ، كَرُقْيَةِ الحسنين ، ورُقْيَةِ الفاتحة وغير ذلك .

ورأيتُ في وريقةٍ بخط السيد علوي بن سيدنا عبدالله ، قال : « سألتُ سيدي رضي الله عنه ونفعني به عما يقال عند النوم من القراءة والأذكار ، أأقرأه وأنا جالس على الفراش أو مضطجعاً عليه ؟ » .

فقال رضي الله عنه : « بل اقرأه مضطجعاً ، إلا إن خشيت النوم يغلبك ؛ فاقرأه وأنت جالس » .

قال : « وسألتُه إذا نِمتُ نهاراً ، أأقرأ تلك الأوراد والقراءة جميعها ؟ » ، **قال : « لا ، بل اقرأ** - استحساناً منه - **الفاتحة وآية الكرسي ، وثلاث من رب اغفر لي وتب عليَّ إنك أنت التواب الرحيم ، لأن النهار نومه إلا عارض »** .

قال وكذلك قال لي : **« إذا انْتَبَهْتَ من نومك وعاد نيتك الرقود ؛ فلا عليك أن تعيد الورد المذكور سابقاً ، بل ابْقَ هَلِّل ، وإلا سَبِّح ، حتى يغلبك النوم »** ، انتهى ، وقد تقدم هذا بلفظه أو ما يشبهه في المعنى .

ومَرَّ في الدرس حديث سؤال فاطمة رضي الله عنها من سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه نصيبها من إرث أبيها ، وقالت : « إذا أنتَ مُتَّ ، فمن يرثك ؟ » ، قال : « يرثني أولادي » . قالت : « فما لي لا أرِثُ أبي » ، قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : إنَّا معاشر الأنبياء لا نُوَرِّث ديناراً ولا درهماً، ما تركناه فهو صدقة » ، يعني كيف أُوَرِّثُكِ وهذا كلامه ، فإن الأنبياء ليسوا كسائر الناس يورثون ، فَتَغَيَّضَت عليه ، فاستأذن عليها في مرض موتها ، فأرادت تمنعه ، فأبى عليها سيدنا عليٌّ كرم الله وجهه، وعالجها أن تأذن له ، فأذنت له ، فدخل عليها واسترضاها ، فَرَضِيَت عنه رضاً صادقاً من خالص قلبها. ومن جملة ما استرضاها به أن قال ما معناه : « إذا كان هذا قول أبيك ، فأنتِ أولى الناس وأحقهم باتباعه والعمل به » ، وأقَرَّ ذلك سيدنا علي ، ورَغَّبَها في اتباع ذلك وأن ترضى به .

فقال سيدنا عبدالله : **« هذا من أوائل الفتنة ، فإنها أسست على أصول سبقت من ذاك الزمان ، ثم بَعْدُ ، من الناس من وقع في حق ، ومنهم من وقع في الباطل ، وأهل الحق تبعوا ما كان عليه الصحابة والتابعون ، ومن الناس مَن تَشَيَّعَ ، ومنهم من تَنَصَّب » هـ** .

أقول : وأهل الحق الذين تبعوا ما كان عليه الصحابة والتابعون هم أهل السُّنَّة ، فإن الصحابة والتابعين اتبعوا فتوى سيدنا أبي بكر ، ولا له مخالف قط ، لأن حجته قول رسول الله ﷺ ، وما بعد

الحق إلا الضلال .

قال سيدي لي بعد ما أتممتُ قراءة « رسالة القدس في مناصحة النفس » لابن عربي ، بأمره لي بقراءتها عليه ، *ثم قال* : « **لا تعود تُمِرُّ نظرك فيها ، لأن كلامه مَظَنَّة الفتنة ، وإن كان هو في نفسه في غاية الإستقامة . وقد سُئِلَ بعضهم عمن ينكر على ابن عربي ، فقال : هو جديرٌ بالإنكار عليه ، لكن ممن هو فوقه ، لا ممن هو في السناديس ، ولكن النفس تميل إلى كلامه ، وتنفر من الكلام الذي فيه دواها ، وبه يحصل لها شفاها ، وهو كلام الإمام الغزالي ، لأن من طبع النفس أنها تنفر عما ينفعها ، وتميل إلى ما يضرها ، كما تنفر من قول الطبيب الحاذق الناصح إذا وصف لها الدواء** » .

قال : « **أمْرُ الباطن إنما هو في لحظة ، وكلٌّ من الصالحين إنما يستعظم ما وهبه الله ، ولا يرى ما وهب لغيره ، وإن كان الكل حقّاً . ولهذا قال بعض الصالحين في ابن الفارض وأمثاله : إنهم ملأوا الدنيا زغاريط بلا شيء ، لأن لكلٍّ من الروح تَيَهَان ، إلا إن تَيَهَان الروح بحق ، وتيهان النفس بباطل ، كما فعل فرعون** » .

وذكر الرحمة ، *فقال* : « **اسألوا اللهَ الرحمة والبركة ، واللطف والعافية ، والمطرُ لا يخلو من عَيْث ، إلا إنه مظهر خير ورحمة . وسُئِلَ عمر بن الخطاب رضي الله عنه : هل يُعَاقِبُ اللهُ الناسَ إذا عصوه في أرزاقهم ؟ فقال : لا ، لكنه يعطيهم المطر والحرث في غير وقته . وهذا مُشاهَد ، ألا ترى ، أرسل المطر في فصل الشتاء على كل الجهات في ليلة واحدة ، وهذا إذا كانوا يفعلون الطاعة أيضاً ، وإلا أرسلها في البحار والجزائر** » هـ .

أقول : يعني جهات حضرموت ، وما قاربها ليلة السيل النَّابِر ، هو سَمَّاه بهذا ، قال : « **هذا السيل النابر ، والله الجابر** » ، وقد زاد على السيلَين ، الإكليل الأول والثاني ، وهما مشهوران عند أهل حضرموت ، ويؤرخون بهما ، وسمعته يقول : « **الأول سنة ١٠٤٩** » . وأما هذا السيل النابر ففي ليلة الأربعاء ٢٦ من شهر رمضان سنة ١١٢٤ .

قال رضي الله عنه : « نحن بحمد الله قد نزع الله من قلوبنا المحبة لأمور الدنيا بالكُلّيَّة ، وما هو إلا إن كان أحد رمى عليك شيئاً وأردتَ جَبْرَه ، ولكن إذا بدت لشيء حاجة تنكر أنك تريده ، وتفعل في أمورها كما يفعل الناس » ، أي من التسبب لها كما قيل : كماهم .

قال رضي الله عنه : « الأسباب والحِرَف منها ما هو على صاحبه نعمة ، ومنها ما هو عليه نقمة ، فما يمنعه من أداء حقوق الله ، والصلوات مثلاً في أول أوقاتها ، وفي الجماعة ، فهو نقمة ، وما كان لأجل الإستمساك والإستغناء عن الناس مع أداء حقوق الله ، وفِعْل الأوامر في أوقاتها فهو نعمة . وينبغي أن يعمل بنية نَفْعِ نَفْسِهِ ، ونَفْعِ غيره ، ومن يأتي بعده ، فإن معظم الناس الآن في بيوت الأولين وفي أموالهم، وقد مَرَّ كسرى أنوشروان على رَجُلٍ مُسِنٍّ جداً شيبة وهو يغرس نخلاً ، فقال له : لِمَ تغرس وأنت في هذا السن ، ولعلك لا تدرك ثمرته ؟ فقال : غرسوا وأكَلْنا ، ونغرِسُ ويأكلون . فأمر له بأربعة آلاف درهم، فقال له : إن النخيل لا تثمر إلا بعد عشر سنين ، وهذا أثْمَرَ لي في ساعةٍ واحدة ، فأمر له بمثلها وقال : إنه رجل حكيم . فقال له : إن النخل لا يثمر في السنة إلا مرةً واحدة ، وهذا أثمر لي في يومٍ مرتين. فأمر له بأربعة آلاف ثالثة ، وقال لخازنه : سِرْ بنا لئلا يتم الخزانة علينا » هـ .

أقول : قوله : « بيوت الأولين وأموالهم » ، أي ما وصل إليهم منهم على أيديهم ، أو على أيدي غيرهم ممن قبلهم ، أو في وقتهم ، على أي وَجْهٍ من وجوه الإنتقال ، من إرثٍ أو شراءٍ أو هبةٍ ، أو غير ذلك ، حتى لو كان على غير وَجْهٍ شرعي ، فالإنتفاع حاصل كما قال صاحب الزبد : « والرزق ما ينفع ولو مُحَرَّماً » ، فكما فعله لهم مَن قَبْلهم ، فكذلك يفعلونه أيضا هم لمن بعدهم ، فإن الكون مرتبط بعضه ببعض، من أوَّلِهِ إلى آخره ، آخرُهُ بأوَّلِهِ وأوَّلُهُ بآخرِه ، كأجزاء الشخص الواحد ، كما لو كان في أعلاه علة ، فجعل الدواء على عضو من أسفله برئ . كما حُكِيَ أن بعض الملوك صدع رأسه ، فأمره الطبيب أن يضع رجليه في ماء بارد ، ففَعَلَ ، فبرئ. فقال خادمٌ له خَصِيٌّ : « أين رجلاه من رأسه ، صدع رأسه فقلتَ اجعل رجليك في الماء ؟ » ، فقال له الطبيب : « فأين لحيتك من خِصْيَتَيْك ، نُزِعَتا، فَذَهَبَتْ لِحْيَتُك » ، وكذلك ارتباط الكون كارتباط حِلَق السلسة ، من أولها إلى آخرها ، إذا جرَرْتَ أحد طرفيها؛ انْجَرَّت كلها .

ومِثْلُ ذلك الأسباب المتصلة ، فجَدُّكَ الأعلى ربما وَصَلَك من ماله ومن أخباره ، هذا علم بالبيان والتفصيل ، وهو يقول في نفسه ربما تكون لي ذرية ، ودعا لك بالصلاح ، ونالك من بركته وصلاحه ما هو خير لك وأنفع لك من ماله ، وربما رُوعِيَت لأجله ، أو رُوعِيَ لأجلك مِن قِبَل الله ، بسبب الصلاح، للأصلح منكما ، كما قال تعالى : ﴿وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا﴾، قيل هو الجد التاسع مِن قِبَلِ الأم ، وقال تعالى : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖ﴾، يعني

ما أنقصناهم .

وما في قصة كسرى مِن أمْرِهِ في الثلاث المرات ، كل مرة بأربعة آلاف ، فكأنَّ الملوك - سيما الأكاسرة - مهما سمع أحدُهم كلمةً أعجبته مِن أحدٍ ، أَمَرَ له بعطاء ، لا يتمالك عن ذلك إذا سمع الكلمة المعجبة .

وكانوا يتلذذون بالعطاء ، حتى إن أحدهم إذا خرج من بيته إلى نزهة ، يخرج معه بخزانته وخازنه، ليكون المأمور به والمأمور منه حاضراً عندما يبدو له ذلك ، وكأنَّ الأربعة الآلاف هي قانون عطاهم ، كما في هذه القصة والقصة الأخرى ، لبعض الأكاسرة أيضاً غير هذا : وهو أنه أهدى له صَيَّادٌ سمكة ، فأمر له بأربعة آلاف ، فغضبت زوجة الملك وقالت : « سمكة قَذِرُ قيمتها درهم واحد ، تأمر له بأربعة آلاف لأجلها ! فبعد هذا لو أمرت لبعض أخدامك بأقل منه ، قال : أعطاني أقل مما أعطى الصياد . ومُشِقٌّ عليك أن تأمر لكلٍّ من أَمَرْتَ له بأربعة آلاف » ، قال : « قد مضى ، فلا سبيل إلى رَدِّهِ » ، قالت: « أنا أحتال لك ، قل له : السمكة ، ذَكَراً أو أنثى ؟ فإن قال لك ذَكَر ، فقل : إنما أريد أنثى ، وإن قال : أنثى ، فقل إنما أريد ذَكَراً . فخذ سمكتك ورُدَّ الدراهم » ، ومرادها أنه لا يُعرَف في السمك الذكر من الأنثى . فسأله : « هل هي ذَكَر أو أنثى ؟ » ، قال : « يا مولانا ، هي خُنْثَى ، لا ذَكَر ولا أنثى » ، فعَجِبَ من كلمته ، فأمر له بأربعة آلاف أخرى .

فامتعضت زوجته جداً وأوجعها ، فلما قبض الدراهم سقط منه درهم ، فأكَبَّ عليه وأخذه ، فقالت الزوجة : « انظُر إلى خساسة نفسه ، ما أغْنَتْهُ ثمانية آلاف عن درهم ، فما سَمَحَتْ نفسُه أن يتركه، يأخذه أحد من حاشية الملك ، فهو جديرٌ بأن يؤخذ منه كل ما أُعطِي » ، فقال له الملك : « ما أخسَّ نفسك ، ما أَغْنَتْكَ ثمانية آلاف عن درهم واحد » ، فقال له : « إنما رَفَعْتُهُ لأن فيه مكتوباً اسم المَلِك ، خوفاً أن يطأه أحد ، لا لشحاحة نفسي » ، فأمر له بأربعة آلاف أخرى .

انظر كيف لم يتمالك عن العطاء ، كلما سمع منه كلمة أعجبته في الثلاث المرات ، مع أن زوجته قائمة عليه بالتخذيل عن العطاء والرد عنه ، فطَبْعُه في العطاء غلب طَبْعَها في البخل والشح ، وإنما مرادها سبباً يرجع إليه ما أعطاه ، ثم أمر بإخراجه خوفاً من صدور كلمة منه تدعوه إلى أن يأمر له .

ثم أمر منادياً ينادي أن لا أحد يُدَبِّرُ أمراً برأي امرأة .

فانظر كيف كان الملوك يتلذذون بالعطاء ، حتى إذا سار أحدهم في طريقٍ ، حَمَلَ معه خزانته وخازنه، حتى إذا بدا له العطاء ، كان ذلك نقداً لا وعداً .

فانظر الفرق بينهم وبين ملوك هذا الزمان ، خبثٌ ، ما لذتهم إلا في ظلم الناس وأخذ أموالهم ،

أولئك كانوا يعطون ، وهؤلاء الملوك يستعطون ويظلمون ، كالذي يسأل على البيوت ، أو يسرق من الدور .

وكان الملوك هم معدن العلم والدين والمروءة ، فصاروا اليوم لا يُعرف ذلك فيهم ، بل صاروا اليوم أجهل الناس وأبخلهم ، وأقلهم مروءة وديناً ، حتى صار العلم والسماحة والمروءة والديانة فيهم محالاً ، وهذا من انعكاس الأمور اليوم عن أوضاعها ورجوعها منه إلى أضدادها ، كما قال ذلك ، وسَمَّاه مخيب الظنون لذلك ، كما انقلبت في أمور الديانات والمروات ، كما مر تفصيله كذلك ، انقلبت فيه أمور العادات - أعني عادات الخير والمروات - إلى عوايد الشر واللآمات ، وأما عوايد الشر فزادت فيه أضعافاً .

فيا لله من عجب ، كيف صارت الأمور إلى هذه الأحوال الفظيعة ، فهذه الكلمة من سيدنا من بديع كلامه المستمد بسبيل الوراثة من كلام جَدِّه ، المخصوص بجوامع الكَلِم ﷺ . انظر كيف شملت أموراً ومعاني وأحوالاً كثيرة صدقت عليها ، وقد سمعت سيدنا غير مرة يقول : « **لو قد جاءنا قبل هذا الوقت من يخبرنا أن الوقت والحال سيؤول إلى هذا الحال ، لما صَدَّقَه الناس** » .

فها هو ذا قد صار إلى هذا الحال ، فسبحان من هو كل يوم هو في شأن ، ويُغَيِّر ولا يتغير ، فكما تبدلت المحاسن التي هي في الأخيار بمساوئ شديدة هي من أوصاف الأشرار والفجار ، حتى صارت سجايا الملوك التي هي الكرم والمروة والرحمة للضعيف ، فتبدلت باللآمة والشحاذة وعدم الرحمة للضعيف والمسكين ، فكانوا يُذكَرون بالخير ويُقصَدون للمعروف ، كما قال الحبر ابن عباس :

إذَا طَارِقَاتُ الْهَمِّ ضَاجعَت الْفَتَى ... وَأَعْمَلَ فِكْرُ اللَّيْلِ وَاللَّيْلُ عاكِرُ

وَبَاكَرنِي في حاجـةٍ لم يَجِـدْ لهـا ... سِوَايَ وَلَا مِنْ نَكْبَةِ الدَّهْرِ نَاصِرُ

فَرَجْتُ بِمَالِي هَمَّـهُ في مقامـه ... فزَايَلَـهُ الْهَـمُّ الطـروق الْمُسـامِرُ

وَكَانَ لَـهُ فضـل عَـلَيَّ بِظَنِّهِ ... بِيَ الْخَيْرَ إنِّي لِلَّـذِي ظَـنَّ شَـاكِرُ

ثم إنهم صاروا اليوم لا يُذكَرون بخير ، ولا يُقصَدون لمعروفٍ ، فالله المستعان .

ومن انقلاب الأمور اليوم عن أوضاعها إلى أضدادها ، أن الناس كانوا في الجاهلية مع كفرهم ، إذا الرجل يطلب قاتل أبيه ليقتله ، فإذا وجده قاصداً إلى البيت الحرام ؛ تركه ولم يتعرض له بسوء ، واليوم مع شهرة الإسلام ، إنما يتعرض أكثر هؤلاء المفسدون المحاربون لله ورسوله والساعون في الأرض فساداً لقاصدي البيت ، وطمعهم فيهم أكثر من طمعهم في غيرهم . انتهى .

وذكر القصتين المذكورتين الإمام الغزالي في كتاب « نصيحة الملوك » .

وأتى إلى سيدنا رجل قد صَحِبَه ثم انقطع ، **فقال** له : « **إنك قد تَرَكْتَ صحبتنا وصَحِبْتَ فلاناً ، فلا تَعُدْ إلينا ، لأن من عاد مِن حَظٍّ إلى حَظٍّ لا نقبله ، وإنما نقبل من عاد مِن حَظٍّ إلى حَقٍّ ، ومن اعترض علينا في شيء فليعرضه علينا ، فنحن قائمون له إن كان اعتراضه ظاهراً شرعياً ، يرينا إياه ، وإن كان باطناً كرياءٍ ونحوه ، فنحن وإياه على أنفسنا ، فنعينه بالشهادة أيضاً . وأهل العقول لا يأتون إلى أهل العادة ، وإنما أهل العادة يأتون إليهم ، ومَن تَرَكَنا لا نُعَوِّل عليه، وإنما لا نَأمنه على أمْرٍ ، كسماع كلمة ونحو ذلك . وأناس صحبونا فرأوا عندنا صِرَى ، فذهبوا إلى فلان، لما رأوا عنده من الإهمال ، وأموره نحن نعرفها جميعها ، لأنا كنا معه من وقت الصغر ، ونُسَلِّم له فيها لأنه سليم وكالمجذوب ، وأما أصحابه إذا اقتدوا به فيها فلا نُسَلِّم لهم ، لأنهم ليس لهم اطِّلاع على حاله، فلا عذر لهم** » .

ثم قال : « **إنما هذا الكلام تأديبٌ يُجرِيه الحقُّ على ألسنتنا من غير اختيارٍ مِنَّا ، وكُنَّا أرَدْنَا نرسل إلى الرجل نُخبِره ، لكنه هو بنفسه جاء ، فحصل له الجبر بكلام آخر** » ، **وقال** : « **إذا أجرى الحق مثل هذا الكلام ، نتكلم به ولا نبالي ، ولو سمعه من يغضب منه** » .

فقلتُ له : الله يحفظكم ، وعسى ببركاتكم يحصل لنا التأدب ، **فقال** : « **من كان معه أدب ، فقده معه ، وله نصيب على قَدْرِه ، ومن لا أدب له ، فما أنت بمُكَلَّفٍ به** » .

أقول : قوله : « حظ » ، هو معنى قوله تعالى : ﴿فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ۝٣٧ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ۝٣٨ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٣٩﴾ .

وقوله : « حق » ، هو معنى قوله تعالى : ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ۝٤٠ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ۝٤١﴾، فالمراد فيهما هوى النفس الدنيوي وهو الحظ ومراد الله الأخروي من العبد وهو الحق .

وقوله : « **صِرَى** » ، أي جدًّا واهتماماً بدعوة الخلق إلى الحق ، و « **الإهمال** » ، كونه غير ملتفت إليهم بدعوةٍ وحثٍّ ، بل شُغلُهُ بنفسه .

ومن جملة ما لا يُسَلَّم لأصحابه فيه إذا اقتدوا به في شيء من أحواله ، أنه مرة بعدما أذن وأقيمت الصلاة ، وتقدم ليُحْرِم ، يُصَلِّي بالجماعة ، فحصل له عند ذلك حالة دهش عظيمة ، وبقي ينتفض وتتحرك جميع أعضائه حتى أجفانه ، ثم التفت إلى الجماعة ، وقال : « **هل قد أُذِّن ، أم لا ؟** » ، قالوا له: « قد أُذِّن وأقيمت الصلاة ، وأنت متقدم لتُحرِم » ، فأحرم وصلَّينا ، وأنا قد حضرت هذه الواقعة .

وهي وأمثالها قول سيدنا : « **نُسَلِّم له هو فيها** » ، ثم بعد وفاته قَدَّموا واحداً منهم ليؤمَّ في بعض

الصلوات ، فلما أقيمت الصلاة وتقدم لِيُحْرِم ، الْتَفَتَ إلى الجماعة ثم قال : « هل قد أَذَّن أم لا ؟ » ، مراده اقتداءً به ، أن يفعل كما فعل ، وانتظر أن يقولوا له أيضاً كما قالوا له ، فقالوا له : « ارجع ، لا تُصَلِّ بنا ، فَلَسْنَا بمصلِّين خلفك » . وأخرجوه من المحراب ، وقدموا آخرَ غيره . وهذا وأمثاله معنى قوله : « **وأما أصحابه إذا اقتدوا به فلا نسلم لهم .. إلخ** » .

حتى أن هذا الرجل القائل ما قال ، قد انكسر وجهه حياءً من الناس ، حتى خرج من البلد على غفلة منهم ليلاً ، وما عُلِمَ له خبر ، إلا أني اتفقت به بمكة المشرفة ، وإذا به يعرج ويَشُقُّ عليه المشي، فسألته عن سبب ذلك ، قال : « عقوبة أصابتني ، جعلت أقول ما قال السيد ، دعوى وكذب، فأصابني ما أصابني ، وذلك أني جئت اليمن ، وأصابني فيها فقر وضر شديد ، حتى صرت جَمَّالاً في زبيد ، ثم سقطتُ من الجمل ، فاستَوْهَنَت رِجْلاي ، فَبِعْتُ الجمل ، وجئت قاصداً إلى بيت الله » . انتهت القصة، وقد تقدمت بلفظها ومعناها ، وربما هنا زيادة بعض لفظ . وإنما جَرَّ إلى إعادتها ، ما أَوْمَأَ إلى ذلك هنا من قول سيدنا وإشارته إلى السيد وأحواله .

وطلعنا عنده في الغيلة - أي الغرفة - وقت الإشراق ، يوم الإثنين سابع صفر الخير سنة ١١٢٤، مع جماعة يريدون الإستخلاف منه ، وهم من أهل دوعن ، فتكلم عليهم كثيرا ، ثم ألبَسَنا الخرقة ، وأعطانا طريقة المصافحة ، وأمَرَنا أن يجعل كل رجل مِنَّا يده في يد الآخر مُشَبَّكَة الأصابع ، حتى صرنا كالحلقة ، مُبْتَدَأة به ومُختَتَمَة به ، **فقال** ونحن في تلك الحالة : « **قولوا : لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ﷺ ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، ولو كره المشركون** » .

وذكر كيفية التلقين في بعض المكاتبات لبعض المحبين ، **فقال** : « **فقد أَذِنَّا لكم أن تُلَقِّنُوا من يرغب فيه منكم ، وتَشُمُّون فيه شيئاً من روائح الصدق المتَيَسِّر في هذا الزمان المبارك ، وطلبتم كيفية ذلك ، والدعاء الذي يكون بعده ، فنذكر شيئاً من هذا المطلوب على قصد الإيجاز ، لضيق الوقت واستيلاء الضعف ، فنقول : إذا اجتمعوا جماعة لقصد التلقين ، فينبغي أن يبدأ بقراءة الفاتحة المعظمة للتبرك ، ولأنها لِمَا قُرِنَت له ، ثم يقول المُلَقِّنُ للحاضرين من الراغبين : قولوا : نشهد أن لا اله إلا الله ونشهد أن محمداً رسول الله ، قولوا : لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله . ثم يقول المُلَقِّنُ المتقدم : اللهم صل على محمد وعلى آل محمد النبي الأُمِّي الصادق الأمين ، اللهم اسْلُكْ بنا طرائقها وحَقِّقْنا بحقائقها، واجعلنا من صالحي أهلها ، وأحينا وأمِتْنا وابعثنا على ذلك ، من الآمنين المطمئنين ، الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، برحمتك يا أرحم الراحمين ، اللهم إنا نسألك اليقين والعافية ، والوفاة على الإسلام ، اللهم ثَبِّتْنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الاخرة ، ربنا أَفْرِغْ علينا صبراً وتوفنا مسلمين ،**

واغفر لنا ولوالدينا ولمشايخنا في الدين ، وللمؤمنين والمؤمنات ، والمسلمين والمسلمات ، الأحياء منهم والأموات ، إنك سميع الدعاء ،والحمد لله رب العالمين » .

والمكاتبة للشيخ عبدالله بن عثمان بن سعيد العمودي ، صاحب الوادي الأيسر من دوعن من الدوفة ، وهو ابن عم للشيخ عبدالله بن سعيد بن عثمان صاحب الوادي الأيمن من بضة ، وتاريخ هذه المكاتبة يوم الخميس ١٤ صفر سنة ١١٣١ ، قبل وفاة سيدنا بنحو سنة وثمانية أشهر و ٢٤ يوماً .

قال رضي الله عنه : « اجْعَل الدنيا كالحذاء ، مطروحة لا ترفعها ، بل تلبسها إذا أردت موضع قذر أو حاجة ، ولا تضعها على رأسك ، فَمَن وَضَعَها على رأسه أو مسح بها وجهه فقد أجرم جرماً عظيماً. ونحن ما أنكَرْنا على أهل الزمان في أخذ ما لا بد منه ، وما يغنيهم عن التكفف للناس ، وإنما أنكَرْنا عليهم رفعها وتعظيمها والتهالك عليها ، حتى ضيعوا بسببها حقوق الله ، كإخراج الصلوات عن أوقاتها ، أو عن أوائلها ، أو عن الجماعة . وكان السلف - أي سلف السادة آل باعلوي - لا يتركون شيئاً من أمور الدنيا يَتِمُّ في أيديهم ، بل إذا تَمَّ من جهةٍ بَقِيَ ناقصاً من الجهة الأخرى ، لأنها إذا تَمَّت ، لا بد أن تذهب ، فتعظم حسرتها ، وإذا كان مَن طَلَبَها لِيَبَرَّ بها ناقِصُ عَقْلٍ ودِينٍ ، فكيف بطلبها لنيل الشهوات والتمتع باللذات » .

وكان يشير بذلك إلى بعض الحاضرين إذ ذاك ، ثم قال له : « نحن نعلم ما تقولون في مجالسكم وأسواقكم ، أتظنون أنا لا نعلمه ، بل نعلم ما به تجهلون » ، أو كما قال ، وذلك ضحى يوم الجمعة في داره في البلاد ، يوم ٢١ من شهر جمادى الأولى سنة ١١٢٢ .

وقال : « خذ من الدنيا حاجتك ، واجعلها كالحذاء ، تمنع منك الشوك والنجاسة والحصى ، فلا حرج في ذلك ، وهو قدر الكفاية ، وما يحتاج إليه في دين أو مروءة ، ومحل النعل الرِّجل .

ولكن أهل الزمان جعلوها عمامة ، وطرحوها على الرأس ، وما أنكَرْنا عليهم إلا ذلك ، وإلا فلا حرج عليهم في أخذ ما لا بد منه ، إذا جعلوها في الرِّجل ، ولم يجعلوها عمامة على الرأس » .

ومرة تكلم في مثل هذا ، *ثم قال* : « وكان الشيخ عبدالله - يعني العيدروس - يُغيِّر حتى مسامير الباب » .

وقوله : « نعلم ما تقولون » ، وكانوا يقولون : أن السيد عبدالله يريدنا أن نترك الدنيا ، ونجلس في المساجد متجردين عنها .

ووَضْعُها على الرأس كناية عن رَفْعِها وتعظيمها في القلوب ، والإعتداد بشأنها ، وطَرْحُها إشارة إلى هونها في القلب وعدم الإحتفال بها ، ولا مبالاة ولا تعريج عليها ، وعند الحاجة أو الضرورة يأخذ منها بقدرها .

وقوله : « **وإذا كان من طلبها ليبر بها** » ، يشير إلى ما روي عن سيدنا عيسى عليه السلام من قوله: « يا طالب الدنيا لِتَبَرَّ بها ، تَرْكُكَ لها أَبَرُّ وأبر » .

وتغيير مسامير الباب ، أي لا يحسنها بتعريضها وتبييضها ، بل قدر ما يقضي الحاجة هـ .

قال : « **أمور الدنيا كرِجْلَي المحواك ، كل ما ارتفع واحد منها هبط الآخر** » .

وقال قبل ذلك - يوم الإثنين ١٠ جماد أول من السنة المذكورة سنة ١١٢٢ - وقد بَلَغَهُ شدة ظلم عيسى بن بدر في شبام ، وجَوْره فوق العادة ، وإيذائه للمسلمين ، فتكلم في شأنه في مدرس قراءة الإثنين بكلام كثير ، *ثم قال* : « **ما له إلا الكثيب الأحمر** » ، وهو تربة عينات .

وكان عيسى حين قول سيدنا ذلك بمدينة شبام ، ثم سَرَحَ منها صبح يوم الثلاثاء منحدراً إلى عينات ، إلى عند السادة آل الشيخ أبي بكر بن سالم ، وخرج سيدنا ضحى يوم الثلاثاء المذكور مُتَفَسِّحاً إلى مسجد إبراهيم بن السقاف ، الذي هو شرقي الحاوي ، بينه وبين مسيلة عِدِم ، وبقي في ذلك المسجد يومه ذلك إلى الليل ، إلى أن صلى وصلينا معه فيه صلاة المغرب ليلة الأربعاء .

ومما تكلم به في مجلسه في المسجد ذلك اليوم أن *قال* : « **إن الناس لا ينظرون من الشخص إلا إلى عمله ، لا إلى ذاته ، ومن مات وهو مُحْسِنٌ ، تأسَّفوا عليه ، أو غير ذلك فرحوا بموته ، ومن مات وهو حَسَنُ العمل بعد قليلٍ من العمر ، فهذا مدة عمره ، ومن مات كذلك وهو سَيِّئُه ، فنقصان عمره من شؤم عمله ، ومن طال عمره منهما** - أي المحسن والمسيء - **فالمحسن زاد الله في عمره ببركة عمله الصالح ، والآخر هو عمره المُقَدَّر له ليزداد من الشر** » ، هذا ما حفظنا منه .

ثم بعد صلاة المغرب والنافلة بعدها ، ركب سيدنا سائراً إلى الحاوي ، وسرنا معه وقد أظلم الليل، فالتقانا في الطريق محمد بِلْفَقْيَه الصعدي ، الملقب بمحيود ، آتياً من بلدة شبام ، وكان خادماً لسيدنا، ويحفظ ديوانه ، فصافحه وقَبَّلَ يده ، وتَظَلَّمَ عنده وشكى إليه حاله وأحوال أهل بلده ، وما حصل عليهم من الظلم الفظيع والهتك الشنيع من عيسى بن بدر ، فقال : « فلان غَرِمَ كذا وكذا قرش ، وفلان كذا ، وأنا أخذ علي خمسين ، وعادتي خمسة ، وفلان سبعين ، وفلان مائة » ، ومثل هذا الكلام ، وسيدنا ساكت ، فلما تم كلامه وسكت ، قال سيدنا له : « **إذا ظَلَمَكُم حاكِمُكُم ، فماذا تريد أن أفعل ؟** » ، فقال

له : « أريدك تقبض بحلقه فتخنقه فتقتله وتريحنا منه - أو قال : تريحنا مِن شَرِّه - » .

فتبسم سيدنا ضاحكاً وسكت ، فقبضتُ بيد محيود وجذبتُه ، وقلت له : إنك قد أكثَرتَ الهذوة ، فاسكت ولا عاد تكلمه ، فقد أشغلته . فجَرَّ يده من يدي وقال : « ما سيبك مني وحبيبي » ، فسَكَتَ سيدنا وسَكَتْنا ، فما وصلنا الحاوي إلا وقد سَبقَنا إلى الحاوي خَبَرُ موت عيسى قبل وصولنا . فَسَأَلْنا الذي أتى بالخبر عن خبره ، فذكر أن السادة قد فعلوا له ضِيفة ، وكان حينئذ يتعشى ، فأكل لحمةً فنشبت في حَلقِه ، فلا خَرجَت ولا دَخلَت ، فانقطع نَفَسُهُ ، فَخَرَجَت روحُه ومات في الحال .

فنعوذ بالله من غضب الله وسخطه ، وما يُغضب عباد الله الصالحين ، فإنهم ما يغضبون إلا لغضبه، وإذا غضب سبحانه مَحَق ، ومَحْقَتُهُ تُدرِكُ السابع أو التاسع من الولد ، وإذا رَضِيَ بارك ، وبَرَكَتُهُ تدرك السابع من الولد ، كما ورد . وإذا غضب الصالحون دعوا بالمحاق ، فوافق دعاؤهم فِعْلَه تعالى .

وقد حصل لهذا الظالم ما تَوَعَّدَه به سيدنا من قوله : « **ما له إلا الكثيب الأحمر** » ، فقُبِرَ فيه ، فَنَقَلَتْهُ مَنِيَّتُهُ إليه من مسيرة يوم ، قبل موته بيوم ، وهو حينئذ بشبام ، فَجَرَّهُ القضاء والقدر منحدراً إلى تُرْبَتِهِ .

وأظن أن كلام سيدنا في المسجد فيه ، وهو إشارةٌ إليه ، وهو حينئذ بَعْدُ في الحياة ، فأراده به ، حيث قال : « **فنقصان عمره من شؤم عمله ، ومن مات وهو سيء العمل فرح الناس بموته ..** » ، إلخ الكلام. وقد فرح الناس بموت هذا الظالم فرحاً شديداً .

وذكر حينئذ الحديث القدسي عن الله تعالى ، في مجلسه ذلك في المسجد ، أنه سبحانه قال : « إذا رَضِيتُ بَارَكْتُ ، وأدْرَكَت بركتي السابع من الولد ، وإذا غَضِبْتُ مَحَقْتُ ، وأدْرَكَت محقتي السابع من الولد » ، وأشك هل قال في الحديث السابع أو العاشر فليتحقق لفظ الحديث ويثبت . فوافق معنى أن الله قد حكم وأراد وقضى بذلك ، أن يقع ويكون على وصف ، وفي وقتٍ عَيَّنَه له ، فوافق دعاؤهم به الوقتَ الذي عَيَّنَه ، فوقع كما قضاه وأراده ، في وقته وعلى وصفه ، فحُكْمُهُ تعالى أن يقع هو القضاء ، ووقوعه - أي في وقته وعلى وصفه الذي عَيَّنَه - هو القَدَر ، ويجب الإيمان بالقضاء والقدر .

قالوا : « ولا يجب الرضا به » ، من أجل أنه جرى منه على أحد بما يكرهه الشرع ، فجريانه حُكْمُ الإرادة الأزلية ، فإن وافق الشريعة ؛ فقد وافق الإرادة الشرعية ، فموافقة الإرادتين هو السعادة التي أشار إليها كما تقدم من قوله : « **فالسعيد من وافق ما أراد به الحق وأراد منه** » ، وإن خالف الشريعة فقد وافق ما أراد به الحق ولم يوافق ما أراد منه ، وهو الشقاوة التي أشار إليها كما سبق من قوله : « **والشقي من اختلفت به الأمور** » ، بأن اختلف شأنه في الإرادتين ، بأن وافق الإرادة الأزلية ولم يوافق الإرادة الشرعية .

ويؤخذ من المعنى المتقدم معنى قول بعضهم : « إن جماعة من الأولياء يتصرفون في قبورهم كتصرف الأحياء » ، ومعناه أن إرادتهم فَنِيَتْ في إرادة الله تعالى ، فلا يريدون إلا ما يريد ، فإذا أراد سبحانه أمراً ، فأمضاه ووقع بإرادته ، كان ذلك عين مرادهم ، فأشبهوا بذلك من تصرف في طلب أمر ، وسعى في حصوله بتصرفه ، فحصل له ، فهم لا يسعون ويطلبون إلا أمراً أراده الله سبحانه ، فلذلك كان كل ما طلبوه من الله سبحانه حصل لهم ، فيقال لأجل ذلك أنهم يتصرفون ، وهكذا هم ، سواء كانوا أحياء أو أمواتاً هـ .

قال : « إذا أكثر الإنسان الظلم ولم يزل يظلم ، كان كالجريدة الخضراء ، كلما لها ينقص ماؤها وخضرتها ، حتى تيبس ، فعند ذلك تسرع النار في إحراقها » هـ .

أقول : يعني ينقص دينه ، فيستحق دخول النار ، ولأن دين الإنسان هو الذي يستحق به جزاء الخير ، فإذا ذهب منه استحق جزاء الشر . كما أن الجريدة خضرتها نضرتها وبهاؤها ، وبسببه تبطيء النار بإحراقها . ولا شك أن الظالم قد ذهب دينه ونضرته وبهاؤه ، وصارت النار أسرع إلى إحراقه من العود اليابس ، وهذا مثال استعارة ، وتشبيهاً بما يُفهم ، تقريباً للأفهام .

انتهى ما تكلم به في مجلسه في المسجد المذكور .

وذِكْرُه للظلم يدل أنه يشير إلى ذلك الظالم ، وأنه قد أَهَمَّهُ شأنه ، وزاده هَمًّا من جانبه تكليمُ الرجل المذكور له من جانبه وذِكْرُه مظالمه ، ففي الحال أخذه الله ولم يُمْهِله هـ .

قال رضي الله عنه : « إن انتفع أهل الزمان بشيءٍ ؛ فَبِنِيَّاتهم - أي إن صلحت - وإلا فجميع أعمالهم مدخولة ، فإن لم يُقِرُّوا بهذا فعليهم البيان . ومثال أهل الزمان كَمَثَلِ من جاء إلى سلطانٍ يحمل حطباً - أي وهو عمله السيء - فماذا يستحق من السلطان ، ما هو إلا أن يشب في حطبه النار ، قال بعضهم :

النَّارُ فِيكَ وَبِالْأَعْمَالِ تَحْرِقُهَا   وَالْعِلْمُ مَاءٌ لِتِلْكَ النَّارِ يُطْفِيْهَا

ثم قال : « من جاء بوعاء يطلب فيه سمن أعطوه فيه ، وأهل الزمان لا أوعية لهم طاهرة يُطرَح لهم فيها ، وكان فيما مضى إذا جلس الإنسان إلى أحد من أهل الدين نحو ثلاثة أشهر ؛ صار داعياً إلى الله ، وهؤلاء لا يمكن ذلك منهم » هـ .

أقول : قوله : « وعاء » ، أي ماعون ، وهو القلب .

« **لا أوعية لهم طاهرة** » ، أي لا قلوب لهم سالمة من قذر حب الدنيا ، فإن ذلك قد تَمَكَّنَ من قلوبهم اليوم ، وهو الذي قطع بهم عن نيل مقامات الصالحين ، لأن حبها رأس كل خطيئة ، فكيف يمكن ذلك مع تمكن ذلك ، فإنَّ شَرْطَهُ الأكبر عزوفُ النفس عن الدنيا ومحبتها ، وهذا لا يمكن منهم .

فلذلك لا يمكن منهم أن يكونوا دعاة إلى الله ، فإن المدعو عينه شاخية إلى سيرة الداعي ، فإذا رأوه مُحِبًّا للدنيا وهو يُزَهِّدهم فيها ؛ لا يؤثِّر قولُه في قلوبهم ، ولسان حالهم يقول له : قل لنفسك يا شقي ، كيف تُزَهِّدنا في الدنيا وأنت تُحِبُّها وتطمع فيها ، فكأنك تقول لنا : اتركوها لي أنفرد بها عنكم وحدي، فلا نطيعك ولا نقبل منك .

فإذا كان لا قلوب لهم طاهرة مستعدة لفيض الإمدادات الإلهية والأنوار السرية والأسرار الربانية، فلا يمكن ذلك منهم ، لعدم القابلية والإستعداد ، فإن اليوم قَلَّ من تلقى إلا من قلبه متعلق بالدنيا، ورسخ حبها في قلبه وشغف بها إلى الغاية ، حتى صارت أكبر همه ومبلغ علمه ، خصوصاً من تراه منتسباً إلى الزهد والتصوف ، وإلى طريقة الفقراء ، فإنهم أشد في ذلك من غيرهم . من كان منهم عنده منها شيء ؛ فهو مشغول به ، ومن لا عنده شيء ؛ فهو مشغول بوساوسها وتمنيها .

فكأن هؤلاء ينبغي أن يكونوا هم الأولى اليوم بعدم محبتها والرغبة فيها من غيرهم ، بل في هذا الوقت يهون العوام ومن لا نسبة لهم إلى طريقة التصوف في الشغف بها عندهم ، حتى إنهم يطلبون الحرام ولا يبالون به ، ويقولون : هو لنا حلال ، ولو حَرُمَ على غيرنا ، فكيف يكون فيهم القابلية ، بل كيف يرجى فيهم خير . وكانوا في الزمن السابق هم الزاهدون الصالحون ، بخلافهم اليوم ، فقد انقلبت الأمور فيهم عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها ، فالعجب كيف رجعوا اليوم مشغوفين بمحبتها . فاقطع رجاك منهم، فإن هؤلاء لا يمكن ذلك منهم ، كما قال . ويكفيك قوله شاهداً ، ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾، وعلى الخبير به سَقَطْتَ ، وهذا في ظاهر الأمر فيما يقتضيه الحال ، والغالب بالنظر إلى الأسباب والأوقات ، وأما بالنظر إلى مواهب الوهاب فما دونها حجاب ، ولا تَرُدُّها الأبواب .

وقد قال سيدنا : « **وإذا أراد الله سبحانه أمراً ؛ فما هو ببعيد** » . وقال أيضاً : « **نحن مع الناس اليوم أَلَّا بالعناية ، وأما الأسباب فقد أتينا منها بما يمكن ولا حَصَّلنا شيئاً** » .

فسبحان من أسعد مرتداً وأشقى متعبداً ، أسعد طلحة الأسدي بعد ارتداده فرجع إلى الإسلام وحسن إسلامه ، ومات شهيداً ، وأشقى برصيصاً العابد بعد عبادته ، فمات كافراً ، وغيرهما كذلك مما لا يحصى ».

ولما فرغ القاريء يوماً من قراءته في « الدعوة التامة » ، *قال* : « **ما على الإنسان إلا أن يُبيِّن ويوضِّح لهم ، ولا عاد عليه إن لم يحفظوه ويعملوا به ، وما هو إلا كحديث أبي هريرة لما حَدَّث عنه ﷺ ، حديثَ: لا تؤذ جارَك بقُتارِ قِدْرِك . فما رأى منهم الإصغاء والإقبال ، فقال : ما لي أراكم عنها معرضين ، والله لأرْمِيَنَّها بين ظهوركم . والناس اليوم تالفين متلفين خاربين ، فينبغي أن يأخذ الإنسان منهم حِذْرَه ، فإنهم كالأرض المَرْضِيَّة ، يحذر أن يطرح عليها متاعه ، وإن انتقل إلى الأرض التي لا رضة فيها ، فهو أصلح وأحسن ، وإن بقي فيها فليحزم متاعه لا تأكله** » .

أقول : ضرب مثلاً بالأرض - شبه بالأرضة وهي العثة - الناس المفسدة أن لا يودعهم سره . و« **متاعه** » : سره ، و « **الأرض التي لا رضة فيها** » ، أي الناس الأخيار الذين يؤمَنون على الأسرار .

قال : « **وذَمُّ الناس على مقتضى الأكثر منهم ، وإن كان بقية خير ، كما يقال لقليل المال ، أن ما معه مال ، أي كثيراً وإن كان معه قليل** » ، *قال* : « **قال بعضهم : لا فائدة في التصنيف في علم الحقائق ، لأن من له فيه نصيب لا يعرفه من الكتب ، بل يفتح الله به عليه ، ومن لا ؛ فإنه يضره ولا ينفعه** » .

ثم قال : « **بل ذِكْرُ الطريقة وصفات الأعمال أنفع لهم وأَفْوَد** » هـ .

أقول : ذِكْرُه لهذا القول وسكوته عليه كأنه مختار له ، وإلا لكان ذَكَرَ غيره ، كما هي عادته في مؤلفاته، وفي كلامه في مجالسه ، إذا ذكر كلاماً وَذَكَر كلاماً آخر ؛ قال : « **هذا الذي نختاره** » ، أو « **هذا هو الصواب** » ، ومما يرجح اختياره له قوله كما سيأتي : « **عِلْمَان لا نَأْمَن متفقهة الزمان عليهما : علم الحقائق ، وعلم الخلاف بين الأئمة** » .

أقول : لأن علم الحقائق يستدعي المتكلم بها الدعوى ، وإظهار أنه من أهلها ، وهو لعله من أكلب كلاب الدنيا عليها . وعلم الخلاف بين الأئمة ، فربما يتبع الرُّخَص فيها ، ويتبع بها أهوية نفسه ، فلذلك لا يأمنهم عليهما . ومما يرجح اختياره له أني استأذنتُه في نقل كلام من كتاب « اليواقيت » للشعراوي فقال : « **الحذر تنقله ، فإنه في غاية الغموض والإشكال ، ولو قد شاوَرَنَا الشعراوي في تصنيف هذا الكتاب لقلنا له : لا تُصَنِّفه** » ، وهو أن يهودياً كتب إلى الشيخ القونوي أبياتاً ، يسأله عن العقيدة ، فكتب له أبياتاً جواباً له ، فاستأذنته في كتابتها ، فأبى عليَّ ذلك .

قال رضي الله عنه : « **لا يكن لك في الدنيا حسيب إلا نفسك ، إن أردت خفة الحساب في الآخرة ؛ فحاسبها في الدنيا ، والناس ما يبالون بك ، ولا يدرون ما تقول** » هـ .

وقال : « معنى : اجعل القرآن ربيع قلبي ، كما في الدعاء : أي بأن يعمل في القلب من الأنوار والعلوم ، كما يعمل الربيع في الأرض » .

قال : « ينبغي للإنسان في هذا الزمان أن لا يتحمل، فمن الذي سَلِمَ من شواغل الزمان كما ينبغي . زمان جُوَّة - أي رديء - ، زمان هم وغم ، وفي هذا المعنى قيل : المشغول لا يُشغل » .

وقال : « إذا أردتَ أن تعرف عقل الرجل مِن حُمْقِهِ ، فاسْأَلْهُ عن مسألةٍ ، فإن أجابك عنها ولم يَزِدْ عليها ؛ فهو عاقل ، وإن أتى بها وذَكَرَ كل ما في نفسه وتكلم به ؛ فهو أحمق . والفرق بينهما أن العاقل صحيح المقصد والعمل ، والأحمق صحيح المقصد دون العمل » .

ومرة **قال** : « العاقل صحيح القصد والعمل ، والأحمق صحيح القصد فاسد العمل ، والمجنون فاسد القصد والعمل . وإذا أردتَ أن تعرف أنه ثقة أم لا ، فاسْأَلْهُ واتْقِنْ جوابه ، ثم امْكُثْ مدة ، ثم اسْأَلْهُ عما سألتَه أولاً ، فإن تكلم ثانياً بمثل كلامه أولاً ؛ فهو ثقة ، وإن زاد ونَقَّص أو لم يكن على ترتيب الأول ؛ فليس بثقة » هـ .

أقول : وفي قصة رؤيا أبي الحسن الشاذلي لما قال : نِمْتُ في المسجد الأقصى إلى آخر الرؤيا ، وهي مذكورة هنا في غير هذا الموضع ، من اجتماع الأنبياء بأجمعهم صفوفاً ، والنبي ﷺ جالساً على كرسي، كلهم يتشفعون عنده للحلاج في زَلَّتِهِ ، فَقَبِلَ شفاعتهم وعفا عنه . ثم قام سيدنا موسى ، وقال : « يا محمد ، إنك تقول علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل ، أَخْرِجْ لي واحداً من علماء أمتك أسأله » ، فقال النبي ﷺ : « أين الغزالي ؟ » ، ففي الحال قام الإمام الغزالي ، وقال : « لبيك يا رسول الله » ، قال له: « كَلِّم موسى » ، فقام إليه وسلم عليه ، فقال له : « ما اسْمُك ؟ » . قال : « اسمي محمد بن محمد بن محمد الغزالي » ، فقال سيدنا موسى عليه السلام : « ينبغي أن يكون الجواب مطابقاً للسؤال ، وجوابك ليس مطابقاً لسؤالي ، سألتُك عن سؤالٍ واحد ، فأجبتني بأربعة أجوبة » ، فقال له الإمام الغزالي رحمه الله : « اعتراضُكَ عليَّ واردٌ عليك ، كيف أنت لمَّا قال لك ربك : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، قُلْتَ : ﴿هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، فسألَكَ سؤالاً واحداً ، فأَجَبْتَهُ بأربعة أجوبة ، وهو أعلم بك وبعصاك منك » ، فانبهر سيدنا موسى من كلامه ، وقال : « صَدَقْتَ يا محمد ، علماء أمتك كأنبيائنا » .

وما تقدم من قول سيدنا : « **وأهل الزمان لا قلوب لهم طاهرة** » ، يعني : من حب الدنيا ، إلخ ما قال ، يؤيده ما ذكره الإمام السهروردي رحمه الله في عقيدته المسَمَّاة « أعلام الهدى وعقيدة أرباب التقى» ، فقال : « اعْلَمْ أَيَّدَكَ الله تعالى أن العقيدة الصحيحة هي السليمة من الأهواء ، أنتجها قلبٌ حيٌّ

بِذِكْرِ الله ، وهو القلب المُزَيَّن بالتقوى ، المُؤَيَّد بالهدى ، الذي تشعشع فيه نور الإيقان ، وظهر أثر نوره على الجوارح والأركان ، حتى صارت مُقَيَّدَة بأوامر الشرع ، محفوظة من هفوات الطبع ، وهو قلبٌ رَدَّهُ الله تعالى إلى طهارة الفطرة ، وخلصه عن أثر كل مسموع يتكرر على النفس ، فينطبع في النفس منه ظن ووهم ، يشغل كُلِّيَّتها ، فلا يبقى فيه لغير ما ظنته وتوهمته مساغ ، ولا يكون مثل هذا القلب إلا للزاهد في الدنيا ، لأنه قلبٌ محفوفٌ بالنور ، والقلب المحفوف بالنور قلب الزاهد ، قال رسول الله ﷺ : إن النور إذا وقع في القلب ، انشرح وانفسح . قيل : يا رسول الله ، وهل لذلك من علامة ؟ قال : نعم ، التجافي عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والإستعداد للموت قبل نزوله » .

انتهى ما أردنا ذكره من تلك العقيدة ، استشهاداً بذلك لقول سيدنا هـ .

قال : « **أهل الزمان ما يسعهم إلا الجائز وقليل فيه ، ونادر من يرتقي رتبة العزيمة ، فلا حُكْم له – أي للنادر – ومن أتانا من هذا القليلِ ؛ لا نُصَدِّقُهُ حتى نختبره ونتحقق صدقه ، فإن مَن لا فيه دين يردعه ، ولا عقل يحجزه ، فلا يبالي بما يَخِلّ في دِينه ولا مروءته ؛ فليس بإنسان** » هـ .

أقول : يعني ليس فيه الحقيقة الإنسانية التي تقدم وصفها .

وقوله : « حتى نختبره » ، أي كما قال الشعراوي : « أُخِذَ علينا العهود أن لا نأخذ العهد على فقير بالسمع والطاعة لِمَا نأمر به من الخير، إلا إن كان لا يُقَدِّمُ علينا في المحبة أهلاً ولا ولداً ، وراثة محمدية لا استقلالاً . ولولا علم رسول الله ﷺ أن لمحبة الناصح مدخلاً عظيماً في حصول الهداية والإنقياد بسرعة دون بطء ؛ ما قال : « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من أهله وولده والناس أجمعين » .

ومعلومٌ أن جميع الدعاة إلى الله تعالى من هذه الأمة ، إنما هم نُوَّابٌ له ﷺ ، فلهم من الأدب معهم والمحبة لهم بحكم الإرث نحو ما كان له ﷺ ، وذلك ليحصل للمريد كمال الإنقياد ، ويعتقد في شيخه أنه أشفق عليه من نفسه ، كما كان ﷺ ، قال الله تعالى : ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ﴾ ، فافهم . وإذا عَلِمَ من المريد تقديم أحدٍ عليه في المحبة ؛ نَفَضَ يده منه » .

أقول : فانظر كيف اتفق معنى الآية ، ومعنى الحديث ، ومعنى قول سيدنا ، ومعنى قول الشعراوي، على وَجْهٍ واحد ؛ تَعْرِف بذلك أن النبي ﷺ على القدم الذي أمر الله به ، وأن سيدنا وجميع الدعاة إلى الله على قدمه عليه الصلاة والسلام ، لا يختلفون عن ذلك قيد شبر .

فمَن وَزَنْتَه بهذا الميزان الشرعي ، ورأيتَه عليه لا يزيغ عنه طرفة عين – سيما إن ارتقى إلى درجة العزيمة ، التي أشار إليها سيدنا – فاعْتَقِدْ فيه غاية الكمال ، وهو إذا تحقق بذلك فلا يَدَّعِيه قط ، ومَن

ادَّعاه ؛ **دَلَّ على نقصه وعدم كماله** ، كما قال سيدنا : « **من ادَّعى الكمال بطل كماله ، ومن لم يدّعه ولا ارتقى إلى درجة الكمال** – التي هي العزيمة ، كما أشار إليه أيضاً – **فهو من عوام المؤمنين ، لا كامل ولا ناقص وهو غالب الناس اليوم** » .

قال الشعرواي : « ومن كلام العارف بالله سيدي عدي بن مسافر رحمه الله ، أحد أركان هذه الطريقة : اعْلَمْ أنك لا تنتفع بشيخ إلا إن كان اعتقادك فيه فوق كل اعتقاداتك في أمثاله ، وهناك يجمعك في حضوره ، ويحفظك في مغيبه ، ويهديك بأخلاقه ، ويؤيدك بإطراقه ، وينور باطنك بإشراقه. وإذا كان اعتقادك فيه ضعيفاً ؛ لم تشهد منه من ذلك شيئاً ، بل تنعكس ظلمة باطنك عليك ، فتشهد صفاته هي صفاتك ، فلا تنتفع منه بشيء ، ولو كان من أكبر الأولياء .

وقد قال سيدي علي بن وفاء رحمه الله في كتابه الوصايا : اعْلَمْ أن قلوب الرجال أمثال الجبال ، فكما أن الجبال لا يزيلها عن أماكنها إلا الشرك بالله تعالى ، كما قال عز وجل: ﴿وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ۝ أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ۝﴾، فكذلك قلوب الرجال ، سيما الولي لا يزيل قلبه إلا شرك تلميذه معه أحداً في محبته ، فلا يزيله تقصير في خدمته ، ولا غير ذلك . فافهم .

ثم لا يخفى عليك يا أخي ، أن جميع الأشياخ إنما طلبوا من المريد كثرة الإجلال والتعظيم لهم ، والرضا بكل ما يأمرونه به ، تمريناً له ، وطلباً لتَرَقِّيه ، إذ الشيخ كالسُّلَّم للترقِّي ، يتَرَقَّى المريد بالأدب معه إلى الأدب مع الله تعالى ، فمَن لم يُحكِم باب الأدب مع شيخه ؛ لا يشم للأدب مع الله تعالى رائحة، فيستفيد المريد بالرضا عن شيخه إذا أحرمه دنيا كان يترصد حصولها مثلاً ، الرضا عن الحق تعالى إذا حرمه رزقاً أو وظيفة ، أو أنزل عليه بلاء ، أو أنزل عليه نقمة ، أو أزال عنه نعمة ، ومتى لم يرض بحرمان شيخه ؛ لا يصح له الرضا عن الحق ، إذا أحرمه شيئاً كان يحبه ويستفيد بصبره على غضب شيخه وهَجْره له ، وثباته تحت هجره وقطيعته ، الإدمان على تحمل ذلك لو وقع من جانب الحق والعياذ بالله تعالى ، ويستفيد بمراقبة شيخه في الخدمة له ، وعدم غفلته عنها ، وكثرة ملاحظته له مع عدم الغفلة عن عبادة الحق تعالى ، وكثرة ملاحظته بالقلب وهكذا .

وينبغي لك يا أخي أن تمتحن نفسك إذا ادَّعَت أنها تسمع لشيخها ما يأمرها به ، كما هو واقع من أكثر المريدين ، فيقولون : نحن أول من يطيع . إذا قال له شيخه طَلِّقْ زوجتك التي قُلتَ أنها تُشغِلُك عن الله عز وجل ، وتُحوِجُك إلى تناول الحرام والشبهات ، خيراً لك ، أو ائْتِنَا بشَطْر مالك لِنُفَرِّقَهُ على إخوانك هؤلاء الفقراء ، أو أَسْقِطْ حقك من سائر وظائفك ، من إمامةٍ وخطابةٍ وتدريس ووقادة وفراشة وأذان ونحو ذلك ، لا يرضى بذلك كله ، بل يظهر على وجهه العبوسة ، حتى يشهد ذلك منه جميع الحاضرين ويفتضح ، ولو أنه أجاب شيخه لكان أولى له ، فإن الأشياخ لا يمكن أن تغش أبداً إن

شاء الله . وماذا يفوت المريد إذا سمع لشيخه وصار الحق تعالى عوضاً له عن كل شيء ، وماذا حَصَّلَ من باع جلوسه في حضرة ربه عز وجل بقطعةِ جِلْدٍ دُبِغَتْ بالدم والبول ، لا تساوي في السوق درهماً إذا قطعت . فعُلِمَ أن كل من لم يعتقد في شيخه أنه أشْفَقُ عليه من نفسه ، وأنه لا يأمره قط بترك شيء إلا ليُعطيَه أنفس منه ، فصُحبتُه نفاقٌ ، ولا يمكن الشيخ أن يُطْلِعَه على سر من الأسرار التي يترقّى هو بها، ومن لم يَصْلُح أن يكون محلاً لأسرار الفقراء ، فيصير كأنَّه ما صَحِبَهم ، ولهذا يَصْحَبُ الواحدُ الشيخَ أكثر من ثلاثين سنة لا ينتفع بشيء من أخلاقه ، ومصداق ذلك أنه يخرج بعد موت شيخه يقرص في أعراض فقراء عصره ، ويقول ما تَرَكَنا شَيْخُنا نحتاج إلى أحدٍ بعده ، ونحو ذلك . وهذا دليل على استحكام المقت فيه ، إذ لو سلم منه لخضع لكل من لبس الزيق إكراماً للخرقة .

وقد وقع للشيخ عبدالرحيم القناوي رحمه الله ، أنه قام لكلبٍ وَرَدَ عليه ، فقيل له في ذلك ، فقال: انظروا ما في عنقه . فنظروا فإذا شرموط من جُبَّةٍ فقيرٍ في عنق ذلك الكلب . وقد سُئِلَ الشيخ أبو السعود الجارحي رحمه الله عن شيء من أسرار القوم ، فقال : والله ما آمَنُكُم على إخراج ريحٍ ، فكيف آمنكم على أسرار أهل الطريق . ولهذا تجد الشيخ يُلَقِّنُ العشرة آلاف نَفْسٍ وأكثر ، لا يُفلِحُ منهم واحدٌ بعده ، لعدم الصدق ، والله أعلم .

أُخِذَ علينا العهود أن نرى كل شيء ظهر من أستاذنا من النقائص ، إنما هو لنا ، لأنه مرآتنا ، ولشيخنا حال آخر من الكمال لا نعرفه ، ولو صَفَتْ مرآتُنا لعرفناه ، وكذلك لا يجوز لنا أن نرى توقف الشيخ علينا من جهله بالطريقة ، وإنما نرى توقفه علينا من فتور همتنا .

وفي كتب الطب : أن بَرْدَ الرَّحِم سببٌ في عدم الحمل ، فهكذا نَفْس المريد ، متى لم تَرَ لوعة الوجد، وحرقة الطلب ، والشوق إلى المقصود ؛ لم يتولد فيها من أستاذها فيض ، فهو مثل الوقود البارد ، لا يؤثر فيه القَبَس إلا الدخان ، كالدعاوي والرعونات الحاصلة بين القوم .

وكان سيدي علي وفاء رحمه الله يقول : لا يأمرك أستاذُك بأمرٍ ويتعذَّر عليك فِعْله ، إلا لعدم قبولك لذلك ، ونقص استعدادك . واعلم أنك على الصورة التي تشهد أستاذك عليها ، فاشهد ما شئتَ ، وانظر ماذا ترى . انتهى . فاعلم ذلك ، والله يتولى هداك » .

انتهى ما أردنا نقله من كلام الإمام الشعراوي في « البحر المورود » ، لما جَرَّ إليه من قول سيدنا :
« وقليل ونادر في هذا الزمان من يرتقي رتبة العزيمة ، ومن أتانا من هذا القليل لا نُصَدِّقُه حتى نختبره ونتحقق صِدْقَه » هـ .

قال : « وربما نسمع من أفعال أهل البلاد ما لا ينبغي ، فإنه لا يسرنا أن نسمع شيئاً مما يتعاطونه مما يُفعل داخل البلاد إلا كما كذا . ونحن معهم كامرأةٍ طلَّقَها زوجها ، وأخذ غيرها ، ومعها له ولد ، فلا بد ما تسأل عنه ويسأل عنها لأجل الولد ، ولو كان كلٌّ منهما قد أيِسَ من صاحبه ، كذلك بيننا وبينهم من التعلق كما بين المرأة المذكورة وزوجها ، من قرابةٍ وصحبةٍ وجوارٍ وغير ذلك ، فما نسأل عنهم إلا لذلك لا غير » .

قال : « ونحن مع أهل الزمان على حد قوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾، لتعرف أحوالهم في دينهم » .

قال : « ومن لم يبال بدِينه لم يبال الله به ، احفظوا هذه القاعدة » .

وتكلم يوماً – وهو عشية الإثنين ٢١ من شهر رجب من سنة ١١٢٢ – في ذم المعاصي والفضول من الكلام ، قال : « هو ما سوى ذكر أو قراءة أو أمر بمعروف أو نهي عن منكر أو نصيحة » . وهو في كلامه هذا ينهى عما ذكر بالتعريض دون التصريح ، ﴿وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَن يُنِيبُ ﴾، أعني جعل كلامه عاماً لكل من خالف هذه القاعدة المشار إليها ، في آية : ﴿لَّا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ ﴾الآية . ومراده أن يكون المؤمن متقيد بها في كلامه لا يتعداها ، فإن تعداها وقع في مأثوم الكلام والفضول واللغو ، فإن وفق الله عبداً وألهمه رشده تقيد بها ، وإلا تركه منخرطاً في سلك الشيطان هـ .

قال : « لو أن أحداً أراد أن يفعل ما يُستحيى منه وعنده طفل ؛ يخاف أن يعرف ما أراد فعله ، ويفطن له ، وبقي يتلفت يميناً وشمالاً ، فكيف بمن لا يستحيي من ملائكة كرام ، وهم معه أينما كان ، لا يفارقونه ، يحصون ما يعمل ويقول ، ولا يستحيي من خالقه ، فمن لا يعتقد أنه ثالث الإثنين ، ورابع الثلاثة ، فما معك منه إلا خير . ولو جلس جماعةٌ في محل بقدر قراءة يس ، لاشتغلوا بفضول الكلام ، ولا يحترمون القرآن ، وسواء المسجد وغيره ، ولو أنهم جعلوا لله من أوقاتهم بقدر ما جعل عليهم في أموالهم » هـ .

أقول : أي أقل الأحوال أن يفعلوا ذلك ، بأن يجعلوا عُشُرَ أوقاتهم لعبادة الله تعالى ، لا يشتغلون فيه بشيء من دنياهم وحوائجهم ، وإلا كان الأوجب أن يجعلوها كلها للعبادة .

وإذا عرضت الحاجة الضرورية قدروا لها بقدرها ، فبهذا تنحفظ أوقاتهم إذا قَدِمُوا على ربهم ، وعُرِضَت عليهم أوقاتهم كالخزائن ، فإذا رأوا الساعة التي مَرَّتْ عليهم في العبادة كالخزانة المملوة لؤلؤاً وجواهر فيَسْتَرّ لذلك سروراً عظيماً ، وهذا السرور من جملة نعيم الجنة ، وإذا نظر إلى الساعة

الفارغة التي مَرَّتْ عليه في غير طاعة أو في مباح ، فيتَحَسَّر عليها حسرة تكاد تتقطع منها كبده ، أن لو مَرَّتْ عليه في طاعة ، وأما الساعة التي مَرَّتْ عليه وهو في معصية ، فمملوة حَيَّات وعقارب فلا تسأل عما يقع عليه .

قال : « وحُكِيَ أن سليمان عليه السلام بعث عفريتاً في حاجة ، فَمَرَّ بسوقٍ قد غَصَّ من الناس ، فبقي يضحك متعجباً ، فعلم بذلك منه سليمان ، فسأله عن ذلك ، فقال : عَجِبْتُ من ناسٍ كثير يُملون الكلام ، وملائكةٍ كثير يكتبون ما يقولون » .

وذكر هذه القصة في مجلس آخر ، *وقال* : « إنه لَمَّا أرسله أرسل معه آخر ، وقال له : أخبرني بكل ما يفعل ويقول . فلما رجع معه أخبره أنه لما مر بتلك السوق طأطأ رأسه فضحك ، وقال : سبحان الله، وأنه رفع رأسه وضحك ، وقال : سبحان الله . وأنه سأله عن ذلك ، فقال : عَجِبْتُ مِن ناسٍ كثير ، من أسرع ما يُملون ، ومِن ملائكةٍ كثير ، مِن أسرع ما يكتبون .

وقد قال بعض الصالحين : لو أنهم - أي الملائكة - أخذوا من الناس بعض المداد والقرطاس الذي يكتبون به أقوالهم لأقَلُّوا من الكلام . وكان أبويزيد إذا دخل الخلاء يفرش للملائكة إحرامه عند بابه، ويقول : اجلسوا ملائكة ربي . يعني أنه كان في غاية الحياء من الله أَوَّلاً ، ثم منهم ، فإذا فارقوه في هذه اللحظة ، فرش لهم واستراح ، لعلمه أنهم فارقوه إذ ذاك ، فلو أن أحداً تكلم في الخلاء لَكَلَّفَهم الدخول عليه فيه لِكَتْبِ ما يقول . ولا لهم - أي أهل الزمان - لَذَّةٌ في ذِكْرٍ ولا صلاةٍ ولا قراءة ، ومَن كان يَشُقُّ عليه فِعْلُ المعصية ، فَفَعَلَها مرة ؛ سَهُلَت عليه بعد ذلك .

كما يُحكَى أن بعضهم كان يسير في طينٍ ووحلٍ من جانب الطريق ، رافعاً ثيابه ، يتحفظ عن السقوط وعن البلل والطين ، لئلا يصل ثيابه ، فاتفق أنه سقط ، فبعد ذلك أرخى ثيابه وسار مُرخِياً ثيابه في وسط الطين ، وجعل يبكي ، فقيل له في ذلك ، فقال : كنتُ خائفاً من السقوط فسَقَطْتُ ، فهان عليَّ ذلك . وهكذا المعاصي » هـ .

أقول : انتهى ما قاله وتكلم به في هذا المجلس المبارك المذكور تاريخه .

وقد تَقَدَّمَتْ هذه الحكاية - حكاية السقوط في الوحل - لمناسبةٍ اقتضى الحالُ ذِكْرَهَا هناك ، وذكرناها هنا أيضاً إتماماً لكلام هذا المجلس المذكور ، لأنها يصلح الإستشهاد بها لمعانٍ كثيرة ، مما يدل على النقصان من حال الكمال إلى حال الإخلال بالأكمل ، وتبدله عنه بحالة النقص على أي وجه ، من نقصان دين أو مروءة ، ظاهراً أو باطناً ، من حالة الرغبة فيهما إلى عدمها .

فلهذا تكرر لأجل الإستشهاد في ذلك مراراً كثيرة ، فتقدم ذكرها في مبحث نقصان الناس عن حال تجريد العبادة لله خالصة ، كما هو أصلها المشروعة له ، لقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝﴾ ، وما أرسل الله الرسل إلى الأمم إلا لتبليغهم ذلك ، وحثهم عليه على وجهه ، من كونها على قانون الشرع ، وكونها خالصة لله ، لا يحث على عملها إلا ذلك ، كما قال تعالى : ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾، إلى أن انقلبوا عن هذا الوضع ، كما قال : « **الأمور في هذا الزمان انقلبت عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها** » ، فصاروا يبيعون العبادة بالأطماع الدنيوية . وأي نقص أعظم وأشنع في النزول من أعلى عليين إلى أسفل السافلين من هذا ، فينادى عليه : الغوث الغوث .

وحين ابتدأ بالناس هذا الفساد الشنيع قد أُنكِرَ واستُنكِر ، وكانوا يتوقفون عنه ويخافون منه ، وتشمئز قلوبهم من التعرض له ، حتى استمر بهم ذلك ، وتكرر عليهم ومَرَّتْ عليهم فيه الدهور والأعصار ، فألِفُوه ولا استنكروه ، ولا خافوا من عاقبته ولا خطر في قلوبهم إستنكافٌ من ذلك ، بل رأوه الأحسن والأولى . وهذا مثل الذي كان يتحفظ ، فوقع ، فما تَحَفَّظَ بعد ذلك ، وهذا شاهد الحكاية.

وكذلك لما نقصوا عن المروة المحبوبة شرعاً وطبعاً فعلها والمعاملة بها ، ونزلوا من أَوْجِهَا إلى حضيض اللآمة والرذالة ، حَسُنَ الإستشهاد بها لذلك ، حيث استنكروه من أنفسهم أوّلاً ثم ألِفُوه، وكذلك هنا لما قال : « **ومن كان يشق عليه فعل المعصية** » ، ناسب ذكرها استشهاداً بها ، ولعلها تأتي كلها فيما بعد لمعانٍ تقتضيها ، أو يشار إليها للإستشهاد بها لذلك . وفي كلها يصدق عليه قوله : « **الأمور في هذا الزمان انقلبت عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها** » . فاعلم من هذا أن كلامه كُلّيَّاتٌ، يشتملُ على معانٍ كثيرة ، من مدده من جَدِّه الذي أوتِيَ جوامع الكلم .

وقوله : « **فمن لا يعتقد** » ، إلى قوله : « **فما معك منه إلا خير** » ، يعني فما معك منه خير . لأنه مرة قال : « **لا تقل ما في أهل هذا الزمان خير ، ولكن قل ما فيهم إلا خير ، لأن هذه الكلمة تؤدي المعنى الذي أَرَدْتَهُ من غير ذمٍّ للمسلمين ، لأن معهم كلمة : لا إله إلا الله محمد رسول الله ، وهي الخير كله** » .

وقوله : « **تؤدي المعنى** » ، يعني كلمة : « **ما فيهم إلا خير** » ، تؤدي معنى : ما فيهم خير ، وتَسْلَمُ بذلك من ذَمِّهِم ، كرامةً لهذه الكلمة الشريفة ، التي سَلِمَ بسبب بركتها المنافق في الدنيا مِن سَفْكِ دمه، وأخذِ أمواله ، واسترقاق أولاده ونسائه ، فَيَسْلَمُ عِرْضُ هؤلاء أيضاً بسبب بركتها من الذم واللوم ، هذا في الدنيا ، لأن أحكامها الظاهرة إنما هي في الدنيا ، ومعناها الباطن من الإقرار بالوحدانية وصحة الإيمان من أمور الآخرة ، فينفع ذلك في الآخرة .

والمنافق لـمّا خلا باطنه من معناها المذكور ما انتفع في الآخرة ، بل صار في الدرك الأسفل من النار،

لتلبيسه بتشبيه نَفْسه بالمؤمنين في الظاهر ، مع خُلُوِّ قلبه من معناها في الباطن ، فالأعمال الحسية البدنية الشرعية دنيوية ، والأمور الباطنة القلبية أخروية ، وتلك جَسَدُ هذه ، وهذه روحُها .

فمرادك من الخير المنفي عنهم قيامهم بحقوقها وأحكامها وكمالها من كل الوجوه ، وأقل ذلك أن ينتهوا عن كل المحرمات ، ويقوموا بكل الواجبات ، وهم ليسوا كذلك ، بل مُخِلِّينَ بها وبإخلاصها ، فإنَّ مِن إخلاصها أن تَحْجُزَهُ عن محارم الله ، فلما كانوا مخلين بها من هذه الحيثية ، كان قولك : ما فيهم خير صدقاً . ومرادك بالخير كمال معانيها وحقوقها ، وهذا هو مرادك من نفيك الخير عنهم ، أي نفي أن يكونوا فيها على أكمل وجه ، فإنهم ليسوا كذلك ، وكان جزاؤهم على ذلك الإخلال ثابتاً لهم في الآخرة ، لكن حيث هو في الأركان ، أعني الأعضاء الظاهرة من ترك أمر أو ارتكاب نهي دون الإيمان، فإنه ثابت في محله « القلب » ، كان ذلك في محل إمكان العفو ، وإن عوقب عليه فبلا خلود ، لأن الله سبحانه لا ينظر إلى الصور والأعمال ، وإنما ينظر إلى القلوب .

وأما المنافق فإنه وإن انتفع بها ذلك الإنتفاع المذكور ، فإنما هو في الدنيا ، لأن ظاهر أعمال أركان الإسلام من الدنيا ، وإن كانت عبادة ، فإن جزاءها في الآخرة متوقفٌ على صحة الإيمان ، فهي حسية دنيوية ، لقوله ﷺ : « حُبِّبَ إليَّ من دنياكم النساء والطيب ، وجُعِلَت قرة عيني في الصلاة » .

فجعل الصلاة من الدنيا ، ولـمَّا كان باطن المنافق - أعني القلب الذي هو محل الإيمان - فارغاً منه ، استحق جزاء الخلود في النار ، وما نفعه في الآخرة ما تشبث به في الدنيا ، وكونه في الدرك الأسفل زيادة في نكاله ، لتلبيسه وتشبهه بالمؤمنين كذباً وزوراً ، فثبت بتقصير المسلمين عن كمال أداء حقوقها نفي كمال الخير المذكور عنهم ، وهو القيام بأحكامها على أكمل وجه ، إذ هم ليسوا كذلك ، لكن لكرامتها لا ينبغي أن يُصَرِّحَ فيهم بذلك ، بل يَسْتُرُ لفظه وإن قصد معناه ، وهو من الأدب الكامل والإستعارة الوافية ، والتورية الحسنة والكلام البديع والأسلوب العجيب .

وهذا وأمثاله مما خصه من الوراثة المحمدية من جوامع الكلم في الألفاظ والمعاني البديعة ، وأسرارها الكامنة فيها ، وقد أُشِيرَ إلى ذلك في مواضع تَقَدَّمَت ومواضع ستأتي ، وأيضاً إطلاق تلك الكلمة ، والكلمة الأخرى المؤدية معناها جرياً على الأغلب الأكثر ، لأن من توسعات اللغة أن يُطلَق على الأكثر حُكْمُ الكل ، كما قال النبي ﷺ : « أبو الجهم لا يضع عصاه عن عاتقه » ، يعني في أكثر الأوقات .

وبسبب اختلافهم في معنى ذلك ، اختلف فتوى الإمامين مالك والشافعي رضي الله عنهما في حكاية القُمْرِي ، في وقوع الطلاق وعدمه ، وذلك أن رجلاً باع قُمْرِياً على آخر - وإنما يراد ذلك الطير لحسن صوته - والطير لا بد له في الليل من الهدوء والسكون ، فَرَدَّهُ المشتري وقال : « قُمرِيُّكَ قليلُ

الصوت » ، فسبق لسانه مع غفلة قلبه ، وحلف له بالطلاق أنه لا يهدأ من الصوت ، ثم تذكر متأسفاً، واستفتى الإمام مالك عن حكم طلاقه ، فأفتاه بوقوع الطلاق ، وقال له : « طَلُقَت امرأتك ، فلا سبيل لك عليها » ، لعلمه أنه لا بد أن يهدأ ، وقد حلف أنه لا يهدأ . ثم بعد هذه الفتوى سأل الإمام الشافعي عن حكم ذلك ، فسأل المشتري : « أيها أكثر صياحه أم سكوته » ، فقال : « بل صياحه أكثر » ، فقال للبائع : « امْسِكْ عليك امرأتك » ، وأفتاه بعدم وقوع الطلاق ، فأُعلِمَ الإمامُ مالك ، فدعا الإمام الشافعي وقال له : « ما حملك على فتواك بعدم الطلاق ؟ » .

فقال : « لأني سألتُه أيها أكثر صياحه أم سكوته ، فذكر أن صياحه كان أكثر ، وقد حَدَّثْتَني أنتَ فقلتَ : حدثني ربيعة بن عبدالرحمن عن نافع عن ابن عمر ، أن هند بنت عتبة استأذَنَتْ النبي ﷺ وقالت : يا رسول الله قد خطبني رجلان ، أبو الجهم وأبوسفيان ، فأيهما تشير عليَّ به . فقال لها : أما أبوسفيان فصعلوك ، لا يجد شيئاً ، وأما أبو الجهم فإنه لا يضع عصاه عن عاتقه . فقد قال النبي ﷺ ذلك ، وهو عالمٌ بأنه لا بد أن يضع عصاه حين ينام وغير ذلك ، ولكنه عَلِمَ أنَّ حَمْلَه لها أكثر ، فجعله كالدائم » ، فلما علم الإمام مالك بجودة مَنْزَعِه وبديع مأخذه ، أعجبه ذلك وأخذ به ، ورجع عن فتواه، ونَصَّبَهُ مُفتياً .

فافهم أنت ، يا مَن يفهم مِن كلام سيدنا أيضاً في هذا معنى دقيقاً ، يتحقق لك به أن ما ذلك إلا من أسرار الوراثة النبوية ، أعني من صحة إطلاق الأكثر على الكل ، ومن صِدْقِ معنى قوله : « **الأمور في هذا الزمان انقلبت عن أوضاعها ورجعت إلى أضدادها** » ، وغير ذلك من كلامه البديع . فترى هذا المعنى من كلامه كيف ظهر الآن في معانٍ كثيرة ، في وجوهٍ شتَّى ، من جملتها انقلاب الأمور في العلماء، كما فهمت من قصة الإمامَين المذكورَين ، كيف رجع الأكبر منهما لفتوى الأصغر ، فلو خالف تلميذٌ شيخَهُ في مسألةٍ من علماء وقتك ؛ لأبغضه مدى الدهر ، ولو هو على صواب ، وعاداه عدواة لا يقبله منها إلى الأبد ، لكن أمورهم ونياتهم في علومهم وأعمالهم مؤسَّسَة على أهوية نفوسهم ، عكس ما عليه الأولون من تأسيس أعمالهم وعلومهم على اتِّباع الحق وما يرضى به الله . وهذا معنى آخر غير ما تقدم في انقلاب الزمان إلى الضد ، من الأحسن إلى الأسوأ ، فإن كلامه كله قواعد مُطَّرِدَة كُلِّيَّة ، مؤسَّسَة على الكتاب والسنة ، كما تفهمها إذا تأملتها هـ .

قال رضي الله عنه : « من يرى عند فِعْل المأمورات والمطلوبات انبساطاً وانشراحاً ، وعند فعل خلاف ذلك يُرى اشمئزازاً وحزازةً في قلبه ، فهو الذي ينتفع بالنصيحة والموعظة » ، ثم تمثل بهذا البيت :

إِنَّـمَا تَنْجَـعُ المَوْعِظَـةُ في المـرْءِ   إِذَا كَانَ لَـهُ مِـنْ قَلْبِـهِ وَاعِـظُ

قال : « **جَرَت عادة أهل العلم إذا ذَكَر أحدهم عن أحدٍ كلاماً ، يحكيه عن نفسه مما يكره ، لا يحكيه عنه بصيغةِ لفظه عن نفسه ، بأن يكون فيه ضمير المتكلم ، بل يذكره بصيغة الإخبار عن غيره ، فيأتي فيه بضمير الغائب ، كما لو حكى عن أحد الطلاق ، فيقول قال : فلان امرأته طالق . ولا يقول : قال امرأتي طالق ، وكقال فلان : هو يهودي إن فعل كذا . ولا يقول : قال أنا . وكل ما يجري هذا المجرى** » .

وقال له رجل : « إن أهل البيت ما تضرهم الدنيا ، لقوله ﷺ : اللهم اجعل رزق آل محمد قوتاً » ، يعني بقدر القوت فقط ، **فقال** : « **يحتمل أنه أراد عليه السلام من في وقته منهم خاصة ، وأما اليوم فتراك تنظر إلى أناسٍ من الأشراف تَوَسَّعُوا في الدنيا ، وتمتعوا بها غاية ما يكون ، ومَنَعوا الزكاة وأضاعوا حق الله اللازم** » .

قال : « **لا يفتقر من هو من أهل البيت إلا إن افتقر من الدين ، لأنهم مَدْعُوٌّ لهم منه عليه السلام بعدم الحاجة ، زيادةً وتأكيداً على ما ضمنه الله من الرزق العام لهم ولغيرهم ، وإذا بطلت صلاة الإمام بطلت صلاة المأموم ، لأنهم العمدة** » هـ .

أقول : أي هم العمدة في الناس على هذا ، صلاحاً وفساداً ، فإن صلحوا ؛ صلح الناس تبعاً لهم، وإذا فسدوا ؛ فسد الناس كذلك ، كما قال : « **فإذا فسد الرؤوس فسد المرؤوس** » ، فما فسد الناس الآن إلا بفسادهم ، لأنهم هم الرؤساء ، ولو لم يكن من فسادهم إلا الترفُّض من بعضهم ، ولهم في ذلك أتْبَاعٌ فسدوا بفسادهم ، وهذا يحقق ما قال في العلماء والأمراء في صلاح وفساد الدين والدنيا. وكل هذا مَبْنِيٌّ على قوله ذلك في الرؤوس ، لأنهم هم الرؤساء حقيقة ، وعلماؤهم وأمراؤهم هم أحق بالرئاسة من علماء ورؤساء غيرهم ، وهذا الفساد في قليل منهم وصالحهم هو الأكثر . والمرجو من فضل الله أن لا يموت هذا القليل ، حتى يلتحق بالأكثر منهم ، ويموت على المذهب الحق مذهب الفرقة الناجية .

وقد جُرِّبَ ذلك كثيراً في كثير منهم ، أنه لا يموت إلا على المذهب الحق ، والحالة المرضية عند الله تعالى ،كما حكى لي رجل من السادة الشيعة ، وكان أبوه رئيساً مشهوراً عند الشيعة ، ويسمِّي حمولته : آل الحكيم ، وله عندهم منصب وصيت ، قال : « لما حَضَرَت والدي الوفاة ، كتب وصيته بيده ووضعها تحت رأسه ، وقال : لا تفتحوها إلا إذا مت . فلما مات فتحناها ، فإذا فيها : أُشهِدُ الله وملائكته ، ومن رأى وصيتي أني ما مِتُّ إلا على مذهب أهل السنة ، فلا يتولاني أحد من الشيعة ، لا أولادي ولا غيرهم ، ولا يتولى أمري إلا أهل السنة » ، قال : « وحضر وفاته رجل من أهل السنة من آل مُلّا من أهل الكوت ، وكان جاء إليه عايداً » . قال : « وأردنا نخفي ذلك ونتولى أمره ، فلمح ذلك

الرجل ورقة الوصية ، واطَّلَع على ما فيها ، ثم اختطفها من يد أحدنا وقرأها ، وتحقق مضمونها، فصاح في الفريق بأهل السنة ، فجاؤوا وانتزعوه من أيدينا ، وتولوا أمره دوننا ، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه، ودفنوه في مقبرتهم » ، فهذه وغيرها كثير لا يحصى ، منهم وممن كتبه الله من أهل السعادة .

ورأيت في بعض الكتب أن رجلاً من بلاد الروم حج وزار وجاور في المدينة ، فاصطحب مع رجل من السادة بني حسين ، فقال له رجل من أهل المدينة : « إن صاحبك هذا رافضي ، يبغض ساداتنا أبابكر وعمر رضي الله عنهما » . فأضمر له العداوة وعزم على قتله وفعل له سكين لها وجهان ، وطلب له فرصة لذلك ، فاتفق أن قال له الحسيني : « امض بنا في فسحة إلى قباء » .

فمضى معه وهو عازم على ذلك ، فنام الحسيني ، واغتنم نومته ، فأتى إليه بسكينه وأهوى بها إلى حلقه أو بطنه ، فإذا رجل قابض بيده وشَدَّها ، وقال : « ما لك ولهذا الرجل تريد قتله ؟ » ، فقال : « قيل لي أنه يبغض أبابكر وعمر » ، فقال له : « هذان هما أبوبكر وعمر » ، فالتفت برأسه وإذا به يرى رَجُلَين جالِسَين قبالته ، فقال أحدهما له : « نعم أنا أبوبكر ، وقد أَبَحْتُهُ ما تكلم فيَّ ، كرامةً لِجَدِّه » ، وقال الآخر : « نعم أنا عمر ، وقد أَبَحْتُهُ بما تكلم به فيَّ ، كرامةً لِجَدِّه » ، فانتبه الرجل الحسيني من نومه، فرآه قائماً عنده والسكين في يده ، فقال له : « ما لك ؟ » ، فقال : « عَزَمْتُ على قتلك ، لما قيل لي أنك تبغض أبابكر وعمر ، فلما أهوَيْتُ إليك بالسكين ، وإذا رجل قابض بيدي ، وقال : ما حملك على قتل هذا الرجل ؟ قلت : قيل لي أنه يبغض أبابكر وعمر ، فقال : هما هذان أبوبكر وعمر ، فاسألهما . فالتَفَتُّ فإذا بي أرى رَجُلَين جالسَين ، فقال لي أحدهما : نعم أنا أبوبكر ، وقد أبحته ما قال فيَّ ، كرامةً لجده ، وقال الآخر : نعم أنا عمر ، وقد أبحته ما قال فيَّ ، كرامة لجده » ، فقال الحسيني : « وأنت رأيتهما بعينيك ؟» ، فقال : « نعم ، إي والله » ، فبكى الحسيني بكاء كثيراً ، ثم قال : « أنا أُشهِدُ اللهَ وأُشهِدُك أني تائبٌ من ذلك المذهب ، ومتبع مذهب أهل السنة » .

فتاب توبة حسنة ، تقبل الله ذلك منا ومنه .

ومثل ذلك وقائع كثيرة تدل على أن من صح نسبه إلى أهل بيت رسول الله ، أنه لا يموت إلا على الوجه الذي يحبه الله هـ .

قال رضي الله عنه : « إذا لم تعلم ما عمل الإنسان ، فاعرف جزاءه تعرف به عمله ، إذ الجزاء من جنس العمل » .

قال : « الضلال والهداية من الله تعالى ، لكنه يُضِلُّ على أيدي الشياطين ، ويهدي على أيدي الأنبياء،

فإذا كان الإنسان سائراً على السيرة السوية ، فعرض له الشيطان وقال له : تعال من هنا . فإن كان له تمييز وأراد تعالى ثباته ، قال له : لا أتبعك ، فإني أعرف الطريق وقد مارستها . ومن أراد إضلاله امتثل ما أمره به الشيطان » هـ .

أقول : اعلم أن الله سبحانه جعل للخير أسباباً يتوصل إليه بها ، كالسُّلَّم والدرجة في الرُّقِي إلى السطح ، وجعل للشر أسباباً توصل إليه ، لكنه سبحانه لم يجعل ذلك مطلقاً قط حتى قَيَّدَهُ بمشيئته ، فلا يقع خير بسببه ولا شر بسببه إلا إن شاء ذلك ، وإذا شاءه فقد قَيَّدَهُ بوقتٍ لا يتعداه ولا يكون قبله، فإذا ثبتت المشيئة وحضر الوقت وحصل فيه السبب حصل في الحال ، فإذا لم توافق المشيئة لا تفيد فيه الأسباب .

وكذا إن وافَقَتْ ولا حضر الوقت المؤقَّت لها ، كما قال سيدنا : « **الأشياء بأوقاتها لا بأسبابها** » ، فإنا نرى الأسباب تقع ولا تقع المسببات ، فإذا حضر الوقت حضرت ، ثم إن الله سبحانه أمر وحث ورسوله كذلك على فعل أسباب الخير ، لعل أن توافق المشيئة بذلك وحضر وقته فيحصل ، وشدد الله سبحانه ورسوله كذلك في تجنب أسباب الشر ، خوفاً أن يوافق ذلك ، فيقع هذا ما يلزم العبد المؤمن ، وهو الحزم المطلوب من العبد ، فإذا أراد الله أمراً وقع ، وإذا وقع القدر ما ينفع الحذر .

لكنه إذا وقع به مع تجنب أسبابه ، ثم رَضِيَ وسَلَّمَ للقضاء كان خيراً له ومأجوراً عليه ، لقول النبي ﷺ - كما ذكره سيدنا في الدعوة التامة - : « ما يصيب المؤمن مِن هَمٍّ ولا غَمٍّ ، ولا نَصَبٍ ولا وَصَبٍ ولا حزن ولا أذى ، حتى الشوكة يُشاكها إلا كفَّر الله بها من خطاياه » ، وقال عليه السلام : « إن عظم الجزاء مع عظم البلاء » ، وقال عليه السلام : « يؤتى بأهل البلاء يوم القيامة ، فلا يُنصب لهم ميزان ، ولا يُنشر لهم ديوان ، ويُصب الأجر عليهم صَبًّا بغير حساب ، ويفرغ لهم إفراغاً .. الحديث » ، وقال عليه السلام : « لا يبرح البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وما عليه خطيئة » ، وقال عليه السلام : « إذا أحب الله عبداً ، وأراد أن يُصافِيه ، صَبَّ عليه البلاء صَبًّا وسَحَّهُ سحًّا ، فإذا دعا العبد قال : لبيك عبدي ، لا تسألني شيئاً إلا أعطيتُك ، إما أن أُعَجِّلَه لك وإما أن أَدَّخِرَه لك » ، انتهى . وورد : « إذا أحب الله عبداً ابتلاه ، فإن صبر اجتباه ، فإن رضي اصطفاه » ، أو كما قال . وورد : « ما أصاب المؤمن من شيء إلا كان خيراً له ، فإن أصابته سَرَّاء فشكر كان خيراً له ، وإن أصابته ضَرَّاء فرضي وصبر كان خيراً له » ، والدليل على المعنى الذي قَدَّمْنا من كون الأشياء موقوفة على المشيئة ، أن إبليس ما نفعته عبادته ثمانين ألف سنة ، والعبادة سبب للخير ، وأن آدم ما ضَرَّته معصيته ، والمعصية سبب الشر ، ولذلك سبحان أمرهما خاص بالله ، لا للخلق فيهما مدخل قط ، بل هما مختصان بالمشيئة من الله ، وهما الإسعاد والإشقاء ، وبحسبهما عمل جميع الخلق ، وهو الهداية والإضلال .

قوله : « **يهدي على أيدي الأنبياء** » ، أي جعلهم الله أسباباً للهداية ، يهدي الله بهم من يشاء ، فمن هدى الله منهم اهتدى ، وكان ذلك حجة له في الدنيا والآخرة .

وقوله : « **ويضل على أيدي الشياطين** » ،أي من أراد الله سبحانه إضلاله ، أمَالَ قلبَه عن اتباع الأنبياء – الذي هو الهداية – إلى اتباع الشياطين ، الذي هو الإضلال والغواية ، فجعل كُلًّا من الفريقين، الأنبياء دعاة إلى الخير ، والشياطين دعاة إلى الشر ، كذا في الدنيا . ثم جعل مصير كلٍّ من الداعي ومَن أجابه إلى داره التي أعدها لهم ، ووعد كلًّا منهما بملئها من أهلها ، وهذا المعنى يشمله معنى الحديث القدسي المتقدم عن رسول الله ﷺ عن الله سبحانه ، أنه قال : « لا إله إلا أنا ، خَلَقْتُ الخير وخَلَقْتُ له أهلاً ، وأجْرَيْتُ الخير على أيديهم ، فَبِهِ يعملون ، وخلقتُ الشر وخلقتُ له أهلاً ، وأجْرَيْتُ الشر على أيديهم ، فبه يعملون ، فطوبى لمن خَلَقْتُهُ للخير وأجريت الخير على يديه ، وويلٌ لمن خلقتُه للشر وأجريتُ الشر على يديه ، وويلٌ ثم ويلٌ لمن قد قال : لِمَ كذا ، وليت كذا » . تم الحديث . والشر يشمل الكفر والظلم والمعصية من المسلم ، فلكل منهما من الويل بقدره ، فللكافر الخلود في النار ، وللظالم والعاصي إن لم يعف الله عنهما بقدر ما يقهرهما لدخول الجنة .

قالوا : الشيطان عبارة عن الداعي الذي في النفس ، يدعوه إلى ما يكره الله ، وهو من جملة دواعي النفس وشهواتها ، لحديث : « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم » ، فالنفس أقوى جنود الشيطان ، ولذلك قيل :

تَــوَقَّ نَفْسَــكَ لا تَأْمَــنْ غَوَائِلَهَــا فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِينَ شَيْطَانَا

قوله : « **قال له : لا أتبعك** » ، أي يقول في نفسه لنفسه عند عروض ذلك الداعي الذي يدعوه إلى ما يكره الله ، إن هذا هو باطلٌ يُغضِبُ الله تعالى ويُعاقِبُ عليه ، فما لي وللتعرض له لا أفعله ولا أتبعك عليه ، وهو مخالفٌ لطريق الحق الذي يرضي الله ، فإن ثَبَّتَهُ الله ، تَثَبَّتَ وتبع الحق وترك الباطل ، وهو معنى اجتذاب الملائكة للعبد من أيدي الشياطين ، من أسفل سافلين إلى أعلى عليين ، المتقدم ذكره كما أشار إليه ، وذلك بتسليط دواعي الحق في القلب ، حتى غَلَبَتْ دواعي النفس والشيطان .

وقوله : « **ومن أراد إضلاله امْتَثَلَ ما أمره به الشيطان** » ، أي ومن خذله الله ومنع عنه تلك الداعية الرحمانية ، وسَلَّطَ عليه تلك الداعية الشيطانية النفسانية ، فجذبته إلى مقتضاها ، وهو معنى اجتذاب الشياطين للعبد إلى أسفل سافلين ، كما تقدم وعلى ما أشار إليه أيضاً . وكون ذلك هو خواطر النفس دل عليه قوله ﷺ : « من تصدق بصدقة فقد فَكَّ لِحْيَيْ سبعين شيطاناً » ، فقال سيدنا : « **هي خواطر النفس المثَبِّطَة له** » ، ففهم أن ذلك هنا كذلك ، وإن جاء ذلك في مثل ذلك فهو كذلك ، فافهم .

فإن الآيات والأحاديث يفسر ويشرح بعضها بعضاً ، ولا تكن كحمار الروض ، لا يعرف إلا اللفظ دون المعنى . فانظر إلى قوله تعالى : ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾، ثم قال تعالى : ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ﴾، الضمير يعود إلى لفظ القرآن المذكور ، وقوله : ﴿فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، أَفْهَمَ أنها في رمضان . وكثير من الآيات يذكر تفسيرها بعدها ، كقوله تعالى : ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ۞ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا ۞﴾، هو معنى ﴿دَحَىٰهَآ﴾ ، وقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا﴾، ثم فَسَّرَهُ : ﴿إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ۞ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ۞﴾، وهو معنى الهلوع . وغير ذلك كثير من الآيات .

ومعنى قول الحديث : « حتى يفك لحيي سبعين » ، كلٌّ منهم كاظمٌ بفمه على يده ليطبقها حتى لا تنفتح بالصدقة ، فإذا خالف تلك الخواطر المُعَبَّر عنها بالسبعين شيطاناً ، فقد اتَّبَعَ أمر الله وخالف أمر الشيطان ، وعمل بقول الله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا﴾ ، أي عادوه بمخالفته عما يدعوكم إليه من مخالفة أمر الله ، من دعائه لكم إلى فعل الشر ، وما يُثَبِّطكم به عن فعل الخير ، كتلك الخواطر . وكذلك تكونون إذ ذاك عاملين بقوله تعالى:﴿ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ﴾ ، أي يخوفكم بالفقر لِيُشَحِّحَ نفوسكم من أن تسمح بالتصدق لوجه الله ، إمتثالاً لأمره ورغبةً في ثوابه ، ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا﴾، يعني يأمركم بالمعروف والصدقة ، ويعدكم عليه مغفرة وفضلاً، عكس ما يدعو إليه الشيطان ويعد عليه . فعلم من هذا أن كل ما يدعو إليه الشيطان ويعد عليه أنه بخلاف ما يدعو الله إليه ويعد به ، فيجب مخالفته . ومن ذلك قوله تعالى : ﴿إِن تُقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾، فإن الله سبحانه قد أعطاكم مالاً واستقرضكم منه ، ليدخره نفعاً لكم عنده إذا لقيتموه .

وكذلك ما ادَّخر لكم في إنظار المعسر ، فإنه وعدكم على لسان نبيه ، أنه يكون لكم عنده كل يوم بمثله صدقة ، وأي تجارة أعظم من هذه ، والعجب العجيب أن العشر بالحسنة الواحدة ، وثمانية عشر القرض . وما ذكر في الإنظار وثواب الصوم الذي قال : « هو لي وأنا أجزي به » ، وما وعد في قضاء حاجة المسلم في الله ، من السبعة آلاف سنة قيام ليلها وصوم نهارها ، أن كل ذلك فضل من الله سبحانه، تفضل به على عبده ، لا سبيل للشيطان إليه في إبطاله ، ولا للخصوم فيه حق ولا مطالبة في ذلك ، وإنما مطالبتهم له في كسبه ، كالحسنة الواحدة التي عملها دون العشر التي هي فضل من الله ، ولو بقيت لهم حقوق عليه لا يعطون منها ، بل تكون مدخرة له عند الله . وكذلك في الحسنة التي تضاعف من عشر إلى سبعين إلى سبعمائة إلى أضعاف كثيرة ، إنما طلبهم في تلك الواحدة التي عملها . كذا ذكره المفسرون كالثعالبي والبغوي وغيرهما ، عند قوله تعالى في آخر سورة النمل : ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا وَهُم مِّن فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ ءَامِنُونَ ۞﴾، يعني ومن جملة الفزع خوفهم من مطالبة الخصوم في الأعمال، فهم آمنون من ذلك في ما هو من فضل الله خاصة ، لا لهم فيه دعوى ، وإنما دعواهم في أعمالهم التي

عملوها ، كالواحدة من العَشر دون ما فوقها من العشر ، والسبعين والسبعمائة ، والأضعاف الكثيرة ، وكل ما ذكرناه . فافهم هذه الفائدة التي تستحق أن تُضرب لها أكباد الإبل .

وذِكْرُ عدد السبعين في الحديث ليس بقيد ، بل معناه في أن الموانع عن الخير كثيرة ، وأن الدواعي إلى الشر كثيرة ، كما في قوله تعالى : ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، يعني ولو استغفرت لذلك المنافق مع جملة المنافقين استغفاراً كثيراً ، فلن يغفر الله لهم ، كما في آية : ﴿سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾، وكما قال ﷺ : « لو أعْلَمُ أني لو زِدْتُ على السبعين يغفر الله لهم لزدت عليها » ، فدل كل ذلك على أن لفظ السبعين ليس مقيد ، وإنما هو للتكثير . والآية الأولى: ﴿إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾الآية ، نزلت في حق كبير المنافقين ابن أُبَي ، وهو الذي تولى من الإفك كِبْرَه ، يعني هو أول من تكلم به لِخُبْثِ قلبه ، فتكلم الناس فيه تبعاً له ، وكان ابنه عبدالله من الصادقين ومن أهل بدر ، فطلب من النبي ﷺ أن يعطيه من ثيابه لِيُكَفِّنَه فيه ، فأعطاه قميصه ، وأن يضطجع في قبره ، فاضطجع فيه ، وأن يصلي عليه ، فصلى عليه ، كل ذلك جبراً لخاطره ، فلما تقدم للصلاة جَرَّ سيدُنا عمر طرفَ ثوبه وقال : « أتصلي عليه وقد نهاك الله عن الصلاة على المنافقين » ، قال : « أَخِّرْ عني يا عمر » ، كل ذلك جبراً لخاطر ولده ، إذ كان بتلك المنزلة ، أعني حيث كان من الصادقين ومن أهل بدر ، فحين ما سلَّم نزلت : ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا﴾.. إلى آخر الآية .

فسبحان من أسعد الولد وأشقى أباه ، وبَعَّدَ الأب عن رحمته ، وعن الخير أقصاه ، وقَرَّبَ الإبن إلى رحمته وإلى الخير أدناه هـ .

قال رضي الله عنه : « **إنه ستكون بعدنا أموراً هائلة جداً ، فاستمسكوا بخصلتين : الإنقباض والتمسك ، فاعملوا عليهما واستوصوا بهما ، ولعل أن يكون أحد يجهجه على الدين كما يجهجه على العمل . ورأينا الناس اليوم إنما همتهم الدنيا فقط ، وما يريدون من الصالحين إلا من له منهم حال ، أن يزيل عنهم بحاله ما يُنقِصُ أموالهم ، مع عدم إنفاقهم لشيءٍ في سبيل الله . ومن تأمل أحوال الأنبياء ومَن تبعهم من العلماء والصالحين في الدنيا ، عرف أنه لم يسترح فيها ويطمئن بها إلا أحمق جاهل** » هـ .

أقول : قوله : « **ستكون بعدنا .. إلخ** » ، أي من المفاسد في أمور الدين والدنيا ، من تَوَلِّي الأشرار على الأخيار ، وإيذائهم في أمور دينهم ودنياهم ، فقد وقع هذا الذي وعد به - سيما في بلاده - كما بَلَغَنا في أوراق أولاده ، فذكر لنا ابنه السيد علوي في أوراقه أموراً لا تُكيَّف ولا تدخل في البال ، وكذلك مما نرى في جهتنا وما نسمع عنه في الجهات ، وعَمَّال هي في ازدياد . وأوصى بذَيْن الخصلتين ، وما يُوَفَّقُ بهما على وجههما إلا من أسعده الله ووفقه .

وقوله : « **يجهجه** » ، أي يَذُبُّ عن الدين ، ويَحُولُ بين الظلمة وظلمهم ، وبين العصاة وعصيانهم، ولا يكون هذا إلا من أميرٍ صالحٍ ، أو من رجلٍ صالحٍ له جاه وكلام مسموع .

قوله : « **كما يجهجه على العمل** » ، وهو الزرع ، يعني يطرد عنه الطيور .

وقوله : « **الناس** » ، « ال » للإستغراق ، يعني كل الناس الأخيار والأشرار ، الكل همتهم الدنيا فقط، هذا هو كما ترى .

وقوله : « **ومن تأمل .. إلخ** » ، يعني أن أهل الخير الصادقين في اتِّباعه ، وهم آحاد من الناس ، لم يبلغوا عشر العشر ، إذا كان حالهم بخلاف ما عليه الأكثر من الناس ، فلا شك أنهم في غاية التعب معهم ، في معاشهم ومعاشرتهم ومخالطتهم ومعاملتهم . والأحمق والجاهل الذين لا يهمهم أمر دينهم وآخرتهم ، فهم مستريحون لانقطاع ذلك الهم عنهم .

قوله : « **الأنبياء ومن تبعهم** » ، فلا يستقر لهم قرار إذ لا يخلون من مُكَذِّبٍ ومعاند ، ومَن يَسِير على غير سَنَن الحق ، فيشغلهم ذلك لكونهم يريدون من الناس أن يسلكوا سبيل الحق ، ولا يحصل لهم منهم ذلك ، فلا يَقِرُّ لهم في الدنيا قرار ولا راحة خاطر ، إذ لا بد لهم من تنكيد مكذب ، وأذى من عدو أو منكر أو حاسد أو معاند ، ونحو ذلك مما يحصل منه شغل القلب والقالب ، كضيق معاش وغيره . والجاهل الذي لا يهمه أمر آخرته ، وما يرى سعادته إلا في حصول أمور الدنيا هـ .

قال رضي الله عنه : « وينبغي أن لا يُخْلِي الإنسان يده في هذا الزمان من شيء يعيش به ، إذ لا راغب في الخير ، ولا مبالي بمحتاج ، ولعدم الشكر فيه من الغني ، والصبر من الفقير ، وينبغي أن يحفظ ماله ويُحَصِّنَهُ بإخراج الزكاة » .

قال : « لا تتول إلا إذا كان عليك ، واحذر أن تتولى إذا كان لك ، فتخرج من الدين وتصير تابعاً للهوى والحظ ، بل اسأل عنه العلماء المتقين دون المتساهلين » ﻫ .

أقول : معنى هذا يتبين من فعله إذا لم يتبين من قوله ، وهذا على ما فهمت .

والمعنى : لا تتولى على يتيم له مال إلا أن يتحقق لك قطعاً أن ماله ما يكفيه سنته ، إلى أن تجيء غَلَّتُهُ ، فتجعله في جملة من تكفلهم من أهلك وعيالك ، حتى يكون ما يزيد من كفايته من مالك ، فيكون الحق له عليك ، أي ما زاد من كفايته بعد ما نقص عنه ماله عليك . ولا تعكس بأن تتولى عليه وتجعل ماله - وهو يزيد على كفايته - في جملة مصروف بيتك ، فيكون ما زاد من ماله على كفايته في مصروف بيتك ، فتزداد من ماله . وهذا معنى : إذا كان لك . والمعنى الأول معنى : إذا كان عليك .

قوله : « **اسأل عنه العلماء المتقين** » ، ما يلزم لك وله واعمل به ، وذلك أنه كان عند سيدنا ولدٌ لبعض بناته ، له من أبيه قليلٌ من المال ، أي لا يكفيه إلا نحو نصف الكفاية في الزاد والكسوة ، ويتحقق أنه يأكل من البيت أكثر من ماله ، كما سيأتي ذلك من قوله ﻫ .

قال : « قد تعلق الإمام الغزالي في آخر عمره بعلم الحديث ، حتى قال بعضهم : لو طال عمره لأرخص تلك البضاعة . وإنما تعلق به لأن مَن تَمَكَّنَ في العلم اللَّدُنِّي وتَبَحَّرَ فيه ، لا يلائمه ويطابعه إلا العلوم اللدنية كعلوم الحديث ، لأنها من عند الله على لسان رسوله » .

وسمعته غير مرة يقول : « **كان أكثر تعلق الإمام الغزالي من كتب الحديث بجامع الترمذي ، حتى رُوِيَ عنه أنه قال : من عنده جامع الترمذي فكأنما عنده نبي يتكلم** » .

قال رضي الله عنه : « عِلْمان لا نأمن متفقهة الزمان عليهما : علم الحقائق ، وعلم الخلاف بين الأئمة . وعندنا منهما كتب كثيرة ، لكنا ما نُظهرها » ﻫ .

أقول : سبب كلامه هذا ، رأيت بعض السادة طَلَبَهُ كتاب « موجبات الرحمة في اختلاف الأئمة » ، ليقابل عليه نسخة عنده منه ، فقال سيدنا له : « **أما أنت فنَعَمْ ، وأما المقابل معك فإن كان فلان أو فلان أو من هو مثله ، وإلا فلا** » ، ثم قال : « **عِلْمان لا نأمن متفقهة الزمان عليهما ..** » ، إلى قوله : « **لكنا**

ما نظهرها » .

وقوله : « **لا نأمن .. إلخ** » ، تعني لقلة تقواهم ، وضعف غرائزهم ، وقصور فَهْمِهم ، مع غلبة الهوى عليهم ، وتسارعهم إلى إنكار كلام الصالحين ، فلو اطلعوا على علم الخلاف لترخصوا لأنفسهم، وأخذوا من كل مذهب رخصة ، لقلة تقواهم ، وهذا خروج من الدين . كما ترى من المترخصين في تلك المعاملات الفاسدة ، حيث لم تصح في مذاهبهم ، وقالوا : « نحن مُقَلِّدين لمذهب أبي حنيفة »، ويكذبون على الأئمة ، فإنها ما حدثت إلا بعدهم ، ولا أحد منهم أفتى فيها بشيء قط ، وجعلوا دعواهم التقليد حُجَّةً لهم في متابعة الهوى ، لكنهم ظنوا أنهم انتفعوا بها ، وإنما هي ضرتهم في دينهم ودنياهم ، أما دينهم فإنهم اعتقدوا حِلَّها ، وقد قال النبي ﷺ : « لعن الله آكل الربا وموكله وكاتبه وشاهده » ، فقد وقعوا في لعنة الله ورسوله ، واعتقدوا حِلَّ ما حَرَمَ الله ورسوله ، وذلك كفر ، والدليل على أنه ﷺ عناها بلعنته ، أنه ما في أنواع الربا كاتب وشاهد إلا هذه .

ولقد سمعت سيدنا عبدالله الحداد نفع الله به غير مرة يقول : « **أنه سُئِلَ عنها** - أي عن مسألة بيع العهدة هناك وهو بيع التطوع هنا - **الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بافضل صاحب المختصر ، فقال : هي مسألة مظلمة ، أرجو أن الله يُقَيِّض لها من يزيلها** » . وأما ضرر دنياهم فإنها كم أَخْرَجَتْ عن أملاكٍ مُلَّاكَها ، وأفقرتهم بعد الغنى ، فأي ضرر في الدين والدنيا أعظم من هذه .

ولقد وقع فيها شبه المباهلة بيني وبين رجل يدَّعي أنه حنفي ، فيزعم حِلَّها ، فقال : « اليوم لا أنفعَ للناس منها ، ولا أحَلَّ منها » ، ويمدحها كثيراً ، وكان ذلك في مجلس بعض الأعيان ، وممن عنده سعة في الدنيا ويمدحها له ، فأنكرت عليه وقلت له : ما أتلف الله أموال أهل هذه البلاد بعد تقدير الله براً وبحراً إلا بمخالطتها لأموالهم . فقال : « إنا لله وإنا إليه راجعون ، كان لك مندوحة عن هذا الكلام ، لكني الآن عرفتُك » ، قلت : ما لي مندوحة عن هذا الكلام ، وإذا عرفتني فذاك ، وإلا عَرَّفْتُكَ بنفسي. ثم التفتُّ إلى الرجل الذي كنا في مجلسه ،وقلت له : أنصحك لوجه الله إن كنت تفعلها أن تتركها لله ، ولا تشك في حرمتها ، وإن كنت ما تفعلها فابْقَ على ما أنت عليه . وإذا هو يريد من صاحب المجلس دراهم ليحج ، فأعطاه حجة ، وسار بها إلى الحج ، فاتفق أن اختصم في بعض المنازل على الماء مع بعض البدو ، فضربوه ضرباً شديداً ، فحُمِلَ إلى رَحْلِهِ مغشياً عليه من ضربهم ، ثم في الحال مات .

وهذه وأمثالها من ترهات أهل الفساد من علماء السوء ، الذين أشار إليهم بقوله : « **ما أفسد على الناس دينهم إلا العلماء ، لكن بعد فساد دينهم** » ، فأفسدوا على الناس دينهم بإدخال هذه المسألة الخبيثة في الدين ، فأفسدوا دينهم بذلك ، ثم تعدى ذلك منهم إلى غيرهم ، فحسيبهم الله على ذلك .

فإذا أُنكِرَ على من يتعاطاه قال : « أنا مُقَلِّد الإمام أبوحنيفة » ، ولقد تجارينا الكلام مع جماعة من

الحنفية في هذه ادَّعوا صحتها في مذهب ذلك الإمام الجليل ، فقلت لهم : لا نُصدِّقكم في ذلك حتى ترونا كلامه . فبحثوا ودَوَّروا في كتبهم ، فما وجدوا له قولاً يدل على صحتها .

وأما علم الحقائق الذي قال : « **لا نأمن أهل الزمان عليه** » ، فلو اطَّلعوا عليه لقام المُدَّعون الكَذَبة يتكلمون بكلامهم ، ويَدَّعون أنهم منهم ، ممن يَدَّعي أنهم من أهل التصوف ، وكل ذلك استجلاباً للجاه والمال ، ولا يُفَرِّقون بين الحرام والحلال ، وذلك شاهدٌ ودليلٌ واضحٌ على كذبهم .

ومن لا يدَّعي الإنتساب إلى أهل التصوف ، فحين يسمع كلامهم في الحقائق ، انتدب إلى الإنكار وسوء الظن ، وتَغَيُّر العقيدة ، بل للتكفير ، حيث لم يحيطوا علماً بما سمعوا ، لعدم اتساعهم في العلم ، وقصورهم عن المعرفة ، ونقصهم عن تَسَنُّمِ ذروتها ، كما لو سمع كلام الحنفي لتلميذه لما أراد يمشي معه على الماء . فأين العقول الثابتة عند سماع مثل ذلك ، وكيف تقبله عقول الجُهَّال المُدَّعين العلم ، فلذلك لا يجوز الكلام بمثل ذلك مع العوام ، ويجب أن يخاطب كل أحد بما يقبله عقله ، فجهلهم حينئذ بهذَيْن العِلْمَيْن ، وعدم وقوفهم عليهما أَسْلَمُ وأولى ، إذ تبقى قلوبهم سالمة من تتبع الرخص والدعوى والإعتراض .

كيف ولم يحتمل كلٌّ من أهل الباطن وأهل الظاهر من الحلَّاج كلمته تلك ، حتى أفتى الفريقان بقتله ، فقُتِل . وممن أفتى بقتله الجنيد ، مع علمه بمعناه ، فلما سُئِلَ : « كيف أفتَيْتَ بقتله ، وأنتَ تعلم معنى قوله ؟ » ، فقال : « إنه فتح في الشريعة رَوْزَنَة لا يَسُدُّها إلا رأسُه » ، يعني خوفاً أن يقوم المدعون بالكذب ، القاصرون عن مقامه فيقولون كقوله ، يحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم ، فإذا علموا أنه أفتى بقتله على قوله ، وقُتل بسبب كلمته ، انزجروا وعرفوا أن ذلك ليس بالهَيِّن ، وأنه ليس التكحل في العينين كالكَحَل . وقصة موسى عليه السلام شاهدة في المعنى .

وقال الشيخ عبدالقادر الجيلاني رضي الله عنه في حق الحلاج : « لو أَدْرَكْتُهُ لَنَصَرْتُهُ » .

وكذلك في رؤيا أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه ، قال : « نِمْتُ في المسجد الأقصى ببيت المقدس ، وإذا خَلْقٌ كثيرٌ جاؤوا واصطفوا صفوفاً كثيرة ، وإذا برجل جاء بكرسي ووضعه ، ثم جاء رجل فصعد على الكرسي وجلس عليه ، وجعل أولئك الخلق يخاطبونه ، فقلت لرجل في جنبي : ما هؤلاء الخلق؟ ومَن ذاك الذي فوق الكرسي ؟ فقال : هؤلاء جملة الأنبياء والمرسلين ، مائة ألف وأربعة وعشرون ألفاً ، والذي فوق الكرسي النبي ﷺ ، جاؤوا كلهم إليه يتشفعون عنده للحسين بن منصور - وهو الحلاج - في زلة زَلَّها ، وكلمة تكلم بها ، فشفعهم وقبل شفاعتهم فيه وعفا عنه . ثم قام رجل يكلم النبي ﷺ واقفاً ، فقلت لذلك الرجل : من هذا ؟ قال : هذا موسى بن عمران ، وإذا به يقول : يا محمد ، أنتَ قلتَ علماء أمتي كأنبياء بني إسرائيل ، أَخْرِجْ لي واحداً من علماء أمتك أُكَلِّمه .

فقال النبي ﷺ : أين الغزالي ؟ فقام في الحال وقال : لبيك يا رسول الله ، قال : كلم موسى ، فجاء إلى موسى وسَلَّمَ عليه وقَبَّلَ يده ، فقال له موسى : ما اسمك ؟ قال : اسمي محمد بن محمد بن محمد الغزالي . فقال موسى : ينبغي أن يكون الجواب مطابقاً للسؤال ، وجوابك غير مطابق لسؤالي ، أنا سألتك سؤالاً واحداً ، فأجبتني بأربعة أجوبة . قال الغزالي : اعتراضك علي واردٌ عليك ، كيف أنت لمَّا سألك ربُّك ، فقال : ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ﴾، قُلتَ : ﴿هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُاْ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ﴾، فَلِمَ أجبتَه بأربعة أجوبة عن سؤالٍ واحدٍ ، وهو سبحانه أعلم منك بك وبعصاك ، فهَلَّا أجبتَه بجواب واحد ؟ فانبهر سيدنا موسى من كلامه ، فقال موسى : صَدَقْتَ يا محمد، علماء أمتك كأنبيائنا .

قال الشيخ أبو الحسن : فقلت في نفسي : النبي ﷺ مترفع على سائر الأنبياء والمرسلين فوق الكرسي ، كان ينبغي أن يجلس معهم . فإذا بالفراش الذي يفرش في المسجد ، ويعلق القناديل ، وهو عبدٌ أسودٌ كبير البراطم ، رفسني رفسة وقال : لا تعجب ، كلهم خلقوا من نوره . فانتبهت وطلبت الفراش ، وبحثت عليه فما وجدته » ، والقصة مذكورة في هذا النقل في غير هذا الموضع ، وإنما جَرَّنَا إلى ذِكْرِها قصة الحلاج ، حيث جَرَّ إليها كلام سيدنا فذكرناها هنا ، تتمة للفائدة .

وفي خزانة سيدنا عبدالله من كتب الخلاف جملة كتب ، من جملتها كتاب « موجبات الرحمة » ، ومن كتب الحقائق جملة ، منها كتاب « معراج الأرواح » لسيدي الشيخ أبي بكر بن سالم ، وكان سيدنا لا يرضى لنا نطالع فيها ، ولا نعيرها أحداً ، خوفاً مما ذُكر ، شفقةً منه علينا ، ورغبةً منه لنا في السلامة .

وقد رأيت يوماً جزءاً من الفتوحات ، من أولها ، عند أحد من الأشراف ، وأنا أعلم أن سيدنا ينهى عن مطالعتها ، وكذلك السادة المتقدمون ، حتى إن الشيخ أبابكر العيدروس صاحب عدن قال : « ما أذكر أن والدي ضربني قط إلا يوماً ، رأى في يدي جزءاً من الفتوحات ، فأخذه من يدي وضربني به في صدري ، وقال : لا قط تطالع فيه ، وطالع في الإحياء . فجعلتُ على نفسي أن أطالع كل يوم في الإحياء ، ولو ورقة أو صافحة » ، فلما رأيتُ ذلك الجزء ، حدثتني نفسي بمطالعته ، فتوقَّفْتُ عن ذلك ساعة ، ثم غلبني ما أجد ، فرفعتُه ونظرتُ في أوله ، فرأيتُ في خطبته ، قال : « الحمد لله الذي خلق الإنسان من عدم وعدمه » ، فاشرَأَبَّتْ بي نفسي وتركتُ الكتاب وما عدتُ أنظره ، وبَقِيَتْ تجول في خاطري أياماً ، وذَكَرْتُها لرفيق لي من طلبة العلم من السادة ، وقلتُ : ما الذي ظهر لك فيها ؟ قال : « ما ظهر لي شيء » .

ثم ظهر لي منها : أن معناها أنه تعالى خلق ذات الإنسان من عدم ، إذ كانت معدومة فأوجدها ، وقوله : « وعدمه » أي عدم العدم ، وهو الوجود ، إذ كان موجوداً في علم الله ، وأنه سبحانه قضى

وجوده ، أي حَكَمَ بوجوده في وقتِهِ الذي وَقَّتَهُ له ، فبهذا ظهر معناه والله أعلم .

وقوله : « **فإن كان فلان أو فلان ، أو من هو مثله وإلا فلا** » ، يعني أنه سليم الصدر ، ليس في قلبه إلتفات إلى الترخص ، ولا إلى قول الدعوى ، ولا إلى الإنكار ، فإن كان أحد مثله كذلك ، وإلا فلا . ثم إنه أعاره إياه ولا تركه يبطي عنده ، وحَثَّهُ في السرعة به ، ثم أرسل له يطلبه هـ .

قال *رضي الله عنه* : « **قال بعضهم: لم يزل الناس في الأزمان يتعلقون بالعلوم دون الأعمال ، لأن في العلم تَنَفُّساً ورئاسةً ولذةً ، والأعمال شاقة ، ومرادهم بالسؤال التنفس والتطلع على المعاني ، وإن تجرد عن العمل . ومن أوصاف الملائكة أنهم طعامهم المعارف ، ولم يكلف اللهُ الآدميَّ ما كَلَّفَه الملائكة** » .

قال في قولهم الحضرة : « **يعني الحضرة : هي أفعال الله العجيبة التي في السماوات والأرض** » .

ومرة **قال** : « **هم** – أي الملائكة – **في الخدمة ، ومن كان فيها فهو في الحضرة ، إلا إنهم درجات ، أحدٌ للخدمة ، وأحدٌ للمجالسة ، وأحدٌ للمكالمة** » .

قال في قولهم : « المشاهدة » ، **قال** : « **مشاهدة تليق بأهل الله ، لا كما يتوهمه من لا يعرف ذلك ، فيظنه مشاهدة حِسِّيَّة فهمية ، وهذا حتى الأنبياء لم يدَّعوا ذلك ، وإنما هي مشاهدة ، كما ذكرنا لبعض الأشخاص وفي بعض الأوقات لتوقف الفائدة ، وحصول الحاجة إلى ذلك ، ولكن إذا ذهبت المشاهدة بعد ذلك ، بقي اليقين موجوداً** » .

قال في شرح قصيدة الشيخ أبي بكر في « إتحاف السائل » ، عند قوله : « رجالها نِعمْ مِنْ رِجال » : « **الرجل من قهر نفسه واستولى عليها ، ونقَّاها وزكَّاها من خبائث الأخلاق ، وحَلَّاها بمكارمها ، وقطع عن قلبه علائق الأكوان ، واستقبل الحضرة الالهية بوجهه الباطن والظاهر ، فأقام القلب في مواطن التوحيد والتفريد ، وأقام القالَب في مواطن الخدمة لله تعالى ، التي هي شأن العبيد ، وهذا وصف الصوفي المحقق ، والصوفية هم الرجال الموصوفون بهذه الأوصاف** » اهـ . « إتحاف السائل »

و**قال** عند مرور ذلك في الدرس : « **لأن هذا حظ القلب والآخر حظ الجسم** » .

قال : « **أهل الدين مطمح نظرهم وسائر هومهم كلها في أمر الدين ، وغافلون عن أمور الدنيا ، ومن لم يكن غافلاً عنها تَغَافَلَ . وأما أهل الغفلة فمطمح نظرهم وهمتهم وأفكارهم في أمور الدنيا ، وإن فعلوا شيئاً ، ودَبَّروه وظنوه من الدين ، فما هو إلا من أمور الدنيا ، فيرجع جميع ما يتعاطونه من أمور الدنيا** » .

ومر علينا في القراءة في « النصائح » حديث : « والذي نفسي بيده ما رَفَعْتُ قَدَمَيَّ فظننتُ أني أضعها حتى أُقبَض .. الحديث » ، **قال** : « **هذه حال الأنبياء ، لا يقدر عليها أحد غيرهم ، ولو حَصَلَتْ لغيرهم لاشتغل عن نفسه وعن معاشه ، والأنبياء عليهم الصلاة والسلام لهم حال ، ولنبينا ﷺ حال ، وكل الناس من الصحابة ومن قرب منهم قِصار الأمل ، لكون الدين حينئذ طري ، والقرآن حين أنزل، وأما الآن فقد اندرس ذلك ، وصار الناس في طور آخر** » .

ومرّ في ذلك الكتاب أيضاً قوله : « **ثم إن الغفلة عن الآخرة بالكلية إقبالاً على الدنيا واشتغالاتها، قد يكون سببه الأمل كما ذكرنا ، وقد يكون سببه شكاً في الآخرة ، وهذا الشك هو المصادم لليقين ، لا المصادم للإيمان** » ، أي المناقض لهما .

قال : « **ولا يبعد ذلك مع وجود أصل الإيمان ، فإن غلبة الجهل قد تؤدي إلى ذلك ، بأن يجوز بأدنى شيء يعرض له ما يناقض الإيمان ، ويبقى متردداً في صحته وعدمها** » هـ .

أقول : هذا قد يكون ذلك من عوام تلك الجهة ، فإن جهلهم جهل مفرط متعدي الحد ، حتى إنهم لا يعرفون الصلاة ولا يتعاطونها ، ولا يهمهم شأنها ، ولا يرون بأساً في تركها ، وعدم فعلها. فأين هؤلاء من صحة الإيمان ، وإنما يقولون لا إله إلا الله كما يقولها المنافق ، ولا يحتفلون بها ولا بأحكامها هـ .

قال : « **ما كان من أمور الدنيا لا تَتَعَلَّقْ به ، واتْرُكْهُ لغيرك من خادم ونحوه ، واشتَغِلْ أنت بأمور الدين . والأمور الإلهية وأمور السماء ملكوتية ، وإن كان فيها مُلْك ، لأنها أَلَّا من قول كُنْ ، وإن كان فيها مثل أنهار وغيرها من أمور الملك ، وإنما هذه الأرض العليا منهن ملك ، وما فيها كله من مُلكِيٌّ ، مِن الحرث وغيره ، وفيها الإحتياج إلى كثرة الأكل والمعاش ، وما أسفل منها اللي يحتاجون إلا إلى قليل كالجن** » .

وأمرني أن أنشد بعد الراتب وذلك ليلة الخميس ١٦ قعدة سنة ١١٢٩ ، فأنشَدتُ قصيدته الجيمية: « **الناس في ضيق وفي حرج** » ، إلى أن قال :

يَا رَبُّ تِلْكَ مَسَائِلٌ نُظِمَتْ لِعَبْدِ سُوءٍ بِمَنْطِقٍ لَهِجِ

فلما فرغتُ ، إلتفتَ إليَّ **وقال** : « **اللسان الآن غير اللسان في ذلك الوقت ، فيختلف اللسان ، وإن كان اللسان الحسي واحداً ، فلسان الحال ولسان الوقت ولسان الداعي وأمثال ذلك ، فربما نتكلم في البداية بكلام وفي النهاية بكلام آخر ، وربما يتكلم في وقت بكلام يستحسنه ، ثم يكرهه في وقت آخر ،**

وربما أنكره ، كل ذلك لاختلاف الألسنة » ، أي المتقدم ذِكْرها .

وأُنشِدَ بين يديه بقصيدته : « يا جيرة الحي عليكم سلام » ، فقال : « هذا ومثله من نداء النفس للروح وخطابها معه ، ويفعل ذلك المُتَغَزِّلُ لحصول النظم ، ويذكر نَعمان ، وهو المكان الذي أخذ الله فيه العهد على بني آدم ، ليصرف وَهْمَ السامع عن ظن كون ذلك في الحضرة الإلهية أو النبوية ، وهو دون ذلك ، أو البيت ، وهو دونه ، لتنزهها عما يوهمه الغزل » .

ومرة قال : « إنَّ قصد المتغزل في غَزَلِهِ لا يعرفه إلا هو ، فهو أعرف بما قصد ، والغَزَل للشِّعْرِ كالأساس للبناء ، يُبنى عليه الشعر » .

وأُنشِدَ يوماً بين يدي سيدنا بقصيدته : « سقى الله ربعاً حَلَّ فيه الذي أهوى » ، ثم بعد الإنشاد قُدِّمَ طعامٌ ، وذلك بمسجده في السبير ، فقال حينئذ : « ما يكون الرجل عندهم رجلاً حتى يكون فيه من كل جزء من أجزاء الإنسانية نصيب ، وينقص منه جزء من كل جزء من أجزاء النفس ، ويختلف الناس في ذلك ، كُلٌّ على حسب مرتبته ومنزلته عند الله تعالى ، فالأولياء في ذلك مختلفون ، حتى ينتهي إلى مرتبة القطب ، فهو أكمل في ذلك من غيره ، ولا أحد استوفى من ذلك أكثر من النبي ﷺ ، وكلما صارت الغلبة للأعمال الروحانية انغمرت فيها أمور النفس حتى يتوهم فقدها ثَمَّ » . أي وليست مفقودة ، أو كما قال نفع الله به .

وقال عند قوله في الرائية :

نُوَحِّدُهُ سُبْحَانَهُ وَهْوَ وَاحِدٌ   تَقَدَّسَ عَنْ مِثْلٍ لَهُ وَمُنَاظِرِ

« أي إنه واحد من قبل توحيدنا ، لا أنه به صار واحداً » .

ومَرَّ في الدرس في « المكاتبات » وصيته لبعض المحبين قوله : « وقم له في ظلام الليل مجتهداً ، وسارع في مرضاته أكثر من مسارعتك إلى ما فيه أجلّ حظك » ، فقال عند ذلك : « لو أردنا اليوم نتكلم مثل هذا ، لم نقدر عليه ، وكان الناس ناس يناسب هذا لهم ، ولا يستخرج مثل هذا الكلام إلا الناس، وقد له نحو ستين سنة ، ولكن قست القلوب ، وقد رَجَّحَ سبحانه الحجارة على القلوب القاسية » .

قاله عشية الخميس ٢٢ ذي الحجة سنة ١١٢٩ .

وعندما مر في قراءة من يقرأ في « الديوان » في العينية قوله : « وتَصَرُّفٌ بالإذن للمستجمعِ » .

فقال : « أي يُعْطَى أحدهم التصرف في العالم كله أو بعضه ، بإذْنٍ من الله ، وحتى التصرف في نفسه

لم يكن إلا بإذْنٍ من الله سبحانه » .

ومَرَّ في الدرس في القراءة في بعض وصاياه قوله : « وعليك بالمواظبة على مطالعة كتب القوم والنظر فيها ، فإن فيها الهداية إلى معرفة الله » ، فقال : « المراد بالقوم ، أي الصوفية ، وسموا بذلك لأنهم في كل زمان ومكان يكونون فيه على حِدَتهم - يعني في دينهم - ولم يكونوا من قبيلة معروفة أو جهة معروفة ، بل من قبائل وجهات شتى » .

وعندما مر في الدرس في « المكاتبات » قوله : « والخلق مظاهر وأسباب ، مقهورون في عين اختيارهم لِمَا يريده الله منهم ، ﴿فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ﴾ ، وكلٌّ يعمل لمصيره » ، فقال في بعض ما تكلم به في هذا ، وذلك يوم الأحد ٢٠ جماد أول سنة ١١٢٦ في طريق السبير ، ذَكَرَهُ ثم تكلم وقال : « الإنسان اليوم كالجالس في طرف الفراش ، كل حين يتوقع أن يُقامَ عنه ، وقد سَمَّى الشيخ الشعراوي القرن العاشر دهليزَ القيامة ، أي أول الدخول فيها ، كما أن أول دخول الدار دخول دهليزها ، فما بالك اليوم » .

أقول : وما أحسن قول الإمام الغزالي في هذا المعنى ، ذكره في « الإملاء على كشف مشكل الإحياء»، لما ذكر كلمات من اصطلاحهم ، إلى أن قال : « ومن ذلك سر القَدَر ، وكيف تَحَكَّمَ في الخلائق ، وقادهم بِلُطْفٍ في عُنْفٍ ، وبشِدَّةٍ في لين ، وبقوة في ضعف ، وباختيار في جَبْر ، إلى ما هو في مجاريه ، لا يخرج المخلوقون منه طرفة عين ، ولايتقدمون ولا يتأخرون » ، انتهى .

قال : « ما تميز الصالحون عن غيرهم إلا بالطاعة والتحرز والورع والإقبال على الله والدار الآخرة، وإلا لكانوا كسائر الناس » .

قال : « لو أخذ الناس بقليل من العلم لكفاهم ، والكثير منه والتوسع فيه خير من التوسع في أمور الدنيا ، لكن ما عاد في الناس إلا خير » ، قاله عشية الأربعاء ١٥ ذي القعدة سنة ١١٢٩ .

قال : « العافية هي ستر الإنسان ، وعليها المعوَّل في طلب الدين والدنيا » .

قال : « الأشياء كلها ضعفت ، القلوب ضعفت ، والأموال ضعفت ، والأحوال ضعفت ، والظاهر أن السبب في ذلك قرب الساعة » .

وتكلم في حديث : « لو يعلم الناس ما في الأذان والصف الأول ، ثم لم يجدوا إلا أن يستهموا عليه لاستهموا » ، فقال : « قال هذا عليه السلام ترغيباً لأقوام معذورين ، يتخلف أحدهم عن الجماعة للعذر » هـ .

أقول : قال الحبيشي في كتاب « البركة في السعي والحركة » : « يقال من دام على الصلاة جماعة ، أعطاه الله خمس خصال : يرفع عنه ضيق المعيشة ، ويرفع عنه عذاب القبر ، ويُعطَى كتابه بيمينه ، ويمر على الصراط كالبرق الخاطف ، ويدخل الجنة بغير حساب » هـ .

قال : « **فَرْطُ الشهوة والبخل يشتد في الإنسان ، حتى يقيم الحُجَّة لنفسه على ربه ، وحقائق الدين قد خَرَجَت ، وإنما بَقِيَتْ صور . ولو قلتَ لواحدٍ : تَصَدَّقْ وافعل الخير ، أتاك بمائة علة ، ثم يشتهي أن يكون من أولياء الله ، وهو من أولياء الشياطين . وأرادوا الكرامات يتزيدون بها في دنياهم ، فإذا كانوا هكذا ، فترى في الدجال كفاية ، وتتبعه الكنوز ، فليحرص الإنسان في تصحيح أصول الدين ، وفِعْلِ الظواهر التي لا عذر في تركها ، ويعتقد في نفسه التقصير ، فليناقش نفسه ، إذ هو أعلم بها من غيره ، والناس في ستر الله ، لا اطلاع لأحد على أحد ، ويحمل الدين من كل خَلَفٍ عُدولُه** » هـ .

أقول : والمانع لهم عن الصدقة وفِعْلِ الخير ، والمبخِّل لهم عن المعروف - كما قال : « **أتاك بمائة علة** » - أمران : الجهل ، وضعف الإيمان .

أما الجهل : فإنهم لا يعلمون ما ورد عن الله وعن رسول الله ﷺ في فضائل المعروف ، من قضاء حاجة المؤمن ، والتيسير على المعسر ، من الثواب والنفع في الآخرة . وأما ضعف الإيمان : فإنهم لو أُعلموا بذلك لم تنبعث من قلوبهم داعيةٌ تدعوهم للعمل ، لعدم رغبتهم في ثواب الآخرة ، لضعف إيمانهم ، فيرجح الإمساك والبخل عليه ، وتغلب عليه دواعي النفس والشيطان ، الذي يعدهم الفقر ويأمرهم بالفحشاء ، وهو البخل وشح النفس على دواعي الحق، ﴿وَٱللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًاۗ﴾ وقال تعالى : ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾، وهي ثلاثة: أولها التذكير ، ثم التذكر ، ثم الذكرى .

والتذكير : هو إلقاء الموعظة لمن يسمعها ، ثم إذا وقعت من قلبه موقعاً جعل يتذكرها ويتأملها ، وهو التذكر . ثم الذكرى : وهي تأثر القلب بالموعظة جداً لمن أراد الله هدايته ، وهي النافعة للمؤمنين، ومن لم يؤثر فيه التذكير قليلاً ولا كثيراً ، ولا حصلت له الذكرى ، فيكاد ينطبق عليه مفهوم هذا ، بأنه ليس بمؤمن - أي إيماناً قوياً - . فإنَّ لفظ المؤمن حيث ذُكِرَ في الكتاب والسنة ، فالمراد به الإيمان الكامل ، كما قال تعالى : ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾، إلى قوله : ﴿ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ وحَصَرَ الإيمان في من هذا وصفه بقوله : ﴿إِنَّمَا﴾، وليس كل المؤمنين كذلك ، لكن بَيَّنَ بقوله : ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ﴾، أن المراد به أهل الإيمان الكامل .

وأما العلم الذي يُداوى به داء هذا الجهل ، فيكفيك منه من حديث رسول الله ﷺ ما أسنده

الإمام السيوطي في كتابه « الكشف عن مجاوزة هذه الأمة الألْف » ، وبنى عليه كتابه هذا ، بإسناده إلى أنس خادم رسول الله ﷺ قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : من قضى للمؤمن في الله حاجة ، كتب الله له مثل عمر الدنيا سبعة آلاف سنة ، قيام ليلها وصيام نهارها » ، فاعجب لهذا الوعد العظيم العجيب ، كيف ما يسوى عند الأحمق الضعيف الإيمان عشرة دراهم يخرجها لوجه الله .

وذكر حديثاً رواه مسلم : « أول من يستظل بظل عرش الله يوم لا ظل إلا ظله ، رجل أَنْظَرَ مُعسِراً أو محا عنه » ، أي أَبْرَأَهُ ، فهذا الرجل يستظل بذلك الظل العظيم قبل كل أحد ، حتى قبل السبعة الذين ثبت في الصحيحين من قوله ﷺ : « سبعة يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ في عبادة الله ، ورجل قلبه معلق في المساجد ، ورجلان تحابًّا في الله اجتمعا عليه وتفرَّقا عليه ، ورجل دَعَتْهُ امرأةٌ ذات منصب وجمال فقال : إني أخاف الله ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه ، ورجل ذكر الله خالياً ففاضت عيناه » ، تم الحديث .

ومثَّلوا لـمُخْفِي الصدقة ، كأن يبيع أشياءه على العشرين فساومه فقير : بكم ؟ فقال : بعشرة ، فباعه بعشرة ، وما عَلِمَ الفقير ولا غيره أنه طارِحٌ عنه ، وهي تلك الصدقة الخفية . فأكرِمْ بها من خصلة ما أجلها وأشرفها .

وذكر في « الدر المنثور في التفسير بالمأثور » للإمام السيوطي : عن بريدة بن الحصيب الأسلمي رضي الله عنه قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : مَن أَنْظَرَ مُعسِراً ، فله بكل يوم مثله صدقة . ثم بعد ذلك بمدة سمعته يقول : من أنظر معسراً فله كل يوم بِمِثْلَيْهِ صدقة . فقلتُ : يا رسول الله ، سمعتُك أوَّلاً تقول : فله بكل يوم مثله صدقة ، وسمعتك الآن تقول : فله كل يوم بمثليه صدقة . فقال : إذا أَنْظَرَهُ إلى أجل بينهما فله كل يوم بمثله صدقة ، فإذا حل الأجل وأنظره بعد ذلك ، فله كل يوم بمثليه صدقة » .

وذكر في « حياة الحيوان » عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، قال : « قال رسول الله ﷺ : للمسلم على أخيه المسلم ثلاثون حقاً ، لا براءة له منها إلا بالأداء أو العفو : يغفر زلته ، ويرحم عبرته ، ويستر عورته ، ويقيل عثرته ، ويرد غيبته ، ويديم نصيحته ، ويحفظ خلته ، ويرعى ذمته ، ويعود مرضته ، ويشهد ميتته ، ويجيب دعوته ، ويقبل هديته ، ويكافيء صلته ، ويشكر نعمته ، ويحسن نصرته ، ويحفظ حليلته ، ويقضي حاجته ، ويشفع مسألته ، ويُشَمِّت عطسته ، ويرشد ضالته ، ويرد سلامه ، ويطيِّب كلامه ، ويَبَرُّ إنعامه ، ويُصَدِّق إقسامه ، وينصره ظالماً ومظلوماً ، ويواليه ، ولا يعاديه ، أمَّا نَصْرُهُ ظالماً ، فَيَرُدُّهُ عن ظُلْمِه ، وأما نَصْرُهُ مظلوماً ، فيعينه على أَخْذِ حقه ، ولا يُسْلِمُهُ ، ولا يخذله ، ويحب له من الخير ما يحب لنفسه ، ويكره له من الشر ما يكره لنفسه » .

ثم قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقول : إن أحدكم ليدع من حقوق أخيه شيئاً فيطالبه يوم القيامة » ، ثم قال عليٌّ رضي الله عنه : « إن أحدكم ليدع تشميت أخيه إذا عطس ، فيطالبه يوم القيامة، فيُقضَى له عليه » ، وروى البخاري وأبو داود عن عبدالله بن عمرو بن العاص ، أن النبي ﷺ قال : « أربعون خصلة ، أعلاها منيحة العنز ، ما من عامل يعمل بخصلة منها رجاء ثوابها وتصديق موعودها إلا أدخله الله به الجنة » . قال ابن عطية : « فعدَدْتُ ما دون منيحة العنز ، من تشميت العاطس ، ورد السلام ، وإماطة الأذى عن الطريق ونحوه ، فما استطعنا أن نصل إلى خمسة عشر خصلة » ، وقال ابن بَطَّال : « لم يذكر النبي ﷺ الخصال في الحديث لمعنى هو أنفع لنا من ذِكْرِها ، وذلك والله أعلم ، خشيةَ أن يكون التعيين لها زهداً في غيرها من أبواب المعروف وسبل الخير » ، قال : « وَبَلَغَنا عن بعض أهل عصرنا أنه تتبعها في الأحاديث ، فوجدها تزيد على أربعين خصلة، ثم ذَكَرَها » .

ومر خبر المرأة التي قالت : « ما أطول ذيل فلانة » ، فقال لها النبي ﷺ : « اِلْفِظِي اِلْفِظِي » ، فأخْرَجَت من فمها قطعة لحم ، **فقال : « كانوا تظهر لهم الأمور عياناً ، حيث كانوا في زمن النبي ﷺ ، لمشاهدتهم نور النبوة والوحي »** .

وقال في قوله تعالى : ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ﴾، **قال : « سواء كان صدقاً أو كذباً ، إلا أن الكذب أكثر إثماً »** ، ومر في القراءة في « الدعوة التامة » نظم الإمام الشافعي رحمه الله :

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيْعٍ سُوْءَ حِفْظِيْ ... فَأَرْشَدَنِي إِلى تَرْكِ المعَاصِيْ
وَأَخْبَرَنِيْ بَأَنَّ الْعَلْمَ نُورٌ ... وَنُورُ الله لا يُؤْتَاه عَاصِيْ

فقال سيدنا : « إن الله لا يؤتي نوره ولا ماله العاصي ، فإذا عصاه العبد في ماله نزع الله بركته من المال، وإن وُجِدَت صورته ، ومما قيل في صعوبة العلم ، شعرٌ :

مَا حَوَى الْعِلْمَ جَمِيْعاً أَحَدٌ ... لَا وَلَوْ مَارَسَهُ أَلْفَ سَنَةْ
إِنَّما الْعِلْمُ بَعِيْدٌ غَوْرُهُ ... فَخُذُوا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ أَحْسَنَهْ

قال رضي الله عنه : « كل ما مع الخلق من التدبير إنما هو من عند الله ، بواسطة وحي أو إلهام ، ولهذا طلب إقامة الإمامة والولاية ، لينتظم الأمر وتُؤَدَّى حقوق الله وحقوق العباد ، وما وقع مِن خِلاف ذلك فإن الله تعالى لا يزال يعفو عن صغار الأمور ، حتى يحصل شيء من كبارها ، فيعاقب عليه في الدنيا قبل الآخرة ،بخَسْفٍ أو غيره ، فإن لم يكن خَسْفاً ظاهراً كان خَسْفاً باطناً ، بِخَسْفِ القلوب فلا تتأثر

بموعظةٍ ، ولا تخشع في عبادةٍ ، ونحو ذلك ، وكل ما لا يحتملُ أهلُ الله الصبرَ عليه والسكوت عنه هو الذي يعاقب اللهُ عليه » ، هكذا سمعته وحفظته .

ومر في الدرس في القراءة في « الدعوة التامة » خبر بيع الصاع من التمر الجيِّد بصاعَين من التمر الرديء ، فقال النبي ﷺ : « هذا من الربا ، ولكن بيعوا الصَّاعَين من الرديء بدرهم ، واشتروا بالدرهم صاعاً من الجيِّد » ، *فقال* سيدنا : « **ولا بد من قبض الدرهم ، ثم يشتري به ، وإلا وقع الأمر مثل فِعْل هؤلاء الفساق الذين يحتالون بالنذور** » .

قال : « **الفقه هو الفهم** » هـ .

أقول : وخصص علم الأحكام باسم الفقه ، لاحتياجه إلى الفهم أشد من غيره ، لاحتياجه إلى القياسات ، من قياس ما لا نَص فيه على ما فيه النَّص ، وما فيه من الأشباه والنظائر ، ومن استصحاب الشروط على أصلها بعد فواتها ، كاشتراط الجامع أن يكون متصلاً بالبلد ، فلو جاء سَيْلٌ وهدم البيوت ما بينه وبين البلد ، وبقي منفرداً عنها ؛ صَحَّ جامعاً ، وصَحَّت فيه صلاة الجمعة استصحاباً للحال الأول . فلهذا كان أشد حاجة إلى الفهم من غيره من العلوم ، وإن كان كل علم يحتاج إليه .

والمراد بالفقه في علم الحديث ، هو الفهم في علوم الدين الثلاثة ، التي سأل جبريلُ عنها النبيَّ ﷺ ، فبيَّنَها له والصحابة يسمعون ، وقال لهم : « إن هذا السائل جبريل ، أتاكم لِيُعَلِّمَكُم أمر دينكم » ، أي يسألني وأنتم تسمعون فأجيبه ، فتسمعون الجواب فتفهمون أمر دينكم . فشرح له الإسلام بمبانيه الخمس ، كما قال له : « الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصوم رمضان ، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلا » ، على ما بني عليه الإسلام حيث قال: « بني الإسلام على خمس .. » ، وعَدَّ هذه المذكورات . وشرح له الإيمان بأصوله الستة ، التي ذكرها في حديث جبريل المذكور ، وشرح له الإحسان بالمشاهدة ، بأن يعبد الله كأنه يراه ، فالأول كما قال : « **ظاهر الثاني ، والثاني باطنه ، والثالث خالصها** » ، فلا ينبغي أن يتعدى في معنى هذه الثلاثة العلوم ما شرحه وفَصَّلَهُ وبَيَّنَهُ ﷺ ، فالمراد بلفظ الفقه أو العلم هذه العلوم الثلاثة ، كما في حديث : « اطلبوا العلم ولو في الصين » ، أي في أقصى محل .

فالعلم المعرَّف بالألف واللام ، المراد به الثلاثة العلوم هذه ، ولا بد لكل من دخل في دائرة الإسلام من نصيبٍ من هذه العلوم الثلاثة ، لكن لكل أحد على مقتضى حاله ، إن كان من العامة ، أو من الخاصة ، أو من خاص الخاصة هـ .

قال رضي الله عنه في مجلس القراءة، يوم الإثنين ١١ ذي القعدة سنة ١١٣١، وتوفي في ذي القعدة دوره، **قال**: « **إذا ظلم الوالي رَعِيَّتَهُ، فلا تسأل ما يقع له من الشر، فإنه ما أقيم عليهم إلا لإصلاح دنياهم وآخرتهم، فإن أفسد عليهم دنياهم أفسد الله عليه دنياه وآخرته، وإن أصلح دنياهم أصلح الله له دنياه وآخرته، فإذا أفسد عليهم دنياهم وقع عليه العذاب مضاعفاً، فإنه لو ظلم واحداً كان عند الله من الظالمين، فإذا ظلم أناساً كثيراً كان كل واحد منهم مطالبه بين يدي الله، فيجتمعون عليه كلهم** » هـ.

أقول: يشبه هذا الكلام ما روي أن الشيخ عبدالعزيز العمري، من ذرية سيدنا عمر، لما حج فطاف ورَقَى في الصفا ليسعى، رأى فوق الصفا هارون الرشيد، فقال للعمري: « عِظني »، قال له: « اِرْمِ ببصرك إلى المسعى، فكم ترى فيه من الخلق؟ »، قال: « أرى عدداً كثيراً لا يُحصَون »، قال له: « فكم في جميع الخلق من مشرق الشمس إلى مغربها من مثلهم؟ »، قال هارون: « لا يحصي عددهم إلا الله »، قال العمري: « اعْلَمْ يا هارون، أنَّ كلَّ واحدٍ منهم يُسأل عن خاصة نفسه، وأنتَ تُسأل عن كافة الخلق بأجمعهم، فأعِدَّ للسؤال جواباً »، فبكى هارون بكاء شديداً حتى كاد يغشى عليه.

ووصل إلى سيدنا كتاب من قاضي عدن من بلاد اليمن، فكتب في جوابه: « **والذي نوصيك به حُسْن القيام، وحُسْن النظر فيما ابتُليتَ به من الأحكام، فإنَّ ذلك مقامٌ خطِر، والطريق إليه والخلاص منه ومن تبعاته أمرٌ شديد صعبٌ عسير، حتى في الأزمنة الصالحة، فكيف في هذا الزمان المفتون، الذي عزَّ فيه من يأخذ بالحق، ويؤثِرُه على الباطل. فالله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به، ﴿وَمَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ﴾، ﴿وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتْنَتَهُۥ فَلَن تَمْلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾** ».

وكتب إلى سيدنا قاضٍ كان متولي القضاء بمدينة شبام – من بلدان حضرموت – يشكو إليه من عَزْلِهِ عن القضاء وتَوَلِّيهِ قاضٍ آخر، فكتب سيدنا إليه في جوابه: « **وقد وصل كتابكم، تذكرون فيه ما حدث من تولية فلان على فصل الأحكام بمدينة شبام، وعذركم من ذلك، فالحمد لله، ﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَيَجْعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾، والولايات في هذه الأزمنة والأمكنة من الأخطار المخوفة في الدين والدنيا. وقد استأذن علينا في حال مسيره، وذَكَرَ لنا ذلك، وعَرَّفناه بما فيه صلاحه وسلامته إن شاء الله، والله الحافظ لمن يشاء، ولو أنه استشارنا من قبل، أَشَرْنَا عليه بترك ذلك، إيثاراً لجانب السلامة، التي هي إحدى الغنيمتين، ولعلكما ممن يَحسُن فيه قول القائل:**

عِنْدِيْ حَدِيْثٌ طَرِيْفٌ بِمِثْلِهِ يُتَغَنَّى

عَـنْ قَاضِيَـيْنِ يُعَـزَّى هَـذَا وَهَـذَا يُهَنَّـا
فَـذَا يَقُـولُ كَرِهْنَـا وَذَا يَقُـولُ اسْـتَرَحْنَا
وَيَكْذِبَـانِ جَمِيعـاً فَمَـنْ يُصـدِّق مِنَّـا

وقوله : « **ولو قد استشارنا أشرنا عليه بترك ذلك** » ، لأن الرجل من السادة آل باعلوي ، وشفقته عليهم أكثر من غيرهم . وتقدم قوله لذلك القاضي ، الذي جاء زائراً ، ثم عند استيداعه منه سائراً إلى بلده ، قال له يوصيه: « **الله الله في اتباع الحق ومجانبة الباطل ، ولا تحكم إلا إذا اتضح لك الأمر ولم تشك فيه ، فإن لم يتضح لك فتوقف ولا تحكم فيه بشيء ، واعدِل في كل أمورك إلى الصلح ما استطعت ، وإذا تبيَّن الحق وأردتَ الحُكم به ، فخطر لك مراعاة أحد من الناس ، فاترك الناس للحق ، ولا تترك الحق للناس** » .

ثم ذكر أقواماً كانوا يتعاطون الربا فامتحقوا ، **فقال** : « **محقهم الله ، لأن الله يمحق الربا ، وهو كالنار، إن كانت كبيرة أحْرَقَتْ في الحال ، وإن كانت صغيرة أحرقت بتراخ ، والعاقبة إلى إحراق الكل، ولا على الناس من إثمهم شيء ، وإنما على من علم أن يخبرهم بحرمة ذلك ثم لا يضره** » .

وقال : « **المَسُّ في قوله تعالى : ﴿يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾: هو الجنون ، ويدل على أكل الحرام، أن يكون عند قيامه كالسكران ، إلا إن كان معه شدة سهر . وتراك ترى الذين يعاملون به يخبُّون كالمجانين، لا يعرفون المعروف ، فإنهم مُعاقَبون ، يُعرَف عليهم أثر العقوبة ، هل لأحد طاقة بحرب الله** » هـ .

أقول : رأيت رجلاً من أهل شبام يذكر أنه كان يسافر إلى صنعاء بستِّين حِمْل بَزٍّ ، وهو الآن ما يملك عشاء ليلة ، وكان يتعاطى الربا ، فقلت له : يُذكَر عنك كذا وكذا ، قال : « نعم ، ولكن أذْهَبَه الربا»، قلت له : ما حَمَلَكَ عليه وأنت تعلم ما تَوَعَّدَ الله به من يفعله ، فقال : « ما حملني عليه إلا الشيطان وطمع الدنيا » .

ومَرَّت في الدرس قصة السَّري السَّقَطي أنه أيام كان يتجر أخذ لَوْزاً بستِّين ديناراً ، وكتب عليه الربح ثلاثة دنانير ، فجاءه الدلال فقال له : « بكم تبيعه ؟ » ، قال : « بثلاثة وستين ديناراً » ، قال له الدلال : « إن قيمته الآن تسعين ديناراً » ، فقال له السري : « إني نويت أن لا أربح فيه إلا ثلاثة دنانير »، وقال له الدلال : « إني قد عاهدت الله أن لا أغش أحداً ، ولا أغبن مسلماً » ، فامتنع السري من البيع،

وامتنع الدلال من الشراء ، قال سيدنا عند ذلك : « هذه أمور قد تُوُدِّعَ منها - أي عدمت - ولكن يقارب فلا تعرف ، ولو حُكِيَت استُبعِدَت ، وصارت بالنسبة إلى المتعَارَف محالاً » .

و « يقارب » ، يعني يقرب منها إذا لم يَنَلها ، وهكذا في جميع أمور الخير ، إذا لم يقدر عليها ولم ينلها فليقرب منها ، وإن كانت بعيدة يكون إليها أقرب من غيره . وقد جاء هذا المعنى من قوله غير مرة ، وكتبناه في غير موضع من هذا النقل .

قال في « الدعوة التامة » : « ثم إن من أبرك وأَعْوَد ما يأخذ فيه الإنسان من أسباب المعاش : التجارة مع الصدق ، والوفاء ، والأمانة ، والنصيحة للمسلمين » ، قال : « لكن بهذه الشروط ، فمن أراد معرفة شيء لينتفع به ، فليعرف قيوده وشروطه » .

قال : « أقرب الناس من حقيقة الحال أحوال السُّؤَّال ، الذين لا يهمهم شيء مما يهم الناس ، والمتجردين من السائحين الذي لا يعوِّلون على أهلٍ ولا مالٍ ولا بلدٍ » .

قال في « الدعوة التامة » : « ومِن وَصْفِ أهل هذا القسم من الفقراء الفرارُ من الدنيا ومن دخولها في أيديهم » ، قال : « لأنهم كانوا متجردين ، ولا عيال معهم ، والكفاية حاصلة ، كأويس القرني » .

قال في حديث : « بَرُّوا آباءَكم تَبَرَّكم أبناءُكم » ، قال : « لأن هذه أشياء يُجعل الجزاء عليها من جنس العمل في الخير والشر » .

قال في حديث : « بُلُّوا أرحامَكم ولو بالسلام » ، قال : « أي بما استطعتم من البر » .

أقول : قال الحسن البصري : « إن المؤمن قَوَّامٌ على نفسه ، يحاسبها لله » .

معنى المحاسبة هي المراقبة، وهو أن يترصد لكل داعي من دواعي نفسه ، يأمره بعملٍ ما ، أو ترك أمرٍ ما ، فلْيَتَأَمَّلْهُ ولا يغفل عنه ، فإنْ عَلِمَ أن ذلك العمل ، أو ترك ذلك الأمر مما يحبه الله فَلْيَفْعَلْهُ أو يَتْرُكْهُ ، وإن رأى أن الأمر بالعكس - أي عكس داعيه الفعل أو الترك هو المحبوب لله - فلا يجيب ، أي لا يخلو أن يكون الفعل واجباً أو مندوباً فليفعل ، أو محرماً أو مكروهاً فلا يفعل ، أو مباحاً ، فإن كان وسيلة إلى مأمور أو إلى ترك منهي فليفعله وإلا فليتركه .

فهذا معنى عرض جميع أفعاله على الكتاب والسنة ، أي على القانون الشرعي ، وهو متابعة الأحكام الخمسة المذكورة : الواجب والمندوب فعلاً ، والحرام والمكروه تركاً ، وأحد طرفي المباح

المؤدِّي إلى المندوب في الفعل ، وترك طرفه الآخر المؤدِّي إلى مجرد التشهي في الترك .

وقد قال سيدنا في « رسالة المعاونة » : « **وعليك بالتمسك بالكتاب والسنة ، فاجعلْهُما حاكِمَيْن عليك ومتَصَرِّفَيْن فيك ، وارجع إليهما في كل أمورك ، ممتثلاً لوصية لله ووصية رسوله . قال الله تعالى:** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ۝﴾، **وقوله :** ﴿فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾**، أي إلى الكتاب والسنة** » .

وقوله : ﴿وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ﴾، أي إذا أمروكم بطاعة الله ، فإن أمروكم بمعصية ؛ فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .

« **وقال رسول الله ﷺ : أوصيكم بما إن اعتصمتم به لن تضلوا أبداً ، كتاب الله وسنتي. فإنْ سَرَّكَ أن تكون على الهدى ، سالكاً للمحَجَّةِ البيضاء ، التي لا عوج فيها ولا أمتا ، فاعرض جميع نياتك وأخلاقك وأعمالك وأقوالك على الكتاب والسنة ، فَخُذْ ما وافق ، وَدَعْ ما خالف ، وكل من لم يبالغ في التمسك بالكتاب والسنة ، ولم يبذل وسعه في متابعة الرسول ، وهو مع ذلك يدَّعي أن له مكانة عند الله تعالى ، فلا يُلْتَفَت إليه ولا يُعرَّج عليه ، وإن طار في الهواء ومشى على الماء ، وطُوِيَت له المسافات، وخرقت له العادات . فإنَّ ذلك يقع كثيراً للشياطين ، والسحرة والكُهَّان والمُعَزِّمِين والمُنَجِّمِين ، وغيرهم من الضُّلَّال ، ولا يخرج مثل ذلك عن كونه استدراجاً وتلبيساً ، إلى كونه كرامةً وتأييداً إلا بوجود الإستقامة في من ظهر عليه** » .

ومراده بالاستقامة : التمسك بالكتاب والسنة ، سيما التحري والورع ، ومن لا ورع معه فلا استقامة معه ولا ديانة ، فمن أين له الصلاح ، إلا إن كان صالحاً للنار .

قال : « **وهذا المغرور وأمثاله إنما يُلَبِّسون على الغوغاء والسَّفَلَة ، الذين يعبدون الله على شَكٍّ ، وأما أولوا العقول والألباب ، فقد علموا أن تفاوت المؤمنين في القرب من الله على حسب تفاوتهم في متابعة الرسول ، وأنه كلما كانت المتابعة أكمل ، كان القرب من الله أتم ، وكانت المعرفة به أجل . وقد قصد أبو يزيد البسطامي إلى زيارة رجل يوصف بالولاية ، فقعد له في مسجد ، فلما خرج الرجل حضرته نخامة ، فرمى بها في جدار حائط المسجد من داخل ، فرجع أبو يزيد ولم يجتمع به ، وقال : كيف يؤمن على أسرار الله من لم يُحْسِن المحافظة على آداب الشريعة .**

واعلم أنه لا يستقل - أي لا يقدر - أن يعرض جميع أموره التي تقع له في ظاهره وباطنه على الكتاب والسنة كل أحد ، فإنَّ ذلك مخصوصٌ بالعلماء الراسخين ، فإن عَجَزْتَ عن شيء من ذلك

فعليك بالرجوع إلى من أَمَرَكَ الله بالرجوع إليه عند الحاجة ، في قوله تعالى : ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ ، وأهل الذِّكر هم العلماء بالله وبدينه ، العاملون بعلمهم ابتغاء وجه الله ، الزاهدون في الدنيا، الذين لا تلهيهم تجارةٌ ولا بيعٌ عن ذِكر الله ، الداعون إلى الله على بصيرة ، المكاشَفون بأسرار الله ، وقد عَزَّ على بسيط الأرض وجود واحد من هؤلاء » .

قال : « أي الموصوفون بذلك كله ، فإن اتصف بوصف أَخَلَّ بوصف آخر » ، يعني قَلَّ من اتصف بجميعها ، فلو أن أحداً اليوم اتصف بوصف منها ، أخَلَّ بوصف آخر .

قال : « بأن يعرف ويميِّز بذلك ، حتى لقد زعم جماعة من الأكابر أنهم مفقودون ، والحق أنهم موجودون ، ولكن سترهم الله برداء الغَيْرة ، فضرب عليهم سُرَادقات الإخفاء ، لغفلة الخاصة وإعراض العامة ، فمن طَلَبَهُم بصدق وَجَدَّ في ذلك ، لم يُعْوِزْهُ إن شاء الله وجود واحد منهم . فالصدق سيفٌ ، لا يوضع على شيء إلا قطعه ، والأرض لا تخلو من قائم لله بحُجَّة ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضُرُّهم من ناوأهم ، حتى يأتي أمر الله . أولئك نجوم الأرض، وحُمَّال الأمانة ، ونُوَّاب المصطفى ، وورثة الأنبياء ، ﴿رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُواْ عَنْهُۚ أُوْلَـٰٓئِكَ حِزْبُ ٱللَّهِۚ أَلَآ إِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ » ، انتهى كلامه في « رسالة المعاونة » .

وقال الشيخ علي بن أبي بكر في كتابه « معارج الهداية » في بيان هذه الفرقة ، بعدما عَدَّدَ مِن فِرَقِ هذه الأمة ٧٢ ، ثم عد هذه تمام ٧٣ ، قال : « فتلك اثنان وسبعون فرقة ، كلهم في النار ، والفرقة الناجية هم أهل السُّنَّة البيضاء المحمدية ، الطريق النقية الأحمدية ، ولها ظاهر يُسَمَّى بالشريعة ، شرعةً للعامة ، وباطن رُسِمَ بالطريقة ، منهاجاً للخاصة ، وخلاصةٌ خُصَّت باسم الحقيقة ، معراجاً لأخص الخاصة . فالأول نصيب الأبدان من الخدمة ، والثاني نصيب القلوب من العلم والمعرفة والحكمة ، والثالث نصيب الأرواح من المشاهدة والرؤية » .

قال كاتبه : وهذه مباني معاني حديث جبريل ، وسؤاله للنبي ﷺ ، وجوابه له كما أشير إليه آنفاً .

قال : « قال القشيري رضي الله عنه : الشريعة أمرٌ بالتزام العبودية ، والحقيقة مشاهدةُ الربوبية . فكل شريعة غير مُؤيَّدة بالحقيقة فغير مقبول ، وكل حقيقة غير مُقيَّدة بالشريعة فغير محصول ، فالشريعة قيامٌ بما أَمَر ، والحقيقة شهودٌ لما قضى وقَدَّر وأخفى وأظهر ، والشريعة حقيقة من حيث أنها وجبت بأمره ، والحقيقة أيضاً شريعة من حيث أن المعارف به سبحانه وجبت بأمره .

و قال شيخنا الشيخ عبدالله بن أبي بكر رضي الله عنه - هو أخوه وشيخه - : فما عندنا طريقٌ إلى الله تعالى إلا الشريعة ، وهي الأصل والفرع ، والطريقة والحقيقة من بركات الشريعة ، لأن الشريعة

مثلاً كاللبن والطريقة كالزُّبْد ، والحقيقة كالسَّمْن ، والزبد والسمن من بركات اللبن ، ولا يتصور طريقة وحقيقة إلا من بركات الشريعة ، وعلى التحقيق لا طريقة ولا مقامات ولا أحوال ولا معارف ولا أسرار ولا مشاهدات ولا مكاشفات ولا فتوحات إلا من بركات ثمرات المعاملة الشرعية .

بيت شعر : فيه معنى الشريعة والطريقة والحقيقة :

عَزَائِمُهَا مِنْهَاجُ سَالِكِهِمْ إِلَى ... نِهَايَتِهَا تِلْكَ الحَقِيْقَةُ وَاصِلِ

قال أبوالقاسم القشيري : أول رتبة في القرب القرب من طاعته ، والإتصاف في دوام الأوقات بعبادته ، وقرب الحق سبحانه من العبد ما يخصه به اليوم من العرفان ، وفي الآخرة ما يكرمه به من الشهود والعيان ، وفيما بين ذلك بوجوه اللطف والإمتنان ، وقرب الحق سبحانه بالعلم والقدرة عامٌّ للكافة ، وباللطف والنصرة خاصٌّ بالمؤمنين ، ثم بخصائص التأنيس مختص بالأولياء . انتهى .

فالأمة المحمدية تتفاوت درجاتهم في القرب ورتب الطاعة ودرجات المعرفة ، تفاوتاً لا يحصيه إلا الله تعالى . قال الشيخ عز الدين بن عبدالسلام في قواعده : فأفضل ما تقرب به التذلل لِعزِّه سبحانه ، والتخضع لعظمته ، والإنخشاع لهيبته ، والتبري من الحول والقوة إلا به . قال : وهذا شأن العارفين .

وقال رضي الله عنه أيضاً : وما فَضُلَ أحدٌ بمثل معرفة الديان ، وأوصاف الرحمن ، ومعرفة القرآن، وثمرات هذه افضل الثمرات ، ومثوبتها أفضل المثوبات ، وكرامتها أفضل الكرامات ، وهي داعية إلى الخيرات ، زاجرة عن السيئات ، فطوبى لمن حظي بها ، أو بشيء منها ، ويا خيبة مَن حُرِمَها ، أو شيئاً منها . وقال أيضاً رضي الله عنه : والمقصود من العبادات كلها إجلال الله تعالى وتعظيمه ، ومهابته ، والتوكل عليه ، والتفويض إليه ، وكفى بمعرفته ومعرفة صفاته شرفاً في الدنيا والآخرة ، وهي أفضل من كل ثواب يقع عليها ، ما عدا النظر إلى وجهه الكريم » .

انتهى ما عنَّ لنا نقله من المعارج ، لما جَرَّ إليه من كلامه في « رسالة المعاونة » ، لما جَرَّ إليه من كلام مجالسه ، وقد قال : « **الكلام شجونٌ يَجُرُّ بعضه إلى بعض** » .

ومَرَّ في القراءة قول الحسن البصري : « والله لقد أدرَكْتُ سبعين بدرياً أكثر لباسهم الصوف ، لو رأيتموهم لقلتم مجانين ، ولو رأوا خياركم لقالوا : ما لهؤلاء من خَلاق ، ولو رأوا شراركم لقالوا : ما يؤمن هؤلاء بيوم الحساب » ، **فقال : « من يسمع كلام هؤلاء يقول كأنهم عند الجنة ، بين الجنة والنار ، لأنهم قريبي العهد بظهور الدين ، وكان الدين إذ ذاك طرياً ، وأما اليوم فقد طال عليهم الأمد ﴿فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَسِقُونَ﴾، وقد نفعت هذه الآية الفُضيل بن عياض » ه .**

أقول : لأنها سببُ توبته ، سمع قارئاً يقرأها من أولها ، قوله تعالى : ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ إلى آخرها .

« فقال لمَّا جَذَبَتْ قلبه ، ووافق الوقت المؤقت لذلك : بلى ، قد آن . فتاب وأناب ، فكان من أمره ما كان ، وقد قال النبي ﷺ : إن لربكم في أيام دهركم لنفحات ألا فتعرضوا لها » ه .

أقول : ليس التعرض بالإرتقاب والتوقع لها ، ولكن يكون على حالة يريد الله وقوعها له ، وهو على تلك الحالة ، كما في واقعة الفضيل وابن عرس البهلول ، وغيرهما ممن لا يحصى عددهم لكثرتهم .

قال : **« من رأيتَ فيه أدنى مَيْل عن شاكلة أهل الزمان إلى طريق الخير ، فهو صالح الزمان ، ومن رأيته مائلاً عن ذلك إلى طريق الشر ، فهو فاجر الزمان »** .

ومَرَّ فيها قولُ سَهْلٍ : « الغضب أشد على البدن من المرض ، لأنه إذا غضب دخل عليه من الألم أكثر مما يدخل من المرض » ، *فقال* : **« لأنه كالنار حارة ، تحرق رطوبات الجسم »** .

وقال سهل : « يأتي على الناس زمان يذهب الحلال من أيدي أغنيائهم ، وتكون أموالهم من غير حِلِّها ، فيسلط الله بعضهم على بعض ، فتذهب لذة عيشهم ، ويلزم قلوبهم خوف فقر الدنيا ، وخوف شماتة الأعداء ، ولا يجد لذة العيش إلا عبيدهم ومماليكهم ، ويكون ساداتهم في بلاء وشقاء وعناء ، وخوف من الظالمين ، ولا يلتذُّ بعيشٍ يومئذٍ إلا منافقٌ لا يبالي من أين أَخَذ ، ولا فيم أَنْفَق ، ولا كيف أَهْلَكَ نفسه ، وحينئذٍ تكون رتبة القُرَّاء رتبة الجهال ، وعيشهم عيش الفجار ، وموتهم موت أهل الحيرة والضلال » . تمَّتْ مقالة سهل . وإنها لصادقة على ما قال ، في كل ما قال ، سيما ما ذكر من حال القراء .

ولما سمع سيدنا عبدالله قوله : « ويلزم قلوبهم خوف فقر الدنيا » ، *قال* : **« كأحوال أهل الزمان ، بل وأزمنة قبله »** .

وفي قول الجنيد : « إذا صحت المودة سقطت شروط الأدب » ، *قال* : **« أي الأدب العادي »** .

ثم قال في آخر كتاب « الدعوة التامة » : « وَلنَخْتِم هذهِ الخَاتمَة المُبَاركَة بالأحاديث التي خُتِمت بها الكُتُب السبعة ، التي هيَ أصُول الدِّين وَالإسلام ، وَأمَّهات الشَّريعة والأحكام ، تيمُّنًا وَتبرُّكاً بحديث رَسُول الله ﷺ ، وَتفَاؤُلاً وتَرجِّيًا مِن الله حسن الختام، وَهِيَ : كتاب الموطأ للإمام مالك بن أنس رحمه الله ، وكتاب الجامع الصحيح للإمام محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله ، وكتاب الجامع الصحيح للإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري رحمه الله تعالى ، وكتاب السنن للإمام أبي داود سليمان بن الأشعث السجستاني رحمه الله ، وكتاب الجامع للإمام أبي عيسى محمد بن سَورة الترمذي رحمه الله ، وكتاب السنن للإمام أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي رحمه الله، وكتاب السنن للإمام محمد بن يزيد بن ماجه رحمه الله . وقد اجتمعت هذه الكتب المعظمة عندنا والحمد لله ، وذلك من فضل الله ومَنِّه . سبحانه لا نحصي ثناء عليه هو كما أثنى على نفسه ، غير أن الذي صار إلينا من سنن النسائي هو : المجتبى ، من السنن الكبيرة له » .

ولما مر ذكرها هكذا في الدرس في قراءة من كان يقرأ فيها ، قال : « وإنما جمعناها لأجل المهدي ، لأنه يحتاج إليها ، فإنه إذا جاء لا يكون مُقَلِّداً لأحد ، ولا يعتمد على الكتب المؤلَّفة في العلوم ، إنما عمله على الكتاب والسنة مجتهداً لا مُقَلِّداً » .

ثم قال في كتاب « الدعوة » : « خاتمة كتاب الموطأ : عن محمد بن جُبير بن مطعِم ، عن أبيه جبير بن مطعم رضي الله عنه : أن النبي ﷺ قال : لي خمسة أسماء : أنا محمد ، وأنا أحمد ، وأنا الماحي الذي يمحو الله بِيَ الكفر ، وأنا الحاشر الذي يُحشر الناس على قَدَمي ، وأنا العاقب .

خاتمة صحيح البخاري : عن أبي زُرعة ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : كلمتان حبيبتان إلى الرحمن ، خفيفتان على اللسان ، ثقيلتان في الميزان : سبحان الله وبحمده ، سبحان الله العظيم . خاتمة صحيح مسلم : عن قيس بن عبادة قال : سمعت أبا ذر يُقسِم قَسَماً أن ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ﴾، أنها نزلت في الذين برزوا يوم بدر: حمزة وعلي وعبيدة بن الحارث رضي الله عنهم أجمعين ، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عتبة » .

أقول : التنبيه في هذين النوعين من الناس : مسلم وكافر ، يجاهدان على دينين إيمان وكفر ، فالمؤمنون يجاهدون على دينهم الإيمان ، يطلبون نصرته ، ومنهم هؤلاء الثلاثة حمزة وعلي وعبيدة رضي الله عنهم، والكفار يجاهدون على كفرهم ، منهم هؤلاء الثلاثة المذكورون لعنهم الله ، شيبة مبارز للحمزة ، والوليد مبارز لعلي ، وعتبة مبارز لعبيدة ، فأما الحمزة وعلي فما لبثا أن قتلا مبارزيهما ، وأما عبيدة ومبارزه فتجاولا ساعة ، ثم إن مبارزه ضربه ضربة أثخنته فاستُشهِد إلى رضوان الله ورحمته .

ثم إن الله سبحانه أنزل في حق الفريقين ، قوله تعالى : ﴿هَٰذَانِ خَصْمَانِ ٱخْتَصَمُوا۟ فِى رَبِّهِمْ ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ قُطِّعَتْ لَهُمْ ثِيَابٌ مِّن نَّارٍ يُصَبُّ مِن فَوْقِ رُءُوسِهِمُ ٱلْحَمِيمُ ﴿١٩﴾ يُصْهَرُ بِهِۦ مَا فِى بُطُونِهِمْ وَٱلْجُلُودُ ﴿٢٠﴾ وَلَهُم مَّقَٰمِعُ مِنْ حَدِيدٍ ﴿٢١﴾ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿٢٢﴾﴾، وفي المؤمنين : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا ۖ وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴿٢٣﴾ وَهُدُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّيِّبِ مِنَ ٱلْقَوْلِ وَهُدُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾.

« خاتمة سنن أبي داود : عن وهب بن منبِّه ، عن أخيه عن معاوية قال : قال رسول الله ﷺ : اشفعوا تؤجروا ، فإني لأريد الأمر أؤخره كيما تشفعوا فتؤجروا . خاتمة جامع الترمذي : عن المَقبُري عن أبي هريرة رضي الله عنه ، أن رسول الله ﷺ قال : قد أذهب الله عنكم عُبِّيَّةَ الجاهلية وفخرها بالآباء: مؤمن تقي وفاجر شقي ، والناس بنو آدم وآدم من تراب . هذا حديث حسن . وعن المغيرة بن أبي قرة السدوسي، قال : سمعت أنساً رضي الله عنه ، قال : قال رجل: يا رسول الله أَعقِلها وأَتَوَكَّلُ ، أو أُطلِقُها وأتوكَّل ؟ قال: اعْقِلها وتَوَكَّل » .

أقول : أمره بالتوكل مع عَقْلِها ، إشارةً إلى مراعاة الأسباب ، لأن الأسباب شريعة ، والتوكل حقيقة ، ولا بد من الجمع بينهما ، كل واحد في محله ، فالشريعة ومنها الأسباب وهي على ظاهر البدن، والحقيقة ومنها التوكل في باطن القلب ، ولا يعكس فيتزندق ، بأن يجعل التوكل في الظاهر ، فيترك الأسباب الظاهرة ، كما مر من كلام سيدنا ، وكلام السيد أحمد الهندوان ، وكفى بهما .

« خاتمة سنن النسائي : عن الشعبي ، عن أم سَلَمة رضي الله عنها ، أن النبي ﷺ كان إذا خرج من بيته قال : بسم الله ، ربِّ أعوذ بك أن أزِل أو أُزَل ، أو أَضِلّ أو أُضَلّ ، أو أظلِم أو أُظلَم ، أو أجهل أو يُجْهَل علي . خاتمة سنن ابن ماجه : عن يزيد بن أبي مريم ، عن أنس رحمه الله قال : قال رسول الله ﷺ : من سأل الله الجنة ثلاث مرات ، قالت الجنة : اللهم أدخله الجنة . ومن استجار من النار ثلاث مرات ، قالت النار : اللهم أجره من النار . وعن أبي صالح ، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ما منكم من أحد إلَّا له منزلان : منزل في الجنة ومنزل في النار ، فإذا مات الرجل ودخل النار ، ورث أهل الجنة منزله ؛ فذلك قوله تعالى :﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾﴾.

تمت خواتم هذه الكتب الشريفة ، من الأحاديث النبوية المنيفة ، وبتمامها يتم الكتاب ، والله الهادي إلى الحق والصواب . ونسأله حسن الختام وحسن المآب ، وهو حسبنا ونعم الوكيل، ولا حول ولا

قوة إلا بالله العلي العظيم و ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي هَدَىٰنَا لِهَٰذَا وَمَا كُنَّا لِنَهۡتَدِيَ لَوۡلَآ أَنۡ هَدَىٰنَا ٱللَّهُۖ لَقَدۡ جَآءَتۡ رُسُلُ رَبِّنَا بِٱلۡحَقِّۖ﴾، ﴿سُبۡحَٰنَ رَبِّكَ رَبِّ ٱلۡعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٨٠ وَسَلَٰمٌ عَلَى ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝١٨١ وَٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٨٢﴾.

وكان الفراغ من تأليفه بعون الله وتيسيره ، بكرة يوم الجمعة السابع أو الثامن والعشرين من شهر المحرم ، أول شهور سنة ١١١٤ أربع عشرة ومائة وألف من الهجرة النبوية » .

وهي آخر مؤلفاته رضي الله عنه .

وذكر يوماً من كان استملى وأملى عليه مؤلفاته ، *فقال* : « **استملى منا رسالة المريد ، ومن أول الكلام في التوبة من آخر رسالة المعاونة ، السيد محمد باقر باحسن** » .

أقول : وكان السيد محمد باقر هذا من تلامذته والملازمين له ، وبنته السيدة فاطمة بنت السيد محمد باقر ، هي زوجة سيدنا عبدالله وأم أولاده : السيد حسين ، والسيد علوي ، والسيد حسن ، والسيد زين ، ومن البنات التي أدركنا عليهم في حياته بنتين ، كلهم تزوجوا ولهم أولاد ، وواحدة ممن أدركنا توفت في حياة والدها صغيرة . وله من غيرها ولدان وبنتان، أم أحد الولدين عربية كثيرية واسمه محمد، وأم الآخر جارية أم ولد ، وأم إحدى البنتين شريفة من آل البيتي ، والأخرى أمها مع أحد من آل بافضل . ولما وُلِدَت فاطمة - أم أولاد سيدنا - أتى بها أبوها حسن حينما ولدت إلى عند سيدنا ، وقال : « اِمْسَحْ عليها وادْعُ لها ، وعسى أن تكون زوجتك » ، فتبسم سيدنا ، فاتفق أن تزوجها ابنُ عَمٍّ لها ، وما استقامت معه ، فطلقها بكراً ، ثم تزوجها سيدنا ، فكتب الله أن يكون ذريته منها .

قال : « **واستملى مِنَّا رسالة المذاكرة وإتحاف السائل : السيد علي بن عمر بن حسين ، و استملى من أول رسالة المعاونة ، إلى الكلام على التوبة محمد بن عتيق . واستملى النصائح من أولها إلى الكلام في الحج السيد حسن بن علوي الجفري وكذلك التائية ، وآخرها السيد عيدروس بن عمر ، ومعظم الدعوة الولد حسين** » هـ .

أقول : السيد حسن الجفري صهره ، تزوج سيدنا بنته ، وماجاءه منها أولاد . والسيد عيدروس ابن أخته أدْرَكْتُهُ ، وهو كالمجذوب . وكل هؤلاء المستملين منه كانوا تلامذته ، واستملاهم قبل تجيه الأولاد ، وأكبرهم من بنت باحسن السيد حسين ، ولهذا أدرك من إملائه أكثر « الدعوة » ، ثم بعد ذلك أكثر من يملي عليه من الأولاد ابنه السيد علوي .

وما بعد الدعوة مؤلفات ، بل هي آخرهن ، ولكن من الأوراد مما أملاه عليه : ورد الصباح والمساء الكبير ، سوى النبذة الصغيرة في ذلك ، وأدعية الصلوات بعدها والأذكار ، ولكن تتمة دعاء يا باسط، من قوله : « **اللهم بارك لنا في قلوبنا** » ، استملاه السيد علوي وما قبله . واستملى المكاتبات ، وما كتب لبعض المحبين من الأوراد والوصايا ، وأجوبة الرسائل وغير ذلك ، إلى أن توفي والده ، هو المستملي لها . وأما أول المكاتبات والوصايا والحكم ومعظم الديوان إلى قصيدته : « **يا رحمة الله زوري** » ، فكل ذلك قبل الأولاد ، و هذه القصيدة استملاها ابنه السيد حسين ، وما بعدها إلى آخر الديوان . و من المكاتبات المؤرخات سنة خمسة عشر ومائة وألف إلى وفاته ، كلها استملاء السيد علوي هـ .

قال : « **والمؤلفات التي أَلَّفْنَاهَا من غير سؤال أحد ، أبلغ وأشمل من التي سُئِلْنا فيها ، ولهذا لم نُجبْ أحداً بَعْدُ فيما ما سأل ، لأن الذين كانوا سألوا قد مضوا ، ولا شك أن ما كان لله فهو أحسن ، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾** » .

ثم قال : « **المراد بهذا الكلام من سأل ، فألَّفنا لأجله شيئاً من الرسائل ، وأما من سأل عن مسألة أو مسألتين فأجبناه عنهما ، فلا يدخل في هذا** » هـ .

أقول : والذي سأله فألَّفَ له كتاب « إتحاف السائل في أجوبة المسائل » ، وكان من ذرية الشيخ عبدالله بن محمد باعباد القديم ، وله دعاء ختم القرآن : « اللهم انفعنا بالقران وعُمَّنَا بالغفران » ، وكان من تلامذة سيدنا الفقيه المقدم ، لما زار سيدنا جده المذكور في مقبرة مدينة شبام ، ورأى اجتماع الناس على سيدنا واعتقادهم فيه ، سأله مستعجزاً ليرى ما عنده من العلم ، فترك سيدنا جوابه وجعل ترك الجواب له جواباً .

ثم كرر السؤال عليه مراراً ، وهو لا يجيبه ، حتى رأى الرجل جده الشيخ عبدالله المذكور ، وهو معرضاً عنه وغاضباً عليه ، وعالجه أن يكلمه حتى تعب الرجل من ذلك ، فقال : « ما ذنبي حتى تغضب علي ؟ » ، فقال له بعد العلاج : « أتسأل السيد عبدالله الحداد مستعجزاً لترى ما عنده من العلم، فماذا تكون أنت وعلمك » ، و لامه كثيراً ، فانتبه من منامه متأسفاً ، واستغفر وتاب مما جرى له، ثم كتب إلى سيدنا بعقيدة واحترام ، وسأله الحِلَّ والدعاء ، فحلَّله ودعا له ، ثم أجابه بكتاب « إتحاف السائل في أجوبة المسائل » هـ .

قال رضي الله عنه : « **كل من طلب مِنَّا تصنيف كتاب ما انتفع به ، فلما رأينا ذلك منهم لم نُجِب من**

طلب شيئاً إليه . وقد أعطانا الله البركة ، بارك الله سبحانه في كتبنا ، فانتشرت لكثرة من يطلبها ، وليس ذلك في كتب سلفنا ، لكنهم حفظوا كتبهم بالعمل - أي أهل ذلك الزمان - وهؤلاء حفظوا كتبنا بكتابتها ، وهذا دليل على أن أولئك عملهم أكثر من قولهم ، وهؤلاء قولهم أكثر من عملهم ، فهم أكثر عملاً وهؤلاء أكثر طلباً .

وأحبُّ كتبنا إلينا الدعوة التامة ، لأنها عامة ، لكل أحد منها نصيب ، وقد يقع لواحد نصيب في جملة أصناف منها ، فمن كان فقيراً متجرداً عالماً ، فله حظٌّ من هذه الثلاثة الأصناف ، وهكذا إن قَلَّ أو كثر ، لكنا نقول كما قال الإمام الغزالي بالنسبة إلى وقتنا وهو بالنسبة إلى وقته ، بيت :

غَزَلْتُ لَهُمْ غَزْلاً دَقِيْقاً فَلَمْ أَجِدْ لـه نَاسِجاً غَيْرِيْ فَكَسَّرْتُ مِغْزَلِيْ

لكنا ما أقول كسرت مغزلي ، بل عاده باقي ، ولعله قال ذلك آخر عمره أو عند موته ، وعندما مضينا إلى الحج لم يكن من كتاب النصائح إلا ستة كراريس إلى آخر ذكر زيارته عليه السلام ، وحملناها معنا بقصد أن نتمها في السفر ، ظننا أن السفر أكثر فراغاً من الحضر ، فإذا به أكثر شغلاً منه ، ولا سيما في البحر ، فإنه تختل فيه أمور الدين والدنيا ، فلم نُعَرِّج عليها ، ولا طَالَعْنَا في كتاب ، إلا إنها - أي الكراريس - قُرِئت في الروضة المنورة ، عند رأسه الشريف ، وذلك آخر الكلام في الحج » .

قال : « طلب منا بعض المحبين من أهل الحرمين أن يُجَرِّد أحاديث هذا الكتاب - يعني النصائح - فقلنا له : إن أردت أن تُجَرِّدَه وفيك أهليه لذلك فافعل ، وأَذِنَّا لك في ذلك ، وإلا فلا تتعرض ، ومن عادتنا إذا طلب منا أحد شيئاً أنَّا نساعده . وقد كتب إلينا بعض من يَدَّعي أنه من ذرية العباس ، يطلب منا عمامة ، فقلنا : أما العمامة فلا ، لئلا تدَّعي الخلافة ، لكن كوفية . وقد احتج بنو العباس في استحقاقهم الخلافة بعمامة صارت إليهم من محمد بن الحنفية ، وهي من عمائم رسول الله ﷺ . ومن عادتنا إذا كتب إلينا محب أو سأل ، أن نتنزل له ، لأن التنزل فيه جَلْبٌ ودعاءٌ إلى الله » .

قال في « النصائح » : « وليس يقدر الإنسان على أن يميت نفسه على الإسلام ، ولكن قد جعل الله له سبيلاً إلى ذلك ، إذا أخذ به كان قد أتى بالذي هو عليه ، وامتثل ما أُمِرَ به وهو أن يختار الموت على الإسلام ، ويحبه ويتمناه ، ويعزم عليه ، ويكره الموت على غيره من الأديان ، ولا يزال داعياً متضرعاً وسائلاً من الله أن يتوفاه مسلماً ، وبذلك وصف الله أنبياءه والصالحين من عباده . فقال مخبراً عن يوسف عليه السلام : ﴿أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ۝١٠١﴾ . وعن السحرة حيث آمنوا فتوعَّدهم فرعون بالعقوبة : ﴿رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾» .

فقال سيدنا عندما سمع هذا ، وقد مر في الدرس : « السبيل إلى كل شيء استيفاؤه جميع أسبابه وشروطه مع قدرته عليه بها ، بحيث يتوقف على اختياره لو أراد لَفَعَلَهُ فلا يعذر بتركه ، ولو تعلل بتوكل وبقي لحماً على وضم ، حتى يعجز عنها بما ذكر ، فحينئذ يتوكل لأن الله عَذَرَهُ ، والأول لم يعذره لأنه أقدره عليه بما يريد أن يتوكل على الله فيه » هـ .

أقول : ودليله ما تقدم من قول صاحب الناقة : « أَعْقِلها وأتوكَّل ، أو أتركها وأتوكَّل ؟ » ، فأمره النبي ﷺ بأن يعقلها ويتوكل ، وعَقْلُها سببٌ لِحفظِها ، فأَمَرَهُ به مع التوكل ، وأن لا يتوكل مع الإضاعة ، وهو تَرْكُ عَقْلِها . فدل على أن لا بد من إستيفاء الأسباب مع التوكل لمن يقدر على الأسباب، وهو المراد بقوله : « أن الله لم يعذره » ، ومن عجز عنها وتوكل فهو المراد بقوله : « لأن الله عذره » ، لأن المتوكل طالب للإستقامة على محاب الله ، فكيف يكون كذلك مع تركه لأوامر الله ، وهي الأسباب التي أمر الله بها ، كما ترى من قول رسوله ﷺ : « اِعْقِلْهَا وَتَوَكَّلْ » .

والجاهل الذي لا بصيرة له يظن أن التوكل ترك الأسباب مع القدرة ، إنما ذلك من أسباب المعاش فقط ، مع كمال اليقين لمن أُقِيمَ فيه على شرطه المذكور .

قال : « ضعيف الدين يخشى عليه ذهاب دينه ، حتى عند أدنى شدة دون الموت ، فضلاً عنه ، فتراه مع غاية صحته ، فإذا افتقر مثلاً ، ضَيَّعَ دينه وطلب المال الحرام ولم يبالِ ، وقس على هذا ، فكيف عند الموت ، فيُخشَى عليه عنده جدًّا . ومن ضعفه ترك واجبٍ أو فِعْل حرام ، فإن ذلك دليل على إستهانته بالدين - أي إستهانة الفعل - بأن لا يبالي صَلَّى أم لا ، زكَّى أم لا ، صام أم لا ، حج أم لا ، ويعيش العمر الطويل لا يَهِم بالحج ، وإن حَجَّ فَحَجٌّ غير مستقيم » .

قال فيها : « وفي قوله تعالى : ﴿ثُمَّ كَانَ عَٰقِبَةَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ ٱلسُّوٓأَىٰٓ أَن كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ بِهَا يَسْتَهْزِءُونَ ۝١٠﴾، ما يدل على ذلك » .

قال ما معناه : « **إنما يتعين الإنكار على حسب ما ذكر إذا رآه وتحققه ، أما إذا لم يره بل نُقِلَ إليه أو أمر بالواجب فوعد بالفعل ، أو قال قد فَعَلْتُ ، أو أنكر فعل المنهي ، أو أن الوقت مُتَّسع ولم يصلِّ بعد، فالأمر في هذا واسع . ولهذا إذا نَظَرْتَ إلى مثل هذه الأعذار ، ترى المنكَر قليلاً ، وبالجملة أن من أقر بجميع الأمور الشرعية ، ما عليك أن تتقصى عليه** » هـ .

أقول : إذا ثبت لك العذر فما لك وللتقصي والمبالغة في الأمور .

وفي جهة حضرموت مَثَلٌ يُضرَبُ لمن يستحسن حالته المذمومة ويأنف إذا نُهِيَ عنها ، فيقولون : « من عشق علته فليس له طبيب » ، وسمعته من سيدنا غير مرة ، ولقد صدق . فإنه إذا استحسن حاله ورأى أن المذموم خلافه ، وأنه على صواب ، وأنه لا باس عليه في ذلك ، فبعيد أن يطيع من نهاه أو يترك لقوله ما رآه . فانظر شارب التنباك ومستنشقه مثلاً ، لو نَهَيْتَهُ أبد الدهر لَمَا أطاعك ولا سمع منك ، ويُلَبِّسُ عليه الشيطان بأمور يحاججك بها ، ويرى أن له فيه نفعاً ومصلحة ، كقوله : البلغم يشغلني وهو يخففه عني ، وإن رأسي يؤلمني والتنباك شفاء لي من ذلك . وغير ذلك من التمويهات الشيطانية ، فقس على ذلك هـ .

قال : « **لا يُزَال المنكَر بمُنكَر آخر ، هل تغسل النجاسة بالبول ؟** » هـ .

أقول : يعني إذا أمر ونهى ، ومع ذلك تكَبَّر ورآى نفسه بعين الكمال ، لأن الكِبْر والعُجْب والتعنيف وإظهار الشماتة ونحو ذلك من المنكرات القلبية ، وهي أفحش من المنكرات الجسمية التي نهي عنها ، فلا تزول تلك مع وجود هذه هـ .

قال : « **قوله تعالى** : ﴿فَٱقْتُلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ﴾**، هذه الآية نسخت مائة وخمسين آية ، وهي آية السيف وآية القتال .و قوله تعالى** : ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ﴾**، أوَّل آيةٍ نزلت في الجهاد** » .

وذكر في حديث : « ومن خَلَفَ غازياً في أهله بخير فقد غزا » ، **قال** : « **خَلَفَهُم بصيانةٍ وأمانةٍ ودَفْعٍ ونَفْعٍ** » .

وفي حديث : « بَرُّوا آباءَكُم تَبَرَكم أبناؤكم » ، **قال** : « **لأن الجزاء من جنس العمل ، وهذا جزاء عاجل في الدنيا قبل الجزاء في الآخرة** » .

ولما مر في الدرس في قوله في « النصائح » : « **ويُستَحب للوالدين أن يُعِينوا أولادهم على برِّهم..** »،

إلى أن قال : « فإذا فعل ذلك سَلَّمَهم من إثم العقوق » ، فعند قوله : « فإذا فعل » ، قال : « يجوز في اللغة الإنتقال من الجمع والتثنية والإفراد ، من أيها كان إلى الآخر ، كما يجوز الإنتقال من الخطاب إلى الغَيْبَة وبالعكس » .

وفي قوله : « وينبغي للإنسان أن لا يتعدى بصدقته أقاربه » ، قال : « وهو يعلم ، فإن وَسِعَتْهُم مع غيرهم عَمَّهُم بها ، وإلا خَصَّ الأقارب ، لكونها عليهم صدقة وَصِلَة ، وعلى غيرهم صدقة فقط ، فإن خص بها الأجانب مع علمه بحاجة الأقارب فقد أساء وظلم ، ولا يقبل الله صدقته » ، قال : « والأخذ من الزكاة أفضل من الأخذ من صدقة التطوع » .

قال : « إن السلف سموا من يتزوج للمال لِصًّا ، وسَمَّى عمر رضي الله عنه المرأة كنيفاً » .

قال : « وينبغي أن تكون تابعة للزوج ، لا أن تكون متبوعة له . وقد قيل في تفسير قوله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ ٱلْقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ﴾ : هو النساء ، يتولين الأمور أو يكون الرأي لَهُنَّ ، ﴿أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ﴾ ، هم العبيد والإماء ، ﴿أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا﴾ هو الفتن والإختلاف في الأمور » .

وعندما مر في « النصائح » من حقوق الصحبة ، قال : « وجملتها أن تحب له ما تحب لنفسك من الخير ، وتكره له ما تكره لنفسك من الشر » ، وطَوَّلَ في تعدادها فقال عند ذلك : « ينبغي لكل واحد منهما أن يطالب نفسه بهذه الحقوق لصاحبه ، ولا يختص بأحدهما لصاحبه دون الآخر » .

أقول : ومن عدم إنصاف أهل الزمان ، أن يلوم صاحبه إذا قَصَّرَ في حقه ، ولا يلوم نفسه إذا قَصَّرَ هو في حق صاحبه . ولهذا قال سيدنا : « ينبغي لكل واحد .. إلخ » .

أقول : ولما ذكر سيدنا في كتابه « النصائح » ، وذكر أيضاً في « الدعوة التامة » ، حكم بيع التطوع والعهدة وذَمَّهُ وطَوَّل في ذَمِّها ، وقال : « الحيلة في الربا من الربا » ، وذكر أن الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بافضل صاحب المختصر سُئِلَ عنها فقال : « هي مسألة مظلمة ، أرجو أن الله يُقَيِّض لها من يزيلها » .

فأقول : حاصل الكلام فيها أنها عند مَن جَوَّزَها كإيمان المنافق ، فكما تجري عليه أحكام المؤمنين في الدنيا ، من عدم جواز قتله وسبي ماله واسترقاق أهله وأولاده ، حتى إنه ﷺ استؤذن في قتل ابن أبي ، فأبى وقال : « لا ، لئلا يتحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه » ، والمستأذِن ابنه عبدالله ، لما حصل منه من الكلام في حق النبي ﷺ ، حتى نزلت في ذلك سورة « المنافقون » ، وهكذا حُكْمُ المنافقين في الدنيا حُكْمُ المؤمنين ، وهم في الآخرة أشر من الكافرين ، في الدرك الأسفل من النار ، لمخادعتهم لله ورسوله، بدعوى الإسلام بفعل ظواهر أحكامه مع مخالفتهم للإيمان بعدمه في بواطنهم .

فكذلك قول مَن جَوَّزَها ، أنها تجري عليها الأحكام الظاهرة في الدنيا ، وفي الآخرة هي من أربى الربا ، لاستحلاله بها ما هو ربا صريح ، وإنما لَبَّسَ فيها بذلك العقد والنذر تَحَيُّلاً وخداعاً ، فإن ذلك يسلك في الدنيا ، إذ هي محل التلبيس والخداع . وأما في الآخرة حيث تظهر المخبئات ، ولا يسلك فيها إلا الصدق والحق والعمل الخالص الصافي من الزغل والتلبيس ، ﴿يَوۡمَ لَا تَمۡلِكُ نَفۡسٌ لِّنَفۡسٍ شَيۡـًٔاۖ وَٱلۡأَمۡرُ يَوۡمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾، فلا ينفع ذلك التلبيس هناك ، وتظهر حقيقة ذلك هنالك .

وفي هذا خطر اعتقاد حِلِّيَّةِ الربا وهو كفر ، كل ذلك على مقتضى القول بجوازها وقول مَن جَوَّزَها، وأما القول بعدم جوازها ، فهي عنده باطلة أحكامها في الدنيا ، وهي في الدنيا والآخرة ربا خالص لا غبار عليه . ولما فيها من التلبيس والتَّحَيُّل ووضع النذر في غير موضعه والتواطؤ على المنكر ، وحصول الربا، وأخذ المال بالباطل ، فإنه إذا أعطاه دراهمه بعدما قبض من الثمر والزرع شيئاً كثيراً ، أو من المنافع ، فيكون ذلك في مقابلة ماذا ؟ وفي الحديث : « فَبِمَ يستحل أحدكم أخذ مال أخيه » ، ولو كان صادقاً في البيع على ما هو مقرر في الشرع ، لكان يود زيادة درهم في الثمن ، ولا نقصان درهم ، فكيف يبيعه بعُشْر الثمن ؟ ما هذا التلبيس الكذب الذي يُلَبِّسُون به في دين الله ؟

قاتل الله من فعل ذلك ، يا سبحان الله ألا مُنكِرٌ لهذا المنكَر ؟ بل تعاطى الكل ذلك ، فسكتوا واصطلحوا كي لا يفتضحوا ، ودعواهم أنه إذا جَرَت الأحكام في الدنيا على القانون فيكون كذلك في الآخرة ، كَذِبٌ على الله ورسوله ، فلو كان الأمر كذلك لجرى على المنافق في الآخرة أحكام الإسلام ، كما كان في الدنيا ، وليس الأمر كذلك ، لما تَوَعَّدَ الله به أهل النفاق من شديد العذاب في الآخرة ، وأنهم في الدرك الأسفل من النار .

وذكر حديث : « لا تَحِلُّ المسألة لقويٍّ ، ولا لذي مِرَّةٍ سَوي » ، *ثم قال* : « **بأن يقدر أن يصون نفسه، ولو باحتطابٍ ونحوه ، فإن السؤال من الفواحش ، كالزنا والسرقة ، ما أُحِلَّ من الفواحش إلا هو عند الضرورة** » .

وذكر حديث : « الكبرياءُ ردائي ، والعَظَمَةُ إزاري ، فمن نازعني واحداً منهما أَلْقَيْتُهُ في النار » ، *قال* : « **أي من صفاته الخاصة به ، التي لا حَظَّ للعبد فيها بشيء أصلاً** » .

وذكر قصة الذي أعاد صلاته أربعين سنة ، لما كان هذه المدة كلها مواظباً على الصلاة في الصف الأول ، فتأخر يوماً حتى ما أدرك الصلاة إلا في الصف الأخير ، فخجل لذلك ، فقال : « إن صلاتي هذه ما هي خالصة لله » ، *فقال* سيدنا : « **كان يكفيه أن يستغفر من تلك الخطرة ، وما مرادهم إلا مجاهدة**

النفس بهذا ، فإنها عدو محبوب ، ومحبوب عدو .

وفعلهم هذا لا يدل على بغضهم لها ، فإنهم معها كالذي يُرَبِّي ولده أو دابته ، وإن ضربه ، فإنه مع ذلك يحبه ، وإنما ضربه لإصلاحه ، فالمراد تهذيبها لا قتلها ، وإلا لأُمِرُوا هذه الأمة بقتل أنفسهم ، كما أُمِرَ بذلك بنو اسرائيل » .

وذكر بعض الفقراء الذين كانوا متعلقين بالسادة آل باعلوي ، وذلك بعد تهليل ليلة الخميس ٢٩ من المحرم عاشور سنة ١١٢٨ ، فقال له بعض السادة الحاضرين : « ما عادهم من الفقراء ألَّا كذا» ، كلمة تُشعِر بنقصهم ، فقال سيدنا : « كلهم هكذا - يعني بمثابة واحدة على هذا الوصف - في صور فقراء ، وهِمَمُهُم همم الرعاع ، وكان الناس بالعكس ، صورهم صور رعاع وهممهم همم فقراء. فانظر كيف انعكس الأمر ، لكن عسى اللطف ، عسى اللطف ، هذا بسبب النزول ، فإن الزمان ينزل إلى اسفل ، وما زال الناس في نزولٍ من أعلى إلى أسفل ، وما بينهما ، فالعلو لأهل العلو والسفل لأهل السفل ، ﴿لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ۝٦﴾، وكل هذا لِيَعْمُرَ اللهُ سبحانه بهم الدنيا ، فكما عَمَرَ بهم الدنيا ؛ كذلك يَعْمُرُ الله بهم الاخرة » .

وفي حديث : « ثلاثٌ لا يخلو منهن أحد : الحسد ، والظن ، والطيرة ، أفلا أنبئكم بالمخرج من ذلك ؟ إذا حَسَدْتَ فلا تَبْغِ ، وإذا ظَنَنْتَ فلا تُحَقِّق ، وإذا تَطَيَّرتَ فامْضِ » ، قال : « معنى فلا تبغ : أي لا تتكلم بالحسد ولا تعملَ بما يتقاضاه . ومعنى فامض : أي لا ترجع بسبب التطير عن الأمر الذي تريده » .

أقول : ومعنى « لا تُحَقِّق » ، أي إذا ظَنَنْتَ فلا تقطع بظنك ، فتجعله كاليقين ، لأن في الحديث : « الظن أكذب الحديث » .

قال في « النصائح » : « وإنْ عَمِلَ الحاسدُ بضد ما يتقاضاه الحسد ، من الثناء على المحسود ، والسعي في إكرامه ومعاونته ؛ كان له في ذلك فضل ، وهذا من أنفع الأدوية في إزالة الحسد أو تضعيفه » .

ثم قال في مجلس القراءة عند سماعه لذلك : « وهذا دواءٌ نافعٌ في جميع الصفات ، فإن العمل على خلاف ما تقتضيه يُضعِفها ، والعمل على ما تقتضيه يقويها . والقاعدة في أمراض الأبدان : أن السبب الذي حصل منه المرض يُداوى بضده ، فإن كان السبب الذي حصل منه المرض قوة برودة يُداوى بما فيه قوة حرارة ، أو كان حصل المرض بسبب غلبة الحرارة يُداوى بما فيه قوة برودة ، أو يبوسة فيداوى

بالرطوبة ونحو ذلك » هـ .

أقول : ومراده أنه كذلك أيضاً في أمراض القلوب ، على ما ذكر في النصائح هـ .

قال في « النصائح » ، حديث : « **خصلتان ليس فوقهما شيء من الخير : حسن الظن بالله ، وحسن الظن بعباد الله . وخصلتان ليس فوقهما شيء من الشر : سوء الظن بالله ، وسوء الظن بعباد الله** » .

قال : « **ومعنى سوء الظن بعباد الله : أن تظن السوء في أقوالهم وأفعالهم التي ظاهرها الخير ، فتظن بهم خلاف ما يُظهِرون** » .

وفي مجلس القراءة ، قال : « **كمن تراه يصلي أو يصوم ، فتظنه يفعله رياءً أو ليُعطَى شيئاً ، ولا قرينة تدل على ذلك ، فإن كان قرينة ؛ فذلك ظاهر حاله** » .

وذكر حديث : « الزهادة في الدنيا تريح القلب والبدن ، والرغبة في الدنيا تكثر الهم والحزن ، والبطالة تقسي القلب » ، لما سمعه في قراءة القاري فيها : « أن البطالة » ، قال : « **لأنه فارغ لم يكن في عمل دين ولا دنيا ، ويؤديه ذلك إلى اللهو فيقسى القلب بسبب ذلك** » .

ومر حديث : « إن الله يقبل توبة العبد ما لم يُغَرْغِر » ، أي تبلغ روحه الحلقوم من الموت ، فقال : « **للإياس من الدنيا بقرب الموت ، وهذه توبة الإضطرار ، لا تُقْبَل ، وهي كهي بعد طلوع الشمس من مغربها . وتوبة الإختيار قد تقع في مرض أو حال خوف ، وهي مقبولة** » هـ .

أقول : وفي هذا المعنى يجري معنى قوله تعالى : ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبۡلِ أَن تَقۡدِرُواْ عَلَيۡهِمۡۖ فَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ۝٣٤﴾، أي يقبل التوبة ويغفر قبله لا بعده .

وفي قوله : « **ينبغي للمؤمن أن يكون بين الخوف والرجاء كجناحَي الطائر وكفتي الميزان** » ، قال : « **أي يرجو كما يخاف ، ويخاف كما يرجو** » .

قال في « النصائح » : « **وأصل الشكر معرفة العبد بأن جميع ما به من النعم ، وما عليه منها في ظاهره وباطنه ، أن كل ذلك تفضلاً من الله تفضلاً منه سبحانه وامتناناً** » ، قال : « **ويرجو بأن يتفضل عليه بزايد على ذلك كما تفضل به** » .

قال في حديث : « لو توكلتم على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خِماصاً وتروح بِطانا » ، قال : « **إنما مثل بالطير لأن الطير لا تهتم بأمر الرزق ، بل تأكل ولا تحمل إلا لفرخها ، وليس**

لها مكان واحد مخصوص » .

قال فيها : « ثم إن الأسباب على قسمين: دينية ودنيوية . فالأسباب الدينية : مثل العلوم النافعة ، والأعمال الصالحة التي لا بد منها ، فلا بد لكل مسلم من إقامة تلك الأسباب والعمل بها ، مع الإعتماد على الله دونها . وأما الأسباب الدنياوية : فكالحِرَف والصناعات ، وسائر ما يتسبب به الناس لتحصيل معاشهم . وهذه الأسباب لا يجوز للإنسان ترك ما يحتاج إليه منها ، ولا يستغني عنه ، إلا إن كان عاجزاً لا يستطيع السعي والحركة ، أو كان ممن أقيم في ذلك من عباد الله أهل المعرفة واليقين .

وعلى كل حال فليس يجوز للإنسان أن يترك التسبب لمعاشه الذي لا بد له منه ، إلا إن كان عاجزاً، أو ممن أقيم في التجريد من أهله . ويحرم على الإنسان أن يقعد عن الإكتساب الذي يقدر عليه ويحتاج إليه ، ويترك نفسه وعياله ضياعاً يسألون الناس ، ويتشوَّفون إلى ما في أيديهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : كفى بالمرء إثماً أن يضيع من يعول » ، تم ما أردنا نقله من عبارة النصائح .

ثم لما سمعه في الدرس ، قال : « مثل هذا الذي ذكرناه هو الذي ينبغي لمن أراده من أهل الزمان ، وما ذُكِرَ في الأربعين الأصل ، وغيره مما ذَكَرَهُ الإمام الغزالي وغيره ، فيتكلمون به لمن يفهم في أزمنتهم ، وهذا لمن لا يعرف ، وهو أوضح مما ذكروه » .

قوله : « ويحرم على الإنسان أن يقعد عن الإكتساب الذي يقدر عليه » ، قال : « بأن يُحسِنَه فيعمل فيه ما يكفي نفسه وعياله » .

قال في « النصائح » : « فليُحْسِن ظنه بربه ، ولْيَرْضَ بقضائه ، ولْيَرجع إليه بِذُلِّه وافتقاره ، ولْيَقِف بين يديه بخضوعه وانكساره ، ولْيُكْثِر من حَمْدِهِ والثناء عليه في يُسْرِهِ وعُسْرِهِ » ، ثم قال في المجلس : « هذا كلام في المحبة والرضا كافي مُقنِع ، ويردع العامي عن الباطل ، في كلام المحققين ، فإنهم إذا رأوا غزلاً ونحوه يظنون فيه ما يكون كفراً ، ولا يكاد يوجد في شيء من الكتب لِوَجَازَتِهِ ووضوحه » .

وقال في حديث : « نية المؤمن خير من عمله » : « لأن النية قلبية ، لا يتطرق إليها الرياء ونحوه ، بخلاف أعمال الجوارح » .

وعبارة « النصائح » : « وذلك لأن النية عمل القلب ، والقلب أشرف من الجوارح ، فكان عمله خيراً من عملها ، ولأن النية تنفع بمجردها ، وأعمال الجوارح بدون النية لا نفع لها » .

وعبارتها : « فالمراقبة من مقام الإحسان ، ومن تحقق بها أَثْمَرَت له الخشية من الله تعالى ، والحياء

من الله سبحانه أن يره حيث نهاه ، أو يفقده حيث أمره » ، قال حينئذ : « ذكروا أن ذلك لا يثبت على الدوام، ولكن من معه استشعار تام بنظر الله إليه ومراقبته ، فقد يغفل ، أو تجيه وساوس مِن قِبَلِ نفسه يغفل بها عن ذلك ، لو في قليلٍ من الاوقات » .

قوله : « ولا تُطَوِّل أَمَلَكَ فيثقل عليك عملك » ، قال : « هذا إذا ثَقُلَتْ ملازِمة طاعة الله ، ومدوامة الأوراد ، والزهد في الدنيا » .

وفي العقيدة آخرها قوله : « ولو أنه سبحانه أهلك جميع خلقه في طرفة عين ؛ لم يكن بذلك جائراً عليهم ولا ظالماً لهم ، فإنَّهم مِلكُهُ وعَبيدُهُ » ، قال : « على أنه تعالى لا يفعل ذلك إلا لمن خالفه ، كما فعل في الأمم السالفة بإهلاكهم وإنجاء المؤمنين . وهذه أشياء يعتقدها الإنسان ، ولا يعتقد أنه تعالى يفعلها، إذ لا يفعل إلا ما أخبر تعالى أنه يفعله » .

« وأن يؤمن بحوض نبينا ﷺ » ، قال : « ليس في الجنة عطش ولا جوع ، ولكنهم يشتهون الشرب والاكل » .

قال : « الإنقسام في أهل النار دون أهل الجنة » ، وقال : « أنهم ينقسمون إلى مُخْرَج منها ومخلَّد ، بخلاف أهل الجنة ، مَن دَخَلَها لا يخرج » هـ .

ولما تمت قراءة العقيدة التي ختم بها الكتاب ، قال في المجلس : « هذه أشياء تحتاج إلى الفهم والحفظ ، لأنها أَلَّا عقيدة ، لا تتمكن في الباطن حتى تُحفَظ وتُفهَم ، وهذه جملة الإعتقاد ، وما زاد على ذلك لا ينبغي الخوض فيه ، وإنما عليه بعد ذلك العمل » .

و صافحه رجل ، وذلك عشية يوم الإثنين ١٦ شعبان ١١٣١ ، فسأله عن اسمه ، وكان ذلك من عادته أنه يسال من صافحه عن اسمه واسم ابيه ، ثم قال : « لنا في ذلك من السيد عمر - يعني العطاس - وله هو فيه طريقة من شيخه السيد عبدالله بن علي - يعني الوهط - فكان من عادة السيد عمر ، والسيد عبدالله سؤال الإنسان عن اسمه واسم أبيه » .

ذِكر كلمات ذكرها في رسالة المريد ثم تكلم عليها في مجلس القراءة

قوله : « لوعة الإرادة » ، قال : « هي حركة شديدة تحثه على السلوك المذكور » .

قوله : « ومحو كل رسم وعادة » ، قال : « أي من عادات النفس » .

وقوله في حديث النية : « فمن كانت هجرته إلى اخرها .. » ، قال : « لكن الكلام وقع في ذِكْرِ سبب الهجرة ، أي فجرى التخصيص بها لذلك السبب ، وهو عام » هـ .

أقول : يعني أن طلب النية عامٌ في جميع العبادات ، لا بد منها فيها ، وفي توجيه العادة إلى العبادة ، لا في نفس الهجرة فقط .

وذِكْرُها فيها كالتمثيل بها ، يعني كما وجبت فيها ، أي في هذه العبادة التي هي الهجرة ، كذلك وجبت في غيرها من سائر العبادات ، وبلاها لا تصلح العبادة ، وتبقى العادة على أصلها المباح الذي لا ثواب فيه ولا إثم ، وإنما تنتقل إلى العبادة ، فيحصل بها الثواب بالنية .

قوله : « انتظار الصحة بطالة » ، قال : « أي يريد أن يعمل ، لكن يقول : لا بد أن أتفرغ لذلك . أنت فارغ ، فاعمل على قدر فراغك ، وعلى حسب حالك » .

قوله : « رعونات النفوس » ، قال : « أي كذب النفوس وكِبْرها ، فمتى تفرغ ما دامت في هذه الدنيا ، فخذ بالجد في العمل الصالح » .

قوله في الباعث الآتي ذِكره : « وكثير ما يفتح به على العبد عند التخويف والترغيب » .

قوله : « وعند النظر إلى أهل الله والنظر منهم » ، قال : « فالنظر إليهم بأن ينظر إليهم بنية صادقة وعقيدة تامة » ، قال : « والنظر منهم إذا نظروا إليه وقَبِلَتْهُ قلوبُهم ، فقد ورد النظر إلى العالِم عبادة » هـ .

أقول : ولا يتعين نظرهم الحسي ، بل لو كان في أقصى الأرض ولا نظروه بعيونهم الحسية ، بل تَبَيَّنَ لهم منه الإعتقاد ، وقبلته قلوبهم ، فإذا تبين اعتقاده ، طُلِبَ منه علامة حسية تدل عليه ، وإذا تبين لهم منه الإعتقاد مع قبول قلوبهم له ، وضعوا عليه نظرهم ، وطلب لوضع النظر منهم عليه علامة حسية تدل على ذلك . وكفى لهذا المعنى شاهداً ودليلاً ما جعلت مباني الإسلام الخمسة شاهداً ودليلاً عليه من موارد الإيمان الستة ، وهي : الإيمان بالله ، وملائكته ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره .

إذ هذه أمور باطنة معنوية ، وتلك أمور ظاهرة حسية تدل عليها ، ومن عمل هذه الحسية مع خلو قلبه من تلك المعنوية كالمنافق ، كان مقته وعذابه أشد من المجاهر بالكفر ، لمخادعته ، وهذا في معنانا ، كمن يدَّعي المحبة والعقيدة كذباً ، ودعوى بلا حقيقة ، ولربما أسدى معروفاً فيظهرهم الله على حقيقة أمره ، ولا يضعون عليه نظرهم .

ومثاله أن رجلاً سأل سيدنا عبدالله عن مسائل يستعجزه بها ، وكرر السؤال ، وأظهر الإعتقاد ، فلم يُجِبْهُ ، وتركه وجعل تَرْكَ الجواب له جواباً ، ثم إن الرجل رأى جدًّا له وكان من كبار الصالحين وهو غضبان عليه ، وقال له : « ويحك ، أتستعجز السيد عبدالله الحداد ؟ ما تكون أنت وعلمك ؟ » ، فأسف على ما فعل وتاب ، وطلب من سيدنا الحِل والدعاء ، ثم سأل بنية واعتقاد ومحبة ، فأجابه حينئذ بإتحاف السائل بأجوبة المسائل .

ومثال ذلك أن امرأة مباركة من أهل الحساء ، كانت لها في سيدنا عقيدة صحيحة ، فأَرْسَلَتْ له عباءة قطنية ، وقالت لمن يقول له : « هذه هدية من فلانة ، مهديتها لكم » ، قال : « **مهديتها لنا ؟** »، قال: « نعم » ، قال : « **قَبِلْنا الهدية** » . ثم بعد أيام أعطى الذي قَدَّمَها له سبحة ، وقال : « **أَرْسِلْهَا لفلانة** »، فأَرْسَلَها وَوَصَلَتْها ، فكانت العباءة علامة حسية دالَّة على محبتها وعقيدتها ، وكانت السبحة علامة حسية من سيدنا دالة على قبول قلبه لها ، ووَضْعِ نظره عليها .

فإذا ثبت حُسْنُ الإعتقاد وقبولهم ، ووَضْعُ النظر منهم، ثبت للمعتقد ببركتهم النفع والإنتفاع في الدنيا والآخرة ، بحصول ما ينفع وإذهاب ما يضر ، من فضل الله وكرمه .

ومن جملة دَفْعِ ما يضر أنَّ هذه المرأة حصل عليها وجع شديد في عيونها ، في كل شهر عشرة أيام من حين يدخل الشهر ، وبعد العشرة تبرأ إلى آخر الشهر ، فإذا دخل الشهر الآخر عاد عليها مِن أَوَّلِهِ عشرة أيام ، ثم تبرأ بعدها ، ويؤلمها ألماً شديداً ، وعلى هذا أخذ عليها نحو عشر سنين ، ثم بعد ذلك رأيتُ سيدنا عبدالله وأنا ماضٍ من المُبَرَّز إلى الهفوف ، فالتقيتُه في الطريق آتياً إلى المُبَرَّز ، فصافحتُه وقبَّلْتُ يده ، فقال : « **إلى أين تريد ؟** » ، قلت : إلى الهفوف ، قال : « **ماذا تفعل ؟** » ، قلتُ : أريد أشتري دواء لعيون فلانة من عند حواويج الهفوف ، قال : « **إِفْعَلُوا لها كذا** » ، وَوَصَفَ لها دواء .

فانتبهتُ مسروراً برويته ، وباعتنائه بها بوَصْفِهِ الدواء ، فأَصْبَحَتْ بعد هذه الرؤيا بارئة من ألم عيونها ، ثم ما عاودها ذلك الوجع إلى أن توفت ، مدة نحو سبع سنين رحمها الله . فانظر واعجب من إعتناء الأولياء نفع الله بهم لمن وضعوا عليه نظرهم أحياءً وأمواتاً .

قوله : « أول الطريق باعث قوي ، وهو من جنود الله الباطنة » ، قال : « حيث رزقه الله العبد ، فإذا حصل له الباعث المذكور فليمض إلى من يَعرفه لِيُعَرِّفه به ويشرحه له ، ويُبيِّن له كيفية الأخذ به ، وهذه حالة التجرد والزهد » .

قوله : « وليحذر من غد بعد غد » ، قال : « أي في الإقبال على الله تعالى والتوبة ، إن احتاج إليها » هـ .

أقول : بأن عَلِمَ من نفسه ذنوباً يلزمه التوبة منها هـ .

قوله : « فإن الذي تكون ذمته مرتَهَنة بحقوق الخلق ، لا يمكنه السير إلى الحق » ، قال : « لأنها تجذبه ويبقى مُقَيَّداً بها ، فيبقى لذلك مُثَبَّطاً ، كأنَّ أحداً يمسكه من قفاه » .

قال : « والمُصِرُّ على الذنب بأن يشتهيه ، ويُحَدِّث نفسه أنه يعود إليه إن تمكن منه » ، قوله : « وشرط التوبة الندم على الذنوب » ، قال : « إن عَلِمَ شيئاً ، وإلا يندم إن كان عليه شيء منها » .

قوله : « ويجتهد في حفظ قلبه من الوساوس والحقد » ، قال : « أي لا يخوض فيها أبداً ، لئلا ينجَرُّ بعضها إلى بعض ، فلا يمكنه بعد ذلك الخلاص منها . والوسواس في العقائد على قسمين : أحدهما ما يعتقد بطلانه ، فهذا لا تُسَاوِرْهُ واتْرُكْهُ ، ولا تسأل عنه أحداً ، فإنك لا تجد من يجيبك عنه . والثاني : ما تشك في كونه حقاً أو باطلاً ، فاسأل عنه أهلَ العلم بالله المحقِّقين » .

« والحقد » ، قال : « هو إضمار البغض للمسلم » .

قوله : « لا ينجو من سخط الله وعذابه ، ويفوز برضوان الله وثوابه ، إلا من أتى الله بقلب سليم » هـ .

أقول : أي كما قال : « سَالِمٌ من الصفات المذمومة بتفصيلها ، والتحلي بالصفات المحمودة بتفصيلها » .

قوله : « للقلب معاصي هي أفحش وأقبح وأخبث من معاصي الجوارح » ، قال : « لأنه المتبوع ، ولأنه أشرف ، فيكون ما نُسِبَ إليه أبلغ ، مِن حُسْنٍ وَقُبْحٍ . وقد شهد الله تعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام بأنه جاءه بقلب سليم ، وبأنه قال : لا ينجو أحد من عذابه ، إلا من أتاه بقلب سليم . وكانت الملائكة تعجبوا أن يتخذ الله من ولد آزر خليلاً ، فلما أراد الله تعالى أن يظهره وكان في موضع خلاء

واسع ، في سفح جبل يرعى غنماً له ، وكان معه أربعون ألف رأس غنم ، وفيها أربعة آلاف كلب ، على كل كلب طوق من ذهب زنته منّان ذهباً ، فأرسل الله إليه ملكين يختبرانه ، فوقف أحدهما في طرف الغنم وقال : سبوح قدوس ، ووقف الآخر في الطرف الآخر وقال : رب الملائكة والروح . فقال إبراهيم لهما : أعيدا ما قلتما . فقالا : لا نعيده إلا أن تعطينا جزءاً من غنمك . فقال : كلها لكما وجسمي وروحي وأعيدا ما قلتما . فعلما أن جسمه في الأرض وقلبه مع الله تعالى » .

قال : « ولو تأمل الإنسان لرأى أن جميع الوساوس الحاصلة في القلب إنما حصلت مِن قِبَل السمع والبصر ، لأنه قد يذكر شيئاً قد رآه أو سمعه فيما مضى من الزمان ، فيبقى يتفكر فيه حتى في الصلاة ، ويحصل له فيها خواطر لا حاجة له بها ولا فائدة له فيها » .

قوله : « وليحترز من الكلام الفاحش » ، قال : « هو القبيح الذي يستحيي الإنسان من ذِكْرِهِ » .

قوله : « ولْيَحْذَر من النظر بعين الإستحسان إلى زهرة الدنيا » ، قال : « وإن كان حلالاً ، فإنه قد يَجُرُّ إلى الإستحسان والرغبة ، وهذا هو الذي أوجب لهم الإنفراد والتخلي من الناس » .

قوله : « وكم من مُريدٍ نظر إلى شيءٍ من زخارف الدنيا ، فمال بقلبه إلى محبتها » ، قال : « أي وترك الإرادة » .

قوله : « فإن جميع الموجودات تنادي بلسان حالها » ، قال : « هذا هو لسان الحال المراد به العِبْرَة ، وهو أبلغ من لسان المقال ، لا أن لها لساناً تنطق به كالآدمي » هـ .

أقول : ومن كلام لسان الحال : الإستدلال بالأثر على المؤثِّر ، وهو المراد بقوله : « فإن جميع الموجودات تنادي .. إلى آخره » ، وقد تقدم تفصيل اللسانَيْن في الكلام والفرق بينهما ، عند قوله : « كانوا لا ينظرون من الإنسان .. » ، إلى قوله : « وإن كان صواباً » .

وإنما ينظرون إلى سيرته إن كان سائراً على الحق والصواب ، وإنه إذا تكلم بأمر ونهي وكان آخذاً به فهذه هي السيرة السوية ، التي ينظر السلف إليها من العبد ، فإذا كان مع ذلك قد رزقه الله نصيباً من السر الذي يقوى به الإيمان ، كما قال ﷺ : « ما فضلكم أبوبكر بكثرة صوم ولا صلاة ، ولكن فضلكم بسر وقر في صدره » ، وقال : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجحها » ، يعني من أجل ذلك السر المذكور . فذلك الذي كلامه كلام الحال ، الذي يقهر السامع على العمل بما أُمر به أو نهي عنه . ومَثَّلنا لذلك بأمر السيد محمد بن عبدالخضر الرفاعي نفع الله به ، بما أمر جماعته به من العبادة والطاعة لما أخبرهم بوقوع الطاعون ، فامتثلوا أمره لما قهرهم قوله على العمل ، حتى جعل أحدهم يصوم الدهر ، وأحدهم يقوم الليل ، وبعضهم خرج من ماله لله . وإنما ذلك لما كان كلامه لهم بلسان الحال كما ذكرنا .

ويقول سيدنا الشيخ عبدالقادر لابنه ، لما طلب منه الإذن في الكلام على الناس في مَحَلّه ، فأبى عليه وقال : « ليس ذلك بالفصاحة والبلاغة ، وإنما هو بِسِرٍّ » ، فأبى الولد إلا الإذن في ذلك ، فأذن له ، فرقى المنبر وتكلم عليهم ببلاغة وفصاحة ، فتبرموا من كلامه ، وسدوا آذانهم عن سماعه ، وتوجهوا على أبيه أن يأمره بالنزول عن الكرسي ، فأمره بذلك فنزل ، ثم قال له أبوه : « ألم أقل لك إنما ذلك بِسِرٍّ لا بالفصاحة » ، ثم قام الشيخ وتكلم عليهم ، فقال : « اعلموا أيها الناس أن أم الفقراء – يعني زوجته – طبخت لي دجاجة ووضعتها في غضارة ، فأَكَلَتْهَا الهرة » ، فجعلوا كلهم يبكون ، ولهم عويل وتَنَشُّغ عند سماعهم لكلامه هذا ، فقال لابنه : « ألم أقل لك إنما ذلك بسر لا بالفصاحة والبلاغة » .

فهذا هو كلام الحال الناشيء عن السيرة الحسنة والسر الإلهي المذكور ، والخالي منهما هو لسان المقال الذي لا جدوى له ، وهو كلام وعَّاظ هذا الزمان ، ولهذا قَلَّ أن تخشع له قلوب السامعين ، ولاتنتهض لسماعه همم العاملين .

قوله : « وينبغي أن لا يزال على طهارة » ، *قال* : « المراد الطهارة الظاهرة ، والباطنة أولى » .

قوله : « وكلما أحدث ، توضأ وصلى ركعتين » ، *قال* : « ركعتين فأكثر ، إن لم يكن وقت كراهة ، وإلا فركعتين فقط » .

قوله : « ولا يخالط أحداً » ، *قال* : « هذه خلوة عامة بين الناس ، والأخرى خاصة ، وهي أن لا يفعل إلا ما لا بد له منه » .

قوله : « وليكن شحيحاً بأنفاسه ، بخيلاً بأوقاته » .

أقول : هذان اللفظان لو كانا في أمور الدنيا لكانا مذومين ومن اتصف بهما ، فإذا كانا في أمور الدين كانا من أكبر الفضائل ومن أعظم الشمائل ، وهذا هو الفرق بين القلب الصالح والقلب الفاسد ، بأن يكونا في الصالح من القلبين في أمور الدين ، وفي الفاسد منهما في أمور الدنيا . وانقلاب القلب من الفساد إلى الصلاح ، ومن الحالة المذمومة إلى الحالة المحمودة ، كانقلاب النحاس ذهباً إبريزاً ، ويكون ذلك بنفحة إلهية وعناية ربانية ، لمن سبقت له من الله العناية ، وجرى له القلم بالسعادة العظمى ، لا يُدرَك بالأماني ، ولا يحصل بالهوينا . تكرم الله علينا من فضله وكرمه ، ورزقنا ما رزقه أحباءه وأولياءه آمين .

قوله : « ولا يأتيك وقت السَّحَر إلا وأنت مستيقظ » ، *قال* : « هو آخر الليل بين الفجرين ، وكان

ابن عمر يبقى يُصَلّي وعنده عَبْدُه نافع ، فيقول : أَسَحَرْنا يا نافع ؟ فيقول : لا . فيركع ثم يقول : أَسَحَرْنَا يا نافع ؟ فإذا قال : نعم . جلس يستغفر إلى الفجر » هـ .

أقول : وذلك عمل بقوله تعالى : ﴿وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ ﴾، و كان الشيخ علي بن أبي بكر باعلوي يرصد له رجلاً بعد صلاة الصبح ليخبره من أين تطلع الشمس ، من المشرق أو من المغرب، وقلبه يرتعد خوفاً من طلوعها من مغربها ، فإذا أخبره إنها طلعت من المشرق ، بَرَدَ خاطرُه وسجد شكراً لله ، هذا حال الخائفين نفع الله بهم . وسمعت سيدنا غير مرة يقول : « إن ابن عباس قال لمولاه عكرمة : لو كُنتَ تروي عني ، كما روى نافع عن ابن عمر ، لكنت تسوى فلساً محترقاً » .

قوله : « فَمَن خَلَتْ عبادته عن الحضور فعبادته هباءً منثوراً » ، قال : « أي ماهي شي ، ما لها ثواب » .

قوله : « ومَن سَرَّهُ أن يذوق شيئاً من أسرار الطريقة ، ويُكاشَف بشيء من أنوار الحقيقة ، فليعكف على الذِّكْر بقلبٍ حاضرٍ وأدبٍ وافرٍ .. إلخ ما قال » ، قال : « هذه شروط الخلوة ، فمن لم يستوفها كلها بتمامها ، يُخشَى عليه » .

قال : « هذه الآية : ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً ﴾، إلى قوله : ﴿لِلْمُتَّقِينَ ﴾ ، هذه أبلغ آية في القرآن في ذم الدنيا والتزهيد فيها ، ولو لم يُمَيِّزهم سبحانه بإيمان وكفرٍ وطاعةٍ ومعصيةٍ ، لكان يميزهم بالدنيا » .

أقول : أي يجعلهم يمتازون بالدنيا ، فيعرف الكافر من المؤمن والعاصي من المطيع بمحبة الدنيا وجمعها .

قوله : « فإن علم المريد أنه لا يستقيمُ قلبُه ، ولا يَسْلَمُ دينُه إلا بالتجرد عن المال وعن الأسباب البتة؛ لزمه ذلك » ، قال : « أي إذا كان في الطريق الخاصة ، لا في الطريق العامة » .

قوله : « وأفضل من الصبر على الأذى ، العفو عن المؤذي والدعاء له » ، قال : « لأنه عَسِر ، وإن كان في أخلاق الصديقين ما هو أعسر من هذا » .

قوله : « وكُن مُؤثِراً للخمول ، فارًّا من الشُّهرة والظهور » ، قال : « أقل ما فيه الشغل عن الله » .

قوله : « لا يخاف ولا يرجو أحداً سواه » ، قال : « بحسب حاله إن كان قوياً ، والخوف إنما هو

من الله » .

قوله : « فإن خشيت الإشتغال عن الله بمخالطة الناس ، فاعتَزِلْهُم وأغلق بابك عنهم » ، قال : « بحيث لا يعلمون بأنك داخله ، فإن أغلقته وتحقق لهم أنك فيه ، فذلك يزيدك من ذلك ، أو أن الداخل إليك ينتفع بك ، أو أنه في رأيك ، ولا يستجري على الغيبة والنميمة بحضرتك » .

قوله : « ومِن أضَرِّ شيء على المريد طلبه للمكاشفات ، واشتياقه إلى الكرامات وخوارق العادات» ، قال : « لأن العمل على ذلك معلول ، والمكاشَفات كرؤية مَلَك أو ظهور نور ، والكرامات كطَيِّ مسافةٍ أو تكثيرِ طعامٍ ، والكلُّ خارقٌ للعادة » .

قوله : « ولا تقف مع ما ظهر لك » ، قال : « أي لا تقف عن السير بسببها » ، ثم قال : « أي لا تقف عن الطاعة والطلب » .

أقول : يريد بقوله : « لا تقف عن الطاعة » ، تفسيراً لمعنى قوله : « لا تقف عن السير » .

قوله : « عليك بتصحيحها – أي الإستقامة – تخدمك الأكوان » ، قال : « تخدمك بقدر حاجتك، لأن ما زاد على ذلك بلية أخرى » .

قوله : « ولتكن حسن الظن بربك أنه يعينك ويكفيك ويحفظك ويقيك » ، قال : « أي إذا كنتَ مشغولاً بطاعته وخدمته ، فإن كنت بَطَّالاً أو مشغولاً بالدنيا ، لا يعينك ولا يحفظك ولا يقيك » .

قوله : « وأخرِجْ من قلبك خوف الفقر وتوقُّع الحاجة » ، قال : « أي حتى يزهد قلبك في الدنيا، وتتفرغ للإشتغال بالله عما سواه . وتوقع الحاجة : أي في وقت ثان ، لأن الأمر مبني على ما قبله ، لأنه تجرد ، فربما يطري عليه ذلك . وتكفله بك : أي قدر الكفاية ، في وقته ، لأنه لا يستقيم المريد إلا بذلك » .

قوله : « أما تراه سبحانه يرزق الكافرين به ، الذين يعبدون غيره ، أفَتَراه لا يرزق المؤمنين الذين لا يعبدون سواه ؟ » ، قال : « أي إن هذا مستبعد ، لكنه قد يرزق الفاجر جزافاً ليوافي به في القيامة، ويشغله به عن خدمته ، ويرزق المؤمن كَفَافاً ليتفرغ لطاعته ، ويكفى شر حسابه ، وينال بذلك الثواب » .

قوله : « وكذلك تخبره بكل ما يقع لك ، خصوصاً في ما يتعلق بالطريق » ، قال : « لا يلزمه أن يخبره إلا بما يتعلق بالطريق ، كخروج عن سببٍ ، أو دخول فيه ، ونحو ذلك ، أو بالوقائع ، أو رؤيا ،

أو خاطر ، أو رأى شيئاً من أمور الباطن ، أو ظهر له شيء من الخوارق ، أو كوشف بشيء ونحو ذلك .

ولا يلزمه أن يخبره بغير ذلك ، فلا يخبره بما يكون بينه وبين أهله ، أو بين أحد ، أي شيء يكون ، أو ما يكون من أمور دنياه ، إلا إن كان يخبره للإستفتاء ليتعرف منه الحكم في ذلك ، حتى إن عبدالرحمن بن عوف تزوج ولم يعلم النبي ﷺ بذلك ، ولم يعلم به إلا لما رأى عليه أثر الزواج » هـ .

أقول : قوله : « الوقائع » ، هي ما يرد على قلوبهم من العالَم العُلوي ، مما يفتح الله به على أوليائه ، ويُطلِعهم عليه من الأمور الغيبية ، فيُسمَّى عندهم بالوقائع . كذا حَفِظتُه عن شيخنا الأفضل الأكرم السيد أحمد بن زين الحبشي رحمه الله .

قوله : « ولم يعلم ﷺ بزواج عبدالرحمن بن عوف إلا لما رأى عليه أثر الزواج » ، فإنه ورد عنه في صحيح البخاري ،قال : « تزوجتُ امرأة من الأنصار ، فرأى النبي ﷺ عليَّ أثر صُفْرَةٍ ، فقال : مَهْيَمْ؟ - أي ما الخبر ؟ - قلتُ : تزوجتُ امرأة من الأنصار . قال : ماذا أَصْدَقْتَها ؟ قلتُ : أصدقتُها وزن نواةٍ من ذهب . قال : أَوْلِمْ ولو بشاة » .

قوله : « واحذر من مطالبة الشيخ بالكرامات ، والمكاشفة بخواطرك ، فإن الغيب لا يعلمه إلا الله»، قال : « على الإطلاق ، لأنه عليه السلام لا يعلم الشي إلا بالوحي ، فكيف بغيره . وكل مقام دون مقامه عليه السلام ، إلا قد يُطلَعون على نادره » .

قوله : « ولا ينبغي للشيخ إذا جاء المريد يطلب الطريق أن يسمح له بها من قبل أن يختبر صدقه في طلبه » ، قال : « كانوا يختبرونه سَنَةً ، يخلُّونه لا يُحكِّمونه ، هذا في المريد الصادق والشيخ المُحَكِّم ، واليوم قد عُدِما ، ما بقي إلا التبرك . قال الشعراوي : ومن آدابهم أن لا يبادروا إلى إجابة من طلب أن يكون مريداً تحت إشارتهم وتربيتهم . وقد قالوا في الزمن السابق : إن صَحَّ للشيخ في عمره كله مريدٌ واحدٌ صادقٌ ؛ فهو أعز من الكبريت الأحمر . يعني فكيف به في هذا الزمان الناقص .

وَوَصْفُ المريد الصادق على وجه الإختصار أربعة أشياء : الأول : صدقه في محبة الشيخ ، الثاني امتثال أمره ، الثالث ترك الإعتراض عليه ، الرابع سلب الإختيار معه . فكلُّ مريد جمع هذه الأربعة فقد صَحَّتْ قابليته . وصِفَةَ هذا المريد يرفع الله به شأنه وشأن شيخه » .

قال عند قوله في الرسالة - أعني رسالة المريد - : « وقد يحسب بعض من المريدين أنه لا شيخ له ، فتراه يطلب الشيخ وله شيخ لم يره ، يُرَبِّيه بنَظَرِه ، ويراعيه بعين عنايته وهو لا يشعر ، وعند التناصف فما

ذهب إلا الصدق ، وإلا فالمشايخ المحققون موجودون ، ولكن سبحان من لم يجعل الدليل على أوليائه إلا من حيث الدليل عليه ، ولم يوصل إليهم إلا من أراد أن يوصله إليه » .

أقول : ليس المراد وصوله الحسي - بل أوله رفع بشرية الشيخ عن المريد ، وظهور خصوصيته له - فإنما المراد وصول معنوي ، وسواء حصل معه ذلك الوصول الحسي أم لا . ويُفهَم هذا من كلامه على قول أبي يزيد في الرسالة : « أولياء الله عرائس الله ، ولا يرى العرائس إلا المتقون ، وهم مُخَدَّرُون عنده في حجال الأنس ، لا يراهم أحد في الدنيا ولا في الآخرة » ، انتهى كلام أبي يزيد . قال سيدنا : « يعني أسرارهم التي بينهم وبين الله ، التي يعرفون بها بأنهم أولياء » ، تم كلام سيدنا .

وقال ابن عطاء الله : « من أشد حجاب على الأولياء ، شهود الخلق فيهم المماثلة والمشاكلة ، وهو حجاب عظيم ، قد حجب الله به أكثر الأولين والآخرين ، كما قال تعالى حاكياً عن قوم : ﴿وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ﴾، ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ﴾. ولذلك لا يعرفهم إلا أفراد من الناس ممن سبق له من الله السعادة على أيديهم ، ولولا ذلك السبق لبقي على الجهل بهم ، فكان من فضل الله ورحمته أنه تعالى يطوي عن المريد الصادق شهود بشرية شيخه ، ويكشف له عن وجه خصوصيته ، وهناك يحبه ويعتقده بلا شك وينتفع به » .

قال : « وأكثر الناس لا ينظرون من الولي إلا وجه البشرية ، فلذلك قَلَّ نفعهم بهم ، ولو عاشوا معه العمر كله ، لم يذوقوا من طريق الأولياء شيئاً ، كما هو مشاهد في نقباء الأشياخ » ، انتهى كلام ابن عطاء الله .

قوله : « إذا أردت أيها المريد من شيخك أمراً ، أو بدا لك أن تساله عن شيء ، فلا يمنعك إجلاله والتأدب معه عن طلبه منه وسؤاله عنه ، فليس السكوت عن السؤال والطلب من حسن الأدب ، اللهم إلا أن يشير عليك الشيخ بالسكوت ويأمرك بترك السؤال » ، *قال* : « أي بأن يكون لا يحسن السؤال أو شيئاً يَقْبُحُ ذِكْرُهُ وأراد ذِكْرَهُ بين الناس ، أوشيئاً يظنه ذنباً وليس بذنب ، ونحو ذلك » .

***قال* : « إن كان المريد لديه شيء من الأسرار ، فإنه يسأل شيخه عن جميع أموره ، الباطنة والظاهرة ، حتى عن نومه وأكله ونحو ذلك ، وإلا فليسأله عما بدا له من العلم ، إن صلح هو للسؤال والجواب » .**

قوله : « وإذا رأيت المريد ممتلئاً بتعظيم شيخه وإجلاله ، مجتمعاً بظاهره وباطنه على اعتقاده وامتثاله، والتأدب بآدابه ، فلا بد أن يرث سِرَّهُ ، أو شيئاً منه إن بقي بعده » ، *قال* : « لا يرث المريد شيخه ما دام حيًّا ، بل بعد موته ، لأن الإرث إنما هو بعد الموت ، وما ظهر عليه من الأحوال أو شيء من الكرامات

في حياة شيخه إنما ذلك بسبب حسن أعماله » .

قيل له : « وفي الحياة لا يحصل للمريد شيء ؟ » ، قال : « إنما يحصل له بركة ، أو كان شيء من الآداب ، وهو فيه بالعلم والعمل ، وإنما الوراثة في السر ، وهو بعد موت الشيخ » .

انتهى بمعناه ، وذلك عشية يوم الأحد ٣ ربيع أول ١١٣٢ .

قوله : « لا يكون المريد مريداً حتى يجد في القرآن كل ما يريد » ، قال : « أي من العلوم والمعارف، ويُعطَى منهما فيه » .

قوله : « المريد من لا تَسْتَرِقُّهُ الأغيار » ، قال : « أي الشهوات وحظوظ النفس ، أي لا يكون تحت حكمها » .

وقوله : « يسبق فِعْلُهُ قَوْلَهُ » ، قال : « أي إذا عزم على فِعْلِ خيرٍ ، يفعله قبل أن يقوله » .

قوله : « لا تلقاه إلا على خير يعمله » ، قال : « هذه صفة الرجل الصالح » .

ذكر كلمات ذكرها في رسالة المذاكرة ثم تكلم عليها في مجلس القراءة

وقال يوماً لصبي من السادة - كان يقرأ في « رسالة المذاكرة » - يمازحه بعدما قرأ : « **أخاف ألَّا تزهد في الدنيا ، فلا عاد تنفع أهلك . وقد كان اثنان أخوان من السادة ممن يبيع ويشري سمعاها ، فتركوا حرفتهما وجعلا يأتيان إلى عندنا ، فما ندري إذا بهما أقبلا ، فعالقهما لذلك أهلهما - أي لاموهما - وخاصموهما . فقلنا لهما : ما هو ألَّا أن تترك أمرك كله ، بل التوسط والتقوى فيما هو فيه ، فإذاً أحكم الوسط . وينظر إلى أحوال السلف وما كانوا عليه ، ويقتدي بهم ، فليس في أهل الوقت قدوة ، ومن لا معرفة عنده بالأمر ، إما ترك الدنيا وإلا انهمك فيها** » هـ .

أقول : فما بقي هذا الشخص بعد ذلك إلا نحو شهر وتوفي ، ولما مرض كان يخبر عن نفسه أنه يموت من مرضه ذلك ، وكان صغير السن ، نحو ١٤ سنة .

وكانت الرسالة المذكورة مَبْنِيَّة على الزهد في الدنيا ، وتصحيح التقوى .

ولما مر في الرسالة المذكورة قوله : « **والتقوى هي الخصلة الجامعة لصاحبها خير الدنيا والآخرة** »، قال : « **قَلَّ ما توجد وصية ولا خطبة إلا وفيها الأمر بالتقوى ، ويكتفون بها في وصية من استوصاهم، إذا قالوا لهم : أوصونا ، قالوا لهم : نوصيكم بتقوى الله . لأنها تجمع لهم الخير ، وهي عبارة عن فعل الخيرات ظاهراً وباطناً ، وترك المنهيات ظاهراً وباطناً ، فمن فعل ذلك فقد كمل تقواه ، ومَن دونه فله نصيب من التقوى ، وأصله الخوف** » .

قوله : قال الله تعالى : ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلۡمُتَّقِينَ﴾، قال : « **هي زيادة تعظيم بمعنى الحفظ والرعاية، وهي غير المعية الأخرى التي في قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمۡ أَيۡنَ مَا كُنتُمۡ﴾ ، أي رقيب حاضر . فالفائدة في العلم العمل، مثاله : إذا سمع فوائد التقوى وفضائلها ، فليتق ويجتهد في العمل بالتقوى ، وإلا فما نفع** » ، قال : « **يسمع ويرمي الكتاب من غير عمل ، وإذا اتقيت الله فلا تخف من شيء ، ويكفي في شرف التقوى أن الله ذَكَرَهُ في أكثر من تسعين موضعاً من كتابه** » .

قوله : « **وقد عَلِمَتْ أولوا القلوب السليمة والعقول المستقيمة ، أنهم يُجْزَون ما يعملون ، ويحصدون ما يزرعون** » ، قال : « **العمل والزرع في الدنيا ، والجزاء والحصاد في الآخرة** » .

قوله : « **وكيف لا يعلمون ذلك ، وهم يسمعون ما به يؤمنون ويُصَدِّقون من تنزيل الله المحكَم ،**

وحديث نبيه ﷺ ما يوجب العلم اليقيني القطعي » ، قال : « الذي لا يبقى فيه شَكٌّ ولا وَهْمٌ » .

قوله : « فاحْضِرْ قلبك ، واصغِ بأذنك إلى طَرَفٍ من ذلك » ، قال : « وافْهَمْ هذا ، فإن جمع الآيات والأخبار المتفرقة في معنى واحد له موقع ، ولهذا فعله العلماء ، مِن جَمْعِ ذلك كله أو بعضه ، هذا لمن فهم وانتفع ، وأما من دخل ذلك في أذنه وخرج من الأخرى ولا فَهِمَهُ ؛ فما انتفع ، وهو كعدمه » .

و ذكر آيات كثيرة وأخبار جمة ، فمن الآيات قوله تعالى : ﴿لِيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔواْ بِمَا عَمِلُواْ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ۝٣١﴾، ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ۝٣٩﴾، ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ۝٢٨١﴾ ويقال إن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن ، قيل : أنه ﷺ لم يعش بعد نزولها إلا نحو سبع أو ثمانية أيام . وذكر من الأخبار قوله ﷺ : « إن روح القدس نفث في روعي - أي ضميري أو قلبي - عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب ما أحببت فانك مفارقه ، واعمل ما شئت فإنك مجزيٌّ به » ، ثم قال : « وما ذكرته من الأدلة على وقوع المجازاة ، أردت به التنبيه ، وإلا فهو أمر معلوم للخاص والعام » ، قال : « معرفة الإنسان بذلك على قدر إيمانه ومعرفته ، وملازمته للطاعة والذكر ومجالس الصالحين ، ومَن تَرَكَ ذلك لا تُنَبِّهُهُ إلا أن أقبل يطلبه ، وإلا صرت كمن يُنَبِّه نائماً ، لا يدري ما مقصودك ، وَوَقَعْتَ معه في بلية أخرى ، وربما قابلك بالخلاف ، فاتركه على ما انطوى عليه ، وربما يقول من غلبته نفسه ، ويجري على ألسنة أهل الغفلة كلام على هذا وهو بعيد من العمل بذلك ، كأنْ يقول : الله ينصفني من فلان ، ولا بد ما يُستوفى للمظلومين من الظالمين ، ونحو هذا » ، أو كما قال .

قوله : « ومما يكرم الله به من أطاعه وعمِل الصالحات لوجهه ، قال الله تعالى : ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ۝٩٧﴾، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ وُدًّا ۝٩٦﴾، قال ابن عباس : يحبهم ويحببهم إلى المؤمنين . وقال رسول الله ﷺ : إن الله تعالى قال : من عادى لي ولياً فقد آذنته بالحرب » ، قال : « أي أعلمتُه أني محاربٌ له » .

« وما تقرَّبَ إليَّ عبدي بشيء أحب إلي مما افترضتُ عليه ، ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل » ، قال : « أي بعد إحكام الفرائض ، وإلا فما نفعته » .

« حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به .. إلى آخر الحديث » ، قال : « أي لا يفعل كل عضو مما يخصه إلا ما يحبه الله ، ويعتقد أن الله هو الفاعل به ذلك » ، « وفي الحديث عن الله إذا تقرَّبَ إليَّ عبدي شبراً ، تقرَّبْتُ إليه ذراعاً ، الحديث . فَتَقَرُّبُ العبد إلى ربه بطاعته وخدمته ، وَتَقَرُّبُ الرب من عبده بفضله ورحمته » .

قوله : « وقد أكرم الله عباداً أطاعوه فحررهم من رق الشهوات ، وطهر قلوبهم من دنس الإلتفات إلى الفانيات ، وأجرى على أيديهم خوارق العادات وعجائب الكرامات من الإخبار بالمغيبات » ، قال : « هذه المذكورات هي الكرامات ، من غير طلب منهم لذلك » .

قوله : « في ذكر شيء مما يترتب على المعصية . قال تعالى : ﴿إِنَّهُۥ مَن يَأْتِ رَبَّهُۥ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُۥ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَحْيَىٰ ﴿٧٤﴾﴾ » ، قال : « كذلك أهل النار ، لا يموتون فيستريحون من العذاب ، ولا يحيون حياة طيبة ، قال تعالى : ﴿وَيَأْتِيهِ ٱلْمَوْتُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ﴾، فتبقى أرواحهم في حناجرهم ، ولهذا يتعجب كيف لا يموت من في النار » .

وفي حديث : « لا يزني الزاني وهو مؤمن ، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن » ، قال : « قيل إنه يرتفع منه حينئذ ، ويكون فوقه مثل الظُّلَّة ، فإذا تاب عاد إليه ، قال ذلك ابن عباس ، ورفع يديه على رأسه مُمَثِّلاً لذلك » .

قوله : « وأوحى الله إلى موسى : يا موسى ، أول من مات من خلقي إبليس » ، قال : « هو ميت مُؤاخَذ ، لأنه موت قلبٍ ، لا كالموت الذي لا تكليف معه » .

قوله : « ولما كانت هذه الدار قد أُسِّسَت على المِحَن والآفات ، وعُجِنَتْ بالمُنَغِّصات والمكدِّرات، وحشيت بالمشغلات والملهيات ، كثرت لذلك الصوارف عن الطاعات ، وكثرت الدواعي إلى المخالفات ، ثم إنها وإن كثرت تلك الصوارف ، وتوفرت تلك الدواعي ، فتكاد تنحصر في أربعة أشياء: أحدها : الجهل ، الثاني : ضعف الإيمان ، الثالث : طول الأمل ، الرابع : أكل الحرام والشبهات».

وعَقَدَ لكل واحد منها فصلاً .

قال : « أما الجهل : فهو أصل كل شر ، ومنشأ كل ضرر » .

قال في مجلس القراءة : « لأن الإنسان إذا جهل ؛ ما عمل شيئاً ، فإذا ما عَلِم ديناً ولا عمل ، فهو مهلكٌ نفسه فانٍ كان ذلك في كل الأشياء أو في بعضها . ورتبنا الكتاب على هذه الأربعة ، لأنا رتبنا الكتاب على طلب العلم بهذه الأشياء والعمل بها ، يعمل ما يطلب - أي العلم - ويتجنب ما ينهى . ومن تأمل مصنفات العلماء رآها ما صُنِّفَتْ إلا لأجل العلم ، والإجتناب والإمتثال ، والإستجابة في ذلك على الله » .

« وقال علي كرم الله وجهه : لا عدو أعدى من الجهل ، والمرء عدو ما جهل » ، قال : « هذا الجاهل بأمور الدين ، وإلا فالعلم كثير ، والعبادة لا تنفع مع الجهل ، فيمضي إلى أهل العلم يتعلم منهم » .

قوله : « لا عدو أعدى لصاحبه منه » ، قال : « لأنه يقوده إلى المهالك ، ولا فعل عدوه به شيئاً ما

فعل كما يفعله به الجهل ، وهذا الجهل المطلق الذي لا يعرف شيئاً ، كمن لا يعرف عدد الصلاة ، وإن كان ذلك في أمور الآخرة كان أشد ، وكان الناس قبل الإسلام عليه ، لا يعرفون صلاة ، ولا ينتهون عن زنى إلا خوف العار ، ولو عَلِمَه ، ولكن ما عُلِّم فهذا معه علم ، ولا معه يقين ، فيبقى إيمانه متزلزلاً » .

قوله : « ينشأ من ضعف الإيمان أمور مذمومة ، مثل : ترك العمل بالعلم ، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأماني المغفرة بلا سعي لها ، والإهتمام بالرزق ، وخوف الخلق ، إلى غير ذلك من الأخلاق المشؤومة » ، قال : « وهناك إيمان ، لكنه ضعيف ، ولولا أنه ضعيف الإيمان لما ترك العمل بعلمه » .

وكان قاريء يقرأ عليه في هذه الرسالة ، حتى إذا وصل إلى هنا إلى قوله : « من الأخلاق المشؤومة»، غلط القاريء ، فقال : « الأخلاق المسمومة » ، فرد عليه سيدنا المصنِّف غَلْطَتَهُ ، ثم قال : « أكثر ما أنا خائف منه أحد ينقل هذه الرسائل وفيها الغلط والتحريف ، فينقله عنا ويقول : قرأته على المصنِّف . فاشهدوا على ذلك ، وإنما نحن خُدَّام الشريعة ، فمن أتانا فَنَفَعَهُ الله بنا أو بكلامنا فلا نَكْرَه ، وإلا فلا حاجة لنا بأحد ، فمن سمع عنا بكلام غير مستقيم ، أو مخالفاً للكتاب والسنة ، إما لِغَلَطِهِ أو اعوجاج لسانه ، فلا يُصَدَّق . والغَيار كله من قلّة الفهم أو العجلة ، حيث يسمع بعض الكلام ويفوته البعض ، فينقله ، فينبغي أن يستمعه كله ويفهمه » ، أو كما قال عشية السبت سلخ ربيع أول سنة ١١٢٩ .

قوله : « وفيها الغلط والتحريف » ، يعني ينقلها بغلط وتحريف منه .

قوله : « فاشهدوا على ذلك » ، أي اشهدوا على قوله بعد ذلك : « وإنما نحن خُدَّام الشريعة » ، إلى قوله : « فلا يُصَدَّق » ، أي لا يصدق من نقل عنا ما هو خطأ أو مخالفاً للشريعة .

قوله : « وأما طول الأمل ، فهو مذموم جداً ، بل هو الذي يدعو إلى خراب الآخرة وعمارة الدنيا»، قال : « فإنه إذا استشعر طول بقائه في الدنيا ، استغرق بطلب الرزق ، حتى ربما صلى وهو مستغرق في ذلك » .

قوله : « ومن المأثور : من طال أمله ساء عمله » ، قال : « أي عن السلف » .

أقول : يعني يؤثر هذا القول عن السلف ، أي نقل عنهم أنهم قالوه .

قوله : « يقال : إن أكثر صياح أهل النار مَن سَوَّف ، فلا يزال المُسَوِّف يتثاقل عن الطاعات ،

ويؤخِّر التوبة عن السيئات » ، قال : « لأنه كلما أراد أن يعمل صالحاً أو يتوب عن معصية يقول : سوف أفعل . فلا أحسن في أمور الآخرة من المبادرة ، فيؤخِّر قضاء الصلاة والدَّين والأعمال الصالحة » .

قوله : « كُلْ ما شئت فَمِثْلُهُ تَعْمَلْ ، وفي الحديث : من أكل الحلال أطاعَتْ جوارحه شاء أم أبى ، ومَن أكل الحرام عَصَت جوارحُه شاء أم أبى » ، قال : « أي ما يخرج من الحلال إلا الحلال ، ولا من الحرام إلا الحرام ، وأصل الأشياء كلها حلال ، ولكن لمَّا دخلت الأيدي اختلفت ، ومن يعرف الحلال فمالُه بيِّن ، والإشتباه في مال نحو جندي » .

قوله : « وعليك بطلب الحلال » ، قال : « أي طلب عِلْمِه ومعرفة حاله ، وكونه حلالاً من غير تَقَصٍّ جداً ، سيما في هذا الزمان ، بل يكفي المِلْك ، وأن يكون المالك لا يتعاطى ما يُنكِره الشرع ، ووصوله إليه على وجهٍ شرعيٍّ » .

قوله : « الإخلاص تصفية الفعل عن ملاحظة الخلق ، وهو القصد في هذا الباب » ، قال : « أي إنه كلام جامع ، وملاحظتهم : أي النظر إليهم ، والنظر منهم » .

قوله : « وإيَّاك والرياء » ، قال : « المراد خاطر الرياء ، المِصِرُّ عليه ، وأما الخواطر العارضة فقد تُغْتَفَر » .

قوله : « والرياء عبارة عن طلب المنزلة عند الناس ، بعملٍ يُتَقَرَّب بمثله إلى الله » ، قال : « أي من علم وعمل . أما نحو النحو والطب ، فيجوز أن يطلب بهما شيئاً من أمور الدنيا ، لأنهما ليسا مما يُتَقَرَّب به إلى الله بالأصالة ، إلا إن قصد بهما التوسل إلى أمر ديني ، وتمَّتْ له فيه النية ، فيحصل بذلك الثواب على حسب المَنْوِيِّ » .

قوله : « والعُجُب : عبارة عن نظر الإنسان إلى نفسه بعين التعظيم ، وإلى ما يصدر عنها بعين الإستحسان ، وعنه نشأ الإدلال بالعمل » ، قال : « بأن يظن ويرى أن له عند الله منزلة بسبب عمله ، ولا يرى الفضل من الله عليه لتوفيقه له » .

قوله : « قال رسول الله ﷺ : حب الدنيا رأس كل خطيئة . فإذا كان طلبها رأس كل خطيَّة ، وأصل كل بليَّة ، وأساس كل رَزِيَّة ، وقد أطبق عليه الخاص والعام ، وتظاهر الناس به بلا احتشام » ، قال : « أي بلا حياء ، وقد قد كانوا فيما مضى يُنكِرون على من يطلب الدنيا ، وطالبها يستحي من أهل الدين ، حتى صاروا الآن يفتخرون بطلبها ، ويرون الحشمة في ذلك » هـ .

أقول : فإذا كان السلف الصالح في زمانهم الصالح ينكرون على من طلب الدنيا بأسبابها المجعولة لها ، حيث لم يتجردوا للدين والإقبال على الله ، حتى إنَّ أهل الدنيا يستحيون من أهل الدين ،

ويرجعون باللوم على أنفسهم ، ويغبطون المتجردين للدين ، وهم في دنياهم وإقبالهم على الله خير من إقبال عباد أهل هذا الزمان والدنيا في قلوبهم من أغنيائهم وفقرائهم أهون منها في قلوب هؤلاء فقرائهم وأغنيائهم، فما بالك بعلماء أهل هذا الزمان وفقرائهم ، حتى طلبوها بدينهم وعباداتهم دون أسبابها المجعولة لها ، فانظر كيف انعكست الأمور عن أوضاعها ، ورجعت إلى أضدادها ، كما قال ، وكررناه هنا مراراً .

قال الشيخ الواسطي في كتابه « جلاء الصدى في سيرة إمام الهدى » ، يعني الشيخ أحمد الرفاعي نفع الله به : « وكان سيدي أحمد الرفاعي رضي الله عنه لا يأخذ شيئاً من أمور الدنيا بيده ، ويقول : في الكف عرق متصل بالقلب ، إذا أخذ به شيئاً من الدنيا تسري آفتها إلى القلب ، وهذه آفةٌ عظيمةٌ مخفيةٌ، لا يطَّلع عليها أحدٌ من الخلائق . ويقول : قال رسول الله ﷺ : حب الدنيا رأس كل خطيئة » هـ .

قال كاتبه : لما كانت الدنيا مبغوضة عندهم جداً ، ويكرهون قربها منهم واتصالها بهم ، ويرون أنها أشر الشر ، كانوا يتخوفون منها إلى الغاية ، كأنهم عندهم عقرب يخشون لسعها .

قال : « الدنيا على ثلاث طبقات : فدنيا فيها الثواب ، وأخرى فيها الحساب ، وثالثة فيها العذاب. فأما التي فيها الثواب : فهي التي تصل بواسطتها إلى الخير ، وتنجو بواسطتها من الشر ، وهي مطية المؤمن ومزرعة الآخرة ، وهي الكفاف من الحلال » ، قال : « أي الحلال الذي لا يُشغِل عن طاعة الله » .

قوله : « وأما التي فيها الحساب ، فهي التي لا تشتغل بسببها عن أداء مأمور ، ولا ترتكب في طلبها أمراً محظوراً ، وهذه الدنيا فيها الحساب الطويل ، وأربابها هم الأغنياء الذين يسبقهم الفقراء إلى الجنة بنصف يوم ، وهو خمسمائة عام » ، قال : « وهذه مباحة ، إلا قد تتسع وتدخل فيها المشكلات » .

قوله : « وأما التي فيها العذاب ، فهي التي تَقْطَعُ عن أداء المأمورات ، وتُوقِعُ في ارتكاب المحظورات، وهي زاد صاحبها إلى النار ، ومُدرِجَتُهُ إلى دار البوار » ، قال : « أي طريقُه ، وهي دنيا أهل الزمان إذا تاملتها » .

قوله : « واعلم أن طلاب الدنيا على أنواع ، فمنهم من يطلبها على نية صلة الأقربين ومواساة المُقِلِّين » ، قال : « بعد كفاية نفسه على قدر حاله » .

قال : « وهذا يُعَدُّ من الأسخياء ، وله ثواب إن وافق عملُه نِيَّتَهُ » ، قال : « هذا إن حصل له من نحو ميراث ، فإن كان ألَّا يريد أن يطلبه فليطلبه على نية الكفاف » .

قوله : « وكم من طالب نيته نيل الشهوات والتمتع باللذات ، وهذا يُعَدُّ في جملة البهايم ، وفي

حيز الانعام ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴿٤٤﴾ ﴾. وكم من طالب نيته يطلب الدنيا ليفاخر بها ، ويكاثر ويباهي بها ، وهذا يعد من الحمقى المغرورين ، بل من الهالكين المثبورين و ﴿ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾» ، قال : « فليعرف الإنسان نفسه في أي قسم هو ، ولا يغش نفسه ، فإنه إن غَشَّها لم ينصحه أحد » .

قوله : « قال تعالى : ﴿ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾ ﴾ » ، قال : « تراباً ، فلينظر إلى البيوت الخربة ، والمآثر التي قد خلت من أهلها ، فهي صعيدٌ جُرُز » .

وقوله تعالى : ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ﴾ الآية ، قال : « هذه الآية ، وآية : ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ﴾ فيهما تفاصيل الدنيا ، وهما أبلغ آية في ذمها » .

ومرة قال في قوله تعالى : ﴿وَلَوْلَا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾: « هذه الآية أبلغ آية في التزهيد في الدنيا » .

ومرة قال : « نحو ثلث القرآن كله في التزهيد في الدنيا » .

ومرة قال : « أجمع الرسلُ كلهم – أو قال : أجمعت الملل كلها – على ذم الدنيا والتزهيد فيها ، وأجمعت الامم كلها على محبتها والرغبة فيها ، قال الشاعر :

إِذَا كَانَ شَيْءٌ لَا يُسَاوِيْ جَمِيْعُهُ ... جَنَاحَ بَعُوضٍ عِنْدَ مَنْ أَنْتَ عَبْدُهُ

وَأَشْغَلَ جُزْءٌ مِنْهُ كُلَّكَ مَا الَّذِيْ ... يَكُونُ عَلَى ذَا الحَالِ قَدْرَكَ عِنْدَهُ

قوله : « من أحب آخرته اضر بدنياه ، ومن أحب دنياه أضر بآخرته . ومُرَّة الدنيا حلوة الآخرة ، وحلوة الدنيا مُرَّةُ الآخرة » ، قال : « من كانت الدنيا عنده حلوة ، كانت الآخرة عنده مرة ، وبالعكس».

قوله : « قال عليه السلام : الدنيا حلوة خضرة » ، قال : « أي بالنسبة إلى الطبائع والنفوس » .

قال : « أي النفس تميل إليها بالطبع ، كما أن من طبعها الميل إلى الخضرة من النبات وغيره ، وإلى الحلو من كل مأكول » .

وذكر حديث : « الأكثرون هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال هكذا وهكذا » ، قال : « بالمال يتصدق به ويمسك ما يكفيه على حسب حاله ، إن قدر على التجرد بالكلية ، وإلا على قدر يقينه » .

وذكر حديث : « ليجاءَنَّ بأقوام يوم القيامة لهم أعمال كجبال تهامة ، فتجعل هباءً منثوراً ، ويؤمر

بهم إلى النار ، كانوا يصلون ويصومون ، ويأخذون هينة من الليل ، فإذا لاح لهم شيء من الدنيا وثبوا عليه » ، قال : « ولا يسألون أكان حلالاً أم حراماً أو شبهة ، ولأن الحلال يجر إلى الحرام ، ولا يبالون أكان في ذلك استعانة به على الدين أم لا » .

ومعنى قوله: « ولا يسألون » ، يعني لا يبالون أكان حلالاً أم لا .

قوله : « من كانت نيته الآخرة جعل الله غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة » ، قال : « أي مما قُسِمَ له منها » .

قوله في حديث : « تعس عبد الدنيا وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش » .

قال في شرح البخاري : « بكسر العين - أي هلك - وعبد الدنيا طالبها وخادمها ، وكذا عبد القطيفة ، أي الدثار الذي له خمل ، والخميصة الكساء الأسود المربع » .

وقال في فتح الباري : « عبد الدينار : طالبه الحريص على جمعه ، القائم على حفظه ، فكأنه لذلك خادمه وعبده ، وخص العبد بالذِّكر ليؤذِنَ بانغماسه في محبة الدنيا وشهواتها ، كالأسير الذي لا يجد خلاصاً ، ولم يقل مالك الدينار ولا جامع الدينار ، لأن المذموم من الملك والجمع الزيادة على قدر الحاجة . وتَعِس بكسر العين ، ويجوز فتحها ، أي سقط . والمراد هنا هلك ، والتَّعْسُ الشر : ﴿فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾الآية ، أي ألزمهم الشر ، وقيل التعس : البُعْد ، أي بُعْداً لهم . وانتكس: أي عاوده المرض ، وقيل التَّعْس: الخَرُّ على الوجه ، والنَّكْس : الخر على الرأس . و إذا شيك .. إلخ : أي إذا دخلت فيه شوكة لم يجد من يخرجها بالمنقاش ، وفيه إشارة إلى الدعاء عليه بما يثبطه عن السعي والحركة ، وسوغ الدعاء كونه قَصَرَ عَمَلَهُ على جمع الدنيا ، واشتغل بها عن الذي أُمِرَ به من التشاغل بالواجبات والمندوبات .

قال الطيبي : خص انتقاش الشوكة بالذِّكر ، لأنه أسهل ما يتصوره من المعاونة ، فإذا انتفى ذلك الأسهل ، انتفى غيره بطريق الأولى » ، انتهى ما أردنا نقله من فتح الباري .

وقال سيدنا في قوله : « وإذا شيك فلا انتقش » : « أي إذا ضَرَبَتْهُ شوكة فلا سبيل له إلى نقشها ليخرجها ، دعاءٌ منه عليه السلام ، يعني على المشتغل بطلب الدنيا عن الدين . و مدح الله أقواماً بعدم اشتغالهم بها عن ذكره ، بقوله تعالى : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ﴾، يعني المساجد ، ﴿وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۝﴾، يعني صلاة الصبح وصلاة الظهر ، ﴿رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ ۝﴾، يعني لا يشغلهم ذلك عما ذكر مع تعاطيهم له ، أو مع تركه وتجردهم لذلك » .

قوله : « وأوحى الله إلى عيسى : يا عيسى ، قل لبني إسرائيل يحفظوا عني حرفين » ، *قال* : « أي كلمتين » .

« قل لهم ليرضوا بِدَنِيِّ الدنيا لسلامة دينهم » ، *قال* : « أي قليلها » .

« كما رضي أهل الدنيا بِدَنِيِّ الدين لسلامة دنياهم » ، *قال* : « أي لأنهم لا يتمون الصلاة إلا دباراً، ولا يقيم أحدهم الفاتحة ليسرع الرجوع إلى دنياه في بيعه وشرائه ، فمن رغب في الدنيا ، وإن ذهب شيء من دينه فهو صاحب دنيا ، ومن رغب في الدين وإن ذهبت الدنيا ، واعتقاده خساستها وقذارتها ، فهو صاحب دين » .

أقُولُ : ومن شرح الحكم للحجازي : « قيل إن الدنيا تمثلت يوماً لأحد وَلَدَي الزهراء متزينة ، وقالت له : تزوج بي . قال : حتى أشاور أبي . فجاء إلى أبيه علي رضي الله عنه ، فاستأذنه في ذلك فقال: قل لها أنت حرام علي ، لأنك مُطَلَّقة أبي » .

- وأقول : يشير بذلك إلى ما روى عنه ضرار بن ضمرة الكناني ، يصف علياً كرم الله وجهه ، كما ذكره سيدنا في هذه الرسالة رسالة المذاكرة ، قال : « كان يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويأنس بالليل وظلمته ، وأشهد لقد رأيته في بعض مواقفه وقد أرخى الليل سدوله ، وغارت نجومه ، يتململ تململ السليم - أي اللديغ - ويبكي بكاء الحزين ، قابضاً لحيته قائلاً : يا دنيا غُرِّي غيري ، أبي تعرضتِ ، أَلِي تَشَوَّفتِ ، قد بِتُّكِ ثلاثاً ، لا رَجْعَةَ فيها ، فعمرك قصير ، ومجلسك حقير ، وخطرك كبير ، آه آه من قلة الزاد ، وبعد الطريق ، ووحشة السفر » ، انتهى -

وشاهدنا في قوله : « قد بِتُّكِ » ، أي قَطَعْتُكِ عني بالطلاق ثلاثاً .

فإذا كان الأمر كذلك ، وقد جاءته في صورة امرأة ، ومُطَلَّقَةُ الأب لا تَحِلُّ لابنه ، والمعنى كما قطعت محبتها عن قلبي على خلاف المعهود من الناس ، فأنت يا إبني ، اقْطَعْ محبتها عن قلبك كأبيك ، لا تتعمق بها ، ولا تتعلق منها بشيء قط . ونظم ذلك بعضهم ، فقال :

عَتَبْتُ عَلَى الدُّنْيَا فَقُلْتُ : إِلَى متى ... أُكَابِدُ حُزْناً هَمُّهُ لَيْسَ يَنْجَلِيْ

فَقَالَتْ : نَعَمْ يَا ابْنَ الْكِرَامِ لِأَنَّنِيْ ... غَضِبْتُ عَلَيْكُمْ مُنْذُ طَلَّقَنِيْ عَلِيْ

فَكُلُّ وَلِيٍّ مِنْ عَلِيٍّ قِرَانُهُ ... حَرَامٌ عَلَيْهِ البِشْرُ غَيْرُ مُحَلَّلِ

ولما مر في قراءة الرسالة ، قوله تعالى : ﴿أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ

ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾، قال : « هذا يتحقق في حق الكافر ، وأما المؤمن فلا يخلو عن شيء منه ، إما نفاق أو شيء من المعاصي الظاهرة ، أو الباطنة كرياءٍ وعُجُب ، وغير ذلك » .

قوله : « وقال عليه السلام : يا ابن آدم ، إن كنتَ تطلب من الدنيا ما يكفيك ، فالقليل منها يكفيك»، قال : « هو ما يحتاج إليه كل يوم » ، ثم قال : « ولو ترك أحدٌ الدنيا واشتغل بما لا بد له منه ، أتاه منها ما يحتاج إليه ، وهذا مجرب » .

قال : « فرغ من إملاء هذه الرسالة ٢٣ شعبان سنة ١٠٦٨ » .

أقول : وسِنُّهُ إذ ذاك : ٢٤ سنة ، و ٦ أشهر ، و ١٨ يوماً . و مستمليها السيد علي بن عمر بن حسين .

ذكر كلمات ذكرها في رسالة المعاونة ثم تكلم عليها في مجلس القراءة

قوله في آخر الخطبة : « ﷺ في كل حين وأوان » ، قال : « هما بمعنى ، إلا أن الحين يطول ويقصر، والأوان لا يكون إلا قصيراً ، فهو القصير من الزمان » .

قوله في آية : ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ ، قال : « هم مخصوصون بذلك - يعني الفلاح - لأنهم قاموا بالفرض عن غيرهم ، وحَطُّوه عن أنفسهم » .

قوله في حديث : « الخلق عيال الله » ، قال : « أي محتاجين إليه ، لأن عيال الشخص : مَن يعولهم ، وينفق عليهم » ، ومرة قال : « أي خلق الله وعبيده ، وهم محتاجون إليه » .

وفي قوله تعالى : ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾، قال : « لأنها ما تدعوك إلا إلى الحظوظ ومحبة الدنيا ونسيان الآخرة ، هذه طبيعتها » .

ومرة قال : « إنما قيل إنها أعدى الأعداء ، لكونها كالعدو لك في بيتك ، وكسارِقِكَ مِن أهلك ، وإذا كان سارقك من أولادك فأَمْرُهُ مُشْكِلٌ » .

و في الحديث : « أعدى عدوك نَفْسُكَ التي بين جَنْبَيْك » ، وقال : « قال الشيخ عبدالله العيدروس: هذا البيت سيد الشعر .

تَــوَقَّ نَفْسَــكَ لا تَأْمَــنْ غَوَائِلَهَــا   فَالنَّفْسُ أَخْبَثُ مِنْ سَبْعِيْنَ شَيْطَانَا

قوله : « إن الله يُنطِقُ علماء كل زمان بما يوافق أهله » ، قال : « لأنهم يرونهم فيفهمون أحوالهم، فيُعَبِّرون عنها على ميزان الشرع بما يناسبهم ، وذلك كترجيح بعض الأقوال والجمع بينها ، ونحو ذلك » .

قوله : « عليك بتقوية يقينك ، فإن اليقين إذا تمكن من القلب واستولى عليه صار الغيب كأنه شهادة، وعند ذلك يقول الموقن كما قال علي كرم الله وجهه : لو كُشِفَ الغطاء ما ازددتُ يقيناً » ، قال : « أي في أمور الدين وأمور الآخرة » .

قوله : « بل لا يبقى للشكوك والأوهام وجود البَتَّة » ، قال : « هذا غاية الإيمان ، فيصير الغيب كالشهادة ، ومن قال الغيب شهادة ، أي كأنه شهادة ، لأن في اللغة يجوز إطلاق الشيء على ما قاربه » .

قال : « والإيمان هو اليقين ، وأما القول باللسان فهو إيمان النساء ، إلا إن كان خواطر تخطر له ، يعفى عنها ولا يُلام عليها ، فإن لم يَعْرِفه فليسأل عنه العلماء العارفين » هـ .

أقول : يعني يسألهم عن معنى اليقين ، ومعنى الإيمان ومعنى اليقين مذكوران في حديث آدم الذي ألهمه الله إياه ، ودعا به بعدما توضأ وصلَّى ركعتين عند الكعبة ، مع الكلمات التي تلقاها من ربه ، وهي: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾، فغفر لهما ، ووعد سبحانه من توضأ وصلى ركعتين ودعا بذلك الدعاء أنه يغفر له ، وهو مشهور ، وفيه : « اللهم إني أسالك إيماناً يباشر قلبي ، ويقيناً ليس بعده كفر ، حتى اعلم أنه لن يصيبني إلا ماكتبته عليَّ ، وارضني بما قسمته لي » ، فتبين أن الإيمان ما باشر القلب ، أي عَلِمَ موارد الإيمان فالتَزَقَ به وامتَسَكَ ولم ينفك عنه ، وأنه إذا بالغ في ذلك بقوة بحيث صار قلبه متعلقاً بالله ، لا يرى نافعاً ولا ضاراً إلا الله ، ولا التفات له إلى سواه ، من سببٍ وغيره ، فرضي بكل ما قُسِمَ له من خيرٍ وشرٍّ ، حتى لا يحب إلا ما أراده له ربه .

كذاك الذي سمع وهو يحمد ربه ، ويتغبط نفسه بما أُعطِيَ ، ولا يرى أحداً أُعطِيَ مثله ، وإذا به قد قَطَّعَه الجذام من رأسه إلى قدمه ، وكان الوقت شديد البرد ، والمياه جامدة ، والثلج يتساقط عليه ، وليس عليه لباس سوى خصفة عليه ، فقيل له : « سِرْ بنا إلى رحلنا لنكسوك وترمي هذه الخصفة » ، فقال : « هذه أرادها لي ربي فلا أريد سواها » ، فمثل حال هذا هو اليقين الكامل .

قوله : « ومن ثمرات حسن اليقين السكون إلى وعد الله والثقة بضمان الله » ، قال : « أي لا يشك في أمر الرزق » .

« والإقبال بكنه الهمة على الله » ، قال : « إذا وُجِدَت الهمة انبَسَطَت في البدن ، فقَوِيَ البدنُ بسبب ذلك ويقوى الروح » .

قال : « من لا يقين له يبقى كسلان ، فلا يقدر يعمل ، واليقين هو الإيمان الثابت ، ومن له بعض فَهْمٍ يفهم ذلك ، ومَن ضَعُفَ فَهْمُهُ يحتاج إلى بعض تفصيل أكثر من هذا » .

قوله : « وأهل الإيمان في اليقين على ثلاث درجات ، الأولى : درجة أصحاب اليمين ، التصديق الجازم مع إمكان التشكك والتزلزل ، لو جاء ما يقتضيه ويعبر عنها بالإيمان » ، قال : « وهم عامة المؤمنين » .

« الثانية : وهي درجة المقربين ، استيلاء الإيمان على القلب وثباته فيه ، حتى لا يجوز النقيض ، وفي هذه الدرجة يصير الغيب كأنه شهادة ، ويعبر عنها باليقين » ، قال : « هذا يكون لبعض الناس في بعض

الأوقات » .

« الثالثة : وهي درجة النبيين وكُمَّل ورثتهم من الصديقين ، أن يصير الغيب شهادة ، ويعبر عنها بالكشف والعيان » ، قال : « وذلك في بعض الأمور لا كلها ، ومثال اليقين في عدم تطرق الشك إليه كرجل معروف أنه ابن فلان ، فقال له رجل : إنك لست بابنه . وأنكر نسبه ، ومثال الآخر كمن ينكره مع تطرق الإحتمال إليه ، بأن وُلِدَ في بلد ونشأ فيها ولم يُعرف لأبيه المنسوب إليه وصولٌ إلى تلك البلد ، أو عُرِفَ ولكن احتُمِلَ أن يكون غيره » .

قوله : « وعليك بإصلاح النية وإخلاصها وتفقدها ، والتفكر فيها قبل الدخول في العمل » ، قال : « كل مسالة مستقلة وحدها ، لو شرحناها مع قلة علمنا لبلغ كالأصل - أي الكتاب - لأن المقصود بها بالخصوص كان عالماً ، وكان منطوياً فينا حتى مات ، حتى إنا نقول له : إنك أخ ، فيقول: بل أردتُك شيخي . ورأيته مرة في المدينة المشرفة كأني قابض عليه ، وأقول له : اِمْضِ بنا نتحاكم إلى النبي ﷺ » .

و مرة قال : « قلت له : اِمْضِ معي أُحَاكِمُكَ إلى رسول الله ﷺ ، ولم أعلم لذلك سبباً » هـ .

أقول : يعني الذي ألّف له هذه الرسالة ، وهو ابن عم والدة سيدنا ، وما أَلَّفَها له إلا لمعرفته بصدقه واعتقاده كما ذكر عنه .

وقوله: « في المدينة » ، يعني كأني وإياه في المدينة .

وقوله : « كأني قابضٌ عليه » ، ومرة : « قابضٌ بتلابيبه » ، وذلك أني جلستُ مع هذا الرجل بعدما اجتمعنا معه بحضرة جَدِّه الشيخ أحمد الحبشي ، ضحى جمعة من أيام شوال سنة ١١١٥ ، وجلسنا معه وأحد أولاد سيدنا عبدالله في الشعب - قاصدين زيارة الشيخ أحمد بن عيسى - مجلساً فسيحاً ، وحكى لنا بما كان بينه وبين سيدنا من الأُلْفَة والمحبة والقرابة ، وذكر أنه لما كتب سيدنا لشيخه الشيخ محمد بن علوي السقاف يسأله إلباس الخرقة ، وكان هذا الرجل إذ ذاك في صحبته ، قال : « فَسِرْتُ معه إلى المدينة ، فلما كان الشيخ محمد في المواجهة تلقاء الضريح الشريف ، فحصل عليه اندهاش وغَيْبَة، حتى سال منه العرق - أظنه قال : إلى الأرض - فلما سُرِّيَ عنه ، أمرني بإحضار دواة وقرطاس ، وقال: اكْتُبْ للسيد عبدالله . فأملى عليَّ كتابه ، وأرسله مع الخرقة إليه ، وقال له في كتابه : إن رسول الله ﷺ أمرني بإلباسك الخرقة . فاتَّفَقَ أن وصل ذلك إليه يوم وفاة السيد محمد بمكة ، ولما أرسل بالخرقة والكتاب إليه جَعَلَتْ الغِبْطَة ، وأقول في نفسي : يرسل إليه بالخرقة إلى تريم ، ونحن عنده ما يعطيناها» .

فلهذا رأى سيدنا في رؤياه أنه قابضٌ بتلابيبه ، يطلب منه المحاكمة ، وهو لا يخلو من لبسٍ وأخذٍ

وتلقين ، ولكن الشأن كل الشأن في الخرقة التي أرسلها لسيدنا بأمر رسول الله ﷺ ، وإشارة فيها إلى أنه خليفته .

وقوله : « ولم أعلم لذلك سبباً » ، أظن أني ذكرت لسيدنا قول الرجل : « جَعَلَت الغِبْطَة .. إلخ » .

قوله : « والنية لا تؤثر في المعاصي شيئاً ، كما أن التطهير لا أثر له في نَجِسِ العين ، فمن وافق إنساناً على غِيْبَةِ مسلم وادَّعى أنه يقصد بذلك إدخال السرور على قلبه فهو أحد المُغتابَيْن » ، *قال* : « أو استحيا منه وجعل الحياء عذراً ، فهو مغتاب أيضاً » .

***قال* : « ومن سكت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وادَّعى أنه نوى بسكوته التَّوَقِّي عن كسر قلب المباشَر ؛ فهو شريكه في الإثم » .**

قوله : « وإذا تَعَلَّقَت النية الخبيثة بالعمل الطيب ، أفسَدَتْهُ وصيَّرته خبيثاً ، كمن يعمل الصالحات وينوي بذلك تحصيل المال أو الجاه » .

أقول : وفي ذلك رَدٌّ على من يتعاطى ذلك من الدَّرَسة وطلاب العلم في هذا الزمان ، كما ترى من بيعهم عباداتهم ، من الصلاة بالأجرة وقراءة القرآن طول السنة بالأجرة ، وقد قال رسول الله ﷺ : من طلب الدنيا بعمل الآخرة طمس الله وجهه ، ومحق ذِكْرَهُ ، وأثبت اسمه في النار . فليتعلل البائعُ دينه وعباداته بطمع الدنيا عن قول رسول الله ﷺ بما يقتضيه هوى نفسه وطبعه الفاسد ، ويغتر بدعوى أنه عمل صالحاً بينما هو أقدم عليها بنية فاسدة فبطلته ، لحديث : « إنما الأعمال بالنيات » .

فللعمل حكم النية ، انظر قوله تعالى : ﴿لَن يَنَالَ ٱللَّهَ لُحُومُهَا وَلَا دِمَآؤُهَا وَلَٰكِن يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنكُمْ﴾، وهي النية الصالحة فإذا أفسدت العمل بنية طمع دنياوي ، فماذا يناله من عملك !!

قوله : « فاجتهد يا أخي أن تكون في نيتك في طاعتك مقصورة على ابتغاء وجه الله تعالى ، وانْوِ بما تتعاطاه من المباحات الإستعانة به على طاعة الله تعالى . واعلم أنه يُتصور أن يجتمع في العمل الواحد نيات كثيرة ، ويكون للعامل بكل نية منها ثواب تام » ، *قال* : « هذا إذا حَسُنَتْ نيته ، وكان ممن يعرف النية ، والغالب أن أهل الزمان لا تصح لواحدهم نية واحدة ، لغلبة الجهل وحب الدنيا عليهم ، وإنما ذاك مع الصدق ، إذا صح أنها باعث ، لا مع الدعوى » .

قوله : « مثاله من الطاعات أن ينويَ بقراءة القرآن مناجاة الله ، فإن القاريء مُناجٍ ربه ، وينويَ

استخراج العلوم من القرآن ، فإنه معدنها ، وينويَ نفع نفسه والسامعين ، إلى غير ذلك من النيات الحسنة » .

أقول : المستمع بالقصد ، والسامع إتفاقاً .

قوله : « ومثاله من المباحات أن تنوي بالأكل امتثال أمر ربك في قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ ، وتنوي به التقوي على طاعة الله ، وتنوي به التسبب في استخراج الشكر منك لربك ، إذ يقول سبحانه : ﴿كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ﴾ . فَقِسْ على هذين المثالَيْن ما عداهما من الطاعات والمباحات ، واستكثر من صالح النيات جهدك » .

قوله : « إن النية تُطلق ، ويُراد بها أحد المعنَيَيْن : الأول : أن النية عبارة عن غرضك الذي حملك على العزم والعمل والقول ، وتكون النية بهذا الإعتبار في الأكثر خيراً من العمل إن كان خيراً ، وشراً منه إن كان شراً ، وقد قال ﷺ : نية المؤمن خير من عمله » ، قال : « لأن أعمال القلوب أبلغ من أعمال الجوارح ، لأنه قد يحصل الثواب على النية ، وإن لم يقترن بها عمل ، ولا عكس ، وكذا القول في ضده كما فصَّله الحديث المذكور » .

ثم ذكر حديث ابن عباس : « إن الله كتب الحسنات والسيئات ، ثم بيَّن ذلك ، فمن همَّ بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة ، وإن همَّ بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة ، وإن همَّ بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة » .

قوله : « والمعنى الثاني : أن النية عبارة عن قصدك فعل الشيء ، وعزمك عليه . وهذه النية لا تكون خيراً من العمل ، ولكن لا يخلو عند عزمه على فعل شيء من ثلاث حالات : الأولى : أن يعزم ويعمل ، والثانية : أن يعزم ولا يعمل » ، قال : « ففي الخبر إن تركه كأن كان عاجزاً عن ذلك ولم يتمكن ، وقد علم الله صدقه » .

« وفي الشر » ، قال : « أي إن منعه الخوف من الله مع القدرة عليها ، فإن منعه العجز فعلى حسب نيته » .

« والحالة الثالثة : أن يعزم على فعل أمر لا يستطيع فعله ، فيقول : لو استطعتُ عملت . فله نية ما للعامل وعليه ما عليه ، والدليل عليه قوله عليه الصلاة والسلام : الناس أربعة : رجل آتاه الله علماً ومالاً ، فهو يعمل في ماله بعلمه ، فيقول آخر : لو آتاني الله مثل ما آتاه لعملتُ مثل عمله ، فهما في الأجر

سواء . ورجل آتاه الله مالاً ولم يؤته علماً ، فهو يخبط في ماله بجهله ، فيقول آخر : لو آتاني الله مثل ما آتاه عملتُ مثل عمله ، فهما في الوزر سواء » .

قوله : « وعليك بمراقبة الله في حركاتك وسكناتك واستشعر قربه منك » ، قال : « أي استشعر في نفسك إطِّلاعه عليك من غير أن تعتقد تكييفاً » .

قوله : « وهو معك أينما كنت ، بالعلم والإحاطة والإقتدار ، ويدُلُّك مع الهداية والإعانة والحفظ ، إن كنت من الأبرار » ، قال : « مَعِيَّة بعد مَعِيَّة » ، أي معية معنوية .

قوله : « ومتى رأيت من نفسك تكاسلاً عن طاعته ، أو ميلاً إلى معصيته ، فذكِّرها أن الله يسمعك ويراك ، ويعلم سرك ونجواك » ، قال : « لعلها بذلك تنزجر ، والمعالجة قبل ذلك ، بأن يوعظها وينهاها عند طلبها ما لا ينبغي ، والمداواة بعد ، فلعله لا يقدر على ذلك ، فلو امتنع من قبل كان أحسن » .

قوله : « فاختاري لنفسِك إن شئتِ طاعةً تكون عاقبتها الفوز والرضوان ، والخلود في فسيح الجنان ، والنظر إلى وجه الكريم المنان ، وإن شئتِ معصيةً يكون في آخرها الخزي والهوان ، والسخط والحرمان ، والحبس بين طبقات النيران ، فعالِجْ نفسك بهذه الأذكار عند تقاعدها عن الطاعة وركونها إلى المعصية » ، قال : « وإلا فاستشعار المراقبة هو المطلوب . وعالجها أي : بأحدها إن كفاها فذاك ، وإن تمردت فداوها بالآخر ، وهكذا دواء بعد دواء » .

قوله : « ثم إنه إن ثار من قلبك - عند استشعارك أن الله يراك - حياءٌ منه يمنعك عن مخالفته، ويحملك على التشمير في طاعته ، فعندك شيء من حقائق المراقبة . واعلم أن المراقبة من أشرف المقامات، وأرفع المنازل ، وأعلى الدرجات ، وهي مقام الإحسان المشار إليه بقوله عليه الصلاة والسلام: الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه » ، قال : « وهي أن يتذكر أن الله يراه ، وهو ناظر إليه حتى يَجِدَّ في الطاعة ويُعرِض عن المعصية » .

قوله : « وكل واحد من المؤمنين يؤمن بأن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، ويعلم أن الله معه أينما كان ، لا يخفى عليه شيء من حركاته وسكناته ، ولكن الشان في دوام هذا المشهد ، وحصول ثمراته التي أقلها أن لا يعمل فيما بينه وبين الله عملاً يستحي أن يراه عليه رجل من الصالحين، وهذا عزيز ، وما وراءه أعز منه ، إلى أن يصير العبد في آخر الأمر مستغرقاً بالله تعالى ، وفانياً به عمن سواه ، قد غاب عن الخلق بشهود الملك الحق ، والتحق بمقعد صدق عند مليك مقتدر » ، قال : « أي هذا نادر ، ولكن المطلوب أن يكون كذلك في أكثر الأوقات » ، قال : « وكل أحد لو سألته قال ذلك، ولكن المشهد قليل » .

قوله : « وعليك بإصلاح سريرتك حتى تصير خيراً من علانيتك الصالحة ، لأن السريرة موضع نظر الحق ، والعلانية مطمح نظر الخلق » ، قال : « أي يكون جانب السريرة أرجح » ، وقال : « والسريرة ما خفي من أمر القلب » .

قوله : « وما ذكر الله سبحانه السر والعلن في كتابه إلا وبدأ بِذِكْر السر » ، قال : « نبَّهَكَ سبحانه عليه لِتُشَمِّر لإصلاحه ، وذلك لأن السر معاملة بين العبد وبين الله ، والعلانية بينه وبين الخلق ، فينبغي أن يجعل صلاح السريرة لذلك أكثر من صلاح العلانية ، ومن ادَّعى صلاح السريرة مع فساد ظاهره فهو كذاب ، فإن ادَّعى ذلك مع صلاح ظاهره فهو مُدَّعٍ » .

قوله : « ومن ادعى أن له سريرة عامرة ، وكان قد خرَّب علانيته بترك الطاعات الظاهرة فهو مُدَّعٍ كذاب ، ومن اجتهد في إصلاح علانيته بتحسين زِيِّه وهيئته وتقويم لسانه ووزن حركاته وسكناته في قعوده وقيامه ومَشْيِه ، وتَرَكَ باطنه مشحوناً بخبائث الأخلاق ورذائل الطباع ، فهو من أهل التصنُّع والرياء ، المعرضين عن المولى . فإياك أن تستر شيئاً لو ظهر للناس كنت تستحي من ظهوره حياء ينشأ من خوف الإستقباح » ، قال : « وقد تكون أشياء غير مستقبحة ، ولكن من شأنه أن يستحيا منه ، كحالة قضاء الحاجة ، وما يكون بينه وبين أهله ، ولا في ذلك هتك للمروءة ولا كراهة في شرع ولا طبع » ، أو كما قال ، وهو محترز قوله : « حياء ينشأ من خوف الإستقباح » .

قوله : « فإن لم تقدر أن تجعل سريرتك خيراً من علانيتك ، فلا أقل من أن تُسَوِّي بينهما ، فيكون امتثالك لأمر الله واجتنابك لنهيه ، وتعظيمك لحرماته ، ومسارعتك في مرضاته في الخلاء والملأ على حد سواء ، وهذه أول قدم يضعها العبد في طريق المعرفة الخاصة ، فاعلم ذلك » ، قال : « أي فتجعل مثلا صلاتك في بيتك وبين الناس على حالة واحدة من غير مراعاة » .

قوله : « فكل نَفَسٍ من أنفاسك جوهرة لا قيمة لها » ، قال : « أي إذا عملت بطاعة الله » ، ومرة قال : « لأنك كان يمكنك أن تقول فيه لا إله إلا الله ، يعني : فتنفعك في الآخرة أكثر ، وخير لك من نفع الجوهرة في الدنيا » .

قوله : « ينبغي أن يكون لك ورد من صلاة النفل زائد على النوافل الواردة تعيِّن له وقتاً ، وتضبطه بعدد تطيق المداومة عليه . وقد كان من السلف الصالح رحمهم الله مَن وِرْده في اليوم والليلة ألف ركعة، مثل الإمام علي بن الحسين رضي الله عنهما ، ومنهم من ورده خمسمائة ، ومنهم من ورده ثلاثمائة ، إلى غير ذلك » ، قال : « هذا غير النوافل المؤقَّتة ، وهذا في حق المتفرغ للعبادة ، لا في حق المحترف والمشتغل ،

فإن هذا إذا أتى بالنوافل المشروعة فذلك منه كثير ، أو في حق رجل فارغ ، إذا لم يشتغل بالعبادة جلس بَطَّال أو في لهو ، ومِن ذلك صلاة الضحى ، وهي صلاة مباركة ، وهي مجربة لسعة الرزق ، وكونها ثمان أفضل إلا أن يصلي عند الشروق أربعاً وبعد ربع النهار ثمان » .

وقوله : « قال عليه الصلاة والسلام : عليكم بقيام الليل ، فإنه دأب الصالحين قبلكم ، ومقربة لكم عند ربكم ، ومكفرة للسيئات ومنهاة عن الإثم ، ومطردة للداء عن الجسد » ، قال : « كما أن كثره يورث مرضاً في الجسد ، ينبغي أن يأخذ منه بالوسط كالطعام » .

قوله : « وللعارفين في قيام الليل منازلات شريفة ، وأذواق لطيفة ، يجدونها في قلوبهم من نعيم القرب من الله ، ولذة الأنس بالله ، وطيب المناجاة والمحادثة مع الله تعالى . قال بعضهم : إن كان أهل الجنة في مثل ما نحن فيه إنهم لفي عيش طيب . وقال آخر : أهل الليل في ليلهم كأهل اللهو في لهوهم » .

قوله : « منازلات شريفة » ، قال : « أي أحوال تنزل في قلوبهم » .

وقوله : « أهل اللهو في لهوهم » ، قال : « إن أهل اللهو يقطعون الليل كله بِلَهْوِهِم وهم مستغرقين به ، فكذلك يشتغل هؤلاء بما هم فيه » .

قوله : « ومن المستحسن أن يتبع القرآن فيقرأه شيئاً فشيئاً حتى يختمه » ، قال : « إن كان يحفظ بالغيب وإلا في المصحف ، ويكون هناك في الليل - أظن قال : سراج - فيقرأ في المصحف ، وإذا ركع وضعه ، وهذا لا يبطل الصلاة » .

قوله : « ويتلخص من مجموع الأحاديث أنه ينبغي لك ويستحب إذا قمت من النوم أن تمسح النوم عن وجهك بيدك ، وتقول : الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور ، وتقرأ : ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾، إلى آخر السورة ، ثم تستاك وتتوضأ ، ثم تصلي ركعتين خفيفتين ، ثم تصلِّ بعدهما ثمان ركعات تطوّلهن ، تسلِّم من كل ركعتين ، ثم إن بقي معك نشاط فَتَنَفَّل ما بدا لك ، ثم صلِّ ثلاث ركعات بنية الوتر » ، قال : « هذا مختصر ما يحتاج إليه ، وما زاد عليه فهو في المطولات ، فينبغي أن يأخذ بمختصره ذلك ، ومن زاد عليه فقد دخل بحراً ما له ساحل ، لأن العلم قد طَوَّل وعَرَّض ، وأصلُه أمرٌ دون ذلك ، وأكثر ما طُوِّلَ به فضولٌ وتفاريع لا يحتاج إليها ، والمناسب لكل زمان كلام علمائه ، لأن الله يُنطِق علماء كل زمان بما يناسبه ، يرون أحوالهم وما يرغبون فيه وما يلابسونه ، فيتكلمون لهم بحسب ذلك » .

قوله : « واعلم أن القرآن هو البحر المحيط ، ومنه تُستخرج جواهر العلوم ونفائس الفهوم ، ومَن فُتِحَ له طريق الفهم فيه ؛ دام فتحُه وتمَّ نورُه » ، قال : « لكن القراءة على هذا الوجه عزيزة ، إذا قدم

نظافة القلب من أكل الحلال والزهد في الدنيا وغير ذلك ، ولكن يأخذ بقدر ما يمكنه » .

قوله : « وعليك بالمحافظة على قراءة الآيات والسور التي ورد الحث عليها في بعض الأوقات ، فمن ذلك أن تقرأ كل ليلة قبل أن تنام : الـم السجدة ، وتبارك الملك » ، قال : « إن قرأ عند النوم ، وإلا لا يخلي الليل عن قراءتها ، فالميسور لا يسقط بالمعسور ، خصوصاً في هذه الأزمنة . والنوم إنما هو في الغفلة ، أو يقظة ما فيها فائدة ، وهاتان الحالتان متقاربتان كتقارب السبابة والوسطى » .

أقول : يعني بالحالتين : النوم ويقظة لا فائدة فيها ، ويعني بذلك أن هاتين لا فائدة فيهما ، والوقت فيهما يمر ضياعاً ، وإنما الفائدة في يقظة يشتغل فيها بالعبادة والطاعة ، فليحرص عليها ويغتنمها ما أمكنه ، فذلك أنفس أوقات عمره ، وخصوصاً في هذه الأزمنة التي قل الإعتناء فيها بالعبادة .

قال : « لو قرأ السجدة وسورة الملك في الركعتين اللتين بعد العشاء ، كان أفضل ، وحصل له سنة قراءتهما حينئذ » .

قوله : « وسورة الواقعة وآمن الرسول إلى آخر السورة ، وسورة الدخان ليلة الجمعة والاثنين، وسورة الكهف يوم الجمعة وليلتها » ، قال : « وقراءة الواقعة بين أذان العشاء والصلاة اختيار بعضهم ».

أقول : وعمل سيدنا عليه ، فيخرج من داخل البيت كل ليلة إلى صلاة العشاء وهو يقرأها ، فيختمها عند دخوله المسجد ، فتقام الصلاة ، فيتقدم يصلي بالجماعة ، وهكذا دأبه كل ليلة غالباً .

ورأيت مسنداً عن الإمام جعفر الصادق ، عن أبيه الإمام محمد الباقر ، عن جَدِّه زين العابدين ، عن الحسين بن علي ، عن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم أجمعين ، قال : « قال رسول الله ﷺ : إن فاتحة الكتاب ، وآية الكرسي ، والآيتين من آل عمران : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ قَآئِمَۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ۝١٨ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ﴾، ﴿قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝٢٦ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ۝٢٧﴾، مُعَلَّقاتٌ ، ما بينهن وبين الله حجاب ، قُلنَ : يا رب ، تهبطنا إلى أرضك وإلى من يعصيك، قال الله عز وجل :إني حَلَفْتُ لا يَقرأُكُنَّ أحدٌ من عبادي دُبُر كل صلاة إلا جعلتُ الجنة مأواه على ما كان منه ، وإلا أسكنته في حظيرة القدس ، وإلا نَظَرْتُ إليه بعيني المكنونة كل يوم سبعين مرة ، وإلا قضيتُ له كل يوم سبعين حاجة ، أدناها المغفرة ، وإلا أَعَذْتُه من كل عدو وحاسد ، ونصرته عليه » .

أقول : قوله : « وإلا » - في الأربعة بعد الأول - بمعنى الواو ، ويعني : وأسكنتُه ونظرتُ إليه وقضيتُ له وأعذتُه . وجاء ذِكْر حظيرة القدس في حديث رواه أبو الليث السمرقندي بسنده عن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، قال : « قال رسول الله ﷺ : إن لله موضعاً يقال له حظيرة القدس ، فيها ملائكة لا يحصي عددهم إلا الله تعالى ، يعبدون الله لا يفترون ساعة ، فإذا كان ليالي شهر رمضان استأذنوا ربهم أن ينزلوا إلى الأرض كل ليلة فيصلون مع بني آدم ، فمن مسَّهم أو مسوه ، سَعِد سعادة لا يشقى بعدها أبداً » ، قال : فلهذا جمع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه الناس على صلاة التراويح ونصبها .

قوله : « وينبغي أن يكون لك ورد من ذكر الله ، تحدُّه بوقت أو تحصُرُه بعدد ، وحينئذ فلا بأس بالسبحة لضبط العدد » ، قال : « الوقت كساعة زمانية ، ويقال إنها تَسَعُ ألف من قول : الله الله . ومن قال في اليوم والليلة من ذلك ، ووُزِّعَت على أنفاسه فيها ، يخص كل نَفَس مرة واحدة من المجموع والعدد ، كألف مثلاً » .

قال : « والسبحة ، الأصل فيها ما ورد من الأمر بالعَدِّ في حديث : اعقدوا بالأصابع فإنهن مُستَنْطَقَات . وفيها أثر : كان عند أبي هريرة خيط فيه خمسمائة عقدة يَعُدُّ بها وِرْدَه ، وبعض أزواج النبي ﷺ التي معها حجارة تَعُدُّ بها ، ثم تفرعت السُّبح وتنوعت إلى أنواع كثيرة » .

قوله : « وللذِّكر ثمرات ونتائج ، يجدها من واظب عليه بوصف الأدب والحضور ، أقلُّها أن يجد فيه من الحلاوة واللذة ما يستحقر في جنبه كُلَّ ما يعرفه من اللذات الدنياوية » ، قال : « يكون ذلك بعد المجاهدة وتصفية القلب » .

وقوله : « وأعلاها أن يفنى بالمذكور عن الذِّكر » ، قال : « وفي هذه الحالة يتصور له ما يفزعه إن كان ضعيفاً ، ولهذا ما يُدخِلون الخلوة إلا من معه قوة قلب وثبات جأش ، بحيث لو ورد عليه من يقابله لم يَهَب » .

قوله : « ومن قعد وهو على طهارة ، في خلوة ، مستقبل القبلة ، ساكن الأطراف ، مطرق الرأس ، ثم ذكر الله بقلبٍ حاضرٍ وأدبٍ وافر ، رأى للذِّكْر في قلبه أثراً ظاهراً. فإن داوم على ذلك أشرقت عليه أنوار القُرْب ، وانكشفت له أسرار الغيب » ، قال : « هذا قد ظهر لبعض أهل الخصوص ، ولكن اليوم لا عاد يساعد الإنسان حتى أعضاؤه ، فلو ظهر له مثل ذلك ربما تغير عقله ، فليأخذ على الذِّكر على هذا، فهو الأصل والذي درج عليه الصحابة وغيرهم » .

قال في آداب الذِّكْر المذكورة : « إذا أتى به كذلك من حال الأدب ، فربما ظهر له أشياء لا يعرفها، مفزعة مهولة ، لأنه لا يألف مثلها ، وأكثر ما يكون لمن يدخل الخلوة بغير شيخ ، أو غير ممتثل ، بل بنفسه ، وقد يخرجون بسبب ذلك من الخلوة . وهذه الآداب أوائل خلوة أهل الطريق . والخلوة خلوتان : خاصة وعامة . فالعامة : هي العزلة عن الناس ، والخاصة : هي ما يكون بأمر شيخٍ مُرَبٍّ ، أو بنفسه إن كان نجيباً ، ومن شرائطها : الإغتسال عند دخولها ، والصيام ، وأن لا يُدخِل عنده إلا من يحتاج إليه ، وأن لا يكثر الكلام ، والمداومة على الذِّكْر » .

قوله : « وأفضل الذِّكر ما كان بالقلب واللسان، وذِكْر القلب أن يكون حاضراً فيه معنى الذِّكْر الذي يجري على اللسان كالتقديس والتوحيد عند التسبيح والتهليل » ، قال : « ومن معناه أن يجري اللفظ على لسانه وعلى قلبه أيضاً » .

قوله : « والأفضل للذاكر من الإسرار والجهر بالذِّكر والقراءة الأصلحُ منهما لقلبه » ، قال : « فلينظر نفسه ، إن خاف من رياء وعجب وأذى مسلم ، أَسَرَّ وإلا جهر » .

قوله : « وعليك بالمحافظة على الأذكار والأدعية الواردة في أدبار الصلوات ، وعند الصباح والمساء، والنوم واليقظة ، إلى غير ذلك من الأوقات والأحوال المتعاقبة ، فما سَنَّها رسول الله ﷺ لأمته إلا لتكون سبباً لهم إلى الفوز بالخير ، والنجاة من الشر الواقعَيْن في ذلك الوقت والحال . فمن أهملها ثم بعد ذلك ناله مكروه ، أو حِيلَ بينه وبين محبوب فلا يلومنَّ إلا نفسه » ، قال : « لأن الله أَطْلَعه على أسرار الغيوب ، وهو مُخبِرٌ لهم بذلك ، وهم مُقَلِّدوه ونعم المقلَّد ، وينبغي الأخذ بما يقوله » .

قوله : « ولا تقتصر على نوع واحد من الذِّكر ، بل ينبغي أن يكون لك من كل نوع ورد » ، قال : « المراد بالورد : أن تجعل له وقتاً لا تتعداه ، أو عدداً معروفاً فتواظب عليه حتى تعتاده النفس ويظهر عليك بواسطته النور » ، قال : « الإستغفار والصلاة على النبي ﷺ في آخر الزمان أنفع الأذكار ، وليجعل له من ورد الصباح والمساء ما تيسر ، ويواظب عليهما في كل أوقاته » .

قال في قوله عليه الصلاة والسلام : « أحبكم إليَّ وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أكثركم عليَّ صلاة » ، قال : « عن بعضهم : أقل الإكثار ثلاثمائة » .

قوله : « وينبغي أن يكون لك ورد من التفكر » ، قال : « يتفكر هل هو في طاعة ، وكيف يفعلها؟ أو هل هو مقارفُ معصيةٍ ، فيجتنبها ؟ وكيف تحصيل معيشته ، هل هو من وجهها أم لا ؟ وفي الآخرة هل هو مستعد لها أم لا ؟ ومن أراد أن يعمل عبادة على وجهها لا بد له من التفكر قبلها وفيها وبعدها » .

قوله : « واعلم أن صلاح الدنيا والدين موقوفٌ على صحة التفكر ، وقد ورد : تَفَكُّرُ ساعةٍ خيرٌ من عبادة سَنَة . ومجاري الفكر كثيرة ، فمنها - وهو أشرفها - : أن تتفكر في عجائب مصنوعات الله الباهرة، وآثار قدرته الباطنة والظاهرة ، وما بث من الآيات في ملكوت الأرض والسماوات ، وهذا التفكر يزيد في معرفتك بذات الله وصفاته وأسمائه ، وقد حث الله عليه بقوله : ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

- ومنها : - أن تتفكر في آلاء الله وأياديه التي أوصلها إليك ، ونعمه التي أسبغها عليك ، قال الله تعالى : ﴿ فَٱذْكُرُوٓاْ ءَالَآءَ ٱللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾، وقال تعالى : ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ﴾. وثمرة هذا التفكر امتلاء القلب بمحبة الله » ، قال : « لأن المحسن محبوب بالطبع ، والإشتغال بشكره باطناً وظاهراً كما يحبه ويرضاه ، - ومنها : - أن تتفكر في إحاطة علم الله بك ، ونظره إليك ، واطّلاعه عليك، قال الله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾» ، قال : « أي مجرى الطعام والشراب » .

قوله : « وهذا التفكر ثمرته إن تستحيي من الله أن يراك حيث نهاك ، أو يفقدك حيث أمرك . - ومنها : - أن تتفكر في تقصيرك في عبادة مولاك وتعرضك لسخطه بإتيانك ما عنه نهاك ، قال الله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾، ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴾ ، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَىٰ رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَٰقِيهِ ﴿٦﴾﴾» ، قال : « مجتهداً اجتهادك ، أو أنت ملاق اجتهادك، أو ملاق به ربك » .

قوله : « وهذا التفكر يزيد في خوفك من الله ، ويحملك على لوم نفسك وتوبيخها ، ومجانبة التقصير وملازمة التشمير . - ومنها : - أن تتفكر في هذه الحياة الدنيا وكثرة أشغالها ووبالها وسرعة زوالها ، وفي الآخرة ونعيمها ودوامها ، قال تعالى : ﴿ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ ، وقال تعالى : ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾، وهذا التفكر يثمر لك الزهد في الدنيا والرغبة في الآخرة . واعلم أنه ينبغي لك أن تتفكر في نزول الموت وحصول الحسرة والندامة بعد الفوت » ، قال : « أي فوات الإختيار » .

قوله : « قال تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْمَوْتَ ٱلَّذِى تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُۥ مُلَٰقِيكُمْ﴾الآية » ، وذَكَر آيات كثيرة .

قوله : « وفائدة هذا التفكر قصر الأمل وإصلاح العمل ، وإعداد الزاد ليوم المعاد ، - ومنها : - أن تتفكر في الأخلاق والأعمال التي وصف الله بها أولياءه وأعداءه ، وفيما أعد للفريقين من الجزاء العاجل والآجل ، قال الله تعالى : ﴿ إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ ﴿١٣﴾ وَإِنَّ ٱلْفُجَّارَ لَفِى جَحِيمٍ ﴿١٤﴾ ﴾، وقال تعالى : ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَٱتَّقَىٰ﴾ إلى آخر السورة ، وقال تعالى : ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ﴾الآية ، وقال تعالى : ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ

لِقَآءَنَا وَرَضُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا ﴾، إلى قوله تعالى : ﴿وَءَاخِرُ دَعۡوَىٰهُمۡ أَنِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ۝١٠﴾ ، وثمرة هذا التفكر محبة السعداء وحمل النفس على العمل بعملهم والتخلق بأخلاقهم ، وبغض الأشقياء وحمل النفس على اجتناب أعمالهم وأخلاقهم . و ينبغي أن يستحضر عند ذِكْر كل نوع من التفكر ما يناسبه من الآيات والأخبار والآثار ، وقد أشرنا إلى ذلك عند كل نوع بذكر شيء من الآيات المناسبة له » ، قال : « أي تتفكر في هذه الآيات ، حتى يحصل لك العلم بها ، وتتمكن من العمل بها ، وفيها أوصاف أولياء الله وأعداءه » .

قوله : « واحذر أن تترك العمل بوِرْد مخافة أن لا تدوم عليه » ، قال : « بل اعمل والله يعينك ، إلا إنك لا تُفْرِط في الكثرة ، بل بقدر ما تدوم عليه من أول الأمر ، حتى لا تعودَ وتَمَلَّ بعد ذلك » .

قوله : « واعلم أن المسارعة إلى الخيرات ، والمحافظة على العبادات ، والمداومة على الطاعات ، دأب الأنبياء والأولياء في بداياتهم ونهاياتهم ، لأنهم أعرف الخلق بالله ، فلا جرم كانوا أعبدهم وأطوعهم وأخشاهم له عز وجل ، فإن إقبال العبد على ربه وعبادته له على قدر محبته له ، والمحبة تابعة للمعرفة ، فكلما كان العبدُ أعرفَ بالله كان أشد حُبًّا له وأكثر عبادة . فإن أشغلك جمعك للدنيا واتباعك للهوى عن اتخاذ الأوراد وملازمة العبادات ؛ فاجتهد أن تجعل لربك ساعة من أول نهارك وساعة من آخره ، تشتغل فيهما بالتسبيح والإستغفار وغير ذلك من أنواع الطاعات ، فقد روي عن الله تعالى أنه قال : ابن آدم ، اجعل لي ساعة من أول نهارك وساعة من آخره ؛ أكْفِكَ ما بين ذلك . وورد : أن صحيفة العبد إذا عُرِضَت على الله عز وجل من آخر كل يوم ، فإن كان في أولها وفي آخرها خير ، يقول الله تعالى للملَك: أُمْحُ ما بين ذلك ، ﴿ذَٰلِكَ مِن فَضۡلِ ٱللَّهِ عَلَيۡنَا وَعَلَى ٱلنَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَشۡكُرُونَ ﴾» .

وقوله : « إذا عُرِضَت على الله » ، قال : « أي يصعد بها الملائكة بعد صلاة المغرب وركعتيه ، ولهذا ورد أنهما ترفعان مع عمل النهار ، وطلبُ المبادرة بهما لذلك » .

وقوله : « يقول الله للملَك » ، أقول : أي الملَك الذي يكتب الحسنات فإنه موكل على الملك الذي يكتب السيئات ، فلا يكتب سيئة إلا بإذنه ، فيأمره بتأخير كتابتها إلى ست ساعات ، لعله يتوب ويستغفر ، فإن مضت ولا تاب ؛ أمره أن يكتبها سيئة واحدة ، وأما ذلك الموكل الذي يكتب الحسنات فيكتبها في الحال من غير تأخُّر عشر حسنات ، فإذا عُرِضَتْ ذلك على الله ، أمر كاتب الحسنات أن يمحو ما بين أول النهار وآخره المشغولين بالعبادة ما أثبت من السيئات .

و من أعجب العجب ما ورد في الحديث : « إن الله تعالى لمَّا أمر القلم أن يكتب في اللوح المحفوظ ما هو كائنٌ إلى يوم القيامة » ، أمره أن يكتب ما يعمله كل إنسان كل يوم ، من حين يبلغ ويوضع عليه

قلم التكليف إلى أن يتوفى ، وذلك قبل خلق المخلوقات ، وقبل خلق آدم بألوف كثيرة من السنين ، فإذا وُجِدَ كل إنسان في وقته وعُلِّق عليه قلم التكليف بكتب الحسنات والسيئات كما تقدم ، وعرض الملكان الحافظان ما كتباه من عمله ، فإذا عرضا ذلك كل يوم عليه سبحانه - وهو أعلم به منهما - فكل يوم يقول سبحانه لهما : « قابلا ما كتبتماه اليوم على ما كُتب سابقاً ، فيقابلانه عليه فيجدانه لا يزيد أحدهما على الآخر حرفاً ولا ينقص حرفاً » ، بمعناه ، فسبحانه ما أعظم شأنه وأعلى مكانه .

قوله : « وعليك بالتمسك بالكتاب والسنة ، فإنهما دين الله القويم ، وصراطه المستقيم ، فاجعلهما حاكمَيْن عليك ومتصرِّفَيْن فيك ، وارجع إليهما في كل أمورك ، فمن أخذ بهما سَلِم وغَنِم ورشد وعُصِم ، ومن حاد عنهما ضل وندم وهلك وقُصِم ، قال تعالى : ﴿فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾، أي إلى الكتاب والسنة ... وإياك ومحدثات الأمور ومختلفات الآراء » ، قال : « لأن هذا شأن المبتدعة ، يأتون بأشياء لا أصل لها في كتاب ولا سنة » .

قوله : « والبدع ثلاث ، الأولى : بدعة حسنة ، وهي ما رآه أئمة الهدى مما يوافق الكتاب والسنة، من حيث إيثار الأصلح والأنفع والأحسن ، وذلك كجمع القرآن في مصحف لأبي بكر ، و نَصْب الديوان، وصلاة التراويح لعمر ، وترتيب المصحف ، والأذان الأول يوم الجمعة لعثمان ، وأحكام قتال البغاة لعلي رضي الله عنهم » ، قال : « لأنه أول من قاتلهم » هـ .

أقول : وأحكامه منصوصة في القرآن ، وما تبين لنا كيفية العمل به إلا مِن فِعْلِه رضي الله عنه ، وذلك من لطف الله بهذه الأمة ، حيث أجراها على يديه ، وعُرِفَت منه ، فإنه باب مدينة علم النبي ﷺ، وأخَّر الله خلافته لوقت ظهور البغاة ، ليُعلَم ذلك منه ، وأجراه على يديه ، وكان هو الإمام المتبع فيها ، وكان هو خاتم الخلفاء ، كما كان رسول الله ﷺ خاتم الأنبياء ، وخلافته خاتمة الخلافة الحق ، كما كانت رسالة رسول الله ﷺ ونبوته خاتمة الرسالة والنبوة ، وهو خاتم الأنبياء والمرسلين ، وكان تأخير خلافة سيدنا علي لذلك زيادةً في حقه وكمالاً لمنصبه ورفعة لقدره ، بخلاف ما يعتقده الرافضة من النقص في تأخيرها .

« والثانية : بدعة مذمومة على لسان الزهد والقناعة فقط ، وذلك كالتوسع في الملابس والمآكل والمساكن المباحة » ، قال : « لأن هذا لم يكن من فعل السلف الأول » .

« والثالثة : بدعة مذمومة مطلقاً ، وهي ما خالف نصوص الكتاب والسنة ، أو خرق إجماع الأمة

، وقد وقع من هذا النوع للمبتدعة كثير في الأصول » ، قال : « وقل وقوعه في الفروع » ، قال : « كل الناس في خطر إلا من عفا الله عنه ورَحِمَه ، لأن الناس قلَّت رغبتهم في الدين وضعفت فيه قواهم » .

قوله : « وعليك بتحصين معتقدك وإصلاحه وتقويمه على منهاج الفرقة الناجية ، وهي المعروفة من بين سائر الفرق الإسلامية بأهل السنة والجماعة ، وهم المتمسكون بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه ، وأنت إذا نَظَرْتَ بِفَهْمٍ مستقيم عن قلب سليم في نصوص الكتاب والسنة المتضمنة لعلوم الإيمان ، وطالَعْتَ سير السلف الصالح من الصحابة والتابعين ، عَلِمْتَ وتحقَّقْتَ أن الحق مع الفرقة الموسومة بالأشعرية ، نسبة إلى الشيخ أبي الحسن الأشعري رحمه الله » ، قال : « وهو من ذرية أبي موسى الأشعري الصحابي رضي الله عنه ، وكان على رأس المائة الثالثة ، وحكي أنه المجدد لذلك القرن » .

قوله : « هو الذي رتب قواعد عقيدة أهل الحق ، وحرَّر أدلتها ، وهي العقيدة التي أَجْمَعَت عليها الصحابة ومن بعدهم من خيار التابعين ، وهي عقيدة أهل الحق من كل زمان ومكان ، وهي عقيدة جميع أهل التصوف ، وهي بحمد الله عقيدتنا وعقيدة إخواننا من السادة الحسينيين المعروفين بآل أبي علوي ، وعقيدة أسلافنا من لدن رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا » ، قال : « ويُعرَف هذا بالتتبع ، إذا تتبع سيرهم وعقائدهم ، يَجِدْهم كذلك » .

أقول : حاصل عقيدته يقول : إن جميع صفات الله معلومة - أي ثابتة محققة - غير معقولة - أي غير مكيفة - فلا يدركها عقل .

وقد سألت سيدنا وقلت : « عقيدة الأشعري حق وغيرها باطل ؟ » ، فقال : « هي حق ، وغيرها فيها حق وباطل ، وإنما فاق غيره ، لأن معنى عقيدته : آمنت بالله ، وبما جاء عن الله ، على مراد الله ، ثم استقام على ذلك » ، قال : « وكان ظهور أبي الحسن الأشعري في وقت الشيخ أحمد بن عيسى ، وكان على عقيدة أسلافه » .

قوله : « وكان الإمام المهاجر إلى الله - جد السادة المذكورين - سيدي أحمد بن عيسى بن محمد بن علي بن الإمام جعفر الصادق رضي الله عنهم ، لمَّا رأى ظهور البدع وكثرة الأهواء واختلاف الآراء بالعراق ، هاجر منها ، ولم يزل نفع الله به يتنقل في الأرض » ، قال : « لأنه خرج من البصرة ، وهي من العراق ، حتى أنه مر بمكة ولم يتأتى له ما قصد » ، - أقول : يعني من الخمول - « حتى أتى حضرموت وأقام بها إلى أن توفي » - فحصل له ما قصد من الخمول ، فقال : « هنا طاب لي المقام » - « فبارك الله له في عقبه حتى اشتهر منهم الجم الغفير بالعلم والعبادة والولاية والمعرفة ، ولم يعرض لهم ما عرض لجماعات من أهل البيت النبوي من انتحال البدع واتباع الأهواء المضلة ، ببركة نية هذا الإمام المؤتمن ،

وفراره بدينه من مواضع الفتن ، فالله تعالى يجزيه عنا أفضل ما جزى والداً عن ولده ، ويرفع درجته مع آبائه الكرام في عليين ، ويلحقنا بهم في خير وعافية ، غير مبدلين ولا مفتونين ، إنه أرحم الراحمين » .

وسمعت سيدنا غير مرة يقول : « اثنان لهما أكبر المنة على آل باعلوي : الشيخ أحمد بن عيسى حيث خرج بهم من الفتن والبدع وسلَّمهم من ذلك ، والفقيه المقدم حيث كانوا حاملين السلاح فتفقَّر وكسر السيف ، وقال : الفقر خير . فسلَّمهم من العمومية وحمل السلاح » .

قوله : « وكثرة الأهواء » ، **قال** : « في البصرة ، وكانت وطنه ، فخرج منها في زمن القرامطة سنة ٣١٧ ، وكانت وفاته سنة ٣٤٥ وقبر في الحسَيِّسة » .

قوله : « حتى اشتهر منهم الجم الغفير .. إلخ » ، **قال** : « أي على ما دلَّت عليه سيرهم وأقوالهم ، وما ذكره عنهم المترجمون ، وإلا فالعقائد في القلوب لا يطلع عليها إلا الله سبحانه وحده » .

قال : « ومذهب الصوفية أول من أظهره واشتهر به الإمام جعفر الصادق ، وله فيه كتاب يسمى : التَّعَرُّف ، وهو مشروح ، وكنا سمعناه ، إلا أن فيه كلام في دقائق العقائد ، فتركناه لذلك » هـ .

أقول : قوله : « خرج الشيخ أحمد بن عيسى في زمن القرامطة » ، وفتنتهم من جملة الفتن الكائنة في العراق في هذا القرن ، ومن قبلها فتنة الزنج ، وفتنة التتار وغير ذلك ، وكان قوة القرامطة وعيثهم في الأرض في هذا القرن الثالث وأول الرابع ، وكان ملكهم بالأحساء ، فخرج عليهم في وسط القرن الرابع عبدالله بن علي بن إبراهيم بن محمد العيوني ، وأمدَّهم عليه جميع قبائل عامر أهل الأحساء ، وكان عسكره أربعمائة ومعه ألفان خرجوا عوناً له من العراق ، وحُصر القرمطي في قصره سبع سنين، فأمدتهم عامرٌ بالخيل والرجال والركبان ، حتى أن ذكور خيلهم فقط عُدَّت ألفاً ، فتواعدوا ما بين النهرين سليسل ومُحَلَّم في تلك القطاة ، فنصر الله عليهم عبدالله بن علي ، فقتل من نفس القرامطة اللابسين الدروع ثمانين ، وهم جملتهم ، وما بقي منهم أحد ، وخلصت عامر تحت السيف ، وكانوا ألوفاً كثيرة سوى خالَيْنِ فرَّا إلى البصرة عند المنتفق ، لأنهم أيضاً بن عامر ، ومنَّ عبدالله على الصبيان والنساء ، فتركهم ولم يقتلهم ، ثم ملك الأحساء وبقي في الملك ستين سنة .

قال السيوطي في تاريخه : « وفي سنة ٢٧٨ ظهرت القرامطة بالكوفة ، وهم نوع من الملاحدة يدَّعون أنه لا غسل من الجنابة ، وأن الخمر حلال ، وأن الصوم في السنة يومان : يوم الفيروز ويوم المهرجان ، ويزيدون في أذانهم : وأن محمد بن الحنفية رسول الله . وأن الحج والقبلة إلى بيت المقدس ، وأشياء أخر من المناكر الباطلة ، ونفق قولهم على الجهال وأهل البَرّ ، وتعب الناس ، وذلك في خلافة المعتمد ، وقد ضعف أمره جدًّا ، حتى خَلَع ولده المفوَّض من الخلافة ، وبايع لأخيه المعتضد ، وذلك

سنة ٢٧٩ .

ثم في سنة ٢٨٦ ظهر بالبحرين أبوسعيد القرمطي ، وقويت شوكته ، وهو أبوطاهر سليمان الذي قلع الحجر الأسود ، وبنى في القطيف بيتاً سماه الكعبة ، وعلق فيه الحجر الأسود ، فكلما علقه سقط ولم يثبت ، ثم فُدِيَ منه بمال كثير ، وبعد ٢٢ سنة أرجع إلى الكعبة ، ووقع القتال بينه وبين عسكر الخليفة مراراً ، وبنى داراً سماها دار الهجرة ، وكان في هذه السنين قد كثر فساده وأخذه البلاد وفتكه بالمسلمين، واشتد الخطب به ، وتمكنت هيبته في القلوب ، وكثر أتباعه وبث السرايا ، وتزلزل له الخليفة ، وهزم جيشه غير مرة ، وانقطع الحج في هذه السنين خوفاً من القرامطة ، و نزح أهل مكة عنها كل ذلك في السنة المذكورة » .

وقال العصامي : « ظهر القرمطي بنواحي البحرين وعمان ، ثم سار إليها من الكوفة سنة ٢٧٩ أيام المعتضد ، وانتسب إلى بني إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق ، دعوى كاذبة ، وكان من أصحاب حسن الجبائي ، وزكرويه الناشاني ، فقام بعده بالدعوى ، ودعوا لعبيدالله المهدي ،و غلبوا على البصرة والكوفة ، ثم انقطعوا عنها إلى البحرين وعمان ، وكانت لهم هنالك دولة ، وانقرضت آخر المائة الرابعة، وتغلب عليهم العرب » .

...

ذِكْر شيء مما وقع في جهة الحساء والقطيف و نحوها :

ومنها فتنة أبي طاهر سليمان بن الحسن بن بهرام من بهرست الحيَّاني ، وأصله رجل من أهل الكوفة يقال له: حمدان بن قرمط ، ويعرف بقصير الركاب ، وهو أنه أغار على مكة المشرفة ، وبلغت خيله وجنوده البيت الحرام ، وقلع الحجر الأسود عن البيت والميزاب ، وحملهما إلى البحرين ، وبنى في القطيف بيتا سماه الكعبة ، وقال : « أصرف الحج إليه » . وكلما جعل الحجر الأسود في بعض أركانه أصبح ناحية غير متعلق به ، وكان حمله لها سنة ٣١٢ ، وكان ردهما في سنة ٣٣٥ بعد قتله ، ومدة إقامتها في البحرين ٢٣ سنة .

وذكر المؤرخون أن أبا طاهر القرمطي وافى مكة ٧ ذي الحجة وقيل ٨ سنة ٣١٧ .

أقول : كما قال سيدنا : **« خرج منها زمن القرامطة وهي سنة خروج السيد أحمد بن عيسى من البصرة مهاجراً منها »** .

فعاث أبوطاهر بمكة ، وقتل خلقاً كثيراً ، حتى ملأ المسجد الحرام من القتلى ، وأمر بعض أصحابه أن يضرب الحجر بدبوس ، فضربه فكسره ، وقال : « إلى كم تعبد من دون الله » ، ثم قلعه ، وذلك بعد

صلاة عصر يوم الإثنين ١٤ ذي الحجة ، وذهب به إلى بلاده هجر ، وكان أبو طاهر هذا نهب الحاج مراراً ، وقتل الحاج في بعض سراياه جملة واحدة ، ولم يستبقِ غير أرباب الصناعات ، فخرج بهم إلى البحرين ، وغنم جميع أموال الحاج ، وكان عدة ما فيه من الجمال المحمَّلة اثنين وثمانين ألفاً . وأسر أبا الهيجاء عبدالله بن حمدان التغلبي ، ووزير الخلافة ، وأقاما عنده مدة ثم خلى سبيلهما بفداء ، وكان في الحاج يومئذ عشرون أميراً ، تحت يد كل أمير ألف فارس ، وكان أمير الحاج أبا الهيجاء بن حمدان ، ومعه من بني تغلب ألف فارس ، ومن بني شيبان ألف فارس ، ثم التقاهم جيش القرمطي ، وقد جعل لجيشه ميمنة وميسرة وقلباً ، وكذلك أبو الهيجاء وجميع الأمراء ، فالتقوا فهزم جيش القرمطي جيش أبي الهيجاء ، وعطفت ميمنة القرمطي وميسرته على أبي الهيجاء ومن معه ، فأسروه مع جماعة من أشراف قومه ، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، وأسروا الوزير ابن أبي السباخ .

وكان تبلغ خيل القرمطي هذا الشام والعراق ومكة وعمان ، ونهب البصرة والكوفة ، وجانب بغداد الغربي ، ولو لم يُقْطَع الجسر لكان دخل الجانب الشرقي ، وكان عسكره يومئذ ألف رجل من بين فارس وراجل ، وحين ملك البحرين جمع خلقاً كثيراً ممن بها من عبدالقيس ، وأنزلهم في محلة من البلد، وأضرم في تلك المحلة النار ، فاحترقوا جميعاً ، فتلك المحلة تعرف بالرمادة إلى وقتنا .

ولما ملك واشتدت وطأته ، وقهر مَن بالبحرين ، دعا إلى نفسه ، وأظهر أنه صاحب الأمر ، وأبطل الصلاة والزكاة والصوم والحج ، وسائر أركان الشريعة ، واستحوذ على ضعفاء الناس ومَوَّه عليهم، وزخرف الأقاويل الباطلة ، حتى صاروا يتألهونه من دون الله ، ويرون طاعته فرضاً واجباً ، وهدم جميع ما في البحرين من المساجد ، ومدة طول القرامطة ما أحد يصلي إلا خفية .

انتهى ما أحببنا ذِكْره من باطلهم ، وياللعجب قلَّ ما أحد يدَّعي بالباطل إلا ويلقى له مساعداً من المخذولين ، ولو كانوا في صور أخيار ، ولو ما معهم من الخذلان إلا مساعدتهم لدعوى المبطلين .

فقام الأمير عبدالله بن علي بن محمد بن إبراهيم بن محمد العيوني البحراني الأحسائي رحمه الله على القرامطة المبطلين ومن تبعهم ، بعد أن استتمَّ ملكهم فيها ١٤٠ سنة - من سنة ١٤٩ ملك أبو سعيد الحيَّاني إلى سنة ٢٨٧ - فملكها عليهم عبدالله المذكور ، وهو جد عَبْدَل ، سُمُّوا بذلك نسبة إليه ، وهو أنه وجماعته لما رأوا الضيم حل بهم وبغيرهم من القرامطة ، في دينهم ودنياهم ، انتُدبوا لقتالهم ، وقلدوا الأمر الأمير عبدالله ، فاختار من شجعانهم وأهل النجدة منهم أربعمائة رجل منهم ، حتى نزل بهم على باب القصر القرمطي ، وبقي يحاربهم صباحاً ومساء مدة سبع سنين ، حتى انتزع الدولة منهم - أي القرامطة - واليمن جميعاً - يعني ناس كثير من الأزد وأصلهم من اليمن - وملك البلاد ودفع عنها كل من كان يطمع فيها . وأبار عامر ربيعة غاية البوار ، وأخذ أموالهم ، وسبى حريمهم وذراريهم ،

وبعد ذلك مَنَّ على الحرُم والذراري وسيَّرهم إلى أرض عمان ، ولم ينج من رجالهم إلا رئيسهم أحمد بن مسعر ، وأبو ضراس بن الشباش ، وليس منهم ؛ بل نازل فيهم هرباً على فرسَيْن جوادَيْن ، حتى بلغا البصرة على غاية الضر ، وذلك لأنهم - أي عامر ربيعة - أتوا في نصرة القرامطة ، وكان القرامطة يومئذ في ثمانين أميراً من صلب أبي سعيد ، يركبون التجافيف والسلاح التام ، واستنجدوا عامر ربيعة ، فجاءهم منهم خلق كثير ، وساروا في عدد لا يُحصى ولا يُلتقى ، ورأى عبدالله وأصحابه منهم أمراً أزعجهم وأبهرهم ، فبرزوا إليهم مستشعرين الخوف راهبين من كثرتهم مع قلة مددهم ؛ لأنهم لا يبلغون منهم سهماً من خمسين سهماً ، فاجتمعوا فلبسوا السلاح وحفحفوا الخيل وساقوا النَّعم قدامهم ، فخرج إليهم عبدالله بن علي بمن معه ، والتقوا بين النهرين محلّم وسليسل ، وقد قدمت عامر الإبل وأقبلت الفرسان والرجالة تسوقها من ورائها ، ويحملونها أن تدوسهم . فلما أقبلت الفرسان وصار أولها في نهر محلم ، أمر عبدالله بن علي بضرب الدبادب والطبول والبوقات ، وأمر أهل الخيل أن يزحفوا عليها ، وأمر العجم أن يرشقوها بالنشاب ، وأن يضربوا وجوه الخيل ، ففعلوا ذلك فرجعت الإبل على عامر فداستهم ، وقتل ثمانون من نفس القرامطة من صلب أبي سعيد لابسين الدروع ، وهم جملتهم ، فلم يبقَ منهم أحد ، وحمل عليهم عبدالله بن علي واصحابه بالخيل ، والرجال من كل ناحية ، فلم يفلت منهم صغير ولا كبير ، غير الإثنين المتقدم ذِكْرهما ، وحُصِّلا في حِلة المنتفق المقاربة للبصرة على أخس حالة من المرض وسوء الحال ، ومَنَّ عبدالله بن علي على الحُرَم والذراري وخلى سبيلهم ولم يمكن العجم منهم ، وذلك أنه جاءته من العراق سبعة آلاف من العجم لنصرته ، فاختار منهم مائتين مع رئيس لهم ، ورد الباقي ، وحصل له من غنائمهم أربعة الاف ناقة فيها فحولها ورعاتها ، وأخذ من الخيل إرادته ، وترك بقية المغنم للعجم والعسكر ، وذلك في سنة ٤٧٥ .

وملك عبدالله بن علي على القصر ، وضربت له به الدبادب والبوقات وصَعِدهُ ، ولم يُمَكِّن العجم من الصعود ، وقد خطب للدولة العباسية وذلك في سنة ٤٧٦ .

وكان خرج على القرامطة في البحرين الملك أبو البهلول ، واسمه العوام بن محمد ، فأخذها منهم، ثم انتزع يحيى بن عباس منهم القطيف ، وبقي ملكهم بالأحساء إلى سنة ٤٤٩ ، ثم ملكها عليهم عبدالله بن علي ، ثم غزا عبدالله بن علي فبدأ بالقطيف فأخذها من ابن عباس وملكها ، ثم لما أخذها وضبطها واستقر أمره بها عبر إلى أوال ، فأخذها وملكها .

واجتمع له ملك البحرين ، ولم يبق له فيها منازع إلى أن مات ، ومدة ملكه من إخراجه القرامطة حتى مات ٦٥ سنة ، ثم ملك بعده ابنه الفضل بن عبدالله ٧ سنين ، ثم قتله أخدام له بتاروت ، ثم ملك بعده ابنه أبو سنان محمد بن الفضل ١٨ سنة وزيادة ، ثم قتله عمّاه أبو المنصور وأبو علي ، ثم ملك

أبو علي الحسن بن علي مدة ١١ سنة ، ثم ملك بعده عزيز بن مقلد المكنَّى بالتركي مدة ٧ سنين ، ثم قتله ابن عمه هجرس بن محمد بن عبدالله ومدة ملكه سنة واحدة ، ثم توفي ، ثم ملك بعده شكر بن أبي الحسين بن عبدالله بن علي ومدة ملكه ١٨ سنة وتوفي ، ثم ملك بعده أخوه علي بن أبي الحسين بن عبدالله بن علي ثم قتله أخوه الزير وملك بعده الزير بن أبي الحسين مدة سنتين وأشهر ، ثم قتله رجل أعجمي بسهم ، ثم ملك بعده محمد بن أحمد بن محمد بن الفضل بن عبدالله دون سنة .

وهكذا واحداً بعد واحد ، إلى أن ملكها السلطان خلد الله دولته سنة ٦٣٣ ، وانقضت دولة العيونيين ، الذين قال ابن مقرب في مدحهم في مدح بعض أولئك الملوك المذكورين ، وهو محمد بن ماجد بن علي بن عبدالله بن علي من العبدليين الأول .

مِنَ العَبْدَلِيِّينَ الأُولَى في أَكُفِّهم   حياةٌ لأَوَّابٍ ومَوتٌ لِبَاعِكِ

و في قصيدة أخرى ، وأدخل نفسه معهم لأنه منهم :

نَحْنُ الثِّمال فَمَن يَكْفُر بِنِعْمَتِنَا   كُنَّا المثمَّل ندني الحتْفَ والسّقما

والثمال : الغياث ، والمثمل : السم الناقع .

وقال في هذه القصيدة يذكر تلك الوقائع التي تشيب الرأس ، كما قال من وقعتهم بالقرامطة وغيرها ، ويشير إلى ما كان من وقائع ربيعة بن نزار في قبائل العرب والعجم كقصة ذي قار ، وقد قال النبي ﷺ في وقعة ذي قار : «هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم » ، وغيرها فقال فيها ابن مقرب :

قَوْمِيْ هُمُ الْقَوْمُ فِي بَأْسٍ وَفِي كَرَمٍ   إِنِ ادَّعَى غَيْرُهُمْ مَا فِيْهُمُ وَهَمَا
فِي الجَاهِلِيَّةِ سُدْنَا كُلَّ ذِيْ شَرَفٍ   بِالمَاثِرَاتِ وَسُدْنَا الْعُرْبَ وَالْعَجَمَا
وَسَارَ كُلُّ مَعَدِّيٍ لَنَا تَبَعاً   يَرْعَى بِأَسْيَافِنَا الْوَسْمِيَّ حَيْثُ هَمَا
حِطْنَا نِزَاراً وَذُدْنَا عَنْ مَحَارِمِهَا   وَلَمْ نَدَعْ لمنَاوِي غَيْرِنَا حرمَا
حَتَّى أَتَى اللهُ بِالإِسْلامِ وَافْتُتِحَتْ   كُلُّ الْبِلادِ وَأَضْحَتْ لِلأَنَامِ سَمَا
وَفَضْلِ آخِرِنَا عَنْ فَضْلِ أَوَّلِنَا   يُغْنِيْ وَلَكِنَّ بَحْراً هَاجَ فَالْتَطَمَا
شِدْنَا مِنَ المَجْدِ بَيْتاً لَا تُقَاسُ بِهِ   ذَاتُ العِمَادِ وَلَكِنْ لم يَكُنْ إِرَمَا

سَلِ الْقَرَامِطَ مَنْ شَظَّى جَمَاجِمَهُمْ ... فَلقاً وَغَادَرَهُمْ بَعْدَ الْعُلا خَدَمَا
مِنْ بَعْدِ أَنْ جَلَّ بِالْبَحْرَيْنِ شَأْنُهُمُ ... وَأُرْجِفَ الشَّامُ بِالْغَارَاتِ وَالْحَرَمَا
وَلَمْ تَزَلْ خَيْلُهُمْ تَغْشَى سَنَابِكُهَا ... أَرْضَ الْعِرَاقِ وَتَغْشَى تَارةً أَدَمَا
وَحَرَّقُوا عَبْدَ قَيْسٍ فِي مَنَازِلِهَا ... وَصَيَّرُوا الغُرَّ مِنْ سَادَاتِهَا حِمَمَا
وَأَبْطَلُوا الصَّلَوَاتِ الخَمْسِ وَانْتَهَكُوا ... شَهْرَ الصِّيَامِ وَنَصُّوا مِنْهُمُ صَنَمَا
وَمَا بَنَوْا مَسْجِداً لله نَعْرِفُهُ ... بَلْ كُلَّ مَا أَدْرَكُوه قَائِماً هُدِمَا
حَتَّى حَمَيْنَا عَنِ الإِسْلامِ وَانْتَدَبَتْ ... مِنّا فَوارِسُ تَجلُو الكربَ وَالظُّلَما
وَطالَبَتنا بَنُو الأَعمامِ عادَتَنا ... فَلَم تَجِد بَكَماً فينا وَلا صَمَما
وَقَلَّدُوا الأَمرَ مِنّا ماجِداً نَجِداً ... يَشفي وَيَكفي إِذا ما حادِثٌ دَهَما
ماضي العَزيمَةِ مَيمُونٌ نَقيبَتُهُ ... أَعلا نِزارٍ إِلى غاياتِها هِمَما
فَصارَ يَتبَعُهُ غُرٌّ غَطارِفَةٌ ... لَو زاحَمَت سَدَّ ذي القَرنَينِ لانثَلَما
إِذا ادَّعَوا يالَ إِبراهيمَ ظَلَّ لَهُم ... يَومٌ يُشَيِّبُ مِن هامِ العِدى اللِّمَما
حَتّى أَناخَ بِبابِ القَصرِ يَصحَبُهُ ... عَزمٌ يَهُدُّ الجِبالَ الشُّمَّ وَالأَكَما
فَشَنَّها غارَةً شَعواءَ فاشِيَةً ... كَسى بِها العُمَّ مِن حيطانِها قَتَما
فَأَقبَلَت وَرِجالُ الأَزدِ تَقدُمُها ... كَالأُسدِ قَد جَعَلَت سُمرَ القَنا أَجَما
فَصادَفَت كُلَّ لَيثٍ لَو يُحِسُّ بِهِ ... لَيثٌ بِعَثَّرَ أَو خَفّانَ ما زَحَما
فَكَم صَريعٍ هَوى عَفصاً بِشِكَّتِهِ ... مِنهُم وَآخَرَ وَلّى الدُبرَ مُنهَزِما
وَنَثرَةٍ أَخفَرَ الهِندِيُّ ذِمَّتَها ... إِنَّ السُّيُوفَ المَواضي تَخفِرُ الذِمما
فَاستَنجَدَت عامِراً مِن بَأسِها فَأَتَت ... مُغِذَّةً لا تَرى في سَيرِها يَتَما
ذُكُورُ خَيلِهِمُ أَلفٌ مُصَنَّمَةٌ ... وَرجلُهُم يُفعِمُ الوَادِي إِذا زَحَما
وَجَمعُنا في مِئينٍ أَربَعٍ حصرت ... عَدّاً وَلَكِنَّها أَعلا الوَرى قدَما
وَلَم نَزَل نَرِدُ الهَيجاءَ يَقدُمُنا ... ماضٍ عَلى الهَولِ وَرّادٌ إِذا عَزَما

أَبـو عَـلِيٍّ وَفَضـلٌ ذُو النَـدى وَأَبـو … مُسَـيَّبٍ وَهُـما تَحـتَ العَجـاجِ هُـما

وَمِسعَرُ الحَربِ مَسعُودٌ إِذا خَمَدَت … وَماجِـدٌ وَابـنُ فَضـلٍ خَيرُهـا شِيما

هُـمُ بَنُـوهُ فَـلا ميـلٌ وَلا عُـزُلٌ … وَلا تَـرى فيهـمُ وَهنـاً وَلا سَـأَما

كُلٌّ يُعَـدُّ بِأَلـفٍ لا يَضيـقُ بِهـا … ذَرعـاً وَيُوسِـعُها طَعنـاً إِذا أَضِـما

وَمالِـكٌ حـينَ تَدعُـوهُ وَأَيُّ فَتـى … حَربٍ إِذا ما اِلتَقى الزَحفانِ فَاصطَدَما

وَمِـن بَنـي الشَـيخِ عَبدِ اللهَ كُلُّ فَتـىً … يُخـالُ في الـرَوعِ فَحـلَ الشَّـولِ مُغتَلِما

يُنمـى لِفَضـلٍ وَصبّـارٍ وَإِخوَتِـهِ … بَنـي عَـلِيٍّ كِعـامِ الخَطـبِ إِذ هَجَـما

وَلَم تَكُـن وُلـدُ غَسّـانٍ إِذا حَمِيَـت … لَوافِـحُ الحَـربِ أَنكاسـاً وَلا قُزُمـا

تِلكُـم بَناتُ العُـلا لا قَـولُ مُنتَحِـلٍ … كُنّـا وَكانَ وَلا بـاعـاً وَلا قَدَمـا

سَـقَوا صُـدُورَ القَنـا عَـلّاً وَقد نَهِلَت … وَأَكرَهُـوا المـازِقَ الخَطِّـيَّ فَانحَطَـما

وَفَلَّـلَ البيـضَ في الهامـاتِ ضَربُهُـمُ … مِـن بَعـدِ أَن أَنهَلُوهـا في الُمكِـرِّ دَما

بَـزُّوا ثَمانـينَ دِرعـاً مِـن سُراتِهِـمُ … في حَمـلَـةٍ تَرَكَـت هاماتِهِـم رِمَمـا

وَكَـم لَنـا مِثلُهـا لَم تُبـقِ باقِيَـةً … إِلّا الزَعانِـفَ وَالأَطفـالَ وَالحَرَمـا

فَسَـلَّمَ الأَمـرَ أَهـلُ الأَمـرِ وَانتَزَحُـوا … عَن سَـورَةِ الُملكِ لا زُهداً وَلا كَرَما

وَأَصبَحَـت آلُ عَبـدِ القَيـسِ قَد ثَلَجَـت … صُـدُورُهـا فَـتَرى الَموتُـورَ مُبتَسِـما

إلى هنا تم ما أردنا نقله من ذِكْر هذه الوقائع مع شواهدها من هذا النظم ، والكل شاهد لقول سيدنا لما أشار إلى فتنتهم التي خرج بسببها سيدنا أحمد بن عيسى من العراق مهاجراً .

و قول الناظم : « بزوا ثمانين .. البيت » ، يريد بذلك ما تقدم من قتلهم الثمانين اللابسين الدروع من القرامطة ، وهم جملتهم ، ومابقي منهم بعدهم أحد . قوله : « وأصبحت آل عبدالقيس .. البيت»، من الثلج ، يعني بردت صدورهم مما فيها من حرارة الغيظ من القرامطة ، مما فعلوا بهم ، من شبِّهم النار على جماعتهم في العشة وغير ذلك . إلى هنا تم ذلك .

وأما الشيخ أبو الحسن الأشعري صاحب العقيدة الأشعرية ، وقد ذكره سيدنا وذكر أنه من ذرية

أبي موسى الأشعري الصحابي رضي الله عنه . قال اليافعي : هو الإمام ناصر السنة ، و ناصر الأمة، إمام الأئمة الحق المحققين ، ومدحض حجج المبطلين المبتدعين المارقين ، حامل راية منهج الحق ، ذو النور الساطع ، والحجج الواضحة ، والبرهان القاطع ، أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر إسحاق بن سالم بن إسماعيل بن عبدالله بن موسى بن بلال بن أبي بردة عامر بن أبي موسى عبدالله بن قيس الأشعري الصحابي رضي الله عنه . قال : هكذا هنا ذكر اسمه و نسبه ، وذكر الإمام السمعاني أن الأشعري نسبة إلى أشعر ، أحد أجداده ، وهو نبت بن أدد بن يشجب ، وإنما قيل له أشعر لأن أمه ولدته والشعر على يديه .

قلت: نسبته المعروفة المتفق عليها إلى أبي موسى الأشعري الصحابي ، وهو من الأشاعر - قبيلة من اليمن - و نسلهم إلى الآن باق ، وهم عرب يسكنون قريباً من زبيد ، مشهورون بالنسب المذكور ، وأما ذِكْر مناقبه وما ورد في السنة من الأحاديث الدالة على شرف أصله وكبر محله ، وما أمر به ﷺ في منامه من النظر في سنته واتباعه لها و نصرته لمذهب الحق ، وما شهد له به العلماء من الفضيلة والسيرة الجميلة ، وما عُرِف به من العلم والعمل والعبادة والتقلل من الدنيا والزهادة ، وعقوبة من أساء الظن بها ، واعتقد بطلان مذهبه وفساده ، وبيان صحة اعتقاده واعتداله وسداده ، وما رؤيَ له في المنام مما يدل على أنه لمذهب الحق والهدى إمام ، وأمر النبي ﷺ له باتباعه واتباع أصحابه للسائل الذي سأله في منامه ، وما رد عليه من الأمر فاقتدى بهم في جوابه ، وما مدحه به العلماء الأخيار من الفضائل والأشعار ، وغير ذلك مما لا يدخل تحت قيد الإنحصار ، ومما يدل على جلالة قدره وارتفاعه كثرةُ مصنفاته وأتباعه وسعة علمه وبراعة فهمه .

أما مصنفاته ، فقد روى الحافظ أبو القاسم بسنده أنها عدت تراجمها ، فنافت على ثلاثمائة وثمانين مصنفاً ، منها كتاب « الفصول في الرد على الملحدين والخارجين عن الملة » ، كالفلاسفة والطبائعيين والدهريين وأهل التشبيه ، والقائلين بقدم الدهر وعلى اختلاف مقالاتهم وأنواع مذاهبهم ، وردَّ فيه على البراهمة واليهود والنصارى والمجوس ، وهو كتاب يشتمل على اثني عشر كتاباً . وكذلك « الموجز » مشتمل على اثني عشر كتاباً ، على حسب تنوع مقالات المخالفين من الخارجين عن الملة والداخلين ، فرد على سائر أنواع المبتدعين في كتبه تعمياً وتخصيصاً .

ومما يدل على ذلك أيضاً خطبة كتابه الذي صنفه في تفسير القرآن ، والرد على من خالف البيان من أهل الإفك والبهتان ، قال : « أما بعد ، فإن أهل الزيغ والتضليل تأولوا القرآن على رأيهم ، وفسروه على أهوائهم ، تفسيراً لم يُنزِل الله به سلطاناً ، ولا أوضح به برهاناً ، ولا رووه عن رسول رب العالمين، ولا عن أهل بيته الطيبين ، ولا عن السلف المتقدمين من الصحابة والتابعين ، افتراء على الله قد ضلوا

وما كانوا مهتدين » .

ثم قال في أثناء كلامه : وشيوخهم الذين قلّدوهم فأضلّوهم وما هدوهم ، قال : « ورأيت الجبائي قد ألف كتاباً في تفسير القرآن ، أوّلَه على خلاف ما أنزل الله عز وجل ، على لغة أهل قريته المعروفة بجبى ، وليس من أهل اللسان الذي نزل به القرآن ، وما روى في كتابه حرفاً واحداً عن المفسرين ، وإنما اعتمد على ما وسوس به صدره وشيطانه ، ولولا أنه استغوى بكتابه كثيراً من العوام ، واستزلَّ به عن الحق كثيراً من الطغام ، لم يكن للتشاغل به وجه » ، ثم ذكر المواضع التي أخطأ فيها الجبائي في تفسيره ، وبيَّن ما أخطأ فيه من تأويل القرآن بعون الله تعالى وتيسيره ، وكل ذلك مما يدل على نُبْلِهِ وكثرة علمه ، وظهور فضله ، جزاه الله تعالى عن جهاده في دينه بلسانه الحسنى ، وأحَلَّه بإحسانه في مستقر جنانه المحل الأسنى . قال الإمام محمد بن موسى بن عمار : « ذكر لي بعض أصحابنا أنه رأى من تفسيره المذكور طرفاً ، وكان قد بلغ فيه سورة الكهف وقد أنهى مائة كتاب ولم يترك آية تعَلَّق بها بِدعيٌّ إلا أبطل تعلقه بها ، وجعلها حجة لأهل السنة ، وبيَّن المُجْمَل وشرح المستشكل » ، قال : « ومن وقف على تآليفه رأى أن الله تعالى قد أمدَّه بمداد توفيقه ، وأقامه لنصرة الحق والذب عن طريقه » .

وكل من تعلق اليوم بمذهب أهل السنة وتفقه في معرفة أصول الدين من سائر المذاهب نُسِبَ إلى أبي الحسن الأشعري ، لكثرة تآليفه وكثرة قراءة الناس لها ولم يكن أول متكلم بلسان أهل السنة ، إنما يجري على سَنَن غيره وعلى نصرة مذهب معروف ، فزاد المذهب حجة وبياناً ، ولم يبتدع مقالة اخترعها ولا مذهباً انفرد به ، ألا ترى مذهب أهل المدينة نُسِبَ إلى مالك بن انس رضي الله تعالى عنه ، فمن كان على مذهب أهل المدينة يقال له مالكي ، ومالك إنما جرى على سَنَن من كان قبله ، وكان كثير الإتباع إلا أنه زاد المذهب بياناً وبسطاً وحُجَّةً وشرحاً ، وألَّف كتابه الموطأ ، وأمَّا ما أُخِذَ عنه الأسمعة والفتاوى فنُسِبَ إليه لكثرة بسطه وكلامه فيه .

فكذلك الإمام أبو الحسن الأشعري لا فرق ، فليس له في المذهب أكثر من بسطه وشرحه وتواليفه في نصرته ، فنجب من تلاميذه خلق كثير بالمشرق والمغرب ، وكانت شوكة المعتزلة بالعراق شديدة ، وأعظم ما كانت المحنة زمن المأمون والمعتصم ، فتورع عن مجادلتهم الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فموهوا بذلك على الملوك ، وقالوا : إنهم - يعنون : أهل السنة - يفرون من المناظرة لما يعلمون من ضعفهم عن نصرة الباطل ، وإنه لا حجة بأيديهم ، ويشنعون بذلك عليهم ، حتى امتحن في زمانهم الإمام أحمد بن حنبل وغيره ، حتى أخذ الناس حينئذ بالقول بخلق القرآن ، حتى ما كان يقبل شهادة شاهد ولا يستقضى قاض ولا يفتي مفتٍ لا يقول بخلق القرآن .

قال : « وكان في ذلك الوقت جماعة من المتكلمين كعبدالعزيز المكي والحارث المحاسبي ، وعبدالله بن كلاب وجماعة غيرهم ، وكانوا أولي زهد وتصنيف ، ولم ير واحد منهم أن يطأ لأهل البدع بساطاً، ولا أن يداخلهم ، وكانوا يردون عليهم ويؤلفون الكتب في إدحاض حججهم ، إلى أن نشأ بعدهم وعاصر بعضهم ابن أبي البشر الأشعري - يعني الشيخ أبا الحسن المذكور - فصنف في هذا العلم لأهل السنة التصانيف ، وألف لهم التواليف ، حتى أدحض الله حجج المبتدعة وكسر شوكتهم ، وكان يقصدهم بنفسه ويناظرهم ، فكُلِّم في ذلك ، وقيل له : كيف تخالط أهل البدع وتقصدهم بنفسك ، وقد أمرت بهجرهم ؟ فقال : هم أهل رئاسة ، منهم الوالي والقاضي ، ولرئاستهم لا ينزلون إلي ، فإذا كانوا لا ينزلون إلي ولا أسير أنا إليهم ، فكيف يظهر الحق ويعلمون أن للسنة ناصراً بالحجة » .

وأما أتباعه فقد ذكر الإمام الماهر المحقق الرواية أبو القاسم بن عساكر في كتابه من أعيانهم قريباً من ثمانين إماماً ، ثم أردفهم من جلة الأئمة ما صار للمائة عالماً ، وممن اقتدى به وتبعه في الاعتقاد من المحققين النُّظَّار النُّقَّاد ممن جمع بين العلم والدين ، وأقام قواطع الحجج والبراهين : الإمام أبوبكر الباقلاني ، والأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني ، والإمام ابن فورك ، والشيخ الإمام أبو إسحاق الشيرازي ، وأبو المعالي إمام الحرمين الجويني ، والإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي ، والإمام فخر الدين الرازي ، والإمام عز الدين ابن عبدالسلام ، والشيخ الإمام محي الدين النووي ، والإمام تقي الدين ابن دقيق العيد ، وغير هؤلاء العشرة من ذوي المناصب ، وكذلك جماعة من أكابر المشايخ الجُلَّة العارفين ، من السالكين الربانيين المربين ، كالشيخ أبي عبدالله القرشي ، والأستاذ أبي القاسم القشيري ، والشيخ شهاب الدين السهروردي ، والشيخ أبي الحسن الشاذلي ، وغيرهم من منابع الأسرار ومطالع الأنوار ، وكان حامل راية مَا لهُ من المناقب ، وناصَرَ مذهبه دون المذاهب : الإمام المحقق الحبر البارع ذو البرهان القاطع والبرهان الواسع ، البحر الزاخر الطامي القاضي أبوبكر الباقلاني ، وهو الذي رجَّح غير واحد من العلماء أنه هو الذي كان على رأس المائة الرابعة ، مجدِّداً للدين ، لاحتياج الناس في قمع المبتدعين إلى علم أصول الدين .

قالوا : وكان على رأس المائة الأولى - من الذين أشار ﷺ في الحديث : إن الله تعالى يحدث على رأس كل مائة سنة لهذه الأمة من يجدد لها أمر دينها - عمر بن عبدالعزيز ، وعلى رأس المائة الثانية : محمد بن إدريس الشافعي ، وعلى رأس المائة الثالثة : أبو الحسن الأشعري ، وعلى رأس المائة الرابعة : القاضي أبوبكر الباقلاني ، وعلى رأس المائة الخامسة : أبو حامد الغزالي .

كل هؤلاء المذكورين نصَّ عليهم الإمام الحافظ ابن عساكر وغيره من الأئمة ، ونص على الأوَّلَيْن الإمام أحمد بن حنبل ، ولم ينص على المائة الأخرى لأنه لم يدركها ، وقد قيل إنه كان على رأس المائة

السادسة فخر الدين الرازي ، وعلى رأس المائة السابعة تقي الدين ابن دقيق العيد ، والله أعلم » .

وكان الشيخ أبو الحسن الأشعري شافعياً ، يجلس في أيام الجمع في بدايته في حلقة الفقيه الإمام أبي اسحاق المروزي الشافعي في جامع المنصور ، قال الحافظ أبو نعيم : « أخبرنا الأستاذ الإمام أبو منصور عبدالقاهر البغدادي ، قال : سمعت عبدالله بن محمد بن طاهر الصوفي يقول : رأيت أبا الحسن الأشعري في مسجد البصرة وقد أبهت المعتزلة في المناظرة ، فقال له بعض الحاضرين : قد عرفنا تبحرك في علم الأصول ، وأريد أن أسألك عن مسألة في الفقه . قال : اسأل عما شئت ، فقال له : ما تقول في الصلاة بغير الفاتحة ؟ ، فقال : حدثنا زكريا بن يحيى ، قال : حدثنا عبدالجبار ، قال : حدثنا سفيان ، قال : حدثني الزهري عن محمود بن الربيع عن عبادة بن الصامت ، عن النبي ﷺ قال : لا صلاة لمن لم يقرأ بفاتحة الكتاب . وحدثنا زكريا ، قال : حدثني بندار ، قال : حدثني يحيى بن سعيد بن جعفر بن ميمون ، قال : حدثني أبو عثمان عن أبي هريرة ، قال : أمرني رسول الله ﷺ أن أنادي بالمدينة : أنه لا صلاة إلا بفاتحة الكتاب . قال : فسكت السائل ولم يقل شيئاً » .

قال الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر : « وفي هذه الحكاية دلالة ظاهرة على أن أبا الحسن كان يذهب مذهب الشافعي رضي الله تعالى عنه » ، قال : « ولذلك ذكره الإمام أبوبكر ابن فورك في طبقات المتكلمين ، وذكره غيره من أئمتنا وشيوخنا الماضين ، فروى الإمام الحافظ أبو القاسم ابن عساكر بسنده إلى الإمام أبي إسحاق الإسفراييني ، قال : كنت في جنب الشيخ أبي الحسن الباهلي كقطرة في البحر ، قال : وسمعت الشيخ أبا الحسن الباهلي يقول : كنت في جنب الشيخ أبي الحسن الأشعري كقطرة في البحر » .

قلت : يعني بالباهلي المذكور : شيخه وشيخ الإمام أبي بكر الباقلاني ، وشيخ الإمام ابن فورك وتلميذَ أبي الحسن الأشعري ، كما روى الحافظ بن عساكر رحمه الله بسنده إلى القاضي أبي بكر الباقلاني، قال : « كنت أنا والأستاذ أبو إسحاق الإسفراييني والأستاذ ابن فورك معاً في درس الشيخ أبي الحسن الباهلي تلميذ الشيخ أبي الحسن الأشعري » .

قال : « وكان من شدة اشتغاله بالله تعالى مثل وَالِهٍ أو مجنون ، وكان يدرس لنا في كل جمعة مرة واحدة . وسمعت من بعض أهل الخير والصلاح أنه كان يقيم في جبل عدن رجل مشتغل بالله تعالى ، وله معرفة بالغة في النحو ، وكان ينزل إلى عدن يوماً في الجمعة يشتغل الناس عليه في النحو » .

قلت : والمشتغلون بالله تعالى على ثلاثة أقسام : منهم من لا يشتغل بالخلق بالكلية ، لا بعلم ولا بعمل ، ومنهم من شغلهم بالعلم أو بالعمل أو بهما معا دائماً ، ومنهم من شغلهم بهما أو بأحدهما في نادر من الأوقات كهذين السيدين المذكورين .

ومن القسم الأول : الفقيه الإمام أحد الأولياء الكرام عالي المقام صاحب الكرامات العظام الشيخ سفيان اليمني الحضرمي ، ترك الإشتغال لما قيل له : إن أَرَدْتَنَا فاترك القَوْلَيْن والوَجْهَين .

ومن القسم الثاني : الفقيهان الإمامان زين الزمن ونزهة اليمن أبو الذبيح إسماعيل بن محمد الحضرمي ، وأبو العباس أحمد بن موسى بن عجيل رضي الله تعالى عنهما .

رجعنا إلى ما كنا بصدده .

قال الإمام أبو القاسم بن عساكر : « فكفى أبا الحسن فضلاً أن يشهد بفضله مثل هؤلاء الأئمة ، وحسبه فخراً أن يثني عليه الأماثل من علماء الأمة ، ولا يضره قدح من قدح فيه لقصور الفهم ودناءة الهمة ، ولم يبرهن على ما يدَّعيه في حقه إلا بنفس الدعوى ومجرد التهمة » ، وذكر كلاماً كثيراً عن كثير من الأكابر في الذب عنه ، ثم قال : « ومن كلام الإمام العارف بالله بحر العلوم ، وعلم العلماء الأعلام، زين الإسلام أبو القاسم عبدالكريم بن هوازن قدس الله تعالى روحه ، وبل ترابه بماء الرحمة و نور ضريحه في الذب عن الإمام شيخ السنة الناصر لدين الله ، كما ذكر الإمام الحافظ أبو القاسم بن عساكر ، قال : دفع إليَّ عبدالواحد بن عبدالماجد بن عبدالواحد بن عبدالكريم بن هوازن القشيري ، مكتوباً بخط جدِّه الإمام أبي القاسم القشيري ، وأنا أعرف الخط ، فوجدت فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ، اتَّفَقَ أصحاب الحديث أن أبا الحسن علي بن إسماعيل الأشعري كان إماماً من أئمة أصحاب الحديث ، ومذهبه مذهب أصحاب الحديث ، تكلم في أصول الديانات على طريقة أهل السنة ، وردَّ على المخالفين من أهل الزيغ والبدعة ، وكان على المعتزلة والروافض والمبتدعين من أهل القبلة والخارجين عن الملة سيفاً مسلولاً ، فمن طعن فيه أو قدح فيه أو لعنه أو سبه فقد بسط لسان السوء في جميع أهل السنة ، بذلنا خطوطنا طائعين بذلك في هذا الكتاب من ذي القعدة سنة ست وثلاثين وأربعمائة ، والأمر على هذه الجملة المذكورة في هذا الذِّكر .

وكتبه عبدالكريم بن هوازن القشيري ، وفيه خط أبي عبدالله الخياري المقري كذلك يعرفه محمد بن علي الخبازي وهذا خطه ، وبخط الإمام أبي محمد الجويني الأمر على هذه الجملة المذكورة فيه ، وتلميذه عبدالله بن يوسف ، وبخط أبي الفتح الشاشي الأمر على هذه الجملة التي ذكرت ، وكتبه نصر بن محمد الشاشي بخطه » .

قلت : وذكر جماعة من الأئمة قريباً من عشرين ، منهم أبو الفتح الهروي وأبو عثمان الصابوني، والشريف البكري ، ومنهم الشيخ الإمام أبو إسحاق الشيرازي ، وهذا لفظه فيما نقله الحافظ ابن عساكر : « الجواب : وبالله التوفيق ، إن الأشعرية هم أعيان أهل السنة وأنصار الشريعة ، انتصبوا للرد

على المبتدعة من القدرية والرافضة وغيرهم ، فمن طعن فيهم فقد طعن في أهل السنة وأنصار الشريعة، وإذا رُفع أمر من يفعل ذلك إلى الناظر في أمر المسلمين وجب عليه تأديبه بما يرتدع به كل أحد » .

وكتب إبراهيم بن علي الفيروزبادي ، وكذلك الإمام قاضي القضاة الدامغاني ، والإمام أبوبكر بن محمد بن أحمد الشاشي وغيرهم .

قال الإمام أبو القاسم المذكور بعد أن ذكر خطوط الجميع : هذه الخطوط من ذلك الدَّرَج ، ونقلها غيري من الفقهاء .

قلت : فهذا ما أردت الإقتصار عليه في ترجمته ، وهو قليل بالنسبة إلى جلالته ، وإنما أوجزت العبارة في بعض ذلك ، ربما لكوني رأيت بعض المؤرخين قد أعرض عن التعرض لِذِكر فضائل مرتبته العلية ، لكونه رضي الله عنه مبايناً بمذهبه الجامع بين المعقول والمنقول بمذهب الحشوية الواقفين على ظواهر النقول وإن كان مستحيلاً في العقول ومجانباً لعكسه ، أعني : مذهب المبتدعة القائلين بالمعقول دون المنقول متوسطاً بين الطرفين المذمومين ، سالكاً للمنهج الأوسط المحمود ، ولمتبعه في صدر وورود رضي الله عنه وأرضاه ، وجعل بفضله النعيم مأواه .

وهذا ما ورد عنه في تاريخ الإمام اليافعي رحمه الله ملخصاً .

أقول : وقد حث سيدنا السيد عبدالله الحداد نفع الله به ، وأكد في وصيته على التمسك بعقيدة الإمام الأشعري ، حيث هي العقيدة الحق ، وعقيدة أهل الحق ، وذكر أن أسلافه من متقدمي السادة آل بني علوي ومتأخريهم كلهم عليها ، فقال :

وَكُـنْ أَشْـعَرِيًّا فِي اعْتِقَـادِكَ إِنَّـهُ ... هُوَ المَنْهَلُ الصَّافِي عَنِ الزَّيْغِ وَ الْكُفْرِ
وَقَـدْ حَـرَّرَ الْقُطْـبُ الإِمَـامُ مَلاذُنَـا ... عَقِيْدَتَـهُ فَهْـيَ الشِّـفَاءُ مِـنَ الـضُّرِّ
وَأَغْنِـيْ بِـهِ مَـنْ لَيْـسَ يُنْعَـتُ غَـيْرُهُ ... بِحُجَّـةِ إِسْـلامٍ فَيَالَـكَ مِـنْ فَخْـرِ

قال : « **يعني أن الإمام الغزالي حرر عقيدة الأشعري** » .

أقول : يعني شرحها وبيَّنها وفصلها .

قال : « **وعقيدته كلها حق ، وعقائد غيره فيها حق وفيها باطل ، وإنما فاقت غيرها ؛ لأن معناها ومبناها قول : آمنت بالله ، وبما جاء عن الله ، على مراد الله . والإستقامة على ذلك** » ، أي والتحقق فيه ظاهراً وباطناً .

و قوله : « إن الإمام مالك تتبع ما عليه أهل المدينة من الهدي وأخذ بهم بجهدهم بما عليه رسول الله ﷺ وأصحابه حتى دعي كل من كان مُتَّبعاً لهم مالكي ، ونِعْمَ هذا الهدي ، وما أحسن حال متبعه » .

وقد سمعت سيدنا عبدالله غير مرة يقول : « لولا أن سلفنا من السادة آل باعلوي أخذوا بمذهب الإمام الشافعي ، لكنَّا أخذنا بمذهب مالك ، لأن عمدته ما عليه أهل المدينة ، ونِعْمَ المعتمد ، ولكن الشافعي مالكي ، والمالكي شافعي » ، يعني كلهم على الحق ، ومراده يعني ما نريد الخروج عن الإقتداء بسلفنا والهدي بهديهم ، ولكن سبيل الحق يجمعهم كلهم ، وهو قوله : « ولكن الشافعي مالكي والمالكي شافعي » .

وقال الشيخ الغدامسي الأندلسي في شرحه على « أم البراهين » : « وواضع هذا العلم - أي علم العقائد - هو الله سبحانه لأنه من أقسام الشرع ، وواضع الشرع الشارع . وأما هذه العقائد السنية المشتملة على براهين وحجج وتفصيل المجملات ودفع الشبهات فواضعها الإمام أبو الحسن الأشعري» ، وذكر نسبه إلى أبي موسى الأشعري الصحابي كما تقدم .

قال : « وهو أول من دونها واستنبطها ، فكان أول من دوَّن العقائد على طريق الكتاب والسنة وما انطوى عليه إجماع الصحابة ، وجَرَتْ عليه أقوال السلف ، وكان هو المجدد لهذه الأمة أمر دينها على رأس المائة الثالثة ، على ما يشير إليه قوله ﷺ : إن الله يبعث على رأس كل مائة سنة من يجدد لهذه الأمة أمر دينها » .

وأما قبل الأشعري فلم تُستنبَط وتُدَوَّن ، كما قال السعد في شرحه لعقيدة النسفي ، و نصه فيه : وقد كانت الأوائل من الصحابة والتابعين رضي الله عنهم أجمعين لصفاء عقايدهم ببركة صحبة النبي ﷺ وقرب العهد بزمنه ، ولقلة الوقائع والإختلافات ، وتمكنهم من مراجعة الثقات ، مستغنين عن تدوين علمَي أصول الدين وفروعه ، وترتيبهما أبواباً وفصولاً ، وتقرير مقاصدهما فروعاً وأصولاً ، إلى أن حدثت الفتن بين المسلمين ، وبُغي على أئمة الدين ، وظهر اختلاف الآراء والميل إلى البدع والأهواء - أي حيث كانت البدع في الخلفاء والوزراء والأمراء فكان الناس الأتباع لهؤلاء الرؤساء، كما كان المأمون يقول بخلق القرآن ويجبر الناس بالقهر على هذا القول ، كما أنه امتحن الإمام أحمد على أن يقوله ، وأوصى بذلك عند مماته أخاه الخليفة بعده المعتصم ، وغير ذلك - فكثرت الفتاوى والوقعات والرجوع إلى العلماء في المهمات ، فاشتغلوا بالنظر والإستدلال والإجتهاد والإستنباط، وتمهيد القواعد والأصول وترتيب الأبواب والفصول ، وتكثير المسائل بأدلتها ، وإيراد الأسئلة بأجوبتها ، وتبيين الأوضاع والإصطلاحات ، وإظهار المذاهب والإختلافات اقتضاءً للمراد منه ، فلما كان كذلك جاء عطاء ومعبد إلى الحسن البصري ، وقالا له : يا أبا سعيد هؤلاء الملوك يسفكون دماء

المسلمين ويأخذون أموالهم ويقولون إنما تُجرى أعمالنا على قدر الله تعالى . وظهرت طائفة يكفرون مرتكبي الكبيرة ، وطائفة يقولون لا تضر مع الإيمان كبيرة .

وسأل أيضاً رجل غيرهما الحسن ، وقال : يا إمام ظهرت في هذا الزمان جماعة يقولون لا تضر مع الإيمان معصية كما لا تنفع مع الكفر طاعة ، فما تعتقده من ذلك ؟ فأطرق الإمام ساعة مفكراً في الجواب ، فبادره واصل بن عطاء بالجواب فقال : أنا لا أقول صاحب الكبيرة مؤمن مطلقاً ولا كافر مطلقاً . فأبى له الإمام ذلك ، فاعتزل الإمام وقام إلى اسطوانة في المسجد - أي وَاصِل - يقرر عندها مذهبه الفاسد ، ويُثبِت المنزلة بين المنزلتين ، ويقول الناس ثلاثة أقسام : مؤمن ، وكافر ، ولا مؤمن ولا كافر . وهو صاحب الكبيرة إذا مات بلا توبة . فهو أول المعتزلة ، وسُمُّوا بالمعتزلة ، لأن الحسن إذا سُئِلَ عن وَاصِل ، قال : اعتزلنا واصل . و ذلك الإعتزال في نحو المائة من الهجرة .

ثم أخذ مذهب الإعتزال عن واصل وأصحابه جماعة ، إلى أن انتهت رئاسته إلى الجبائي في قرب المائتين من اعتزال واصل ، وكان ممن أخذ مذهب الإعتزال عن الجبائي الإمام الأشعري ، وبقي على ما أخذه عنه من الإعتزال أربعين سنة من عمره ، ولم يفارق الجبائي في هذه المدة ، وكان صاحب نظر في المجالس والمناظرات ، وذا إقدام على الخصوم ، وكان أبو علي الجبائي صاحب تصنيف وقلم ، إذا صنَّف أتى بالعجب العجاب ، وإذا حضر المجلس والمناظرات لم يكن بمرضي ، وكان إذا دهمه الحضور في المجالس والمناظرات يبعث تلميذه الأشعري ويقول له : نب عني .

ولم يزل على ذلك زماناً طويلاً ، إلى أن مضى من عمره أربعون سنة ، وتمَّ عقلُهُ وصفى لُبُّهُ ، ودخل عليه شهر رمضان قال : « فبينما أنا نائم في العشر الأول من رمضان ، رأيت المصطفى ﷺ في المنام ، فقال لي : يا علي انظر المذاهب المروية عني ، فإنها الحق . فلما استيقظتُ دخل عليَّ أمرٌ عظيم ، ولم أزل مفكراً مهموماً لرؤياي ، ولما أتى عليه من إيضاح الأدلة في خلاف ذلك - أي في خلاف مذهبه عن الجبائي - حتى كان العشر الوسط من رمضان ، فرأيت النبي ﷺ في المنام ، فقال لي : ما فَعَلْتَ فيما أَمَرْتُكَ به ؟ فقلت : يا رسول الله ، وما عسى أن أفعل ، وقد خرَّجت للمذاهب المروية عنك وجوها يحتملها الكلام ، واتبعت الأدلة الصحيحة التي لا يجوز إطلاقها على الباري عز وجل . فقال لي : انصر المذاهب المروية عني فإنها الحق .

فاستيقظت وأنا شديد الأسف والحزن ، وأجمعتُ على ترك الكلام ، واتبعت الحديث وتلاوة القرآن ، فلما كانت ليلة سبع وعشرين من شهر رمضان وفي عادتنا بالبصرة ، أن يجتمع للقران أهل العلم والفضل ، فيجتمعون في تلك الليلة ، فكنتُ فيهم على ما جَرَتْ به عادتنا ، فأخذني من النعاس ما لم أتمالك معه أن قمت ، فلما وصلت إلى البيت نِمْتُ وبي من الأسف على ما فاتني من ختم تلك

الليلة أمر عظيم ، فرأيت النبي ﷺ فقال لي : ما فعلت فيما أمرتك به ؟ فقلت : قد تركتُ الكلام ، ولازمتُ كتاب الله وسُنَّتك ، فقال : أنا أمرتك بترك الكلام ، أنا أمرتك بنصر المذاهب المروية عني فإنها الحق ، فقلت : يا رسول الله ، كيف أدع مذهباً تصوَّرْتُ مسائله وعَرَفْتُ أدلته منذ ثلاثين سنة لرؤيا ؟ فقال لي النبي ﷺ : لو لا أني أعلم أن الله تعالى يمدك بمدد من عنده لمَّا أمرتُك به . وفي رواية: لما قمت عنك حتى أبين لك وجوهها ، فكأنك تعد إتياني إليك رؤيا إنك لا تراني في هذا المعنى بعدها ، فَجِدّ فيه فإن الله تعالى سيمدك بمدد من عنده .

قال : فاستيقظتُ وقلت : ماذا بعد الحق إلا الضلال . فأخذتُ في نصرة الأحاديث في الرؤية والشفاعة وغير ذلك ، فأمدني الله تعالى بمدد من عنده ، فكان يُفتَح عليَّ من المباحث والبراهين شيء، والله ما سمعته من شيخ قط ، ولا رأيته في كتاب ، فعلمتُ أن ذلك من مدد الله تعالى الذي بشرني به رسول الله ﷺ » .

فغاب على الناس في بيته خمسة عشر يوماً ، ثم خرج إلى الجامع وصعد المنبر ، وقال : « معاشر الناس ، إنما تَغَيَّبْتُ عنكم هذه المدة لأني نَظَرْتُ ، فتكافَأَتْ عندي الأدلة ، ولم يرجح عندي شيء ، فاستهديت الله تعالى فهداني إلى اعتقاد ما أودعته في كتابي هذا ، وقد انخلعتُ من جميع ما كنتُ أعتقده، كما انخلعتُ من ثوبي هذا » ، وانخلَعَ من ثوبٍ كان عليه ورمى به ، ودفع الكتاب إلى الناس ، وتلقَّاه البعض بالقبول ، فصار يظهر حتى أظهره الله تعالى ، وأنار به الأرض .

وكانت المعتزلة رفعوا رؤوسهم ، فلما أظهر الله طريقة الأشعري أطرقوا رؤوسهم وخضعوا له رغماً على أنفهم ، وكان حقًّا على الله نصر المؤمنين .

ثم إن أبا الحسن الأشعري لما ترك مذهب الإعتزال - مذهب الجبائي ومن تبعه - وأظهر طريقة أهل السنة ، تناظر مع أستاذه الجبائي ، فقال له الإمام أبو الحسن : « ما تقول في ثلاثة : مات أحدهم صغيراً، والثاني كبيراً طائعاً ، والثالث كبيراً كافراً » ، فقال له الجبائي : « أما الطائع ففي الجنة والدرجات، وأما الكافر ففي النار والدركات ، وأما الصغير ففي الجنة » ، فقال له الأشعري : « يقول الصغير : كان الأصلح لي أن تميتني كبيراً ، فأنال الدرجات » ، قال الجبائي : « يقول له الرب : علمتُ أنك لو كَبُرْتَ كَفَرْتَ فدَخَلْتَ النار ، فكان الأصلح أن أميتك صغيراً » ، قال له الأشعري : « فيقول له الكافر - بل أهل النار - : كان الأصلح لنا أن تميتنا صغاراً ، فماذا يقول الرب ؟ » ، فلما ألزمه الحُجَّة ولم يُصِب جواباً ، قال له : « أبِكَ جنون ؟ » ، قال الإمام : « لا ، ولكن وقف حمار الشيخ في العقبة » .

فأحيا الإمام مذهب أهل السنة ، فسُمِّيَ هو ومن تبعه بأهل السنة والجماعة ، واشتهروا بهذا الإسم في سائر الأقطار من المغرب والسودان ومصر والشام والعراق وخراسان والحرمين الشريفين ، وأما

ديار ما وراء النهر وهم أهل سمرقند وما فوقها إلى البحر المحيط ، فالمشهور فيها الإمام أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي الحنفي ، نسبة إلى ماتريد : محلة بسمرقند ، وكلاهما على هدى ونور، وإن كان طريق الأشعري هو المقدم عندنا . وليس بينهما اختلاف إلا في سبعٍ من المسائل ، ليست من أمهات المسائل ، حتى يكون الخلاف فيها مؤدياً إلى التباين والتناقض في أصول الدين ؛ بل هي من الفروع في علم الكلام ، والخلاف في أكثرها لفظي ، انظرها في شرح الشيخ عبدالسلام اللقاني على عقيدة أبيه ، وفي شرح شيخنا على عقيدة الشيخ المغربي .

انتهى ما أردنا نقله من شرح الغدامسي على « أم البراهين » .

ومن جملة السبع المسائل التي فيها الخلاف بين الأشعري والماتريدي : زيادة الإيمان وعدمها .

قال الأشعري : الإيمان يزيد وينقص ، كما قال تعالى : ﴿لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا﴾ .

وكل الدلائل الشرعية من الكتاب والسنة شاهدة بزيادته ونقصانه ، وفي الحديث : « لو وزن إيمان أبي بكر بإيمان الأمة لرجحها » ، والجمع بين القولين في هذه المسألة : أن الإيمان الذي أنزله الله إلى خلقه على ألسنة رسله شيء واحد في نفسه ، ولكن تأثر القلوب به يختلف اختلافاً كثيراً ، فليس إيمان الخواص - أي كثرة تأثرها به - كإيمان العوام في تأثرها به ، ومثلوا له بالماء إذا وقع بأرض دَمِثَة تأثرت به وتَشَرَّبَت ، لا كالأرض القوع الصلبة ، فإن حده منها أعلاها الملامس له دون باطنها . فاعلم ذلك .

والجبائي ومن هو على مذهبه الإعتزال القبيح يعتقدون أنه يجب على الله مراعاة ماهو الأصلح لعبده ، على ما مثل به في الأشخاص الثلاثة ، فقاتلهم الله على هذه المقالة ما أشنعها وأبشعها ، فقد دلت على عدم ديانتهم وسخافة عقولهم ، فمن يوجب على الله ؟! وإنما هو سبحانه الموجب على خلقه امتثال أوامره ونواهيه .

قال الإمام الغزالي نفع الله به في عقيدته - التي قال فيها سيدنا عبدالله الحداد : « **على كثرة ما رأينا ووقفنا عليه من العقائد ، ما رأينا أحسن من عقيدة الإمام الغزالي نفع الله به ، ولا أنفع منها للمبتدئ والمنتهي ، ولكن منتهي أهل هذا الزمان مبتديء** » - قال في العقيدة المذكورة : « ولا يجب على الله لأحد حق ، وإنما حقه سبحانه واجب على خلقه بما أوجبه عليهم على ألسنة رسله وأنبيائه » .

فانخلع الإمام الأشعري من هذا المذهب القبيح كما انسلخ من ثوبه المذكور ، ورتَّب عقيدة أهل السنة على ما في الكتاب والسنة ، فصار كل من هو عليها يقال له أشعري ، فلفظ الأشعرية وسم خاص لأهل السنة ، وكفى لهم شرفاً أن الله ورسوله شاهدَين لهم بأنهم على قانون الحق في العقائد والأفعال .

وهنا ناس مخذولين لا يرضون بعقيدة الأشعري ، ولا ينتسبون إليها ، ولو قُلتَ لأحدهم : أماتك الله على عقيدة الأشعري ، غضب ولا يرضى بذلك .

ورأيتُ في بعض مناظرات الإمام الأشعري مع الجبائي ، قال له الجبائي : « أرأيتَ إن منعني الهدى، وحكم عليَّ بالرَّدى ، أتراه أَحْسَنَ إليَّ أم أساء ؟ » ، قال له الأشعري : « إن مَنَعَكَ ما هو لك فقد أساء ، وإن منعك ما هو له ، فيختص برحمته من يشاء » .

وذكر الرازي عن أبي الحسن الأشعري أنه كان تلميذاً لأبي علي الجبائي المعتزلي ، ثم تركه ومذهبه وصار يعترض عليه ، وعظمت المنافرة بينهما ، فجلس أبو علي للوعظ يوماً ، وجلس الأشعري في آخر الناس خفية ، وقال لامرأة من الحاضرات قولي له : « كان لي ثلاثة من الولد ، أحدهم صالح والآخر فاسق والثالث صبي ، فماتوا ، أخبرني أيها الواعظ عنهم » ، فقال : « الصالح في الجنة ، والفاسق في النار ، والصبي من أهل الإسلام » ، فقال الأشعري ، قولي له : « إذا أراد الصبي أن يذهب إلى عند أخيه الصالح فهل يمكنه ذلك ؟ » ، قال : « لا ، لأن الله يقول : إنما وصل أخوك الصالح الجنة بعمله» ، فقال لها الأشعري : « قولي له : لو قال الصبي ليس لي ذنب ، فقد توفَّيتني قبل البلوغ ، ولو أحييتني لفعلت من الطاعات مثل أخي » ، فقال : « إن الله يقول له : لو علمتُ ذلك منك لأحييتُك ، ولكن علمتُ منك لو عشتَ لكفرتَ فتستوجب النار ، فراعيت مصلحتك » ، فقال الأشعري : « قولي له : إن ابني الكافر رفع رأسه من جهنم ، وقال : يا رب ، راعيتَ مصلحة أخي الصغير ، وما راعيتَ مصلحتي ، فلو توفَّيتني صغيراً قبل بلوغي واستحقاقي العذاب » .

فلم يقدر الجبائي على الجواب ، ثم حدَّق نظره فرأى الأشعري ، فعرف إن السؤال كان منه ، فمات بعد ذلك بقليل . انتهى ، ذكره في كتاب « نزهة المجالس » .

أقول : قد سبقت إرادة الله بما أراد لكل عبد قبل وجوده ووجود عمله ، فأراد بأقوام جزاء الخير قبل وجودهم وقبل وجود أعمالهم ، فلما أوجدهم أجرى عليهم أفعال الخير ثم يجزيهم عليه ، وأراد لأقوام جزاء الشر قبل وجودهم وقبل وجود أعمالهم ، فلما أوجدهم أجرى عليهم أفعال الشر وسيجزيهم عليها ، وسبق في علمه العفو عن ما أراد لمن أراد ، فهذا هو الجمع بين الشريعة والحقيقة ، وصاحبه المتحقق بالحق ، وأما القول الأول فهو مجرد حقيقة ، وتقدم إن ذلك زندقة .

ثم قال الغدامسي : « إعلم أن علم التوحيد فضله مشهور ، ولا يحصره عدد ولا يناله عد ولا لساحته حد ، وكيف لا يكون كذلك وهو الموصل إلى معرفة الله تعالى ومعرفة رسله ، وبيان صفاته ، وتحقيق توحيده تعالى ، وتنزيهه عما لا يليق به سبحانه وتقدست صفاته . واعلم أن شرف العلم بشرف

معلومه ، ولا أشرف من الله تعالى وصفاته الذي هو معلوم هذا الفن .

ويدل على فضله الكتاب والسنة والإجماع ، أما الكتاب فقوله تعالى : ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلْعِلْمِ﴾ ، و ناهيك بأمرٍ بدأ فيه تعالى بنفسه ، وثنَّى بملائكة قدسه ، وثلَّث بالعلماء من خلقه ، وقال جلَّت قدرته : ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، وقال تعالى : ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ﴾ ، قال المفسرون : الحكمة هي العلم ، خصوصاً علم التوحيد الذي هو أشرف العلوم . وقال تعالى : ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ ، خصوصاً علم التوحيد الذي هو أشرف العلوم، وتلك الدرجات ، قال ابن عباس : بين المؤمن العالم والمؤمن غير العالم سبعمائة درجة ، بين كل درجة ودرجة خمسمائة عام . وقال تعالى : ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ ، وناهيك بشهادة الله تعالى لهم بالعقل، وحضَّ الله تبارك وتعالى في القرآن على الفِكْر والإعتبار الذي هو منشأ هذا العلم في نحو خمسمائة موضع صريح أو كالصريح .

وأما السنة فمن ذلك قوله ﷺ : بينما رجل مُسْتَلْقٍ على فراشه ، إذ رفع رأسه ينظر إلى السماء والنجوم ، فقال : أشهد أن لك ربًّا خالقاً ، اللهم اغفر لي . فنظر الله إليه فغفر له .

ومنها قوله ﷺ : فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أمتي . وقال ﷺ : إن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضاً بما يصنع . أي تكف عن الطيران تواضعاً له ، أو لتسمع ما تستفيده منه ، خصوصاً علم التوحيد الذي هو أشرف العلوم . وقال ﷺ : ليس بين العلماء والأنبياء إلا درجة واحدة . وقال ﷺ : يقال للعابد يوم القيامة : ادخل الجنة ، ويقال للعالم : تشفَّع فيمن تريد أو في ما تريد ، ولو كان مثل عدد النجوم في السماء . والآثار في ذلك جمة .

وأما الإجماع فقد اجتمعت الأمة قاطبةً على أنه أفضل العلوم ، إذ معلومُهُ أفضل المعلومات ، وغايته أفضل الغايات ، وموضوعه أفضل الموضوعات . وما نُقِلَ عن السلف الصالح كالإمام مالك والشافعي وأحمد وسفيان وأبي حنيفة من الطعن في علم الكلام والمنع منه ، ليس هو هذه العقائد السنية ، بل إنما هو غوامض الحكماء والمتفلسفين ، المفضِية إلى فساد عقائد المسلمين ، وذلك أن العقايد أول من دوَّن فيها ، واستنبطها الإمام أبو الحسن الأشعري ، واستنباط الأشعري لها كان بعد مَن ذُكِرَ من الأئمة ، لأن الإمام الأشعري أُختُلِفَ فيه : هل هو مقلِّد في الفروع مالكاً أو الشافعي ؟ والأصح أنه مالكيًّا ، كما جزم به ابن عساكر في مناقبه ، وذكر أيضاً إن الإمام الأشعري كان على رأس المائة الثالثة ، والشافعي على رأس المائة الثانية ، وكلٌّ من مالك وسفيان وأبي حنيفة قبل الشافعي ، وأحمد معاصر للشافعي ، فظهر بهذا أن الأئمة قبل الأشعري المستنبط لهذه العقائد السنية ، فحينئذ فكيف يتصور أن يطعنوا فيها ويمنعوا منها وهي لم توجد إذ ذاك ، وكيف يتصور أن يصدر من شريف حضرة

الأئمة المجتهدين وقوع النهي عن ما هو أصل الواجبات وأساس الشرعيات ، الذي موضوعه أشرف الموضوعات ، ومعلومه أجل المعلومات الذي هو ذات الله تعالى ، وما اتصف به مِن عَلِيِّ الصفات ، وغايته أفضل الغايات التي هي الفوز بالسعادات الأبدية .

ومما يدل على مزيد فضله ما نُقِلَ عن الإمام ابن عرفة : أنه مرض مرضاً أشرف فيه على الموت ، فدخل عليه تلميذه الأُبِّي مع بعض الطلبة ، فجعل يحضُّهم على الجِدِّ في الطلب ، ويقول : العلم ينفع في الدنيا والآخرة . ثم قال لهم : غُشِيَ عليَّ في مرضي هذا فَتَمَثَّلَتْ لي طائفتان : إحداهما صغرى عن يميني، والأخرى كبرى عن يساري ، والتي عن يميني تُرَجِّح الإيمان بالله تعالى ، والتي عن يساري تُرَجِّح الكفر وتورد لي شُبهاً . فيوفقني الله تعالى للجواب في تلك الشبه بما أعرف من قواعد العقائد، فلما انجلى عني ذلك ، عَلِمتُ أن توفيقي لذلك إنما هو ببركة العلم ، وأن الله ينفع به في الدنيا وفي الآخرة ، ولو لم يكن من منافعه إلا هذا لكان كافياً في الحث على الإشتغال به .

وأيضاً يموت المرء على ما عاش عليه ، ويُبعَث على ما مات عليه ، ولا أهم من أن يموت المرء على التوحيد ويُبعَث عليه ، وأيضاً فإن فتَّانَي القبر يسألان عن مقاصد التوحيد ، فإن أجابهما يقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك به مقعداً من الجنة ، فيراهما معاً ، وفي رواية يقال له : نَمْ نَوْمَةَ العروس، لا يوقظه إلا أحب أهله ، أو أحب الناس إليه ، ويفسح له في قبره تسعون ذراعاً ، ويملأ عليه خضراً إلى يوم يبعثون .

و إن لم يُجِبْهما على مقاصد التوحيد ، بل أجابهما جواب المقَلِّد ، بأن قال لهما : سمعت الناس يقولون شيئاً فَقُلْتُه ، فيقولان له : لا دَرَيْتَ ولا تَلَيْت . ويضربانه بمِرْزَبَّةٍ من حديد - وفي رواية بمطراق من حديد - ضربةً ، فيصيح صيحة يسمعها كل أحد إلا الثقلان .

والدليل على أن العبد يكون إذ ذاك على ماهو عليه الآن ، ما روي عن النبي ﷺ أنه كان يخبر أصحابه بأخبار فتَّانَي القبر وسؤالهما ، فقال له عمر رضي الله عنه : أيأتياني وأنا كما أنا الآن يا رسول الله؟ فقال : نعم ، فقال : إذن والله أخاصمهما ، أو أكفيكهما . فرآه ابنه عبدالله بعد موته فقال له : ما كان بينك وبين فتَّانَي القبر ؟ ، فقال : أَتَيَانِي فقالا لي : مَن ربك ؟ ومَن نبيك ؟ ، فقلت : ربي الله ، ونبيي محمد ، فمن ربكما أنتما ؟ ، فنظر أحدهما إلى الآخر فولَّيَا عني » .

أقُولُ : رأيت في غير هذا الموضع لما قال : « أيأتياني وأنا كما أنا الآن » ، فقال له رسول الله ﷺ : « نعم » ، فقال : « إذاً أكفيكهما بفيهما الحجر » ، فضحك النبي ﷺ وقال : « لقد أخبرني جبريل أنهما يأتيانك ، فيقولان لك : مَن ربك وما دينك ومن نبيك ، فتقول أنت لهما : الله ربي ، فمن ربكما ؟ والإسلام ديني فما دينكما ؟ ومحمد نبيي فمن نبيكما ؟ فينظر كلٌّ منهما لصاحبه ثم يقولان لك : يا عجباً

ما ندري نحن أُرسِلنا إليك أم أنت أُرسِلتَ إلينا ! ثم يُولِّيان عنك » .

وقوله عن ابن عساكر : أن الإمام أبا الحسن الأشعري كان مالكيًّا ، قد تقدم في قول اليافعي عن ابن عساكر وغيره أنه كان شافعياً ، وذكر له دلالات وعلامات تدل على أنه كان مقلداً في الفروع للإمام الشافعي ، وقد تداعاه الفريقان ، وكلٌّ منهما ترجم له في كتب تراجمهم لمشايخهم أنه منهم .

وقاعدة : إن الرجل الكامل كلٌّ يدعيه .

كما ذُكِرَ أن رجلاً من الزيدية المبتدعة ، رأى كلاماً للإمام الغزالي فأعجبه ، فقال : « رحم الله الغزالي لقد كان زيدياً » .

قوله في « رسالة المعاونة » : « **والماتريدية كالأشعرية فيما تقدم** » ، **قال** : « **هم جماعة من الحنفية ، وهم كالأشعرية إلا في مسائل قريبة اختلفوا فيها ، لكن الإختلاف لفظي** » هـ .

أقول : اختلف الإمام الأشعري مع الإمام الماتريدي في ثلاث مسائل :

إحداها في زيادة الإيمان و نقصانه ، فقال الأشعري : يزيد وينقص لقوله تعالى : ﴿ لِيَزْدَادُوٓاْ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ ﴾، ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْاْ هُدًى﴾ ، وفي الحديث : « الإيمان يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية » .

وقال الماتريدي : الإيمان شيء واحد لا يزيد ولا ينقص ، وإنما معنى زيادته ونقصه زيادة تأثر القلوب به ونقصه كالمطر ، فإنه شيء واحد لا يختلف بزيادة أو نقص ، وإنما الأراضي المتأثرة به تختلف، فرُبَّ أرض دمثة تتشرب به ، ورُبَّ أرض صفاة إنما يكون في أعلاها لا تتشرب به .

الثانية مما اختلف فيه الإمامان الأشعري والماتريدي : صفات الأفعال ، كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والإنعام والإنتقام والإحسان والفضل والثواب والعقاب والحشر والنشر ، وكل صفة كان فعله بها موجوداً ، غير أن وصفه لنفسه بجميع ذلك قديم ، قال الماتريدي : قديمة . وقال الأشعري: حادثة . قال في شرح « جمع الجوامع » : ليست أزلية خلافاً للحنفية ، بل هي حادثة ، أي متجددة ، لأنها إضافات تعرض للقدرة ، وهي تعلقاتها بوجودات المقدورات لأوقات وجدانها ولا محذور في اتصاف الباري سبحانه وتعالى بالإضافات ، ككونه قبل العالَم ومعه وبعده ، وأما الصفات الذاتية فقديمة إجماعاً ، وهي ما دل عليها فعله لتوقفه عليها ، من قدرة وعلم وحياة وإرادة ، أي وسمع وبصر وكلام ، فقول الأشعري صفات الذات قديمة وصفات الأفعال حادثة ، وقول الحنفية وهم الماتريدية الكل قديمة من صفات الذات وصفات الافعال ، فصفات الذات هي التي لا تنفك عنها فهي دائمة الوجود مستحيلة العدم ، وهي هذه المذكورة في هذا البيت :

حَيٌّ عَلِيمٌ قَدِيرٌ وَالْكَلَامُ لَهُ فَرْدٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ مَا أَرَادَ جَرَى

يعني الحياة والعلم والقدرة والإرادة والسمع والبصر والكلام ، وهي قديمة بالإجماع عند الأشاعرة والماتريدية ، وأما صفات الفعل المتقدم ذكرها من الخلق والرزق فعند الأشعري حادثة لأنها إضافات تعرض للقدرة ، وهي أزلية أسمائية راجعة إلى صفات الأفعال من حيث رجوعها إلى القدرة، فالخالق مثلاً من شأنه الخلق ، أي هو الذي بالصفة التي بها يصلح الخلق وهي القدرة ، كما يقال : الماء في الكوز مروٍ - أي هو بالصفة التي يحصل بها الإرواء عند مصادفة الباطن - وفي السيف في الغمد قاطع ، أي هو بالصفة التي يحصل بها القطع عند ملاقاة المحل ، فإن أريد بالخالق من صدر منه الخلق، فليس صدوره أزلياً .

ذكر ذلك الغزالي وبيَّن رجوع الأسماء كلها إلى الذات وصفاتها في « المقصد الأسنى » .

والثالثة : قال ابن حجر الهيتمي في « شرح الأربعين » : قال جماعة من الحنفية : الإيمان مخلوق، وكلام أبي حنيفة صريح فيه ، وقال آخرون منهم : غير مخلوق . وهما متفقان على أن الأفعال كلها مخلوقة لله تعالى ، وبالغ جماعة منهم فكفَّروا من قال بخلقه ؛ لما يلزم عليه من خلق كلامه تعالى ، لأنه سبحانه تعالى قال : ﴿فَٱعۡلَمۡ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾، فالمتكلم بها قاطع بكلامه بما ليس بمخلوق ، كما أن قارئ آية يصير قارئاً لكلامه سبحانه وتعالى حقيقة . وَرُدَّ بأن هذا جهل وغباوة ، إذ الإيمان وفاقاً : التصديق بالجنان أو مع الإقرار باللسان ، وكلٌّ منهما فعل العبد ، وهو مخلوق لله تعالى .

وأيضاً فقد قال الفقهاء : لا يكون المقروء قرآناً إلا بالقصد . وأيضاً يلزمهم أن كل ذاكر ؛ بل كل متكلم وافق كلامه جزءاً من القرآن فقد قام به ما ليس بمخلوق من معاني كلامه تعالى ، وذلك مما لا يقوله ذو لب . وأيضاً المتلفِّظ بالشهادتين لم يقصد به قراءة ؛ بل إقراراً بالتصديق .

ثم ما مر من القول بعدم خلق الإيمان لم تنفرد به الحنفية ، بل نقله الأشعري عن أحمد وجماعة من أهل الحديث ، ومال إليه ، لكن وجَّهَهُ بغير ما مرَّ ، وهو أن المراد بالإيمان حينئذ ما دل عليه وصفه تعالى بالمؤمن ، فإيمانه هو تصديقه في الأزل بكلامه القديم لإخباره بوحدانيته ، وليس تصديقه هذا محدثاً ولا مخلوقاً ، تعالى أن يقوم به حادث ، بخلاف تصديقه لرسله بإظهار المعجزة ، فإنه من صفات الأفعال ، وهي حادثة عند الأشاعرة قديمة عند الماتريدية . وبذلك علم أنه لا خلاف في الحقيقة ، لأنه إن أريد بالايمان المكلف به فهو مخلوق قطعاً ، أو ما دل عليه وصفه تعالى بالمؤمن فهو غير مخلوق قطعاً . انتهى .

من قوله : الثالثة ، منقول من كتاب « الدر الثمين والمورد المعين على الضروري من علوم الدين» للشيخ الإمام محمد بن أحمد بن محمد الشهير بميارة ، في شرح « النظم » المسمى بالمرشد المعين على

الضروري من علوم الدين ، تأليف الإمام العلامة الحاج الأبر أبي محمد عبدالواحد بن عاشر رحمه الله، وما قبل ذلك من الثانية من التتائي على شرح رسالة ابن أبي زيد القيرواني المالكي .

والكلام في الأولى من قوله : إحداهما ، فمن قول كاتبه سامحه الله .

قال في « الدر الثمين » : « فائدة ، قال الرصّاع ناقلاً عن الشيخ أبي محمد بن عبدالعزيز بن عبدالسلام، قال : ومعنى الصلاة في آية : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ وَمَلَٰٓئِكَتَهُۥ يُصَلُّونَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ صَلُّواْ عَلَيْهِ وَسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ أن صلاتنا وسلامنا لا يزيدان في رفعته وبلوغ أمنيته ، فإن مثلنا لا يشفع لعظيم القدر عند ربه ، ولكن الله سبحانه أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا وأنعم علينا ، ولكن لما أحسن إلينا رسول الله ﷺ إحساناً لم يحسن إلينا أحد كإحسانه ، وما أكرمنا مخلوق مثل إكرامه ، ولكنا عاجزين عن مكافأة سيد المرسلين وحبيب رب العالمين ، أَمَرَنا ربُّنا سبحانه أن نرغب إليه بأن يصلي هو عليه ، لتكون صلاة مولانا عليه مكافأة منه سبحانه له عنا ، لإحسانه إلينا وإفضاله علينا ، إذ لا إحسان أفضل من إحسانه إلا إحسان خالقه المنعم ببعثه رحمة إلى خلقه ﷺ » .

« فرع » قال الإمام أبي عبدالله الإبِّي في شرح مسلم : « وما يُستعمل من لفظ السيد والمولى حسن ، وإن لم يَرِد ، والمستند فيه ما صح من قوله ﷺ : أنا سيد ولد آدم . وانظر لو قال : اللهم صلِّ على محمد عدد كذا ، هل يثاب بعدد تلك الأعداد ؟ . وكان الشيخ يقول : يحصل له ثواب أكثر من ثواب من صلى مرة واحدة ، لا ثواب من صلى ذلك العدد » . انتهى .

قوله : « وإن لم يرد » ، أي في لفظ الصلاة ذلك العدد ، بدليل قوله : « والمستند فيه .. إلى آخره » .، ويعني بالشيخ الإمام الشهير أبا عبدالله محمد بن عرفة التونسي .

وفي حكم الصلاة على النبي ﷺ ثلاثة أقوال : قال ابن القصار : « المشهور عن أصحابنا أن ذلك واجب في الجملة على الإنسان وفرض عليه ، يأتي به مرة في دهره مع القدرة على ذلك » .

وقال ابن عطية : « هي في كل حال واجبة وجوب السنن المؤكدة التي لا يسع تركها ، ولا يغفلها إلا من لا خير فيه » ، وقال غيره : « تجب كلما ذُكِرَ ﷺ » ، واختاره الطحاوي من الحنفية والحليمي من الشافعية .

قال الفاكهاني : « الظاهر من الأدلة تساوي حكم الصلاة والسلام في الوجوب وأن الواجب من ذلك المرة الواحدة في العمر على المختار الذي عليه الجمهور » .

وفي جواز التسمية باسمه ﷺ خلاف قال الإمام أبو عبدالله محمد بن مرزوق التلمساني في شرح البردة عند شرح قوله :

فَـإِنَّ لِيْ ذِمَّـةً مِنْـهُ بِتَسْـمِيَتِيْ مُحَمَّداً وَهُوَ أَوْفَى الخَلْقِ بِالذِّمَمِ

في كلام الناظم دليل على الترغيب في التسمية باسمه ﷺ ، لأنها من الذمم التي يُمَتُّ بها إليه في رجاء شفاعته ﷺ ، وذلك يستلزم جواز التسمية باسمه ﷺ ، وقد اختلف في ذلك ، فمن مجيز التسمية باسمه والتكني بكنيته ، ومن مانع لهما ، ومن مجيز للتسمية دون التكنية .

والثاني هو الظاهر من مذهب عمر رضي الله عنه ، فإنه قال لمن تسمى بمحمد : « لا أسمع محمداً يُسَبُّ بك أبداً » ، وقالت الأنصار للذي سمَّى ولده أبا القاسم : « ولا نُكَنِّيك أبا القاسم ، ولا نلقبك بذلك عيناً » ، والأول هو الذي ذهب إليه الأكثر ، لتسمية كثير من السلف بذلك ، والتكني به .

ووجه القول الثالث قوله ﷺ للذي نادى : « يا أبا القاسم » ، فالتفت إليه ﷺ فقال : « لم أَعْنِكَ يا رسول الله » ، فقال ﷺ : « تَسَمُّوا باسمي ، ولا تَكَنُّوا بِكُنْيَتِي » ، وفيه تأويلان حمل على الندب أو الإباحة ، ومنهم من أجازه بعد موته ، لا في حياته ﷺ لإرتفاع هذا المحذور . وقد وردت آثار في فضل التسمية بمحمد ﷺ ، منها ما ذكر القاضي عياش عن شريح بن يونس أنه قال : « إن لله ملائكة سياحين يكتبون عبادة كل دار فيها أحمد ومحمد إكراماً لمحمد ﷺ » ، وذكر أحاديث كثيرة .

وفي الصلاة على غير الأنبياء ثلاثة أقوال : بالجواز والمنع والكراهة ، قال الإمام أبو عبدالله الأبِّي : « قال بعضهم : الخلاف في الصلاة على غير الأنبياء إنما هو في الإستقلال ، نحو : اللهم صل على فلان، وأما بالتبع نحو اللهم صل على محمد وأزواجه وذريته فجائز .

وعلى الجواز فإنما يقصد الدعاء ، لأنها بمعنى التعظيم ، خاصة بالأنبياء ، كخصوص عز وجل بالله سبحانه ، فلا يقال : محمد عز وجل ، وإن كان ﷺ عزيزاً جليلاً ، وكذا السلام هو خاص به ﷺ ، فلا يقال أبوبكر عليه السلام » ، انتهى .

فائدة : قال الإمام جلال الدين السيوطي رحمه الله : قال ابن عبدالبر في الإستذكار : « لا يجوز لأحد إذا ذُكِرَ النبي ﷺ أن يقول : رحمه الله ، لأنه قال : من صلى عليَّ ، ولم يقل : من ترحَّم عليَّ ، ولا من دعا لي ، وإن كان معنى الصلاة الرحمة ، ولكنه خُصَّ بهذا اللفظ تعظيماً له ، فلا يعدل إلى غيره . ويؤيده قوله تعالى : ﴿لَا تَجۡعَلُواْ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيۡنَكُمۡ كَدُعَآءِ بَعۡضِكُم بَعۡضٗاۚ﴾ . انتهى .

وفي العلقمي : ما حاصله : أنه يجوز الدعاء بالرحمة على سبيل التبعية لذكر الصلاة والسلام ، كما في التشهد ، على وجه الإطناب والخطابة ، وأما على وجه الإفراد كما يقال : قال النبي رحمه الله ، فلا شك في منعه ، وهو خلاف الأدب ، وخلاف المأمور به عند ذِكْرِهِ من الصلاة والسلام عليه ، ولا وَرَدَ ما تدل عليه البتة ، ورُبَّ شيء يجوز تبعاً ولا يجوز استقلالاً .

قال : وقول الأعرابي : ارحمني ومحمداً ، قد يجاب عنه بأن الدعاء فيه بالرحمة على سبيل التبعية لما قبلها ، وأما حديث : اللهم اغفر لي وارحمني ونحوه ، فذلك على سبيل التواضع منه ﷺ لربه عز وجل، مع كونه سيق مساق التشريع للأمة ، ويجب علينا نحن أن نخصه بما يشير إلى تفخيمه وتعظيمه اللائق بمنصبه الشريف انتهى .

وآله ﷺ أقاربه المؤمنون من بني هاشم ، وهو قول ابن القاسم ومالك وأكثر أصحابه . وفيمن فوقهم إلى بني غالب قولان : أما ما فوق غالب فليسوا بآل .

وهو ﷺ : محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب - واسمه شيبة - بن هاشم بن عبدمناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة - واسمه عامر - بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ، كذا في الصحيح وهو متفق عليه .

وما بعد عدنان إلى آدم فمُختَلف فيه ، إلا إنهم اتفقوا على أن النسب يُرفَع إلى إسماعيل بن خليل الله إبراهيم ، وقد نظم الإمام ابن مرزوق بيتين ، رَمَزَ فيهما بالحرف الأول من كل كلمة إلى واحد من الآباء الكرام على ترتيبهم ، فقال :

عَلِقْتُ شَفِيعاً هَالَ عَقْلِيْ قِرَانُهْ ... كِتَابٌ مُبِينٌ كَسَبَ لُبِّيْ غَرَائِبُهْ

عبدالله - شيبة - هاشم - عبدمناف - قصي ... كلاب - مرة - كعب - لؤي - غالب

فِدَا مَعْشَرٌ نَفْسِيْ كِرَامٌ خَلَاصُهْ ... عَلَى الْفَهْمِ مُذْ نَبْلُ مَجْدِ عَوَاقِبُهْ

فهر - مالك - نضر - كنانة - خزيمة ... عامر - إلياس - مضر - نزار - معد - عدنان

قال كاتبه : آل النبي ﷺ على ثلاث وجوه : المذكورون في باب الزكاة من تحرم عليهم ، الذين قال النبي ﷺ فيهم : « الزكاة أوساخ أموال الناس لا تحل لمحمد ولآل محمد » ، وهم أقاربه الأدنون منه وهم بنو هاشم وبنو المطلب فقط ، المذكورون في باب النكاح أنهم في الكفاءة سواء وكلٌّ منهم كُفؤٌ

للآخر . والثاني : قبيلته التي تحويه ورهطه ، ويدخلون في ضمنها ، فالآل هنا بمعنى القبيلة ، وهم جملة قبيلة قريش . والثالث : من هو على دينه وطريقته ، وهم جملة المؤمنين .

وفي الأوسط للطبراني عن أنس أن النبي ﷺ قال : « آل محمد كلُّ تقي » .

وصحبه : كل من اجتمع به مؤمن ولو أعمى ومات على الإيمان .

وعطف الصحب على الآل في الصلاة والسلام لتشمل الصلاة والسلام من اجتمعت له الصحبة والآلية كعلي ، ومن انفرد بالصحبة فقط وليس من الآل كعثمان ، ومن انفرد بالآلية دون الصحبة كزين العابدين ، فبين الآل والصحب عموم وخصوص من وجه يجتمعان وينفردان .

تم ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيراً إلى يوم الدين ، والحمد لله رب العالمين .

فلله مـن أوقـات صـفـوٍ تـصـرَّمـت ‏ بها ظهر التثبيت في غاية اليسرِ
وأكرمنا المولىٰ بتحقيق لفظه ‏ سنيناً طوالاً لا تُعدُّ من العمرِ
بها قد تمتَّعنا بصحبة ذٰلك الـ ‏ إمام مع الشجَّار من حيثما يجري
ليالِيَ عشناها سَكِرْنا بخمرها ‏ فيا ليت أنَّا لا نفيقُ من السُّكْرِ
وقد ذلَّل المولى الصعاب بفضله ‏ فجُزنا عقاباً بالثباتِ وبالصبرِ
إلىٰ أن قضى المولىٰ بإتمام طبعه ‏ وإبرازه يختال في حُلل الفخرِ
إذا قُلتَ : تثبيت الفؤاد بدا فقد ‏ تبيَّن تاريخ الطباعة والنَّشرِ

١٣١٢ + ١٢٢ + ٧ = ١٤٤١

فنسأله التوفيق في كل حالةٍ ‏ ونسأله التثبيت في آخر العمرِ
فيا طالب التثبيت خذهُ بقوةٍ ‏ إذا شئت أن تحيا سعيداً مدى العمر

من أبرز مواضيع هٰذا المجلد

قصة الحية التي حضرت في مجلس الإمام الحداد ● كلام الإمام الحداد عن الذين تخلفوا عن القتال في صفين مع الإمام علي كرم الله وجهه ● الإرادة الأزلية والإرادة الشرعية ● كلامه عن الغزل في النظم وذكر أوصاف النساء ● ذكر من بنىٰ مسجد الهجيرة ● ذكر خادمه حيمد بن دامس الذي بنىٰ بيت الإمام الحداد ● قرابة السيد أحمد بن زين الحبشي من الإمام الحداد ● معنىٰ قوله : (من ربيناه يفوق غيره لأنَّا نربيه تربية لا يعلم بها) ● الكلام علىٰ نظم ابن الفارض وابن عربي ● حديث الأحسائي مع رجل من أهل سقطرىٰ ● الكلام على السماع وأصله وضرب العود عند كثير من الأئمة ● آخر مجلس سماع جلسه الإمام الحداد ● ذكر بعض أسماء حارات تريم القديمة وانتقال العلويين إليها ● كيفية المشابكة والتلقين ● ذكر وفاته رضي الله عنه ● ذكر كلمات ذكرها في رسالة « المريد » ورسالة « المذاكرة » ورسالة « المعاونة » ● ثم تكلم عليها في مجلس القراءة ● وغير ذٰلك كثير .

لجنة التحقيق

عبد القادر الجيلاني بن سالم الخرد ● محمد بن شيخ بن عيدروس الحداد ●
عدنان بن يحيى بن أحمد العيدروس

بالتعاون مع

عبد الله بن عبد القادر بن سالم الخرد ● عبد الله بن محمد بن شيخ الحبشي ●
حسن بن زين بن أحمد الحبشي ● عبد الرحمٰن بن عبد الله بن محمد بلفقيه

ISBN: 978 - 9933 - 39 - 085 - 3